مجمع القرآن الكريم بالشارقة

موسوعة التفسير البلاغي

المجلد الثاني

سورة البقرة من الآية 98 إلى الآية 180

مَوْسُوعَةُ التَّفْسِيرِ البَلَاغِيِّ

حكومة الشارقة Government of Sharjah
مجمع القرآن الكريم بالشارقة
HOLY QURAN ACADEMY IN SHARJAH

موسوعة التفسير البلاغي

المجلد الثاني

سورة البقرة من الآية 98 إلى الآية 180

نخبة من علماء مجمع القرآن الكريم بالشارقة

منشورات القاسمي
AL QASIMI PUBLICATIONS
2023

عنوان الكتاب:
موسوعة التفسير البلاغي، المجلد الثاني، سورة البقرة من الآية 98 إلى الآية 180
مجمع القرآن الكريم بالشارقة، الشارقة، دولة الإمارات العربية المتحدة
*
التنفيذ والنشر: منشورات القاسمي، الشارقة، دولة الإمارات العربية المتحدة
سنة الطبع: 1444هـ - 2023م

الطبعة الأولى: 2023م
*
الفهرسة الوصفية أثناء النشر:
مكتبة الشارقة العامة، هيئة الشارقة للكتاب، الشارقة، الإمارات العربية المتحدة

227.366
م ق. ت
التفسير البلاغي للقرآن: سورة البقرة من الآية 98 إلى الآية 180 [إشراف مجمع القرآن الكريم، قسم الدراسات والبحوث ؛ المدير العلمي امحمد صافي المستغانمي].-
الشارقة، الإمارات العربية المتحدة : منشورات القاسمي، 2023.
مج. 2 ، 804 صفحة؛ 24x17 سم.
ردمك : 978-9948-798-53-8
يشتمل على ارجاعات ببليوجرافية.
مج. 2 : سورة البقرة من الآية 98 إلى الآية 180.
1-القرآن - تفاسير نحوية 2- القرآن، بديع 3- القرآن، بلاغة 4- القرآن - سور وآيات 5- القرآن- ألفاظ أ- العنوان ب - مجمع القرآن الكريم (الشارقة، الإمارات العربية المتحدة).
قسم الدراسات والبحوث ج- المستغانمي، امحمد صافي

الترقيم الدولي : 978-9948-798-53-8
*
إذن طباعة رقم: MC-03-01-7984852 بتاريخ 2023/03/10م،
مكتب تنظيم الإعلام، وزارة الثقافة والشباب، الإمارات العربية المتحدة
*
الفئة العمرية : E
«تم تصنيف وتحديد الفئة العمرية التي تلائم محتوى الكتب وفقاً لنظام التصنيف العمري الصادر عن المجلس الوطني للإعلام»
*
الطباعة: AL Bony Printing Press - Sharjah, UAE
الإخراج الفني: عاصم محمد زكي «النجار»

بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

الجُزْءُ الأَوَّلُ

سُورَةُ البَقَرَةِ

﴿مَن كَانَ عَدُوًّا لِّلَّهِ وَمَلَٰٓئِكَتِهِۦ وَرُسُلِهِۦ وَجِبۡرِيلَ وَمِيكَىٰلَ فَإِنَّ ٱللَّهَ عَدُوٌّ لِّلۡكَٰفِرِينَ ٩٨﴾ [البقرة: 98]

❁ مُناسَبَةُ الآيَةِ لِمَا قَبْلَها:

لَمَّا كَانَ السَّببُ في عَدَاوَة اليهود لجِبْرِيلَ هو عدمَ إنزالِه الرِّسالةَ عليهم، نبَّه في هذه الآيةِ إلى مآلِ عداوتِهم لجبريلَ، وهو عداوةُ اللّه وعموم ملائكتِه ورُسُلِه؛ لِأَنَّ سَبَبَ الْعَدَاوَةِ هُوَ مَجِيءُ جبريلَ بِالرِّسَالَةِ فتَسَنَّى أَنْ سَجَّلَ عَلَيْهِمْ أَنَّهُمْ أَعْدَاءُ اللّهِ لِأَنَّهُ الْمُرْسِلُ، وأعداءُ المَلائِكَة لأنَّهم بِأَمْرِ اللّهِ يعمَلُون، قَالَ تَعَالَى: ﴿وَهُم بِأَمۡرِهِۦ يَعۡمَلُونَ﴾ [الأنبياء: 27]، وَسجّل عليهم أَنَّهمْ أَعْدَاءُ رُسُلِهِ لِأَنَّهُمْ عَادَوا الرَّسُولَ، فكانت معاداةُ واحدٍ من الملائكةِ معاداةً للّه وملائكتِه ورسلِه جميعًا[1].

❁ شَرْحُ المُفْرَدَاتِ:

1) ﴿وَمِيكَىٰلَ﴾: هو ميكائِيلُ، اسمُ علَمٌ على ملَكٍ من الملائكةِ، وذكر أهل اللغة أنَّ لفظ ميكائيلَ، إمَّا أنْ يكون بسيطًا غير مركّب وإمَّا أَنْ يكون مُرَكّبًا من: (مِيكا وإيلَ) كتركيبِ جِبْرائِيلَ وغيرِهما من أسماءِ الملائكةِ[2].

❁ المَعْنَى الإِجْمَالِيُّ:

تحمل هذه الآيةُ الكريمةُ وعيدًا شديدًا لكلِّ مَنْ يخالفُ أوامرَ اللّهِ تعالى، فمَنْ كان عدوًّا للّه بمخالفةِ أوامرِه، وللملائكةِ بكراهة أفعالِهم ورفضِه الحقَّ الذي جاءُوا به من عنده تعالى، ولرسله بتكذيبهم أو قتلِهم، وعدوًّا لجبريلَ وميكائيلَ خاصَّة، فإنَّ اللّهَ عدوٌّ له بسبب كفره، ومَنْ عاداه اللّهُ باءَ بكلّ عذابٍ تقتضيه عداوةُ اللّهِ تعالى، فهو في العذاب المهين[3].

---

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 1/623.

(2) الزبيدي، تاج العروس: (ميكل).

(3) مجمع البحوث الإسلامية، التفسير الوسيط: 1/149.

❁ الإيضَاحُ اللُّغَوِيُّ وَالبَلَاغِيُّ:

بلاغةُ المجازِ في الشَّرطِ والجزاءِ:

ذِكْرُ الملزومِ وإرادةُ اللَّازمِ لأثرِه في النَّفسِ؛ تقبيحًا له وتحذيرًا من نتيجتِه

لـمّا كانت مخالفةُ اليهودِ أوامرَ اللّه، وكراهتُهم القيامَ بطاعتِه، وتربُّصُهم بأوليائِه ومعاداتُهم لهم؛ لازمةً لعداوته سبحانَه، ناسبَ استعمالَ لفظِ العدوِّ للتَّعبير عنها؛ لأنَّ العدوَّ للغير هو الذي يريد إنزالَ الـمَضارِّ به، وهذا التَّصورُ يستحيل في حقِّه تعالى من العاقلِ المتفَطِّنِ لا الغافلِ الـمُتغابي، فذكرَ الملزومَ وأرادَ اللَّازمَ؛ لِعموم المعنى الذي يتضمّنُه الملزومُ بلفظٍ واحد إيجازًا في الكلام، ولإقامة الحُجَّةِ عليهم، كما أنّ قولَه تعالى: ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ عَدُوٌّ لِّلۡكَٰفِرِينَ﴾ مجازٌ كذلك[1]؛ بذِكر الملزوم وهو العداوةُ وإرادةِ اللّازم وهو مجازاتُهم على مخالفاتِهم، واستعملَ المجازَ لأنَّ لفظَ العداوةِ أشدُّ تأثيرًا في النَّفسِ من أيِّ لفظٍ دالٍّ على الـمُجازاةِ.

معنى حرفِ الواوِ:

مقصودُ العطفِ البيانُ والتَّمثيلُ، لا الحصرُ والتَّعيينُ

جاءَتْ الواو تحملُ معنى العطفِ على الأصلِ، فمن عادَى ملائكةَ اللّه أو رسلَه فإنَّه على الحقيقةِ قد عادَى اللّه تعالى، فالعطفُ في قولِه تعالى: ﴿وَمَلَٰٓئِكَتِهِۦ وَرُسُلِهِۦ وَجِبۡرِيلَ وَمِيكَىٰلَ﴾ للبيانِ والتَّمثيل، لا للحصْر أو التَّعيينِ، فمن عادَى أولياءَ اللّه باعتبارِهم أولياءَه فقد عادَى اللّه، وهكذا يُقال في كلِّ مَن انتسبَ إلى اللّه تعالى بنوعِ انتسابٍ، ولا تُتصوَّرُ معاداةُ جبريلَ عليه السلام وحدَه إلَّا بمعاداةِ اللّه تعالى.

نُكتةُ ذِكرِ الجمعِ في مَقامِ إرادةِ الجِنسِ:

عداوةُ أحدِ الرُّسُلِ معاداةٌ للجميعِ، فالعداوةُ في الله لا تَتجزَّأ

ليس المقصودُ أنْ يكونَ العدوُّ عدوًّا لجميعِ الملائكةِ ولا لجميعِ الرُّسُلِ؛ لأنّهُ أرادَ جنسَ الملائكةِ وجنسَ الرسل، وآثر ذكرَ الجمعِ؛ لأَنّهُ قصدَ أنْ يكون الحكمُ على الواحدِ من الملائكةِ والرُّسُلِ حكمًا على الجميعِ، وأنّه لا تفرقةَ بينهم جميعًا، فمَنْ عادَى واحدًا من

(1) أبو حيّان، البحر المحيط: 1/515، والنيسابوري، غرائب الفرقان: 1/343.

الملائكة فقد عادَى اللّهَ وملائكتَهُ ورسلَه جميعًا، ومَنْ عادَى واحدًا من رُسُلِ اللّهِ فقد عادَى اللّه وملائكتَهُ ورسلَه جميعًا.

بلاغة وضع الاسم الظاهر موضع المضمر:

دفعُ الالتباسِ، وتفخيمُ الأمرِ وتعظيمُه المناسبُ لتفخيمِ الجزاءِ

أظهرتِ الآيةُ ما حقُّه الإضمارُ في قولِه تعالى: ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ عَدُوٌّ لِّلۡكَٰفِرِينَ﴾ ولم يقل: (فإنّه)؛ لوجهين:

أحدهما: لئلا يلتبس الكلام، فلو قيل: (فإنَّه عدوٌّ للكافرين)؛ لتردَّد السامع في المَعْنِيّ بالضَّمير: آللّه أم رسلُ اللّهِ جلَّ ثناؤه، أم جبريلُ، أم ميكائيلُ؟ والإظهارُ يدفع الالتباسَ[1].

الثاني: إظهارُ اسم الجلالة ﴿ٱللَّهُ﴾ الجامعِ لأوصافِ الجلال والجمالِ يشعر بالقدرة العظيمة؛ فهو لتفخيمِ الأمرِ وتعظيمه[2]، فلمّا كان الجزاءُ مبهمًا لعظمة عداوة اللّه تعالى ناسبَ ذكرَ اسم الجلالةِ بلفظِه الظَّاهر؛ تخويفًا وترهيبًا، وحثًّا على تركِ عداوة اللّه وملائكته ورسله.

نكتة تقديم الملائكة على الرسلِ:

ملاحظةُ التَّرتيب الوجودي، ومتابعةُ الفرعِ للأصلِ

جاء التَّرتيبُ اللفظيُّ متناسِبًا مع التَّرتيبِ الوجوديِّ، فوجودُ الملائكةِ سابقٌ لوجودِ الرُّسُلِ عند ظهور الإرسال، وكذلك عداوةُ الملائكةِ مقدَّمٌ على عداوةِ الرُّسُل في الحقيقةِ، إذ معاداةُ الفرعِ تابعٌ لمعاداةِ الأصلِ، والكلُّ تابعٌ للّه تعالى.

توجيه المخصوصِ بالذِّكرِ:

العنايةُ بمن عُودي بغيرِ وجهِ حقٍّ بالذِّكر تشريفًا وتعظيمًا

خُصَّ المَلَكانِ ﴿وَجِبۡرِيلَ وَمِيكَىٰلَ﴾ بالذِّكر بعدَ دخولِهما إجمالًا في لفظ ﴿وَمَلَٰٓئِكَتِهِۦ﴾؛ تشريفًا لهما وتفضيلًا على غيرِهما، فإنَّ ما نالاه من عداوةِ اليهودِ حريٌّ أن يُخصَّا بالذِّكرِ في موطنِ الشَّرفِ، وهذا من قبيلِ تنزيلِ التَّغايرِ في الوصفِ منزلةَ التَّغاير في الذات[3].

(1) ابن جرير، جامع البيان: 2/396.
(2) الآلوسي، روح المعاني: 1/333، وابن عاشور، التحرير والتنوير: 1/624.
(3) الزمخشري، الكشاف: 1/170.

ولأنَّ الآيةَ نزلت فيما يتعلَّق بهما كما جاء في الرِّوايات، فحَسُنَ أنْ يَنُصَّ على اسميهما[1].

العُدولُ عن الضَّميرِ إلى ظاهرِ مقصودِ الوصفِ:

تعليلُ العداوةِ سببٌ للانكفاءِ عنها، وطريقٌ إلى الإيضاحِ والبيانِ

عدلتِ الآيةُ عن الضَّميرِ إلى الوصفِ الظَّاهرِ: ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ عَدُوٌّ لِّلۡكَٰفِرِينَ﴾ فلم يُقَل: (فإنَّ اللّه عدوٌّ لهم)، بالضَّميرِ مع أنَّه أوجزُ لفظًا؛ ليفيدَ أنّ اللّه عدوّ للكافرين بوصفِهم كافرين، وأنّ اللّه اتَّخذَ المعادين له أعداءً بسببِ كفرِهم، ولِتَكُونَ الجُمْلَةُ تَذْييلًا لما قبلَهَا[2]، وفي هذا الكلامِ تسليةٌ للمؤمنين؛ فإذا كان اللّهُ عدوًّا للكافرين فهو قريبٌ من المؤمنين محبٌّ لهم.

فائدةُ تأكيدِ الفاصلةِ القرآنيَّة:

التَّأكيدُ على أنَّ مضمونَ الفاصلةِ حكمٌ عامٌّ ثابتٌ لا يتغيّرُ

جاءتِ الفاصلةُ القرآنيَّةُ: ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ عَدُوٌّ لِّلۡكَٰفِرِينَ﴾ مصدّرةً بـ(إنَّ) لتقريرِ المعنى وتأكيدِه مع ثباتِه وقَرارِه، وجاءت الجملةُ التذييليَّةُ اسميّةً للدّلالة على تحقيقِ المعنى وثَباتِه[3]، وللتَّأكيدِ على أنَّه حكمٌ عامٌّ ثابتٌ لا يتغيّرُ.

بديعُ المُقابلةِ بينَ الفاصلتين:

اختلافُ النَّظمِ تابعٌ لاختلافِ المعنى وموقفِ الفريقين

قابلتْ فاصلةُ هذه الآيةِ: ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ عَدُوٌّ لِّلۡكَٰفِرِينَ﴾ فاصلةَ الآيةِ السَّابقةِ: ﴿وَهُدٗى وَبُشۡرَىٰ لِلۡمُؤۡمِنِينَ﴾؛ لبيانِ الفرقِ بين الفريقين المبنيّ على الموقف المتباين من رسلِ اللّه ورسالاته، وقد اختلف النَّظمُ في الفاصلتين؛ إذْ جاءتْ في حقِّ المؤمنين سَلِسةً رَقْراقةً عذبةً، بينما جاءتْ في حقِّ الكافرين مُؤَكَّدَةً ثابتةً فخمةً.

(1) ابن جرير، جامع البيان: 2/396، والنيسابوري، غرائب القرآن: 1/343.
(2) الزمخشري، الكشّاف: 1/170، وابن عاشور، التحرير والتنوير: 1/624.
(3) الآلوسي، روح المعاني: 1/333.

﴿وَلَقَدۡ أَنزَلۡنَآ إِلَيۡكَ ءَايَٰتِۭ بَيِّنَٰتٖۖ وَمَا يَكۡفُرُ بِهَآ إِلَّا ٱلۡفَٰسِقُونَ ٩٩﴾ [البقرة: 99]

❁ مُناسَبَةُ الآيَةِ لِمَا قَبْلَها:

بعد بيانِ الموقفِ ممَّن يُعادي اللّه وملائكتَه ورسلَه، ناسب ذلك ذكرَ إنزالِ الكتاب على النَّبيِّ ﷺ، بيانًا وإيضاحًا بأنَّ العداءَ معذوقٌ بهذا النَّبيِّ وهذا الكتاب، وأنَّ الإيمان لن يتحقَّق إلّا بهما، ولذلك ذكر أنَّ الكفرَ مُرتَهَنٌ بالفِسقِ الجاثم على القلوبِ الخَرِبةِ، والآيةُ انْتِقالٌ إِلَى خِطابِ النَّبِيِّ ﷺ وإِقْبَالٌ عليهِ تَسْلِيةً لهُ عمَّا لَقِيَ مِن اليهود وأَنَّ ما أُنْزِلَ إليه لا يُكذِّبُ بِهِ إِلَّا مَنْ لا يُؤْبَهُ بِتَكْذِيبِه فكفرهم هو سبب تكذيبهم، لكون الذي أُنزِلَ إِليهِ دلائِلَ واضِحةً لا تُقَصِّرُ عن إِقناعِهِمْ بأَحَقِّيَّتِها ولكِنَّهُمْ يُظْهِرُونَ أَنْفُسَهُمْ أَنَّهُمْ لَمْ يُوقِنُوا بحَقِّيَّتِهَا[1].

❁ شَرْحُ المُفْرَدَاتِ:

1) ﴿ءَايَٰتِۭ﴾: جَمعُ آيةٍ، مِنْ أَيِيَ، والآيةُ مشتقَّةٌ من التّأيّي الذي هو التّثبّتُ والإقامةُ على الشَّيءِ، ويدورُ المعنى المحوريُّ على بقاءِ الشَّيءِ في مكانه شاخِصًا؛ أي مُجسّمًا، علامةً لشيء، وفي الكلمةِ معنى الجَسامة المادّيّة أو المعنويَّة، فمِن الجَسامةِ الماديَّةِ قوله تعالى: ﴿أَتَبۡنُونَ بِكُلِّ رِيعٍ ءَايَةٗ تَعۡبَثُونَ﴾ [الشعراء: 128]، ومِنَ الجَسَامةِ المعنويّةِ الآية التي هي لِجماعة من حروف القرآن [2]، يقال: خرجَ القومُ بآياتهم، أي: بجماعاتهم، ومنه سُمّيت الآية؛ لِأنَّها جماعةٌ من حروفِ القرآن، ويحتمل أنّها سُمِّيَت آية لأنَّها علامة لانقطاع كلام من كلام، أو علامة صدق وبرهان على أنَّ القرآن وحي من عند الله ﷻ، وقُصِدَ بالآياتِ في الآية آياتُ القرآن، ولاسيّما مع اقترانها بالتّنزيل؛ لِأنَّ الآياتِ إذا قُرنت إلى التّنزيل كانت أخصَّ بالقرآن[3].

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 1/624.
(2) ابن فارس، مقاييس اللغة، وجبل، المعجم الاشتقاقيّ المؤصّل:(أيي).
(3) الرازي، التّفسير الكبير: 3/614، والقاسمي، محاسن التأويل: 1/361.

2) ﴿بَيِّنَٰتٖۖ﴾: أَصلُ الكلمةِ بَيَن، فقُلِبَتِ الياءُ ألفًا لِتحرُّكِ الياءِ وانفتاحِ ما قبلَها، وتدورُ المادَّةُ على معنى بُعْدِ الشَّيْءِ وانْكِشافِه، ويقال: بانَ الشّيءُ بَيانًا اتَّضح وظَهر، وَفُلَانٌ أَبْيَنُ مِنْ فُلَانٍ؛ أَيْ: أَوْضَحُ كَلَامًا مِنْهُ، والبيّنةُ هي الدّلالة الفاصلةُ بين الصِّدقِ والكَذِبِ؛ لأنَّها مِنْ إبانةِ أحدِ الشَّيئينِ عن الآخرِ والفَصْلِ بينهما، فيزولُ الالتباسُ بين الشَّيئين بها، وينكشفُ حالُهما[1].

3) ﴿ٱلْفَٰسِقُونَ﴾: أَصْلُ الكلمةِ فَسَقَ، ويدلّ الفِسقُ على الخروجِ عن الشَّيءِ، قال الفرّاء: ومنه يُقال: فَسَقَت الرُّطَبَةُ: إذا خرجت من قِشرها، ويُقال للفأْرَة: فُوَيْسِقَة؛ لخروجها من جُحرها على النَّاس. والفِسق أنواع، وبين فِسقٍ وفِسقٍ بونٌ كبيرٌ؛ قال ﷻ في إبليس: ﴿فَفَسَقَ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِۦٓۗ﴾ [الكهف: 50]، وقال فيمن يرمي المحصنات: ﴿وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ﴾ [النور: 4]، وقال: ﴿إِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ هُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ﴾ [التوبة: 67] فبين الفاسق والفاسق بونٌ، وإِذَا اسْتُعْمِلَ الْفِسْقُ فِي شَيْءٍ مِنَ الْمَعَاصِي وَقَعَ عَلَى أَعْظَمِ أَفرادِ ذلك النَّوعِ مِنْ كُفْرٍ أَوْ غَيْرِه، فإذا قيل: هو فاسقٌ في الشُّربِ فمعناه هو أكثرُ ارتكابًا له، وإذا قيل: هو فاسق في الزِّنا يكون معناه هو أشدُّ ارتكابًا له، ومعنى الفاسقون في الآية: أي الخارجون عن دين اللّه وطاعته المتعدّون حدوده[2].

❁ المَعْنَى الإِجْمَالِيُّ:

يقولُ الحقُّ ﷻ مخاطبًا رسولَه ﷺ مؤكِّدًا له أنّه قد أنزل إليه القرآنَ الكريمَ بما تضمّنه من الآياتِ الواضحاتِ الدّلالة على معانيها، وعلى كونها من عند اللّه، والدّالّة على صحّة نُبوَّته، فهو في نَفْسِهِ آياتٌ بَيِّنَاتٌ لَا يَحْتاجُ إِلَى آيةٍ أُخْرَى تُبَيِّنُهُ وَتَشْهَدُ لهُ، وما يَكْفُرُ بهذه الآياتِ الواضحاتِ إلَّا الْفاسِقُونَ المتمرِّدون في الكفرِ الخارجون عن دين اللّه وطاعته المتعدّون حدوده[3].

(1) ابن فارس، مقاييس اللغة: (بين)، والهروي، الغريبين: 1/235.
(2) الأزهري، تهذيب اللغة: (بَيَنَ)، وابن قتيبة، غريب القرآن، ص: 29، وأبو حيّان، البحر المحيط: 1/518.
(3) ابن جرير، جامع البيان: 2/397، والبروسوي، روح البيان: 1/188.

❁ الإيضاحُ اللُّغويُّ وَالبَلَاغِيُّ:

فائدةُ تأكيدِ الخبرِ:

بيانُ مناسبةِ تأكيدِ الخبرِ لعظَمِ إنكارِ اليهودِ

لـمّا استحكم إنكارُ اليهود أنْ يكونَ اللّهُ قد أنزلَ القرآنَ إلى رسولِ اللّهِ محمَّد ﷺ، وحَكموا بخلافِ هذا، أكّدَ اللّهُ تعالى هذا التَّنزيلَ بمؤكِّدَين في صدرِ الكلام؛ ليتقَرَّرَ تنزيلُ القرآنِ تأكيدًا على وفق ما أشربوا الإنكار في اعتقادهم، فجاء بـ(لام القسم) وحرفِ التحقيق (قد)، فهو خبرٌ إنكاريٌّ خرجَ على مقتضى الظّاهرِ؛ لِأَنَّ المقامَ مقامُ إيضاحٍ وبيانٍ؛ للدّلالة على أنّ الإخبارَ عن إنزالِ الآياتِ البيّناتِ يحتاج إلى تقريرِ التَّأكيدِ وتثبيتِه؛ لِعظَم إنكارهم وغرابته، وإنّما كان إنكارُهم غريبًا لأَنَّ الآياتِ البيّناتِ الواضحاتِ لا يمكن إنكارُها، فلا عقلَ لمن يَجحد أنّ النهارَ نهارٌ.

مُناسبةُ اختيارِ كلمةِ ﴿أَنزَلۡنَآ﴾:

الإشارةُ إلى مَن نزلَ به بعد التَّصريح باسمه، والتَّنبيهُ على عُلوِّ مكانته

لـمّا أشارتِ الآيةُ السَّابقةُ إلى أنَّ جبريلَ هو الـمُكلَّفُ بإنزالِ القرآنِ على رسولِ اللّهِ، صرّحَت هذه الآيةُ بالإنزالِ، وهو عبارةٌ عن إهباطِ الشَّيْءِ مِنَ الأَعْلى إلى الأَسْفَلِ، وَذاكَ لا يَتَحَقَّقُ إِلَّا في الجِسْميِّ، فذكر ﴿أَنزَلۡنَآ﴾ للإشارةِ إلى أنّ جبريلَ هو الذي نَزَلَ به[1]، وللتّنبيه على علوّ المنزَّل، ولتشريفِ النبيّ محمّدٍ ﷺ، فقد كانت نهايةُ إنزالِ القرآنِ المعظّم وغايتُه عندَه.

نُكتةُ الإضافةِ إلى ضميرِ العَظَمةِ في ﴿أَنزَلۡنَآ﴾:

الإشارةُ إلى تعظيم قدْرِ الـمُنَزّلِ وتفخيم شأنه، كما تدلُّ الإضافةُ على اختصاصِ الـمُنَزَّلِ باللّهِ تعالى؛ فليسَ لأَحدٍ الاعتراضُ على القرآنِ الكريمِ؛ لِنسبتِهِ إلى اللّهِ، فهو كلامُ اللّهِ وصِفَةٌ مِنْ صِفاتِهِ.

(1) الرازي، التّفسير الكبير: 1/614.

اختيارُ حرفِ تعديةِ الأفعالِ قائمٌ على التَّناسبِ بين المعاني:

تعدَّى فعلُ الإنزالِ بحرف إلى، فقالَ: ﴿أَنزَلۡنَآ إِلَيۡكَ﴾، دونَ التَّعدية بحرفِ الاستعلاءِ؛ لبيانِ أنَّ غاية نزولِ القرآنِ هي بلوغه النبيَّ ﷺ، فهذا النَّبيُّ الأُميُّ هو المقصودُ بالرِّسالةِ وليس غيرُه، وللإشارةِ إلى الرّسالة، وتبليغِ القرآنِ إلى النَّاسِ، فَكان حقًّا عليهم أنْ يتَّبعوه بمقتضَى البشارةِ التي بَشَّرتْ بِهِ التَّوراةُ والإنجيلُ.

فَائدةُ التَّنوينِ في قولِه: ﴿ءَايَٰتِۭ﴾:

أفاد التَّنوينُ تعظيمَ شأنِ الآياتِ وتفخيمَ أمرِها، ولاسيَّما أنَّها قد اقترنت بالإنزال من عُلُوٍّ.

بلاغةُ التّقديمِ والتّأخيرِ:

بيانُ منزلةِ الرسولِ، وأنَّ معاداته من قِبلِ أهلِ الباطلِ سببٌ في العنايةِ بذكرِه

قُدِّمَ الجارُّ والمجرور ﴿إِلَيۡكَ﴾ على المفعولِ به وصفتِه ﴿ءَايَٰتِۭ بَيِّنَٰتٖۖ﴾، فلم يقل: "أنزلنا آياتٍ بيّناتٍ إليكَ"، فقصدَ الاهتمامَ بالمقدَّمِ والعنايةَ به؛ لِيجعلوه نُصْبَ أعينِهم، ويلتفتَ خاطرُهم إليه، كما أفادَ التَّقديمُ تخصيصَ إنزالِ الآياتِ البيّناتِ برسولِ اللّه ﷺ، وأَنَّ غيرَه لم تنزلْ إليه الآياتُ، وقرينةُ التَّخصيصِ زمنُ الإنزالِ، فدلّتِ الآيةُ على خَتْمِ النُّبُوَّةِ كذلك، وناسبَ التَّقديمُ الرَّدَّ على عداوةِ اليهودِ؛ فإنَّ من يُعاديه اليهودُ حقيقٌ أنْ يُقدَّمَ.

فائدةُ وصفِ الآياتِ بالبيّنات:

وضوحُ معجزةِ القرآنِ في ذاته وآثارِه

لا تكون الآيةُ إلّا دليلًا واضحًا كما هو مقتضى المعنى اللغويّ، والسّببُ في وصف الآيات بـ﴿بَيِّنَٰتٖ﴾ هو الإشعار بأنّ طريق معرفتها واضحٌ والوصول إليها واضحٌ[1]؛ كما تدلّ البيّنة على أنّه بها يزول الالتباس، فالقرآن الكريم المشتمل على هذه الآيات يزول الالتباس به، فيفصِلُ بين الحقّ والباطل، فيكون الإيمان بالقرآن أَولى بالقبول،

(1) الرازي، التّفسير الكبير: 3/614.

وأدعى إلى التمسّك به من غيره؛ فهذه الآياتُ كَالنُّورِ يُظْهِرُ الأَشْياءَ وَهُوَ ظَاهِرٌ بِنَفْسِهِ لَا يَحْتَاجُ إِلَى شَيْءٍ آخَرَ يُظْهِرُهُ[1].

تناسبُ المقابلةِ بينَ الألفاظِ:

مقابلةُ الواضحِ للمُلبِسِ والمكشوفِ للمُغطَّى بيانٌ كافٍ في الهدى

تُلاحَظُ المقابلةُ في المعنى، بين (البيّنات والكفر)، فقد ناسبَ "قَوْلُهُ: ﴿بَيِّنَٰتٍۖ﴾ لَفْظَ الكُفْرِ، وَهُوَ التَّغْطِيَةُ؛ لِأَنَّ الْبَيِّنَ لَا يَقَعُ فِيهِ إِلْبَاسٌ، فَعَدَمُ الْإِيمَانِ بِهِ لَيْسَ لِشُبْهَةٍ لِأَنَّهُ بَيِّنٌ، وَإِنَّمَا هُوَ تَغْطِيَةٌ وَسَتْرٌ لِمَا هُوَ وَاضِحٌ بَيِّنٌ، وَسَتْرُ الوَاضِحِ لَا يَقَعُ إِلَّا مِنْ مُتَمَرِّدٍ في فِسْقِهِ"[2]، وفيه بيانٌ كافٍ لمن طلبَ الهُدى، والتمس التُّقى.

براعةُ أسلوبِ القَصْرِ الإضافيّ:

كُلُّ كَافِرٍ فَاسِقٌ وَلَا يَنْعَكِسُ

قَصَرَتِ الآيةُ الكفرَ على الفاسقين دونَ غيرهم قصرًا إضافيًّا[3]، بدلالة أَنّ هَذِهِ الآيَاتِ لَمَّا كَانَتْ بَيِّنَةً ظَاهِرَةً واضحةً، لَمْ يَكْفُرْ بِهَا إِلَّا الْكَافِرُ الذي بَلَغَ في الْكُفْرِ النِّهَايَةِ الْقُصْوَى، وَتَجَاوَزَ عَنْ كُلِّ حدٍّ مستحسَنٍ في العقل والشّرع؛ فإنَّ مَنْ لم يكنْ على تلكَ الصِّفَةِ مِنَ الكفرة لا يَجترئُ على الكُفرِ بمثلِ هاتيكَ البيّناتِ[4]، وفيه بيانُ وصفِ الكافرين بأنَّهم فاسقون؛ فإنَّ الفِسْقَ حنظلةُ الكفرِ.

توجيهُ تخصيصِ الفِسقِ بالذِّكرِ:

بيانُ تجاوزِ الكافرين حدَّهم في الكفرِ، فهم فسقوا بكفرِهم، وهذا في غايةِ الذَّمِّ

آثرَ النَّظمُ الكريم تخصيصَ صفةِ الفِسق بالذِّكر مع فعل الكفرِ، دون الظُّلم أو التَّكذيب؛ لخَصوصيّة اقتضاءِ المَقام ذلك؛ فإنَّ الفِسقَ إذا استُعمِلَ في نوعٍ من المعاصي وقعَ على أعظمِ أفرادِ ذلك النَّوعِ من كُفرٍ أو غيرِه، فإذا قيلَ: هو فاسقٌ في الشُّربِ فمعناه هو أكثرُ ارتكابًا لهُ، وإذا قيلَ: هو فاسقٌ في الزِّنَا يكون معناه هو أشدُّ

(1) رشيد رضا، تفسير المنار: 1/326.
(2) أبو حيّان، البحر المحيط: 1/518.
(3) الرازي، التّفسير الكبير: 3/615.
(4) الرازي، التّفسير الكبير: 3/615، وأبو السعود، إرشاد العقل السليم: 1/135.

ارتكابًا له[1]، واختارَ كلمة ﴿ٱلۡفَٰسِقُونَ﴾ هنا للإشعارِ بأنّهم قد اتّصفوا بوصفٍ أبعَدوا بهِ في كفرِهم، وخرجوا بهِ عن الحدّ المعقولِ فيهِ، ففيه بيانُ تجاوزِ الكافرين حدَّهم في الكفرِ، فهم فسَقوا بكفرِهم، وهذا في غاية الذَّمِّ.

احتمالُ الواو للعطفِ والحال:

تحتمل الواوُ في قوله تعالى: ﴿وَمَا يَكۡفُرُ بِهَآ إِلَّا ٱلۡفَٰسِقُونَ﴾ أنْ تكون حاليّة، وأن تكون عاطفة[2]، فإذا كانت حاليّة فالمعنى: في حال إنزال الآيات البيّنات ووصولها إليك يا محمّد يكفر بها الفاسقون، فلا يتدبّرون ولا يتفكّرون؛ بل يباشرون الكفر بالآيات البيّنات من غير رَوِيّة، ففي الكلام إشعارٌ بإضمارهم الكفرَ من بداية الأمرِ، وتتضمّن توبيخًا لهم على هذا، ولهذا كانوا فاسقين في كفرهم، وإذا كانت الواو عاطفةً فهي تعطفُ ما بعدَها على جملةِ (أنزلنا)، فيكون القَسمُ والتأكيد موجّهًا إلى الجملتين، والمعنى: وعزَّتي وجَلالي أَنْزَلْنا إليك آياتٍ بيِّناتٍ، وعزَّتي وجَلالي ما يَكفرُ بِها إلَّا الفاسقون.

بلاغة اختيارِ نوعِ القصرِ:

نفيُ وقوعِ الكفرِ من أحدٍ وإثباتُه للفاسقين للمبالغةِ في بيانِ فسقِهم

أفاد أسلوبُ القصرِ تخصيصَ الكفرِ بالفاسقين؛ لإنكارهم أنْ يكونَ رفضُهم للقرآن الكريم كفرًا، فجاء الردّ عليهم بقلبِ ما اعتقدوه وبيانِ خطئِهم فيما تصوَّروه؛ بأسلوبِ القَصْرِ بالنَّفيِ والاستثناء[3]، فأفادَ أنّ إنكارَهم للقرآن كفرٌ، وأنّ كفرَهم خرجَ عن الحدّ المعقولِ، ووصلَ إلى حدِّ الفسقِ فيه.

نكتةُ التَّعبير بالفعل المضارع:

تجدُّدُ وقوعِ الكفرِ بسببِ ثباتِ الفسقِ في القلوبِ

أفاد إسنادُ صيغةِ المضارع ﴿يَكۡفُرُ﴾ إلى الوصفِ ﴿ٱلۡفَٰسِقُونَ﴾ تجدّدَ كفرِ مَنْ صارَ الفِسْقُ وصْفًا لازمًا له، وكأنّ فسقَهُم الثَّابتَ في قلوبِهم يَدفَعُهم إلى تجدُّدِ الكُفرِ حالًا فَحالًا.

(1) ابن جرير، جامع البيان: 2/397، والزمخشري، الكشاف: 1/171، والآلوسي، روح المعاني: 1/334.
(2) النيسابوري، غرائب القرآن: 1/314، وابن عاشور، التحرير والتنوير: 1/615.
(3) البهاء السبكي، عروس الأفراح: 1/395.

دلالة (أل) بين الجنسيّة والعهديّة:

تحتمل (أل) في قوله: ﴿ٱلۡفَٰسِقُونَ﴾ أنْ تكون جنسيّةً وأنْ تكونَ عهديَّةً[1]، فإذا كانت جنسيّةً فالمعنى على العموم، واليهودُ يدخلون في المعنى لكفرهم بالآيات، وتكون الجملة تذييليّةً؛ لتَجريَ مَجرى المَثَلِ لكلّ مَنْ يَكفُرُ بآياتِ اللّه، وإذا كانت عهديَّةً فيكون ﴿ٱلۡفَٰسِقُونَ﴾ عائدًا إلى اليهودِ الذين كانوا في زمنِ نزولِ القرآنِ، والمعنى هو وصفُ اليهودِ بالفسقِ على التَّعيين إمْعانًا في تَوبيخِهِم وذَمِّهِم.

بلاغةُ نظمِ الآيةِ:

استحواذُ الآية على معنى التّعظيم والتَّفخيم

دلَّتِ الآيةُ بنظمِها الجزيلِ وبتراكيبِها وألفاظِها علَى التَّفخِيم والتَّعظِيم، ابتدَاءً مِنْ صَدْرِهَا المبدوءِ بلامِ القَسَمِ، ثُمَّ بتَأكيدِ القَسَمِ بحرفِ التَّحقيقِ (قَدْ)، ثُمَّ بإضافةِ الفعلِ (أَنْزَلَ) إلى ضميرِ العَظَمَة (نا)، ثمَّ بذكرِ بلوغِ غايةِ الإنزالِ، وَهي ذاتُ رَسولِ اللّه ﷺ المشرَّفة، والـمُعَظّمَةُ بكافِ الخِطابِ، ثمَّ بذكرِ الآياتِ الـمُعَظّمَةَ بلاحِقةِ التنوينِ، وَبوصْفِ الإيضاحِ والتّبيينِ للآيات؛ فيلحق الصِّفةَ تعظيمُ الموصوفِ، ثمَّ تعظيمُ شأنِ إنكارِها والكفرِ بها، فسُبحانَ مَنْ جعلَ القرآنَ العظيمَ مُعجِزَةً ظَاهِرَةً لِنبيّهِ الـمُكَرّمِ ﷺ.

(1) أبو حيّان، البحر المحيط: 1/518.

﴿أَوَ كُلَّمَا عَٰهَدُواْ عَهۡدٗا نَّبَذَهُۥ فَرِيقٞ مِّنۡهُمۚ بَلۡ أَكۡثَرُهُمۡ لَا يُؤۡمِنُونَ ١٠٠﴾ [البقرة: 100]

❁ مُناسَبَةُ الآيَةِ لِمَا قَبْلَها:

لمّا ذَكر اللّه تعالى في الآية السابقة عِظَمَ كفرِ اليهود وغرابتَه؛ إذْ كفروا بالكتاب الذي أنزله اللّه تعالى إلى رسوله محمّدٍ ﷺ؛ ناسب أنْ يذكر سبب هذا الكفرِ، وأنْ ينكِرَ عليهم كفرَهم بما أتى به الرسلُ، فذكر نقضهم العهدَ الذي أُخذ عليهم مرارًا، فقد عُرِفَ عَنْهُمْ نَقْضُهم الْعُهُود، وأنَّ هذا هو شأنُهم وديدَنُهم، وَأَنَّهُ لَا رَجَاءَ فِي إِيمَانِ أَكْثَرِهِمْ؛ لِأَنَّ الكفر قَدْ أُشربَ في قلوبهم إِلَّا قَلِيلًا مِنْهُمْ[1].

❁ شَرْحُ المُفْرَدَاتِ:

1) ﴿عَٰهَدُواْ﴾: يدور معنى العهد على حفظ الشّيء ومُراعاته حالًا بعد حالٍ، فسُمِّي المَوْثِقُ الّذي يَلزم مراعاتُه عهدًا، وعَهِدَ فلان إلى فلان: ألقى إليه العهد وأوصاه بحفظه، فكلّ ما يلزم الاحتفاظ به يسمّى عهدًا، والمُعَاهَدُ في عُرف الشّرع يختصّ بمن يدخل من الكفّار في عَهْدِ المسلمين، فيلزم حفظُه وحفظ ما يجب له، والعهد في الآية الميثاق الّذي أعطتْه بنو إسرائيل ربَّها من لزومهم العمل بما في التّوراة والمداومة عليه، ومِنْ جُمْلَةِ العَهْدِ أن يؤمنوا برسول اللّه محمّدٍ ﷺ المُصَدِّقِ لِلتَّوْراةِ[2].

2) ﴿نَّبَذَهُۥ﴾: أَلقى الشّيءَ وطرحَه لقلّة الاعتداد به، والنَّبْذُ والطَّرْحُ والإلقاءُ متقاربة، لكنَّ النَّبذ أكثر ما يقال فيما يُنسى، ولذلك يقال: نَبَذْتُهُ نَبْذَ النَّعْلِ الخَلِق، وَنَبَذْتُ الشَّيْءَ أَيضًا إذا رَمَيْتَهُ وأَبعدتَه، وكلّ ما يُهمل فيُترك فهو منبوذ، ومنه المنبوذة لما لَا يُؤْكَلُ مِنَ الْهُزَالِ؛ شَاةً كَانَتْ أَو غَيْرَهَا، ومنه سُمّي النَّبيذُ لأَنَّه يُنَحَّى زمنًا طويلًا إلى أن يَصلُح، والانتباذُ الاعتزالُ والتّنحّي ناحيةً، ومن المجاز: نَبَذَ أمري وراء ظهره

(1) أبو زهرة، زهرة التفاسير: 1/333.

(2) ابن فارس، مقاييس اللغة، والرّاغب، المفردات: (عهد)، وابن جرير، جامع البيان: 2/400.

إذا لم يعمل به، ونبذ العهدَ نقَضه، وقوله تعالى: ﴿نَّبَذَهُۥ فَرِيقٌ مِّنْهُمۚ﴾من الطَّرح المَجازيّ، بمعنى نقضِ العهدِ والإعراضِ عنه، بحيث يُنسى لقلّة الاعتداد به[1].

3) ﴿فَرِيقٌ﴾: أصلُ الكَلِمَةِ فَرَقَ، والفَرَقُ يَدُلُّ عَلَى تَمْيِيزٍ وَفَصلٍ بَيْنَ شَيْئَيْنِ؛ أي فَصْلٍ بَينَ أبعاضٍ، وَمِنه الفَرِيقَةُ، وهُوَ القَطِيعُ مِنَ الغَنَم، كَأَنَّهَا قِطْعَةٌ فَارَقَتْ مُعْظَمَ الغَنَم، والفُرْقَانُ: كِتَابُ اللَّهِ تَعَالَى فصَل بِهِ بَيْنَ الحَقِّ والبَاطِل، والفُرْقَانُ: الصُّبْحُ؛ سُمِّيَ بِذَلِكَ لأَنَّهُ به يُفْرَقُ بَيْنَ اللَّيْلِ والنَّهَارِ، والفريق الجماعةُ من مجموعٍ، لا واحدَ له من لفظه، يُطلق على القليل والكثير[2].

❁ المَعْنَى الإِجْمَالِيُّ:

تشير الآية الكريمة إلى عادة قبيحة في اليهود وهي: نقض العهود، فهم كلما عاهدوا عهدًا- ومن جملة العهود التي أخذوها على أنفسهم الإيمان بما دلت عليه التوراة من نبوة محمد ﷺ طرح ذلك العهد فريق منهم، ونقضوه، لأن أكثر هؤلاء اليهود لا يؤمنون بما أنزل اللّه تعالى حقيقة، إذ الإيمان يحمل صاحبه على الوفاء بالعهد[3]، وفي الآيةِ من شدّةِ الذَّمِّ ما فيها؛ فإنَّ "ذمّ الإنسانِ على عَدمِ العملِ بما كان التزمَ العَمَلَ به أَشَدُّ من ذَمِّهِ على إنكارِ ما يَعلمُ صِحَّتَهُ"[4].

❁ الإِيضَاحُ اللُّغَوِيُّ وَالبَلَاغِيُّ:

غرضُ الاستفهامِ في صدرِ الآيةِ:

الإنكارُ والتَّوبيخُ والتَّعجيبُ بقصْدِ الارتداعِ عنْ نبذِ العَهْدِ

أفادَ الاستفهامُ في قولِه تعالى: ﴿أَوَ كُلَّمَا عَـٰهَدُواْ عَهْدًا نَّبَذَهُۥ فَرِيقٌ مِّنْهُم﴾ الإنكارَ والتَّوبيخَ والتَّعجيبَ[5]، فالآيةُ تُنكرُ على بني إسرائيلَ نَبْذَهُم العهدَ، واستمرارَهم على نقضِه، مَعَ التَّوبيخِ والتَّقريعِ على

(1) ابن فارس، مقاييس اللغة، والزمخشري، أساس البلاغة، وجبل، المعجم الاشتقاقيّ المؤصّل: (عهد)، والرّاغب، تفسير الرّاغب: 1/272.

(2) ابن فارس، مقاييس اللغة، والفيومي، المصباح المنير، وجبل، المعجم الاشتقاقيّ المؤصّل: (فرق).

(3) الرّاغب، تفسير الرّاغب: 1/272، وابن عرفة، تفسير ابن عرفة: 1/382.

(4) ابن عرفة، تفسير ابن عرفة: 1/382.

(5) الرّاغب، تفسير الرّاغب: 1/256، وأبو حيان، البحر المحيط: 1/482، والنيسابوري، غرائب القرآن: 1/331، ومحمد رشيد رضا، تفسير المنار: 1/312، وابن عاشور، التحرير والتنوير: 1/597.

هذا الفعلِ الشَّائن، وفي الاستفهامِ تعجيبٌ من عَدم التزامِهم بالعهودِ المذكورةِ في التَّوراةِ، ومنها أنّهُ أَخذَ عليهم الإيمانَ برسولِ اللهِ محمّدٍ ﷺ ثمّ نبذَهُم لهُ عِنادًا واسْتكبارًا؛ فجمعَ الاستفهامُ بين معاني الإنكارِ وَالتَّوبيخِ والتَّعجُّبِ من شأنِ بني إسرائيل في تعامُلِهم مع رُسُلهم ومع القرآن، ومقصودُ ذلك حملُهم على الإقرارِ لِيَرتدِعوا عمَّا همْ فيه من الغِوايةِ والكِبْرِ[1].

تعدُّدُ أَوْجُهِ الرَّبط بين الواو والجمل المعطوفَةِ عليها:

الواوُ في قولِه تعالى: ﴿أَوَ كُلَّمَا عَٰهَدُواْ عَهۡدٗا نَّبَذَهُۥ فَرِيقٞ مِّنۡهُم﴾ إمَّا أنْ تكونَ عَطفتِ الجملةَ المذكورةَ على أخرى محذوفةٍ بعدَ همزةِ الاستفهامِ، والتقدير: أَكَفَرُوا بِالْآيَاتِ الْبَيِّنَاتِ وَكُلَّما عاهَدُوا، وهذا مذهبُ الزَّمخشريّ[2]، فالاستفهامُ الإنكاريُّ متوجِّهٌ إلى الجُملةِ المحذوفةِ والمعطوفةِ، ونُكْتَتُهُ: تحريكُ ذهنِ الـمُخاطَبِ إلى استنباطِ المعاني.

وإمَّا أنْ تكون على التَّقديمِ والتَّأخيرِ، وَالْأَصْلُ (وَأَكُلَّمَا)، وَقُدِّمَ حرفُ الاستفهامِ لأنَّ لَهُ الصَّدارةَ في الكلامِ، وهذا مذهبُ سيبويه[3]، ونُكتَتُه: تَوبيخُهم والتَّعجيبُ من نبْذِهم عهدَ اللهِ ثمَّ اسْتِمْرَارِ ذلِكَ مِنْهُم حتّى صار سَجِيَّةً لهُمْ[4]، ولإثارةِ المخاطَبِ وتهيئتِه لاستماعِ ما يرِدُ في الكلامِ؛ لأنّه مصدَّرٌ بالإنكارِ على فعلٍ متكرِّرٍ واقعٍ من المخاطَبِ.

العُدولُ عن المصدرِ إلى اسمِه:

تضمينُ فعلِ العهدِ معنى الإعطاءِ

عدلَتِ الآيةُ عن المصدرِ إلى اسمه في قولِه تعالى: ﴿عَٰهَدُواْ عَهۡدٗا﴾، ولو جاء على الأصلِ لَقال: "عَاهَدوا مُعاهَدَةً"؛ لأنَّ مصدرَ عاهَدَ هو الـمُعاهَدةُ، فعَدلَ عنْ مصدرِ الفعلِ المذكورِ إلى ﴿عَهۡدٗا﴾ لتَضمينِ الفعلِ ﴿عَٰهَدُواْ﴾ معنى أَعْطَوا[5]؛ أي: أَعْطَوا عَهْدًا؛ لِيدلّ الفعلُ ﴿عَٰهَدُواْ﴾ على مدلولِه اللّغويِّ وهو الالتزامُ، وعلى مدلولِ الفعلِ الـمُضَمَّنِ وهو الإعطاءُ، فذكرَ فِعْلًا واحدًا ودلَّ على معنيين، فكأنّهم قد أَعْطَوا مِيثاقًا على التزامِهم بالعَهْدِ.

(1) ابن عطية، المحرر الوجيز: 1/176.
(2) الزمخشري، الكشاف: 1/162، وأبو حيّان، البحر المحيط: 1/518.
(3) ابن عطية، المحرر الوجيز: 1/184، وأبو حيّان، البحر المحيط: 1/518.
(4) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 1/598.
(5) أبو حيّان، البحر المحيط: 1/519.

دلالة التَّنوينِ في قوله﴿عَهۡدٗا﴾:

أفادَ التَّنوينُ في كلمة: ﴿عَهۡدٗا﴾ التَّقليلَ؛ أي: كلّما عاهدوا عهدًا، وإنْ كانَ عهدًا صغيرًا وقليلًا بحيث لا يكلّفُهم ولا يُجْهِدُهُم، نَبَذوه وطَرحُوه غيرَ مُبالين بِه، وهو دليلٌ على أنَّ نقض العهودِ لا تعلُّقَ له بشيءٍ بقَدْرِ تعلُّقِه بأخلاقِهم الرَّدِيَّةِ في التَّعاملِ مع المعاهَدين، فهم يحتقرون كلَّ من يُعاهدُهم، ويمدُّ يدَ التَّعاونِ إليهم.

العدُولُ عن المضارِعِ إلى الماضي:

إبـــرازُ مكـنـون أنفسِ المعاهدين بأنَّ نقضَهم لأمرٍ نفسيٍّ ثابت

عدَلَ النَّظمُ عن صيغة الفعلِ المضارِع حسب ما يقتضيه الظَّاهرُ إلى صيغة الفعل الماضي في قولِه تعالى: ﴿أَوَكُلَّمَا عَٰهَدُواْ عَهۡدٗا نَّبَذَهُۥ فَرِيقٞ مِّنۡهُمۚ﴾؛ لنكتةِ إبرازِ نبْذِهم العهدَ في مَعْرِضِ الحاصلِ والواقعِ؛ لِقوَّةِ الأَسبابِ الـمُتآخِذَةِ في وُقوعِه، وهي إضمارُهُمْ مِنْ قبلُ على نقضِ العهدِ، وإصرارُهم عليه، فما هو آيلٌ للحُصولِ كالحَاصِلِ[1].

بلاغةُ الاستعارة في إسناد النّبذ إلى العهد:

تشبيه المعقول بـالمـحـسـوس لإيـضـاحِ قبيحِ أفعالِهم، وسُوءِ صنائعِهم

أَسْنَدَ النَّبْذَ إلى العَهدِ عَلى طَريقةِ الاستعارةِ التَّصريحيّةِ التَّبعيَّةِ، فقالَ: ﴿نَّبَذَهُۥ﴾، والضَّميرُ يعودُ إلى العَهْدِ، وإنّما كانَ مَجازًا بالاستعارة؛ لِأَنَّ الْعَهْدَ مَعْنًى، وَالنَّبْذَ محسوسٌ، ويكون بإلقاء الشَّيْءِ مِنَ الْيَدِ، فَـ"شَبَّهَ إِبْطَالَ العَهْدِ وعَدَمَ الوَفَاءِ بِهِ بِطَرْحِ شَيْءٍ كَانَ مَمْسُوكًا بِاليَدِ؛ كَمَا سَمَّوُا الْمُحَافَظَةَ عَلَى العَهْدِ وَالْوَفَاءَ بِهِ تَمَسُّكًا"[2]، وأفادت الاستعارةُ قُبحَ فعلِهم معَ إقامةِ الحجّة على شناعتِه؛ إذ جعلوا عهدَ اللّه سُبحانه شَبيهًا بالشَّيءِ المنبوذِ، إذِ النَّبذُ طَرْحٌ مع احتقارٍ[3]، فكأنَّهم رمَوْهُ بعيدًا كما تُرمَى المحقَّراتُ للتَّخَلّصِ منها، ثمَّ نَسُوهُ ولَمْ يَعْتَدّوا بِه.

(1) السكاكي، مفتاح العلوم، ص: 244.
(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 1/625، وأبو حيّان، البحر المحيط: 1/519.
(3) البقاعي، نظم الدرر: 2/71.

إيثارُ استعمالِ كلمةِ ﴿فَرِيقٌ﴾:

افتراقُ القومِ ليس افتراقَ اختلافٍ؛ بل هو افتراقُ توزيعِ مَهامَّ

آثرتِ الآيةُ ذكرَ لفظِ فريقٍ دون جماعةٍ أو حزبٍ أو طائفةٍ؛ لِأَنَّه لمّا أسندَ النَّبْذَ إلى الفريق دلَّ على أنّ له صفاتٍ من جنسِ المجموعِ؛ لأَنَّ الفريقَ بمفهومِه اللغويّ يدلُّ على فصلٍ بين أبعاضِ مجموعٍ متجانسٍ، فمَا يقومُ به الفريقُ من نَبْذِ العهدِ قد يقومُ به المجموعُ؛ لتآلفِ صفاتِهم في مَجموعهم، وأشارتِ الآيةُ إلى أنَّ القومَ يتعاقبون في أعمالِهم على شكلِ فِرَقٍ، ففي كلِّ مرَّةٍ يتولَّى فريقٌ منهم المهمّةَ. فهم لم يفترقوا افتراقَ اختلافٍ؛ بل افتراقَ توزيعِ مَهامَّ.

اجتماعُ الاستغراقِ والاحتراسِ في معنى الكلامِ:

دلَّ العُمومُ في كلَّما وتنكيرُ فريقٍ وإسنادُ النَّبْذِ إِلَى فَرِيقٍ على الاستغراق الزَّمني، بِاعْتِبَارِ الْعُصُورِ التِي نَقَضُوا فِيهَا الْعُهُودَ، كَمَا يُؤْذِنُ بِهِ التّكرُّر الزَّمنيُّ في (كُلَّمَا)، وأَسنِدَ النَّبذُ لفريقٍ دون الجميع للاحْتِرَاسِ مِنْ شُمُولِ الذَّمِّ لِلَّذِينَ آمَنُوا مِنْهُمْ[1]، والاستغراقُ والاحتراسُ فائدتان بيانيَّتان تُستنطقان من نظمِ الكلامِ وسياقِه.

بلاغةُ حرفِ الإضرابِ:

الاحتراسُ عن توهمِ القلَّةِ، والتَّقريرُ لموافقةِ الأكثرِ للفريقِ

جيءَ بحرف الإضرابِ للاحتراسِ، ولدفعِ الإلباس من توهُّم السَّامع أنَّ الفريقَ الذي نَبَذَ العهدَ قليلٌ منهم، فقيل: ﴿بَلْ أَكْثَرُهُمْ﴾ لِيُعلم أنَّ من يوافقُ المُسيءَ النَّابذَ في قلبه ولسانه فهو مشاركٌ له في أعمالِه، فيكونُ قولُه: ﴿بَلْ أَكْثَرُهُمْ﴾ تقريرًا لدلالة الفريقِ على الأكثرِ وتأكيدًا له؛ فليست ﴿بَلْ﴾ ناقضةً لمعنى الكثرةِ المرادةِ في ﴿فَرِيقٌ﴾، وإنّما هي للتَّأكيدِ وللتّقرير[2].

التّرقّي في التَّوبيخِ والذَّمِّ إلى الأغلظِ فالأغلظِ

أفادَ حرفُ الإضرابِ ﴿بَلْ﴾ الانْتقالَ مِنْ خبرٍ إلى خبرٍ، ومن أساليب البلاغةِ أَنْ يُظهِرَ المُتَكَلِّمُ أَنَّهُ يُوَفِّي حَقَّ خَصْمِهِ في الجِدَالِ،

---

(1) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 1/135، وابن عاشور، التحرير والتنوير: 1/625.

(2) المنتجب الهمذاني، الكتاب الفريد: 1/344.

فَلَا يَنْسُبُ لَهُ الـمَذَمَّةَ إِلَّا بِتَدَرُّجٍ وانتقالٍ مِمَّا يُظنّ أنّه قد تمَّ به الخبرُ إِلَى مَا هُوَ أَقْوَى مِنْهُ فِي ذَلِكَ الْغَرَضِ[1]، فقد نَسَبَ نَبْذَ العَهْدِ إلى فَريقٍ مِنْهُمْ، ثُمَّ أَخْبَرَ عنْهُمْ بعدُ بِأَنَّ أكثرَهُمْ لا يؤمنونَ، فَتَرَقّى مِنَ الإخبارِ عنْهُمْ بنَبْذِ عَهْدِ اللّهِ إلى ما هو أَغلظُ منهُ، وهو الإخبارُ عنهمْ بحرفِ الإضرابِ بأَنَّ أكثرَهُم لا يُؤمنونَ.

الإعجازُ الغَيْبيُّ في الإخبـارِ عن كفرِ أكثرِهم

أخبرَتِ الآيةُ أَنَّ أكثرَ اليهودِ لا يؤمنونَ؛ بدلالة الإقرارِ التي يتضمّنُها حرفُ الإضرابِ الانتقاليّ ﴿بَلْ﴾، وصيغةُ الفعلِ المضارعِ المفيدةُ لِتجدّدِ نفيِ الإيمانِ عنهم تدلُّ على هذا الإعجازِ.

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 1/625.

﴿وَلَمَّا جَآءَهُمۡ رَسُولٞ مِّنۡ عِندِ ٱللَّهِ مُصَدِّقٞ لِّمَا مَعَهُمۡ نَبَذَ فَرِيقٞ مِّنَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡكِتَٰبَ كِتَٰبَ ٱللَّهِ وَرَآءَ ظُهُورِهِمۡ كَأَنَّهُمۡ لَا يَعۡلَمُونَ ١٠١﴾ [البقرة: 101]

❁ مُناسَبَةُ الآيَةِ لِمَا قَبْلَها:

لـمّا أَنكر اللّهُ تعالى على اليهودِ في الآيةِ السَّابقةِ كفرَهُم بالقُرآن الكريم، وبيّنَ أنَّ أكثرَهم لا يؤمنونَ بالكتابِ، أتبعَ هذا الإنكارَ ذكرَ الرَّسولِ الذي جاءَ بالقرآنِ، فإذا كانوا لا يؤمنونَ بكتابِ اللّهِ تعالى الذي أَنْزَلَهُ إلى مُحمَّدٍ ﷺ، فإنَّهم أيضًا لا يؤمنونَ بمُحَمَّدٍ ﷺ، وذكرَ علّةَ ما يصدرُ عنهم مِنْ جُحودٍ لهذا الرَّسولِ، وهِيَ أنَّ فريقًا مِنْهم نَبَذُوا كتابَ اللّهِ الذي بهِ يَفْخَرونَ وراءَ ظهورِهم كأنّهم لا يعلمونَ.

❁ شَرْحُ المُفْرَدَاتِ:

1) ﴿وَرَآءَ ظُهُورِهِمۡ﴾: هَذَا التركيب اللغويّ مَثَلٌ يُضْرَبُ لِمَن اسْتَخَفَّ بالشَّيْءِ فتركه ولم يلتفت إليه، تَقُولُ العَرَبُ: اجْعَلْ هَذَا خَلْفَ ظَهْرِكَ، وَدُبُرًا مِنْكَ، وَتَحْتَ قَدَمِكَ؛ تهاونًا به، أو هو من المجازِ، بمعنى اتْرُكْهُ وَأَعْرِضْ عَنْهُ، أو لا تعملْ به[1].

❁ المَعْنَى الإجْمَالِيُّ:

ولما جاء أولئك اليهود رسول كريم من عند اللّه (هو نبينا محمد ﷺ) ووصْفه ونعْته وكتابه موافق لما في التوراة؛ أعرض فريق منهم عما دلت عليه، وطرحوها وراء ظهورهم غير مبالين بها، مشابهين حال الجاهل الذي لا ينتفع بما فيها من الحق والهدى[2]، فالآية أثبتت أنَّ علمَهم بالحقِّ رصينٌ، ولكنَّهم لـمّا كابَروا وعانَدوا ونَبذُوا كتابَ اللّهِ وراءَ ظهورِهم، وتركوا العملَ به، صاروا كأنَّهم لا يعلمون[3].

(1) الزمخشري، أساس البلاغة، وابن منظور، لسان العرب: (ظهر)، والقرطبي، الجامع لأحكام القرآن: 2/40.
(2) الرّاغب، تفسير الرّاغب الأصبهاني: 1/273، وابن عطيّة، المحرر الوجيز: 1/185، والفخر الرازي، التّفسير الكبير: 3/616.
(3) الرّاغب، تفسير الرّاغب الأصبهاني: 1/273، وابن عطيّة، المحرر الوجيز: 1/185، والفخر الرازي، التّفسير الكبير: 3/616.

❁ الإيضاحُ اللُّغويُّ وَالبَلَاغِيُّ:

دلالة التَّنوينِ في ﴿رَسُولٌ﴾:

تعظيمُ شأنِ الرَّسولِ عندَ اللهِ يقتضي الأخذَ منهُ والاقتداءَ بِهِ

يدلّ تنوينُ التَّنكيرِ هنا على التَّعظيم والتَّفخيم مِنْ شأنِ الرَّسولِ[1]؛ لِأَنَّه ورد في سياقِ المدحِ، فلا يُنَاسبُ هذا التَّعظيم ما فعلوه من الاستخفافِ والعنادِ ونبذِهم الكتابَ وراءَ ظهورِهم، ودلّ تعظيم شأنِ الرَّسولِ على التعجُّبِ من شأنِهم، فكيفَ يأتيهم رسولٌ ذو مكانَةٍ عظيمة عند اللّه وينبذون الكتاب الذي جاء به ولا يتّبعونه؟

فائدةُ التَّقييدِ بوصفينِ:

تكريمُ رسولِ اللهِ ﷺ وتعظيمُ قدرِه، والتَّأكيدُ على صدقه

ذكرتِ الآيةُ وصفينِ آخرين لصفةِ الرَّسول المنزَّلةِ منزلةَ الذَّات، الأوَّل: أنَّه من عند اللّه؛ ليدلّ على تشريفه وتعظيم قدره، ﷺ، فهو رسولٌ من عند اللّه، تَفْخِيمًا لِشَأْنِه، إِذِ الرَّسُولُ عَلَى قَدْرِ الْمُرْسِلِ[2]، والثّاني: وُصِفَ عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ بأنَّه ﴿مُصَدِّقٌ﴾، مع أنَّ القرآنَ هو المصدِّقُ للتَّوراةِ؛ بما تضمّنه من التَّوحيد وأصولِ الدِّين؛ لزيادةِ تأْكيدِ صدقِه وأنَّه لا يُبدِّلُ شيئًا من تلقاءِ نفسِه.

فائدة اللّامِ في ﴿مُصَدِّقٌ لِّمَا مَعَهُمْ﴾:

أفادتِ اللامُ تقويةَ الاختصاصِ، أي تقويةَ اختصاصِ تصديقِ الرَّسولِ لِمَا معهم من الكتاب.

بلاغةُ الاستعارةِ التَّصريحيَّة:

تشبيه المعنويِّ بالمحسوس لبيان قبيح الأفعالِ الصَّادِرَة عن النَّابِذين

شبَّهتِ الآيةُ تركَ العملِ بكتابِ اللّهِ بالشَّيءِ الذي يُطرَحُ من اليَدِ استخفافًا به ورَفْضًا له، على طريقةِ الاستعارةِ التَّصريحيَّة التَّبعيَّة، ثمَّ أَكَّدَ هذا الرَّفضَ والاستخفافَ بقولِه: ﴿وَرَآءَ ظُهُورِهِمْ﴾؛ فأفادت الاستعارةُ قبحَ فعلِهم؛ إذ جَعلوا كتابَ اللّهِ شبيهًا بالشَّيءِ المنبوذِ الذي يُرمَى كما تُرمَى المحقَّراتُ استخفافًا بها؛ فلم يَرمُوه بعيدًا

(1) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 1/135.
(2) أبو حيّان، البحر المحيط: 1/520.

فقط كما يدلّ عليه لفظُ ﴿نَبَذَ﴾؛ بلْ رمَوه بعيدًا وراءَ ظُهورِهم زيادةً في تعنُّتِهم، وعِنادًا لرسولِ اللّهِ محمّدٍ ﷺ، ورفضًا للعملِ بكتابِ اللّهِ.

دلالة التّنوين في ﴿فَرِيقٌ﴾:

دلَّ التَّنوينُ على التَّنكير في كلمةِ فريقٍ، فالفريقُ المذكورُ في هذه الآيةِ غيرُ الفريق المذكورِ في الآيةِ الأولى، ولهذا لم يُعرَّف بالعهدِ الذِّكريِّ فتدخلَ فيه الألف واللّام[1]، فالفريقُ الأوّل نبذ العهود التي عاهدوا اللّه بها من قبلُ، والفريقُ الثّاني المذكور في هذه الآية هو الذي نبذ كتاب اللّه الذي جاء به الرَّسولُ محمَّدٌ ﷺ، فألقاه وراء ظهره، والفريقُ الثاني أشدّ شناعةً وأقبح وصفًا.

نكتةُ مجيءِ المسندِ إليه اسمًا موصولًا:

قال تعالى: ﴿نَبَذَ فَرِيقٞ مِّنَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡكِتَٰبَ كِتَٰبَ ٱللَّهِ﴾، ولم يقلْ: نبذ فريقٌ منهم؛ فعبّرَ بالاسمِ الموصولِ لاستحضارِ جملةِ الصِّلةِ، وليتّصلَ باستحضارِها ثلاثةُ أمورٍ:

أحدُها: التّعجيبُ من نبْذهم كتابَ اللّه، فهم قد أُوتوا الكتابَ، ومَنْ أُوتيَ كتابَ اللّهِ فعليه أنْ يتَّبعَ ما يكونُ مُصدِّقًا له، ولا يُفرّطَ به، فكيف إذا نَبَذَهُ وراءَ ظهرِه؟

الثّاني: التّعريضُ بشناعةِ فعلِهم، وتوبيخُهم على نبْذِهم كتابَ اللّهِ.

الثّالث: الإشارةُ إلى أنَّ ﴿ٱلۡكِتَٰبَ﴾ هو التّوراةُ، و﴿كِتَٰبَ ٱللَّهِ﴾ يُقصَدُ به القرآنُ، فإنَّ المعرفةَ إذا تكرَّرت لا تقتضي أنْ تكون نفسَها، إلّا إذا كان كِلا الاسمينِ مُعرَّفًا بـ(أل)، ومع وجود القرينةِ[2].

دلالة الإضافة:

معنى الإضافةِ في ﴿كِتَٰبَ ٱللَّهِ﴾ يُشبه معنى اللَّام التي للمِلْكِ؛ فيقتضي هذا تعظيمَه وتشريفَه، والالتزامَ به، لا التّفريطَ به ونبْذَهُ وراءَ الظَّهرِ.

بلاغةُ التَّشبيه في قوله ﴿كَأَنَّهُمۡ لَا يَعۡلَمُونَ﴾:

قولُه تعالَى: ﴿كَأَنَّهُمۡ لَا يَعۡلَمُونَ﴾ جُمْلَةٌ حَاليَّةٌ، وَهُوَ تَشْبيهٌ لِمَنْ يَعْلَمُ بِمَنْ يَجْهَلُ؛ لِأَنَّ الجَاهِلَ بِالشَّيْءِ لَا يَحْفِلُ بِهِ ولَا يَعْتَدُّ بِهِ، لِأَنَّهُ لَا شُعُورَ لَهُ بِما فِيهِ مِنَ المَنْفَعَةِ. ومُتَعَلَّقُ

---

(1) الرّاغب، تفسير الرّاغب: 1/273.

(2) السمين، الدرّ المصون: 11/46، وابن عاشور، التحرير والتنوير: 1/626.

تشبيه العالِم بالجاهلِ لبيان عنادِه ومكابرتِه ومجانبتِه للحقِّ

العلم مَحْذُوفٌ؛ أَيْ: كَأَنَّهُمْ لَا يَعْلَمُونَ أَنَّهُ كِتَابُ اللّه، لَا يُدَاخِلُهُمْ فِيهِ شَكٌّ لِثُبُوتِ ذَلِكَ عِنْدَهُمْ وَتَحَقُّقِهِ، وَإِنَّمَا نَبَذُوهُ عَلَى سَبِيلِ الْمُكَابَرَةِ وَالعِنَادِ[1]، فَهُمْ على عِلمٍ رصينٍ، ولكنَّهم تظاهروا بعدم العلم[2]، ونلمحُ في هذا التَّعبير السُّخريةَ والاستهزاءَ بِهم؛ إذْ أكّدَ علمَهم بما يَشبهُ نفيَه عنهم.

التَّعبيرُ بصيغةِ المضارعِ ﴿لَا يَعۡلَمُونَ﴾:

جاءَ نفيُ العلم بصيغة المضارعِ لا الماضي مع أنَّه ظاهرُ الكلام؛ فلم يقُل: (كأنَّهم لم يعلموا)؛ لإفادة أَنَّ هَذَا الفَرِيقَ النَّابِذَ لِكِتَابِ اللّهِ يَتَمَادَى بِهِمُ الزَّمَانُ ولَا يَتُوبُونَ ولا يَرْجِعُونَ، وأنّ السُّخرية من فعلِهم وعملِهم مستمرَّةٌ لا تنقطعُ، فما أَحْسَنَ التَّعْبِيرَ عن ذَلِكَ بِنَفيِ الحَالِ والاسْتِقْبَالِ دُونَ نَفيِ المَاضِي[3].

حذفُ المفعولِ لإفادةِ العمومِ:

إثباتُ علمِ اليهودِ بكلِّ ما نَفَوا علمَهُم بِهِ

حَذَفَ المفعولَ ليفيدَ عمومَ ما تظاهروا بهِ من عدم العلم، والمعنى: كأنَّهم لا يعلمون في كتابهم ببشارةِ رسولِ اللّهِ ﷺ وأوصافه، أو كأنَّهم لا يعلمونَ صدقَ الرَّسولِ، أو كأنَّهم لا يعلمونَ استحقاقَهم العذابَ على نبْذِهم كتابَ اللّهِ، وكلُّ ما كانوا يعلمونَه وهم يَتظاهرونَ بنفيِه عنهم يَستغرقُه العمومُ، والمعنى على إثباتِ علمِهم بكلِّ ما نَفَوا علمَهم بِهِ.

توجيه المتشابه اللّفظي:

الفرقُ بينَ ﴿نَّبَذَهُۥ فَرِيقٞ مِّنۡهُمۚ﴾ و﴿نَبَذَ فَرِيقٞ مِّنَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡكِتَٰبَ كِتَٰبَ ٱللَّهِ وَرَآءَ ظُهُورِهِمۡ﴾، أنّ قوله تعالى: ﴿أَوَكُلَّمَا عَٰهَدُواْ عَهۡدٗا نَّبَذَهُۥ فَرِيقٞ مِّنۡهُم﴾ يفيدُ نبذَهم لأيِّ عهدٍ بالرَّفضِ وعدم الاعتدادِ به، فجاءتْ كلمةُ ﴿عَهۡدٗا﴾ نكرةً لتشملَ أيَّ عهدٍ من العهود،

(1) أبو حيان، البحر المحيط: 1/521.

(2) الشعراوي، تفسير الشعراوي: 1/487.

(3) رشيد رضا، تفسير المنار: 1/328.

سواءً أكانَ في التَّوراةِ أَمْ ممّا أخذَه عليهم موسى ﷺ، وسواءً أكان صغيرًا أم كبيرًا، وأمّا سببُ ذكرِ النَّبذِ وراءَ الظّهرِ في هذه الآية فإنّه لّما جاءَ السِّياقُ مشتَمِلًا على ذكرِ مجيءِ رسولِ اللّه ﷺ مِنْ عِنْدِ اللّهِ مُصدِّقًا لِمَا مَعَهم، وعلى التّصريحِ بنبذِ كتابِ اللّهِ، ذكرَ ﴿وَرَآءَ ظُهُورِهِمْ﴾؛ ليدلّ على شدّة استخفافِهم وجَحْدِهم، وعلى تأكيدِ رفضِهم وإهمالِهم، بنبْذ العملِ بما جاء به الرسولُ محمّدٌ ﷺ، ورفضِهم لَه ﷺ، فالنَّبذُ في هذه الآية أشنعُ وأقبحُ.

﴿وَٱتَّبَعُواْ مَا تَتْلُواْ ٱلشَّيَٰطِينُ عَلَىٰ مُلْكِ سُلَيْمَٰنَۖ وَمَا كَفَرَ سُلَيْمَٰنُ وَلَٰكِنَّ ٱلشَّيَٰطِينَ كَفَرُواْ يُعَلِّمُونَ ٱلنَّاسَ ٱلسِّحْرَ وَمَآ أُنزِلَ عَلَى ٱلْمَلَكَيْنِ بِبَابِلَ هَٰرُوتَ وَمَٰرُوتَۚ وَمَا يُعَلِّمَانِ مِنْ أَحَدٍ حَتَّىٰ يَقُولَآ إِنَّمَا نَحْنُ فِتْنَةٌ فَلَا تَكْفُرْۖ فَيَتَعَلَّمُونَ مِنْهُمَا مَا يُفَرِّقُونَ بِهِۦ بَيْنَ ٱلْمَرْءِ وَزَوْجِهِۦۚ وَمَا هُم بِضَآرِّينَ بِهِۦ مِنْ أَحَدٍ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِۚ وَيَتَعَلَّمُونَ مَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنفَعُهُمْۚ وَلَقَدْ عَلِمُواْ لَمَنِ ٱشْتَرَىٰهُ مَا لَهُۥ فِي ٱلْءَاخِرَةِ مِنْ خَلَٰقٍۚ وَلَبِئْسَ مَا شَرَوْاْ بِهِۦٓ أَنفُسَهُمْۚ لَوْ كَانُواْ يَعْلَمُونَ ١٠٢﴾ [البقرة: 102]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِمَا قَبْلَها:

لـمّا بيّن اللّهُ تعالى أنَّ بني إسرائيلَ نَبَذوا كتابَ اللّهِ وراءَ ظهورِهم، ناسَبَ في هذهِ الآيةِ أَنْ يَذْكُرَ الـمُقابِلَ، وهو اتّباعُهمُ الأباطيلَ، فَقَدِ اتَّبَعُوا ما تَتْلو الشَّياطينُ وأَقبلُوا عليها، ومَنِ اتَّبَعَ شَيْئًا فَضَّلَهُ على غَيرِهِ، فجاءَتْ هذهِ الآيةُ زيادةً في توبيخِهِم، وتعجيبًا مِنْ حالِهم، وقِلَّةِ عقولِهِمْ(1).

شَرْحُ المُفْرَدَاتِ:

1) ﴿وَٱتَّبَعُواْ﴾: يدورُ أَصْلُ (تَبِعَ) على معنى: التُّلُوِّ والقَفْوِ، فيكونُ حقيقةً في الأَجسامِ، بمعنى الـمَشْيِ وراءَه، واتَّبَعَ الشَّيءَ: تَطلَّبَه ولَحِقَه، وسارَ في إِثْرِه، ويكونُ ائتمارًا في العَمَلِ، بِقَوْلِ الْغَيْرِ وَبِرَأْيِه، وَفِي الِاعْتِقَادِ؛ نحو: اتَّبَعَ فلانٌ مَذْهَبَ الإمامِ مالِكٍ، ومعنى: ﴿وَٱتَّبَعُواْ﴾: أَصْغَوا إلى الشَّياطين، وعَمِلُوا بِمَا تَتْلوه عليهم(2).

2) ﴿تَتْلُواْ﴾: تَلَا يَتْلو بمعنى: تَبِعَه، ويَدورُ المعنى المحوريُّ على اتّباعِ الشَّيءِ ما يَسْبِقُهُ، لُحوقًا به مِن خَلفِه، وذلكَ يكونُ تارةً بالجِسمِ، وتارةً: بالاقتداءِ في

(1) الزّمخشريّ، الكشّاف: 1/172، والبقاعيّ، نظم الدّرر: 2/72.

(2) ابن فارس، مقاييس اللّغة، وابن منظور، لسان العرب: (تبع)، وينظر: التّحرير والتّنوير: 1/629.

الحُكم واتِّباعِه، ومصدرُه: تُلُوٌّ وتِلْوٌ، وتارةً: بالقراءةِ وتدبُّرِ المعنى، ومصدرُهُ: تِلَاوَةٌ، والتِّلاوةُ: تختَصُّ باتِّباعِ كُتُبِ اللهِ المُنَزَّلةِ، قراءةً أو اتِّباعًا، وهي أَخَصُّ من القراءةِ، فكلُّ تلاوةٍ قراءةٌ، وليس كلُّ قراءةٍ تِلاوةً، وَالتِّلاوَةُ: قِرَاءَةُ المَكْتُوبِ وَالكِتَابِ، وعَرْضُ المَحْفُوظِ عَنْ ظَهْرِ قَلْبٍ، وتكونُ بصوتٍ[1]، والمعنى في الآية: ما تَتَقَوَّلُه الشّياطينُ كَذِبًا.

3) ﴿ٱلشَّيَٰطِينُ﴾: جمعُ شَيطانٍ، وأصلُه من: شَطَنَ، ويَدُلُّ عَلَى معنى البُعْدِ، ومنه بِئْرٌ شَطُونٌ، وشَطَنَتِ الدّارُ، وسُمِّيَ الشَّيطانُ بِذَلِكَ؛ لِبُعْدِهِ عَنِ الحَقِّ وَتَمَرُّدِه، ووَزْنُ شَيْطان على هذا الاشتقاق هو: فَيْعال.

وذَهَبَ بعضُ اللُّغويِّين إلى أنّ أصلَ الكلمةِ: شَاطَ يَشِيطُ، بمعنى: احتَرَقَ غَضَبًا، فتكونُ النُّونُ زائدةً، ووَزْنُ شَيْطان على هذا الاشْتِقاقِ: فَعْلان، وَذَلِكَ أَنَّ كُلَّ عَاتٍ مُتَمَرِّدٍ مِنَ الجِنِّ وَالإِنْسِ شَيْطَانٌ.

والشَّيْطَانُ: مخلوقٌ من النّار ، كما دلَّ عليه قولُه تعالى: ﴿وَخَلَقَ ٱلْجَآنَّ مِن مَّارِجٍ مِّن نَّارٍ﴾ [الرحمن: 15]، ولكونِ خَلْقِه من ذلك: اختصَّ بفَرْطِ القُوّةِ الغضبيّةِ، والحَمِيّةِ الذّميمةِ، وامتنعَ من السّجودِ لآدم[2].

4) ﴿ٱلْمَلَكَيْنِ﴾: أَصْلُ مَلَك هو: أَلَك، والمعنى المحوريُّ هو: مَضْغُ الشَّيءِ، أو إدارتُه في الفمِ، على شدَّةٍ فيه، وسُمِّيتِ الأَلُوكة والأَلُوك والمَأْلُكة -بضمِّ اللّام وفتحِها-: الرِّسالة؛ لأنّها رسالةٌ شَفَوِيَّةٌ تُدار في الفم، والمَلَك من هذا، وأصلُه: مَأْلَك، ثمّ بالنَّقل: مَلْأَك، ثمّ خُفِّفَ فصار: مَلَكًا، لأنّ المَلَكَ رسولٌ، يَحمِلُ رسالةً من اللّه ﷻ، إلى مَن أراد من عبادِه، فوزنُ مَلَك: مَعَل، وجمعُه مَلَائِكَة، بوزن: مَعَافِلَة.

وذهبَ بعضُ اللُّغويّين إلى أنّ أصلَ الكلمةِ: لَأَك، على معنى: أرسل كذلك، والمَلْأَك: المَلَك؛ لأنَّه يُبلِّغُ الرِّسالةَ عن اللّهِ ﷻ، فيكونُ وزنُ مَلَك: مَفَل، ومَلَائِكَة على وزنِ: مَفَاعِلَة[3]، وتُطلَقُ الملائكةُ على الواحدِ والجمع.

(1) ابن فارس، مقاييس اللُّغة، والرّاغب، المفردات، وجبل، المعجم الاشتقاقيّ المؤصّل: (تلَوَ).
(2) ابن فارس، مقاييس اللُّغة، والرّاغب، المفردات: (شطن).
(3) السّمين، عمدة الحفّاظ، وجبل، المعجم الاشتقاقيّ المؤصّل: (ألَك).

5) ﴿ٱلسِّحۡرَ﴾: هو صَرْفُ الشَّيْءِ عَن حَقِيقَتِه إلَى غيره، بِمَا لَطُفَ مَأْخَذُهُ، وَدَقَّ وخَفِيَ سببُه، فكأَنَّ السَّاحِرَ لَمَّا أَرَى الباطلَ في صُورَةِ الْحَقِّ، وخَيَّلَ الشَّيءَ عَلَى غَيْرِ حَقِيقَتِه، قَدْ سَحَرَ الشَّيْءَ عَنْ وَجْهِهِ، أَي: صَرَفَهُ، ويُقَالُ: سَحَرَه بِكَلَامِهِ، بمعنى: استماله، وسَلَبَ لُبَّه، بِحُسْنِ بَيَانِهِ، ولُطْفِ مَأْخَذِه، ومنه الحديث: (إنَّ من البيانِ لَسِحْرًا)[1]، وكلُّ ما حَسُنَ جمالُه، وخَفِيَ سببُ حُسنِه، يوصَفُ بالسِّحرِ، والسِّحرُ في عُرْفِ الشَّرْعِ مُخْتَصٌّ بِكُلِّ أَمْرٍ، يَخْفَى سَبَبُهُ، وَيُتَخَيَّلُ عَلَى غَيْرِ حَقِيقَتِهِ، وَيَجْرِي مَجْرَى التَّمْوِيهِ وَالْخِدَاعِ[2].

6) ﴿فِتۡنَةٞ﴾: يَدُلُّ المعنى المحوريُّ لـ (فَتَنَ): على إذابةٍ بالنّار، لتَظْهَرَ جُودة المذاب مِنْ رَداءته، كإذابةِ الذَّهبِ والفِضَّةِ، ومِنَ الذَّوبانِ والتَّحَوُّلِ المَعْنَوِيَّيْنِ: الافتتانُ بالنِّساءِ والمالِ والأولادِ، برِقَّةِ القلبِ ونحوِها، حتَّى يَرْتَكِبَ المَحظورَ في سبيلِه، واستُعمِلَت الفِتنةُ في تَمْحيصِ حقيقةِ ما في القلوبِ، بتَعريضِها للشَّدائدِ كما يُصْهَرُ الذَّهبُ أو الفضَّةُ؛ فيمتازُ خَبَثُهما عن جَوهرِهما الخالصِ، فصارت الفتنةُ تَدُلُّ عَلَى إيقاعِ الابْتِلاءِ، أو التّعريضِ له بالاخْتِبَارِ[3]، و(فِتْنَةٌ) في الآية بمعنى: اختبار وابتلاء[4].

7) ﴿ٱلۡمَرۡءِ﴾: أصلُه: مَرَأَ، والمَرْءُ: بمعنى رَجلٍ من أسماءِ بني آدمَ، والأنثى منه: المَرْأَةُ، والمَرْءُ: يَدُلُّ على معنى الإنسانيَّةِ، وكمالِ الرُّجولةِ، ويُطلَقُ على الرَّجُلِ المَقْبولِ في خَلْقِه وخُلقِه، والمَرْءُ: يُوَحَّدُ ويُثَنَّى، ولا يُجْمَعُ على صُورته، فيُقالُ: هذا امْرُؤ، وهذانِ امْرَآنِ، وفي الجمع يُقالُ: هؤلاءِ رجالٌ[5]، والمَرْءُ في الآية بمعنى: زَوجِ المَرْأَةِ.

8) ﴿وَزَوۡجِهِۦۚ﴾: هو الفَرْدُ الّذي له قَرِينٌ، فالمرأةُ زوجُ الرَّجلِ، والرَّجلُ زوجُ المرأةِ، ولا يُقالُ للشَّيءِ زَوْجٌ، إلّا إذا صار تَداخُلٌ بين شيءٍ وآخرَ، حتَّى يَخْتَلِطا، فالزَّوجُ هو الشَّيءُ المُرْتَبِطُ بآخرَ، ارْتباطًا مادِّيًّا أو معنويًّا، وبعضُ قبائل العرب -مثل تَميم- تُلْحِقُ به التّاءَ، فتقولُ: زوجة[6].

(1) البخاريّ، صحيح البخاريّ، رقم الحديث: 5146.
(2) الأزهريّ: تهذيب اللُّغة، وابن فارس، مقاييس اللُّغة: (سحر)، وينظر: الرّازيّ، التّفسير الكبير: 3/619.
(3) ابن فارس، مقاييس اللُّغة، وجبل، المعجم الاشتقاقيّ المؤصّل: (فتن).
(4) ابن قتيبة، غريب القرآن، ص: 59.
(5) الأزهريّ، تهذيب اللُّغة، وجبل، المعجم الاشتقاقيّ المؤصّل: (مرأ).
(6) الأزهريّ، تهذيب اللُّغة، وجبل، المعجم الاشتقاقيّ المؤصّل: (زوج).

9) ﴿بِضَآرِّينَ﴾، ﴿يَضُرُّهُمۡ﴾: أصلُ الكلمة: ضَرّ، يَدُلُّ على التَّضييق والنَّقْص، والضّرُّ: ضِدُّ النَّفْع، ويُحْمَلُ على هذا المعنى: كُلُّ مَا جَانَسَهُ، أَوْ قَارَبَهُ، وَكُلُّ مَا كَانَ مِنْ سُوءِ حَالٍ وَفقْرٍ، أَو شِدَّةٍ في بَدَنٍ، فَهُوَ ضُرٌّ، وَمَا كَانَ ضِدًّا لِلنَّفْعِ فَهُوَ ضَرٌّ، والأصلُ واحدٌ، ويُقالُ: ضَرَّهُ يَضُرُّهُ: إذا فَعَلَ بِهِ مَكْرُوهًا(1).

10) ﴿خَلَٰقٍۚ﴾: أصلُ الكلمة: خلَقَ، بمعنى تَقْدِيرِ الشَّيْءِ وتهيئته، وَمِنْ ذَلِكَ: الخُلُقُ، وَهُو السَّجِيَّةُ؛ لِأَنَّ صَاحِبَهُ قَدْ قُدِّر عَلَيْه، وَفُلَانٌ خَلِيقٌ بِكَذَا، أَيْ: هُوَ مِمَّنْ يُقَدَّرُ فِيهِ ذَلِكَ، وَالخَلَاقُ: الحَظُّ؛ لِأَنَّهُ قَدْ قُدِّرَ لِكُلِّ أَحَدٍ نَصِيبُهُ، وصار الخَلَاقُ مُستعمَلًا في الحظِّ والنَّصِيب مِنَ الْخَيْرِ وَالصَّلَاحِ(2).

11) ﴿ٱشۡتَرَىٰهُ﴾ ﴿شَرَوۡاْ﴾: الأصْلُ: شرَوَ، قُلبَتِ الواوُ ألفًا؛ لِتحرُّكِها، وانفتاح ما قبلَها، ويَدُلُّ الشِّراءُ عَلَى تعاوُضٍ مِنَ الاثْنَيْنِ، في أَمْرَيْنِ أَخْذًا وَإِعْطَاءً مُمَاثَلَةً، واشتريت الشّيءَ: إِذَا أَخَذْتَهُ مِنْ صَاحِبِهِ بِثَمَنِهِ، فَالْمُشْتَرِي دافعُ الثّمَنِ، وآخِذُ المُثْمَنِ، والبائعُ دافعُ المُثْمَنِ، وآخِذُ الثَّمَنِ، ولَفْظُ البيع والشّراء: يُستَعمَلُ كلُّ واحدٍ منهما في موضِعِ الآخرِ، وشَرَى: يأتي -غالبًا- بمعنى: باع، و﴿ٱشۡتَرَىٰهُ﴾ في الآية بمعنى: الاسْتِبْدالِ، أي: اسْتَبْدَلَ ما تُحَدِّثُ به الشَّياطِينُ من السِّحْرِ بكِتابِ اللّهِ، و(شَرَوا) بمعنى: باعوا(3).

۞ المَعْنَى الإِجْمَالِيُّ:

يُخبِرُ اللّهُ عن اليهود أنّهم تَركوا ما ينفعُهم، فابتُلوا بالاشْتغال بما يضرُّهم، واتَّبَعوا ما لا يَنبغي اتِّباعُهُ، ممَّا تُحَدِّثُ الشّياطينُ بِهِ السَّحرَةَ مِنَ السّحرِ، على عَهدِ مُلكِ سليمانَ بنِ داودَ عليهما السلام، وما كفرَ سليمانُ، وما تَعَلَّم السِّحرَ، ولكنَّ الشَّياطينَ همُ الّذين كفروا باللّه، حينَ علَّموا النَّاسَ السِّحرَ، وعَمِلوا بِهِ؛ إفسادًا لدينِهم، وكذلكَ اتَّبعَ اليهودُ السِّحرَ الّذي أُنزِلَ على المَلَكَين: هاروتَ وماروتَ، بأرضِ بابلَ في العِراقِ؛ امتحانًا وابتلاءً من اللّه لعبادِه، وما يُعلِّمُ المَلَكانِ من أحدٍ حتّى يَنْصحاهُ، ويُحَذِّراه مِن تعلُّم السِّحرِ، ويَقولا لَه: لا تَكْفُرْ؛

(1) ابن فارس، مقاييس اللُّغة، وجبل، المعجم الاشتقاقيّ (ضرر).

(2) الأزهريّ، تهذيب اللُّغة، وابن فارس، مقاييس اللُّغة، وجبل، المعجم الاشتقاقيّ المؤصّل: (خَلَق).

(3) ابن فارس، مقاييس اللُّغة، والرّاغب، المفردات، والسّمين، عمدة الحفّاظ: (شَرَو)، وينظر: ابن جرير، جامع البيان: 2/340، 445.

بِتعلُّمِ السِّحرِ، وطاعةِ الشَّياطينِ، فيتعلَّمُ النَّاسُ مِن المَلَكَينِ ما يُحَدِّثُونَ به الكراهيَّةَ بينَ الزَّوجينِ، حتَّى يَتفرَّقا، وَلا يَستطيعُ السَّحرةُ أَنْ يَضُرُّوا به أَحدًا إلَّا بإذنِ اللهِ وقضائِه، وَما يتعلَّمُ السَّحرةُ إلَّا شَرًّا يَضرُّهُم، ولا يَنفعُهُم، وقد نقلتْه الشَّياطينُ إلى اليهودِ، فشاعَ فيهم، حتَّى فضَّلوه على كتابِ اللهِ، وأقبلوا على السِّحرِ، الّذي كانَ إبطالُه مِن أَوَّلِ معجزاتِ نبيِّهم وأعظمِها؛ فهو أشدُّ شيءٍ منافاةً لِشَرعِهم، معَ علمِهم بأنَّ ذلك يَضرُّهم في الدَّارينِ، ولا يَنفعُهم، وَلقدْ علِمَ اليهودُ أنَّ مَنِ اختارَ السِّحرَ، وَتركَ الحقَّ، ما لَه في الآخرةِ من نصيبٍ في الخيرِ، وَلَبِئْسَ ما باعُوا به أنفسَهم مِن السِّحرِ والكُفرِ، عِوَضًا عن الإيمانِ ومتابعةِ الرَّسولِ، لَو كان لَهمْ عِلْمٌ ينتفعونَ به، وَيُثمِرُ العملَ بِمَا وُعِظوا به[1]، وفي هذهِ الآيةِ: توبيخٌ آخرُ منَ اللهِ ﷻ لليهودِ، الَّذين أدركُوا رسولَ اللهِ ﷺ، فجَحدُوا نبوَّتَه، وَرفضُوا اتِّباعَ القرآنِ، وَهو بينَ أيديهم يعلَمونَه، وَيعرفونَ أنَّه كتابُ اللهِ، وَفيها تعجيبٌ من حالِهم كذلكَ؛ لِأَخْذِهم بِالْأَبَاطيلِ، بعدَ نبذِهمْ كتابَ اللهِ.

۞ الإيضَاحُ اللُّغَوِيُّ وَالبَلَاغِيُّ:

دلالة الاسم الموصولِ (ما) في قولِه: ﴿وَٱتَّبَعُواْ مَا تَتۡلُواْ﴾:

مَن استغرقَ نفسَهُ في الباطِلِ فَليسَ لَهُ في الحقِّ نَصيبٌ

أفادتْ (ما) الموصولةُ العُمومَ، والمعنى: اتَّبَعُوا كُلَّ ما تلتْهُ الشَّياطينُ على ملكِ سليمان من غير نَقْصٍ، للإشارة إلى استغراقِ اتِّباعِ مَتْلوِّ الشَّياطينِ، فلم يَتركوا منه شيئًا؛ ليدلَّ على حرصِهم عليه، وأنَّهُ لم يَبقَ لاتِّباعِ كتابِ اللهِ نصيبٌ؛ توبيخًا لهم، وتَهكُّمًا عليهم، لِقلَّةِ عَقلِهم؛ فإنَّ شأنَ العاقِلِ أنْ يتأمَّلَ المَتبوعَ، وينقدَ الخطأَ، لكنَّ اتِّباعَهم كان لِمامًا، ومتبوعَهم كانَ إمامًا.

نكتةُ مجيءِ الفعلِ: ﴿تَتۡلُواْ﴾ على التَّضمين:

بيانُ افتراءِ الشّياطين وكذبها على مُلك سليمان

لمّا كانَ الشَّياطينُ يَكْذِبونَ دائمًا، نبّهَ النَّظمُ إلى أنَّ تلاوتَهم كانت كَذِبًا، فَضمَّنَ الفعلَ: ﴿تَتۡلُواْ﴾ معنى تَكْذِبُ، وأَشْعَرَ به بتعديَتِه بـ﴿عَلَىٰ﴾ على ﴿مُلۡكِ سُلَيۡمَٰنَ﴾، فإنَّ التِّلاوةَ لا تكونُ على الأشياءِ،

(1) ابن جرير، جامع البيان: 2/209، والبقاعيّ، نظم الدّرر: 2/75، ونخبة من العلماء، التّفسير الميسّر، مجمع الملك فهد: 1/16.

بلْ على الأشخاصِ، والتَّقديرُ: تكذبُ على مُلْكِه[1]، وتفتري وتختلقُ، ونكتةُ التَّضمينِ إظْهارُ التِّلاوة، وإبطالُ الافتراءِ، وهو ما يتناسبُ مع واقعِ اليهودِ، فهم يُظهِرون خلافَ ما يُبطنون، فناسبَ اللَّفظُ المعنى.

فَائِدةُ اسْتِعمالِ كلِمةِ ﴿تَتْلُواْ﴾ دُونَ غَيْرِها:

التِّلاوةُ ذاتُ صبغةٍ دينيَّةٍ مُؤثِّرةٍ، أمَّا القراءَةُ فهي عامَّةٌ

أتتِ الآيةُ بالفعلِ: ﴿تَتْلُواْ﴾ دونَ: (تقرأ) أو: (تتقوّلُ)، والتِّلاوةُ لا تكون إلَّا لكُتُبِ اللّه[2]، فاستُعمِلَ الفعلُ: (تتلوا) للدّلالة على أنَّ القراءةَ هي تلاوةٌ ذات صبغةٍ دينيَّةٍ؛ لِيخْدَعُوا بها السَّامعين؛ لِمَا تُشْعِرُ به التِّلاوةُ، بأنّها كانتْ إلقاءً بصوتٍ، مع حُسنِ تنغيمٍ، وقراءةٍ واضحةٍ بيِّنةٍ تتوالى كلماتُها؛ كي يكونَ المَتْلوُّ مُؤثِّرًا[3].

نكتةُ مجيءِ الفعل ﴿تَتْلُواْ﴾ بصيغةِ المضارعِ:

كانَ الظَّاهرُ أنْ يقولَ: (وَاتَّبَعوا ما تَلَتْهُ الشَّياطينُ)، فعَدَلَ إلى المضارعِ؛ للإشارةِ إلى كَثْرَتِه وفُشُوِّه واسْتمراره؛ فَإِنَّ أحبارَ اليهودِ لَمْ يَزَالُوا يَتْلُونَ ذَلِكَ، فَيَكُونُ المَعْنَى: إِنَّهُمُ اتَّبَعُوا مَا تَلَتْهُ الشَّيَاطِينُ، وَلَمْ تَزَلْ تَتْلُوهُ[4]؛ لبيانِ أنَّ الأسْلافَ ما زالُوا على نَهْجِ الآباءِ.

بلاغةُ نفيِ الكُفرِ دون السِّحرِ:

بيانُ قبيحِ فعلِ اليهودِ في اتِّهامِ سليمان بالسِّحرِ، وأنَّ مآلَه الكُفرُ

لَمْ يَتَقَدَّمْ في الآيَةِ أَنَّ أحَدًا نَسَبَ سليمانَ عليه السلام إِلَى الْكُفْرِ، فإنّ النَّفيَ يَقتضي الإثباتَ، وكيف يُنسبُ إلى الكفرِ وهو نبيٌّ؟!، وَلَكِنَّ الكلامَ على إيجازِ الحَذْفِ، وطيِّ الكلامِ، مِنْ أَنَّ الْيَهُودَ نَسَبَتْ سليمانَ إِلَى السِّحْرِ، وأضافتْه إليه، ولَمَّا أرادَ أَنْ يُظهرَ غِلَظَ أمرِ السِّحرِ وشناعتِه، وأنَّ السِّحرَ كُفرٌ، صَارَ مَنْ نَسَبَ سليمانَ إلى السِّحرِ، بِمَنْزِلَةِ مَنْ نَسَبَهُ إِلَى الْكُفْرِ[5]، فنَفى لازمَ السِّحرِ وهو الكفرُ؛ لِيَدُلَّ على أنّه كفرٌ،

(1) ابن جرير، جامع البيان: 2/212، وأبو حيّان، البحر المحيط: 1/523، والبقاعيّ، نظم الدّرر: 2/73.
(2) الرّاغب، المفردات: تلَوَ.
(3) ابن جرير، جامع البيان: 2/209، وأبو زهرة، زهرة التّفاسير: 1/337.
(4) البقاعيّ، نظم الدّرر: 2/73، وابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 1/629.
(5) القرطبيّ، الجامع لأحكام القرآن: 2/43، وابن جرير، جامع البيان: 2/217.

فكأنَّ السِّحرَ مِن المُلازم المُساوي للكفر، ونُكتةُ ذلك بيانُ شناعةِ السِّحْرِ، وبيانُ قبيحِ من يَنسِبُ سليمان عليه السلام للسِّحرِ، ولو نفى عنه السِّحرَ بدَلَ الكُفرِ لكان ذلك أخفَّ في بيانِ الافتراءِ عليه.

وفي المُقابِلِ نَفَتِ الآيةُ الكُفرَ المقصودَ به السِّحرعن سليمانَ عليه السلام، وأَثبتَته للشَّياطين، فأرادَت أنْ تُظهِرَ شَناعةَ السِّحرِ وقبحَه، فسمَّتْه كُفرًا، ولمّا كانَ السِّحرُ من اللّازم المُساوي للكفرِ، صاروا كأنَّهم يُعَلِّمون النَّاسَ الكفرَ بتعليمِهمُ السِّحرَ، وأثبتَتِ الكُفرَ للشَّياطين على صيغةِ الماضي؛ لِيفيدَ أنَّ المرادَ شياطينُ الإنسِ؛ لِأَنَّ كُفْرَ الشَّيَاطِينِ مِنَ الجِنِّ أَمْرٌ مُقَرَّرٌ، لَا يَحْتَاجُ لِلْإِخْبَارِ عَنْهُ[1]، ولِيفيدَ: أنّ الكفرَ سببُ تعليم النَّاسِ السِّحرَ.

بلاغةُ وضعِ الظَّاهرِ موضعَ المُضمَرِ:

تفخيمُ شَأْنِ الأنبياءِ في معرِضِ الاتِّهامِ

كَرَّرَ النَّظمُ اسمَ نبيِّ اللّه سليمانَ عليه السلام، فجاء به ظاهرًا في موضعِ الإضْمار، تَفْخيمًا له وتعظيمًا، ولاسيّما مع اقترانه بالمُلْكِ، وإظهارًا لنَزاهته عليه السلام، وكذبِ باهتيه بذلكَ[2].

دلالة حرفِ الاستدراكِ ﴿وَلَٰكِنَّ﴾:

صيانةُ احتمالِ الأفهامِ، بإثباتِ الكفرِ للشَّياطين

تُفيدُ: ﴿وَلَٰكِنَّ﴾ الاستدراكَ، والتَّغايرَ في المعنى، بين ما قبلَها وما بعدَها[3]، فلمّا نُفِيَ الكفرُ عن سليمانَ عليه السلام، قد يَتوهَّمُ المخاطَبُ أنّ الشّياطينَ لم يَكفروا، فتَداركت (لكنَّ) الخبرَ، وأثبَتَتْ كُفرَ الشَّياطين، فدلَّت على مُغايرةِ حُكم ما بعدَها في إثباتِ الكُفرِ للشَّياطين، لِحُكم ما قبلَها في نفيه عن سُليمان عليه السلام.

دلالة الجملة الحاليّة: ﴿يُعَلِّمُونَ ٱلنَّاسَ ٱلسِّحْرَ﴾:

مراتبُ الكفرِ تُحدِّدُها الأفعالُ، وكلَّما كان منتشرًا زادَ بلاؤه

أفادتِ الجُملةُ الحاليَّةُ: اقترانَ تَعليمِ النَّاسِ السِّحرَ، بِكُفرِ

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 1/627.

(2) السّمين، الدّر المصون: 2/29، أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 1/137.

(3) المراديّ، الجنى الدّاني، ص: 614.

الشَّياطين[1]، فهمْ قدْ كَفروا في حالِ تعليم النَّاسِ السِّحرَ، وهم قد كفروا مِنْ قبلُ، إذ كان كُفرُهم سَببًا لِتعليمهمُ النَّاسَ السِّحرَ كما تقدّمَ، "وَالمَقْصِدُ مِنْهُ: تَشْنِيعُ حَالِ كُفْرِهِمْ، إِذْ كَانَ مَصْحُوبًا بِتَعْلِيمِ السِّحْرِ، عَلَى حَدِّ قَوْلِهِ: كُفْرٌ دُونَ كُفْرٍ"[2]، وفائدةُ الجملةِ الحاليَّة: بيانُ أنَّهم لم يكتفوا بالكُفرِ، بل زادُوه بلاءً بأنْ علَّموه للنَّاسِ، ونشروه بَيْنهم.

دلالة ذكرِ: ﴿بِبَابِلَ﴾:

تعليمُ السِّحرِ كان حقيقةً، لا وَهْمًا

عبّرَ بالباءِ في قولِه تعالى: ﴿وَمَآ أُنزِلَ عَلَى ٱلْمَلَكَيْنِ بِبَابِلَ هَٰرُوتَ وَمَٰرُوتَ﴾ دون حرفِ الظَّرفيَّة؛ لإفادةِ شدَّةِ لُصوقِ ما أُنزلَ على المَلَكَينِ بذلك المكانِ، وذكرَ كلمةَ: (بابل)، وفَصَلَ بها بينَ البدل: ﴿هَٰرُوتَ وَمَٰرُوتَ﴾، والمُبدَلِ منه: ﴿ٱلْمَلَكَيْنِ﴾؛ تَحقيقًا لنزولِ المَلَكَينِ إلى الأرضِ[3]، ولبيانِ أنَّ تعليمَ النَّاسِ السِّحرَ كانَ على الحقيقةِ، لا بالإلهامِ أوِ الأوهامِ.

نُكْتةُ مَجيءِ البَدَلِ:

الجمعُ بين الصِّفةِ والاسمِ للبيانِ والتَّوضيحِ

ذُكِرَ المُبدَلُ منه: ﴿ٱلْمَلَكَيْنِ﴾، ثُمَّ جاءَ بالبدلِ: ﴿هَٰرُوتَ وَمَٰرُوتَ﴾[4]؛ لِأنَّ مَجموعَ البدلِ معَ المُبدلِ منه، أَوفى بِتمامِ المُرادِ وإيرادِه[5]، وليَظْهَرَ بمَجموعِهما فَضلُ تأكيدٍ وتَبيينٍ، لا يكونُ في أحدِهما، فقَصَدَ بالجمعِ بينَهما تمامَ الإيضاحِ والبيانِ، بأنَّهما مَلَكَانِ من اللّٰه تعالى، يُعلّمانِ النَّاسَ السِّحرَ؛ اختبارًا من اللّٰهِ لعبادِه، وإذا كانَ ﴿هَٰرُوتَ وَمَٰرُوتَ﴾ عطفَ بيانٍ من ﴿ٱلْمَلَكَيْنِ﴾[6]، وهو أقوى دلالة إذ يكونُ قد جَمَعَ بين الصِّفةِ والاسمِ للبيانِ والتَّوضيحِ.

---

(1) أبو حيّان، البحر المحيط: 1/524.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 1/630.
(3) البقاعيّ، نظم الدّرر: 2/77.
(4) أبو حيّان، البحر المحيط: 1/528.
(5) التّفتازانيّ، شرح مفتاح العلوم: 2/96.
(6) البيضاويّ، أنوار التّنزيل: 1/98.

بلاغةُ أسلوبِ القَصر: ﴿إنّما﴾:

الإعـلامُ بكـون الـسِّحـرفتنـةً غرَضُه التَّحذيرُ والتَّنبيه

أفاد أسلوبُ القَصْرِ بـ ﴿إنّما﴾ ثلاثةَ أمور:

أحدُها: تُستعمَلُ ﴿إنّما﴾ في مَقام، لا يَعوزُ الـمُتكلِّمُ فيه دليلًا، ولا بيّنةً على الخبر؛ لِأَنّ الخبرَ جَلِيٌّ، أو لادّعاءِ الـمُتكلِّم أنّه جَلِيٌّ، كما يُسلَك بـ (إنّما) مُخاطَبةُ مَنْ يجبُ أنْ لا يُصِرَّ على خَطَئِه، وأنْ يتلقّى الخبرَ بالقَبولِ[1]، فجاءَ بأداة القَصْرِ: (إنّما)؛ لإفادة أنَّ كونَهما فتنةً أمرٌ ظاهِرٌ مَكْشوفٌ، وأنّه يَتيسَّرُ بسهولةٍ معرفةُ أنّه سِحْرٌ، وأنّهُ لا يَنبغي أنْ يَتعلّمَ أَحَدٌ السِّحرَ؛ لظُهور فِتْنَتِه، ويجبُ أَنْ يَتلقّى المخاطَبون كونَهما فتنةً، واختبارًا بالقَبول.

الثّاني: تأكيدُ إثباتِ اتِّصافِهما بالفتنةِ، لِقَصْرِ الفتنةِ عليهما، وانحصارِها فيهما، فهو تأكيدٌ على تأكيد[2]، بأسلوب القَصْرِ الادِّعَائِيِّ، لِلْمُبَالَغَةِ في تخصيص اتِّصافِهما بالفتنةِ، فَجَعَلَا كَثْرَةَ افْتِتَانِ النَّاسِ بِالسِّحْرِ، الّذي تَصَدَّيَا لِتَعْلِيمِه، بِمَنْزِلَةِ انْحِصَارِ الفتنة فيهما[3].

الثّالثُ: لِبيانِ أنَّه ليسَ لَهما فيما يَتعاطيَانِه شأنٌ سواها، لِينصرِفَ النَّاسُ عن تعلُّمِه، أي: وما يُعلّمان ما أُنزل عليهما من السِّحرِ، أحدًا مِنْ طالبيه، حتَّى يَنصَحاه قبلَ التَّعليم، ويَقولا له: إنَّما نحنُ فتنةٌ، وابتلاءٌ من اللّهِ ﷻ، فَمَنْ عَمِلَ بما تعلَّم منَّا، واعتقدَ حقيقتَه كفَرَ، وَمَنْ توقَّى عن العملِ بِه، أو اتَّخذَه ذَريعةً للاتِّقاءِ عن الاغترارِ بمِثله، بقيَ على الإيمانِ[4].

نُكْتةُ الإخبارِ بالمَصدر: ﴿فِتۡنَةٌ﴾:

المبالغةُ في بيانِ شـديـدِ خـطَـرِ الفتنةِ

ما يَقْتضِيه ظَاهِرُ النَّظم أنْ يُقالَ: (إنّما نحن فَاتِنانِ)، بصيغةِ اسمِ الفاعِلِ الـمُثنَّى، لكنّه عَدَلَ عنه إلى الإخبارِ بالمصدرِ، مواطأةً

(1) التّفتازانّي، شرح مفتاح العلوم: 434-2/433.
(2) السّكّاكي، مفتاح العلوم: 291.
(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 1/643.
(4) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 1/139.

لِلمبالغةِ، كأنَّهما نَفْسُ الفتنةِ، وقَدْ أُكِّدَتِ الْمُبَالَغَةُ بِالْحَصْرِ الْإِضَافِيِّ، المُفيدِ للتَّخصيص[1].

دلالة الفاءِ في قوله: ﴿فَيَتَعَلَّمُونَ مِنۡهُمَا﴾:

مُسارعةُ اليهودِ إلى تعلُّمِ السِّحرِ زرافاتٍ ووحدانًا

دلّتِ الفاءُ على التَّرتيبِ والتَّعقيب لِمَا قبلَها، وَتقديرُ الكلام: "إنَّمَا نَحنُ فِتنةٌ فلا تَكفُرْ: فَلا تَتَعلَّمْ، ولا تعملْ بالسِّحرِ، فَيأبَونَ فَيتعلَّمونَ"[2]، فأفادَ التَّعقيبُ بالفاءِ: توبيخَ اليهودِ، على عدم تَماهُلِهم، وسُرعةِ تعلُّمِهم السِّحرَ، بعدَما حُذِّرُوا مِنْ فتنةِ تَعلُّمِه، فَفعلوا خلافَ المَنهيِّ عنه، مِن غيرِ تَريُّثٍ منهم، حِرْصًا منهم على تَعلّمِ السّحرِ، كما أَفادَ السِّياقُ: أنَّهم كانوا يَتَعلّمونَ السِّحرَ جماعاتٍ جماعاتٍ؛ لقوله: ﴿فَيَتَعَلَّمُونَ﴾، حِرصًا منهم على تعلُّمِه، بعد أنْ كانَ المَلَكَانِ يُخاطِبانِ كلَّ فردٍ على خُصوصِه، بقولِهما: ﴿فَلَا تَكۡفُرۡۖ﴾.

براعةُ التَّعبيرِ بصيغةِ المضارعِ في: ﴿فَيَتَعَلَّمُونَ﴾ و﴿يُفَرِّقُونَ﴾:

الجمعُ بين معنى المُضيِّ والاستقبالِ لبيانِ السببِ والغايةِ

جاء الفعلُ بصيغَةِ الْمُضَارِعِ مع ما بعده ﴿يُفَرِّقُونَ﴾؛ لِتَصْوِيرِ مَا كَانَ كَأَنَّهُ كَائِنٌ، فَالْكَلَامُ: تَصْوِيرٌ لِقصّةِ أنّهم كَانُوا يَتَعَلَّمُونَ مِنْهُمَا مَا وُضِعَ لِأَجْلِ التَّفْرِيقِ بَيْنَ الزَّوْجَيْنِ، لبَيان شناعةِ أمرِ تَعَلُّمِ السِّحرِ، وقبيحِه[3]، فهو جمعٌ بين دلالة الماضي والمُستقبلِ، أمَّا معنى الماضي ففي الفعلِ ﴿فَيَتَعَلَّمُونَ﴾، وأمَّا معنى المستقبلِ ففي الفعلِ ﴿يُفَرِّقُونَ﴾، وجاءَ التَّعبيرُ عنهما بصيغةِ المُضارِعِ لبيانِ الدّيمومةِ والاتِّصالِ، فهم يتعلَّمون السِّحرَ ويباشرون التَّفريق بين الأزواجِ دون مُهلةٍ؛ فغايةُ تعلُّمهم التَّفريقُ، وهذا من بديعِ الجمعِ بين معنى المُضيِّ والاستقبالِ في صيغةِ المُضارِعِ.

سرُّ ذكرِ التَّفريقِ بينَ المرءِ وزوجِه:

من أشدِّ أواصرِ الاتِّصالِ في العلاقاتِ البشريَّةِ، ما يكونُ بينَ

(1) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 1/139، وابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 1/643.
(2) الزّجّاج، معاني القرآن: 1/185.
(3) محمّد رشيد رضا، المنار: 1/334.

المرءِ وزوجِه، كما قال تعالى: ﴿هُنَّ لِبَاسٌ لَّكُمْ وَأَنتُمْ لِبَاسٌ لَّهُنَّۗ﴾ [البقرة: 187]، فبينهما آصِرةٌ مَتينَةٌ، هِيَ آصِرَةُ مَوَدَّةٍ وَرَحْمَةٍ، وعقلٍ وتدبيرٍ، وتنشئةٍ وتربية؛ فلمَّا كان الأمرُ كذلك بيَّنتِ الآيةُ أنَّ تعلُّمهم السِّحرَ للتَّفريقِ بين أطرافِ هذه الآصِرَةِ الوثيقة، لِيُفْهَمَ منه أنَّ تَعلُّمَهم ما دونَه أيسَرُ وأسهل؛ فإذا وصل تأثيرُ السِّحر إلى هذا الأمر مع صُعوبتِه فمع غيرِه أولى[1]، كما أنَّ ذكرَ هذه الرّابطةِ دونَ غيرِها؛ للإشارةِ إلى أهمِّيَّتِها عندَ اللهِ، وقوّتِها في المجتمع، فيَدُلُّ هذا: على قبحِ السِّحرِ وتعلُّمِه، ولِلتَّحذيرِ منه، فإنّهُ يَصِلُ إلى فَسْخِ أقوى رابطةٍ، بالتَّفريقِ بين المرءِ وزوجِه. وذِكْرُه التَّفريقَ دونَ سائرِ الصُّورِ الّتي يتعلَّمونها: تَنْبِيهٌ على الباقي.

التَّنبيهُ بالأعلى على الأدنى؛ لبيانِ خطورةِ السِّحرِ على المجتمعِ بأكملِه

سِرُّ اختيارِ مفردةِ ﴿ٱلْمَرْءِ﴾ في الآية:

لـمّا جاءت الآيةُ لبيانِ قُبحِ السِّحرِ وشَناعة تَعلُّمِه، ذُكِرَ الأمرُ القبيحُ الذي كانوا يتعلَّمونه، وهو: التَّفريقُ بين المرءِ وزوجِه، واختيرت كلمةُ: ﴿ٱلْمَرْءِ﴾ دونَ الرَّجلِ؛ لِأَنَّ الرَّجلَ يُفيدُ القُوَّةَ على الأعمالِ؛ ولِهذا يُمدحُ الإنسانُ بنعتِه بأنَّه رجلٌ، والـمَرْءُ: يُطلَقُ على الرَّجلِ الّذي يَجمَعُ أَدبَ النَّفْس، مع كمالِ الرُّجولة؛ فالـمُروءةُ مُشْتَقَّةٌ من الـمَرءِ[2]، فذَكَرَ ﴿ٱلْمَرْءِ﴾ لإفادةِ كمالِ القُوَّةِ وحُسنِ الأدب في الزَّوجِ؛ فمن كانت هذه صِفتُه فإنَّ التَّفريقَ بينه وبين زوجِه أمرٌ عسيرٌ؛ ففي ذلك إشارةٌ إلى عِظَمِ شَأْنِ السِّحرِ وَقُبحِه، في كونِه يبلُغ أقوى العلاقاتِ، وأفضلَها فيُفرِّق بينها، فكيف بأدناها وأتعسِها؟!

الآصرةُ الزَّوجيَّةُ الـتـي تـتـحلَّى بـالـرُّجـولَـةِ وَالأَدَبِ مهدَّدةٌ بالسِّحرِ، فكيف بما دونَها؟!

بلاغةُ أسلوبِ القَصرِ بـ(النَّفي وإلَّا) المفيدِ لِلتَّخصيص، ولِتوكيدِ الاستغراقِ:

جاءَ أسلوبُ القَصرِ بالنَّفي و(إلّا)، مستغرِقًا في قولِه تعالى: ﴿وَمَا هُم بِضَآرِّينَ بِهِۦ مِنْ أَحَدٍ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ﴾؛ لإفادةِ نفيِ كلِّ أنواعِ

إفـــــادةُ الاستغراقِ؛ فلا تأثيرَ للسَّاحرِ في أيِّ شيءٍ إلَّا بإذنِ اللهِ

---

(1) البقاعيّ، نظم الدّرر: 2/78، وابن عادل، اللّباب في علوم الكتاب: 2/349.
(2) العسكري، الفروق اللّغوية، ص: 277، والسّمين، عمدة الحفّاظ: (مرء).

الضُّرِّ عن أيِّ واحدِ من النّاس، إلّا بإذن اللّه؛ لِأَنَّ لفظَ (أَحدٍ) في موضعِ النَّفي يَعُمُّ القليلَ والكثيرَ، بصفةِ الاجتماعِ والافتراقِ، والمعنى: ما هم بضارّينَ بِهِ من واحدٍ ولا اثنين ولا ثلاثةٍ، ولا أكثرَ، ولا مُجتَمِعينَ ولا مُتَفرِّقينَ[1]، فأفادَ تَخصيصَ الضُّرِّ بأنّه لا يكونُ إلَّا بإذنِ اللّهِ؛ لِيدفعَ أيَّ توهُّم بتأثيرِ السِّحرِ بنفسِه، في أيِّ أحدٍ من النّاسِ، ومَفهومُ المُخالفةِ هنا مقصودٌ، فَمَا لم يأذَنْ به اللّهُ فَلا ضَرَرَ منه، وَلا فيه.

دلالة حرفِ الجرّ ﴿مِنْ﴾:

أفادتْ: (مِن) تأكيدَ استغراقِ الجِنْسِ، في نفيِ الضُّرِّ عن النَّاسِ إفرادًا وجَمعًا[2]، والغَرَضُ من التَّوكيدِ: بيانُ أهميَّةِ مَضمونِ الخبرِ، ولِتقريرِ المعنى، وتثبيته عندَ المُخاطَب.

دلالة تَكرارِ الفِعلِ: ﴿فَيَتَعَلَّمُونَ﴾:

التَّنبيهُ بتَكرارِ الفعلِ على اختلافِ مآلاتِهِ من التَّفريقِ والوقوعِ في الضَّررِ

أفادَ تَكرارُ فعل ﴿فَيَتَعَلَّمُونَ﴾ أنَّ تعلُّمَهُمُ الأوَّلَ غيرُ تعلُّمِهم الثَّاني، فالأوَّلُ: يُبيّنُ قُبحَ تعلُّم السِّحرِ؛ لِأَنّهُ يُعلِّمُ التَّفريقَ بينَ المَرْءِ وزوجِه، وهو أَمرٌ دُنيويٌّ؛ فيكونُ داعيًا إلى تَرْكِ تعلُّمِه، والثَّاني: يَذْكرُ عاقبةَ تعلُّمِ السِّحرِ، إذْ يتعلَّمونَ ما يَضرُّهم ولا يَنفعُهم؛ فيكونُ داعيًا كذلك إلى اجتنابِه، فافترقَ مآلُ التَّعلُّمِ؛ ففي الأوَّلِ التَّفريقُ بينَ الأزواجِ، وفي الثَّاني الوقوعُ في الضَّررِ وعدمِ النَّفعِ، فلمَّا اختلفت مآلاتُ الأفعالِ كان لكلِّ تعلُّمٍ غرضٌ خاصٌّ، فنبَّه على ذلك بتَكرارِ الفعلِ ﴿فَيَتَعَلَّمُونَ﴾، فالتَّكرارُ له غرضٌ محمودٌ، إذ لا تَكرارَ في القرآنِ مِنْ غيرِ مَعنىً جديدٍ، أو مَقصِدٍ طَريفٍ.

دلالة عطفِ جملةِ: ﴿وَلَا يَنفَعُهُمۡ﴾:

السِّحرُ شرٌّ بَحتٌ، وضَررٌ مَحْضٌ

وردَتْ جملةُ: ﴿وَلَا يَنفَعُهُمۡۚ﴾ معطوفةً على ﴿يَضُرُّهُمۡ﴾، مع أنّه قد يُتَوهَّمُ: أنَّ ما يَضُرُّ يُعلَمُ منه أنَّه لا يَنفعُ، فيُقالُ: لِمَ جاءَ بجملة ﴿وَلَا يَنفَعُهُمۡۚ﴾؟ والجوابُ: أنّه لَمَّا كَانَ إِثْبَاتُ الضَّررِ بِشَيْءٍ لَا يَنْفِي النَّفْعَ منه؛ لِأَنَّهُ قَدْ يُوجَدُ الشَّيْءُ، فَيَحْصُلُ بِهِ الضَّرَرُ، وَيَحْصُلُ بِهِ النَّفْعُ،

(1) الطّيبيّ، فتوح الغيب: 3/19.

(2) أبو حيّان، البحر المحيط: 1/529.

أتى بجملةِ: ﴿وَلَا يَنفَعُهُمۡۚ﴾؛ لإفادةِ التَّغايرِ بينَ المعطوفِ والمعطوفِ عليه، فيفيدُ معنىً مؤسِّسًا، لا مُؤَكِّدًا، فأفادت الجملةُ نَفْيَ النَّفْعِ عَنْهُ بِالْكُلِّيَّةِ، إيذاناً بأنَّه ليسَ من الأمورِ المَشُوبةِ بالنَّفعِ والضَّرَرِ، بل هو شرٌّ بَحْتٌ، وضررٌ مَحْضٌ لهم في الدُّنيا[1]، وأمّا حَالُهُمْ في الآخِرَةِ: فَيُفِيدُهُ قَوْلُهُ: ﴿وَلَقَدۡ عَلِمُواْ لَمَنِ ٱشۡتَرَىٰهُ مَا لَهُۥ فِي ٱلۡأٓخِرَةِ مِنۡ خَلَٰقٖۚ﴾[2].

سببُ العُدولِ عن صيغةِ القَصْرِ إلى الجَمعِ، بينَ إثباتِ الضُّرِّ، ونَفيِ النَّفعِ:

لَمّا أَثبتَ تَعلُّمَهم ما يَضرُّهم بالسِّحرِ، ونَسَقَ عليه نفيَ النَّفعِ، دلّ على أنَّهُ في معنى الحَصْرِ بالقَصرِ، بتقديرِ: وَيَتَعَلَّمُونَ مَا لَيْسَ إِلَّا ضُرًّا لهم[3]، وعَدَلَ عَنْ صِيغَةِ الْقَصْرِ؛ لِيَدُلَّ: ﴿وَلَا يَنفَعُهُمۡۚ﴾ على نَفيِ النَّفعِ مُطابقةً، بعدَ أنْ دلَّ عليهِ لزومًا، من إثباتِ الضّرِّ في قولِه: ﴿يَضُرُّهُمۡ﴾، كما تُفيدُ (لا) الدّاخلةُ على الفعلِ الـمُضارعِ: نَفيَ النَّفعِ حالًا وَمآلًا، وَلو جاءَ بأُسلوبِ القَصْرِ: لَفاتَتْ هاتانِ الـمُناسَبتانِ.

إيثارُ إطلاقِ الإسنادِ عنِ القيدِ الزّمانيِّ وَالمكانيِّ:

الـضَّـرَرُ وعـدمُ الانـتـفـاعِ من السِّحرِ مُتَجَدِّدٌ في كـلِّ زمـانٍ ومكانٍ

لـمْ يُقيِّدِ الفعلانِ بالظَّرفِ، فلمْ يَقلْ: (ما يضُرُّهم في الآخرةِ، ولا ينفعُهم في الدُّنيا) مثلًا، بل أطلقَ الفعلَ عن التَّقييدِ؛ للدّلالة على عمومِ الضَّررِ منَ السِّحرِ، وتجدُّدِ هذا الضَّررِ، ونفيِ النَّفعِ منه، وتجدُّدِ نفيِ النَّفعِ في الدُّنيا والآخرةِ، فلا يَقتَصِرُ ضررُهم به، ونفيُ النَّفعِ على وقتٍ دونَ وقتٍ، ولا مكانٍ دونَ مكانٍ.

دلالة الإضافةِ إلى الضَّميرِ: ﴿يَضُرُّهُمۡ﴾:

السِّحرُ يَضُرُّ مَنْ يَتَعَلَّمُه أوّلًا

لَمّا ذَكَرَ: أَنَّهُ يَحْصُلُ بِالسّحرِ الضَّرَرُ لِمَنْ يَتعلَّمُ التَّفريقَ بَيْنَ الـمَرْءِ

(1) أبو حيّان، البحر المحيط: 1/534، وأبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 1/139.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 1/645.
(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 1/645.

وزوجِه، ذَكَرَ أَيْضًا: أَنَّ ضَرَرَهُ لَا يَقْتَصِرُ عَلَى مَنْ يُفْعَلُ بِهِ ذَلِكَ، بَلْ هُوَ أَيْضًا يَضُرُّ مَنْ تَعَلَّمَهُ، لِبيانِ قُبحِ السِّحْرِ، وشناعةِ تعلّمِه[1].

توالي المُؤكِّداتِ لِتقريرِ المعنى وتَثْبيتِهِ:

تتابعتْ ثلاثةُ مُؤَكِّداتٍ[2] في قولِه تعالى: ﴿وَلَقَدْ عَلِمُواْ لَمَنِ ٱشْتَرَىٰهُ مَا لَهُۥ فِى ٱلْـَٔاخِرَةِ مِنْ خَلَٰقٍ﴾، هي: لامُ جوابِ القسمِ، مقترنةً بـ(قدْ) المفيدةِ للتَّوكيدِ، الدَّاخلةِ على إثباتِ علمِهم، معَ لامِ الابتداءِ في مُتعلَّقِ علمِهم، وهو قولُه: ﴿لَمَنِ﴾؛ لِيثبتَ أنَّهم على علمٍ، بأنّهم لا نصيبَ لَهم مِنْ خيرٍ في الآخرةِ، مع ما أثبتَه مِنْ أنّ السِّحرَ يَضُرُّهم، ولا يَنفعُهم، فجاء هذا الوعيدُ؛ لاستبدالهمُ السِّحرَ بالإيمانِ بكتابِ اللّهِ واتِّباعِه، فأنزلَ السِّحرَ مَنزلةَ الكُفْرِ.

بلاغةُ مجيءِ النَّفيِ على الاستغراقِ في قولِه: ﴿مَا لَهُۥ فِى ٱلْـَٔاخِرَةِ مِنْ خَلَٰقٍ﴾:

ليسَ لِمَنْ يتعلَّمُ السِّحرَ أيُّ نَصيبٍ من الخيرِ

أفادَ النَّفيُ هنا: الاستغراقَ بدخولِ حرفِ الجرّ ﴿مِنْ﴾ على الاسمِ النَّكرةِ المَنفيِّ، وأفادَ التَّنوينُ في: ﴿خَلَٰقٍ﴾ التَّقليلَ، والمعنى: ليس لِمَنِ استبدَلَ السِّحرَ بالإيمانِ بكتابِ اللّهِ واتِّباعِه، أيُّ نَصيبٍ مِن الخيرِ في الآخرة، ولو كان قليلًا.

بلاغةُ التَّقديمِ والتَّأخيرِ في قولِه: ﴿مَا لَهُۥ فِى ٱلْـَٔاخِرَةِ مِنْ خَلَٰقٍ﴾:

تأكيدُ علمِ مَنْ يتعلّمُ السّحرَ بخيبتِهم في الآخرةِ

أصلُ الكلامِ: (ما مِنْ خَلاقٍ له يومَ القيامةِ)، لكن جاءتِ الآيةُ بنظمِها، بتقديمِ المُسنَدِ، وهو الجارُّ والمجرورُ: ﴿لَهُۥ﴾ على المسنَدِ إليه: ﴿خَلَٰقٍ﴾، وذلكَ للعنايةِ بتأكيدِ علمِهم، بنفيِ أيِّ نصيبٍ لِمَنِ اشترى السِّحرَ بالإيمانِ، وقدّمَ قولَه: ﴿فِى ٱلْـَٔاخِرَةِ﴾؛ لِأجلِ التَّذكيرِ بخيبتِهم فيها.

بلاغةُ استعمالِ تركيبِ ﴿بِئْسَمَا﴾:

هذا التّركيبُ لم يرِدْ في القرآنِ إلّا في سياقِ ذمّ بني إسرائيلَ،

---

(1) أبو حيّان، البحر المحيط: 1/534.

(2) السّمين، الدّرّ المصون: 2/45.

خُصوصيّة ذمّ بني إسرائيلَ بتركيب (بِئْسَمَا) إذ لم يرد إلّا في حقّهم في القرآنِ الكريم

وورَدَ هنا في سياقِ ذمِّ اليهودِ؛ لِاتِّباعِهم ما تَتلو الشَّياطينُ على مُلْكِ سليمانَ مِن السِّحر، وبيعِهم إيمانَهم الّذي هو بمثابةِ أنفسِهم، مُقابلَ اتّباعِهم ما تَتْلو الشّياطينُ على مُلْكِ سليمانَ، أو تَعَلُّمِهمُ السِّحرَ، فوَرَدَ هذا التَّركيبُ لخُصوصيّة الـمُبالغة في ذمّهم غايةَ الذَّمّ، ففيه تقريرُ الذَّمّ باقتران (بئس) بأعمِّ كلماتِ العُموم (ما)، فيَستوعِبُ العمومُ كلَّ خَصْلَةٍ من خِصال الذَّمِّ، الّتي تَدُلّ عليه (بئس)؛ فيكونُ الـمَذمومُ داخلًا في العُموم، ثمَّ يَذُمُّ مَرَّةً أخرى بذكر المخصوصِ بالذَّمِّ؛ فكأنَّه ذمَّهم مرّتين؛ إحداهما: بدُخولِهم في عُموم: (بِئْسَمَا)، والثّانية: بذكرِ مخصوصِ الذَّمِّ الـمَحذوف هنا والمقدَّرِ بـ(اتِّباع ما تتلو الشّياطين على مُلك سليمان)، أو(تَعلُّمِهم السِّحرَ)، والمعنى واحدٌ.

بلاغةُ الاستعارةِ في قوله تعالى: ﴿وَلَبِئۡسَ مَا شَرَوۡاْ بِهِۦٓ أَنفُسَهُمۡۚ﴾:

الإيمانُ بمنزلة الأنفسِ، فعَلَيه مدارُ الأمرِ وجودًا وعدمًا

وُضِعَت الأنفسُ موضِعَ الإيمانِ بكتاب اللّه واتِّباعه؛ فالأنفسُ بمنزلةِ الـمُثْمَنِ و(اتِّباعُهم ما تتلو الشّياطينُ على مُلك سليمان) أو (تَعَلُّمُ السِّحر) هو الثَّمَنُ، وذلك لأنَّ ﴿شَرَوۡاْ﴾ بمعنى: باعُوا[1]؛ فشَبَّه الإيمانَ بكتاب اللّه واتِّباعَهُ بالنَّفْسِ، بجامعِ وُجُوبِ الحِرْصِ عليه، ووجوب بَذْلِ كلِّ شيءٍ من أجلِه، كما أنَّ الإنسانَ حريصٌ على نفسِه بفِطرته وغريزتِه، ويَبذُلُ كلَّ شيءٍ مِنْ أجلها، ثمَّ حَذَفَ المشبَّه: (الإيمان)، وذكرَ المشبَّه به، على سبيلِ الاستعارةِ التَّصريحيَّة، وجَعَلَ استبدالَ الإيمانِ - باتِّباع ما تَلَتْه الشّياطينُ وبتَعلُّم السِّحرَ - بمَنزلة البيعِ والشِّراءِ، والمعنى: إنَّهم استبدلوا تعلُّمَ السِّحرِ بالإيمان؛ فبَذَلوا أَنفسَهم، وزهِدوا فيها، من أجلِ تحصيلِ ما يضرُّهم ولا يَنفعُهم، وذكرَ الفخرُ الرَّازيُّ: أنّ سببَ مجيءِ الاستعارةِ هنا، هو: أَنَّهُمْ لَمَّا نَبَذُوا كِتابَ اللَّهِ وراء ظُهورهم، وأقبلوا على التمسُّكِ بما

(1) ابن عطيّة، المحرّر الوجيز: 1/188.

تتلو الشَّيَاطِينُ، واسْتَعْمَلوا السِّحْرَ، فَكَأَنَّهُمْ قَدِ اشْتَرَوْا ذَلِكَ السِّحْرَ بِكِتَابِ اللَّه، واشْتَرَوا بِمَنَافِعِ الْآخِرَةِ مَنَافِعَ الدُّنْيَا[1].

ويُحتمَلُ: أنّه أرادَ اللّازمَ الثّانيَ من البيع، وهو: الزُّهدُ في الـمُباع، والحِرصُ على الـمُشترى، فكأنَّهم زَهِدُوا في الإيمانِ بكتابِ اللّهِ، الّذي ينفعُهم في الدُّنيا والآخرة، وحَرِصُوا على اتّباعِ الشَّياطين، وتَعلُّم السِّحرِ، الّذي يَضُرُّهم ولا ينفعُهم، وتقدّمَ أنَّ وضْعَ الأنفسِ موضِعَ الإيمانِ، هو إيذانٌ بأنَّ الإيمانَ بمنزلةِ الأنفس، مَعَزّةً وحرصًا عليه؛ كما تقدّم: أنّ مَنْ باعَ إيمانَه فقدْ باعَ نفسَه، ومَنْ باعَ نفسَه فَقَدَها.

بلاغةُ قولِه تعالى: ﴿لَوۡ كَانُواْ يَعۡلَمُونَ﴾:

تنزيلُ العالـمِ منزلةَ الجاهلِ، لـمّا لـمْ ينتفِعْ بعلمِه

إنْ قيلَ: كيفَ أَثْبَتَ لَهم العلمَ أوَّلًا في قولِه: ﴿وَلَقَدۡ عَلِمُواْ﴾، على سبيلِ التَّوكيدِ بالقسَم، ثمَّ نفاه عنهم في قولِه: ﴿لَوۡ كَانُواْ يَعۡلَمُونَ﴾، فإنَّ (لو) تُفيدُ امتناعَ الثّاني لامتناعِ الأوَّلِ، وكذا أفادت (لو) التَّمنّيَ؛ فإنَّ التَّمنّيَ استدعاءُ أمرٍ هو كالـمُمتنِع؟ والجوابُ: أنّه لـمَّا لـمْ يَعمَلوا بِمَا عَلـمُوا، ولم يَنتفِعوا بعلمِهم، جعلَهم كأنَّهم مُنسلِخون عنه[2]، وهذا من أفانينِ البلاغة، بتنزيلِ العالـم بالشَّيء، إذا لم ينتفعْ بعلمِه، منزلةَ الجاهل به، ويُنفى عنه العلمُ، كما يُنفى عن الجاهلين؛ لأنَّ الصِّناعاتِ تُطلَب لِتحصيلِ مقاصدِها، وكما جاءَ في وصف المنافقين في قولِه تعالى: ﴿صُمُّۢ بُكۡمٌ عُمۡيٞ﴾ [البقرة: 18] لـمّا لم يَنتفِعوا بحواسِّهم؛ فجَاءَ هذا الأسلوبُ على طريقةِ المجازِ؛ لإقامةِ الدَّليلِ للمخاطَبِ، وتَنبيهًا له: على أنّ مَنْ لم ينتفِعْ بعلمِه فهوَ جاهِلٌ.

بديع الطِّباق:

الخيبةُ لِمَن أُثبِتَ له العلـمُ، ثمَّ نُفي عنه

في الْجَمْعِ بَيْنَ: ﴿وَلَقَدۡ عَلِمُواْ﴾ و﴿لَوۡ كَانُواْ يَعۡلَمُونَ﴾ طِبَاقٌ

(1) الرّازيّ، التّفسير الكبير: 3/633.

(2) الزّجّاج، معاني القرآن: 1/186، والزّمخشريّ، الكشّاف: 1/173، وابن عرفة، تفسير ابن عرفة: 1/388.

عَجِيبٌ[1]؛ لأَنَّه جمعَ بين إثبات العلم لهم مع المؤكِّدات، ثم نفاه عنهم؛ نِكايةً بهم، لمّا لم يَنتفعوا بعلمهم، ولم يعملوا به، وكأنَّه قد سُقِطَ في أيديهم، لشدّةِ نَدَمِهم وتَحَيُّرِهم وعَجزِهم، بعدما أثبتَ لهم العلمَ، الّذي هو ممدوحٌ عُمومًا، ثمَّ نَفاه عنهم مُطلقًا.

۞ الفُرُوقُ المُعْجَمِيَّةُ:

التِّلاوةُ والقراءةُ:

آثَرَ القرآنُ الكريمُ في هذه الآية استعمالَ: ﴿تَتْلُواْ﴾، دون (تقرأُ)؛ لمناسبةِ الكلمةِ لِنَظْمِ الآيةِ، فالقراءةُ تكونُ بصوتٍ وبغيرِ صوتٍ، ولِكتابِ اللّهِ أو لِغيره، وإذا عُدّيَ الفعلُ: (قرأَ) بـ (على) فإنَّها تكونُ بصوتٍ، يقال: (قرأَ فلانٌ عَلَيْنَا آياتٍ عَطِرةً).

وأمَّا التِّلاوةُ ففيها معانٍ تختَصُّ بها، هي:

أنْ تكونَ بقراءةِ كُتُبِ اللّهِ، المنزَّلةِ تارةً بالقراءةِ، وتارةً بالارتسام، لِمَا فيها من أمرٍ ونهيٍ وترغيبٍ وترهيبٍ، أو ما يُتوهَّم فيه أنّه من كُتُبِ اللّه، والقراءةُ تكونُ لكُتُبِ اللّهِ وغيرِها.

وأنْ تكونَ مِنْ وحيٍ مكتوبٍ، أو مِنْ وحيٍ غيرِ مكتوبٍ.

وأنْ تكونَ بإقامةِ ألفاظِهِ مِنْ غيرِ تحريفٍ، ولا لَحْنٍ.

وأنْ تكونَ بتنغيمِ الصَّوتِ وتحسينِهِ.

ولا تُسمّى التِّلاوةُ تلاوةً إلّا بإتْباعِ الكلمةِ أختَها في القراءةِ، فالتِّلاوةُ تكونُ في ما يطولُ مِنَ الكلامِ ويكثُرُ.

فالتِّلاوةُ أخصُّ من القراءة، فكلُّ تلاوةٍ قراءةٌ، وليسَ كلُّ قراءةٍ تلاوةً، ولو نطقَ بكلمةٍ واحدةٍ من القرآن، فهذهِ قراءةٌ وليست تلاوةً، لِما في التِّلاوةِ من معنى الاتِّباعِ والتَّوالي، وَغلبتِ التِّلاوةُ في العُرفِ على قراءةِ القرآنِ؛ لأنَّ القارئَ يُتبِعُ كلَّ كلمةٍ أختَها، وحَقُّ التِّلاوةِ: فيه دلالة أعلى من التِّلاوةِ؛ لأنّها بمعنى القراءة، والاتِّباعِ له بالعلمِ والعمل، كما في قوله تعالى: ﴿يَتْلُونَهُۥ حَقَّ تِلَاوَتِهِۦٓ﴾ [البقرة: 121]، وذهبَ السَّمينُ الحَلَبيُّ إلى أنَّه إنْ قَوَّمَ ألفاظَ القرآنِ ولم يَتَّبِعْهُ في العلمِ والعملِ فليسَ بتالٍ، وإنْ قرعَ دماغَه، ومَنْ تَبِعَه في العلمِ والعملِ

---

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 1/384.

فهو تالٍ، وإنْ لم يتلفَّظ به[1] ، وإنَّما اسْتُعمِلَ التِّلاوةُ في قولِه تعالى: ﴿وَٱتَّبَعُواْ مَا تَتۡلُواْ ٱلشَّيَٰطِينُ عَلَىٰ مُلۡكِ سُلَيۡمَٰنَۖ﴾ لـمّا كان يزعمُ الشّياطينُ أنَّ ما يَتلونَه هو مِنْ كُتُبِ اللّهِ[2].

الفتنة والابتلاء:

الِابْتِلَاء: هُوَ اسْتِخْرَاج مَا عِنْد الْمُبْتَلى، لِتُعرفَ حَالُه في الطَّاعَة وَالْمَعْصِيَة، ولَا يكون إِلَّا بتَحميل المكاره والمشاقِّ، وأمّا الْفِتْنَةُ: فأُخِذَتْ من عَرْضِ الشّيءِ على النّار، لتَظهَرَ جُودتُه مِن رَداءته، كإذابةِ الذَّهبِ والفِضَّة، وَمِنْه قَوْله تَعالَى: ﴿يَوۡمَ هُمۡ عَلَى ٱلنَّارِ يُفۡتَنُونَ﴾ [الذّاريات: 13]، واسْتُعملَت لتَمحيص حقيقةِ ما في القلوب، وَتكونُ في الْخَيْر والشَّرّ، قال تَعالَى: ﴿إِنَّمَآ أَمۡوَٰلُكُمۡ وَأَوۡلَٰدُكُمۡ فِتۡنَةٞۚ﴾ [التّغابن: 15]، فَجَعَلَ الـمَحبوبَ فتنةً، وَقَالَ تَعالَى: ﴿وَأَلَّوِ ٱسۡتَقَٰمُواْ عَلَى ٱلطَّرِيقَةِ لَأَسۡقَيۡنَٰهُم مَّآءً غَدَقٗا ١٦ لِّنَفۡتِنَهُمۡ فِيهِۚ﴾ [الجنّ: 16-17]، فَجَعَلَ النِّعْمَةَ فتْنَةً؛ لأَنَّهُ قَصَدَ بهَا الْمُبَالغَةَ في اختبار الْمُنعَم عَلَيْه بهَا، كالذّهب إذا أُرِيدَ الْمُبَالغَةُ في تَعَرُّف حَالِه أُدخِلَ النَّارَ، وَاللّه تَعالَى لَا يَختبرُ العَبْدَ لتَغيير حَاله في الْخَيْر وَالشَّرِّ، وَإِنَّمَا الـمُرَادُ بذلك شدَّةُ التَّكْليف، وقد يكونُ أمرُ الفتنة ظاهرًا مكشوفًا، وتتيسَّرُ معرفتُه بسُهولة، كما في أمر الـمَلَكَين، اللّذَين قالا: ﴿إِنَّمَا نَحۡنُ فِتۡنَةٞ﴾؛ لِظهورِ وضوحِ كونِهما فتنةً، وقد لا يكونُ أمرُها ظاهرًا[3]، فكلُّ ابتلاءٍ فتنةٌ، وليس كلُّ فتنةٍ ابتلاءً، فبينَهما عمومٌ وخصوصٌ مُطلَقٌ.

فَرَقَ وَفَرَّقَ:

الفَرْقُ في الأصلِ: يَدُلُّ على تَمْييزٍ و تزييلٍ، أي: فَصْلُ بعضِ شيءٍ، أو أشياءَ مِنْ بعضِها الآخَرِ فَصْلًا تامًّا[4]، وفرَقَ: -بتخفيفِ الرَّاءِ- يَدُلُّ على مُطلَقِ الفَصلِ، وفرَّقَ - بالتّشديد - يَدُلُّ على تكثيرِ فعلِ الفَصلِ؛ لمناسبة مَجيءِ ﴿يُفَرِّقُونَ﴾ على صيغة (فعّل)؛ فآذَنَ مَجيءُ الفعلِ: ﴿يُفَرِّقُونَ﴾ بكثرةِ الفعلِ؛ لإفادة: أنَّ تعلُّمَ السِّحرِ يُؤذِنُ بكثرةِ التَّفريقِ بين المرءِ وزوجِه، لِلتَّحذيرِ منه اجتماعيًّا، بعدَ وَصفِه بالكُفْرِ.

الاشْتراءُ والشِّراءُ:

يأتي الشِّراءُ والاشتراءُ بمعنى: البيعِ والشِّراءِ، و يُستعمَلُ كلُّ واحدٍ منهما في موضعِ

(1) السّمين، عمدة الحفّاظ: 1/268.

(2) الرّاغب، المفردات، والسّمين، عمدة الحفّاظ، وجبل، المعجم الاشتقاقيّ المؤصّل: (تلو).

(3) العسكري، الفروق اللّغويّة، ص: 216-217.

(4) ابن فارس، مقاييس اللُّغة: (فرق).

الآخَرِ، ولكنْ يُطلقُ الشِّراءُ بمعنى أَخذِ السِّلعةِ، ودفعِ الثَّمنِ أَكثرَ، ويُطلَقُ الاشْتراءُ بمعنى: دفعِ الثَّمنِ وأَخذِ السِّلعةِ أكثرَ، وأمّا في الاستعمالِ القرآنيِّ، فكلُّ ما جاءَ من الفعلِ (شَرى يَشْري) فالمرادُ به: البيعُ، وكلُّ ما جاءَ من الفعل: (اشْتَرى - يَشْتَري) يُرادُ به: الاشْتراءُ بالمعنى المَشهورِ، أي: أَخذُ السِّلعةِ، ودَفعِ الثَّمنِ[1].

(1) الرّاغب، المفردات، والسّمين، وعمدة الحفّاظ، وجبل: (شرى).

﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ ءَامَنُوا۟ وَٱتَّقَوْا۟ لَمَثُوبَةٌ مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ خَيْرٌ ۖ لَّوْ كَانُوا۟ يَعْلَمُونَ ﴿١٠٣﴾﴾ [البقرة: 103]

❁ مُناسَبَةُ الآيَةِ لِمَا قَبْلَها:

لَمَّا بَيَّنَ اللّهُ تعالى فيهِمُ الْوَعِيدَ بِقَوْلِه: ﴿وَلَبِئْسَ مَا شَرَوْا۟ بِهِۦٓ أَنفُسَهُمْ ۚ﴾، وذكرَ ما ارْتكبوه من المضارِّ، أَتْبَعَهُ بالوعدِ، بما في الإعراضِ عنه من المنافع؛ لِيكونَ الكلامُ جَامِعًا بَيْنَ التَّرْهِيبِ وَالتَّرْغِيبِ؛ لِأَنَّ الْجَمْعَ بَيْنَهُمَا أَدْعَى إِلَى الطَّاعَةِ، وَالْعُدُولِ عَنِ الْمَعْصِيَةِ[1].

❁ شَرْحُ المُفْرَدَاتِ:

1) ﴿لَمَثُوبَةٌ﴾: أصلُ الكلمةِ: ثَوَبَ، وتَدورُ على معنى العَوْدِ والرُّجوعِ، ومنه: ثَابَ فلانٌ إلى دارِه؛ لِرجوعِه إلى حالتِه الأولى الّتي كانَ عليها، وَالْمَثَابَةُ: الْمَكَانُ يَثُوبُ إِلَيْهِ النَّاسُ، والثَّوَاب: ما يَرْجِعُ إلى الإنسانِ من جزاءِ أعمالِه، والثَّوابُ: يُقالُ في الخيرِ والشَّرِّ، لكنَّ الأكثرَ الـمُتعارفَ هو ما كان في الخيرِ، فإذا استُعمِلَ الثّوابُ أو المثوبةُ في الشَّرِّ: كانَ استعارةً تَهكُّميَّةً، والـمَثوبةُ في الآيةِ بمعنى: الجزاءِ والأجرِ على الإيمانِ والتَّقوى، بأَنواعِ الإحسانِ[2].

2) ﴿خَيْرٌ ۖ﴾: يدورُ معنى الكلمةِ على الْعَطْفِ وَالْمَيْلِ، ثُمَّ يُحْمَلُ كلُّ ما يُتَصرَّفُ منه على هذا المعنى، وذهبَ بعضُ اللُّغويِّين إلى أنَّ الخيرَ: كلمةٌ جامعةٌ لِلمَرغوبِ فيه، كالعقلِ والعَدلِ والفَضلِ والشَّيءِ النَّافعِ، وضِدُّه: الشَّرُّ، والخيرُ والشَّرُّ يأتيانِ باعتبارِ كونِهما اسمين، مثلَ قولِه تعالى: ﴿وَلْتَكُن مِّنكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى ٱلْخَيْرِ﴾ [آل عمران: 104]، وباعتبارِ كونِهما اسمَي تَفْضيلٍ على الوَصْفيَّةِ؛ لِيدلَّ على التَّفاوتِ في الخيريَّةِ، وإنْ كان كلاهما خيرًا، يُقال: هذا خيرٌ من ذاك، وأفضلُ[3].

(1) الرازيّ، التّفسير الكبير: 3/633، والبقاعيّ، نظم الدّرر: 2/82.
(2) ابن فارس، مقاييس اللُّغة، والرّاغب، المفردات: (ثوب)، وينظر: أبو حيّان، البحر المحيط: 1/537.
(3) ابن فارس، مقاييس اللُّغة، والرّاغب، المفردات: (خير).

❁ المَعْنَى الإِجْمَالِيُّ:

لَو أنَّ هؤلاءِ -اليهودَ- الّذين يتعلَّمون السِّحْرَ، ويُؤْثِرونَه على ما أنزلَ اللّهُ، آمنوا باللّهِ وبالنَّبيِّ محمّدٍ ﷺ، وبالقرآنِ الّذي أُنزلَ عليه، واتَّقوا اللّهَ؛ بامتثالِ أوامرِه، واجتنابِ نواهيه، لَكان جزاءُ اللّه إيّاهم، وثوابُه لهم، على إيمانِهم به، وتقواهم إيَّاه، خيرًا لَهم مِنَ السِّحرِ، وما اكتَسبوا به، ولو كانوا يَعلمون ما يَحصُل بالإيمان والتّقوى من الثّواب والجزاء عِلْمًا حقيقيًّا لآمنوا، لكنّهم لم يَنتفعوا بعلمِهم[1].

❁ الإِيضَاحُ اللُّغَوِيُّ وَالبَلَاغِيُّ:

بلاغةُ أسلوبِ الشَّرطِ بـ (لو) الدَّاخلةِ عليها ﴿أَنَّ﴾:

أفادَ أسلوبُ الشَّرطِ بـ (لو) في قولِه: ﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ ءَامَنُواْ وَٱتَّقَوْاْ لَمَثُوبَةٌ مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ خَيْرٌ﴾: امْتناعَ حُصولِ المَشروط[2]، أي: امْتناعَ حُصولِ المَثوبةِ المَذكورةِ لهم؛ لأنّهم لم يُؤمنوا ولم يَتَّقُوا، فأفادَ الشَّرطُ حِرمانَهم مِن أيِّ خيرٍ مِن عندِ اللّهِ، ولو كان مَثوبةً قليلةً.

وأفادت ﴿أَنَّ﴾: التّوكيدَ[3]، فجاءت لإفادةِ تأكيدِ الشَّرطِ وتَقريرِه، ولمّا كانَ الشَّرطُ مُمْتَنِعًا عليهم؛ لأَنَّهم لم يَعملوا به، فدَلَّ على تأكيدِ أنّهم لم يُؤمنوا، ولم يَتَّقُوا، كما دَلَّ على تأكيد حُصولِ المَثوبة من عندِ اللّهِ، للّذين آمنوا باللّهِ واتَّقَوه.

نُكْتةُ الجمعِ بينَ: ﴿ءَامَنُواْ﴾ و﴿ٱتَّقَوْاْ﴾:

استعمل الإيمانُ لِفعلِ المأموراتِ، والتَّقوى لِتركِ المَنْهيّاتِ

لمّا كانَ اليهودُ قد تَركوا المأموراتِ، وفَعلوا المَنهيّاتِ، ناسبَ أنْ يَذكُرَ: ﴿ءَامَنُواْ وَٱتَّقَوْاْ﴾؛ ليَدُلَّ الإيمانُ على طلبِ فعلِ المأموراتِ، وهو الإيمانُ برسولِ اللّهِ، وما أُنزلَ عليه، واتِّصافُهم بالتَّقوى يَقتضي تَركَ المَنْهيَّاتِ، ومنها: نَبْذُهم كتابَ اللّهِ، واتِّباعُ ما تتلو الشَّياطينُ، وتعلُّمُ السّحرِ.

بلاغةُ مَجيءِ الكلامِ على خلافِ مُقتضى الظّاهرِ:

الإيماءُ إلى مثوبةِ المؤمنين، بالتَّصريحِ بذمِّ الكافرين

الأصلُ في جوابِ (لو) أنْ يكونَ بالفعلِ، فغَيَّر سَبْكَ الكلامِ؛ لِتكونَ

(1) ابن جرير، جامع البيان: 2/458، وأبو حيّان، البحر المحيط: 1/538.

(2) البهاء السّبكي، عروس الأفراح: 1/353.

(3) الماديّ، الجنى الدّاني، ص: 402.

الجملةُ الاسميَّةُ: ﴿لَمَثُوبَةٞ مِّنۡ عِندِ ٱللَّهِ خَيۡرٞۚ﴾ المفيدةُ للثُّبوتِ جوابًا للشَّرطِ؛ لِتَدُلَّ على ثباتِ المَثوبةِ للَّذينَ آمنوا واتَّقوا، واسْتقرارِها واسْتمرارِها، معَ الجزمِ بخَيْريَّتِها، فخَيريّةُ المَثوبةِ لا تعلّقَ لها بإيمانِ اليهودِ وعدمِهِ، فدلَّ على ثباتِ المَثوبة، وثباتِ نسبةِ الخَيريَّةِ إليها، معَ الجزمِ بخيريَّتِها، كأنّه قيلَ: لَمَثُوبَةٌ دائمةٌ خَيْرٌ لثباتها واسْتمرارِها[1]، فجاءَ الكلامُ على خلافِ مُقتضَى الظَّاهرِ؛ لئلّا يَشُكَّ أحدٌ أنَّ أيَّ مَثوبةٍ من عندِ اللّهِ هي خيرٌ.

سببُ تنكيرِ ﴿لَمَثُوبَةٞ﴾:

التَّنبيهُ على الكثيرِ بذكرِ القليلِ

أفادَ التَّنْكيرُ التَّقليلَ، والمعنى: قليلٌ مِن المَثوبةِ، أو شَيءٌ مِن الثَّوابِ خيرٌ لَهم[2]، فكيفَ وثوابُ اللّهِ كثيرٌ مُسْتَمِرٌّ؟ والقَصْدُ من التَّنْكيرِ: بيانُ أنَّ الثَّوابَ مِن عندِ اللّهِ، وإنْ قلَّ في ذاتِهِ، فهو خيرٌ لَهم.

بلاغةُ التَّعبيرِ في قولِه ﴿لَمَثُوبَةٞ﴾:

تعظيمُ المَثُوبَةِ القَلِيلَةِ وتَفْخيمُها لِأنَّها مِن عِندِ الله تَعالَى

اقْترانُ (مثوبة) بلامِ الابتداءِ[3]، فيه إشْعارٌ بعُلُوِّ المَثوبةِ، وثباتِها مع قلّتِها، بسببِ التَّنكيرِ[4]، وعَدَلَ النَّظمُ الكريمُ عنِ الإضَافةِ؛ فلمْ يَقُلْ: (مثوبةُ اللّهِ خيرٌ)، وقالَ: ﴿لَمَثُوبَةٞ مِّنۡ عِندِ ٱللَّهِ خَيۡرٞۚ﴾، فلو جاءَ بصيغةِ الإضافةِ: لَفاتَ المَقصودُ من تَنْكيرِ: (مثوبة)، وتعظيمِ وصفِها بأنّها من عندِ اللّهِ، مع الإشعارِ بأنّها قليلةٌ، ومِنْ مُناسباتِ إيرادِ هذا الوصفِ: أنّه "سَوّى بينَ هذهِ المَثوبةِ ومَضمونِ الرِّسالةِ، في كونِهما من عندِ اللّهِ؛ تَشريفًا لهذهِ المَثوبةِ، وإلحاقًا لها بالنَّمَطِ العَليِّ، مِنْ علمِه وحكمتِه، ومَضَاءِ كلمتِه"[5].

---

(1) الزّمخشريّ، الكشّاف: 1/174، والآلوسيّ، روح المعاني: 1/347.
(2) الزّمخشريّ، الكشّاف: 1/174، والرّازيّ، التّفسير الكبير: 3/634.
(3) السّمين، البحر المحيط: 2/50.
(4) الحرالّيّ، تراث أبي الحسن الحرالّيّ: 1/244.
(5) الحرالّيّ، تراث أبي الحسن الحرالّيّ: 1/244.

نُكتةُ مجيءِ الصِّفةِ ﴿مِّنۡ عِندِ ٱللَّهِ﴾:

تعظيمُ ما كان مِن عندِ اللهِ وتفخيمُ شأنِه واجبٌ إيمانيٌّ

لـمّا كانَتْ: ﴿لَمَثُوبَةٞ﴾ نَكِرةً، مُفيدَةً التَّقليلَ، فقد يُزهَدُ فيها، ويُستَقَلُّ من شأنِها؛ فلذلك وَصَفَها بِأَنَّها من عندِ اللّهِ؛ لإجْلالِها وَتَفْخيمِها وَتَعظيمِهَا، وَلِمُنَاسَبَةِ الإِيمَانِ وَالتَّقْوَى لذَلِكَ[1]، ولاسيّما معَ اقترانِها بـ ﴿مِّنۡ﴾ المُفيدةِ لابتداءِ مكانةِ المَثوبة، كما أنَّ الحُكمَ على المَثوبةِ بالخيريَّةِ راجعٌ إلى وصفِها بأنَّها مِنْ عندِ اللّهِ، فَحُكمُ المُسنَدِ راجعٌ إلى المُسنَدِ إليه، بقَيدِ صِفتِه، فالقليلُ من عندِ اللّهِ عظيمٌ وجليلٌ، ففي الآيةِ: حَثٌّ على أنْ لا نَستَقِلَّ ما كانَ خيرًا، ما دامَ من عندِ اللّهِ تعالى.

نكتةُ التَّعبير باسمِ التَّفضيل على معنى الصِّفةِ:

رُسُوخُ صِفَةِ الخَيْرِ وبيانُ استحقاقِه العملَ

لـمّا كانَ ظاهرُ الكلامِ أنّ كلمةَ: ﴿خَيۡرٞ﴾ جاءتْ في سِياقِ المُفاضلةِ؛ لبيانِ أنّ المَثوبةَ مِنْ عندِ اللّهِ أفضلُ مِنْ نبذِهم كتابَ اللّهِ، وتعلّمِهم السّحرَ، دلّ على أنّها اسمُ تَفْضيلٍ، وحَذَفَ المُفضَّلَ عليه، إجلالًا للمُفَضَّلِ مِنْ أنْ يُنسَبَ إليه[2]، وهذا يَقتضي إثباتَ الخَيريَّةِ للأفضلِ، وللمفضَّلِ عليه، وهذا الظَّاهر ليس مرادًا؛ فلا خيرَ في نَبْذِ كتابِ اللّهِ، ولا في تَعلُّم السِّحرِ، فَدَلَّ على أنّ كلمةَ: ﴿خَيۡرٞ﴾ استُعمِلَتْ لا بمعنى المُفاضلة، بل بمعنى: إثباتِ الخيرِ للمَثوبةِ المذكورةِ، ونفيِها عن المقابلِ، ونُكتةُ مَجيءِ اسمِ التَّفضيلِ في غيرِ معنى المُفاضلةِ؛ الدّلالة على أنَّ اختيارَ الإيمانِ والتَّقوى هو خيرٌ بمعنى الصِّفةِ الرَّاسخةِ، التي تُقابلُ الشَّرَّ، وللتَّنبيه على أنَّ هذا الخيرَ هو المستحقُّ للعملِ، وللمبالغةِ في بيانِ شأنِه وحالِه.

نُكتةُ تكريرِ الْجُمْلَةِ فِي الآيتَين:

تكرَّرَ نفيُ العلمِ في الآيةِ السَّابقةِ وفي هذه الآيةِ بقولِه: ﴿لَّوۡ كَانُواْ

---

(1) أبو حيّان، البحر المحيط: 1/537.

(2) الآلوسي، روح المعاني: 1/347.

﴿يَعۡلَمُونَ﴾، والفرقُ في دلالة: ﴿لَوۡ كَانُواْ يَعۡلَمُونَ﴾ في الآيتَين: أنَّهم لمّا باعوا إيمانَهم بالسِّحرِ، الّذي يَضرُّهُم ولا يَنفعُهُم، استَحقُّوا أنْ يَنفيَ عنهم العلمَ؛ تَوبيخًا لهم، وتَقبيحًا لأمرِ السِّحرِ، وتَنْفيرًا منه، ولِئَلّا يَتَوهّموا أنَّ السِّحرَ عِلْمٌ، فقد نفى عنهم العلمَ بتَعلّمِهِمُ السِّحرَ، وأمّا هذهِ الآيةُ: فهي كالخاتمةِ لِمَا تقدّمَها من الآياتِ، إذْ تضَمّنَتْ خُلاصةَ جميعِ ما تقدَّمَ، مِن طَلبِ الإيمانِ بالرَّسولِ محمّدٍ ﷺ، وبالقرآنِ الّذي أُنزل عليه، وفِعلِ المأموراتِ، وتَركِ المنهيّاتِ، فلمّا لمْ يَقوموا بها، وزَهِدوا فيما عندَ اللّهِ، استَحقُّوا أنْ يَنفيَ عنهم العلمَ، تَحقيقًا وتَقريرًا.

لَمَّا انْتَفَتْ ثَمَرَةُ الْعِلْمِ الَّذي هُوَ الْعَمَلُ المقبولُ، نُفيَ الْعِلْمُ عن صاحِبِه

وفي هذا إشعارٌ برُتبةِ العلمِ، الّذي يَتضَمّنُه القرآنُ الكريمُ، إذْ أَمَرَهُم بالإيمانِ بِهِ، وتَنبيهٌ إلى أنَّ القرآنَ هو العلمُ الّذي يَنبغي صَرفُ النَّظَرِ إليه.

۞ الفُرُوقُ المُعْجَمِيَّةُ:

المَثوبة والجزاء:

الغالبُ استِعمالُ المثوبةِ في الخيرِ، فإذا استُعمِلَت في الشَّرِّ كانَ استعارةً تَهَكميَّةً، فتكونُ المَثوبةُ في مُقابلة أمرٍ، بالجزاءِ عليه بأنواعِ الإحسانِ، وأمّا الجزاءُ: فهو المُكافأةُ على الشَّيءِ في الخيرِ والشَّرِّ، فيَصدُقُ في الثّوابِ والعقابِ[1]، فَمن استِعمالِ الجزاءِ في الخيرِ قولُه تعالى: ﴿هَلۡ جَزَآءُ ٱلۡإِحۡسَٰنِ إِلَّا ٱلۡإِحۡسَٰنُ﴾ [الرحمن: 60]، ومِن استِعمالِ الجزاءِ في الشَّرِّ، قولُه تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ كَسَبُواْ ٱلسَّيِّـَٔاتِ جَزَآءُ سَيِّئَةِۭ بِمِثۡلِهَا﴾ [يونس: 27]؛ فكلُّ مَثوبةٍ جزاءٌ، وليسَ كلُّ جزاءٍ مَثوبةً، فبينَهُما عمومٌ وخُصوصٌ مُطلَقٌ.

(1) الرّاغب، المفردات، والسّمين، عمدة الحفّاظ: (ثوب).

﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَقُولُواْ رَٰعِنَا وَقُولُواْ ٱنظُرۡنَا وَٱسۡمَعُواْۗ وَلِلۡكَٰفِرِينَ عَذَابٌ أَلِيمٞ ١٠٤﴾ [البقرة: 104]

❁ مُناسَبَةُ الآيَةِ لِمَا قَبْلَها:

لـمَّا كانَ مِنْ ضُرُوبِ السِّحْرِ: مَا هُوَ تَمْوِيهُ أَلْفَاظٍ، وَقَدْ تَأَصَّلَ هَذَا عِنْدَ الْيَهُودِ، وَاقْتَنَعُوا بِهِ فِي مُقَاوَمَةِ أَعْدَائِهِمْ، وفي تَحصيلِ الأذى لهم، ناسبَ أَنْ يَلْتَفِتَ إلى خِطابِ المؤمنينَ، ويُنبّهَهم على ما كان يتأذّى به رسولُ اللّهِ محمّدٌ ﷺ، مِنْ ألفاظٍ، كان اليهودُ يَقولونَها بنيّةِ إيذائه ﷺ؛ ليكونَ النَّهيُ عن هذهِ الألفاظِ نَهيًا عن السِّحرِ بطريقِ الأَولى؛ لأَنَّه يقومُ على التَّمويه كذلكَ[1].

❁ شَرْحُ الْمُفْرَدَاتِ:

1) ﴿رَٰعِنَا﴾: يَدُلُّ أصلُ كلمة: (رَعَى) على الـمُراقبة والحِفظ، ومنه: رَعَيتُ الشّيءَ: رَقَبْتُه، ورَعَيتُه: إذا لاحَظْتَه، والرّاعي: الوالي، والرّاعي: حافِظُ الماشيةِ، يُتيحُ لها الـمَرْعى، ويُمَكِّنُها ويُراقبُها، ويَحفظُها من الضِّبَاعِ والسِّبَاعِ، ومنه: أَرْعَيتُه سَمْعي: أَصْغيتُ إليه، وأَرْعِني سَمْعَك، أي: لِيَرْقُبْ سَمعُك ما أقولُه، و(راعِنا) في الآية: إمّا بمعنى الـمُفاعلةِ، أي: احْفَظْنا ولْنَحْفَظْكَ، أو: راعِنَا سَمْعَك، أي: اسْمَعْ منَّا ما نُريدُ أَنْ نَسألَك عنه، وفي الـمُخاطبة بهذا: جَفاءٌ؛ لِتَضمُّنه معنى النِّدِّيَّةِ، وأسلوبِ الاشتراطِ والتَّعليقِ، وهذا لا يَليق بمَقامه[2] ﷺ.

2) ﴿ٱنظُرۡنَا﴾: نَظَرَ: يَدورُ على مَعنى تَأَمُّلِ الشَّيْءِ، وَمُعَايَنَتِهِ بالبَصَرِ أو البَصيرة، ثُمَّ يُسْتَعَارُ وَيُتَّسَعُ فِيهِ، فيأتي بمعنى: الإمْهال والانْتظار؛ لأَنَّ التأمُّل يَستغرقُ زَمَنًا، يُقالُ: نَظَرْتُهُ، أَي: انْتَظَرْتُهُ، ومنه قَولُه: ﴿ٱنظُرۡنَا﴾ أَي: ارْقُبْنا، وتَأَنَّ علينا، وانتَظِرْ مَا يكونُ منّا[3].

(1) البقاعيّ، نظم الدّرر: 2/85، وابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 1/651.
(2) ابن قتيبة، غريب القرآن: 1/60، والأزهريّ، تهذيب اللُّغة، وجبل، المعجم الاشتقاقيّ المؤصّل: (رعى).
(3) الأزهريّ، تهذيب اللُّغة، والسّمين، عمدة الحفّاظ: (نظر).

المَعْنَى الإِجْمَالِيُّ:

نهى اللّهُ المؤمنينَ في هذا الخطابِ: أنْ يقولوا للرَّسولِ محمَّدٍ، ﷺ، مِنَ القولِ ما فيهِ جَفاءٌ، وأَمرَهم أنْ يتخَيَّروا لِخطابِه مِنَ الألفاظِ أحسنَها، ومِن المعاني أرقَّها، فلا تَقولوا لِنَبيِّكُم: راعِنَا سَمْعَكَ، وَفرِّغْهُ لَنَا نَفهمْكَ، وَتَفْهمْ عنَّا ما نقولُ؛ لِأنَّ اليهودَ كانوا يقولونَها للنَّبيِّ، ﷺ، يَلوُونَ ألسنتَهُم بها، يَقصِدونَ سَبَّهُ، ولكنْ قولُوا بدلًا مِنها: انْظُرْنا، أي: انْظُرْ إلينَا، وَتعهَّدْنا، أو: انتَظِرْنَا وتَرَقَّبْنا، حتَّى نَفْهَمَ عنكَ ما تُعَلِّمُنَا، وتُبَيِّنُهُ لَنا، واسْمَعوا مِنه ما يقولُ لَكم، فَعُوهُ واحْفَظُوهُ وافْهَموهُ، وامْتَثِلوا لَه، ومَنْ خالفَ أمرَ اللّه ونهيَهُ، وكَذَّبَ رسولَهُ ﷺ، أو آذاهُ، فَلَهُ العذابُ الـمُوجِعُ في الآخرةِ.

الإِيضَاحُ اللُّغَوِيُّ وَالبَلَاغِيُّ:

سِرُّ ابتداءِ الآيةِ بالنِّداءِ بالاسمِ الموصولِ ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾:

إقبالٌ، وتحبّبٌ للمؤمنين، بقصدِ التَّوطئةِ للتَّكاليفِ

ابْتُدِئَ الكلامُ بنداءِ الّذين آمنوا، الدّالِّ على الإقبالِ عليهم؛ تلطُّفًا بالمُؤمنين؛ للإشعارِ بأنَّ النَّهيَ والأمرَ اللَّذَينِ في الآيةِ، ليسا على التَّوبيخِ والتَّقريعِ، كما كانَ في الأمرِ والنَّهي الّذي وُجّهَ لبني إسرائيلَ، ففي هذا النِّداءِ: تَحْبيبٌ وتَلطيفٌ للمؤمنين، بقصدِ التَّوطئةِ للنَّهي والأمرِ المذكُورَيْنِ، ولذلك كانَ اختيارُ الاسمِ الموصولِ؛ لتقويةِ إقبالِهم بصلةِ الموصولِ: ﴿ءَامَنُواْ﴾، وقَصَدَ بذلكَ: توجيهَ المؤمنينَ إلى ما سَيخبرُهُم اللّهُ عنهُ، مِن الأوامرِ والنَّواهي؛ لِيكونوا مُنْتَظرينَ لوُرودِها عليهم، حتَّى يُبادِروا إلى الامتثالِ إذا وَرَدَتْ[1].

سببُ تَقدّمِ النَّهي، وتأخُّرِ الأمرِ:

التَّخليةُ قبلَ التَّحليةِ، والعملُ بعد التَّجلية

بُدِئَ بالنَّهْيِ في قولِه تعالى: ﴿لَا تَقُولُواْ رَٰعِنَا﴾؛ لِأَنَّ اللَّفظَ شائعٌ موجودٌ في الاستعمالِ، فأمرَهم بتركِه ابتداءً، ثم أمرهم بما يقولون:

(1) السّكّاكي، مفتاح العلوم: 182.

﴿وَقُولُواْ ٱنظُرۡنَا﴾، فالأمرُ كان بمثابةِ إقامةِ البديل عن المنهيِّ عنه، فَحَسُنَ بذلك أن يكون من باب التَّخليةِ قبل التَّحلية، وقبل العمل يحسنُ الفهمُ، وبعد التَّركِ يحسُن إيجادُ البديلِ، وَلمّا كانَ الأمرُ أَشَقَّ من النَّهيِ؛ لأَنَّهُ إنْجازٌ وإيقاعٌ، حَصَلَ الاسْتِئْنَاسُ بالأمرِ، لورودِ النَّهيِ قبلَه[1].

بلاغةُ حذفِ المفعولِ:

تنوُّعُ المعاني بحذف المفعول

لتوجيه حذفِ مفعولِ: ﴿وَٱسۡمَعُواْۗ﴾ ثلاثةُ مسالك[2]:

الأوّل: إقامةُ الفعلِ المتعدّي مَقامَ اللّازم، أي: وَلْيكنْ منكمْ سَماعٌ وإصغاءٌ، والمعنى: فَرِّغُوا أَسْمَاعَكُمْ لِمَا يَأْمُرُكُم به النَّبِيُّ ﷺ، حَتَّى لَا تَحْتَاجُوا إِلَى اسْتعادَةِ الكلامِ.

الثّاني: أَنْ يُقَدَّرَ المفعولُ من السِّياقِ، فإنّه لـمّا كانَ اليهودُ يَسمعون ويَعصونَ أمرَ اللّهِ، فقالَ للمؤمنين: ﴿وَٱسۡمَعُواْۗ﴾، والتَّقديرُ: اسْمَعُوا سَمَاعَ قَبُولٍ وَطَاعَةٍ، وَلَا يَكُنْ سَمَاعُكُمْ سَمَاعَ الْيَهُودِ، حَيْثُ قَالُوا: سَمِعْنَا وَعَصَيْنَا، فيكونُ قدْ قَصَدَ بالسَّماعِ لازمَهُ، وَهوَ: الطّاعةُ[3].

الثّالثُ: أَنْ يُقَدَّرَ المفعولُ عامًّا، والتَّقديرُ: اسْمَعُوا مَا أُمِرْتُمْ بِهِ، حَتَّى لَا تَرْجِعُوا إِلَى مَا نُهِيتُمْ عَنْهُ، تَأْكِيدًا عَلَيْهِمْ، وهذا الوجْهُ قريبٌ مِنَ الثَّاني.

بلاغةُ وضعِ الظَّاهرِ مَوضعَ المُضمَرِ:

الاستهزاءُ بنبيّ اللّه مُغالاةٌ في الكُفر

كان مقتضى الظَّاهرِ في قولِه تعالى: ﴿وَلِلۡكَٰفِرِينَ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ أنْ يُوضَعَ الضَّميرُ موضعَ (الكافرين)؛ ليعودَ على اليهودِ؛ لأَنَّ سياقَ الكلامِ فيهم، ولكنّهُ جاءَ على خِلافِ مُقتضى الظَّاهرِ؛ لِلإشعارِ بأنَّ قولَهم ذلك: كانَ تَهاوُنًا بالرَّسولِ، ومَنْ أهانَ نبيَّ اللّهِ وحبيبَه ﷺ كان

---

(1) أبو حيّان، البحر المحيط: 1/542.

(2) الرّازيّ، التّفسير الكبير: 3/635.

(3) القرطبيّ، الجامع لأحكام القرآن: 2/60.

غاليًا في الكُفرِ، كاملًا فيه، مُستَحِقًّا لِأَنْ يُعذَّبَ بعذابٍ أليم، وَلِلتَّنْبِيهِ: عَلَى أَنَّ التَّقْصِيرَ فِي الْأَدَبِ مَعَهُ ﷺ ذَنْبٌ مُجَاوِرٌ لِلْكُفْرِ إِلَيْهِ[1].

دلالة (أل) في ﴿وَلِلۡكَٰفِرِينَ﴾:

(أَلْ): في قوله: ﴿وَلِلۡكَٰفِرِينَ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ عَهديَّةٌ، والمرادُ من الكافرين بالأَوْلويَّةِ اليهودُ؛ لِأَنَّ السِّياقَ واردٌ فيهم، وَنكتةُ التَّعْبِيرِ بِالْكَافِرِينَ دُونَ الْيَهُودِ زِيَادَةٌ في ذَمِّهِمْ[2]، وفيه إشارةٌ إلى استحقاقِهِمُ الكفرَ، بأذيَّتِهم رسولَ اللّهِ ﷺ.

بَلاغةُ تقديمِ المُسنَدِ على المسنَدِ إليه:

امتثالُ الأوامرِ مناطُ الإيمانِ

قدَّمَ ﴿وَلِلۡكَٰفِرِينَ﴾ على ﴿عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾؛ لإظهارِ تَخصيصِ العذابِ الأليم بالكافرين، تَوبيخًا لِقُبحِ فعلِهم معَ رسولِ اللّهِ ﷺ، ويَقتضي هذا التَّخصيصُ أنَّ للمؤمنين النَّعيمَ الكريمَ، ففيه حَثٌّ وتَحْضيضٌ على امتثالِ قولِه للمؤمنين: ﴿وَٱسۡمَعُواْۗ﴾.

سرُّ وصفِ العذابِ بالأليم:

رُسوخُ الألمِ في العذابِ فيه زيادةُ ترهيبٍ

العذابُ لا يكونُ إلَّا أَليمًا، والمعنى: على المُبالغةِ في الإيلام، فكأَنَّ الإيلامَ تَكرّرَ في الكلام، ومثلُه قولُهم في الكلامِ العربيِّ: جَدَّ جدُّهُ[3]، وهو محمولٌ على أنّه مُؤلِم، لكن أتى بصيغة فعيل للمبالغةِ، ولبيانِ أنَّ الألم راسخٌ فيه.

۞ الفُرُوقُ المُعْجَمِيَّةُ:

﴿رَٰعِنَا﴾ و﴿ٱنظُرۡنَا﴾:

مناسبةُ اللَّفظِ والمعنى لِسياقِ الكلامِ

تَحتملُ كلمةُ: ﴿رَٰعِنَا﴾ أَنْ تكونَ بمعنى الإمهالِ والانتظارِ، أو بمعنى: (أَرْعِني سمعَك)، وكان الصّحابةُ يقولونَها بمعنى: اسْمَعْ لَنَا مَا نُرِيدُ أَنْ نَسْأَلَ عَنْهُ، وَنُرَاجِعَكَ الْقَوْلَ فِيهِ، لِنَفْهَمَهُ عَنْكَ، وتَحتملُ

---

(1) الطّيبيّ، فتوح الغيب: 3/29، ومحمّد رشيد رضا، المنار: 1/339.

(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 1/652.

(3) الطّيبيّ، فتوح الغيب: 3/29.

أنْ تكونَ هُزْءًا، عَلَى النَّحْوِ الَّذِي كَانَتِ الْيَهُودُ تُطْلِقُهُ، يَقصدون به رميَه، ﷺ، بالرُّعُونَة، وَيُوهِمونَ أَنَّهم يَقولونَ: راعِنا، فَتكونُ كلمةُ: ﴿رَاعِنَا﴾ فِيها احْتِمَالُ الْأَمْرَيْنِ، وَعِنْدَ الْإِطْلَاقِ تَكونُ بِالْهُزْءِ أَخَصَّ مِنْها بِالانتظارِ.

وأمّا دَلالاتُ: ﴿ٱنظُرْنَا﴾ فهي مأخوذةٌ مِن اسْتدعاءِ نظرِ العينِ، المُقترِنِ بتَدَبُّرِ الحالِ، ففيها معنى: الانتظارِ والإمهالِ الّذي في راعِنا، وليسَ في الكلمةِ معنى المُفاعلةِ الّذي في ﴿رَاعِنَا﴾، وَهو ممّا لا يَليقُ بمُخاطبةِ الرَّسولِ الأكرمِ، ﷺ، معَ إفادتِها معنًى آخرَ، ليسَ في ﴿رَاعِنَا﴾، وَهو: الرِّفقُ وَ المُراقبةُ وَتَدبّرُ الحالِ، كما أنّ التَّعبيرَ بـ ﴿ٱنظُرْنَا﴾ فيهِ معنى: الرَّغبةِ لِفعلِ المأمورِ، على معنَى: انتَظِرْ منَّا فِعْلَ ما تأمرُنَا بهِ، وَهو يفيدُ امتثالَ الأمرِ والطّاعةِ، والمُسارعةَ إلى فعلِ الخيرِ.

فكلمةُ: ﴿ٱنظُرْنَا﴾ أَخَفُّ صَوتًا، وأنسبُ معنًى، وليسَ فيها ما يُوهِمُ سُوءَ الأَدبِ؛ لِيَتَذَرَّعَ بِهَا الْكُفَّارُ لِأَذَى النَّبِيِّ ﷺ[1].

(1) ابن قتيبة، تأويل مشكل القرآن، ص: 218، والجصّاص، أحكام القرآن: 1/72، وابن عطيّة، المحرّر الوجيز: 1/189، وابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 1/651.

﴿مَّا يَوَدُّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِنۡ أَهۡلِ ٱلۡكِتَٰبِ وَلَا ٱلۡمُشۡرِكِينَ أَن يُنَزَّلَ عَلَيۡكُم مِّنۡ خَيۡرٖ مِّن رَّبِّكُمۡۚ وَٱللَّهُ يَخۡتَصُّ بِرَحۡمَتِهِۦ مَن يَشَآءُۚ وَٱللَّهُ ذُو ٱلۡفَضۡلِ ٱلۡعَظِيمِ ١٠٥﴾ [البقرة: 105]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِمَا قَبْلَها:

لـمّا أَمرَ اللّهُ المؤمنينَ في الآيةِ السَّابقةِ بِسماعِ أَوامرِهِ، والامتثالِ لَها، وَذكرَ عِلّةً حاملةً أُخْرَوِيَّةً، وَهي الوعيدُ بالعذابِ الأليمِ، لِمَن لم يمتثلْ أوامرَهُ، ذَكرَ في هذهِ الآيةِ: عِلَّةً دُنيويَّةً باعثةً على الامتثالِ، وَهيَ كراهةُ الكافرينَ لِلمؤمنينَ، فَإنَّهم ما يَودُّونَ أنْ يُنَزَّلَ عليكم شيءٌ لَكم فيهِ خيرٌ، فَضلاً عنْ أنْ تَمتثلُوهُ؛ حسَدًا وبَغيًا مِنهم لَكم، كمَا ناسبتْ هذهِ الآيةُ ما قبلَها؛ لِأَنّه ذكرَ علّةَ العذابِ الأَليمِ لِلكافرينَ، وَهي لِأنَّهم لا يَودُّونَ لَكم خيراً؛ فَالتزامُكُمْ بالسّماعِ مِنْ جملةِ عذابِهم؛ لِأَنَّهُ واقعٌ على خلافِ وِدادَتِهم، معَ ما يُدَّخَرُ لَهم في الآخرةِ، بكفرِهم وَتمنّيهم كُفرَكم، فَوجْهُ الْمُنَاسَبَةِ بَيْنَ الْآيَتَيْنِ ظَاهِرٌ، هو الحَثُّ على الامتثالِ؛ لِأَنَّ الدَّاعِيَ لِلسَّبِّ وَالْأَذَى هُوَ الْحَسَدُ(1).

شَرْحُ المُفْرَدَاتِ:

1) ﴿يَوَدُّ﴾: يَدُلُّ معنى الوُدّ: على الحُبّ، وتَمنّي حُصولِ الشَّيء، فَيُقالُ: وَدِدْتُه: أَحْبَبْتُه، فالوُدُّ: محبَّةُ الشّيءِ، وتمنّي حُصولِه، فيَكْمُنُ فيه معنى التَّمنّي، فيُقالُ: وَدِدْتُ أَنَّ ذَاكَ كَانَ كذا، إِذَا تَمَنَّيْتَهُ(2).

2) ﴿يَخۡتَصُّ﴾: يَدُلُّ معنى: خَصَّ على فُرجَةٍ، تَحصُرُ النَّافذَ أَوِ النَّفاذَ لِيكونَ دقيقًا، حَسَبَ القدرِ المُرادِ، فَالخَصَاصُ: الفُرَجُ بَيْنَ الأَثَافيِّ، وَالخَصَاصَةُ: الإِمْلَاقُ، وَالثُّلْمَةُ في الحَالِ، وخَصَصْتُ فُلَانًا بِشَيْءٍ خَصُوصِيَّةً؛ لِأَنَّهُ إِذَا أُفْرِدَ وَاحِدٌ، فَقَدْ أَوْقَعَ فُرْجَةً بَيْنَهُ وَبَيْنَ غَيْرِه، وخَصَّ فُلانًا بكذا يَخُصُّه: آثرَه به على غيرِه، كاخْتَصَّهُ، كأَنَّما أَنفَذَهُ إليهِ، من خلالِ فُرجةٍ، تَصلُ إليه دونَ غيرِه ممَّنْ حولَه، والاخْتصاصُ

(1) البقاعيّ، نظم الدّرر: 2/88، وابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 1/652.

(2) ابن فارس، مقاييس اللُّغة، والسّمين، عمدة الحفّاظ:(ودد).

بالشَّيءِ: الانفرادُ بهِ، وَاخْتصَّ الشَّيءَ: اصْطفاهُ وَاختارَهُ، وَيخْتَصُّ برحمتِهِ: بِمعنى إفرادِهِم بها، دونَ غيرهم مِنْ خَلْقِه[1].

3) ﴿ٱلْفَضْلِ﴾: يدلُّ معنى الفَضْلِ على زِيَادَةٍ في شَيْءٍ، ومِنْ ذَلِكَ: الفَضْلُ: الزِّيَادَةُ وَالخَيْرُ، والفَضِيلَةُ: الدَّرجةُ الرَّفيعةُ في الفَضْل، والفَواضِلُ: الأَيادي الجَميلَةُ، وأَفْضَلَ الرَّجُلُ عَلَى فُلَانٍ وتَفَضَّلَ، بِمَعْنَى: إذا أنالَه مِنْ فَضْلِه، وأَحْسَنَ إليه، والإفْضال: الإحسانُ، وكلُّ عَطيّةٍ لا تُلزِمُ مَنْ يُعطي، يُقالُ لها: فَضْلٌ، وفَضْلُ اللّهِ عطاؤه[2].

المَعْنَى الإِجْمَالِيُّ:

ما يُحِبُّ الَّذينَ كَفَرُوا مِنَ اليَهُودِ وَالنَّصَارَى، وَلَا مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ، أَنْ يُنَزَّلَ عَلَيْكُمْ أَدْنَى خَيْرٍ مِنْ رَبِّكُمْ، حَسَدًا منهم، وَبُغضًا لَكم، لِمَا تفضّلَ به عليكُمْ مِنْ رحمتِه، وَلكنَّ ما يَوَدُّهُ الكافرونَ لَنْ يَحْصُلَ، واللّه يَخْتَصُّ برحمتِهِ مَنْ يشاءُ بالنُّبوّةِ والرِّسالةِ، أو بأيِّ نوعٍ مِنْ أنواعِ رحمتِه، وهي مواهِبُ منه، يَختصُّ بِها مَنْ يَشاءُ مِنْ خَلْقِهِ، واللّه ذو العطاء العَميم وَالعظيم؛ لِسَعَتِه وَكَثْرَتِه[3].

الإِيضَاحُ اللُّغَوِيُّ وَالبَلَاغِيُّ:

بلاغةُ التَّعبيرِ بـ﴿مَّا يَوَدُّ﴾:

تمكُّنُ الحسَدِ في قلوبِ اليهودِ مدارُه على إنزالِ القرآنِ على المؤمنين

أفادَتْ (ما) نَفْيَ الْحَالِ، أي: هُمْ مُتَلَبِّسونَ بِالْبُغْضِ وَالْكَرَاهَةِ؛ بِأَنْ يُنَزَّلَ عَلَيْكُمْ مِنْ خيرٍ من ربِّكم[4]، فبغضُهم للمؤمنين لا يفارقُهم، وجاءَ التَّعبيرُ بالفعلِ المضارعِ؛ لإفادةِ تجدُّدِ نَفْيِ وُدِّهِم، فَكَراهيَّةُ الكفَّارِ لِلخيرِ الّذي أَنزَلَهُ اللّهُ علَى الـمُؤمنينَ مُتَجَدِّدَةٌ، مُتَّصِلةٌ مُستدامَةٌ.

وعبَّر بالوُدِّ دون الحُبِّ؛ لأَنَّ الودَّ هو مَحبَّةُ الشَّيءِ الـمَمْزوجِ بِتَمنّيه[5]، ويُستعمَلُ في مَيلِ الطِّباعِ، إذا وَرَدَ بمعنى: التَّمنّي[6]، بينما

(1) ابن فارس، مقاييس اللُّغة، وجبل، المعجم الاشتقاقيّ المؤصّل: (خَصَصَ)، وينظر: ابن جرير، جامع البيان: 2/471.

(2) الأزهريّ، تهذيب اللّغة، وابن منظور، لسان العرب: (فضل)، وابن قتيبة، غريب القرآن: 1/19.

(3) ابن جرير، جامع البيان: 2/471.

(4) أبو حيّان، البحر المحيط: 1/544.

(5) الرّاغب، تفسير الرّاغب: 1/282.

(6) العسكري، الفروق اللُّغويّة، ص: 122.

الحُبُّ فيُستعمَلُ فِيمَا يُوجِبُهُ مَيلُ الطِّباعِ وَالْحِكمَةِ جَمِيعًا، والتَّعبيرُ بـ ﴿مَّا يَوَدُّ﴾ هو الأنسبُ بالسِّياقِ، وأفاد نظمُ الكلمةِ ثلاثةَ مَعانٍ:

الأوّل: أنّ ما يَوَدُّونَهُ شرٌّ، وليس بخيرٍ، وَلِهذا ناسَبَ ذكرُ الخيرِ في مُقابلِهِ في قولِه: ﴿مِّنْ خَيْرٍ مِّن رَّبِّكُمْۚ﴾.

الثّاني: أنّ ما يَوَدُّونَهُ مُوافِقٌ لِطباعِهم السَّيئةِ، وهو تَمنِّي زوالِ الخير، أو انقطاعِه أَصْلًا عن المؤمنين؛ إشارةً إلى حسَدِهم وَ بَغيِهم.

الثّالث: أنّ ما يَوَدُّونَهُ لا يَحصُل أبدًا؛ لِتَضمُّنِ ﴿يَوَدُّ﴾ مَعنى التَّمنّي؛ فإنَّهُ لا مَطمَعَ في وقوعِ الـمُتَمَنَّى، ففيه تَقريعٌ لَهم، ولـمّا كانَ ما يَوَدُّونَه لا مَطمَعَ في وقوعِه: اقتضى أنْ يكونَ تنزيلُ الخيرِ ﴿مِّن رَّبِّكُمْۚ﴾ مُسْتَمِرًّا، غيرَ منقطعٍ، ففيه بِشارةٌ للمؤمنينَ.

ولو عبّر بـ (ما يُحِبّ) لفاتت هذه المعاني البلاغيّة اللَّطيفةُ المَقصودةُ.

نُكْتةُ التَّعبيرِ بالاسمِ الموصولِ:

الاستشهادُ على أهـلِ الـكـتـابِ بحيِّزِ الـصِّـلـةِ، وليشملَ جميعَ الكافرين

عُبِّرَ بالاسم الموصولِ بوَساطةِ جُملةِ الصِّلةِ، الّتي أَفادَ ذكرُها الإشارةَ إلى نُكتَتَينِ بَلاغيَّتَين:

إحداهما: أنّه ذَكَرَ ﴿ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾ هُنَا لِقَصْدِ شُمُولِ هَذَا الحُكْمِ اليَهُودَ وَالنَّصَارَى مَعًا، تَمْهِيدًا لِمَا يَأْتِي، مِنْ ذِكْرِ حِكْمَةِ النَّسْخِ، وَمِنْ قَوْلِه: ﴿وَقَالُواْ لَن يَدْخُلَ ٱلْجَنَّةَ إِلَّا مَن كَانَ هُودًا أَوْ نَصَٰرَىٰۗ﴾ [البقرة: 111]، ولو قال: (ما يَوَدّ اليهودُ) لفاتَ الشُّمولُ المذكورُ[1].

الثّانية: الإيماءُ إلى وَجهِ بناءِ الخبَر، على الاسم الـمَوصولِ بوَاسطة صِلَتِه[2]، فَأفادَتْ صِلةُ الموصولِ: الإشعارَ بِأَنَّ كتابَهم يَدعوهُمْ إلى مُتابعةِ الحَقِّ، لكنَّ كُفرَهُم يَمنعُهم[3]، فقدْ علّقَ بناءَ الخبَرِ (نَفْيَ المَوَدّة) على كُفرِهم، تَوبيخًا لَهم، وَتَقْبيحًا لِكُفرِهم، الّذي يَصُدُّهُم عن الخَيرِ، وَالفَضلِ العَميم.

---

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 1/653.
(2) السّكّاكي، مفتاح العلوم: 182.
(3) الطّيبيّ، فتوح الغيب: 3/29.

دلالة حرفِ الجرِّ (مِن) في قولِه: ﴿مِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ﴾:

(من) هنا: بيانيَّةٌ[1]، فتفيدُ بيانَ المَقصودِ مِنْ عمومِ الَّذينَ كَفروا؛ لأَنَّ المَقامَ مَقامُ إيضاحٍ، وبيانٍ لِتعريفِ المؤمنينَ بِمَنْ لا يَوَدُّ الخيرَ لَهم؛ ليحذروهم، فبيَّنَ العُمومَ بـ (مِنْ)، وجعلَهم صِنفين: أهلَ الكتابِ والمشركين، وَيشهدُ لذلك قولُه تعالى: ﴿لَمْ يَكُنِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ وَٱلْمُشْرِكِينَ مُنفَكِّينَ حَتَّىٰ تَأْتِيَهُمُ ٱلْبَيِّنَةُ﴾ [البيّنة: 1]، فالقرآنُ يُفَسِّرُ بَعضُهُ بَعضًا، وَذهبَ بعضُ المُفسِّرينَ: إلى أنَّ (مِنْ) هنا تَبعيضيَّةٌ، وَالمعنى: أهلُ الكتابِ بعضٌ من الَّذينَ كَفَروا[2].

نُكتةُ ذكرِ حرفِ النَّفيِ في قولِه تعالَى: ﴿وَلَا ٱلْمُشْرِكِينَ﴾:

اشتراكُ أهلِ الكتابِ والمشركين في سببِ الكُفرِ

لِتأكيدِ أنَّ المُشركينَ كذلك، ما يَوَدّونَ أنْ يُنَزَّلَ عليكم مِنْ خَيرٍ مِنْ ربِّكم[3]، وَمِنْ لطائفِ التَّعبيرِ البلاغيِّ في القرآنِ الكريمِ في هذهِ الآيةِ: عدمُ اقترانِ حرفِ الجرِّ (مِنْ) معَ المشركين: فلمْ يَقُلْ: (ولا مِنَ المشركين)، لإفادةِ أنَّ كُرْهَ أهلِ الكتابِ والمشركينَ واحدٌ لا يَختلِفُ؛ لأنَّ المسبِّبَ واحدٌ، وَهوَ كُفرُهم.

سببُ تقديمِ أهلِ الكتابِ على المُشركين:

كُفرُ حسدِ العالمِ بالشَّيءِ أشدُّ من كفرِ الجاهلِ به

قُدِّمَ أهلُ الكتابِ على المشركين؛ لِأَنَّ السِّياقَ كانَ في أهلِ الكتابِ؛ وَلِلإشارةِ إلى أنَّ أَولويَّةَ الكُفرِ تكونُ فيهم؛ لأنَّ الجحودَ مِنهم أَشدُّ من جحودِ غيرِهم، الّذين لم يُؤتَوا كتابًا، فقدْ كانَ لِليهودِ عِلمٌ، وَلكنّهم لمْ يَنتفعوا بِهِ، وإنَّ سببَ كراهيَّتِهم لأنْ يُنَزَّلَ عليكم خَيرٌ مِنْ ربِّكم، يَختلِفُ عندَهم عمَّا هو عندَ المُشركينَ، فهو عندَ المشركين كُفرٌ لِلوحدانيَّةِ، وخوفُ الرِّياسةِ، والتَّنافسِ بينَ العشائرِ، وَأمَّا عندَ

---

(1) الزّمخشريّ، الكشّاف: 1/175.
(2) أبو حيّان، البحر المحيط: 1/544.
(3) أبو حيّان، البحر المحيط: 1/544.

اليهودِ، فَهو كراهيَّةُ حَسَدٍ؛ أَنْ تكونَ الرُّسُلُ في ولدِ إسماعيلَ، وَحَسَدٍ في أَنْ يَرَوا غيرَهم على خَيرٍ وفَضلٍ من اللّهِ[1].

إيثارُ صيغةِ المَبنيِّ لِمَا لمْ يُسمَّ فاعلُه ﴿يُنَزَّلَ﴾:

تنزيلُ الخير تكريمٌ للمؤمنين

عبَّر النَّظم بصيغةِ ما لم يُسمَّ فاعلُه في قولِه ﴿أَن يُنَزَّلَ عَلَيۡكُم﴾، ولم يقل: (أَنْ يُنَزِّلَ ربُّكم) للإشعارِ ببيانِ ابتداءِ الخيرِ من اللّهِ تعالى، المُفيدِ لِلتَّكريم.

دلالة حرفِ الاستعلاءِ في ﴿عَلَيۡكُم﴾:

لمّا كانت (على) دالّةً على الاستعلاءِ: أفادتْ تَعظيمَ الخيرِ المُنزّلِ وإجلالَه؛ لِعُلُوِّه، كما تُفيدُ استيعابَ الخيرِ لِلمؤمنينَ، وتَمكّنَه فيهم.

دلالة صيغة المضارع: ﴿يَخۡتَصُّ﴾:

تُفيدُ صيغةُ المضارِعِ: تجدّدَ الاختصاصِ بالرَّحمةِ، واسْتمراريَّتَهُ لِلمؤمنينَ جميعًا.

نُكتةُ التَّعبيرِ بِـ﴿يَخۡتَصُّ﴾ دونَ (يَخُصُّ):

كمالُ الامتنانِ اختصاصُ المؤمنين بالرَّحمةِ، وخسارةُ الحاسِدين بالحرمانِ

وردَتْ كلمةُ: ﴿يَخۡتَصُّ﴾ دونَ: (يَخص)؛ لِخَصوصيَّةِ -بفتح الخاءِ- الكلمةِ في هذا السِّياقِ؛ فكلمةُ ﴿يَخۡتَصُّ﴾ بمعنى: يَنفَرِدُ بالشَّيءِ لِنفسِه، وَ(يَخُصُّ) بمعنى: إفرادِ الغَيرِ بشيءٍ، فالاختصاصُ أوكدُ من الخُصوصِ[2]؛ لِأَنَّ الاختصاصَ لِنفسِكَ، ويَدُلُّ على خَصوصيَّةِ القُربِ، والخَصوصُ لغيرِكَ، ولا يَدُلُّ على خَصوصيَّةِ القُربِ، فَأشعرتْ كلمةُ ﴿يَخۡتَصُّ﴾: بِأَنَّ اللّهَ يَخْتَصُّ المؤمنين برحمتِه، وفَضلًا منه لنفسِه، وهذا من بديعِ المَدْحِ؛ ففيه إعناتٌ لأهلِ الكتابِ، فما أرادوه لأنفسهم تَمَنِّيًا حصل للمؤمنين فضلًا.

---

(1) أبو زهرة، زهرة التّفاسير: 1/349.

(2) الثّعلبيّ، الكشف والبيان: 1/253.

براعةُ الجمعِ بينَ العمومِ والاختصارِ

بلاغةُ حذف مفعول ﴿يَشَآءُ﴾:

يَعلمُ السَّامعُ أنّ المشيئةَ قدْ عُلِّقَتْ بشيءٍ، تَقتضي أنْ يكونَ، وَمَفْعُولُ الْمَشِيئَةِ مَحْذُوفٌ، كما هُوَ الشَّأْنُ فيهِ إِذَا تَقدَّمَ عَلَيْهِ كَلَامٌ، أَوْ تَأَخَّرَ عَنْهُ، والتَّقديرُ: يَخْتَصُّ برحمته مَنْ يشاءُ اخْتصاصَه[1]، فلمّا كان المَقامُ مَقامَ مبالغةٍ، بسببِ فعلِ المَشيئةِ - فمَشيئتُه لا يَحصرُها شيءٌ - كان مِن البلاغة أنْ يُجاء به محذوفاً؛ لإفادةِ العُموم، مع الاختصارِ في الكلام[2].

إنزالُ الخيرِ من مقتضيات الرُّبوبيَّةِ، والتّخصيصُ بالرَّحمةِ من مقتضيات الألوهيَّةِ

بلاغةُ إقامةِ الظَّاهرِ مقامَ المُضمَرِ:

قال تعالى: ﴿وَٱللَّهُ يَخْتَصُّ بِرَحْمَتِهِۦ مَن يَشَآءُ﴾، وكان الظَّاهرُ أنْ يقولَ: (وهُوَ يَختصُّ برحمتِه)؛ لِقُربِ ذكرِ ﴿رَّبِّكُمْۚ﴾، فأقامَ لفظةَ: ﴿ٱللَّهُ﴾ مَقامَ الضَّميرِ؛ لِينبِّهَ به على أنَّ تخصيصَ بعضِ النَّاسِ بالرَّحْمةِ دونَ بعضٍ، هو من مقتضياتِ أُلوهيَّته، كما أنَّ إنزالَ الخيرِ على العموم من مقتضياتِ ربوبيَّته[3]، وزادَهُ مُناسبةً: الإضافةُ في (ربِّكم)، المفيدةُ لِاختصاصِ التَّشريفِ والتَّكريم.

اجتماع الاستغراق والتّأكيد في دلالة (مِن)

دلالة (مِن) في قوله ﴿مِّنۡ خَيۡرٖ﴾:

أفادتْ: ﴿مِّنۡ﴾ استغراقَ الخَيريَّة[4]، والمقصودُ: عمومُ الخيرِ[5]، والمعنى: ما يَوَدُّون أنْ يُنَزَّلَ عليكم أيُّ نوعٍ من أنواعِ الخيرِ، ولو كانَ قليلًا، كما أفادتْ تأكيدَ نفيِ مَوَدَّتِهم؛ لِأَنْ يُنَزِّلَ اللّهُ أيَّ خيرٍ على المؤمنين.

دلالة حرف الجرِّ ﴿مِّن رَّبِّكُمْۚ﴾:

من هنا: ابْتدائيَّةٌ[6]، فأفادتْ أنّ ابتداءَ تنزيلِ الخيرِ من اللّهِ تعالى؛ لِيدلَّ على التَّكريمِ والتَّفضيلِ.

---

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 1/653.
(2) التّفتازانّي، المطوّل، ص: 369.
(3) الطّيبيّ، فتوح الغيب: 3/30.
(4) الرّاغب، تفسير الرّاغب: 1/283.
(5) البيضاويّ، أنوار التّنزيل: 1/99.
(6) الزّمخشريّ، الكشّاف: 1/175، والرّازيّ، التّفسير الكبير: 3/636.

سببُ التَّعبير بـ ﴿ذُو ٱلۡفَضۡلِ﴾:

الوصفُ بـ (ذو) لِزيادةِ التَّشريفِ، وكونِ الوصفِ غيرَ مُفارِقٍ

عبَّر النَّظمُ بذو الفضل؛ لأَنَّه أَشْرَفُ في الاستعمالِ مِنَ الْوَصْفِ بِصَاحِبٍ، فإِنَّ (ذُو) أَبَدًا لَا تَكُونُ إِلَّا مُضَافَةً لِاسْمٍ، فَمَدْلُولُهَا أَشْرَفُ، ومنه: (ذو الجلال)، كما أنَّ التَّعبير بـ (ذو)؛ لإفادة أنَّ وصفَه بالفضلِ العظيمِ مُلازمٌ للّٰهِ تعالى، غيرُ مُفارِقٍ له[1]، ولـمّا كان عطاءُ اللّٰهِ ليس واجبًا عليه سُبحانَه، ناسبَ أنْ يكونَ أيُّ خيرٍ يُنَزِّلُه ومَنْ يَخْتَصُّهُ برحمته فضلًا منه، ولو كان ذلك واجبًا عليه لَمَا وُصِفَ بالإفضال، كما دلّ على أنَّه وإنِ اخْتَصَّ برحمته بعضَ النّاس، فليس ذلك لضِيقِ فضلِه، بلْ فضلُه عظيمٌ[2].

بلاغةُ جملةِ التَّذييل في قوله ﴿وَٱللَّهُ ذُو ٱلۡفَضۡلِ ٱلۡعَظِيمِ﴾:

فضلُ اللهِ عميمٌ ومُستدامٌ

جاءت الجملةُ تذييليّةً لِمَا تقدّمَها مِنَ الكلامِ[3]؛ لِبيانِ أَنَّ الْفَضْلَ يَشْمَلُ إِعْطَاءَ الْخَيْرِ، وَالْمُعَامَلَةَ بِالرَّحْمَةِ، كما أنّها لكليّة معناها واسميّتها، أفادتْ دوامَ مَضمونِها واستمراريَّتَهُ، كما يَصِحُّ أنْ تكونَ كالمثلِ في الكلامِ، لعموم معناها ودَيمومتِه.

توجيهُ القراءاتِ القرآنيَّةِ:

معاني القراءاتِ القرآنيّةِ تتكثّرُ وَلا تتقاطَعُ

قَرَأَ الْجُمْهُورُ: ﴿أَن يُنَزِّلَ﴾ بِتَشْدِيدِ الزَّايِ مَفْتُوحَةً، وَالتَّعْبِيرُ بِالتَّنْزِيلِ دُونَ الإِنْزَالِ؛ للإشعار بنفي وِدادَتِهم تدفّقَ الخيرِ مِن اللّٰهِ على المؤمنين، وعدمَ انقطاعِه عنهم، ومِنْ هذا الخَيرِ المنزّل: القرآنُ، فيكونُ التّنزيلُ مُشيرًا كذلكَ إلى حِكَايَةِ الوَاقِعِ، إِذِ القُرْآنُ نَزَلَ مُنَجَّمًا؛ لِتَسْهِيل حِفْظِه وَفَهْمِهِ وَكِتَابَتِهِ، وَلِلتَّيْسِيرِ عَلَى المُكَلَّفِينَ فِي شَرْعِ الأَحْكَامِ تَدْرِيجًا.

وَقَرَأَ ابْنُ كثيرٍ وَأبو عَمْرٍو: ﴿أَن يُنزِلَ﴾ بِتَخْفِيفِ الزَّايِ، مَفْتُوحَةً

(1) أبو حيّان، البحر المحيط: 1/546، وأبو زهرة، زهرة التّفاسير: 1/349.

(2) الماتريديّ، تأويلات أهل السّنّة: 1/530، والرّاغب، تفسير الرّاغب: 1/283.

(3) الطّيبيّ، فتوح الغيب: 3/30.

أَيْضًا[1]، للإشارة إلى أَنَّ نَفْيَ وِدَادَتِهِمْ مُتَعَلِّقٌ بِمُطْلَقِ إِنْزَالِ الخير؛ سَوَاءٌ كَانَ دَفْعَةً أَوْ مُنَجَّمًا، ومِنْ هذا الخير: القرآنُ، فيُفيدُ كرهَهم لـمُطلقِ إنزالِ القرآنِ[2].

❁ الفُروقُ المُعْجَمِيَّةُ:

المودَّةُ والمَحَبَّةُ:

الوُدُّ هو حُبُّ الشّيءِ، وتَمنّي حُصولِه، ويُستعمَلُ في كلِّ واحدٍ من الـمَعنيَين، وأمّا الحُبُّ فلا يُستعمَلُ في التَّمنّي، والوُدُّ هو حُبٌّ مخصوصٌ بوصولٍ، مع اللِّينِ والرِّفقِ، قال اللّهُ تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ سَيَجۡعَلُ لَهُمُ ٱلرَّحۡمَٰنُ وُدّٗا﴾ [مريم: 96]، فوَرَدَ: (الوُدُّ) في سِياقِ الرَّحمة، وقد سمّى اللّهُ تعالى نفسَه بالوَدودِ، فقال تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلۡغَفُورُ ٱلۡوَدُودُ﴾ [البروج: 14]، واسْتُعملَ الوُدُّ في الآيةِ في قوله تعالى: ﴿مَّا يَوَدُّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾ بمعنى: ما يَتمنَّونَ ولا يُحبُّونَ أنْ ينزَّلَ على المؤمنينَ مِنْ خيرٍ من ربِّهم، ويَقضي لازمُه أَنَّهم يَتَمَنَّونَ وَيُحبُّونَ الشَّرَّ لِلمؤمنينَ، ولو قال: (ما يحبُّ)، لَفاتَتْ هذه المعاني المقصودةُ، وَلـمّا كانَ الوُدُّ يأتي بمعنى: التَّمنّي، فَرّقَ ابنُ فارسٍ بينَ الوُدِّ والحُبِّ بطريقةٍ أخرى؛ فرأى أنَّ الحُبَّ يكونُ في مَا يُوجِبُهُ مَيلُ الطِّباعِ وَالحكمَةِ جَميعًا، وأمَّا الوُدُّ فهو مَيلُ الطِّباعِ فَقَط، ولهذا يُمكنُ القَولُ: أُحِبُّ فلَانًا وأَوَدُّه، وأُحبُّ الصَّلَاةَ، وَلَا يُقالُ: أودُّ الصَّلَاة، ويَصِحُّ أنْ يُقالَ: أَوَدُّ أَنَّ ذاك كَانَ لي، إِذا تمنَّى وِدادَه[3].

---

(1) الأزهريّ، معاني القراءات: 1/166، وابن الجزري، النشر: 2/218.

(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 1/653.

(3) العسكري، الفروق اللّغوية، ص: 122.

﴿مَا نَنسَخۡ مِنۡ ءَايَةٍ أَوۡ نُنسِهَا نَأۡتِ بِخَيۡرٖ مِّنۡهَآ أَوۡ مِثۡلِهَآۗ أَلَمۡ تَعۡلَمۡ أَنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٌ ١٠٦﴾ [البقرة: 106]

❁ مُناسَبَةُ الآيَةِ لِمَا قَبْلَها:

لما بيَّنتِ الآيةُ السّابقةُ موقفَ اليهودِ والمشركينَ منْ إنزالِ الوحيِ على المؤمنينَ، ناسبَ بيانَ الموقفِ منْ نسخهِ؛ فاليهودُ والمشركونَ يبحثونَ عنْ ثغرةٍ في دينِ اللّهِ تعالى ليُوَجِّهُوا إليها سهامَهمْ، فآثرتِ الآيةُ بيانَ أنّ النسخَ إنْ وُجدَ فإنّهُ نسخٌ للأفضلِ ومُقَدَّرٌ عند اللّه العليم الحكيم أزلًا، وفيهِ مزيدُ تبكيتٍ وتقريعٍ لما يجولُ في نفوسِهم المريضةِ، فمناسبةُ الآيةِ للسّابقِ زيادةُ تقرير أنّ النازلَ على المؤمنينَ هو خيرٌ في بقائهِ وفي نسخهِ؛ دفعًا لأيِّ تمويهٍ، أو اعتراضٍ يصدرُ عنِ الشّانئينَ.

❁ شَرْحُ المُفْرَدَاتِ:

1) ﴿نَنسَخۡ﴾: فعل مضارع مجرَّد مبدوء بنونِ المضارعةِ للدّلالةِ على الجمعِ، جذرهُ اللّغويُّ (نسخ)، وأصلهُ واحدٌ، إلّا أنّهُ مختلفٌ في قياسهِ "قالَ قومٌ: قياسُهُ رفعُ شيءٍ، وإثباتُ غيرهِ مكانَهُ، وقالَ آخرونَ: قياسُهُ تحويلُ شيءٍ إلى شيءٍ"[1]، وهذانِ المعنيانِ ذكرَهما ابنُ عطيةَ؛ وهُما الإزالةُ والنقلُ[2].

والنسخُ "إزالةُ شيءٍ بشيءٍ يتعقّبهُ، كنَسخِ الشّمسِ الظلَّ، ونَسْخِ الظلِّ الشَّمْسَ، ونَسْخِ الشَّيبِ الشَّبابَ؛ فتارةً يُفهمُ منهُ الإزالةُ، وتارةً يُفهمُ منهُ الإثباتُ، وتارةً يُفهمُ منهُ الأمرانِ، ونَسْخُ الكتابِ: إزالةُ الحكمِ بحكمٍ يتعقَّبهُ"[3]، هو المقصود بالنَّسْخ هنا.

2) ﴿ءَايَةٍ﴾: أصلُها (أَأْيَة): سكنت الهمزة الثانية وانفتح ما قبلها، فقُلبت حرف مدٍّ من جنس حركة الهمزة الأولى، فصارت ألفًا، والآيةُ تأتي بمعنَى العلامةِ والشخصِ

(1) ابن فارس، مقاييس اللغة: (نسخ)، وجبل، المعجم الاشتقاقي المؤصل: (نسخ).
(2) ابن عطية، المحرر الوجيز: 1/190.
(3) الراغب، المفردات: (نسخ).

والجماعةِ[1]، والآية: "طائفةٌ منَ القرآنِ، يتّصلُ بعضُها ببعضٍ إلى انقطاعِها؛ طويلةً كانتْ أوْ قصيرةً"[2]، وسُمّيتْ آيةُ القرآنِ بهذا الاسمِ؛ لكونها مؤلَّفةً مِنْ مجموعةٍ من الكلماتِ والجملِ.

3) ﴿نُنسِهَا﴾: فعل مضارع مزيد بهمزةِ التّعدية منْ (أنْسَى)، جذرهُ اللّغويّ (نسي)، ومصدرهُ النّسيانُ "النّونُ والسّينُ والياءُ أصلانِ صحيحانِ يدلُّ أحدُهما على إغفالِ الشيءِ، والثّاني على ترك شيءٍ"[3]، وهذانِ المعنيانِ مقصودانِ في الآيةِ الكريمةِ، وعليه فمعنى: ﴿نُنسِهَا﴾: أي: نُزيلُ العملَ بها، أو نحْذِفُها عن قلوبِ العبادِ[4].

4) ﴿نَأْتِ﴾: فعل مضارع مبدوء بحرفِ المضارعةِ، أصلُه (نأتِي) حُذِفَ حرفُ العلّةِ منهُ للجزمِ؛ لأنّهَ جوابُ الشرطِ، والجذرُ منهُ (أتي)، ومنهُ: أتَى يأتِي، ومنْ معانيهِ أنّهُ "مجيءٌ بسهولةٍ، ومنهُ قيلَ للسّيلِ المارّ على وجهِه: أَتِيٌّ... والإتيانُ يقالُ للمجيءِ بالذّاتِ وبالأمرِ وبالتّدبيرِ، ويقالُ في الخيرِ وفي الشرِّ وفي الأعيانِ والأعراضِ"[5]، ومعناهُ المحوريّ "وصولٌ أو تقدّمٌ وحضورٌ إلى مكانٍ، أو شيءٍ بتهيئةٍ، أوْ قوةٍ تُزيلُ ما يعوقُ"[6]، ومعنى: ﴿نَأْتِ﴾: نجيء.

5) ﴿بِخَيْرٍ﴾: اسمُ تفضيلٍ (أَخْيرُ) وزنُه (أفْعَلُ) حُذفتْ همزتُه لغيرِ قياسٍ، وقدْ صُرّحَ بهِ في قولِهم: "بلالُ خيرُ الناسِ، وابن الأَخْيَرِ"[7]، والجذرُ اللغويّ لهُ (خير).

وأصلُه "العطفُ والميْلُ، ثمَّ يُحملُ عليهِ، فالخيرُ خلافُ الشَّرِّ؛ لأَنَّ كلَّ أَحدٍ يميلُ إليهِ، ويعطِفُ على صاحبِهِ... ثمَّ يُصرَّفُ الكلامُ فيقالُ: رجلٌ خيّرٌ، وامرأةٌ خيّرةٌ فاضلةٌ، وقومٌ خيارٌ وأخيارٌ... وامرأةٌ خيّرةٌ في جمالِهَا وميسمِها"[8].

وعمومًا فالخيرُ هو كلُّ مَا كانَ خلافَ الشرّ، وما كانَ تحتَ بابِ الفضلِ، و"ما يَرغبُ

(1) ابن فارس، مقاييس اللغة: (أيه).
(2) الكفويّ، الكليّات، ص: 41.
(3) ابن فارس، مقاييس اللغة: (نسي).
(4) الراغب، المفردات: (نسخ).
(5) الراغب، المفردات: (أتى).
(6) جبل، المعجم الاشتقاقي المؤصل: (أتو/أتى).
(7) الأنباري، الزاهر: 1/375.
(8) ابن فارس، مقاييس اللغة: (خير).

فيه الكُلّ؛ كالعقلِ مثلاً، والعدلِ، والفضلِ، والشّيءِ النافعِ، وضدّهُ الشرّ"[1]، وقولُه: ﴿نَأْتِ بِخَيْرٍ مِّنْهَآ﴾ أي: بأفضلَ منهَا "إمّا بتخفيفِ ما كانَ ثقيلاً كثباتِ الواحدِ للاثنينِ بعدَ أنْ كانَ الثباتُ لعشرةٍ، وإمّا بكثرةِ ثوابِه وإنْ كانَ أثقلَ، كصومِ رمضانَ"[2].

6) ﴿مِثْلِهَآۗ﴾: اسمٌ ثلاثيّ مجردٌ، جذرهُ اللغويّ (مثل)، وأصلُ حروفِه "يدلّ على مناظرةِ الشيءِ للشيءِ، وهذَا مِثلُ هذَا: أي نظيرُه"[3]، وَالـمِثْلُ "شِبْهُ الشيءِ في المِثالِ والقَدْرِ ونحوِه حتّى في المعنَى، ويقالُ: ما لهذَا مَثيلٌ"[4].

7) ﴿ٱللَّهَ﴾: لفظُ الجلالةِ، علمٌ على المعبودِ بحقّ، وهو مشتقّ على الصّحيحِ وليسَ جامدًا؛ فإنّ أسماءَ اللّهِ تعالَى أعلامٌ وأوصافٌ باتّفاقِ أهلِ السّنّةِ والجماعةِ[5]، ولازمُ ذلكَ أنّها مشتقةٌ[6]، إذِ الجامدُ لا وصفَ لهُ.

وقيلَ إنّ "أصلَهُ الإلاهُ؛ فحُذفتِ الهمزةُ، وأُدغمتِ اللّامُ في اللّامِ، فصارَ ﴿ٱللَّه﴾"[7] لكثرةِ دورانِه على الألسنةِ[8] وأُدغمتِ اللامُ في مثلِها، وفُخّمتْ تعظيمًا للّهِ تعالَى[9]، والترقيقُ بعدَ الكسرِ؛ لأجلِ التخفيفِ لا لسلبِ التعظيمِ.

ومهْمَا قِيلَ في حقّهِ، فهو قطرةٌ من بحرٍ، أو ثانيةٌ من دهرٍ؛ لأنّ عظمتَه لا حُدُودَ لكمالِها، ومعنَى اسم ﴿ٱللَّه﴾ عَلَمًا - كمَا قالَ ابنُ عباسٍ رضي الله عنهما -: ذو الألوهيةِ والعبوديةِ على خلقِه أجمعينَ[10].

8) ﴿كُلٌّ﴾: اسمٌ ثلاثيّ جذرُه (كلل) ثمّ أُدغمتِ اللامُ في مثيلتِها، وهو "اسمٌ موضوعٌ للإحاطةِ مضافٌ أبدًا إلى ما بعدَهُ، وقولُهمُ الكلُّ، وقامَ الكلُّ فخطأٌ، والعربُ لا تعرفُهُ"[11].

(1) الراغب، المفردات: (خير).
(2) السمين الحلبي، عمدة الحفّاظ: (خير).
(3) ابن فارس، مقاييس اللغة: (مثل).
(4) الفراهيدي، العين: (مثل).
(5) ابن القيم، بدائع الفوائد: 1/285.
(6) ابن القيم، الكافية الشافية، ص: 216.
(7) الاستراباذي، شرح شافية ابن الحاجب: 2/981.
(8) الجوهري، الصحاح تاج اللغة: (أله).
(9) الفيومي، المصباح المنير: (عله).
(10) ابن جرير، جامع البيان: 1/123.
(11) ابن فارس، مقاييس اللغة: (كلل).

و"هو لضمّ أجزاءِ الشيءِ، وذلكَ ضربانِ: أحدُهما: الضّامّ لذاتِ الشيءِ وأحوالِه المختصّةِ بهِ، ويفيدُ معنى التمام ... والثاني: الضّامّ للذّواتِ، وذلك يضافُ، تارةً إلى جمعِ معرّف بالألفِ واللامِ، نحو قولك: كُلُّ القوم، وتارة إلى ضمير ذلك، نحو: ﴿فَسَجَدَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ كُلُّهُمْ أَجْمَعُونَ﴾ [الحجر: 30]"[1].

ويأتي أيضًا في بابِ التوكيدِ المعنويّ؛ للدّلالةِ على الإحاطةِ والشّمولِ، كقولِه تعالَى: ﴿وَعَلَّمَ ءَادَمَ ٱلْأَسْمَآءَ كُلَّهَا﴾ [البقرة: 31]، وجميعُ ما وردَ في القرآنِ الكريمِ جاءَ معرّفًا بالإضافةِ لفظاً أو تقديراً.

والمعنَى في الآيةِ أنّ قدرتَه محيطةٌ بجميعِ الأشياءِ.

9) ﴿قَدِيرٌ﴾: صفة مشبَّهة بمعنَى قادرٌ، وزنُه (فَعِيل)، جذرُه اللّغويّ (قدر)، والأصلُ في معناهُ "يدلّ على مبلغِ الشيءِ وكنهِه ونهايتِه، فالقَدْرُ: مبلغُ كلِّ شيءٍ، يُقالُ: قَدْرُه كذَا، أي مبلغُه"[2].

و"القَدَرُ القضاءُ الموافقُ، يُقالُ قَدّرهُ اللّهُ تقديراً، وإذَا وافقَ الشيءُ شيئاً قِيلَ جاءَ على قَدَرِه"[3].

والواردُ في الآيةِ ﴿قَدِيرٌ﴾، وهو "الفاعلُ لـمِا يشاءُ على قَدْرِ ما تقتضِي الحكمةُ، لا زائدًا عليه، ولا ناقصًا عنهُ"[4].

"والقادرُ يوصفُ بِهِ الإنسانُ حسبَما تقدّمَ، والقديرُ لا يوصفُ بِهِ إلّا اللّه تعالَى، وذلكَ لـمَا فيهِ من المبالغةِ"[5].

❁ المَعْنَى الإِجْمَالِيُّ:

بيَّنتِ الآيةُ الموقفَ منَ الآياتِ القرآنيّةِ من حيثُ بقاؤهَا أو نسخُها، وأنَّ نسخَ الآياتِ القرآنيّةِ إنْ وقعَ فهو إزالةٌ لآيةٍ، وإتيانٌ بآيةٍ فاضلةٍ في ذاتِها ومعناهَا، وذلكَ لا يقدحُ في الوحي، ولا في

(1) الراغب، المفردات: (كل).
(2) ابن فارس، مقاييس اللغة: (قدر).
(3) الفراهيدي، العين: (قدر).
(4) الراغب، المفردات: (قدر).
(5) السمين، عمدة الحفّاظ: (قدر).

الرسولِ ﷺ، ولا في الشريعةِ، فمقصودُ الآيةِ بيانُ أنَّ النسخَ -إنْ وقعَ- ما هو إلّا تكميلٌ وتتميمٌ، وأنَّه صادرٌ عن قدرةِ اللّهِ تعالى.

۞ الإيضَاحُ اللُّغَوِيُّ وَالبَلَاغِيُّ:

سرُّ استعمالِ ما الشَّرطيّة:

إفادةُ معنَى العمومِ، وتحسينُ الصَّوتِ

لاستعمالِ ﴿مَا﴾ في هذا السِّياقِ نكتتانِ اثنتان؛ الأولى: إفادةُ معنى العموم، فإنَّ النَّسخَ متصوَّرٌ وقوعُه في كلِّ آيةٍ، ويرشِّحُ هذه النّكتةَ مجيءُ حرفِ ﴿مِنۡ﴾ قبلَ كلمةِ ﴿ءَايَةٍ﴾، والثَّانيةُ: الإيقاعُ الصوتيّ، فإنَّ العربَ تكرهُ توالي الأمثالِ، أي: الحروفِ المتماثلةِ، ومجيءُ (إنْ) وبعدَها نونانِ في كلمةِ ﴿نَنسَخۡ﴾ فيه ثقلٌ صوتيّ، فاستعمالُ ﴿مَا﴾ أحسنُ في الصوتِ، وهو أمرٌ تابعٌ للمعنَى بالدرجةِ الأولى؛ فهو تابعٌ لا متبوعٌ، وفرعٌ لا أصلٌ.

بلاغةُ الالتفاتِ:

تقويةُ النَّسخِ وتمكينُه في النُّفوسِ

انتقلتِ الآيةُ من الغيبةِ في فاصلةِ الآيةِ السَّابقةِ ﴿وَٱللَّهُ ذُو ٱلۡفَضۡلِ ٱلۡعَظِيمِ﴾ [البقرة: 105] إلى التَّكلّم ﴿مَا نَنسَخۡ مِنۡ ءَايَةٍ﴾، وذلكَ لما يُضفيهُ اسمُ الجلالةِ من الهيبةِ، وهذا شأنُ المتفضِّلِ جلَّ في عُلاهُ، ثمَّ جاءَ الالتفاتُ لبيانِ أنَّ النَّسخَ إنَّما صدرَ عن المتكلِّمِ سبحانَه، وهذا توجيهُ بَدْءِ الفِعْلِ بنونِ العظمةِ؛ لـمَا فيهِ من تقويةِ النَّسخِ، وأنَّ اللّهَ تولَّاهُ بنفسِه، فلم يقلْ: ما يُنسخُ من آيةٍ، وفي ذلكَ إشعارٌ بقوةِ النَّسخِ وتمكينِه في النُّفوسِ.

توجيهُ القراءاتِ في ﴿نُنسِخۡ﴾:

القراءاتُ تشتركُ في الإخبارِ عنِ المَنْسوخِ ماضيًا ومُستقبلًا

اختلف القرَّاءُ في قولِه تعالَى: ﴿نَنسَخۡ﴾ على قراءَتَيْن؛ فقراءةُ الجمهورِ ﴿نَنسَخۡ﴾ بفتحِ نونِ المضارعةِ المتّصلةِ بالفعلِ الثلاثيّ المجرَّدِ (نَسخَ)، فيما قرأَ ابنُ عامرٍ: ﴿نُنسِخۡ﴾ بضمِّ النونِ الأولى وكسرِ السينِ[1] وعلى ذلكَ يكونُ الفعلُ من (أنسخَ).

(1) ابن الجزريّ، النشر في القراءات العشر: 2/219.

فتحتملُ الهمزةُ أنْ تكونَ بمعنى الوجدانِ من بابِ أفعلْتُ[1] أي أنْ "يكونَ المعنى ما نجدُه منسوخاً، كما يُقالُ: أَحْمَدْتُه وأَبْخلْتُه، أي: وَجَدْتُه كذلكَ"[2] والمعنى متقاربٌ؛ فإنّك لا تجدُه منسوخًا إلّا بأنْ ينسخَه الحقُّ تباركَ وتعالَى، وتحتملُ همزةُ (أنسخَ يُنسِخُ) أنْ تكونَ للتعديةِ "وإنساخُها: الأمرُ بنسخِها، وهو أنْ يأمرَ جبريلَ عليه السلام بأنْ يجعلَها منسوخةً، بالإعلامِ بنسخِها"[3]، والأصلُ في الفعلِ (نَسَخَ) أنّه يتعدّى لمفعولٍ واحدٍ، ودخولُ همزةِ التعدّيةِ جعلتْه يتعدّى لاثنينِ، والقراءتان متّفقتان "في المعنى، وإنِ اختلفتَا في اللَّفظِ"[4]، فنسَخَ وأنْسَخَ إخبارٌ عمَّا هو منسوخٌ؛ إحداهما عنِ المُستقبلِ، والثَّانية عن الماضي.

أثرُ حروفِ المعاني في البيانِ:

بيانُ السَّابقِ واللَّاحقِ بالتّخصيصِ

أخذَ ﴿مِن﴾ موقعًا عجيبًا في بيانِ السابقِ واللاحقِ، أمَّا السَّابقُ فهوُ بيانٌ وتخصيصٌ لاسمِ الشرطِ ﴿مَا﴾؛ فأزالَ إبهامَه، ودفعَ غموضَه، وأمَّا اللَّاحقُ فهو بيانُ دلالةِ ﴿ءَايَةٍ﴾، وأنَّ المرادَ بها الجمعُ لا المفردُ[5]، فإنَّ ﴿ءَايَةٍ﴾ نكرةٌ وقعتْ في سياقِ الشَّرطِ فأفادتِ العمومَ، فصدقَ اسمُها على جميعِ الآياتِ، وحرفُ ﴿مِن﴾ أفادَ التبعيضَ؛ ففُهِمَ أنَّ تطرُّقَ النَّسخِ محتملٌ لجميعِ الآياتِ، لكنَّ احتمالَه لا يكونُ إلَّا لبعضِها.

أثرُ السِّياقِ في دلالةِ حروفِ المعاني:

دلَّ حرفُ ﴿أَوْ﴾ على التقسيمِ[6]؛ أي: تقسيمِ الآيةِ المرادِ الإتيانُ بخيرٍ منها؛ إمّا أنْ يجري عليهَا النَّسخُ، أو الإنساءُ، ومآل الفعلينِ واحدٌ، لكنّ الاختلافَ في طريقةِ الوصولِ إلى الحكمِ، وهو إزالةُ الآيةِ بأمرِ الوحيِ، أو إنساؤُها من اللهِ تعالى، فمقتضَى العطفِ بيانُ أنَّ هناكَ آياتٍ جرَى عليهَا النَّسخُ، وأخرى جرَى عليها الإنساءُ، والقسمانِ حلَّتْ محلَّهما آيةٌ خيرٌ منهُما.

---

(1) الهمزة تفيد "مصادفة الشيء على صفة، كأحمدتُ زيدًا وأكرمتُه، وأبخلتُه، أي: صادفته محمودًا أو كريمًا أو بخيلًا"، الحملاوي، شذا العَرف في فنّ الصرف، ص: 30.

(2) السمين، الدرّ المصون: 2/56.

(3) الزمخشريّ، الكشّاف: 1/309.

(4) ابن عطية، المحرر الوجيز: 1/192.

(5) السمين، الدرّ المصون: 2/57.

(6) السمين، الدرّ المصون: 2/58.

توجيهُ القراءاتِ في ﴿نُنسِهَا﴾:

تكاملُ القراءاتِ القرآنيَّةِ مظهرٌ من مظاهرِ الإعجازِ البيانيّ

اختلف القرَّاء في قراءةِ قولِه تعالى: ﴿نُنسِهَا﴾ على قراءتين:

أولاً: قراءةُ الجمهورِ: ﴿نُنسِهَا﴾ "بِضَمِّ النُّونِ وَكَسْرِ السِّينِ مِنْ غَيْرِ هَمْزَةٍ"[1]، ومعناهَا الترك "أي: نُنسِ الناسَ إيّاها، وذلك بأمرِ النبيّ ﷺ بتركِ قراءتِها حتّى ينساهَا المسلمونَ"[2] واستعمالُها بالبناءِ للمفعولِ فيه معنًى رمزيٌّ يرجّحُ أنّ معنى النسيانِ هو التركُ؛ لأنّه حذفَ (الناسَ) هنا باستعمالِه صيغةَ البناءِ للمفعول.

ثانيًا: قراءةُ ابْنِ كَثِيرٍ وَأَبي عَمْرٍو: ﴿نَنسَأْهَا﴾ "بِفَتْحِ النُّونِ وَالسِّينِ، وَهَمْزَةٍ سَاكِنَةٍ بَيْنَ السِّينِ وَالهَاءِ"[3]، ومعناهَا التَّأخيرُ "أي: نؤخّرُ تلاوتَها، أو نؤخّرُ العملَ بها، والمرادُ: إبطالُ العملِ بقراءتِها أو بحكمِها"[4].

والقراءتانِ ﴿نُنسِهَا﴾ بمعنى التركِ، و﴿نَنسَأْهَا﴾ بمعنى التأخيرِ تقابلانِ النسخَ، "والاحتمالاتُ المفروضةُ في نسخِ حكمٍ من الشريعةِ تتأتَى في نسخِ شريعةٍ بشريعةٍ وإنسائِها أو نسئِها"[5]؛ لأنَّ الإنساءَ والنسأَ إبطالٌ في الأحوالِ كلِّها.

بلاغةُ التَّقديمِ والتَّأخيرِ:

تقديمُ الأصْلِ على فرعِه، والأوضحُ على الواضحِ

قُدِّمَ ﴿نَنسَخْ﴾ على ﴿نُنسِهَا﴾ أو ﴿نَنسَأْهَا﴾؛ للعنايةِ والاهتمامِ، أمّا وجهُ هذا الاهتمامِ، وسرُّ تلكَ العنايةِ فلأنَّ الآياتِ المنسوخةَ معلومةٌ لدى المخاطَبينَ حينَ نسخِها، بخلافِ الآياتِ المنسيّةِ أو المؤخَّرةِ، فالتقديمُ من قبيلِ تقديمِ الواضحِ على الأقلِّ وضوحًا، ومن قبيلِ إلحاقِ الفرعِ بأصلِه، أي: كما حَصَلَ النسخُ الّذي تعرفونَه،

(1) ابن الجزري، النشر: 2/220.
(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 1/658.
(3) ابن الجزري، النشر: 2/220.
(4) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 1/658.
(5) المرجع السابق: 1/659.

فكذلكَ يحصلُ غيرُه، وهذا معنَى التقسيمِ الّذي أفادتْه ﴿أَوْ﴾، فالآياتُ ما بينَ هذينِ القسمينِ.

فوائدُ الحذفِ والذكرِ:

بلاغةُ النظمِ في تقريرِ قواعدِ الإيجازِ

دخلَ حرفُ الجرِّ (مِنْ) في قولِه تعالَى: ﴿بِخَيْرٍ مِّنْهَآ﴾ على المفضّلِ منه؛ لأنَّ أفعلَ التفضيلِ نكرةٌ، وفي قولِه ﴿نَأْتِ بِخَيْرٍ مِّنْهَآ﴾ جاءَ على الغايةِ من دقّةِ النَّظمِ في تقريرِ قواعدِ الإيجازِ؛ فلم يُقلِ الحقُّ تباركَ وتعالَى (نأتِ بآيةٍ خيرٍ من آيةٍ) والخيريةُ هنَا تكونُ بمعنَى "أنفعُ لكمْ، وأسهلُ عليكمْ، وأكثرُ لأجركمْ، لا أَنَّ آيةً خيرٌ منْ آيةٍ؛ لأَنَّ كلامَ اللّٰهِ واحدٌ، وكلّهُ خيرٌ"[1] ولأنّ خيريَّتَها في كونِها ألينَ، وأيسرَ على الناسِ كمَا نُقلَ عن ابنِ عباسٍ[2] رضي الله عنهما؛ فالنَّظمُ الكريمُ يتحاشَى المفاضلةَ بينَ الآياتِ؛ فلا تفاضلَ بينَ فصاحةِ الآياتِ القرآنيةِ وبلاغتِها، بلْ في مضمونِها وأثرِها.

فائدةُ العطفِ بقولِه: ﴿أَوْ مِثْلِهَآ﴾:

أثرُ المعطوفِ في دفعِ وهمِ حتميَّةِ التَّفاضلِ بينَ النّاسخِ والمنسوخِ

وقولُه ﴿أَوْ مِثْلِهَآ﴾ أو عطفٌ يفيدُ التقسيمَ، و﴿مِثْلِهَآ﴾ يعنِي في الثوابِ والتكليفِ، ومن ذلكَ "أنَّ اللّٰه تباركَ وتعالَى حينَ أمرَ المسلمينَ بالتوجّهِ إلى الكعبةِ بدلاً من بيتِ المقْدسِ نسخَ آيةً بمثلِها"[3]؛ فنقلُ التوجّهِ من بيتِ المقْدسِ إلى الكعبةِ ليسَ فيه فرقٌ على المسلمِ، ولا مشقّةٌ، ولا تعبٌ، ولا نصبٌ، إنّما هوَ اختبارٌ لطاعةِ العبدِ لربّهِ، أي أنَّ إبدالَ الآيةِ بمثلِها جاءَ لغرضٍ وحكمةٍ ربّانيّةٍ، فإنَّ فائدتَه كامنةٌ في الاحترازِ من وهمٍ فكريّ، وهو اعتقادُ أنّ كلَّ آيةٍ ناسخةٍ هي خيرٌ من كلّ آيةٍ منسوخةٍ، فكانَ دورُ المعطوفِ دفعَ مثلِ هذا الوهمِ، لبيانِ أنَّ بعضَ المنسوخِ يماثلُ الناسخَ.

(1) البغويّ، معالم التنزيل: 1/135.
(2) ابن الجوزي، زاد المسير: 1/98.
(3) الشعراويّ، تفسير الشعراويّ: 1/513.

نكتةُ التقديمِ والتأخيرِ:

الفاضلُ مقدَّمٌ على المماثلِ في النفسِ والواقعِ

لتقديمِ المعطوفِ عليه على المعطوفِ أثرٌ في نفسِ المتلقّي، والأمرُ الفاضلُ مقدَّمٌ على المماثلِ، فإنَّ الإتيانَ بناسخٍ خيرٍ من المنسوخِ أفضلُ من الإتيانِ بمثلِه، كمَا أنَّ تقديمَه يُشعرُ بأنَّه الأكثرُ في النواسخِ، ولمَا لكلمةِ (خيرٍ) من وقعٍ لطيفٍ في القبولِ الذهنيّ والنَّفسيّ على حدٍّ سواءٍ.

غرضُ همزةِ الاستفهامِ:

خطابُ التَّقرير للنَّبيِّ ﷺ والمرادُ به الأمَّةُ

قولُه تعالَى: ﴿أَلَمۡ تَعۡلَمۡ أَنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٌ﴾ جملةٌ استئنافيةٌ جديدةٌ، وحَسُنَ الفصلُ هنَا لقوّةِ الارتباطِ المعنويّ بينَ هذهِ الجملةِ وما سبقَها؛ والهمزةُ للاستفهامِ التقريريّ[1]، و﴿لَمۡ﴾ حرفُ نفيٍ وجزمٍ وقلبٍ؛ فالجملةُ منفيّةٌ، والهمزةُ التقريريةُ تقلبُها إلى الإثباتِ، والمعنَى: (أنتَ تعلمُ)[2]، والخطابُ وإنْ كانَ موجّهًا "للنَّبيِّ ﷺ، والمرادُ بِه غيرُه منَ المؤمنينَ"[3] إلّا أنّ القصدَ منه أنْ يكونَ للأمّةِ جميعًا، وبطريقةٍ غيرِ مباشرةٍ، ولمَن تأثرَ بما يطلقُه اليهودُ من أراجيفَ، ففيه تثبيتٌ لهؤلاءِ "وتوجيهُ الكلامِ إلى شخصٍ يرادُ غيرُه شائعٌ في كلامِ العربِ والمولِّدينَ"[4] ففي هذا الخطابِ تعريضٌ باليهودِ، والخطابُ ليسَ لهُ ﷺ؛ "لأنَّهُ لا يقرّرُ على الاعترافِ بأَنَّ اللَّه على كلِّ شيءٍ قديرٌ، فضلًا عنْ أنْ ينكرَ عنهُ، وإنَّمَا التَّقريرُ للأمّةِ"[5].

سرُّ التَّعبيرِ بـ ﴿قَدِير﴾ دونَ (قادر):

الملاءمةُ السياقيّةُ والتناسبُ الدّلاليّ في اختيارِ الصِّيَغ

كلمة ﴿قَدِيرٌ﴾ جاءتْ على صيغةِ المبالغةِ من اسمِ الفاعلِ على زنةِ

---

(1) لفظ الواجب، إذا لحقته همزة التقرير عاد نفيًا، وإذا لحقت لفظ النفي عاد إيجابًا، ابن جنّيّ، الخصائص: 3/272.

(2) البغويّ، معالم التنزيل: 1/135.

(3) محمد رشيد رضا، تفسير القرآن الحكيم: 1/342.

(4) محمد رشيد رضا، تفسير القرآن الحكيم: 1/342.

(5) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 1/664.

(فَعِيل)[1]؛ لأنّه إذَا دلَّ اسمُ الفاعلِ على المبالغةِ والكثرةِ والتكرارِ، ووصولِ المعنَى إلى أعلَى درجاتِه، استُعمِلَتْ لهُ صيغةُ المبالَغةِ، لا اسمُ الفاعلِ الّذي يدلُّ على مجردِ الحدثِ وفاعلِه، فـ ﴿قَدِيرٌ﴾ أبلغُ من (قادر)، وقدْ ختمتْ بِه الآيةُ، وهو الملائمُ لسياقِ الآياتِ؛ لتناسبِه معَ العمومِ.

نكتةُ تقديمِ الخبرِ على المبتدأِ:

الــدّلالــةُ على استيلاءِ قدرتِه عــلى الأشــيــاءِ جميعًا

قُدِّم الجارُّ والمجرورُ في قولِه تعالَى ﴿عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ﴾ على المبتدأِ ﴿قَدِيرٌ﴾ وهو وإنْ كانَ تقديماً واجباً إلّا أنّه جاءَ ليفيدَ الاهتمامَ والاختصاصَ، وأنّ قدرتَه سبحانه محيطة بالأشياء جميعًا، وقُدِّم كذلك مراعاةً لرؤوسِ الآيِّ، تبعًا لمراعاةِ الدلالةِ.

فائدةُ تعدُّدِ المؤكّدات:

تقويةُ مضمونِ العمومِ في قدرةِ الـلـهِ عـلى كلِّ شَيْءٍ

اشتملتْ جملةُ ﴿أَلَمۡ تَعۡلَمۡ أَنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٌ﴾ على عدّةِ مؤكّداتٍ؛ لتقويةِ مضمونِ العمومِ الواردِ في الآيةِ، وهي: أنَّ المؤكّدةُ الناصبةُ، والجملةُ الاسميةُ الدالّةُ على الثبوتِ، وتعريفُ المسندِ ﴿ٱللَّهَ﴾ لتقويةِ الجملةِ، وإدخالِ المهابةِ في نفوسِ السامعينَ، وتقديمُ ما حقّهُ التأخيرُ؛ تقديمُ الجارِّ والمجرورِ على ﴿قَدِيرٌ﴾، والتعبيرِ بصيغةِ المبالغةِ ﴿قَدِيرٌ﴾ بدلًا من اسمِ الفاعلِ (قادِرٌ) يُفيدُ نوعًا من التَّوكيدِ، والتَّعبير بأنّ المفتوحةِ الهمزةِ؛ فإنّه يمكنُ تأويلُها بمصدرٍ؛ فيكونُ التقديرُ: (ألَمْ تعلمْ قدرةَ اللّهِ على كلِّ شيءٍ حاضرةً أو موجودةً)، وهو تأويلٌ يعضدُ ما توافرَ من مؤكِّداتٍ في هذهِ الآيةِ.

فائدةُ الالتفاتِ من التكلّمِ إلى الخطابِ:

الاستدلالُ بعلمِ الـمـخـاطـبِ في تقريرِ مضامينِ الكلامِ

وقعَ التفاتٌ في قولِه تعالَى: ﴿مَا نَنسَخۡ مِنۡ ءَايَةٍ أَوۡ نُنسِهَا نَأۡتِ بِخَيۡرٖ مِّنۡهَآ أَوۡ مِثۡلِهَآۗ أَلَمۡ تَعۡلَمۡ﴾؛ فالأفعالُ ﴿نَنسَخۡ﴾، ﴿نُنسِهَا﴾، ﴿نَأۡتِ﴾

(1) "وأجروا اسم الفاعل إذا أرادوا أن يبالغوا في الأمر مجراه إذا كان على بناء فاعل ... إلا أنّه يريد أن يحدث عن المبالغة فما هو الأصل الذي عليه أكثر هذا المعنى فعُول وفعّال ومِفعال وفعِل"، سيبويه، الكتاب: 1/110.

هي للتَّكلُّم، ثمّ انتقلَ الخطابُ من التكلّم إلى الخطابِ بقولِه: ﴿أَلَمۡ تَعۡلَمۡ﴾، وهو خطابٌ موجَّهٌ إلى الرسولِ ﷺ، والمرادُ أمَّتُه؛ وفائدةُ الالتفاتِ: تقريرُ ما جاءَ في جملةِ التَّكلُّم من القدرةِ على النَّسخ والإنساءِ، والاستدلالُ بعلمِ المخاطَبِ على ذلكَ، وهو من أمتنِ طرقِ الإقناعِ في تقريرِ مضامينِ الكلامِ.

نكتةُ إظهارِ ما حقُّهُ الإضمارُ:

إظهارُ لفظِ الجلالةِ لتربيةِ المهابةِ في نفوسِ السامعينَ

وضعُ الظاهرِ وهو الاسمُ الجليلُ ﴿ٱللَّهَ﴾ موضعَ المُضْمَرِ في قولِه تعالَى: ﴿أَلَمۡ تَعۡلَمۡ أَنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٌ﴾؛ فلمْ يقلْ: (أنّهُ على كلِّ شيءٍ قديرٌ)؛ "لتربيةِ المهابةِ، ولأنّه الاسمُ العلمُ الجامعُ لسائرِ الصفاتِ، ففي ضمنِه صفةُ القدرةِ، فهو أبلغُ في نسبةِ القدرةِ إليه من ضميرِ المتكلّمِ المعظّمِ"(1).

التّناسبُ التّقابليّ في العمومِ:

مناسبةُ عمومِ الآياتِ القرآنيّةِ معَ عمومِ الآياتِ الكونيّةِ

احتوتِ الآيةُ على نوعٍ من التّناسبِ الدّلاليّ بديعٍ، وذلكَ في إثباتِ عمومِ قدرتِه سبحانه في الآياتِ القرآنيةِ والآياتِ الكونيةِ؛ فالآياتُ القرآنيَّةُ يُمثِّلُها قولُه تعالَى: ﴿مِنۡ ءَايَةٍ﴾ فهو قادرٌ على نسخِ أيّةِ آيةٍ؛ والآياتُ الكونيَّةُ يمثّلُها قولُه تعالَى: ﴿كُلِّ شَيۡءٖ﴾، فكمَا أنّه قادرٌ على نسخِ أيّةِ آيةٍ؛ فهو قادرٌ على تبديلِ كلّ شيءٍ في هذا الكونِ.

❁ الفُرُوقُ المُعْجَمِيَّةُ:

أتَى وجاءَ:

في قولِه تعالَى: ﴿مَا نَنسَخۡ مِنۡ ءَايَةٍ أَوۡ نُنسِهَا نَأۡتِ بِخَيۡرٖ مِّنۡهَآ﴾ عبّرَ بفعلِ الإتيانِ ﴿نَأۡتِ﴾ ومن معانيه المجيءُ بسهولةٍ، ويقالُ لمَن يجيءُ بالذاتِ والأمرِ والتدبيرِ وفي الأعيانِ والأعراضِ(2)، وممّا يقرُبُ من

(1) الآلوسي، روح المعاني: 1/354.
(2) الراغب، المفردات: (أتى).

لفظةِ (أتَى) لفظةُ (جاءَ) وقد يجعلُهما بعضُهم من بابِ الترادفِ، وهو ليسَ بسديدٍ؛ إذِ المقَّررُ أنّ الترادفَ غيرُ واقعٍ في القرآنِ الكريم؛ لما يمكنُ أنْ تحلّ لفظةٌ مكانَ أخرَى، وهو غيرُ جائزٍ في الكتابِ الكريم، فثمّة فرقٌ بينَ (جاءَ) و(أتى) لأنَّ "قَوْلَك جَاءَ كَلَام تَامّ لَا يحْتَاج إِلَى صلَة ... وَلِهَذَا يُقَال جَاءَ فلَانٌ نَفسُه"[1] أمّا الفعلُ (أتَى) فإنّه "يَقْتَضِي مجيئُه بِشَيْءٍ ... وَلَا يقالُ أَتَى فلَانٌ نَفسُه"[2] وهو قولٌ ظاهرُ البرهانِ في هذا الموضع؛ فإنّه استعملَ (أتَى) لأنَّ المجيءَ هنَا يكونُ معَ شيءٍ محددٍ وهو ﴿بِخَيۡرٖ مِّنۡهَآ﴾، فثبتَ أنَّ كلَّ لفظٍ يحسنُ موقعُه بحسبِ دلالتِه، ولا يقعُ لفظٌ موقعَ الآخرِ في الكتابِ الكريم، أمّا في اللغةِ فعلى سبيلِ التجوّزِ، أو لأنّه "كثرُ ذَلِك حَتَّى اسْتُعْمل أحدُ اللَّفْظَيْنِ في مَوضِعِ الآخرِ"[3].

خير وأفضل:

اشـتـمـالُ (خـيـرٍ) عــلـى الـفـضـلِ الذّاتيّ والمتعدّيّ

في قولِه تعالَى: ﴿نَأۡتِ بِخَيۡرٖ مِّنۡهَآ﴾ جاءَ التعبيرُ بلفظةِ (خيرٍ)، ولمْ يَردْ بلفظةِ (أفضلَ)؛ وذلكَ لأنّ الخيرَ يتضمنُ معنَى الفضلِ الذاتيّ والمتعدّيّ، أي أنَّ الآيةَ هي خيرٌ في ذاتِها وفي أثرِها، فضلاً عمّا تحويه هذه الكلمةُ من معنى البشارةِ والبشرَى، ﴿بِخَيۡرٖ﴾ اسمُ تفضيلٍ، وزنُه (أفْعَل) إلَّا أنّ همزتَه حُذفتْ لغيرِ قياسٍ، والمعنَى أنّنا نأتِي بأفضلَ ممّا ننسخُ أو نُنسِي، "وذلكَ أنَّ الآتِي به إنْ كانَ أَخفَّ من المنسوخِ، أو المنسوءِ فخيريَّتُه بالنسبةِ إلى سقوطِ أعباءِ التكليفِ، وإنْ كانَ أَثقلَ فخيريَّتُه بالنسبةِ إلى زيادةِ الثوابِ"[4] فهو على ذلكَ للتفضيلِ، والأولُ أقوَى معنًى؛ لدلالةِ الآيةِ، ولفظًا لوجودِ ﴿مِن﴾ الداخلةِ على المفضّلِ منه.

(1) العسكري، الفروق اللغوية، ص: 309.
(2) العسكري، الفروق اللغوية، ص: 309.
(3) العسكري، الفروق اللغوية، ص: 309.
(4) السمين الحلبيّ، الدرّ المصون: 2/61.

﴿أَلَمۡ تَعۡلَمۡ أَنَّ ٱللَّهَ لَهُۥ مُلۡكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۗ وَمَا لَكُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ مِن وَلِيّٖ وَلَا نَصِيرٍ ١٠٧﴾ [البقرة: 107]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِمَا قَبْلَها:

لـمّا ذكرَ سبحانَه وتعالَى في الآيةِ السَّابقةِ النَّسخَ، وهو بيانٌ لقدرةِ اللّهِ تعالَى في رفعِ الآياتِ القرآنيّةِ والإتيانِ بخيرٍ منها بعدَ إنزالِها، ناسبَ أنْ يذكرَ في هذهِ الآيةِ كونه مالكًا للآياتِ الكونيّةِ، وأنَّه قادرٌ على التَّصرُّفِ فيها وحدَه دونَ سواهُ، فكانتْ هذهِ الآيةُ كالدَّليلِ على الآيةِ السَّابقةِ، فكما أنَّه وحدَه المتصرِّفُ في شؤونِ خلقِه، فهو كذلكَ وحدَه المتصرِّفُ في شؤونِ كتابِه، وليسَ لأحدٍ أن يُغيِّرَهُ من تلقاءِ نفسِه، أو أنْ يعترضَ على نسخِ شيءٍ منه.

ووقعتْ هذهِ الآيةُ كالبيانِ لفاصلةِ الآيةِ السَّابقةِ، كما وقعَ صدرُ الآيةِ السَّابقةِ كالتمهيدِ والتوطئةِ للفاصلةِ؛ إذْ مدارُ الأمرِ على قدرةِ اللّهِ تعالَى في الكتابِ المسطورِ والكونِ المنشورِ، فوقعتِ الفاصلةُ حَجَرَ زاويةٍ في تناسبِ المعاني واتّصالِها.

قال ابن عاشور في وجه ارتباط هذه الآية بما سبق: هذا الكلام "مَسُوقٌ لِبَيانِ حِكْمَةِ النَّسخ والإتْيانِ بِالخَيْرِ والمِثْلِ؛ بَيانًا غَيْرَ مُفَصَّلٍ عَلى طَرِيقَةِ الأُسْلُوبِ الحَكِيم؛ وذَلِكَ أنَّهُ بَعْدَ أنْ فَرَغَ مِنَ التَّنْبِيهِ عَلى أنَّ النَّسْخَ الَّذِي اسْتَبْعَدُوهُ وتَذَرَّعُوا بِهِ لِتَكْذِيبِ الرَّسُولِ هو غَيْرُ مُفارِقٍ لِتَعْوِيضِ المَنسُوخِ بِخَيْرٍ مِنهُ أوْ مِثْلِهِ أوْ تَعْزِيزِ المُبَقّى بِمِثْلِهِ؛ أُرِيدَ أنْ يَنْتَقِلَ مِن ذَلِكَ إلى كَشْفِ ما بَقِيَ مِنَ الشُّبْهَةِ؛ وهي أنْ يَقُولَ المُنْكِرُ: وما هي الفائِدَةُ في النَّسْخِ حَتّى يَحْتاجَ لِلتَّعْوِيضِ وكانَ مُقْتَضى الظّاهِرِ أنْ يَتَصَدّى لِبَيانِ اخْتِلافِ المَصالِحِ ومُناسَبَتِها لِلْأحْوالِ والأعْصارِ ولِبَيانِ تَفاصِيلِ الخَيْرِيَّةِ والمِثْلِيَّةِ في كُلِّ ناسِخٍ ومَنسُوخٍ؟ ولَمّا كانَ التَّصَدِّي لِذَلِكَ أمْرًا لَمْ تَتَهَيَّأْ لَهُ عُقُولُ السّامِعِينَ لِعُسْرِ إدْراكِهِمْ مَراتِبَ المَصالِحِ وتَفاوُتَها لِأنَّ ذَلِكَ مِمّا يَحْتاجُ إلى تَأْصِيلِ قَواعِدَ مِن أُصُولٍ شَرْعِيَّةٍ وسِياسِيَّةٍ، عَدَلَ بِهِمْ عَنْ بَيانِ ذَلِكَ، وأُجْمِلَتْ لَهُمُ المَصْلَحَةُ بِالحَوالَةِ عَلى قُدْرَةِ اللَّهِ تَعالى الَّتِي لا يَشِذُّ عَنْها مُمْكِنٌ مُرادٌ، وعَلى سَعَةِ مُلْكِهِ المُشْعِرِ بِعَظِيمِ عِلْمِهِ، وعَلى حاجَةِ المَخْلُوقاتِ إلَيْهِ إذْ

لَيْسَ لَهم رَبٌّ سِواهُ ولا ولِيٌّ دُونَهُ، وكَفى بِذَلِكَ دَلِيلًا عَلى أنَّهُ يَحْمِلُهم عَلى مَصالِحِهِمْ في سائِرِ الأحْوالِ"[1].

❁ شَرْحُ المُفْرَدَاتِ:

1) ﴿مُلْكُ﴾: اسمٌ ثلاثيّ مجردٌ، جذرُه اللغويّ (ملك)، و"الميمُ واللّامُ والكافُ أصلٌ صحيحٌ يدلُّ على قوّةٍ في الشّيءِ ... ثمَّ قيلَ مَلكَ الإنسانُ الشّيءَ يملكهُ ملكًا، والاسمُ الملكُ؛ لأنّ يدهُ فيه قويَّةٌ صحيحةٌ"[2].

والملكُ يكونُ على نوعينِ "مِلْكٌ هو التملّكُ والتّولّي، ومِلْكٌ هو القوّةُ على ذلكَ، تولّى أو لم يتولّ"[3] وعبّرَ عنه بأنّه "الحقّ الدّائم للّهِ"[4].

والملكُ هنَا جميعُ ما خلقَ اللّهُ من أجرام وسماواتٍ وأرضينَ وبشرٍ وحيوانٍ وجمادٍ وغيرِه فهو ملكُه؛ لذلكَ قيلَ إنّ المُلكَ هو "التّسلطُ على جماعة والتصرفُ في أمرِهم؛ فهو من إمساكِه بأمورِهم حُكمًا وتدبيرًا"[5].

2) ﴿دُونِ﴾: اسمٌ ثلاثيّ، جذرُه اللغويّ من (دون)، وأصلُ معناهُ "يدلُّ على المداناةِ والمقاربةِ، يُقالُ: هذا دونَ ذاكَ، أي هوَ أقربُ منهُ"[6] و"يُقالُ للقاصرِ عن الشيءِ: دونَ"[7].

وهو أيضًا "نقيضُ فوقَ، وهو تقصيرٌ عن الغايةِ؛ ويكونُ ظرفاً ... يقال: هذَا دُونك في التَّحقيرِ والتَّقريبِ ... ويقالُ: دونَك زيدٌ في المنزلةِ والقربِ والبعدِ"[8] وقدْ يأتي بمعنَى غيرِ، والمعنَى المرادُ في الآيةِ "ليسَ لهم من يواليهم من دونِ أمرِ اللّهِ"[9].

3) ﴿وَلِيّ﴾: زنةُ (فَعِيل) صيغةُ مبالغةٍ، جذرُه اللغويّ من (ولي)، وهو بياءينِ (وليي) الأولَى ياءُ الوزنِ، والثانيةُ ياءُ الأصلِ، ثمّ أُدغمَتا فصارَ (وليّ).

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 1/663.
(2) ابن فارس، مقاييس اللغة: (ملك).
(3) الراغب، المفردات: (ملك).
(4) الراغب، المفردات: (ملك).
(5) جبل، المعجم الاشتقاقي المؤصل: (ملك).
(6) ابن فارس، مقاييس اللغة: (دون).
(7) الراغب، المفردات: (دون).
(8) الزّبيديّ، تاج العروس: (دون).
(9) الراغب، المفردات: (دون).

والأصلُ في معناهُ دلالتُه على القربِ[1]، ومصدرُه الولاءُ من "واليتُ بَين الشّيئَين موالاةً وولاءً ... والولايَةُ الإِمارةُ، والوليّ خلافُ العدوِّ"[2]، وهو المرادُ في الآيةِ الكريمةِ، وهو الناصرُ والحليفُ.

وهو "لزومُ الشيءِ شيئًا آخرَ تبعًا له مع نحوٍ من الاشتمالِ، كما يتمثّلُ في لزوم الوَليةِ الظهرَ مشتملةً عليهِ"[3] والوليةُ البرذعةُ على ظهرِ البعيرِ فهي ملازمةٌ لهُ، وكذا الحليفُ والنّاصرُ ملازمٌ ومعينٌ لا ينفكُّ عن مولاهُ.

4) ﴿نَصِيرٍ﴾: وصفٌ على صيغةِ فَعِيل بمعنَى فاعلٌ ﴿نَصِيرٍ﴾ بمعنى (ناصر)، وهو من (نصر) فعلُه نصرَ ينصرُ نصرًا، ومعناهُ المجردُ "مجارِي الماءِ (مَسايلُه) إلى الأَوْدِيةِ، والنّاصرُ يجيءُ من مكانٍ بعيدٍ"[4] والعلاقةُ أنّ "الإمدادَ بما فيهِ زيادةٌ مناسبةٌ وقوةٌ: كما تمدّ النواصرُ الأوديةَ والتلاعَ بالماءِ"[5] ومن هذا الملحظِ جاءتِ النّصرةُ بمعنَى إعانةِ المظلوم، ومَن به حاجةٌ لذلكَ.

و"النَّصرُ والنُّصرةُ: الإعانةُ والمنعةُ، يُقالُ: نصرتُه؛ أي: أعنتُه على عدوّه ومنعتُه منه"[6] فالنَّصيرُ في الآيةِ بمعنَى: المعينُ، وهو يشبهُ (الوليّ) "فكلاهمَا فَعِيلٌ بمعنَى فاعِل على وجهِ المبالغةِ"[7].

❁ المَعْنَى الإِجْمَالِيُّ:

توجِّه الآيةُ الكريمة خطابًا للنَّبيِّ ﷺ وأُمَّتِه متضمِّنًا استفهامًا تقريريًّا مقصودُه الإلهابُ والتهييجُ للمؤمنينَ، والإقرارُ الملزِمُ بقدرةِ اللّهِ على النَّسخِ قياسًا على قدرته في ملكوتِ السَّماواتِ والأرضِ لغيرِهم، فكما أنَّ ملكوتَه سبحانَه تحتَ تصرُّفه وأمرِه؛ فإنَّ كتابَه كذلكَ بأمرِه ينزلُ وبأمرِه يُنسخُ، وما لأحدٍ من عموم خلقِه وليٌّ يقومُ بأمرَهم ويرعاهُم، ولا نصيرٌ يدفعُ عنهم الشَّرَّ والفسادَ، فمجمعُ الأمرُ الكونيّ والشرعيّ بيدِه دونَ سواهُ، ومَن لـمْ يعلمْ ذلكَ فإنَّه واقعٌ في محظورٍ عقديٍّ كبيرٍ.

---

(1) ابن فارس، مقاييس اللغة: (ولي).
(2) ابن دريد، جمهرة اللغة: (ولي).
(3) جبل، المعجم الاشتقاقي المؤصل: (ولي).
(4) جبل، المعجم الاشتقاقي المؤصل: (نصر).
(5) جبل، المعجم الاشتقاقي المؤصل: (نصر).
(6) السمين الحلبيّ، عمدة الحفّاظ: (نصر).
(7) الفخر الرازيّ، مفاتيح الغيب: 2/253.

❁ الإيضاحُ اللُّغويُّ والبلاغيُّ:

بلاغةُ الاستفهامِ:

التقاءُ معنيي الاستفهامِ في مقصدٍ دلاليّ واحدٍ

اختلفَ المفسِّرونَ في معنَى الاستفهامِ في قولِه تعالَى: ﴿أَلَمۡ تَعۡلَمۡ﴾ على قولين: الأوَّل: التَّقريرُ، والثَّاني: الإنكارُ[1]، وهذانِ القولانِ مؤدَّاهُما واحدٌ؛ فالتَّقريرُ تحصيلُ مجملِ الكلامِ، أي: أنَّ مؤدَّى الجملةِ هوَ لتقريرِ المخاطَبِ على مضمونِ الكلامِ، وهو العلمُ بأنَّ اللّه لهُ ملكُ السَّماواتِ والأرضِ، والإنكارُ تحصيلٌ تفصيلِ الكلامِ، أي: أنَّ الهمزةَ الدَّاخلةَ على الفعلِ المضارعِ دلَّتْ على إنكارِ عدمِ العلمِ، وذلكَ أنَّ أصلَ الكلامِ قبلَ دخولِ الهمزةِ: (لمْ تعلمْ...) ومعنى هذهِ الجملةِ منكرٌ، فلمَّا دخلتِ الهمزةُ كانتْ لإنكارِه، ومؤدَّى الإنكارِ أنْ يُقرَّ المخاطَبُ بمضمونِ عكسِه، وبهِ تلتقِي أقوالُ المفسِّرينَ بهذا التَّوجيهِ.

فائدةُ التِّكرارِ اللفظيّ:

توجيهُ العلمِ إلى معلومٍ واحدٍ؛ فالقدرةُ المطلقةُ علَّةُ الملكِ المطلقِ

جاءَ قولُه تعالَى: ﴿أَلَمۡ تَعۡلَمۡ﴾ في فاصلةِ الآيةِ السَّابقةِ، وصدرِ الآيةِ اللَّاحقةِ، وهذا التَّوالي اللفظيّ ألجأَ المفسِّرينَ إلى توجيهِه بما يُبعدُ عنه شبهةَ التَّكرارِ المحضِ، وخُلاصةُ قولِهم بأنَّ الآيةَ الأولى جاءَ فيها تقريرُ قدرةِ اللّهِ تعالَى، والثَّانيةَ جاءَ فيها تقريرُ ملكِ السَّماواتِ والأرضِ للّهِ وحدَه، ولو كانَ في الآيتينِ تكرارٌ حقيقيّ؛ لكانَ الملكُ هوَ القدرةُ، ولكانَ تكرارًا لفظيًّا من غيرِ فائدةٍ[2]، والملكُ دليلُ القدرةِ ونتيجةٌ من نتائجِه، إذِ القدرةُ سابقةٌ له[3]: "لأنَّ الّذي يكونُ لهُ ملكُ السَّماواتِ والأرضِ، لا جرمَ أنْ يكونَ قديرًا على كلِّ شيءٍ"[4]، فالقدرةُ المطلقةُ علّةُ الملكِ المطلقِ.

---

(1) الآلوسي، روح المعاني: 1/353.

(2) الرازيّ، مفاتيح الغيب: 3/253.

(3) البيضاويّ، أنوار التنزيل: 1/99.

(4) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 1/665.

سرُّ التعبيرِ بلفظِ الجلالةِ وإيثارُه على الضميرِ:

في قولِه تعالَى: ﴿أَلَمۡ تَعۡلَمۡ أَنَّ ٱللَّهَ لَهُۥ مُلۡكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۗ﴾ عبّرَ بالاسمِ الظاهرِ وهو لفظُ الجلالةِ ﴿ٱللَّهَ﴾، وآثرَه على الضميرِ العائدِ عليهِ سبحانَه، فقالَ: ﴿أَلَمۡ تَعۡلَمۡ أَنَّ ٱللَّهَ لَهُۥ مُلۡكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۗ﴾، ولمْ يقلْ (ألمْ تعلمْ أنّ له ملكَ السماواتِ والأرضِ) معَ إمكانِ ذلكَ لغةً ونظماً؛ وذلكَ لتربيةِ المهابةِ في النفوسِ؛ ولأنّه الاسمُ العلمُ الجامعُ لسائرِ الصفاتِ، ففي ضمنِه كونُه صفةَ الملكِ، فهو أبلغُ في نسبةِ الملكِ إليهِ من الضميرِ[1]؛ لأنّ الأصلَ في النظمِ الأسماءُ الظاهرةُ، وإنّما الضمائرُ عوضٌ منهَا.

قوَّةُ التئامِ النَّظمِ بالسِّياقِ:

أثرُ التقديمِ في الاختصاصِ والتّشويقِ والتحسينِ الصّوتيّ

قُدِّم الجارُّ والمجرورُ في قولِه تعالَى: ﴿لَهُۥ مُلۡكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ﴾، وهو تقديمٌ جائزٌ عربيَّةً، وأصلُ النَّظمِ: (ملكُ السماواتِ والأرضِ لهُ)؛ ولتقديمه نكتتانِ بلاغيّتانِ، أمَّا الأولَى: فهي الاختصاصُ، أي: اختصاصُه بالملكِ دونَ سواهُ، وهو معنًى يُقرُّه السِّياقُ، وما أجملَ أنْ يلتئمَ النَّظمُ معَ دلالةِ السِّياقِ، وأمَّا الثَّانيةُ فهي التَّشويقُ، فإذا قرأَ القارئُ: ﴿أَنَّ ٱللَّهَ لَهُۥ﴾ تشوَّقَ السَّامعُ ليعرفَ ما لهُ، ولطيفةٌ لفظيَّةٌ ثالثةٌ وهي الجرْسُ الصَّوتيّ، فتأخيرُ ﴿لَهُۥ﴾ يختلفُ صوتًا عن تقديمِه.

سرُّ تقديمِ السّماواتِ على الأرضِ:

مكانةُ السَّماواتِ وأهميتُها وعظمتُها وكونُها أصلَ القرآنِ ومصدرَه

قُدِّمَ ذكرُ السَّماواتِ على الأرضِ لمجموعةٍ من الأسبابِ وهي:

أوّلًا: جريًا على عادةِ القرآنِ الكريمِ؛ فإنّ القرآنَ قدَّمَ ذكرَ السَّماواتِ على الأرضِ بما يزيدُ عن مئةِ آيةٍ، ولم يتأخَّرْ ذكرُها إلّا في آيتينِ لموجبٍ دلاليّ.

ثانيًا: أثرُ السِّياقِ في تقديمِها؛ فإنَّ السِّياقَ دالٌّ على نسخِ القرآنِ، والقرآنُ ونسخُه نازلٌ من السَّماءِ.

---

(1) الآلوسي، روح المعاني: 1/354.

ثالثًا: تقديمُ الأعظمِ والأعلَى، فالشأنُ أنْ يتقدَّمَ ذكرُ الأعظمِ والأعلَى مكانًا على غيرِه، إلّا إنْ كانَ هناكَ ما يوجبُ خلافَه.

رابعًا: التقديمُ للأهميةِ والقداسةِ، فالسماواتُ فيها العرشُ والكرسيّ، والأرواحُ تصعدُ إليها، وفيها الجنّةُ والنارُ، وسوى ذلكَ من الغيبياتِ.

توجيه المخصوصِ بالذِّكرِ:

عظمُ السَّماواتِ والأرض لاشتمالِها سائرَ المخلوقاتِ

خصَّت الآيةُ "السَّماواتِ وَالأَرْضَ - بالملكِ -؛ لأنّهما من أعظمِ المخلوقاتِ الظاهرةِ، ولأنّ كلَّ مخلوقٍ لا يخلُو عن أنْ يكونَ في إحدى هاتينِ الجهتينِ؛ فكانَ في الاستيلاءِ عليهما إشارةٌ إلى الاستيلاءِ على ما اشتملا عليهِ"[1].

بلاغةُ عطفِ الجملةِ على الجملةِ:

إلحاقُ المعنويِّ المتصوَّرِ بالماديِّ المقطوعِ به

عُطِفَ قولُه تعالَى: ﴿وَمَا لَكُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ مِن وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ ١٠٧﴾ على "الجملةِ الواقعةِ خبرًا لـ﴿أَنَّ﴾ داخلٌ معهَا حيثُ دخلتْ"[2]، ومقتضَى العطفِ ضرورةَ أنْ يعلمَ المخاطَبُ بأنَّه لا وليَّ ولا ناصرَ له أحدٌ من دونِ اللّهِ سبحانَه، كما علمَ أنَّه لا مالكَ للسماواتِ والأرضِ أحدٌ سوى اللّهِ تعالَى سواءً بسواءٍ، وتظهرُ بلاغةُ العطفِ في تنزيلِ العلمِ بانتفاءِ الولايةِ والنصرةِ عن جميعِ المخلوقاتِ، منزلةَ ملكِ السماواتِ والأرضِ للّهِ وحدَه، وهذا أبلغُ في بيانِ المقصودِ بإلحاقِ المعنويّ المتصوَّرِ بالماديّ المسلَّمِ به.

نكتةُ تقديمِ الوليّ على النصيرِ:

قـربُ الـوليِّ وسهولةُ حالِه في الشفاعةِ والقيامِ بالأمورِ

قُدِّمَ الوليُّ على النَّصيرِ لسببينِ اثنينِ:

الأوَّل: القربُ؛ فالوليُّ أقربُ من النَّصيرِ، إذْ به تقومُ الأمورُ والأحوالُ، ثمّ يكونُ النصيرُ في أحوالِ النصرةِ والتأييدِ، والمعنى:

(1) الآلوسي، روح المعاني: 1/353.
(2) الآلوسي، روح المعاني: 1/351.

"وليسَ لكم، أيّها المؤمنونَ، بعدَ اللّهِ من قيّمٍ بأمرِكم، ولا نصيرٍ فيؤيِّدُكم ويقوِّيكُم، فيعينُكم على أعدائِكم"[1].

الثاني: السهولةُ؛ "لأنّ الركنَ الشديدَ الّذي يستندُ إليه، إمّا وليّ يشفعُ أو ناصرٌ يدفعُ، والأولُ أسهلُ الطريقينِ فلذلكَ قدّمَ الوليّ على النصيرِ"[2].

بلاغةُ الاحتراسِ:

نـفـيُ أوهــامِ الأفهامِ أن يكون نـصيرٌ مـن دون الله

عطفَتِ الآيةُ النصيرَ على الوليّ في قولِه: ﴿وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ﴾ - والعطفُ يقتضِي المغايرةَ -؛ للاحتراس[3]؛ فالوليّ "قد يضعُفُ عن النُّصرةِ، والنصيرُ قد يكونُ أجنبيًّا من المنصورِ"[4] فلحصولِ التكاملِ بينَ ولايةِ الوليّ ونصرةِ النصيرِ عطفَ الواحدَ على الآخرِ "لأنّ نفيَ الوليّ لا يقتضِي نفيَ كلّ نصيرٍ إذْ لا يكونُ لأحدٍ وليّ لكونه دخيلاً في قبيلةٍ، ويكونُ أنصارُه من جيرتِه"[5]، فكمنتْ بلاغةُ الاحتراسِ في اكتمالِ المعاني، ونفيِ أيِّ ظنٍّ يردُ على الأذهانِ في نصرةِ أحدٍ من دونِ اللّهِ تعالى.

(1) ابن جرير، جامع البيان: 2/489.

(2) النيسابوري، غرائب القرآن: 5/380.

(3) الاحتراس: أن يأتي المتكلم بمعنًى فيه دخل وطعن، فيُفطن له؛ فيأتي بما يزيل ذلك الوهم ويخلّصه منه، القزويني، الإيضاح، ص: 192.

(4) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 1/235.

(5) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 1/695.

﴿أَمۡ تُرِيدُونَ أَن تَسۡـَٔلُواْ رَسُولَكُمۡ كَمَا سُئِلَ مُوسَىٰ مِن قَبۡلُۗ وَمَن يَتَبَدَّلِ ٱلۡكُفۡرَ بِٱلۡإِيمَٰنِ فَقَدۡ ضَلَّ سَوَآءَ ٱلسَّبِيلِ ١٠٨﴾

[البقرة: 108]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِمَا قَبلَها:

لـمَّا ذكرتِ الآياتُ السَّابقةُ النَّسخَ، وأنَّه بأمرِ اللهِ تعالَى، كمَا أنَّ ملكَه ومخلوقاتِه هي بأمرِه، شرعَ في إنكارِ فعلٍ ذميمٍ صَدَرَ عن أصحابِ موسَى عليهِ الصَّلاةُ والسَّلامُ؛ وهو سؤالُهم موسَى الكفرَ، وطلبُهم منه أن يتّخذَ لهم إلهًا من دون الله، وهذا القولُ وإنْ لـمْ يصدُرْ عن المخاطبينَ، إلّا أنَّ ردعَهم وزجرَهم بعدَ ذكرِ النَّسخِ هو المناسبُ للمقامِ، منعًا من التَّأثرِ بأقوالِ الكفرةِ فيما قالوهُ في شأنِ النَّسخِ، فكانتِ الإشارةُ إلى أمرٍ أعظمَ من ذلكَ بكثيرٍ إشعارًا بخُطورةِ اتِّباعِ شبهاتِهم ومطاعنِهم؛ فإنَّها قد توصلُ إلى ما وصلَ إليهِ أولئكَ من استبدالِ الكفرِ بالإيمانِ؛ فوقعتْ هذهِ الآيةُ موقعَ التَّمثيلِ الاحترازيّ، وهو في غايةِ البلاغةِ في المحافظةِ على أبعادِ الخطابِ القرآنيّ في تقريرِ الأحكامِ النَّازلةِ.

قال الفخر الرّازي في المسألة الخامسة في بيان وجه المناسبة: "ذَكَرُوا في اتِّصالِ هَذِهِ الآيَةِ بِما قَبْلَها وُجُوهًا:

أحَدُها: أنَّهُ تَعالى لَمّا حَكَمَ بِجَوازِ النَّسْخِ في الشَّرائِعِ، فَلَعَلَّهم كانُوا يُطالِبُونَهُ بِتَفاصِيلِ ذَلِكَ الحُكْمِ فَمَنَعَهُمُ اللَّهُ تَعالى عَنْها، وبَيَّنَ أنَّهم لَيْسَ لَهم أنْ يَشْتَغِلُوا بِهَذِهِ الأسْئِلَةِ كَما أنَّهُ ما كانَ لِقَوْمِ مُوسى أنْ يَذْكُرُوا أسْئِلَتَهُمُ الفاسِدَةَ.

وثانِيها: لَمّا تَقَدَّمَ مِنَ الأوامِرِ والنَّواهِي، قالَ لَهم: إنْ لَمْ تَقْبَلُوا ما أمَرْتُكم بِهِ وتَمَرَّدْتُمْ عَنِ الطّاعَةِ، كُنْتُمْ كَمَن سَألَ مُوسى ما لَيْسَ لَهُ أنْ يَسْألَهُ؛ عَنْ أبِي مُسْلِمٍ.

وثالِثُها: لَمّا أمَرَ ونَهى، قالَ: أتَفْعَلُونَ ما أُمِرْتُمْ، أمْ تَفْعَلُونَ كَما فَعَلَ مَن قَبْلَكم مِن قَوْمِ مُوسى؟"[1].

(1) الرازي، مفاتيح الغيب: 3/255.

❁ شَرْحُ المُفْرَدَاتِ:

1) ﴿تُرِيدُونَ﴾: فعلٌ مضارعٌ، مِن أرادَ يريدَ إرادةً، وأصلُه من رَوَدَ، وهو على ذلكَ جذرُه اللغويّ، وأصلُ معناهُ "تقدّمٌ أو نتوءٌ واتجاهٌ إلى غايةٍ أو حدٍّ معيّنٍ"[1]، "ومن ذلكَ المعنى الإرادةُ: المشيئةُ؛ وهي ذهابُ النفسِ إلى الشيءِ طلبًا ورغبةً قويةً في تحصيلِه، ومنه: أرادَ الشيءَ: أحبّه وعُنِي بهِ"[2].

"والإِرَادَةُ منقولةٌ من رَادَ يَرُودُ: إذا سعَى في طلبِ شيءٍ، والإِرَادَةُ في الأصلِ: قوّةٌ مركّبةٌ من شهوةٍ وحاجةٍ وأملٍ"[3]، والمعنى في الآيةِ رغبتُهم في سؤالِ الرسولِ ﷺ.

2) ﴿تَسْـَٔلُواْ﴾: فعلٌ مضارعٌ من الأفعالِ الخمسةِ حذفتِ النونُ منه للجزم، أصلُه (تسألونَ)، الماضي المجردُ منه (سألَ) وهو جذرُه اللغويّ، والأصلُ في معناهُ "استخراجُ ما في حوزةٍ أخرَى؛ أي طَلَبُ تحصيلِه بَدفْعٍ أو حثٍّ: كما تخرجُ الصدقةُ والدرهمُ من المسؤولِ"[4].

والسؤالُ "استدعاءُ معرفةٍ، أو ما يؤدّي إلى المعرفةِ، واستدعاءُ مالٍ، أو ما يؤدّي إلى المالِ، فاستدعاءُ المعرفةِ جوابُه على اللّسانِ ... واستدعاءُ المالِ جوابُه على اليدِ"[5].

وله غيرُ نوعٍ في المتعدّي، "والسُّؤَالُ إذا كانَ للتّعريفِ تعدّى إلى المفعولِ الثاني تارةً بنفسِه، وتارةً بالجارّ، تقولُ: سألتُه كذا، وسألتُه عن كذا، وبكذا، وبـ: (عن) أكثرَ"[6].

والفعلُ ههنا متعدٍّ بحرفِ الجرِّ، والمرادُ هنا الاستخبارُ؛ أي طلبُ معرفةِ الخبرِ في أمرٍ ما.

3) ﴿رَسُولَكُمْ﴾ اسمٌ على وزنِ (فَعُول)، من الجذرِ اللغويّ (رسل) فعلٌ ماضٍ، المجرَّدُ منه (أرسلَ)، والجذرُ اللغويّ له (رسل)، وأصلُ المعنى "يدلُّ على الانبعاثِ والامتدادِ، فـ: (الرَّسلُ) السيرُ السهلُ"[7]، و"يُقالُ ناقةٌ رَسْلَةٌ، سهلةُ السّير، وإبلٌ

(1) جبل، المعجم الاشتقاقي المؤصل: (رود).
(2) جبل، المعجم الاشتقاقي المؤصل: (رود).
(3) الراغب، المفردات: (رود).
(4) جبل، المعجم الاشتقاقي المؤصل: (سأل).
(5) الراغب، المفردات: (سأل).
(6) الراغب، المفردات: (سأل).
(7) ابن فارس، مقاييس اللغة (رسل).

مَرَاسِيلُ، مُنبعثةٌ انبعاثًا سهْلًا، وأرسلناكَ: بمعنَى جعلناكَ رسولاً من عندِنا للناسِ، أي: أنتَ الرَّسولُ المُنبعثُ"[1]، فالرّسولُ هو المبعوثُ من اللّهِ تعالى إلى خلقِه.

4) ﴿قَبْلُ﴾: اسمٌ من الأسماءِ الملازمةِ للإضافةِ، جذرُه اللغويّ (قبل) وهو صالحٌ للظرفيةِ الزمانيةِ والمكانيةِ، و"القافُ والباءُ واللَّامُ أصلٌ واحدٌ صحيحٌ تدلُّ كلمهُ كلُّها على مواجهةِ الشَّيءِ للشَّيءِ"[2]، وله معانٍ كثيرةٌ جدًا تنتمي لهذا الأصلِ، أمّا قبلَ المذكورِ في الآيةِ ففيه إشارةٌ إلى التقدّم الزمانيّ، وهو "يستعملُ في التّقدّم المتّصلِ والمنفصلِ، ويضادّه بعدَ"[3] وقد "حملَ اللفظُ معنَى الأوّليةِ والسَّبقِ؛ لأنّ ما هو قَبْلَ الشيءِ سابقٌ له ومتقدّمٌ عليهِ"[4].

5) ﴿يَتَبَدَّلِ﴾: فعلٌ مضارعٌ على وزنِ (يتفعّلُ)، الماضِي منه (تَفَعّلَ) مزيدٌ بالتاءِ والتضعيفِ، وهو فعلٌ ثلاثيّ مزيدٌ، جذرُه اللغويّ (بدل) والأصلُ في معناه "قيامُ الشيءِ مقامَ الشيءِ الذاهبِ، يقالُ: هذا بدلُ الشيءِ وبديلُه، ويقولونَ: بدّلتُ الشيءَ: إذا غيّرتُه، وإنْ لمْ تأتِ له ببدلٍ"[5].

و"الإبدالُ والتَّبديلُ والتَّبَدُّلُ والاستبدالُ جعلُ شيءٍ مكانَ آخرَ ... والتبديلُ قد يقالُ للتغييرِ مطلقًا، وإنْ لمْ يأتِ ببدلِه[6]، والمعنى في الآيةِ: أنّهم يجعلونَ الكفرَ مكانَ الإيمانِ، وهو من سوءِ صنيعِهم.

ويقولُ النحويونَ إنّ هذا الفعلَ يتحوّلُ منْ هيئةٍ إلى هيئةٍ أخرى[7] أيْ يتحوّلُ ويتغيّرُ وينقلبُ، وفيهِ معنى الاشتراءِ، أيْ يشتري الكفرَ بالإيمانِ، كمنَ يدفعُ مالاً، وهو هنا الإيمانُ، ويأخذَ سلعةً، وهيَ هنا الكفرُ، وبئستِ السلعةُ هيَ.

6) ﴿ٱلْكُفْرَ﴾: مصدرُ كفرَ يكفرُ، وجذرُهُ اللغويّ (كفر) ولهُ أصلٌ واحدٌ "يدلُّ على معنى واحدٍ، وهو السترُ والتغطيةُ، يقالُ لمنْ غطّى درعَهُ بثوبٍ: قدْ كفرَ درعَهُ"[8]

---

(1) الراغب، المفردات: (رسل).
(2) ابن فارس، مقاييس اللغة (قبل).
(3) الراغب، المفردات: (قبل).
(4) جبل، المعجم الاشتقاقي المؤصل: (قبل).
(5) ابن فارس، مقاييس اللغة: (بدل).
(6) الراغب، المفردات: (بدل).
(7) المبّرد، المقتضب: 1/78.
(8) ابن فارس، مقاييس اللغة: (كفر).

"ووصفُ اللّيلِ بالكافرِ لسترِه الأشخاصَ، والزّرّاعَ لسترِه البذرَ في الأرضِ"[1] ومعنى الكفرِ في الآيةِ "جُحُودُ الوحدانيّةِ أو الشّريعةِ أو النّبوّة"[2]؛ لأنّ الكافرَ غطّى على الحقّ والدِّين وسترَ عليهِ[3].

7) ﴿بِٱلۡإِيمَٰنِ﴾: مصدرُ آمنَ يؤمنُ، وجذرُه من الهمزةِ والميم والنونِ، وهي تدلُّ على سكونِ القلبِ وتصديقِه[4]وأصلُ الأمنِ طمأنينةُ النَّفْسِ وزوالُ الخوفِ[5] وفعلُه: أمِنَ.

أمّا آمنَ فلهُ وجهانِ[6].

أحدُهما: أنْ يكونَ متعديًا، تقولُ: آمنتُه إذا جعلتَ له الأمنَ والأمانَ، ومنه -في وجهٍ[7]: اسمُ اللّهِ المؤمنِ.

والآخرُ: أنْ يكونَ لازمًا، ومعنى (آمنَ) على هذا: صارَ ذا أمنٍ.

والإيمانُ: التصديقُ باتّفاقِ أهلِ اللغةِ[8] ونازعَ في هذهِ الحقيقةِ اللغويةِ جماعةٌ[9]، والإيمانُ في الشرعِ يطلقُ إطلاقينِ[10]:

إطلاقًا عامًا تندرجُ فيه جميعُ أمورِ الدينِ العلميةِ والعمليةِ، فهو بهذا الاعتبارِ قولٌ وعملٌ واعتقادٌ.

وإطلاقًا خاصًا، والمرادُ بهِ التصديقُ والإقرارُ بأصولِ الإيمانِ السِّتةِ المشهورةِ، الواردةِ في الحديثِ الطويلِ، وفيه: "أَنْ تُؤْمِنَ بِاللّهِ، وَمَلَائِكَتِهِ، وَكِتَابِهِ، وَلِقَائِهِ، وَرُسُلِهِ، وَتُؤْمِنَ بِالبَعْثِ الآخِرِ"[11].

(1) الرّاغب، المفردات: (كفر).
(2) الرّاغب، المفردات: (كفر).
(3) السمين، عمدة الحفّاظ: (كفر).
(4) ابن فارس، مقاييس اللغة: (أمن).
(5) الرّاغب، المفردات: (أمن).
(6) الرّاغب، المفردات: (أمن).
(7) الزجاج، تفسير أسماء الله الحسنى، ص: 31 - 32.
(8) الأزهري، تهذيب اللغة: 15/368، وهذا الاتفاق إنما هو في الحقيقة اللغوية للإيمان، أما معناه في الشرع فليس هو معناه في اللغة، بل له في الشرع حقيقة أخرى أوضحتها الأدلة.
(9) ابن تيمية، الإيمان، ص: 101، وما بعدها.
(10) عبد الرحمن البراك، شرح العقيدة الطحاوية، ص: 293.
(11) رواه مسلم، حديث رقم: (9).

والإيمانِ في الآيةِ "مَعْنَاهُ التَّصدِيق الَّذِي هُوَ نقيض الكفْر"(1).

8) ﴿ضَلَّ﴾: فعلٌ ماضٍ، ويسمّى مضعَّفَ الثلاثيّ، أصلُه (ضلل)، وهيَ أحرفُ جذرِه، والأصلُ في معناهُ "ضياعُ الشيءِ، وذهابُه في غيرِ حقّه"(2).

"والضّلالُ ضدّ الهدَى، وضلّ فِي الأَمرِ ضلالاً إِذَا لَمْ يهتدِ لَهُ، وضلّ فِي الأَرْضِ ضلالاً إِذا لَمْ يهتدِ للسّبيلِ"(3).

والمقصودُ في الآيةِ: "العدولُ عن الطريقِ المستقيم؛ ويضادّهُ الهدايةُ"(4).

9) ﴿سَوَآءَ﴾: اسمٌ على وزنِ (فَعَال)، جذرُه اللغويّ من (سوي)، والأصلُ في معناهُ أنْ يدلّ "على استقامةٍ واعتدالٍ بينَ شيئَينِ، يقالُ: هذَا لا يساوِي كذا، أيْ: لا يعادلُه، وفلانٌ وفلانٌ على سويّةٍ من هذا الأمرِ، أيْ: سواءٌ"(5).

"وَسَوَاء الشَّيْء وَسطُه ... وَوضعتُ الشَّيْءَ فِي سَوَاءِ كمي؛ أَيْ: فِي وَسطِه"(6) ويمكنُ أنْ يكونَ السّواءُ هو القصدُ؛ لأنّ ابنَ قتيبة فسّرَ اللّفظةَ في الآيةِ بقولِه: "سَوَاءَ السَّبِيلِ، أيْ: قصدَ الطريقِ ووسطِه"(7).

ويوصفُ المكانُ بالسواءِ كنايةً عنْ عدلِه وتوسطِه بينَ الفريقينِ، والمرادُ في الآيةِ أنّهمْ ضلّوا عن وسطِ الطريقِ، فإذا كانُوا كذلكَ فهمْ لغيرِه أضلّ.

10) ﴿ٱلسَّبِيلِ﴾: اسمٌ على وزنِ (فَعِيل)، جذرُه اللغويّ من (سبل)، ولهُ أصلٌ واحدٌ "يدلّ على إرسالِ شيءٍ من علوّ إلى سفلٍ، وعلى امتدادِ شيءٍ ... والممتدُّ طولاً: السبيلُ، وهو الطريقُ؛ سمّيَ بذلكَ لامتدادِه"(8).

والسبيلُ "كلّ مأتيّ إِلَى الشَّيْءِ فهو سَبيلُه"(9) وقدْ وردَ كثيرًا في القرآنِ الكريمِ،

(1) الكفوي، الكليات، ص: 212.
(2) ابن فارس، مقاييس اللغة: (ضلل).
(3) ابن دريد، جمهرة اللغة: (ضلل).
(4) الراغب، المفردات: (ضلل).
(5) ابن فارس، مقاييس اللغة: (سوي).
(6) ابن دريد، جمهرة اللغة: (سوأ).
(7) ابن قتيبة، غريب القرآن: 141.
(8) ابن فارس، مقاييس اللغة: (سبل).
(9) الكفوي، الكليات، ص: 494.

والغالبُ في معانيهِ أنّهُ بمعنَى الطريقِ[1]؛ وهو يذكّرُ ويؤنّثُ، وجمعُه على السُّبلِ، والسبيلُ في الآيةِ بمعناهُ المجازيّ[2] أيّ طريقُ الهدايةِ والإيمانِ، وليسَ الطريقَ بمعناهُ الموضوعِ في لسانِ العربِ.

المَعْنَى الإِجْمَالِيُّ:

تضمَّنتِ الآيةُ نصحًا وإرشادًا من الحقّ تباركَ وتعالَى إلى المسلمينَ أن يتّبعُوا الرسولَ ﷺ فيما يأمرُهم بهِ، وأنْ ينتهُوا عمّا ينهاهُم عنهُ، وأنْ لا يكونُوا كقوم موسَى عليه السلام بسؤالاتِهم التي يطلبونَ فيهَا أمورًا فوقَ ما جاءَهم، ثمّ عقّبَ ذلكَ بأنْ أخبرَهم أنّ تركَ الآياتِ البيناتِ وطلبَ غيرِها تعنّتًا وعنادًا هو كمنْ يختارُ الكفرَ، ويتركُ الإيمانَ، ويستحبُّ العمَى على الهدَى، فيضلُّ عن طريقِ الحقِّ، ومَنْ ضلَّ عن وسطِه الواضحِ فهو لغيرِه أضلُّ وأعمَى.

الإيضاحُ اللُّغويُّ والبلاغيُّ:

تضمينُ (أمْ) معنَى الإضرابِ والاستفهامِ:

فصاحةُ الانتقالِ من الخطابِ التقريريّ إلى الخطابِ التحذيريّ بـ (أمْ)

تحتملُ ﴿أَمْ﴾ الاتّصالَ والانقطاعَ، فإذا حملناهَا على الاتّصالِ؛ فلا بدّ من تقديرِ محذوفٍ معلوم من السياقِ، فكأنّه قيلَ: أيُّ الأمرين من عدم العلمِ بمَا تقدَّمَ ذكرُه، أو العِلْم بما تقدَّمَ مع اقتراحِ السؤالِ واقعٌ منكُم؟ والاستفهامُ حينئذٍ يكونُ للإنكارِ؛ بمعنَى: لا ينبغِي أنْ يكونَ شيءٌ منهمَا بتاتًا[3]، فهذا معنَى أنْ تكونَ ﴿أَمْ﴾ متصلةً.

ومعنَى الانقطاعِ هو الإضرابُ أيّ: "بلْ أتريدونَ، فهو استفهامٌ منقطعٌ عمّا قبلَه"[4]، والانقطاعُ أقوَى دلالةً من الاتصالِ، ومعنَى الكلامِ على الاحتمالين:

توصيةُ المسلمينَ بالثقةِ بالقرآنِ وبالرسولِ، وعدمِ الاستماعِ للطّاعنينَ، وفي هذهِ

(1) السمين، عمدة الحفّاظ: (سبل).
(2) جبل، المعجم الاشتقاقي المؤصل: (سبل).
(3) الآلوسي، روح المعاني: 1/354.
(4) الواحديّ، الوسيط: 1/191.

التوصيةِ كمالُ المبالغةِ والبلاغةِ حتّى كأنّهم بصددِ الإرادةِ فنهُوا عنهَا، فضلًا عن السؤالِ، يعنِي: من شأنِ العاقلِ ألاّ يتصدّى لإرادةِ ذلكَ[1].

وتحتملُ أنْ تكونَ للعطفِ "على قولِه: ﴿أَلَمْ تَعْلَمْ﴾ وتقديرُه: ألمْ تعلمُوا ذلكَ، أم لمْ تعلمُوا فتسألُوا رسولَكم"[2]، وجعلَها بعضُ المفسرينَ استفهامًا فحسب، على نيَّةِ إسقاطِ الميمِ، أيْ: أتريدونَ[3].

ومعنَى الإضرابِ والاستفهامِ وجيهٌ حاضرٌ، فـ "إنَّ ﴿أَمْ﴾ هذهِ منقطعةٌ للإضرابِ عنْ عدمِ علمِهمْ بالسّابقِ إلى الاستفهامِ عنِ اقتراحِهمْ، فهيَ تتضمّنُ الإضرابَ والاستفهامَ معًا"[4].

ومعنَى الاستفهامِ متوجّهٌ إلى الإرادةِ؛ لأنّه أردفَ الاستفهامَ بالفعلِ (تريدونَ) وهو أسلوبٌ قرآنيّ تعريضيّ بليغٌ؛ لأنّه إذَا "كانَ الاستنكارُ للإرادةِ، فهو للسؤالِ أشدّ؛ لأنّهُ إذا استنكرتَ ذاتَ الإرادةِ، فالأوْلى يكونُ للفعلِ"[5] والإرادةُ تسبقُ الفعلَ؛ فعُلِمَ أنّه أرادَ أنْ يحذّرهُم من ذلكَ ابتداءً.

فائدةُ استعمالِ المصدرِ المؤوَّلِ:

تبرئةُ المؤمنينَ من تهمةِ السّؤالِ في الحاضرِ، وتحذيرُهُم في المستقبلِ

آثرَ النَّظمُ الكريمُ التَّعبيرَ بالمصدرِ المؤوَّلِ، لا بالمصدرِ الصريحِ لمفعولِ ﴿تُرِيدُونَ﴾؛ وذلكَ لبيانِ أنَّ المُخاطَبينَ لم يسألُوهُ بعدُ، وإنَّما هوَ على التوقّعِ مستقبلاً، بدلالةِ ﴿أَن﴾ المصدريةِ المخلّصةِ للاستقبالِ؛ ليدفعَ عنهم مغبَّةَ الوقوعِ في الزَّمنِ الحاضرِ، ويحذّرَهم من إيقاعِه في المستقبلِ.

إيثارُ نعتِ الرّسالةِ على النّبوّةِ:

التَّحذيرُ في السّؤالِ هو عمَّا يتعلَّقُ بالقرآنِ، لا بشخصِ الرَّسولِ

في قولِه تعالَى: ﴿رَسُولَكُمْ﴾ آثرتِ الآيةُ الإتيانَ بنعتِ الرِّسالةِ، فلمْ يُقلْ: (نبيكم)؛ وذلكَ لأنّ الاقتراحَ المحذَّرَ منه هو فيما يتعلَّقُ

(1) الآلوسي، روح المعاني: 1/354.
(2) الراغب، تفسير الراغب: 1/289.
(3) البغويّ، معالم التنزيل: 1/135.
(4) محمد رشيد رضا، تفسير القرآن الحكيم: 1/343.
(5) أبو زهرة، زهرة التفاسير: 1/358.

بالرِّسالةِ، أيْ: القرآن، وهو ما يعنِي أنَّ سؤالَ قوم موسَى لهُ عليهِ الصَّلاةُ والسّلامُ كانَ فيما يتعلّقُ برسالتِه لا بشخصِه، ولا بذاتِ نبوَّتِه، وهو ما يدلُّ على أثرِ اختيارِ الألفاظِ في بيانِ المعانِي.

نكتةُ إضافةِ رسول إلى ضميرِ المخاطبين:

التَّحذيرُ من مشابهةِ منهجِ بني إسرائيلَ في سؤالِهم لرسلِهم

أُضيفَ رسولُ في قولِه تعالَى: ﴿أَمۡ تُرِيدُونَ أَن تَسۡـَٔلُواْ رَسُولَكُمۡ﴾ إلى ضميرِ المخاطَبينَ؛ لزيادةِ تبشيعِ فعلِ السّؤالِ؛ فهو رسولُكم الذي تعرفونَه في حرصِه عليكم، وحبِّه لكم، ورحمتِه بكم؛ فهو يخاطبُهم مستنكرًا صُدُورَ سؤالٍ يُشابِه سؤالَ بني إسرائيلَ موسَى عليهِ الصَّلاةُ والسَّلامُ؛ لأنَّهُ سؤالٌ لَمْ يقمْ على الحقِّ، بلْ على الهوَى واتِّباعِ غوايةِ النَّفسِ، فالاستنكارُ ليسَ لذاتِ السُّؤالِ بل لمشابهةِ السُّؤالِ للسؤالِ، وهذا من بلاغةِ التَّشبيهِ القرآنيِّ في إبرازِ المعاني القرآنيَّة، ففيهِ تحذيرٌ في مشابهةِ منهجِ بني إسرائيلَ في التَّعاملِ مع رسولِ اللّهِ ﷺ.

بلاغةُ القرآنِ في استعمالِ الحروفِ:

التَّحذيرُ لا يقتصرُ على ذاتِ السّؤالِ بل يتعدَّاهُ إلى المنهجِ

استعملتِ الآيةُ القرآنيّةُ حرفَ ﴿مَا﴾ دونَ المصدرِ، فلمْ يُقل: "كسؤالِ"، ودونَ الاسمِ الموصولِ؛ فلمْ يُقل: "كالذي سُئِلَ"، وكلاهُما محتملٌ؛ وهيَ إلى المصدريةِ أقربُ، ولمعناها أوقعُ؛ للذّهابِ في معنى العمومِ؛ لأنَّ المصدرَ يوحِي بنوعِ تحديدٍ للمسؤولِ، والاسمُ الموصولُ أشدُّ تحديدًا، فأُوثِرَ حرفُ ﴿مَا﴾ ليكونَ الأمرُ عامًّا؛ ولينصبَّ التَّشبيهُ على المنهجِ لا على سؤالٍ بذاتِه، فأيُّ سؤالٍ من شأنِه أنْ يحومَ حولَ المحذورِ فمنهيٌّ عنهُ، وهذا أبلغُ في النَّهيِ من التَّعبيرِ بالمصدرِ أو الموصولِ، وهي إلى المصدريّةِ أدنَى؛ "لأنَّ المشبّهَ ﴿أَن تَسۡـَٔلُواْ﴾ وهو مصدر، فالظَّاهرُ أنَّ المشبَّهَ به كذلكَ، وقُبْحُ السّؤالِ إنّما هوَ لقبحِ المسؤولِ عنهُ، بل قد يكونُ السّؤالُ نفسهُ قبيحًا في بعضِ الحالاتِ، معَ أنَّ المصدريّةَ لا تحتاجُ إلى تقديرِ رابطٍ؛ فهو أولَى"[1].

(1) الآلوسي، روح المعاني: 1/355.

أثرُ الصّيغةِ في بيانِ المعانِي:

التَّشنيعُ على السَّائلينَ بصونِ المقامِ من ذكرِهم، زيادةً في التَّحذيرِ من صنيعِهم

عبَّرتِ الآيةُ عن السّؤالِ بصيغةِ الفعلِ المبنيِّ للمفعولِ ﴿سُئِلَ﴾، "ولمْ يقلْ سبحانَه: كمَا سألَ أمَّةُ موسَى عليه السلام؛ للإشارةِ إلى أنَّ مَن سألَ ذلكَ يستحقُّ أنْ يُصانَ اللسانُ عن ذكرِه"(1)، ثمّ إنّ تمثيلَ الحقّ تباركَ وتعالَى سؤالَ هؤلاءِ بسؤالِ أولئكَ لموسَى عليه السلام، فيه تبكيتٌ وتقريعٌ لهم؛ فقولُه: ﴿كَمَا سُئِلَ مُوسَىٰ﴾ أيْ: لا تفعلُوا هذا الفعلَ، وفي ذلكَ تشنيعٌ لحالِ السَّائلينَ، بما يزيدُ من شدَّةِ التَّحذيرِ من صنيعِهم.

فائدةُ ذكرِ الظَّرفِ:

زيادةُ التَّشنيعِ، وإطلاقُ عنانِ الفكرِ في استيضاحِ المقصودِ

لسائلٍ أنْ يسألَ عن السِّرِّ في ذكرِ ﴿قَبۡلُ﴾؛ فلمْ يكتفِ النَّظمُ بقوله: ﴿كَمَا سُئِلَ مُوسَىٰ﴾، والظَّرفُ مقصودٌ به زمنٌ معيَّنٌ معلومٌ، غيرُ محدَّدٍ بإضافةٍ(2)، وللمتلَقِّي أنْ يقدِّرَ ألفاظًا متعدِّدةً تدلُّ على مجموعةٍ من المعاني، كأنْ يقدَّرَ: من قبلِ رسولِكم، أو من قبلِ نزولِ كتابِكم، أو من قبلِ ضلالِهم وكفرِهم، فالكلامُ وإن كانَ ظاهرُه الإطنابَ فجوهرُه الإيجازَ، فقولُه ﴿مِن قَبۡلُ﴾ من بابِ الإطنابِ الذي يُرادُ منه التّشنيعُ عليهم، "ورُبَّ كلامٍ يكونُ الإطنابُ فيه أبلغَ من الإيجازِ، وتصيرُ البساطةُ له كالعلَمِ والطرازِ"(3) ففائدةُ الإطنابِ هنا زيادةُ التشنيعِ عليهم؛ لأنَّ غرضَهم من سؤالاتِهم التعنّتُ واللّجاجُ، وليسَ الاستيضاحَ وطلبَ الاحتجاجِ، ويعزِّزُه قولُ رسولِ اللّهِ صلى الله عليه وسلم: «ذَرُونِي مَا تَرَكْتُكُمْ، فَإِنَّمَا هَلَكَ مَنْ كَانَ قَبْلَكُمْ بِكَثْرَةِ سُؤَالِهِمْ، وَاخْتِلَافِهِمْ عَلَى أَنْبِيَائِهِمْ»(4)، إن لم يكنْ قولُه أُخذَ من معينِ الآيةِ.

(1) الآلوسي، روح المعاني: 1/354.
(2) فاضل السامرائيّ، معاني النحو: 3/139- 140.
(3) العلوي، الطراز: 2/96.
(4) البخاري، الجامع المسند الصحيح، حديث رقم: (7288).

وجهُ الاتّصالِ بينَ الجُملِ:

اتِّحادُ الجملتين في تعيينِ السببِ والنَّتيجةِ في حكمٍ واحدٍ

إمَّا أنْ نحملَ الواوَ في قولِه تعالَى: ﴿وَمَن يَتَبَدَّلِ ٱلۡكُفۡرَ بِٱلۡإِيمَٰنِ فَقَدۡ ضَلَّ سَوَآءَ ٱلسَّبِيلِ﴾ على العطفِ أو الاستئنافِ، فمعنَاها على العطفِ: الاشتراكُ بينَ أسئلةِ التَّعنتِ واللّجاجةِ، وتبديلُ الكفرِ بالإيمانِ في حكمٍ واحدٍ، وهو ما يُعيِّن أنَّ الأسئلةَ في مضمونِها تقودُ إلى الكفرِ، وما قادَ إلى الكفرِ فهو كفرٌ؛ فهيَ لتأكيدِ النَّهيِ عن الاقتراحِ المفهوم من قولِه: ﴿أَمۡ تُرِيدُونَ﴾، فهيَ تذييلٌ له باعتبارِ أنَّ المُقترِحينَ الشَّاكّينَ من جملةِ الضَّالّينَ الطّريقَ المستقيمَ المتبدِّلين(1).

ومعناها على الاستئنافِ النّحويّ: إنشاءُ معنى جديدٍ؛ فإنّ تبديلَ الكفرِ بالإيمانِ مرتعُه وخيمٌ، وثمرتُه أن يتيهَ المرءُ الطَّريقَ الصَّحيحَ، وهذهِ حقيقةٌ مُستتبّةٌ؛ لذلكَ استأنفَ بها، وهي تصلحُ قاعدةً عامةً.

ومعنى العطفِ والاستئنافِ متدانيانِ، وإنْ كانَ من تقويةٍ فهي للعطفِ، إذْ به يظهرُ انسجامُ الكلامِ وائتلافُه؛ فهو يجعلُ مضمونَ الجملةِ شديدَ الارتباطِ بالسَّابقةِ، ويعيِّنُ السببَ والنتيجةَ بتنزيلِهما في منزلةِ الحكمِ الواحدِ، والاستئنافُ وإنْ كانَ قويًّا، إلَّا أنَّ حملَها على العطفِ أشدُّ قوَّةً، ذلكَ أنَّ العطفَ يحقِّقُ معنى الاستئنافِ وزيادةً، بخلافِ الاستئنافِ؛ فيقتصرُ على معنًى واحدٍ، وما تعدَّدتْ معانيهِ، مقدَّمٌ على ما انفردَ بأحدِها.

بلاغةُ الطِّباقِ:

بيانُ قبحِ الكفرِ في جانبِ جمالِ الإيمانِ

بينَ الكفرِ والإيمانِ في قولِه تعالى: ﴿وَمَن يَتَبَدَّلِ ٱلۡكُفۡرَ بِٱلۡإِيمَٰنِ﴾ طباقُ التضادِّ، فهما وإنْ كانَا على طرفيْ نقيضٍ، إلّا أنّ وجودَ أحدِهما بجانبِ الآخرِ في التركيبِ اللغويّ مما يخلعُ عليه نصاعةً بلاغيةً واضحةً، وبضدِّها تتبيَّنُ الأشياءُ، وفائدتُه تكمنُ في

(1) الآلوسي، روح المعاني: 1/355.

بيانِ قبحِ الكفرِ في جانبِ جمالِ الإيمانِ، وبيانُ شدَّة تعاسةِ الكافرِ وخسارتِه في إيثارِه الكفرَ على الإيمانِ.

معنى الباء في قوله ﴿بِٱلۡإِيمَٰنِ﴾:

تقاربُ معنيي البدلِ والمقابلةِ

تحتملُ الباءُ في قولِه تعالَى: ﴿وَمَن يَتَبَدَّلِ ٱلۡكُفۡرَ بِٱلۡإِيمَٰنِ﴾ معنيين؛ وهما: البدلُ والمقابلةُ، أمّا البدلُ فهو الذي يحسُنُ وضعُ لفظةِ (بدل) موضعَها؛ فالتقديرُ: (ومَن يتبدّلِ الكفرَ بدلَ الإيمانِ)، وأمّا المقابلةُ؛ وتسمّى العوضُ، فهيَ "الباءُ الداخلةُ على الأثمانِ والأعواضِ، نحو اشتريتُ الفرسَ بألفٍ"[1]، وقدْ جعلَ المفسرونَ معنَى التبدّلِ: الشِّراء، وهو ممّا يحسُنُ تفسيرُه هنا، والبدلُ والمقابلةُ معنيانِ متقاربانِ.

سرُّ التعبيرِ بـ: ﴿سَوَآءَ﴾:

التوبيخُ والتشنيعُ لمن يبيعُ إيمانَه، وهو في وسط الطريق

قولُه تعالى: ﴿سَوَآءَ ٱلسَّبِيلِ﴾ يحتملُ أنْ يكونَ مفعولاً به للضلالِ الصادرِ ممّن يتبدّلُ الكفرَ بالإيمانِ، ويحتملُ أن يكونَ مفعولاً فيه، أي: أنْ يكونَ ظرفًا منصوبًا، و"سواءَ ظرفٌ بمعنَى وسطِ السّبيلِ، وأعدلِه، والسّبيلُ يذكَّرُ ويؤنّثُ"[2] وقدْ أضيفَ إلى السبيلِ، وهو "الطريقُ الذي فيهِ سهولةٌ"[3] ولمّا كانَ هذا وصفَ الطريقِ، عُلِمَ أنّ في هذهِ الآيةِ توبيخًا لمَن صدرَ منه ذلكَ أشدّ التوبيخِ والتشنيعِ لمَن يبيعُ إيمانَه، ويخطئُ طريقًا واضحًا فيه تيسيرٌ، بلْ ويخطئُ وسطَ الطريقِ، وما كانَ منهُ سهلاً يسيرًا، فكيفَ بمَنْ كانتْ سبيلُه شاقّة عسيرةً غيرَ معبّدةٍ، وهو يسيرُ على أطرافِها وأحرفِها، يخافُ أنْ تتخطّفَه النُّوبُ والحادثاتُ.

---

(1) المراديّ، الجنى الداني، ص: 41.

(2) العُكبريّ، التبيان: 1/104.

(3) عضيمة، دراسات لأسلوب القرآن الكريم: 3/24.

﴿وَدَّ كَثِيرٌ مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ لَوْ يَرُدُّونَكُم مِّنۢ بَعْدِ إِيمَٰنِكُمْ كُفَّارًا حَسَدًا مِّنْ عِندِ أَنفُسِهِم مِّنۢ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ ٱلْحَقُّ ۖ فَٱعْفُوا۟ وَٱصْفَحُوا۟ حَتَّىٰ يَأْتِىَ ٱللَّهُ بِأَمْرِهِۦٓ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿١٠٩﴾﴾ [البقرة: 109]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِمَا قَبْلَها:

انتقلَ السِّياقُ من الحديثِ عن الظَّاهرِ القوليّ والفعليّ، إلى الباطنِ الحقيقيّ والعِلّيّ، فهو بيانٌ شارحٌ للتَّحذيرِ الواردِ في الآيةِ السَّابقةِ، وكشفٌ لحقائقِ النّفوسِ الخفيّةِ الدّسِّيَّةِ، وتوضيحٌ لحقيقةِ أسئلتِهم واقتراحاتِهم حولَ الرِّسالةِ، وتوضيحٌ لحقيقةِ أسئلتِهم واقتراحاتِهم حولَ الرِّسالةِ، وأنَّها قائمةٌ على وِدادِ ردَّة المؤمنينَ بعدَ إيمانهم؛ بسببِ حسدِهم المتمكّنِ في نفوسِهم، لا أنَّها قناعاتٌ حقيقيّةٌ، بدليل: ﴿مِّنۢ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ ٱلْحَقُّ ۖ﴾؛ فالآيةُ توضيحٌ وتبيينٌ وتعليلٌ لما سبقَ ذكرُه؛ لتمكينِ المؤمنينَ من الوقوفِ على حقائقِ الأشياءِ، وبواطنِ الأفعالِ؛ فيزدادُوا حذرًا ومُكنةً في مواجهةِ الباطلِ.

قال ابنُ عاشور في بيان وجه المناسبة: "مُناسَبَتُهُ لِما قَبْلَهُ أنَّ ما تَقَدَّمَ إخْبارٌ عَنْ حَسَدِ أهْلِ الكِتابِ وخاصَّةً اليَهُودَ مِنهم، وآخِرَتُها شُبْهَةُ النَّسْخِ، فَجِيءَ في هَذِهِ الآيَةِ بِتَصْرِيحِ بِمَفْهُومِ قَوْلِهِ ﴿مَّا يَوَدُّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ﴾ الآيَةَ؛ لِأنَّهم إذا لَمْ يَوَدُّوا مَجِيءَ هَذا الدِّينِ الَّذِي اتَّبَعَهُ المُسْلِمُونَ فَهُم يَوَدُّونَ بَقاءَ مَن أسْلَمَ عَلى كُفْرِهِ ويَوَدُّونَ أنْ يَرْجِعَ بَعْدَ إسْلامِهِ إلى الكُفْرِ، وقَدِ اسْتَطْرَدَ بَيْنَهُ وبَيْنَ الآيَةِ السّابِقَةِ بِقَوْلِهِ "ما نَنْسَخْ" الآياتِ لِلْوُجُوهِ المُتَقَدِّمَةِ؛ فَلِأجْلِ ذَلِكَ فُصِلَتْ هاتِهِ الجُمْلَةُ لِكَوْنِها مِنَ الجُمْلَةِ الَّتِي قَبْلَها بِمَنزِلَةِ البَيانِ إذْ هي بَيانٌ لِمَنطُوقِها ولِمَفْهُومِها"[1].

شَرْحُ المُفْرَدَاتِ:

1) ﴿وَدَّ﴾: فعلٌ ماضٍ مضعّفٌ ثلاثيّ، جذرُه (ودد)، والأصلُ فيها أنّها "كلمةٌ تدلّ على

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 1/669.

محبةٍ، وددتُه: أحببتُه، ووددتُ أنّ ذاكَ كانَ، إذا تمنّيتَه، أودّ فيهما جميعًا، وفي المحبّةِ الودّ، وفي التمني الودادةُ"[1].

ويفهمُ من ذلكَ أنّ له معنيينِ؛ الحبَّ والتّمنّي "، ويستعملُ في كلّ واحدٍ من المعنيينِ، على أنَّ التّمنّي يتضمّنُ معنى الودّ، لأنّ التّمنّي هو تشهّي حصولِ ما تَوَدُّهُ"[2].

"الوُدُّ والوِدَادُ: الحُبُّ والصَّدَاقة، ثمَّ استُعِير للتَّمَنِّي، وقالَ ابنُ سِيدَه: الوُدُّ: الحُبُّ يكون في جَمِيعِ مَدَاخِل الخَيْرِ"[3]، والمراد في الآية: "تَمَنَّى وَأَرَادَ كَثِيرٌ مِنْ أَهْلِ الكِتَابِ مِنَ اليَهُودِ"[4].

2) ﴿كَثِيرٌ﴾: اسمٌ على وزنِ (فَعِيل)، والجذرُ اللغويّ فيه (كثر)، والفعلُ منه كثرَ يكثرُ، وأصلُ معنَى الكثرةِ في لغةِ العربِ خلافُ القِلّةِ[5]، ومنه التّكاثر، وهو "المغالبةُ في الكثرةِ من الأشياءِ الدّنيويةِ كما تتغالبُ الجاهليةُ بكثرةِ أموالِها وأثاثِها"[6]، والمعنى في الآيةِ واضحٌ بيّنٌ في وصفهِم بالكثرةِ؛ فإنّ أكثرَ أهلِ الكتابِ لا يودّونَ الخيرَ للمسلمينَ.

3) ﴿أَهْلِ﴾: اسمٌ ثلاثيّ مجردٌ، جذرُه اللغويّ (أهل)، وهو اسمُ جمعٍ لا واحدَ لهُ من لفظِه بلْ من معناهُ، كرجلٍ وامرأةٍ، والهَمْزَةُ وَالهَاءُ وَاللَّامُ أَصْلَانِ مُتَبَاعِدَانِ، أَحَدُهُمَا الأَهْلُ، والآخر: الإهالة، وهي: الأَلْيَةُ وَنَحْوُهَا، ومن الأول: "أهلُ الرجلِ أخصُّ الناسِ به، وأهلُ البيتِ: سكانُه، وأهلُ الإسلامِ: من يدينُ بهِ"[7] وأهلُ الرجلِ "مَن يجمعُه وإياهُم نسبٌ أو دينٌ، أو ما يجري مجراهُما من صناعةٍ وبيتٍ وبلدٍ"[8]، ويتحدّد معنى أهل أنّها بحسبِ ما تضافُ إليهَا، وبحسبِ العلاقةِ، ومنهُ أهلُ الكتابِ، وهم المنتمونَ إلى الكتابِ المؤمنونَ بهِ[9].

---

(1) ابن فارس، مقاييس اللغة: (ودد).
(2) الراغب، المفردات: (ودد).
(3) الزبيدي، تاج العروس: (ودد).
(4) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 1/136.
(5) ابن دريد، جمهرة اللغة: (كثر).
(6) السمين الحلبي، عمدة الحفّاظ: (كثر).
(7) ابن فارس، مقاييس اللغة: (أهل).
(8) الراغب، المفردات: (أهل).
(9) المعجم الاشتقاقي المؤصل: (أهل).

4) ﴿ٱلۡكِتَٰبِ﴾: اسمٌ على وزنِ (فِعَال) أحدُ أوزانِ المصادرِ، جذرُه الكافُ والتاءُ والباءُ، والأصلُ في ذلكَ ضمُّ الشيءِ إلى الشيءِ[1].

ويطلقُ الكتابُ على الخطِّ والكتابةِ، كما قالَ اللّهُ تعالى عن عيسَى عليه السلام: ﴿وَإِذۡ عَلَّمۡتُكَ ٱلۡكِتَٰبَ وَٱلۡحِكۡمَةَ﴾ [المائدة: 110]، وقدْ يقالُ الكتابُ ويرادُ به المكتوبُ، من إطلاقِ المصدرِ وإرادةِ اسمِ المفعولِ، مثلُ الفِراشِ، ويرادُ به المفروشُ، والغِراسُ ويرادُ به المغروسُ، فالكتابُ هو الصحيفةُ التي كُتبَ فيها[2]، أمّا المقصودُ من الكتابِ في الآيةِ؛ فحيثُما "ذكرَ اللّهُ تعالَى أهلَ الكتابِ فإنّمَا أرادَ بالكتابِ التّوراةَ والإنجيلَ، أو إيّاهُما جميعًا"[3].

ويأتِي ﴿ٱلۡكِتَٰبِ﴾ في القرآنِ الكريمِ على أحدَ عشرَ وجهاً[4]، والمرادُ به هُنا التوراةُ والإنجيلُ.

5) ﴿يَرُدُّونَكُم﴾: فعلٌ مضارعٌ من الأفعالِ الخمسةِ (يردّونَ)، ماضيه المجردُ (ردّ) مضعفُ الثلاثيّ، وجذرُه اللغويّ (ردد)، والأصلُ في معناهُ دلالتُه على "رجعِ الشَّيءِ، تقولُ ردَدْتُ الشَّيءَ أَردّهُ ردًّا، وسمّيَ المرتدُّ؛ لأَنَّهُ ردَّ نفسهُ إلى كفرِه"[5]، و"الرَّدُّ صرفُ الشيءِ بذاتِه، أو بحالةٍ من أحوالِه، يقالُ: رَدَدْتُهُ فَارْتَدَّ"[6].

ومعنَى اللفظةِ في الآيةِ "أيْ يُرْجعونَكم ويصيّرونَكم إلى حَالَةِ الكُفرِ بَعْدَ أنْ فارقْتموهُ، والارْتدادُ والرِّدَّةُ: الرُّجوعُ في الطريقِ الذي كانَ فِيه، إلَّا أنَّ الرِّدَّةَ اخْتصَّتْ بِالكفْرِ"[7].

والفعلُ ﴿يَرُدُّونَكُم﴾ في الآيةِ يشيرُ إلى "أنّ ودادتَهمْ أنْ يرجعَ المسلمونَ إلى الشِّركِ؛ لأنَّ الرّدَّ إنَّما يكونُ إلى أمرٍ سابقٍ"[8] والمعنَى عودةٌ للحالةِ التي كانُوا عليهَا.

6) ﴿كُفَّارًا﴾: جمعُ تكسيرٍ زنةُ (فعّال)، مفردُه كافرٌ، وهو مشتقٌّ من الكفرِ، وجذرُه اللغويّ (كفر) ولهُ أصلٌ واحدٌ "يدلّ على معنًى واحدٍ، وهو السترُ والتغطيةُ، يُقالُ لمَنْ غطّى درعَهُ بثوبٍ: قدْ كفرَ درعَهُ"[9] ومعناهُ "ووصفُ اللّيلِ بالكافرِ

(1) ابن دريد، جمهرة اللغة: (كتب).
(2) الهورينيّ، المَطَالِعُ النَّصرية: ص: 41.
(3) الراغب، المفردات: (كتب).
(4) ابن الجوزي، نزهة الأعين النواظر: ص: 526-527.
(5) ابن فارس، مقاييس اللغة: (ردد).
(6) الراغب، المفردات: (ردد).
(7) السمين، عمدة الحفّاظ: (ردد).
(8) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 1/670.
(9) ابن فارس، مقاييس اللغة: (كفر).

لسترِه الأشخاصَ والزّرّاعِ لسترِه البذرَ في الأرضِ"[1] ومعنَى الكفرِ في الآيةِ "جُحُودُ الوحدانيّةِ أو الشّريعةِ أو النّبوّةِ"[2]؛ لأنَّ الكافرَ غطّى على الحقِّ والدِّينِ وسترَ عليهِ[3].

7) ﴿حَسَدًا﴾: مصدرُ حسدَ يحسُدُ، وجذرهُ اللغويّ (حسد)[4]، وجاءَ في معناهُ المحوريّ أنّهُ "شعورٌ حادٌّ يحتبسُ في جوفِ الحاسدِ فيكرَهُ وُجُودَ النّعمةِ عندَ المحسودِ إنْ كانتْ موجودةً، وصيرورتَها إليهِ إنْ لم تكنْ"[5].

ومعنى الحسدِ "أنْ تتمنَّى زوالَ نعمةِ المحسودِ إليكَ"[6]، وهذا المعنَى هو المرادُ في الآيةِ، وزادَ الراغبُ في معناهَا العامّ أنْ يسعَى الحاسدُ في إزالةِ تلكَ النّعمةِ[7] وذلكَ ليسَ بغريبٍ على اليهودِ والنصارَى.

8) ﴿أَنفُسِهِم﴾: جمعُ قلّةٍ على وزنِ (أَفْعُل) المفردُ منهُ (نَفَس) وأصلهُ من (نفس) وهو "يدلُّ على خروجِ النَّسيمِ كيفَ كانَ، منْ ريحٍ أَوْ غيرهَا ... والنّفسُ الدَّمُ، ... وذلكَ أَنَّهُ إذا فُقدَ الدَّمُ منْ بدنِ الإنسانِ فُقدَ نفسُهُ"[8].

وهو شيءٌ "لطيفٌ يسري في فُتُوق أثناء الشيءِ فيصلحُه ويتيحُ لهُ التصرفَ، كالنّفَسِ في أثناءِ بدنِ الحيِّ فهو علامةُ حياتِه التي تتيحُ لهُ التصرفَ"[9].

ومعنَى ذلكَ أنّ النَّفْسَ يعبّرُ بها عن الإنسانِ، وهو تعبيرٌ مجازيٌّ وَفقًا لمَا سبقَ، وهو هنَا كذلكَ في هذهِ الآيةِ؛ فالأنفسُ هم المخاطبونَ بهذهِ الآيةِ، وقدْ يكونُ معناهَا الرُّوحُ[10]، وهو صحيحٌ فكلّه يُستدَلُّ بهِ على الإنسانِ.

9) ﴿تَبَيَّنَ﴾: فعلٌ ماضٍ مزيدٌ وزنُه (تفعّلَ) منْ تبيّنَ يتبيّنَ تبييناً، وجذرُه اللغويّ (بين)

---

(1) الرّاغب، المفردات: (كفر).
(2) الرّاغب، المفردات: (كفر).
(3) السمين، عمدة الحفّاظ: (كفر).
(4) ابن فارس، مقاييس اللغة: (حسد).
(5) جبل، المعجم الاشتقاقي المؤصل: (حسد).
(6) الجوهري، الصحاح: (حسد).
(7) الراغب، المفردات: (حسد).
(8) ابن فارس، مقاييس اللغة: (نفس).
(9) جبل، المعجم الاشتقاقي المؤصل: (نفس).
(10) الجوهري، الصحاح: (نفس).

ومعناهُ التّوضيحُ، و(الباءُ والياءُ والنّونُ) لهُ أصلٌ في لُغةِ العربِ، بمعنَى البُعدِ والانكشافِ والظُّهورِ، "وبانَ الشَّيءُ وأَبانَ، إذا اتَّضحَ وانْكشفَ، وفُلانٌ أَبْيَنُ من فُلانٍ، أَي أوضحُ كلامًا منْهُ"[1]، ومنهُ البَيِّنَة وهي "الدلالةُ الواضحةُ عقليةً كانتْ أو محسوسةً"[2]، "ويقالُ تبينتُ الحقَّ واستبنتهُ أي استوضحتهُ فاتّضحَ"[3] وتبيّنَ الحقُّ في الآيةِ؛ أيْ: توضّحَ وظهرَ.

10) ﴿ٱلْحَقُّ﴾ اسمٌ ثلاثيٌّ، جذرهُ اللغويّ (حقق)، وأصلُ معناهُ "يدلُّ على إحكامِ الشَّيءِ وصحَّتِه، فالحقُّ نقيضُ الباطلِ، ثمَّ يرجعُ كلّ فرعٍ إليهِ بجودةِ الاستخراجِ وحسنِ التّلفيقِ، ويقالُ حقَّ الشَّيءُ: وَجَبَ"[4].

و"الحقُّ في الأصلِ: الثّبوتُ، والشّيءُ الثابتُ، يقالُ: حقَّ الأمرُ يحقُّ حقًّا، فهو حقّ: أيْ ثبتَ واستقرَّ"[5] والحقُّ في الآيةِ: الدِّينُ، وما أنزلَ اللّهُ لعبادِه عن طريقِ أنبيائِه ورسلِه.

ويفسّرُ أيضًا "بالصَّحيحِ الصَّوابِ؛ أيْ: ضدّ الباطلِ الزائفِ"[6] إذا جاءَ في سياقاتِ الدِّينِ وإنزالِ القرآنِ.

11) ﴿فَٱعْفُواْ﴾: فعلُ أمرٍ مضارعُه (يعفُو) مصدرُه (العفو)، وهو جذرُه اللغويّ أيضًا، والعينُ والفاءُ والحرفُ المعتلُّ لهُ أصلٌ يدلّ على تركِ الشَّيءِ، فـ"عفوُ اللّهِ تعالى عنْ خلقهِ، وذلكَ تركه إيّاهُم فلا يعاقبُهمْ، فضلًا منهُ"[7].

و"العَفوُ عن الذنوبِ: عَدَمُ المؤاخذةِ عليها، وكأنّ مَن عفَا غطّاهَا، أو أعرضَ عنهَا فلمْ ينظرْ إليهَا"[8]؛ لأنّ الأصلَ في العفوِ التَّغطيةُ، والعفوُ الواردُ في الآيةِ هو التجاوزُ عمّا ارتكبَه الإنسانُ من ذنبٍ[9].

(1) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (بين).
(2) الراغب، المفردات: (بين).
(3) السمين الحلبي، عمدة الحفّاظ: (بين).
(4) ابن فارس، مقاييس اللغة: (حقق).
(5) السمين، عمدة الحفّاظ: (حقق).
(6) جبل، المعجم الاشتقاقي المؤصل: (حقق).
(7) ابن فارس، مقاييس اللغة: (عفو).
(8) جبل، المعجم الاشتقاقي المؤصل: (عفو).
(9) السمين، عمدة الحفّاظ: (عفو).

12) ﴿وَٱصۡفَحُواْ﴾: فعلُ أمرٍ موجّهٌ لجماعةِ الحضورِ، جذرُه اللغويّ من (صفح) والاسمُ منهُ الصَّفْحُ، وأصلُ معناهُ العَرْضُ وهو صفحُ الشيءِ[1].

وهو أيضًا "الجَنْبُ من كلِّ شيءٍ، وصَفْحا السَّيْفِ وَجْهاهُ"[2] "وأصلُ الصَّفحِ أنْ تنحرفَ عن الشيءِ فتوليهِ صفحةَ وَجهِك، أَيْ: نَاحيَةَ وجهِك"[3].

وهذا هوَ المرادُ في الآيةِ؛ فإنّهُ عطف هذا الفعل على فعلِ العفوِ، وهو تركُ العقوبةِ، أمّا الصَّفحُ فمعناهُ أعرضُوا عن المذنبِ بصفحةِ الوجهِ كأنّهُ قدْ وَلّاهُ صفحتَه، وصُفْحُه -بالضمِّ- أيْ: عرضُه وجانبُه"[4].

13) ﴿بِأَمۡرِهِۦٓ﴾: اسمٌ ثلاثيٌّ مجردٌ، جذرهُ اللغويّ من (أمر)، أمرَ يأمرُ أمرًا، ولهُ عدّةُ معانٍ، منها "الواحدُ منَ الأُمورِ فقولُهمْ: هذا أَمرٌ رضيتهُ، و: أَمرٌ لا أَرضاهُ، وفي المَثَلِ: أَمرٌ ما أَتَى بكَ"[5] وكذلكَ فإنّ "الأَمْرَ نقيضُ النَّهي"[6].

و"الأَمْرُ: الشأنُ، وجمعُه أُمُورٌ، ومصدرُ أَمَرْتُهُ: إذَا كلّفتَه أنْ يفعلَ شيئًا، وهو لفظٌ عامٌّ للأفعالِ والأقوالِ كلِّها"[7]، وفي الآيةِ: ﴿حَتَّىٰ يَأۡتِيَ ٱللَّهُ بِأَمۡرِهِۦٓ﴾، "أيْ: حتّى يجيءَ ما فيهِ شفاءُ غليلكُم"[8] من إجلاءٍ أو قتلٍ أو جزيةٍ.

المَعْنَى الإِجْمَالِيُّ:

تعرضُ الآيةُ للعلَّةِ الحقيقيّةِ التي تحرِّكُ أهلَ الكتابِ في زرعِ الفتنِ والشِّقاقِ بينَ المؤمنينَ، بمَا تُثيرُه من شبهاتٍ فكريّةٍ، ومطاعنَ فاسدةٍ، وهو الحسدُ المتمكّنُ من نفوسِهم، الجاثمُ فوقَ قلوبِهم، لمَا نالَه المؤمنونُ من الإيمانِ، الذي يُؤَهِّلُهم لاكتسابِ الصَّدارةِ بينَ الأممِ، في كونِهم أصحابَ الشريعةِ الحقَّةِ، والقبولِ الثَّابتِ، وتضعُ الآيةُ أركانَ المعالجةِ بالعفوِ والصَّفحِ، وتركَ الأمرِ للهِ وحدَه، فهو على كلِّ شيءٍ قديرٌ، بمعاقبةِ مَن يُعادي دينَه، ويقتحمُ أسوارَ غيرِه.

(1) ابن فارس، مقاييس اللغة: (صفح).
(2) الخليل، العين: (صفح).
(3) السجستاني، نزهة القلوب، ص: 111.
(4) جبل، المعجم الاشتقاقي المؤصل: (صفح).
(5) ابن فارس، مقاييس اللغة: (أمر).
(6) الخليل، العين: (أمر).
(7) الراغب، المفردات: (أمر).
(8) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 1/671.

❁ الإيضاحُ اللُّغويُّ والبلاغيُّ:

فائدةُ التعبيرِ بـ ﴿كَثِيرٌ﴾:

استنباطُ القيم الهدائيَّةِ، وبيانُ عدالةِ القرآنِ المطلقةِ في التَّعاملِ مع الآخرِ

عبَّرتِ الآيةُ بـ﴿كَثِيرٌ﴾؛ لبيانِ أنَّ الوَدَّ صدرَ عن كثيرٍ من أهلِ الكتابِ لا عن جميعِهم ولا عن أكثرِهم، ومعنَى ﴿كَثِيرٌ﴾ أنَّهم ليسُوا بالعددِ القليلِ، بلْ هم كثيرٌ، وفي الوقتِ نفسِه ليسُوا الأكثرَ، وهذا يُترجِمُ دقَّةَ القرآنِ في بيانِه لواقعِ النَّاسِ، وهذا من العدالةِ المطلقةِ في التَّعاملِ مع الآخرِ قلَّ نظيرُها في المذاهبِ والمللِ والأديانِ؛ فودادُ كفرِ المؤمنينَ ليسَ عندَ جميعِ اليهودِ بلْ في كثيرٍ منهُم، وهيَ إشارةٌ قرآنيَّة إلى أنَّ بعضَ اليهودِ ممَّا "يُرجَى إيمانُه، ويسيرُ في طريقِ الإيمانِ"[1]، فهي قيمةٌ هدائيَّةٌ مستنبطةٌ من صيغةٍ لغويَّةٍ.

معنى التَّعريفِ في الكتابِ:

الألفُ واللامُ في ﴿ٱلۡكِتَٰبِ﴾ عهديّةٌ، والقصدُ من ﴿ٱلۡكِتَٰبِ﴾ التوراةُ والإنجيلُ، وعلى ذلكَ فأهلُ الكتابِ هنَا هم اليهودُ والنصارَى، والمعنَى أنّ كثيرًا من اليهودِ وغيرِهم يتمنّونَ كذا وكذا، ومن رجَّح أنَّهم اليهودُ؛ فالمقصودُ بالكتابِ هنَا التوراةُ[2]، والصَّحيحُ أنَّ الكتابَ عامٌّ في الكتبِ السَّابقةِ، وهذا السُّلوكُ وإنْ كانَ في اليهودِ أوضحَ، إلّا أنَّ النَّصارَى لا براءةَ لهم منهُ.

سِرُّ التَّعبيرِ بكلمة ﴿يَرُدُّونَكُم﴾:

الكشفُ عن بواطنِ النُّفوسِ، توطئةً لبيانِ الحسدِ

آثرتِ الآيةُ الكريمةُ استعمالَ مفردةِ الردِّ؛ للإشارةِ إلى أنّ رغبةَ أهلِ الكتابِ أنْ يحصلَ للمؤمنينَ رجعةٌ بعدَ تقدّمٍ، وانتكاسةٌ بعدَ استقامةٍ[3]؛ ففيهِ توبيخٌ وتقريعٌ لمَنْ يطاوِعُ أهلَ الكتابِ، وهو أشدُّ من التعبيرِ بـ(كفرتُم) لأنّه لوْ "قيلَ لوْ كفرتمْ لكانَ فيهِ بعضُ العذرِ

(1) أبو زهرة، زهرة التفاسير: 1/360.
(2) ابن عطية، المحرر الوجيز: 1/196.
(3) أبو زهرة، زهرة التفاسير: 1/360.

لأهلِ الكتابِ؛ لاحتمالهِ أنّهمْ يودّونَ مصيرَ المسلمينَ إلى اليهوديّةِ"[1] فأهلُ الكتابِ يودُّونَ عودةَ المؤمنينَ إلى الوثنيَّةِ، والوثنيَّةُ عندَهم شرٌّ محضٌ، فالتَّعبيرُ بالودِّ توطئةٌ لبيانِ الحسدِ.

بلاغةُ اختيارِ الصِّيَغِ:

أثــرُ اخــتــيــارِ الصّيغةِ في بيانِ معاني السياقِ

لفظةُ ﴿كُفَّارًا﴾ على وزنِ (فُعّال)، من صيغِ جموعِ التكسيرِ الدالِّ على الكثرةِ، واختيارُ هذه الصِّيغةِ لبيانِ قصدِ أهلِ الكتابِ في أنّهم يتمنّونَ "أنْ يصرفوكُم عن توحيدِ اللّه، والإيمانِ بمحمّدٍ ﷺ، ويرجعوكُم كُفّارًا كمَا كنتُم، حسدًا لكُم"[2]، ويتمنّونَ ردّكُم جميعًا إلى ما كنتُم عليهِ من الضلالِ؛ بدلالةِ إضافةِ المفعولِ الأولِ الكافِ إلى ميمِ الجمعِ، وبدلالةِ مجيءِ المفعولِ الثاني على صيغةِ جمعِ التكسيرِ الدالِّ على جمعِ الكثرةِ؛ لأنَّ التعبيرَ بجمعِ الكثرةِ مناسبٌ لتمنّيهم ردَّ جميعِ المؤمنينَ ﴿كُفَّارًا﴾.

بلاغةُ مجيءِ حرفِ ابتداءِ الغايةِ:

تصويرُ نوعيَّةِ الحسدِ وعمقِه في نفوسِ أهلِ الكتابِ

دلَّ حرفُ ﴿مِّنۢ﴾ على ابتداءِ الغايةِ في قولهِ تعالَى: ﴿مِّنۢ بَعۡدِ إِيمَٰنِكُمۡ﴾، ولوْ قيلَ "يردونَكم بعدَ إيمانِكم"؛ لصحَّ في البيانِ، لكنَّها لا تؤدِّي المعنَى الذي يُريدُ تصويرَه النَّظمُ الجليلُ، فإنَّ نفوسَ أهلِ الكتابِ تودُّ أنْ يرجعَ المؤمنونَ كفارًا إلى ساعةِ الصفرِ، أي: أنْ يرجعُوا كفَّارًا كمَا كانُوا، بحيثُ لا يبقَى معهُم أيُّ مزيَّةٍ اكتسبُوها في الإسلامِ، وهو يصوِّرُ حجمَ الحسدِ، وعُمقَه في نفوسِ أهلِ الكتابِ؛ لعلمِهم بأنَّ حياةَ العربِ في دائرةِ الإسلامِ قدْ نقلتْهم نقلةً نوعيَّةً تفوَّقوا بها عليهِم، فالعربُ قبلَ الإسلامِ ليسُوا هم قبلَه، وأهلُ الكتابِ يريدونَ عودةَ العربِ إلى كفرِهم ليرجعوا إلى ما كانوا عليه من الضَّعفِ والهوانِ.

---

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 1/670.

(2) المراغيّ، تفسير المراغيّ: 1/190.

الرَّاجحُ في معاني الأدواتِ ما كانَ موافقًا لروحِ البلاغةِ، ومُصوِّرًا دقَّةَ المعنى

الاحتمالُ الدّلاليّ بينَ معاني الأدواتِ:

تحتملُ أداةُ ﴿لَوۡ﴾ في قولِه تعالَى: ﴿وَدَّ كَثِيرٞ مِّنۡ أَهۡلِ ٱلۡكِتَٰبِ لَوۡ يَرُدُّونَكُم﴾، الشَّرطيةَ والمصدريَّةَ.

أمَّا الشَّرطيَّةُ فهي تستلزمُ جوابًا، وقدْ قدَّرَ المفسِّرونَ "جوابَها محذوفاً تقديرُه: لو يَرُدُّونَكم كفاراً لَسُرُّوا، أو فرحُوا بذلكَ"[1].

وأمَّا المصدريّةُ فهيَ تتمحّضُ في ودادِ أهلِ الكتابِ ردَّ المؤمنينَ عن دينِهم، فودُّهم متمحِّضٌ لارتدادِ المؤمنينَ؛ فكأنَّهم لا يودُّونَ شيئًا سواهُ، بخلافِ الشّرطيَّةِ، ففيهَا تكرارٌ ضمنيٌّ، كأنّه قيلَ: ودَّ أهلُ الكتابِ لوْ تُردُّون ليفرحُوا، أي: ودّوا ليودّوا، فإنَّ الودَّ من معانيهِ الفرحُ والمسرّةُ، فمعنَى المصدريةِ أعرقُ في ميزانِ البلاغةِ والفصاحةِ، وهو ما يوافقُ بلاغةَ القرآنِ.

قوَّةُ المعنَى البلاغيّ معيارُ الترجيحِ بينَ الأقوالِ النحويّةِ

الإعرابُ فرعُ المعنَى:

اختلفَ المفسِّرونَ في بيانِ دقَّةِ معنَى الحسدِ في قولِه تعالَى: ﴿حَسَدٗا مِّنۡ عِندِ أَنفُسِهِم مِّنۢ بَعۡدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ ٱلۡحَقُّۖ﴾، وبناءً عليهِ اختلفَ المُعْربونَ في إعرابِ ﴿حَسَدٗا﴾ على عدَّة أوجهٍ إعرابيَّةٍ؛ كالآتي:

1- أنْ تكونَ مفعولًا لأجلِه، والعاملُ فيهِ ﴿وَدَّ﴾ أوْ ﴿يَرُدُّونَكُم﴾[2]؛ فالحسدُ علّةُ رغبةِ أهلِ الكتابِ الذينَ يودّونَ أنْ تعودُوا للإشراكِ والكفرِ بعدَ أنْ اهتديتُم، والمقصدُ "أنّهُ تعالَى بيَّنَ أَنَّ حبَّهمَ لأنْ يرجعُوا عنِ الإيمانِ، إنَّما كانَ لأجلِ الحسدِ"[3].

2- أنْ تكونَ مصدرًا منصوبًا[4]، أي: مفعولاً مطلقًا، وهو على هذا التخريجِ يكونُ نائبًا عن المفعولِ المطلقِ، عند مَن يشترطُ

(1) السمين، الدرّ المصون: 2/66.
(2) العُكبري، التبيان: 1/104.
(3) الرازيّ، مفاتيح الغيب: 3/264.
(4) أبو حيان، البحر المحيط: 1/558.

أنْ يكونَ المفعولُ المطلقُ مصدرًا للفعلِ العاملِ فيهِ، وقدْ جعل بعضُ المفسرينَ العاملَ فيهِ محذوفًا على تقديرِ "يحسدونَكم حسدًا"[1].

3- أنْ تكونَ حالاً، على تقدير: حاسدينَ[2]، وهو ضعيفٌ؛ لأنَّ القياسَ في الحالِ ألّا يكونَ مصدرًا؛ لدلالةِ المصدرِ على الثَّباتِ، بخلافِ الحالِ الدّالّةِ على الهيئةِ المنتقلةِ غيرِ الثابتةِ، وهذا الإعرابُ يعنِي أنّ الحسدَ غيرُ متأصلٍ في اليهودَ، وهذا خلافُ الواقعِ، وخلافُ ما أشارتْ إليهِ الآيةُ في سياقِها ﴿مِّنْ عِندِ أَنفُسِهِم﴾ أيْ: أنّه متأصّلٌ في أنفسِهم.

وإعرابُ ﴿حَسَدًا﴾ مفعولاً لأجلِه أقوَى دلالةً وسياقًا، فودُّ أهلِ الكتابِ لوْ يردّونَ المؤمنينَ عن دينِهم هوَ لأجلِ الحسدِ المتأصّلِ في نفوسِهم، وهذا لا يظهرُ في الإعرابينِ الآخرينِ، معَ جوازِهما صناعةً.

سِرُّ التَّعبيرِ بالحسدِ دونَ مرادفاتِه:

الإيجازُ في بيانِ المعاني بلفظٍ واحدٍ جامعٍ

جاءَ التَّعبيرُ بمفردةِ الحسدِ، دونَ الكراهيةِ أو البغضاءِ أو الغلِّ؛ لبيانِ خلّةٍ نفسيَّةٍ قبيحةٍ طالَما حذَّرَ منهَا القرآنُ؛ وذلكَ أنّ الحسدَ هوَ اللفظُ الجامعُ لهذهِ المعاني، فإنّ الكارهَ الـمُبغضَ يؤدِي به كرهُه وبغضُه إلى حسدِ المكروهِ؛ فالحسدُ لفظٌ جامعٌ لجميعِ هذهِ المعاني، فلمَّا ذكرَ الحسدَ تضمّنَ هذه المعاني، وهي من دلالةِ اللزومِ، وهو من إيجازِ اللفظِ وتكثيرِ المعنَى.

التعبيرُ بِـ﴿مِن﴾ لابتداءِ الغايةِ:

تصويرُ نفوسِهم بأنَّها كالآبارِ العميقةِ المليئةِ بالحسدِ والكراهيةِ

معنَى ﴿مِن﴾ في قولِه تعالَى: ﴿مِّنْ عِندِ أَنفُسِهِم﴾ لابتداءِ الغايةِ، وجيءَ بهَا "للإشارةِ إلى تأصّلِ هذا الحسدِ فيهم، وصدورِه عنْ نفوسِهمْ"[3] فالحرفُ جاءَ ليصوِّرَ نفوسَهم بأنّها كالآبارِ العميقةِ

(1) الواحديّ، الوسيط: 1/191، والبغويّ، تفسير البغويّ: 1/136، وأبو حيّان، البحر المحيط: 1/558.
(2) أبو حيان، البحر المحيط: 1/558.
(3) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 1/670.

المليئةِ بالحسدِ والكراهيةِ؛ فكأنَّه قالَ: الحسدُ مُستخرَجٌ ابتداءً من عندِ أنفسِهم.

فائدةُ إضافةِ ﴿عِندِ﴾ إلى النفوسِ:

حصرُ أصلِ الحسدِ في نفوسِ أهلِ الكتابِ، احتراسًا أن يُظنَّ بشرائعِ الرُّسلِ السوءُ

الظرفُ ﴿عِندِ﴾ مضافٌ إلى ﴿أَنفُسِهِم﴾، وهم أهلُ الكتابِ، وفي هذا التعبيرِ تشنيعٌ عليهم، وذمٌّ لهم، والمعنَى "أنّهم ودّوا ذلكَ للمؤمنينَ، من عندِ أنفسِهم، إعلامًا منه لهم بأنّهم لمْ يؤمرُوا بذلكَ في كتابِهم"[1] ومعنَى ذلكَ أنّهم يفترونَه افتراءً "متبالغًا منبعثًا من أصلِ أنفسِهم"[2]؛ لذلكَ عبّرَ عنهُ بالعنديَّةِ الدّالّةِ على الاستقرارِ والتمكّنِ منهم؛ لأنَّ الحسدَ يبدأُ من بابِها المعبَّرِ عنه بعندَ، فهو ظرفٌ يبينُ هذهِ النفوسَ، وأنّ لها شأنًا في اكتنازِ الحسدِ، وأنَّهُ صادرٌ عن نفوسِهم المريضةِ، لا عن شريعتِهم وكتابِهم، احتراسًا أنْ يُظنَّ بشرائعِ دينِ اللّهِ التي أنزلهَا على رسلِه سوى ذلكَ.

أثرُ السِّياقِ في بيانِ المتعلّقاتِ:

تعلُّقُ الجارِّ والمجرورِ بالودادِ أو الحسدِ للتَّجانسِ في الأصلِ النَّفسيِّ

يجوزُ تعلُّقُ الجارِّ والمجرورِ ﴿مِّنْ عِندِ أَنفُسِهِم﴾ بالودِّ أو الحسدِ؛ لأنّهما حالتانِ نفسيّتانِ مجانستانِ لقولِه: ﴿مِّنْ عِندِ أَنفُسِهِم﴾، ولمّا كانتِ الحالتانِ الأوّلَيانِ نفسيَّتينِ؛ فإنّ ذكرَه ﴿مِّنْ عِندِ أَنفُسِهِم﴾ ما هوَ إلاّ توكيدٌ لتلكَ الحالتينِ، "إذِ الحسدُ لا يكونُ إلَّا من قِبلِ النَّفسِ"[3]، وهو نوعٌ من التوكيدِ الأسلوبيّ، بأن يؤكّدَ مضمونَ ما قبلَه.

فائدةُ دخولِ حرفِ الابتداءِ على الظَّرفِ:

أثرُ النظمِ في الكشفِ عن سرعةِ تمنّي أهلِ الكتابِ ردَّةَ المؤمنينَ

أفادَ دخولُ حرفِ ﴿مِن﴾ على الظرفِ ﴿بَعْدِ﴾ في قولِه تعالَى: ﴿مِّنۢ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ ٱلْحَقُّ﴾ السُّرعةَ وتقاصرَ الزمنِ في الفعلِ المرادِ المتعلّقِ لأدنَى مدَّةٍ وهو ﴿وَدَّ﴾ أو ﴿يَرُدُّونَكُم﴾، أي: بمجرَّدِ تبيُّنِ

(1) ابن جرير، جامع البيان: 2/501.
(2) الزمخشريّ، الكشّاف: 1/310.
(3) زكريا الأنصاريّ، فتح الرحمن: ص: 37.

الحقّ، ولو قالَ: "بعدَ ما تبيّنَ"؛ لـمَا أفادَ ذلكَ؛ فإنّ المعنَى أنّ فعلَهم واقعٌ بقطعِ النَّظرِ بعدَ مدّةٍ متمادّةٍ من الزمنِ قدْ تطولُ وقدْ تقصرُ، أي: أنّ فعلَهم في تمنّي ما يريدونَ، أو ردّهم المؤمنينَ إلى الشركِ قدْ يحصلُ بعدَ مدّةٍ طويلةٍ أو قصيرةٍ، أمّا قولُه: ﴿مِّنۢ بَعۡدِ مَا تَبَيَّنَ﴾ فإنّ تمنّيهم وقعَ مباشَرةً بعدَ ظهورِ الحقِّ لهم؛ "فهُم يتمنّونَ الإسراعَ في تكفيرِهم، وأنْ ينقلوهُم من حالةِ الإيمانِ إلى حالةِ الكفرِ فورًا"[1]، أي: أنّهم أسرعُوا في فعلِهم ذاكَ فورَ تبيينِ الحقّ، وهذا ما تمنحُه ﴿مِن﴾ التي تفيدُ الابتداءَ والبَعديَّةَ، بَعديَّةً زمانيَّةً؛ لأنّ ﴿بَعۡدِ﴾ صالحةٌ للزمانِ والمكانِ، والسِّياقُ يقضِي بأنْ تكونَ زمانيَّةً.

بلاغةُ التّقديمِ والتّأخيرِ:

وظيفةُ القصرِ الادّعائِي المبالغةُ في التَّشنيعِ على الحاسدينَ

قُدِّمَ الجارُّ والمجرورُ على المسندِ إليهِ ﴿ٱلۡحَقُّ﴾؛ للاهتمامِ والاختصاصِ، فكأنّهُ يريدُ القولَ (من بعدِ ما تبيّنَ لهم الحقّ وحدَهم)، جعلَ تبيينَ الحقِّ لهم وحدَهم دونَ سواهُم، وهو من بابِ القصرِ الادّعائِي للمبالغةِ في التَّشنيعِ على أهلِ الكتابِ الحاسدينَ للمؤمنينَ؛ لأنّ تبيينَ الحقِّ يستحيلُ أنْ يكونَ لهم وحدَهم دونَ سواهُم؛ فالمبالغةُ في القصرِ جاءتْ اهتمامًا لهذَا الأمرِ، وأنّ الحقّ قدْ بانَ لهم على أوضحِ صورةٍ وأجلاهَا، ولذلكَ جعلَ العلماءُ الكلامَ تامًّا هنَا، وأنّ الوقفَ عليهِ من قبيلِ الوقفِ الحسنِ[2].

معنى الألفِ واللامِ في كلمةِ الحقّ:

تنوُّعُ المعاني مقبولٌ بضابطِ النَّظمِ والسِّياقِ

معنى الألفِ واللامِ في كلمةِ الحقِّ في قولِه تعالَى: ﴿مِّنۢ بَعۡدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ ٱلۡحَقُّۖ﴾، إمَّا أنْ تكونَ "للعهدِ، ويرادُ بهِ الإيمانُ، ويدلُّ عليهِ جريانُه قبلَ هذا"[3] وهو الإيمانُ الذي يعرفونَه، وقدْ تكونُ

---

(1) فاضل السامرائيّ، معاني النحو: 2/198.
(2) الأنباريّ، إيضاح الوقف والابتداء: 1/528.
(3) أبو حيّان، البحر المحيط: 1/559.

"للاستغراقِ، أَيْ: منْ بعدِ ما اتّضحتْ لهمْ وجوهُ الحقِّ وأَنواعهُ"[1]، والمعنيانِ مرادانِ ومقصودانِ وغيرُ ناشزينِ عن سياقِ الآيةِ ونظمِها.

بلاغةُ الفاءِ الفصيحةِ:

تسليطُ الضَّوْءِ علـى منـهـجِ التَّـعـامـلِ مع الآخرِ

الفاءُ في قولِه تعالَى: ﴿فَٱعۡفُواْ وَٱصۡفَحُواْ﴾ هيَ الفصيحةُ، وهي التِي تُفصحُ عن محذوفٍ يقدِّرُه المخاطَبُ من السِّياقِ، وجمهورُ البيانيينَ يشترطونَ تضمينَ المقدَّرِ شرطًا، وهو ليسَ بلازم، أيْ: إنْ جهلتُم ما يجبُ أنْ تقومُوا بِه تجاهَ أولئكَ؛ فاعفُوا واصفحُوا "أيْ: أعرضُوا عمّا يكونُ منهم من الجهلِ والعداوةِ فلا تجازوهُم"[2]، ويظهرُ أثرُ بلاغةِ الفاءِ الفصيحةِ في تسليطِ الضَّوْءِ على الواجب فعلُه مع الحاسدينَ من أهلِ الكتابِ، وهو العفوُ والصَّفحُ؛ لأنَّهُ المقصودُ الحقيقيّ في السِّياقِ.

سرُّ التَّعبيرِ بالعفوِ والصَّفحِ:

توريثُ القـوَّةِ النَّفسيَّةِ، والمَنَعةِ العقديَّةِ

عبّرتِ الآيةُ بالعفوِ والصفحِ، ولمْ تأتِ على ذكرِ الصَّبرِ، أو التَّصدّي، أو غيرِهما من المعاني؛ لأنَّ المقصودَ هو إماتةُ حسدِهم، وقتلُ كراهيتِهم، وحبسُ غيظِهم في أنفسِهم، ولا يؤدِّي هذهِ المعانيَ إلّا العفوُ والصَّفحُ، وما يولِّدُه منهجُ العفوِ والصَّفحِ من قوَّةٍ فكريَّةٍ، وثباتٍ عَقَديّ، وهو ما يورِّثُ في النَّفسِ المسلمةِ من القوَّةِ والمُكنةِ، ما لا يورِّثُه النِّزاعُ والجدالُ.

بلاغةُ عطفِ الأفعالِ المتقاربةِ الدِّلالةِ بعضِها على بعضٍ:

الجمعُ بينَ العفوِ المادِّي، والصَّفحِ المعنويّ؛ لتحقيقِ التوازنِ بينَ الدِّلالتينِ

عُطفَ فعلُ ﴿وَٱصۡفَحُواْ﴾ على فعلِ ﴿فَٱعۡفُواْ﴾ في قولِه: ﴿فَٱعۡفُواْ وَٱصۡفَحُواْ﴾؛ لتحقيقِ فائدةٍ بيانيّةٍ بديعةٍ، وهي أنَّ العفوَ درجةٌ من التَّسامحِ عاليةٌ، وهي تدلُّ على تركِ عقابِ المذنبِ، أمَّا الصَّفحُ فهو تركُ عقابِ المذنبِ جملةً، أي: أعرضُوا عن المذنبِ بصفحةِ الوجهِ

(1) أبو حيّان، البحر المحيط: 1/559.
(2) القاسميّ، محاسن التأويل: 2/223.

في "عدمِ لومِهِ وتثريبِهِ عليهِ، وهو أبلغُ مِنَ العفوِ"[1] والمعنَى يكونُ شاملاً لتركِ العقابِ واللومِ جميعًا[2]، فجاءَ بفعلينِ متقارِبينِ في الدِّلالةِ؛ ليحقّقَ الشموليَّةَ في بناءِ أخلاقِ المسلمينَ في الجانبينِ الماديّ والمعنويّ؛ الماديّ في تركِ العقوبةِ، والمعنويّ النفسيّ في تركِ اللّومِ والتَّثريبِ عليهم، ثمّ إنّه أسندَ ذلكَ لواوِ الجماعةِ؛ إشارَةً إلى أنّهُ يجبُ أنْ يتحلّى بهذَا الخلقِ المسلمونَ جميعًا كأنّهم جسدٌ واحدٌ، وأنّكم كثيرٌ فـ"لا يغرّنّكمْ أيّها المؤمنونَ كثرةُ أهلِ الكتابِ معَ باطلِهِمْ، فإنّكمْ على قلَّتِكمْ أقوَى منهمْ بما أنتمْ عليهِ مِنَ الحقِّ"[3].

بلاغةُ تقديمِ العفوِ على الصَّفحِ:

العفوُ مقدّمةُ الصَّفحِ ولا يُتصوَّرُ بدونِه، فهو من قبيلِ تقديمِ الأسبابِ على نتائجِها

قُدِّمَ العفوُ على الصَّفحِ؛ لأنّ العفوَ أهمّ من الصفحِ؛ فللعفوِ أثرٌ جسديٌّ ماديٌّ؛ لأنّهُ يتعلّقُ بالمظهرِ، بينَما نجدُ الصفحَ ذا أثرٍ نفسيّ، فالعفوُ سلامةٌ، والصَّفحُ غنيمةٌ، وطلبُ السلامةِ مقدّمٌ على طلبِ الغنيمةِ، ثمّ قدّمَه لسببٍ ثانٍ، وهو أنّ حصولَ العفوِ من المسلمينَ هو مقدِّمةٌ لحصولِ الصفحِ، فهو من قبيلِ تقديمِ السَّببِ على النَّتيجةِ؛ فتركُ العقوبةِ قدْ يكونُ سببًا لتركِ اللّومِ والمؤاخذةِ؛ "لذلكَ عطفَ الأمرَ بهِ على الأمرِ بالعفوِ؛ لأَنَّ الأمرَ بالعفوِ لا يستلزمهُ، ولمْ يستغنَ بـ(اصفحُوا) لقصدِ التّدريجِ في أمرِهِمْ"[4].

فائدةُ إضافةِ الأمرِ إلى ضميرِ اسم الجلالةِ:

التعريفُ في بيانِ المصدرِ والإبهامِ في بيانِ المتحقّقِ

اشتملَ لفظُ الأمرِ على نوعِ إبهامٍ مع إضافتِه إلى الضميرِ العائدِ على لفظِ الجلالةِ فهو "غايةٌ مبهمةٌ للعفوِ والصّفحِ؛ تطمينًا لخواطرِ المأمورينَ، حتَّى لا ييأسوا منْ ذهابِ أذى المجرمينَ لهمْ"[5]، وأنّ هذا

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 1/671.
(2) محمد رشيد رضا، تفسير المنار: 1/347.
(3) المرجع السابق: 1/347.
(4) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 1/671.
(5) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 1/671.

الأمرَ آتٍ من اللّهِ تعالَى؛ فتطمئنّ قلوبُهم بهِ، فاللفظُ لا يعيّنُ حدثًا بعينِه، بلْ يحتملُ الإجلاءَ، ويحتملُ القتلَ، ويحتملُ العذابَ، ويحتملُ القصاصَ، ويحتملُ نزعَ "الحسدِ والحقدِ من قلوبِهم وهدايتِهم، وإمّا بالغلبِ عليهم، وأنْ يكونُوا في ظلِّ المسلمينَ، ويعلنُوا إسلامَهم، وقلوبُهم ليستْ مؤمنةً"[1] ويحتملُ غيرَ ذلكَ من المعانِي المرسلةِ.

نكتةُ وضعِ الظّاهرِ موضعَ المضمرِ:

جريانُ الجملةِ مجرى المَثَلِ السَّائرِ

عدلَ النَّظمُ الكريمُ عن إضمارِ لفظِ الجلالةِ إلى إظهارِه؛ لمَا في الجملةِ من استقلالٍ دلاليّ، فهي جملةٌ قائمةٌ بذاتِها، وهي -وإنْ كانتْ فاصلةَ آيةٍ- إلّا أنَّ لها استيلاءً على النَّفسِ والفطرةِ لا تتناهَى قوتُها، وقدْ جرتْ هذه الجملةُ في غالبِ القرآنِ على هذا المنوالِ فكانتْ كالمثلِ السَّائرِ، تعليمًا للعبادِ أنْ يقولُوا في كلِّ نائبةٍ وجائحةٍ، وكلِّ نصرٍ وظفرٍ: إنَّ اللّه على كلِّ شيءٍ قديرٌ.

اقترانُ حرفِ الاستعلاءِ بلفظِ ﴿كُلِّ شَيۡءٖ﴾:

الاستعلاءُ شاملٌ لكلِّ ما جاءَ به النَّقلُ، أو تصوَّرَه العقلُ

شملَ الاستعلاءُ الماديّاتِ والمعنويّاتِ، والمشاهداتِ والغيبيَّاتِ، وذلكَ باقترانِ حرفِ ﴿عَلَىٰ﴾ بلفظِ ﴿كُلِّ شَيۡءٖ﴾؛ وإضافةِ لفظِ (كلّ) الذي هو من ألفاظِ العمومِ للفظِ (شيءٍ) المفيدِ للعمومِ كذلكَ؛ فأفادَ استعلاءً عامًّا عمومًا شموليًّا، واستقصاءً لكلِّ ما يتصوَّرُه الذِّهن، أو أخبرَ عن وجودِه الوحيُ؛ فهو عمومٌ يلفُّه عمومٌ، والجملةُ مستعليةٌ على كلِّ ادِّعاءٍ؛ لذلكَ كثُرَ ورودُها في القرآنِ الكريمِ بهذا النَّظمِ الكريمِ.

أثرُ السياقِ في اختيارِ الصِّيغِ:

مناسبةُ الصيغةِ لسياقِ الجملةِ وسياقِ الآيةِ

جاءتِ الآيةُ بصيغةِ (فَعِيل) دونَ (فاعِل) في بيانِ القدرةِ؛ ذلكَ أنّ هذه الصِّيغةَ تُفيدُ المبالغةَ[2] والكثرةَ والتَّكرارَ، بخلافِ اسم

(1) أبو زهرة، زهرة التفاسير: 1/362.

(2) سيبويه، الكتاب: 1/110.

الفاعلِ الدَّالِّ على مجرَّدِ صدورِ الحدثِ عن فاعلٍ؛ ذلكَ أنَّ الجملةَ تقريرٌ لقدرةِ اللّهِ على كلِّ شيءٍ وهو ما يناسبُه صيغةُ المبالغةِ، وحديثُ السِّياقِ عن إتيانِ اللّهِ بأمرِه بعدَ عفوِ المؤمنينَ وصفحِهم عن أهلِ الكتابِ، وهو عفوٌ وصفحٌ يصاحبُه الصَّبرُ؛ فأن يكونَ الوعدُ بمثلِ هذهِ الصِّيغةِ أقوى في نفوسِ المخاطبينَ، وهو الأوفقُ بالفاصلةِ كذلكَ.

نكتةُ تَقديمِ الجارِّ والمجرورِ:

تأكيدُ اختصاصِ أمـرٍ معلومٍ لتوليدِ الطّمأنينةِ القلبيَّةِ

أفادَ تقديمُ الجارِّ والمجرورِ ﴿عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ﴾ على ﴿قَدِيرٌ﴾ تأكيدَ الاختصاصِ، فإنَّه لا يقدرُ على كلِّ شيءٍ إلّا اللّهُ تعالَى، واختصاصُ اللّهِ تعالَى بهذِه القدرةِ المطلقةِ أمرٌ مستقرٌّ في اعتقادِ المخاطَبينَ، فأفادَ التَّقديمُ تأكيدَ الاختصاصِ، لإدخالِ الطَّمأنينةَ على القلوبِ، وإقناعِ العقولِ.

﴿وَأَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُواْ ٱلزَّكَوٰةَۚ وَمَا تُقَدِّمُواْ لِأَنفُسِكُم مِّنۡ خَيۡرٖ تَجِدُوهُ عِندَ ٱللَّهِۗ إِنَّ ٱللَّهَ بِمَا تَعۡمَلُونَ بَصِيرٞ ١١٠﴾ [البقرة: 110]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِمَا قَبْلَها:

بعدَ أنْ بيَّنَ السِّياقُ ما يجبُ على المؤمنينَ اتِّخاذُه من العفوِ والصَّفحِ عن أهلِ الكتابِ، وما يلزمُ عنهما من الصَّبرِ والأناةِ والتّحمّلِ؛ ناسبَ أنْ يأمُرَهم بإقامةِ الصَّلاةِ؛ لِمَا فيها من الرَّاحةِ النَّفسيّةِ في بناءِ قيمِ الصّبرِ والإحسانِ، وبإيتاءِ الزّكاةِ؛ لما فيها من الزّهدِ وإيثارِ الآخرةِ على الدّنيَا، وأنْ يُذكِّرهم بأنَّ ما يقدمونَه من خيرٍ؛ فهو عائدٌ على أنفسِهم، وكذلكَ الأمرُ فيما يقدِّمُه المؤمنونَ من العفوِ والصَّفحِ عن أهلِ الكتابِ؛ فهو خيرٌ، وسيعودُ على أنفسِهم في الدّنيَا والآخرةِ.

شَرْحُ المُفْرَدَاتِ:

1) ﴿وَأَقِيمُواْ﴾: فعلُ أمرٍ للفعلِ (أقامَ)، ومصدرُه الإقامةُ، وهي: الدَّوامُ[1]، يقالُ: أقامَ الصلاةَ: إذا داومَ عليهَا، أمّا إذا قيلَ أقامَ للصلاةِ فمعناهُ نادَى عليها[2] بألفاظِ الإقامةِ.

وجوّزَ بعضُ أهلِ العلمِ أنْ يكونَ ذلكَ من التقويمِ، وهو التعديلُ من قولكَ: قوّمتُ العودَ إذا عدّلتَه، ويكونُ معنَى إقامةِ الصلاةِ على المعنَى: الإتيان بها على وجهِ المحافظةِ على أركانِها وشروطِها ومكملاتِها[3] ويحتملُ في إقامةِ الصلاةِ بمعنَى إظهارِها أخذًا من قولِهم أقيمتِ السوقُ[4]، ولا مانعَ من الجمعِ بينَ تلكَ المعاني؛ فيكونُ معنَى أقامَ الصلاةَ: داومَ عليهَا، وأظهرَها وأتَى بها محافظًا على أركانِها وشروطِها ومكملاتِها.

2) ﴿ٱلصَّلَوٰةَ﴾: اسمٌ جذرهُ اللغويّ (صلو)، والفعلُ منها (صلّى) بالتشديدِ، صلّى

(1) الهروي، الغريبين: (قوم).
(2) الفيومي، المصباح المنير: (قوم).
(3) النبراوي، حاشية على الأربعين النووية، ص: 37.
(4) ابن عطية، المحرر الوجيز: 1/85.

يصلِّي صلاةً، وهو اسمُ مصدرٍ، والقياسُ في مصدرِه (تصليةٌ) إلّا أنّه استُعملَ اسمُ المصدرِ في هذا المعنَى تنزيهًا لها؛ لأنّ المصدرَ (تصليةٌ) استعملَ مقترنًا بالجحيم؛ لأنّ واحدًا من أصلِ الصلاةِ في معناهُ "النارُ وما أشبهَها من الحُمّى"[1].

أمّا الأصلُ الثاني فهو ما كانَ جنسًا من العبادةِ المقرَّرةِ شرعاً، وهي في أصلِها بمعنَى الدعاءِ[2]، وقدْ وردتْ في حديثِ الرسولِ ﷺ: «مَنْ دُعِيَ فَلْيُجِبْ، فَإِنْ كَانَ مُفْطِرًا أَكَلَ، وَإِنْ كَانَ صَائِمًا، فَلْيُصَلِّ وَلْيَدْعُ لَهُمْ»[3]، وثمّةَ وشائجُ وعلائقُ بينَ الصلاةِ بمعناهَا المعجميّ ومعناها الاصطلاحيّ؛ لأنّ الدعاءَ يشملُ حيّزًا كبيرًا من الصلاةِ.

و"الصلاةُ من اللهِ تعالَى لعبادِه تزكيةٌ لهم وبركةٌ عليهم، ومن الملائكةِ استغفارٌ، ومن الناسِ الدعاءُ"[4].

"والصَّلَاةُ التي هي العبادةُ المخصوصةُ، أصلُها: الدّعاءُ، وسمّيتْ هذه العبادةُ بها كتسميةِ الشيءِ باسمِ بعضِ ما يتضمّنُه"[5]، والمرادُ في الآيةِ العبادةُ المخصوصةُ.

3) ﴿ٱلزَّكَوٰةَ﴾: اسمٌ جذرُه من (زكو)، الفعلُ منه (زكَى يزكِي) فالمصدرُ منه تزكيةٌ، أمّا الزكاةُ فهي اسمُ مصدرٍ، وأصلُ معنَى الزكاةِ: النماءُ[6].

وللزكاةِ معانٍ عديدةٌ؛ فمنها تطهيرُ المالِ، ومنها الصلاحُ، ومنها التقوَى، ومنها الزيادةُ والنماءُ، ولا سيّما للزروعِ[7]، والزكاةُ من الألفاظِ التي تطوّرَ مدلولُها بعدَ مجيءِ الإسلامِ، فبعدَ أنْ كانتْ تحملُ المعانيَ التي ذُكرتْ، ثمّ أصبحَ معناهَا "قدرٌ مخصوصٌ من مالٍ مخصوصٍ في زمنٍ مخصوصٍ"[8].

وثمّةَ علاقةٌ في هذا التّطورِ؛ فإنّ إخراجَ الزكاةِ ممّا ينمّي المالَ المخرَجَ منه؛ لقولِه تعالَى: ﴿مَّن ذَا ٱلَّذِى يُقْرِضُ ٱللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا فَيُضَٰعِفَهُۥ لَهُۥٓ أَضْعَافًا كَثِيرَةً ۚ وَٱللَّهُ يَقْبِضُ وَيَبْصُۜطُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٢٤٥﴾﴾ [البقرة: 245].

(1) ابن فارس، مقاييس اللغة: (صلو).
(2) ابن فارس، مقاييس اللغة: (صلو).
(3) رواه أحمد، المسند، حديث رقم: (7748).
(4) السمين، عمدة الحفّاظ: (صلو).
(5) الراغب، المفردات: (صلو).
(6) ابن فارس، مقاييس اللغة: (زكو).
(7) الخليل، العين: (زكو).
(8) السمين، عمدة الحفّاظ: (زكو).

والواردُ في الآيةِ بمعناهَا الشرعِيّ؛ أي: زكاةُ المالِ[1].

4) ﴿تُقَدِّمُواْ﴾: فعلُ أمرٍ موجّهٌ للجماعةِ، وهو فعلٌ مزيدٌ بالتضعيفِ؛ الماضي منه (قَدّمَ) زنةُ (فَعّلَ)، الجذرُ اللغويّ منه (قدم) و"القافُ والدّالُ والميمُ أصلٌ صحيحٌ يدلُّ على سبقٍ ورَعْفٍ"[2]، والتقديمُ من: قَدَمِ الرِّجْلِ، ثمّ اعتبرَ به التقدّمُ والتأخّرُ[3].

ومن معانيهِ "سَبْقُ الشيءِ نافذًا إلى الأمام بقوَّةٍ أو حِدَّةٍ"[4] والمعنَى في الآيةِ من بابِ المجازِ، فليسَ المقصودُ أنْ يجعلُوا أمامَهم شيئًا، إنّما المقصودُ أنْ يبادرُوا بالأعمالِ الصالحةِ؛ كي يجدوها أمامَهم.

5) ﴿تَجِدُوهُ﴾: فعلٌ مضارعٌ من الأفعالِ الخمسةِ، الفعلُ منه (وجدَ يجدُ)، والجذرُ اللُّغويُّ لهذهِ الكلمةِ من الفعلِ (وجد)، وعندَ ابنِ فارسٍ: "الواوُ والجيمُ والدَّالُ، يدلُّ على أَصلٍ واحدٍ، وهو الشَّيُّ يُلفيه"[5]، وهو هنا بمعنَى الإصابةِ، والمعنَى في الآيةِ "إنَّ المُرَادَ أَنَّهُ يَرَى ويَجِدُ جَزَاءَهُ"[6].

6) ﴿بَصِيرٌ﴾: وصفٌ على وزنِ (فَعِيل) وهو صيغةُ مبالغةٍ، ويجوزُ أنْ يكونَ (فَعِيلٌ) بمعنَى (فاعِلٌ) أيْ: (باصِرٌ)، أو (مُبْصِرٌ)، وجذرُهُ (بصر)، والأصلُ فيهِ "القوةُ المودعةُ في العصبتينِ المجوَّفتينِ اللَّتينِ تتلاقيانِ، ثمّ تفترقانِ، فيتأديانِ إلى العينِ تدركُ بها الأضواءَ والألوانَ والأشكالَ"[7] وهذا هو بصرُ العينِ، إلَّا أنّ له أصلاً آخرَ وهو "العلمُ بالشيءِ، يقالُ: هو بصيرٌ به"[8].

ويجوزُ أنْ يبصرَ الإنسانُ بقلبِه وروحِه، ويقالُ لها قوّةُ الإدراكِ القلبيّةِ[9]، وعندَ ذاكَ تسمّى البصيرةَ، أو بصرَ النّفسِ[10]، وهذا اللفظُ وصفٌ للحقّ تباركَ وتعالَى؛ وهو بمعنَى

(1) جبل، المعجم الاشتقاقي المؤصل: (زكو).
(2) ابن فارس، مقاييس اللغة: (قدم).
(3) الراغب، المفردات: (قدم).
(4) جبل، المعجم الاشتقاقي المؤصل: (قدم).
(5) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (وجد).
(6) محمد رشيد رضا، تفسير المنار: 1/348.
(7) الجرجاني، التعريفات، ص: 46.
(8) ابن فارس، مقاييس اللغة: (بصر).
(9) الراغب، المفردات: (بصر).
(10) الجرجاني، التعريفات، ص: 46.

العليمِ الذي يجازِي المحسنَ والمسيءَ؛ "لأنّ العليمَ القديرَ إذا علمَ شيئًا فهو يرتِّبُ عليهِ ما يناسبُه، إذ لا يذهلُه جهلٌ، ولا يُعْوِزُه عجزٌ"[1].

❁ المَعْنَى الإِجْمَاليُّ:

أمرٌ من الحقِّ تباركَ وتعالَى للجماعةِ المسلمةِ بإقامةِ الصلاة "لـمَا في الصلاةِ من توثيقِ عرَى الإيمانِ، وإعلاءِ الهمّةِ، ورفعةِ النفسِ بمناجاةِ اللّهِ، وتأليفِ قلوبِ المؤمنينَ حينَ الاجتماعِ لأدائِها، وتعارفِهم في المساجدِ، وبهذا ينمُو الإيمانُ"[2] ثمّ أمرهُم بإيتاءِ الزكاةِ "لِمَا في الزكاةِ من توكيدِ الصِّلَةِ بينَ الأغنياءِ والفقراءِ، فتتحققُ وحدةُ الأمةِ، وتكونُ كالجسمِ الواحدِ"[3] فهذهِ من فرائضِ اللّهِ، فمَن يُقَدِّم زيادةً على ذلكَ من النّوافلِ والتّطوعِ والصّدقاتِ فسيجدُ ثوابه عند اللّه في الآخرة؛ إنه تعالى بصير بكل الأعمال، وسيجازي عليها.

❁ الإيضاحُ اللُّغويُّ والبلاغيُّ:

معنَى الألفِ واللامِ في كلمةِ ﴿ٱلصَّلَوٰةَ﴾:

تزاحمُ الأقوالِ على بابِ القبولِ، بتأييدِ السِّباقِ واللِّحاقِ

تحتملُ الألفُ واللامُ في لفظةِ ﴿ٱلصَّلَوٰةَ﴾ أنْ تكونَ للعهدِ، أي: الصلاةُ المشروعةُ، ويؤيدُه أنَّ الصّلاةَ إذا أُطلقتْ في لسانِ الشَّرعِ فلا ينصرفُ الذِّهنُ إلّا إلى الصّلاةِ المعروفةِ، فهي حقيقةٌ شرعيَّةٌ، لكنْ ما المرادُ بالعهدِ؟ المكتوبةُ، أو جميعُ الصّلواتِ، المكتوبةُ والمسنونةُ؟ الظّاهرُ أنّها المكتوبةُ، لأمرينِ وهما: الأمرُ بهَا، وقرنُها بالزَّكاةِ الواجبةِ، وحملُها على استغراقِ جميعِ الصّلواتِ؛ فيدخلُ الواجبُ والنفلُ يؤيدُه اللّحاقُ، ويكونُ المقصودُ بالأمرِ بإقامتِها تعديلَها والخشوعَ فيها، وأنْ تكونَ مقوِّمةً لصاحبِها.

والمعنيانِ متزاحمانِ على بابِ القبولِ، الأوَّل يُؤيّده السِّباقُ، والثَّاني يُؤيّدُه اللّحاقُ.

---

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 1/672.

(2) المراغي، تفسير المراغي: 1/191.

(3) المراغي، تفسير المراغي: 1/192.

نكتةُ حذفِ المفعولِ الثاني:

المفعولُ الثاني للفعلِ ﴿وَءَاتُواْ﴾ في قولِه تعالَى: ﴿وَءَاتُواْ ٱلزَّكَوٰةَ﴾ محذوفٌ، تقديرُه: مستحقِّيها، وحذفَ المفعولُ الثَّاني للإيجازِ؛ للعلمِ بهِ، ودليلُه دليلٌ شرعيّ؛ لأنّ الزكاةَ تصرفُ لمستحقِّيها، أمّا غرضُ الحذفِ وهو النكتةُ البيانيَّةُ؛ فهو لبيانِ أهميةِ المعطَى لا المعطَى لهُ، وحثُّ المسلمينَ على العنايةِ بإيتاءِ الزَّكاةِ أكثرَ من العنايةِ بالمستحِقِّينَ؛ فهؤلاءِ المستحقّونَ فصّلتْ فيهم أدلةٌ أخرَى، وأمرٌ آخرُ، وهو إطلاقُ فعلِ الإيتاءِ بحيثُ يكونُ همُّ المزكِّي إيتاءَ الزَّكاةِ بما يُشابِه التَّخلُّصَ منها على وجهِ السُّرعةِ والعجلةِ.

بيانُ أهميَّةِ العنايةِ بالمالِ المُزكَّى، وإطلاقُ فعلِ الإيتاءِ للحثِّ على العجلةِ

نكاتُ تقديمِ الجملةِ على الجملةِ:

عُطِفتْ جملةُ ﴿وَءَاتُواْ ٱلزَّكَوٰةَ﴾ على جملةِ ﴿وَأَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ﴾ بجامعِ أنّهما أهمُّ ركنينِ من أركانِ الإسلامِ، والعطفُ هنا "بالواوِ المقتضيةِ عدمَ التّرتيبِ، فإنّهم مع ذلك إنّما يبدأونَ بالأهمِّ والأولَى"[1]؛ فيُسألُ عن سرِّ تقديمِ الأمرِ بالصَّلاةِ على الأمرِ بالزَّكاةِ؟ وذلك يظهرُ من خلالِ النّكاتِ الآتيةِ:

ولا ريبَ أنّ الصلاةَ هي القاعدةُ الأهمُّ، والزكاةُ هي القاعدةُ المهمّةُ، وهذا بدهيٌّ في مقياسِ التفضيلِ؛ فهي عمادُ الدينِ، ومع ذلك فهما مطلوبتانِ، لكنّ الأُولَى أهمُّ من بابِ أنّها جوازُ مرورِ العبدِ لتلقّي الحسابِ؛ لقولِه ﷺ: «أَوَّلُ مَا يُحَاسَبُ بِهِ العَبْدُ صَلَاتُهُ»[2]، والأمرُ الآخرُ وهو أنَّ الصَّلاة تمثِّلُ القاعدةَ التي تُقبلُ الزَّكاةُ بناءً عليها، فهو من قبيلِ تقديمِ الأصلِ على الفرعِ.

تقديمُ الأصلِ على الفرعِ، والقاعدةِ الأهمّ على القاعدةِ المهمّةِ

المأمورونَ بإقامةِ الصَّلاةِ همْ أضعافُ المأمورينَ بإيتاءِ الزكاةِ، فالصلاةُ فرضُ عينٍ على كلّ مسلمٍ، بخلافِ الزكاةِ فهي فرضٌ على

تقديمُ ما كانَ فيه الخطابُ للأعمِّ أولى ممَّا كانَ فيه الخطابُ للأخصِّ

(1) ابن الزبير، ملاك التأويل: 1/37.

(2) رواه أحمد بن حنبل، المسند، حديث رقم: (16614).

كلّ من مَلكَ النصابَ، وحالَ عليه الحولُ، وعليهِ فتقديمُ ما كانَ فيه الخطابُ للأعمِّ أولى ممَّا كانَ فيه الخطابُ للأخصِّ.

تقديمُ ما يستغرقُ الزَّمانَ على ما لا يأخذُ إلّا الوقتَ اليسيرَ

الصَّلاةُ عبادةٌ بدنيَّةٌ يوميَّةٌ تُقام خمسَ مرَّاتٍ في اليوم والليلة، أمّا الزكاةُ فهي عبادةٌ ماليَّةٌ سنويَّة، فالوقتُ الذي تستغرقُه الصَّلاةُ من حياةِ المسلم وقتُه كلُّه، بينَما الزَّكاةُ فهي لا تأخذُ إلّا وقتًا يسيرًا جدًّا؛ فلهذا حسُنَ تقديمُ ما يستغرقُ الزَّمانَ، على ما لا يأخذُ إلّا الوقتَ اليسيرَ.

سرُّ التعبيرِ بالإيتاءِ دونَ الإعطاءِ:

إرشادُ المُزكِّي إلى أن تكونَ زكاتُه صادرةً عن يُسْرٍ وسهولةٍ

جاءَ التَّعبيرُ بمادَّةِ الإيتاءِ في قولِه تعالَى: ﴿وَءَاتُواْ ٱلزَّكَوٰةَ﴾، ولم يعبّرْ بمادَّةِ الإعطاءِ؛ لأنّ الإيتاءَ دالٌّ على المجيءِ بسهولةٍ ويُسْرٍ[1]، وقدْ خُصّ هذا الفعلُ بدفعِ الصَّدقةِ الواجبةِ حيثُما وردَ في القرآنِ الكريمِ[2]، وعليهِ فالآيةُ تُرشدُ إلى أن تكونَ الزَّكاةُ مُؤدَّاةً بيُسرٍ وسهولةٍ.

أمّا فعلُ الإعطاءِ فإنّه "اتِّصَال الشَّيْء إِلَى الآخِذ لَهُ؛ أَلا ترى أَنَّك تُعْطِي زيدًا المَالَ ليَرُدّهُ إِلَى عَمْرو، وتعطِيه ليتّجرَ لَك بِهِ"[3]، أي: أنّ المعطَى يُعاد إلى المعطِي هذا أصلُه، وهذا ليسَ متعيّنًا في فعلِ الإيتاءِ؛ فإنّ الزكاةَ بمنزلةِ الهبةِ فلا تعادُ، وجعلَ الزمخشريّ "اشتهارَ الإيتاءِ في معنَى الإعطاءِ"[4]؛ فلا فرقَ بينَهما عندَه.

بلاغةُ عطفِ العامّ على الخاصّ:

بيانُ أهميَّةِ الصَّلاةِ والزَّكاةِ بالأمرِ المباشرِ والضِّمنيّ

الواوُ في قولِه تعالَى: ﴿وَمَا تُقَدِّمُواْ لِأَنفُسِكُم﴾ للعطف، وهي من قبيلِ عطفِ العامِّ على الخاصّ، فجملةُ ﴿وَمَا تُقَدِّمُواْ لِأَنفُسِكُم﴾ معطوفةٌ على جملةِ ﴿وَأَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ﴾؛ لأنّ إقامةَ الصلاةِ فرضُ عينٍ على الجميعِ؛ والزكاةُ مثلُها على من تنطبقُ عليهِ الشُّروطُ، أمّا تقديمُ

(1) الراغب، المفردات: (أتى).

(2) السمين، عمدة الحفّاظ: (أتي).

(3) العسكري، الفروق اللغوية، ص: 167.

(4) الزمخشري، الكشّاف: 5/381.

الخيرِ للنّفسِ فإنّ في تأخيرِه مقصدًا وغايّة، وهو أنّ الخيرَ كلمةٌ جامعةٌ لصنوفٍ كثيرةٍ كالبرِّ والإحسانِ والطاعةِ والعملِ الصالحِ[1]، فيدخلُ فيه الصَّلاةُ والزَّكاةُ، فيكونُ من قبيلِ عطفُ العامّ على الخاصّ، ليُؤمرَ بالصَّلاةِ والزَّكاةِ مرَّتين، مرَّةً نصًّا مباشرًا، وأخرى ضِمنًا، ونكتةُ ذلكَ بيانُ أهميَّةِ الصَّلاةِ في حياةِ المسلمِ، والزّكاةِ في حياةِ المجتمعِ.

بلاغةُ استعمالِ ما الشَّرطيَّةِ:

إفـادةُ معنى العمومِ لحضِّ المخاطَبينَ على تقديمِ الخيرِ

استُعملتْ ﴿مَا﴾ الشَّرطيَّةُ[2] بدلًا من "إنْ" التي هي أمّ أدواتِ الشرطِ الجازمةِ، في قولِه تعالى: ﴿وَمَا تُقَدِّمُواْ لِأَنفُسِكُم مِّنۡ خَيۡرٖ تَجِدُوهُ عِندَ ٱللَّهِۗ﴾؛ وذلكَ لـمَا تتضمّنُهُ من معنَى العُمومِ والشَّرطِ، توطئةً لحضِّ المخاطَبينَ على تقديمِ الخيرِ أيًّا كانَ نوعُه وشكلُه، فرضًا أو نافلةً، بدنيًّا أو ماليًّا، كثيرًا أو قليلًا؛ فإنَّ ذلكَ كلَّه يدخلُ في المرغَّبِ فيه، ويُلائمُ ذلك دخولُ﴿مِّنۡ﴾ على ﴿خَيۡرٖ﴾.

نكتةُ المجازِ بالحذفِ:

التنبيهُ على الغايةِ لا الوسيلةِ، فإنّ النفسَ هي غايةُ العملِ

في قولِه تعالَى: ﴿لِأَنفُسِكُم﴾ مجازٌ بالحذفِ، والمعنَى: وما تقدّموا لأجلِ أنفسِكم؛ فالتركيبُ على حذفِ مضافٍ؛ لأنّ الأنفسَ والذواتِ ليستْ محلًّا للتّقدّمة، بلْ يقدّمُ الخيرُ لأجلِ صلاحِها، ونيلِها الأجرَ والغفرانَ، ونجاتِها في الآخرةِ وحياتِها[3].

سرُّ التعبيرِ بجمعِ القِلّةِ:

التّناسبُ بينَ السّياقِ والصِّيغِ

جاءَ التَّعبيرُ بجمعِ التَّكسيرِ في قولِه تعالَى: ﴿لِأَنفُسِكُم﴾ وصيغتُه الصرفيةُ (أفْعُل) الدَّالُّ على القلَّةِ، إشارةً إلى أنّ التركيبَ منصبغٌ بصبغةِ التقليلِ، ولـمْ يقلْ: (نفوسَكم) على وزنِ (فُعُول) وهو من صيغِ التكسيرِ الدالّةِ على الكثرةِ، للتّلاؤمِ والتّناسبِ السِّياقيّ؛ فإنَّ

(1) محمّد علي الدرّة، تفسير القرآن الكريم وإعرابه وبيانه: 1/288.
(2) العُكْبَرِيّ، التبيان: 1/105.
(3) أبو حيّان، البحر المحيط: 1/560.

السِّياقَ يحضُّ على تقديمِ الخيرِ مهما قلَّ؛ فناسبَ ذلكَ أنْ يأتيَ بالصيغةِ الصَّرفيَّةِ الدَّالّةِ على القلَّةِ.

بلاغةُ التَّقديمِ والتَّأخيرِ:

تقديمُ الغايةِ على الوسيلةِ، وأثرُها في الحضِّ على فعلِ الخيرِ

للفعلِ ﴿تُقَدِّمُواْ﴾ معمولانِ اثنانِ، الأولُ: ﴿لِأَنفُسِكُم﴾، والثاني: ﴿مِّنۡ خَيۡرٖ﴾، وتقديمُ ﴿لِأَنفُسِكُم﴾ من قبيلِ تقديمِ الغايةِ على الوسيلةِ ﴿مِّنۡ خَيۡرٖ﴾، وفائدةُ ذلك الحضُّ على فعلِ الخيرِ؛ فإنَّ ما يُقدِّمُه المسلمُ ابتداءً هو لنفسِه، وفيها كشفٌ لطبيعةِ النَّفسِ البشريَّةِ في حرصِها على ما ينفعُها، وهو يُفيدُ في التَّعاملِ مع المدعوِّ، في حضِّه على تقديمِ ما يُفيدُه في أُخراه؛ بتنبيهِه على أنَّ ما يُقدِّمه مآلُه له؛ كما قال سبحانَه على لسانِ الإنسانِ: ﴿يَٰلَيۡتَنِي قَدَّمۡتُ لِحَيَاتِي ٢٤﴾ [الفجر: 24].

فائدةُ التعبيرِ بالظرفِ:

الترغيبُ والتحبيبُ بتقديمِ الخيرِ للأنفسِ

التعبيرُ بالظرفِ في قولِه: ﴿عِندَ ٱللَّهِۗ﴾، وفيه ترغيبٌ وتحبيبٌ؛ لأنْ يقدّمَ الإنسانُ الخيرَ لنفسِه؛ لأنّ (عندَ) تمثلُ "أَقْصى نِهاياتِ القُرْبِ"[1] وكيفَ لا يرغبُ فيه أحدٌ، وهو قدْ أضيفَ (عندَ) إليه تعالى بقولِه: ﴿عِندَ ٱللَّهِۗ﴾، وهو للمبالغةِ في تفخيمِ الثوابِ وتجسيمِه؛ ولأنّ الذاتَ الإلهيةَ منزّهةٌ عن الحوادثِ؛ فـ"الظرفيةُ هنا مجازٌ نحو: لك عندَ فلانٍ يدٌ"[2].

نكتةُ إظهارِ ما حقُّه الإضمارُ:

بناءُ قيمةِ مراقبةِ اللهِ تعالى في نفوسِ المخاطَبينَ

جاءَ قولُه تعالَى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ بِمَا تَعۡمَلُونَ بَصِيرٞ ١١٠﴾ استئنافًا تعليليًّا بجملةٍ اسميّةٍ مؤكّدةٍ، وجاءَ لفظُ الجلالةِ مُظهَرًا، ومقامُه الإضمارُ؛ للتّعظيمِ وتوريثِ المهابةِ في الصدورِ؛ وتربيةِ المخاطَبينَ على التقوَى في مراقبةِ اللهِ لهم؛ والإظهارُ في مثلِ هذا أوقعُ في النفسِ من الإضمارِ.

(1) ابن منظور، لسان العرب: (عند).

(2) السمين، الدرّ المصون: 2/69.

نكتةُ تقديمِ ﴿بِمَا تَعۡمَلُونَ﴾ على الصفةِ ﴿بَصِير﴾:

مراعاةُ البلاغةِ للتّناسبِ السِّياقيّ والتّلاؤمِ الصّوتيّ

قُدّمَ الجارُّ والمجرورُ ﴿بِمَا تَعۡمَلُونَ﴾ على الخبرِ ﴿بَصِيرٌ﴾؛ لثلاثةِ أسبابٍ:

الأولُ: أمرٌ بيانيّ وهو إفادةُ الاهتمامِ، وأنّ اللهَ محيطٌ بكلِّ الأعمالِ لا تخفَى عليهِ خافيةٌ.

الثاني: أمرٌ لفظيّ صوتيّ هو مراعاةُ رؤوسِ الآي، وهو تابعٌ للمعنَى.

الثالثُ: أمرٌ سياقيّ؛ فإنَّ سياقَ الآيةِ حديثٌ عن الأعمالِ: ﴿وَأَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُواْ ٱلزَّكَوٰةَۚ وَمَا تُقَدِّمُواْ لِأَنفُسِكُم﴾؛ فكانَ من المناسبِ أنْ يقدّمَ المتعلّقَ ﴿بِمَا تَعۡمَلُونَ﴾ على الصفةِ ﴿بَصِيرٌ﴾، بخلافِ ما جاءَ في سورةِ الحُجراتِ، حيثُ قُدِّمتِ الصِّفةُ: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَعۡلَمُ غَيۡبَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۚ وَٱللَّهُ بَصِيرُۢ بِمَا تَعۡمَلُونَ﴾ [الحجرات: 18]، حيثُ كانَ سياقُ الآيةِ حديثًا عن صفاتِه تعالى؛ فجاءتِ الصِّفةُ متقدِّمةً، وهو تناسبٌ وتلاؤمٌ بديعٌ في ائتلافِ البلاغةِ بالسِّياقِ.

﴿وَقَالُواْ لَن يَدۡخُلَ ٱلۡجَنَّةَ إِلَّا مَن كَانَ هُودًا أَوۡ نَصَٰرَىٰۗ تِلۡكَ أَمَانِيُّهُمۡۗ قُلۡ هَاتُواْ بُرۡهَٰنَكُمۡ إِن كُنتُمۡ صَٰدِقِينَ ١١١﴾ [البقرة: 111]

❁ مُناسَبَةُ الآيَةِ لِمَا قَبلَها:

انتقالٌ من بيانِ ما يجولُ في قلوبِ أهلِ الكتابِ من ارتدادِ المؤمنينَ عن الإيمانِ إلى بيانِ ما يتردّدُ على ألسنتِهم من حصرِ الفائزينَ في الجنّةِ فيهم.

قال الإمام البِقَاعيُّ في بيان ذلك[1]: "ولَمّا ذَكَرَ دَعْواهم في مَسِّ النّارِ وأبْطَلَها مِن وُجُوهٍ كَثِيرَةٍ أحاطَتْ بِهِمْ فِيها الخَطايا إحاطَةً اقْتَضَتْ خُلُودَهم فِيها مِن جِهَةِ ضَلالِهِمْ إلى آيَةِ النَّسْخِ مُرَقِّيًا الخِطابَ مِن سَيِّئَةٍ إلى أسْوَأَ مِنها، ثُمَّ مِن جِهَةِ إضْلالِهِمْ لِغَيْرِهِمْ مِن آيَةِ النَّسْخِ، عَطَفَ عَلى تِلْكَ الدَّعْوى الإخْبارَ بِدَعْواهم في دُخُولِ الجَنَّةِ تَصْرِيحًا بِما أفْهَمَتْهُ الدَّعْوى الأُولى تَلْوِيحًا، وقَرَنَ بِذَلِكَ مِثْلَ ما خَتَمَ بِهِ ما قَبْلَها مِن أنَّ مَن فَعَلَ خَيْرًا وجَدَ عَلى وجْهٍ بَيِّنٍ فِيهِ أنَّ ذَلِكَ الخَيْرَ الإسْلامُ والإحْسانُ فَقالَ تَعالى: ﴿وَقَالُواْ لَن يَدۡخُلَ ٱلۡجَنَّةَ إِلَّا مَن كَانَ هُودًا أَوۡ نَصَٰرَىٰۗ تِلۡكَ أَمَانِيُّهُمۡۗ قُلۡ هَاتُواْ بُرۡهَٰنَكُمۡ إِن كُنتُمۡ صَٰدِقِينَ﴾.

❁ شَرْحُ المُفْرَدَاتِ:

1) ﴿يَدۡخُلَ﴾: فعلٌ مضارعٌ دالٌّ على الاستقبالِ، جذرُه (دخل)، وهو "أَصلٌ مطَّردٌ منقاسٌ؛ وهو الولوجُ"[2]، وهو واضحٌ بيّنٌ، مصدرهُ الدخولُ، وهو"نقيضُ الخروجِ، ويستعملُ ذلكَ في المكانِ، والزمانِ، والأعمالِ، يقالُ: دخلَ مكانَ كذا"[3] والدخولُ في الآيةِ على معناهُ في لسانِ العربِ، فضلاً عمّا يمكنُ أنْ يلمحَ فيه من أنّ الدخولَ بمعنَى الثوابِ على ما عملُوا في الحياةِ الدنيَا، وليسَ دخولاً متعلِّقًا بالظَّرفيةِ.

2) ﴿ٱلۡجَنَّةَ﴾: والجذرُ اللُّغويّ من مُضعّفُ الثُّلاثيّ (جَنَّ) أو (جَنَنَ)، والأصلُ اللُّغويّ

(1) البقاعي، نظم الدرر: 2/110-111.
(2) ابن فارس، مقاييس اللغة: (دخل).
(3) الراغب، المفردات: (دخل).

لهذا الجذرِ التّغطيةُ والسّترُ[1]، والجنّةُ "البستانُ، وهو ذاك؛ لأَنَّ الشَّجرَ بورقِه يستُرُ"[2].

"وسمّيتِ الجنّةُ في الآخرةِ جنةً إمّا تشبيهًا بجنّةِ الأرضِ وإنْ كانَ بينَهما بونٌ، وإمّا لسترِها عنّا نعمَها"[3]، وقدْ أشيرَ إلى ذلكَ بقولِه: ﴿فَلَا تَعۡلَمُ نَفۡسٞ مَّآ أُخۡفِيَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعۡيُنٖ﴾ [السجدة: 17].

أمّا معناها في الآيةِ، "ما يصيرُ إليهِ المُسلمُونَ في الآخرةِ، وهو ثوابٌ مستُورٌ عنهُم اليومَ"[4].

3) ﴿هُودًا﴾: اسمٌ ثلاثيّ الجذرُ اللغويّ منه (هود)، (هُود) جمعُ هائِد، وهو التائبُ[5]. ومنه (اليَهُود)، واشْتقاقُه من هادُوا؛ أي: تابُوا[6]، وهي تسمية حقيقيّةٌ لهم، فقدْ سُمُّواْ بذلكَ لكونِهم أولادَ يهودا ابنِ يَعْقُوبَ، أو لكونِهم هادُواْ، وتابُواْ عن عبادةِ العِجْلِ[7].

4) ﴿نَصَٰرَىٰۗ﴾: اسمٌ على وزنِ (فَعالَى) وهو من أوزانِ جمعِ التكسيرِ، وجذرُه اللغويّ (نصر)، و(النَصَارَى) وهُم قَوْمُ عِيسى عليه السلام، واشتقاقُ لفظِ (نَصَارَى) من الجذرِ (نَصَرَ) الذي "يدُلُّ على إتْيانِ خَيرٍ وإيتائه"[8].

أمّا سببُ التسميةِ فقدْ "سُمُّوا بذلكَ لقولِه: كُونُوا أَنْصارَ اللَّهِ ... وقيلَ: سُمُّوا بذلكَ انتسابًا إلى قريةٍ يقالُ لها: نَصْرَانَةٌ، فيقالُ: نَصْرَانيٌّ، وجمْعُه نَصَارَى"[9] وقيلَ في تسميّتِهم (نَصَارَى)، أنَّهُم تَسَمَّوْا بقرْيةٍ يُقالُ لها النّاصرةُ بفلسطينَ، كانَ عيسَى ابنُ مريمَ ينزلُها[10].

(1) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (جنن).
(2) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (جنن).
(3) السمين، عمدة الحفّاظ: (جنن).
(4) ابن فارس، مقاييس اللغة: (جنن).
(5) جبل، المعجم الاشتقاقي المؤصل: (هود).
(6) ابن منظور، لسان العرب: (هود).
(7) الهرري، حدائق الرّوح والرّيحان: 8/13.
(8) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (نصر).
(9) الراغب، المفردات: (نصر).
(10) ابن جرير، جامع البيان: 2/145.

5) ﴿أَمَانِيُّهُمۡۗ﴾: جمعُ تكسيرٍ يفيدُ الكثرةَ، مفردُه أمنيةٌ، وزنُها (أفعولة) وقدْ أضيفَ إلى الضميرِ العائدِ على اليهودِ والنصارَى، والجذرُ اللغويّ له (مني) ومعناهُ القدرُ، وله أصلٌ واحدٌ يدلّ على "تقديرِ شيءٍ، ونفاذِ القضاءِ بهِ؛ منه قولُهم: منَى له المانِي، أي: قدّرَ المقدّرُ"[1].

"والمُنَى، بِضمِّ الميمِ جمعُ المُنيَةِ، وهو ما يتمنَّى الرَّجلُ، والمنوةُ الأُمنيَّةُ في بعضِ اللُّغاتِ"[2] والأمنيةُ والأماني من التمنّي، وهو "تقديرُ شيءٍ في النّفسِ وتصويرُهُ فيها، وذلك قدْ يكونُ عن تخمينٍ وظنٍّ، ويكونُ عن رويّةٍ وبناءٍ على أصلٍ، لكنْ لـمّا كانَ أكثرُه عن تخمينٍ صارَ الكذبُ له أملكَ، فأكثرُ التّمنّي تصوّرُ ما لا حقيقةَ له"[3]؛ وهذا هو حالُ اليهودِ والنَّصارَى في أمانِيّهم.

6) ﴿هَاتُواْ﴾: فعلُ أمرٍ، الأصلُ فيه "هاتيوا حذفتْ الضمةُ لثقلِها، ثمّ حُذفتْ الياءُ لالتقاءِ الساكنينِ"[4] والجذرُ اللغويّ له (هتي) "المهاتاةُ كالمعاطاةُ، يقالُ: هاتِ، أي: أعطِ، فتقولُ: ما أهاتيكَ، أي: لا أعطيكَ"[5].

و"إذا أَمرتَ رجلاً أَنْ يعطيكَ شَيْئًا قلتَ لَهُ: هاتِ يَا رجلُ، وللاثنين: هاتِيَا، وللجميع: هاتُوا، وللمرأة: هاتِي"[6]، والمعنَى في الآيةِ طلبُ أنْ يحضرَ المخاطَبونَ برهانَهم[7] إنْ كانُوا صادقينَ.

7) ﴿بُرۡهَٰنَكُمۡ﴾: اسمُ زنةُ (فُعلان) مثلُ (الرُّجحانِ)، الفعلُ منه (برهنَ يبرهنُ)، وجذرُه (بره)، أو (برهن)، والبرهانُ "الدليلُ الذِي يوقعُ اليقينَ"[8] وهذا معناهُ في القرآنِ الكريمِ.

و"البرْهانُ الحُجَّةُ، وقد بَرْهَنَ عليه، أي: أقامَ الحُجَّةَ"[9]، واختلفُوا في نونِه بينَ الأصالةِ فيكونُ رباعيًّا، أو الزيادةِ فيكونُ ثلاثيًّا.

(1) ابن فارس، مقاييس اللغة: (مني).
(2) ابن منظور، لسان العرب: (مني).
(3) الراغب، المفردات: (مني).
(4) النحاس، إعراب القرآن: 1/74.
(5) ابن فارس، مقاييس اللغة: (هتي).
(6) الأزهري، تهذيب اللغة: (هتى).
(7) جبل، المعجم الاشتقاقي المؤصل: (هتي).
(8) جبل، المعجم الاشتقاقي المؤصل: (هتي).
(9) الجوهري، الصّحاح: (برهن).

والبرهانُ "هو الدليلُ القاطعُ، ... وهو ما يقتضِي الصِّدقَ أبدًا لا محالةَ"[1]، وهو المطلوبُ من أهلِ الكتابِ؛ لإثباتِ صدقِ دعواهُم، ولنْ يستطيعُوا له طلبًا.

8) ﴿صَٰدِقِينَ﴾: جمعُ مذكرٍ سالم، مفردُه (صادقٌ) من الجذرِ اللغويّ (صدق) وهو نقيضُ الكذبِ، وأصلهُ "يدلُّ على قوَّةٍ في الشَّيءِ قولًا وغيرَه، منْ ذلك الصِّدقُ خلافُ الكذبِ، سمِّيَ لقوّتهِ في نفسهِ، ولأَنَّ الكذبَ لا قوَّةَ لهُ"[2].

و"الصِّدْقُ والكذبُ أصلُهما في القولِ؛ ماضيًا كانَ أو مستقبلاً، وعدًا كانَ أو غيرَه"[3].

والواردُ في الآيةِ: ﴿صَٰدِقِينَ﴾ "من الصِّدْق ضدّ الكذبِ"[4]، وقدْ أخبرَ "أنّهم غيرُ صادقِينَ حينَ يعجزونَ عن البرهانِ؛ لأنّ كلّ اعتقادٍ لا يقيمُ معتقِدُه دليلَ اعتقادِه فهو اعتقادٌ كاذبٌ؛ لأنّه لوْ كانَ له دليلٌ لاستطاعَ التعبيرَ عنهُ"[5].

المَعْنَى الإِجْمَاليُّ:

كشفتِ الآيةُ عن علَّةِ الحسدِ، وسببِ كراهيةِ إيمانِ المؤمنينَ، وهو ادِّعاءُ أهلِ الكتابِ أنَّهم أهلُ الجنَّةِ وحدَهم دونَ سواهُم، وهذا الادِّعاءُ عبارةٌ عن أمنيةٍ غيرِ متحقّقةِ الوقوعِ، خاليةٍ من البرهانِ، قاصرةٍ على القلوبِ الجوفاءِ، والأذهانِ الخشنةِ؛ والآيةُ ترجمةٌ لطبيعةِ الحسدِ الجاثمِ في قلوبِ أهلِ الكتابِ تجاهَ المؤمنينَ.

وما دعواهُم تلكَ إلّا أُمنيةً كبُرتْ وتعاظمتْ حتّى صارتْ بمنزلةِ الأمنياتِ الكبيرةِ المتعدّدةِ؛ ولأنّ دخولَ الجنّةِ أمنيةٌ واحدةٌ لكنْ "لشدّةِ تمنّيهم لهذهِ الأمنيةِ، ومعاودتِهم لها، وتأكّدِها في نفوسِهم جُمعتْ؛ ليفيدَ جمعُها أنّها متأكّدةٌ في قلوبِهم، بالغةٌ منهم كلَّ مبلغٍ"[6].

(1) السمين، عمدة الحفّاظ: (برهن).
(2) ابن فارس، مقاييس اللغة: (صدق).
(3) الراغب، المفردات: (صدق).
(4) جبل، المعجم الاشتقاقي المؤصل: (صدق).
(5) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 1/674.
(6) القاسمي، محاسن التأويل: 2/224.

❁ الإيضاحُ اللُّغويُّ والبلاغيُّ:

معنى الواوِ في قولِه تعالَى: ﴿وَقَالُواْ لَن يَدۡخُلَ ٱلۡجَنَّةَ﴾:

التَّنوُّعُ في معاني الواوِ قائمٌ على بيانِ معاني الآياتِ

الواوُ إمَّا أنْ نحملَها على الاستئنافِ؛ وهو ظاهرُ النَّظم، وإمَّا أنْ نحملَها على العطفِ، وذلك بجعلِ الآيةِ السَّابقةِ معترضةً[1]، انتقلَ فيها الكلامُ من الحديثِ عن اليهودِ والنصارَى بقولِه: ﴿وَدَّ كَثِيرٞ مِّنۡ أَهۡلِ ٱلۡكِتَٰبِ لَوۡ يَرُدُّونَكُم مِّنۢ بَعۡدِ إِيمَٰنِكُمۡ كُفَّارًا حَسَدٗا﴾ إلى المسلمينَ بقولِه: ﴿وَأَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُواْ ٱلزَّكَوٰةَۚ وَمَا تُقَدِّمُواْ لِأَنفُسِكُم مِّنۡ خَيۡرٖ﴾، فعندئذٍ يجوزُ العطفُ، بأنْ يعطفَ مقالةَ اليهودِ والنَّصارَى على تمنّيهم عودةَ المسلمينَ إلى شركِهم وضلالِهم.

بلاغةُ اللّفِّ والنّشرِ:

جمعُ الفريقينِ في ضميرٍ واحدٍ لبيانِ اجتماعِهم على الباطلِ

أسلوبُ اللّفِّ والنّشرِ من أساليبِ البلاغةِ التي تدلُّ على حسنِ التأليفِ، وبراعةِ الإيجازِ؛ فاللّفُّ فيهِ غموضٌ يُبقِي الذّهنَ متيقّظًا لفكِّ هذا اللّفِّ ونشرِه، وهنا جمعَ ولفَّ في الضميرِ الواوِ الدالِّ على جمعٍ من الناسِ، فإذَا قيلَ: (قالُوا) بقيَ السامعُ مُنْتبهًا متيقّظًا لمعرفةِ تفسيرِ الضّميرِ، وفائدةُ ذلك بيانُ اتّحادِ الفريقينِ في الباطلِ؛ "فقولُه: ﴿وَقَالُواْ﴾ أرادَ به اليهودَ والنصارَى؛ فجمعهُما في الضميرِ ولفَّهُما بذكرِه، ثمّ إنَّه نشرهُما بعدَ ذلك بقولِه: ﴿مَن كَانَ هُودًا أَوۡ نَصَٰرَىٰۗ﴾، والتقديرُ فيه: وقالتِ اليهودُ لنْ يدخلَ الجنّةَ إلّا من كانَ هودًا، وقالتِ النَّصارَى لنْ يدخلَ الجنّةَ إلّا من كانَ نصرانيًّا، فجمعَه بما ذكرْنا، ثمّ فصّلَه، ولمْ يقلْ ذلك كلّ واحدةٍ من الطائفتينِ، بل أرادَ التكريرَ"[2] من خلالِ إعمالِ العقلِ في ردّ كلِّ قولٍ إلى ما يناسبُه.

---

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 1/672.

(2) العلويّ، الطراز: 2/212.

فائدةُ تعديةِ الفعلِ بنفسِه:

الغرضُ البلاغيُّ مقدَّمٌ على القياسِ النحويّ

تعدَّى الفعلُ المضارعِ ﴿يَدۡخُلَ﴾ بنفسِه، والقياسُ تعديتُه بحرفِ الظَّرفِ أي: (يدخلُ في الجنّةِ)؛ لأنّه ظرفُ مكانٍ مختص، فلا يجوزُ حذفُ الحرفِ معه، لكنّهُ (شبّه ظرفَ المكانِ المختصِّ مع دخلت بالمكانِ غيرِ المختصِّ)[1]؛ فتعدَّى إليهِ بنفسِه لغرضٍ بلاغيّ وهو التوسّعُ؛ فإنّ "في" حرفٌ يدلّ على الظَّرفيَّة، وفي قوله: ﴿لَن يَدۡخُلَ ٱلۡجَنَّةَ﴾ تعبيرٌ مجازيٌّ عن ادِّعائِهم دخولَ الجنَّةِ كلِّها؛ فهذَا هو معنَى التوسّعِ، إذِ الدُّخولُ لنْ يكونَ إلّا لجزءٍ منهَا على التَّسليمِ بقيلِهم.

فائدةُ الترتيبِ في التقسيمِ:

السَّبقُ الزّمانيّ وشدَّةُ العداوةِ سببُ تقديمِ اليهودِ على النصارَى

قُدّمَ ذكرُ اليهودِ على النصارَى كونُهم أسبقَ في الوجودِ؛ فإنّ اليهوديةَ أسبقُ زمنًا من النَّصرانيّةِ؛ واليهودُ أشدُّ عداوةً من النَّصارَى، وآيةُ ذلك قولُه تعالَى: ﴿لَتَجِدَنَّ أَشَدَّ ٱلنَّاسِ عَدَٰوَةً لِّلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱلۡيَهُودَ وَٱلَّذِينَ أَشۡرَكُواْۖ وَلَتَجِدَنَّ أَقۡرَبَهُم مَّوَدَّةً لِّلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱلَّذِينَ قَالُوٓاْ إِنَّا نَصَٰرَىٰۚ﴾ [المائدة: 82]، وقدْ قُدِّمَ ذكرُ اليهودِ على النصارَى في جميعِ القرآنِ الكريمِ.

استعمالُ الإشارةِ للبعيدِ دونَ القريبِ:

الإشعارُ بضعفِ العقولِ المنتجةِ للأوهامِ والأباطيلِ

آثرَ النَّظمُ الكريمُ الإتيانَ باسمِ الإشارةِ للبعيدِ دونَ القريبِ؛ فلمْ يقلْ: هذهِ أمانيّهُم، إشعارًا ببعدِ تلك الأمانيّ عن الواقعِ، وتهكُّمًا بظنونِهم الباطلةِ، وأنّ هذه الأماني مستحيلةُ التّحقّقِ، وهو ما يبيِّن ضعفَ عقولِهم القائمةِ على مثلِ هذهِ الظّنونِ.

العدولُ عن الإفرادِ إلى الجمعِ:

الكشفُ عن مجموعةٍ من المعانِي الكامنةِ في النّفوسِ

عدَلتِ الآيةُ الكريمةُ عن الإفرادِ إلى الجمعِ في قولِه تعالى: ﴿تِلۡكَ أَمَانِيُّهُمۡۗ﴾، إذ القولُ الذي قالُوه مفردٌ؛ فهو أمنيةٌ، ولمجيئِه جمعًا عدَّة توجيهاتٍ منها:

---

(1) أبو حيّان الأندلسي، ارتشاف الضرب: 3/1435.

1- القولُ الذي قالُوه في حقيقتِه جمعٌ متعدّدٌ من مثلِ: "أنْ لا ينزلَ على المؤمنينَ خيرٌ من ربّهم، وأمنيتُهم أنْ يردّوهُم كفّاراً، وأمنيتُهم أنْ لا يدخلَ الجنّةَ غيرُهم، أي: تلك الأماني الباطلةِ أمانيُّهُم"(1).

2- على تقديرِ حذفِ المضافِ، وإقامةِ المضافِ إليهِ مُقامَه؛ فإنّ أصلَ الكلامِ: (أمثالُ تلكَ الأمنيةِ أمانيهُم)، يعنِي: جميعُ أمانيهُم باطلةٌ، هذهِ وغيرُها(2).

3- "ليدلّ على تردّدِ الأمنيةِ في نفوسِهم، وتكرُّرِها فيها، وقيلَ: إشعارًا بأنّها بلغتْ كلَّ مبلغٍ؛ لأنّ الجمعَ يفيدُ زيادةَ الآحادِ؛ فيستعملُ لمطلقِ الزيادةِ"(3).

4- إنّ الذينَ تمنّوا هذه الأماني جمعٌ، وهم اليهودُ والنصارَى؛ فجاءتْ أمانيّهُم مطابقةً لحالِهم الجمعيّ، و"الجمعُ باعتبارِ صدورِه عن الجميعِ"(4)؛ كقولِه تعالَى: ﴿مَّا يَوَدُّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ﴾ [البقرة: 105]، وقولِه تعالى: ﴿وَدَّ كَثِيرٌ مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ﴾ [البقرة: 109]، وغيرِها من الآياتِ الدالّةِ على الجمعِ، وللإيحاءِ بأنّ هذا حالُ أهلِ الكتابِ جميعًا، أو غالبِهم.

بلاغةُ الجملةِ الشرطيّةِ في التعريضِ بكذبِهم

وذكرَ بعدَها الجملةَ الشرطيةَ: ﴿إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿١١١﴾﴾، فجاءَ بإنْ الشرطيةِ أمّ بابِ أدواتِ الشرطِ الدالّةِ على الشكِّ، ثمّ وضعَ فعلَ الشرطِ ماضيًا، فنقلَ زمنَه من المضيّ إلى الحالِ بأنْ يفترضَ حالَهم وقتذاكَ "ومما يفيدُ الحالَ كثيرًا أسلوبُ الإلهابِ والتهييجِ"(5) بقولِه إنْ كنتمْ صادقينَ، وفيه تعريضٌ بكذبِهم، وأضافَ إليهِ الميمَ الدالَّ على الجمعِ؛ ليوافقَ حالتَهم الجمعيةَ، وختمَ بخبرِ كانَ، والتقديرُ: (إنْ كنتُم صادقينَ فهاتُوا برهانَكم)، فكأنّه قدّمَ جوابَ الشرطِ على فعلِه اهتمامًا بهِ؛ ولأنّ مدارَ المُحاججةِ هو في تقديمِ البرهانِ، والدليلُ على صدقِ دعواهُم بأنّهم وحدَهم سيدخلونَ الجنّةَ دونَ سواهُم.

(1) الزمخشري، الكشّاف: 1/310- 311.
(2) الزمخشري، الكشّاف: 1/311.
(3) الآلوسي، روح المعاني: 2/359.
(4) القاسمي، محاسن التأويل: 2/223.
(5) فاضل السامرائي، معاني النحو: 4/68.

❁ الفُرُوقُ المُعْجَمِيَّةُ:

البرهان والدليل:

البرهانُ هو الشيءُ الواجبُ تقديمُه لإثباتِ الصِّدقِ، و"لا يكونُ إلَّا قولاً يشْهدُ بِصِحَّةِ الشَّيْءِ"[1] أمّا الدليلُ فكأنْ تقولَ "دلالتِي على صِحَّةِ مذهبِي كَذَا فتأتِي بقولٍ تحتجّ بِهِ على صِحَّةِ مذهبِك"[2]، ومن الفروقِ بينَهما أنّ "الدَّلِيلَ يكونُ وضعيًّا قدْ يُمكنُ أَنْ يُجْعَلَ على خلافِ ما جُعلَ عليه نَحْو دلَالَةِ الاسْم على المُسَمّى، وأمّا دلَالَةُ البُرْهَانِ فَلَا يُمكنَ أَنْ تُوضَعَ دلَالَةٌ على خلافِ مَا هِي دلَالَةٌ عَلَيْهِ"[3] ومن ذلكَ يتبيّنُ أنّ التعبيرَ بالبرهانِ أقوَى وأظهرُ.

(1) العسكري، الفروقات اللغوية: ص: 71.

(2) المصدر السابق: ص: 71.

(3) العسكري، الفروقات اللغوية: ص: 72.

﴿بَلَىٰۚ مَنۡ أَسۡلَمَ وَجۡهَهُۥ لِلَّهِ وَهُوَ مُحۡسِنٞ فَلَهُۥٓ أَجۡرُهُۥ عِندَ رَبِّهِۦ وَلَا خَوۡفٌ عَلَيۡهِمۡ وَلَا هُمۡ يَحۡزَنُونَ ١١٢﴾ [البقرة: 112]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِمَا قَبْلَها:

بعدَ إبطالِ ادِّعاءِ أهلِ الكتاب بحصرِ دخولِ الجنّةِ فيهم، جيءَ بحرفِ ﴿بَلَىٰٓ﴾ المفيدِ إثباتَ دخولِ الجنَّةِ لِمَنْ أسلمَ، بإخبارٍ يُبطلُ دعوَى اليهودِ والنصارَى أنّ الجنّةَ حكرٌ عليهم، وهُنَا قالَ لهم الحقُّ تباركَ وتعالَى: نَعَمْ، إنّما يدخلُ الجنّةَ مَن كانَ متّصفًا بصفاتِ الإسلامِ والإحسانِ والإتقانِ في العملِ، ويثبتُ الإثابةَ لأهلِ الإنابةِ، فالمناسبةُ بينَ الآيتينِ بحرفِ ﴿بَلَىٰٓ﴾ بديعةٌ أنيقةٌ؛ إذْ ما بعدَه أبطلَ ما قبلَه، وأنصفَ أهلَ الحقِّ بإثباتِ دخولِ الجنّةِ لهم دونَ سواهُم، بنفي الخوفِ والحزنِ عنهُم، وهذا غايةُ ما يرجوهُ المسلِّمُ وجهَه للّهِ ربِّ العالمينَ.

شَرْحُ المُفْرَدَاتِ:

1) ﴿أَسۡلَمَ﴾: فعلٌ ماضٍ، جذرُه اللغويّ (سلم)، و"معظمُ بابِه منَ الصِّحَّةِ والعافيةِ ... فالسّلامةُ أَنْ يسلمَ الإنسانُ منَ العاهةِ والأذَى"[1] ومنهُ الإسلامُ، وهو من الألفاظِ التي اكتسبتْ دلالاتٍ جديدةً بعدَ مبعثِه ﷺ.

"وأَسْلَمَ أمرَه إلى اللّهِ، أيْ: سَلَّمَ وأَسْلَمَ، أي: دخلَ في السّلْمِ، وهو الاستسلامُ"[2] أصبحَ الذي يُسلمُ، بمعنَى دخلَ في الإسلامِ.

ومعنَى الإسلامِ الحقيقيّ أنْ يكونَ معَ الاعترافِ اعتقادٌ بالقلبِ، ووفاءٌ بالفعلِ، واستسلامٌ للّهِ في جميعِ ما قضَى وقدّرَ، كما ذُكرَ عن إبراهيمَ عليه السلام"[3] في قولِه تعالَى: ﴿إِذۡ قَالَ لَهُۥ رَبُّهُۥٓ أَسۡلِمۡۖ قَالَ أَسۡلَمۡتُ لِرَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾ [البقرة: 131].

ومعنَى إسلامِ الوجهِ في الآيةِ "هو تسليمُ الذّاتِ لأوامرِ اللّهِ تعالَى، أيْ: شدّةُ الامتثالِ؛ لأنّ أسلمَ بمعنَى ألقَى السِّلاحَ وتركَ المقاومةَ"[4].

(1) ابن فارس، مقاييس اللغة: (سلم).
(2) الجوهري، الصّحاح: (سلم).
(3) الراغب، المفردات: (سلم).
(4) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 1/674.

2) ﴿وَجۡهَهُۥ﴾: اسمٌ ثلاثيّ مجردٌ، أصلُ حروفِه (وجه) ولهُ "أَصلٌ واحدٌ يدلُّ على مقابلةٍ لشيءٍ، والوجهُ مستقبلٌ لكلِّ شيءٍ"[1].

و"أصلُ الوجهِ: الجارحةُ ... ولـمّا كانَ الوجهُ أوّلَ ما يستقبلُك، وأشرفَ ما في ظاهرِ البدنِ استُعمِلَ في مستقبلِ كلِّ شيءٍ"[2].

والمقصودُ بالوجهِ في أحايينَ كثيرةٍ ذاتُ الإنسانِ "وإنّما عبّرَ بهِ عن الذَّاتِ في لسانِ العربِ؛ لأنّه أشرفُ الأعضاءِ فيهِ"[3] فهو تعبيرٌ مجازيّ، عُبّرَ بالجزءِ وأريدَ الكلُّ، وأريدَ في هذهِ الآيةِ ذاتُ الإنسانِ فـ"عبّرَ عن الذَّاتِ بالوجهِ؛ لأنّه البعضُ الأشرفُ من الذَّاتِ"[4].

وقولُه ﴿وَجۡهَهُۥ﴾ مفعولٌ بهِ، وقدْ أضيفَ للضميرِ، وقدْ يكونُ الوجهُ بمعنَى التوجّهِ؛ لأنّه مشتقٌّ منهُ، فمعنَى مَنْ أسلمَ وجهَه "منْ أخلصَ توجُّهَهُ وقصدَه، بحيثُ لا يلوِي عزيمتَه إلى شيءٍ غيرِه"[5].

3) ﴿مُحۡسِنٞ﴾: اسمُ فاعلٍ من المزيدِ أحسنَ فهو محسنٌ، والجذرُ اللّغويُّ لهذهِ اللّفظةِ (حسن) ومنهُ الحُسْنُ، وأصلُ معناهُ واضحٌ، وهو نقيضُ القُبحِ[6]، وهو "عبارةٌ عن كلّ مُبهجٍ مَرْغُوبٍ فيه ... والحَسَنَةُ يُعبّرُ عنها، عن كُلّ ما يسرُّ من نعمةٍ تنالُ الإنسانَ في نفسِه وبدنِه وأحوالِه، والسّيئةُ تضادُّها"[7].

ولا يكفِي أنْ يُسلمَ ويتواضعَ للّهِ، بلْ لا بدّ أنْ يقترنَ ذلك بأنْ يكونَ مُحسنًا، "وأنْ يكونَ تواضعُه للّهِ بفعلٍ حسنٍ، لا بفعلٍ قبيحٍ"[8].

4) ﴿أَجۡرُهُۥ﴾: اسمٌ ثلاثيّ وزنُه (فَعْل)، جذرُه اللغويّ من الهمزةِ والجيمِ والراءِ، ولهُ أصلانِ في معناهُ "فالأولُ الكراءُ على العملِ، والثاني جبرُ العظمِ الكسيرِ"[9] على

(1) ابن فارس، مقاييس اللغة: (وجه).
(2) الراغب، المفردات: (وجه).
(3) السمين، عمدة الحفّاظ: (وجه).
(4) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 1/674.
(5) القاسميّ، محاسن التأويل: 2/224.
(6) ابن فارس، مقاييس اللغة: (حسن).
(7) الراغب، المفردات: (حسن).
(8) الرازي، مفاتيح الغيب: 4/4.
(9) ابن فارس، مقاييس اللغة: (أجر).

أنّه يمكنُ الجمعُ بينَهما، "والمعنَى الجامعُ بينَهما أنّ أجرةَ العاملِ كأنّها شيءٌ يجبرُ بِهِ حالَه فيما لحقَه من كدٍّ فيما عملَه"[1] فهو إذنْ (الجَزاءُ على العَمَلِ)[2].

والأجرُ ما "يعودُ من ثوابِ العملِ دنيويًا كانَ أو أخرويًا"[3] والمقصودُ هنَا في هذهِ الآيةِ في الآخرةِ، وقدْ يُطلقُ على الثوابِ أيضًا.

5) ﴿رَبِّهِۦ﴾: اسمٌ مُضعّفٌ ثُلاثيّ (ربّ)، الجذرُ اللغويّ منه (ربب)، ولمعناهُ ثلاثةُ أصولٍ؛ الأولُ "إصلاحُ الشيءِ، والقيامُ عليه، فالربّ: المالكُ والخالقُ والصاحبُ، والربّ: المصلحُ للشيءِ"[4].

وهناكَ أصلانِ آخرانِ هما "لزومُ الشيءِ، والإقامةُ عليهِ ... والأصلُ الثالثُ: ضمُّ الشّيءِ للشّيءِ"[5] والثاني والثالثُ مناسبانِ للأصلِ الأولِ، والتحقيقُ في الأصولِ الثلاثةِ يجعلُها بابًا واحدًا.

والربُّ "الملكُ والسيّدُ والمصلحُ والصاحبُ، وكلُّها معانٍ متقاربةٌ، ولا يقالُ مطلقًا إلّا للبارِي تعالَى"[6].

و"الرَّبُّ في الأصلِ: التّربيةُ، وهو إنشاءُ الشيءِ حالاً فحالاً إلى حدّ التمامِ، يقالُ: رَبَّهُ، وربّاه ورَبَّبَهُ"[7]، وقدْ عبّرَ بالربِّ في نوالِ الأجرِ لأنّهُ" الناظرُ في مصالحِه ومربّيه ومدبِّرُ أحوالِه؛ ليكونَ ذلكَ أطمعَ لهُ، فلذلكَ أتَى بصفةِ الربِّ"[8].

6) ﴿خَوۡفٌ﴾: اسمٌ ثلاثيّ من الفعلِ خافَ يخافُ، أصلُه (يَخْوفُ)، ثُمّ حصلَ فيهِ إعلالٌ، فجذرُه اللغويّ (خوف)، ولهُ "أَصلٌ واحدٌ، يدلُّ على الذُّعرِ والفزَعِ، يقالُ: خِفْتُ الشَّيءَ خوفًا وخيفةً، والياءُ مُبدلَةٌ من واوٍ، لمكانِ الكسرةِ، ويُقالُ: خاوفَني فلانٌ فخفتُه، أَي: كُنْتُ أَشدَّ خوفًا منه"[9].

---

(1) المصدر السابق: (أجر).
(2) الزبيدي، تاج العروس: (أجر).
(3) الراغب، المفردات: (أجر).
(4) ابن فارس، مقاييس اللغة: (ربب).
(5) المصدر السابق: (ربب).
(6) السمين، عمدة الحفّاظ: (ربب).
(7) الراغب، المفردات: (ربب).
(8) أبو حيان، البحر المحيط: 1/564.
(9) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (خوف).

ومعنَى الخوفِ عامّةً "توقّعُ مكروهٍ عن أمارةٍ مظنونةٍ، أو معلومةٍ ... ويضادّ الخوفُ الأمنَ، ويُستعملُ ذلك في الأمورِ الدنيويةِ والأخرويةِ"[1].

والواردُ في الآيةِ بهذا المعنَى المقابلِ للأمنِ، وأكثرُ ما يردُ في القرآنِ الكريمِ من لفظِ الخوفِ هو المضادُّ لمعنَى الأمنِ[2].

7) ﴿يَحۡزَنُونَ﴾: فعلٌ مضارعٌ مسندٌ لواوِ الجماعةِ، الماضِي منهُ (حزنَ)، والجذرُ اللغويّ (حزن)، وأصلُ حروفِه يدلُّ على "خشونة الشَّيءِ، وشدّة فيه، فمنْ ذلك الحَزْنُ، وهو ما غلظَ منَ الأرضِ"[3].

و"الحُزْنُ والحَزَنُ: خشونةٌ في الأرضِ، وخشونةٌ في النفسِ لـمَا يحصلُ فيهِ من الغمِّ، ويضادّهُ الفرحُ"[4].

والحزنُ معروفٌ فهو نقيضُ الفرحِ، وهو ما يصيبُ الإنسانَ من غمٍّ وكربٍ، وهو "عبارةٌ عمّا يحصلُ لوقوعِ مكروهٍ، أو فواتِ محبوبٍ في الماضِي"[5].

"وكلُّ ما في القرآنِ من (الحُزنِ)، ومضارعُ (حزِنَ) و(حزَنَ) فهو بمعنَى الشّعورِ بالألمِ، والخشونةِ في النّفسِ والغَمِّ، ولا يتأتّى فيهِ قيدُ فواتِ شيءٍ إلّا بتكلّفٍ"[6].

وفي نفْيِ الخوفِ والحزنِ "أرادَ زوالَ الخوفِ والحزنِ عنهُم في الدنيا، ومنهُم مَن قالَ في الآخرةِ في حالِ الثوابِ"[7].

۞ المَعْنَى الإِجْمَالِيُّ:

صُدِّرتِ الآيةُ بحرفِ ﴿بَلَىٰ﴾ ردًّا على أهلِ الكتابِ في ادِّعائِهم أنَّ دخولَ الجنَّةِ منحصرٌ فيهم، وإثباتًا للأصلِ العظيمِ الذِي قامَ عليهِ دينُ اللّهِ تعالى، وهو أنَّ دخولَ الجنَّةِ لا يكونُ إلّا لـمَن أسلمَ وجهَه للّهِ على شرطِ الإحسانِ، وعدَلتِ الآيةُ عن التَّصريحِ بدخولِ

(1) الراغب، المفردات: (خوف).
(2) جبل، المعجم الاشتقاقي المؤصل: (خوف).
(3) ابن فارس، مقاييس اللغة: (حزن).
(4) الراغب، المفردات: (حزن).
(5) الجرجانّي، التعريفات، ص: 86.
(6) جبل، المعجم الاشتقاقي المؤصل: (حزن).
(7) الرازي، مفاتيح الغيب: 3/113.

الجنَّةِ إلى إثباتِ الأجرِ عندَ اللّهِ تعالى، ونفْي الخوفِ من المستقبلِ، والحزنِ على الماضِي؛ فإنَّ مدارَ حياةِ الإنسانِ في الدُّنيَا عليهِما، ومن نُفِي عنهُ الحزنُ والخوفُ باتَ في الجنَّةِ، ولنْ يكونَ ذلكَ إلّا لأهلِها فيهَا.

الإيضاحُ اللُّغويُّ والبلاغيُّ:

بلاغةُ الردِّ بالأداةِ بلَى:

الجمعُ بينَ الرَّدِّ علـى البـاطـلِ، وإثباتِ نقيضهِ

جيءَ بـ﴿بَلَىٰ﴾ ردًّا على ادِّعاءِ أهلِ الكتابِ في انحصارِ دخولِ الجنَّةِ فيهم، وهي إمَّا أنْ تُحملَ على الرَّدِّ المجرَّدِ، ويكونَ ما بعدَها استئنافُ كلامٍ، وفي هذا الوجهِ تُفيدُ قوَّةَ الرَّدِّ على أهلِ الكتابِ، وإمَّا أنْ يُحملَ ما بعدَها على أنْ يكونَ فاعلًا لفعلٍ محذوفٍ تقديرُه: يدخلُها منْ أسلمَ[1]، فتُفيدُ الرَّدَّ عليهِم، وإثباتَ عكسِ ادِّعائِهم؛ والوجهانِ بليغانِ في الرَّدِّ على الأباطيلِ المرجفةِ تخليةً، وإثباتِ الحقِّ لأهلِه تحليةً.

نكتةُ استعمالِ ﴿مَنْ﴾:

اجتماعُ العمومِ بدلالةِ الشَّرطِ

لاستعمالِ ﴿مَنْ﴾ في هذا السِّياقِ غرضانِ بيانيّانِ، أحدُهما: دلالتُها على العمومِ، فدخولُ الجنَّةِ ليسَ منحصرًا بأحدٍ، أو بطائفةٍ، فإنَّ دخولَ الجنَّةِ متاحٌ لكلِّ مَن أسلمَ وجهَه للّهِ وهو محسنٌ، والثَّانيةُ: إشرابُها معنَى الشّرطِ، فلا يدخلُ الجنَّةَ إلّا من اكتملَ فيه شرطُ الإسلامِ الصَّحيحِ، اعتقادًا وعملًا، وفي ذلكَ إيجازٌ بديعٌ بتخصيصِ العامِّ بالشّرطِ.

نكتةُ التَّعبيرِ بصيغةِ الفعلِ الماضِي:

التَّعريضُ بأهلِ الكتابِ

جاءَ فعلُ ﴿أَسْلَمَ﴾ بصيغةِ الماضِي دونَ المضارعِ؛ للتَّعريضِ بمَنْ لم يُسلمْ وجهَه للّهِ، ولوْ قالَ: "مَن يسلمْ" لمَا أفادَ التَّعريضَ، ذلك

(1) الزمخشري، الكشّاف: 1/178.

أنَّ الفعلَ المضارعَ يُفيدُ التَّجدُّدَ والاستقبالَ، والمقصودُ إثباتُ دخولِ الجنَّةِ لمَنْ أسلمَ وجهَه للّهِ، والتَّعريضُ بالمخالفِ لهذهِ الحالةِ، فدلالةُ المُضيِّ تُستنبطُ من سياقِ الكلامِ لا من ذاتِ الصِّيغة، وهو الملائمُ للرَّدِّ بـ﴿بَلَىٰ﴾.

توجيهُ المخصوصِ بالذِّكرِ:

تـخـصـيـصُ الـوجـهِ بـالـذِّكـرِ لشرَفِه على بقيَّةِ الأعضاءِ

خَصَّتِ الآيةُ الوجهَ بالذِّكرِ دونَ بقيَّةِ الأعضاءِ، فلمْ يقلْ: "مَن أسلمَ نفسَه"، أوْ "مَنْ أسلمَ قلبَه"؛ "لأنّهُ أشرفُ الأعضاءِ، ومجمعُ المشاعرِ، وموضعُ السجودِ، ومظهرُ آثارِ الخضوعِ"[1]، ولمّا كانَ الخضوعُ والانقيادُ والتسليمُ قدْ حصلَ بأشرفِ الأعضاءِ، فإنّ غيرَه أولَى بهذَا التواضعِ والخضوعِ، وفيهِ إشارةٌ إلى "أعظمِ العباداتِ؛ السّجدةُ، وهي إنّمَا تحصلُ بالوجهِ، فلا جرمَ خُصَّ الوجهُ بالذّكرِ"[2]، وهي دليلٌ على خضوعِ العبدِ، وأنّ الإنسانَ يصلُ في سجودِه إلى أعلَى مراتبِ القُربِ منه تعالى، وهو إنّمَا يحصلُ بوجهِ الإنسانِ، قالَ ﷺ: «أَقْرَبُ مَا يَكُونُ العَبْدُ مِنْ رَبِّهِ وهو ساجد؛ فأكثروا الدعاء»[3].

ارتباطُ الإحسانِ بالتّسليمِ:

إتـيـانُ جـملـةِ الحالِ متضمِّنةً معنَى الشَّرطِ

جملةُ: ﴿وَهُوَ مُحْسِنٌ﴾ المكوَّنةُ من واوِ الحالِ، والمبتدأ، والخبرِ حاليّةٌ، ومعناهَا: مَن يُسلمْ وجهَه للّهِ حالَ كونِه محسنًا، ففي جملةِ الحالِ معنَى الشَّرطِ، أيْ: على من يُسلمْ وجهَه للّهِ أنْ يكونَ مُحسنًا، فلا الإخلاصُ وحدَه بنافعٍ، ولا الحسنُ وحدَه كذلك، و"لا بُدّ وأنْ يكونَ تواضعهُ للَّهِ بفعلٍ حسنٍ لا بفعلٍ قبيحٍ، فإنّ الهندَ يتواضعونَ للّهِ لكنْ بأفعالٍ قبيحةٍ"[4]، فحقيقةُ الإحسانِ هو الامتثالُ لأوامرِ الشَّرعِ؛ فلا يكفِي ادِّعاءُ الإسلامِ، بلْ لا بدَّ معَه منَ الإحسانِ.

(1) القاسمي، محاسن التأويل: 2/224.
(2) الرازي، مفاتيح الغيب: 4/4.
(3) مسلم، المسند الصحيح المختصر: (482).
(4) الرازي، مفاتيح الغيب: 4/4.

نكتةُ التّقديمِ والتّأخيرِ:

إفادةُ التَّشويقِ لدى المخاطَبِ

قُدِّمَ الجارُّ والمجرورُ على قولِه: ﴿أَجۡرُهُۥ﴾؛ لإفادةِ التَّشويقِ؛ فإنَّ نفسَ المُسلِّمِ وجهَه للّهِ تترقَّبُ معرفةَ ما أُعدَّ لها، وإضافةُ (أجرِ) إلى الضَّميرِ ممَّا يقوِّي عنصرَ التَّشويقِ فهو أجرُه المكتوبُ له، المحفوظُ عندَ ربِّه.

إيثارُ عنوانِ الربوبيّةِ على الألوهيةِ:

الإشعارُ بالطُّمأنينةِ والسَّكينةِ لمَا يكونُ للعبدِ في الآخرةِ

ذُكرَ لفظُ الربوبيَّةِ دونَ الألوهيّةِ في قولِه تعالَى: ﴿عِندَ رَبِّهِۦ﴾؛ لأنّ الربَّ هو "النَّاظرُ في مصالحِه ومربِّيه ومدبّرُ أحوالِه؛ ليكونَ ذلكَ أطمعَ لهُ، فلذلك أَتى بصفةِ الرّبِّ"[1]، وفي ذلك إشعارٌ للمحسنِ بالطُّمأنينةِ والاستقرارِ؛ فإنَّ الذي خلقَه وربَّاهُ في أحسنِ صورةٍ هو الذي سيربِي لهُ أجرَه في الآخرةِ "وهو عبارةٌ عن دخولِ الجنّةِ، وتصويرُه بصورةِ الأجرِ؛ للإيذانِ بقوةِ ارتباطِه بالعملِ"[2]، وهو ما يُورِّثُ الطَمأنينةَ في النّفوسِ.

نكتةُ تخصيصِ نفْيِ الخوفِ والحزنِ بالذكرِ:

نفيُ الخوفِ والحزنِ زيادةٌ في التَّطمينِ

قولُه تعالَى: ﴿وَلَا خَوۡفٌ عَلَيۡهِمۡ وَلَا هُمۡ يَحۡزَنُونَ﴾، وردَ مثلُ هذا التعبيرِ في مواضعَ ليستْ قليلةً تصلُ إلى اثنَي عشرَ موضعًا، وجاءتْ كلّها في سياقاتِ المدحِ والتّطمينِ "ولمّا كانَ الخوفُ والحزنُ متلازمينِ كانتْ خصوصيَّةُ كلِّ منهما ساريةً في الآخرِ"[3] وهذه الجملةُ هنا معطوفةٌ بالواوِ على ما سبقَ من صفاتِ الذِي يُسلمُ وجهَه للّهِ وهو محسنٌ، فبعدَ أنْ بيّنَ صفاتِهم تلك زادَ عليها نفيَ الخوفِ "فأمّا الخوفُ فلا يكونُ إلّا منَ المستقبلِ"[4]، وهنا نفَى عنهم الخوفَ والحزنَ زيادةً في تطمينِهم.

(1) أبو حيّان، البحر المحيط: 1/564.
(2) القاسميّ، محاسن التأويل: 2/224.
(3) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 1/541.
(4) الرازي، مفاتيح الغيب: 4/4.

تقديمُ نفي الخوفِ على نفي الحزنِ:

الـخــوفُ من مقدّماتِ الحزنِ ولا عكسَ

ثمّ عطفَ عليهِ: ﴿وَلَا هُمۡ يَحۡزَنُونَ﴾، نفَى عنهم الحزنَ، و﴿يَحۡزَنُونَ﴾ جملةٌ فعليةٌ تفيدُ الحالَ أو الاستقبالَ، في محلِّ رفعِ خبرٍ، "وأمَّا الحزنُ فقدْ يكونُ منَ الواقعِ والماضِي، كما قدْ يكونُ منَ المستقبلِ"[1]، وفي تقديم الضّميرِ الدالِّ على المنفيّ عنهم الحزنُ، فيهِ تخصيصُ هؤلاءِ بنفي الحزنِ عنهم زيادةً في مدحِهم، وقدْ قدّمَ نفيَ الخوفِ على نفيِ الحزنِ؛ لأنّ الخوفَ من مقدّماتِ الحزنِ ولا عكسَ، فالخائفُ يكونُ حزينًا، وليسَ شرطًا أنْ يكونَ الحزينُ خائفًا؛ فقدّمَ السببَ وأخّرَ النتيجةَ.

سرُّ التّغايرِ بينَ الاسمِ ﴿خَوۡفٌ﴾ والفعلِ ﴿يَحۡزَنُونَ﴾:

دلالــةُ الاسـمِ عـلى الـثـبـاتِ، والـفـعـلِ على التغيّرِ

في قولِه تعالَى: ﴿وَلَا خَوۡفٌ عَلَيۡهِمۡ وَلَا هُمۡ يَحۡزَنُونَ﴾ الواردِ كثيراً في القرآنِ الكريمِ فكأنّه صارَ كالمثلِ، جاءَ بالخوفِ اسمًا، وجاءَ بـ﴿يَحۡزَنُونَ﴾ فعلاً مضارعاً، فأمّا نفيُ الخوفِ فجاءَ "لإفادةِ نفي جنسِ الخوفِ نفيًا قارًا، لدلالةِ الجملةِ الاسميةِ على الدوامِ والثباتِ"[2]، أمّا عدمُ التعبيرِ بالاسمِ كالأولِ "ليتأتَّى بذلك بناءُ المسندِ الفعليّ على ضميرِهم، فيدلّ على أنّ الحزنَ واقعٌ بغيرِهم، وهم الذينَ كفرُوا"[3]، وهو مفهومٌ من نفيِ الحزنِ عن الذينَ آمنُوا.

وأحسنُ منهُ ما نقلَه الفخرُ الرازيّ عن ابنِ عباسٍ بأنّه: "لا خوفَ عليهم فيمَا يستقبلُهم من أحوالِ القيامةِ، ولا همْ يحزنونَ بسببِ ما تركوهُ في الدنيَا"[4]، فالحزنُ في الدنيَا أو عليهَا، وأمرُ الدنيا متغيّرٌ ليسَ بثابتٍ، والحزنُ مقترنٌ بالآخرةِ، وهي دارُ القرارِ؛ فعبّرَ بالاسميةِ عن دارِ القرارِ، وبالفعليةِ عن دارِ الابتلاءِ؛ فجاءَ النظمُ متوافقًا مع الاثنينِ، متناسبًا ثباتًا وتغيّرًا.

---

(1) المصدر السابق: 4/4.

(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 1/540.

(3) المصدر السابق: 8/110.

(4) الرازي، مفاتيح الغيب: 7/104.

سرُّ التَّغايرِ بينَ الإفرادِ والجمعِ:

الألفاظُ توابعُ المعنَى، وكواشفُ الدّلالةِ

وقعَ تغايرٌ بينَ الإفرادِ والجمعِ في قولِه: ﴿بَلَىٰۚ مَنۡ أَسۡلَمَ وَجۡهَهُۥ لِلَّهِ وَهُوَ مُحۡسِنٞ فَلَهُۥٓ أَجۡرُهُۥ عِندَ رَبِّهِۦ وَلَا خَوۡفٌ عَلَيۡهِمۡ وَلَا هُمۡ يَحۡزَنُونَ﴾، فجاءَ الإفرادُ في صدرِ الآيةِ في: ﴿أَسۡلَمَ﴾، و﴿وَجۡهَهُۥ﴾، و﴿وَهُوَ﴾، و﴿مُحۡسِنٞ﴾، و﴿فَلَهُۥٓ﴾، و﴿أَجۡرُهُۥ﴾، و﴿رَبِّهِۦ﴾، بينَما جاءَ الجمعُ في قولِه: ﴿عَلَيۡهِمۡ﴾، و﴿هُمۡ﴾، و﴿يَحۡزَنُونَ﴾، فالنَّظم "أَجْرَى الأوّلَ على لفظِ الواحدِ، والآخِرَ على المعنَى"[1]، فما جاءَ مفردًا رجعَ إلى ﴿مَنۡ﴾، فلفظُها مفردٌ، ومعناها جمعٌ، فروعِيَ الإفرادُ اللفظيّ، وأمَّا الجمعُ فلمراعاةِ معنَى ﴿مَنۡ﴾ وهنَا يُسألُ عن سرِّ تلك المراعاةِ، فهلْ جاءتْ لسببٍ معنويٍّ بلاغيّ؟ أوْ أنَّها جاءتْ تفنّنًا لفظيًّا؟

والصَّحيحُ أنَّ الأمرَ عائدٌ إلى المعنَى، فالآيةُ جمعتْ بينَ الحديثِ عن صفاتِ كلِّ مسلم وحدَه باعتبارِه الفردِيّ، وبينَ الحديثِ عن مآلِ الجميعِ؛ أمّا المعنى الإفرادِيّ فاستقلَّ بما يجبُ على كلِّ مسلمٍ، وأمّا المعنَى الجمعيّ ففيمَا يشتركُ فيه الجميعُ؛ فإنَّ الخوفَ والحزنَ إذا وقعَا أصابَا الجميعَ، وإذَا ارتفعَا نجَا منهما الجميعُ.

(1) سيبويه، الكتاب: 1/65.

﴿وَقَالَتِ ٱلۡيَهُودُ لَيۡسَتِ ٱلنَّصَٰرَىٰ عَلَىٰ شَيۡءٖ وَقَالَتِ ٱلنَّصَٰرَىٰ لَيۡسَتِ ٱلۡيَهُودُ عَلَىٰ شَيۡءٖ وَهُمۡ يَتۡلُونَ ٱلۡكِتَٰبَۗ كَذَٰلِكَ قَالَ ٱلَّذِينَ لَا يَعۡلَمُونَ مِثۡلَ قَوۡلِهِمۡۚ فَٱللَّهُ يَحۡكُمُ بَيۡنَهُمۡ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ فِيمَا كَانُواْ فِيهِ يَخۡتَلِفُونَ ١١٣﴾ [البقرة: 113]

مُناسَبةُ الآيَةِ لِما قَبْلَها:

بعد أنْ أبطلتِ الآياتُ السَّابقةُ ادِّعاءَ اليهودِ والنَّصارى قَصْرَ دخولِ الجنَّة عليهم، وبيَّنت أنَّ دخولَ الجنةِ لن يكونَ إلّا للمسلمِ الحقِّ، شرعَتْ هذه الآيةُ ببيانِ تناقُضِهم فيما بينهم؛ لتكون دليلًا على دحضِ ادِّعائهم، وبيانِ زيفِه، فهي من قبيل التَّناسُب في بيانِ بطلانِ حُجَّةِ الخصمِ من كلامِه، وهذه طريقةُ القرآنِ الحِجاجيَّة، من أيسَرِ الطُّرُق وأقواها منهجًا، "ثمّ شبّه بهم في نحو هذا القول الجهلةَ ... وفي ذلك غايةُ العيبِ لهم؛ لتسوية حالهم مع علمهم بحال الجهلة"[1].

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿ٱلۡيَهُودُ﴾: اسمُ عَلَم على بني إسرائيل، "وهم قومُ موسى عليه السلام، ويُطلقُ عليهمُ العبرانيّون"[2]، واشتقاقُ الاسم من هادُوا أي: تابُوا[3].

وهي تسميةٌ حقيقيّةٌ لهم؛ فقد سُمُّوا بذلك لكونهم أولاد يَهُودَا بنِ يَعقُوبَ، أو لكونهم هادُوا وتابُوا عن عبادة العِجْل[4] وكان في الأصل اسمَ مدح، ثمّ صار بعد أن نُسِخَتْ شريعتهم لازمًا لهم، وإنْ كان لا يعطي معنى المدح[5].

2) ﴿يَتۡلُونَ﴾: فعل مُضارع من الأفعال الخمسة مُسندٌ إلى الجماعة، جذره من التّاء واللّام والواو، ومعناه "الاتِّباعُ، يقالُ: تَلَوتُه إذا تَبِعتُه، ومنهُ تلاوةُ القرآنِ؛ لأنَّهُ يُتّبَعُ

(1) البقاعيّ، نظم الدُّرر: 2/115.
(2) أحمد مختار عمر، معجم اللّغة العربيّة المعاصرة: (هود).
(3) ابن منظور، لسان العرب: (هود).
(4) الهرريّ، تفسير حدائق الرّوح والرّيحان: 8/13.
(5) الراغب، المفردات: (هود).

آيةً بعدَ آيةٍ"[1]، أو الكلمة بعد الكلمة أو الحرف بعد الحرف، وهو المعنى المراد في الآية، وهو أنّ اليهود والنّصارى يَتْلُونَ الكتاب، لكنّهم لا يعملونَ به.

3) ﴿مِثۡلَ﴾: اسم ثلاثيّ مجرّد جذره اللُّغويّ (مثل) ومعناه "شِبهُ الشّيءِ في المِثال والقَدر ونحوِه حتّى في المعنى، ويُقال ما لهذا مَثيلٌ"[2].

والوارد في الآية بمعنى المشابهة بقوله: ﴿قَالَ ٱلَّذِينَ لَا يَعۡلَمُونَ مِثۡلَ قَوۡلِهِمۡۚ﴾ أي: قول هؤلاء الجهلة يشبهُ قولَ اليهودِ والنّصارى فهو صادرٌ أيضًا عن الجهل.

4) ﴿يَحۡكُمُ﴾: فعلٌ مُضارع، الجذر اللُّغويّ منه (حكم)، ومن معانيه المشهورة ذات العلاقة بالآية ههنا: القضاء، فيحكم بمعنى: يقضي[3] .

5) ﴿ٱلۡقِيَٰمَةِ﴾: اسم من أسماء الآخرة، الفعل منه (قام يقوم)، "ويُقال هذا قوام الأمر وملاكُه"[4]، وهو اليومُ الّذي يقومُ فيه النَّاس لربِّ العالمين فهو "يومُ البعث، يوم يقوم فيه الخَلْقُ بين يَدَي الحيِّ القيوم"[5].

6) ﴿يَخۡتَلِفُونَ﴾: فعل مضارع مُسندٌ إلى واو الجماعة، الماضي منه (اختلفَ)؛ وزنه (افتعلَ)، وجذره اللُّغويّ (خلف) و "الخاءُ واللَّامُ والفاءُ أُصولٌ ثلاثةٌ أَحدُها أَنْ يجيءَ شيءٌ بعدَ شيءٍ يقومُ مقامَهُ، والثَّاني خِلافُ قُدَّام، والثَّالثُ التَّغيُّرُ"[6].

وأمّا الوارد في الآية "فمنَ البابِ الأوّلِ؛ لأنَّ كلَّ واحدٍ منهم يُنحِّي قولَ صاحبِه، ويُقيمُ نفسَهُ مُقامَ الَّذي نحَّاهُ"[7] وهذا المعنى ينطبقُ انطباقًا تامًا على اليهود والنّصارى مثلما ورد في الآية؛ فاللّٰه يحكُمُ يومَ القيامة في اختلاف اليهودِ والنّصارى.

❁ المَعْنَى الإِجْمَاليُّ:

صوَّرتِ الآيةُ الخلافَ بين اليهودِ والنَّصارى، فقد ادّعت اليهود أنّ النّصارى ليست على شيءٍ لإثباتِ الحقِّ لها، وهو ادّعاء النَّصارى نفسُه، وهذه الآية "نزلَت في يهودِ أَهلِ

---

(1) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (تلو).
(2) الخليل، العين: (مثل).
(3) ابن منظور، لسان العرب: (حكم).
(4) الأزهريّ، تهذيب اللّغة: (قام).
(5) الأزهري، تهذيب اللّغة: (قام).
(6) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (خلف).
(7) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (خلف).

المدينةِ ونصارَى أَهلِ نجرانَ ... لمَّا قدِمُوا على رسولِ اللّهِ ﷺ أتاهمْ أَحبارُ اليهودِ فتناظروا حتَّى ارتفعَتْ أَصواتهم"[1]، واتّهمت كلُّ فرقة الأخرى أنّها ليست على شيءٍ من الدِّين الحقِّ الّذي يُعتدُّ به؛ فأنزلَ اللّهُ هذه الآية.

ثمّ عرّضت بهم الآيةُ بأنْ صرَّحت بتلاوتِهم للكتاب، أي: التّوراة والإنجيل، والكتابان مكمّلٌ أحدُهما للآخر، ومع ذلك فكلُّ طائفة كفّرت الأخرى، ثمَّ شبَّهتِ الآيةُ صنيعَهم هذا بصنيع الجهلة، بيانًا لحالِهم، وكشفًا لحقيقةِ أمرِهم، وخلا ذلك فاللّه تعالى هو الحَكَمُ الفَصلُ يوم القيامة.

الإيضاحُ اللُّغويُّ والبلاغيُّ:

بلاغةُ عطفِ القول على القولِ:

بيانُ واقعِ الأقوالِ المتناقضةِ الصّادرةِ عن مُتكلِّمٍ واحد

عُطِف قولُه تعالى: ﴿وَقَالَتِ ٱلۡيَهُودُ لَيۡسَتِ ٱلنَّصَٰرَىٰ عَلَىٰ شَيۡءٖ﴾ على قولِه تعالى: ﴿وَقَالُواْ لَن يَدۡخُلَ ٱلۡجَنَّةَ إِلَّا مَن كَانَ هُودًا أَوۡ نَصَٰرَىٰۗ﴾؛ "لزيادة بيانِ أَنَّ المُجَازَفَةَ دَأْبُهم، وَأَنَّ رَميَ المُخالِفِ لهم بأَنَّهُ ضَالٌّ شِنشِنَةٌ قديمةٌ فيهم، فهُم يَرمُونَ المُخالِفينَ بالضَّلالِ لمُجَرَّدِ المُخالفَةِ، فقديمًا رمَتِ اليهودُ النَّصارى بالضَّلالِ ورمَتِ النَّصارى اليهودَ بمثلِه؛ فلا تَعجبُوا مِنْ حُكمِ كُلِّ فريقٍ منهُم بأَنَّ المُسلمِينَ لا يدخُلُونَ الجَنَّةَ، وفي ذلك إِنْحاءٌ على أَهلِ الكتابِ وتَطمِينٌ لخواطرِ المُسلمِينَ ودَفعِ الشُّبهَةِ عَنِ المُشركِينَ بأَنَّهُم يَتَّخذونَ مِنْ طَعنِ أهلِ الكتابِ في الإسلامِ حُجَّةً لأَنفُسِهم على مُناوأَتِهِ وثَباتًا على شِركِهم"[2].

فائدةُ تأنيثِ الفعلِ المُسندِ إلى الفاعلِ:

بيانُ أثرِ اللّمسَةِ البيانيَّةِ في الكشفِ عن قيمةِ العدل في نظمِ القرآن

صدّرتِ الآيةُ الفعلَ ﴿وَقَالَتِ﴾ بتاء التأنيث، وأسندَتهُ إلى ﴿ٱلۡيَهُودُ﴾؛ لأنّه على تقدير جماعةٍ أو فرقةٍ أو طائفةِ اليهود[3]؛ لبيانِ أنَّ الصّادرَ

(1) النّيسَابوري، أسباب نزول القرآن، ص: 36.

(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 1/675.

(3) السّيرافي، شرح كتاب سيبويه: 4/23.

عنهم صادرٌ باعتبارِهم جماعةً، وأنَّ هذا القولَ لا يصدُرُ عن جميعِهم بل عن مجموعِهم، وهذا من لمسات القرآنِ البيانيَّةِ، التي تُنبئُ عن العدلِ في التَّعاملِ مع المخالفِ، ومن النَّاحية الصرفيَّة؛ فاليهود اسمُ جنسٍ جمعيٍّ، وهو "من الجموعِ التي بينها وبين واحدِها ياءُ النِّسبة"[(1)]؛ فالمفردُ من اليهود يهوديّ بإضافة ياء النسبة[(2)]، وقد جاءَ إسنادُ الفعلِ الملحَق به تاء التَّأنيثِ أربع مرَّاتٍ في القرآنِ الكريمِ[(3)].

صُدُورُ القولِ عن فرقةٍ، لا ينفي صُدُورَها عن المجموعِ:

معنى الألف واللّام في كلمةِ اليهود والنَّصارى

تحتملُ الألفُ واللَّام في كلمةِ اليهود والنَّصارى أن تكونَ للجنسِ؛ ويكون "المراد عامَّة اليهودِ، وعامَّة النّصارَى؛ فهذا منَ الإخبارِ عن الأممِ السّالفةِ"[(4)]، وتحتمل أن تكونَ للعهد الحضوريّ، ويكون "المرادُ يهودَ المدينةِ ونصارَى نجرانَ، حيثُ تماروْا عندَ الرَّسولِ وتسابُّوا"[(5)]؛ كما هو واردٌ في سبب النُّزول، ولا تعارضَ بين الاحتمالين؛ فإنَّ ما صدرَ عن يهود المدينةِ ونصارى نجران، هو الصَّادرُ عن مجموعِ اليهودِ والنَّصارى؛ فهو غير خاصٍّ بهما.

سِرُّ التَّعبيرِ بـ﴿لَيۡسَتِ﴾:

بيانُ شدَّة العداوة بين الفريقين، وكشفٌ عمَّا يتمنَّاه كلُّ فريقٍ للآخر

التَّعبير بـ(ليس) في قولِه تعالى: ﴿لَيۡسَتِ ٱلنَّصَٰرَىٰ عَلَىٰ شَيۡءٖ﴾ - وهو فعلٌ يُستعملُ لنفي الحالِ والاستقبالِ -؛ لبيانِ شدّةِ العِداء والمناكفة بين اليهود والنّصارى؛ فهم يحكمون على النَّصارى وقت نزولِ الآيةِ بأنَّهم ليسوا على شيءٍ، ويتمنَّون ألّا يكونوا في المستقبلِ أفضلَ حالًا، وهذا حالُ كلِّ فريقٍ، وموقفه من الآخر.

---

(1) السّيرافي، شرح كتاب سيبويه: 4/23.

(2) ياء مشدّدة مكسور ما قبلها تُزاد على الاسم، ولها هذه الفائدة، وهي تمييز المفرد من اسم الجنس الجمعيّ؛ إمّا بالياء مثل: مصر مصريّ ويهود يهوديّ، وإمّا بالتّاء مثل: تمر تمرة وكلم كلمة، يُنظر: الحملاوي، شذا العرف، ص: 98-97.

(3) وذلك في: سورة البقرة: 113، وسورة المائدة: 18، و67، وسورة التّوبة: 30.

(4) أبو حيّان، البحر المحيط: 1/564.

(5) أبو حيّان، البحر المحيط: 1/564.

بلاغةُ استعمالِ الحرفِ القرآنيّ:

الــحــذرُ في التَّـعـامـلِ مع المـتـطـرِّفـين في أحـكـامِهـم على المخالفين

دلَّ حرفُ الاستعلاءِ في قولِه تعالى: ﴿عَلَىٰ شَيۡءٖ﴾ في كلام الفرقتين، على نفي تمكُّنِ الفريقِ المُخالفِ من أيِّ شيءٍ، وبلاغةُ الاستعمالِ تكمنُ في أنَّ المخالِفَ لا يثبُتُ على شيءٍ مهما قلَّ أو دقَّ ممَّا يَصحُّ وصفُه بأنَّه شيءٌ من الحقِّ، وهذا يدُلُّ على مدى التَّطرُّفِ في التَّعاملِ مع المخالفِ لدى الفرقتين، ومنه يُؤخَذُ منهجُ الحذرِ في التَّعاملِ معهما ومن أحكامهما في الآخرين؛ لأنَّها قائمةٌ على التَّطرُّفِ الفكريِّ، وإلغاءِ الطَّرفِ الآخر، بخلافِ منهج القرآنِ القائم على قاعدة العدالةِ: ﴿لَيۡسُواْ سَوَآءٗۗ﴾ [آل عمران: 113].

بلاغةُ التَّعبيرِ بـ (شَيءٍ):

صِــدقُ أهـلِ الــبــاطــلِ في دعواهم لا يعني صدْقَ منهجِهم في الوصولِ إليها

التَّعبيرُ بلفظة (شيء) يُوحي بالتقليل والتحقير؛ تنبيهًا على أنّ النّصارى ليستْ على شيءٍ من الحقّ، ولو كان نَزْرًا يسيرًا، وهذا هو الخبرُ الّذي أرادت اليهودُ بيانَه، أي: ليستِ النّصارى "على شيءٍ يصحُّ، ويُعتدُّ به، وهذه مبالغةٌ عظيمةٌ، وهو كقولهم: أقَلُّ منْ لا شيء"[1]، وكلاهما صادقٌ في اتّهامِه للآخرِ[2]، مع مراعاة أنّ نفيَه الحقّ عن الآخرِ لا يُثبت الحقَّ لنفسِه من مفهوم المُخالفة، بل كلاهما على باطلٍ، يؤيدُه قولُه تعالى: ﴿قُلۡ يَٰٓأَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ لَسۡتُمۡ عَلَىٰ شَيۡءٍ حَتَّىٰ تُقِيمُواْ ٱلتَّوۡرَىٰةَ وَٱلۡإِنجِيلَ﴾ [المائدة: 68].

إعطاءُ المتلقِّي سَعَةً في الاستنباط منَ السِّياق، ما لا يُعطيه التَّعيينُ:

بـلاغـةُ حـذفِ الصِّفةِ

حُذِفتْ صفةُ (شيءٍ) في قوله تعالَى: ﴿عَلَىٰ شَيۡءٖ﴾ من بابِ الحذْفِ على تقدير: "على شيءٍ يُعتدُّ به في الدّين، فيكون منْ باب حذف الصّفة"[3]؛ لأنّ تعبيرَهم بـ(شيء) من باب التَّقليل والتَّحقير،

(1) الفخر الرازيّ، مفاتيح الغيب: 8/4.

(2) الشّعراوي، تفسير الشّعراوي: 1/471.

(3) أبو حيّان، البحر المحيط: 1/565.

وهو كقولهم: "سِير عليه ليل، وهم يريدون: ليل طويل، وكأنَّ هذا إنّما حذفت فيه الصِّفة ... أنّك تحسّ في كلام القائل لذلك من التَّطويح والتَّطريح والتَّفخيم والتَّعظيم ما يقوم مقام قوله: طويل"[1]، وهو كقوله تعالى: ﴿قَالَ يَٰنُوحُ إِنَّهُۥ لَيۡسَ مِنۡ أَهۡلِكَۖ﴾ [هود: 46] أي: (الناجين) بحذف الصِّفة؛ لأنّه بغير ذلك يخالفُ الحقيقةَ، ويقدحُ في نوح عليه السلام؛ ولأنّه ابنه حقيقةً لا مجازًا، وكقول العَبَّاسِ بن مِردَاس:

وَقَد كُنْتُ في الحَربِ ذَا تُدْرَأ *** فَلَم أُعطَ شَيئًا ولم أُمْنَعْ

" أَيْ: لَمْ أُعطَ شيئًا نافعًا مغنيًا؛ بدليل قولِه: ولم أُمنعْ"[2].

دلالةُ مقابلَةِ القولِ للقولِ بالألفاظِ نفسِها:

الإفصاحُ عن تبادُلِ الاتِّهامِ بعيدًا عن الإنصافِ والعدالةِ

قابلتِ[3] الآيةُ القولَ بالقولِ في قوله تعالى: ﴿وَقَالَتِ ٱلنَّصَٰرَىٰ لَيۡسَتِ ٱلۡيَهُودُ عَلَىٰ شَيۡءٖ﴾؛ فنجد أنَّ الآيةَ أعادتِ الجملةَ بألفاظها مفصِحةً عن تبادل الاتّهام بين الفريقين، والقولُّ الرَّادُّ يُثبتُ تساوي الفريقين في مجانبة الحقِّ مع مراعاة المتقدِّم، ويُثبتُ أنَّ الرَّدَّ خالٍ من الإنصافِ لإتيانِ الرَّادِّ بألفاظِ المردود عليه نفسِها.

الكشفُ عن طبائعِ أهلِ الأديانِ، وبيانُ ترتيبِ أقوالِ المختصِمين:

سِرُّ تقديمِ اليهودِ على النَّصَارَى

قُدِّمَ ذكرُ اليهودِ على النَّصارى؛ لأنّهم أقدمُ زمنًا منَ النّصارى؛ "فشريعةُ اليهودِ أقدمُ من شريعةِ النَّصارى"[4]؛ لأنَّ التوراةَ أصلٌ للإنجيل[5]، واليهودُ أشدُّ الخَصمَين عداوةً ولجاجةً وحجاجًا، وبناءً على ذلك وما يقتضيه ظاهرُ النَّظم، أنّ اليهودَ هم من بدأَ الاتِّهامَ، والنَّصارى ردُّوا عليهم ادِّعاءهم، فيكون التَّرتيبُ كاشفًا لخصومةٍ تاريخيَّةٍ.

---

(1) ابن جنّي، الخصائص: 2/373.

(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 1/676.

(3) معنى المقابلة عند البلاغيين: "أن يُؤتى بمعنيين متوافقين أو معانٍ متوافقة، ثمّ يُؤتى بما يقابل ذلك على الترتيب"، كقوله تعالى: ﴿وَيُحِلُّ لَهُمُ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيۡهِمُ ٱلۡخَبَٰٓئِثَ﴾ [الأعراف: 157]، ينظر: أحمد الهاشمي، جواهر البلاغة، ص: 304.

(4) أبو حيّان، البحر المحيط: 3/201.

(5) محمّد رشيد رضا، تفسير المنار: 1/353.

سِرُّ إيثارِ أن تكون الحالُ جملةً لا مفردًا:

قـوَّةُ الجملةِ الحاليَّةِ في التَّنبيه على عجيبِ هيئةِ المتَّصِفِ بها

اختارَ النَّظمُ القرآنيُّ أن تكون الحالُ جملةً، وهي قولُه تعالى: ﴿وَهُمۡ يَتۡلُونَ ٱلۡكِتَٰبَۗ﴾ لا مفردًا؛ "لأنَّ دلالتهَا على الهيئةِ أَقوى من دلالةِ الحالِ المفردَةِ"[1]، إذ الحالُ المفردةُ تؤدِّي وظيفةَ الصِّفةِ حينما تكون هيئةً غيرَ ثابتةٍ، بينما الجملةُ الحاليَّةُ تُعطي قوَّةً في الهيئةِ، تكمُنُ في التَّنبيه على تلك الصِّفة، ولو قال: (تالين) لم يُفِد إلَّا الإخبارَ عن الهيئةِ، وهي في هذه الآيةِ تُعطي معنى التَّعجُّبِ من حال تلاوة اليهود للتَّوراةِ والنَّصارى للإنجيل، دون أدنى تأثُّرٍ وانتباهٍ لـمَا يقعون فيه من التَّناقُضِ والتَّعارُض؛ وكتبُهم ليس فيها هذا الاختلاف[2].

معنى الألفِ واللَّام في كلمة الكتاب:

براعةُ السِّياقِ القرآني في احتمال العمومِ على أبلغِ وجهٍ بيانيٍّ

اختلفَ الـمُفسِّرون في معنى التَّعريف، فقيل: هي للجنس، وهذا مذهب الزَّمخشَريّ، ومعناها عندَه: "أيْ: قالوا ذلكَ، وحالهم أنّهم من أهل العلم والتّلاوةِ للكتبِ"[3]، ومَوضعُ التَّعجُّبِ أنَّه لا يصحُّ لمتعلِّمٍ يدَّعي المعرفةَ والعلمَ عمومًا، فضلًا عن عموم كتب الدِّيانةِ أن يجهلَ حقيقةَ الآخرين.

وقيل: هي للعهد، وهذا مذهبُ ابن عطيَّة، "ووَجهُ التَّعجُّبِ على هذا الوَجهِ أَنَّ التَّوراةَ هي أصلٌ للنَّصرانيَّةِ، والإنجيل ناطقٌ بحَقِّيَّتِهَا؛ فكيف يَسُوغُ للنَّصارَى ادِّعاءُ أنَّها ليسَتْ بشيءٍ كما فعلَتْ نَصارَى نَجرانَ؟! وأنَّ التَّوراةَ ناطقةٌ بمجِيءِ رُسُلٍ بعد مُوسى فكيف ساغَ لليهودِ تَكذِيبُ رسولِ النَّصارى؟"[4].

والصَّحيح أنَّ الوجهين حريَّانِ بالقبولِ، فأهلُ الكتاب من اليهود

---

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 1/676.
(2) البَغويّ، معالم التّنزيل: 1/138.
(3) الزَمخشريّ، الكشّاف: 1/312.
(4) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 1/677.

والنَّصارى ولاسيَّما أهل العلمِ فيهم يقرأون التَّوراةَ والإنجيلَ وغيرَهما من الكتبِ، والسِّياقُ يحتملُ الوجهين، وقد جاء في الآيةِ قولُه تعالَى: ﴿كَذَٰلِكَ قَالَ ٱلَّذِينَ لَا يَعۡلَمُونَ مِثۡلَ قَوۡلِهِمۡۚ﴾.

سِرُّ اختيارِ التِّلاوةِ دونَ العلم:

التَّهكُّمُ بمَنْ يَتلو الكتَابَ بغير فائدَةٍ

لسائلٍ أن يسألَ عن سرِّ اختيارِ التّلاوة دونَ العلمِ في قولِه تعالَى: ﴿وَهُمۡ يَتۡلُونَ ٱلۡكِتَٰبَۗ﴾؛ فلماذا لم يقُلْ: وهم يعلمون الكتابَ؟؛ والجوابُ أنّ ذلك من بابِ التَّهكُّمِ بهم؛ فإنَّ من شأن التَّالي أن يعلمَ، ومن شأن العالمِ أن يعملَ؛ فلمَّا خالفوا مقتضى العلمِ كانت تلاوتُهم بدون فائدةٍ؛ فكأنَّهم لا يتلونَ الكتابَ، أي: انظر إلى حالهم الّتي هُم عليها مع تلاوتِهم! وهذا المعنى لا يتَّضِحُ إلَّا بقرنِ الجملةِ الحاليَّةِ بما قبلها، وفي هذه الجملة هدايةٌ إشاريَّةٌ إلى مَنْ يتلو القرآنَ دون استفادَةٍ وعمل.

فَائدَةُ التَّشبيهِ بَيْنَ أَهْلِ الكتابِ والمُشْرِكين:

تقبيحُ صورة المُشبَّه به بتشبيه قول الضَّالين بقوله، وأنَّهما صادِران عن منهجٍ واحد

التَّشبيهُ المُستفادُ مِنَ الكاف في ﴿كَذَٰلِكَ﴾ تَشبيهٌ في الادِّعاءِ على أَنَّهُم ليسُوا على شيءٍ، والتَّقديرُ: مِثل ذلك القولِ الّذي قالتهُ اليهودُ والنَّصارى قال الّذين لا يعلمُونَ، ولهذا يكونُ لفظُ ﴿مِثۡلَ قَوۡلِهِمۡۚ﴾ تأكيدًا لما أفادَته كافُ التَّشبيه، وهو تأكيدٌ يُشيرُ إلى أَنَّ المُشابهةَ بينَ قولِ الَّذينَ لا يعلمونَ وقَولِ اليهود والنَّصارى مُشابهةٌ تامَّةٌ، والمعنى: أنَّ المُشركينَ كَذَّبُوا الأَديانَ كُلَّهَا اليهوديَّةَ والنَّصرانيَّةَ والإسلامَ؛ والمقصودُ مِنَ التَّشبيهِ تشويهُ المُشبَّهِ به بأَنَّه مُشابهٌ لقولِ أهلِ الضَّلالِ البَحْتِ[1]، ويُؤيِّد ذلك قولُه تعالى: ﴿وَهُمۡ يَتۡلُونَ ٱلۡكِتَٰبَۗ﴾، فإنَّ الجملةَ الحاليَّةَ أفادَت عدم انتفاعِهم بالكتابِ حين تلاوتِه، فهم والمُشركون الضَّالُّون سواء.

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 1/677.

سرُّ إيثارِ النَّفيِ على الإثباتِ:

جاءتِ الآيةُ بنفيِ العلمِ عن المُشرِكين بقولِه: ﴿لَا يَعۡلَمُونَ﴾، لا بإثباتِ الجهلِ، وهو الأقبحُ ذكرًا، وسِرُّ ذلك يكمُنُ في أمرين:

تحقيق هدفين إشاريّين، الأوَّل تعريضيٌّ بأهل الكتابِ، والآخر هدائيٌّ تلطُّفيٌّ بالمشركين

الأوَّل: التَّعريضُ بأهل الكتاب؛ ذلك أنّهم يتطاولون على المُشركين بالعلم؛ فأتى بما يُنبِّههم على ذلك، أي: إذا كُنتُم تعلمون، فما بالُكُم تُشابِهون من لا يَعلَم؟!

الآخر: بناءُ قيمةٍ هدائيَّةٍ للمشركين بالتَّلطُّفِ معهم بنفي العلم عنهم، لا بإثبات الجهل لهم، فهو تحقيق هدفين إشاريّين، الأوَّل تعريضيٌّ بأهل الكتابِ، والآخر هدائيٌّ تلطُّفيٌّ بالمشركين.

فائدةُ حذفِ المفعولِ:

الإيماءُ إلى خُلوِّ المشركين من العلمِ بقطعِ النَّظَرِ عن تعلُّقِه

حُذِفَ مفعولُ عَلِمَ في قولِه تعالى: ﴿لَا يَعۡلَمُونَ﴾، إيماءً إلى أنّ الأهمّ هو خُلُوُّهم ممَّا يُعلم، أيًا كان ذلك المعلومُ كتابًا أو دينًا أو إلهًا أو نحوه، وهو ممَّا يتوافقُ مع نظرةِ أهل الكتاب المُستَعليَةِ على المشركين، فأهلُ الكتاب يَرَون أنفُسَهم أفضَلَ من المشركين باعتبار العلم، فالعلمُ عندَهم طبقيَّةٌ وِجاهيَّةٌ لا مقصَدٌ دينيٌّ.

نكتةُ تقديمِ الجارِّ والمجرورِ:

اجتماعُ نُكتَتَين؛ التَّشويقُ، والإيجازُ اللَّفظيُّ

قُدّم حرفُ الجرِّ ومجروره ﴿كَذَٰلِكَ﴾ على متعلّقِه وهو الفعل ﴿قَالَ﴾؛ لنُكتَتَين؛ الأولى: تشويقُ السَّامعِ لمَا بعد التَّشبيه؛ فإنَّ ﴿كَذَٰلِكَ﴾ فيها تمهيدٌ لما سيُقال، وربطُ سابِقِها بلاحِقِها، الأخرى: الإيجازُ اللَّفظيُّ في الاستغناء عن حرف العطف؛ فلم يقُل: وكذلك؛ "لأنّ مفادَ حرفِ العطفِ التّشريكُ، ومفادَ كافِ التّشبيهِ التّشريك؛ إذِ التّشبيهُ تشريكٌ في الصّفةِ"(1).

---

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 1/678.

معنى الفاءِ:

الفاءُ قائمةٌ على الرَّبطِ السِّياقيِّ تفريعًا وتقديرًا

تحتملُ الفاءُ في قولِه تعالى: ﴿فَٱللَّهُ يَحۡكُمُ بَيۡنَهُمۡ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ فِيمَا كَانُواْ فِيهِ يَخۡتَلِفُونَ﴾ أن تكونَ استئنافيةً، وأن تكون فصيحةً، بتقدير: إذا كانوا مصرِّين على كُفرِهم فاللّٰه يحكُمُ بينهم، وأن تكونَ تفريعيَّةً، جيءَ بها؛ "لأنّ التّوعّدَ بالحكمِ بينهم يومَ القيامةِ، وإظهار ما أكنَّتهُ ضمائرهم منَ الهوى والحسدِ متفرِّعٌ عن هذهِ المقالاتِ، ومُسبَّبٌ عنها، وهو خبرٌ مرادٌ به التَّوبيخُ والوعيدُ"(1)، والقولُ بأنَّها فصيحةٌ وتفريعيَّةٌ قويٌّ في هذا السِّياقِ، إذ هما متقاربان، ومرتبطان بما قبل، والمعنى في كليهما قائِمٌ على الرَّبطِ السِّياقيِّ تفريعًا وتقديرًا.

لفتةٌ في الإعجازِ الغيبيِّ:

الإشارةُ إلى الإعجازِ الغيبيِّ بالإخبارِ عمَّا سيصدُرُ عنهم في الدُّنيا

نصَّتِ الآيةُ على أنَّ اللّٰه سيحكُمُ بينهم يوم القيامة، فإنَّ ﴿يَحۡكُمُ﴾ فعلٌ مضارعٌ يدُلُّ على الاستقبال، وتؤيدُه القرينةُ اللّفظيَّة، وهي ﴿يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ﴾؛ أي: أنّ الحكم يكون في ذلك اليوم، وفيه لفتةٌ إعجازيَّةٌ في الإخبار عن غيب المُستقبَل البعيد، "فكون الحكم سيكون بينهم يوم القيامة، فذلك يُشعر أنّه لا أملَ في تزحزحهم عن مواقفهم"(2)، وهذا بحمل عدمِ الإيمان والإصرارِ على الكُفرِ على من بقي متَّصِفًا بذلك، أي: على مجموعِهم لا على جميعِهم.

علَّةُ تقديمِ الظُّروفِ بعضها على بعضٍ:

الإشارةُ إلى أهميةِ الحكمِ بين المختلفين، وهو العنصرُ الأبرزُ في السِّياق

قُدِّم الظَّرفُ ﴿بَيۡنَهُمۡ﴾ على الظَّرف الزَّمانيِّ ﴿يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ﴾ ولم يقُلْ: (يحكمُ يومَ القيامةِ بينهم) إشارةً إلى أهميَّتِه، فلمَّا كان سياقُ الآياتِ في بيانِ الحقِّ من الباطلِ في اختلاف الأمم والأقوام، قُدِّم ﴿بَيۡنَهُمۡ﴾ لأنَّه العنصرُ الأبرزُ في السِّياق على زمن الحكم، وهو

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 1/678.
(2) سعيد محمد، الأساس في التّفسير: 1/222.

يوم القيامة، والحكم هنا "أنّهُ يحقُّ الحقَّ، ويجعلُ أهلهُ في النَّعيمِ، ويبطلُ الباطلَ، ويلقي بأَهله في الجحيمِ"[1].

فائدةُ التَّعبيرِ بالمضارِع:

استحضارُ صورةِ الاختلافِ الصَّادرِ عن الكافرين؛ زيادةً في النَّقمةِ والحسرةِ

عبَّرتِ الآيةُ بالفعل المُضارعِ ﴿يَخۡتَلِفُونَ﴾ الدَّالِّ على الحال والاستقبال، مع أنَّ الحديثَ عمَّا كان بين القوم في الماضي؛ لاستحضارِ صورةِ الاختلافِ الّذي كان بينهم في الدّنيا، ونكتةُ ذلك زيادةُ مقتِهم لأنفسِهم، والحسرَةُ عمَّا صدر عنهم؛ فإذا استحضرَ المجرِمُ جريمتَه زادَه ذلك نقمةً على أفعالِه.

بلاغةُ تقديم الجارِّ والمجرورِ على الفعل:

بيانُ الاختصاصِ والقَصرِ الادّعائيِّ للمُبالغةِ

قُدِّمَ الجارُّ والمجرورُ على الفعل تقديمًا جائزًا؛ لجواز قوله: (يختلفون فيه)؛ لأنّه أرادَ الاختصاصَ والقَصرَ، وهو قصرٌ ادّعَائيٌّ للمبالغةِ؛ فكأنَّ حكمَ اللّه تعالى سيكونُ فيما اختلفوا فيه فحسب، وكأنّه لم يكن لهم من ذنب سوى ذلك الاختلاف؛ ففيه تشنيعٌ لاختلافِهم، وتقبيحٌ لموقفِهم من الإسلامِ، ما لا مزيدَ عليه.

(1) محمّد رشيد رضا، تفسير المنار: 1/353.

﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن مَّنَعَ مَسَٰجِدَ ٱللَّهِ أَن يُذْكَرَ فِيهَا ٱسْمُهُۥ وَسَعَىٰ فِي خَرَابِهَآۚ أُوْلَٰٓئِكَ مَا كَانَ لَهُمْ أَن يَدْخُلُوهَآ إِلَّا خَآئِفِينَۚ لَهُمْ فِي ٱلدُّنْيَا خِزْيٌ وَلَهُمْ فِي ٱلْأٓخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ ١١٤﴾ [البقرة: 114]

۞ مُناسَبَةُ الآيَةِ لِمَا قَبْلَها:

انتقلتِ الآياتُ من الحديث عن الظُّلمِ الاعتقاديِّ القوليِّ، إلى الحديث عن الظّلمِ العمليِّ الفعليِّ، فإذا كان اليهود والنَّصارى والمشركون يمنعون النَّاس من الإيمانِ بأقوالِهم؛ فإنَّ الأظلمَ من ذلك الّذي يزيدُ عليها فعلًا وعملًا، وهو منعُ ذكرِ الله في المساجدِ، والسّعيُ في خرابِها؛ فإنَّه الظُّلمُ العظيمُ الّذي لا يُضاهيه ظلمٌ؛ لأنَّ صاحبَه جمعَ ثلاثةَ أنواع من الظّلم هي: الظُّلمُ العقديُّ، والقوليُّ، والفعليُّ، وفي هذا التَّناسُبِ من التَّنبيهِ على خطرِ التَّعرُّضِ لمساجد الله بمنع ذكرِه فيها بأيِّ نوعٍ من المنع كان، ومن يفعلْ ذلك؛ يُصِبْهُ خزيُ الدُّنيا، ويلحقه عذابُ الآخرةِ، إذ يُلحَقُ باليهود والنَّصارى، ولموقع العطفِ على السَّابقِ أخذَ من اتَّصفَ بالمنع حكمَ السَّابقين في معاداةِ دين الإسلام.

وللآية وجهُ اتِّصالٍ آخر "بما قبلهَا منْ حيثُ إنَّ النَّصارى ادّعوا أنّهم منْ أهل الجنّةِ فقط، فقيلَ لهم: كيفَ تكونون كذلك مع أنَّ معاملتكم في تخريب المساجد، والسّعي في خرابهَا هكذا"[1]، وهذه الآية معطوفة "على ﴿وَقَالَتِ ٱلْيَهُودُ لَيْسَتِ ٱلنَّصَٰرَىٰ عَلَىٰ شَيْءٍ﴾، باعتبار ما سبقَ ذلك منَ الآياتِ الدَّالَّةِ على أفانينِ أهل الكتاب في الجراءةِ، وسوءِ المقالةِ"[2] وهذا ظلمٌ كبيرٌ يداني ظلمَ منعِ مساجدِ الله من الذّكر فيها.

۞ شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿أَظْلَمُ﴾: أفعل تفضيل وزنه (أَفعَل)، مادته اللُّغويّة (ظلم)، ومعناه (وضعُ الشَّيءِ غيرَ مَوضعهِ تعدّيًا)[3] فهو خلاف الحقّ؛ فمن تعدّى من الحقّ إلى الباطل فقد

(1) الرازي، مفاتيح الغيب: 4/11.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 1/678.
(3) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (ظلم).

وضع الشّيءَ في غير مَوضعِه، وبذلك يُسمّى ظالمًا، والمعنى هنا أشدّ الظّلم؛ لأنّه عبّر عنه باسم التّفضيل (أظلم) بمعنى أشدّ ظُلمًا.

2) ﴿مَّنَعَ﴾: فعل ماضٍ مادته اللّغويّة (منع)، و"المنعُ أَن تَحولَ بين الرَّجُلِ والشَّيء الَّذي يُريدهُ، يُقَال: مَنعتُهُ فامتنعَ، ورَجل منيعٌ لا يخلصُ إليهِ، وفلان في عزٍّ ومَنعةٍ"[1] والمعنى هنا أن يحولَ الإنسانُ بين الآخر والمساجد؛ فيمنعه من أداء الفرائض فيها، من صلاة وذكر؛ فيكون بمنعه هذا ظالمًا.

3) ﴿مَسَٰجِدَ﴾: جمع تكسير يسمّى أيضًا مُنتهى الجموع، يفيد الكثرة، زنة (مَفاعِل)، مفرده (مَسجِد)، أصل لفظه من السّين والجيم والدّال "وسجدَ الرجلُ سجودًا، وأصلُ السُّجودِ إدامةُ النّظرِ في إطراقٍ إلى الأرضِ، وكذلك أَسجد إذا أدام النّظر"[2] والمساجد لها معنيان؛ الأوّل: الأماكن الّتي يصلي فيها النّاس جماعات، وكلُّ مَوضِع يُعبدُ فيه اللّه[3] وهو المرادُ هنا، والآخر: "الآرابُ الَّتي يسجدُ عليهَا، والآرابُ السَّبعةُ مساجدُ"[4]؛وهي الجبهةُ والأنفُ واليدين وغيرُهما، وهو غيرُ مراد هنا بدلالة سياق الآية.

4) ﴿يُذۡكَرَ﴾: فعل مضارع مَبني للمفعول أو المجهول، وأصل أحرفه (ذكر) و(الذّكر بالكسر له معنيان، أَحدهما التّلفُّظ بالشّيء، والثّاني إِحضاره في الذّهن بحيث لا يغيب عنه)[5] وهو نقيضُ النّسيان، ومن غايات الإنسان الموصوف بالظّلم أن يصدّ المؤمن عن ذكر اللّه في المساجد، وقد وردَت كلمةُ (الذّكر) كثيرًا في القرآن الكريم، ولها معانٍ متعدِّدة بحسب السّياق الواردة فيه، فقد يكون ذكر القلب، وقد يكون ذكر اللّسان، وقد يكون بمعنى الصّلاة، أو البيان أو الحديث أو الشّرف أو اللّوح المحفوظ أو غيره[6] والمراد في الآية يحتملُ الصّلاة، ويحتملُ ذكرَ القلب واللّسان؛ لتعلُّق الأمر بالمساجد.

(1) الأزهري، تهذيب اللّغة: (منع).
(2) الجوهري، الصّحاح: (سجد).
(3) ابن جرير، جامع البيان: 2/519.
(4) ابن منظور، لسان العرب: (سجد).
(5) الكفويّ، الكليّات، ص: 456.
(6) الكفويّ، الكليات، ص: 457.

5) ﴿ٱسۡمُهُۥ﴾: (اسم) هو اسم ثلاثيّ مُجرّد، وزنه (فَعْل)، وأصل أحرفه (سمو) لأنّه مُشتقٌّ من السُّمُو[1] على أرجح الأقوال، والاسم هنا أُضيف إلى الضمير العائد عليه سبحانه؛ فيراد به عند إضافته له تعالى ما يدُلُّ على الذّات الإلهيّة، مع صفة الكمال القائمة به[2].

6) ﴿وَسَعَىٰ﴾: فعل ماضٍ معتلّ الآخر (سَعى يَسْعى سَعْيًا) فتكون أحرفه الأصليّة (سعي) و "السَّعْيُ المَشيُ السَّرِيعُ، وهو دُونَ العَدْوِ، ويُستَعملُ لِلجِدِّ في الأمرِ، خَيرًا كانَ أو شَرًّا، قال تعالى: ﴿وَسَعَىٰ فِي خَرَابِهَآۚ﴾"[3] فهو هنا الجِدّ في الأمر، وهو مُستعار له من المشي.

7) ﴿خَرَابِهَآۚ﴾: مصدرٌ للفعل (خَرِبَ)، ومادَّته اللّغويّة (خرب)، وقد أُضيف هنا إلى الضّمير العائد على المساجد، أي: خراب المساجد بمعنى إفسادها؛ لقولهم "وما رأينا من فلانٍ خُرْبًا وخُرْبةً، أي: فسادًا في دِينه أو شَيْنًا"[4] والخرابُ ضدُّ العمارة "خرِب المكانُ خلا من الأحياء، عكسه عَمَر"[5] وخرابُ المساجد يحتمل هدمها وإزالتها؛ لأنّ عكسها البناء والعمارة، ويحتمل خلوّها من مرتاديها المصلين، وهو الأنسب؛ لقوله ﷺ من حديث طويل: «وجُعِلَتْ لِي الأَرْضُ مَسجِدًا وطَهُورًا»[6] فليستِ العِبرة بالبناء.

8) ﴿يَدۡخُلُوهَآ﴾: فعل مُضارع دالّ على الاستقبال من (دخل)، وهو (أَصلٌ مطَّردٌ منقاسٌ وهو الوُلوج)[7] وهو واضحٌ بيّنٌ مصدره الدّخول، لكن قد يختلف معناه الدّقيق بحسب السّياق الّذي ينتظمُه، والدّخول هنا بمعنى الصّلاة؛ لأنّ الغاية الّتي أُنشِئَت من أجلها المساجدُ هي الصّلاة، والمعنى الدّخول لأجل الصّلاة.

9) ﴿ٱلدُّنۡيَا﴾: اسم تفضيل للمؤنث من (دَنا يَدنو) فأصله (أَدْنَى دُنْوَى) زنة (أَفْعَل

---

(1) الزَّبيدي، تاجُ العروس: (سمو).
(2) الرّاغب، المفردات: (سما).
(3) الرّاغب، المفردات: (سعى).
(4) الخليل، العين: (خرب).
(5) أحمد مختار عمر، معجم اللّغة العربيّة المعاصرة: (خرب).
(6) صحيح البُخاري، حديث رقم: (427).
(7) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (دخل).

فُعْلَى) مثل (أصغر صُغرى) ثمّ حصل فيه إعلال فصار (دُنْيا)، ومعنى الدُّنو "المقاربةُ؛ ومنْ ذلك الدَّنيُّ، وهو القريبُ، منْ دنَا يدنُو، وسمِّيتِ الدُّنيا لدنوِّهَا"[1] ثمّ أصبحت لكثرة الاستعمال علمًا على الحياة الدُّنيا دار الابتلاء، المقابلة للآخرة دار البقاء.

10) ﴿خِزۡيٌ﴾: اسم ثلاثيّ مجرّد، أصل حروفه (خزو) ومعناه "الفضيحةُ، وقد خزيَ يخزى خزيًا إذا افتضحَ[2]، ومن معانيه الأخرى القريبة الذّلّ والهوان والمهانة[3] وكلُّ هذه المعاني محتملة في هذه الآية؛ فإنّ هؤلاء المذمومين في الآية لهم في الدّنيا الفضيحة والمهانة والذّلّ والهوان وأمثال ذلك.

11) ﴿ٱلۡأٓخِرَةِ﴾: اسم على وزن (أفعَل) أصله (أأخِر) بهمزتين فأصبح حرف مدّ، وجذره اللّغويّ (أخر) "آخِر يُقابَلُ به الأوّلُ، وآخَرُ يُقابَلُ به الواحِدُ، ويُعَبَّرُ بالدَّار الآخرةِ عنِ النَّشأَةِ الثانيةِ"[4] وأصبحت صفةً غالبةً لدار البقاء[5] وهو المعنى المقصود في الآية.

12) ﴿عَذَابٌ﴾: (عذاب) جذره (عذب)، وهو في الأصل (حَملُ الإنسانِ أن يُعذَّب، أي: يَجُوعَ ويَسهرَ، وقيلَ أصلُهُ من العَذْبِ؛ فَعَذَّبْتُهُ: أي أَزَلْتُ عَذْبَ حياتِه على بناءِ مَرَّضتُهُ وقَذّيتُهُ، وقيل: أصلُ التَّعذيبِ إكثارُ الضَّربِ بِعَذَبَةِ السَّوطِ، أي طَرَفِهَا، وقد قال بعضُ أهل اللُّغَةِ: التَّعذيبُ هو الضّربُ)[6] وأكثرُ الواردِ في القرآن الكريم مقصودٌ منه العذاب الأخروي، وهو المقصود في هذه الآية بقوله تعالى ﴿وَلَهُمۡ فِي ٱلۡأٓخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٞ ١١٤﴾.

13) ﴿عَظِيمٌ﴾: صيغة مبالغة زنة (فَعِيل) للجذر اللُّغويّ (عظم)، وهو من "عَظُمَ الشيءُ عِظمًا: كَبُرَ، فهو عظيمٌ، والعُظامُ بالضَّم مثله، وعُظْمُ الشيءُ: أكثرُه

(1) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (دني).
(2) ابن منظور، لسان العرب: (خزا).
(3) السَّمين، عُمدة الحفّاظ: 1/501.
(4) الرّاغب، المفردات: (آخر).
(5) الزَّبيدي، تاج العَروس: (أخر).
(6) الرّاغب، المفردات: (عذب).

ومُعظَمُهُ"[1] ولا يخرج معناه في هذه الآية عن ذلك؛ فإنّ هؤلاء لهم في الآخرة عذاب كبير وشديد.

المَعْنَى الإِجْمَالِيُّ:

صرَّحتِ الآيةُ ببيانِ حكم أظلم النَّاس، وهم المانعون مساجدَ اللّه أن يُذكرَ فيها اسمُه بأنواع الذِّكر، من صلاةٍ، وتأديب، وتربيةٍ، وتعليم، السَّاعون في خرابها، بإدخالِ الأصنام إليها، وإدخالِ أنواع من العبثِ بمقاصِدِها الّتي لأَجلِها بُنِيَت وقامَت، وقد رُوي أنّها "نزلَت في مشركِي أهلِ مكَّةَ، ومنعهمُ المسلمينَ منْ ذكرِ اللّٰهِ تعالى في المسجد الحرام"[2]؛ فإنَّ كلَّ من يعبثُ بالمساجدِ بتغييرِ وظيفتِها، وإدخالِ ما ليس منها، بقصدِ الصَّدِّ عن ذكرِ اللّه تعالى؛ فإنَّه ساعٍ في خرابِها، وأولئك لهم الخوفُ عند دخولِها، والخِزيُ في الدُّنيا، والعذابُ العظيمُ في الآخرةِ.

الإيضاحُ اللُّغويُّ والبلاغيُّ:

نفيُ الأظلَميَّةِ وإثباتُها للفاعلِ بطريقِ الاستفهامِ؛ للإعلامِ بالجَوابِ الفَصلِ

نكتةُ التَّعبيرِ بالاستفهامِ عن النَّفيِّ:

التَّعبيرُ القرآنيُّ البليغُ: ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ﴾ جاءَ في خمسَ عشْرةَ آية في القرآن الكريم، جميعُها في سياقِ العقيدةِ في الكذبِ والافتراءِ ومحاربةِ الإسلام، وهذا هو المَوضعُ الأوَّلُ فيها، فـ﴿وَمَنْ﴾ اسمُ استفهامٍ يُفيد العموم، خبره ﴿أَظْلَمُ﴾ معناه: أشدُّ النَّاسِ ظلمًا، ومعنى الاستفهام النَّفيُ، "والمعنَى: لا أَحدَ أظلمُ"[3]؛ فأفاد نفيَ الأظلميَّةِ عن كلِّ أحدٍ ونسبَه للمتحدَّث عنه، ونكتَتُه نفيُ الأظلميَّة وإثباتُها للفاعل بطريق الاستفهام المثير للتَّفكُّر الذِّهنِيِّ؛ للوصول إلى الجواب الفَصل.

أثرُ الصِّلةِ في دفعِ موهمِ التَّعارُضِ وبيانِ بلاغةِ الاستعمال

تعدد مُتعلِّقاتِ ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ﴾ في القرآن الكريم:

الآياتُ المذكُورُ فيها تركيب ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ﴾ تُوحي بوقوع شيءٍ من

---

(1) الجوهري، الصّحاح: (عظم).

(2) النَّيسَابوري، أسباب نزول القرآن، ص: 36، وابن كَثير، تفسير القرآن العظيم: 1/388.

(3) العُكْبَرِيُّ، التِّبيان: 1/107.

التّعارضِ بينها! فقد يسألُ سائلٌ عن سرِّ تكرُّرِ هذه الجملةِ في معانٍ مختلفةٍ، وهل إثباتُ الأظلميَّةِ يكون باعتبارٍ واحدٍ أو باعتباراتٍ مختلفةٍ؟! وجوابُ ذلك: هو تخصيصُ كلِّ مَوضعٍ بِصلتِه، أو بفعلِه الّذي استحقَّ من أجله أن يكونَ ظالمًا، "وإنّما هذا نفيٌ للأظلميَّةِ، ونفيُ الأظلميَّةِ لا يستدعِي نفيَ الظّالميّةِ"[1]؛ فيتساوون في الأظلميَّة، ولكن كلّ بحسب فعله، فيكون المعنى في تلكم الآيات، "أي: لا أحد من المانعين أظلم، ممَن منع مساجدَ اللّه، ولا أحد من المفترين أظلم ممَّن افترى على اللّه، وكذا باقيها، وإذا تخصص بالصِّلات زال التّناقض"[2]، وتظهرُ بلاغة الاستعمالِ القرآنيِّ في بيانِ اتِّفاقِ من اتَّصفَ بالأظلميَّة بالذَّمِ البالغِ، مع اختلافِ الأفعالِ.

سِرُّ استعمالِ (مَنْ) دون (الّذي):

إلحاقُ الأظلميَّةِ بعمومِ من يصدُرُ عنه الفعلُ القبيحُ

آثر النَّظمُ استعمالَ (مَنْ) دون الّذي فلم يقُلْ: (ومَن أظلمُ مِنَ الّذي يمنع)؛ لإفادة العُموم؛ من جهتين؛ الأولى: احتمالُ مجيئِه موصولًا وشرطًا واستفهامًا، والأخرى: أنَّ "مَنْ" تأتي للمفرد والمثنى والجمع، المذكّر والمؤنث باعتبار المعنى، بخلاف الاسم الموصول "الّذي"؛ فإنَّه يقتصِرُ على المفرد المذكَّر؛ فإيثارُ استعمال (مَن) للإشارة إلى أنّ هذا الحكمَ (مَن أظلم) عامٌّ في جميع من يرتكب هذا العملَ الشائنَ؛ فهو ليس مخصوصًا بشخص أو جماعة أو دين، بل هو عامٌّ في جميع من يصدُرُ عنه الفعلُ القبيحُ، بقطع النَّظر عن وصفِه، ولو كانَ مُظهرًا للإسلام.

وقوع فعل المَنعِ على المساجد:

تقبيحُ الجريمة، وتهويلُ أمرِها، وتفظيعُ مرتكبِها

جاءَ فعلُ المنعِ واقعًا على المساجد، لا على المصلِّين فيها، فلم يقُل: منعَ مصلِّي المساجدِ، أو روَّادَ المساجدِ، وذلك لتقبيح الجريمة،

(1) أبو حيّان، البحر المحيط: 1/572.

(2) السُّيوطيّ، مُعتركُ الأقران في إعجاز القرآن: 1/80.

وتهويلها وتفظيع مرتكبيها، حتّى كأنّ هؤلاء يمنعون إقامةَ المساجد أصلاً، فضلاً عن تخريب العامر منها، ولو قيل: منعَ مصلِّي المساجد من ذكرِ اللّه؛ لاقتصر المنعُ على ذلك، ولما أعطى تلك الصُّورة الجسيمة الّتي يؤولُ إليها حالُ كلِّ منعٍ للمساجد.

توجيهُ المخصوصِ بالذِّكرِ في التَّسميةِ:

السُّجودُ أعظمُ الهيئاتِ الدَّالَّةِ على الخضوعِ والطَّواعيةِ التّامّة

لفظُ مساجد في قولِه تعالى: ﴿مَسَٰجِدَ ٱللَّهِ﴾، هو "جمعُ مسجِد، وهو كلُّ مَوضِعٍ عُبِدَ اللّهُ فيه"[1]؛ وخصّ المسجد بهذه التَّسميَةِ الدَّالّةِ على فعل واحد من أفعال الصَّلاة وهو السجود، مع أنّ فيه قيامًا وركوعًا وجلوسًا، وكلّه من أفعال العبادة، فلم "يقُلْ مقامٌ ولا مركعٌ ولا مقعدٌ ولا معكفٌ؛ لأَنَّ السّجودَ أَعظمُ الهيئاتِ الدَّالَّة على الخضوع والخشوع والطَّواعية التّامّة"[2] وآية ذلك قولُه ﷺ: «أَقرَبُ مَا يَكُونُ الْعَبدُ مِنْ رَبِّهِ وهو سَاجِدٌ، فَأَكثِرُوا الدُّعَاءَ»[3].

دلالةُ صيغةِ مُنتهى الجموعِ في لفظِ المساجِدِ:

بيانُ أنَّ مَنْ مَنعَ ذِكرَ اللهِ في مسجدٍ فقد منعَ ذكرَه في جميع المساجِدِ

التَّعبيرُ بصيغة منتهى الجموع (مَفاعِل) الدَّالّة على الكثرة، مع أنَّه قد "وقع المَنعُ والتَّخريبُ على مسجدٍ واحدٍ وهو بيتُ المقدس أو المسجدُ الحرام؟ قلت: لا بأس أن يجيء الحكم عامًّا وإن كان السبب خاصًّا"[4]؛ فتشمَلَ جميع المساجد، بل تشمُلَ الأرض جميعًا؛ فهي كلّها تصحّ أن تكونَ مسجدًا؛ لقوله ﷺ: «وجُعِلَتْ لي الأَرضُ مَسجِدًا وطَهُورًا»[5]، وقد يكون الجمعُ للتّعظيم[6]، والصَّحيحُ أنَّ نكتة ذلك بالإضافةِ إلى ما ذُكِرَ هو بيانُ أنَّ من منَعَ ذِكرَ اللّه في مسجِدٍ واحدٍ؛ فقد منعَ على الحقيقةِ ذكرَ اللّه تعالى في جميع المساجد،

(1) ابن جرير، جَامع البَيان: 2/519.
(2) أبو حيّان، البحر المحيط: 1/573.
(3) الإمام أحمد، المُسند: 9461.
(4) الزَّمخشري، الكشّاف: 1/313.
(5) صحيح البُخاري، الحديث رقم: 427.
(6) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 1/680.

وهو ما يَأْتلِفُ مع إثباتِ الأظلميَّةِ للمانع، وهذا من آثار فهم بلاغة القرآن على ضَوءِ رواياتِ أسبابِ النُّزولِ.

فائدةُ إضافةِ ﴿مَسَٰجِدَ﴾ إلى لفظِ الجلالة:

بيانُ الاختصاصِ، وما يُورِّثه من الهَيبةِ والتَّشريفِ والتَّعظيم

أفادَ إضافةُ لفظِ المساجِدِ للفظِ الجلالةِ الاختصاصَ؛ فهي مساجِدُ للّٰه؛ لقوله تعالى: ﴿وَأَنَّ ٱلْمَسَٰجِدَ لِلَّهِ فَلَا تَدْعُواْ مَعَ ٱللَّهِ أَحَدًا﴾ [الجن: 18]، وأضفى الاختصاصُ مزيدَ تشريفٍ وتعظيمٍ وهَيْبةٍ لها.

دلالة التّعبير بمنع ذكر اسمه:

التَّنبيه علَى الأعظمِ بالأيسرِ

التَّعبيرُ باسمِه في قولِه: ﴿أَن يُذْكَرَ فِيهَا ٱسْمُهُۥ﴾، دون التَّعبيرِ بمنعِ دعوتِه، أو بمنعِ التَّعلُّم أو الجهادِ في سبيلِه؛ لأنَّ "ذكرَ تعلُّق المنعِ بذكرِ اسم اللّٰهِ، تنبيهًا علَى أنَّهم مُنِعوا من أيسرِ الأشياءِ، وهوَ التَّلفُّظُ باسمِ اللّٰهِ، فمنعهم لـمَا سواهُ أَولَى"[1]، وهو ما يُثبِتُ عمقَ كراهيةِ المانعِ للإسلام، وهو ما يأتلِفُ مع التَّعبيرِ بالأظلميَّةِ.

نكتةُ التّعبير بالفعل المبني للمفعول:

إيثارُ الإيجازِ؛ لبيانِ بشاعةِ منعِ ذكرِ اللّٰه، في تحقيق عداوة المانعين لله على الحقيقةِ

حُذِفَ الفاعلُ في قولِه تعالَى: ﴿أَن يُذْكَرَ فِيهَا ٱسْمُهُۥ﴾، فلم يُذكرْ لعدّةِ نكاتٍ، الأولى: الإيجازُ والاختصارُ؛ فأوصافُ الذّاكرين اللّٰه كثيرَةٌ، وبعدمِ النَّصِّ على أحدِها يشمُلُ الجميعَ، فالذَّاكرون كثيرون لا يُحصون[2]، الثَّانية: الإشارةُ إلى بشاعةِ عمل أولئك في منعِ الصّلاة والتّسبيح، وسائر الأعمال الّتي فيها ذكر اسم اللّٰه، أي: الإشارة إلى أهمية ذكرِ اللّٰه، الثَّالثة: بيانُ عداوةِ المانعين لذكر اللّٰه تعالى؛ فلو ذَكرَ الفاعلَ لذهب الظنُّ بأنَّ العداوةَ في الحقيقة للفاعِلين، وهي على التَّحقيقِ لذكر اللّٰه تعالى.

---

(1) أبو حيّان، البحر المحيط: 1/573.

(2) أبو حيّان، البحر المحيط: 1/573.

نكتةُ تقديمِ ﴿فِيهَا﴾ على ﴿ٱسۡمُهُۥ﴾:

الإشارةُ إلى أهميَّة المساجِدِ، بقصرِ الذِّكرِ عليها من باب المبالَغةِ

قُدِّمَ الجارُّ والمجرورُ على نائب الفاعل اهتمامًا به، فهو قصرٌ قُصِدَ به المبالغةُ على تقدير: "أن يُذكرَ فيها لا في غيرها اسمُه"، ولا رَيْبَ أنّ ذكرَ اللّه من صلاةٍ وتسبيحٍ واستغفارٍ ليس مقتصرًا على المساجد، بل فيها وفي غيرِها، لكن لـمّا قُصِدَتْ المبالغةُ في بيانِ قُبْحِ منعِ ذكرِ اللّه فيها، قُدِّمَ الجارُّ والمجرورُ.

سرُّ التَّعبيرِ بالفعل المضارع:

ذِكرُ الله عبادةٌ مُتجدِّدةٌ في الحياةِ كلِّها

التَّعبيرُ بصيغة الفعل المضارع في قولِه تعالى: ﴿يُذۡكَرَ﴾؛ ليُفيدَ الحركةَ المُتجدِّدَةَ، وبيانُ ذلك: أنَّ الّذي يذكُرُ اللّه تعالى في المساجد، هو ذاكرٌ للّه في كلِّ أحوالِه، فالمساجِدُ هي أصلُ الذِّكرِ، وما يكونُ فيها من ذكرٍ فلا يقتصِرُ عليها، بل يتعدَّاها إلى الحياة كلِّها، لكن لـمَّا كانت هي الأصل، نُسبَ ذكرُ اللّه في غيرِها إليها، فهو ذكرٌ متجدِّدٌ، وكان من منَعَ مساجدَ اللّه أن يُذكرَ فيها اسمُه، مانعًا في الحقيقةِ أن يُذكرَ في غيرِها اسمُه كذلك، وهذا يُقوِّي سرّ استعمالِ الأظلميَّةِ في هذا النَّظم.

سِرُّ استعمالِ مفردةِ السعي:

بيانُ القصدِ في الخرابِ، وأنَّه صدَرَ عن إرادةٍ مسبقة

"والسّعيُ أَصلُه المشيُ، ثمَّ صارَ مجازًا مشهورًا في التَّسبّب المقصود؛ كالحقيقةِ العرفيَّةِ نحو: ﴿ثُمَّ أَدۡبَرَ يَسۡعَىٰ ٢٢﴾ [النازعات: 22]"[1]، أي: سعى عن قصدٍ في خرابِها، كما يسعى العقلاءُ في تحصيلِ منافعِهم عن تدبيرٍ وحنكةٍ؛ ففيه مزيدُ ذمٍّ لهذا المانعِ.

بلاغةُ استعمالِ حرفِ الظَّرفيَّةِ:

تصويرُ وقوعِ المانع في الخرابِ بالاستعارةِ التَّبعيَّةِ

دلَّ حرفُ الجرِّ (في) على السببيَّةِ والتَّعليل، كقولِهم: (سَعيتُ في حاجتِك)[2]، أي: كنتُ سببًا في إنجازِ حاجتك، والمعنى في

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 1/680.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 1/680.

الآية، أنّهم سببٌ في خراب المساجد، وهذا المعنى الّذي أفادَه حرفُ الظَّرفيَّةِ مستفادٌ من السِّياقِ، ودقيقُ الاستعمالِ يقضي بأنْ يكونَ معنى الظَّرفيَّةِ هو الحاضرُ، وبيانُ ذلك أنَّ سعيَ المانعِ هو في الخرابِ، فكأنَّ الخرابَ ظرفٌ دخلَه المانع فأصبح فيه، ففيه استعارةٌ تبعيَّةٌ في الحرف، أفادَت تصويرَ حالِ المانع في الخرابِ، وأنَّه مُلطَّخٌ وجهُه بآثار الخراب، وهو ما يُرشِّحُه ذكرُ الخزي في الدُّنيا.

بلاغةُ الاستئنافِ البيانيّ:

إرواءُ غليلِ السَّائلِ عن مآلِ المانعِ، تجاوبًا بديعًا مع السِّياقِ

جاء قولُه تعالى: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ مَا كَانَ لَهُمۡ أَن يَدۡخُلُوهَآ إِلَّا خَآئِفِينَۚ﴾، مفصولًا عمَّا سبق؛ فهو استئنافٌ بيانيٌّ، وهو "سؤالٌ ناشئٌ عن قوله: ﴿وَمَنۡ أَظۡلَمُ﴾، أَوْ عن قوله: ﴿وَسَعَىٰ﴾؛ لأَنَّ السَّامعَ إذَا علم أَنَّ فاعلَ هذا أَظلمُ النَّاسِ، أو سمع هذه الجرأَةَ، وهي السَّعيُ في الخراب؛ تطلّبَ بيانُ جزاءِ مَنِ اتَّصفَ بذلك، أو فعلَ هذا"(1)، فكانتْ هذه الجملة مفصِحةً عن مآل المانعين لذكر اللّه في المساجدِ؛ فكما منعوا النَّاسَ من ذكر اللّه بالخوفِ، تلبَّسهم الخوفُ، جزاءً وفاقًا.

فائدةُ الفصلِ باسم الإشارةِ:

استحضارُ الأوصافِ الّتي بسببِها استحقُّوا العقوبةَ الدُّنيويَّةَ والأخرويَّة

الإشارة بـ: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ﴾ للتَّنبيهِ على أنَّهُمْ استُحضِرُوا بتلك الأوصافِ لِيُخبَرَ عنهم بعد تلك الإشارةِ بخبَرِهم جَديرُونَ بمضمونِه، وهذا يدُلُّ على أَنَّ المقصودَ مِنْ هذه الجُمَلِ ليسَ هو بيان جزاءِ فِعلِهم أو التَّحذِير منهُ، بَلِ المقصودُ بيانُ هاتِه الحالةِ العجيبةِ مِنْ أحوالِ المشركِينَ وأهلِ الكتابِ، ثُمَّ يُرَتِّبُ العقابَ على ذلك حتَّى تُعلَمَ جَدَارَتُهُم به، وقد ذَكَرَ لهم عقوبَتَينِ؛ دُنيَوِيَّةً وهي الخَوفُ والخِزيُ، وأُخروِيَّةً وهي العذابُ العظيمُ(2).

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 1/680.

(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 1/681.

معنى حرفِ الجرِّ:

استحقاقُ الخوفِ بسبب منعِ ذكرِ الله والسّعيِ في خرابِ المساجدِ

أفادَ حرفُ اللّامِ في قولِه تعالَى: ﴿مَا كَانَ لَهُمۡ أَن يَدۡخُلُوهَآ﴾ الاختصاصَ أو الاستحقاقَ[1]؛ فوقعَ النَّفيُ على عموم الدُّخول إلّا في حالة الخوف؛ فحصَلَ بذلك إثباتُ الخوفِ لهم حالَ دخولِهم المساجد، أي: هم مُستحقُّون الخوف، ومخصُوصون به، وسببُ استحقاقِهم الخوفَ منعُهم ذكرَ اللّه، وسعيُهم بخرابِ المساجدِ.

دلالة ﴿مَا كَانَ﴾ إذا اقترنَتْ بالمضارع:

بشارةٌ للمسلمين؛ بإظهارِهم وإذلالِ المشركين

قولُه تعالى: ﴿مَا كَانَ لَهُمۡ أَن يَدۡخُلُوهَآ﴾ جملة مركبة من النَّفي وفعل الكون وأنْ والفعل المضارع، وإذا "وقعَ أنْ والمضارعُ في خبرِهَا تدُلُّ على نفي المستقبل"[2]؛ ولذلك فُسِّرتْ هذه الجملةُ من الآية بالحالة المستقبليَّة، بأنَّها "بشارةٌ من اللّه للمسلمين بأنّه سيُظهرُهم على المسجد الحرام، ويُذِلُّ لهم المشركين، حتّى لا يدخل المسجدَ الحرامَ واحدٌ منهم إلّا خائفًا"[3].

بلاغةُ الفَصل بين الجملِ:

إبرازُ الجملةِ المقصودةِ بالكلامِ؛ لتقعَ مَوقِعَ المبيِّن من المُبيَّن

حسُنَ الفصلُ في قوله تعالى: ﴿لَهُمۡ فِي ٱلدُّنۡيَا خِزۡيٞ وَلَهُمۡ فِي ٱلۡأٓخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٞ ١١٤﴾: "ليكون مقصودًا بالاستئنافِ، اهتمامًا به؛ لأَنَّ المعطوفَ لكونه تابعًا لا يهتمُّ به السّامعونَ كمالَ الاهتمام، ولأنَّهُ يجري مِنَ الاستِئنَافِ الَّذي قَبلَهُ مَجرَى البيانِ مِنَ المُبينِ فإنَّ الخِزيَ خوفٌ، والخِزيُ: الذُّلُّ والهوانُ"[4].

فائدةُ تقديمِ الجارِّ والمجرور:

القصرُ الادِّعائي، بإثباتِ الخِزي والعذابِ العظيمِ لمَنْ حارَبَ دينَ الله

تقديمُ الجارِّ والمجرورِ في قولِه تعالى: ﴿لَهُمۡ فِي ٱلدُّنۡيَا خِزۡيٞ﴾، وفي قولِه تعالى: ﴿وَلَهُمۡ فِي ٱلۡأٓخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٞ ١١٤﴾ وإفادةُ حرفِ

---

(1) الآلُوسي، رُوح المَعاني: 2/364.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 1/681.
(3) القَاسمي، مَحاسن التّأويل: 1/229.
(4) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 1/682.

اللَّامِ لمعنى الاستحقاق[1]، كلاهما يُعطي الكلامَ معنى الاختصاصِ والقصر للمبالغة؛ فكأنَّ الخزيَ والعذابَ العظيمَ خُصِّصَ لهم لا لغيرِهم، مع ما لهذا التَّقديمِ من تشويقٍ لمعرفةِ الخبر.

سِرُّ اختيارِ الألفاظِ:

العِقابُ من جنسِ العمل

اختارَ النَّظمُ الكريمُ لفظَ الخزيِ لهذا المقام، دون لفظِ الذُّلِ وما يُرادفُه؛ لأنَّ "الخزيَ ذلٌّ مَعَ افتضاح، والخزاية الاستحياء؛ لأنَّه انقماع عَن الشَّيء لما فيه من العَيب"[2]، وهو مقام مناسب لفعلتهم، فمنعُ ذكرِ اللّهِ قابَلَهُ ذلٌّ مع الفضيحة؛ لأنّ المنعَ سترٌ وتغطية، والخزي ذلّ وانكشاف، فكان الجزاءُ من جنس العمل، أو مقابلًا له.

نكتةُ تنكيرِ لفظِ ﴿خِزۡيٌ﴾:

إفادةُ العموم والإبهامِ؛ لتحقيقِ الرَّدعِ والزَّجر

نُكّر لفظُ ﴿خِزۡيٌ﴾ لإفادةِ العُموم والإبهام؛ فيدخلُ كلُّ ما مِن شأنه أنْ يَصدُقَ عليه اسمُ الخِزي، وفيه من التَّرهيب والتَّهديد وتوقُّع أنواع الذُّل ممّا لا تعهدُه نفسُ المُخاطَب؛ "فإنَّ الخزيَ لا يكونُ إلَّا ما يجري مَجرَى العقوبةِ منَ الهوان والإذلال؛ فكلُّ ما هذه صفتهُ يدخلُ تحتهُ، وذلك ردعٌ منَ اللّهِ تعالى"[3].

بلاغةُ الوَصلِ بين الجملِ المُتتامَّةِ:

عطفُ الثَّانيةِ على الأولى؛ لتأخذَ حكمَها التَّتميميَّ في البيانِ والإيضاحِ

عُطِفُ قولُه تعالَى: ﴿وَلَهُمۡ فِي ٱلۡأٓخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٞ ١١٤﴾ على الجملةِ السَّابقة؛ لأنَّها "تتميمٌ لهَا، إذِ المقصودُ منْ مجموعهمَا أَنَّ لهم عذابين؛ عذابًا في الدّنيا، وعذابًا في الآخرةِ"[4]؛ فالجملتان تُؤدِّيان معنًى واحدًا، وهو إثباتُ العذابِ للمانع السّاعي في خرابها

---

(1) السُّيُوطي، مُعتَرَك الأقرَان: 2/283.

(2) العَسكري، الفروق اللّغويّة، ص: 250.

(3) الرّازي، مفاتيح الغيب: 4/12.

(4) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 1/682.

في الدَّارَينِ، وقد أُقيمتا مقامَ الجملةِ الواحدةِ، بعطف الشِّقِّ على شِقِّه الآخر، وعليه فالثَّانيةُ وإن كانت معطوفةً على الأولى، إلَّا أنَّ لها حكمَ فصلِ الأولى عن سابقتها.

الإشعارُ بقوَّة العذابَين واستقلالِهما

نكتةُ إعادةِ ذكرِ الجارّ والمجرور:

أُعيدَ ذكرُ الجارِّ والمجرورِ ﴿وَلَهُمْ﴾ للإشعارِ "بكمال قوة الجزاءين"[1]، وفيه تأكيدٌ لاستحقاقِهم العذابَين، وأنَّ كلَّ عذابٍ مُستقِلٌّ بنوعِه؛ فلا يُخفِّف وقوعُ الأوَّلِ من إنزالِ الآخرِ بالمجرمين.

مناسبةُ الوصفِ في فاصلةِ الآيةِ لمطلعِها؛ فالأظلميَّةُ تُناسبُها الأعظميَّةُ

بلاغةُ الوَصفِ:

وُصفَ العذابُ بأنَّه عظيمٌ، وجيءَ للوصفِ بصيغةِ المبالغةِ؛ لبيانِ شدّة العذابِ وهولِه؛ "فَقَد وصفَهُ اللَّه تعالى بما جَرى مَجْرى النِّهايةِ في المُبالغة؛ لأنَّ الَّذين قَدَّمَ ذِكرَهُم وصفَهُم بأعظم الظُّلم، فَبَيَّنَ أنَّهُم يَستَحِقُّونَ العقابَ العظيم"[2]، وهذا في غاية التَّناسُب؛ فمَن أعظَمَ في ظُلمِه، استحقَّ أشدَّ العذاب.

---

(1) البَدوي، من بلاغةِ القرآن، ص: 96.

(2) الرّازي، مفاتيح الغيب: 4/12.

﴿وَلِلَّهِ ٱلْمَشْرِقُ وَٱلْمَغْرِبُۚ فَأَيْنَمَا تُوَلُّواْ فَثَمَّ وَجْهُ ٱللَّهِۚ إِنَّ ٱللَّهَ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ ١١٥﴾ [البقرة: 115]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِمَا قَبْلَها:

بعد بيانِ اجتهاد الكافرين والملحدين لمنع ذكرِ اللّه في المساجد، ناسَبَ بيانُ موقفِ المسلمِ من ذكر اللّه، "فإنْ سَعَى ساعٍ في المَنعِ مِنْ ذكرِهِ تعالى، وفي خرابِ بيوتِه، فليس ذلك مانعاً من أداء العبادة في غيرها؛ لأنَّ المشرقَ والمغربَ، وما بينهما له تعالى"[1].

من ناحية أخرى أنّه "لَمَّا جاء بوعيدِهم ووعد المؤمنِينَ، عَطَفَ على ذلك تسليةَ المؤمنِينَ على خروجِهم مِنْ مكَّةَ وَنِكَايَةِ المشركِينَ بفسخِ ابتهاجِهم بخروجِ المؤمنِينَ منها، وانفرادِهِم هُم بمزيَّةِ جوارِ الكعبَةِ؛ فَبَيَّنَ أَنَّ الأرضَ كُلَّهَا للّهِ تعالى، وأنَّها ما تَفاضلَتْ جِهاتُها إلّا بكونِها مَظِنَّةً للتَّقَرُّبِ إليهِ تعالى، وتَذَكُّرِ نعمِهِ وآياته العظيمَةِ، فإذا كانَتْ وِجهَةُ الإنسانِ نحو مَرضاةِ اللّهِ تعالى، فأينما تَوَلَّى فقد صادفَ رِضَى اللّهِ تعالى، وإذا كانَتْ وِجهَتُهُ الكفرَ والغرورَ والظُّلمَ فما يُغني عنه العِيَاذُ بالمَواضِعِ المُقدَّسةِ، بَل هو فيها دَخيلٌ لا يَلبَثُ أنْ يُقلَعَ منها"[2].

شَرْحُ المُفْرَدَاتِ:

1) ﴿ٱلْمَشْرِقُ﴾: جذر الكلمة اللُّغويّ (شرق) "وشرقتِ الشمسُ تشرُقُ شروقاً وشَرقًا أيضًا، أي: طلعتْ وأشْرقتْ، أي: أضاءَتْ"[3] أمّا الأصل اللُّغويّ لمادة (شرق) فله "أَصلٌ واحدٌ يدُلُّ على إضاءةٍ وفتحٍ"[4].

و﴿ٱلْمَشْرِقُ﴾ هو مَوضِعُ شروق الشَّمس، فهو اسم مَكان على وزن (مَفْعِل) "و﴿ٱلْمَشْرِقُ﴾، و﴿ٱلْمَغْرِبُۚ﴾ إذا قِيلا بالإِفرَادِ فإِشَارةٌ إلى ناحِيَتي الشَّرقِ والغَرب"[5] والمرادُ هنا النّاحية، أو الجهة، أو المكان.

(1) السّمين الحلبي، الدُّرُّ المَصُون: 2/80.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 1/682.
(3) الجَوهَري، الصِّحاح: (شرق).
(4) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (شرق).
(5) الرّاغب، المفردات: (شرق).

2) ﴿وَٱلۡمَغۡرِبُۚ﴾: اسم فيه معنى الظّرفيّة على وزن (مَفْعِل)، الجذر اللّغويّ له (غرب) "والغَربُ المَغربُ، والغُروب غَيبُوبَةُ الشّمس"[1] ومعنى الغرب "الذّهاب والتَّنحِّي، يُقَال: غربَ عَنَّا يغرُبُ غرْبًا، وقد أغربتُه وغرّبتُه إذا نَحَّيتهُ"[2] وقد ورد في الحديث عن زيدِ بنِ خالدٍ الجهنيِّ قالَ: «سمعتُ النّبيَّ ﷺ يأمرُ فيمنْ زنَى ولم يُحصنْ جلدَ مائةٍ، وتغريبَ عام»[3] أي: نفيه وتنحّيته عن البلاد" والمَغرِبُ في الأَصل مَوضعُ الغُروبِ، ثُمَّ استعمِلَ في المصدرِ والزَّمانِ"[4] والمرادُ في الآية ناحيةُ الغَرب.

3) ﴿تُوَلُّواْ﴾: فعلٌ من الأفعال الخمسة، أصلُه (تتولوا)، وجذرُه اللّغويّ من (ولي)، وهو من الفعل (تَوَلّى)، فعلٌ مزيدٌ، زنة (تَفَعّلَ)، والمصدر (التَّولية) وفي معنى (تولّى) معانٍ عدّة متقاربة؛ كالإدبار والذّهاب والإعراض[5].

"ومعنَى التّوليةِ الاستقبالُ بالوجوهِ، وقيلَ: معناهَا الاستدبارُ منْ قولك: ولَيتُ عنْ فلانٍ إذا استدبرتهُ؛ فيكونُ التَّقديرُ فأَيُّ جهةٍ ولَيتم عنهَا، واستقبلتُم غيرهَا فثمَّ وجهُ اللَّهِ"[6] وبذلك يتحقق المعنى اللُّغويّ في الآية.

4) ﴿وَجۡهُ﴾: اسم ثلاثيّ مجرّد، زنة (فَعْل)، الجذر اللّغويّ للكلمة (وجه) و "الوَجهُ مُستَقبَلُ كلّ شيءٍ، والجِهَةُ: النَّحوُ، يُقال أخذتُ جهةَ كذا، أي: نَحوَهُ ... والوِجهَةُ: القِبلة وشبهُها في كلّ شيءٍ استقبلتَه، وأخذتَ فيه"[7] "ولمّا كانَ الوَجهُ أوّلَ ما يستقبِلُكَ، وأشرَفَ ما في ظاهِرِ البدنِ استُعمِلَ في مُستَقبلِ كلّ شيءٍ، وفي أشرَفِه ومَبدَئِه"[8].

5) ﴿وَٰسِعٌ﴾: اسمٌ على وزن فاعل، جذره اللّغويّ من (وسع)، ومنه "الوُسعُ جِدةُ الرَّجلِ، وقدرة ذات يده، تقول: أَنفِقْ على قَدْرِ وُسْعِك، أي: طاقتك"[9] والأصل

(1) الخليل، العين: (غرب).
(2) الأزهري، تهذيب اللّغة: (غرب).
(3) صحيح البُخَاري: 6831.
(4) ابن منظور، لسان العرب: (غرب).
(5) الزَّبيدي، تاج العروس: (ولى).
(6) أبو حيّان، البحر المحيط،: 1/577.
(7) الخليل، العين: (وجه).
(8) الرّاغب، المفردات: (وجه).
(9) الخليل، العين: (وسع).

اللّغويّ لهذا الجذر أنّها "كلمةٌ تدُلُّ علَى خلافِ الضّيقِ والعسرِ، يقالُ: وَسُع الشَّيءُ واتّسعَ، والوُسعُ الغنَى"[1]، والواسع من صفات اللّه تعالى "أي واسع علمه وقدرته ورحمته"[2] واستعملها في الآية مناسبة لذكر الجهات والتّوجّه.

6) ﴿عَلِيمٌ﴾: الجذر اللُّغويّ للكلمة (علم)، أمّا الأصل اللّغويّ لهذا الجذر فدلالته "على أَثرٍ بالشّيءِ يتميّزُ بهِ عنْ غيرهِ، منْ ذلك العلامةُ"[3] والعلم ضدُّ الجهل، وعَلِيمٌ صيغة مبالغة، زنة (فَعِيل) وهو من صفاته تعالى، مُشتقّ من العلم "وأصلُ العلم إدراكُ الشّيء على حقيقته، وهو معرفة الشّيء على ما هو عليه"[4] وما ورد في الآية هو على معنى المبالغة في العلم.

المَعْنَى الإِجْمَاليُّ:

يخبر الحقّ تبارك وتعالى بأنّ المَشرِق والمَغرب وما بينهما وجميع الجهات هي له تعالى، وأنّه المالكُ والمُتصرفُ فيهما، فأيُّ إنسانٍ أدركَتهُ الصّلاة، ولم يعرف اتّجاه قبلته فليتوجّه إلى أيّ اتّجاه، وسيجد اللّه عنده، وقد نزلَتِ الآية "في قوم من الصَّحابة سافروا فأصابهم الضَّباب، فتحرَّوا القِبلة، وصلّوا إلى أنحاءٍ مختلفةٍ، فلمَّا ذهب الضَّبابُ استبان أنَّهم لم يصيبوا"[5] ولمّا عادُوا من سفرهم سألُوا الرّسولَ ﷺ فسكت، عندها نزل قولُه تعالى ﴿وَلِلَّهِ ٱلْمَشْرِقُ وَٱلْمَغْرِبُ﴾[6] لأنّه تعالى أوسع وأكبر من أن تحيطَه الأماكن، وما هذه القِبلة إلّا رمز؛ لأنّ توجّه المؤمن يكون بقلبِه لا بجسدِه، واللّه عليمٌ بذلك مُطّلعٌ على قلوب العباد.

الإيضاحُ اللُّغويُّ والبلاغيُّ:

نكتةُ تقديمِ الخبرِ:

إفادةُ الاختصاص والقصر والتَّشويقِ

حرفُ اللَّامِ في لفظ الجلالة أفادَ الاختصاص، والملك حقيقيّ؛ فإنَّ جميعَ الجِهاتِ مِلكُها وتدبيرُها للّه، كما يقال لفلان هذه الدار،

(1) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (وسع).
(2) السَّمين، عُمدة الحفّاظ: 4/310.
(3) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (علم).
(4) السَّمين، عُمدة الحفّاظ: 3/111.
(5) الوَاحدي، الوَجيز، ص: 126.
(6) النّيسَابُوري، أسباب نزول القرآن، ص: 37.

يعني بها أنّها له مِلكًا[1]، وتقديمُ الجارِّ والمجرورِ للحصر والتَّشويقِ؛ فإنّ السَّامعَ ينتظرُ أن يعلمَ ما للّه بعد معرفةِ جزاءِ الظَّالمين.

بلاغةُ الإيجازِ بالحذفِ:

عطفُ المتقابِلَين أفاد الشُّمولَ المُترتِّبَ عليه تقديرُ المحذوفِ

عَطفُ ﴿ٱلۡمَغۡرِبُۚ﴾ على ﴿ٱلۡمَشۡرِقُ﴾ من قبيل عطفِ المقابلِ على مقابلِه فهو للتَّقابلِ الحقيقيِّ، ويُفيدُ الإحاطةَ والشُّمول، أي: ما بَيْنهما، وعليه فهناك محذوفٌ مُقدَّرٌ أي: (وللّه المشرق والمغرب وما بينهما) فيكون على حذفِ معطوف[2].

توجيه المتشابِه اللفظيِّ:

الاتِّساقُ الدّلاليُّ وأثرُه في اختيارِ الصيغةِ الأنسبِ

يأتي لفظُ ﴿ٱلۡمَشۡرِقُ﴾ و﴿ٱلۡمَغۡرِبُۚ﴾ في القرآن الكريم مُفردًا وتثنيةً وجمعًا، أمَّا الإفراد فكهذه الآيةُ، ونكتةُ ذلك الشُّمولُ والعموم، وأمَّا التَّثنية فكقوله تعالى: ﴿رَبُّ ٱلۡمَشۡرِقَيۡنِ وَرَبُّ ٱلۡمَغۡرِبَيۡنِ ١٧﴾ [الرحمن: 17]، إشارةً إلى مَشرق الصَّيفِ والشِّتاءِ ومَغربِهما، وهو ما يتناسب مع سياق سورة الرَّحمن، إذ كثُر فيها التَّثنيةُ، وأمَّا الجمعُ فيكون "اعتباراً باختلاف المَغارب والمَطالع كلّ يوم"[3] كقوله تعالى: ﴿فَلَآ أُقۡسِمُ بِرَبِّ ٱلۡمَشَٰرِقِ وَٱلۡمَغَٰرِبِ إِنَّا لَقَٰدِرُونَ ٤٠﴾ [المعارج: 40]، وهو ما يتناسبُ مع سياق القدرة، فأتَتْ كلُّ صيغةٍ بما يُناسبُها من حيث السِّياق.

دلالة تقديم المَشرِق على المَغرِب:

البدايةُ الزَّمانيَّةُ الكونيَّةُ والشَّرعيَّةُ ملحوظٌ فيها تقديمُ الشُّروقِ

قُدِّمَ ذكرُ ﴿ٱلۡمَشۡرِقُ﴾ على ﴿ٱلۡمَغۡرِب﴾ باعتبارِ البدايةِ الزَّمانيَّة؛ فالشُّروقُ هو المبدأُ، والغروبُ هو النِّهايةُ، ومواقيتُ الصَّلاةِ تبدأُ مع حركة ما قبل الشُّروقِ، والشُّروقُ بدايةُ الحركةِ والنَّشاطِ لعمومِ المخلوقات، والغروبُ بدايةُ الظُّلمةِ والعَتَمة؛ فلذلك كلِّه بدأتِ الآيةُ كسائر آيات القرآن بالشُّروقِ قبلَ الغُرُوبِ.

(1) ابن جرير، جَامع البيان: 2/526.
(2) أبو حيّان، البحر المحيط: 1/577.
(3) الرّاغب، تفسير الرّاغب: 1/298.

سِرُّ استعمالِ ﴿فَأَيۡنَمَا﴾ الظَّرفيَّة اسم شرطٍ:

الـتَّـنـاسُـبُ الـسِّـيـاقـي بين الأداةِ النَّحويَّةِ والألفاظِ المختارة

لاستعمال ﴿فَأَيۡنَمَا﴾ الدّالّة على الظّرفيّة هنا بمعنى الشّرط دلالته البيانيَّة؛ فالسّياق من أوّله إلى آخره يقتضي الظَّرفيَّة؛ كذكر المَشرِق والمَغرِب، والتَّولية، وثمّ، ووجه اللّه، فهذه كلُّها دالّة على الظَّرفيّة؛ فناسبَ التَّعبيرُ بـ(أين) الدَّالّة على معنى (إنْ) الشَّرطيَّة، وذكر (ما) للإبهام والعُموم، وهو المناسبُ للسِّياقِ.

سرُّ التَّعبير بالوجه:

بـيـانُ تحقيق الـغـايـةِ الّـتـي لأجلِها يتوجَّه الـمُـصـلُّون إلى القِبلةِ

معنى ﴿فَثَمَّ﴾ في قولِه: ﴿فَأَيۡنَمَا تُوَلُّواْ فَثَمَّ وَجۡهُ ٱللَّهِۚ﴾ الظَّرفُ البعيدُ؛ فهي "في مَوضعِ نصبٍ على الظَّرفِ"[1]، أي: فهناك وجهُ اللّه، والفاء واقعةٌ في جوابِ الشَّرط، والمعنى "فثمَّ وجههُ الَّذي وجّهكم إليه؛ لأَنَّ المَشرِقَ والمَغرِبَ له بوجهيهمَا"[2]، فالمرادُ بوجه اللّه تعالى: قِبلة اللّه[3]، وسِرُّ التَّعبيرِ بالوَجْه دون القِبلةِ لبيانِ أنَّ من يُصلِّي للّه إنَّما يريدُ وجهَه ورضاه، كما قال تعالى: ﴿وَمَا تُنفِقُونَ إِلَّا ٱبۡتِغَآءَ وَجۡهِ ٱللَّهِۚ﴾ [البقرة: 272]، فالعِبرةُ بالنيَّةِ والإرادةِ، وتحقيقِ الغاياتِ، وهي مُتحقّقَةٌ في التَّوجُّه للمَشرِقِ والمَغرِبِ؛ فمَنْ توجَّه للمَشرقِ والمَغربِ مُمتثلًا أمرَ اللّه فقد حقَّقَ المطلوب.

فائدةُ كثرة المُؤكِّدات:

توالي المؤكِّدات في جملة واحدة للتَّنبيه على أهمِّيَّتها

قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ وَٰسِعٌ عَلِيمٞ﴾ جملةٌ فريدةٌ من نوعها على هذا التركيب، ولا سيّما في اقتران صفتي الواسع والعليم، وهي جملة مؤكّدة بإنّ، وبإيقاع الظّاهر موقع المُضمَر؛ فإنّه ذَكرَ اسم الجلالة ﴿ٱللَّهِ﴾ في قوله تعالى: ﴿فَثَمَّ وَجۡهُ ٱللَّهِۚ﴾ والقياسُ إعادةُ ذكره مُضمَرًا.

---

(1) القُرطُبِي، الجامع لأحكام القرآن: 2/325.
(2) الرّازي، مفاتيحُ الغيب: 4/23.
(3) ابن جرير، جَامع البَيان: 2/528.

جريانُ الجملةِ مَجرَى الأمثالِ السَّائِرة تفخيمًا وتعظيمًا

نكتةُ إظهارِ ما حقُّه الإضمارِ:

أُظهر لفظُ الجلالةِ وحقُّه الإضمارِ، لمزيد تفخيمٍ وتعظيم؛ فإنَّ الإخبارَ عن الاسم الظَّاهر ليس كالإخبار عن ضميره، ولتجريَ هذه الجملةُ مَجرَى الأمثالِ السَّائرَة؛ فإنَّ قولَه: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ﴾ يجري على اللِّسانِ كما يجري الدِّهان مثلًا سائرًا.

تعليلُ الجملةِ للسَّابقِ بصفاتِ الله تعالى

بلاغةُ الفصلِ:

فُصِل قولُه تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ ١١٥﴾ عمَّا سبقَ للتَّعليل؛ فإنَّ من يتوجَّه إلى اللّه تعالى بالصَّلاةِ والعبادةِ والذِّكرِ في أيِّ اتّجاهٍ؛ فإنَّ اللّه وسِعَ كلَّ شيءٍ علمًا.

تنزيلُ الصِّفةِ من الصِّفةِ منزلةَ العلَّةِ من المعلولِ

بلاغةُ ترتيب الصِّفات في الفاصِلَة:

أَخَذتْ صفةُ اللّه تعالى ﴿عَلِيمٌ﴾ من صفته ﴿وَٰسِعٌ﴾ موقعَ التَّعليل، فقد وسِعَ كلَّ شيءٍ؛ لأنَّه عليمٌ بكلِّ شَيءٍ، "فقولُه: ﴿وَٰسِعٌ﴾ تذييلٌ لمدلولِ ﴿وَلِلَّهِ ٱلۡمَشۡرِقُ وَٱلۡمَغۡرِبُۚ﴾، والمرادُ سَعةُ ملكه، أو سَعةُ تيسيره، والمقصودُ عظمةُ اللّه"(1)؛ فالسَّعة قرينةُ الجهات، وليسَت العبادةُ محدودةً بمكان دون آخر "لأنّ اللّه واسعٌ موجودٌ في كلِّ مكانٍ في هذا الكونِ، وفي كلِّ مكانٍ خارج هذا الكون"(2)، وأمّا قولُه ﴿عَلِيمٌ﴾ وهي صيغة مبالغة؛ فمعناه أنّه "عليمٌ بمنْ يتوجّهُ لقصدِ مرضاته"(3) فإنّ التَّوجّه نحو ناحية ما ليس مقصودًا لذاته إذا لم يستحضرِ المُصلّي عظمةَ اللّه، وهو يعلمُ بما في المَشرِق والمَغرِب، وهو عَليمٌ "بالمتوجّهِ إليه أينمَا كان، أيْ: فاعبدِ اللّه حيثما كنتَ، وتوجّهْ إليه أينما حللتَ"(4).

---

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 1/683.

(2) الشّعراوي، تفسير الشّعراوي: 1/542.

(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 1/683.

(4) محمّد رشيد رضا، تفسير المَنار: 1/385.

﴿وَقَالُواْ ٱتَّخَذَ ٱللَّهُ وَلَدٗاۗ سُبۡحَٰنَهُۥۖ بَل لَّهُۥ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۖ كُلّٞ لَّهُۥ قَٰنِتُونَ ١١٦﴾ [البقرة: 116]

❁ مُناسَبَةُ الآيَةِ لِمَا قَبْلَها:

بعد بيانِ اتِّهام أهل الكتابِ بعضِهم لبعضٍ، ناسبَ ذكرُ بعضِ أقوالِهم وأقوالِ المشركين الذين قاسموهم العداءَ لدين الإسلام، في الافتراء على اللّٰه تعالى في أخصِّ صفاتِه، وهي عدمُ اتِّخاذِه الولد، فنسبوا الولدَ إليه، وبعد بيان أنَّ المَشرِقَ والمَغرِبَ للّٰه تعالى، ناسبَ أن يذكرَ مُلكَه للسَّماواتِ والأرضِ وعدمَ احتياجِه لأحد من العالمين، فكما كان ذكرُ المَشرِقِ والمَغرِبِ دليلًا على قبولِ توجُّه المُتوجِّهين، كان ذكرُ ملكِ السَّماوات والأرض دليلًا على افتراء المُفترين في نسبةِ الولدِ إليه سبحانه عمَّا يقولون.

❁ شَرْحُ المُفْرَدَاتِ:

1) ﴿ٱتَّخَذَ﴾: فعل ماضٍ مزيد على وزن (افْتَعَلَ)، وجذره اللّغويّ (أخذ)، يُقال: "تَخِذْتُ مَالاً أَي كَسبتُه، أُلزمتِ التاءُ الحرفَ كأَنّها أصليَّةٌ"[1] وقيل غير ذلك، وهو أنّ هذا الفعلَ ﴿ٱتَّخَذَ﴾ أصله من الأخذ، ثمّ، أُبدلتِ الهمزة تاء[2]، ومصدره الاتّخاذ "افتعَالٌ من الأخذِ، إلّا أنّه أُدغِم بعد تليينِ الهمزةِ وإبدالِ التاءِ، ثمَّ لـمَّا كَثُر الاستعمالُ على لفظِ الافتعالِ تَوَهَّمُوا أَنَّ التاءَ أصليَّةٌ؛ فبَنَوْا منهُ فَعِلَ يَفْعَلُ، قالوا (تَخِذَ) يَتخَذُ"[3] وهو فعل ينصبُ مفعولين، من أفعال التّحويل والتّصيير.

2) ﴿وَلَدٗاۗ﴾: اسم ثلاثيّ، زنة (فَعَل)، جذره اللّغويّ (ولد)، وأصل معنى هذا الجذر هو "دليلُ النَّجلِ والنّسلِ، ثمَّ يُقاسُ عليهِ غيرهُ منْ ذلكَ الولدِ، وهو للواحدِ والجميعِ، ويُقالُ للواحدِ ولدٌ أيضًا"[4] ومن معانيه "الابنُ والابنَة، والوُلْدُ: هُمُ الأهلُ، والوَلَدُ"[5] أي: أنّ لفظَ الولد صالحٌ للذّكر والأنثى؛ ليدخل فيه مقالاتهم جميعًا.

(1) الأزهري، تهذيب اللّغة: (أخذ).
(2) السَّمين، عُمدة الحفّاظ: 1/258.
(3) الزَّبيدي، تَاج العَروس: (أخذ).
(4) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (ولد).
(5) الرّاغب، المفردات: (ولد).

و"الوليد الصّبيّ حين يُولَد، والوَلَد ما وُلد أيًا كان"[1] والمعنى في الآية هو ما زُعم من اتّخاذ اللّه الولد، بمعنى الابن، تنزّه اللّه عن ذلك، وإنّما هو قولُ اليهود والنّصارى وأضرابهم.

3) ﴿سُبۡحَٰنَهُۥۖ﴾: مصدر (سَبّح يسبِّح) مضاف إلى الضمير العائد عليه تعالى، وجذره اللّغويّ من (سبح)، "وسبّح الرّجل تسبيحًا إذا عظّم اللّه ومجّده، ولسُبحان في اللُّغة مَواضِع؛ سُبحَانَ: تَنْزِيه وتبرئة"[2] وهو هنا كذلك؛ ففي قوله سبحانه بعد اتّهامهم الباري ﷻ باتّخاذه الولد -وهذه فِريَةٌ عظيمةٌ- فسُبحان "أُطلق في التعبير عنِ التّنزيه العام تمجيدًا للّه ﷻ بالصّلاة والذّكر"[3].

4) ﴿ٱلسَّمَٰوَٰتِ﴾: جمع بالألف والتّاء، مفرده سماء، وأصله (سمو) لأنّه من الفعل (سما يسمو) فألفه منقلبة عن واو، و"(السَّماء): هِيَ سقفُ كلّ شيءٍ، وكلّ بَيت، ورواق البيت، والسّحاب، والمَطر، ويطلقُ على السَّبع سماوات"[4] وهي ما يقابل الأرضَ، وهي أعلى كلّ شيءٍ، وتكون مؤلفة من طبقات؛ لذلك ذكرَت مجموعة في كثير من آي القرآن الكريم.

5) ﴿وَٱلۡأَرۡضِۖ﴾: اسم ثلاثيّ مُجرَّد، أصله الهمزة والرّاء والضّاد، ومعناها "الجِرۡمُ المُقَابِلُ للسَّماءِ، وجَمعُهُ أَرَضُونَ، ولا تَجيءُ مجموعةً في القُرآن، ويُعَبَّرُ بها عن أسفَلِ الشَّيءِ كما يُعبَّرُ بالسَّماء عن أَعلاهُ"[5] والمقصودة هنا الأرض المعروفة الّتي يعيش عليها البشر.

6) ﴿قَٰنِتُونَ﴾: جمع مذكر سالم لاسم الفاعل (قانت)، جذره اللّغويّ (قنت) قَنَتَ يَقْنِتُ قُنُوْتًا و"الأصل فيه الطّاعة، يُقال: قنت يقنت قنوتًا؛ ثمّ سمّي كلّ استقامة في طريق الدِّين قنوتًا"[6]، ومعنى ﴿قَٰنِتُونَ﴾ في الآية: مَن يكون منهم "الخشوع والإقرار بالعبوديّة، والقيام بالطّاعة التي ليس معها معصية"[7].

(1) جَبَل، المُعجم الاشتقاقي المؤصّل: (سبح).
(2) ابن دُريد، جَمهرة اللّغة: (بحس).
(3) جَبَل، المُعجم الاشتقاقي المُؤصّل: (سبح).
(4) الكفويّ، الكليّات، ص: 507.
(5) الرّاغب، المفردات: (أرض).
(6) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (قنت).
(7) جَبَل، المُعجم الاشتقاقي المُؤصّل: (قنت).

❁ المَعْنَى الإجْمَاليُّ:

تذكر الآيةُ قولَ مَن قال: إنّه تعالى اتّخذ ولدًا، وهي نازلة فيهم، وهم "اليهود حيث قالُوا عُزَير ابن اللّه، وفي نصارى نَجران حيث قالُوا المسيح ابن اللّه، وفي مشركي العربِ حيث قالُوا الملائكة بنات اللّه"(1)، ولعِظَم مُرْتَكَبِهم في هذا القول جاءت ما بعدها من جملٍ مُنَزِّهَةً اللّهَ تعالى بقوله: ﴿سُبۡحَٰنَهُۥۖ﴾؛ وهي عبارةُ تعجُّبٍ وتنزيهٍ للّه عن كلّ النّقائص والعيوب، ثمّ جاء بالحرف العاطف ﴿بَل﴾؛ فهو يُفيد الإضراب الانتقالي إلى تنزيهٍ ثانٍ، ويحتملُ الإضرابُ الإبطالي لإبطال ما يقولُه أهلُ الكتاب والمشركون.

ثمّ أخبر الحقّ ردّه على هذه الفِريَة العظيمة بأنّ السماواتِ والأرضَ له سبحانه، وهو المَالكُ يتصرّفُ فيهما كيفما يشاء، ومن جملة ما فيهما العُزير وعيسى والملائكة؛ ليُسقط ما ادّعوه من اتّخاذه الولد، تعالى اللّه عمّا يقولون علوًّا كبيرًا.

❁ الإيضاحُ اللُّغويُّ والبلاغيُّ:

توجيه المُتشابِه اللّفظيّ:

ذكـرُ الـواوِ وعـدمُـه عـائـدٌ إلى المعنى الّذي يُقرِّرُه السّياقُ

ابتدَأتِ الآيةُ بذكرِ الواوِ: ﴿وَقَالُواْ ٱتَّخَذَ ٱللَّهُ وَلَدٗاۗ سُبۡحَٰنَهُۥۖ﴾، بخلافِ آية يونس ففُصلَت: ﴿قَالُواْ ٱتَّخَذَ ٱللَّهُ وَلَدٗاۗ﴾ [يونس: 68]، والفرق أنَّ آيةَ البقرةِ معطوفةٌ على القولِ السَّابقِ الشَّاملِ لأقوال اليهودِ والنّصارَى والمشركين؛ "اليهودِ في قولهم: ﴿عُزَيۡرٌ ٱبۡنُ ٱللَّهِ﴾ [التوبة: 30] والنّصارى في قولهم: ﴿ٱلۡمَسِيحُ ٱبۡنُ ٱللَّهِۖ﴾ [التوبة: 30]، والمشركين في قولهم: الملائكة بنات اللّه"(2)، أمّا آيةُ (يونس) فهي في كفّار قريش؛ فلا تشمُل قول اليهودِ والنّصارى(3)، وهي بيانٌ للآيات السَّابقة، ومن هنا يتبيَّن سببُ العطفِ وعدمِه، وأمَّا آيةُ الكهفِ: ﴿وَيُنذِرَ ٱلَّذِينَ قَالُواْ ٱتَّخَذَ ٱللَّهُ وَلَدٗا ٤﴾ [الكهف: 4] فهي صلةُ الموصولِ؛ فلا يصحُّ أن تتوسَّطَ الواوُ بين الاسمِ الموصولِ وصلتِه.

(1) النّيسَابوري، أسباب نزول القرآن، ص: 39.

(2) الوَاحدي، الوجيز، ص: 128.

(3) الدّرّة، تفسيرُ القرآن الكريم إعرابُه وبيانُه: 4/345.

بلاغةُ التَّكامُلِ الدّلالي بين القراءات، وأثرُه في الخطاب التَّواصليِّ مع المتلقِّين

توجيه القراءات القرآنيَّة:

قرأ الجمهورُ بالواو، بينما قرأ ابنُ عامرٍ الشَّاميُّ بحذفِها[1]، وتوجيه قراءةِ الجمهور سبق بيانه في كونها عطفت القولَ على أقوالِ السَّابقين من أهل الكتابِ والمشركين، أمَّا قراءةُ الشَّاميِّ فهي مفصولةٌ على شبه كمالِ الاتِّصالِ، فهي جوابٌ ناشئٌ عن سؤالٍ مُقدَّرٌ، "فكأنَّ السَّامعَ بعد أن سَمِعَ ما مَرَّ مِن عجائِبِ هؤلاءِ الفرقِ الثَّلاثِ -جَمعًا وتَفريقًا- تَسنَّى له أن يقولَ: لقد أسمَعتَنَا مِن مُساوِيهِم عجبًا؛ فهلِ انتَهَتْ مُساوِيهم أَم لهم مَسَاوٍ أخرى؟"[2]، والقراءتان في غاية البلاغة والفصاحة، وقد نُزِّلَتْ كُلُّ قراءةٍ منزلةَ الآيةِ التَّامَّة، فقراءةُ الجمهورِ عطفَتْ قولًا على قولٍ، وقراءةُ الشَّاميِّ أجابَتْ عن سؤالٍ مقدَّرٍ يتصوَّرُ وقوعَه السَّائِلُ من أولئك الظَّالمين؛ فقراءةٌ أتَتْ بالإخبارِ المحضِ لمن لا يتصوّرُ ذلك، وقراءةٌ أتَتْ بالجوابِ عن سؤالٍ مُقدَّرٍ، فأدَّتْ كلُّ قراءَةٍ وظيفتَها في خطابِ النَّاس على قدْرِ معارِفِهم وعلومِهم.

التعبير بـ(سبحانه) تنزيهٌ بأقوى صورة لما فيه من أنواع التّوكيد

﴿سُبۡحَٰنَهُۥۖ﴾ مصدرٌ منصوبٌ للتّوكيد:

قولُه تعالى ﴿سُبۡحَٰنَهُۥۖ﴾ مفعول مطلق للفعل (أسبّح سبحان اللّه)، وهو "تنزيهٌ له عن ذلك وتبعيدٌ"[3] عن قولهم وافترائهم ذاك، وهو افتراءٌ عظيمٌ بمنزلة الشّرك، بل هو شركٌ، ولا أعظم من الإشراك باللّه؛ ولذلك جاء بهذه العبارة، ومعناه "تقدّس وتنزّه عمّا زعموا تنزّهًا بليغًا"[4] بأقوى صورة؛ فإنّ أصل "التّسبيح للّه عند العرب التّنزيهُ له من إضافة ما ليس من صفاتِه إليه، والتبرئة له من ذلك"[5] وإنّ المفعول المطلق، أو المصدر المنصوب -كما في مصطلحات الأقدمين - الغاية

(1) ابن مُجاهد، السَّبعة، ص: 169.
(2) ابن مُجاهد، السَّبعة، ص: 169.
(3) الزّمخشري، الكشّاف: 1/180.
(4) القَاسمي، مَحاسن التّأويل: 1/232.
(5) ابن جرير، جَامع البَيان: 1/474.

منه التوكيد[1]، ثمّ إنّ فعله "أسبّحه تسبيحًا عن أن يكونَ له ولد"[2] أو يسبّح أو نحوه يدُلُّ على المبالغة والتّكثير، وذكر أنّه "عَلَمٌ للتّسبيح كعُثمانَ للرّجل"[3] وهذا ممّا يزيدُه توكيدًا.

معنى حرف الإضراب:

دلالـــةُ (بــل) بــين الإبــطــالِ والانتقال

تحتمل ﴿بَل﴾ الانتقال والإبطال، فإنْ رجعَ الكلام إلى: ﴿سُبۡحَٰنَهُۥ﴾ فهو إضراب انتقالي؛ انتقالٌ من تنزيهٍ إلى تنزيهٍ آخر، وإنْ رجعَ الكلامُ إلى: ﴿ٱتَّخَذَ ٱللَّهُ وَلَدٗاۗ﴾ فهو إضرابٌ إبطالي[4]، و﴿بَل﴾ هي العاطفة الّتي تَعطِفُ الحكم فقط، لكنّها تنفي ما قبلها، وتثبت ما بعدها، تنفي افتراءهم اتّخاذ الولد له سُبحانه، وتثبت "كون ما في السموات والأرض مُلْكاً له، وهذا ينافي أن يكونَ فيهما ولدٌ له"[5].

معنى اللّامِ الجارَّة:

قوله تعالى: ﴿بَل لَّهُۥ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۖ﴾ "أي: له كلّ ما سواه على سبيل الملكِ والخلقِ والإيجادِ والإبداعِ"[6]، واللَّامُ في ﴿لَّهُۥ﴾ حرفُ جرٍّ يُفيدُ الملك والاختصاص.

فائدةُ تقديم المُتعلّق ﴿لَّهُۥ﴾ على المبتدأ:

اختصاصُ ملك ما في الكون به وحده سبحانه

في قوله: ﴿لَّهُۥ مَا﴾ تقديم الخبر على المبتدأ، وغايته الاختصاص والحصر، أي: يملك وحده لا غيره "ما هو موجود؛ فإنّ السماواتِ والأرضَ هي مجموع العوالم العلويّة والسّفليّة"[7] فكلّ ما في الكون له وحده تعالى، فالتّقديم أفاد قصر الملك عليه سُبحانه.

---

(1) ابن الحاجب، الكافية، ص: 18.
(2) الشّوكاني، فتح القدير: 1/624.
(3) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 1/244.
(4) ابن عرفة، تفسير ابن عرفة: 1/162.
(5) ابن القيّم، بدائع الفوائد: 14/573.
(6) الرّازي، مفاتيحُ الغيب: 4/23.
(7) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 1/685.

سرُّ استعمالِ ﴿مَا﴾ مع ﴿قَٰنِتُونَ﴾ في سياقٍ واحد:

تـغـلـيـبُ غـير العقلاءِ في مقام الملك والخلق، والـعـقـلاء في مقام العبادة والقنوت

جاءَ التَّعبيرُ بـ: ﴿مَا﴾ الّتي يغلبُ عليها الاستعمال في غير العقلاء في قولِه تعالَى: ﴿بَل لَّهُۥ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۖ كُلّٞ لَّهُۥ قَٰنِتُونَ ١١٦﴾، بينما استعملَ جمعَ السلامةِ في ﴿قَٰنِتُونَ﴾، وذلك أنَّه لما أثبتَ اختصاصه بملكيةِ ما في السَّماوات والأرضِ ناسب تغليبَ غيرِ العاقلِ؛ إذِ المقامُ مقامُ ملك، بخلاف جمع السلامة في ﴿قَٰنِتُونَ﴾، فالمقامُ مقامُ عبادةٍ وخضوعٍ، وهي ما يستدعي استعمالَ ما يدُلُّ على العلم:

نكتةُ تقديمِ ﴿ٱلسَّمَٰوَٰتِ﴾ على ﴿وَٱلۡأَرۡضِۖ﴾:

تقديمُ الأشرف والأكـبر والأعـظـم، إذ هـو الـحـاوي للمعطوف

قدَّمَ ذكر ﴿ٱلسَّمَٰوَٰتِ﴾ على ﴿وَٱلۡأَرۡضِۖ﴾؛ باعتبارِها الأشرفَ؛ لما تحويه من المخلوقات العظيمة كالعرش، والأكبر والأعظم؛ فالأرضُ بالنسبة إلى السَّماوات كالخرزةِ في العِقد، وهو ما جرى في غالب آيات القرآن الكريم.

بلاغةُ الفصلِ بين الجمل:

استقلالُ الجملةِ بالاستدلال

فُصِلت جملةُ ﴿كُلّٞ لَّهُۥ قَٰنِتُونَ﴾؛ "لقصدِ استقلالها بالاستدلال حتّى لا يظنّ السَّامعُ أنّها مكمّلةٌ للدّليل المسوق له"[1]، وهو توكيد في المعنى لِمَا سبق من قوله ﴿لَّهُۥ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۖ﴾؛ وهو إثباتٌ بعد إثبات، وأنّه تعالى مُنزّه عمّا يقولون، فهو مُنزّه عن اتّخاذ الولد؛ لأنّه يملك ما في السموات والأرض؛ ولأنّ الجميع له عابدون طائعون قانتون فكيف يتّخذ ولدًا سبحانه!.

نكتةُ الجمعِ في ﴿قَٰنِتُونَ﴾:

مجيءُ الجَمعِ بـعـد الـجـمـع يُـعـطـي دلالـةَ الاستغراقِ

أتى الخبرُ ﴿قَٰنِتُونَ﴾ جمعًا حملًا على المعنى، ولو حملَه على اللَّفظِ لقال: قانت، ونكتة ذلك إفادةُ العموم بعد العمومِ، فـ: ﴿كُلّٞ﴾

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 1/685.

من ألفاظِ العمومِ، و﴿قَـٰنِتُونَ﴾ جمعٌ وهو يُفيد العمومَ كذلك، ومجيء الجمعِ بعد الجمعِ يعطي دلالةَ الاستغراقِ، فلا أحدَ إلَّا وهو قانتٌ لله سُبحانه وتعالى، "فالمخلوقات كلّها تقنت لله، أي تخضع وتُطيع"[1].

تقديمُ الجارِّ والمجرور على الخبر:

إفادة الحصر والاختصاصِ

قُدِّم المتعلِّق ﴿لَّهُۥ﴾ على الخبر؛ لإفادة الحصر؛ فالكلُّ ﴿قَـٰنِتُونَ﴾ له دون سواه سُبحانه، وهو الأنسبُ كذلك برؤوس الآيات.

(1) القُرطبي، الجَامع لأحكام القرآن: 2/334.

﴿بَدِيعُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۖ وَإِذَا قَضَىٰٓ أَمۡرٗا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ١١٧﴾ [البقرة: 117]

❁ مُناسَبَةُ الآيَةِ لِمَا قَبْلَها:

بعد أن نزَّهَتِ الآيةُ السَّابقةُ اللّه عن اتِّخاذِ الولد، وأثبتَتْ عدمَ احتياجِه لأحدٍ؛ إذ هو المالكُ الخالق الّذي يخضعُ له جميعُ الخلائقِ، ناسبَ زيادة ذلك بالبيانِ والإفصاحِ عن صفاته العظيمةِ جملةً، وأنَّه إذا قضى أمرًا فإنَّه يكون بعد أمرِه.

❁ شَرْحُ المُفْرَدَاتِ:

1) ﴿بَدِيعُ﴾: من الجذر اللّغويّ (بدع)، ولهذا الجذر أصلٌ هو "ابتداء الشّيء وصنعه لا عن مثال"[1]، وهو اسم على وزن (فَعِيْل) بمعنى (فاعِل) "فَبَدِيعٌ فَعِيلٌ بمعنى فاعِلٍ، مِثلُ قَدِيرٍ بمعنى قادرٍ، وهو صفةٌ من صفاتِهِ تعالى؛ لأَنَّهُ بدأ الخَلقَ على ما أرادَ على غيرِ مِثالٍ تَقَدَّمَهُ"[2]، ويحتمل أن يكون بمعنى (مُفْعِل) اسم فاعل مُبْدِع أي: مُنشِئ "بدعت الشَّيء إذا أنشأته، واللّه ﷻ بديع السَّمَوَات والأَرض أي: منشئها"[3]، والإنشاءُ هوَ الخلقُ، إلّا أنّه خلق على غير مثال؛ فهوَ "بديعُ السَّماواتِ والأَرضِ، منشئهما على غير حِذاء ولا مثال، وكلُّ مَن أنشأ ما لم يُسبَقْ إليهِ قِيل له: أَبدَعْتَ"[4] ويحتمل أن يكون من أبنية المبالغة على وزن (فَعِيْل)[5].

2) ﴿قَضَىٰٓ﴾: فعل ماضٍ معتلّ الآخر جذره (قضي)؛ لأنّ مضارعَه (يقضي)، وأصل جذره "يدُلُّ على إحكام أمرٍ، وإتقانِه وإنفاذِه لجهته"[6] لقوله تعالى ﴿فَقَضَىٰهُنَّ سَبۡعَ سَمَٰوَاتٖ فِي يَوۡمَيۡنِ﴾ [فُصِّلت: 12] وهو من الألفاظ المشتركة الدلالة، ويتعين معناه بحسب

(1) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (بدع).
(2) الزَّبيدي، تَاج العَروس: (بدع).
(3) ابن دريد، جمهرة اللّغة: (بدع).
(4) الأزهري، تهذيب اللّغة: (بدع).
(5) القُرطبي، الجَامع لأحكام القرآن: 2/335.
(6) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (قضي).

السِّياق الوارد فيه، ومنه "الفراغ من الشّيء بإتمامه حسب المراد أداءً أو تحصيلًا أو إتمامَ عمل"[1] وعموم لفظ القضاء وما اشتقّ منه يأتي بمعنى الحكم[2]، وهو الوارد في الآية، أي: إحكامُ الأمر وإمضاؤه.

3) ﴿كُن﴾: فعل الأمر من (كان)، وهو (كُوْنْ) التقى ساكنان فحُذف حرف العلّة، وأصله (كون) لأنّ مضارعه (يكون)، وقد يكون ناقصًا، وقد يكون تامًا، والوارد في الآية من الباب الأول، وهو الأشهر والأشيع، وهو "يدُلُّ على الإخبارِ عنْ حدوثِ شيءٍ، إمَّا في زمانٍ ماضٍ، أو زمانٍ راهنٍ؛ يقولون: كان الشَّيءُ يكونُ كونًا، إذا وقعَ وحضرَ"[3].

۞ المَعْنَى الإجْمَاليُّ:

اشتملتِ الآيةُ على صفتين من صفات الله سبحانه وتعالى، الأولى: إبداعُ السَّماواتِ والأرضِ من غير مثالٍ سابق، الأخرى: قضاؤه في أمرٍ يتحقَّق بأوانه، ومنِ اتَّصفَ بهذه الصِّفاتِ فكيف يحتاج إلى اتِّخاذِ الولدِ! وإنفاذُ أمرِه سبحانه هو "تمثيلٌ وتشبيهٌ لتعلّق إرادته بإيجاد الشّيء فيعقبه وجوده ... والإيجاد والتّكوين من أسرار الألوهيّة، عبّر عنهما بما يقرِّبهما من الفهم، وهو أن يقولَ للشّيء: ﴿كُن فَيَكُونُ﴾"[4].

۞ الإيضاحُ اللُّغويُّ والبلاغيُّ:

براعةُ حذفِ المسندِ إليه:

مباغتةُ المخاطَبين بحجَّةٍ قاهرةٍ لا يُماري فيها إلَّا معاندٌ مكابر

حُذِفَ المسنَدُ إليه في قولِه تعالى: ﴿بَدِيعُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِۖ﴾، وسببُ الحذفِ هو معرفةُ المخَاطَبِ للمحذوف؛ فإنَّ الخبرَ لا يصلُحُ إلّا له حقيقةً[5]، "وحَذفُ المُسنَدِ إليهِ في هذا المَقامِ استِعمَالٌ شائعٌ عند العَربِ إذا ذَكرُوا مَوصوفًا بأوصافٍ أو أخبارٍ جعلوُه كأنَّهُ

(1) جَبَل، المعجم الاشتقاقي المُؤصّل: (قضى).
(2) الزّبيدي، تَاج العَروس: (قضى).
(3) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (كن).
(4) المَرَاغي، تفسير المَرَاغِي: 1/200.
(5) السَّكَّاكي، مفتاح العُلوم، ص: 17.

قد عُرِفَ للسَّامع"[1]، وهو قريبٌ من أسلوب قطع النُّعوت؛ لذلك لم يُعطف على السَّابق، فهو بيانٌ وتوضيحٌ لـمَا سَبَق، وهذا في غايةِ البراعةِ؛ لأنَّه كالحجَّةِ المباغتةِ للمفترين على اللّٰه، فكيف بمن يُبدِع السَّماوات والأرض أن يتَّخذَ ولدًا، وهو أمرٌ معلومٌ للمُخاطَبين، لا يجادِلُ فيه إلَّا مُكابِر.

معنى إضافةِ (بديع):

إضافة الصِّفةِ إلى ما كان فاعلًا في الأصـلِ؛ لإفـادة معنى الغرابةِ الفائقةِ غيرَها حسنًا

"﴿بَدِيعُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ﴾ من بابِ الصفةِ المُشبهة؛ أُضيفَتْ إلى منصوبِها الّذي كانَ فاعلاً في الأصلِ، والأصل: بديعٌ سماواتُه، أي: بَدُعَتْ؛ لمجيئِها على شكلٍ فائقٍ حسنٍ غريبٍ، ثمَّ شُبِّهَتْ هذه الصفةُ باسم الفاعل؛ فَنَصَبَتْ ما كان فاعلاً، ثم أُضِيفَتْ إليه تخفيفاً ... والبديع: الشّيء الغريبُ الفائقُ غيرَه حُسْناً"[2].

معنى ﴿وَإِذَا﴾ في سياقِها:

الإشـارةُ إلى أنَّ قـضاءَ اللّٰه وحُكمَه نافذٌ في الزَّمانِ كلِّه

﴿وَإِذَا﴾ في الأصلِ هي ظرفٌ لما يُستقبلُ من الزَّمان، متضمِّنٌ لمعنى الشرط، لكنَّها في الآية لا يُراد بها الزَّمنُ المُستقبلُ، "إذ كان ذلك إشارة إلى ما قبل وجود الزَّمان"[3]؛ فهي ليست على حقيقتها في الاستعمالِ اللّغويِّ، وفائدةُ استعمالِها في هذا السِّياقِ: الإشارةُ إلى أنَّ ما يُريدُه سبحانه يُنفِّذُه بلا مُهلة في الماضي نصًّا أو في المستقبلِ إشارةً، فقضاؤه وحكمُه نافذٌ في مُطلَقِ الزَّمانِ.

سِرُّ التَّعبيرِ بـ﴿قَضَىٰٓ﴾ دون (حَكَمَ):

الإفـادةُ بتحقُّقِ الأمـرِ بتمامه دون مُهلةٍ

أتَتِ الآيةُ بلفظِ ﴿قَضَىٰٓ﴾ دون مرادِفاتِها؛ لإفادةِ تحقُّقِ الشَّيءِ؛ فإنَّ مرْجعَ ﴿قَضَىٰٓ﴾ إلى انقطاعِ الشَّيءِ وتمامِه[4]، وهو اللَّفظُ الأنسبُ في هذا السِّياقِ، إذ صُدُورُ الأمرِ يقضي بتحقُّقِه بتمامِه بلا

---

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 1/313

(2) السَّمين، الدُّرّ المَصون: 86-2/85.

(3) الرّاغب، تفسير الرّاغب: 1/302.

(4) الأزهري، تهذيب اللّغة: (قضى).

مهلةٍ، و "أنّ ما قضاه من الأمور وأرادَ كونه، فإنّما يتكوّن ويدخل تحت الوجود من غير امتناعٍ ولا توقُّف"[1]، وهذا المعنى لا يتحقَّقُ في لفظِ (حَكَمَ)، فإنَّ الأخيرَ قائمٌ على صدورِ الحُكمِ بقطع النَّظرِ عن تحقُّقِه؛ وهذا في غالب الاستعمال.

توجيه القراءات:

القياسُ الإشاريُّ في حمل قراءةِ ابن عامرٍ على قراءَةِ الجمهورِ

قرأ جمهورُ القرَّاء قولَه تعالى ﴿فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ١١٧﴾ برفعِ النّون في ﴿فَيَكُونُ﴾، وحجَّتُهم أنَّها معطوفةٌ على يقول، أو استئناف[2]، "و﴿كُن﴾ هي من (كان) التَّامة بمعنى أحدث فيحدث، وليس المرادُ به حقيقةَ أمرٍ وامتثال، بل تمثيل حصول ما تعلّقت به إرادته بلا مهلةٍ بطاعةِ المأمور المطيع بلا توقُّف"[3]، فعلى قراءةِ الجمهورِ يكونُ المعنى: كنْ فكان، فهي إخبارٌ وإن جاءَتْ على صورةِ الأمرِ[4]، أي: قضاؤه الكونُ المتحقِّقُ وجودُه.

وقرأَ "ابنُ عَامر وَحده: ﴿كُن فَيَكُونَ﴾ بنصب النُّون"[5]، أي: "نصب المضارع بـ(أن) مضمرة وجوبًا بعد فاء السببيَّة"[6]، على جعل ﴿كُن﴾ فعلَ أمرٍ على صورتِه المعهودةِ، وقراءتُه على معنى أنَّه إذا أمر بأمرٍ في المستقبلِ؛ فإنَّه يكونُ كما كان قضاؤه الحتميُّ في السَّابقِ؛ فقراءته محمولةٌ على القياس الإشاريِّ، أي: أنَّ أمرَه نافذٌ في المستقبلِ؛ لأنَّه نافذٌ في الماضي.

معنى القضَاءِ وتحقُّقِه:

تمثيلٌ لسرعةِ الوجُودِ بعد صُدُورِ الأمر

الظَّاهرُ أَنَّ القولَ والمَقُولَ والمُسَبَّبَ تمثيلٌ لسُرعة وُجُودِ الكائِنَاتِ عندَ تَعَلُّقِ الإرادةِ والقُدرَةِ بهمَا، بأَنْ شَبَّهَ فِعلَ اللّٰهِ تعالى

(1) الزَّمخشريّ، الكشّاف: 1/315.
(2) ابن زنجلة، حُجّة القراءات، ص: 111.
(3) البَيضاويّ، أنوار التّنزيل وأسرار التّأويل: 1/301.
(4) الفارسّي، الحجّة للقراء السَّبعة: 2/205.
(5) ابن مُجاهد، السَّبعة، ص: 169.
(6) الفارضّي، شرح الإمام الفارضّي على ألفية ابن مالك: 3/549.

بتكوينِ شَيءٍ وحُصُولِ المُكَوَّنِ عَقِبَ ذلك بدُونِ مُهلَةٍ بتَوَجُّهِ الآمرِ للمأمُورِ بكلِمةِ الأَمرِ، وحُصُولِ امتثالِه عَقِبَ ذلك؛ لأَنَّ تلك أقرَبُ الحالاتِ المُتَعارَفَةِ الَّتي يُمكِنُ التَّقريبُ بها في الأمورِ الَّتي لا تَتَّسِعُ اللُّغةُ للتَّعبيرِ عنها ... والَّذي يُعَيِّنُ كونَ هذا تَمثيلًا أَنَّهُ لا يُتَصَوَّرُ خطابُ مَنْ ليسَ بموجُودٍ بأَنْ يكونَ مَوجُودًا"[1]، فيكون قولُه: ﴿كُن فَيَكُونُ﴾ مرادًا به "سُرعةُ نفاذِ قدرة الله في تكوين الأشياء"[2]، وفيه إثباتُ قدرته تعالى بتحقيق ما يريد بأوجز كلام.

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 688-1/687.

(2) الرّازي، مَفاتيح الغيب: 4/26.

﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ لَا يَعۡلَمُونَ لَوۡلَا يُكَلِّمُنَا ٱللَّهُ أَوۡ تَأۡتِينَآ ءَايَةٞۗ كَذَٰلِكَ قَالَ ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِم مِّثۡلَ قَوۡلِهِمۡۘ تَشَٰبَهَتۡ قُلُوبُهُمۡۗ قَدۡ بَيَّنَّا ٱلۡأٓيَٰتِ لِقَوۡمٖ يُوقِنُونَ ١١٨﴾ [البقرة: 118]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِمَا قَبْلَها:

بعدما "تقرّر بما أنبأ من بديع آياتِه في مُنبثّ مصنوعاته أنّ عظمتَه تقصرُ عنها الأوهام، وتنكصُ خاسئةً دونها نوافذ الأفهام"(1)، ناسب أن يعطفَ قولًا للمشركين على قوله تعالى: ﴿وَقَالُواْ ٱتَّخَذَ ٱللَّهُ وَلَدٗاۗ سُبۡحَٰنَهُۥۖ﴾ "لمناسبة اشتراك المشركين واليهود والنّصارى في الأقوال والعقائد الضّالة"(2)؛ ليُبيِّن فيه حالتهم العجيبةَ وهي طلبُهم أن يكلّمَهم اللّه، أو أن يأتيَهم بآية من اقتراحهم، وتركهم الاعتراف بالقرآن الكريم آية، وهم مع ذلك مَنبَعُ الجهالة، وأهلُ الضّلالة؛ فقد وصفهم بأنّهم لا يعلمون، وأنّ حالهم ليس بدعًا مِن أحوال مَن سبقوهم من الغابرين؛ فقد قالُوا مثلَ مقالتهم.

شَرْحُ المُفْرَدَاتِ:

1) ﴿يَعۡلَمُونَ﴾: فعل مضارع من الأفعال الخمسة مُسند إلى واو الجماعة، وأصل حروفه (علم) والاسم منه العلم، وله معانٍ عديدة منها أنّه "ضدّ الجَهل؛ رجل عَالم من قوم عُلَماء وعالمين، وأعلام القَوم ساداتهم، ومَعالم الدِّين: دلائله"(3) وفعل العلم يقتضي معلومين؛ الأوّل أصله مبتدأ، والآخر أصله خبر، على أن يكونا مفعولين، وهنا حَذَفَ المفعولَين.

2) ﴿يُكَلِّمُنَا﴾: فعل مضارع جذره اللّغويّ من (كلم)، وأصلُ الكاف واللّام والميم "يدُلُّ على نطق مفهم ... تقول كلّمته أكلّمه تكليمًا؛ وهو كليمي إذا كلّمك، أو كلّمته، ثمّ يتّسعون فيسمّون اللّفظةّ الواحدةّ المفهمة كلمة، والقصّة كلمة، والقصيدة بطولها كلمة"(4).

(1) البِقاعي، نظم الدّرر: 2/136.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 1/688.
(3) ابن دريد، جمهرة اللّغة: (علم).
(4) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (كلم).

والكلام "يَقعُ على الأَلفاظِ المنظُومةِ، وعلَى المعاني الّتي تحتَها مجموعةً، وعندَ النَّحويين يقَعُ على الجزءِ منهُ؛ اسمًا كان، أو فِعلاً، أو أداة، وعند كثيرٍ من الـمُتَكَلِّمين لا يقَعُ إلّا على الجملةِ الـمُرَكَّبَةِ المفيدةِ"[1] والمعنى المراد في الآية لا يخرج عن معنى الكلام الوارد آنفًا؛ فإنّهم طلبوا أن يُكلِّمَهم الله، وهو نابعٌ من المبالغة في الجهل[2].

3) ﴿تَأۡتِينَآ﴾: فعل مضارع، الماضي منه (أتى)، وجذره اللّغويّ (أتو) وأصل معناه "يدُلُّ على مجيء الشّيء وإصحابه وطاعته، الأَتْو الاستقامة في السّير"[3].

ومصدره الإتيان، ومعناه "مجيءٌ بسهُولَةٍ ... والإتيان يُقال لِلمجيءِ بالذّات، وبالأمرِ وبالتَّدبيرِ، ويقالُ في الخير، وفي الشَّرِّ وفي الأعيانِ والأعراضِ"[4]، والمعنى في الآية أنْ تنزلَ عليهم آية ليؤمنوا، وهو طلبٌ نابعٌ من جهلهم.

4) ﴿ءَايَةٌۗ﴾: اسم مؤنث، ومعناها أنّها "طائفةٌ من القرآن، يتّصلُ بعضُها ببعضٍ إلى انقطاعِها، طويلةً كانت أوْ قصيرة"[5] ولها معنًى آخرُ جامعٌ وهو العلامة[6].

5) ﴿قَبۡلِهِم﴾: اسمٌ من الأسماء الملازمة للإضافة، وهو صالحٌ للظّرفيّة الزّمانيّة والمكانيّة، "القافُ والباءُ واللّامُ أصلٌ واحدٌ صحيحٌ تدُلُّ كَلِمُهُ كلُّها على مواجهةِ الشَّيءِ للشَّيءِ"[7]، وله معانٍ كثيرة جدًّا تنتمي إلى هذا الأصل، أمّا (قبل) المذكور في الآية فقد فُسّر بأنّه خلاف (بعد)، ولا يكون من هذا الأصل إلّا بالتّأويل على تقدير هو مقبل على الزّمان[8] و"يُستعمل في التَّقَدُّم الـمُتَّصِلِ والـمُنفَصِلِ، ويُضَادُّهُ بَعْدُ"[9] ومعنى (قَبْلهم) في الآية يفيد الزّمان.

6) ﴿مِّثۡلَ﴾: اسمٌ جذره اللّغويّ (مثل)، وأصلّه اللّغويّ "يدُلُّ على مناظَرة الشَّيء للشَّيء، وهذا مِثْل هذا، أي نَظيره، والمِثل والمِثال في معنًى واحدٍ"[10].

(1) الرّاغب، المفردات: (كلم).
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 1/689.
(3) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (أتو).
(4) الرّاغب، المفردات: (أتى).
(5) الكفويّ، الكليّات، ص: 41.
(6) ابن منظور، لسان العرب: (أيا).
(7) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (قبل).
(8) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (قبل).
(9) الرّاغب، المفردات: (قبل).
(10) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (مثل).

ومعناه المِثْلُ "شِبهُ الشّيءِ في المِثال والقَدر ونحوِه حتّى في المعنى، ويُقال: ما لهذا مَثيلٌ، والمِثالُ: ما جُعِلَ مِقداراً لغيره، وجمعُه مُثُل"[1].

و"المثل عبارةٌ عن قولٍ في شيءٍ يشبه قولًا في شيءٍ آخر بينهما مشابهةً لتبيين أحدهما للآخر وتصوّره"[2] وهو المعنى المراد في الآية، وهو أنّ قولَ السّابقين مثلُ قولِ اللّاحقين، فهو طباقه في الجهل والباطل.

7) ﴿تَشَٰبَهَتۡ﴾: فعل ماضٍ مزيد على وزن (تَفاعَلَ)، وهو من أوزان الفعل الثلاثيّ المزيد، وغالبُ معانيه المفاعلة والمشاركة، والجذر اللّغويّ له (شبه)، أمّا الأصل اللّغويّ له فإنّه "يدُلُّ على تشابه الشّيءِ، وتشاكلِه لونًا ووَصفًا، يقال: شِبْه وشَبَه وشبيه، والشّبه من الجواهر الّذي يشبهُ الذّهب، والمشبهات من الأمور المشكلات، واشتبه الأمران إذا أشكلا"[3] أمّا المعنى العام للشّبه فهو "الشِّبْهُ والشَّبَهُ والشَّبِيهُ حقِيقتُها في المُماثلَةِ من جِهةِ الكَيفِيَّةِ، كاللّونِ والطَّعمِ، وكالعَدالةِ والظُّلم"[4]، ومعنى ﴿تَشَٰبَهَتۡ قُلُوبُهُمۡۘ﴾ أي في الغيّ والضّلالة وسوء النّظر[5]؛ فقال كلٌّ منهم مقالةَ سوء في طلب أن يكلِّمَهُمُ اللّه، وأن يأتيَهم بآية.

8) ﴿قُلُوبُهُمۡۘ﴾: جمع تكسير يفيد الكثرة، مفرده (قلب)، جذره اللّغويّ (قلب)، وله أصلان صحيحان "أحدهما يدُلُّ على خالص شيء وشريفه، والآخر على ردّ شيء من جهة إلى جهة"[6]، والمعنى المحوري لهذه اللّفظةِ: "باطنُ الشّيء ولُبُّه كالقلوب المذكورة، وقَلْبُ الأرض إخراجٌ لباطنها، ومن ذلك القَلْب المضغة المعروفة؛ لأنّها أهمُّ ما في الباطن وأقواه"[7] وهو المرادُ في الآية.

"وقلب الشّيءِ: تصريفُه وصرفُه عن وجهٍ، كقلبِ الثّوب وقلبِ الإنسان، قِيل سُمّي به لكثرةِ تقلّبه، ويُعبّر بالقلب عن المعاني الّتي تختصُّ به منَ الرّوح والعلم والشّجاعة"[8]

(1) الخليل، العين: (مثل).
(2) السَّمين، عُمدة الحفّاظ: 4/68.
(3) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (شبه).
(4) الرّاغب، المفردات: (شبه).
(5) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 1/689
(6) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (قلب).
(7) جَبَل، المُعجم الاشتقاقي المؤصّل: (قلب).
(8) السَّمين، عُمدة الحفَّاظ: 3/330.

ولا يخرج المعنى السّياقيّ للفظة ﴿قُلُوبُهُمۡۘ﴾ في الآية عن عامّة المعاني الواردة آنفًا، وقد فسَّرَها بعض المفسِّرين بمعنى العقول، وهو صواب.

9) ﴿لِقَوۡمٍ﴾: اسم ثلاثيّ مجرّد زنة (فَعْل)، وهوَ منَ القافِ والواو والميم، أصل يدُلُّ على الجماعة منَ النَّاس، ويُقال إنّه جمعُ امرىء[1]، والصّواب أنّه اسمُ جمع[2] أي: ما له واحدٌ من معناه كرجل أو امرأة، وليس له واحدٌ من لفظه.

10) ﴿يُوقِنُونَ﴾: فعلٌ مُضارع من الأفعال الخمسة، مسند إلى واو الجماعة، أصله (يؤقنون) لأنّ ماضيه (أيقنَ) فحُذفت الهمزة تخفيفًا، وجذره اللّغويّ (يقن) ومصدره اليقين، ومعناه "العلم وزوالُ الشك، يُقال منه يَقِنْتُ الأمر يَقْناً، وأَيْقَنْتُ، واسْتَيْقَنْتُ، وتَيَقَّنْتُ، كلُّه، بمعنًى، وأنا على يَقين منه"[3].

و"اليَقِينُ من صِفَةِ العِلم فَوقَ المعرِفَةِ والدِّرايَةِ وأخَواتِها، يقالُ: عِلمٌ يَقِين، ولا يقال: مَعرِفَةُ يَقِينٍ، وهو سُكونُ الفَهمِ مع ثَباتِ الحُكمِ"[4] ومعنى ﴿يُوقِنُونَ﴾ في الآية: همُ القوم الّذين "يُظهرون اليقين ويعترفون بالحقّ"[5].

۞ المَعْنَى الإِجْمَالِيُّ:

تُخبِر الآيةُ عن قول المشركين، بطلبِهم أن يكلِّمَهم اللّه، أو أن يأتيَهم بآية، مع وجود الآيات البيّنات، القرآنيّة والعقليّة والكونيّة بما أعجزَ الفصحاء والبلغاء، لكنّهم أعرضوا، وهذا دأبُ الكافرين، وهم في مقولاتهم تلك يُشابهون مقولات الّذين سبقوهم؛ لأنّه لـمّا كانت قلوبُهم مُتشابهة كان كلامُهم مُتشابهًا؛ لذلك ذكرَّهم الحقّ تباركَ وتعالى بأنّه قد بيّنّ الآيات للّذين يُوقِنون "أي يطلبون اليقين، أو يُوقنون الحقائق لا يعتريهم شبهة، ولا عناد، وفيه إشارةٌ إلى أنّهم ما قالوا ذلك لخفاءٍ في الآيات، أو لطلبِ مزيد اليقين، وإنّما قالُوه عُتُوّاً وعِنادًا"[6].

---

(1) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (قوم).

(2) مُصطلح صرفيّ يُعنى به ما لا واحد له من لفظه، لكن من معناه مثل قوم ورَهط؛ فإنّ مفرده امرؤ، بخلاف ركب فإنّ مفرده راكب، يُنظر: شذا العرف في فنّ الصّرف، أحمد الحملاوي، ص: 98.

(3) الجَوهري، الصّحاح: (يقن).

(4) الرّاغب، المفردات: (يقين).

(5) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 1/691.

(6) البَيضاوي، أنوار التّنزيل وأسرار التّأويل: 1/103.

۞ الإيضاحُ اللُّغويُّ والبلاغيُّ:

بلاغةُ إسنادِ القولِ إلى قائله:

في الإسـنـادِ تشنيعٌ بليغٌ، وتقبيحٌ لديغٌ، يُناسِبُ المُتجرِّئَ على الله بغيرِ علمٍ

أُسند القول إلى ﴿ٱلَّذِينَ لَا يَعۡلَمُونَ﴾ في قولِه تعالى: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ لَا يَعۡلَمُونَ لَوۡلَا يُكَلِّمُنَا ٱللَّهُ﴾، ولهذا الإسنادِ معنًى دقيقٌ، فالأصلُ في الأقوالِ أن تصدُرَ عن علم، فما بالُها هنا صدرَتْ عنِ الّذين لا يعلمون ما يقولون! وما أعظمَ قول مَنْ لا يعلم! وبقطعِ النَّظرِ عنِ المقصودِ بالموصولِ؛ فإنَّ كلَّ من تكلَّم بالمقولِ المذكورِ فهو داخلٌ في حيِّزِ الصلةِ، وهذا من بليغِ الكلامِ، المومِئ إلى سخافةِ القائلِ وقباحةِ قولِه، ففي الإسنادِ تشنيعٌ بليغٌ، وتقبيحٌ لديغٌ، يُناسِبُ مَنْ يتكلَّمُ بغير علم.

نكتةُ التَّعبيرِ بصيغةِ المضارعِ:

نفيُ العلمِ لا تعلُّق له بالمعرفةِ، بل بما تُفيدُه المعرفةُ في الاعتقادِ والقولِ والعملِ

عبَّرتِ الآيةُ بصيغةِ الفعلِ المضارعِ المنفي: ﴿لَا يَعۡلَمُونَ﴾ ليدُلَّ على تجدُّدِ جهلِهم، ونفي العلمِ عنهم على الحقيقة، وعلى فرَضِ علمِهم فإنَّ عدمَ الانتفاعِ به يُؤدِّي إلى الاتِّصافِ بالجهل، وتسميتهم بذلك؛ لـمّا لم ينتفعوا بعلمهم[1]؛ فيكون مَثلُهم ﴿كَمَثَلِ ٱلۡحِمَارِ يَحۡمِلُ أَسۡفَارَۢاۚ﴾ [الجمعة: 5].

دلالةُ حذفِ المفعولِ:

وصفُ القائلِ بعدمِ الإدراكِ والتَّمييزِ؛ لفرطِ غباوته

حُذِفَ مفعولُ العلم في قوله: ﴿لَا يَعۡلَمُونَ﴾ اقتصارًا؛ "لأنَّ المَقصودَ إنَّما هو نَفيُ نِسبَةِ العِلمِ إليهم، لا نَفيُ عِلمِهم بشَيءٍ مَخصوصٍ، فكأنَّهُ قِيلَ: وقال الَّذين ليسُوا مِمَّنْ له سَجيَّةٌ في العِلمِ لفَرطِ غَباوتِهِ، فهي مَقالَةٌ صدرَتْ مِمَّنْ لا يَتَّصِفُ بتَمييزٍ ولا إِدرَاكٍ"[2].

(1) الماتُريدي، تأويلات أهل السُّنَّة: 1/549.

(2) أبو حيّان، البحر المحيط: 1/587.

كشفُ النّوايا الباطنيَّة، والنُّفوسِ المُتكبِّرَة في طلبها المساواة بالأنبياء!

دلالة ﴿لَوۡلَا﴾ على التحضيض:

﴿لَوۡلَا﴾ هنا ليست للشَّرط، بل هي حرفٌ يفيدُ التّحضيضَ؛ لوقوعِ الفعل المضارع بعدها، وهي بمعنى (هلّا) "قصد منه التّعجيز والاعتذار عن عدم الإصغاء للرّسول استكبارًا بأنْ عدّوا أنفسَهم أحرياء بالرسالة"(1)، فهم على قلّةِ مَداركهم، وعدم الانتفاعِ بالعلم الّذي يأتيهم يتأمَّلونَ منهُ تعالى أنْ يكلّمَهم، "كما يكلّمُ الملائكةَ وكلّمَ موسى؛ استكبارًا منهم وعُتُوًّا"(2)، وفي ذلك مكابرةٌ منهم في طلبِ مساواتهم بنبيِ اللّهِ موسى عليه السلام!

تحديدُ المرادِ بالآية بناءً على دلالةِ المُقابِل

دلالةُ المقابلةِ:

المقابلةُ بين مطلوبَي ﴿ٱلَّذِينَ لَا يَعۡلَمُونَ﴾ وهما: الكلامُ، والآيةُ، يدُلُّ على أنَّ المقصودَ بالآيةِ الماديَّةُ؛ لمقابلتِها بالمعنويَّة، وإلَّا فالآيةُ شاملةٌ للاثنين، وتنكيرُ ﴿ءَايَةٞ﴾ للنَّوعيَّة؛ لأنّهم أرادوا مُطلق الآيات؛ فلا يريدون آيةً بخصوصها، بقدرِ ما يُريدون آيةً مُتَّصفةً بخرق العادة.

التَّهديدُ والتَّرهيبُ لمن تابعَ المُكذِّبين في أقوالِهم واعتقاداتِهم

غرضُ التَّشبيه:

غرضُ التَّشبيه في قولِه تعالى: ﴿كَذَٰلِكَ قَالَ ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِم مِّثۡلَ قَوۡلِهِمۡۘ تَشَٰبَهَتۡ قُلُوبُهُمۡۗ﴾ إثباتُ سنَّةِ اللّه تعالى في المُكذِّبين، فاللَّاحقون على نَهجِ السَّابقين، في معاداةِ الحقِّ واتِّباعِ الهوى، وطلبِ المُنكرات؛ فأقوالُهم ما هي إلَّا بُهتانٌ وزُورٌ ومُنكر، كما كانتْ أقوالُ المُتقدِّمين؛ وفيه تهديدٌ وترهيبٌ ضمنيٌّ بإنزالِ ما نزَلَ بأسلافِهم من الأمم السَّابقة.

استغراقُ الأقوامِ السَّابقين وخاصَّة القريبين زمانيًّا

دلالةُ حرفِ ابتداءِ الغايةِ:

جاءَ استعمالُ حرفِ الجرِّ في قولِه تعالى: ﴿كَذَٰلِكَ قَالَ ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِم﴾، ولم يقُلْ: الّذين قبلَهم؛ ذلك أنَّ دخولَ حرف الابتداءِ يُعطي

---

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 1/689.

(2) الزّمخشري، الكشّاف: 1/316.

دلالةً استغراقيَّةً للأقوامِ السَّابقين الّذين صدرَت عنهم مثلُ هذه المَقالة، ويُعطي إشارةً إلى أنَّ هذا القولَ صَدَرَ عن الأقوامِ القريبين زمانيًّا، فهو استغراقٌ يخصُّ القريبين منهم زمانيًّا.

الجمع بين تشبيهِ الأقوال وتشابهِ القُلُوب:

تشابه القلوب نشأ عنه تشبيه الأقوالِ بالأقوال، فالتَّشابه بمنزلةِ الأصلِ للفرعِ

في قوله تعالى: ﴿كَذَٰلِكَ قَالَ ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِم مِّثۡلَ قَوۡلِهِمۡۘ تَشَٰبَهَتۡ قُلُوبُهُمۡۗ﴾ تشبيهُ القولِ بالقول في ﴿مِثۡلَ قَوۡلِهِمۡ﴾ "﴿كَذَٰلِكَ قَالَ ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِم مِّثۡلَ قَوۡلِهِمۡۘ تَشَٰبَهَتۡ قُلُوبُهُمۡۗ﴾؛ فإنّ تشابهَ القُلُوب يلزمُ منه تشابهَ الأقوالِ النَّابعةِ لِمَا في القلب، فقد جمع بين التّشبيه والتّشابه"[1]؛ فالتّشبيه للأقوال، والتّشابه للقلوب، فتشابه القُلُوب في الكُفر والطّغيان وعدم قبول الحقِّ كالتَّقرير لتشابهِ الأقوال، "أي: كانت عقولُهم متشابهةً في الأفن وسوء النّظر؛ فلذا اتّحدوا في المقالة"[2].

تماثُلُ الفروعِ لا يعني تشابهَ أصولِها:

التَّنبيه على تشابهِ الأصولِ تحذيرٌ ضِمنيٌّ، والتَّنبيه على تماثلِ الفروعِ دليلٌ صريحٌ

تشابهُ القلوبِ لا يعني تماثُلَها من كلِّ الوجوه، بينما الأقوالُ فقد تماثلَت، ذلك أنَّ التَّماثُلَ بين الأقوالِ حاصلٌ، فهي فروعُ الأُصول، بخلافِ الأصولِ فقد تختلف من جهاتٍ وتتَّفق من جهاتٍ أُخرى، لذلك قال تعالى: ﴿كَذَٰلِكَ قَالَ ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِم مِّثۡلَ قَوۡلِهِمۡۘ تَشَٰبَهَتۡ قُلُوبُهُمۡۗ﴾، فوَصَفَ القلوبَ "بالتَّشابه لا بالتَّماثل، فإنّ القلوبَ وإن اشتركَت في هذا القول، فهي مُختلفةٌ لا مُتماثلة"[3]؛ فلا يمكن لقلب أن يماثلَ قلبًا آخر في التّفكير والإحساس وسواه، وهو استعمالٌ دلاليٌّ دقيقٌ، وفائدةُ ذلك التّنبيه على مشابهةِ الأصولِ، حذرًا من الوقوعِ في تماثلِ الفروعِ في الأقوالِ والأفعال والسُّلوكيَّات.

---

(1) السّبكي، عَرُوسُ الأفراح: 2/88.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 1/690.
(3) الهاشمي، تخجيل مَن حرَّف التّوراة والإنجيل: 1/415.

سرُّ التَّعبيرِ بالتَّبيين لا بالإتيانِ:

التَّفريقُ بين الآياتِ الكونيَّةِ والآياتِ القرآنيَّةِ

قال تعالى: ﴿بَيَّنَّا ٱلۡأٓيَٰتِ﴾ ولم يَقُلْ: آتيناكَ أو أعطَيناكَ الآياتِ؛ كما قال على لسان القَوم: ﴿أَوۡ تَأۡتِينَآ ءَايَةٞۗ﴾؛ للتَّفرقَةِ والفصلِ بينَ آياتِ القُرآنِ الَّتي هي مِن عِلمِ اللهِ وكلامِه، يَظهَرُ بها الحَقُّ بطريقٍ مَعقُولٍ بَيِّنٍ لا يَشتَبِهُ فيه الفَهمُ، ولا يَحارُ فيه الذِّهنُ، وبَيْنَ الآياتِ الكونِيَّةِ الَّتي هي مِنْ صُنعِهِ يَستَخذِي لها العَقلُ ويَخضَعُ لها؛ لشعورِهِ بأَنَّها مِنْ قُوَّةٍ فوق قُوَّته[1].

سِرُّ العدولِ عن طلبِ السَّائلين:

بلاغةُ الرَّدِّ في الإفصاحِ عن الزِّيادةِ عمَّا طلبوا، توبيخًا وتقبيحًا

لـمَّا طلب المشركون: ﴿أَوۡ تَأۡتِينَآ ءَايَةٞۗ﴾ عَدَل عمَّا طلبوا إلى الزِّيادة فجمعَ الآيات، بدلًا من إفرادِها، وعدلَ عن لفظِ الإتيانِ إلى لفظ التَّبيِّين، توبيخًا لطلبِهم، وتقبيحًا لسؤالِهم، وتفظيعًا لحالِهم، فقال تعالى: ﴿قَدۡ بَيَّنَّا ٱلۡأٓيَٰتِ﴾، فجاءهم الردُّ في "تعريف الآيات وجمعِها، وإيراد التَّبيِّين المفصح عن كمال التَّوضيح"[2]، توبيخًا لهم، فهم طلبوا إتيانَ آيةٍ؛ فبُيِّنَتْ لهم آيات، وهذا من بديع الرَّدِّ على الجاحدين، وذلك أن تحملَ الكلامَ على الإعراضِ عن إجابتِهم، تنزيلًا لهم منزلةَ مَن لا يستحقُّ الجواب؛ "لأنَّهم ليسوا بقوم يُوقنون، بل ديدنهم المكابرة"[3]، والوجهان متآيلان، فالتَّقبيحُ فيه نكهةُ الإعراضِ، كما أنَّ الإعراضَ هو نوعٌ من التَّقبيح الأليم.

توجيه المخصوصِ بالذِّكرِ:

اليقينُ هو مُنتهى الوثوقِ بأدلةِ الإيمانِ

خصَّتِ الآيةَ بوصفِ المؤمنين بصفةِ اليقين، دون غيرِها من الصِّفاتِ في قولِه تعالى: ﴿قَدۡ بَيَّنَّا ٱلۡأٓيَٰتِ لِقَوۡمٖ يُوقِنُونَ﴾، فالقرآنُ "آياتٌ قاهرةٌ، ومعجزاتٌ باهرةٌ لمن كان طالبًا لليقين"[4]، والتَّعبيرُ

(1) محمّد رشيد رضا، تفسير المَنار: 1/363.
(2) القَاسمي، محاسن التَّأويل: 1/240.
(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 1/690.
(4) الرّازي، مَفاتيح الغَيب: 4/32.

باليقينِ يمثِّلُ مُنتهى الوثوقِ، "أي: من شأنهم أن يُوقِنوا عند وجود الدَّليلِ، لا يتردَّدون وليس من شأنهم التَّردُّد، وينتهي تردُّدهم بالجحود"[1]، واليقين قضيّة تستقرُّ في القلب، وهو يُشبه الإيمانَ في إمكانِ تجدُّدِه وفقًا للحوادثِ والدَّلائل.

فائدةُ التَّعبير بالفعل المضارع:

المدحُ والثَّناءُ للمُؤمنين؛ بزيادةِ يقينِهم عند ظُهورِ الدَّلائلِ، والتَّعريضُ بغيرِهم

جاءَ التَّعبيرُ بصيغةِ الفعل المضارِع في قولِه تعالى: ﴿قَدۡ بَيَّنَّا ٱلۡأٓيَٰتِ لِقَوۡمٖ يُوقِنُونَ﴾؛ لبيانِ أنَّ اليقينَ أمرٌ مُتجدِّدٌ، يقوى ويَضعف بحسبِ صاحبِه، والمرادُ بتجدُّدِه في هذا السِّياقِ المدحُ والثَّناءُ، لا مجرَّد الوصفِ، أي هم يُوقنون على الدَّوام زيادةً وقوَّةً، وفيه تعريضٌ بغيرهم، إذ "من شأنهم أن يُوقنوا عند وجود الدَّليل، لا يتردَّدون وليس من شأنهم التَّردّد، وينتهي تردّدهم بالجحود"[2]، واليقين قضيّة تستقرُّ في القلبِ، وهو يشبهُ الإيمانَ في إمكان تجدُّده وفقًا للحوادث والدّلائل.

الفُرُوقُ المُعْجَمِيَّةُ:

(جاءَ) و(أتَى):

(أتى): فعل، ومصدره الإتيان، ومعناه "مَجيءٌ بسهُولَةٍ ... والإتيانُ يقالُ للمجيءِ بالذاتِ، وبالأمرِ وبالتَّدبيرِ، ويقالُ في الخيرِ، وفي الشَّرِّ، وفي الأعيانِ والأعراضِ"[3].

وهناك فرق بين (جاء) و(أتى)؛ لأنّ "قَوْلك: (جاءَ)، كلامٌ تامٌّ لا يحتاج إلى صلَة ... ولهذا يُقال: جاءَ فلان نَفسه"[4] أمّا الفعل (أتى) فإنّه "يَقتَضِي مجيئَه بشَيء ... وَلَا يُقال أَتَى فلَان نَفسه"[5]، فثبت أنّ كلَّ لفظ يحسن مَوقعه بحسب دلالته، ولا يقع لفظٌ مَوقِع الآخر في الكتاب الكريم، أمّا في اللّغة فعلى سبيل التّجوز، أو لأنّه "كثر ذلك حتَّى استُعمِل أحد اللَّفظَينِ في مَوضِع الآخر"[6].

---

(1) أبو زهرة، زهرة التّفاسير: 1/385.
(2) أبو زهرة، زهرة التّفاسير: 1/385.
(3) الرّاغب، المفردات: (أتى).
(4) العَسكريّ، الفروق اللّغويّة، ص: 309.
(5) العَسكريّ، الفروق اللّغويّة، ص: 309.
(6) العَسكريّ، الفروق اللّغويّة، ص: 309.

﴿إِنَّآ أَرۡسَلۡنَٰكَ بِٱلۡحَقِّ بَشِيرٗا وَنَذِيرٗاۖ وَلَا تُسۡـَٔلُ عَنۡ أَصۡحَٰبِ ٱلۡجَحِيمِ ١١٩﴾ [البقرة: 119]

❁ مُناسَبَةُ الآيَةِ لِمَا قَبْلَها:

لـمّا كفر المعاندون من اليهودِ والنّصارى ومشركي العرب وازدادوا إعراضًا عن رسالته ﷺ، وطلبوا أن يكلِّمَهم اللّه، أو أن تأتيَهم آية كي يؤمنوا؛ خاطب اللّه جلّ شأنه نبيَّه ﷺ مبيّنًا له وللعالمين بأنّه أرسله بشيرًا ونذيرًا، والآيةُ، "جملةٌ معترِضَةٌ بين حكاياتِ أحوالِ المشركين وأهل الكتابِ، القصدُ منها تأنيسُ الرَّسول عليه الصَّلاةُ والسَّلام من أَسَفِه على ما لَقِيَه من أهلِ الكتابِ، ممَّا يُماثِلُ ما لَقِيَه من المشركين"[1].

❁ شَرْحُ المُفْرَدَاتِ:

1) ﴿أَرۡسَلۡنَٰكَ﴾: فعل ماضٍ، المجرّد منه (أرسلَ)، والجذر اللّغويّ له (رسل)، وأصل المعنى "يدُلُّ على الانبعاث والامتداد، فالرّسل السّير السّهل"[2] و "أصلُ الرُّسل الانبعاثُ على التُّؤَدَة، ويُقال ناقَةٌ رِسْلَةٌ سهلَةُ السَّير، وإبِلٌ مَرَاسِيلُ، مُنبَعِثَةٌ انبِعَاثًا سَهلًا، و﴿أَرۡسَلۡنَٰكَ﴾: بمعنى جعلناك رسُولاً من عندنا للنَّاس، أي: أنت الرَّسُولُ المُنبَعِثُ"[3]؛ فالرّسولُ هو المبعوثُ من اللّه تعالى إلى خلقه.

2) ﴿بِٱلۡحَقِّ﴾: اسم ثلاثيّ جذره اللّغويّ من (حقق) "وهُو يدُلُّ على إحكام الشَّيء وصحَّته، فالحقُّ نقيضُ الباطل، ثُمَّ يرجعُ كلُّ فرع إليه بجَودة الاستخراج، وحُسن التّلفيق، ويُقال حَقَّ الشَّيء وَجَبَ"[4].

والحقُّ هنا الدِّينُ، وما أنزلَ اللّهُ لعباده عن طريق أنبيائه ورُسُلِه.

﴿بَشِيرٗا﴾: اسم فاعل بمعنى (مُبشّر) أو صيغة مبالغة على وزن (فَعِيل)، وجذره اللّغويّ

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 1/691.
(2) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (رسل).
(3) الرّاغب، المفردات: (رسل).
(4) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (حق).

(بشر) ومعنى الجذر في الأصل "ظهور الشّيء مع حسن وجمال، فالبشرةُ ظاهرُ جلد الإنسان ... وسمّيّ البشرُ بشرًا لظهورهم، والبشير الحسن الوجه، والبشارة، الجمال ... ويقال بشّرت فلانًا أبشّره تبشيرًا، وذلك يكون بالخير"[1].

"واستبشرَ إذا وجد ما يُبشِّرُهُ من الفرح ... والبشيرُ الـمُبَشِّرُ"[2] وعموم معنى البشارة هو نقلُ الخبرِ المُفرحِ، ويكون أكثره في الخير "والبشرى اسمٌ للبشارة، وهي الإخبار بما فيه مَسرَّة للمخبَرَ"[3] وهو كذلك في الآية، وهو وصف له ﷺ.

3) ﴿وَنَذِيرًا﴾: اسم فاعل بمعنى (مُنْذِر) أو صيغة مبالغة على وزن (فَعِيل)، وجذره اللّغويّ (نذر) ومعنى الجذر في الأصل دلالته "على تخويفٍ أو تخوّف... ولا يكاد يكون إلاّ في التّخويف"[4]، والمعنى العام له "إخبارٌ فيه تخوِيفٌ، كما أنّ التّبشِيرَ إخبارٌ فيه سُرُورٌ"[5].

ونقل السَّمين الحَلبيّ عن ابن عرفة "(الإنذار): الإعلام بالشّيء الّذي يحذر منه، وكلّ منذرٍ مُعْلَمٌ، وليس كلُّ مُعلَمٍ مُنذرًا"[6]، ومعنى النّذير في الآية هو الـمُنذر، وهو وصفٌ له ﷺ.

4) ﴿تُسْـَٔلُ﴾: فعل مضارع مبني للمفعول أو المجهول[7]، الماضي الـمُجرّد منه (سألَ)، جذره اللّغويّ من (سأل) ومعنى السّؤال "طلب الكشف عنِ الشّيء، أو عن حاله في النَّفس، أي عن عملها به، أو ما صُنِع به"[8] وله غير نوع في الـمُتعدِّي، وههنا مُتعدٍّ بحرف الجرّ.

ومعنى السّؤال أنّها تستدعي علمًا أو معرفة وما يؤدّي إليهما، ويكون جوابها باللّسان[9]، "والسّؤال هنا مُستعمل في الاهتمام، والتّطلّع إلى معرفة الحال"[10].

(1) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (بشر).
(2) الرّاغب، المفردات: (بشر).
(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 20/242.
(4) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (نذر).
(5) الرّاغب، المفردات: (نذر).
(6) السّمين، عُمدة الحفّاظ: 4/160.
(7) على إحدى القراءتين الواردتين فيه.
(8) جَبَل، المعجم الاشتقاقي المؤصَّل: (سأل).
(9) السَّمين، عُمدة الحفّاظ: 2/160.
(10) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 1/692.

5) ﴿أَصۡحَٰبِ﴾: جمع مُكسّر، مفرده صاحب، وجذره اللّغويّ (صحب) وأصله "يدُلُّ على مُقارنة شيءٍ ومُقاربته ... وكلُّ شيءٍ لاءم شيئًا فقد استصحبه"[1] أمّا المعنى العام للَّفظة فهو "الصَّاحِبُ المُلازِمُ إنسانًا كان أو حيوانًا، أو مَكانًا، أو زَمانًا، ولا فَرقَ بينَ أنْ تكونَ مُصاحَبَتُهُ بالبدنِ وهو الأصلُ والأكثَرُ، أو بالعنايَةِ والهِمَّةِ"[2] ولمّا كان معنى الصّحبة اللّزوم والدّوام كان معنى أصحاب الجحيم "أنّهم الباقون في الجحيم أبدًا"[3].

6) ﴿ٱلۡجَحِيمِ﴾: اسمٌ من أسماء النّار، الجذر اللّغويّ منه (جحم)، والأصل فيها " الحرارةُ وشدّتُها، فالجاحم المكان الشديدُ الحرّ"[4] و"الجحيم كلّ نار عظيمة في مهواة"[5].

ولم يبعدِ السَّمينُ الحَلبيّ في تفسيرها عمّا ورد ثمّ، فعنده "الجحيم شدّة توقّدِ النّار وإضرامها، وجحمت النّار أضرمتها، وزدت في توقّدها، ومنه الجحيم، أعاذنا الله منها"[6] وجملته الأخيرة تلخّص معنى اللّفظة الواردة في الآية.

۞ المَعْنَى الإِجْمَالِيُّ:

افتتح الحقُّ تباركَ وتعالى الآية بالتّأكيد المتّصل بـ(نا) الدّالّة عليه سُبحانه، المتّصف بصفة العظمة، ثمّ أخبر بأنّه تعالى أرسل رسوله محمدًا ﷺ بالحقّ، والدِّين القويم ليبلغه النّاس؛ فمن آمن كان الرّسول له بشيرًا "أَي: مُبشِّرًا لأوليائي وأهلِ طاعتِي بالثَّوابِ الكريمِ"[7] ومن لم يؤمنْ كان له الرّسول نذيرًا "أَي: مُنذرًا مخوّفًا لأعدائِي وأهلِ معصيتي بالعذابِ الأليم"[8]، ولمّا كانت مهمة الرّسول التّبليغ فحسب، فلا يُسألُ عن أصحابِ الجحيم، والآيةُ "تأنيسٌ وتسكين"[9].

(1) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (صحب).
(2) الرّاغب، المفردات: (صحب).
(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 6/137.
(4) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (جحم).
(5) جَبَل، المعجم الاشتقاقي المؤصّل: (جحم).
(6) السّمين، عُمدة الحفّاظ: 1/308.
(7) البَغويّ، معالم التّنزيل: 1/143.
(8) البَغويّ، معالم التّنزيل: 1/143.
(9) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 1/692.

❁ الإيضاحُ اللُّغويُّ والبلاغيُّ:

بلاغةُ المَطلَعِ وعظمتُه:

قصرُ الإرسالِ على الله تعالى العظيمِ في هيبته وجلالِه

قولُه تعالى: ﴿إِنَّآ أَرۡسَلۡنَٰكَ بِٱلۡحَقِّ بَشِيرٗا وَنَذِيرٗاۖ﴾ خطابٌ للرَّسول ﷺ توكيديٌّ ممزوجٌ بعظمةِ الباري وهيبتِه وجلالِه، "وجيء بالمُسند إليه ضمير الجلالة تشريفًا للنّبي ﷺ بعزّ الحضورِ لمقام التّكلم مع الخالق تعالى، وتقدّس كأنّ اللّه يشافهه بهذا الكلام بدون واسطة؛ فلذا لم يقلْ له إنّ اللّه أرسلك"[1]، وفيه تأنيسٌ له ﷺ فيمن لا يؤمن برسالته، ويتّهمه بأنّه كاهنٌ أو شاعرٌ أو مجنون.

نكتةُ انتقاءِ لفظِ الحقِّ:

التَّعريضُ بأدعياءِ الحقِّ بقصرِ الحقِّ على الإسلامِ

انتقتِ الآيةُ لفظَ الحقِّ في قوله تعالى: ﴿إِنَّآ أَرۡسَلۡنَٰكَ بِٱلۡحَقِّ بَشِيرٗا وَنَذِيرٗاۖ﴾ دون لفظِ الهدى، أو الإسلام أو القرآنِ؛ تعريضًا بأهلِ الكتابِ والمشركين الّذين خالفُوا الحقَّ في أفعالِهم وأقوالِهم ومُعتقداتِهم، فكان إيرادُ هذه الآيةِ في هذا السِّياقِ بغرضِ بيانِ أنَّ ما أُرسِلَ به ﷺ هو الحقُّ دون سِواه، وما عليه أدعياءُ الحقِّ هو الباطلُ لا سِواه.

نكتة التعبير بالحقِّ دون الصِّدق:

الحقُّ أوسع مدلولًا وأشمل مضمونًا من الصِّدق

بينَ الحقّ والصّدق وشائجُ وعلائقُ، إلّا "أَنّ الحقَّ أَعمُّ؛ لأَنَّه وقوعُ الشَّيء في موقعه الَّذي هو أولى به، والصّدقُ الإخبار عن الشَّيء، على ما هو به، والحقُّ يكون إخبارًا وغير إخبار"[2]، لذا لا يحسُنُ في هذا المَوضِع إلّا كلمةُ الحقّ؛ فهي المُناسبةُ لفظًا ومعنًى؛ لِمَا للحقّ مِن سعةٍ وعُموم، قُبالة التّقييد المُنْبِئِ عنِ الصِّدق.

علَّةُ تقديمِ البشيرِ على النَّذيرِ:

جاء تقديمُ حالِ التبشيرِ على الإنذارِ في قوله تعالى: ﴿إِنَّآ

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 1/692.

(2) العسكريّ، الفروق اللّغويّة، ص: 48.

دفعُ توهمِ أنَّ الإرسالَ كان للمعاقبةِ، بقلبِ الوهمِ بتقديمِ ما يُظنُّ تأخيرُه

﴿أَرۡسَلۡنَٰكَ بِٱلۡحَقِّ بَشِيرٗا وَنَذِيرٗاۖ﴾؛ لدفعِ توهمِ أنَّ الإرسالَ كان لمعاقبةِ المُخالِفين، وإدانتهم بما ارتكبوه من معاصٍ وأباطيلَ، بل هو لترغيبِ العبادِ المخالفين قبل الموافقين، بأنَّ الإرسالَ هو بشارةٌ قبل أن يكون نِذَارَةً؛ لأنّه أراد ترغيبَ العباد إلى طاعته، والدّخولَ في دينه، والإيماءَ ابتداءً إلى أنّه ﷺ ما أُرسِل إلّا رحمةً للعالمين، فإنْ لم يؤمنوا حذَّرَهم ورهَّبهم بأنّه نذيرٌ لهم من عذابه، فالتَّرغيبُ مقدَّمٌ على التَّرهيب في هذا السِّياقِ وما يُشبِهه.

فائدةُ تعدّد المؤكّدات:

مزيدُ عنايةٍ بالخبرِ والتَّنويه بشأنِه ﷺ

قولُه تعالى: ﴿إِنَّآ أَرۡسَلۡنَٰكَ بِٱلۡحَقِّ بَشِيرٗا وَنَذِيرٗاۖ﴾ مشحونٌ بالمؤكِّدات؛ للدّلالة على أهمّيّة مضمونها، والاهتمام به "وجيء بالتّأكيد، وإن كان النّبي ﷺ لا يتردّد في ذلك، لمزيد الاهتمام بهذا الخبر، وبيان أنّه ينوّه به؛ لِمَا تضمَّنه من تنويه بشأن الرسول"[1] وتسلية له ﷺ بعد أن أرجف المُرجفون، وشكَّكوا برسالته، وطلبوا الآيات على ذلك، مع أنّ القرآنَ أعظمُ آية بين أيديهم؛ فجاءت هذه التّوكيدات لإزالةِ ما قد يُتصَّورُ أنْ يَعْلَقَ من شكٍّ؛ فكانت هذه التَّوكيدات، وهي الجملة الاسميَّة الدّالّة على الثّبوت، ثمّ جاء الاسم المُسند إليه وهو (نا) الدّالّ على العظمة، ثمّ أُعيد هذا الضمير فاعلاً في الخبر ﴿أَرۡسَلۡنَٰكَ﴾، وفي ذلك تأكيد يتبعه تأكيد، ثمّ قدّم المُتعلّق ﴿بِٱلۡحَقِّ﴾، ثمّ قوّى الجملة بالصِّفة المُشبَّهة ﴿بَشِيرٗا﴾ الدّالّة على المبالغة، وكلُّ ذلك ممّا يقوِّي الجملة ويحقّقها.

توجيه القراءات:

النَّهي والنَّفيُ يُفيدانِ أنَّ حالَ أصحابِ الجحيم في أمرٍ مَهولٍ

وردَتْ قراءتان في قولِه تعالى: ﴿وَلَا تُسۡـَٔلُ عَنۡ أَصۡحَٰبِ ٱلۡجَحِيمِ﴾؛ "فقرأَ نافعٌ ويعقوبُ بفتحِ التّاءِ، وجَزمِ اللّامِ على النَّهيِ، وقرأَ الباقُونَ

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 1/691.

بضمِّ التَّاءِ، والرَّفعِ على الخبر"[1]؛ فعلى قراءة الجمهور تكون ﴿وَلَا﴾ نافية، و الفعل مبنيًّا للمفعول، أي: لا أحد يسألك عن مصير من لم يؤمنْ ويصدّق، وإن كان مآله الجحيم، أمّا قراءة نافعٍ ويَعقُوب فتكون ﴿وَلَا﴾ ناهية، والفعل بعدها يكون مبنيًّا للفاعل، وهو نهيٌ له ﷺ عن أن يسألَ عن مصير من لم يؤمن؛ لأنّ مآله الجحيم، ويُلمَحُ في القراءتين معنًى خفيٌّ؛ فإنّ في عدم السّؤال "تفخيمًا مما أعدَّ اللّه لهم من العقاب"[2]، كما يُصيِّر المرء إلى حال سيئة، فإذا سألت عنه قيل لك: لا تسأل عن فلان، كناية عن سوء منقلبه.

فائدةُ التَّعبير بـ: ﴿أَصۡحَٰبِ ٱلۡجَحِيمِ﴾:

تصويرُ قُبحِ الكافرين بدلالةِ الحال، وترهيبُ مصيرِهم بدلالة المآل

عبَّرتِ الآيةُ بالصُّحبةِ في قولِه تعالى: ﴿وَلَا تُسۡـَٔلُ عَنۡ أَصۡحَٰبِ ٱلۡجَحِيمِ﴾؛ لأنّ الصُّحبةَ أمرٌ إذا حصل فإنّه يستمرُّ ويستقرُّ، والصَّاحبُ مَن لازَمَ أبدًا، وخلا ذلك لا يُسمّى صاحبًا، "والمعنى: لَا تسأل عن الّذين يلازمون النّار ملازمة الصَّاحب؛ فهم أصحابُها والمختصّون بها"[3]، وفي ذلك من التَّرهيبِ لمن أصرَّ على كفره وغيِّه ما لا يخفى؛ فإنَّ الصُّحبةَ في هذا السِّياقِ لها دلالتان، الأولى دلالةُ المآلِ، والثَّانية دلالة الحال؛ فإنَّ إطلاقَ الصُّحبةِ للجحيم على الكافرين المُصرِّين يُصوِّرُهم على أقبحِ صورةٍ في الدُّنيا، ممَّا يجعل الآخرينَ ينفِرون منهم، ويُخبِرُ بمآلِهم في الآخرةِ.

(1) ابن الجزري، النّشر: 2/221.
(2) الأزهري، معاني القراءات: 1/171.
(3) أبو زهرة، زهرة التّفاسير: 1/387.

﴿وَلَن تَرْضَىٰ عَنكَ ٱلْيَهُودُ وَلَا ٱلنَّصَٰرَىٰ حَتَّىٰ تَتَّبِعَ مِلَّتَهُمْۗ قُلْ إِنَّ هُدَى ٱللَّهِ هُوَ ٱلْهُدَىٰۗ وَلَئِنِ ٱتَّبَعْتَ أَهْوَآءَهُم بَعْدَ ٱلَّذِى جَآءَكَ مِنَ ٱلْعِلْمِ مَا لَكَ مِنَ ٱللَّهِ مِن وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ ١٢٠﴾ [البقرة: 120]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِمَا قَبْلَها:

لـمّا بيّن القرآن الكريم في الآيات السّابقة إصرار اليهود والنّصارى وتصميمهم على الكفر والتّكذيب مع ظهور الآيات الدّالّة على حقيقة الإسلام والحجج السّاطعة على صدق نبوَّة محمد ﷺ؛ ذكر في هذه الآية استمساكهم بالكفر والعناد وشدّة تكذيبهم لرسول الله ﷺ إلى درجة أنّهم يطلبون منه أن يتَّبع ملَّتهم حتّى يرضوا عنه.

شَرْحُ المُفْرَدَاتِ:

1) ﴿تَرْضَىٰ﴾: فعل مضارع، الجذر اللغوي منه (رضي)، حصل إعلال في الياء، فقلبت ألفًا، وقسم يرى أنَّ آخره واو، فيكون جذره (رضو)، والأصل فيه أن "يدل على خلاف السُّخط، تقول: رضي يرضى رضًى، وهو راضٍ"[(1)].

"ورِضَا العبد عن الله: أن لا يكره ما يجري به قضاؤه، ورِضَا الله عن العبد: هو أن يراه مؤتمرًا لأمره، ومنتهيًا عن نهيه"[(2)].

والمعنى المحوري للرضا: هو "تشبُّع النفس وامتلاؤها بَلالًا ورقّة نحو شيءٍ"[(3)] وعلاقته بالمعنى: ارتياح النفس واغتباطها.

والمعنى في الآية: أنَّ اليهود والنصارى لن يرضوا عنك حتّى تكون يهوديًّا أو نصرانيًّا كلٌّ بحسب أمنيته.

2) ﴿تَتَّبِعَ﴾: فعل مضارع مزيد، وزنه (تَفْتَعل)، وجذره اللغوي (تبع)، وله "أصل

(1) ابن فارس، مقاييس اللغة: (رضي).
(2) الراغب، المفردات: (رضي).
(3) جبل، المعجم الاشتقاقي المؤصل: (رضي).

واحد لا يشِذُّ عنه من الباب شيء، وهو التلوُّ والقفوُّ، يقال: تبعت فلانًا؛ إذا تلوته، واتَّبعته، وأتبعته: إذا لحقته"[1].

وليس لزومًا أن يكون الاتِّباع بالجسم والمادة، فإنَّه قد يكون "بالارتسام والائتمار"[2]، كاتِّباع القرآن، فإنَّه قُفُوٌّ معنويٌّ، فمن اتَّبع القرآن "ائتمَّ به، وعمل بما فيه، كأنَّ القرآن أمامه، وهو يَتْبعه، ويَتَهيّأ بهيئته التي يرسمها"[3].

والاتِّباع في الآية أن تقفوَ ديانتهم "فِي فَهْمِهَا وَصُوَرِ الْعَمَلِ بِهَا، حَتَّى لَا يَبْقَى لَهُمْ أَدْنَى اسْتِقْلَالٍ فِي دِينِهِمْ وَلَا فِي أَنْفُسِهِمْ"[4] أي: أن يكون المتَّبع يهوديًّا أو نصرانيًّا حتّى ينال رضاهم.

3) ﴿مِلَّتَهُمۡۗ﴾: اسم جذره اللغوي (ملل)، ويجوز من (ملو)، وأصله "يدلُّ على امتدادٍ في شيءٍ: زمانٍ أو غيره"[5].

ومنه أيضًا إملاء الكتاب، "ويُقال: أَمَلَّ عَلَيْهِ شَيْئًا يَكْتُبُهُ، وأَمَلى عَلَيْهِ، وَنزل القُرآن باللُّغتين"[6]، ومنه قوله تعالى ﴿فَلۡيُمۡلِلۡ وَلِيُّهُۥ﴾ [البقرة: 282].

والمِلَّة "لا تكاد توجد مضافة إلى الله، ولا إلى آحاد أمَّة النّبيِّ ﷺ، ولا تستعمل إلّا في جملة الشّرائع دون آحادها"[7].

ومعناها: "الشريعة والدِّين: شريعة تمُدُّ، ويزَوَّدُ بها لإصلاح حال الخلق ومآلهم"[8]، "وهي مجموع عقائد وأعمال يلتزمها طائفة من الناس يتفقون عليها، وتكون جامعة لهم كطريقة يتبعونها"[9]، وقد أضافها في الآية إلى الضمير العائد على اليهود والنصارى.

4) ﴿قُلۡ﴾: فِعْل أَمْر، أصل حروفه (قول)، حصل فيه إعلال؛ إذ قلبت الواو ألفًا،

(1) ابن فارس، مقاييس اللغة: (تبع).
(2) الراغب، المفردات: (تبع).
(3) جبل، المعجم الاشتقاقي المؤصل: (تبع).
(4) محمد رشيد رضا، تفسير المنار: 1/95.
(5) ابن فارس، مقاييس اللغة: (ملل).
(6) الأزهري، تهذيب اللغة: (ملل).
(7) الراغب، المفردات: (ملل).
(8) جبل، المعجم الاشتقاقي المؤصل: (ملل).
(9) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 1/693.

والأصل في معنى حروفه: "القولُ منَ النّطقِ، يقالُ قالَ يقولُ قولًا، والمقولُ اللِّسانُ، ورجلٌ قُوَلَةٌ وقوَّالٌ: كثيرُ القولِ"[1]، ويطلق القول على الكلام أيضًا[2]، ومن أظهر استعمالات القول: "أن يكون للمركّب من الحروف المبرز بالنّطق، مفردًا كان أو جملة"[3]، وهناك استعمالات أخرى للقول، كالتَّصور النفسي والاعتقاد، والدلالة على شيء، والعناية الصادقة بالشيء، وكذلك الحدّ والإلهام[4].

وقد ورد الأمر ﴿قُلْ﴾ ثلاثمائة واثنين وثلاثين (332) مرة في القرآن الكريم؛ "لإسناد كلِّ ما في القرآن إلى الله ﷻ دعمًا للرسول ﷺ، وحسمًا لطمع الكفار في الهوادة"[5]، وهذا الموضع من تلك المواضع الكثيرة بهذا المعنى.

5) ﴿هُدَى﴾: مصدر للفعل الثلاثي هدى يهدي، وجذره اللغوي من (هدي)، ومعناه: يقوم على أصلين: أحدهما "التقدُّم للإرشاد، والآخر بَعثة لَطَف"[6]، وهما متقاربان في معناهما؛ لذلك فقد ذكر الراغب في معنى الهدى "الهداية دلالةٌ بلطف"[7].

و﴿هُدَى ٱللَّهِ﴾ المذكور في الآية هو بمعناه الاصطلاحي، وهو هدايةُ الله تعالى للإنسان، وقد جعله الراغب على عدَّة أقسام: "الهدايةُ التي عمَّ بجنسها كلّ مكلّف ... والهدايةُ التي جعل للناس بدعائه إيّاهم على ألسنة الأنبياء ... والتّوفيقُ الذي يختصُّ به من اهتدى...، والهدايةُ في الآخرة إلى الجنّة"[8].

ومعنى ﴿هُدَى ٱللَّهِ﴾ في الآية، "يعني: أنَّ هدى اللَّه الذي هو الإسلام، هو الهدى بالحق، والذي يصحُّ أن يسمَّى هدى، وهو الهدى كلّه ليس وراءه هدى"[9].

6) ﴿أَهْوَآءَهُم﴾: جمعُ تكسير مفرده هَوَى، والجذر اللغوي له: (هوي)، ولمعناه: "أصلٌ

(1) ابن فارس، مقاييس اللغة: (قول).
(2) الأزهري، تهذيب اللغة: (قول).
(3) الراغب، المفردات: (قول).
(4) الراغب، المفردات: (قول).
(5) جبل، المعجم الاشتقاقي المؤصل: (قول).
(6) ابن فارس، مقاييس اللغة: (هدي).
(7) الراغب، المفردات: (هدي).
(8) المرجع السابق: (هدي).
(9) الزمخشري، الكشاف: 1/316.

صحيح يدلُّ على خلوٍّ وسقوط، أصله الهواء بين الأرض والسماء، سمِّي لخلوه، قالوا: وكلُّ خالٍ هواء"[1].

"وأمَّا الهوى: هوى النفس، فمن المعنيين جميعًا؛ لأنّه خالٍ من كلِّ خير، ويهوي بصاحبه فيما لا ينبغي"[2].

والهوى بمعناه العام الوارد في القرآن الكريم: "ميل النفس إلى الشهوة، ويقال ذلك: للنّفس المائلة إلى الشّهوة، وقيل: سمّي بذلك؛ لأنّه يَهْوِي بصاحبه في الدّنيا إلى كلّ داهية، وفي الآخرة إلى الهَاوِيَةِ"[3].

7) ﴿جَآءَكَ﴾: فعل ماضٍ، مضارعه يجيء، الجذر اللغوي منه (جيء)، والأصل فيه "انحدار إلى حيِّز أو تجوُّف سُفلي مُهَيّأ جامع: كالماء في الهبطة"[4].

"ومن هذا المعنى المجيء: الإتيان، إذ هو حضور الجائي من حيث كان إلى مكان (حيّز) للقاء أو لأمر"[5].

ومجيء العلم في الآية، "أي: المعلوم، وهو الوحي أو الدِّين؛ لأنَّه الذي يتصف بالمجيء دون العلم نفسه، ولك أن تفسِّر المجيء بالحصول، فيجري العلم على ظاهره"[6].

8) ﴿ٱلْعِلْمِ﴾: اسم ثلاثي، وهو مصدر عَلِم يَعْلَم، وأصل حروفه (علم)، وله "أصل صحيح واحد، يدلُّ على أثر بالشيء، يتميَّز به من غيره، من ذلك العلامة"[7]، ومن معانيه أنّه "ضدُّ الْجَهْل، رجل عَالم من قوم عُلَماء وعالمين، وأعلام الْقَوْم ساداتهم، ومَعالم الدّين: دلائله"[8].

و(العلم) بمعناه الاصطلاحي: "إدراكُ الشيء بحقيقته، وذلك ضربان: أحدهما:

(1) ابن فارس، مقاييس اللغة: (هوي).
(2) المصدر السابق: (هوي).
(3) الراغب، المفردات: (هوى).
(4) جبل، المعجم الاشتقاقي المؤصل: (جيء).
(5) جبل، المعجم الاشتقاقي المؤصل: (جيء).
(6) الآلوسي، روح المعاني: 1/372.
(7) ابن فارس، مقاييس اللغة: (علم).
(8) ابن دريد، جمهرة اللغة: (علم).

إدراك ذات الشيء، والثاني: الحُكم على الشيء بوجود شيء، هو موجود له، أو نفي شيء، هو منفيّ عنه"[1].

والعلم يدلُّ أيضًا على "الْيَقِين، يُقَالُ: عَلِمَ يَعْلَمُ؛ إِذَا تَيَقَّنَ، وَجَاءَ بِمَعْنَى: الْمَعْرِفَةِ أَيْضًا، كَمَا جَاءَتْ بِمَعْنَاهُ: ضُمِّنَ كُلُّ وَاحِدٍ مَعْنَى الْآخَرِ لِاشْتِرَاكِهِمَا فِي كَوْنِ كُلِّ وَاحِدٍ مَسْبُوقًا بِالْجَهْلِ"[2].

ومعنى قوله: ﴿بَعْدَ ٱلَّذِى جَآءَكَ مِنَ ٱلْعِلْمِ﴾ "أي: من الدِّين المعلوم صحَّته بالدَّلائل القاطعة"[3].

المَعْنَى الإِجْمَاليُّ:

استهلالُ الآية بعدم رضا اليهودِ ولا النصارى: قولٌ فَصْلٌ مشوبٌ بلهجة تيئيس له ﷺ من طمعه في إسلامهم، فعلَّق رضاهم على اتِّباعه ﷺ ملَّتهم، فكلٌّ من اليهود والنصارى يريدُ أن يتَّبعَ الرسولُ ﷺ ملَّتهم، وهو أمرٌ مستحيلٌ إمكانه، وكأنَّ ملَّتهم هي الهدى!!، فردَّ عليهم الحقُّ سبحانه وتعالى بأنَّ الهدى الحقَّ الذي يجب أن يُتَّبع: هو هُداه تعالى الذي أنزله على رسله، وليس الهوى والتشهِّي، وأنَّك إن اتَّبعتَهُم - وقد جاءك العلم - "فاللّه لا ينصرك، ولا يساعدك على ذلك؛ إذ إنَّ اتِّباع الهوى لا يكون طريقًا موصلاً إلى الهدى، وإذا لم ينصرك اللّه، ويتولَّ شؤونك؛ فمن ذا الذي ينصرك من بعده؟"[4]، وهذا الخطاب وإن كان خاصًّا بالنبي ﷺ، فهو موجَّه إلى الأمة عامَّة.

الإِيضَاحُ اللُّغَوِيُّ وَالبَلَاغِيُّ:

نفي الرِّضا بأداةِ (لن) بيانٌ للحاضر واستشرافٌ للمستقبلِ

سِرُّ التعبير عن نفي رضا اليهودِ والنَّصارى بأداةِ ﴿وَلَن﴾:

التَّعبيرُ بأداة لن في قوله تعالى: ﴿وَلَن تَرْضَىٰ﴾، له دلالة، وهي أنّ رضاهم غير حاصل عنه ﷺ لا في الحاضرِ ولا في المستقبلِ؛ لأنّ ﴿وَلَن﴾ تخلص الفعل للاستقبال، ففي الآية استشرافٌ لمستقبل اليهود والنصارى،

(1) الراغب، المفردات: (علم).
(2) الفيومي، المصباح المنير: (علم).
(3) الفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 4/34.
(4) المراغي، تفسير المراغي: 1/204.

وموقفهم من هذه الأمّة ونبيّها إلى أن تقوم الساعة؛ فليس الأمر مقصوراً على زمنه ﷺ، ولا على العصر الأول؛ بل ذلك ممتدٌّ إلى قيام الساعة، فلا يُرضيهم إلَّا "ترك ما أنت عليه من الإسلام واتباعهم"(1).

سِرُّ تعديةِ الفعلِ ﴿تَرۡضَىٰ﴾ بحرفِ (عن):

الـرِّضـا مـرهـونٌ باتِّباعِ المِلّةِ، وإلّا فسخطٌ دائـمٌ، وشرٌّ حائمٌ

يتعدَّى الفعلُ (رَضِي) بنفسِه؛ كقوله تعالى: ﴿لَيُدۡخِلَنَّهُم مُّدۡخَلٗا يَرۡضَوۡنَهُۥۚ﴾ [الحج: 59]؛ فإنّه يشير إلى عموم الرضا، ومعناه قبول النَّفس للشيء قبولاً تامًّا، ويتعدَّى بالحرف مثل: (عن) و(الباء) و(اللام)؛ من مثل قوله تعالى: ﴿إِنَّكُمۡ رَضِيتُم بِٱلۡقُعُودِ﴾ [التوبة: 83]، وله معنًى خاصٌّ في كلّ حالة؛ فإن تعدّى بحرف (الباء)؛ فإنّه يُستخدم في الأعمِّ الأغلب في الرِّضا عن الأمور التي تكون في حكم الوسائل لا الغايات، وأيضاً يشير إلى أنّ الرضا متعلِّق بشيءٍ خاصّ محدَّد، نحو قوله تعالى: ﴿وَرَضُواْ بِٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا﴾ [يونس: 7]، وإن تعدّى بحرف (اللّام)؛ دلّ على الاختصاص والتعليل؛ كما في قوله: ﴿وَإِن تَشۡكُرُواْ يَرۡضَهُ لَكُمۡۗ﴾ [الزمر: 7].

أمّا إذا تعدّى بحرف (عن)؛ فإنّه يُشير إلى أسباب صدرت من المَرضِي أدَّت إلى شعور الرضا، كما في قوله تعالى: ﴿لَّقَدۡ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنِ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ﴾ [الفتح: 18]، حيث جاء تعليله بعد ذلك مباشرة في قوله: ﴿إِذۡ يُبَايِعُونَكَ تَحۡتَ ٱلشَّجَرَةِ﴾ [الفتح: 18]، وعلى ذلك جاء تعدِّي الفعل هنا بـ(عن): ﴿وَلَن تَرۡضَىٰ عَنكَ﴾؛ للدلالة على وجود أسباب تؤدي إلى الرضا إن فُعلت، وهي: ﴿حَتَّىٰ تَتَّبِعَ مِلَّتَهُمۡۗ﴾، وأنّى لهم ذلك من رسولِ اللّه ﷺ، ومن أمَّته الصَّادقةِ في متابعتِه في الأمرِ كلِّه.

خطابُ النَّبيِّ ﷺ في قوله: ﴿وَلَن تَرۡضَىٰ عَنكَ﴾ خطابٌ لأمّتِّه:

بناءُ قيمةِ الاقتداءِ لـدى الأمـةِ في نظمِ الخطابِ

قوله تعالى: ﴿وَلَن تَرۡضَىٰ عَنكَ﴾ "آيَةٌ لِلنَّبِيِّ ﷺ كَاشِفَةٌ عَنْ حَالِ أَهْلِ الْمِلَّتَيْنِ فِي عَصْرِهِ، وَلَا تَزَالُ مُطَّرِدَةً فِي أُمَّتِهِ مِنْ بَعْدِهِ"(2).

(1) القرطبي، الجامع لأحكام القرآن: 2/345.
(2) محمد رشيد رضا، تفسير المنار: 1/95.

فالخطاب في ظاهره مُوجَّه للرّسول ﷺ بدلالة ﴿عَنكَ﴾، إلّا أنّه موجّه للأمة جميعًا بطريق الإشارة والإيماء، أي: أنّكم مهما فعلتم؛ فلن تجدوا رضًا ولا قبولاً لديهم.

نكتةُ تقديم اليهودِ على النَصارى:

بيانُ شدَّةِ عداوةِ اليهود، وتقدّمهم الزّمنيّ

قُدّم ذكرُ اليهود على النصارى في قوله تعالى: ﴿وَلَن تَرۡضَىٰ عَنكَ ٱلۡيَهُودُ وَلَا ٱلنَّصَٰرَىٰ﴾ في بيانِ عدم رضاهم عنه ﷺ وعن أمّته؛ إشعارًا بـ"أنَّ تصلُّبَ اليهودِ في أمثال هذه العظائم أشدُّ من النصارى"[(1)]، وحالهم هذا غالب في القرآن الكريم، وأيضًا لتقدّمهم الزمني، فهم أسبق زمانًا ورسالةً.

نكتةُ إيراد ﴿وَلَا﴾ النّافية قبل ﴿ٱلنَّصَٰرَىٰ﴾:

بيانُ اشتراكِ الفريقينِ في أصلِ العداوةِ لا ينفي استقلالَ كلِّ فريقٍ بعداوةٍ خاصَّة

قوله تعالى: ﴿وَلَن تَرۡضَىٰ عَنكَ ٱلۡيَهُودُ وَلَا ٱلنَّصَٰرَىٰ﴾ نُفي فعل الرِّضى بـ(لن) النافية، وجاء فاعلُها اليهود، ثمّ عطف عليه النصارى، ولم يكرِّر أداةَ (لن) مع فعل ﴿تَرۡضَىٰ﴾؛ فيكون التقدير: (ولن ترضى عنك النصارى)؛ لأنّ "العطف على نيَّة تكرار العامل"[(2)]، وجاء بـ: (لا) النافية المؤكِّدة للنّفي الأول بلن؛ تلميحًا "بأنّ رضى كلٍّ منهما مباينٌ لرضى الأخرى، أي: لن ترضى عنك اليهودُ، ولو خلَّيتَهم وشأنَهم حتّى تتَّبعَ ملّتهم، ولا النصارى، ولو تركتهم ودينَهم حتّى تتبع ملَّتَهم"[(3)]؛ فأفاد إيراد (لا) التباين بين رضى اليهود ورضى النصارى، وأنّ كلّ فئة مستقلّةٌ عن الأخرى في عداوتِها، وفيه تيئيس أيضًا؛ لأنّك "لو صادفت رضا اليهود؛ فلن ترضى عنك النصارى، وإن صادفت رضا النصارى؛ فلن ترضى عنك اليهود"[(4)].

(1) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 1/247.
(2) ابن عقيل، شرح ابن عقيل: 2/208.
(3) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 1/247.
(4) الشعراوي، تفسير الشعراوي: 1/561.

نكتةُ تفصيلِ ذكرِ أهل الكتاب باليهودِ والنَّصارى:

تنبيهُ القرآنِ على نوعِ العداوةِ، يُهيبُ بالمؤمنين الحذرَ بحسبِ الخطر

جاء التَّعبيرُ عن أهلِ الكتابِ باليهودِ والنَّصارى تفصيلًا، فلم يقل: أهل الكتاب؛ ذلك أنَّ عداوةَ اليهود أشدّ من النَّصارى؛ فلو عبَّر بأهل الكتاب؛ لأفاد عمومَ الحكمِ، وهو غيرُ مرادٍ في هذا السِّياقِ، إذِ المرادُ تنبيهُ المؤمنين على وجود فوارق في عداوتِهم، وبين الفريقين قواسم مشتركة، منها: أنّهم أهل كتاب، وأنّهم من بني إسرائيل، واشتراكهم في بعض المعتقدات الباطلة؛ كادِّعاء البنوَّة للّه، ودعواهم نفي دخول غيرهم الجنةَ، واشتراكهم في بعض الصِّفات المذمومة؛ ككتمانهم نبوَّته ﷺ، وكفرهم بها.

سرُّ اختيار ﴿حَتَّىٰ﴾ دون (إلى) مع اشتراكهما في الغاية:

رضا أهلِ الكتابِ غيرُ متحقِّقٍ؛ لأنَّ اتِّباعَ ملَّتهم مُحالٌ

اختارَ النَّظمُ الكريم استعمالَ ﴿حَتَّىٰ﴾ دون (إلى)؛ ذلك أنّ ما بعد ﴿حَتَّىٰ﴾ يدخل فيما قبلها، بخلاف (إلى) فلا يلزم ذلك، مثل قولِه ﷺ: "كُلُّ شَيْءٍ بِقَدَرٍ، حَتَّى العَجْزُ وَالكَيْسُ"[1]، وهما داخلان، ولذلك آثر القرآن استعمال ﴿حَتَّىٰ﴾ لدخول ما بعدها، وهو اتِّباع ملَّتهم طلبًا للرّضا، وعليه فقوله تعالى: ﴿حَتَّىٰ تَتَّبِعَ مِلَّتَهُمْۗ﴾ فيه كبيرُ تيئيس وتبعيدٍ "من اتِّباع اليهود والنصارى لشريعة الإسلام يومئذ؛ لأنّهم إذا كانوا لا يرضون إلّا باتّباعه ملّتهم؛ فهم لا يتّبعون ملّته"[2]، فاتّباع النَّبي لملّتهم مستحيل، وهو على طريقة: ﴿حَتَّىٰ يَلِجَ ٱلۡجَمَلُ فِي سَمِّ ٱلۡخِيَاطِۚ﴾ [الأعراف: 40].

فائدةُ اختيارِ الفعل ﴿تَتَّبِعَ﴾ دون غيره من الأفعالِ:

مطلوبُ اليهودِ والنّصارى خدمةُ مصالِحهم لا التَّشارك الثَّقافيّ

آثرَ القرآن الكريم استعمالَ فعل ﴿تَتَّبِعَ﴾ دون غيره من الأفعالِ؛ لدلالته على كمال الانقياد والاستسلام والمداومة والاستمرار، فهم يريدون اتِّباعَه لهم في أقوالهم وأفعالهم وشرائعهم خُطوةً بخطوة.

(1) صحيح مسلم: 4/2045.

(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 1/693.

ويريدون ذلك من أمَّته عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ، فهم يريدون تحقيقَ مصالِحِهم، ولا ينظرون لشيءٍ دون ذلك مطلقًا وإن زعموا وادّعوا، ولا يغترُّ بهم إلّا من حادَ عن الحقِّ وجارَ على أهلِه.

نكتةُ إفرادِ الملَّة وإضافتِها لليهودِ والنَّصارى:

ملَّةُ الكفرِ واحدةٌ

أُفردتِ الملَّةُ مع أنَّ اليهودَ والنَّصارى فريقان؛ لأنّهما يجمعهما الكفرُ باعتبارِه قاسمًا مشتركًا، وهو ملَّةٌ واحدة، ولأنّهم لـمَّا اشتركوا في التحريف والكتمان صاروا بمنزلةٍ واحدةٍ، وأضافها إليهم لإفادة التحريف والفساد، وأنّهم شَرَعوا ببغيهم ما لم يأذن به اللّه، وفي هذا دلالة على أنّها من صُنعهم وباطلهم.

سرّ التعبير بالقصر في قوله: ﴿قُلۡ إِنَّ هُدَى ٱللَّهِ هُوَ ٱلۡهُدَىٰۗ﴾:

إسـنـادُ الـهـدى إلى الـلـه على الحقيقة، وأنَّه بتوفيقِه ورضاه

أفاد هذا الأسلوب كثيراً من المعاني في الردّ على اليهود والنصارى في عدم رضاهم عن النبي ﷺ وعن شريعته وأمَّته، ومن هذه المعاني:

أنّ هدى اللّه هو ما يقدِّره للشخص من التوفيق، أي: قل لهم: لا أملك لكم هدًى إلّا أن يهديكم اللّه، فالقصر هنا قصر حقيقي.

وأنّ المراد بهدى اللّه الذي أنزله هو القرآن، وفي هذا إبطالٌ لعلوِّهم وغرورهم بأنّ ما هم عليه هو الهُدى، وأنّ ما خالفه ضلال، فالقصْرُ للقلبِ.

والدلالة على أنّ القرآن هو الهدى الكامل في الهداية بخلاف هدى غيره من الكتب فهي غير كاملة.

دلالةُ إضافةِ لفظ ﴿هُدَى﴾ إلى لفظ الجلالة ﴿ٱللَّهِ﴾:

إضافة ﴿هُدَى﴾ إلى لفظ الجلالةِ أفاد التشريفَ، والتحقير لمن هو على خلافِه، وتدلّ على أنّ الهدى من غير وحي السماء ضلالٌ لا قيمة له، وأيضًا تدلّ على أنّ اتِّباع اليهود والنصارى ليس بهدى؛ بل هو الضلال المبين.

فائدةُ تعدُّد المؤكّدات في قوله تعالى: ﴿قُلۡ إِنَّ هُدَى ٱللَّهِ هُوَ ٱلۡهُدَىٰ﴾:

توالي المؤكّدات إشارةٌ إلى أنّ هدى الله هو الحقيقُ بالاتِّباعِ

في قوله تعالى: ﴿قُلۡ إِنَّ هُدَى ٱللَّهِ هُوَ ٱلۡهُدَىٰ﴾ توالت فيه المؤكِّدات، وهو سياقٌ في تعريف الهدى الذي يجب أن يكون خليقًا بالإنسان المؤمن، وقد ابتدأ الجملة بفعل الأمر ﴿قُلۡ﴾؛ لينبِّه على أهميَّة ما سياتي من كلام، ثمّ جاء بالحرف المؤكِّد ﴿إِنَّ﴾؛ "لتحقيق الخبر وتحقيق نسبته وإبطال تردُّد المتردِّد"[1]، ثمّ جاء بالجملة الاسميَّة الدالّة على الثبوت، وجاء الاسم معرفة بإضافته إلى اسم الجلالة ﴿ٱللَّهِ﴾؛ لأنّه الاسم العلم الجامع لسائر الصِّفات، ولإدخال المهابة في نفوس السامعين.

وفي قوله: ﴿هُوَ ٱلۡهُدَىٰٓ﴾، ﴿هُوَ﴾: يجوز أن يكون ضمير فصل[2]، وغالب حاله لإفادة الاختصاص والتّوكيد، ثم عرَّف الخبر ﴿ٱلۡهُدَىٰٓ﴾ بالألف واللام، وهذا يقتضي كمال المعنى من جهة تعريف جزأي الجملة فضلاً عن توكيدِها بضمير الفصل.

توجيه المُتشابه اللّفظيّ:

قال تعالى: ﴿قُلۡ إِنَّ هُدَى ٱللَّهِ هُوَ ٱلۡهُدَىٰ﴾، وقال في آل عمران: ﴿قُلۡ إِنَّ ٱلۡهُدَىٰ هُدَى ٱللَّهِ﴾ [آل عمران: 73] بتقديم ﴿هُدَى ٱللَّهِ﴾ في الأول، وتأخيره في الثاني، وسرُّ ذلك أنّ الذي في البقرة هو ردٌّ على اليهود والنَّصارى في زَعمِهم أنَّهم على الحقِّ والهدى، فردَّ عليهم بأن جعل هدى الله هو الهدى الحقّ، فهو قصرُ قلبٍ لاعتقادِهم، وردٌّ عليهم، بخلاف ما جاءت عليه آية آل عمران التي تأخَّر فيها اللفظُ بقوله: ﴿قُلۡ إِنَّ ٱلۡهُدَىٰ هُدَى ٱللَّهِ﴾ "فلأنَّ القوم هنا لم يبدُ منهم إنكار، أو دعوى استئثارهم بالهدى، فتعريفُ الهدى بالألفِ واللام، وجعله موضوعاً للحديثِ، والحكم عليه بأنّه ﴿هُدَى ٱللَّهِ﴾ هو التعبير الأنسب للمقام لما في (ال) من معنى الاستغراق"[3]، ففي هذا الأسلوب قصر إفراد.

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 1/694.
(2) العكبري، التبيان: 2/93.
(3) العكبري، التبيان: 2/154.

بلاغة مجيء الشرط ماضيًا مع (إنْ):

التعريض بمتّبعي أهواءَ أهل الكتابِ

قوله تعالى: ﴿وَلَئِنِ ٱتَّبَعْتَ أَهْوَآءَهُم﴾ هنا جاء الشرط بـ(إنْ) مع كون فعل الشرط ماضياً، والقياس فيه أن يكون مضارعًا؛ لأنَّ حصوله يكون في الاستقبال، فيمتنع مضيّه وثبوته، والغرض من الماضي التعريض بمن يتّبع الهوى، وهو مستحيل في حقّه ﷺ، وهذا الأسلوب أبلغ من التصريح، فإذا كان محمد ﷺ - وهو الحبيبُ المقرَّبُ - يتَّبع أهواءهم؛ فكيف بغيره؟ فهو أسلوب أكثر فعلاً في النفوس وأعطف لها، "ويُعين على قبوله؛ لكونه أدخل في أمحاض النُّصح لهم، حيث لا يريد لهم إلَّا ما يريد لنفسه"[1]، وهذا سرُّ استعمالِ (إن) دون (إذا)، فـ(إنْ) لا يقتضي تحقُّقَ الوقوع، فهو يدلُّ على أنَّ اتِّباع أهوائهم غير متوقَّعٌ منه؛ لأنّ من سنن اللّه تأييد متَّبع الهدى السماوي الصحيح بالنصر والغلبة.

نكتةُ التَّعبيرِ بالأهواءِ وجمعِها:

أهواءُ الأنفس هي أصلُ الباطل، وجمعُها دليلُ شتاتِها

عبَّر عن دينهم ومِلّتهم بالأهواءِ للدّلالة على أنّ ما ينتسبون إليه ويدعون له هوًى، وليس شرعاً؛ لأنّ ما شرعه اللّه على لسان أنبيائه موسى وعيسى عليهما السلام، قد غيَّروا فيه، وبدَّلوا حسب أهوائهم، وفيه ردٌّ عليهم في أنّ ملَّتهم ليست جامعةً للهدى بل هي محرَّفةٌ وناشئةٌ عن شهوة الرئاسة، وليس عن دليل.

وعبَّر بالجمع، "ولم يقل: هواهم؛ لأنَّ جميع الفرق ممن خالف النبي ﷺ لم يكن ليرضيهم منه إلَّا اتِّباع هواهم"[2]، لبيانِ أنَّ أهواءَهم متفرِّقةٌ غيرُ مجتمعة، وهذا حال الباطلِ، ولأنّ الهوى "رأي ناشئ عن شهوة لا عن دليل ... فشملت أهواؤهم التكذيب بالنّبيّ ﷺ وبالقرآن، واعتقادهم أنَّ ملَّتهم لا ينقضها شرع آخر"[3].

(1) القزويني، الإيضاح في علوم البلاغة: 2/124.
(2) الزجاج، معاني القرآن وإعرابه: 1/202.
(3) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 1/694.

فائدةُ التَّعبيرِ بالعلمِ دون غيرِه من الألفاظِ:

في قوله تعالى: ﴿جَآءَكَ مِنَ ٱلۡعِلۡمِ﴾، ﴿ٱلۡعِلۡمِ﴾: مصدر، وهو الأصل، والتعبير به من إطلاق المصدر ﴿ٱلۡعِلۡمِ﴾ وإرادة المفعول (المعلوم)، وهو من باب المجاز المرسل، وغايته تفخيم الأمر، فكأنّه قد جاءه العلم كلّ العلم؛ لأنّ المصدر يمثِّل الحدث المجرَّد، لاتساع دلالته لتشمل كل ما هو معلوم بالأدلة والبراهين الساطعة، ولبيانِ أنَّ ما جاءَه هو العلم المقابل للجهلِ، ففيه تعريضٌ بهم، وبما يدعون إليه من الباطلِ.

التَّعريضُ بأصحابِ الأهواءِ بأنَّهم على جهلٍ

سرُّ حذف جواب الشرط:

حُذِف جوابُ الشَّرطِ في قولِه تعالى: ﴿وَلَئِنِ ٱتَّبَعۡتَ أَهۡوَآءَهُم﴾؛ لاستبعادِ وقوع ذلك، فله حكم المعدوم، وحذفه من اللِّسان دليلٌ على حذفه من الفؤاد، ولمزيد تهويلٍ ووعيدٍ شديدٍ لمن تُسوّل له نفسه إرضاء اليهود والنصارى؛ لأنّ رضاهم دليل على خروجه من الملة.

استبعادُ اتِّباع أهلِ الكتابِ من قِبلِ المؤمنين، وتهويلٌ لمن زلَّ في ذلك

توجيه المُتشَابه اللفظيّ:

جاء في هذه الآيةِ قولُه: ﴿وَلَئِنِ ٱتَّبَعۡتَ أَهۡوَآءَهُم بَعۡدَ ٱلَّذِي جَآءَكَ مِنَ ٱلۡعِلۡمِ﴾، وجاء في السورةِ نفسِها: ﴿وَلَئِنِ ٱتَّبَعۡتَ أَهۡوَآءَهُم مِّنۢ بَعۡدِ مَا جَآءَكَ مِنَ ٱلۡعِلۡمِ﴾ [البقرة: 145].

فيُسألُ عن سِرِّ اختيار ﴿ٱلَّذِي﴾ في الموضع الأول، و﴿مَا﴾ في الموضِع الثاني؟ ويُسألُ عن سِرِّ خُلُوِّ الموضع الأول من ﴿مِنَ﴾، ودخولها في الموضع الثاني؟

أمَّا الجوابُ عن السُّؤال الأوّل:

فقوله تعالى: ﴿وَلَئِنِ ٱتَّبَعۡتَ أَهۡوَآءَهُم بَعۡدَ ٱلَّذِي جَآءَكَ مِنَ ٱلۡعِلۡمِ﴾ جاء بالاسم الموصول ﴿ٱلَّذِي﴾ فيما جاء في موضع آخر بـ﴿مَا﴾، كقوله تعالى: ﴿وَلَئِنِ ٱتَّبَعۡتَ أَهۡوَآءَهُم مِّنۢ بَعۡدِ مَا جَآءَكَ مِنَ ٱلۡعِلۡمِ﴾ [البقرة: 145]، وقد أجاب الغرناطي بقوله: " بأنّ ﴿ٱلَّذِي﴾ لا تفارق الموصولية، فهي

كأنّها أعرق في التعريف من ﴿مَا﴾؛ لخروج ﴿مَا﴾ عن الموصولية، حيث إنّها تكون حال اسميتها شرطاً واستفهاماً، ولا يفارقها العموم والإطلاق في هذين الموضعين"[1].

و"لِأَنَّ العلم فِي الْآيَة الأولى علم بالكمال، وَلَيْسَ وَرَاءه علم؛ لأَنَّ مَعْنَاهُ بعد الَّذِي جَاءَك من العلم بِاللَّه وَصِفَاته ... فَكَانَ لفظ ﴿ٱلَّذِى﴾ أليق بِهِ من لفظ ﴿مَا﴾؛ لِأَنَّهُ فِي التَّعْرِيف أبلغ، وَفِي الْوَصْف أقعد"[2].

ومن أسرار هذا التعبير: أَنَّ الآية الأولى الوارد فيها ﴿ٱلَّذِى﴾ مناسب للإطناب الوارد قبله، فقد ذكر في البقرة "عدة آيات في بسط أحوالهم وقبيح مرتكباتهم"[3] من لدن قوله تعالى: ﴿وَدَّ كَثِيرٌ مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ لَوْ يَرُدُّونَكُم مِّنۢ بَعْدِ إِيمَٰنِكُمْ كُفَّارًا حَسَدًا مِّنْ عِندِ أَنفُسِهِم﴾ [البقرة: 109] حتّى هذه الآية ذكر فيها كثيراً من مرتكباتهم وأحوالهم القبيحة في نحو عشر آيات أو أقلّ قليلاً.

أمّا الآية الثانية؛ فهي متعلِّقة بإبطال قبلة اليهود والنصارى؛ لأنّها مسبوقة ببيان ذلك من خلال قوله تعالى: ﴿سَيَقُولُ ٱلسُّفَهَآءُ مِنَ ٱلنَّاسِ مَا وَلَّىٰهُمْ عَن قِبْلَتِهِمُ ٱلَّتِى كَانُواْ عَلَيْهَا﴾ [البقرة: 142] والآية في أمر القِبلة، وهو تشريعٌ فرعي؛ لذلك جاء التحذير في قوله تعالى: ﴿وَلَئِنِ ٱتَّبَعْتَ أَهْوَآءَهُم مِّنۢ بَعْدِ مَا جَآءَكَ مِنَ ٱلْعِلْمِ﴾ في أمر اتّباع قبلتهم، أمّا في الآية الأولى؛ فالتحذير جاء من اتِّباع ملّتهم بأسرها، فالمقام مختلف؛ لأنّ الآية الأولى في بُطلان أصول ملّتهم، أمّا الآية الثانية؛ فهي في أمر القبلة؛ لذلك جيء فيها التعبير بـ﴿مَا﴾، وهي مُلحقةٌ بالمعارف؛ لأنّها في الأصل نكرة موصوفة نُقلت إلى الموصولية.

وأمَّا الجوابُ عن السُّؤال الثَّاني:

فلأنّ الآية التي دخلت فيها ﴿مِّنۢ﴾ جاءت بعد الآية الأولى في هذه السورة، وليس بينهما فصلٌ طويل؛ فكأنّ العلم الذي جاء فيها من قوله تعالى: ﴿مَّا تَبِعُواْ قِبْلَتَكَ﴾، هو جُزئيٌّ من عموم العلم الذي جاء في إبطال جميع ملّتهم، فكان جديراً بأن يُشار إلى كونه جُزئيًّا بإيراد ﴿مِّنۢ﴾ الابتدائية[4].

(1) الغرناطي، ملاك التأويل: 2/762.

(2) الكرماني، أسرار التكرار، ص: 77.

(3) الغرناطي، ملاك التأويل: 1/48.

(4) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 2/39.

لكلّ ذلك جاءت الألفاظ متناسبة، فذُكر ﴿ٱلَّذِى﴾ في الموضع الأول للإطناب الوارد فيها، ولأنّه أبلغ وأليق؛ لأنّها خالصة في التعريف، بخلاف ﴿مَا﴾ في الموضع الثاني ففيها إيجاز.

نفي الوليّ والنَّصير قطعُ الطمع عن اتِّباع الهوى

قوله تعالى: ﴿مَا لَكَ مِنَ ٱللَّهِ مِن وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ﴾ معناه: نفي أن يكون لك حليف أو معين يدفعهم عنك، وفي هذا التعبير "قطعٌ لأطماعهم أن تُتَّبع أهواؤهم؛ لأنّ من علم أنّه لا ولي له، ولا نصير ينفعه، إذا ارتكب شيئًا؛ كان أبعد في أن لا يرتكبه، وذلك إياس لهم في أن يتبع أهواءهم أحد"(1).

سرّ التعبيرِ بحرفِ الجرّ ﴿مِن﴾ في قوله ﴿مِن وَلِيٍّ﴾:

عبَّر بذلك لتأكيد النفي، ولقطع أمل المنافقين والمُداهنين لليهود والنصارى.

نكتةُ تقديم ﴿وَلِيٍّ﴾ على ﴿نَصِيرٍ﴾:

الاحتراس فنٌّ بديعيٌّ، وضابطٌ علميٌّ

قوله تعالى: ﴿مَا لَكَ مِنَ ٱللَّهِ مِن وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ﴾ جواب القسم، فقد علّق اتباع الهوى بنفي الولي والنصير، وأكّد النفي بمن في قوله: ﴿مِن وَلِيٍّ﴾؛ لتأكيد النفي، وقدّم الولي على النَّصير احتراسًا(2)؛ لحصول التَّكامل بين ولاية الولي، ونصرة النصير؛ "لأنّ نفي الولي لا يقتضي نفي كلّ نصير؛ إذ لا يكون لأحد ولي؛ لكونه دخيلاً في قبيلة، ويكون أنصاره من جيرته"(3)، و(لا) هنا نافية لتوكيد النفي، والتقدير: ما لكم من دون الله من وليٍّ ونصير.

۞ الفُرُوقُ المُعْجَمِيَّةُ:

الملّة والدِّين والشريعة:

يقول الرَّاغب(4): الملّة كالدِّين، وهو اسمٌ لما شرع الله تعالى لعباده

(1) أبو حيان، البحر المحيط: 1/591.
(2) الاحتراس: أن يأتي المتكلم بمعنًى فيه دخل وطعن، فيُفطَن له؛ فيأتي بما يزيل ذلك الوهم ويخلِّصه منه، ينظر القزويني، الإيضاح، ص: 192.
(3) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 1/695.
(4) الراغب، المفردات: (ملل).

على لسان الأنبياء؛ ليتوصَّلوا به إلى جوار اللّه؛ والفرق بينها وبين الدِّين أنَّ الملّة لا تضاف إلَّا إلى النبي الذي تُسند إليه، ومن ذلك قوله تعالى: ﴿مِّلَّةَ أَبِيكُمْ إِبْرَٰهِيمَ﴾ [الحج: 78]، وقوله: ﴿وَٱتَّبَعْتُ مِلَّةَ ءَابَآءِىٓ إِبْرَٰهِيمَ﴾ [يوسف: 38] الآية، ولا تُضاف إلى اللّه تعالى، ولا إلى آحاد أمّة النَّبي، ولا تُستعمل إلّا في جملة الشَّرائع دون آحادها؛ فلا يقال: ملّة اللّه، ولا يقال: مِلَّتي، وملّة زيد ... أمَّا الدين إذا أطلق؛ فهو الطاعة العامة الَّتي يجازى عليها بالثواب، قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلدِّينَ عِندَ ٱللَّهِ ٱلْإِسْلَٰمُ﴾ [آل عمران: 19]، أمَّا إذا قُيِّد؛ فتختلف دلالته حسب السِّياق الذى ورد فيه، مثل: ﴿مَٰلِكِ يَوْمِ ٱلدِّينِ﴾ [الفاتحة: 4]، فهو بمعنى الجزاء والحساب.

المجيء والإتيان:

"والمجيء كالإتيان، لكنَّ المجيء أعمُّ؛ لأنَّ الإتيان مجيء بسهولة، والإتيان قد يقال: باعتبار القصد، وإن لم يكن منه الحصول، والمجيء يقال: اعتبارًا بالحصول"(1).

الوليّ والنَّصير:

الفرق بين الولي والنَّصير العموم والخصوص من وجه؛ لأنَّ الولي يُطلق على القريب والحليف، أمَّا النصير؛ فيطلق على كلِّ من يُعين أحداً وعلى من يريد به ضُرًّا، وهذا قد لا يتأتَّى من الولي، حيث يضعُفُ عن النُّصرة؛ بخلاف النصير فقد يكون من أقربائه أو من غيرهم.

وجاء التعبير بهما لقطع أطماعهم أن تُتَّبع أهواؤهم؛ لأنَّ من عَلِم أنّه لا ولي له، ولا نصير ينفعه؛ إذا ارتكب شيئاً، كان أبعد عن ارتكاب المعصية في اتِّباع أهوائهم، وفيه إشارة؛ لتيئيس اليهود والنصارى أن يتَّبع أهواءَهم أحدٌ.

(1) الراغب، المفردات: (جاء).

﴿ٱلَّذِينَ ءَاتَيۡنَٰهُمُ ٱلۡكِتَٰبَ يَتۡلُونَهُۥ حَقَّ تِلَاوَتِهِۦٓ أُوْلَٰٓئِكَ يُؤۡمِنُونَ بِهِۦۗ وَمَن يَكۡفُرۡ بِهِۦ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡخَٰسِرُونَ ١٢١﴾ [البقرة: 121]

❁ مُناسَبَةُ الآيَةِ لِمَا قَبْلَها:

سبق الحديث في قوله تعالى: ﴿وَلَن تَرۡضَىٰ عَنكَ ٱلۡيَهُودُ وَلَا ٱلنَّصَٰرَىٰ﴾ [البقرة: 120] الآية عن قطع أمل الرّسول ﷺ والمؤمنين من إيمان أهل الكتاب؛ لأنّ الآية قَدْ سَلَّتْ مَا كَانَ يُخَالِجُ النُّفُوسَ مِنَ الرَّجَاءِ بِإِيمَانِ أَهْلِ الْكِتَابِ كُلِّهِمْ، ثم جاءت هَذِهِ الْآيَةُ تَنْطِقُ بِأَنَّ مِنْهُمْ مَنْ يُرْجَى إِيمَانُهُ، وَهُمُ الَّذِينَ وَصَفَهُمْ بِمَا هُوَ عِلَّةُ الرَّجَاءِ وَمَنَاطُ الْأَمَلِ، وَهُوَ تِلَاوَةُ كِتَابِهِمْ حَقَّ تِلَاوَتِهِ[1]؛ فجاءت هذه الآية استدراكًا على ما مضى من مضمون الآية السابقة، فإنّ الذين يتلون الكتاب حقّ تلاوته، ويؤمنون به، مُسْتَثْنَوْنَ من أولئك المذكورين في الآية السابقة.

❁ شَرْحُ المُفْرَدَاتِ:

1) ﴿ءَاتَيۡنَٰهُمُ﴾: فعل ماضٍ مع الفاعل والمفعول بمعنى: أعطيناهم، أصله (آتى)، والجذر منه (أتي)، ومنه أتى يأتي، "والإيتاء الإعطاء، تقول: آتى يؤتي إيتاء، وتقول: هاتِ بمعنى: آتِ، أي: فاعل"[2].

وفي الآية بمعنى: الإنزال، أي: أنزلنا عليهم الكتاب.

2) ﴿ٱلۡكِتَٰبَ﴾: يأتي (الكتاب) في القرآن الكريم على أحد عشر وجهاً[3]، والمراد به هنا التوراة والإنجيل.

3) ﴿يَتۡلُونَهُۥ﴾: فعل مضارع من الأفعال الخمسة مسند للجماعة، جذره من التاء واللام والواو، ومعناه: "الاتِّباعُ يقالُ: تَلوتهُ إِذا تبعتهُ، ومنهُ تلاوةُ القرآنِ؛ لأَنَّهُ يُتبعُ آيةٌ بعدَ آيةٍ"[4].

(1) محمد رشيد رضا، تفسير المنار: 1/367.
(2) ابن فارس، مقاييس اللغة: (أتي).
(3) ابن الجوزي، نزهة الأعين النواظر، ص: 526-527.
(4) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (تلو).

و"تَلَاهُ: تبعه متابعة، ليس بينهم ما ليس منها، وذلك يكون تارةً بالجسم وتارةً بالاقتداء في الحكم، ومصدره: تُلُوٌّ وتُلْوٌ، وتارةً بالقراءة وتدبُّر المعنى"[1].

"والتلاوة تختصُّ باتِّباع كتب الله المنزلة، تارةً بالقراءة، وتارةً بالارتسام لما فيها من أمر ونهي، وترغيب وترهيب"[2].

والمعنى المراد في الآية: تلاوة الكتاب: اتِّباعه والأخذ به عملاً[3]، ويُحْتَمَلُ أَنْ يَكُونَ مِنَ التِّلاوَةِ، أَيْ يَقْرَؤونَهُ حَقَّ قِراءَتِهِ لا يُحَرِّفُونَهُ ولا يُبَدِّلُونَهُ.

4) ﴿يُؤْمِنُونَ﴾: فعل مضارع مسند لواو الجماعة، وجذره الهمزة والميم والنون، وهو يدلُّ على سكون القلب وتصديقه[4]، وأصلُ الأمن طمأنينة النفس وزوال الخوف[5]، وفعله: أمِنَ، أمَّا آمن؛ فله وجهان[6].

أحدهما: أن يكون متعدِّيًا، تقول: آمنته إذا جعلت له الأمن والأمان، ومنه في وجه[7] اسم الله المؤمن.

والآخر: أن يكون لازماً، ومعنى (آمن) على هذا: صار ذا أمن.

والفعل يؤمنون في الآية: "يدلُّ على أنَّ الإيمان مقصورٌ عليهم، ولو كان المراد أهل الكتاب لما كان كذلك"[8].

5) ﴿ٱلْخَٰسِرُونَ﴾: اسم فاعل، مجموع جمع سلامة، مفرده: خاسر، وجذره اللغوي (خسر)، ولمعناه: "أصلٌ واحد يدلُّ على النقص، فمن ذلك الخسر والخسران، ويقال: خسرت الميزان وأخسرته؛ إذا نقصته"[9].

ومعناه أيضًا: "الخُسْرُ والخُسْرَان: انتقاص رأس المال، وينسب ذلك إلى الإنسان، فيقال: خَسِرَ فلان، وإلى الفعل، فيقال: خَسِرَتْ تجارته"[10].

---

(1) الراغب، المفردات: (تلو).
(2) السمين، عمدة الحفاظ: (تلو).
(3) جبل، المعجم الاشتقاقي المؤصل: (تلو - تلي).
(4) ابن فارس، مقاييس اللغة: (أمن).
(5) الرّاغب، المفردات: (أمن).
(6) الرّاغب، المفردات: (أمن).
(7) الزجاج، تفسير أسماء الله الحسنى، ص: 32-31.
(8) الرازي، مفاتيح الغيب: 4/35، في المطبوع: "مقصودٌ"، وهو تصحيف.
(9) ابن فارس، مقاييس اللغة: (خسر).
(10) الراغب، المفردات: (خسر).

ويستعمل في غير الأمور المادية: "كالصّحّة والسّلامة، والعقل والإيمان، والثّواب، وهو الذي جعله الله تعالى الخسران المبين"[1].

وأكثر ما في القرآن منه "من جهة أنهم اشتروا الكفر بالإيمان، وقيل: بتجارتهم التي كانوا يعملونها بأخذ الرشا على التحريف"[2].

ومعنى ﴿ٱلۡخَٰسِرُونَ﴾ في هذه الآية: الذين "باعوا العظيم الباقي بالحقير الفاني، وفي التعريف بالإشارة والحصر للخسران فيهم"[3].

۞ المَعْنَى الإِجْمَالِيُّ:

سيقت هذه الآية تخصيصاً لما قبلها من أنَّ عموم أهل الكتاب لن يؤمنوا حتى تكون تابعًا لهم في ديانتهم، فقد "أرشد إلى أنَّ فريقًا منهم يرجى إيمانهم، وهم الذين يتدبرون كتابهم، ويميزون بين الحق والباطل، ويفهمون أسرار الدين، ويعلمون أن ما جئت به هو الحق الذي يتفق مع مصالح البشر، فهو الذي يهذب نفوسهم، ويصفِّي أرواحهم، وينظِّم معايشهم، وبه سعادتهم في الدنيا والآخرة"[4]، ولا يحرِّفون ولا يبدِّلون ما جاء فيه؛ هؤلاء هم الذين يؤمنون بالنبي محمد ﷺ وبما أنزل عليه، وأمَّا الذين بدَّلوا بعض الكتاب وكتموا بعضَه، فهؤلاء كفارٌ بنبي الله محمد ﷺ وبما أنزل عليه، ومن يكفر به فأولئك هم أشدُّ الناس خسرانًا عند الله.

۞ الإِيضَاحُ اللُّغَوِيُّ وَالبَلَاغِيُّ:

دلالةُ فَصْلِ الجُملةِ عن السَّابقةِ:

إنصافُ القرآنِ لأهل الكتابِ

جاءت الآيةُ مفصولةً عمَّا سبقها لأنَّها مُعترضةٌ في بيان حال مؤمني أهل الكتاب بعد ذكر أحوال كَفَرَتِهم، وتنبيهًا على كمال التَّباين بين الفريقين[5]، وهذا يدلُّ على إنصاف القرآنِ لأهلِ الكتابِ، وأنَّه يُعطي كلَّ ذي حقٍّ حقَّه من المواصفاتِ التي يتَّصف بها.

(1) المرجع السابق: (خسر).
(2) جبل، المعجم الاشتقاقي المؤصل: (خسر).
(3) الآلوسي، روح المعاني: 1/373.
(4) المراغي، تفسير المراغي: 1/205، ونخبة من العلماء، التفسير الميسَّر: ص19.
(5) الآلوسي، روح المعاني: 1/372.

فائدةُ التَّعبيرِ بالاسم الموصولِ: ﴿ٱلَّذِينَ ءَاتَيۡنَٰهُمُ﴾:

تعيينُ أهلِ الكتابِ المُستحقِّين هذا الوَصْفَ

بدأت الآيةُ باسمِ الموصولِ ﴿ٱلَّذِينَ ءَاتَيۡنَٰهُمُ ٱلۡكِتَٰبَ يَتۡلُونَهُۥ حَقَّ تِلَاوَتِهِۦٓ﴾، وهو يُعبَّر به عن الجمع لتوسيعِ الدّلالة ليشملَ من آمن بالرسول ﷺ من علماء أهل الكتابِ، ومن عوامِّهم، ويدلُ الاسمُ الموصولُ على مزيدِ مَدْحٍ وتعيين، فهو يُعيِّن أهلَ الكتابِ المُفضَّلين الذين يستحقُّون أن يوصفوا بهذا الوَصْفِ، فكأنَّه قال: أهلُ الكتابِ هم الذين يَتلُونه حقَّ تلاوتِه لا غيرُهم، وهو ما يُترجمُه الفعلُ المضارِعُ واسمُ الإشارة.

دلالةُ نونِ العظمةِ في الفعلِ: ﴿ءَاتَيۡنَٰهُمُ﴾:

أفادت شرف المُؤتى، وهو الكتاب، الذي هو بمنزلة النور لتبديد ظلام الشُّبهات عند اليهود والنصارى، وفيه حياة القلوب والأرواح، وبيانُ شرف مَنْ أُوتوهُ لشرف إضافتهم ودخولهم في الكلمة؛ فبصدقِهم وتصديقهم لما أنزله اللّه في كُتبهم من الإيمان بالنَّبي محمَّد ﷺ ودعوته؛ نالوا هذا الشرف.

معنى التَّعريف في الكتابِ وسرُّ الاختيارِ:

تحريكُ عقولِ وقلوبِ أهلِ الكتابِ منزعٌ قرآنيٌّ راسخٌ

معنى التَّعريفِ في: ﴿ٱلۡكِتَٰبَ﴾ يَحتمِل العهدَ أي: التَّوراة[1]، ويحتمل أن يكونَ الكتابُ "اسمَ الجنس، ويَتْلُونَهُ معناه: يتّبعونه حقّ اتّباعه بامتثال الأمر والنهي"[2]، وعُبِّر بالكتابِ لأنّ التوراة كتاب، والإنجيل كتاب، والقرآن كتابٌ؛ فأتى بالوصف المُشترك للجميع؛ فجهة التسمية واحدة، وجهة الإنزال واحدة، وفيه حضٌّ وحثٌّ على الإيمانِ بالقرآنِ الكريم، وهذا من بناءِ القيم القائمةِ على تحريكِ عقولِ وقلوبِ أهل الكتابِ.

(1) ابن جرير، جامع البيان: 2/565.
(2) ابن عطية، المحرر الوجيز: 1/204.

بلاغةُ التَّعبيرِ بـ﴿يَتۡلُونَهُۥ﴾ دلالةً وصيغةً:

الـتِّـلاوةُ قـراءةٌ راسخـةٌ واتِّـبـاعٌ دائمٌ

معنى التِّلاوةِ في قوله تعالى: ﴿يَتۡلُونَهُۥ حَقَّ تِلَاوَتِهِۦٓ﴾ اجتمع فيه معنيان: الاتِّباع، والآخر: القراءة، فهو "يقعُ عليهما جميعًا، ويصحّ فيهما جميعًا المبالغةُ؛ لأنّ التابع لغيره قد يستوفي حقّ الاتباع، فلا يخلُّ بشيء منه، وكذلك التَّالي يستوفي حقَّ قراءته، فلا يخلُّ بما يلزم فيه"[1] وفيه إيجاز بديع في الجمع بين المعنيين بلفظٍ واحدٍ، وعبَّر بالفعل المُضَارِعِ للدّلالة على أنّ هؤلاء يتَّبِعون هدي السماء، فلا يفتُرون عنه، فهو دَيدَنُهُم صُدورًا ووُرودًا.

التجويدُ والإتقانُ سمةُ أهلِ الإيمانِ:

دلَّ لفظُ ﴿حَقَّ﴾ على الإتقانِ والإحكامِ، أي: تلاوةً مستوفيةً، يُراعى فيها ضبط اللفظ، وفهم المعنى، ولزوم العمل بما فيه؛ فإنَّ للتِّلاوةِ حقَّها الواجب لها.

فائدةُ استعمالِ اسمِ الإشارةِ للبعيدِ:

الإيـمـانُ وصْـفٌ عالٍ لا يستحقُّه إلَّا من عـمِلَ به حقَّ العملِ

قوله تعالى: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ يُؤۡمِنُونَ بِهِۦۗ﴾ عبّر عن الذين يتلونه حقّ تلاوته بأولئك؛ "إشارة إلى الموصوفين بإيتاء الكتاب وتلاوته، كما هو حقّه، ﴿يُؤۡمِنُونَ بِهِۦۗ﴾ محطّ الفائدة ما يلزم الإيمان به من الربح"[2] ولـمّا كان اسم الإشارة أولئك موضوعًا للبعيد؛ ففيه إيماء إلى علوِّ منزلة هؤلاء الذين يتلون كتابه حقّ تلاوته، والتَّنبيه على أنَّ الأوصافَ المتقدِّمة هي الموجبةُ لجدارتِهم بالحكمِ المسند لاسم الإشارة، والحصر، وزيادة التَّأكيد لإثبات إيمانهم، وفيه تعريضٌ بأولئك المعاندين المحرِّفين الذين لم يؤمنوا بالكتاب.

معنى عطفِ الجملةِ على الجملةِ في قوله تعالى: ﴿وَمَن يَكۡفُرۡ بِهِۦ﴾:

كـمالُ استيفاءِ مـوقـفِ أهـلِ الكتابِ من الحقِّ

عُطفت جملةُ: ﴿وَمَن يَكۡفُرۡ بِهِۦ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡخَٰسِرُونَ﴾ على

(1) الرازي، مفاتيح الغيب: 4/35.
(2) القاسميّ، محاسن التأويل: 2/243.

ما قبلَها؛ لإرادة الجمعِ والتَّناسُب بين حالَتّي الإيمانِ والكُفر، حيث جاءت هذه الجملةُ لكمالِ الاستيفاءِ، فالجملةُ السَّابقة لبيانِ كمال المُؤمنين بالكتابِ حقًّا وصدقًا، وهذه الجملةُ لبيانِ الكافرين عنادًا وإصرارًا، فهو بيانٌ وتفصيلٌ لموقفِ أهلِ الكتابِ من الإيمانِ بالرَّسول ﷺ، حتّى لا يبقى لـمُعتذِرٍ عذر.

التَّقابُلُ بين الإيمانِ والكفر معنًى وصيغةً:

طـباقُ المعنـى واتِّـفـاقُ الحالِ من بديع نظمِ القرآنِ

عبَّرتِ الآيةُ عن إيمان أهلِ الكتابِ بالفعلِ المضارِعِ ﴿يُؤۡمِنُونَ﴾، وفي المقابلِ عبرت عن كفرهم بالمضارعِ: ﴿يَكۡفُرۡ﴾، وهذا التَّقابلُ أبان عن اختلافِ الحالين في المعنى؛ فهو طباقٌ بديعٌ، وصوَّرَ حالَ كلِّ فريق، فأولئك مستمرُّون في إيمانِهم يعملون به على الدَّوام، والمقابِلون مستمرُّون في عنادِهم وكُفرِهم بكتاب اللّٰه الذي يدعوهم إلى الصِّراط المستقيم.

اختلافُ الصِّيغةِ بين الشَّرطِ وجوابِه:

عـدالـةُ الـقـرآنِ وحـرصُـه على إيمانِ النَّاسِ

اختلف التَّعبيرُ بين الشَّرطِ وجوابه، فالشَّرطُ ﴿يَكۡفُرۡ﴾ جاءَ فعلاً مُضارِعًا؛ لإفادة التجدّد، وفيه بيانُ عدالةِ القرآنِ، وهَمْزُهُ الآخرين كي يُؤمنوا، فلم يحكم عليهم حكمًا دائمًا، بَيْنَما جاء الجواب جملةً اسميَّةً؛ لإفادة الثُّبوت؛ فإنّ من يكفرْ ويتجدَّدْ كفرُه آنًا بعد آنٍ ويُدرِكْهُ الموتُ على ذلك؛ فمصيرُه القارُّ هو الخسرانُ، وفائدةُ "ذلك تنفيرٌ عن تعاطي السبب؛ لما يترتَّب عليه من المسبَّب الذي هو الخسران ونقص الحظ"[1].

فائدةُ ضميرِ الفصلِ:

قولُه تعالى: ﴿فَأُوْلَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡخَـٰسِرُونَ﴾ جملة اسميَّةٌ، وجاءَ ضميرُ الفَصْلِ لتوكيدِ القَصْرِ، فالخبرُ مقصورٌ على المبتدأ؛ لأنَّه معرَّفٌ باللَّامِ، وخلا المبتدأُ من لام الجنسِ[2]، ففيه دلالة على أنّهم هم الخاسرون دون غيرهم، فقد قصر صفة الخسران عليهم.

(1) أبو حيان، البحر المحيط: 1/593.

(2) الرضي، الكافية بشرح الرضي: 2/25.

﴿يَٰبَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ ٱذۡكُرُواْ نِعۡمَتِيَ ٱلَّتِيٓ أَنۡعَمۡتُ عَلَيۡكُمۡ وَأَنِّي فَضَّلۡتُكُمۡ عَلَى ٱلۡعَٰلَمِينَ ١٢٢﴾ [البقرة: 122]

❁ مُناسَبَةُ الآيَةِ لِمَا قَبْلَها:

لـمّا ذكر اللّه تعالى في الآيات السّابقة بعض نعمه على اليهود والنصارى، وكانوا يقابلونها بالكفر والعناد، ويأتون منكراتٍ في الأقوال والأعمال، أعاد التذكير بجملةٍ من نعمه التي أنعم بها على بني إسرائيل مرةً ثانية؛ ليحذروا المخالفة فيما أُمروا به من شكر النِّعم والوفاء بالعهود.

❁ شَرْحُ المُفْرَدَاتِ:

1) ﴿إِسۡرَٰٓءِيلَ﴾: اسم أعجمي، وما كان كذلك، فلا تنطبق عليه حدود الصَّرْف العربي، إلَّا أنَّ ابن منظور من بين المعجميِّين جعل له جذرًا: هو (سرأل) فقال: "إِسْرَائِيلُ وإِسْرائينُ: زَعَمَ يعقوب أَنّه بدل اسم مَلَكٍ"[1].

وقيل: إنَّ كلمة اسرائيل هي لقب ليعقوب أبي يوسف عليهما السلام، "مَعْنَاهُ: عبد اللّه؛ لِأَنَّ (إيل) اسْم من أَسمَاء اللّه بالسُّرْيَانيَّة؛ وَقيل: صفوة اللّه، وَقيل: سرُّ اللّه"[2]، فيما جعله السهيليُّ اسمًا ليعقوب، وليس لقبًا[3].

وذكر الزَّبيدي في شأنه: "وإِسْرَالُ: يأْتي في حَرْفِ اللّام، وَلم يَذْكُرْهُ هُنَاكَ سَهْواً مِنْهُ، وَهُوَ مخفَّفٌ عَن إِسرائيلَ، وَمَعْنَاهُ صَفْوَةُ اللّه، وَقيل: عبدُ اللّهِ"[4].

وقوله: يا بني إسرائيل هنا، وفي جميع القرآن "خطاب لذرية يعقوب، وفي ذرِّيَّته انحصر سائر الأمَّة اليهودية، وقد خاطبهم بهذا الوصف دون أن يقول: يا أيُّها اليهود؛ لكونه هو اسم القبيلة، أمَّا اليهود؛ فهو اسم النِّحْلة والديانة"[5].

(1) ابن منظور، لسان العرب: (سرأل).
(2) الكفوي، الكليات، ص: 216.
(3) السهيلي، الروض الأنف: 1/87.
(4) الزبيدي، تاج العروس: (سرأل).
(5) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 1/449.

2) ﴿ٱذۡكُرُواْ﴾: فعل أمر مسند لواو الجماعة، وأصل أحرفه: (ذكر)، و"الذِّكر بالكسر له معنيان: أَحدهما: التَّلَفُّظ بالشَّيء، والثَّاني: إِحضاره في الذِّهن بحيث لا يغيب عنه"[1]، وهو نقيض النِّسيان، وقد وردت كلمة (الذِّكر) كثيرًا في القرآن الكريم، وكان لها معانٍ متعددة بحسب السياق الواردة فيه، فقد يكون ذكر القلب، وقد يكون ذكر اللسان، وقد يكون بمعنى: الصلاة، أو البيان أو الحديث أو الشرف أو اللوح المحفوظ أو غيره[2].

والمراد بذكر النعمة في الآية: "أن لا يُخِلّوا بشكرها، ويعتدُّوا بها، ويستعظموها، ويطيعوا مانحها، وأراد بها ما أنعم به على آبائهم مما عدّد عليهم"[3].

3) ﴿نِعۡمَتِيَ﴾: نعمة، مضاف لياء المتكلم سبحانه وتعالى، وهو اسم، وجذره اللغوي (نعم)، وفروعه كثيرة في لغة العرب، وهي "راجعةٌ إلى أَصلٍ واحدٍ يدلُّ على ترفُّهٍ وطيبِ عيشٍ وصلاحٍ، منهُ النِّعمةُ ما ينعمُ اللَّهُ تعالى على عبدِهِ بهِ منْ مالٍ وعيشٍ، يقالُ: للَّهِ تعالى عليهِ نعمةٌ، والنّعْمة المنَّةُ، وكذا النَّعماءُ، والنَّعمةُ التَّنَعُّمُ وطيب العيشِ"[4].

والمعنى المحوري للنعمة: "رِقَّة الشيء، أو ليونته وخلوُّه من الغِلَظ والخشونة: كباطن القدم بالنسبة لغِلَظ ظاهره"[5].

و"النِّعْمَةُ: الحالةُ الحسنةُ، وبنَاء النِّعْمَة بِناء الحالةِ التي يكون عليها الإنسان، كالجِلْسَة والرِّكْبَة، والنَّعْمَةُ: التَّنَعُّمُ ... والنِّعْمَةُ للجِنْسِ: تقال للقليلِ والكثيرِ"[6]، "والنعمة هنا: اسم جنس، فهي مفردة بمعنى: الجمع"[7].

ومعنى ذكر النِّعم في الآية: "اذكروا أياديَّ لديكم، وصنائعي عندكم، واستنقاذي إياكم من أيدي عدوِّكم فرعون وقومه، وإنزالي عليكم المنَّ والسلوى في تيهكم، وتمكيني لكم في البلاد"[8].

4) ﴿فَضَّلۡتُكُمۡ﴾: فعل ماضٍ مزيد بالتضعيف، زنة (فعّل)، الجذر اللغوي له (فضل)،

(1) الكفويّ، الكليات، ص: 456.
(2) الكفويّ، الكليات، ص: 457.
(3) الزمخشري، الكشاف: 1/258.
(4) ابن فارس، مقاييس اللغة: (نعم).
(5) جبل، المعجم الاشتقاقي المؤصل: (نعم).
(6) الراغب، المفردات: (نعم).
(7) القرطبي، الجامع لأحكام القرآن: 2/7.
(8) ابن جرير، جامع البيان: 2/573.

وله "أصل صحيح يدلُّ على زيادةٍ في شيء، من ذلك الفضل: الزيادة والخير، والإفضال: الإحسان"[1].

ومعنى الفضل: "الزّيادة عن الاقتصاد، وذلك ضربان: محمود: كفضل العِلْم والحِلْم، ومذموم: كفضل الغضب على ما يجب أن يكون عليه، والفَضْلُ في المحمود أكثر استعمالاً"[2]، والفضل بمعنى: الزيادة قد يكون حسّيًّا، وقد يكون معنويًّا، فقوله في الآية: ﴿وَأَنِّي فَضَّلْتُكُمْ عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ﴾، "أي: عالمي زمانهم، أو بما جعل فيهم من الأنبياء، أقول: فهو تفضيل نِسْبِيٌّ أو في أمر خاصٍّ"[3].

وذكر في الآية: "تَفْضِيلَهُمْ عَلَى الْعَالَمِينَ بِمَحْضِ كَرَمِهِ وَفَضْلِهِ، فَإِنَّ بَنِي إِسْرَائِيلَ كَغَيْرِهِمْ مِنَ الْبَشَرِ، وَالتَّفْضِيلُ هُوَ مَنَاطُ الْأَخْذِ بِالْفَضَائِلِ وَتَرْكِ الرَّذَائِلِ"[4].

5) ﴿ٱلْعَٰلَمِينَ﴾: اسم، مفرده (عالَم)، الجذر اللغوي للكلمة (علم)، أمّا الأصل اللغوي لهذا الجذر؛ فدلالته "علَى أَثرٍ بالشّيءِ يتميّزُ بِهِ من غيرِه، منْ ذلكَ العلامةُ"[5] والعلم ضدُّ الجهل، وعالم هو من صفاته تعالى، مشتقٌّ من العلم "وأصل العلم إدراك الشيء على حقيقته، وهو معرفة الشيء على ما هو عليه"[6].

ومن هذا الجذر أو الباب "العالَمون، وذلك أنَّ كلَّ جنس من الخلق، فهو في نفسه مَعْلَمٌ وعَلَم، وقال قوم: العالم سمّي لاجتماعه"[7].

"العالَم: الخَلْق كلّه، أي: أن معناه هو جميع المخلوقات، قالوا: ولا واحد للعالم من لفظه؛ لأنَّ (عالمًا) جمعُ أشياء مختلفة"[8].

ومعنى العالَمين في الآية: "أراد عالمي زمانهم، وقيل: أراد فضلاء زمانهم الذين يجري كلُّ واحد منهم مجرى كلّ عالم؛ لما أعطاهم ومكّنهم منه"[9].

---

(1) ابن فارس، مقاييس اللغة: (فضل).
(2) الراغب، المفردات: (فضل).
(3) جبل، المعجم الاشتقاقي المؤصل: (فضل).
(4) محمد رشيد رضا، تفسير المنار: 1/252.
(5) ابن فارس، مقاييس اللغة: (علم).
(6) السمين، عمدة الحفاظ: (علم).
(7) ابن فارس، مقاييس اللغة: (علم).
(8) جبل، المعجم الاشتقاقي المؤصل: (علم).
(9) الراغب، المفردات: (علم).

❁ المَعْنَى الإِجْمَالِيُّ:

نداءٌ لبني إسرائيل يتوفر على موعظة بليغة بتنبيههم أنه تعالى قد أنعم نِعَمًا كثيرةً "على آبائهم بإنقاذهم من أيدي عدوِّهم، وإنزاله المنَّ والسَّلْوى عليهم، وتمكينِه لهم في البلاد بعد أن كانوا أذلَّاء مقهورين، وإرسالِه الرُّسلَ منهم، وتفضيلهم على غيرهم ممَّن كانوا بين ظهرانَيْهم"[1].

❁ الإيضَاحُ اللُّغَوِيُّ وَالبَلَاغِيُّ:

سرُّ خِطابِ اليهودِ ببني إسرائيلَ دونَ بني يعقوبَ:

اختيارُ الألقابِ في القرآنِ قائمٌ على بناءِ القِيَمِ الهدائيَّةِ

جاءَ خطابُ اليهودِ في القرآنِ كلِّه ببني إسرائيل وهو خطابٌ لليهودِ "الذين كانوا بالمدينة من ولد يعقوب عليه السلام في أيَّام محمَّدٍ صلى الله عليه وسلم"[2]، ولسائلٍ أن يسألَ عن سرِّ ذلكم النِّداء، دون أن يكونَ ببني يعقوب ولو لمرَّةٍ واحدة؟ ونكتةُ ذلك؛ "أنَّهم خُوطبوا بعبادةِ اللَّهِ، وذُكّروا بدين أسلافهم موعظةً لهم، وتنبيهًا من غفلتهم، فسُمّوا بالاسم الذي فيه تذكرة باللَّهِ"[3]، إذْ إنَّ إسرائيلَ هو لقبُ يعقوبَ عليه السلام، "ومعناه في لسانهم: صفوة اللَّه، وقيل: عبد اللَّه"[4]، ففيه إلهابٌ وتهييجٌ "بِذِكْرِ أبيهم إسرائيل، كأنّه قيل: يا بني العبد الصالح المطيع للَّه، كونوا مثلَ أبيكم، كما تقول: يا ابْن الكريم، افعل كذا، ويا ابْن العالم، اطلب العلم"[5]، وفيه إشعارٌ بأصلهم التَّاريخيِّ.

سببُ خطابِ اليهودِ المعاصرين بإنزال النِّعَمِ عليهم:

الأبناءُ امتدادٌ للآباءِ

امتنَّ اللَّه على اليهود المعاصرين بالنِّعَم التي أنزلَها عليهم، مع أنَّها نزلتْ على آبائهم، وعلى رأسِها التَّوراةُ؛ لانتهاءِ النِّعَمِ إليهم

(1) المراغي، تفسير المراغي: 1/207.
(2) الفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 3/21.
(3) السيوطي، معترك الأقران: 2/6.
(4) الزمخشري، الكشاف: 1/256-257.
(5) القاسمي، محاسن التأويل: 1/114.

فلولا هذه النِّعم على آبائِهم؛ لما كانوا موجودين، وبذلك تكون النِّعمُ على الآباء نِعَمًا على الأبناء، وفي ذلك ترغيبٌ للأبناءِ في اتِّباع الآباء في أفعال الخير، وفي هذا دعوةٌ لهم للإيمان بالنَّبيِّ ﷺ.

فائِدةُ تعدّي الفعلِ (أنْعَمَ) بحرفِ الاستعلاء:

تعدَّى فعلُ (أَنْعَمَ) بحرف الجرّ (على) للدّلالة على عُلوِّ مصدرِ النِّعمةِ، وكثرة النِّعم وعدم انقطاعها؛ لأنّ الإنسانَ مجبولٌ على حبِّ النِّعمة ودوامها؛ فإذا ما علم أنّ مصدرَها الله سبحانه وتعالى؛ أمِنَ قلبُه، واطمأنَّت نفسه.

بلاغةُ التَّجريدِ في عطفِ الخاصِّ على العامِّ:

قولُه تعالَى: ﴿وَأَنِّي فَضَّلۡتُكُمۡ عَلَى ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾ المقصودُ به التَّفضيل على عالمي زمانِهم[1]، وهو مَعْطُوفٌ على ﴿ٱذۡكُرُواْ نِعۡمَتِيَ ٱلَّتِيٓ أَنۡعَمۡتُ عَلَيۡكُمۡ﴾ من بابِ "عطْفِ الخاصِّ على العامِّ، وهو ممَّا انفردت به الواو ... ويسمّى هذا النَّحو من العطفِ بالتَّجريد؛ كأنّه جرَّد المعطوف من الجملة، وأُفرد بالذِّكر اعتناءً به"[2].

(1) الإسكافي، درَّة التنزيل: 1/461.

(2) الآلوسي، روح المعاني: 1/252.

﴿وَٱتَّقُواْ يَوۡمٗا لَّا تَجۡزِي نَفۡسٌ عَن نَّفۡسٖ شَيۡـٔٗا وَلَا يُقۡبَلُ مِنۡهَا عَدۡلٞ وَلَا تَنفَعُهَا شَفَٰعَةٞ وَلَا هُمۡ يُنصَرُونَ ١٢٣﴾ [البقرة: 123]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِمَا قَبْلَها:

لـمَّا ذكَّر اللّه تعالى بني إسرائيل في الآية السابقة بنعمه عليهم، وخاصَّةً تفضيلهم على العالمين في زمانهم، وكان ذلك مظنّةً للغرور والعُجب بأنفسهم، فتوهَّموا أنّ التَّقصير في العمل الصالح لا يضرُّهم، جاءت هذه الآية تُحذّرُهم من التقصير، وترشدهم إلى وسائل التّقوى التي تجعل بينهم وبين العذاب وقاية.

شَرْحُ المُفْرَدَاتِ:

1) ﴿وَٱتَّقُواْ﴾: أمرٌ منه بالتَّقوى، وجِذره اللغوي (وقي)، والأصل في معناه: "كلمة واحدة تدلُّ على دفْع شيء عن شيء بغيره ... والوقاية: ما يقي الشيء، واتّقِ اللّه: تَوَقَّه، أي: اجعل بينك وبينه كالوقاية"[1].

ومعناه المحوري: "حفظٌ من الأذى أو الضرر باتِّخاذ حاجزٍ دونه، كالوقاية: الحاجز؛ ثَوْبًا أو حَشِيّة أو وَرَقًا"[2].

و"الوِقَايَةُ: حفظُ الشيءِ ممّا يؤذيه، ويضرّه، والتَّقْوَى: جعل النّفس في وِقَايَةٍ مما يُخاف، هذا تحقيقه، ثمَّ يسمَّى الخوف: تارة تَقْوًى، والتَّقْوَى خوفاً ... وصارتِ التَّقْوَى في تعارف الشّرع: حفظ النّفس عمّا يؤثم، وذلك بترك المحظور"[3]، و"الاتّقاء: هو افتعالٌ من الوقاية، وهي فرطُ الصّيانة، وشدَّةُ الاحتراس من المكْرُوه"[4].

ومعناه "اتَّقوه على نحو ما أمركم، ونهاكم، وليس فيه تكليف بما لا يطاق"[5]، والمراد

(1) ابن فارس، مقاييس اللغة: (وقي).
(2) جبل، المعجم الاشتقاقي المؤصل: (وقي).
(3) الراغب، المفردات: (وقي).
(4) الكفوي، الكليّات، ص: 38.
(5) السمين، عمدة الحفاظ: (وقي).

من قوله: (اتقوا) في الآية "معناها المتعارف في اللغة لا المعنى الشرعي ... والمراد باتقائه اتقاؤه من حيث ما يحدث فيه من الأهوال والعذاب"[1].

2) ﴿يَوْمًا﴾: اسمٌ دالٌّ على الزمان، وحروفه تمثِّل "كلمةً واحدةً، هيَ اليومُ الواحدُ منَ الأيَّامِ، ثمَّ يستعيرونَهُ في الأمرِ العظيمِ، ويقولونَ: نِعْمَ فلانٌ في اليوم؛ إذَا نزلَ"[2].

وقد يكون ظرفًا؛ إذا تضمَّن معنى (في)، وقد لا يكون كذلك، وهو هنا ظرف، وقد أضيف إلى لفظة (القيامة)، فالله يحكم بينهم يوم القيامة، أي: في ذلك اليوم؛ فذلك اليوم ظرف لحكم الله.

3) ﴿تَجْزِى﴾: فعل مضارع للاستقبال، الماضي منه جزى، وجذره اللغوي (جزي)، والأصل في معناه: "قيام الشيء مقام غيره ومكافأته إياه، يقال: جزيت فلانًا أجزيه جزاء، وجازيته مجازاة"[3] ومعناه المحوري: "تحصيل شيء مقصود من تناول شيء أو معالجته، كالشَّحم والغذاء من اللَّحم؛ فهما مقابل أكله المقصود منه"[4].

و"الجَزَاء: الغناء والكفاية ... والجَزَاء: ما فيه الكفاية من المقابلة؛ إنْ خيرًا فخير، وإنْ شرًّا فشَرّ"[5]، ومعنى ﴿تَجْزِى﴾ في الآية، "أي: لا تغني، ولا تقضي، ولا تنوب"[6] "وتجزي: مضارع جزى، بمعنى: قضى حقًّا عن غيره"[7].

4) ﴿نَفْسٌ﴾: اسم ثلاثي، جذره اللغوي (نفس)، وأصله "يدلُّ على خروجِ النَّسيمِ كيفَ كانَ، منْ ريحٍ أوْ غيرهَا ... والنَّفسُ الدَّمُ، وهوَ صحيحٌ، وذلكَ أنَّهُ إذا فُقِدَ الدَّمُ منْ بدنِ الإنسانِ؛ فقدَ نفسَهُ"[8].

وهو شيء "لطيف يسري في فُتُوق أثناء الشيء، فيصلحه، ويتيح له التَّصرُّف، كالنَّفَس في أثناء بدن الحيِّ؛ فهو علامة حياته التي تتيح له التصرف"[9].

---

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 1/484.
(2) ابن فارس، مقاييس اللغة: (يوم).
(3) ابن فارس، مقاييس اللغة: (جزي).
(4) جبل، المعجم الاشتقاقي المؤصل: (جزى).
(5) الراغب، المفردات: (جزا).
(6) السمين الحلبي، عمدة الحفاظ: (جزي).
(7) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 1/484.
(8) ابن فارس، مقاييس اللغة: (نفس).
(9) جبل، المعجم الاشتقاقي المؤصل: (نفس).

ومعنى ذلك أنّ النَّفس يعبَّر بها عن الإنسان، وهو تعبير مجازي، وهو هنا كذلك في هذه الآية، فالأنفس هم المخاطبون بهذه الآية، وهو صحيح، فكلُّه يُستدلُّ به على الإنسان.

5) ﴿شَيْـًٔا﴾: اسم ثلاثي جذره اللغوي (شيء)، و"الشَّيْءُ قيل: هو الذي يصحّ أن يعلم، ويخبر عنه، وعند كثير من المتكلّمين: هو اسم مشترك المعنى؛ إذ استعمل في اللّه وفي غيره، ويقع على الموجود والمعدوم"[1].

وجعل الزمخشري أنَّ معنى الشيء: هو القليل، قال: "وتأخَّرت عنه شيئاً، أي: تأخُّرًا قليلاً"[2].

و"الشيءُ عند العلماء هو الذي يصحُّ أن يُعْلَم، ويُخبر عنه، وعند كثير من المتكلِّمين هو اسم مشترك المعنى؛ إذا استعمل في اللّه وفي غيره"[3].

ومعنى الشيء في الآية: "لَا تَقْضِي فِيهِ نَفْسٌ، مَهْمَا يَكُنْ قَدْرُهَا عَظِيمًا، عَنْ نَفْسٍ، مَهْمَا يَكُنْ ذَنْبُهَا صَغِيرًا شَيْئًا مَا"[4].

6) ﴿يُقْبَلُ﴾: فعل مضارع مستقبل للمجهول، الجذر اللغوي له (قبل)، وله "أصلٌ واحدٌ صحيحٌ تدلُّ كَلِمُهُ كلُّها على مواجهة الشيء للشيء، ويتفرع بعد ذلك"[5] و"المعنى المحوري: مُقدَّم الشيء الذي يُتَّجَه إليه منه لملاقاته أو النفاذ فيه"[6].

"وقبل اللّه توبة عبده وعذره وتقبَّله، بمعنى: أنه اعتدله بما أتى به وبما اعتذر به، والتقبُّل: قبول الشيء على وجهٍ يقتضي ثوابًا كالهدية"[7].

ومعنى يقبل في الآية: من "قبول الشيء: التوجُّه إليه، والفعل قبل يقبل، والقبل: ما واجهك"[8].

7) ﴿عَدْلٌ﴾: اسم ثلاثي، جذره اللغوي (عدل)، وله "أصلان صحيحان، لكنهما

(1) الراغب، المفردات: (شيء).
(2) الزمخشري، أساس البلاغة: (شيأ).
(3) السمين، عمدة الحفاظ: (شيأ).
(4) محمد رشيد رضا، تفسير المنار: 1/253.
(5) ابن فارس، مقاييس اللغة: (قبل).
(6) جبل، المعجم الاشتقاقي المؤصل: (قبل).
(7) السمين، عمدة الحفاظ: (قبل).
(8) أبو حيان، البحر المحيط: 1/303.

متقابلان كالمتضادِّين: أحدهما يدلُّ على استواء، والآخر يدلُّ على اعوجاج"[1]
و"المعنى المحوري: موازنة ثِقْلٍ في جانبٍ بِثِقْلٍ في جانبٍ آخر حتى يتّزِنا، ومنه أخذ معنى الاستواء أو التسوية، وكذلك الموازنة وما بمعناها"[2].

ومعنى العَدْل في الآية: "ولا يقبل من نَفْسٍ في ما لَزِمَها فدية، كأنّ الفِدْية تُثَاقل وتُوَازن المفتدَى في القيمة"[3].

والعدل في الآية: "قيمة الشيء وفداؤه ... أي: فدية، وكلُّ ذلك من المعادلة، وهي المساواة"[4].

ومن العدل: "العَدَالَةُ والـمُعَادَلَةُ: لفظٌ يقتضي معنى: المساواة، ويستعمل باعتبار المضايفة"[5]، وهو أيضًا: "المساواة في المكافأة إن خيرًا فخير، وإن شرًّا فشرّ، والإحسان أن يقابل الخير بأكثر منه، والشرّ بأقلّ منه"[6].

وذكر ابن عاشور في معنى العَدْل: أنَّه "العِوَض والفداء، سمِّي بالمصدر؛ لأن الفادي يعدل الـمَفديَّ بمثله في القيمة أو العين ويسوِّيه به، يقال: عدل كذا بكذا، أي سوَّاه به"[7].

8) ﴿تَنفَعُهَا﴾: فعل مضارع للمستقبل، جذره اللغوي (نفع)، والنفع في أصله: لفظ دالٌّ على خلاف الضُّرِّ[8]، وهو "ما يُسْتَعَانُ به في الوُصُولِ إلى الخَيْرَاتِ؛ وما يُتَوَصَّلُ به إلى الخَيْرِ فهو خَيْرٌ، فَالنَّفْعُ خَيْرٌ، وضِدُّهُ الضُّرُّ"[9].

والنَّفع "فائدة تُنَال من الشيء أو جدوى تعود منه"[10]، ومعنى نفي النفع: أنَّه لا "شفاعة شفيع يجدونه، فتقبل شفاعته؛ لأن دفع الفداء متعذر، وتوسط الشفيع لمثلهم ممنوع؛ إذ لا يشفع الشفيع إلّا لمن أذن اللّه له"[11].

(1) ابن فارس، مقاييس اللغة: (عدل).
(2) جبل، المعجم الاشتقاقي المؤصل: (عدل).
(3) جبل، المعجم الاشتقاقي المؤصل: (عدل).
(4) ابن فارس، مقاييس اللغة: (عدل).
(5) الراغب، المفردات: (عدل).
(6) الراغب، المفردات: (عدل).
(7) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 1/486.
(8) ابن فارس، مقاييس اللغة: (نفع).
(9) الراغب، المفردات: (نفع).
(10) جبل، المعجم الاشتقاقي المؤصل: (نفع).
(11) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 1/698.

9) ﴿شَفَٰعَةٌ﴾: مصدر للفعل شفع يشفع، جذره اللغوي (شفع)، وله "أصلٌ صحيحٌ يدلُّ على مقارنة الشيئين، من ذلك الشفع خلاف الوتر، تقول: كان فردًا، فشفعته ... وشفع فلان لفلان؛ إذا جاء ثانيه ملتمسًا مطلبه ومعينًا له"[1].

و"المعنى المحوري: ازدواجٌ بِرِقّة، أي: انضمام مثل الشيء إليه مع رقة، كولد الناقة والشاة مع أمِّه"[2].

ومن معانيه: "ضمُّ الشيء إلى مثله، ويقال لِلْمَشْفُوعِ: شَفْعٌ ... والشَّفَاعَةُ: الانضمام إلى آخر ناصرًا له وسائلاً عنه، وأكثر ما يستعمل في انضمام من هو أعلى حُرمةً ومرتبةً إلى من هو أدنى"[3].

ومعنى الشَّفاعة في الآية: "السَّعي والوساطة في حصول نفع أو دفع ضُرٍّ، سواء كانت الوساطة بطلبٍ من المنتفع بها أم كانت بمجرَّد سعي المتوسط"[4].

10) ﴿يُنصَرُونَ﴾: فعل مضارع للمستقبل على صيغة المبني للمجهول، مسند لواو الجماعة، الماضي منه نصر، جذره اللغوي (نصر).

و"النَّصر والنُّصرة: الإعانة والمنعة، يقال: نصرته، أي: أعنته على عدوِّه ومنعته منه"[5].

و﴿يُنصَرُونَ﴾ في الآية بمعنى: الـمُعانون، ومعنى نفي النُّصرة: هو نفي العذاب عنهم[6].

المَعْنَى الإِجْمَالِيُّ:

تحذير من الحقِّ تبارك وتعالى لبني إسرائيل بأن يَخافوا أهوالَ "عذاب يوم، لا تقضي فيه نَفْسٌ عن نَفْسٍ شيئًا من الحقوق التي لزمتها، فلا تؤخذ نفس بذنب أخرى، ولا تدفع عنها شيئًا"[7] ولا تستطيع فكاكًا إلَّا بالأعمال الصالحة، ولا تجد شافعاً يشفع لها، ولا تُلفي ناصرًا ولا معينًا؛ وإن كثرت جموعهم[8].

(1) الراغب، المفردات: (شفع).
(2) جبل، المعجم الاشتقاقي المؤصل: (شفع).
(3) الراغب، المفردات: (شفع).
(4) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 1/486.
(5) السمين، عمدة الحفاظ: (نصر).
(6) البغوي، معالم التنزيل: 5/320.
(7) المراغي، تفسير المراغي: 1/208.
(8) البقاعي، نظم الدرر: 2/146.

۞ الإيضَاحُ اللُّغَوِيُّ وَالبَلَاغِيُّ:

سرُّ عطفِ هذهِ الآيةِ على ما قبلَها:

تـحـذيـرٌ بـعـد تذكير

الآية مصدّرة بحرف العطف، فهي متّصلة بما قبلها من تذكيرهم بنعمته، "فإنّكم إذا ذكرتم النِّعمة، شكرتموها؛ فقيَّدتموها، واستوجبتم من الله الزيادة في الدنيا، والرِّضا في العقبى"[1]، وهنا "عطف التحذير على التذكير، فإنّه لمّا ذكّرهم بالنِّعمة، ولاسيّما تفضيلهم على العالمين في زمانهم، وكان ذلك منشأ غرورهم، بأنّه تفضيل ذاتي فتوهَّموا أنّ التقصير في العمل الصالح لا يضرّهم فعقّب بالتحذير من ذلك"[2]، وقد ذُكرت هذه الآيةُ مرَّةً ثانية للإشارة إلى تعدُّد وقوع المعصية من بني إسرائيل، فكلّ آيةٍ منهما صادفت مَعْصِيَة تَقْتَضِي تَنْبِيهًا ووعظًا؛ لِأَنّ كلّ وَاحِدَة وَقعت فِي غير وَقت الْأُخْرَى"[3]، فالمعصية في الموضع الأول في قوله تعالى: ﴿أَتَأۡمُرُونَ ٱلنَّاسَ بِٱلۡبِرِّ وَتَنسَوۡنَ أَنفُسَكُمۡ﴾ [البقرة: 44]، والمعصية هنا في قوله تعالى: ﴿وَلَن تَرۡضَىٰ عَنكَ ٱلۡيَهُودُ وَلَا ٱلنَّصَٰرَىٰ حَتَّىٰ تَتَّبِعَ مِلَّتَهُمۡۗ﴾ [البقرة: 120].

إعرابُ ﴿يَوۡمًا﴾ على المفعوليّةِ لا الظَّرفيَّة:

أخْذُ الحذرِ قبلَ فواتِ الأوانِ

إعراب (يوم) في قوله تعالى: ﴿وَٱتَّقُواْ يَوۡمًا﴾ مفعول به، وهو ليس ظرفَ زمان؛ لأنّ شرط الظَّرفية أن يُضمَّن معنى (في)، فإذا أردنا تضمينه معنى الظَّرفيَّة اختلَّ المعنى؛ لأنَّه يصحُّ: (واتقوا الأهوال أو العذاب في ذلك اليوم)؛ "لِأَنَّ الْأَمْرَ بِالتَّقْوَى لَا يَقَعُ فِي يَوْمِ الْقِيَامَةِ، وَالتَّقْدِيرُ: وَاتَّقُوا عَذَابَ يَوْمٍ أَوْ نَحْوَ ذَلِكَ"[4]، فالتقوى تكون لأهوال ذلك اليوم، وليس لليوم نفسه، فتكون التقوى محصورة في ذلك اليوم، وهو هنا يوم القيامة، أمّا ما كان من عمل في الدنيا؛ فلا قيمة

(1) البقاعي، نظم الدرر: 2/146.

(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 1/484.

(3) الكرماني، أسرار التكرار، ص: 78.

(4) العكبري، التبيان: 1/60.

له، وهو بعيد، بل التقوى محلُّها الدنيا، فثبت أنّ المراد "اتِّقاء لما يحصل في ذلك اليوم من العقاب والشدائد؛ لأنّ نفس اليوم لا يتَّقى"[1].

تنكيرُ ﴿يَوۡمًا﴾ وأثرُه في النَّفسِ:

التنكير يُفيد الإبهامَ، وهو في حدِّ ذاته يُوجد في القلب رهبة، ويُشعر النفس بالتَّهويل، فتذهب في تصوير هول ذلك اليوم مذاهب شتَّى، فعذابه لا يحُدّه وصف، وهوله لا يكفيه لفظ.

حذْفُ متعلّق الفعلِ ﴿تَجۡزِى﴾:

جاءت جملة ﴿لَّا تَجۡزِى﴾ صفةً لـ ﴿يَوۡمًا﴾، والضمير العائد منها إلى الموصوف محذوف، تقديره: لا تجزي فيه، فحُذِفَ للعلم به، وفيه إشارةٌ إلى أنّ حذفه من اللَّفظ يُوحي بحذفه وطرحه من أفئدة المُخاطَبين، فكأنّ إسقاطه من اللفظ إسقاطٌ له من الفؤاد والعقل.

سرُّ التعبيرِ بالنفسِ:

اشتمالُ النَّفسِ على معنى الرُّوحِ والبدنِ معًا

آثر التعبير بالنفس؛ لأنّها لفظٌ مُشترك يطلق على الروح والذات معاً، وهو مجرَّد عن المادة والصورة، وتطلق على النفس الناطقة العاقلة، وهي إمّا أن تكون مطمئنَّة، تدعو إلى الخير والمعروف، وإمّا لوَّامة، تُعاتب على فوات إدراك الخير، وإمّا أمَّارةً بالسوء، تدعو إلى الشرور والوقوع في المحظور.

وأمّا الرَّوح؛ فهي جوهرٌ مجرَّدٌ أصله من عالم الأمر، وهي سبب الحياة، وقد تُطلق على النفس أيضاً، كأن تقول: فلان هذا روحُه طيِّبة، أي: نَفْسُه، فبينهما عموم وخصوص وجهيّ.

ومن هنا يُعلَم سرُّ اختيار إيثار القرآن للفظ (نفس) في كل موطنٍ للحساب، فالنفس يقع عليها البعث والجزاء؛ لأنّها صاحبة الكسب في الطاعة والمعصية، والهُدى والضلال، وعليها تقع الصفات الحميدة أو الذميمة، بخلاف الروح فهي مُبَرَّأةٌ من ذلك كلّه.

(1) الرازي، مفاتيح الغيب: 3/57.

بـيـان الـنَّـفـس الجازيةِ والنَّفس المجزيّ عنها

توجيهُ المُتشابِه اللَّفظيِّ:

تقدَّمَ قولُه تعالى: ﴿وَلَا يُقْبَلُ مِنْهَا شَفَٰعَةٌ وَلَا يُؤْخَذُ مِنْهَا عَدْلٌ﴾ [البقرة: 48]، فقُدِّم نفيُ قبولِ الشَّفاعةِ وأُخِّرَ أخذُ العَدل، وفي هذه الآية قال جلَّ شأنه: ﴿وَلَا يُقْبَلُ مِنْهَا عَدْلٌ وَلَا تَنفَعُهَا شَفَٰعَةٌ﴾، قُدِّم نفيُ قبولِ العَدلِ على نفعِ الشّفاعةِ.

وتوجيه ذلك أنَّ الآيتين تتحدَّثانِ عن نفسين مختلفتين: نفسٍ جازيةٍ، ونفسٍ مجزيّ عنها، أمَّا الآيةُ الأولى فتتحدَّث عن النَّفس الجازية، التي لا تُقبلُ شفاعتُها، ولا تؤخذُ منها الفدية، أمَّا الآية الثَّانية فتتحدَّث عن النَّفسِ المجزيّ عنها، التي لا تُقبل منها الفديةُ، ولا تنفعُها شفاعةُ الآخرين.

تفصيلُ ذلك أنّ الله تبارك وتعالى ذكرَ في الآية الأولى أنَّ النّفسَ الجازية التي ترغبُ في الشّفاعة، تُقدِّمُ الشّفاعة أوّلا أملا منها أن تُقبَلَ شفاعتُها، وحين تُرفَضُ شفاعتُها تقترح الفدية، كأنّها تقدّمُ الملاينة والجاه أوّلا وحين لا تنفع تلجأ إلى دفع الفداء.

بينما الآية الثّانية، فإنّها تتحدّثُ عن النّفس المذنبة الآثمة، والمذنبُ الآثِمُ يكون حريصا على النّجاة بأيّ ثمن كان، فيُقدّمُ الفداء أوّلا، وحين لا يُقبَلُ منه العدل، يتوسّلُ بالشّفاعة أملا في قبولها، وجاء كلُّ كلامٍ مناسبا للمقام الذي قيل فيه.

إشارةُ القرآنِ إلى صنفين؛ محبٍّ للمالِ، ومحبٍّ لعلوِّ النفسِ

وفي هذا التَّقديمِ إشارةٌ إلى صنفين من النّاس: الأول يميل "إلى حبّ المال أشدّ من ميله إلى علوِّ النفس؛ فإنّه يقدّم التمسُّك بالشافعين على إعطاء الفدية"[1]، ويمثِّله الوارد في الآية الأولى، والثاني مَن "كان بالعكس يقدّم الفدية على الشفاعة"[2]، ويمثِّله الوارد في الآية الثانية.

(1) الرازي، مفاتيح الغيب: 3/58.
(2) الرازي، مفاتيح الغيب: 3/58.

الشفاعةُ بين قبولها من الشَّافعِ ونفعِها للمشفوعِ

في قوله تعالى: ﴿وَلَا يُقۡبَلُ مِنۡهَا شَفَٰعَةٌ وَلَا يُؤۡخَذُ مِنۡهَا عَدۡلٌ﴾ [البقرة: 48] اقترنت الشفاعة بفعل القبول، أمّا في قوله تعالى: ﴿وَلَا يُقۡبَلُ مِنۡهَا عَدۡلٌ وَلَا تَنفَعُهَا شَفَٰعَةٌ﴾؛ فقد اقترنت الشفاعة بفعل النفع، وسرّ ذلك أنّ الشفاعة في الآية الأولى هي للشّافع، فيما هي للمشفوع له في الآية الثّانية، فاختلف الاقتران؛ "لِأَنَّ الشَّفَاعَةَ إِنَّمَا تُقْبَلُ مِنَ الشَّافِعِ، وَإِنَّمَا تَنْفَعُ الْمَشْفُوعَ لَهُ"[1].

بلاغةُ الاحتراسِ في نفي نفعِ الشَّفاعةِ:

في قوله تعالى: ﴿وَلَا يُقۡبَلُ مِنۡهَا عَدۡلٌ وَلَا تَنفَعُهَا شَفَٰعَةٌ﴾ عطفُ نفي نفع الشَّفاعة ﴿وَلَا تَنفَعُهَا شَفَٰعَةٌ﴾ على نفي قبول الفداء ﴿وَلَا يُقۡبَلُ مِنۡهَا عَدۡلٌ﴾ للاحتراس؛ "لأنّه أسند إليه المقبوليَّة، ونفي قبول الفداء لا يقتضي نفي نفع الشفاعة"[2].

بلاغةُ ترتيبِ المنفيَّاتِ الأربعةِ:

خطابُ القرآنِ للنَّفسِ البشريَّةِ بما هو مستقرٌّ في الدُّنيا لا بما هو مشاهدٌ في القيامةِ

في قوله تعالى: ﴿لَّا تَجۡزِي نَفۡسٌ عَن نَّفۡسٖ شَيۡـٔٗا وَلَا يُقۡبَلُ مِنۡهَا عَدۡلٌ وَلَا تَنفَعُهَا شَفَٰعَةٞ وَلَا هُمۡ يُنصَرُونَ﴾ رتّب الحقّ تبارك وتعالى هذه المنفيَّات الأربع الممتنعة الوقوع في الآخرة ترتيبًا بديعًا غاية في البلاغة والفصاحة: "لأنّ المأخوذ بحقّ، إمّا أن يؤدّى عنه الحقّ؛ فيخلص، أو لا يقضى عنه؛ فيُشفع فيه، أو لا يُشفع فيه؛ فيُفدى، أو لا يُفدى؛ فيتعاون بالإخوان على تخليصه"[3]، وهي مراتب يأتي بعضها غِبّ بعض، ومرتَّبة على حسب ما يكون من أمر المرء في الدنيا؛ فإنَّ عادةَ القرآنِ أن يُخاطِب النَّفس البشريَّة بما هو مستقرٌّ في وجدانها؛ لأنَّه واقعٌ مشاهد، لا بما سيكون عليه الأمر في الآخرةِ، فهو غيبٌ محض، "وحصرت هذه الآية المعاني التي اعتادها بنو آدم

---

(1) السيوطي، الإتقان: 3/392.

(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 1/698.

(3) أبو حيان، البحر المحيط: 1/310.

في الدّنيا، فإنّ الواقع في شدّة مع آدميٍّ لا يتخلَّص إلّا بأن يُشفع له، أو يُنصر، أو يُفتدى"[1].

بلاغةُ الفاصلةِ:

تـيـئـيـسٌ مع تـحـقـيـرٍ لـمَـن توهَّمهم الكفرةُ شفعاءَ لهم

في قوله تعالى: ﴿وَلَا هُمۡ يُنصَرُونَ﴾ جملة ذيّل بها المنفيَّات السابقة، وجاء بها بأسلوب فيه مزيد تيئيس من حصول شيء من الخلوص من العذاب؛ فكرّر (لا) توكيدًا، و"قدّم المسند إليه لزيادة التأكيد المفيد أنّ انتفاء نصرهم محقّق"[2]، ثمّ التعبير بالفعل المبني للمفعول زيادة في تغييب النَّاصر والمعين، فهذه جملة تعبيرات لمزيد تيئيسهم من أن يجدوا نصرًا في ذلك اليوم؛ جزاءً وفاقًا على مرتكباتهم، "وهذا التيئيس يستتبع تحقير من توهمهم الكفرة شفعاء وإبطال ما زعموه مغنيًا عنهم من غضب الله"[3].

(1) ابن عطية، المحرر الوجيز: 1/139.
(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 1/486.
(3) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 1/486.

﴿وَإِذِ ٱبْتَلَىٰٓ إِبْرَٰهِـۧمَ رَبُّهُۥ بِكَلِمَٰتٍ فَأَتَمَّهُنَّ ۖ قَالَ إِنِّى جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا ۖ قَالَ وَمِن ذُرِّيَّتِى ۖ قَالَ لَا يَنَالُ عَهْدِى ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٢٤﴾﴾

[البقرة: 124]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِمَا قَبْلَها:

وَجْهُ اتِّصالِ هذه الآية بما قَبْلَهَا أَنَّ الآيات السّابقة تضمّنت الِاحْتِجَاجَ عَلَى أَهْلِ الْكِتَابِ بِسَلَفِهِم الصَّالِحِ، وَهَذِه الآية تضمّنت الِاحْتِجَاجَ عَلَى مُشْرِكِي قُرَيْشٍ وَأَمْثَالِهِمْ بِسَلَفِهِم الصَّالِحِ، فَإِنَّهُمْ يَنْتَسِبُونَ إِلَى إِسْمَاعِيلَ وَإِبْرَاهِيمَ عليهما السلام، وَيَفْتَخِرُونَ بِأَنَّهُمَا بَنَيَا لَهُمُ الْكَعْبَةَ مَعْبَدَهُمُ الْأَكْبَرَ، وَكَانُوا فِي عَهْدِ التَّنْزِيلِ قَدِ اخْتَلَطُوا بِالْأُمَمِ الْمُجَاوِرَةِ الَّتِي تَعْرِفُ لَهُمْ هَذَا النَّسَبَ[1] وأنّهم وإن كانوا من نَسْل إبراهيم إلّا أنّ ذلك لا يشفع لهم ما داموا ظالمين، كما تدعوهم هذه الآية إلى الاقتداء بأبيهم إبراهيم عليه السلام الذي ابتلاه اللّه تعالى بكلمات فأتمّها ونجح في الامتحان، وهم مَدْعُوّون أن يُفيقوا من سُباتهم ويهتدوا بهدي أبيهم.

شَرْحُ المُفْرَدَاتِ:

1) ﴿ٱبْتَلَىٰٓ﴾: فعل ماضٍ، وزنه افتعل، المجرَّد منه الفعلُ (بلى يَبْلي) مِنَ الابتلاء، وجذره اللغوي من (بلي)، وأصل معناه: من "بلي الإنسان وابتلي، وهذا من الامتحان، وهو الاختبار"[2].

ويُقالُ: "أبلاهُ السّفرُ، وبَلَوْتُه اختبرتُه، كأنّي أخلقتُهُ من كثرة اختباري له ... وسُمّي الغمُّ بلاءً، من حيثُ إنّهُ يبلي الجسّم"[3]، وهُو الاختبارُ والامتحانُ والتّمحيصُ، و"البلاء يكون حسنًا، ويكون سيِّئًا، وأصله المحنة، واللّه تعالى يبتلي عبده بالصُّنع الجميل؛ ليمتحن شكره، ويبلوه بالبلوى التي يكرهها؛ ليمتحن صبره"[4].

---

(1) محمد رشيد رضا، تفسير المنار: 1/372.
(2) ابن فارس، مقاييس اللغة: (بلوي).
(3) الراغب، المفردات، مادة (بلو).
(4) السمين، عمدة الحفاظ: (بلو).

و"ابتلاه اللّه: اختبره، كأنما اختبر صبره وتحمُّلَه ... ويقال أيضًا: بَلَوْته: امتحنته، ومن هذا البلاء: الاختبار والمحنة والغمّ"[1]، "والابتلاء افتعال من البلاء، وصيغة الافتعال هنا للمبالغة؛ والبلاء: الاختبار"[2].

2) ﴿إِبْرَٰهِـۧمَ﴾: اسم عَلَم أعجميٍّ لخليل الرحمن عليه السلام، و"هو الجدُّ الحادي والثلاثون لنبينا رسول اللّه ﷺ"[3]، "وَهُوَ إِبْرَاهِيمُ بْنُ تَارِخَ بْنِ نَاخُورَ، وَكَانَ مَوْلِدُهُ بِالسُّوسِ مِنْ أَرْضِ الْأَهْوَازِ، وَقِيلَ: بَابِلَ ... وَقِيلَ: حَرَّانَ، وَكَانَ أَبُوهُ نَقَلَهُ إِلَى أَرْضِ بَابِلَ أَرْضِ نُمْرُودَ"[4].

وهو ممنوع من الصَّرْف، وفيه عدَّة لغات، منها: إبراهيم وإبراهام، ومعناه في لغة الكلدانيِّين: (أب رحيم) أو (أب راحم)، وقيل: إنَّ معناه: أبو أمم كثيرة[5].

3) ﴿بِكَلِمَٰتٍ﴾: اسم مجموع، جمع مؤنَّث، مفرده: (كلمة)، وجذره اللغوي (كلم)، وأصل الكاف واللام والميم: "يدلُّ على نطق مفهم ... تقول: كلّمته أكلّمه تكليمًا، وهو كليمي إذا كلَّمكَ، أو كلَّمتَه، ثمّ يتّسعون، فيسمّون اللّفظة الواحدة المفهمة كلمة، والقصة كلمة، والقصيدة بطولها كلمة"[6].

والكلام "يقع على الألفاظ المنظومة، وعلى المعاني التي تحتها مجموعة، وعند النحويين يقع على الجزء منه؛ اسمًا كان، أو فعلاً، أو أداة، وعند كثير من المتكلّمين لا يقع إلّا على الجملة المركّبة المفيدة"[7].

والمعنى المراد في الآية: أنَّ "الكلمات: جمع كلمة، ويرجع تحقيقها إلى كلام الباري تعالى، لكنَّه عبر عنها عن الوظائف التي كلَّفها إبراهيم عليه السلام"[8].

4) ﴿فَأَتَمَّهُنَّ﴾: فعلٌ ماضٍ من (أتمّ يتمّ)، جذره اللغوي (تمم) وأصل معناه: هو "دليل

(1) جبل، المعجم الاشتقاقي المؤصل: (بلو بلى).
(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 1/701.
(3) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 1/599.
(4) البغوي، معالم التنزيل: 1/144.
(5) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 1/701.
(6) ابن فارس، مقاييس اللغة: (كلم).
(7) الراغب، المفردات: (كلم).
(8) القرطبي، الجامع لأحكام القرآن: 2/350.

الكمال، يقال: تمَّ الشيء، إذا كمل، وأتممته أنا"[1].

و"تَمَام الشيء: انتهاؤه إلى حدٍّ لا يحتاج إلى شيء خارج عنه، والناقص: ما يحتاج إلى شيء خارج عنه"[2].

ومعنى أتمَّهن في الآية: "فأدَّاهن، عَمِل بهنَّ فأتمَّهن، فتَمَام الكلمات في هذه الآيات، يعني: كمالَها بتصديقها، أي: تحقيق معناها حيث استوفت مضمونها كاملًا بنفاذها، والعامَّة تَعُدُّ ما لم ينفَّذ من الكلام فارغًا"[3].

5) ﴿قَالَ﴾: فعل ماضٍ، أصل حروفه (قول)، حصل فيه إعلال؛ إذ قلبت الواو ألفًا، والأصل في معنى حروفه: "القولُ منَ النّطقِ، يقالُ: قالَ يقولُ قولًا، والمقولُ اللِّسانُ، ورجلٌ قُوَلَةٌ وقوَّالٌ: كثيرُ القولِ"[4]، ويطلق القول على الكلام أيضًا[5]، ومِن أظهَرِ استعمالات القول "أن يكون للمركّب من الحروف المبرَزِ بالنّطق، مفردًا كان أو جملة"[6]، وهناك استعمالات أخرى للقول كالتصوّر النّفسي والاعتقاد والدلالة على شيء، والعناية الصادقة بالشيء، وكذلك الحدُّ والإلهام[7].

ومعنى القول في الآية معروف إلَّا أنَّ تَكراره يأتي "على طريقة المقاولة؛ لأنّ هذا القول مجاوبة لما دلّ عليه قوله: ابتلى"[8].

6) ﴿جَاعِلُكَ﴾: اسم فاعل للفعل جعل، وجذره اللغوي (جعل): وهو يأتي على عدة أنحاء، منه اللازم، ومنه المتعدِّي لواحد واثنين، وجعل في الآية من أفعال التحويل والتصيير يتعدَّى لاثنين، ولجعل كلمات "غير منقاسة، لا يشبه بعضها بعضًا.

و"وجعلت الشيء صنعته، قال الخليل: إلَّا أنَّ جعل أعمّ، تقول: جعل يقول، ولا تقول: صنع يقول"[9].

---

(1) ابن فارس، مقاييس اللغة: (تمّ).
(2) الراغب، المفردات: (تمّ).
(3) جبل، المعجم الاشتقاقي المؤصل: (تمم).
(4) ابن فارس، مقاييس اللغة: (قول).
(5) الأزهري، تهذيب اللغة: (قول).
(6) الراغب، المفردات: (قول).
(7) الراغب، المفردات: (قول).
(8) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 1/703.
(9) ابن فارس، مقاييس اللغة: (جعل).

وهو "لفظٌ عامّ في الأفعال كلّها، وهو أعمّ من فعل وصنع وسائر أخواتها، ويتصرّف على خمسة أوجه ... والرابع: في تصيير الشيء على حالة دون حالة"[1] وهو المراد في الآية، وهو التصيير بالقول، "ومعنى (جعل) وما تَصَرَّفَ منها في القرآن يكون للتحويل والتهيئة على وضع، أو للخلق؛ وهو تحويل للهيئة بإنشاء هيئة جديدة"[2].

ومعنى جاعلك في الآية: "إنّي مصيّرك تؤمُّ من بعدك من أهل الإيمان بي وبرسلي، تتقدَّمهم أنت، ويتّبعون هديك، ويستنّون بسنّتك"[3].

7) ﴿لِلنَّاسِ﴾: اسم ثلاثي مجرَّد، جذره اللغويُّ (نَوَسَ)، وله "أصل يدلّ على اضطراب وتذبذب، وناسَ الشيء: تذبذب"[4]، وذُكر له أصلان آخران هما: " أناس، واشتقاقه من الإنس للإيناس ... الثالث أنّ أصله نسي من النسيان"[5].

"ولفظُ النّاس قد يُذكّر، ويُراد به الفُضلاء، دون مَن يتناولُه اسمُ النّاس تجوُّزًا، وذلك إذا عدَّ معنى الإنسانيّة، وهو وُجودُ العقل والذّكْر، وسائِرِ الأَخْلاقِ الحميدة"[6].

والمعنى في الآية: "فالمراد من الناس حينئذ: أمَّته الذين اتَّبعوه"[7].

8) ﴿إِمَامًا﴾: اسم على وزن فِعَال، جذره اللغويُّ (أمم)، والأصل في معناه: "فأصلٌ واحدٌ، يتفرع منه أربعة أبواب، وهي: الأصل، والمرجع، والجماعة، والدِّين، وهذه الأربعة متقاربة ... والإمام: كلُّ من اقتدي به، وقُدِّم في الأمور، والنبي ﷺ إمام الأئمة"[8].

"ويقال لكلِّ ما كان أصلاً لوجود شيء أو تربيته أو إصلاحه أو مبدئه: أمّ، قال الخليل: كلّ شيء ضمّ إليه سائر ما يليه يسمّى: أمًّا"[9] ومنه يشتق لفظ الإمام، ومعناه

(1) الراغب، المفردات: (جعل).
(2) جبل، المعجم الاشتقاقي المؤصل: (جعل).
(3) ابن جرير، جامع البيان: 2/18.
(4) ابن فارس، مقاييس اللغة: (نوس).
(5) السمين، عمدة الحفاظ: (نوس).
(6) الراغب، المفردات: (نوس).
(7) الآلوسي، روح المعاني: 1/374.
(8) ابن فارس، مقاييس اللغة: (أمّ).
(9) الراغب، المفردات: (أمَّ).

"المؤتمّ به؛ إنسانًا كان؛ يقتدى بقوله أو فعله، أو كتابًا، أو غير ذلك؛ محقًّا كان أو مبطلاً، وجمعه: أئمَّة"[1].

"والإمام: المتَّبع في أقواله وأفعاله وأحواله، ومنه قوله: ﴿إِنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا﴾، ولذلك ادّعاه كلّ أحدٍ، ولم يصدُق في ذلك إلَّا المسلمون"[2].

ومعنى الإمام في الآية: "يأتمّون بك في هذه الخصال، ويقتدي بك الصالحون"[3].

9) ﴿ذُرِّيَّتِي﴾: اسم مؤنث، جذره اللغوي (ذرر)، ولـ"الذّال والرّاء المشدّدة أصل واحد، يدلّ على لطافةٍ وانتشار، ومن ذلك الذّرّ: صغار النمل، الواحدة ذرة"[4]، ومن جعلها من هذا الباب أعني "من الذّرّ؛ لأنّ اللّه استخرج الذرية من ظهر آدم كالذرّ حين أشهدهم على أنفسهم"[5].

"والذُّرِّيَّة أصلها: الصّغار من الأولاد، وإن كان قد يقع على الصّغار والكبار معًا في التّعارف، ويستعمل للواحد والجمع، وأصله الجمع"[6].

وفي المعجم الاشتقاقيّ: "الذُّرِّيَّة، فقد جَرَيتُ على أنَّها من (ذرأ)، وإن كانت تتأتى من هذا التركيب، ويقال: "ذرّ اللّه الخلق في الأرض: نَشَرهم انتشار مسترسل مع دقة، وذرّيَّة الرجل: وَلَدُه"[7].

ومعناها في الآية: "نسل الرجل وما توالد منه ومن أبنائه وبناته، وهي مشتقّة: إمَّا من الذرِّ اسمًا، وهو صغار النمل، وإمَّا من الذرّ مصدرًا بمعنى التفريق، وإمَّا من الذّري والذّرو (بالياء والواو)، وهو مصدر ذرت الريح؛ إذا: سفت، وإمّا من الذرء بالهمز وهو الخلق"[8].

10) ﴿يَنَالُ﴾: فعل مضارع، الماضي منه نال، وجذره اللغوي (نيل) و(نول)، وله أصل

(1) الراغب، المفردات: (أمَّ).
(2) السمين، عمدة الحفاظ: (أمم).
(3) أبو حيان، البحر المحيط: 1/601.
(4) ابن فارس، مقاييس اللغة: (ذرّ).
(5) السمين، عمدة الحفاظ: (ذرا).
(6) الراغب، المفردات: (ذرو).
(7) جبل، المعجم الاشتقاقي المؤصل: (ذرو- ذرى).
(8) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 1/705.

"يدلُّ على إعطاء، ونوَّلته: أعطيته، والنَّوال: العطاء، ونلته نولًا مثل أنلته، وقولك: ما نولك أن تفعل كذا، فمنه أيضًا، أي: ليس ينبغي أن يكون ما تعطيناه من نوالك هذا"[1].

"وحقيقة النَّوال: ما يناله الإنسان من الصِّلة، وتحقيقه ليس ذلك مما تنال منه مرادًا"[2].

ومعنى لا ينال: "أي: لا يصيب عهدي من كان ظالمًا"[3] ولا يشمله.

11) ﴿عَهۡدِي﴾: اسم ثلاثي، والجذر اللغوي له (عهد)، وأصل معناه: "الاحتفاظ بالشيء وإحداث العهد به، والذي ذكره من الاحتفاظ هو المعنى الذي يرجع إليه فروع الباب"[4].

وهو "حفظ الشيء ومراعاته حالاً بعد حال، وسُمِّي الموثق الذي يلزم مراعاته عَهْداً"[5]، و"المراد بالعهد التولية والتمكين من عَهِدَ فلانٌ إلى فلانٍ الخلافة، والمعنى: لا أولي ولاية شرعية من كان ظالمًا"[6].

والعهد في الآية بمعنى: الإمامة[7]، قال في المنار: "وَلَكِنَّ عَهْدِي بِالْإِمَامَةِ لَا يَنَالُ الظَّالِمِينَ؛ لِأَنَّهُمْ لَيْسُوا بِأَهْلٍ؛ لِأَنْ يُقْتَدَى بِهِمْ"[8].

12) ﴿ٱلظَّٰلِمِينَ﴾: جمع مذكّر سالم لاسم الفاعل، جذره اللغويُّ (ظلم)، ومعناه "وضْعُ الشَّيءِ غيرَ موضعهِ تعدّيًا"[9] فهو خلاف الحقِّ، فمن تعدَّى من الحقِّ إلى الباطل؛ فقد وضع الشيءَ في غير موضعه؛ وبذلك يسمَّى ظالماً.

"وَالظُّلْمُ عند أهل اللُّغة وكثير من العلماء: وضع الشيء في غير موضعه المختصِّ به،

(1) ابن فارس، مقاييس اللغة: (نول).
(2) الراغب، المفردات: (نيل).
(3) السمين، عمدة الحفاظ: (عهد).
(4) ابن فارس، مقاييس اللغة: (عهد).
(5) الراغب، المفردات: (عهد).
(6) السمين، عمدة الحفاظ: (عهد).
(7) جبل، المعجم الاشتقاقي المؤصل: (عهد).
(8) محمد رشيد رضا، تفسير المنار: 1/375.
(9) ابن فارس، مقاييس اللغة: (ظلم).

إمَّا بنقصان أو بزيادة، وإمَّا بعدول عن وقته أو مكانه، ومن هذا يقال: ظَلَمْتُ السِّقَاءَ؛ إذا تناولته في غير وقته"[1].

وفي معناه المحوري: "حجبُ ما ينبغي، أو ما يُسْتَحقُّ، أي: منعه أو انتقاصه، كمَنْع الضوء في حالة الظُّلمة، وكمنع المطر عن الأرض المظلومة"[2].

"والمرادُ بالظالمين ابتداءً المشركون، أي: الذين ظَلَموا أنفسهم؛ إذ أشركوا بالله، والظُّلمُ يشمل أيضًا عَمَلَ المعاصي والكبائر"[3].

المَعْنَى الإِجْمَالِيُّ:

واذكر أيها النبيُّ ﷺ حين اختبر الله إبراهيم عليه السلام بما شرعَ له من تكاليفَ من الأوامر والنواهي، فجاء بها على أحسن صورة وأكمل أداء، قال الله له: إني جاعلك قدوة للناس، فسأل إبراهيمُ الخيرَ لذريَّته بقوله: ربِّ اجعل بعضَ نَسْلي أئمَّةً فضلًا منك، فأجابه الله سبحانه - بطريق الإيجاز والإشارة - بأنَّه لا تحصل للظالمين الإمامةُ في الدِّين؛ فمن كان موصوفاً بالظُّلم فليس مستحقًّا لهذا التكليف، لأنَّ الظُّلم مانع من الإمامة.

في الآية تنفير من الظُّلم؛ كي يتحاماه الناس، ولا يقعوا فيه

وذكر الله هنا الأساسَ الذي بُنِيَ عليه الإسلام والنَّسب الذي يمتُّ به، ويحترمه أهل الكتاب ومشركو العرب، وهو ملَّةُ إبراهيم ونسبُه، فلا فضل إذًا لليهود على العرب بأنهم يمتُّون بالنسب إلى إبراهيم ودين إبراهيم، إذ النَّسب واحد والملَّة واحدة[4].

الإِيضَاحُ اللُّغَوِيُّ وَالبَلَاغِيُّ:

عطفُ الآيةِ على الآية مع تباعدِهما يورث ترابطًا بين آي القرآنِ

بلاغةُ عطفِ الجمل المتباعِدة:

ذهب ابن عاشور إلى أنَّ قوله تعالى: ﴿وَإِذِ ٱبۡتَلَىٰٓ إِبۡرَٰهِـۧمَ رَبُّهُۥ﴾ معطوفٌ على ﴿وَإِذۡ قَالَ رَبُّكَ لِلۡمَلَـٰٓئِكَةِ إِنِّي جَاعِلٞ فِي ٱلۡأَرۡضِ خَلِيفَةٗۖ﴾ [البقرة: 30] للاشتراك بينهما في بعض الأمور[5]:

---

(1) الراغب، المفردات: (ظلم).
(2) جبل، المعجم الاشتقاقي المؤصل: (ظلم).
(3) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 1/706.
(4) المراغي، تفسير المراغي: 1/208، ونخبة من العلماء، التفسير الميسر: ص19.
(5) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 1/700.

- فآدم أبو البشر، وإبراهيم أبو الأنبياء.
- اتّفاق الأسلوب القرآني في بدء قصّة كلّ منهما، ففي قصة آدم: ﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ﴾ [البقرة: 30] ومع إبراهيم: ﴿۞وَإِذِ ٱبْتَلَىٰٓ إِبْرَٰهِـۧمَ رَبُّهُۥ﴾، فالمُفتتح فيهما متقارب.
- استخدام فعل الجعل في كلّ منهما، فقال في حقّ آدم: ﴿إِنِّى جَاعِلٌ فِى ٱلْأَرْضِ خَلِيفَةً﴾ [البقرة: 30]، وقال في حقّ إبراهيم: ﴿إِنِّى جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا﴾.
- التعبير بالكلمات في كلّ منهما، فمع آدم قال ربّنا: ﴿فَتَلَقَّىٰٓ ءَادَمُ مِن رَّبِّهِۦ كَلِمَٰتٍ﴾ [البقرة: 37]، ومع إبراهيم: ﴿۞وَإِذِ ٱبْتَلَىٰٓ إِبْرَٰهِـۧمَ رَبُّهُۥ بِكَلِمَٰتٍ﴾.
- الاشتراك في الأُبوَّة والبُنُوَّة، فآدم أبو البشريَّة، وإبراهيم ابن آدم؛ فجعل الخلافة مع أبي البشريَّة، والإمامة مع ابنه، والخلافة أعمّ، والإمامة أخصّ.
- اشتراكهما في تمهيد القرآن قبل الحديث عن كلّ منهما، فقبل الحديث عن آدم تكلَّم على خلق الكون وما فيه من أقوات في السماء والأرض في قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱعْبُدُوا۟ رَبَّكُمُ ٱلَّذِى خَلَقَكُمْ وَٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ۝٢١ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ فِرَٰشًا وَٱلسَّمَآءَ بِنَآءً وَأَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَخْرَجَ بِهِۦ مِنَ ٱلثَّمَرَٰتِ رِزْقًا لَّكُمْ﴾ [البقرة: 21-22]، وقبل الحديث عن إبراهيم تحدّث عن نسخ تحويل القبلة في قوله تعالى: ﴿۞مَا نَنسَخْ مِنْ ءَايَةٍ أَوْ نُنسِهَا نَأْتِ بِخَيْرٍ مِّنْهَآ أَوْ مِثْلِهَآ﴾ [البقرة: 106] الآية.

التمهيدُ للحجِّ بذكرِ إبراهيم:

هذه الآية ﴿۞وَإِذِ ٱبْتَلَىٰٓ إِبْرَٰهِـۧمَ﴾ جاءت بمنزلة التَّمهيد والتَّقديم للحجّ، وموضعُه ومكانه البيتُ الحرام، بما له من معالم وشعائر؛ لذا بدأ القرآن حديثه عن الشخص الذي رفع قواعد البيت، وطهَّره، وطبَّق مناسكه.

سرُّ التعبيرِ بفعلِ (الابتلاء):

قوله تعالى: ﴿وَإِذِ ٱبْتَلَىٰٓ إِبْرَٰهِـۧمَ رَبُّهُۥ﴾ خطاب للرسول ﷺ ولأمته على تقدير: "أيَ: واذكُر لهم وقت ابتلاء إبراهيم عليه السلام؛ ليتذكروا بما وقع فيه من الأمور الدَّاعيةِ إلى التوحيد"[1]، فإنّ "إِذْ فِي مَوْضِعِ نَصْبٍ عَلَى الْمَفْعُولِ بِهِ، أَيِ: اذْكُرْ"[2]، والتّعبير بالابتلاء، وهو بمعنى:

(1) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 1/249-250.
(2) العكبري، التبيان: 1/111.

غايةُ الابتلاءِ رفعُ الدَّرجاتِ

الاختبار الواقع على إبراهيم [1]عليه السلام، فيه إشارة إلى أنّه امتحان في الخير والشرِّ، "يُقال: أبلاه، وبلاه في الخير والشرّ ... وقيل: الأكثر في الخير: أبليته، وفي الشرّ: بلوته"[2]، وقد كان هذا الابتلاء في "تسليم بدنه للنِّيران، وولده للقربان، وطعامه للضِّيفان[3]، فهذه ابتلاءات في الخير والشرّ؛ لعظم منزلة خليل الرحمن.

معنى الابتلاءِ في حقِّه تعالى

قوله تعالى: ﴿وَإِذِ ٱبْتَلَىٰٓ إِبْرَٰهِـۧمَ رَبُّهُۥ﴾ عبّر الحقّ سبحانه وتعالى بفعل الابتلاء، وهو "افتعال من البلاء، وصيغة الافتعال هنا: للمبالغة، والبلاء: الاختبار"[4]، وهو تكليفٌ من باب التَّوسُّع والمجاز؛ لأنّ الابتلاءَ "يكون تكليفُه متضمَّنًا انتظار فعله أو تركه؛ فيلزمه الاختبار، فهو مجاز على مجاز"[5]، وليس على الحقيقة؛ لأنّ الابتلاء، لا يجوز في حقّه تعالى؛ "لأنّه تعالى عالم بجميع المعلومات التي لا نهاية لها على سبيل التفصيل من الأزل إلى الأبد"[6].

وجه تخصيصِ ذكرِ إبراهيمَ بمقامِ الابتلاءِ:

اجتماعُ النَّاسِ على إبراهيم، تمهيدٌ لإجماعِهم على محمَّدٍ صلَّى الله عليهما وسلم

خَصّ التعبير القرآني إبراهيم بالذِّكر؛ لأنّ اللّه ﷻ لـمَّا فصَّل في الآيات السابقة نعمه على بني إسرائيل والمشركين، وبيَّن أنّهم قابلوها بالكفران والعناد، شرع هنا في ذكر قصة إبراهيم عليه السلام؛ لأنّهم معترفون بفضله، وأنّهم من أولاده، ومن سُكَّان حرمه ومن خُدَّام بيته.

وفي قصته أمور توجب الاعتراف بنبوَّة سيدنا محمّد ﷺ، والانقياد لشرعه، منها:

(1) الأخفش، معاني القرآن: 1/154.

(2) الدرة، تفسير القرآن الكريم وإعرابه وبيانه: 1/306.

(3) الأنجري، البحر المديد: 1/162.

(4) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 1/701.

(5) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 1/701.

(6) الرازي، مفاتيح الغيب: 4/37.

- أنّه أُمر ببعض التكاليف، فوفَّى بها، فنال منصب الاقتداء به؛ فعُلم من هذا أنّ الخير لا يحصل إلّا بالانقياد لحكم اللّه والتزام تكاليفه، وترك التمرُّد والعناد.
- أنّه طلب الإمامة لذرِّيَّته، فقيل له: ﴿لَا يَنَالُ عَهۡدِي ٱلظَّٰلِمِينَ﴾، فعُلم من ذلك أنّ الظلم مانعٌ لحصول الإمامة.
- أنّ القِبلة لـمَّا حُوِّلت إلى الكعبة شقّ ذلك على اليهود، فأُريد إزالة غيظهم بأن هذا البيت قبلة إبراهيم الذي اعترفتم بتعظيمه والاقتداء به.
- أنّه دعا بإرسال نبيٍّ من ذرِّيتَّه، وهو محمَّد ﷺ؛ كما في قوله: ﴿رَبَّنَا وَٱبۡعَثۡ فِيهِمۡ رَسُولٗا مِّنۡهُمۡ﴾ [البقرة: 129]، فيجب على من يعترف بإبراهيم أن يعترف بنبوَّة محمَّد ﷺ.

سرُّ إيثارِ عنوان الرُّبوبيَّةِ على الألوهيَّة:

التَّربيةُ الرَّبانيَّةُ مقدِّمةُ السَّعادةِ السَّرمديَّة

ذُكر عنوان الرُّبوبيَّة في قوله تعالى: ﴿وَإِذِ ٱبۡتَلَىٰٓ إِبۡرَٰهِـۧمَ رَبُّهُۥ﴾ دون الألوهيَّة، لأنَّ لفظ الربّ أنسبُ بالمقام؛ لأنّه "النـاظر في مصالحه ومربيه ومدبر أحواله؛ ليكون ذلك أَطمع له، فلذلك أتى بصفة الربّ"[(1)]، ولأنَّ معناه "المربِّي الذي يأخذ من يربِّيه بأساليب تؤهِّله إلى الكمال المطلوب منه"[(2)]، وليُعلم النَّاس قدرته على الإمامةِ فيخضعون له، ويُقرُّون بها.

تقديمُ المفعولِ على الفاعلِ للاهتمامِ:

المفعولُ في قولِه تعالَى: ﴿وَإِذِ ٱبۡتَلَىٰٓ إِبۡرَٰهِـۧمَ رَبُّهُۥ﴾، "مقدَّمٌ على الفاعلِ، ووجب تقديمُه هاهنا؛ لأنّ تأخيرَه يوجبُ إضمارًا قبل الذِّكر"[(3)]، فلفظ ﴿إِبۡرَٰهِـۧمَ﴾ عَلَيْهِ السَّلَامُ مفعولٌ، وقد قُدِّم على الفاعل، وتقديمه - وإن كان لسبب متعلِّق بالصَّنعة النحويَّة - فيه معنى الاهتمام، "إذ كون الربّ مبتليًا معلوم، فإنّما يهتم السامع بمن ابْتُلِيَ"[(4)]، فإنّ تعريفَ السَّامع بالمُبتلى فيه تنبيهٌ على أهميَّة الحدثِ الذي سيُذكر، والعرب تقدّم ما هم ببيانه أعنَى.

(1) أبو حيان، البحر المحيط: 1/564.
(2) الشعراوي، تفسير الشعراوي: 1/570.
(3) الباقولي، إعراب القرآن: 2/676.
(4) ابن عطية، المحرر الوجيز: 1/205.

تشريفُ إبراهيمَ وتكريمُه بإضافتِه إلى ربِّه

دلالةُ إضافةِ الهاءِ إلى الربِّ:

في قوله تعالى: ﴿وَإِذِ ٱبۡتَلَىٰٓ إِبۡرَٰهِـۧمَ رَبُّهُۥ﴾ هنا أضاف الضمير الهاء العائد على إبراهيم إلى لفظة (الربّ)؛ قصدًا إلى "تشريف إبراهيم بإضافة اسم ربّ إلى اسمه"[1]، ولو قال: (وإذ ابتلى الله إبراهيم)؛ لفات مقصودان: الأول: تشريف إبراهيم، والثاني: تقديمه، فإنّه قدّم إبراهيم كي لا يعود الضمير على متأخّر لفظًا ورتبةً فضلاً عن الاهتمام به؛ كونه المبتلى كما تبيَّن في الفقرة السابقة.

توجيهُ قراءةِ ابنِ عامرٍ ﴿إِبۡرَٰهَـٰمَ﴾:

إبراهيم: اسم علم غير منصرف؛ للعجمة والعلمية، فهو "اسم علم أعجميّ، قيل: ومعناه بالسريانية قبل النقل إلى العلميَّة: أب رحيم"[2]، وقرأ الجمهور ﴿إِبۡرَٰهِـۧمَ﴾ في قوله تعالى: ﴿وَإِذِ ٱبۡتَلَىٰٓ إِبۡرَٰهِـۧمَ رَبُّهُۥ﴾، فيما قرأ ابن عامر وحده: ﴿إِبۡرَٰهَـٰمَ﴾[3]، وفسّر على أنّه (أب راحم)، والفرق بينهما في العربيَّة، كالفرق بين اسم الفاعل (راحم) ومبالغته (رحيم)، "قال السهيليّ: وكثيرًا ما يقع الاتّفاق بين السُّرياني والعربي"[4]؛ فتكون قراءة ابن عامر دالّة على هذا المعنى، وهذا من مُلَحِ العلم لا من أُسِّه وأساسه.

الألفاظُ لا تُرادُ لذاتِها، بل لأثرِها وتأثيرِها

تطرُّقُ احتمالِ دلالةِ ﴿بِكَلِمَٰتٖ﴾ أن تكون على ظاهرِها أو مآلِها:

في قوله تعالى: ﴿وَإِذِ ٱبۡتَلَىٰٓ إِبۡرَٰهِـۧمَ رَبُّهُۥ بِكَلِمَٰتٖ فَأَتَمَّهُنَّۖ﴾ بيّن الحقّ تبارك وتعالى طريقة الابتلاء، وهي الكلمات؛ "إذ الكلمة لفظ يدلّ على معنى، والمراد بها هنا الجمل، كما في قوله تعالى: ﴿كَلَّآۚ إِنَّهَا كَلِمَةٌ هُوَ قَآئِلُهَاۖ﴾ [المؤمنون: 100]"[5]، فهي تحتمل هذا المعنى على ظاهرها،

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 1/702.
(2) أبو حيان، البحر المحيط: 1/596.
(3) ابن زنجلة، حجة القراءات، ص: 113.
(4) الشوكاني، فتح القدير: 1/160.
(5) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 1/703.

ويجوز أن تكون الكلمات "ليست هي ألفاظها وكلماتها وحروفها، إنّما المراد بالكلمات المدلولات والمطلوبات التي تتضمَّنها من أوامر ونواهٍ، ووقائع"[1]، وآية ذلك أنّه تعالى قال: ﴿فَأَتَمَّهُنَّ﴾ أي: "فأدَّاهن كملاً، وقام بهنّ حقّ القيام"[2].

والأمران محتملان، وإذا كانت الكلمات هي الحروف والعبارات والجمل مما اعتيد عليها؛ فإنّ الرأي الثاني على اعتبارها أفعالاً، فهو واقع أيضًا فيما يسمَّى اليوم بنظريَّة الأفعال الكلامية التي يرى أصحابها أنّ الكلام يطلق لإنجاز الأفعال، وقد عبّروا في بعض مصطلحاتها بـ (كيف تفعل الأشياء بالكلمات)[3]، والراجح هو الاحتمال الثاني، ويؤيِّد ذلك ما ذكره الفخر الرازيّ في تفسير الكلمات، أي: "بكلمات كلّفه اللّه بهنَّ، وهي أوامره ونواهيه، فكأنّه تعالى قال: وإذ ابتلى إبراهيم ربّه بكلمات مما شاء كلّفه بالأمر بها، والوجه الثاني: بكلمات تكون من إبراهيم يكلّم بها قومه، أي: يبلِّغهم إيَّاها"[4].

سرُّ التعبيرِ بجمعِ القلّةِ في ﴿بِكَلِمَٰتٍ﴾:

الإشارةُ إلى يُسرِ التَّكاليف لطفٌ ربانيٌّ، ومِهادٌ تشريعيٌّ

شرْعُ اللّه قائم على التيسير في تكليف عباده، فلم يشقّ عليهم، وجعل التكليف في طاقتهم، يؤكد ذلك أنّه في ابتلائه إبراهيم عليه السلام، اختار التعبير بكلمات، وهي جمع قلّة، دون أن يقول: بكلام، مع أنّ الكلمة تُجمع على كلمات وكلام، فالكلام كثرة، فلو عبَّر بها مع إبراهيم لكان الأمر صعباً وشاقًّا على نفسه؛ لكن اختيار الكلمات يوحي بلطف اللّه بعباده في التكاليف، ومما يؤكّد ذلك أنّ آدم عليه السلام، لـمَّا أكل من الشجرة هو وزوجه، ووقعا في المعصية؛ تاب اللّه عليهما بكلمات، وهي تشير إلى اليسر في التنفيذ؛ قال تعالى: ﴿فَتَلَقَّىٰٓ ءَادَمُ مِن رَّبِّهِۦ كَلِمَٰتٍ فَتَابَ عَلَيۡهِۚ﴾ [البقرة: 37].

سرّ دخولِ حرفِ (الفاء) على ﴿فَأَتَمَّهُنَّ﴾:

سرعةُ الامتثالِ من أسبابِ الإمامةِ

دلَّتِ الفاءُ في قوله تعالى: ﴿فَأَتَمَّهُنَّ﴾ "على الفور في الامتثال،

---

(1) أبو زهرة، زهرة التفاسير: 1/393.
(2) البيضاوي، أنوار التنزيل: 1/104.
(3) اوستين، نظرية أفعال الكلام، ص: 115.
(4) الرازي، مفاتيح الغيب: 4/41.

وذلك من شدّة العزم"[1]، وهو كقولنا: دعوت فلانًا، فجاء، أي: على الفور، وهذا ما يجب أن يكون عليه المرء في عبادته، وفي السنّة أدلّة وافرة على أن يبادر المسلم إلى ما أمره اللّه تعالى مسرعًا، ولا يبطئ ما أمكنه ذلك، ومن أهمِّ هذه الأمور التعبديَّة الصلاة، كما ورد في الحديث: سَأَلْتُ رَسُولَ اللّهِ ﷺ: أَيُّ الْعَمَلِ أَحَبُّ إِلَى اللّهِ؟ قَالَ: «الصَّلَاةُ عَلَى وَقْتِهَا»[2].

سرّ التعبيرِ بالتمامِ دونَ الكمالِ:

تمامُ مدْحِ إبراهيم في استمرارِه في إتمامِ الكلمات دون فتورٍ أو انقطاع

الفرقُ بين التَّمامِ والكمالِ في الاستعمالِ القرآنيِّ هو في كونِ التَّمامِ يبقى متَّصلًا دون انقطاع، بخلاف الكمال؛ فقد يتطرَّقُ إليه الانقطاع، كما قال تعالى: ﴿ثُمَّ أَتِمُّواْ ٱلصِّيَامَ﴾ [البقرة: 187]؛ فالصِّيام إلى اللَّيل لا يصحُّ بانقطاعٍ، بخلافِ قولِه تعالى: ﴿وَلِتُكۡمِلُواْ ٱلۡعِدَّةَ﴾ [البقرة: 185]؛ فإنَّ إكمال عدَّةِ الصِّيام تكون بصوم يوم والانقطاع ثم المعاودة إلى حدِّ الاكتمال، وقوله تعالى: ﴿ٱلۡيَوۡمَ أَكۡمَلۡتُ لَكُمۡ دِينَكُمۡ وَأَتۡمَمۡتُ عَلَيۡكُمۡ نِعۡمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلۡإِسۡلَٰمَ دِينٗاۚ﴾ [المائدة: 3]، يُفيدُ أنَّ إكمالَ شرائع الدِّين جاءت على فتراتٍ متقطِّعة، أمَّا النِّعمة فهي متَّصلة دون انقطاع، وفي الآيةِ عبَّر القرآنُ بالإتمام، وسرُّ ذلك بيانُ أنَّ إبراهيمَ عليه السلام لم ينقطع ولم يفتر عن أداء الكلماتِ، بل استمرَّ نشِطًا متواصلًا، وهنا مكمن المَدْحِ، ومربطُ الحمد.

توكيدُ الجملةِ يقوِّي مضمونَها:

التَّكليفُ بأمرٍ مستقبليٍّ عظيمٍ يحسُنُ معه التَّوكيد

معنى قوله تعالى: ﴿قَالَ إِنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامٗاۖ﴾ أي: "إنّي مصيِّرك للناس إمامًا، يؤتمُّ به، ويقتدى به"[3] ولتقوية هذا المضمون صدّر الجملة بعد فعل القول بإنّ، وأضاف الخبر للضمير مما

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 1/703.
(2) متفق عليه، البخاري، حديث رقم: (527)، ومسلم، حديث رقم: (264).
(3) ابن جرير، جامع البيان: 2/18.

يقوِّي تعريفه؛ فإنّ اللفظ إذا أضيف للضمير نزّل منزلة العلم في التعريف، ثمّ قدّم المتعلّق ﴿لِلنَّاسِ﴾ على المفعول الثاني ﴿إِمَامًاۖ﴾ لإفادة التخصيص، وفيه مزيد توكيد؛ فقوَّى التوكيدُ مضمونَ الجملة فضلاً عن كونها جملة مستأنفة مستقلة، وحسُن التَّوكيدُ لأنَّه تعلَّق بأمرٍ مستقبليٍّ عظيم وهو إمامة النَّاسِ.

فلمّا كان هذا صنيعه فيما أمره الله؛ جوزي بعظيم الجزاء، وصيّره الله إمامًا يأتمُّ به الناس؛ "بسبب أنّه كان عاملاً بتلك الشريعة كان هذا تنبيهًا على أنّ من عمل بهذا الشرع؛ لا بدّ وأن يفوز بأعظم المناصب في الدين، وذلك يفيد الترغيب العظيم في هذا الدين"[1]، وفي ذلك عبرة بأنّ العمل بشريعته سبحانه وأداءَها على وجهها الأكمل، فيه بشارة للفوز في الدنيا، والترقّي فيها.

فائدةُ الفَصْل بين الجملِ:

إمامـةُ الـنَّـاس فضلٌ إلهيٌّ جاءَ عَـقِـبَ ابـتـلاءٍ ربَّانيٍّ

تركَ التعبيرُ القرآنيُّ عطفَ قوله تعالى: ﴿قَالَ إِنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًاۖ﴾ على ما قبله، فلم يربطها بالفاء عطفًا بأن يقول (فقال)، وسرّ ذلك "لِلْإِشْعَارِ بِأَنَّ هَذِهِ الْإِمَامَةَ بِمَحْضِ فَضْلِ اللّٰهِ تَعَالَى وَاصْطِفَائِهِ، لَا بِسَبَبِ إِتْمَامِ الْكَلِمَاتِ؛ فَإِنَّ الْإِمَامَةَ هُنَا عِبَارَةٌ عَنِ الرِّسَالَةِ، وَهِيَ لَا تُنَالُ بِكَسْبِ الْكَاسِبِ"[2]، وهذا الفضلُ الإلهيُّ جاءَ بعد الابتلاءِ، فهو يُشعرُ بنوعِ أجرٍ وإثابةٍ، وكلُّ ذلك لا يكون إلَّا بالتَّوفيقِ والإفضالِ.

سِرُّ العدولِ عن الإخبارِ بالفعل الدَّالِّ على المستقبلِ إلى الاسمِ:

الإعـلامُ بتحقُّقِ الـجـعـلِ وكـادةً ثابتةً، من الثَّناءِ العطِرِ

الخطابُ في قوله تعالى: ﴿إِنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًاۖ﴾ يتناول حالةً مستقبليَّة لم تحصل بعد، وقد استخدم النَّظم الصِّيغة الاسميَّة التي تدلّ على أمر ثابت متقرّر، وكان الأولى في قياسات التعبير البلاغي

(1) الرازي، مفاتيح الغيب: 11/230.

(2) محمد رشيد رضا، تفسير المنار: 1/374.

للقرآن الكريم أن يستخدم الصيغة الفعلية المضارعيَّة المقترنة بالسين للقريب من الاستقبال، أو (سوف) للبعيد منه، ومع ذلك عدل عنه إلى الصيغة الاسميَّة (جاعل)، وسرّ ذلك هو الدّلالة على أنّ الجعل إنّما هو بمنزلة الأمر المحقّق الحاصل الذي لا يشوبه شكٌّ أو ريب، "واسم الفاعل بمعنى: المضارع، وأوكد منه لدلالته على أنّه جاعل له البتَّةَ مِنْ غيرِ صارفٍ يلويه، ولا عاطفٍ يَثنيهِ"[1].

فائدةُ تقديمِ الجارّ والمجرورِ:

جميعُ من بُعث بعد إبراهيم عليه السلام هو من ذريّته

قدّم الجارّ والمجرور في قوله تعالى: ﴿إِنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا﴾ على المفعول الثاني ﴿إِمَامًا﴾، وفائدته: القصر؛ لأنّه لـمّا كانت سجايا إبراهيم عليه السلام، وما كلّفه اللّه تعالى على الغاية من الكمال؛ فقد وصفه تعالى بقوله: ﴿فَأَتَمَّهُنَّ﴾، فصار مستحقًّا للإمامة على الناس جميعِ النَّاس، وهو كذلك، فقد جعل "إمامته للناس كافّة على التأبيد، فإنّه لم يُبعث بعده نبيّ إلّا من ذرِّيَّته"[2]؛ فلذلك أجمع أهل الأديان والملل جميعًا أنّ نبيَّها إبراهيم[3].

نكتةُ اختيارِ لفظِ ﴿إِمَامًا﴾ دونَ (رسول):

إمامةُ إبراهيمَ عليه السلام أعمُّ من رسالةِ غَيْرِه

جاء التَّعبير القرآني بلفظ ﴿إِمَامًا﴾ دون (رسول) للدلالة على أنّ رسالته تنفع الأمة المُرسل إليها بطريق التبليغ، وتنفع غيرهم بطريق الاقتداء، وهذا واضح في تعدُّد رحلاته عليه السلام في أمصار كثيرة، حيث ذهب إلى العراق والشام والحجاز ومصر، وهو في كلّ رحلاته محلّ تبجيل وتكريم، ولا شك أنّ ذلك يبعث على الاقتداء، وإمامتُه أعمُّ من الرِّسالةِ، فليس كلُّ رسولٍ إمامًا للنَّاس.

لطفُ العدولِ عن الطلبِ المباشرِ إلى الاستفهامِ:

قوله تعالى: ﴿وَمِن ذُرِّيَّتِي﴾ جملة خبريَّة من فعل القول في معنى

---

(1) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 1/252.

(2) الراغب، تفسير الراغب: 1/310.

(3) ابن عطية، المحرر الوجيز: 1/206.

الأدبُ في الطلبِ، والـحـرصُ على الذُّريَّةِ من شِيَمِ العِظامِ

الطلب على تقدير: واجعل من ذرِّيَّتي، وهذا العدول من صيغة الأمر إلى الخبر مراعاةٌ للأدب مع اللّه تعالى؛ وفيه تلميحٌ لطيفٌ وحرصٌ رفيعٌ في أن يكون في ذُريَّته النُّبوّة؛ فسأل "على جهة الاستفهام عنهم، أي: ومن ذرِّيَّتي يا ربّ ماذا يكون؟"[1] وهو استفهام مشوب بالدّعاء والرّغبة في أن يحقِّق اللّه له ما يريد من جعل الإمامة في ذرِّيَّته عليه السلام، وقد حقَّق اللّه تعالى رغبته ودعاءه في المؤمنين من ذرّيّته، وأُجيبَ ملتمَسُه، وجعل منهم الأئمة من لدن إسماعيل، وكذلك موسى وعيسى وغيرهما حتّى نبينا محمّد صلى الله عليه وسلم أفضل الأنبياء والأئمة عليهم السلام جميعًا[2].

سرّ استعمالِ حرفِ الجرّ (مِن) في ﴿قَالَ وَمِن ذُرِّيَّتِي﴾:

فقه الدُّعاءِ قائمٌ عـلى الإيـمـانِ الـسّـلـيـمِ، والعدلِ القويمِ

قوله تعالى: ﴿قَالَ وَمِن ذُرِّيَّتِي﴾ مقول القول شبه جملة من حرف الجرّ من والمجرور ذرِّيَّتي، ومجيء حرف الجرّ (من) للتبعيض كثيرٌ[3]، وهو الوارد في هذه الآية، ولوروده هنا غرض بيانيٌّ، فلم يقل: (وذريتي)؛ لأنّ في عدم وجوده في كلام إبراهيم طلبًا للمستحيل، لكنّه أراد "واجعل من ذرِّيَّتي أئمَّة يقتدى بهم في الخير"[4]؛ فجاء بمن الدالَّة على البعضيَّة.

لأنّ "حكمة اللّه من هذا العالم لم تَجْرِ بأن يكون جميعُ نسلِ أحدٍ ممن يصلحون لأن يقتدى بهم"[5]، فقوله المفترض: (وذرِّيَّتي) سؤال على نيَّة الحصر، وهو ليس من آداب الدعاء، وإنّما سأل الإمامة لذرِّيَّته لمن كان صالحًا لها بدلالة التبعيض لقوله تعالى: ﴿فَمِنكُمْ كَافِرٌ وَمِنكُم مُّؤْمِنٌ﴾ [التغابن: 2].

(1) ابن عطية، المحرر الوجيز: 1/206.
(2) الرازي، مفاتيح الغيب: 4/45.
(3) المرادي، الجنى الداني: ص: 309.
(4) الشنقيطي، أضواء البيان: 4/741.
(5) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 1/705.

نكتةُ إيثار لفظِ الظُّلم على غيرِه من الألفاظِ والعدولِ في أسلوب الجوابِ:

الظّلمُ مانعٌ من موانعِ الإمامةِ

قوله تعالى: ﴿قَالَ لَا يَنَالُ عَهۡدِي ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ جواب للسؤال المفترَض من إبراهيم ﷺ بجعل الأئمة من ذرّيّته؛ فهذا القول "جواب لما يتوهَّم في مسألته إيّاه أن يجعل من ذرّيّته أئمَّةً مثله، فأخبر أنّه فاعل ذلك، إلَّا بمن كان من أهل الظلم منهم، فإنّه غير مُصَيِّره كذلك"[1] فظاهر الجملة النفي إلَّا أنّ المعنى هو الاختيار، اختيار من هو أهل للإمامة والاقتداء من ذرِّيَّته ﷺ؛ لأنّ "في ذريته من هو ظالم، فلا ينال الظالم عهده"[2].

وفي العبارة من البلاغة والإيجاز ما يناسب المقام، فإنّه لم يجبه إجابة مباشرة كما يقتضي السؤال، وإنّما أجاب "بِذِكْرِ الْمَانِعِ مِنْ مَنْصِبِ الْإِمَامَةِ مُطْلَقًا، وَهُوَ الظُّلْمُ؛ لِتَنْفِيرِ ذُرِّيَّةِ إِبْرَاهِيمَ مِنَ الظُّلْمِ وَتَبْغِيضِهِ إِلَيْهِمْ؛ لِيَتَحَامَوْهُ، وَيُنَشِّئُوا أَوْلَادَهُمْ عَلَى كَرَاهَتِهِ"[3]، فإن فعلوا ذلك كانوا جديرين بالإمامة التي وعدها اللّه إياهم، وجاء بطريقة إثبات أحد الضدّين؛ "لأنّ حكم أحد الضدين يثبت نقيضه للآخر على طريقة الإيجاز"[4].

اختيارُ لفظةِ ﴿عَهۡدِي﴾ في نفي الإمامةِ:

التعريضُ باليهودِ النّاكثين للعهودِ

قوله تعالى: ﴿قَالَ لَا يَنَالُ عَهۡدِي ٱلظَّٰلِمِينَ ١٢٤﴾ عهدي هنا فاعل، والمعنى: "أي: لا يصيب عهدي الظالمين، أي: لا يشملهم ... وسمّي وعد اللّه عهدًا؛ لأنّ اللّه لا يخلف وعده"[5] وفي التعبير بلفظة العهد اختيارٌ دقيق؛ ففيه تعريض باليهود، وهم المقصودون له؛ لأنّهم "الذين باعوا قيمهم الإيمانية بالمادة، وهو استقراء

(1) ابن جرير، جامع البيان: 2/20.
(2) الماتريدي، تأويلات أهل السنة: 1/555.
(3) محمد رشيد رضا، تفسير المنار: 1/375.
(4) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 1/706.
(5) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 1/706.

للغيب أنّه سيأتي من ذرية إبراهيم من سيفسق ويظلم"[1]، فضلاً عن أنّ الكلام لتوبيخِ المشركين الظالمين، فعدل القرآن عن ذكر الصِّنف الذي تتحقق فيه دعوة إبراهيم عليه السلام وهي الإمامة؛ لأنّ القصد ذكر الصنف الآخر تعريضاً؛ لأنّ الذين يزعمون يومئذٍ أنّهم أولى الناس بإبراهيم، وهم أهل الكتاب ومشركو العرب، هم الذين يُحرمون من دعوته.

۞ الفُرُوقُ المُعْجَمِيَّةُ:

الابتلاء والاختبار:

ذهب بعضهم إلى أنَّ الابتلاء بمعنى: الاختبار، مع أنّ النَّاظر في اللفظين يجدُ بينهما فرقاً دقيقاً، وإن اشتركا في المعنى العام؛ فلكلّ لفظٍ منهما ما يُميزه، فالابتلاء: التكليف في الأمر الشاقّ، ويكون في الخير والشرّ معاً، أمّا الاختبار؛ فمعناه: أيّ محكٍّ أو عمليةٍ يمكن استخدامها بهدف تحقيق حقائق مُعيَّنة، أو تحديد معايير الصواب، أو الدّقّة أو الصحّة سواء كان ذلك في قضية معروضة للدراسة أو المناقشة أو لغرضٍ مُعلَّق لم يتمّ التثبُّت منه، وعلى هذا؛ فالابتلاء يقتضي استخراج ما عند المبتلى من الطاعة والمعصية، والاختبار: وقوع المُخبَر بحاله في ذلك، وهو أصل من أصول الابتلاء[2].

وعلى ذلك فالاختبار جزء من الابتلاء، ومن هنا آثر القرآن الكريم لفظ الابتلاء مع إبراهيم لتعدد أنواع الابتلاءات؛ فابتلاؤه في أبيه يسمَّى اختباراً، وفي ذبح ولده اختباراً، إلى غير ذلك من أنواع الاختبارات التي يُطلق على مجموعها الابتلاء.

الذّريّة والأبناء:

الأبناء جمع ابن، وهو كلّ ما وُلد ذكراً، ويطلق على كلّ ما ترتَّب على غيره بالسببيَّة أو التبعيَّة أو الملازمة أو المُشابهة، والابن في الاختصاص، ومداومة الصحبة، ولهذا يقال: (ابن الفلاة) لمن يداوم سلوكها، وقولنا: هو ابن فلان، يقتضي أنّه منسوبٌ إليه، ولهذا يقال: الناس بنو آدم؛ لأنّهم منسوبون إليه، وكذلك بنو إسرائيل.

أمَّا الذُّرِّيَّة فهي نسل الرجل، وما توالد منه ومن أبنائه وبناته، وهي مشتقّة إمَّا من

(1) الشعراوي، تفسير الشعراوي: 1/573.

(2) الزهراني، التفسير الموضوعي: 1/139.

الذَّرِّ، وهو صغار النمل، أو من الذَّرِّ مصدراً بمعنى: التفريق، وإمّا من الذري أو الذرو، وهو مصدر ذرتُ الريح؛ إذا اقتربت من وجه الأرض، أو من الذرء، وهو الخلق(1).

ومن خلال النظر في هذه الاشتقاقات تجد أنّ لفظ الذرِّيَّة أعمّ من لفظ الأبناء، حيث يطلق لفظ الذرِّيَّة على الأولاد والذكور والإناث؛ بخلاف الأبناء، فمنظور فيهم إلى الاختصاص بالنسب، ومداومة الصحبة، والإطلاق على الذَّكر فقط.

لذلك كان اختيار التعبير بقوله: ﴿وَمِن ذُرِّيَّتِي﴾؛ لإفادة العموم في كلِّ من ينتسب إليه من طريق الذكور أو الإناث، قريبة كانت أو بعيدة، وأيضاً لتشير إلى نبوَّته ﷺ، فهو من ذرِّيَّته.

(1) العسكري، الفروق اللغوية، ص: 282-281.

﴿وَإِذۡ جَعَلۡنَا ٱلۡبَيۡتَ مَثَابَةٗ لِّلنَّاسِ وَأَمۡنٗا وَٱتَّخِذُواْ مِن مَّقَامِ إِبۡرَٰهِـۧمَ مُصَلّٗىۖ وَعَهِدۡنَآ إِلَىٰٓ إِبۡرَٰهِـۧمَ وَإِسۡمَٰعِيلَ أَن طَهِّرَا بَيۡتِيَ لِلطَّآئِفِينَ وَٱلۡعَٰكِفِينَ وَٱلرُّكَّعِ ٱلسُّجُودِ ١٢٥﴾ [البقرة: 125]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِمَا قَبْلَها:

وجهُ مناسبة هذه الآية لما قبلها أنّه لـمّا كان من إمامة إبراهيم اتّباع الناس له في حجّ البيت الذي شرّفه اللّه ببنائه؛ قال إثر ذلك ناعيًا على أهل الكتاب مُخالفتَه وتَرْكَ دينه، وموطِّئاً لأمر القبلة[1]، فأنزل هذه الآية: ﴿وَإِذۡ جَعَلۡنَا ٱلۡبَيۡتَ﴾، وهذه الآية معطوفة على ما سبق بيانه من ابتلاء اللّه إبراهيم، ثمّ "بَيَّنَ كَيْفِيَّةَ حَالِ إِبْرَاهِيمَ عليه السلام حِينَ كَلَّفَهُ بِالْإِمَامَةِ، وَهَذَا شَرْحُ التَّكْلِيفِ الثَّاني، وَهُوَ التَّكْلِيفُ بِتَطْهِيرِ الْبَيْتِ"[2] بأنْ أَمَرَهُ الحقّ سبحانه بأن يطهّر البيت بعد أن هيَّأه اللّه؛ ليكون مرجعًا للنّاس وأمنًا.

شَرْحُ المُفْرَدَاتِ:

1) ﴿جَعَلۡنَا﴾: فعل ماضٍ، وجذره اللغويُّ (جعل)، وسبق شرحه في الآية السابقة، ومعنى جعلنا في الآية: أي: صيّرنا البيت "بِأَنْ خَلَقْنَا بِمَا لَنَا مِنَ الْقُدْرَةِ فِي قُلُوبِ النَّاسِ مِنَ الْمَيْلِ إِلَى حَجِّهِ وَالرِّحْلَةِ إِلَيْهِ الْمَرَّةَ بَعْدَ الْمَرَّةِ مِنْ كُلِّ فَجٍّ وَصَوْبٍ"[3].

2) ﴿ٱلۡبَيۡتَ﴾: اسم ثلاثي مجرَّد، جذره اللغويُّ من (بيت)، وقيل: إنّه مصدر من الفعل بات يبيت، والأصل في معنى البيت: "الْمَأْوَى وَالْمَآبُ وَمَجْمَعُ الشَّمْلِ، يُقَالُ: بَيْتٌ وَبُيُوتٌ وَأَبْيَاتٌ"[4]، و"بَيْتُ الرجل: دارُه، وقَصْرُه، والبَيْت من الشَّعَر: ما كان أكبر من الخِبَاء أي: ما زاد على شُقَّة واحدة، ثمّ هو مِظَلّة إذا كَبِر عن البيت، وهي تسمَّى بيتًا أيضًا إذا كان ضَخْمًا مُرَوّقًا"[5].

(1) البقاعي، نظم الدرر: 2/152.
(2) الرازي، مفاتيح الغيب: 4/50.
(3) محمد رشيد رضا، تفسير المنار: 1/378.
(4) ابن فارس، مقاييس اللغة: (بيت).
(5) جبل، المعجم الاشتقاقي المؤصل: (بيت).

و"أصل البيت مأوى الإنسان بالليل؛ لأنّه يقال: بَاتَ: أقام بالليل، كما يقال: ظلَّ بالنهار، ثمَّ قد يقال للمسكن: بيت من غير اعتبار الليل فيه"[1].

وهو هنا معرَّف بأل، والمراد هو بيت اللّه العتيق، وهو مكة وهو المقصود في الآية الكريمة.

3) ﴿مَثَابَةً﴾: اسم مكان أو مصدر، جذره اللغوي (ثوب)، والهاء فيه للمبالغة أو للتأنيث، وأصل معناه: "العود والرجوع، يقال: ثاب يثوب؛ إذا رجع، والمثابة: المكان يثوب إليه الناس"[2] وهي المكان الذي يستقي من البئر؛ لأنّه يعود إليه كلّ مرَّة ليستقي منه[3].

والأصل في الثّوب "رجوع الشيء إلى حالته الأولى التي كان عليها، أو إلى الحالة المقدّرة المقصودة بالفكرة ... فمن الرجوع إلى الحالة الأولى قولهم: ثَابَ فلان إلى داره، وثَابَتْ إِلَيَّ نفسي"[4].

وهو أيضًا "رجوع الشيء المتفرّق الذّاهب، وتجمُّعه في نفس مكانه ثانية - كمثاب البئر يتجمَّع فيه الماء بعد ذهابه"[5].

وجعلوا المثوبة "مكانًا يثوبون إليه كلّ وقت على ممرِّ الأيام وتكرُّر الأعوام، لا يملّون منه، وقيل: مكانًا يكسبون فيه الثواب، ولا شكَّ أنّه موجودٌ فيه الأمران"[6].

والمثابة في الآية: أن تكون "مَرْجِعًا لَهُمْ، قَالَ مُجَاهِدٌ وَسَعِيدُ بْنُ جُبَيْرٍ: يَأْتُونَ إِلَيْهِ مِنْ كُلِّ جَانِبٍ وَيَحُجُّونَ، وَقَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ رضي الله عنهما: مَعَاذًا وَمَلْجَأً، وَقَالَ قَتَادَةُ وَعِكْرِمَةُ: مَجْمَعًا"[7].

4) ﴿لِلنَّاسِ﴾: اسم ثلاثي مجرَّد، جذره اللغويُّ (نَوَسَ)، وسبق شرحه في الآية السابقة، والمراد من الناس -هنا- حينئذ أمَّته الذين اتبعوه[8].

---

(1) الراغب، المفردات: (بيت).
(2) ابن فارس، مقاييس اللغة: (بيت).
(3) ابن فارس، مقاييس اللغة: (ثوب).
(4) الراغب، المفردات: (ثوب).
(5) جبل، المعجم الاشتقاقي المؤصل: (ثوب).
(6) السمين، عمدة الحفاظ: (ثوب).
(7) البغوي، معالم التنزيل: 1/146.
(8) الآلوسي، روح المعاني: 1/374.

5) ﴿وَأَمْنًا﴾: "وإنّما سمّاه اللّه "أمنا"؛ لأنّه كان في الجاهلية معاذًا لمن استعاذ به، وكان الرجل منهم لو لقي به قاتل أبيه أو أخيه؛ لم يُهِجْه، ولم يَعْرِض له حتّى يخرج منه"[1].

6) ﴿وَٱتَّخِذُواْ﴾: فعل أمر مزيد على وزن (افْتَعَلَ) مسند لواو الجماعة، وجذره اللغوي (أخذ)، يقال: "وتَخِذْتُ مَالاً، أَي: كَسبتُه، أُلزمتِ التاءُ الحرفَ، كأَنّها أصليَّةٌ"[2] وقيل غير ذلك، وهو أنّ هذا الفعل (اتّخذ) أصله: من الأخذ، ثمّ أبدلت الهمزة تاء[3] ومصدره: الاتّخاذ "افتعَالٌ من الأَخْذِ، إِلَّا أَنّه أُدْغِم بعد تَلْيِينِ الهمزَةِ وإِبْدَالِ التاءِ، ثمَّ لـمَّا كَثُر الاستعمالُ على لفظِ الافتعالِ؛ تَوَهَّمُوا أَنَّ التاءَ أَصْلِيَّةٌ؛ فبَنَوْا مِنْهُ فَعِلَ يَفْعَلُ، قَالُوا: (تَخِذَ) يَتْخَذُ"[4].

وهو فعل ينصب مفعولين من أفعال التحويل والتصيير.

ومعناه في الآية: أن يصلوا هناك في مقامه الموسوم[5].

7) ﴿مَّقَامِ﴾: اسم مكان، أصله (مَقْوَم)، الجذر اللغويُّ له (قوم)، ومنه "قَامَ قِيَامًا، وَالْقَوْمَةُ الْـمَرَّةُ الْوَاحِدَةُ، إِذَا انْتَصَبَ، وَيَكُونُ قَامَ بِمَعْنَى: الْعَزِيمَةِ، كَمَا يُقَالُ: قَامَ بِهَذَا الْأَمْرِ؛ إِذَا اعْتَنَقَهُ، وَهُمْ يَقُولُونَ فِي الْأَوَّلِ: قِيَامُ حَتْمٍ، وَفِي الْآخِرِ: قِيَامُ عَزْمٍ"[6]، و"يُقال هذَا قُوام الأَمر وملاكُه"[7]، "ويقال: قَامَ كذا، وثبت، وركز ... وقَامَ فلان مَقَامَ فلان؛ إذا ناب عنه"[8].

ومعنى مقام إبراهيم في الآية: الْحَجَرَ الَّذِي قَامَ عَلَيْهِ إِبْرَاهِيمُ عند بناء الكعبة[9].

8) ﴿إِبْرَٰهِـۧمَ﴾: اسم عَلَمٍ أعجميٍّ لخليل الرحمن عليه السلام، وسبق شرحه في الآية السابقة[10].

---

(1) ابن جرير، جامع البيان: 2/29.
(2) الأزهري، تهذيب اللغة: (أخذ).
(3) السمين، عمدة الحفاظ: (أخذ).
(4) الزبيدي، تاج العروس: (أخذ).
(5) البيضاوي، أنوار التنزيل: 1/105.
(6) ابن فارس، مقاييس اللغة: (قوم).
(7) الأزهري، تهذيب اللغة: (قوم).
(8) الراغب، المفردات: (قوم).
(9) البغوي، معالم التنزيل: 2/71.
(10) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 1/701.

9) ﴿مُصَلًّى﴾: اسم مكان من الفعل صلّى، اسم جذره اللغويُّ (صلو)، والفعل منها (صلّى) بالتشديد، صلّى يصلّي صلاة.

والمصلَّى: المكان الذي تقام فيه، "والصَّلَاةُ التي هي العبادة المخصوصة، أصلها: الدّعاء، وسمّيت هذه العبادة بها كتسمية الشيء باسم بعض ما يتضمّنه"(1).

والمراد في الآية: "هُوَ الصَّلاةُ عِنْدَ مَقَامِ إِبْرَاهِيمَ؛ أُمِرُوا بِالصَّلاةِ عِنْدَهُ، وَلَمْ يُؤْمَرُوا بِمَسْحِهِ وَلا تَقْبِيلِهِ"(2).

10) ﴿وَعَهِدْنَآ﴾: أي: وأمَرْنا وأَوْحَيْنا(3).

11) ﴿وَإِسْمَٰعِيلَ﴾: اسم عَلَم على نبي اللّه ابن خليل الرحمن إبراهيم عليهما السلام، وهو اسم أعجميٌّ، "وَمَعْنَى إِسْمَاعِيلَ بِالْعِبْرِيَّةِ: سَمِعَ اللَّهُ، أَيْ: إِجَابَةُ اللَّهِ؛ لِأَنَّ اللَّهَ اسْتَجَابَ دُعَاءَ أُمِّهِ هَاجَرَ"(4)، وقد جعل الزَّبيدي جذره اللغوي من السين والميم والعين واللام، وقال: إنّه لم يذكره أحد من المعجميين، "ويُقالُ فِيهِ: إِسْماعِينُ، بالنُّونِ، وزَعَمَ ابنُ السِّكِّيت: أَنَّ نُونَهُ بَدَلٌ مِنَ اللَّامِ"(5).

و"قِيلَ: سُمِّيَ إِسْمَاعِيلُ؛ لِأَنَّ إِبْرَاهِيمَ كَانَ يَدْعُو اللَّهَ أَنْ يَرْزُقَهُ وَلَدًا، وَيَقُولُ: اسْمَعْ يَا إِيلُ، وَإِيلُ هُوَ اللَّهُ، فَلَمَّا رُزِقَ؛ سَمَّاهُ اللَّهُ بِهِ"(6).

وقد نشأ "إِسْمَاعِيل بن إِبْرَاهِيم صلّى الله عَلَيْهِمَا مَعَهم، فَتكلَّم بلسانهم، فَهُوَ وَأَوْلَاده العَرَب المستعرِبة"(7)، والمَعْنِيُّ بلسانهم: العرب العاربة.

وإسماعيل هو الذَّبيح المذكور قصته في قوله تعالى: ﴿فَلَمَّآ أَسْلَمَا وَتَلَّهُۥ لِلْجَبِينِ﴾ [الصافات: 103]، وقد أسكن إبراهيمُ عليه السلام "ابْنَهُ إِسْمَاعِيلَ وَأُمَّهُ هَاجَرَ بِوَادِي مَكَّةَ، ثُمَّ لَمَّا شَبَّ إِسْمَاعِيلُ بَنَى إِبْرَاهِيمُ الْبَيْتَ الْحَرَامَ هُنَالِكَ"(8).

---

(1) الراغب، المفردات: (صلا).
(2) الواحدي، التفسير الوسيط: 1/205.
(3) البغوي، معالم التنزيل: 1/184.
(4) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 1/719.
(5) الزبيدي، تاج العروس: (سمعل).
(6) البغوي، معالم التنزيل: 1/184.
(7) الأزهري، تهذيب اللغة: (عرب).
(8) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 1/702.

12) ﴿طَهِّرَا﴾: فعل أمر مسند لألف الاثنين، الماضي منه: (طهّر)، الجذر اللغوي (طهر)، وأصل معناه: "يَدُلُّ عَلَى نَقَاءٍ وَزَوَالِ دَنَسٍ، وَمِنْ ذَلِكَ الطُّهْرُ، خِلَافُ الدَّنَسِ، وَالتَّطَهُّرُ: التَّنَزُّهُ عَنِ الذَّمِّ وَكُلِّ قَبِيحٍ، وَفُلَانٌ طَاهِرُ الثِّيَابِ، إِذَا لَمْ يُدَنَّسْ"(1)، "والطَّهَارَةُ ضربان: طَهَارَةُ جسمٍ، وطَهَارَةُ نفسٍ، وحمل عليهما عامّة الآيات"(2).

"وكلّ ما في القرآن من التركيب فهو من الطهارة، بمعنى: النقاء من الأدران المادية أو المعنوية، ومن المعنوية قبائح النفس والقلب"(3).

والمراد من تطهير البيت: الجانبان: المادي من طهارته من الأوساخ والقاذورات، والجانب المعنوي كخلوّه من الأصنام، وأن يطوف بالبيت عريان، وعدم مباشرة الأعمال المنافية للحقّ كالاعتداء ونحوه(4).

13) ﴿لِلطَّآيِفِينَ﴾: جمع مذكر سالم، مفرده طائف، وجذره اللغوي (طوف)، وأصل معناه "دَوَرَانُ الشَّيْءِ عَلَى الشَّيْءِ، وَأَنْ يُحَفَّ بِهِ، ثُمَّ يُحْمَلَ عَلَيْهِ، يُقَالُ: طَافَ بِهِ، وَبِالْبَيْتِ يَطُوفُ طَوْفًا وَطَوَافًا"(5).

والطّواف: "المشيُ حولَ الشيءِ، ومنه: الطَّائِفُ لمن يدور حول البيوت حافظًا، يقال: طَافَ به يَطُوفُ"(6).

ومعناه المحوري: "غِشْيان الشيء بغلظ أو قوّة غِشْيانًا يَعُمَّ حدُودَه: جوانبه أو أعلاه ... والطّوَافُ غِشْيانٌ لجوانبِ ما يطاف به، وهذه الصيغة تعبّر عن التكلّف والحرص على الاتصاف، ويؤخذ منه التعبير عن المبالغة، أي: الاجتهاد في الطّواف إكثارًا وإخلاصًا، ومن الطّواف بالبيت هذا لِلطَّائِفِينَ"(7).

ومعنى الطّواف في الآية: "المشي حول الكعبة، وهو عبادةٌ قديمةٌ من زمن إبراهيم قرّرها الإسلام، وقد كان أهل الجاهليّة يطوفون حول أصنامهم كما يطوفون بالكعبة"(8).

(1) ابن فارس، مقاييس اللغة: (طهر).
(2) الراغب، المفردات: (طهر).
(3) جبل، المعجم الاشتقاقي المؤصل: (طهر).
(4) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 1/712.
(5) ابن فارس، مقاييس اللغة: (طوف).
(6) الراغب، المفردات: (طوف).
(7) جبل، المعجم الاشتقاقي المؤصل: (طوف - طيف).
(8) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 17/241.

14) ﴿وَٱلۡعَٰكِفِينَ﴾: جمع مذكر سالم، مفرده عاكف، جذره اللغويُّ (عكف)، وأصل معناه "يَدُلُّ عَلَى مُقَابَلَةٍ وَحَبْسٍ، يُقَالُ: عَكَفَ يَعْكُفُ وَيَعْكِفُ عُكُوفًا، وَذَلِكَ إِقْبَالُكَ عَلَى الشَّيْءِ لَا تَنْصَرِفُ عَنْهُ"(1).

والعكوف "الإقبال على الشيء، وملازمته على سبيل التّعظيم له.

والاعْتِكَافُ في الشّرع: هو الاحتباس في المسجد بشرائط على سبيل القربة"(2).

ومعنى العاكفين: "المقيمين به، والعاكف على الشيء هو المقيم عليه ... وإنّما قيل للمعتكف: معتكف من أجل مقامه في الموضع الذي حبس فيه نفسه للّه تعالى"(3).

15) ﴿وَٱلرُّكَّعِ﴾: جمع تكسير، مفرده راكع، والجذر اللغويُّ له (ركع)، وأصل معناه "يَدُلُّ عَلَى انْحِنَاءٍ فِي الْإِنْسَانِ وَغَيْرِهِ، يُقَالُ: رَكَعَ الرَّجُلُ، إِذَا انْحَنَى، وَكُلُّ مُنْحَنٍ رَاكِعٌ"(4).

ومعنى الركوع: "الانحناء، فتارة يستعمل في الهيئة المخصوصة في الصلاة كما هي، وتارة في التّواضع والتّذلّل، إمَّا في العبادة، وإمَّا في غيرها"(5).

ورَكَعَ بمعنى: "انحنَى، وكُلُّ شيء يَنْكبُّ لوجهه، فتمسُّ ركبته الأرض، أو لا تمسُّها بعد أن يخفض رأسه فهو راكع، ورَكَع ... وركوع الصلاة معروف"(6)، والمعنى في الآية: "المصلُّون جمع راكع وساجد، وخصّ الركوع والسجود بالذكر من جميع أحوال المصلي؛ لأنّهما أقرب أحواله إليه تعالى"(7).

16) ﴿ٱلسُّجُودِ﴾: مصدر للفعل سجد يسجد سجوداً، وجذره اللغويُّ (سجد)، وأصل معناه: " تَطَامُنٌ وَذُلٌّ يُقَالُ: سَجَدَ؛ إِذَا تَطَامَنَ، وَكُلُّ مَا ذَلَّ، فَقَدْ سَجَدَ"(8).

"وسجدَ الرجلُ سجودًا، وأصلُ السُّجودِ إدامةُ النّظرِ في إطراقٍ إلى الأَرضِ، وكذلكَ

---

(1) ابن فارس، مقاييس اللغة: (عكف).

(2) الراغب، المفردات، السمين، عمدة الحفاظ: (عكف).

(3) ابن جرير، جامع البيان: 42-2/41.

(4) ابن فارس، مقاييس اللغة: (ركع).

(5) الراغب، المفردات: (ركع).

(6) جبل، المعجم الاشتقاقي المؤصل: (ركع).

(7) الآلوسي، روح المعاني: 1/379.

(8) ابن فارس، مقاييس اللغة: (سجد).

أَسجد؛ إِذا أدام النّظر"[1]، و"السُّجُودُ أصله: التّطامن والتّذلّل، وجُعل ذلك عبارة عن التّذلّل لله وعبادته، وهو عامّ في الإنسان ... وليس ذلك إلّا للإنسان، وبه يستحقُّ الثواب"[2].

والمراد بالسجود في الآية المصلُّون[3] باقترانه مع الركَّع.

❁ المَعْنَى الإِجْمَالِيُّ:

واذكر -أيها النبيُّ ﷺ- حين جعلنا الكعبة مرجعًا للناس، يأتونه، ثم يرجعون إلى أهليهم، ثم يعودون إليه، ومَجْمعًا لهم في الحج والعمرة، والطواف، والصلاة، وأمنًا لهم، لا يُغِيرُ عليهم عدوٌّ فيه، وقلنا: اتخِذوا من مقام إبراهيم مكانًا للصلاة فيه، وهو الحَجَر الذي وقف عليه إبراهيم عند بنائه الكعبة، وأوحينا إلى إبراهيمَ وابنِه إسماعيل: أن طهِّرا بيتي من كلِّ رجس ودَنَس؛ للمتعبِّدين فيه بالطواف حول الكعبة، أو الاعتكاف في المسجد، والصلاة فيه؛ فإنَّ من لوازم العبادةِ في البيت الحرام أن يكون طاهرًا، من الرِّجس المعنوي كالأصنامِ وغيرها، ومن الرِّجس المادي كالأوساخِ والقاذورات ونحوها[4].

وفي الآية تذكير للعرب بنعم أسبغها الله عليهم، ومنن قلَّدها جِيْدَهم، وهي جعلُ البيت الحرام مرجعًا للناس يقصدونه، ثمّ يثوبون إليه، وجعلُه مأمنًا لهم في هذه البلادِ بلادِ المخاوف التي يُتخطّف الناس فيها من كلّ جانب.

❁ الإِيضَاحُ اللُّغَوِيُّ وَالبَلَاغِيُّ:

دلالةُ إعادةِ الظرفِ (إذ):

التَّـنـبـيـهُ على استقلالِ جعلِ البيتِ عن قصَّةِ الابتلاءِ

قوله تعالى: ﴿وَإِذۡ جَعَلۡنَا ٱلۡبَيۡتَ مَثَابَةٗ لِّلنَّاسِ وَأَمۡنٗا﴾ أي: واذكر وقتَ أنْ صيَّرَ الله تعالى البيتَ الحرامَ مثابةً للنَّاس وأمنًا، وأعاد ذكر الظرف الدالّ على المضيِّ (إذ)؛ "لِلتَّنْبِيهِ عَلَى اسْتِقْلَالِ الْقِصَّةِ، وَأَنَّهَا جَدِيرَةٌ بِأَنْ تُعَدَّ بِنِيَّةٍ أُخْرَى"[5]، ثمّ إنّها ليست مترتّبة

(1) الجوهري، صحاح اللغة: (سجد).
(2) الراغب، المفردات: (سجد).
(3) السمين، الدرّ المصون: (سجد).
(4) المراغي، تفسير المراغي: 1/210، ونخبة من العلماء، التفسير الميسر، ص: 19.
(5) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 1/707.

على قصة ابتلاء إبراهيم عليه السلام قبلها؛ فهي وإن عُطفت بالواو فالواو لمطلق الجَمْع، وليست للتَّرتيب[1].

فائدةُ إضافةِ (جعل) إلى نون العظمة:

أُضيف الفعل (جعل) إلى (نا) لقصد التَّعظيم والتَّشريف والإجلال لبيت اللّه الحرام، وتعليم النَّاسِ مكانةَ البَيْتِ عند اللّه تعالى.

سرُّ استعمالِ لفظِ ﴿ٱلۡبَيۡتَ﴾ دون وَصْفٍ:

البيتُ علَمٌ على المكانِ الذي ارتضاه اللّه لعبادتِه الحقَّةِ

آثرتِ الآيةُ ذكرَ لفظ ﴿ٱلۡبَيۡتَ﴾ دونِ تقييدِه بوَصْفٍ خاصٍّ، كما ورد في بقيَّة الآيات، من مثل: العتيق، أو المحرَّم، أو الحرام، وتعدُّدُ الصِّفات يدلُّ على شرفِ الموصوفِ، فتسميته بالبيت؛ لأنّه مأخوذ من البيتوتة، وهو المأوى الذى تأوي إليه النَّفس، وتسكن فيه، وتستريح؛ ولذلك سمِّيت الكعبة بيتاً؛ لأنّها المكان الذي يستريح إليه الخلق، وفيه إشارة إلى كمال البيت إذا أُطلق على البيت الحرام؛ لأنّه أول بيت للعبادة، ولأنّه موضع الأمن من الخوف، وإطلاقُه دون وَصْفٍ للتَّنبيه على أنَّ البَيت بدأتِ العبادةُ فيه مذ جعله اللّه مثابةً للنَّاسِ وأمنًا، وليكون عَلَمًا على ذلك البناءِ المُتَّخذِ للعبادةِ والسَّكينةِ.

سِرُّ اختيارِ مفردةِ ﴿مَثَابَةً﴾ دونَ الرجوعِ:

المَثَابَةُ جَمَعَتْ بَيْنَ معنَيَي الرُّجوعِ ونَيْلِ الثَّوابِ

لكلمةِ مثابة إيحاءاتٌ لغويَّة تُميِّزُها عن معنى الرُّجوع، ذلك أنّ مادة (ثوب) تشير إلى الثواب، وهو اكتساب الحسنات، فالعبَّادُ يثوبون لينالوا الثَّوابَ، وهذا ما يميّزها من معنى الرجوع، فالذين يزورون البيت الحرام يلوذون به؛ لاكتساب الحسنات بصورة لا تتحقق في سواه، فالصلاة فيه بمئة ألف، والحج والعمرة مغفرة للذنوب، ويُكتب للحاجّ ولادةٌ جديدةٌ مصداقاً لحديث النبي صلى الله عليه وسلم: «مَنْ أَتَى هَذَا الْبَيْتَ، فَلَمْ يَرْفُثْ، وَلَمْ يَفْسُقْ، رَجَعَ كَمَا وَلَدَتْهُ أُمُّهُ»[2].

---

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 1/707.
(2) صحيح مسلم: 4/107.

دلالةُ الهاءِ في كلمةِ ﴿مَثَابَةً﴾:

الإخـبـارُ عـمَّا سـيـقـعُ في نـفوسِ العبادِ وأعمالِهم غَيْبٌ مستقبليٌّ

معنى مثابة في قوله تعالى: ﴿وَإِذْ جَعَلْنَا ٱلْبَيْتَ مَثَابَةً لِّلنَّاسِ وَأَمْنًا﴾: "مباءة ومرجعاً للحجّاج والعمّار، يتفرقون عنه، ثمّ يثوبون إليه، أي: يثوب إليه أعيان الذين يزورونه أو أمثالهم"[1]، و"الهَاءُ إِنَّمَا دَخَلَتْ فِي مَثَابَةٍ مُبَالَغَةً، كَمَا فِي قولهم: نسّابة وعلّامة"[2]، فالتكثيرُ في المثابة من جهتين: الأولى أنّ الناس من حجّاج وعمّار ومصلّين ومعتكفين وأضرابهم يعودون إليه بعد أن ينصرفوا منه، والثَّانية "أَنَّهُ لَا يَنْصَرِفُ عَنْهُ أَحَدٌ إِلَّا وَهُوَ يَتَمَنَّى العَوْدَ إِلَيْهِ"[3]، وفي ذلك إخبارٌ عن أمرٍ غيبيٍّ سيقع في النُّفوسِ والأعمال.

سرُّ اختيارِ لفظِ (الناس) دونَ المسلمينَ:

عالميَّةُ الدعوةِ الإسلاميَّة تبدأُ من عهدِ إبراهيم عليه السلام

لفظ ﴿لِّلنَّاسِ﴾ لفظٌ عامّ، يصدُق على كلّ البشر، وفي هذا دلالة على عالميَّة الدعوة، فالكلّ مدعوٌّ لحجِّ بيت اللّه الحرام، ولا يحجّ إلّا بعد إسلامه والتزامه بشريعةِ محمَّدٍ ﷺ؛ بخلاف ما لو قال للمسلمين؛ لفُهم من ذلك القصر، لكنّ القرآن أعلن للناس جميعاً أنّ المثابة والأمن من البيت الحرام لهم؛ إذا أسلموا، ويؤكّد هذه العالميَّة قوله تعالى: ﴿إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِى بِبَكَّةَ مُبَارَكًا وَهُدًى لِّلْعَٰلَمِينَ﴾ [آل عمران: 96]؛ ففيه دعوةٌ للبشريَّةِ كلِّها للحجِّ إلى ذلك البيتِ، ولا يكون ذلك إلّا بالإسلامِ.

نكتةُ التَّعبيرِ بالمصدرِ ﴿وَأَمْنًا﴾:

البَيْتُ أمنٌ سابغٌ لـزائـرِه، وأمـنٌ سائغٌ لساكِنِه

عبّر النَّظمُ بالمصدرِ دون اسم الفاعلِ في كلمة ﴿وَأَمْنًا﴾؛ للمبالغة في وصفِ البيت الحرام، بأنَّه صار هو الأمن نفسه، فكأنّ كلّ جزء من أركانه ينطق بالأمن، أو على تقدير: ذا أمن، أو على الإسناد

(1) الزمخشري، الكشاف: 1/318.
(2) الرازي، مفاتيح الغيب: 4/50.
(3) الرازي، مفاتيح الغيب: 4/50.

المجازي، أي: من حجَّه؛ كتب الله له الأمن من عذاب الآخرة، أو من دخله؛ كان آمناً لا يتعرض له أحد بالعقوبة حتّى يخرج.

بلاغةُ تقديمِ المثابةِ على الأمنِ:

تقديمُ الغايةِ على الوسيلةِ، من بابِ الأخذِ بالأسبابِ

في قوله تعالى: ﴿وَإِذۡ جَعَلۡنَا ٱلۡبَيۡتَ مَثَابَةٗ لِّلنَّاسِ وَأَمۡنٗا﴾ قُدِّمتِ المثابةُ، وهي المرجع والمعاد على الأمن، وهو من باب تقديم الغايةِ على الوسيلةِ، والأصل على فرعه؛ لأنّ الأصل في البيت الحرام أن يكون مرجعًا للمسلمين يثوبون إليه في الحجّ والعمرة والصلاة؛ "ليمحو اللّه سبحانه ما في صدورهم من ضيق وهموم مشكلات الحياة"[1].

أمّا كونه أمنًا فهو وسيلةٌ فرعيَّةٌ خادمةٌ للعبادةِ التي هي المثابة، فلولا الأمنُ الذي وعد اللّه به؛ لما استقرَّتِ العبادةُ، وما استطاعَ النَّاسُ المجيءَ إليه؛ ففيه تعليمٌ أنَّ الأخذَ بالأسبابِ مُعينٌ على العبادةِ والاستمرار فيها.

إعرابُ المثابةِ بينَ الحاليّةِ والمفعوليّةِ:

اجتماعُ معنى المفعوليَّةِ الدّالةِ على الثُّبوتِ، والحاليّةِ الدّالةِ على التجدُّدِ

الفعل جعل في قوله تعالى: ﴿وَإِذۡ جَعَلۡنَا ٱلۡبَيۡتَ مَثَابَةٗ لِّلنَّاسِ وَأَمۡنٗا﴾ يحتمل "أن يكونَ بمعنى: خَلَقَ، ووَضَعَ، فيتعدَّى لواحدٍ، وهو البَيْت، ويكون مَثَابةً نصباً على الحالِ"[2].

ويجوز أن يكون "بمعنى: صَيَّر، فيتعدَّى لاثنين، فيكون مثابةً هو المفعولُ الثاني"[3]، والدلالة متباينةٌ في الحالين وضعًا وصناعةً، متقاربةٌ حقيقة، فعلى جعل المثابة حالاً، والحال تفيد التحوّل والانتقال، قبالة المفعولية التي تفيد الثبوت والاستقرار، فإنّه تعالى صيّر البيت مثابة، وتمّ الأمر واستقر، أمّا كون المثابة حالاً؛ فالحال هنا يفيد التجدُّد والاستمرار، وهو قريب من الثبوت والاستقرار؛

(1) الشعراوي، تفسير الشعراوي: 1/576.
(2) السمين، الدر المصون: 2/104.
(3) السمين، الدر المصون: 2/104.

فلكثرة العائدين إلى البيت واستمرار مثوبتهم إليه حجًّا وعمرةً وصلاةً واعتكافًا، فكأنّهم ثابتون في مثوبتهم، والحال هنا: "دالّة على غير معنًى منتقل"[1]؛ كقوله تعالى: ﴿وَخُلِقَ ٱلۡإِنسَٰنُ ضَعِيفًا﴾ [النساء: 28]، أي: أنّ ضعفه متجدِّد طورًا بعد طور، وكذا مع المثابة، فإنّها؛ وإن كانت حالاً، لكنّها متجددة؛ لكثرة ما يثوب إليها الناس؛ فتدلّ على معنًى غير منتقل.

سرُّ الفصلِ بين المثابةِ والأمنِ بـ (النَّاس):

المثابةُ متعلِّقةٌ بالعقلاءِ، والأمنُ يعمُّ العقلاءَ وغيرَهم

في قوله تعالى: ﴿وَإِذۡ جَعَلۡنَا ٱلۡبَيۡتَ مَثَابَةٗ لِّلنَّاسِ وَأَمۡنٗا﴾ اقترن لفظُ الناس بالمثابة للبيت الحرام، فقال: ﴿مَثَابَةٗ لِّلنَّاسِ﴾، ثمّ عطف عليه (الأمن)، ولم يقل: مثابةً وأمنًا للنَّاس، وذلك لتوجيه النَاس إلى العبادةِ أصالةً، وليكون الأمنُ تابعًا للعبادةِ، ففيه طمأنةٌ للنَّاسِ، وتوجيهٌ بأنْ لا يجعلوا الأخذَ بالأسباب مساويًا للأخذ بالغايات، وأمرٌ آخر وهو أنَّ المثابة أمرٌ تعبديٌّ مختصّ بالعقلاء، بخلافِ الأمنِ فهو للعقلاءِ وغيرهم.

توجيهُ القراءاتِ القرآنيَّةِ:

اتِّخاذُ المقامِ خبرٌ ماضٍ، ومستقبلٌ ماضٍ

اختلف القُرَّاءُ في قراءةِ قوله تعالى: ﴿وَٱتَّخِذُواْ﴾؛ فقرأ الجمهورُ: ﴿وَٱتَّخِذُواْ﴾ على أنّ الفعل فعلُ أمرٍ، وقرأ "نَافِع وَابْنُ عَامر: ﴿وَٱتَّخَذُواْ﴾ مَفْتُوحَة الْخَاء على الْخَبَر"[2]، ومعنى قراءةِ الجمهور: "أَنَّ هَذَا أَمْرٌ مِنَ اللَّهِ تَعَالَى لِأُمَّةِ مُحَمَّدٍ ﷺ أَنْ يَتَّخِذُوا مِنْ مَقَامِ إِبْرَاهِيمَ مُصَلًّى"[3]، ومعنى قراءة نافع وابن عامر: أنّ اتخاذ مقام إبراهيم مصلًّى "كَانَ مِنْ عَهْدِ إِبْرَاهِيمَ عليه السلام، وَلَمْ يَكُنِ الْحَجَرُ الَّذِي اعْتَلَى عَلَيْهِ إِبْرَاهِيمُ فِي الْبِنَاءِ مَخْصُوصًا بِصَلَاةٍ عِنْدَهُ"[4].

(1) ابن مالك، شرح التسهيل: 2/322.
(2) ابن مجاهد، السبعة في القراءات، ص: 170.
(3) الرازي: مفاتيح الغيب: 4/53.
(4) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 1/711.

نكتةُ التَّعبيرِ بمقامِ دونَ مكانٍ:

مَدْحُ إبراهيمَ بالإشارةِ إلى الجُهدِ المبذولِ في رفعِ البَيْتِ

كلمةُ المقام تُشير إلى معنًى شرعيٍّ وتاريخيٍّ، أمَّا الشَّرعيُّ فهو القيام للصَّلاة، وأمَّا التَّاريخيُّ فهو إشارةٌ إلى الجهدِ الذي بذله إبراهيم وإسماعيل عليهما السلام في رفع قواعد البيت؛ لأنّ القيام يعني الانتصاب وبذل الجهد، ففيه مدحُ سيدِنا إبراهيم بأنّه صاحب المقام، وفي ذلك رفعة له، ولا يؤدِّي تلك النكتةُ لفظُ مكان، إذ هي لا تعدو أن تكون دلالتها إلى وجود مكانٍ وُجِدَ فيه إبراهيم عليه الصَّلاةُ والسَّلام، والآيةُ تريد ما سبقتِ الإشارةُ إليه.

دلالةُ تعديةِ الفعلِ (عهِد) بحرفِ (إلى):

علوُّ قدرِ إبراهيمَ وإسماعيلَ عليهما السلام

أصلُ معنى العهد: الوعدُ المؤكّد وقوعُه؛ فإذا عُدِّي بـ (إلى) كان بمعنى: الوصيَّة المؤكّدة على المُوصَى العمل بها، فالمعنى: وأوصينا إلى إبراهيم وإسماعيل، وفي هذا دلالة على شدّة حرصهما على تنفيذ ما عهد به إليهما.

بلاغةُ اختيارِ الصِّيغ وأثرُها في المعنى:

شمولُ الأمرِ بالتَّطهيرِ المعنويَّاتِ والحسيَّاتِ على حدٍّ سواء

جاءت صيغةُ الأمر بالتَّطهيرِ في قوله تعالى: ﴿أَن طَهِّرَا بَيْتِيَ﴾ بالفعل المضعّف، ومن أبرزِ معاني هذه الصِّيغةِ المبالغةُ والتكثيرُ[(1)]، ووظيفةُ هذا الفعل بيانُ هذا المعنى، وهو تطهير البيتِ حسِّيًّا ومعنويًّا، إذ "يُرَادُ بِهِ التَّطْهِيرُ مِنْ كُلِّ أَمْرٍ لَا يَلِيقُ بِالْبَيْتِ، فَإِذَا كَانَ مَوْضِعُ الْبَيْتِ وَحَوَالَيْهِ مُصَلًّى؛ وَجَبَ تَطْهِيرُهُ مِنَ الْأَنْجَاسِ وَالْأَقْذَارِ، وَإِذَا كَانَ مَوْضِعَ الْعِبَادَةِ وَالْإِخْلَاصِ لِلَّهِ تَعَالَى؛ وَجَبَ تَطْهِيرُهُ مِنَ الشِّرْكِ وَعِبَادَةِ غَيْرِ اللَّهِ"[(2)]، فطهارته واقعةٌ على الجانبين الحسِّيِّ والمعنويِّ، فناسب التَّعبيرُ بالفعل الدَّالِّ على الكثرة والمبالغة.

---

(1) سيبويه، الكتاب: 4/64.

(2) الرازي، مفاتيح الغيب: 4/56.

دلالةُ إضافةِ البيتِ إلى (ياء) المتكلّم في قوله: ﴿بَيۡتِيَ﴾:

أُضيف البيتُ إلى ياء المتكلم في قولِه تعالى: ﴿أَن طَهِّرَا بَيۡتِيَ﴾ لتشريف البيتِ وتكريمه وتعظيمه؛ فهو بيت اللّه المخصَّصُ لعبادته وحده، وفي الإضافة دعوةٌ إلى الاعتناءِ الخاصِّ بتطهيره لكونه بيت اللّه، وهذه الإضافة هي السبب الجاذب للقلوب إليه[1].

نكتةُ ترتيب أصناف العابدين:

تقديمُ الأقلّ على الأكثرِ في العددِ، والأخـــصِّ على الأعـمِّ بـعبادةِ البيت

رتَّب النَّظمُ الكريم أصنافَ العابدين في قوله تعالى: ﴿طَهِّرَا بَيۡتِيَ لِلطَّآئِفِينَ وَٱلۡعَٰكِفِينَ وَٱلرُّكَّعِ ٱلسُّجُودِ﴾؛ فبدأ بالطائفين فالعاكفين فالرُّكَّع السُّجود، وهو "تدرُّجٌ من القلّة إلى الكثرة، فالطَّائفون أقلُّ من العاكفين؛ لأنّ الطواف لا يكون إلّا حول الكعبة، والعكوف يكون في المساجد عمومًا"[2]، والعاكفون أقلُّ من الركّع؛ لأنّ الاعتكاف لا يكون إلّا في المساجد، وله شروطه وزمنه، فالاعتكاف محدَّد بالمسجد، وأمّا الرُّكَّع السُّجود فهم الأكثرُ عدداً، وقُدِّمت صفة الرُّكوع على السُّجود، إذ لكلّ ركعة سجدتان، فالسّجود أكثر عددًا ونوعاً كذلك، فهناك سجود التلاوة وسجود السهو وسجود الشكر وغيرها، فصفة السجود لها وجودٌ أكثر من صفة الرُّكوع، ولهذا التَّقديمِ نكتةٌ أخرى، وهي أنَّ الطَّائفين هم المخصوصون بعبادةِ البيت الحرام، فهو الأخصُّ في هذا السِّياق؛ فقدّم "الطَّائفين لقرب الطواف من البيت واختصاصه به والعكوف في سائر البلد"[3].

سرُّ اختيارِ جمعِ السلامةِ وجمعِ التّكسيرِ في كلّ صنفٍ:

اخـتـيـارُ صيغ الـجـموعِ بلاغةٌ قـرآنيَّةٌ ودلالـةٌ واقعيَّةٌ

استعمل النَّظمُ جمع السلامة مع الطائفين والعاكفين في قوله تعالى: ﴿طَهِّرَا بَيۡتِيَ لِلطَّآئِفِينَ وَٱلۡعَٰكِفِينَ﴾: "لِأَنَّهُ أَقْرَبُ إِلَى لَفْظِ

(1) صديق خان، فتح البيان: 1/278.
(2) فاضل السامرائي، التعبير القرآني، ص: 57.
(3) ابن عرفة، تفسير ابن عرفة: 1/416.

الْفِعْلِ؛ بِمَنْزِلَة: يَطُوفُونَ، أَيْ: يُجَدِّدُونَ الطَّوَافَ؛ لِلْإِشْعَارِ بِعِلَّةِ تَطْهِيرِ الْبَيْتِ، وَهُوَ قُرْبُ هَذَيْنِ مِنَ الْبَيْتِ بِخِلَافِ الرُّكُوعِ وَالسُّجُودِ، فَإِنَّهُ لَا يَلْزَمُ أَنْ يَكُونَا فِي الْبَيْتِ وَلَا عِنْدَهُ"[1]، بينما استعمل جمع الكثرة في قوله تعالى: ﴿وَٱلرُّكَّعِ ٱلسُّجُودِ﴾، واستعمل المصدر في جمع السَّاجدين للتَّعبير عن الكثرة الكاثرة؛ لأنّ المصدر لا حدّ له؛ إذا أردته للكثرة، فلم يقل: (الساجدين)، ولم يقل: (السُّجَّد)، بل قال: ﴿ٱلسُّجُودِ﴾؛ ليعطي معنى الأكثرية، ويعطي معنى النوعية؛ لكي لا يظن السامع أنّ (الساجدين) أو(السجّد) مختصّ بالصلاة فقط، بل إرادة كلّ سجود؛ ليحقّق الكثرة في الكميّة والنّوعيّة.

ظهورُ بلاغةِ الاحتراسِ في تركِ العطفِ:

الــــرُّكـــوعُ والـسُّـجـودُ وصـــفـــانِ متلازمان عبادةً وخشوعًا

قوله تعالى: ﴿طَهِّرَا بَيْتِيَ لِلطَّآئِفِينَ وَٱلْعَٰكِفِينَ وَٱلرُّكَّعِ ٱلسُّجُودِ﴾ عطف الحقّ تبارك وتعالى المجموعات المتعبِّدة الواحدة على الأخرى، وهنَّ الطائفون والعاكفون والركّع؛ إلّا أنّه لم يعطفِ السجود على الرُّكَّعِ؛ "لِأَنَّ الوصفين مُتَلَازِمَانِ، وَلَوْ عَطَفَ؛ لَتُوُهِّمَ أَنَّهُمَا وصفان مفترقان"[2]؛ فعدم العطف احتراس من توهُّم افتراق الوصفين، بل هما متلازمان يتصلان بأداء الصلاة؛ "لِأَنَّ الرَّاكِعَ إِنْ لَمْ يَسْجُدْ، فَلَيْسَ بِرَاكِعٍ شَرْعًا، وَلَوْ عُطِفَ بِالْوَاوِ؛ لَأَوْهَمَ أَنَّهُ مُسْتَقِلٌّ كَالَّذِي قَبْلَهُ"[3].

توجيهُ المتشابهِ اللفظيّ:

افـتراقُ أوصـافِ الـعـابـديـن في الآيـاتِ اجتماعٌ لها في الدّلالات

جاء في قوله تعالى: ﴿طَهِّرَا بَيْتِيَ لِلطَّآئِفِينَ وَٱلْعَٰكِفِينَ وَٱلرُّكَّعِ ٱلسُّجُودِ﴾ ذكر العاكفين، وفي سورة الحج: ﴿وَإِذْ بَوَّأْنَا لِإِبْرَٰهِيمَ مَكَانَ ٱلْبَيْتِ أَن لَّا تُشْرِكْ بِي شَيْـًٔا وَطَهِّرْ بَيْتِيَ لِلطَّآئِفِينَ وَٱلْقَآئِمِينَ وَٱلرُّكَّعِ ٱلسُّجُودِ﴾ [الحج: 26] ذكر القائمين؛ فيسأل عن سبب ذلك؟

---

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 1/712.

(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 1/713.

(3) الزركشي، البرهان في علوم القرآن: 3/250.

والجواب "أنَّ المراد بالقائمين هنا ذوو الإقامة والملازمة على صفة مخصوصة، وإذا أريد بالقائمين هذا، فهو والعكوف مما يصحّ أن يعبّر بأحدهما عن الآخر"[1]، ثمّ إنّه عدل عن ذكر العاكفين في سورة الحجّ دفعًا للتكرار؛ لتقدّم ذكره في قوله تعالى: ﴿وَٱلۡمَسۡجِدِ ٱلۡحَرَامِ ٱلَّذِي جَعَلۡنَٰهُ لِلنَّاسِ سَوَآءً ٱلۡعَٰكِفُ فِيهِ وَٱلۡبَادِۚ﴾ [الحج: 25]، "فلمّا تقدّم ذكر العكوف متَّصلاً بالآية وقع الاكتفاء بذلك، وعدل عن التكرار"[2].

۞ الفُرُوقُ المُعْجَمِيَّةُ:

الأمن والطّمأنينة والسَّكينة:

تدور مادة الأمن حول سكون القلب والنفس، والطمأنينة تدور حول السكون، وخصَّه الراغب بالسكون بعد إزعاج، والسكينة: تعني: الثبوت والاستقرار.

هذه المعاني السابقة في جانب اللغة، أمَّا في الاستعمال القرآني؛ فله إيحاءات أخرى، فلفظ الأمن يشمل الأمن المادي والمعنوي، ولا يتحقق الأمن المعنوي إلَّا بعد الأمن المادي، فحفظ الناس من الأضرار هو قمّة الأمن؛ لأنّه يشمل حراسة البلاد، وتمهيد الطرق وإنارتها، والضرب على يد قُطَّاع الطرق مما يرسِّخ قيمة الأمن المادي، الذي هو شرط من شروط الحجّ في الاستطاعة، ويؤكّد ذلك أنّ الخوف ضدُّ الأمن، قال تعالى: ﴿فَلۡيَعۡبُدُواْ رَبَّ هَٰذَا ٱلۡبَيۡتِ ۝٣ ٱلَّذِيٓ أَطۡعَمَهُم مِّن جُوعٖ وَءَامَنَهُم مِّنۡ خَوۡفِۭ﴾ [قريش: 3-4].

والأمنُ النَّفسي، وهو يشمل الطمأنينة والسكينة؛ لأنّ الطمأنينة فيها زيادة سكون القلب، والسكينة أرفع درجات السكون والطمأنينة، وكلُّ ذلك من آثار الأمن المادي، لذلك آثر القرآن لفظ الأمن على غيره؛ ليشمل هذه المعاني المادية والمعنوية.

(1) ابن الزبير، ملاك التأويل: 1/49.
(2) ابن الزبير، ملاك التأويل: 1/49.

﴿وَإِذۡ قَالَ إِبۡرَٰهِـۧمُ رَبِّ ٱجۡعَلۡ هَٰذَا بَلَدًا ءَامِنٗا وَٱرۡزُقۡ أَهۡلَهُۥ مِنَ ٱلثَّمَرَٰتِ مَنۡ ءَامَنَ مِنۡهُم بِٱللَّهِ وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِۚ قَالَ وَمَن كَفَرَ فَأُمَتِّعُهُۥ قَلِيلٗا ثُمَّ أَضۡطَرُّهُۥٓ إِلَىٰ عَذَابِ ٱلنَّارِۖ وَبِئۡسَ ٱلۡمَصِيرُ ١٢٦﴾

[البقرة: 126]

❁ مُناسَبَةُ الآيَةِ لِمَا قَبْلَها:

التناسب بين هذه الآية والتي قبلها واضح بيِّن، فهما في سياق رفع إبراهيم وإسماعيل عليهما السلام قواعد البيت الحرام وتهيئته لعباد اللّه وتطهيره، فإنّه لمّا "ذكر أمر البيت الشّريف فيما تكفَّل به سبحانه، وفيما أمر به الخليل وولده عليهما السلام من تطهيره؛ ذكَّر باهتمامه بأهله ودعائه لهم مُبكِّتاً لمن عقّه من ذرِّيَّته بالتّصريح بكفرهم بيوم الجزاء، الآمر بكلّ خير الزّاجر عن كلّ ضير"(1).

وجاءت هذه الآية: "لِإِفَادَة مَنْقَبَةٍ ثَالِثَةٍ لِإِبْرَاهِيمَ عليه السلام في اسْتِجَابَة دَعْوَتِهِ بِفَضْلِ مَكَّةَ وَالنِّعْمَةِ عَلَى سَاكِنِيهَا؛ إِذَا شَكَرُوا، وَتَنْبِيه ثَالِث لِمُشْرِكِي مَكَّةَ يَوْمَئِذٍ؛ لِيَتَذَكَّرُوا دَعْوَةَ أَبِيهِمْ إِبْرَاهِيمَ الْمُشْعِرَة بِحِرْصِهِ عَلَى إِيمَانِهِمْ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ حَتَّى خَصَّ مِنْ ذُرِّيَّتِهِ بِدَعْوَتِهِ الْمُؤْمِنِينَ"(2).

ومما يُذكر في المناسبة أنّ الآيات التي سبق ذكرها في الحديث عن البيت الحرام، وخصائصه من كونه مثابة للنّاس وأمناً، وفيه مقام إبراهيم، كل ذلك يجعل القارئ يسأل كيف كان حال هذه البقعة الطّاهرة من ناحية الأمن والرزق والعبادة؟، فجاءت هذه الآية بمنزلة الجواب عن هذا السّؤال من خلال دعاء سيدنا إبراهيم عليه السلام.

❁ شَرْحُ المُفْرَدَاتِ:

1) ﴿قَالَ﴾: فعل ماضٍ، أصل حروفه (قول)، وسبق شرحه في الآية السابقة.

2) ﴿إِبۡرَٰهِـۧمُ﴾: اسم عَلَمٍ أعجميٍّ لخليل الرحمن عليه السلام، وسبق شرحه قريباً في الآية (124).

(1) البقاعي، نظم الدرر: 2/155.

(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 1/713.

3) ﴿رَبِّ﴾: اسم مُضعّفٌ ثُلاثيّ (ربّ)، الجذر اللغويُّ منه (ربب)، وسبق شرحه في الآية السابقة.

4) ﴿ٱجۡعَلۡ﴾: فعل أمر، وجذره اللغويُّ (جعل)، والمراد في الآية: تصيير الشيء بالقول، وسبق شرحه في الآية السابقة.

5) ﴿بَلَدًا﴾: اسم ثلاثي، جذره اللغوي (بلد)، والأصل في معناه "يَتَقَارَبُ فُرُوعُهُ عِنْدَ النَّظَرِ فِي قِيَاسِهِ، وَالْأَصْلُ الصَّدْرُ... وَالْبَلَدُ صَدْرُ الْقُرَى"[1].

وهو "كلُّ موضع متحيِّز من الأرض عامر أو غامر تحيّزه، كأنّ عليه حاجزًا يحبس، وأصل البلد المسكون مساحة خالية متميِّزة تُتَّخذ للإقامة، والإقامة احتباس"[2].

والبلد "المكان المحيط المحدود المتأثر باجتماع قطّانه وإقامتهم فيه، وجمعه: بِلَاد وبُلْدَان"[3] "وسمّي البلد بلدًا لتأثُّره بسكَّانه واجتماع قطَّانه وإقامتهم فيه، والبلد هو المكان المحدود، وغالبًا يكون مسوَّرًا، وقد لا يكون"[4].

والبلد المعنيُّ في الآية: هو مكة المكرمة، وفيه "إِشَارَةٌ إِلَى الْوَادِي الَّذِي دَعَا لِأَهْلِهِ حِينَ أَسْكَنَهُمْ فِيهِ، وَهُوَ قَوْلُهُ: بِوادٍ غَيْرِ ذِي زَرْعٍ عِنْدَ بَيْتِكَ الْمُحَرَّمِ"[5].

6) ﴿ءَامِنًا﴾: اسم فاعل من أمِنَ يأمنُ، وجذرُه من الهمزةِ والميمِ والنونِ، وهي تدلُّ على سكونِ القلبِ وتصديقِه[6].

وأصلُ الأمنِ طمأنينةُ النفسِ وزوالُ الخوفِ[7] وفعلُه: أمِنَ.

ووصفت مكة بالأمن؛ لأنّها كانت في الجاهلية معاذًا لمن استعاذ بها، وكان الرجل منهم لو لقي بها قاتل أبيه أو أخيه؛ لم يهجه، ولم يعرض له حتّى يخرج منها[8].

7) ﴿وَٱرۡزُقۡ﴾: فعل أمر، الماضي منه (رزقَ)، وجذره اللغوي (رزق)، والأصل في معناه

(1) ابن فارس، مقاييس اللغة: (بلد).
(2) جبل، المعجم الاشتقاقي المؤصل: (بلد).
(3) الراغب، المفردات: (بلد).
(4) السمين الحلبي، عمدة الحفاظ: (بلد).
(5) أبو حيان، البحر المحيط: 1/612.
(6) ابن فارس، مقاييس اللغة: (أمن).
(7) الرّاغب، المفردات: (أمن).
(8) ابن جرير، جامع البيان: 2/29.

"عَطَاءٌ لِوَقْتٍ، ثُمَّ يُحْمَلُ عَلَيْهِ غَيْرُ الْمَوْقُوتِ، فَالرِّزْقُ: عَطَاءُ اللَّهِ جَلَّ ثَنَاؤُهُ، وَيُقَالُ: رَزَقَهُ اللَّهُ رِزْقًا"[1].

"الرِّزْقُ: يقال: للعطاء الجاري تارة، دنيويًّا كان أم أخرويًّا، وللنّصيب تارة، ولما يصل إلى الجوف ويتغذّى به تارة"[2].

و"يجوز أن يراد به ما يتغذّى به كالحب ونحوه، وأن يراد ما ينتفع به من مأكولٍ وملبوسٍ ونحوهما"[3]، وهو أيضًا "ما يدخل الجوف من طعام ونحوه باسترسال، أي: دائمًا كالرزق، وهو دائم"[4].

ومعنى رزق "أَهْلِ هَذَا الْبَلَدِ الْأَمِينِ مِنَ الثَّمَرَاتِ ظَاهِرٌ مَعْرُوفٌ بِالْمُشَاهَدَةِ وَالِاخْتِبَارِ الْمُصَدِّقَيْنِ ... فَالثَّمَرَاتُ تُجْبَى، وَتُجْمَعُ مِنْ حَيْثُ تَكُونُ، وَتُسَاقُ إِلَى مَكَّةَ"[5].

8) ﴿أَهْلَهُۥ﴾: اسم ثلاثي مجرَّد، جذره اللغوي (أهل)، وهو اسم جمع، لا واحد له من لفظه، بل من معناه، كرجل وامرأة، وله أصلان: أحدهما "أهل الرجل أخصّ الناس به، وأهل البيت: سكانه، وأهل الإسلام: من يدين به"[6].

وأهل الرجل: "من يجمعه وإياهم نَسَبٌ أو دِينٌ، أو ما يجري مجراهما من صناعة وبيت وبلد"[7]؛ وذلك بحسب ما تضاف إليها وبحسب العلاقة.

9) ﴿ٱلثَّمَرَٰتِ﴾: جمع مؤنَّث بالألف والتاء، جذره اللغوي (ثمر)، وأصل معناه: "شَيْءٌ يَتَوَلَّدُ عَنْ شَيْءٍ مُتَجَمِّعًا، ثُمَّ يُحْمَلُ عَلَيْهِ غَيْرُهُ اسْتِعَارَةً"[8]، والثمر: "حَمْل الشجر، ويقع على كلِّ الثمار، وغلب على ثمر النخل ....، وما ينعقد على أطراف الشجر من حَمْله إذا بلغ يَنْعه: كالبلح واللوبياء وغيرها من ثَمَر الشجر"[9].

ومعنى الثمرات في الآية: "جمع ثمرة، وهو حمل الشجرة من أيّ نوع كان"[10].

---

(1) ابن فارس، مقاييس اللغة: (رزق).
(2) الراغب، المفردات: (رزق).
(3) السمين، عمدة الحفاظ: (رزق).
(4) جبل، المعجم الاشتقاقي المؤصل: (رزق).
(5) محمد رشيد رضا، تفسير المنار: 1/381.
(6) ابن فارس، مقاييس اللغة: (أهل).
(7) الراغب، المفردات: (أهل).
(8) ابن فارس، مقاييس اللغة: (ثمر)
(9) جبل، المعجم الاشتقاقي المؤصل: (ثمر)
(10) الواحدي، التفسير البسيط: 3/312.

10) ﴿ٱلۡأٓخِرِۚ﴾: اسم على زنة فاعل (أاخر) ثمّ صارت الهمزتان مدة، وهو للتفضيل، جذره اللغوي (أخر)، والأصل في معناه "خِلَافُ التَّقَدُّمِ، وَهَذَا قِيَاسٌ أَخَذْنَاهُ عَنِ الْخَلِيلِ، فَإِنَّهُ قَالَ: الْآخِرُ نَقِيضُ الْمُتَقَدِّمِ، وَالْأُخُرُ نَقِيضُ الْقُدُمِ، تَقُولُ: مَضَى قُدُمًا وَتَأَخَّرَ أُخُرًا"[1]، "والآخِرُ: بعدَ الأوّل، وهو صفةٌ، تقول: جاء آخِراً، أي: أخيرًا، وتقديره: فاعل"[2].

ومعناه "يقابل به الأوّل، وآخَر يقابل به الواحد، ويعبّر بالدار الآخرة عن النشأة الثانية، كما يعبّر بالدار الدنيا عن النشأة الأولى"[3].

والآخر صفة تغلب على يوم القيامة أو الدار الآخرة[4]، وهذا اليوم "هو يوم الجزاء؛ إمّا إلى الجنة، وإمّا إلى النار"[5].

11) ﴿فَأُمَتِّعُهُۥ﴾: فعل مضارع، الماضي منه (مَتَّعَ)، مزيد بالتضعيف، جذره اللغوي (متع)، والأصل في معناه "مَنْفَعَةٌ وَامْتِدَادُ مُدَّةٍ فِي خَيْرٍ، مِنْهُ اسْتَمْتَعْتُ بِالشَّيْءِ، وَالْمُتْعَةُ وَالْمَتَاعُ: الْمَنْفَعَةُ"[6].

"وهذا الفعل المضعَّف ومضارعه هما في القرآن بهذا المعنى: البقاء زمنًا ممتدًّا، أي: حسب المعاد في حياة البشر"[7].

"والمَتَاعُ: انتفاعٌ ممتدُّ الوقت، يقال: مَتَّعَهُ اللّٰهُ بكذا، وأَمْتَعَهُ، وتَمَتَّعَ به ... وكلّ موضع ذكر فيه تمتّعوا في الدّنيا؛ فعلى طريق التّهديد، وذلك لما فيه من معنى التّوسّع"[8].

ومعنى الفعل في الآية: أمتِّعه جميع نعم الدنيا، "ولكلّ نعمة متعة؛ فالطعام له متعة، والشراب له متعة، والجنس له متعة، ... إذًا التمتُّع في الدنيا بأشياء متعددة"[9].

(1) ابن فارس، مقاييس اللغة: (أخر).
(2) الجوهري، الصّحاح: (أخر).
(3) الراغب، المفردات: (أخر).
(4) جبل، المعجم الاشتقاقي المؤصل: (أخر).
(5) الشعراوي، تفسير الشعراوي: 6/579.
(6) ابن فارس، مقاييس اللغة: (متع).
(7) جبل، المعجم الاشتقاقي المؤصل: (متع).
(8) الراغب، المفردات: (متع).
(9) الشعراوي، تفسير الشعراوي: 1/583.

12) ﴿قَلِيلًا﴾: اسم على وزن (فَعيل)، الجذر اللغوي له (قلل)، وله أصلان في معناه؛ أولاهما: "يَدُلُّ أَحَدُهُمَا عَلَى نَزَارَةِ الشَّيْءِ، وَالْآخَرُ عَلَى خِلَافِ الِاسْتِقْرَارِ"[1]؛ والمقصود هنا الأول.

و"القِلَّةُ والكثرة يستعملان في الأعداد، كما أنّ العظم والصّغر يستعملان في الأجسام، ثمّ يستعار كلّ واحد من الكثرة والعظم، ومن القلّة والصّغر للآخر"[2]، ومعنى القليل في (أمتّعه): فهو يكون نظرًا إلى نعيم الآخرة وزمانها ودوامها؛ فهو قليل[3].

13) ﴿أَضْطَرُّهُۥٓ﴾: فعل مضارع، ماضيه اضطرَّ، وهو مزيدٌ وزنه (افتعل)، والجذر اللغوي له (ضرر)، وله "ثَلَاثَةُ أُصُولٍ: الْأَوَّلُ: خِلَافُ النَّفْعِ، وَالثَّانِي: اجْتِمَاعُ الشَّيْءِ، وَالثَّالِثُ: الْقُوَّةُ"[4].

و"الضُّرُّ: سوءُ الحال، إمَّا في نفسه؛ لقلّة العلم والفضل والعفّة، وإمَّا في بدنه؛ لعدم جارحة ونقص"[5].

واضطرَّ: "أي: ألجئ، افتعالٌ من الضرّ، فقُلبت التاءُ طاءً لوقوعها بعد حرف الإطباق وقيل: هو حمل الإنسان على ما يضرُّه، وقيل هو - في العُرْفِ -: الحَمْلُ على ما يُكْرَهُ"[6].

ومعنى الاضطرار في الآية: "الالْتِجَاءُ، وَهُوَ بِوَزْنِ افْتَعَلَ، مُطَاوِعُ أَضَرَّهُ إِذَا: صَيَّرَهُ ذَا ضَرُورَةٍ، أَيْ: حَاجَةٍ ... يُقَالُ: اضْطَرَّهُ إِلَى كَذَا أَيْ: أَلْجَأَهُ إِلَيْهِ"[7].

14) ﴿عَذَابِ﴾: اسم ثلاثي، جذره اللغويّ (عذب)، وهو في الأصل من التعذيب، وهو الضرب[8].

وهو أيضاً "حمل الإنسان أن يُعذَّب، أي: يجوع ويسهر، وقيل: أصله من العَذْبِ، فَعَذَّبْتُه،

(1) ابن فارس، مقاييس اللغة: (قلل).
(2) الراغب، المفردات: (قلل).
(3) الراغب، تفسير الراغب: 1/313.
(4) ابن فارس، مقاييس اللغة: (ضرر).
(5) الراغب، المفردات: (ضرر).
(6) السمين، عمدة الحفاظ: (ضرر).
(7) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 1/717.
(8) ابن فارس، مقاييس اللغة: (عذب).

أي: أزلت عَذْبَ حياته على بناء مرّضته، وقذّيته"[1]، "والعَذَابُ: هو الإيجاع الشّديد، وقد عَذَّبَهُ تَعْذِيباً: أكثر حبسه في العَذَابِ"[2].

وهو "الإيجاع الشديد، وأصله من المنع، وسمِّيت العقوبة والإيلام عذابًا باعتبار منعها من معاودة ما عوقب عليه، ومنه الماء العذب؛ لأنّه يُعْذِب العطش"[3].

وأكثر الوارد في القرآن الكريم مقصود منه العذاب الأخروي، وهو كذلك في هذه الآية.

15) ﴿ٱلنَّارِۖ﴾: اسم ثلاثي، الجذر اللغوي (نور)، فألفُها منقلبة عن واو؛ ولذا تصغَّر على نويرة[4].

والأصل في معناه " إِضَاءَةٌ وَاضْطِرَابٌ وَقِلَّةُ ثَبَاتٍ، مِنْهُ النُّورُ وَالنَّارُ، سُمِّيَا بِذَلِكَ مِنْ طَرِيقَةِ الْإِضَاءَةِ، وَلِأَنَّ ذَلِكَ يَكُونُ مُضْطَرِبًا سَرِيعَ الْحَرَكَةِ"[5].

"والنَّارُ تقال: للَّهيب الذي يبدو للحاسّة ... وللحرارة المجرّدة، ولنار جهنّم"[6] والمقصود من النار في الآية: جهنَّم التي ذكرت كثيراً في القرآن الكريم.

16) ﴿وَبِئْسَ﴾: فعل ماضٍ جامد، جذره اللغوي (بأس)، و"البأس والبؤس والبأساء كلها الشدة والمكروه"[7]، "وبِئْسَ كلمة تستعمل في جميع المذامِّ"[8].

وكلمة بئس "ضِدُّ نِعْمَ، فهي تدلُّ على الشقاء والفراغ من الخير، كما أنَّ نعم ضد ذلك"[9].

والمعنى في الآية ذمُّ الصَّيرورة التي سيصير إليها؛ لأنّها جهنم[10].

17) ﴿ٱلْمَصِيرُ﴾: اسم مكان زنة مَفْعِل، جذره اللغوي (صير)، والأصل في معناه "المَآلُ

(1) الراغب، المفردات: (عذب).
(2) الراغب، المفردات: (عذب).
(3) السمين، عمدة الحفاظ: (عذب).
(4) السمين، عمدة الحفاظ: (نور).
(5) ابن فارس، مقاييس اللغة: (نور).
(6) الراغب، المفردات: (نور).
(7) السمين، عمدة الحفاظ: (بأس).
(8) الراغب، المفردات: (بؤس).
(9) جبل، المعجم الاشتقاقي المؤصل: (بأس).
(10) السمين، الدرّ المصون: 3/469.

وَالْمَرْجِعُ مِنْ ذَلِكَ صَارَ يَصِيرُ صَيْرًا وَصَيْرُورَةً، وَيُقَالُ: أَنَا عَلَى صِيرِ أَمْرٍ، أَيْ: إِشْرَافٍ مِنْ قَضَائِهِ، وَذَلِكَ هُوَ الَّذِي يُصَارُ إِلَيْهِ"[1].

وصار والتصيير الانتقال من حال إلى حال[2].

"وصار إلى كذا: انتهى إليه، وقوله تعالى: ﴿إِلَيۡهِ ٱلۡمَصِيرُ ۝٣﴾ [غافر: 3]؛ كقوله: ﴿وَأَنَّ إِلَىٰ رَبِّكَ ٱلۡمُنتَهَىٰ ۝٤٢﴾ [النجم: 42]"[3].

"وكلّ ما في القرآن من التركيب ... هو كلمة (مصير) بمعنى: مآل ومنتهى"[4]، ومعنى المصير في الآية: "فإنّه "مَفعِل" من قول القائل: صرت مصيرًا صالحًا، وهو الموضع الذي يصير إليه الكافر بالله من عذاب النار"[5].

۞ المَعْنَى الإِجْمَالِيُّ:

واذكر أيها النبيُّ ﷺ حين قال إبراهيم داعيًا: ربِّ اجعل مكّة بلدًا آمنًا من الخوف، يأمن فيه كلُّ من يأوي إليه، وارزقْ أهلَه من أنواع الثمرات كالحبوب وسائر الفواكه، وخُصَّ بهذا الرِّزق مَن آمن منهم بالله واليوم الآخر، قال الله: ومن كفر منهم فأرزقه - أيضاً - في الدُّنيا وأُمتِّعه متاعًا وزمناً قليلًا، ثم أُلجئُه مرغَمًا إلى عذاب النار، وبئس المرجع والمقام هذا المصير[6].

۞ الإِيضَاحُ اللُّغَوِيُّ وَالبَلَاغِيُّ:

نكتةُ الدُّعاءِ بعنوانِ الرُّبوبيَّة:

لُطفُ الدُّعاءِ دليلُ فقه الدّاعي، وحسن توكُّله

جاء الدُّعاءُ بعنوانِ الرُّبوبيَّة في قوله تعالى: ﴿وَإِذۡ قَالَ إِبۡرَٰهِـۧمُ رَبِّ ٱجۡعَلۡ هَٰذَا بَلَدًا ءَامِنٗا﴾؛ لأنَّ في ذلكَ اعترافاً صريحاً بأنَّ المطلوبَ لا يقومُ به إلَّا من اتّصف بهذه الصِّفةِ، و(ربِّ) على تقدير: (يا ربّي)، فهو "منادى مضاف منصوب بفتحة مقدرة على ما قبل ياء المتكلم

(1) ابن فارس، مقاييس اللغة: (صير).
(2) الراغب، المفردات: (صير).
(3) السمين، عمدة الحفاظ: (صير).
(4) جبل، المعجم الاشتقاقي المؤصل: (صير).
(5) ابن جرير، جامع البيان: 2/56.
(6) ابن عجيبة، البحر المديد: 1/164، ونخبة من العلماء، التفسير الميسر، ص: 19.

المحذوفة تخفيفًا"[1]، "وَنَادَاهُ بِلَفْظِ الرَّبِّ مُضَافًا إِلَيْهِ، لِمَا فِي ذَلِكَ مِنْ تَلَطُّفِ السُّؤَالِ وَالنِّدَاءِ بِالْوَصْفِ الدَّالِّ عَلَى قَبُولِ السَّائِلِ وَإِجَابَةِ ضَرَاعَتِهِ"[2].

توجيهُ المُتشابِهِ اللَّفظيِّ:

سِرُّ التَّعريفِ والتَّنكيرِ في لفظِ البلدِ:

الـــدُّعـــاءُ يـشـمـلُ إنـشـاءَ الـبـلـدِ الآمــنِ، والاســتــمــرار الآمن

جاء لفظُ البلد في قوله تعالى: ﴿وَإِذۡ قَالَ إِبۡرَٰهِـۧمُ رَبِّ ٱجۡعَلۡ هَٰذَا بَلَدًا ءَامِنًا﴾ مُنكَّرًا، وهو مفعولٌ ثانٍ لفعلِ النِّداء: ﴿ٱجۡعَلۡ﴾، بينما جاء في قولِه تعالى: ﴿رَبِّ ٱجۡعَلۡ هَٰذَا ٱلۡبَلَدَ ءَامِنًا﴾ [إبراهيم: 35] معرَّفًا، ليكون تابعًا كما هي العادة عند النحويين في أنّ المعرف بـ(أل) بعد اسم الإشارة يقع تابعاً عطف بيان على رأي الخليل أو نعتاً على رأي سيبويه[3]، والفرق بين التّنكير والتّعريف، أنَّ التَّنكير يُشير إلى أنَّ البيت الحرام لم يكن بلدًا بعد عند الدُّعاء، فدعا إبراهيم عليه السلام أن يكون البيتُ الحرامُ بلدًا؛ فاستُجيبَ له، وآية إبراهيم تُشيرُ إلى أنَّ الدُّعاء قد تحقَّق وأصبح البيتُ الحرامُ بلدًا، والفرق بين الدُّعاءين، أنَّ الدُّعاءَ بصيغة التَّنكير لإنشاءِ البلدِ، وأمَّا الدُّعاء بصيغةِ التَّعريف فهو دعاءٌ بأن يبقى البلدُ آمنًا[4].

سِرُّ انتقاءِ مفردةِ الأمنِ:

الأمــنُ صفـةٌ راسخةٌ في قيامِ الــحــضــاراتِ واستمرارِها

وبناءً على ما وردَ في النُّكتةِ السَّابقة؛ فقوله تعالى: ﴿ءَامِنًا﴾ في آية البقرة صفة، فهو لم يدعُ بإنشاء البلدِ فحسب، بل بإنشاء بلدٍ آمن، وفي آية إبراهيم مفعولٌ ثانٍ، وهو ما يدلُّ على الاستمراريَّة، وفي هذا الدُّعاء دليلٌ على رحمةِ إبراهيم بالعالمين، وأنَّ الدُّعاء كان بما يُصلحُ النَّاسَ في أمور دينِهم، بالتَّوجُّه للبيتِ، والمحافظة عليه،

(1) مجموعة من الأساتذة، إعراب القرآن الكريم: 1/102.
(2) أبو حيان، البحر المحيط: 1/612.
(3) سيبويه، الكتاب: 2/86.
(4) الإسكافي، درة التنزيل: 1/282-283.

وأمور دُنياهم، بالأمنِ والأمان؛ "فَإِنَّ أَمْنَ الْبِلَادِ وَالسُّبُلِ، يَسْتَتْبِعُ جَمِيعَ خِصَالِ سَعَادَةِ الْحَيَاةِ، وَيَقْتَضِي الْعَدْلَ وَالْعِزَّةَ وَالرَّخَاءَ؛ إِذْ لَا أَمْنَ بِدُونِهَا، وَهُوَ يَسْتَتْبِعُ التَّعْمِيرَ وَالْإِقْبَالَ عَلَى مَا يَنْفَعُ"(1) فاختلال الأمن اختلال لمقوِّمات العيش فيه.

التَّأويلُ المجازيُّ في قولِه: ﴿بَلَدًا ءَامِنًا﴾:

وصــفُ البـلـدِ بـالأمـنِ يجعله مُـتـمـكِّـنًا فيه، ومحيطًا به

الأمنُ في قوله تعالى: ﴿بَلَدًا ءَامِنًا﴾ وصفٌ للبلد، ووزنه (فاعل)، والبلد لا يكون فاعلاً، بل هو مفعول، ففيه عدول من اسم الفاعل إلى اسم المفعول، أي: بلد مأمون(2) على نهج قوله تعالى: ﴿فَهُوَ فِي عِيشَةٍ رَّاضِيَةٍ﴾ [الحاقة: 21]، وكونه بلدًا مأمونًا من دواعي العيش فيها(3)، والبلد مكوَّنٌ من الأشجار والأحجار وسواهما، فهو تعبيرٌ مجازيٌّ على "أَنْ يَكُونَ المراد أهل البلد، كقوله: ﴿وَسْـَٔلِ ٱلْقَرْيَةَ﴾ [يُوسُف: 82] أَيْ: أَهْلَهَا، وَهُوَ مَجَاز؛ لِأَنَّ الْأَمْنَ وَالْخَوْفَ، لَا يَلْحَقَانِ الْبَلَدَ"(4)، "وَإِمَّا عَلَى إِرَادَةِ آمِنًا أَهْلُهُ عَلَى طَرِيقَةِ الْمَجَازِ الْعَقْلِيِّ لِمُلَابَسَةِ الْمَكَانِ"(5).

سِرُّ تقديمِ الأمنِ وتأخيرِه:

تـقـديـمُ الأمـنِ وتـأخـيرُه بـنـاءً على أصلِه بلاغةٌ تـكـشـف تـاريـخَ مكَّة

تقدَّم ذكرُ الأمنِ على ذكرِ الرِّزقِ؛ فقولُه تعالى: ﴿وَٱرْزُقْ أَهْلَهُۥ مِنَ ٱلثَّمَرَٰتِ﴾ عطفٌ على قوله: ﴿ٱجْعَلْ هَٰذَا بَلَدًا ءَامِنًا﴾، بَيْنَما في قولِه تعالى: ﴿ٱلَّذِىٓ أَطْعَمَهُم مِّن جُوعٍ وَءَامَنَهُم مِّنْ خَوْفٍۭ﴾ [قريش: 4] قُدِّم ذكرُ الإطعامِ على ذكرِ الأمنِ.

وجواب ذلك أنّ آية البقرة كان الدُّعاء فيها قبل إنشاءِ البلد، فإيجاد البلد سابقٌ لوجود النَّاس فيه، فالتَّرتيب على أصلِه، وآية قريش إخبارٌ عمَّا تحقَّق، والنَّاسُ تقع عليهم منَّةُ الإطعام قبل منَّة

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 1/715.
(2) الرازي، مفاتيح الغيب: 4/59.
(3) الرازي، مفاتيح الغيب: 4/59.
(4) الرازي، مفاتيح الغيب: 4/59.
(5) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 1/715.

الأمان، فالطَّعام أشدُّ ضرورةً من الأمنِ، فالتَّقديم على أصلِه، وكلُّ آيةٍ جاء فيها التَّقديم بحسب المقامِ، وهو ما يُناسبُ بلاغةَ القرآن.

دلالةُ الألفِ واللامِ في الثَّمراتِ:

الواقعُ يوافقُ الدُّعاء في الاستغراق الحقيقيّ

الألف واللام في الثمرات في قوله تعالى: ﴿وَٱرۡزُقۡ أَهۡلَهُۥ مِنَ ٱلثَّمَرَٰتِ﴾ للاستغراق، "وَهُوَ اسْتِغْرَاقٌ عُرْفِيٌّ، أَيْ: مِنْ جَمِيعِ الثَّمَرَاتِ الْمَعْرُوفَةِ لِلنَّاسِ، وَدَلِيلُ كَوْنِهِ تَعْرِيفَ الاسْتِغْرَاقِ مَجِيءُ (مِنْ) الَّتِي لِلتَّبْعِيضِ، وَفِي هَذَا دُعَاءٌ لَهُمْ بِالرَّفَاهِيَةِ حَتَّى لَا تَطْمَحَ نُفُوسُهُمْ لِلارْتِحَالِ عَنْهُ"[1]، وهو من مقوِّمات الحياة والبقاء[2]، فوجودُ الرِّزق والثَّمرات مؤذنٌ بوجود الحياة واستمرارها، وفي هذا الزَّمنِ وجدنا أنَّ الثَّمرات بالاستغراقِ الحقيقيّ وُجِدت في البلد الحرام، وهو يدلُّ على أنَّ الدُّعاءَ كان حقيقةً في جميع الثَّمراتِ المعروفةِ والمجهولة.

فنُّ الاحتراسِ:

رزقُ الكافرِ في الدُّنيا يغرُّه، والتَّرهيب من شأنه أن يردَعَه

قوله تعالى: ﴿ثُمَّ أَضۡطَرُّهُۥٓ إِلَىٰ عَذَابِ ٱلنَّارِۖ وَبِئۡسَ ٱلۡمَصِيرُ﴾ بعد أن ذكر الحقّ تبارك وتعالى أنّه سيرزق "الْكَافِرَ أَيْضًا قَلِيلًا إِلَى مُنْتَهَى أَجَلِه، وَذَلِكَ أَنَّ اللَّهَ تَعَالَى وَعَدَ الرِّزْقَ لِلْخَلْقِ كَافَّةً مُؤْمِنِهِمْ وَكَافِرِهِمْ"[3] بيّن أنّه سيدفعه إلى جهنم، وبئس المصير، "وَقَوْلُهُ: ﴿ثُمَّ أَضۡطَرُّهُۥٓ إِلَىٰ عَذَابِ ٱلنَّارِۖ﴾ احْتِرَاسٌ مِنْ أَنْ يَغْتَرَّ الْكَافِرُ، بِأَنَّ تَخْوِيلَهُ النِّعَمَ فِي الدُّنْيَا، يُؤْذِنُ بِرِضَى اللَّهِ؛ فَلِذَلِكَ ذَكَرَ الْعَذَابَ"[4]، فلا يغترّ بمتاع الدنيا، فإنّ مصيره النار.

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 1/715.
(2) الشعراوي، تفسير الشعراوي: 1/582.
(3) البغوي، معالم التنزيل: 1/149.
(4) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 1/717.

﴿وَإِذۡ يَرۡفَعُ إِبۡرَٰهِـۧمُ ٱلۡقَوَاعِدَ مِنَ ٱلۡبَيۡتِ وَإِسۡمَٰعِيلُ رَبَّنَا تَقَبَّلۡ مِنَّآۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلسَّمِيعُ ٱلۡعَلِيمُ ١٢٧﴾ [البقرة: 127]

❁ مُناسَبَةُ الآيَةِ لِمَا قَبْلَها:

ذكَّرَ الحقُّ تبارك وتعالى العربَ بنعمه، منها أنّه جعل البيتَ مثابَةً للنّاسِ وأمنًا، ورزقهم من الثّمراتِ، وهذه نعمٌ مادّيّةٌ، ثمّ انتقل إلى النّعمِ المعنويّةِ؛ بأنْ أوحى إلى إبراهيمَ وإسماعيلَ بتطهيرِ البيتِ الحرامِ؛ لأجلِ الطّوافِ والاعتكافِ والصّلاةِ، "ثمَّ ذَكَّرَهُم بعد هذا بأَنَّ إبراهيمَ هو الّذي بنى هذا البيتَ بمُساعدةِ ابنِهِ إسماعيلَ، وذَكَرَ لهم مِنْ دُعائِهِما هُنالكَ ما يُرشِدُهُم إلى العبادَةِ الصَّحيحَةِ والدِّينِ الحَقِّ، ويَجذِبُهُم إلى الاقتِداءِ بذلِكَ السَّلَفِ الصَّالِحِ الّذي يَنتَمونَ إليه ويُفاخِرونَ به"[1].

❁ شَرْحُ المُفْرَدَاتِ:

1) ﴿يَرۡفَعُ﴾: فعلٌ مضارعٌ دالٌّ على الاستقبال، جذرُه اللّغويُّ (رفع)، والأصلُ في معناهُ "يَدُلُّ على خِلافِ الوَضعِ، تقولُ: رَفَعْتُ الشَّيءَ رَفْعًا؛ وهو خلافُ الخَفْضِ، ومَرفوعُ النَّاقَةِ في سَيرِهَا: خِلافُ المَوضوعِ"[2].

و"المعنى المحوريّ جذبُ الشّيءِ، أو دفعُه مسافةً إلى أعلى (بقوةٍ)"[3].

و"الرَّفعُ يُقالُ تارةً في الأجسامِ الموضوعةِ إذا أعليتَها عن مَقرِّها، نحو: ﴿وَرَفَعۡنَا فَوۡقَكُمُ ٱلطُّورَ﴾ [البقرة: 63] ... وتارةً في البناءِ إذا طوّلتَهُ، نحو قولِه: ﴿وَإِذۡ يَرۡفَعُ إِبۡرَٰهِـۧمُ ٱلۡقَوَاعِدَ مِنَ ٱلۡبَيۡتِ﴾"[4].

ومعنى الرّفعِ الوارد في الآية: "البناء عليها لأنّها إذا بنى عليها نُقلتْ عن هيئةِ الانخفاضِ إلى هيئةِ الارتفاعِ، وتطاولت بعد التّقاصر"[5]، ومعنى رفعِ القواعدِ من البيتِ:

(1) محمّد رشيد رضا، تفسير المنار: 1/383.
(2) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (رفع).
(3) جبل، المعجم الاشتقاقي المُؤصّل: (رفع).
(4) الرّاغب، المفردات: (رفع).
(5) الزّمخشريّ، الكشّاف: 1/321.

"ما قعدَ من البيتِ- أي استوطَأ- يعني جعلَ هيئتَه القاعدةَ المستوطئةَ مرتفعةً عاليةً بالبناءِ، ورُويَ أنّهُ كانَ مُؤسَّسًا قبلَ إبراهيمَ؛ فبنى على الأساس"[1].

2) ﴿إِبۡرَٰهِـۧمُ﴾: اسمُ علم أعجميٍّ لخليل الرَّحمن عليه السلام، وسبق شرحه قريباً في الآية (124).

3) ﴿ٱلۡقَوَاعِدَ﴾: جمعُ تكسيرٍ، مفردُه قاعدةٌ، وجذرُه اللّغويُّ (قعد)، "والقواعدُ: أساسُ البناءِ، الواحدةُ قاعدةٌ"[2].

وقواعدُ البيت الواردة في الآية: "هي الأسسُ الثّابتةُ الّتي ينتصبُ عليهَا بناءُ البيتِ"[3].

4) ﴿ٱلۡبَيۡتِ﴾: اسمٌ ثلاثيٌّ مُجرّدٌ، جذرُه اللّغويُّ من (بيت)، وقيلَ: إنّهُ مصدرٌ من الفعلِ باتَ يبيتُ، والأصلُ في معنى البيتِ "المَأوى والمَآبُ ومَجمَعُ الشَّملِ، يُقالُ بَيْتٌ وبُيُوتٌ وأَبيَاتٌ"[4].

و"بَيتُ الرّجل: دارُه، وقَصْرُه، والبَيت من الشَّعَرِ: ما كان أكبر من الخِبَاءِ؛ أي: ما زادَ على شُقَّةٍ واحدةٍ، ثمّ هو مِظَلّةٌ إذا كَبرَ عن البيتِ وهي تُسمَّى بيتًا أيضًا إذا كانَ ضَخمًا مُرَوّقًا"[5].

و"أصلُ البيتِ مأوَى الإنسانِ باللّيلِ، لأنّهُ يقالُ بَاتَ أقامَ باللّيلِ، كما يُقالُ ظلّ بالنّهارِ، ثمّ قد يُقالُ للمسكنِ: بيتٌ من غيرِ اعتبارِ اللّيلِ فيه" وهو هنا معرّفٌ بأل، والمرادُ في الآية الكريمة هو بيتُ اللّهِ العتيق[6].

5) ﴿وَإِسۡمَٰعِيلُ﴾: اسمُ علمٍ على نبيِّ اللّهِ، ابنُ خليلِ الرَّحمنِ إبراهيمَ عليهما السلام، وسبق شرحه قريباً في الآية (125).

6) ﴿رَبَّنَا﴾: اسمٌ مُضعّفٌ ثُلاثيّ (ربّ)، وجذرُه اللّغويُّ (ربب)، ولمعناهُ ثلاثةُ أصولٍ؛ الأصل الأوّل: "إصلاحُ الشَّيءِ والقيامُ عليهِ، فالرّبّ: المالكُ، والخالقُ، والصّاحبُ، والرّبّ: المُصلحُ للشّيءِ"[7].

(1) الزّمخشريّ، الكشّاف: 4/321.
(2) السّمين، عمدة الحفّاظ: (قعد).
(3) جبل، المعجم الاشتقاقي المُؤصَّل: (قعد).
(4) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (بيت)
(5) جبل، المعجم الاشتقاقي المُؤصَّل: (بيت)
(6) الرّاغب، المفردات: (بيت).
(7) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (ربّ).

والأصل الثاني: "لزومُ الشَّيءِ والإقامةُ عليهِ ... والأصلُ الثالثُ: ضمُّ الشَّيءِ للشَّيءِ"[1]، والثّاني والثّالثُ مناسبان للأصل الأوّل، والتّحقيقُ في الأصول الثّلاثة يجعلُهم بابًا واحدًا.

والرّبُّ "الملكُ والسيّدُ والمصلحُ والصّاحبُ، وكلّها معانٍ متقاربةٌ، ولا يُقالُ مُطلقًا إلاّ للباري تعالى"[2].

و"الرَّبُّ في الأصلِ التّربيةُ، وهو إنشاءُ الشَّيءِ حالاً فحالاً إلى حدّ التّمام، يُقالُ رَبَّهُ وربّاه ورَبَّبَهُ"[3]، وقد عبّرَ بالرَّبِّ في نوال الأجر؛ لأنّهُ" النّاظرُ في مصالحهِ ومربيهِ ومدبّرُ أحوالهِ؛ ليكونَ ذلكَ أطمعَ لهُ، فلذلك أتى بصفة الرّبّ"[4].

7) ﴿تَقَبَّلۡ﴾: فعْلُ أَمرٍ مُضعّفٌ، وزنهُ (تَفعّلْ)، جذرُه اللّغويّ (قبل)، وهو "أصلٌ واحدٌ صحيحٌ تدُلُّ كَلِمُهُ كلُّها على مواجهةِ الشّيءِ للشّيءِ، ويتفرّعُ بعد ذلك"[5] و"المعنى المحوريُّ: مُقدَّمُ الشّيءِ الّذي يُتَّجَهُ إليه منه (لملاقاتِه أو النّفاذ فيه)"[6].

"وقبِلَ اللّهُ توبةَ عبدِه وعذرَه وتقبّلَه، بمعنى أنّهُ اعتدلهُ بما أتى به، وبما اعتذرَ به، والتقبّلُ: قبولُ الشَّيءِ على وجهٍ يقتضي ثوابًا كالهديّةِ"[7].

ومعنى ﴿تَقَبَّلۡ﴾ في الآية: "اقبَلْ، فتفعَّلَ هنا بمعنى المُجرَّد"[8].

8) ﴿ٱلسَّمِيعُ﴾: صيغةُ مبالغةٍ زنةُ (فَعِيل)، وجذرُه اللّغويُّ (سمع)، وأصلُ معناه "إيناسُ الشَّيءِ بالأُذُنِ من النَّاسِ، وكُلِّ ذِي أُذُنٍ، تَقولُ: سَمِعْتُ الشَّيءَ سَمْعًا، والسَّمْعُ: الذِّكرُ الجميلُ"[9].

ومعنى السّمعِ "قوّةٌ في الأذنِ به يُدرِكُ الأصواتَ، وفعلُه يُقالُ لهُ السَّمْعُ أيضًا، وقدْ سمعَ سَمْعًا ... وإذا وصفتَ اللّهَ تعالى بِالسَّمْعِ فالمرادُ بهِ عِلمُه بالمَسمُوعاتِ، وتحرّيه بالمجازاةِ بها"[10].

---

(1) المصدر السّابق: (ربّ).
(2) السّمين، عمدة الحفّاظ: (ربّ).
(3) الرّاغب، المفردات: (رب).
(4) أبو حيّان، البحر المحيط: 1/564.
(5) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (قبل).
(6) جبل، المعجم الاشتقاقي المؤصّل: (قبل).
(7) السّمين، عمدة الحفّاظ: (قبل).
(8) السّمين، الدّرّ المصون: (قبل).
(9) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (سمع).
(10) الرّاغب الأصفهانيّ، المفردات: (سمع).

والسّميعَ في الآيةِ: بمعنى السّميعِ لدعائِنا، الّذي لا يعلمهُ سواك[1].

9) ﴿ٱلْعَلِيمُ﴾: صيغةُ مبالغةٍ زنةُ (فَعِيل)، وجذرُه اللّغويُّ (علم)، ولهُ "أصلٌ صحيحٌ واحدٌ، يدُلُّ على أثرٍ بالشَّيءِ يتميّزُ بهِ عن غيرِه، من ذلكَ العَلامةُ"[2]، من معانيهِ أنّهُ "ضدّ الجَهل، رجلٌ عَالمٌ من قومٍ عُلَماءَ وعالمينَ، وأعلامُ القَومِ ساداتُهم، ومَعالِمُ الدّينِ دلائلُه"[3]، والعلمُ بمعناهُ الاصطلاحيّ "إدراكُ الشّيءِ بحقيقتهِ؛ وذلكَ ضَربانِ: أحدُهُما: إدراكُ ذاتِ الشَّيءِ، والثَّاني: الحُكمُ على الشَّيءِ بوجودِ شيءٍ هو مَوجودٌ لهُ، أو نَفيُ شيءٍ هو مَنفيٌّ عنه"[4].

والعلمُ يدُلُّ أيضًا على "اليقين، يُقالُ: عَلِمَ يَعلَمُ إذا تَيَقَّنَ، وجاء بمعنى المعرِفةِ أَيضًا، كما جاءَتْ بمعناهُ، ضُمِّنَ كُلُّ واحِدٍ معنى الآخَر؛ لاشتِراكِهما في كَونِ كُلِّ واحِدٍ مَسبوقًا بالجهل"[5].

ومعنى ﴿ٱلْعَلِيمُ﴾ في الآية: أنّهُ العليمُ "بكلِّ المعلوماتِ الّتي من زمرتِها نيّاتُنا في جميعِ أعمالِنا"[6].

❁ المَعْنَى الإِجْمَالِيُّ:

خطابٌ للرَّسولِ ﷺ، ولأمّتهِ أنْ يذكرُوا منقبةً أخرى من مناقبِ إبراهيمَ عليه السلام، وما فعلَه وابنهُ إسماعيلُ عليه السلام من رفع أُسسِ الكعبة لبناءِ بيت اللّه لعبادِه، وهما يتضرّعانِ إلى اللّه تعالى مع كلّ حجرٍ يضعانهِ: ربّنا تقبّلْ منَّا صالحَ أعمالنا ودعاءَنا؛ إنّكَ أنت السميع لأقوال عبادك، العليمُ بأحوالهم.

وفي الآية دليلٌ: أنَّ الإنسان إذا عمل خيراً ينبغي أن يدعو اللّه بالقَبول، وأن يكون خوفُ الإنسان على قبول العمل بعد الفراغ أشدَّ من شغله بالعمل[7].

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 1/719.
(2) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (علم).
(3) ابن دريد، جمهرة اللّغة: (علم).
(4) الرّاغب الأصفهانّي، المفردات: (علم).
(5) الفيوميّ، المصباح المنير: (علم).
(6) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 1/259.
(7) السمرقندي، تفسير السمرقندي: 1/93، ونخبة من العلماء، التفسير الميسر، ص: 20.

الإيضَاحُ اللُّغَوِيُّ وَالبَلَاغِيُّ:

سِرُّ إيثارِ صيغةِ المضارعِ بدلًا من الماضي:

تصوير حكايةِ الماضي للمخاطَبِ كأنَّهُ محسوسٌ مُشاهدٌ

معنى قوله تعالى ﴿وَإِذۡ يَرۡفَعُ﴾؛ واذكرْ يا محمّدُ أنتَ وأمّتُك ذلكَ الوقتَ الّذي يرفعُ فيه إبراهيمُ القواعدَ، فالفعلُ مضتْ عليه أزمانٌ متطاولةٌ بدلالة ﴿وَإِذۡ﴾ الدّالّة على المضيّ، لكنّهُ عبّرَ عنهُ هنا بالفعل المضارع الدّالّ على الحال، فإنّ "﴿يَرۡفَعُ﴾ حكاية حالٍ ماضيةٍ"[1].

وسرُّ التّعبير بالفعلِ الدّالِّ على الحال هو استحضار الحالة الإبراهيميّة "فإِنَّهُم لحُبِّهِم إبراهِيمَ وإِجلالِهِم إيَّاهُ لا يزالونَ يَذكُرونَ مَناقِبَهُ، وأَعظَمُها بِناءُ الكعبةِ ... حتَّى كأَنَّهُ حاضِرٌ بينهُم وكأَنَّ أَحوالَهُ حاضِرَةٌ مُشاهَدَةٌ"[2].

علّةُ اختيارِ مادّةِ الرَّفعِ دون غيرِها:

تشريفُ البيتِ المرفوعِ، وإيماءٌ إلى وجود البيتِ قبل رفعِه

اختار النَّظم مادّةَ الرفعِ في قوله تعالى ﴿وَإِذۡ يَرۡفَعُ إِبۡرَٰهِـۧمُ ٱلۡقَوَاعِدَ﴾، ودلالةُ رفعِ القواعدِ هو إعلاؤُها لتصيرَ جداراً، وهكذا حتّى يكونَ البناءُ مُكتمِلًا مُرتفِعًا، وهي في أصلِها إطالةٌ للأساس، إلاّ أنّه اختارَ فعلَ ﴿يَرۡفَعُ﴾ من الجذرِ اللّغويّ (رفع)، ومن "مادَّةِ الرَّفعِ دُونَ مادَّةِ الإِطالَةِ ونَحوِها معنى التَّشريف، وفي إثباتِ ذلك للقَواعِدِ كِنايةٌ[3] عن ثُبُوتِهِ للبيت"[4] وفي إيثارِه فعلَ الرَّفعِ دونَ فعلِ البناءِ تشريفٌ آخر، وهو الإيماءُ بأنّ البيتَ موجودٌ قبل الرَّفع، واللّه تعالى هو مَن وضعَ البيتَ، وهذا مزيدُ تشريف.

وفي إسنادِ رفعِ قواعدِهِ لإبراهيمَ عليه السلام تشريفٌ أيضًا؛ فإنّهُ

---

(1) الزّمخشريّ، الكشّاف: 1/321.

(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 1/718.

(3) الكناية "لفظ أُريد به لازم معناه مع جواز إرادة معناه الأصلي مع لازمه؛ كلفظ طويل النِّجاد، والمراد به طول القامة مع جواز أن يراد حقيقة طول النِّجاد أيضًا"، التّفتازاني، مختصر المعاني: 1/257.

(4) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 1/718.

وإنْ كانَ سببًا في رفعهِ بالحجارةِ ونحوِها بعدَ أنْ طُمسَتْ معالمُه بالطّوفانِ، فقد كان حريصًا على رفع مكانة البيت، وإظهارِ شرفِه.

التّعبيرُ بأل دون التَّركيبِ الإضافيّ:

لم يُستعمل في قوله تعالى: ﴿وَإِذۡ يَرۡفَعُ إِبۡرَٰهِـۧمُ ٱلۡقَوَاعِدَ مِنَ ٱلۡبَيۡتِ وَإِسۡمَٰعِيلُ﴾ التَّركيب الإضافيّ (قواعد البيت)، واستعملَ لفظَ ﴿ٱلۡقَوَاعِدَ﴾، وأل هي عوضٌ عنِ المضافِ إليه المحذوفِ؛ "فلم يَقلْ: يَرْفَعُ قواعدَ البيتِ؛ لأَنَّ في إِبْهام القواعد، وتَبيينِها بعد الإِبْهام مِن تَفخيمِ الشَّأن ما ليس في العبارة الأُخرى"[1].

الإيضاحُ بعدَ الإبهامِ يفيدُ تفخيمَ الشّأنِ والتّشويقَ

وفي بيان هذه النكتة قال صاحب المنار: "أَنَّ ذِكرَ القواعدِ أَوَّلًا يُنَبِّهُ الذِّهنَ ويُحَرِّكُهُ إلى طلب مَعرفة القواعد ... فإذا جاءَ البيانُ بعد ذلك كان أَحْسَنَ وَقْعًا في النَّفس، وأَشَدَّ تَمَكُّنًا في الذِّهن"[2] ففي هذا الأسلوب منَ البيان بعد الغموض تشويقٌ للسَّامع، وانتظارٌ لمعرفة هذه القواعد.

نكتةُ تقديم ﴿إِبۡرَٰهِـۧمُ﴾ على ﴿وَإِسۡمَٰعِيلُ﴾ والفصل بَيْنَهما:

تقديمُ الأصلِ على الفرعِ، والرَّافعِ على المعاونِ، والمقصودِ أصالةً على التَّابعِ

في قوله تعالى ﴿وَإِذۡ يَرۡفَعُ إِبۡرَٰهِـۧمُ ٱلۡقَوَاعِدَ مِنَ ٱلۡبَيۡتِ وَإِسۡمَٰعِيلُ﴾ قدّمَ ﴿إِبۡرَٰهِـۧمُ﴾ عليه السلام على ﴿وَإِسۡمَٰعِيلُ﴾ عليه السلام لأسبابٍ متعددةٍ يعودُ مجملُها إلى باب تقديم الأصل على الفرع، وفيه إلماعٌ إلى "كَونِ المأمورِ مِنَ اللّهِ ببناء البيت هو إبراهيمُ"[3] منذُ أنْ أسكنَ ذريتَهُ بوادٍ غيرِ ذي زرعٍ، وكان إسماعيل طفلاً رضيعًا، فكان ذلك من إرهاصات بناء البيت، فإبراهيمُ هو الأصلُ وإسماعيلُ هو الفرعُ، "عن ابن عبّاسٍ قال: جعلَ إبراهيمُ يبنيه، وإسماعيلُ يناولهُ الحجارةَ"[4] فالأصلُ في البناءِ لإبراهيمَ، وإسماعيلُ معينٌ له، وفُصِلَ بينهما: "للإشارة إلى

(1) الرّازيّ، مفاتيح الغيب: 4/63.
(2) محمّد رشيد رضا، تفسير المنار: 1/386.
(3) محمّد رشيد رضا، تفسير المنار: 1/386.
(4) ابن جرير، جامع البيان: 2/35.

التَّفاوت بين عَمَلِ إبراهيمَ وعملِ إسماعيلَ أُوقِعَ العطفُ على الفاعل بعد ذِكرِ المفعول والمُتَعَلِّقات"[1].

دلالةُ التّعبير بصيغةِ الفعل ﴿تَقَبَّلۡ﴾ دون (اقبلْ):

فقهُ الدُّعاءِ قائمٌ على استحضارِ العبدِ تقصيرَه مع مولاه

عبّرَ في قوله تعالى ﴿رَبَّنَا تَقَبَّلۡ مِنَّآۖ﴾ بالفعلِ ﴿تَقَبَّلۡ﴾، بوزنِ (تفعّلْ) الدّالّ على التّكلّفِ[2]، دون أن يُعبّر بصيغةِ (اقبلْ)؛ وذلك لوجودِ فرقٍ بينَ القبولِ والتّقبّلِ؛ "فالتَّقَبُّلُ عبارةٌ عَن أَن يَتَكَلَّفَ الإنسانُ في قبوله، وذلك إنَّما يكونُ حيثُ يكونُ العملُ ناقصًا لا يَستحِقُّ أَن يُقبَلَ؛ فهذا اعترافٌ منهما بالتَّقصير في العمل"[3]؛ فأيُّ عملٍ صادرٍ منَ الإنسانِ يتغيّا رضاهُ تعالى مُتلفّعٌ بالتّقصير والعجز، وهذا ما كان منهما؛ فعبّرا بالفعل الدّالّ على التّكلّف والمشقّةِ، وفيه اعترافُ العبدِ العالم بالتقصيرِ، وتعليمُ الأتباعِ فقهَ الدُّعاءِ.

دلالةُ حذفِ مفعولِ ﴿تَقَبَّلۡ﴾:

العبرةُ بقبولِ الأعمالِ لا بأماكنِها ولا أزمانِها ولا أشخاصِها

دعا إبراهيمُ وإسماعيل عليهما السلام أثناءَ رَفْعِ القواعدِ: ﴿رَبَّنَا تَقَبَّلۡ مِنَّآۖ﴾[4]، والفعلُ ﴿تَقَبَّلۡ﴾ يطلبُ مفعولاً، وقد حُذِفَ للدّلالةِ على طمعِ العبدِ بعمومِ القبولِ؛ ليدخلَ تحته القولُ والعملُ، وكلّ ما يدخلُ تحت عمل الخيرِ؛ لأنّ إظهارَ المفعول قد يُوحي بحصرِه فيه، وهو غيرُ مرادٍ، فهما يرفعانِ البيتَ ويدعوانِ بقبولِ جميعِ الأعمال، وفي الدّعاء إشارةٌ إلى أنَّ العِبرةَ ليست بمقدار العمل، ولا في زمانِه أو مكانِه - ولو كان في بيتِه الحرامِ -، وإنّما في قبوله، وهو دليلٌ معتبرٌ على أنَّ الاعتدادَ بأماكنِ الأعمالِ وأزمانِها دون النَّظرِ إلى طهارةِ القلبِ وسلامتِه من قلَّةِ التَّوفيقِ، وغيابِ الفقهِ.

---

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 1/718.

(2) الزّمخشريّ، المفصل، ص: 371.

(3) الرّازيّ، مفاتيح الغيب: 4/36.

(4) الفرّاء، معاني القرآن: 1/78.

فصل جملة ﴿إِنَّكَ أَنتَ ٱلسَّمِيعُ ٱلۡعَلِيمُ﴾، ودلالة ضمير الفصل فيها:

الدُّعاءُ المبنيُّ على الاعتقادِ الصَّحيحِ شرطٌ في القبولِ

ورد قوله تعالى: ﴿إِنَّكَ أَنتَ ٱلسَّمِيعُ ٱلۡعَلِيمُ﴾ كالتّعليل لقولِه: ﴿تَقَبَّلۡ مِنَّآۖ﴾، أي: إنَّك تسمعُ دعاءَنا، وتعلمُ نيّاتنَا، والضّميرُ ﴿أَنتَ﴾ ضميرُ فَصْلٍ لا محلّ لهُ من الإعراب، وورد هنا توكيدًا للكاف الضّمير المتّصل، وهو "يَرِدُ في الكلام؛ لتقرير المعنى المقصود، وإثباتِه في النّفس"[(1)]، وإفادة الحصرِ؛ فيكونُ المعنَى حَصْرَ السّمعِ والعلم به تبارك وتعالى، على معنى أنَّه "سبحانَه لكمالِه في هذه الصّفة، كأنّهُ هو المختصّ بها دونَ غيرِه"[(2)]، وفائدتُه بيانُ أنَّه لا يستجيبُ الدُّعاءَ إلَّا هو سبحانه، ففيه مناجاةٌ مشوبةٌ بالتَّصريحِ بالتَّوحيدِ الحقِّ، فكأنَّهما قالا: لا يسمعُ دعاءَنا فيستجيب لنا إلَّا أنت، وهذا من دمجِ الدُّعاءِ بالاعتقادِ الحقِّ، طلبًا لأنفسِهم وتعليمًا لغيرِهم.

براعةُ الفاصلةِ في اختيارِ الأسماءِ وترتيبِها:

(السميع) إشارةٌ إلى معرفةِ الدُّعاءِ، و(العليم) إشارةٌ إلى قبولِ النِّيَّةِ

خُتِمَ قولُه تعالى: ﴿إِنَّكَ أَنتَ ٱلسَّمِيعُ ٱلۡعَلِيمُ﴾ بصفتين من صفاته تعالى وهما ﴿ٱلسَّمِيعُ ٱلۡعَلِيمُ﴾، "وهاتانِ الصِّفتانِ مُناسبتانِ هنا غايةَ التَّناسُبِ، إذ صَدَرَ منهما عملٌ وتَضَرُّعُ سؤالٍ، فهو السَّميعُ لضراعتهما، وتسآلِهما التَّقَبُّلَ، وهو العليمُ بنيَّاتِهما في إخلاصِ عملِهما"[(3)].

وقُدِّمَت في قوله تعالى: ﴿إِنَّكَ أَنتَ ٱلسَّمِيعُ ٱلۡعَلِيمُ﴾ صفةُ السّميع، "وتأَخَّرَتْ صفةُ العليم لكونِها فاصلةً ولعمومها، إذ يَشمَلُ علمَ المَسمُوعات وغير المَسمُوعات"[(4)]؛ فالسّمعُ من مقدّماتِ العلم، والعلمُ أشملُ من السّمعِ وأوعبُ، فلا يكونُ عليمًا مَن لم يكنْ سميعًا.

(1) ابن الأثير، الجامع الكبير في صناعة المنظوم من الكلام والمنثور، ص: 104.
(2) الرّازيّ، مفاتيح الغيب: 4/64.
(3) أبو حيّان، البحر المحيط: 1/620.
(4) أبو حيّان، البحر المحيط: 1/620.

دقَّةُ توالي المؤكّدات المفيدةِ للقصرِ:

القصرُ حقيقيٌّ إذ لا يستجيبُ الدُّعاءَ إلَّا هو سبحانه

في قوله تعالى ﴿إِنَّكَ أَنتَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ﴾ طائفةٌ من المؤكّدات، منها (إنّ) "وتعريفُ جُزْءَي هذه الجملة، والإتيانُ بضميرِ الفَصلِ، يُفيدُ قَصرَينِ للمُبالغةِ في كمالِ الوصفَينِ له تعالى بتنزيلِ سَمْعِ غيره، وعلمِ غيره مَنزلةَ العدم"[1].

وهذا القَصر أفادَ مبالغةً، وهو قصرٌ حقيقيٌّ "باعتبارِ مُتَعَلِّقٍ خاصٍّ، أي: ﴿ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ﴾ لدُعائِنا لا يَعلَمُهُ غيرُك، وهذا قَصرٌ حقيقيٌّ مُقَيَّدٌ"[2] قيّدهُ أنّه تعالى يسمعُ دعاءَنا وحدَه، ولا يعلم نيّاتنَا أحدٌ سواهُ، فيكونُ من باب الحقيقة؛ لأنّهُ مقيّدٌ وليس مُطلقاً، ويُعزِّز ذلك أنّ المقصودَ بهاتين الصِّفتين الاستجابة، وهذه لا تكون إلَّا منه وحدَه.

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 1/719.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 1/719.

﴿رَبَّنَا وَٱجۡعَلۡنَا مُسۡلِمَيۡنِ لَكَ وَمِن ذُرِّيَّتِنَآ أُمَّةٗ مُّسۡلِمَةٗ لَّكَ وَأَرِنَا مَنَاسِكَنَا وَتُبۡ عَلَيۡنَآۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ ١٢٨﴾ [البقرة: 128]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِمَا قَبْلَها:

لـمّا سأل إبراهيم وإسماعيل عليهما السلام اللّه تعالى أنْ يَتَقَبّلَ منهما العملَ الصالحَ، سألا هھنا "الزّيادةَ عليه ... بإسلام الوجه، والمسألة له ولابنِهِ ولمَنْ رُزقَ الإيمانَ من ذريّتِه وذريّةِ ابنهِ، فإنّ الإسلامَ لـمّا كانَ ظاهرَ الدّينِ كانَ سريعَ الانثلامِ؛ لأجل مضايقة أمر الدّنيا"[1].

وهذهِ الآيةُ تُمثّلُ امتدادًا للدّعواتِ الإبراهيميّةِ الّتي شكّلتِ الحجرَ الأساسَ للدّينِ الحنيفِ، ومنهَا المناسكُ المذكورةُ في هذهِ الآيةِ، والمرتبطةُ بالبيتِ الحرامِ في الآيةِ الأُولى؛ فحصلَ التّناسبُ على أفضل ما يكونُ.

شَرْحُ المُفْرَدَاتِ:

1) ﴿وَٱجۡعَلۡنَا﴾: فعلُ أمرٍ من (جعلَ يجعلُ)، وجذرُه اللّغويُّ (جعل)، وهو يأتي على عدّةِ أنحاءَ، منهُ اللازمُ، ومنهُ المتعدّي لواحدٍ واثنينِ، و(جعلَ) في الآية من أفعال التّحويل والتّصيير، يتعدَّى لاثنينِ.

وهو "لفظٌ عامّ في الأفعال كلّها، وهو أعمُّ من فعلَ وصنعَ وسائرِ أخواتِها، ويتصرّفُ على خمسةِ أوجُهٍ ... والرّابعُ: في تصييرِ الشّيءِ على حالةٍ دونَ حالةٍ"[2] وهو المرادُ في الآية، وهو التّصييرُ بالقول، "ومعنى جعلَ وما تصرّفَ منها في القرآنِ يكونُ للتّحويلِ والتّهيئةِ على وضعٍ، أو للخلقِ، وهو تحويلٌ للهيئةِ بإنشاءِ هيئةٍ جديدةٍ، فهو إيجادٌ يتأتّى منهُ النَّصبُ"[3].

2) ﴿مُسۡلِمَيۡنِ﴾: اسمُ مثنّى، مفردهُ مسلمٌ، جذرهُ اللّغويّ (سلم)، و "معظمُ بابهِ منَ

(1) البقاعيّ، نظم الدّرر: 2/160.
(2) الرّاغب الأصفهانّي، المفردات: (جعل).
(3) جبل، المعجم الاشتقاقي المؤصّل: (جعل).

الصِّحَّةِ والعافيةِ؛ ... فالسّلامةُ أَنْ يسلمَ الإنسانُ منَ العاهةِ والأذى"[1] ومنهُ الإسلامُ، وهو من الألفاظ الّتي اكتسبتْ دلالاتٍ جديدةً بعدَ مبعثهِ ﷺ.

"وأَسْلَمَ أمرَه للّٰه سبحانه وتعالى، أيْ: سَلَّمَ، وأَسْلَمَ، أي: دخلَ في السّلْمِ، وهو الاستسلامُ"[2] أصبحَ الّذي يُسلمُ؛ بمعنَى دخلَ في الإسلام.

ومعنى الإسلام الحقيقيّ أنْ يكونَ "فوقَ الإيمانِ، وهو أنْ يكونَ معَ الاعترافِ اعتقادٌ بالقلبِ ووفاءٌ بالفعلِ واستسلامٌ للّٰهِ في جميعِ ما قضى وقدّرَ، كما ذُكرَ عن إبراهيمَ عليه السلام في قوله تعالى: ﴿إِذۡ قَالَ لَهُۥ رَبُّهُۥٓ أَسۡلِمۡۖ قَالَ أَسۡلَمۡتُ لِرَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾ [البقرة: 131]"[3].

"ومعنى طَلَبِ أَنْ يَجعَلَهُما مُسلمَينِ: هو طَلَبُ الزِّيادَةِ في ما هُما عليه مِنَ الإسلامِ وطَلَبُ الدَّوامِ عليه"[4].

3) ﴿ذُرِّيَّتِنَآ﴾: اسمٌ مؤنثٌ، جذرهُ اللّغويّ (ذرر)، و "الذّالُ والرّاءُ المشدّدةُ أصلٌ واحدٌ يدُلُّ على لطافةٍ وانتشارٍ، ومن ذلكَ الذَّرُّ: صغارُ النّملِ، الواحدةُ ذَرّةٌ"[5]، ومَن جعلهَا من هذا الباب، أعني "منَ الذرِّ؛ لأنّ اللّٰه استخرجَ الذّريّةَ من ظهرِ آدمَ كالذّرِّ، حينَ أشهدهُم على أنفسِهم"[6].

"والذُّرِّيَّةُ أصلُها: الصّغارُ من الأولادِ، وإنْ كان قد يقعُ على الصّغارِ والكبارِ معًا في التّعارفِ، ويُستعملُ للواحدِ والجمعِ، وأصلُه الجمعُ"[7].

وثمّة من قال: "ذرّ اللّٰهُ الخلقَ في الأرضِ: نَشَرهُم (نشر مسترسل مع دقّةٍ)، وذرّيةُ الرّجلِ: وَلَدُه"[8]، ومعناها في الآية: نَسْلُ الرَّجُلِ.

4) ﴿أُمَّةٗ﴾: اسمٌ مؤنثٌ، جذرهُ اللُّغويُّ (أمم)، والأصلُ في معناهُ "الأَصلُ، والمَرجِعُ، والجَماعَةُ، والدِّينُ، وهذه الأَربَعَةُ مُتَقارِبَةٌ، وبعد ذلك أُصولٌ ثلاثةٌ، وهي القامَةُ،

(1) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (سلم).
(2) الجوهريّ، الصّحاح: (سلم).
(3) الرّاغب، المفردات: (سلم).
(4) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 1/720.
(5) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (ذرّ).
(6) السّمين، عمدة الحفّاظ: (ذرا).
(7) الرّاغب، المفردات: (ذرو).
(8) جبل، المعجم الاشتقاقي المُؤصّل: (ذرو- ذرى).

والحينُ، والقَصدُ ... وكُلُّ قومٍ نُسِبوا إلى شيءٍ وأُضيفوا إليه فَهُم أُمَّةٌ، وكُلُّ جيلٍ مِنَ النَّاس أُمَّةٌ على حِدة"[1].

وجملة القول: الأُمَّة: كلُّ جماعةٍ يجمعهُم أمرٌ ما، إمّا دينٌ واحدٌ أو زمانٌ واحدٌ أو مكانٌ واحدٌ، سواءٌ كان ذلك الأمرُ الجامعُ تسخيرًا أو اختيارًا"[2].

5) ﴿وَأَرِنَا﴾: فعلُ أمرٍ، الماضي منهُ (أرى) المزيدُ بالهمزةِ، وجذرهُ اللّغويّ (رأي)، والأصلُ في معناهُ النَّظرُ والإبصارُ بِعَينٍ أو بَصيرَةٍ، فالرَّأيُ: ما يَراهُ الإنسانُ في الأَمر، وجَمعُهُ الآراءُ، رأى فُلانٌ الشَّيءَ وراءهُ، وهو مقلوبٌ[3].

ورؤيةُ الإنسانِ للمرئيّ هو الإدراكُ لهُ، ويكونُ بعدّةِ طرقٍ بحَسب قُوى النّفس كالحاسّةِ والوهمِ والتّخيّلِ والعقل[4].

ومعنى ﴿وَأَرِنَا﴾ في الآيةِ: أبرِزها لنا، وبيّنهَا وعلِّمنا إيّاها[5].

6) ﴿مَنَاسِكَنَا﴾: جمعُ تكسيرٍ، زنةُ (مفَاعِل)، مفردها (منسَك)، وجذرهُ اللّغويُّ (نسك)، والأصلُ في معناهُ "عِبادةٌ وتَقَرُّبٌ إلى اللّٰه تعالى، ورَجُلٌ ناسِكٌ، والذَّبيحَةُ الّتي تَتَقَرَّبُ بها إلى اللّٰهِ نَسيكَةٌ، والـمَنسَكُ: الـمَوضِعُ يذبَح فيه النَّسائِكُ"[6].

والـمَنْسِكُ و الـمَنْسَكُ: الـمَوضِع الّذي تُذْبَحُ فيه النَّسائِكُ"[7].

والنّسكُ أيضًا "العبادةُ، والنَّاسِكُ: العابدُ، واختُصَّ لفظ (النّسك) بأَعمالِ الحجِّ، والـمَناسكُ: مواقفُ النُّسُك وأعمالُها"[8].

ومعنى ﴿وَأَرِنَا مَنَاسِكَنَا﴾: بيّن لنا أعمالَ حَجِّنا، ومواقفَ عباداتنا[9].

7) ﴿وَتُبْ﴾: فعلُ أمرٍ من (تابَ يتوبُ)، وجذرهُ اللّغويُّ (توب)، والأصلُ في معناهُ:

(1) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (أمّ).
(2) الرّاغب، المفردات: (أمّ).
(3) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (رأي).
(4) الرّاغب، المفردات: (رأى).
(5) السّمين، عمدة الحفّاظ: (رأى).
(6) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (نسك).
(7) الجوهريّ، الصّحاح: (نسك).
(8) الرّاغب، المفردات: (نسك).
(9) السّمين، عمدة الحفّاظ: (نسك).

الدّلالة على الرُّجُوع والعودة والإنابة إلى الله تعالى مع النّدم والعزم على ترك الذنب[1].

قال الراغب: "والتَّوبَةُ في الشّرعِ: تركُ الذّنبِ لقبحِه، والنّدمُ على ما فَرَطَ منهُ، والعزيمةُ على تركِ المُعاودةِ، وتدارُكِ مَا أمكنهُ أنْ يُتداركَ من الأعمالِ بالأعمال بالإعادةِ، فمتى اجتمعتْ هذهِ الأربعُ فقد كملتْ شرائطُ التّوبةِ"[2]، ومعنَى تُبْ علينَا في الآيةِ أيْ: اغفرْ لنا، وتجاوزْ عنّا[3].

8) ﴿ٱلتَّوَّابُ﴾: صيغةُ مبالغةٍ من (تابَ يتوبُ)، وواحدٌ من أسمائِه تعالى.

ومعنى التوّاب على عبدِهِ في الآية: هو "التّاركُ مجازاتهِ بإنابتِه إلى طاعتهِ بعدَ معصيتهِ بما سلفَ من ذنبه"[4].

9) ﴿ٱلرَّحِيمُ﴾: صيغةُ مبالغةٍ من (رحمَ يرحمُ)، وهي صفةٌ مُشتقّةٌ من الرّحمةِ، ويمكنُ أن يُطلقَ على غيرِه تعالى، والجذرُ اللّغويُّ (رحم)، والأصلُ في معناهُ "الرِّقَّةُ والعَطفُ والرَّأفَةُ، يُقالُ من ذلك رَحِمَهُ يَرحَمُهُ، إذا رَقَّ له وتَعَطَّفَ عليه، والرُّحْمُ والمَرحَمَةُ والرَّحمَةُ بمعنًى، والرَّحِمُ: علاقَةُ القَرابَة"[5].

والرَّحمة إذا وُصِفَ بها الباري فليسَ يُرادُ بها إلّا الإحسانُ المُجرّدُ دونَ الرّقّةِ، وعلى هذا رُويَ أنّ الرَّحمَةَ من اللهِ إنعامٌ وإفضالٌ، ومن الآدميّينَ رقّةٌ وتعطّفٌ"[6]، وهو الرّحيمُ "بعِبادِهِ مهما يُسِئْ أَحَدُهُم بما هو سَبَبٌ لِغَضَبِهِ - تعالى - ويَرجِعْ إليه؛ فإنَّه يَحُفُّهُ برَحمتِه"[7].

❁ المَعْنَى الإِجْمَالِيُّ:

يبيّن الله سبحانه دعاء إبراهيم وإسماعيل عليهما السلام حين قالا: ربّنا اجعلنا مسلمين لك

---

(1) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (توب).
(2) الرّاغب، المفردات: (توب).
(3) البغويّ، معالم التّنزيل: 1/151.
(4) ابن جرير، جامع البيان: 1/547.
(5) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (رحم).
(6) الرّاغب، المفردات: (رحم).
(7) محمد رشيد رضا، تفسير المنار: 1/232.

مُنقادين خاضعين لك، وألحق بنا ذريتنا في طريق الانقياد والطاعة لشرعك، وعرّفنا مواقف عباداتنا، وتُبْ علينا وتقبّل منا، إنك أنت قابلُ التَّوب الرحيم بعباده.

❁ الإيضاحُ اللُّغويُّ وَالبَلَاغِيُّ:

بلاغةُ تكرار النّداءِ:

إظهارُ الضَّراعةِ وبيانُ لذَّة الدُّعاء بالرُّبوبيَّة

قوله تعالى: ﴿رَبَّنَا﴾ نداءٌ حُذِفت منه أداة النّداء على تقدير (يا ربّنا)، وقد كُرّر النّداء هنا، فقد ذكر في الآيتين السّابقتين، وفائدة تَكرار النّداء "إظهارُ الضَّرَاعَةِ إلى اللَّه تعالى، وإظهارُ أَنَّ كُلَّ دعوةٍ مِنْ هاتِهِ الدَّعَواتِ مَقصودَةٌ بالذَّاتِ"[1]، وبيانُ لذةِ الدُّعاءِ بلفظِ الربِّ المُضافِ إلى ضمير المتكلِّم، فإنَّ العبدَ يُكرِّر النِّداءَ لتلذُّذه بذلك، ولإظهار ضراعتِه والتجائه، ولمعرفته بحبِّ اللّه تعالى لذلك الدُّعاء.

تخصيصُ الاستسلامِ والخضوعِ للهِ:

الاستسلامُ شرفُ المؤمنِ، إذا أحاطَ بحياتِه كلِّها

ورد في قوله تعالى: ﴿وَٱجۡعَلۡنَا مُسۡلِمَيۡنِ لَكَ﴾ لفظُ ﴿مُسۡلِمَيۡنِ﴾ و"تفسير المسلم في اللّغة الّذي قد استسلمَ لأمرِ اللّهِ كلّه، "وخضع له، فالمسلم الحقُّ هو الّذي أظهرَ القبولَ لأمرِ اللّهِ كلّه"[2] وفي الآيةِ دعوةٌ من إبراهيمَ وإسماعيلَ عليهما السلام أن يصيّرهما مُسلمَين له على سبيل القصر، فالخضوعُ والاستسلامُ له سبحانَه؛ بدلالة تقديم الاسم ﴿مُسۡلِمَيۡنِ﴾ على المُتعلّق ﴿لَكَ﴾، فكأنّه لا شيءَ لهما في حياتهما إلّا الاستسلامُ والخضوعُ مصداقًا لقوله تعالى: ﴿وَمَا خَلَقۡتُ ٱلۡجِنَّ وَٱلۡإِنسَ إِلَّا لِيَعۡبُدُونِ﴾ [الذّاريات: 56]، ولأنّه يصحّ لغةً أن يقولا: (واجعلْنا لك مسلمَين) وعندئذٍ لا يُؤدِّي الكلامُ المقصودَ بدقَّةٍ.

ولسبب ثانٍ يؤيّد الاختصاصَ والقصرَ في الاستسلام والخضوع، وأنّ أمرَ الإنسان كلّه خضوعٌ للّه، فقد ذكر أنّ "هذه الآيةَ مَترُوكَةٌ

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 1/719.
(2) الزّجّاج، معاني القرآن وإعرابه: 1/208.

هذا الدّعاء يعكس حِـرْصَ إبراهيـم وإسمـاعيـل عليهما السلام عـلى الازديـــاد في الـخـضـوع والاستسلام لله تعالى

الظَّاهِرِ؛ لأَنَّها تَقتضي أَنَّهُما وَقتَ السُّؤالِ غيرُ مُسلِمَينِ"[1]، والصّواب أنّهما كانا مُسلمَين، وهو ممّا يؤيّد أنّ دعاءَهما بجعلِهما مُسلمَينِ يرادُ منه الاختصاصُ، أي: أنْ يكونَ أمرهُما كلّه في خضوعٍ وانقيادٍ، "وطَلَبُ تَحصِيلِهِ في الزَّمانِ المُستَقبَلِ لا يُنافي حُصولَهُ في الحالِ"[2].

دلالةُ حرفِ ﴿مِن﴾ في قوله: ﴿وَمِن ذُرِّيَّتِنَآ﴾:

التأدُّبُ مع الله في الدُّعاء

أفادَ حرفُ الجرِّ في قولِه تعالى: ﴿وَمِن ذُرِّيَّتِنَآ أُمَّةً مُّسۡلِمَةً لَّكَ﴾ التّبعيضَ، وليس الشّمول والتّعميم[3] أي: اجعل بعضًا من ذريّتنا مُسلمين، "وإِنَّما سأَلا ذلك لبَعضِ الذُّرِّيَّةِ؛ جَمعًا بينَ الحِرصِ على حُصولِ الفَضيلَةِ للذُّرِّيَّةِ، وبينَ الأَدَبِ في الدُّعاءِ"[4]؛ لقوله تعالى: ﴿وَبَٰرَكۡنَا عَلَيۡهِ وَعَلَىٰٓ إِسۡحَٰقَۚ وَمِن ذُرِّيَّتِهِمَا مُحۡسِنٞ وَظَالِمٞ لِّنَفۡسِهِۦ مُبِينٞ﴾ [الصّافات: 113]، ولعلمِهما أنَّ الذُّرِّيَّةَ لن تكونَ كلُّها على قلبٍ واحدٍ ومستوًى واحدٍ في الاستسلام والخضوع لله.

سرُّ التَّعبير بالرُّؤيةِ دون غيرِها من الألفاظِ:

التّعبير بفعل الرّؤية فيه دلالةٌ بصريّةٌ وعلميّةٌ

الفعل (أرِ) في قوله تعالى: ﴿وَأَرِنَا مَنَاسِكَنَا﴾ فعلُ أمرٍ، ماضيه (رأى)، وجيءَ به دون أبصرنا، أو عَلِّمْنا، ليحتملَ دلالّتين؛ فيكون بمعنى بصرته عيانًا، أو أعلمته يقينًا[5]؛ فيكون التّركيب "وأَرِنا مَناسِكنا سؤالًا لإرشادِهِم لكَيفيّةِ الحَجِّ الّذي أُمِرَا به مِن قَبلُ أَمرًا مُجمَلًا"[6]، والمناسك منها ما يُشاهد عيانًا، ومنها ما يُدرك علمًا، والفعل ﴿وَأَرِنَا﴾ يشتمل على الدّلالّتين، وهو من باب الإيجاز، بأن يعبّر بفعلٍ حاملٍ معنيين مطلوبين في الآية.

(1) الرّازيّ، مفاتيح الغيب: 4/64.
(2) الرّازيّ، مفاتيح الغيب: 4/65.
(3) أبو حيّان، البحر المحيط: 1/620.
(4) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 1/720.
(5) ابن يعيش، شرح المفصل: 4/324.
(6) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 1/721.

تقديمُ المناسكِ على التّوبةِ من باب تقديم السّبب على النّتيجة:

قُدِّمَتْ رؤيةُ المناسك على طلب التّوبة في قوله تعالى: ﴿وَأَرِنَا مَنَاسِكَنَا وَتُبْ عَلَيْنَآۖ﴾؛ فقدّم السّبب على النّتيجة؛ فإنّ المناسك مقصود بها مناسك الحجّ[1]، وقد جاءَ أنّ «مَن أَمَّ هذا البيتَ، فلم يَرفُثْ ولم يَفسُقْ، رَجَعَ كيَومِ ولدَتْهُ أُمُّهُ»[2]، فقضاء المناسك سبب لحصول التّوبة؛ لذلك جرى تقديمها.

بلاغةُ الفاصلةِ في اختيارِ صفتِي ﴿ٱلتَّوَّابُ﴾، و﴿ٱلرَّحِيمُ ١٢٨﴾ وترتيبهما:

تناسُبُ الصفاتِ بتقديم النتيجةِ على سببِها

قوله تعالى: ﴿إِنَّكَ أَنتَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ﴾ جملةٌ مُشتملةٌ على صِفتين من صفات الحقّ تبارك وتعالى ﴿ٱلتَّوَّابُ﴾، و﴿ٱلرَّحِيمُ ١٢٨﴾، وهما متناسبتان مع السّياق القرآنيّ القبليّ "لِمُجاورةِ الدُّعاءِ الأَخيرِ في قولِهِ: وتُبْ علينا"[3]، فجاءت صفة التّوّاب متناسبة أشدّ المناسبة ثمّ جاءت صفة الرّحيم؛ لتناسب الفاصلة القرآنيّة قبلها ﴿ٱلْعَلِيمُ ١٢٧﴾ وبعدها ﴿ٱلْحَكِيمُ ١٢٩﴾؛ هذا من الناحية اللّفظية.

أما من حيث المعنى فقد "تأَخَّرَتْ صفةُ الرَّحمةِ لِعُمومِها، لأَنَّ مِنَ الرَّحمَةِ التَّوبَةَ"[4]؛ فإنّ قبولَ توبة التّائب رحمةٌ من الله، والرَّحمةُ سببُ التَّوبةِ؛ فهو توّابٌ لأَنَّه رحيمٌ بعبادِه.

توالِي المؤكِّداتِ في الجملةِ يفيدُ التّوكيدَ والقصرَ:

جاءَتْ جملةٌ من المؤكّداتِ في قولِه تعالى: ﴿إِنَّكَ أَنتَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ﴾ منها (إنّ)، وتعريفُ جُزْأَي الجملة، وتوسيط الضّمير المنفصل بين المُسند إليه والمُسند؛ وهو ضميرٌ يحتمل[5] الابتداء والتّوكيد والفصل، والمسحة التّوكيديّة بيّنة فيها، فضلاً عن التّعبير بصفتي المبالغة، والمبالغة قرينة التّوكيد، والغرض من ذلك تحقيق القصر، فالمعنى الإقرار منهما بأنّه تعالى هو التوّاب الرّحيم لا غيره، وهو من القصْرِ الحقيقيِّ؛ لأنَّ التَّوبةَ لا تكون إلّا منه سبحانه وتعالى، ومثلُها الرَّحمةُ التي تنشَأُ التَّوبة.

---

(1) ابن جرير، جامع البيان: 3/76.

(2) رواه الإمام أحمد، حديث رقم: (7381).

(3) أبو حيّان، البحر المحيط: 1/625.

(4) أبو حيّان، البحر المحيط: 1/625.

(5) عضيمة، دراسات لأسلوب القرآن الكريم: 8/142.

﴿ رَبَّنَا وَٱبۡعَثۡ فِيهِمۡ رَسُولٗا مِّنۡهُمۡ يَتۡلُواْ عَلَيۡهِمۡ ءَايَٰتِكَ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلۡكِتَٰبَ وَٱلۡحِكۡمَةَ وَيُزَكِّيهِمۡۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡحَكِيمُ ١٢٩ ﴾

[البقرة: 129]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِمَا قَبْلَها:

لـمّا دعا إبراهيمُ عليه السلام اللّه تعالى أن يجعل مكّة بلدًا آمنًا، وأن يرزق أهله من الثّمرات، وأن يجعل من ذريّته أمّة مسلمة، وأن يُريَه المناسك، ويعلّمه إيّاها، ختمها بأن "طلب لذرّيّته مثل ذلك بواسطة من جرتِ العادة به لأمثالهم، فقال: ﴿رَبَّنَا وَٱبۡعَثۡ فِيهِمۡ﴾ أي: الأمّة المسلمة الّتي من ذريّتي، وذريّة ابني إسماعيل عليه السلام ﴿رَسُولٗا مِّنۡهُمۡ﴾؛ ليكون أرفق بهم، وأشفق عليهم، ويكونوا هم أجدرَ باتّباعه، والتّرامي في نصره، وذلك الرّسول هو محمّد صلى الله عليه وسلم"(1).

شَرْحُ المُفْرَدَاتِ:

1) ﴿وَٱبۡعَثۡ﴾: الأصل في البعث: الإرسالُ والإثارة، ومنه "بَعَثت البَعير فانبعث إذا حللت عِقَاله وأرسلته لو كانَ باركاً فأثرته ... والبَعْث يكون نَعْتاً للقوم يُبعثون إلى وجه من الوُجوه؛ مثل السّفَر والرّكب"(2).

ويختلف البعث بحسب اختلاف ما عُلِّق به، فَبَعْث الرسلِ إرسالُهم سفراءَ بين اللّه وخلقه؛ لتبليغ ما كُلِّفوا به.

2) ﴿رَسُولٗا﴾: اسمٌ على وزن (فَعُول)، من الجذرِ اللّغويِّ (رسل) فعلٌ ماضٍ، المُجرّدُ منه (رسلَ)، وأصلُ المعنى "يدُلُّ على الانبعاثِ والامتدادِ، فالرّسلُ: السَّيرُ السّهلُ"(3).

"ويُقالُ ناقةٌ رِسْلَةٌ سهلةُ السّير، وإبلٌ مَراسِيلُ مُنبعثةٌ انبعاثًا سَهلًا، وأرسلناكَ بمعنى جعلناكَ رسولاً من عندِنا للنّاسِ، أي: أنتَ الرّسولُ الـمُنبَعِثُ"(4).

(1) البقاعيّ، نظم الدّرر: 2/161.
(2) الأزهريّ، تهذيب اللّغة: (بعث).
(3) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (رسل).
(4) الرّاغب، المفردات: (رسل).

"والرّسول ينطلق من طرف من أرسله برسالة متميّزة عنه، أي: ليس هو منشئها"[1] فالرّسولُ هو المبعوثُ من اللهِ تعالى إلى خلقِه.

3) ﴿يَتۡلُواْ﴾: فعلٌ مضارعٌ مرفوع بالضمة المقدَّرة على الواو للثقل، جذره من التّاء واللّام والواو، و"تَلَا فلانٌ القرآن يتلُو تِلاوةً، وتَلا الشّيءَ: تَبِعَه تُلُوّاً ... وكلُّ شيءٍ تَلا يتلُو شيئاً فهو تِلْوُه"[2].

وهو "الاتِّباعُ، يقالُ: تَلوتُهُ إذا تَبِعتَهُ، ومنهُ تلاوةُ القرآنِ؛ لأَنَّهُ يُتبِعُ آيةً بعدَ آيةٍ"[3]، والمُراد من التّلاوة في الآية: "ذِكرُها المَرَّةَ بعدَ المَرَّة؛ لِتَرسَخَ في النَّفسِ، وتُؤَثِّرَ في القَلبِ"[4].

4) ﴿ءَايَـٰتِكَ﴾: جمعٌ بالألف والتّاء، مفرده (آية)، أصلُها (أاية) ثمّ صارتَا مدّةً، وذُكِرَ "أنّها مُشتقّةٌ منَ التّأيِّي الّذي هو التّثبّتُ، والإقامةُ على الشّيءِ"[5]، والآيةُ تأتي بمعنى العلامةِ والشّخصِ والجماعةِ[6]، والآية: طائفةٌ منَ القرآن، يتّصلُ بعضُها ببعض إلى انقطاعِها، طويلةً كانتْ أم قصيرةً"[7].

"ولكلِّ جملةٍ منَ القرآنِ دالّةٌ على حُكم آيةٍ ... وقد يُقالُ لكلِّ كلام منهُ مُنفصلٍ بفصلٍ لَفظيٍ آيةٌ، وعلى هذا اعتبارُ آياتِ السّورِ الّتي تُعَدُّ بها السُّورةُ"[8] و"الآيةُ من القرآن الكريم جماعة من حروف القرآن، أي: كلماته"[9].

5) ﴿وَيُعَلِّمُهُمُ﴾: الجذر (علم)، له " أصلٌ صحيحٌ واحدٌ، يدُلُّ على أثرٍ بالشّيءِ يتميّزُ بِهِ عن غيرِه، من ذلكَ العَلامةُ"[10].

من معانيه أنّه "ضدُّ الجَهل، رجلٌ عَالمٌ من قومٍ عُلَماءَ وعالمِينَ، وأعلامُ القَومِ ساداتُهم، ومَعالِمُ الدّينِ دلائلُه"[11].

---

(1) جبل، المعجم الاشتقاقي المُؤصَّل: (رسل).

(2) الخليل، العين: (تلو).

(3) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (تلو).

(4) محمّد رشيد رضا، تفسير المنار: 1/388.

(5) الرّاغب، المفردات: (أيّ).

(6) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (أيي).

(7) الكفويّ، الكليّات، ص: 41.

(8) الرّاغب، المفردات: (أيّ).

(9) جبل، المعجم الاشتقاقي المُؤصَّل: (أيي، إي).

(10) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (علم).

(11) ابن دريد، جمهرة اللّغة: (علم).

والعلم بمعناه الاصطلاحيّ: " إدراكُ الشّيءِ بحقيقتِه؛ وذلكَ ضَربانِ: أحدُهُما: إدراكُ ذاتِ الشَّيءِ، والثَّاني: الحُكمُ على الشَّيءِ بوجودِ شيءٍ هو مَوجودٌ لهُ، أو نَفيُ شيءٍ هو مَنفِيٌّ عنه"[1].

والعلم يدُلُّ أيضًا على "اليَقين، يُقالُ عَلِمَ يَعلَمُ إذا تَيَقَّنَ، وجاءَ بمعنى المَعرِفَةِ أَيضًا، كما جاءَتْ بمعناهُ: ضُمِّنَ كُلُّ واحِدٍ معنى الآخَرِ؛ لاشتِراكِهِما في كَونِ كُلِّ واحِدٍ مَسبوقًا بالجَهلِ"[2].

6) ﴿ٱلْكِتَٰبَ﴾: اسمٌ على وزن (فِعال) أحدُ أوزانِ المصادرِ، جذره الكاف والتّاء والباء، والأصل في ذلك ضمُّ الشّيءِ إلى الشّيءِ[3].

ويُطلق الكتاب على الخطّ والكتابة، كما قال اللّه تعالى عن عيسى عليه السلام ﴿وَإِذْ عَلَّمْتُكَ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ﴾ [المائدة: 110] وقد يُقال الكتاب، ويُراد به المكتوب من إطلاق المصدر وإرادة اسم المفعول، مثل الفِراش ويرادُ به المفروش، والغِراس ويراد به المغروس، فالكتاب هو الصّحيفة الّتي كُتِبَ فيها[4].

ويأتي (الكتاب) في القرآن الكريم على أحد عشَر وجهاً[5]، والمراد به في الآية هنا القرآن.

7) ﴿وَٱلْحِكْمَةَ﴾: مصدرٌ للفعل: (حكمَ يحكمُ)، والأصل في معناه: المَنعُ، وأَوَّلُ ذلك الحُكمُ، وهو المَنعُ مِنَ الظُّلم، وسُمِّيَتْ حَكَمَةُ الدَّابَّةِ حكمةً؛ لأَنَّها تَمْنَعُها، يُقالُ حَكَمْتُ الدَّابَّةَ وأَحكَمتُها ... والحِكمَةُ هذا قياسُها؛ لأَنَّها تَمنَعُ مِنَ الجَهلِ[6].

والحَكَم: اللّه تبارك وتعالى، وهو أحكم الحاكِمين، وهو الحَكيم لَهُ الحُكْم، ويأتي لفظ الحُكم بمعنى: العِلم والفِقْه والقضاء بالعَدلِ[7].

---

(1) الرّاغب، المفردات: (علم).
(2) الفيوميّ، المصباح المنير: (علم).
(3) ابن دريد، جمهرة اللّغة: (كتب).
(4) نصر الهورينيّ، المَطَالِعُ النَّصرية، ص: 41.
(5) ابن الجوزيّ، نزهة الأعين النّواظر، ص: 526- 527.
(6) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (حكم).
(7) الأزهريّ، تهذيب اللّغة: (حكم).

ومعنى الحكمة في الآية: الإصابة في القول والعمل جميعًا، فلا يُسمّى حكيمًا إلَّا إذا اجتمع فيه الأمران؛ فيضع كلّ شيء موضعه[1].

8) ﴿وَيُزَكِّيهِمۡۖ﴾: فعلٌ مضارعٌ مُضعّفٌ من (زكّى يزكّي)، والمصدر منه تزكية، جذره من (زكو) أو (زكي)، وللتّزكية معانٍ عديدة؛ فمنها تطهير المال، ومنها الصّلاح، ومنها التّقوى، ومنها الزّيادة والنّماء، ولا سيّما للزّروع[2].

ومعنى تزكية اللّه عباده هي أنّ جعلهم مسلمين مطهَّرين من أدناس المشركين[3] وتزكية الرسول من أُرسل إليهم هي تطهيرهم من دنس الشّرك[4].

9) ﴿ٱلۡعَزِيزُ﴾: صيغة مُبالَغة على وزن (فَعِيل) من الفعل (عزّ يعزّ)، والأصل في معناه "يدُلُّ على شِدَّةٍ وقُوَّةٍ وما ضاهاهُما، مِنْ غَلَبَةٍ وقَهْر"[5] و"العِزَّةُ: حالةٌ مانِعة للإنسان من أن يُغلَب، من قولهم أرضٌ عَزَازٌ؛ أي: صُلْبَةٌ"[6].

و"العِزّ خلاف الذّلّ، كما أنّ الذُّلّ لين ورخاوة، ومنه العِزَّة: الشّدّة والقوّة والامتناع، والعَزِيز: القويّ الشّديد الغالب الّذي لا يُغْلَب"[7].

ومعنى العزيز في الآية: "ذو العزّة وهي القوّة، والشدّة، والغلبة، والرّفعة"[8].

❁ المَعْنَى الإِجْمَالِيُّ:

هذه الآية تتمة لدعاء إبراهيم وإسماعيل عليهما السلام، حيث دَعَوا اللّه تعالى أن يجعل في ذريّتهما رسولًا هاديًا منهم، يعرفون صدقه وعِفَّته وأمانته، وتكون وظيفته أن يتلو عليهم آيات الوحي المنزَّل عليه، ويُعلِّمهم الكتاب والسُّنّة المطهّرة، ويُطهّرهم من رجس الشِّرك وأدران المعاصي، ثمّ تضرّعا بالاسمين الجليلين: إنك يا ربّنا أنت العزيز الذي يفعل ما يشاء ولا يُغلب، الحكيم الذي يضع كلَّ أمر في موضعه الصّحيح النّافع.

(1) النّيسابوريّ، غرائب القرآن: 1/404.
(2) الخليل، العين: (زكو).
(3) السّمين، عمدة الحفّاظ: (زكو).
(4) الآلوسّي، روح المعاني: 1/390.
(5) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (عزّ).
(6) الرّاغب، المفردات: (عزّ).
(7) جبل، المعجم الاشتقاقي المُؤصَّل: (عزز).
(8) القاسمي، محاسن التأويل: 1/260.

الإيضَاحُ اللُّغَوِيُّ وَالبَلَاغِيُّ:

دلالات الفعل ﴿وَٱبۡعَثۡ﴾:

إيــثــارُ فعل البعث لتضمُّنه معنى الإرسال والاستنهاض والقيام بمهمّة الرّسالة

مادّة البعث تحمل معاني الإرسال والاستنهاض؛ كما في قوله تعالى: ﴿وَقَالَ لَهُمۡ نَبِيُّهُمۡ إِنَّ ٱللَّهَ قَدۡ بَعَثَ لَكُمۡ طَالُوتَ مَلِكٗاۚ﴾ [البقرة: 247]؛ أي: أرسله واستنهضه فيكم، وتأتي بمعنى الإثارة مثل: "إنّ للفتنة بعثات"(1)، وبمعنى الإحياء بعد الموت ﴿وَأَنَّ ٱللَّهَ يَبۡعَثُ مَن فِي ٱلۡقُبُورِ ٧﴾ [الحج: 7].

والاستقراء القرآنيُّ يشير إلى أنّ الفعل (بعث) يُستعمَل في السّياق الذي يُسند اللّه تعالى للرَّسول فيه عملًا -مثل ههنا-؛ حيث تحدّث عن وظيفة الرّسول وهي تلاوة الآيات وتعليم الكتاب والحكمة وتزكية المرسَل إليهم.

بينما ذكر سبحانه فعل (الإرسال) في آية الصّف وما شابهها ولم يُسند لرسوله ﷺ عملًا يقوم به، ولم يَصِفْهُ بفعل يقوم به، مثل قوله تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِيٓ أَرۡسَلَ رَسُولَهُۥ بِٱلۡهُدَىٰ وَدِينِ ٱلۡحَقِّ لِيُظۡهِرَهُۥ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦ وَلَوۡ كَرِهَ ٱلۡمُشۡرِكُونَ ٣٣﴾ [التوبة: 33].

إيثارُ التّعبير بـ﴿فِيهِمۡ﴾ لا بـ(إليهم):

عالميَّةُ الرِّسالةِ طُموحُ إبراهيم وإسماعيل عليهما السلام

آثر النَّظم التّعبير بحرف الجرّ (في) بقوله ﴿فِيهِمۡ﴾، ولم يقُل (إليهم) في قوله تعالى: ﴿رَبَّنَا وَٱبۡعَثۡ فِيهِمۡ رَسُولٗا مِّنۡهُمۡ﴾؛ ليكونَ الرَّسولُ منهم، ولو كان إليهم لاحتملَ أن يكون الرَّسولُ آتيًا من غيرِهم إليهم، ففيه كشفٌ عن الرَّغبةِ في أن يكون من الذُّرِّيَّة، و"لِتكونَ الدَّعوةُ بمجِيءِ رسولٍ برِسالةٍ عامَّةٍ، فلا يكونُ ذلك الرَّسولُ رسولًا إليهم فقط"(2) يؤيّده ما جاء في الكتاب والحديث من أنّه ﷺ لم يُبعث إلى أمّته خاصّة، بل إلى العالمين جميعاً ﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَٰكَ إِلَّا رَحۡمَةٗ لِّلۡعَٰلَمِينَ﴾ [الأنبياء: 107].

---

(1) الحاكم، المستدرك، الحديث رقم: (8656).

(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 1/722.

أغراضُ التّعبير بالمتعلّق ﴿مِّنۡهُمۡ﴾:

شرفُ الرّسول وصدقُهُ وأمانتُهُ مَبْعَثٌ لتصديقه في نُبُوَّتِه ورسالته

جاء المُتعلّق ﴿مِّنۡهُمۡ﴾ مُقترنًا بلفظ ﴿رَسُولٗا﴾ في قوله تعالى: ﴿رَبَّنَا وَٱبۡعَثۡ فِيهِمۡ رَسُولٗا مِّنۡهُمۡ﴾؛ ولذلك ثلاثةُ أغراض: أحدُها: ليكونَ مَحَلُّهم ورُتبَتُهم في العزِّ والدِّينِ أعظَمَ والثّاني: أنّهم يَعرِفونَ مَولِدَهُ ومَنشأَهُ؛ فيَقرُبُ الأَمرُ عليهم في مَعرِفةِ صِدقِهِ وأَمانَتِهِ، والثّالث: أنّه يكون أَحرَصَ النّاسِ على خَيرِهِم، وأَشفَقَ عليهم(1).

أثرُ الصّيغةِ في بيان المعاني:

الإشارةُ إلى ضرورةِ التَّدرجِ في التَّعليم

جاءَ في قوله تعالى ﴿وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلۡكِتَٰبَ وَٱلۡحِكۡمَةَ﴾ الفعل (يُعلّم)، وصيغة التّضعيف تدلُّ على المبالغة والتدرّج في القيام بالفعل، بخلاف ما لو قال: (يُعلِمُكُم) بالصّيغة المخفّفة؛ فإنّها من الإعلام لا التّعليم، ولا يحصل العلم بمجرد الإعلام، بل لا بدّ من توافر أسبابه، وهنا في الآية التّلاوة والقراءة "لأنّ أَوَّل ما يَقرَعُ السَّمعَ هو التِّلاوةُ والتَّلَفُّظُ بالقرآن، ثُمَّ بعد ذلك تُتَعَلَّمُ معانيهِ ويُتَدَبَّرُ مدلولُهُ"(2).

دلالاتُ التّعبير بالفعل المضارع:

التّلاوةُ والتّعليمُ والتّزكيةُ أركانٌ ثلاثةٌ لا تقومُ الأممُ إلّا باجتماعِها والاستمرار في فعلها

المُتأمّل في قوله تعالى: ﴿يَتۡلُواْ عَلَيۡهِمۡ ءَايَٰتِكَ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلۡكِتَٰبَ وَٱلۡحِكۡمَةَ وَيُزَكِّيهِمۡ﴾، يلحظ أنّ التّعبير جاء بصيغة الفعلِ المضارع في الأفعالِ كلِّها: ﴿يَتۡلُواْ﴾ و﴿وَيُعَلِّمُهُمُ﴾ و﴿وَيُزَكِّيهِمۡۚ﴾، والفعل المضارع دالٌّ على التّجدّد؛ ممّا يومئ إلى أنّ هذه المعاني ينبغي أن تكون متجدّدة في حياة المسلم، وأن يمارسَها المؤمنُ على سبيل التّجدّد والاستمرار، فلا ينقطع عن تلاوة القرآن؛ لأنّها حياة القلوب؛ فـ "جيءَ بالمُضارع في قوله: ﴿يَتۡلُواْ﴾ للإشارة إلى أَنَّ هذا الكتابَ

(1) الرّازيّ، مفاتيح الغيب: 4/72.
(2) أبو حيّان، البحر المحيط: 1/626.

تَتَكَرَّرُ تلاوتُهُ"[1]، ولا يتوقَّف عن التّعليم؛ فبه تُعمّر البلاد، ولا يفترُ عن تزكية النّفوس لتظلّ متّصلة باللّه تعالى فلا يشغلها شاغلٌ.

التّرتيبُ بين التّلاوة والتّعليم والتَّزكيةِ:

ملاحظةُ الوجودِ في ذهنِ إبراهيم عليه السلام عند الدُّعاء

تقدّم ذكرُ تلاوة القرآن على تعليمه في قوله تعالى: ﴿يَتۡلُواْ عَلَيۡهِمۡ ءَايَٰتِكَ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلۡكِتَٰبَ﴾ في دعاءِ إبراهيم عليه السلام؛ فيُسألُ عن وجه هذا التّرتيب؟ والجواب عن ذلك: أنّ أوّل منزلة النّبيّ صلى الله عليه وسلم بعد التَّصريح بنُبُوَّته الإتيان بالآيات الدّالّة عليها، ثمّ بعده تعليمهم الكتاب، أي: تعريفهم حقائقه لا ألفاظه فقط، ثمّ بتعليمهم الكتاب يُوصلهم إليه"[2]، فدعاء إبراهيم عليه السلام بدأ بالتّلاوةِ لأنَّها أصلُ التَّعليمِ، والأصلُ مقدَّمٌ على الفرعِ، ثم ذكرَ التَّزكيةَ باعتبارِها مصوِّبةً لأخطاءِ المُتعلِّمين، فالتَّرتيبُ وجوديٌّ، وهو الأصلُ ابتداءً.

توجيهُ المتشابهِ اللّفظيّ:

اختلافُ الواقِعِ عند الاستجابة عن المفترض في أصلِ الدُّعاءِ دليلُ الرَّحمةِ وتحقُّقِ الدَّعوة

جاءَ التَّرتيبُ في قولِه تعالى: ﴿يَتۡلُواْ عَلَيۡهِمۡ ءَايَٰتِكَ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلۡكِتَٰبَ وَٱلۡحِكۡمَةَ وَيُزَكِّيهِمۡ﴾، التِّلاوةُ فالتَّعليمُ فالتَّزكيةُ، بينما جاء في آية آل عمران: ﴿لَقَدۡ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَى ٱلۡمُؤۡمِنِينَ إِذۡ بَعَثَ فِيهِمۡ رَسُولٗا مِّنۡ أَنفُسِهِمۡ يَتۡلُواْ عَلَيۡهِمۡ ءَايَٰتِهِۦ وَيُزَكِّيهِمۡ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلۡكِتَٰبَ وَٱلۡحِكۡمَةَ﴾ [آل عمران: 164] وفي آية الجمعة: ﴿هُوَ ٱلَّذِي بَعَثَ فِي ٱلۡأُمِّيِّـۧنَ رَسُولٗا مِّنۡهُمۡ يَتۡلُواْ عَلَيۡهِمۡ ءَايَٰتِهِۦ وَيُزَكِّيهِمۡ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلۡكِتَٰبَ وَٱلۡحِكۡمَةَ وَإِن كَانُواْ مِن قَبۡلُ لَفِي ضَلَٰلٖ مُّبِينٖ﴾ [الجمعة: 2] التِّلاوةُ فالتَّزكيةُ فالتَّعليم، فيُسألُ عن سرِّ ذلك؟

والجواب: هو في اختلاف المقصدين؛ فإنّه "لـمّا كانت دعوة إبراهيم عليه السلام قبل وجود الضّلال في الذّريّة المدعُوِّ لها، وإنّما تحصل لهم من تزكيتهم، ورفع ضلالهم المُتوقّع وقوعه بما يمنحونه من

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 1/723.

(2) الرّاغب، تفسير الرّاغب: 1/316.

التّعليم، وما يتلى عليهم من الآيات"[1] فحاجتهم في بدء الدّعوة إلى التّلاوة والتّعليم أقوى من حاجتهم إلى التّزكية، وهو ظاهر.

أمّا الآيتان الأخريان فقد قدّم التّزكية على تعليم الكتابة والحكمة؛ لأنّهما قائمتان على "ذكر الامتنان عليهم بهدايتهم بعد الضّلال الّذي كان قد وجد منهم ... ليكون تلوه ذكر الضّلال الّذي أنقذهم الله منه بما علّمهم وأعطاهم، وامتنّ عليهم"[2]؛ فالمقام هنا مقام تمجيد وامتنان، ويناسبه التّزكية، فاختلف المقصدان.

تقديمُ صفةِ ﴿ٱلۡعَزِيزُ﴾ على ﴿ٱلۡحَكِيمُ ١٢٩﴾:

تقديمُ الأسبابِ على مسبّباتها

قوله تعالى: ﴿إِنَّكَ أَنتَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡحَكِيمُ﴾ تذييلٌ لـمَا سبق، وقد قدّم فيها صفة العزيز على صفة الحكيم؛ لأنّ العزيزَ "مِن صفات الذّات، والحكيم مِن صفات الأَفعال"[3]، وهو من باب تقديم السّبب على الـمُسبِّب؛ "لأنَّه عَزَّ فَحَكَمَ"[4].

توالي المؤكّداتِ في الجملة:

في قوله تعالى ﴿إِنَّكَ أَنتَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡحَكِيمُ﴾ طائفةٌ من المؤكّدات، منها (إنّ) وتعريف جزأي الجملة، والإتيان بضمير منفصل توسّط بين الـمُسند إليه والـمُسند، وهو ضمير يحتمل[5] الابتداء والتّوكيد والفصل، والمسحة التّوكيديّة بيّنة فيها، فضلاً عن التّعبير بصفتين للمبالغة، والمبالغة قرينة التّوكيد، والغرض من ذلك تحقيق القصر؛ فالمعنى الإقرار منهما بأنّه تعالى هو العزيز الحكيم لا غيره على جهة القصر والحصر.

۞ الفُرُوقُ المُعْجَمِيَّةُ:

ابعثْ وأرسلْ:

في قوله تعالى ﴿رَبَّنَا وَٱبۡعَثۡ فِيهِمۡ رَسُولٗا﴾ جاء بالفعل الدّالِّ على الدّعاء ﴿وَٱبۡعَثۡ﴾،

(1) ابن الزّبير، مِلاك التّأويل: 1/51.
(2) ابن الزّبير، مِلاك التّأويل: 1/51.
(3) أبو حيّان، البحر المحيط: 1/627.
(4) السُّيوطيّ، الإتقان: 3/45.
(5) عضيمة، دراسات لأسلوب القرآن الكريم: 8/142.

والبعث فيه إثارة نحو عمل ما[1]، والإثارة لا تكون إلَّا عن وهن وجمود؛ ففي البعث تحفيزٌ وتنشيطٌ، أمَّا الإرسال فيدُلُّ على السّهولة واليسر، ويدُلُّ أيضًا على الانبعاث، إلَّا أنَّ هذا الانبعاث يقترن بالامتداد[2].

وفي البعث إخراج و"إنهاض بعد موت مؤقت أو نوم أو نحوه"[3]، أمَّا الإرسال ففيه رسالة يبلّغها الرّسول؛ لذلك يكون البعثُ سابقًا على الإرسال، وهو ما كان في الآية ﴿وَٱبۡعَثۡ فِيهِمۡ رَسُولٗا﴾ أن يكون الإخراج مع الإثارة والقوّة أوّلاً، ثمّ الإرسال مع السّهولة واليسر؛ ليمتدَّ لأنَّ فيه امتدادًا.

يتلو ويقرأُ:

في قوله تعالى﴿يَتۡلُواْ عَلَيۡهِمۡ ءَايَٰتِكَ﴾ جاء بالفعل (يتلو)، ولم يعبّر بالفعل (يقرأ)؛ لأنّ ثمّة فرقًا "بين التِّلاوة والقراءة؛ وذلك أَنّ التِّلاوةَ لا تكون في الكلمة الواحدة، والقراءة تكون فيها، تقول: قَرَأَ فلان اسمَه، ولا تقول تلا اسمه"[4] لأنّ التّلاوة تفيد التّتابع، تقول "تلا فلانٌ القرآن يتلُو تِلاوةً، وتَلا الشّيءَ: تَبِعَه تُلُوّاً ... وكلُّ شيءٍ تَلا يتلُو شيئاً فهو تِلْوُه"[5] والتّلاوة فيها معنى الثّبات أكثر من القراءة "وحِكمةُ التِّلاوةِ: بقاءُ لَفظِها على الأَلسنةِ، فيبقى مَصُونًا عَنِ التَّحريف والتَّصحيف"[6].

(1) جبل، المعجم الاشتقاقي المُؤصَّل: (بعث).
(2) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (رسل).
(3) جبل، المعجم الاشتقاقي المُؤصَّل: (بعث).
(4) العسكريّ، الفروق اللّغويّة، ص: 27.
(5) الخليل، العين: (تلو).
(6) أبو حيّان، البحر المحيط: 1/627.

﴿وَمَن يَرۡغَبُ عَن مِّلَّةِ إِبۡرَٰهِـۧمَ إِلَّا مَن سَفِهَ نَفۡسَهُۥۚ وَلَقَدِ ٱصۡطَفَيۡنَٰهُ فِي ٱلدُّنۡيَاۖ وَإِنَّهُۥ فِي ٱلۡأٓخِرَةِ لَمِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ١٣٠﴾

[البقرة: 130]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِمَا قَبْلَها:

بعد أن بيَّنَ اللّهُ ﷻ فضائلَ إبراهيم عليه السلام وعدّد جملةً من أدعيته؛ أوضح في هذه الآية أنّه لا يُخالف دعوةَ إبراهيم عليه السلام ولا يزيغُ عنها إلّا سفيهُ العقل مأفون الرّأي، وبَيّنَ سبحانه أنَّ عبده إبراهيم عليه السلام من المُصْطَفَيْنَ الأخيارِ في الدّنيا، وهو في الآخرة من الصّالحين المُنَعَّمينَ في جنّات النّعيم.

شَرْحُ المُفْرَدَاتِ:

1) ﴿يَرۡغَبُ﴾: فعل مضارع، جذره اللّغويُّ (رغب)، وأصل الرّغبة: الإرادة، فإذا تعدّى الفعل (رغب) بحرف المجاوزة (عن) أفاد ترك الشّيء والإعراض عنه بشكل متعمّد، وهو المعنى المراد في الآية الكريمة، أمّا (رغب في)؛ فمعناه: أراد الشّيء وأحبّه ومال إليه.

2) ﴿مِّلَّةِ﴾: اسمٌ جذره اللّغويّ (ملل)، أو (ملو)، وأصله "يدُلُّ على امتدادٍ في شيءٍ زمانٍ أو غيره"[1].

والمِلّة معناها "الشّريعة والدّين (شريعةٌ تُمدّ، ويُزَوّدُ بها لإصلاح حال الخلق ومآلهم)"[2].

قال الإمام البغويّ: "والمِلّة بكسر الميم الدّين والشّريعة، وهي مجموع عقائد وأعمال يلتزمها طائفة من النّاس يتّفقون عليها، وتكون جامعة لهم كطريقة يتّبعونها"[3] وقد أضافها في الآية إلى إبراهيم عليه السلام، أي: دين إبراهيم وشريعته[4].

(1) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (ملل).
(2) جبل، المعجم الاشتقاقي المُؤَصّل: (ملل).
(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 1/693.
(4) البغويّ، معالم التّنزيل: 1/152.

3) ﴿سَفِهَ﴾: تعود معاني مادة (سفه) إلى الخفّة والسّخافة والطّيش والجهل ونقصان العقل[1].

قال الرّاغب: والسّفهُ "خِفّةٌ في البَدن، ومنه قيل: زِمامٌ سَفيهٌ كثيرُ الاضطراب، وثوبٌ سَفيهٌ رديءُ النّسج، واستُعمل في خفّة النّفس لنُقصان العقل، وفي الأمور الدُّنيويّة والأُخرَويّة، فقيل: سَفِهَ نَفسَهُ"[2].

ومعنى ﴿سَفِهَ نَفْسَهُۥ﴾ في الآية ورد على عِدَّة أقوال؛ "قال ابنُ عبَّاسٍ: مَنْ خَسِرَ نَفسَهُ، وقال الكَلبيُّ: ضَلَّ مِنْ قِبَلِ نَفسِه، وقال أَبو عُبَيدَةَ: أَهلَكَ نَفسَهُ، وقال ابنُ كَيسانَ والزَّجَّاجُ: معناهُ جَهَّلَ نَفسَهُ، والسَّفاهَةُ: الجَهلُ وضَعْفُ الرَّأيِ"[3].

4) ﴿نَفْسَهُۥ﴾: اسمٌ ثلاثيٌّ جذره اللّغويّ (نفس)، وأصله "يدُلُّ على خروج النَّسيم كيفَ كان، مِنْ ريح أَو غيرها" وجاء في المقاييس: "والنَّفسُ: الدَّمُ، وهو صحيحٌ، وذلك أَنَّهُ إذا فُقِدَ الدَّمُ مِنْ بَدَنِ الإنسانِ فَقَدَ نَفسَهُ"[4].

وهو شيءٌ "لطيف يسري في فُتُوقٍ أثناء الشّيء فيصلحه، ويتيح له التّصرّف، كالنّفَس في أثناء بدن الحيّ، فهو علامة حياته الّتي تتيح له التّصرّف"[5].

والنّفس يُعبَّر بها عن الإنسان، وهو تعبير مجازيّ.

5) ﴿ٱصْطَفَيْنَٰهُ﴾: فعلٌ ماضٍ مزيد وزنه افْتَعَل (اصتفى) حصل فيه إبدال؛ فقُلِبت التّاء طاء للمجانسة الصّوتية، والجذر اللّغويّ (صفو) "الصَّفْو: ضدّ الكَدَر، صفا الماءُ يصفو صَفْواً، والاسم الصَّفاء، وفُلان صَفْوتي، أَي خِيرتي وخُلْصاني"[6].

والأصل في معناه أنّه "ضِدُّ الكَدَرِ؛ يُقالُ: صَفَا يَصْفُو، إذا خَلَصَ، يُقالُ لك صَفْوُ هذا الأَمرِ وصِفوَتُهُ، ومُحَمَّدٌ صَفْوَةُ اللَّهِ تعالى وخِيرَتُهُ مِنْ خَلقِهِ، ومُصطَفاهُ صلَّى اللّٰه عليه وآله وسلَّم"[7].

(1) جبل، المعجم الاشتقاقي المُؤصَّل: (سفه).
(2) الرّاغب، المفردات: (سفه).
(3) البغويّ، معالم التّنزيل: 1/152.
(4) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (نفس).
(5) جبل، المعجم الاشتقاقي المُؤصَّل: (نفس).
(6) ابن دريد، جمهرة اللّغة: (صفو).
(7) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (صفو).

"والاصطِفاءُ: تناولُ صَفْوِ الشّيءِ، كما أنّ الاختيارَ تناولُ خيره، والاجتباءَ تناولُ جبايته، واصطِفاءُ اللّهِ بعضَ عباده قد يكون بإيجاده تعالى إيّاه صافياً عن الشّوب الموجود في غيره وقد يكون باختياره وبحُكمه"[1].

"واستصفى الشّيء واصطفاه: اختاره كأنّه أخذه؛ لأنّه أصفَى جِنْسه أو أجوده، والمصطفى ﷺ صفوة اللّه من خلقه"[2].

ومعنى (اصطفيناه) في الآية: أي: اختار اللّه إبراهيم بالنّبوّة والحكمة من بين سائر الخلق[3].

6) ﴿ٱلدُّنۡيَا﴾: اسم تفضيل للمؤنث من (دَنا يَدْنو)، فأصله (أَدْنَى دُنْوَى) زنة (أَفْعَل فُعْلَى)، مثل (أصْغر صُغرى)، ثمّ حصل فيه إعلال فصار (دُنْيا)، وجذره اللّغويّ (دنو)، والأصل في معناه "المقاربةُ، ومنْ ذلكَ الدَّنيُّ، وهو القريبُ، منْ دنَا يدنُو، وسُمِّيتِ الدُّنيا لدنوّهَا"[4].

ثمّ أصبحت لكثرة الاستعمال علمًا على الحياة الدّنيا دار الابتلاء، المقابلة للآخرة دار البقاء "وسُمِّيَت الدُّنيا؛ لأنَّها دَنَتْ وتأخَرَّتِ الآخِرةُ"[5].

7) ﴿ٱلۡأٓخِرَةِ﴾: اسم مؤنث على زنة فاعل (أاخر) ثمّ صارتِ الهمزتان مَدّة، وهو للتّفضيل، جذره اللّغويّ (أخر)، والأصل في معناه "خلافُ التَّقَدُّم، وهذا قياسٌ أَخذناهُ عَنِ الخليلِ فإنَّه قال: الآخِرُ نَقيضُ المُتَقَدِّمِ، والأُخُرُ نقيضُ القُدُمِ، تقولُ مَضى قُدُمًا، وتَأَخَّرَ أُخُرًا"[6].

"والآخِرُ: بعدَ الأوّل، وهو صفةٌ، تقول: جاء آخِراً، أي: أخِيرًا، وتقديره فاعِل"[7].

ومعناه "يقابَلُ به الأوّل، وآخَرُ يقابَلُ به الواحد، ويُعبّر بالدّار الآخِرة عنِ النّشأة الثّانية، كما يُعبّر بالدّار الدّنيا عنِ النّشأة الأولى"[8].

---

(1) الرّاغب، المفردات: (صفو).
(2) جبل، المعجم الاشتقاقي المُؤصَّل: (صفو).
(3) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 1/262.
(4) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (دنو).
(5) الفراهيديّ، العين: (دنو).
(6) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (أخر).
(7) الجوهريّ، الصّحاح: (أخر).
(8) الرّاغب، المفردات: (آخِر).

8) ﴿ٱلصَّٰلِحِينَ﴾: جمع مذكر سالم مفرده صالح، والجذر اللّغويُّ منه (صلح)، والأصل في معناه دلالته على خلاف الفساد[1]، وأصلَحَ الشّيء: أقامه بعد فساد.

والصَّلاحُ والفساد مُختَصّان في أكثر الاستِعمال بالأفعال، وقُوبِل الصّلاح في القرآن تارةً بالفساد، وتارةً بالسّيّئة.

ومعنى ﴿لَمِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ﴾ في الآية: "أي: المشهود لهم بالثّبات على الاستقامة والخير والصّلاح"[2].

❁ المَعْنَى الإِجْمَالِيُّ:

ومن يرغب عن دين إبراهيم عليه السلام ويُعرضُ عن ملّته السّمحة المستقيمة؛ فإنّه قد أهلك نفسه وخانها، وزاغ عن الصراط السّويّ وجهل في اختياره.

وملّة إبراهيم عليه السلام هي الطّريقة المستقيمة المُوَصِّلة إلى ربّ العالمين، ويدلّ على ذلك أنّنا اصطفيناه واخترناه لحمل رسالة التّوحيد في الدّنيا، وهو في الآخرة من الصّالحين المنعَّمين في الجنّات.

❁ الإِيضَاحُ اللُّغَوِيُّ وَالبَلَاغِيُّ:

سِرُّ العدولِ من العطفِ بالفاء إلى الواوِ:

التَّنويهُ بشأنِ ملَّةِ إبراهيمَ في استقلالِها وخصوصيّتها

اتِّصالُ قولِه تعالى: ﴿وَمَن يَرۡغَبُ عَن مِّلَّةِ إِبۡرَٰهِـۧمَ إِلَّا مَن سَفِهَ نَفۡسَهُۥ﴾ شديدٌ بين هذه الآية وما سبقها من آياتٍ، وهو اتّصالُ نتيجة بسبب، وحقّ الاتّصال بين هذين الجزأين أن يكون بالفاء، لكنّه "عَدَلَ مِنَ الفاء إلى الواو؛ ليكونَ مَدلولُ هذه الجُملة مُستَقِلّاً بنفسِهِ في تَكميلِ التَّنويهِ بشأنِ إبراهيمَ، وفي أَنَّ هذا الحُكمَ حَقيقٌ بملَّةِ إبراهيمَ مِنْ كُلِّ جهةٍ لا مِنْ خُصوصِ ما حكى عنهُ في الآيات السَّالفة"[3]؛ فتضمُّنُ الجملةِ المعانيَ السّابقةَ يُوقِعُها مَوقعَ النّتيجةِ؛

(1) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (صلح).

(2) الآلوسّي، روح المعاني: 1/388.

(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 1/724.

فيُستغنى ربطها بالفاء؛ ليكون حكماً مُستقلّاً من كلّ جهة على إبراهيم وملّته، وليس مُقيّدًا بما مضى من معانٍ إذا اقترنت بالفاء.

وثمّة معنى آخر، وهو وجود جملة معطوفة على ما سبق بالفاء، وهي المقابلة في المعنى لما هو مذكور، والتّقدير: (ربّنا وابعث فيهم رسولًا منهم يتلو عليهم آياتك ويعلِّمُهم الكتاب والحكمة ويُزكّيهم؛ فمن استجاب لهذا الرّسول وآمن بدعوته فقد أفلح ونجا، ومن يرغب عن ملّة إبراهيم عليه السلام التي هي قوام رسالة محمد صلى الله عليه وسلم وأساسُها فقد سفِه نفسه وخاب وخسر).

براعةُ النَّفي بأداةِ الاستفهامِ:

توبيخُ وتقريعُ كلِّ راغبٍ عن ملَّةِ إبراهيم

ابتدأ الحقّ تبارك قولَه: ﴿وَمَن يَرۡغَبُ عَن مِّلَّةِ إِبۡرَٰهِـۧمَ إِلَّا مَن سَفِهَ نَفۡسَهُۥ﴾ بـ(مَنْ) الاستفهاميَّة، وهي "استفهامٌ بمعنى الإنكار؛ ولذلك جاءَتْ إلَّا بعدها؛ لأَنَّ المُنكَرَ مَنْفيّ"[1] والمعنى: لا يحيد عن الإسلام إلّا من خسر نفسَه، أو أهلكها، وفي هذا التّعبير تقريع وتشنيع، "والاستفهامُ للإنكارِ والاستبعادِ، واستعمالُهُ في الإنكارِ قد يكونُ مع جوازِ إرادَةِ قَصدِ الاستفهامِ؛ فيكونُ كنايةً ... فإنَّ الإعراضَ عَن مِلَّةِ إبراهيمَ مع العلمِ بفضلِها ووضوحِها أمرٌ مُنكَرٌ مُستبعَدٌ"[2]، وعبَّر بمَنْ الاستفهاميَّةِ عن معنى النَّفي؛ لإفادةِ التَّوبيخ والتّقريع، وليشملَ كلَّ من يرغبُ عن ملَّةِ إبراهيم، وهذا من بديع الاستعمالِ القرآنيِّ لأدوات الاستفهامِ في معنى النَّفي.

أثرُ الإعرابِ في الكشفِ عن جمالِ المجازِ:

تمكُّنُ السَّفاهةِ مـن صَاحِبـها لتُصيِّرَه غارقًا في ظُلُماتِ القُبح

جاز في قوله تعالى: ﴿وَمَن يَرۡغَبُ عَن مِّلَّةِ إِبۡرَٰهِـۧمَ إِلَّا مَن سَفِهَ نَفۡسَهُۥ﴾ أن تكون ﴿نَفۡسَهُۥ﴾ منصوبةً على التّمييز "المُحَوَّلِ عَنِ الفاعِلِ، وأَصلُهُ سَفِهَتْ نَفسُهُ أَي: خَفَّتْ وطاشَتْ، فَحُوِّلَ الإسنادُ إلى

(1) العُكبرَيّ، التّبيان: 1/116.

(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 1/724.

صاحِبِ النَّفسِ على طريقةِ المجازِ العقليِّ؛ للمُلابسةِ قَصْدًا للمبالغةِ"[1] وكأنّ السّفاهة تمكّنت من صاحبها فامتزجت بالنّفس؛ لأنّ السّفهَ صفةٌ لصاحب النّفس وليس لها، ثمّ أصبح الفاعل منصوبًا على التّمييز، ولمّا "أَضافَ الفِعلَ إلى صاحِبِها خرجَتِ النَّفسُ المُفَسِّرَةُ؛ ليَعلمَ مَوضِعَ السَّفَهِ، كما يُقالُ: ضِقْتُ به ذَرْعًا، أي: ضاقَ ذَرْعي به"[2].

سرُّ توالي المؤكّداتِ في شأنِ إبراهيمَ:

تنزيلُ المُخاطَبِ غيرِ المتَّبعِ لملَّةِ إبراهيمَ منزلةَ المُنكِرِ

توالتِ المُؤكِّداتُ في قولِه تعالى: ﴿وَإِنَّهُۥ فِى ٱلْـَٔاخِرَةِ لَمِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ﴾ وهي: التّوكيدُ بـ(إنّ)، وتعريفُ المُسندِ إليه، ودخولُ اللّام على حرفِ الجرِّ، وتوالي التَّوكيداتِ يدلُّ على تنزيلِ المُخاطبِ منزلةَ المُنْكِرِ؛ إذ من عَلِمَ اصطفاءَ اللّه له، ولم يتبعْه فكأنَّما أنكرَ أنَّه في الآخرةِ من الصَّالحين، إذ مقتضى العلمِ العملُ، ومن لم يعمل بعلمِه يُنَزَّلُ منزلةَ المُنْكِرِ.

يُضاف إلى ذلك أنّ قوله: ﴿لَمِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ١٣٠﴾ أبلغُ في الدّلالة على صلاحه واندراجه في زُمرة الصّالحين من التّعبير: (إنّه في الآخرة صالح)، وأين هذا التّعبير من سُمُوِّ لغة التنزيل؟!!!

❁ الفُرُوقُ المُعْجَمِيَّةُ:

اصطفَى واختارَ:

في قوله تعالى: ﴿ٱصْطَفَيْنَٰهُ﴾ الفعل (اصطفى) من الجذر اللّغويّ (صفو)، و"أصل الصَّفاءِ: خلوصُ الشّيءِ من الشّوب، ومنه: الصَّفَا، للحجارة الصَّافيةِ"[3] أمّا الاختيار فمن (خير)، فالاختيار أن تختار من غير مُتشابهات، كأن تختار كتابًا من بين الكتب والأقلام والكرّاسات، أمَّا الاصطفاء فيكون بين أشياء مُتناظرة متشابهة كالآية وكقوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ ٱصْطَفَىٰٓ ءَادَمَ﴾ [آل عمران: 33] فالاصطفاء هنا من بين البشر، وهم مُتناظرون.

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 1/725.
(2) البغويّ، معالم التّنزيل: 1/153.
(3) الرّاغب، المفردات: (صفو).

﴿إِذۡ قَالَ لَهُۥ رَبُّهُۥٓ أَسۡلِمۡۖ قَالَ أَسۡلَمۡتُ لِرَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ١٣١﴾ [البقرة: 131]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِمَا قَبْلَها:

بين هذه الآية وما سبقها علاقة وثيقة وفيها تقديم وتأخير، فحقّ هذه الآية التّقديم على فعل الاصطفاء؛ لأنّ معنى ﴿إِذۡ قَالَ لَهُۥ رَبُّهُۥٓ أَسۡلِمۡۖ﴾، كأنّه قال: "اصطفيناهُ في الوقتِ الّذي قال له رَبُّهُ أَسلِمْ، فكأنَّه تعالى ذَكَرَ الاصطفاءَ، ثُمَّ عَقَّبَهُ بذكرِ سَبَبِ الاصطفاء، فكأَنَّهُ لـمَّا أَسلمَ نفسَهُ لعبادةِ اللَّهِ تعالى وخَضَعَ لها وانقادَ، عَلِمَ تعالى مِنْ حالِهِ أَنَّهُ لا يَتَغَيَّرُ على الأَوقاتِ"[1] فلإسلامه وحُسْن جوابه وسرعته جازاه اللّه تعالى بأن جعله صفيّه من خلقه في الدّنيا، وفي الآخرة من الصّالحين.

شَرْحُ المُفْرَدَاتِ:

1) ﴿أَسۡلِمۡۖ﴾: فعلٌ ماضٍ، جذرُه اللّغويّ (سلم)، و"معظمُ بابهِ مِنَ الصِّحَّةِ والعافيةِ؛.، فالسّلامةُ: أَنْ يسلَمَ الإنسانُ مِنَ العاهةِ والأذى"[2] ومنهُ الإسلامُ، وهو من الألفاظِ الّتي اكتسبتْ دلالاتٍ جديدةً بعدَ مبعثِه ﷺ.

"وأَسلَمَ أمرَه إلى اللهِ، أي: سَلَّمَ، وأَسلَمَ، أي: دخلَ في السَّلْمِ، وهو الاستسلام"[3].

والإسلام أن يكونَ معَ الاعترافِ اعتقادٌ بالقلبِ ووفاءٌ بالفعلِ واستسلامٌ للّهِ في جميعِ ما قَضَى وقدّرَ، كما ذُكرَ عن إبراهيمَ عليه السلام"[4] في هذه الآية.

2) ﴿ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾: مفرده (عالَم)، والمراد جميع الأجناس والخلائق، وذلك أنّ كلَّ جنس من الخَلْق هو في نفسه مَعْلَم وعَلَم، وقال قوم: العالَم سُمِّي لاجتماعه[5].

المَعْنَى الإِجْمَالِيُّ:

من أسباب اصطفاء اللّه لإبراهيم عليه السلام مسارعته إلى الإسلام دون تردُّد، حين قال له

(1) الرّازيّ، مفاتيح الغيب: 4/78.
(2) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (سلم).
(3) الجوهريّ، الصّحاح: (سلم).
(4) الرّاغب، المفردات: (سلم).
(5) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (علم).

ربه: أخلص نفسك للّه منقادًا له، فدانَ بالإسلام، وأقَرَّ بالدَّينونة للّه تعالى، وتبرَّأ مِن حَوْله وقوّته قائلًا: (أسلمت أمري كلّه للّه ربّ العالمين وخالقهم وكالئهم ومُصلحهم).

۞ الإيضاحُ اللُّغويُّ وَالبَلَاغِيُّ:

بلاغةُ تأخير الظَّرف عن عاملِه:

الاصطفاءُ فضلٌ ربانيٌّ وعطاءٌ رحمانيٌّ

قوله تعالى: ﴿إِذْ قَالَ لَهُۥ رَبُّهُۥٓ أَسْلِمْ﴾ ظرفٌ لاصطفيناه[1]؛ فالظّرفُ (إذ) مُتأخّرٌ لفظًا مُتقدّمٌ معنى؛ فبإسلامه ومبادرته إلى الإذعان والانقياد اختاره اللّه واصطفاه، وقد "قُصِدَ مِنْ هذه الظَّرفيةِ التَّخلُّصُ إلى مَنقَبةٍ أُخرى؛ لأَنَّ ذلك الوَقتَ هو دليلُ اصطِفائِهِ"[2]، وفيه الإشارة إلى منزلة إبراهيم عليه السلام وتنويهٌ بهذا الاصطفاء الّذي قدّمه، وبلاغةُ تأخيرِ الظَّرفِ تنبيهُ العبادِ إلى أنَّ الاصطفاءَ ما كان إلَّا بالخضوعِ والانقيادِ للّه تعالى.

دلالةُ حذفِ مفعولِ ﴿أَسْلَمْتُ﴾:

الإيجازُ اللَّفظيُّ، وبيانُ سُرعةِ الاستجابة

في قوله تعالى: ﴿إِذْ قَالَ لَهُۥ رَبُّهُۥٓ أَسْلِمْ قَالَ أَسْلَمْتُ﴾ نجد أنّ "مَفْعُولَ ﴿أَسْلِمْ﴾ ومُتَعلّقَهُ مَحذُوفانِ يُعْلَمانِ مِنَ المَقام، أي: أَسلِمْ نَفسك لي ... وشاعَ الاستِغناءُ عَنْ مَفعولِ أَسلِمْ"[3]، والغرضُ من الحذف في ﴿أَسْلَمْتُ﴾ مناسبةُ الحذفِ في ﴿أَسْلِمْ﴾، وإيجازُ لفظ، وبيانُ سرعةِ القَبولِ والإذعانِ، إذ إنَّ قوله: ﴿أَسْلَمْتُ﴾ "مُشعِرٌ بأَنَّه بادرَ بالفورِ دونَ تريُّثٍ كما اقتضاهُ وقوعُهُ جوابًا"[4]، وحُذف مفعول ﴿أَسْلَمْتُ﴾ تنزيلاً للفعل المتعدّي منزلة الفعل اللّازم؛ لإثبات إسلام إبراهيم عليه السلام على جهة الإطلاق من غير نظرٍ للمفعول، وأراد أن يخلع عليه صفة التّسليم والانقياد، كأنّها صفة ذاتيّة مُمتزجة به.

(1) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 1/262.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 1/726.
(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 1/726.
(4) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 1/727.

فائدةُ التّعبيرِ بربّ العالَمِينَ:

المقابلةُ اللّفظيّةُ وإظهارُ كمالِ الإسلامِ وتمامِ الخضوعِ

عبّر في قولِه تعالى: ﴿أَسۡلَمۡتُ لِرَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾ عن المعبودِ باختيارِ لفظِ الرَّبِّ، لمناسبتِه السِّياق، فلمَّا جاء في النَّظم: ﴿إِذۡ قَالَ لَهُۥ رَبُّهُۥٓ﴾ كان المناسبُ أن يأتي بعنوانِ الرُّبوبيّة، وأضافَ إليها ﴿ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾؛ "للإيذان بكمال قوةِ إسلامِه حيث أيقنَ حين النّظر بشمولِ ربوبيّتِه للعالَمين قاطبةً لا لنفسِه وحده"[1]، ففيه اعترافٌ بأنَّ الإسلامَ كان لربِّ العالمين جميعًا؛ ففيه إذعانٌ وخضوعٌ، فكأنَّه قال: كيف لا أُسلم لربِّ العالمين؟، والتّعبير بعنوان الرّبوبيّة لإظهارِ مزيدِ اللُّطفِ والعناية، وعناية بالقرب منه[2]، وهو من شأن الرّبّ مع مربوبه.

(1) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 1/163.

(2) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 1/163.

﴿وَوَصَّىٰ بِهَآ إِبۡرَٰهِـۧمُ بَنِيهِ وَيَعۡقُوبُ يَٰبَنِيَّ إِنَّ ٱللَّهَ ٱصۡطَفَىٰ لَكُمُ ٱلدِّينَ فَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسۡلِمُونَ ١٣٢﴾ [البقرة: 132]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِمَا قَبْلَها:

الآية متناسبة مع ما قبلها أشدّ التّناسب، متّصلة بها أوثق الاتّصال، فإنّ قوله ﴿وَوَصَّىٰ بِهَآ﴾ أي: بالكلمة، والضّمير الغائب يعود على الآية السّابقة، وفيه قولان؛ أحدهما يعود على قوله تعالى ﴿أَسۡلَمۡتُ لِرَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾، وصوّبه القرطبيّ كونه يعود على أقرب مذكور[1].

والقول الآخر أنّ الضّمير يعود على الملّة المذكورة سابقًا بإضافتها إلى إبراهيم، أي: ملّة إبراهيم، أي: "وصَّى بهذه المِلَّة، وهي الإِسلامُ لِلَّهِ؛ لحرصهم عليها، ومحبتهم لها"[2].

شَرْحُ المُفْرَدَاتِ:

1) ﴿وَوَصَّىٰ﴾: فعلٌ ماضٍ مزيدٌ بالتّضعيف، جذره اللّغويُّ من (وصي)، والأصل في معناه "يدُلُّ على وَصْلِ شَيءٍ بشيءٍ، ووصَيْتُ الشَّيءَ: وصَلْتُهُ ... والوَصِيَّةُ مِن هذا القياسِ، كأَنَّهُ كلامٌ يُوصَى، أَي: يُوصَلُ"[3].

والمعنى المحوريّ للكلمة "التزام الأشياء بعضها بعضًا ... ومن هذا الالتزام جاء معنى الإيجاب في الوصيّة؛ فهي عهد وتكليف وإلزام"[4].

وعرّفها الرَّاغب بقوله: "الوَصِيَّةُ: التّقدّمُ إلى الغَير بما يعملُ به مُقترِنًا بوَعظٍ من قولهم: أرض وَاصِيَةٌ متّصلةُ النّبات، ويُقال: أَوْصَاهُ ووَصَّاهُ، قال تعالى: ﴿وَوَصَّىٰ بِهَآ إِبۡرَٰهِـۧمُ بَنِيهِ وَيَعۡقُوبُ﴾"[5].

(1) القُرطُبي، الجامع لأحكام القرآن: 2/408.
(2) أحمد شاكر، عمدة التّفسير عن الحافظ ابن كثير: 1/187.
(3) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (وصى).
(4) جبل، المعجم الاشتقاقي المُؤصَّل: (وصي).
(5) الرّاغب، المفردات: (وصى).

2) ﴿إِبْرَٰهِـۧمُ﴾: اسم علم أعجميّ لخليل الرّحمن عليه السلام و"هو الجدّ الحادي والثلاثون لنبيّنا رسول الله صلى الله عليه وسلم"[1]، وهو إبراهيمُ بنُ تارِخَ بن ناخورَ، وكان مَوْلِدُهُ بالسُّوس مِنْ أَرضِ الأَهْوازِ، وقيلَ بابلَ ... وقيلَ حرَّانَ، وكانَ أَبوهُ نقلَهُ إِلى أَرضِ بابِلَ أَرضِ نُمرُود"[2].

ويُلفظُ إبراهيمُ وإبراهامُ ومعناه في لغة الكلدانيين (أبٌ رحيمٌ) أو (أبٌ راحمٌ)، وقيل: إنّ معناه أبو أمم كثيرة[3].

3) ﴿بَنِيهِ﴾: اسمٌ مُلحق بجمع المذكر السّالم، الأصل فيه: (بنون بنين)، مفرده (ابن)، جذره اللّغويّ (بنو)، الأصل في معناه "الشَّيءُ يَتَوَلَّدُ عَنِ الشَّيءِ، كابنِ الإنسانِ وغيرِهِ، وأَصلُ بنائِهِ بَنَوَ، والنِّسبَةُ إِليهِ بَنَوِيٌّ، وكذلك النِّسبَةُ إِلى بِنْتٍ وإِلى بُنَيَّاتِ الطَّريق"[4].

والابن امتداد لأبيه ناشئ منه يمدّ ذريّته ويقيمها[5].

وسُمِّي الابن "بذلك لكونه بناءً للأب، فإنّ الأبَ هو الّذي بناه وجعله الله بنَّاءً في إيجاده، ويُقال لكلّ ما يحصُلُ من جهة شيء أو من تربيته أو بتَفَقُّده أو كثرَة خدمَته له أو قيامِه بأمرِه هو ابنُه"[6].

4) ﴿وَيَعْقُوبُ﴾: اسم نبيّ الله عليه السلام، وهو والد يوسف النّبيّ عليه السلام، جذره اللّغويّ (عقب)، وله أصلان "أَحدُهما يدُلُّ على تأخيرِ شيءٍ وإتيانِهِ بعد غيرِهِ، والأَصلُ الآخَرُ يدُلُّ على ارتفاعٍ وشدَّةٍ وصُعوبةٍ"[7].

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 1/599.
(2) البغويّ، معالم التّنزيل: 1/144.
(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 1/701.
(4) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (بنو).
(5) جبل، المعجم الاشتقاقي المؤصّل: (بنو/بنى).
(6) الرّاغب، المفردات: (بني).
(7) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (عقب).

واسم يعقوب النّبيّ اسمٌ أعجميّ[1]، وهو الّذي جمع نسب بني إسرائيل بعد إبراهيم[2] عليه السلام.

وفي تسميته سببٌ "لأَنَّه والعِيصَ كانا تَوأَمَين، فَتَقَدَّمَ عِيصُ في الخُروجِ مِنْ بَطنِ أُمِّهِ، وخَرَجَ يَعقُوبُ على أَثرِهِ آخذًا بعقِبِه، قالهُ ابنُ عبَّاسٍ"[3].

5) ﴿ٱللَّهَ﴾: لفظُ الجلالةِ علمٌ على المعبودِ بحقّ، وهو مُشتقٌّ على الصّحيحِ وليسَ جامدًا؛ فإنّ أسماءَ اللّهِ تعالى أعلامٌ وأوصافٌ باتّفاقِ أهلِ السّنّةِ والجماعةِ[4]، ولازمُ ذلكَ أنّها مشتقّةٌ[5]، إذِ الجامدُ لا وصفَ له.

وقيلَ إنّ "أصلَهُ الإلاهُ؛ فحُذفتِ الهمزةُ، وأُدغمتِ اللّامُ في اللّام، فصارَ اللّه"[6] لكثرةِ دورانِه على الألسنةِ[7]، وأُدغمتِ اللّامُ في مثلِها، وفُخّمتْ تعظيمًا للّهِ تعالى[8] والتّرقيقُ بعدَ الكسرِ؛ لأجلِ التّخفيفِ لا لسلبِ التّعظيم.

ومهما قِيلَ في حقّه، فهو قطرةٌ من بحرٍ، أو ثانيةٌ من دهرٍ، لأنّ عظمتَه لا حُدودَ لكمالِها، ومعنى اسم (اللّه) علمًا - كما قال ابنُ عباسٍ رضي الله عنهما - ذو الألوهيّةِ والعبوديّةِ على خلقِه أجمعين[9].

6) ﴿ٱصۡطَفَىٰ﴾: فعل ماضٍ مزيد، وزنه افْتَعَلَ (اصتفى) حصل فيه إبدال، فقُلِبت التّاء طاء للمجانسة الصّوتيّة، والجذر اللّغويُّ (صفو).

والأصل في معناه أنّه "ضِدُّ الكَدَرِ، يُقالُ: صَفا يَصْفو، إذا خَلَصَ، يُقالُ لك صَفْوُ هذا الأَمرِ وصِفْوَتُهُ، ومُحَمَّدٌ صِفْوَةُ اللَّه تعالى وخيرَتُهُ مِنْ خَلْقِهِ، ومُصطَفاهُ صلَّى اللّهُ عليه وآله وسلَّم"[10].

"والاصطِفاءُ تناولُ صَفوِ الشّيءِ، كما أنّ الاختيار تناولُ خيره، والاجتباءَ تناولُ جبايته،

(1) القُرطبيّ، الجامع لأحكام القرآن: 2/410.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 1/728.
(3) البغويّ، معالم التّنزيل: 1/153.
(4) ابن القيّم، بدائع الفوائد: 1/285.
(5) ابن القيّم، الكافية الشّافية، ص: 216.
(6) الإستراباديّ، شرح شافية ابن الحاجب: 2/981.
(7) الجوهريّ، الصّحاح تاج اللّغة: (أله).
(8) الفيوميّ، المصباح المنير: (أله).
(9) ابن جرير، جامع البيان: 1/123.
(10) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (صفو).

واصْطِفَاءُ اللّهِ بعضَ عباده قد يكونُ بإيجاده تعالى إيّاه صَافياً عن الشّوبِ الـمَوجود في غيره، وقد يكونُ باختياره وبحكمه"[1].

"واستصفى الشّيء واصطفاه: اختاره كأنّه أخذه؛ لأنّه أصفَى جِنْسه أو أجوده، والمصطفى ﷺ صفوة اللَّه من خلقه"[2].

ومعنى اصطفى في الآية: "اختارَ لكُمُ الدِّينَ، أَي: الدِّينُ الكامِلُ، وفيه إِشارَةٌ إِلى أَنَّه اختارَهُ لهم مِن بين الأَديان، وأَنَّه فَضَّلَهُم به؛ لأَنَّ (اصطَفى لك) يدُلُّ على أَنَّهُ ادَّخَرَهُ لأَجلِه، وأَرادَ به دينَ الحنيفيّةِ الـمُسمَّى بالإِسلام"[3].

7) ﴿ٱلدِّينَ﴾: اسم ثلاثيٌّ، جذره اللّغويّ (دين)، والأصل في معناه "جِنْسٌ مِنَ الانقيادِ والذُّلِّ، فالدِّينُ: الطَّاعةُ، يُقالُ دَانَ له يَدِينُ دِينًا، إِذا أَصْحَبَ وانقادَ وطاعَ، وقَوْمٌ دِينٌ، أَي: مُطيعونَ مُنقادون"[4].

"والدِّينُ يُقال للطّاعة والجَزاء، واستُعير للشّريعة، والدِّينُ كالملّة لكنّه يُقال اعتبارًا بالطّاعة والانقياد للشّريعة"[5].

والدّين في الآية: "دين الإسلام الّذي هو صفوةُ الأديان، ولا دينَ غيرُه عنده تعالى"[6].

8) ﴿تَمُوتُنَّ﴾: فعل دالٌّ على الاستقبال، الماضي منه (مات)، فيكون جذره (موت)، وهو "أَصلٌ صحيحٌ يدُلُّ على ذهابِ القوَّةِ منَ الشَّيء، منهُ الـمَوتُ: خلافُ الحياةِ"[7]، والمعنى المعروف أنّه ضدُّ الحياة، وأنّه مفارقةُ الرّوح للجسد، و "ما هو بإزاء القوَّة النّاميّة الموجودة في الإنسان والحيوانات والنّبات"[8].

"ولم يأتِ في القرآن من التّركيب إلّا موتُ الأحياء من النّاس، ومن البلاد والأرضين، وهي واضحة في سياقاتها"[9]، وهو المعنى في هذه الآية، أي: انتهاءُ أجلِ الإنسان.

(1) الرّاغب، المفردات: (صفو).
(2) جبل، المعجم الاشتقاقي المُؤصَّل: (صفو).
(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 1/729.
(4) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (دين).
(5) الرّاغب، المفردات: (دين).
(6) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 1/264.
(7) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (موت).
(8) الرّاغب، المفردات: (موت).
(9) جبل، المعجم الاشتقاقي المُؤصَّل: (موت).

❁ المَعْنَى الإِجْمَالِيُّ:

بعد ما أعلن إبراهيم عليه السلام إسلامه لربّ العالمين، وصّى أبناءه جميعًا بكلمة التّوحيد والاستمساك بدين الإسلام الحنيف، وفَعَلَ يعقوبُ الفِعْلَ نَفْسَه، حيث وصّى أبناءه من بعده أن يلتزموا بشرعة التَّوحيد، وأنْ لا يدركهم الموت إلّا وَهُم مسلمون مُوَحّدون، وبيّن لهم أنّ اللّه جلّ شأنه اصطفى دين الإسلام لهم، فلا ينبغي التّفريط فيه.

❁ الإِيضَاحُ اللُّغَوِيُّ وَالبَلَاغِيُّ:

دلالةُ الاستئنافِ الجديدِ:

الشُّروعُ في كلامٍ جديدٍ، شروعٌ في بيانِ معنًى له أهميَّةٌ

قوله تعالى: ﴿وَوَصَّىٰ بِهَآ إِبۡرَٰهِـۧمُ بَنِيهِ وَيَعۡقُوبُ﴾ استئنافٌ جديدٌ عن قوله: ﴿إِذۡ قَالَ لَهُۥ رَبُّهُۥٓ أَسۡلِمۡۖ قَالَ أَسۡلَمۡتُ لِرَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾ [البقرة: 131] بدلالة العدول من الإضمار إلى الإظهار، فقد جاء بالاسم مُظهرًا وهو إبراهيم عليه السلام وحقّه الإضمار؛ لذكره في الآيات السَّابقة، فقد "ترك المضمر إلى المظهر، وعطف يَعْقُوب عليه، فإنّ ذلك يدُلُّ على أنّه شروعٌ في كلامٍ آخر؛ لبيان تواصي الأنبياء باستمساك الدّين الحقّ"(1).

توجيهُ القراءاتِ القرآنيّة:

قرأ جمهورُ القرَّاء قوله تعالى: ﴿وَوَصَّىٰ بِهَآ إِبۡرَٰهِـۧمُ بَنِيهِ وَيَعۡقُوبُ﴾ بالفعل المضعّف (وصّى)، زنة (فَعّلَ)، فيما قرأ نافع وأبو جعفر وابن عامر: ﴿وَأَوۡصَىٰ﴾ بالهمز(2).

والصّيغتان متّفقتان في التّعدية مختلفتان في الكثرة والمبالغة، فتضعيف الفعل يفيد الكثرة في غالب أحواله(3)، "فأوصى جائزٌ أن يكون مرّة، ووصّى لا يكون إلّا مرَّات كثيرَة"(4)، فهو أوصى مرَّةً بالجملةِ وصيَّةً عامَّةً، ومرَّات بالتَّفصيل.

(1) الآلوسيّ، روح المعاني: 1/389.
(2) ابن الجزريّ، شرح طيبة النّشر، ص: 186.
(3) الرّضيّ، شرح الشّافية: 1/92.
(4) أبو زرعة، حجّة القراءات، ص: 115.

التَّعبيرُ بلفظِ الوصيّةِ دون غيرِها من الألفاظِ:

براعةُ المفردةِ في جمعِ معنى الوصيَّةِ والإرشادِ والحِرصِ

في قوله تعالى ﴿وَوَصَّىٰ بِهَآ إِبۡرَٰهِـۧمُ بَنِيهِ وَيَعۡقُوبُ﴾ إرشادٌ من إبراهيم ويعقوب عليهما السلام إلى أبنائِهما، في التزامِ طريقِ الحقِّ والدِّينِ والموتِ عليه، وهو أمرٌ غايةٌ في الأهميّة، ولذلك جاءَ الفعلُ بصيغةِ الوصيّة لا بصيغة الأمرِ أو النّهي؛ لأنّه أبلغ وأصلح وأخير للمُوصى إليه، ولكي يقع منه مَوقعًا حسنًا لطيفًا؛ لأنّ التّوصية "التّقدمُ إلى الغير بما فيه خيرٌ وصلاحٌ للمسلمين من فعلٍ أو قولٍ"[1]، والمُوصي لا يَبْتغي من وصيّته إلّا الخير في الدّنيا والآخرة.

تقديمُ المُتعلّقِ ﴿بِهَا﴾ العائدِ على الكلمة:

العنايةُ بأصلِ الأصولِ والاهتمامُ بكلمةِ الإخلاصِ سببُ تقديمِ الجارِ والمجرورِ (بها)

الجارُّ والمجرورُ في قوله تعالى: ﴿وَوَصَّىٰ بِهَآ إِبۡرَٰهِـۧمُ بَنِيهِ وَيَعۡقُوبُ﴾ يعود على كلمة التّوحيد (لا إله إلّا اللّه)، وقدّمه على الفاعل والمفعول، للاهتمام به والعنايةِ بمضمون الكلمة المُوصى بها، فإنّه ما كان يشغل إبراهيم عليه السلام شاغلٌ قدرَ انشغالِه بكلمةِ التّوحيدِ والإخلاصِ؛ فقدّم ما هو به مُنشغل على غيره، وهو "المَشهودُ له بالفَضلِ، وحُسنِ الطّريقةِ، وكمالِ السِّيرةِ، ثُمَّ عُرِفَ أنَّه كان في نهاية الاهتمام بهذا الأمر"[2].

توجيهُ المخصوصِ بالذِّكرِ:

توبيخُ بني إسرائيل مُستَحَقٌّ؛ لمخالفتهم ملّة إبراهيم، وتنكُّبهم عن سيرة يعقوب عليهما السلام

أُسندت الوصية في قوله تعالى: ﴿وَوَصَّىٰ بِهَآ إِبۡرَٰهِـۧمُ بَنِيهِ وَيَعۡقُوبُ﴾ إلى إبراهيم عليه السلام، وعطف عليه يعقوبَ ذاكرًا إيّاه في شأن الوصيّة؛ لأنّ إبراهيم "عَمَّمَ بهذه الوَصيَّةِ جميعَ بنيه، ولم يَخُصَّ أَحدًا منهم بهذه الوصيَّة"[3]، لكنَّ الآيةَ ميَّزت يعقوب بالذّكر لما فيه توبيخ لبني إسرائيل، وتعريض[4] بهم "فكما عَرَّضَ بالمُشركِينَ في إعراضهم

(1) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 1/263.
(2) الرّازيّ، مفاتيح الغيب: 4/80.
(3) الرّازيّ، مفاتيح الغيب: 4/80.
(4) معنى التّعريض: هو "الدّلالة بالمفهوم بقصد المتكلم" السّبكي، عروس الأفراح: 2/316، وهو مُشتقٌّ من العرض؛ أي: أن لا يُصرّح بالشّيء المراد فهو يفهم من عرض الكلام وجوانبه.

عَن دِينٍ أَوصَى به أَبوهُم، عَرَّضَ باليهود كذلك؛ لأَنَّهُم لَمَّا انتسبُوا إلى إِسرائيلَ وهو يَعْقوبُ الّذي هو جامِعُ نَسَبِهِم بعد إِبراهيمَ؛ لتُقامَ الحُجَّةُ عليهم بحقِّ اتِّباعِهِمُ الإِسلام"[1]؛ لإعراضِهم عن الإسلام ملّة إبراهيم ويعقوب جدّهم؛ وأعظم أنبيائهم الّذي ينسبون إليه.

ذِكْرُ المفعولِ قبلَ تمامِ العطفِ احتراسٌ:

دفعُ توهمِ صدورِ الوصيةِ عن الأبِ وابنِه في وقتٍ واحدٍ

ذُكِرَ المفعولُ ﴿بَنِيهِ﴾ في قوله تعالى: ﴿وَوَصَّىٰ بِهَآ إِبۡرَٰهِـۧمُ بَنِيهِ وَيَعۡقُوبُ﴾ قبل تمام العطفِ؛ لأنّ يعقوبَ "مَعطوفٌ على ﴿إِبۡرَٰهِـۧمُ﴾، ومَفعولُهُ مَحذوفٌ تقديرُهُ: وأَوصى ﴿يَعۡقُوبُ﴾ بَنيه؛ لأَنَّ يَعْقوبَ أَوصى بَنِيهِ أَيضًا"[2]، والغاية منه الاحتراس[3]، فلم "يقُلْ: ووصَّى بها إبراهيمُ ويَعقوبُ بنيهما، لئلَّا يُتَوَهَّمَ أَنَّ الوَصيَّةَ كانَتْ منهما في وقتٍ واحدٍ، أَو أَنَّها خاصَّةٌ بأَبنائِهِما معًا، وهُم أَولادُ يَعقوب"[4].

الألفُ واللّامُ في الدّينِ للكمال:

الألف واللّام في كلمة ﴿ٱلدِّينَ﴾ في قوله تعالى ﴿إِنَّ ٱللَّهَ ٱصۡطَفَىٰ لَكُمُ ٱلدِّينَ﴾ ليست جنسيّةً تدُلُّ على العموم، ولا عهديّة؛ لأنّ الدّينَ معلومٌ لديهم، لكنّها تدُلُّ على الكمال، أي: الدّين الكامل الّذي ليس وراءه دين آخر.

غرضُ النّهي في قوله تعالى: ﴿فَلَا تَمُوتُنَّ﴾:

الثَّباتُ على الإسلامِ في جميعِ الأحوالِ أمرٌ ضرورةٌ بأفعالٍ مقدورة

ظاهرُ اللّفظِ في قولِه تعالى: ﴿فَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسۡلِمُونَ ١٣٢﴾ نهيٌ عن الموتِ، إلّا أنّ فيه خروجًا عن حقيقته إلى معنى النَّهي عن مفارقة الدّنيا إلّا والمرءُ مُسلم موحّد لله تعالى، والتَّعبير كناية عن

---

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 1/728.

(2) العُكبَرِيّ، التّبيان: 1/118.

(3) الاحتراس: تكميل الكلام في حقيقته؛ وهو أن يُؤتى في كلام يوهم خلاف المقصود بما يدفعه، ومنه قوله تعالى: ﴿فَسَوۡفَ يَأۡتِي ٱللَّهُ بِقَوۡمٖ يُحِبُّهُمۡ وَيُحِبُّونَهُۥٓ أَذِلَّةٍ عَلَى ٱلۡمُؤۡمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى ٱلۡكَٰفِرِينَ﴾ [المائدة: 54] فإنّه لو اقتصر على وصفهم بالذّلّة على المؤمنين لتُوُهم أنّ ذلّتهم لضعفهم فلمّا قيل: ﴿أَعِزَّةٍ عَلَى ٱلۡكَٰفِرِينَ﴾ علم أنها منهم تواضع لهم، ينظر: الصّعيدي، بغية الإيضاح: 2/355.

(4) محمّد رشيد رضا، تفسير المنار: 392-391.

ضرورة ملازمة دِين الإسلام وشرائعه، بحيث حين يحضر الموتُ أحدَهم؛ لا يموتُ إلّا وهو مسلم.

دلالةُ الجملةِ الاسميّةِ على الثّبوت:

الحالُ اللّازمةُ لقبولِ المسلمِ هي ثباتُه على الإسلامِ

جملة (أنتم مسلمون) في قوله تعالى: ﴿فَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسۡلِمُونَ ١٣٢﴾ حاليّة وهي "مبتدأٌ وخبرٌ في محلِّ نصبٍ على الحالِ"[1]؛ "كأنّه قال تعالى: لا تَموتُنَّ على كلِّ حالٍ، إلاّ على هذه الحالِ"[2]، وهي اسميّة في ذاتها، دالّة على الثّبوت، ومعناها: "فلا يكن موتُكُم إلّا على حال كونكم ثابتين على الإسلام"[3]؛ فدلالتها على الثّبوت واضحة بيّنة باسميّة جزءيها وتعريفهما، وهو ما يُعزِّزُ معنى النَّهي وغرضَه.

۞ الفُرُوقُ المُعْجَمِيَّةُ:

وَصّى وأَمَرَ:

في قوله تعالى ﴿وَوَصَّىٰ بِهَآ إِبۡرَٰهِـۧمُ بَنِيهِ وَيَعۡقُوبُ﴾ لم يقل الحقّ تبارك وتعالى (وأمر بها إبراهيم) أو نحوه من فعل دالّ على الأمر، بل جاء بفعل مُشتقّ من الوصيّة؛ لِما في هذا الفعل من قوّة توكيد أكبر من فعل الأمر "لأَنَّ الوَصِيَّةَ عندَ الخَوفِ مِنَ الموتِ، وفي ذلك الوَقتِ يكونُ احتياطُ الإنسانِ لِدِينِه أَشَدَّ وأَتَمَّ، فإذا عَرَفَ أَنَّهُ عليه السلام في ذلك الوَقتِ كان مُهتَمًّا بهذا الأَمرِ مُتَشَدِّدًا فيه"[4] فإذا علم ذلك كان قبول الوصيّة من بنيه وذريّته أقرب وأدنى.

---

(1) السّمين، الدّرّ المصون: 2/127.

(2) السّمين، الدّرّ المصون: 2/127.

(3) الزّمخشريّ، الكشّاف: 1/329.

(4) الرّازيّ، مفاتيح الغيب: 4/80.

﴿أَمۡ كُنتُمۡ شُهَدَآءَ إِذۡ حَضَرَ يَعۡقُوبَ ٱلۡمَوۡتُ إِذۡ قَالَ لِبَنِيهِ مَا تَعۡبُدُونَ مِنۢ بَعۡدِيۖ قَالُواْ نَعۡبُدُ إِلَٰهَكَ وَإِلَٰهَ ءَابَآئِكَ إِبۡرَٰهِـۧمَ وَإِسۡمَٰعِيلَ وَإِسۡحَٰقَ إِلَٰهٗا وَٰحِدٗا وَنَحۡنُ لَهُۥ مُسۡلِمُونَ﴾ [البقرة: 133]

❁ مُناسَبَةُ الآيَةِ لِمَا قَبْلَها:

لـمّا ذَكَرَ سبحانه وتعالى عن إبراهيم ﷺ أنّه وصّى بنيه بالاستمساك بالإسلام، وبالَغَ في حثّهم على الالتزام بشرائعه؛ ذَكَرَ ههنا وصيّة يعقوب ﷺ لبنيه أيضًا تأكيدًا للحُجّة على اليهود والنّصارى، وحضًّا لهم على الالتزام بالتّوحيد الذي هو حبل النّجاة في الدّنيا والآخرة.

❁ شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿شُهَدَآءَ﴾: جمع تكسير مفرده شهيد، وأصل مادة (شهد) "يدُلُّ على حضور وعلم وإعلام ... يُقالُ: شَهِدَ فُلانٌ عند القاضي، إذا بَيَّنَ وأَعلمَ لـمَن الحَقُّ وعلى مَنْ هو"[1]، فالأصل في شهد بمعنى "حَضَرَ، ثمّ صُرّفت الكلمة في أداء ما تقرّر علمه في النّفس بأيّ وجه تَقَرَّر من حضور أو غيره"[2].

والمعنى في الآية: أم كنتم حضورًا.

2) ﴿حَضَرَ﴾: فعلٌ ماضٍ، أصله اللّغويّ من (حضر)، والأصل في معناه "إِيرَادُ الشَّيءِ وَوُرُودُهُ ومُشاهَدَتُهُ"[3].

فالحضور هنا بمعنى الوجود والشّهود، أي: كان غائبًا، فقُدّم من غيبته، لأنّ الحضورَ ضدّ الغيبة[4]، وأكثر ما يستخدم (حضر) في الأمور المتعلّقة بالأحكام الشّرعيّة.

"والـمُرادُ بحُضورِ الـمَوتِ: حُضورُ مُقدّماته"[5].

(1) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (شهد).
(2) جبل، المعجم الاشتقاقي المؤَصّل: (شهد).
(3) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (حضر).
(4) السّمين، عمدة الحفّاظ: (حضر).
(5) الشّوكانيّ، فتح القدير: 1/169.

3) ﴿ٱلۡمَوۡتُ﴾: (موت) "أَصلٌ صحيحٌ يدلُّ على ذهابِ القوَّةِ منَ الشَّيءِ، منهُ الموتُ: خلافُ الحياةِ"[1] والمعنى المعروف أنّه ضدّ الحياة، وأنّه مفارقة الرّوح للجسد، أي مفارقة القوّة النّامية الموجودة جسم الحيّ حتى يصبح جُثّة هامدة.

ويُعَبِّر القرآن عن الموت بمجيء الأجل، أو حضور الموت، أو عبارة (قضى نحبه)، وحاصل هذه التّعابير: انتهاء أجل الإنسان وانتقاله من دار الدّنيا إلى دار الآخرة.

4) ﴿لِبَنِيهِ﴾: البنون: اسم ملحق بجمع المذكر السّالم، جذره اللّغويّ (بنو)، الأصل في معناه "الشَّيءُ يَتَوَلَّدُ عَنِ الشَّيءِ، كابن الإِنسان وغيرِه، وأَصلُ بنائِهِ بَنَوَ، والنِّسبَةُ إِليهِ بَنَوِيٌّ، وكذلك النِّسبَة إِلى بِنْتٍ وإِلى بُنَيَّاتِ الطَّريق"[2].

والابن امتداد لأبيه ناشئ منه، يمدّ ذريّته ويقيمها[3].

وسُمّي الابن "بذلك لكونه بناءً للأبِ، فإنّ الأبَ هو الّذي بناه، وجعلَهُ اللّه بنّاءً في إيجاده، ويُقال لكلّ ما يَحصُلُ من جهة شيءٍ أو من تربيتِه أو بتفقُّده أو كثرَة خِدمَته له أو قيامه بأمره هو ابنُهُ"[4].

والمقصودُ من أبنائه في الآية: أولادُه؛ فقد جَمَعهم "وهم اثنا عشَر رجلاً، وهم الأسباط وجميع أولادهم"[5].

5) ﴿تَعۡبُدُونَ﴾: جذره اللّغويّ (عبد)، "والعَبد: ضدّ الحرّ، وأصل العبد من قَولهم طَرِيق معبّد، أَي: مذلّل"[6].

والأصل في أحد معنييه دلالته على اللّين والذّلّ، ومنه العبد المملوك[7].

و"العُبوديَّةُ إظهار التّذلّل، والعبادَةُ أبلغُ منها لأنّها غاية التّذلُّل، ولا يستحِقُّها إلاّ من له غاية الإفضَال، وهو اللّه تعالى"[8]، وهو المعنيّ في الآية.

---

(1) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (موت).
(2) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (بنو).
(3) جبل، المعجم الاشتقاقي المُؤصَّل: (بنو/بنى).
(4) الرّاغب، المفردات: (بني).
(5) الواحديّ، الوسيط: 1/217.
(6) الخليل، العين: (عبد).
(7) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (عبد).
(8) الرّاغب، المفردات: (عبد).

6) ﴿إِلَـٰهَكَ﴾: اسمٌ ثلاثيٌّ جذره اللّغويّ من (ألهـ)، وأصله إلاه على فِعال، بمعنى مَفعول لأنّه مألوه، أي: معبود، كقولنا: إمام (فِعال) بمعنى مفعول لأنّه مؤتمّ به، فلمّا أُدخلت عليه الألف واللّام حُذفت الهمزة تخفيفًا؛ لكثرته في الكلام"[1].

والمراد في الآية: نعبد إلهك وهو الله ربُّ العالمين، الذي يتَّفِقُ العالَمون على وجوده وإلهيّته وربوبيّته للخلق جميعًا، وهو المعبودُ بحقٍّ.

7) ﴿ءَابَآئِكَ﴾: جمع تكسير مفرده (أب)، جذره اللّغويّ (أبو)، يَحْذِفُ العَرَبُ لَامَهُ، والأصل في معناه "يدُلُّ على التَّربيةِ والغَذْوِ، أَبَوْتُ الشَّيءَ آبُوهُ أَبْوًا: إذا غَذَوْتُهُ، وبذلك سُمِّيَ الأَبُ أَبًا، ويُقالُ في النِّسبَةِ إلى أَبٍ أَبَوِيٌّ"[2].

و"الأب: الوالد، ويُسمّى كلُّ من كان سببًا في إيجاد شيءٍ، أو إصلاحه أو ظهوره أبًا؛ ولذلك يُسمَّى النّبيّ ﷺ أبا المؤمنين"[3].

والآباء في الآية على الحقيقة، إلاّ إسماعيل فقد كان "عمّاً لهم، والعرب تسمّي العمّ أبًا، كما تسمّي الخالة أمًا"[4]؛ ولقوله ﷺ لعمر رضي الله عنه (أما شَعَرتَ أَنَّ عَمَّ الرَّجُلِ صِنْوُ أَبيه)[5].

8) ﴿وَإِسْحَـٰقَ﴾: اسمُ علمٌ على ابن إبراهيم عليهما السلام "وهو ولده من سارة، عاش مئة وثمانين سنة"[6].

وهو أبو يعقوب عليه السلام.

9) ﴿وَٰحِدًا﴾: اسم عدد يبتدأ به على زنة (فَاعِل)، جذره اللّغويّ (وحد)، و "الوَحَدُ: المُنفَرِدُ، رجلٌ وَحَدٌ، وثورٌ وَحَدٌ، وتفسير الرّجلِ الوَحَد: الّذي لا يُعْرَفُ له أَصْلٌ"[7] والأصل في معناه الانفرادُ[8].

(1) الجوهريّ، الصّحاح: (أله).
(2) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (أبو).
(3) الرّاغب، المفردات: (أبا).
(4) العليميّ، فتح الرّحمن: 1/204.
(5) صحيح مسلم: (983).
(6) الآلوسّي، روح المعاني: 1/211.
(7) الخليل، العين: (وحد).
(8) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (أحد).

و"الوحدة: الانفراد، والواحد في الحقيقة هو الشّيء الّذي لا جزء له البتّة، ثمّ يُطلق على كلّ موجود حتّى إنّه ما من عدد إلّا ويصحّ أن يُوصفَ به"[1].

۞ المَعْنَى الإجْمَاليُّ:

هذه الآية خِطابٌ لليهود المعاصرين للنّبي ﷺ لتذكيرهم أنّ كلَّ الأنبياء والرسل جاؤوا بالتّوحيد ونبذ الشّرك وجميع مظاهره وصوره، والمعنى: أكنتم حاضرين، - أيّها اليهود - حين حضر الموتُ يعقوبَ عليه السلام وسأل أبناءه؛ ليَسْتَوْثِقَ من رسوخ عقيدة التّوحيد في عقولهم وقلوبهم: ما أنتم عابدون من بعدي؟ فأجابوه إجابة رَجل واحد: نعبد إلهك وإله آبائك من قبل إبراهيم وإسماعيل وإسحاق، ونحن مسلمون منقادون لشرعه اليوم وغدًا، وهذا السّؤال منه تقرير لتوحيد اللّه ﷻ وغرس جذوره في الذّرية.

۞ الإيضَاحُ اللُّغَويُّ وَالبَلَاغِيُّ:

التّعبير بـ﴿أَمۡ﴾ المنقطعةِ الدّالّةِ على الإضراب:

توبيخُ كلِّ من افترى على الأنبياءِ بأنّهم لم يكونوا على دين الإسلامِ

(أم) في قوله تعالى: ﴿أَمۡ كُنتُمۡ شُهَدَآءَ إِذۡ حَضَرَ يَعۡقُوبَ ٱلۡمَوۡتُ﴾، "هي المُنقطعةُ، أَي: بَل أَكُنتُمْ شُهداءَ؟"[2]، وفي ذلك دلالةٌ على إنكار حضورِهم، "يعني: أَكُنتُمْ شُهداءَ؟ يريدُ: ما كُنْتُمْ شُهداءَ حُضورًا"[3].

فالآيةُ خطابٌ لأهل الكتاب "الّذينَ انتحلُوا الأنبياءَ صلوات اللّه عليهم ونسبوهُم إلى اليهوديّةِ والنّصرانيّةِ، فردّ اللّهُ تعالى عليهم وكذّبهُم، وأعلمهُم أنّهم كانوا على الحنيفيّة والإسلام، وقال لهم على جهةِ التّقريعِ والتّوبيخِ: أشهدتُم يعقوبَ، وعَلمتُم بما أوصَى فتدّعون عن علمٍ؟ أي: لم تشهدُوا، بل أنتم تفترونَ"[4] على رسلي، وتنسبونَ إليهم الأباطيلَ.

(1) الرّاغب، المفردات: (وحد).
(2) العُكبَرَي، التّبيان: 1/118.
(3) البغويّ، معالم التّنزيل: 1/154.
(4) ابن عطية، المحرر الوجيز: 1/213.

سرُّ التَّعبيرِ بـ﴿شُهَدَآءَ﴾ دونَ (حضورًا):

الإيماءُ بأنَّ المطلوبَ الشَّهادةُ وإن لم يكن حضورٌ عيانيٌّ

جاءَ التَّعبيرُ بلفظِ ﴿شُهَدَآءَ﴾ في قوله تعالى: ﴿أَمۡ كُنتُمۡ شُهَدَآءَ إِذۡ حَضَرَ يَعۡقُوبَ ٱلۡمَوۡتُ﴾، ولم يعبِّر بلفظِ (حضورًا)؛ ليكون مغايرًا للفعل ﴿حَضَرَ﴾، فإنّه لو قال: (أم كنتم حضورًا إذ حضرَ) لكان في الكلام تَكرارٌ مَمْجُوجٌ غَيْرُ مُسْتَسَاغٍ، و"لأنّ لفظ الشّهادة يُفيد الضّبط والإحاطة بعلم الشّيء"[1]، ممّا يجعل بينها وبين الحضور تباينًا واختلافًا، وفيه إيماءٌ للمخاطبين بأنَّكم وإن لم تحضروا عيانًا لكنَّكم تشهدون على ذلك الحضورِ اعتقادًا؛ فالتَّعبيرُ بالشهادةِ أقوى دلالةً، وألطفُ عبارةً.

بلاغة تقديمِ المفعول على الفاعل:

رفعُ شأنِ يعقوبَ، والتَّعريضُ بمن خالفَ سيرتَه

قُدِّم المفعول ﴿يَعۡقُوبَ﴾ على الفاعل ﴿ٱلۡمَوۡتُ﴾ في قوله تعالى: ﴿أَمۡ كُنتُمۡ شُهَدَآءَ إِذۡ حَضَرَ يَعۡقُوبَ ٱلۡمَوۡتُ﴾؛ للاعتناءِ والاهتمام، حيث إنّ الفقرة كلّها مبنيّةٌ على شخصية يعقوب ووصيته لأبنائه.

وتأخير لفظ ﴿ٱلۡمَوۡتُ﴾ يُشير إلى أنّ رغبة البشر كلهم تأخير الموت، وهو ملحظٌ نفسي.

وسبب الاعتناءِ هو عدم مفاجأة يعقوب؛ فجعل الموت مُتأخّرًا تخفيفًا عنه، واعتناءً به، ورفعًا لشأنه، فإنَّه لا يخشى الموتَ؛ لحُسنِ عملِه، وسلامةِ سريرته، ففيه تعريضٌ بمن يخشى الموتَ، ويحرص على أيِّ حياةٍ.

تنوُّعُ المجازِ والاستعارةِ المكنيّةِ في ﴿إِذۡ حَضَرَ يَعۡقُوبَ ٱلۡمَوۡتُ﴾:

تشخيصُ الموتِ في ذهنِ السَّامعِ ليقوى الأثرُ في السُّلوكِ

في قوله تعالى: ﴿إِذۡ حَضَرَ يَعۡقُوبَ ٱلۡمَوۡتُ﴾ استعارةٌ مكنيّة[2]، إذ شبَّه الموتَ بإنسانٍ حاضرٍ؛ فحُذِف المشبّه به ورُمز له بشيء من

(1) ابن عرفة، تفسير ابن عرفة: 1/171.

(2) الاستعارة المكنيّة "أن يُذكر لفظ المشبّه مرادًا به حقيقته، ويدُلُّ على أنّ القصد تشبيهه بغيره بذكر شيء من لوازم ذلك الغير"، السّبكيّ، عروس الأفراح: 2/197، كقول الشّاعر أبي ذؤيب الهذلي: (وإذا المنيّة أنشبَت أظفارَها).

لوازمِه وهو الحضور، وفي هذا تجسيمٌ للموت وتشخيصٌ "في صورة حسيّة، فيصوّر كأنّه غائب، ينتظر قدومه في أيّ لحظة، فهو يحضر إلى يعقوب بعد غياب عنه"[1]، وتصوير الموت في صورة محسوسة؛ يقرّبه إلى ذهن السّامع، ويمكّنه منه؛ ليتأثر به، والمقصودُ بذلك أدعياءُ الاتباعِ من ذريَّته بالدّرجةِ الأولى؛ وذلك لطغيانِ الجانبِ المادّيِّ في حياتِهم، وهذا من هدايات القرآنِ في الحرص على العبادِ.

ونستطيع أن نحمل قولَه تعالى: ﴿إِذۡ حَضَرَ يَعۡقُوبَ ٱلۡمَوۡتُ﴾ على المجازِ بالحذفِ، "وَمَعْنَى ﴿حَضَرَ يَعۡقُوبَ ٱلۡمَوۡتُ﴾ أَيْ: مُقَدِّمَاتُهُ وَأَسْبَابُهُ، وَإِلَّا فَلَوْ حَضَرَ الْمَوْتُ لَمَا أَمْكَنَ أَنْ يَقُولَ شَيْئًا"[2].

قولُه ﴿مَا تَعۡبُدُونَ﴾ التّعبير بـ﴿مَا﴾ دون ﴿مَن﴾:

اختبارُ الأبناءِ حرصٌ ناشئٌ عن توقُّعٍ وتحذير

آثرَ النَّظمُ التّعبيرَ بـ﴿مَا﴾ دون التّعبير بـ﴿مَن﴾ في قوله تعالى: ﴿مَا تَعۡبُدُونَ مِنۢ بَعۡدِيۖ﴾؛ لأنّ ﴿مَن﴾ تقع للعاقل[3]، أمّا "﴿مَا﴾ فعامّ في كلّ شيء"[4]؛ "لِأَنَّهُ أَرَادَ أَنْ يَخْتَبِرَهُمْ، وَلَوْ قَالَ: "مَنْ"؛ لَكَانَ مَقْصُودُهُ أَنْ يَنْظُرَ مَنْ لَهُمُ الِاهْتِدَاءُ مِنْهُمْ، وَإِنَّمَا أَرَادَ تَجْرِبَتَهُمْ فَقَالَ" ﴿مَا﴾"[5]، واختباره عليه السلام لأبنائه دليلُ توقُّعٍ وتخمين لواقعهم، وتحذيرٌ أن يقعوا في المحذور.

فائدةُ إدخالِ ﴿مِن﴾ على (بعدِ) في قولِه ﴿مَا تَعۡبُدُونَ مِنۢ بَعۡدِيۖ﴾:

حرصُ الأبِ على إرشادِ الأبناءِ يبدأ في أقرب الأزمانِ

(بعد) في الأصل ظرف للمكان والزّمان، ويجوز دخول حرف الجرّ (من) عليه؛ فيكون مجرورًا به، ويجوز لغةً أن يقول (ما تعبدون بعدي) إلاّ أنّ المجيء بـ﴿مِن﴾ في قوله تعالى: ﴿مَا تَعۡبُدُونَ مِنۢ بَعۡدِيۖ﴾ فيه دلالةٌ على السُّرعةِ وتقاصرِ الزّمنِ، أي: ماذا تعبدون

(1) عبد السّلام الرّاغب، وظيفة الصّورة الفنية في القرآن، ص: 125.
(2) القرطبي، الجامع لأحكام القرآن: 2/137.
(3) ابن السّراج، الأصول في النّحو: 2/159.
(4) الزّمخشريّ، الكشّاف: 1/331.
(5) القرطبي، الجامع لأحكام القرآن: 2/137.

بعد موتي مباشرة، أي: أنّه أراد لهم الخير في عبادتهم اللّه تعالى بعد موته مباشرة من دون أيّة مهلةٍ للتّفكير أو التّغيير؛ لذلك اقترن "ظَرفُ بَعْدِي بحرفِ ﴿مِنْ﴾ لقصدِ التَّوكيدِ، فإنَّ ﴿مِنْ﴾ هذه في الأَصلِ ابتدائية فقولك: جئت من بَعدِ الزَّوَالِ يُفيدُ أَنَّك جِئتَ في أَوَّلِ الأَزمِنَةِ بَعدَ الزَّوالِ، ثُمَّ عُومِلَتْ مُعاملةَ حَرفِ تأكيد"[1] وهذا ما تمنحُه ﴿مِن﴾ الّتي تفيدُ الابتداءَ والبعدية، بعديّةً زمانيَّةً.

دلالةُ التّعريفِ بالإضافةِ في ﴿إِلَٰهَكَ﴾:

قوله تعالى: ﴿قَالُواْ نَعۡبُدُ إِلَٰهَكَ وَإِلَٰهَ ءَابَآئِكَ﴾ جوابٌ لسؤال ﴿مَا تَعۡبُدُونَ مِنۢ بَعۡدِيۖ﴾، وعبّروا عن المعبود بـ(إله) مُضافًا إلى الضّمير فصار مُعرّفًا بالإضافة، ولم يعبّروا عن ذلك بالاسم العلم (اللّه)؛ "إيماءً إلى أَنَّهُم مُقتَدُون بسَلَفِهم"[2]، و"لأَنَّ إضافَةَ إلهٍ إلى ضميرِ يَعْقُوبَ وإلى آبائِهِ تُفيدُ جميع الصِّفاتِ الّتي كان يَعقُوبُ وآباؤُهُ يَصِفونَ اللّه بها فيما لقّنه لأبنائه مُنذُ نَشأَتِهِم"[3].

سرُّ تقديمِ إسماعيلَ على إسحاق عليهما السلام:

حرصُ يعقوبَ على تعليم أبنائه احترامَ الآباء، وتنزيلهم منازلَهم

قُدِّم إسماعيلُ على إسحاقَ في قوله تعالى: ﴿إِبۡرَٰهِـۧمَ وَإِسۡمَٰعِيلَ وَإِسۡحَٰقَ﴾ والخطابُ لبني إسرائيل؛ "لأَنَّ إسماعيلَ كان أَسَنَّ من إسحاقَ"[4]، وهو يدلُّ على توقير الآباء بتنزيلِهم منازِلهم عند مخاطبةِ يعقوب عليه السلام، وفيه أنَّ هذه تربيته وتعليمه لهم، بتوقير إسماعيل وتقديمه بالذِّكر، وهي إشارةٌ قرآنيَّةٌ لبني إسرائيل للاعتراف بمحمَّدٍ ﷺ.

بلاغةُ إعادةِ لفظِ ﴿إِلَٰهًا﴾ ووصفُه بـ﴿وَٰحِدًا﴾:

تكرير لفظ (إله)؛ للتوكيد والتّمهيد للكلام اللاحق

في قوله تعالى: ﴿نَعۡبُدُ إِلَٰهَكَ وَإِلَٰهَ ءَابَآئِكَ إِبۡرَٰهِـۧمَ وَإِسۡمَٰعِيلَ

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 1/723.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 1/733.
(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 1/733.
(4) الرّازيّ، مفاتيح الغيب: 4/84.

﴿وَإِسۡحَٰقَ إِلَٰهٗا وَٰحِدٗا﴾ أعاد ذكر الإله بقوله: ﴿إِلَٰهٗا وَٰحِدٗا﴾، فهو "بَدَلٌ مِن ﴿إِلَٰهَكَ﴾ الأُولى، ويجوزُ أَن يكونَ حالًا"[1] فإعادته "أُسلوبٌ مِنَ الفصاحَةِ، إذ يُعادُ اللَّفظُ لِيُبْنَى عليه وَصفٌ، أَو مُتَعَلِّقٌ، ويَحصُلَ مع ذلك تَوكيدُ اللَّفظِ السَّابقِ تَبَعًا، وليس المقصودُ مِن ذلك مُجَرَّدَ التَّوكيد"[2].

دلالةُ التّعبير بالجملةِ الاسميّة:

تصريح أبناء يعقوب عليه السلام بخضوعهم لله، وثباتهم على الإسلام

قوله تعالى: ﴿وَنَحۡنُ لَهُۥ مُسۡلِمُونَ﴾ جملةٌ في مَوضِع الحال من فاعل ﴿نَعۡبُدُ﴾ أو أنّها معطوفة على نعبد[3]، وقد "جِيءَ بها اسميَّة لإفادَةِ ثباتِ الوَصفِ لهم ودوامِهِ بعدَ أَن أُفيدَ بالجُملةِ الفعليَّةِ المَعطوفِ عليها معنى التّجدّد والاستمرار"[4].

تقديمُ المُتعلّقِ على الخبرِ يفيدُ القصر:

جاء في قوله تعالى: ﴿وَنَحۡنُ لَهُۥ مُسۡلِمُونَ﴾ المُتعلّق ﴿لَهُۥ﴾ مُقدّمًا على الخبر ﴿مُسۡلِمُونَ﴾، وفائدة التّقديم قصر الإسلام والإذعان عليه سبحانه، فنحن له مسلمون لا إلى غيره، أي: "والحالُ أَنَّنا نحن مُنقادونَ مُذعِنونَ مُستسلِمونَ له وَحدَهُ دون غَيرِهِ كما يدُلُّ عليه تَقدِيمُ الظَّرفِ ﴿لَهُۥ﴾"[5]؛ لأنّه لو أخّره فسيكون التّقدير: (نحن مسلمون له)، ويحتمل حينئذ الإسلام لغيره أيضًا.

(1) العُكبَرِي، التّبيان: 1/119.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 1/734.
(3) السّمين، الدّرّ المصون: 2/132.
(4) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 1/734.
(5) محمّد رشيد رضا، تفسير المنار: 1/392.

﴿ تِلْكَ أُمَّةٌ قَدْ خَلَتْ ۖ لَهَا مَا كَسَبَتْ وَلَكُم مَّا كَسَبْتُمْ ۖ وَلَا تُسْـَٔلُونَ عَمَّا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿١٣٤﴾ ﴾ [البقرة: 134]

❁ مُناسَبَةُ الآيَةِ لِمَا قَبْلَها:

هذه الآية تعقيبٌ لما مضى من آيات من لدن قوله تعالى ﴿وَإِذِ ٱبْتَلَىٰٓ إِبْرَٰهِـۧمَ رَبُّهُۥ بِكَلِمَٰتٍ﴾ [البقرة: 124] إلى قوله تعالى: ﴿أَمْ كُنتُمْ شُهَدَآءَ إِذْ حَضَرَ يَعْقُوبَ ٱلْمَوْتُ﴾، ففي هذه الآيات الـمُتقدّمة ثناءٌ على إبراهيم عليه السلام وبنيه، وتنويهٌ بشأنهم، وسُمُوّ منزلتهم، وتقبيحُ فِعْلِ من لم يلتزم طريقهم، "وكأَنَّ ذلك قد يَنتَحِلُ منهُ الـمَغرورونَ عُذْرًا لأَنفُسِهِم؛ فيقولونَ: نحنُ وإنْ قَصَّرْنا فإنَّ لنا مِنْ فَضلِ آبائِنا مَسلَكًا لِنجاتِنا، فذُكِرَتْ هذه الآيَةُ لإفادَةِ أَنَّ الجزاءَ بالأَعمالِ لا بالاتِّكالِ"(1)، فلا يكن منكم ذلك، فإنّ لكلّ أمّة عملها؛ فلا ينتفع قوم بصالح أعمال أسلافهم، بل إنّ كُلَّ ٱمْرِيٍٕ رهينٌ بِمَا كَسَبَ مُحاسَبٌ يوم الحشر على ما فعل.

❁ شَرْحُ المُفْرَدَاتِ:

1) ﴿خَلَتْ﴾: فعلٌ ماضٍ جذره اللّغويّ من (خلو)، والأصل في معناه: دلالته "على تَعَرِّي الشَّيءِ مِنَ الشَّيءِ، يُقالُ هو خِلْوٌ مِن كذا، إذا كان عِرْوًا منه، وخَلَتِ الدَّارُ وغَيرُها تَخْلو، والخَلِيُّ: الخالي مِنَ الغَمِّ، وامرأَةٌ خَلِيَّةٌ: كنايةٌ عَنِ الطَّلاقِ، لأَنَّها إذا طُلِّقَتْ فقد خَلَتْ عَنْ بَعلِها"(2).

وخلا الشّيءُ: مَضَى وذَهَبَ فخلا منه المكانُ والزّمانُ الّذي كان يشغله"(3).

"والخُلُوّ يُستعملُ في الزّمان والمكان لكن لـمّا تُصُوِّرَ في الزّمان الـمُضيُّ فسَّر أهلُ اللّغة: خلا الزّمان، بقولهم: مضى الزّمان وذهب"(4).

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 1/735.
(2) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (خلو).
(3) جبل، المعجم الاشتقاقي المُؤصَّل: (خلو-خلى).
(4) الرّاغب، المفردات: (خلا).

ومعنى ﴿خَلَتۡ﴾ في الآية: تلك أُمَّةٌ قد مضت وانقضى عهدُها.

2) ﴿كَسَبَتۡ﴾: فعلٌ ماضٍ جذره اللّغويّ (كسب)، والأصل في معناه: دلالته "على ابتغاءٍ وطَلَبٍ وإِصابةٍ، فالكَسبُ مِن ذلك"[1].

و"الكَسْبُ: طَلَبُ الرزق، وأصله الجمعُ، تقول منه: كَسَبْتُ شيئاً واكتسبْتُهُ بمعنًى، وفلان طيِّبُ الكَسْب ... وكسبْتُ أهلي خَيْرًا، وكَسَبْتُ الرّجلَ مالاً فكَسَبَه"[2].

ومن معانيه أيضًا "ما يتحرّاه الإنسانُ ممّا فيه اجتلابُ نفعٍ وتحصيلُ حظّ ككَسبِ المال، وقد يُستعملُ فيما يَظُنُّ الإنسانُ أنّه يَجلِب مَنفعةً ثمّ استُجلِب به مَضَرّةٌ، والكَسْبُ يُقال فيما أخذَهُ لنفسِه ولغيرِه"[3].

والمعنى في الآية: "أيْ: تلك الأُمَّةُ مُختَصَّةٌ بجزاءِ ما كَسَبَتۡ، كما أَنَّكُم كذلك مُختَصُّونَ بجزاءِ ما كَسَبتُم مِنْ خيرٍ وشرٍّ، فلا يَنفعُ أَحدًا كَسبُ غيره"[4].

3) ﴿تُسۡـَٔلُونَ﴾: فعلٌ مضارعٌ من الأفعالِ الخمسةِ مبنيّ للمفعول (المجهول)، الماضي المُجرّدُ منه (سألَ)، وهو جذرُه اللّغويّ، والأصلُ في معناهُ "استخراجُ ما في حوزةٍ أخرَى؛ أي: طَلَبُ تحصيلِه بدفْعٍ أو حثٍّ: كما تخرجُ الصّدقةُ والدّرهمُ من المسؤولِ"[5].

والسؤالُ "استدعاءُ معرفةٍ أو ما يُؤدّي إلى المعرفةِ واستدعاءُ مالٍ، أو ما يُؤدّي إلى المالِ، فاستدعاءُ المعرفةِ جوابُه على اللّسانِ ... واستدعاءُ المالِ جوابُه على اليدِ"[6].

وله غيرُ نوعٍ في المُتعدّي، "والسُّؤَالُ إذا كانَ للتّعريفِ تعدّى إلى المفعولِ الثّاني تارةً بنفسِه، وتارةً بالجارّ، تقولُ: سألتُه كذا، وسألتُه عن كذا، وبكذا، وبِعَن أكثرَ"[7].

والفعلُ ههنا مُتعدٍّ بحرفِ الجرِّ (عن)، والمرادُ هنا الاستخبارُ؛ أي طلبُ معرفة الخبر في أمر ما.

---

(1) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (كسب).
(2) الجوهريّ، الصّحاح: (كسب).
(3) الرّاغب، المفردات: (كسب).
(4) أبو حيّان، البحر المحيط: 1/644.
(5) جبل، المعجم الاشتقاقي المُؤَصَّل: (سأل).
(6) الرّاغب، المفردات: (سأل).
(7) الرّاغب، المفردات: (سأل).

4) ﴿يَعۡمَلُونَ﴾: فعلٌ مضارعٌ دالٌّ على الاستقبال، مُسند إلى واو الجماعة، الجذر اللّغويّ منه (عمل)، والأصل في معناه الفعل عامّة[1] و "العَمَلُ كلُّ فعلٍ يكونُ من الحيوان بقصدٍ فهو أخصُّ من الفعل؛ لأنّ الفعلَ قد يُنسب إلى الحيوانات الّتي يقعُ منها فعلٌ بغير قَصد، وقد يُنسب إلى الجمادات، والعَمَلُ قلّما يُنسب إلى ذلك"[2].

والعملُ "أعمّ لأنّه من أعمال الجوارح والقلب، وتدخل فيه الأقوال؛ لأنّها عمل اللّسان، وهو من جملة الجوارح، وقد وقع في التّقابل الفرق بين الأقوال والأفعال فيقولون: سديد الأقوال والأفعال"[3].

والمعنى في الآية: أنّكم لا تُسألون عمّا كانوا يعملون "سُؤالَ حسابٍ وجَزاءٍ، ولا يُسألون عمَّا تَعملونَ كذلك، بل كُلٌّ يُسألُ عَن عملِه، ويُجازى به دُونَ عملِ غيرِه"[4].

المَعْنَى الإِجْمَالِيُّ:

تلك جماعة من النّاس من أسلافكم الّتي سبق ذِكْرُها وذِكْرُ أنبيائها، من إبراهيم وإسماعيل وإسحق ويعقوب وأبنائهم عليهم السلام جميعًا، فهؤلاء مَضَوْا لسبيلهم، "والخِطابُ مُوَجَّهٌ إلى اليهودِ، أي: لا ينفعُكُم صلاحُ آبائِكُم إذا كُنتُم غيرَ مُتَّبِعينَ طريقتَهُم"[5].

فَلِتِلْكَ الأُمَّة ما كسبت من الإيمان والأعمال الصّالحة، ولكم ما كسبتم من الإيمان والأعمال الصالحة أو الذنوب، فكلٌّ يستحقُّ الجزاء على أعماله، خيرًا كانت أم خلاف ذلك، لا يُؤاخَذُ أحدٌ بذنب أحد، ولا ينفع أحدًا إلا إيمانُه وتقواه.

الإِيضَاحُ اللُّغَوِيُّ وَالبَلَاغِيُّ:

دلالةُ التّعبير بلفظ الإشارة ﴿تِلۡكَ﴾ الدّالّ على البعد:

علوُّ مكانةِ الأمَّةِ يجعلُها نبراسًا مُـنيرًا ومَعْلَمًا مَرْقومًا في ذاكرةِ الأتقياءِ

ابتدأ الحقّ تبارك وتعالى قوله: ﴿تِلۡكَ أُمَّةٞ قَدۡ خَلَتۡۖ﴾ بالإشارة إلى تلك الأمّة المذكورة في الآية السّابقة، "الّتي هي إبراهيم

(1) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (عمل).
(2) الرّاغب، المفردات: (عمل).
(3) السّمين، عمدة الحفّاظ: (عمل).
(4) محمّد رشيد رضا، تفسير المنار: 1/393.
(5) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 1/735.

ويعقوب وبنوهما المُوحّدون"[1]، وقد عبّر بـ﴿تِلۡكَ﴾ وهو اسم إشارة موضوعٌ للبعيد[2]، وسرُّ هذا التّعبير أنّهم "﴿أُمَّةٞ﴾ أي: بمنزلتها في الشّرف والبهاء"[3]، فضلاً عن كونها أمّةً مَضَتْ، ففيه إيماءٌ إلى علوّ مكانتها، وسموّ منزلتها أن اتّبعتِ الدّين القويم، وسارت على نهج الملّة الإبراهيميّة الصّحيحة، وآثرت الأعمال على الاتّكال.

بلاغةُ المجازِ العقليّ:

مهما تطاولت أزمانُ الأمم فمصيرُها الاندثار

معنى الخلوّ في قوله تعالى: ﴿تِلۡكَ أُمَّةٞ قَدۡ خَلَتۡۖ﴾ الفراغ، أي: خلا منها المكان، وانقضى زمانها بعد أن كانت تشغله، وأُسْنِدَ "الخُلُوُّ إلى أَصحاب المكان على طريقة المَجاز العَقليِّ؛ لِنُكتَةِ المُبالغة"[4]، ولبيان أنّه مهما وُجدت من أمّة فإنّ مصيرَها إلى زوال، وذِكْرُها إلى اضمحلال، وسيكون جزاؤها عند الله ما قدَّمته؛ إنْ خيرًا فخير، وإنْ شرًّا فشرّ.

فائدةُ تقديمِ المسند على المسند إليه:

لا ينتفعُ الحاضرون بما عمل السّابقون، ولا يُغني أحدٌ عن أحد

قُدِّم المسندُ على المسند إليه في الجملتين في قوله تعالى: ﴿لَهَا مَا كَسَبَتۡ وَلَكُم مَّا كَسَبۡتُمۡۖ﴾؛ لأنّ الأصل: ما كسبت لها، وكذلك الأخرى لكنّه قدّمهما؛ "لِقَصرِ المُسندِ إليه على المُسند، أَي: ما كَسَبَتِ الأُمَّةُ لا يَتَجاوَزُها إلى غيرها، وما كسبتم لا يتجاوزكم، وهو قَصرٌ إضافي لِقَلب اعتِقاد المُخاطَبِينَ"[5]، وتخييب ظنونهم، وقطع أطماعهم من الانتفاع بحسنات من مضى من أسلافهم.

فائدةُ نفي السّؤالِ عن عملِهم التّوكيدُ:

كـلُّ نفسٍ بما كسبتْ رهينة

قوله تعالى: ﴿وَلَا تُسۡـَٔلُونَ عَمَّا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ﴾ "جُملةٌ توكيديَّةٌ لِما قبلها، لأَنَّهُ قد أَخبَرَ بأَنَّ كُلَّ أَحَدٍ مُختَصٌّ بكَسبِهِ مِن خَيرٍ،

---

(1) الزّمخشريّ، الكشّاف: 1/333.
(2) الأزهريّ، شرح التّصريح على التّوضيح: 1/146.
(3) الآلوسّي، روح المعاني: 1/392.
(4) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 1/375.
(5) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 1/735.

وإِذا كانَ كذلك، فلا يُسأَلُ أَحدٌ عَنْ عَمَلِ أَحدٍ"[1]؛ لأنّه مثلما لا تنتفعون بحسنات غيركم، كذلك لا تُسألون عن سيّئاتهم، وأنتم مبرؤون ممّا عملوا وممّا فعلوا، ولا تزِرُ وازرةٌ وِزْرَ أُخرى.

(1) أبو حيّان، البحر المحيط: 1/645.

﴿وَقَالُواْ كُونُواْ هُودًا أَوۡ نَصَٰرَىٰ تَهۡتَدُواْۗ قُلۡ بَلۡ مِلَّةَ إِبۡرَٰهِـۧمَ
حَنِيفٗاۖ وَمَا كَانَ مِنَ ٱلۡمُشۡرِكِينَ ١٣٥ قُولُوٓاْ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَمَآ أُنزِلَ
إِلَيۡنَا وَمَآ أُنزِلَ إِلَىٰٓ إِبۡرَٰهِـۧمَ وَإِسۡمَٰعِيلَ وَإِسۡحَٰقَ وَيَعۡقُوبَ
وَٱلۡأَسۡبَاطِ وَمَآ أُوتِيَ مُوسَىٰ وَعِيسَىٰ وَمَآ أُوتِيَ ٱلنَّبِيُّونَ مِن رَّبِّهِمۡ
لَا نُفَرِّقُ بَيۡنَ أَحَدٖ مِّنۡهُمۡ وَنَحۡنُ لَهُۥ مُسۡلِمُونَ ١٣٦ فَإِنۡ ءَامَنُواْ
بِمِثۡلِ مَآ ءَامَنتُم بِهِۦ فَقَدِ ٱهۡتَدَواْۖ وَّإِن تَوَلَّوۡاْ فَإِنَّمَا هُمۡ فِي شِقَاقٖۖ
فَسَيَكۡفِيكَهُمُ ٱللَّهُۚ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلۡعَلِيمُ ١٣٧ صِبۡغَةَ ٱللَّهِ وَمَنۡ
أَحۡسَنُ مِنَ ٱللَّهِ صِبۡغَةٗۖ وَنَحۡنُ لَهُۥ عَٰبِدُونَ ١٣٨﴾ [البقرة: 135- 138]

مُناسَبَةُ الآيَاتِ لِمَا قَبْلَهَا:

إبطال دعوى اليهود والنَّصارى أنَّهم على الحقّ

بَيْنَ هذه الآياتِ وما قبلَها مناسبةٌ دقيقةٌ، وارتباطٌ وثيقٌ؛ فإنَّه تعالى بعدَ أن بيَّنَ بالدَّلائل الّتي تَقدَّمَتْ، أنَّ مِلَّةَ إبراهيمَ هي مِلَّةُ الحنيفيَّةِ السَّمْحة، وذمَّ اليهودَ والنَّصارى لِعُدولهم عن تَلَقِّي هذا الدِّينِ القويم، الّذي شَمَلَ خِصَالَ الحَنيفيَّةِ السَّمْحةِ، لجَهالتِهم وسَفَهِهم، في قوله تعالى: ﴿وَمَن يَرۡغَبُ عَن مِّلَّةِ إِبۡرَٰهِـۧمَ إِلَّا مَن سَفِهَ نَفۡسَهُۥۚ﴾ [البقرة: 130].

جاءت الآياتُ بعدَها معطوفةً على ما سبَقَها، فقال اللّه تعالى: ﴿وَقَالُواْ كُونُواْ هُودًا أَوۡ نَصَٰرَىٰ تَهۡتَدُواْۗ﴾؛ لتُبَيِّنَ كيفيَّةَ إعراضِهم، ومِقدارَ غُرُورِهم وتكبُّرِهم، وتَحكيَ شُبهةً من شُبهِهم الباطلةِ، ودعاويهم الكاذبةِ، وهي: أنَّهم حَصَروا الهُدى في اليَهُوديَّة والنَّصرانيَّةِ[1].

كما جاءت الآياتُ الكريماتُ لِتَرُدَّ هذه الشُّبهةَ بعدَها، وتُبيِّنَ زَيفَها، وبُطلانَ مذهبِهم، بإعراضهم عن الإسلام، وتقليدِهم الأعمى وإصرارِهم عليه، بذكرِ جَوَابٍ إِلْزَاميٍّ لهم في قوله تعالى: ﴿قُلۡ بَلۡ مِلَّةَ إِبۡرَٰهِـۧمَ حَنِيفٗاۖ وَمَا كَانَ مِنَ ٱلۡمُشۡرِكِينَ ١٣٥ قُولُوٓاْ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَمَآ أُنزِلَ

(1) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 1/736، وباختصار.

﴿إِلَيۡنَا﴾، ولَمَّا أبطلَ هذه الشَّبْهةَ بالجَوابِ الجَدَليِّ، ذَكَرَ بعدَه جوابًا بُرهانيًّا، وبيّنَ أَنَّ الطَّريقَ إلى معرفةِ نُبُوَّةِ الأنبياءِ ﷺ هي ظُهورُ المُعجِزِ على أيديهم، وَلَمَّا ظهرَ المُعجزُ على يدِ سيِّدنا مُحمَّدٍ ﷺ، وجبَ الاعترافُ بنُبُوَّتِه، والإيمانُ برسالتِه، فهذا هو المُرادُ من هذه الآياتِ، وتعقيبها على ما سَبَقَها، وهو بَعْضُ الغرضِ مِنْ ذِكرِها[1].

وبهذا جاءت هذه الآياتُ رَدًّا على دعاوى اليهود والنَّصارى الباطلةِ، وبيَّنَتْ غُرورَهم، وكيفيَّةَ إعراضِهم عن منهجِ الأنبياءِ ﷺ، وفيها أيضًا: بيانُ أنَّ الدِّينَ الحقَّ هو في التَّمسُّكِ بالإسلام، دِينِ جميعِ الأنبياءِ والمرسلين ﷺ، سالكةً بذلك كلِّه أسلوبَ الحِجاجِ العقليِّ.

❁ شَرْحُ المُفْرَدَاتِ:

1) ﴿هُودًا﴾: الهَوْدُ: التَّوْبَةُ، هادَ يَهُودُ هوْدًا وتَهَوَّدَ: تابَ وَرَجَعَ إلى الحَقِّ، فَهُوَ هائدٌ، وقومٌ هُوْدٌ: مِثْلُ حائِكٍ وحُوْكٍ، وبازِلٍ وبُزْلٍ، والمُتَهَوِّدُ: المُتَقَرِّبُ، وهادَ: إذا رجَعَ مِنْ خَيْرٍ إلى شَرٍّ، أو مِنْ شَرٍّ إلى خَيْرٍ، وكلا الرُّجوعَينِ وَقَعَ فيه اليهودُ، وهذا المعنى يُشيرُ بدقَّةٍ إلى علَّة تسميتِهم باليَهودِ؛ لأنَّ رجوعَهم كان أوّلًا مِنْ شَرٍّ إلى خَيْرٍ، وثانيًا كانَ من خَيْرٍ إلى شَرٍّ، بتحريفِهم لشريعتِهم[2].

قال ابنُ فارسٍ: "فَأَمَّا اليَهُودُ: فَمِنْ هَادَ يَهُودُ، وَسُمُّوا بِهِ؛ لِأَنَّهُمْ تَابُوا عَنْ عِبَادَةِ العِجْلِ"[3]، أو من الهَوْد: هادُوا يَهودُون هَوْدًا، فيكونُ اسمُ اليهودِ مُشْتقًّا من هادُوا، أي: تابوا، ويُقالُ: نُسِبوا إلى يَهُوذا، وهو أكبرُ ولدِ يعقوبَ، وحُوِّلَتِ الذّالُ إلى الدّال حين عُرِّبت[4].

2) ﴿نَصَٰرَىٰ﴾: مِنْ: (نَصَرَ)، والتَّنَصُّرُ: الدُّخولُ في النَّصرانيّة، ونَصَرى ونَصْرَى وناصِرَة ونَصُوريّة ونَصْران: كلُّها اسمُ قرية بالشَّام، يُنسَبُ إليها النَّصارى[5].

والنَّصارى: هم أتْباع عيسى ﷺ، والنَّصارى في الأصل: جمعُ نَصْرانَ ونَصْرانَةٍ، ولكنَّه لا يُستعمَلُ في الكلام إلَّا بياءِ النَّسبِ المُشدَّدةِ: (نَصْرانيٌّ)، و(نَصْرانيّةٌ)[6].

(1) الرّازيّ، مفاتيح الغيب: 72-4/70.
(2) ابن منظور، لسان العرب: (هود).
(3) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (هود).
(4) الخليل، العين: (هود).
(5) ابن منظور، لسان العرب: (نَصَرَ)، وهي حالياً مدينة كبيرة في فلسطين.
(6) سيبويه، الكتاب: 3/255.

3) ﴿تَهۡتَدُواْۗ﴾: مِنْ (هَدَى)، والهُدَى يُطلق على معانٍ منها: نَقيضُ الضَّلَالَة، والبَيانُ، وإِخْرَاج شَيْء إِلَى شَيْء، والطَّاعَةُ والوَرَعُ، والطَّرِيقُ، وهَداه يَهْدِيه هِدَايةً، إِذا دَلَّهُ على الطَّرِيق، وهداه يَهْدِيه في الدِّين هُدًى[1].

وجملة القول فإنّ لفظ الهُدى يَقعُ على الإيمان والشَّرائع كُلِّها، إِذِ الاهتداءُ إِنَّما يَقعُ بها كلِّها.

أمّا (تَهْتَدُواْ) في قوله تَعَالى: ﴿وَقَالُواْ كُونُواْ هُودًا أَوۡ نَصَٰرَىٰ تَهۡتَدُواْۗ﴾، فجاءَ من الاهْتداءِ، الّذي يَختَصُّ بما يَتحرّاه الإنسانُ على طريق الاختيارِ، إمّا في الأمُور الدُّنيويّة، أوِ الأُخْرَويّة[2].

4) ﴿مِلَّةَ﴾: مِنْ: (مَلَلَ)، والمَلَّةُ: الرَّمادُ والجَمْرُ، والدِّيَةُ، والمَلَلُ والمَلالُ: أن تَمَلَّ شيئًا، وتُعْرِضَ عنه[3].

ومن المَجَازِ المِلَّةُ: الدِّيْنُ والطَّريقةُ المَسْلوكةُ، ومنها: مِلَّةُ إبراهِيمَ خيرُ المِلَلِ، وامْتَلَّ فلانٌ مِلَّةَ الإسْلام[4].

ومعنى: ﴿بَلۡ مِلَّةَ إِبۡرَٰهِـۧمَ﴾: بل الهدايةُ أن نتَّبعَ دينَ إبراهيمَ.

5) ﴿حَنِيفٗاۖ﴾: مِنْ (حَنَفَ)، والحاءُ والنُّونُ والفاءُ أَصْلٌ مُسْتَقيمٌ، وهو المَيَلُ، ويَدورُ معنى الجذْرِ اللُّغويِّ حولَ: التفات الشّيءِ أو اعوجاجه عن مُعتادِ الحالِ، يُقالُ لِلّذي يَمْشِي على ظُهُورِ قَدَمَيْه: أَحْنَفُ، وقالَ قَوْمٌ -وَأَرَاهُ الأَصَحَّ- إِنَّ الحنَفَ اعْوِجَاجٌ فِي الرِّجْلِ إِلَى دَاخِلٍ، وَرَجُلٌ أَحْنَفُ، أَيْ: مَائِلُ الرِّجْلَيْنِ[5]، أي: إقْبالُ القَدَمَين كُلُّ وَاحِدَةٍ مِنْهُمَا عَلَى الأخرى، وحَنَفَ عَنِ الشَّيْءِ وتَحَنَّفَ: مَالَ[6].

والحَنيفُ: المائلُ عن الدِّينِ الباطلِ إلى الدِّينِ الحقِّ، أي: المُسلمُ المستقيمُ الّذي

(1) ابن منظور، لسان العرب: (هدي).
(2) الكَفويُّ، الكُلِّيّات، ص: 954-953.
(3) الخليل، العَين: (مَلل)، والأَزْهريُّ، تَهْذيب اللُّغة: (مَلل).
(4) الزَّمخشريُّ، أساس البلاغة: (ملل).
(5) ابنُ فارس، مقاييس اللُّغة: (حَنَفَ)، وجبل، المعجم الاشتقاقيّ المؤصَّل: (حنف).
(6) ابن منظور، لسان العرب: (حَنَفَ).

يستقبلُ قِبْلَةَ البَيتِ الحَرام على مِلّةِ إبراهيمَ حَنيفًا مُسْلِمًا، وأحَبُّ الأديانِ إلى اللّهِ الحَنيفيَّةُ السَّمْحةُ، وهي مِلّةُ النَّبيِّ ﷺ، لا ضيقٌ فيها، ولا حرجٌ[1].

6) ﴿ٱلْمُشْرِكِينَ﴾: مِنْ (شَرَكَ) الشِّينُ وَالرَّاءُ وَالكافُ أَصْلانِ، أَحَدُهُما: يَدُلُّ عَلَى مُقَارَنَةٍ وَخِلَافِ انْفِرَادٍ، وَالآخَرُ: يَدُلُّ على امْتِدَادٍ وَاسْتِقَامَةٍ، ولَفظةُ ﴿ٱلْمُشْرِكِينَ﴾ أصْلُهَا من الـمَعْنَى الأَوَّلِ، فالشِّرْكَةُ: أَنْ يَكُونَ الشَّيْءُ بَيْنَ اثْنَيْنِ، لَا يَنْفَرِدُ بِهِ أَحَدُهُما[2].

والشَّريكُ: يُجمَعُ على شُرَكاءَ وأشْراك، "وأَشْرَكَ بِاللّٰه: كَفَرَ، فَهُوَ مُشْرِكٌ ومُشْرِكيٌّ، وَالِاسْم: (الشِّرْك)"[3]، جاء في لسان العربِ: "الشِّرْكُ: أَن يجعلَ لِلّٰه شَرِيكًا في رُبوبيَّته، تعالى اللّٰه عنِ الشُّركاء والأنداد، وقولُه تَعالَى: ﴿وَٱلَّذِينَ هُم بِهِۦ مُشْرِكُونَ ١٠٠﴾ [النحل: 100]، والـمُشركونَ: هم الّذينَ صاروا مُشْرِكِينَ بِطَاعَتِهِمْ لِلشَّيْطَانِ[4].

والّذي جاء في القرآنِ من مُفرداتِ التَّركيبِ، جُلُّهُ بمعنى اتِّخاذِ الكفّارِ شَريكًا، أو شُركاءَ للّٰه، تعالى اللّٰهُ عمّا يَصفونَ.

7) ﴿ءَامَنَّا﴾: مِنْ (أَمَنَ)، و"الهَمْزَةُ وَالـميمُ والنُّونُ أَصْلَانِ مُتَقَارِبَانِ: أَحَدُهُما الأَمَانَةُ، الّتِي هِيَ ضِدُّ الخِيَانَةِ، وَمَعْنَاها: سُكُونُ القَلْبِ، وَالآخَرُ: التَّصْدِيقُ"[5].

والمعنى الـمِحوريُّ: وَثاقَةٌ في الباطنِ، مِنْ قولِهم: ناقَةٌ أَمُونٌ: أَمينَةٌ وَثيقةُ الخَلْقِ، ومِنْ ذلك الأَمْنُ: ضِدُّ الخَوفِ، كأنَّ الآمِنَ تَمَكَّنَ في حِصْنٍ، أو امْتَلأَ قلبُه امتلاءً شديدًا بما يُطَمْئِنُهُ، ومِنْ ذلك: آمَنَ بالشّيءِ: صَدَّقَ، قَبِلَ الكلامَ، ووَثِقَ به؛ فتَمَكَّنَ مِنْ قلبه[6].

والإيمانُ: الثِّقَةُ، وإظْهارُ الخُضوعِ، وقَبولُ الشَّريعَةِ[7].

والإيمانُ يُرادُ بِهِ: إذْعانُ النَّفْسِ لِلحَقِّ على سَبيلِ التَّصْدِيق، وَذَلِكَ باجْتِمَاعِ ثَلَاثَة

---

(1) الخليل، العَين: (حنف).

(2) ابنُ فارس، مقاييس اللُّغة: (شَرَكَ).

(3) الكَفويُّ، الكُليّات، ص: 533.

(4) ابن مَنظور، لسانُ العَرب: (شرك)، بتصرّف.

(5) ابن فارس، مَقاييس اللُّغة: (أَمَنَ).

(6) جبل، المعجم الاشتقاقيّ المؤصَّل: (أمن).

(7) ابن سِيده، المُحكم والمُحيط الأعْظم: (أَمن).

أَشْيَاءَ: تَحْقِيقٌ بِالقَلْبِ، وإِقْرارٌ باللِّسانِ، وَعَمَلٌ بِحَسَبِ ذَلِكَ بِالجَوَارِحِ، ويُقَالُ لِكُلٍّ واحِدٍ مِن الاعْتِقاد وَالقَوْلِ الصِّدْقِ وَالعَمَل الصَّالِح: إيمَانٌ[1].

8) ﴿أُنزِلَ﴾: مِنْ (نَزَلَ)، والنُّزُول: الحُلولُ، ونَزَلَ فلانٌ عن الدّابّة، أو مِنْ عُلْوٍ إلى سُفْلٍ، وقد نَزَلَهم، ونَزَلَ عَليهم، وبهم، يَنْزِلُ نُزُولًا[2].

وأَنْزَلَ اللّهُ الغيثَ، وأَنْزَلَ الكتابَ ونَزَّلَهُ، وتَنَزَّلَتِ المَلائكةُ، فيها دَلالةُ النُّزولِ من عُلُوٍّ[3].

ومعنى الآية: ما أوحاه اللّه.

9) ﴿وَٱلْأَسْبَاطِ﴾: مِنْ (سَبَطَ)، أَصْلٌ يَدُلُّ على امتدادِ شيءٍ، "السَّبَطُ: نَباتٌ كالثِّيل، يَنْبُتُ في الرِّمال، له طُولٌ، الواحدةُ: سَبَطةٌ"[4]، وهو ضَرْبٌ من الشّجر تَرعاه الإِبلُ، يُقالُ: الشَّجرةُ لها قبائلُ، وكذلكَ الأَسباطُ من السَّبَط، كأَنّه جَعَلَ إِسْحَاقَ بِمَنْزِلَةِ شَجَرَةٍ، وجَعَلَ إِسْمَاعِيلَ بِمَنْزِلَة شجرةٍ أُخْرى[5].

وَرَجُلٌ سَبِطُ الجسمِ وسَبْطُه: طَويلُ الأَلْواحِ، مُسْتَوِيها، بَيِّنُ السَّباطةِ، مِثْلُ: فَخِذٍ وفَخْذٍ، مِنْ قَوْمٍ سِباطٍ، إذا كانَ حَسَنَ القَدِّ والاسْتِواءِ[6].

والأَسْبَاطُ: هم الأنبياءُ من ولَدِ يعقوبَ في قبائلِ بني إسرائيلَ الاثنتي عَشْرَةَ، سُمُّوا بالأَسْباط؛ لأَنَّه كان مِنْ كلِّ واحدٍ منهم سِبْطٌ، والسِّبْطُ في بني إسرائيلَ بمنزلةِ القبيلةِ، والسِّبْطُ في اللُّغة: الجماعةُ يَرجِعون إلى أبٍ واحدٍ[7].

10) ﴿ٱلنَّبِيُّونَ﴾: من (نَبَأَ)، والنَّبأُ، لفظٌ مهموزٌ، وهو الخَبَرُ، وإنّ لفُلانٍ نبأً، أي: خَبَرًا، والفِعلُ: نبّأْتُه وأنْبأْتُه واسْتَنْبَأْته، والجميعُ: الأَنْباءُ، والنَّبيُّ ﷺ يُنبئُ الأَنْباءَ عن اللّه ﷻ، والنَّبيُّ، يُقالُ: الطّريقُ الواضحُ، يأخُذُكَ إلى حيثُ تُريدُ[8].

(1) الراغب، المفردات: (أمن).
(2) الفَراهيديُّ، العَين: (نزل)، وابن سِيدَه، المُحكم والمُحيط الأعْظَم: (نزل).
(3) الزَّمخشريُّ، أساس البَلاغة: (نزل).
(4) الخليل، العَين: (سبط).
(5) الأزهريُّ، تهذيب اللُّغة: (سبط).
(6) ابن منظور، لسان العَرب: (سبط).
(7) السّجستانّي، غريب القرآن، ص: 49.
(8) الخليل، العَين: (نبأ).

وقد صرَّحَ سِيبَوَيْهِ بِأَنَّ تَخْفيفَ النَّبِيِّ والبريَّةِ، تَخفيفُ بَدَليٍّ؛ بِدَلَالَةِ ضُروبُ تَصريفِها[1].

والنَّبَأُ: خَبَرٌ ذو فائدةٍ عظيمةٍ، يَحصُلُ به علمٌ، أو غَلَبَةُ ظَنٍّ، ولا يُقالُ للخبر في الأصل نَبَأٌ، حتّى يَتضمّنَ هذه الأشياءَ الثّلاثة، والنُّبُوَّةُ: سِفَارَةٌ بين اللهِ وبين ذَوي العُقولِ من عِباده، لإزاحةِ عِلَلِهم، في أمرِ مَعادِهم ومَعاشِهم، والنَّبِيُّ لكونه مُنَبِّئًا بما تَسكُنُ إليه العقولُ الذَّكيَّةُ[2].

11) ﴿لَا نُفَرِّقُ﴾: مِنْ (فَرَقَ)، والفَرْقُ: موضِعُ المَفْرِقِ من الرّأسِ في الشَّعْرِ، والفَرْقُ: تَفريقٌ بين شيئَين فرقًا، حتّى يَفترِقا ويَتَفَرَّقا، وتَفارَقَ القومُ وافترَقوا، أي: فارقَ بعضُهم بعضًا.

والتَّفْرِيقُ: أصلُه للتّكثير، ويُقالُ ذلك في تَشتيتِ الشَّمْلِ والكَلِمة، ومِنه قَولُه تَعَالى: ﴿لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّنْهُمْ﴾.

12) ﴿مُسْلِمُونَ﴾: جمعُ مُسْلِمٍ، مِنْ (سَلِمَ)، "والسَّلامُ والسَّلامةُ: البَراءةُ، وتَسلَّمَ منه: تَبرَّأ"[3].

والمعنى المِحْوريُّ: صِحَّةُ جِرْمِ الشَّيءِ، والْتئامُ ظاهرِه في ذاته، أيْ: عَدَمُ تَصدُّعِهِ، أو تَفَرُّعِ غيرِه منه.

والإِسْلامُ والاسْتِسْلامُ: الانْقِيادُ، والإِسْلامُ مِنَ الشَّرِيعَةِ: إظهارُ الْخُضُوعِ، وإظهارُ الشَّريعَةِ، والْتِزَامُ مَا أَتى بِهِ النَّبِيُّ ﷺ، ويُقالُ: فلانٌ مُسْلِمٌ، وَفِيه قَولَانِ: أحدُهما: هُوَ الـمُستَسْلِمُ لأمرِ اللهِ، وَالثّاني: هُوَ الـمُخلِصُ للهِ العبادةَ، والمُسلِمُ: التّامُّ الإِسْلَامِ، مُظْهِرُ الطَّاعَةِ، مُؤمِنٌ بهَا، وبهذا الـمَعْنَى جَاءَ قَولُه تعالى: ﴿وَنَحْنُ لَهُۥ مُسْلِمُونَ﴾[4].

13) ﴿تَوَلَّوْا۟﴾: مِنْ (وَلِي)، و"الوَاوُ وَاللَّامُ وَاليَاءُ: أَصْلٌ صَحِيحٌ، يَدُلُّ عَلَى قُرْبٍ، والوَلْيُ: الْقُرْبُ، يُقَالُ: تَبَاعَدَ بَعْدَ وَلْيٍ، أَيْ: قُرْبٍ، وَجَلَسَ مِمَّا يَلِينِي، أَيْ: يُقَارِبُنِي"[5].

(1) ابنُ سِيدَه، المخصّص: 5/226.
(2) الراغب، المُفردات: (نبأ).
(3) ابن سيده، المحكم: (سلم).
(4) الأَزْهريُّ، تهذيبُ اللُّغة، وابن منظور، لسانُ العَرب: (سلم).
(5) ابن فَارس، مَقاييس اللُّغة: (وَلَيَ).

والتَّوَلِّي يكون بِمَعْنى: الاتّباع، وَيكون بِمَعْنى: الإِعْرَاض.

والمراد من الآية: ﴿تَوَلَّوْاْ﴾: أَعْرَضُوا.

14) ﴿شِقَاقٍۖ﴾: مِنْ (شَقَّ)، والشِّينُ وَالقافُ أَصْلٌ وَاحِدٌ صَحِيحٌ، يَدُلُّ عَلَى انْصِدَاعٍ فِي الشَّيْءِ، ثُمَّ يُحْمَلُ عَلَيْهِ، وَيُشْتَقُّ مِنْهُ عَلَى مَعْنَى الِاسْتِعَارَةِ، تَقُولُ: شَقَقْتُ الشَّيْءَ، أَشُقُّهُ شَقًّا، إِذَا صَدَعْتَهُ، والشَّقّ: مصدرُ قَوْلِك شَقَقْتُ.

والمعنى المِحوَرِيُّ: صَدَعَ الشّيءَ الشّديدَ صَدْعًا نافِذًا إلى عُمُقه: كصَدع العود والحائط والزُّجاجة، وكما يصدعُ النَّبتُ والنّابُ ما يُغطِّيهما ﴿ثُمَّ شَقَقۡنَا ٱلۡأَرۡضَ شَقّٗا ٢٦﴾ [عبس: 26]، المُرادُ: أنَّ البِذرة تَنْبُتُ منها خامةٌ ضعيفةٌ، لكنّها تَخترقُ الأرضَ الصُّلْبَة، وتبرُزُ بإذن اللّه تعالى.

والشِّقاقُ: الخلافُ؛ كأنَّ كُلًّا يَنْشَقُّ عن الآخر إلى ناحيةٍ أو شِقٍّ، ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمۡ شَآقُّواْ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥۚ﴾ [الأنفال: 13]، والصِّيغةُ هنا للمُبالغة؛ لأنَّ الخلافَ من جانبِهم هم، مع مُعاودةٍ وتَكرارٍ، وكذلك كلُّ ما كان سياقُه مُشاقَّةً للّه ورسولِه، وهو كُلُّ (شاقّ) و (يُشاقّ)، وما كان بصيغة المصدر (شِقاق)، أمّا قولُه ﴿وَإِنۡ خِفۡتُمۡ شِقَاقَ بَيۡنِهِمَا﴾ [النساء: 35]، فهو خلافٌ ومُباعدةٌ من الطّرفَين، وسائرُه الرّاجحُ أو الصّحيحُ أنّه مُشاقّةُ اللّه ورسولِه، و شِقّ الرَّجُل -بالكسر- وشَقيقُه: أخوه، كأنّهما شِقّانِ لشيء، أو مِنْ شيءٍ واحدٍ[1].

وبهذا المَعْنى جَاءَ لَفْظُ (شِقَاق) في الآية: ﴿فِي شِقَاقٍۖ﴾، أي: في شقَاق الحقِّ، وَهُوَ المُنَافاة والمُخالَفَة، وكونُكَ في شِقٍّ غَيْر شِقِّ صاحِبِكَ[2].

15) ﴿فَسَيَكۡفِيكَهُمُ﴾: مِنْ (كفي)، كَفَى يَكْفِي كِفايةً، إِذَا قَامَ بالأَمْر، واسْتَكْفَيْتُه أَمْرًا فَكَفَانيه، ورأيت رجالًا كافِيكَ من رجالٍ، أي: كَفاكَ بهم رجالًا[3].

والمعنى الإجماليُّ يدورُ حول: "ما فيه سَدُّ الخَلَّة، وبلوغُ المراد في الأمر"[4]، ومِنْ هذا الأصلِ: "كَفاك الشَّيءُ يكفيك: استغنيتَ به عن غيره، وقَنِعتَ به، سَدَّ حاجتَك بقَدْر ما تحتاج.

(1) جبل، المعجم الاشتقاقيّ: (شقق).
(2) الراغب، المفردات: (شقق).
(3) الخليل، العين: (كفي).
(4) الراغب، المفردات: (كفى).

ومعنى ﴿فَسَيَكۡفِيكَهُمُ﴾ لن يَصلوا إليكَ بشيءٍ تُمليه عداوتُهم، بسبب تولّيهم وشقاقِهم، فإنَّ اللّه يَكفيك شرَّهم، وهذا ضمانٌ منه سبحانه كفايتَه إيّاهم، ويَتضمَّنُ ذلك إظهارَه ﷺ على أعدائه[1].

16) ﴿ٱلسَّمِيعُ﴾: مِنْ (سَمِعَ)، والسِّينُ وَالمِيمُ وَالعَيْنُ أَصْلٌ وَاحِدٌ، وَهُوَ إِينَاسُ الشَّيْءِ بِالأُذُنِ، مِنَ النَّاسِ وَكُلِّ ذِي أُذُنٍ، تَقُولُ: سَمِعْتُ الشَّيْءَ سَمْعًا، والسَّمْعُ: ما وَقَرَ فيها من شيء يَسمعُه[2]، و"يُقَالُ لِسَمْعِ الأُذُن: المِسْمَعُ، وَهُوَ الخَرْقُ الّذي يُسمَع بِهِ، وَقد يُقَالُ: لجَمِيع خُرُوق الإِنْسان، عَيْنَيْهِ ومَنْخِريه مَسَامع، لَا يُفرَدُ وَاحِدُها"[3].

وكلُّ ما في القرآن من التّركيب –عدا ما في هذه الفقرة– هو من سماع الأُذُن، إلّا في وصف المولى ﷻ، فهو عِلمٌ ما يُقال بكَيفيّةٍ يَعلمُها[4] ﷻ.

17) ﴿صِبۡغَةَ﴾: مِنْ (صَبَغَ)، والصِّبْغُ والصِّباغُ: مَا يُصْطَبَغُ بِهِ مِنَ الإدام، وصَبَغَ اللُّقمةَ، يَصْبُغُها صَبْغًا: دَهَنها وغَمَسَها، وكلُّ مَا غُمِسَ، فَقَدْ صُبِغَ، وَالجَمْعُ صِباغٌ، وَيُقَالُ: صَبَغَتِ النَّاقةُ مَشافِرَها فِي المَاءِ، إِذَا غَمَسَتْها، وصَبَغَ يَدَه في الماء[5].

والصَّبْغُ فِي كَلَام العَرَب: التَّغْيِيرُ، وَمِنْه: صُبِغَ الثَّوبُ، إذا غُيِّرَ لَونُه، وأُزيلَ عنْ حَالِه إِلَى حَال سوادٍ أَو حُمْرَةٍ أَو صُفْرةٍ، وصِبغَةُ اللّه: دِينُه، وأَصلُه أَنَّ بعضَ النَّصارى كانوا إذا وُلِدَ المولودُ، جَعَلُوهُ في ماءٍ لَهُم، كالتَّطهير، فَقَالَ اللّهُ تعالى: ﴿صِبۡغَةَ ٱللَّهِ﴾، فَسَمَّت النَّصارى غَمْسَهم أولادَهم في مَاء فِيهِ صِبغٌ: صَبغًا؛ لغمْسِهم إيّاهمْ فِيه[6].

وجملة القول: الصِّبْغَةُ: إشارةٌ إلى ما أوجدَه اللّهُ تعالى في النّاس، وما جُبِلوا عليه من العَقْل، المُتميّز به عن البَهائم كالفِطْرَة، إذ يُقالُ للصِّبْغَة: فِطْرَةُ اللّه[7].

ومعنى الآية: الزَمُوا دينَ اللّه وفِطْرَتَه.

(1) جبل، المعجم الاشتقاقيّ: (كفى).
(2) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (سمع).
(3) الأَزهريُّ، تهذيبُ اللُّغة: (سمع).
(4) جبل، المعجم الاشتقاقيّ: (سمع).
(5) ابن مَنْظور، لسانُ العَرب: (صبغ).
(6) الأَزْهريُّ، تهذيبُ اللُّغة: (صبغ)، والجَوْهَرِيُّ، الصّحاح: (صبغ)
(7) ابن دُرَيد، جَمْهَرة اللُّغة، والراغب، المفردات: (صبغ).

18) ﴿عَٰبِدُونَ﴾: مِنْ (عَبَدَ)، العَبْدُ: الإنْسَانُ حُرًّا كَانَ أَو رقيقًا، يُذْهَبُ بذلك إِلَى أَنّه مَرْبوبٌ لِباريه جَلَّ وعزَّ، والعَبْد: المَمْلوكُ[1].

وبَعِيرٌ مُعَبَّدٌ، أَي: مُذَلَّلٌ، وطَرِيقٌ مُعَبَّدٌ، أَي مَسْلُوكٌ مُذَلَّلٌ، والعابِد: المُوحِّد[2]، وعَبَدَ اللَّه عِبَادَةً: فهو من هذا الأَصْل، أَيْ: جَعَلَ نَفْسَه مَمْلوكًا، وعَبْدًا للَّه بهذا التَّأَلُّه، وبِعِبَارةٍ أخرى فالعِبادَة: الشَّعائِرُ، والامتثالُ في التَّصرُّف، فهي تَعبيرٌ عن المَملوكيَّةِ للَّه، بالإذعانِ والامتثالِ لكلِّ ما أمر ونهى، في أمر دنيا أو دينٍ[3].

"وعبادَةُ اللّه تَعَالَى: الذّلُّ لَهُ بالانقياد لمَا أَمَرَ، والانتهاء عَمَّا نهى، وحَدَّ بَعضُهم العِبادَةَ فَقالَ: هِيَ الأَفْعالُ الوَاقِعَةُ على نِهايَة مَا يُمْكِنُ من التَّذلُّلِ والخُضوع، والمُجاوزَةِ لتذلُّلِ بعض العِباد لبَعضٍ"[4]، وإلى ذلك يُشيرُ معنى ﴿عَٰبِدُونَ﴾ في قوله تعالى: ﴿وَنَحۡنُ لَهُۥ عَٰبِدُونَ﴾.

❁ المَعْنَى الإِجْمَالِيُّ:

الرَّدُّ على اليهود والنَّصارى، وبيانُ دينِ اللهِ الحقِّ

جاءت هذه الآياتُ الكريمات في الرَّدِّ على اليهود والنَّصارى، وبطلانِ مذهبهم، وإثباتِ أنَّ الإسلامَ هو دينُ اللّه الحقِّ في الأرض.

فبدأت بذكر شُبهة هذَين الفريقَين، بنِسبة الحقِّ لكلِّ فريقٍ منهما فقط، لا لغيرهما[5]، فكلُّ فريقٍ منهم قال لأهل الإيمان على وجه الانفرادِ: إنَّ النّجاةَ والهداية باتّباع مِلَّته، فقالتِ اليهودُ: كونوا يهودًا تَهتدوا للحقِّ، وقالتِ النَّصارى: كونوا نصارى تَهتدوا للحقِّ، ليأتيَ الرَّدُّ على هذه الشُّبهة، مع بيان كَذِبهم، وزَيفِ ادِّعائهم، إذ أمرَ اللّهُ تعالى نبيَّه محمَّدًا، ﷺ، بأنْ يجيبَهم: بأنَّ الدِّينَ الحقَّ ليس

(1) ابن منظور، لسان العرب: (عبد).

(2) الزَّبيديُّ، تاج العروس: (عبد).

(3) جبل، المُعجم الاشتقاقيّ المؤصِّل: (عبد).

(4) ابن الجَوزيِّ، نزهة الأعين النّواظر، ص: 431.

(5) قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ: نَزَلَتْ فِي رُؤُوسِ يَهُودِ المَدِينَةِ: كَعْبِ بْنِ الأَشْرَفِ، وَمَالِكِ بْنِ الصَّيْفِ، وهْبِ بْنِ يَهُوذَا، وَأَبِي يَاسِرِ ابن أَخْطَبَ؛ وَفِي نَصَارَى أَهْلِ نَجْرَانَ؛ وَذَلِكَ أَنَّهُمْ خَاصَمُوا الْمُسْلِمِينَ فِي الدِّينِ، كُلُّ فِرْقَةٍ تَزْعُمُ أَنَّهَا أَحَقُّ بِدِينِ اللَّهِ تَعَالَى مِنْ غَيْرِهَا، فَقَالَتِ الْيَهُودُ: نَبِيُّنَا مُوسَى أَفْضَلُ الْأَنْبِيَاءِ، وَكِتَابُنَا التَّوْرَاةُ أَفْضَلُ الْكُتُبِ، وَدِينُنَا أَفْضَلُ الْأَدْيَانِ، وَكَفَرَتْ بِعِيسَى وَالْإِنْجِيلِ وَمُحَمَّدٍ وَالْقُرْآنِ، وَقَالَتِ النَّصَارَى: نَبِيُّنَا عِيسَى أَفْضَلُ الْأَنْبِيَاءِ، وَكِتَابُنَا الْإِنْجِيلُ أَفْضَلُ الْكُتُبِ، وَدِينُنَا أَفْضَلُ الْأَدْيَانِ، وَكَفَرَتْ بِمُحَمَّدٍ ﷺ وَالْقُرْآنِ، وَقَالَ كُلُّ وَاحِدٍ مِنَ الْفَرِيقَيْنِ لِلْمُؤْمِنِينَ: كُونُوا عَلَى دِينِنَا، فَلَا دِينَ إِلَّا ذَلِك، وَدَعَوْهُمْ إِلَى دِينِهِمْ، يُنظر: الواحديُّ، أسباب النُّزول، ص: 41.

في دِياناتهِمُ المُحرَّفةِ، بل إنَّ الهدايةَ الحقيقيَّةَ تَتَمثَّلُ في اتِّباع دِينِ سيِّدِنا إبراهيمَ، عليه السلام، المائلِ عن الأديان الباطلةِ إلى الدِّين الحقِّ، دينِ الحَنيفيَّةِ السَّمْحةِ، الّذي هو استقامةٌ على طريق التَّوحيد، ومَيَلانٌ عن طريق الشِّركِ والضَّلالِ، فإبراهيمُ عليه السلام، لم يكُن من عُبَّاد الأصنام، ولم يكُن يهوديًّا ولا نصرانيًّا[1].

ثُمَّ أمرَ اللّهُ المُؤمنينَ وأرشدَهم إلى الإيمانِ بما أُنزِلَ إليهم، بواسطة رسوله مُحَمَّدٍ ﷺ مُفَصَّلًا، وبما أُنزِلَ على الأنبياءِ المُتَقَدِّمينَ مُجمَلًا - مِنْ قَبْلِ التَّبديل والتَّحريف -، وَنَصَّ على أعيانٍ من الرُّسُلِ، وَأَجمَلَ ذِكرَ بَقيَّةِ الأنبياء، وأَنْ لا يُفرِّقُوا بينَ أَحَدٍ مِنهُم، بل يُؤمِنُوا بهم كُلِّهم[2].

وقد روى البُخَارِيُّ عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ، قال: كَانَ أَهْلُ الكِتَابِ يَقْرَأُونَ التَّوْرَاةَ بِالعِبْرَانِيَّةِ، وَيُفَسِّرُونَهَا بِالعَرَبِيَّةِ لِأَهْلِ الإِسْلَامِ، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «لا تُصَدِّقُوا أَهْلَ الكِتَابِ، وَلا تُكَذِّبُوهُمْ، وَقُولُوا: ﴿ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيۡنَا﴾ [البقرة: 136]»[3].

ثمَّ تأتي الآيتانِ الأخيرتانِ لتُبيِّنَ السَّبيلَينِ لليهود والنَّصارى، هدايةً وضلالًا، فإنْ آمَن اليهودُ والنَّصارى وغيرُهم من الكفَّار، إيمانًا مِثْلَ إيمانِكم أيُّها المسلمون؛ فقد رَشَدُوا واهتدَوا إلى الطَّريقِ المُستقيم، الّذي ارْتضاه اللّه تعالى، وإنْ تَوَلَّوا وأعرضُوا عن الإيمان الحقِّ، وكَذَّبوا بالأنبياءِ، فإنَّما هم في شِقَاقٍ وعِداءٍ، واللّه تعالى سيَكفيكَ يا مُحمَّدُ أمْرَهم، ويَدفعُ أذاهم عنكَ، وينصُرُك عليهم، فهو تعالى السَّميعُ لِمَا يقولون، العالِمُ بما يفعلون، فاتَّبِعوا دِينَ اللّه تعالى، الّذي فَطَرَكم عليه ظاهرًا وباطنًا، والْزَموه، فلا دينَ أحسنُ من دين اللّه تعالى، فقُوموا به خيرَ قِيامٍ، وكونوا له خاضِعين مُتَذلِّلين[4].

۞ الإيضَاحُ اللُّغَوِيُّ وَالبَلَاغِيُّ:

غرضُ الالتفات:

مِنْ بلاغة التَّراكيب في الآية الكريمة مَجيئُها على سبيل الالتفات، فبدلَ أن يخاطِبَهم

(1) الطَّبريُّ، جامع البيان: 105-1/101.
(2) ابن كثير، تفسير القرآن العظيم: 1/448.
(3) البُخاريُّ، صحيح البُخاريِّ، كتاب تفسير القرآن، باب ﴿قُولُوٓاْ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيۡنَا﴾، الحديث رقم (4485): 6/20.
(4) ابن جرير، جامع البيان: 115-3/113، والسَّعديُّ، تيسير الكريم الرَّحمن، ص: 45-44.

إهمالُ أهل الكتابِ بالإعراض عن خطابهم

مخاطبةً مباشرةً أعرض عن ذلك وأخبرَ عنهم، وفائدةُ هذا الالتفات الإعلامُ باستيجاب حالِهم إبعادهم من مَقام المخاطبةِ إعراضًا عنهم، وتَعديد جِناياتِهم عند غيرِهم[1].

بلاغةُ الاحتباكِ:

مِلَّةُ الكفر واحدة في مواجهة الإسلام

جاء قولُه تعالى: ﴿وَقَالُواْ كُونُواْ هُودًا أَوۡ نَصَٰرَىٰ تَهۡتَدُواْۗ﴾، على طريقة الحذفِ التَّقابُليِّ؛ فقد حَذَفَ من الأوَّل مع اليهود الفعلَ: ﴿تَهۡتَدُواْۗ﴾؛ لدَلالة الفعلِ ﴿تَهۡتَدُواْۗ﴾ المُقترِنِ مع النَّصارى عليه ثانيًا، وحذَفَ من الثّاني الفعلَ: ﴿كُونُواْ﴾؛ لدَلالة الفعلِ ﴿كُونُواْ﴾، المُقترِنِ مع اليهودِ عليه أوّلًا، وبهذا انطوَت الآيةُ على الاحْتباك، بحذفٍ في كُلٍّ منهما، ما دلَّ عليه المذكورُ في الآخَرِ.

وهذا الحذف من الإيجاز، وتقديرُ الآيةِ الكريمة: قالت اليهود: كونوا هودًا ﴿تَهۡتَدُواْۗ﴾، وقالت النَّصارَى: ﴿كُونُواْ﴾ نصارى تهتدوا[2].

وفائدة الاحْتباك[3] بيانُ أنَّ الكفرَ كُلَّه مِلَّةٌ واحدةٌ؛ فقد اجتمعت كلمةُ اليهودِ والنّصارى على كلمةٍ واحدةٍ.

وممَّا يَعضُدُ هذا التَّقدير: أنَّ (الواوَ) في: ﴿وَقَالُواْ﴾ عائدةٌ على اليهود أوّلًا، وعلى النَّصارى ثانيًا، وتَوَزَّعَ القولُ عليهما، قال أبو السُّعودِ: "ليس هذا القولُ مَقولًا لكلِّهم، أو لأيِّ طائفةٍ كانت من الطَّائفتَين، بل هو مُوزَّعٌ عليهما، على وجهٍ خاصٍّ يَقتضيه حالُهما، اقتضاءً مُغنيًا عن التَّصريح به، أي: قالتِ اليهودُ كونوا هودًا، والنَّصارى كونوا نصارى"[4].

الاحتباك يحثُّ المُتلقِّي على البحث عن المحذوف

وفي هذا الاحتباكِ أيضًا: تَنْبيهُ المُتلقِّي إلى البحث عن المحذوف، فيَجعلُه يَتجاوبُ مع ما يَقرَأ، فتَرسُخُ المعلومةُ في نفسه،

(1) أبو السُّعود، إرشاد العقل السّليم: 1/165.

(2) ابن جرير، جامع البيان: 3/101.

(3) الاحتباك: "أن يُحذف من الأوّل ما أُثبتَ نظيُره في الثّاني، ومن الثّاني ما أُثبت نظيره في الأوّل"، السُّيوطيُّ، الإتقان: 3/204.

(4) أبو السُّعود، إرشاد العقل السّليم: 1/165.

ويَقِلُّ نِسيانُه، وهذا مَطلبٌ من مطالب الحَذْفِ في القرآن الكريم، وهي غايةُ البلاغةِ، المُتمثِّلةِ في استثمارِ أقلِّ ما يُمكِنُ من الألفاظ، في أكثرِ ما يُمْكِنُ من المعاني.

دلالةُ استعمالِ حرفِ العطفِ (أو):

استِقلالُ كلٍّ من اليهود والنَّصارى في الدَّعوةِ إلى دينِه

استُعمل حرفُ العطف ﴿أَوۡ﴾ دونَ غيرِه في قوله تعالى: ﴿وَقَالُواْ كُونُواْ هُودًا أَوۡ نَصَٰرَىٰ تَهۡتَدُواْۗ﴾ لِما يَحملُه من معانٍ ودَلالاتٍ، لا يُؤدِّيها غيره من حروف العطفِ؛ فجاء حرفُ ﴿أَوۡ﴾ للإيضاح وتَفصيلِ الإجمالِ في الفعل: ﴿وَقَالُواْ﴾[1]، ويُطلَقُ عليه أيضًا: اللَّفُّ والنَّشْرُ المُجْمَلُ، فضميرُ الجماعةِ الفاعلِ (الواو) في: ﴿وَقَالُواْ﴾، يَشمَلُ فريقَين مِنْ أهل الكتاب، فهو عائدٌ على اليهود أوّلًا، وعلى النَّصارى ثانيًا، ويُوزِّعُ القولَ عليهم؛ لأنَّ كلَّ فريقٍ، يَعُدُّ دينَ الآخَرِ باطلًا، ذلك أنَّ اليهودَ قالت على وجه الإفراد، والنَّصارى قالت على وجه الإفرادِ أيضًا، ولم يَقُلْ كلُّ فريقٍ منهُم: كونوا هودًا أو نصارى تهتدوا، فلمَّا أَجْمَلَ في قوله: ﴿وَقَالُواْ﴾؛ جَاءَ بِـ﴿أَوۡ﴾ لِلتَّفصيلِ؛ إذ كانت موضُوعَةً لِأَحد الشَّيئَين[2].

أثرُ حرفِ الإضرابِ في تقرير المعاني:

إبطالُ عقائدِ أهلِ الكتابِ بما ينتسبون إليه

لمَّا جاء قولُه تعالى: ﴿وَقَالُواْ كُونُواْ هُودًا أَوۡ نَصَٰرَىٰ تَهۡتَدُواْۗ﴾، في بيانِ دَعوةِ اليهود والنَّصارى المؤمنين لاتِّباع مِلَّتِهم، وبيانِ عقيدةِ الفريقَين في تَفرُّقِهما وضلالِهما، ناسَبَ المقامَ التَّعبيرُ بحرفِ الإضراب ﴿بَلۡ﴾، في الآية الكريمة: ﴿قُلۡ بَلۡ مِلَّةَ إِبۡرَٰهِـۧمَ حَنِيفٗاۖ﴾؛ لإبطال عقيدتِهم ومزاعمِهم، ولفْتِ نظر النَّبيِّ ﷺ، إلى البرهان الأقوى في إقامة الحُجَّة عليهم، بمِلَّة سيِّدنا إبراهيمَ عليه السلام.

(1) المرتضى، أمالي المرتضى: 2/55، والعكبريّ، التّبيان في إعراب القرآن: 1/120، والمراديّ، الجنى الدّاني، ص: 229، والزَّركشّي، البرهان في علوم القرآن: 4/210.
(2) العكبريّ، التّبيان في إعراب القرآن: 1/105.

فحرفُ الإضرابِ ﴿بَلۡ﴾، ردَّ عليهم بإثبات أنَّ سيِّدَنا إبراهيمَ عليه السلام ليس يهوديًّا ولا نصرانيًّا[1]، وهو دليلٌ على أنّ مِلّتَه عليه السلام، مُخالفةٌ لليهوديَّة والنَّصرانيَّة[2]، وأنَّ اليهودَ والنَّصارى لا يكونون متَّبعين لملَّةِ إبراهيم إلَّا أن يكونوا على دينِ محمَّدٍ صلى الله عليه وسلم.

فيكون المعنى: "بَلۡ نَتَّبِعُ، أَو اتَّبِعوا مِلَّةَ إبراهيمَ، الّذي لا نِزاعَ في هُداهُ ولا في هَدْيِه، فهي المِلَّةُ الحَنِيفِيَّةُ القائمةُ على الجادَّةِ، بلا انحِرافٍ ولا زَيْغٍ، العريقةُ في التَّوحيدِ والإخلاصِ، بلا وثنيَّةٍ ولا شِرْكٍ"[3].

بلاغة الفاصلة القرآنيّة في تقرير المعاني السِّياقيّة:

إبطالُ عَقيدةِ المُشْرِكين، إثر إبطالِ عقائد أهل الكتابِ

جاءت الفاصلةُ ﴿وَمَا كَانَ مِنَ ٱلۡمُشۡرِكِينَ﴾ على غاية البلاغة، ومنتهى البراعةِ، فقد حققَّت مجموعةً من المعاني البيانيَّة:

أفادَت الفاصلةُ احتراسًا من توهُّم قد يقعُ في ذهنِ المُشركين، فلمَّا قال تعالى قبلَها: ﴿بَلۡ مِلَّةَ إِبۡرَٰهِـۧمَ حَنِيفٗا﴾، فأبطلَ عقيدةَ اليهودِ والنَّصارى، وأثبتَ عقيدةَ إبراهيمَ عليه السلام، جاء هذا الاحتراسُ، ليدفعَ توهُّمَ أنْ تكونَ الحنيفيَّةُ قائمةً على الشِّرْكِ، قال ابنُ عاشور: "وهو احتراسٌ؛ لِئلَّا يَغْتَرَّ المُشركونَ بقوله: ﴿بَلۡ مِلَّةَ إِبۡرَٰهِـۧمَ حَنِيفٗا﴾، أي: لا نكونُ هُودًا ولا نصارى، فيَتَوَهَّمُ المُشركونَ أنَّهُ لم يَبْقَ من الأَديانِ إلَّا ما هُم عليه، لأنَّهُم يَزعُمونَ أنَّهُم على مِلَّةِ إبراهيمَ، وإلَّا فليس ذلك من المَدْحِ له، بعد ما تقدَّمَ من فضائلِه"[4].

التَّعريضُ باليهود والنَّصارى وإبطال عقيدتهم

وأفادت تعريضًا باليهود والنَّصارى، وبطلانَ دَعواهم، في اتِّباع إبراهيمَ عليه السلام، لشِرْكِهم باللّه تعالى، وكفرِهم به؛ وذلك بقولهم: عزيرٌ ابنُ اللّه، والمسيحُ ابنُ اللّه[5]، فضلًا عمَّا فيه من

(1) السّيوطيّ، قطف الأزهار: 1/330.
(2) أبو حيَّان، البحر المحيط: 1/647.
(3) محمّد رشيد رضا، تفسير القرآن الحكيم: 1/395.
(4) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 1/736.
(5) الزَّمخشريّ، الكشَّاف: 1/194.

تكذيبهم، وردِّ مزاعمِهم بأنَّهم على الحقِّ، فالفاصلة عرَّضت بأنَّ اليهوديَّة والنصرانيَّة الـمُحرَّفتَين نوعٌ من الشِّرك؛ لأنَّ مجيءَ قولِه تعالى: ﴿وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ﴾ في مُقابِلِ دَعوتِهم إلى اليهوديَّة والنَّصرانيَّة، يَدُلُّ على أنَّهما نوعٌ من الشِّرْكِ[1].

التّأكيدُ المعنويُّ لمعنى الحنيفيَّة

ومِنْ بلاغة الفاصلة: أنَّ قولَه تعالى: ﴿وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ﴾، جاء تأكيدًا لقوله تعالى: ﴿بل مِلَّةَ إِبْرَٰهِـۧمَ حَنِيفًا﴾؛ لأنَّ (الحنيفَ): المائلُ عمَّا سوى التَّوحيد، فسيِّدُنا إبراهيمُ ﷺ، ما كان أبدًا من الـمُشركين؛ لأنَّ (كان): تَدُلُّ على اتّصافِ اسمِها بخَبرِها، فقولُه تعالى: ﴿وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ﴾، يعني أنَّ هذا الوصفَ مُنْتَفٍ عنه؛ وقولُه تعالى: ﴿مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ﴾ يَعُمُّ انتفاءَ الشِّركِ الأصغرِ والأكبرِ عنه، فهذه هي الـمِلَّةُ الّتي يتَّبعُها النَّبيُّ محمَّدٌ ﷺ، ويتَّبعُها المسلمون، وهي الـمِلَّةُ الحَنيفيَّةُ الحقيقيَّةُ الّتي تُوصِلُ العبدَ إلى ربِّه[2].

بلاغةُ الطِّباقِ الخفيِّ:

الـجـمـع بين المتضادّات يُبرزُ الحقَّ ويُوضِّحُه

من بديعِ نسيجِ الآيةِ الكريمةِ: الطِّباقُ الخفيُّ[3] بينَ قولِه تعالى: ﴿وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ﴾، وقولِه تعالى: ﴿كُونُواْ هُودًا أَوْ نَصَٰرَىٰ﴾، فلمَّا ثَبَتَ بالإضراب بـ (بل)، ومفهوم الـمُخالفة وغيرِها من الأدلة العقليّة والنَّقليّة، أنَّ اليهوديَّةَ والنَّصرانيَّةَ شِرْكٌ، كان في مجيءِ الفاصلةِ القرآنيَّةِ ﴿وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ﴾ طباقٌ خفيٌّ؛ لأنَّه جَمَعَ بين الشَّيءِ وما يَتعلَّقُ بضدِّه، فقد جمع بين التَّوحيد الـمُتمثِّلِ بالحنيفيَّةِ وعدمِ الشِّرك في قوله: ﴿وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ﴾، وما يتعلَّقُ بضدِّه، وهم اليهود والنَّصارى، وما هم عليه قبلَها في قوله: ﴿كُونُواْ هُودًا

---

(1) الرَّازيّ، مفاتيح الغيب: 4/71.

(2) ابن عثيمين، تفسير القرآن الكريم- سورة البقرة: 2/84.

(3) هو ما تكونُ فيه المطابَقةُ خفيَّةً؛ لتَعلُّقِ أحدِ الرُّكنَين، بما يقابِلُ الآخرَ تَعلّقَ السَّببيّةِ، نحو قوله تعالى: ﴿مُّحَمَّدٌ رَّسُولُ ٱللَّهِۚ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥٓ أَشِدَّآءُ عَلَى ٱلْكُفَّارِ رُحَمَآءُ بَيْنَهُمْۖ﴾ [الفتح: 29]؛ فالرَّحمةُ ليستْ مُقابِلةً للشِّدَّة؛ لكنّها مُسبَّبَةٌ عن اللِّين، الّذي هو ضِدُّ الشِّدّةِ، ينظر: محمّد قاسم، ومحيي الدّين ديب، علوم البلاغة البديع والبيان والمعاني، ص: 68.

﴿أَوۡ نَصَٰرَىٰ﴾، فهم أهل الشِّرك والضَّلال، وبهذا قابلت الآيةُ بين أهل الشِّرك وأهلِ التَّوحيد، وبين الباطلِ والحقِّ.

دلالةُ إفرادِ فعل القول وجمعه:

بناءُ إيمانِ الأمَّةِ على إيمانِ نبيِّها؛ لتُرفع قواعدُ المتابعةِ على بصيرةٍ

لسائلٍ أن يسألَ عن سرِّ إفرادِ فعلِ القول في خطابِ النَّبيِّ ﷺ في الآية السّابقة في قوله: ﴿قُلۡ بَلۡ مِلَّةَ إِبۡرَٰهِـۧمَ حَنِيفٗاۖ﴾، في حينَ جاء به بصيغة الجمعِ في قولِه: ﴿قُولُوٓاْ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ﴾؟

والجواب: أنَّ إفرادَ الضَّميرِ في الكلام المُوجَّه إلى النَّبيِّ ﷺ؛ مزيدُ اختصاصٍ بمُباشَرة الرَّدِّ على اليهود والنَّصارى؛ لأنَّه مبعوثٌ لإرشادِهم وزجرِهم، وجَمَعَ الضَّميرَ في الكلام الّذي للأمَّة؛ لمزيدِ الاختصاص بمَضمونِ المأمورِ به، في سِياق التَّعليم في قوله: ﴿قُولُوٓاْ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ﴾، فضلًا عن أنَّ صيغةَ الجَمعِ في الفعل (قُولُوٓاْ) تَشمَلُ النَّبيَّ ﷺ والمسلمين؛ لأَنَّه ﷺ قَدْ عَلِمَ ذلك مِنْ قبلُ، فيما تضمَّنَتْهُ علومُ الرِّسالة، ولذلك لَم يَخْلُ واحدٌ مِنْ هاتِهِ الكَلمات، عن الإيذانِ بشُمولِ الأُمَّةِ مع النَّبيِّ[1].

ولبناءِ الخطابِ الثَّاني (الجمع) على الأوَّلِ (الإفراد)، فإنَّ الإيمانَ بملَّة إبراهيم عليه السلام واتِّباعَها، هو أصلُ الإيمان بما أُنزل من عند الله جميعِه.

دَلالة فعل الأمر ﴿قُولُوٓاْ﴾ خطابًا للمُؤمنين:

تتميمُ البيانِ في أمرِ الإيمانِ بملَّة إبراهيم عليه السلام

مِنْ بلاغةِ الآيةِ الكريمة: الإنشاءُ الطَّلبيُّ بفعل الأمر ﴿قُولُوٓاْ﴾ في قوله تعالى: ﴿قُولُوٓاْ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيۡنَا﴾، والأمرُ بالقول أمرٌ بما يَتَضَمَّنُه، إذ لا اعْتدادَ بالقول إلّا لأنَّه يُطابقُ الاعتقادَ، والمقصودُ من فعل الأمر ﴿قُولُوٓاْ﴾ الإعلانُ به، والدَّعوةُ إليه، لِمَا يَشتَمِلُ عليه من الفضيلة الظّاهرةِ، بحُصول فضيلةِ سائرِ الأديان لأهلِ الإسلام،

(1) الرّازيّ، مفاتيح الغيب: 4/72، وابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 1/738.

ولِمَا فيه من الإنصافِ وسلامةِ الطَّويَّةِ؛ لِيَرْغَبَ في ذلك الرَّاغبونَ، ويَكْمَدَ عند سماعه المُعانِدُونَ، وليكونَ فعلُ القولِ هذا احتراسًا بَعْدَ قَوْلِهِ: ﴿قُلۡ بَلۡ مِلَّةَ إِبۡرَٰهِـۧمَ حَنِيفٗا﴾ أي: نحن لا نَطعَنُ في شريعةِ موسى وشريعةِ عيسى، وما أُوتيَ النَّبيّونَ، ولا نُكَذِّبُهم، ولكنَّا مُسلمونَ للَّهِ تعالى، بدينِ الإسلامِ الّذي بقيَ على أَساسِ مِلَّةِ إبرَاهيمَ عليه السلام، وكانَ تَفصيلًا لها، وكمالًا لِمُرادِ اللَّهِ تعالى منها، حينَ أرادَ اللَّهُ تعالى إكمالَها، فكانت الشَّرائعُ الّتي جاءت بعدَ إبراهيمَ عليه السلام كَمُنْعَرجَاتِ الطَّريقِ، سُلِكَ بِالأُمَمِ فيها، لمصالحَ ناسبت أَحوالَهم وعُصُورَهُمْ، بعد إبراهيمَ[1] عليه السلام.

ترتيبُ الأنبياءِ زَمانيًّا ودلاليًّا على طريقة التَّدلّي:

ترتيبُ الأنبياءِ في الذِّكر مقصودٌ لذاتِه غيرُ مُتوقِّفٍ على التَّاريخِ

مِنْ بلاغةِ التَّرتيبِ في قوله تعالى: ﴿قُولُوٓاْ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيۡنَا وَمَآ أُنزِلَ إِلَىٰٓ إِبۡرَٰهِـۧمَ وَإِسۡمَٰعِيلَ وَإِسۡحَٰقَ وَيَعۡقُوبَ وَٱلۡأَسۡبَاطِ وَمَآ أُوتِيَ مُوسَىٰ وَعِيسَىٰ﴾: تقديمُ الأنبياءِ بعضِهم على بعضٍ على طريقة التَّدَلِّي[2]؛ بذكر الأقدم، ثمّ الّذي يَليه زمنيًّا، فقد ذكر أوّلًا: ما أُنزلَ على سيِّدنا إبراهيم، لِفَضْلِهِ وأُبُوَّتِهِ؛ للاهتمام وبيانِ شِدَّةِ العنايةِ به، على سَنَنِ العرب، في تقديم الأهمِّ حَسَبَ المَوقفِ؛ فهو أبو الأنبياء كلِّهم، وهو أصلُهم ورُكنهم، فضلًا عن دخول شرائعِ الأنبياءِ كلِّهم تحتَ شريعته[3] عليه السلام.

ثمَّ تقديم ابنِه إسماعيل، الابنِ البِكْرِ الأكبرِ على أخيه إسحاق، وقدَّمَ إسحاقَ على ابنه يعقوب، وقدَّمَ يعقوبَ على الأسباط، ثمَّ ذَكَرَ مَنْ جاء بعدَهم: موسى ثمَّ عِيسَى عليهما السلام جميعًا، وهذا التَّرتيبُ مَقصودٌ في هذا السِّياق بالإضافةِ إلى لِحاظِه الزَّمنيِّ، إذ جاء بتَرتيبِ الأنبياءِ حَسَبَ التَّرتيبِ الزَّمنيِّ، فضلًا أنَّ فيه دَلالةً على دُخول الأنبياءِ بعد سيِّدِنا إبراهيمَ، إذ هم داخلون في شَريعتِه.

---

(1) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 1/738.

(2) التَّدلّي: هو أن يُذكرَ الأعلى، ثمّ الأدنى لنُكتةٍ، يُنظر: السّيوطيّ، الإتقان: 3/46.

(3) أبو حيَّان، البحر المحيط: 1/650، وباختصار.

سِرُّ التَّعبير بـ ﴿أُنزِلَ﴾ و﴿أُوتِيَ﴾:

الإشـــارةُ إلى مزيدِ عنايةٍ بهذِه الكتبِ، للحذرِ عنـد الحديث عنها

مِنْ دقائق التَّعبيرِ القرآنيِّ في الآية الكريمة: التَّعبيرُ بالفعل: ﴿أُنزِلَ﴾، وبالفعل: ﴿أُوتِيَ﴾، فقد استُعمل: ﴿أُنزِلَ﴾ مع الأنبياء أوّلًا في قوله تعالى: ﴿وَمَآ أُنزِلَ إِلَىٰٓ إِبۡرَٰهِـۧمَ وَإِسۡمَٰعِيلَ وَإِسۡحَٰقَ وَيَعۡقُوبَ وَٱلۡأَسۡبَاطِ﴾، ثمّ استُعملَ: ﴿أُوتِيَ﴾ مع موسى وعيسى عليهما السلام في قوله تعالى: ﴿وَمَآ أُوتِيَ مُوسَىٰ وَعِيسَىٰ﴾[1].

ومِنْ عِلَلِ التَّعبير بفعل الإيتاءِ مع موسى وعيسى، دون فعلِ الإنزال، الاهتمامُ بهما، فالفعل: ﴿أُوتِيَ﴾ أبلغُ وأَدَلُّ؛ لكونه المقصودَ منه، ولأنَّه أعمُّ وأوسعُ، فهو يُستعمَلُ للكتب وغيرها، مثل المعجزات، وفيه من الدَّلالة على الإعطاء الحِسِّيِّ الّذي فيه شِبْهُ التَّمليكِ والتَّفويضِ[2]، ولهذا المعنى الحِسِّيِّ عَبّرَ بالإيتاء؛ لأنَّ ظهورَ المعجزاتِ الفعليَّةِ على يد موسى وعيسى عليهما السلام أكثرُ وأشهرُ من ظهورها على يد إبراهيمَ ويعقوبَ وإسحاقَ، فموسى ضَرَبَ البحرَ، فانْفَلَقَ، وألقى العصا، فانقلبت ثُعبانًا، وأخرج يدَه، فصارت بيضاءَ من غير سُوءٍ، وغيرِها من الآيات، وعيسى كان يُبرئُ الأَكْمَهَ والأبرصَ، ويُحيي الموتى بإذن اللّه، فناسبَ لفظُ الإنْزالِ سَيِّدَنا إبراهيمَ عليه السلام وأولادَه؛ فإنَّ اشتهارَهم بإنزال الوحيِ أكثرُ من اشتهارهم بالمعجزات، فغيّرَ الأسلوبَ؛ تفضيلًا لِمَا لهما من الكتابَين والمعجزاتِ، وغيرِ ذلك[3].

وللإشارةِ إلى أنَّ أكثرَ الأتباعِ هم من أتباعِ موسى وعيسى عليهما السلام، فهي من باب تنبيه الأتباعِ على كتب المتبوعين، وأنَّ عليهم مزيدَ مسؤوليَّة في الإيمانِ برسولِ اللّه ﷺ، وهي إشارةٌ كذلك إلى هذه الأمَّة بأنَّ التَّوراةَ والإنجيلَ يجبُ الإيمانُ بهما على وجهٍ أخصّ؛ لما قد يصدر عن بعض المؤمنين من مشاحنةٍ مع اليهود والنَّصارى قد تمتدُّ إلى كتبِ القومِ فيقعُ المحذورُ، وأُجري ما بعده بذكر الإيتاءِ لا الإنزال على عموم النَّبيّين باعتبارِ أنَّ معظمهم من أنبياءِ بني إسرائيل.

---

(1) ابن مالك، شرح التَّسهيل: 3/362.

(2) الآلوسّي، روح المعاني: 1/392.

(3) ابن عرفة، تفسير الإمام ابن عرفة: 1/175.

دلالةُ تقديمِ القُرآنِ على سائرِ الكُتُبِ السَّماويَّة:

تقديمُ الأصْلِ المُهيمِنِ الذي لا يُقبلُ الإيمانُ بِسواه ما لم يُؤمَنْ به

مِنْ بلاغة الآية الكريمة: تقديمُ الإيمانِ بالقرآن على باقي الكتب السّماويَّة، المُنزَّلةِ على الأنبياء ﷺ في قوله تعالى: ﴿قُولُوٓاْ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيۡنَا وَمَآ أُنزِلَ إِلَىٰٓ إِبۡرَٰهِـۧمَ وَإِسۡمَٰعِيلَ﴾، فقدَّمَ القرآنَ، مع أنَّ إنزالَه مُتأخِّرٌ عن باقي الكتب السَّماويَّة، فهي أسبقُ منه، اهتمامًا بهذا الكتابِ العظيم، وتشريفًا له، ولاختصاصِه بالمسلمين، ولبيانِ أنَّه سببُ الإيمان بغيره من الكتب السّماويَّة؛ لكونه مُصدِّقًا لها، فيكون بذلك أولى بالذِّكر؛ ولأنَّ النَّاسَ بعدَ بعثة النَّبيِّ ﷺ مأمورون بالإيمان به جُملةً وتَفصيلًا[1].

ولبيانِ أنَّ الإيمانَ ببقيَّة الكتبِ قائمٌ على الإيمانِ بالقرآنِ الكريم، فكيف لمسلم أن يُؤمنَ بالكتبِ السَّابقةِ ما لم يُؤمنْ بالقرآن؟! ولأنَّ هذا الكتابَ هو النَّاسخُ للشَّرائع السَّابقة والمهيمنُ عليها، فتقديم الإيمان به من باب تقديم الأصلِ المهيمن على غيره.

الإجمالُ بعد التَّفصيل:

بيانُ وسطيَّة هذه الأمَّة وتطرّفِ غيرِها

في قوله تعالى: ﴿وَمَآ أُنزِلَ إِلَىٰٓ إِبۡرَٰهِـۧمَ وَإِسۡمَٰعِيلَ وَإِسۡحَٰقَ وَيَعۡقُوبَ وَٱلۡأَسۡبَاطِ وَمَآ أُوتِيَ مُوسَىٰ وَعِيسَىٰ﴾ تفصيلٌ في ذكرِ الأنبياءِ، وفي قولِه: ﴿وَمَآ أُوتِيَ ٱلنَّبِيُّونَ﴾ إجمالٌ؛ فقد ذكرَ أوَّلًا على وجه الخصوص، أسماءَ عددٍ من الأنبياء، ثمّ ذكرَ لفظًا عامًّا مجملًا، يَشمَلُ كلَّ هؤلاءِ الأنبياءِ[2].

وفيه فوائدُ عِدَّةٌ، منها: العناية بذكر أسماءِ الأنبياء وتعيينِهم ﴿إِبۡرَٰهِـۧمَ وَإِسۡمَٰعِيلَ وَإِسۡحَٰقَ وَيَعۡقُوبَ وَٱلۡأَسۡبَاطِ وَمَآ أُوتِيَ مُوسَىٰ وَعِيسَىٰ﴾، إظهارًا لمَكانتهم الرَّفيعة ﷺ، واهتمامًا بهم، فقد ذُكروا مرَّتين، مرّةً على وجه الخصوص، ومرَّةً ثانيةً على وجه العموم في دخولِهم تحت اللَّفظِ العامِّ: ﴿ٱلنَّبِيُّونَ﴾.

(1) الآلوسي، روح المعاني: 1/392.

(2) أبو حيَّان، البحر المحيط: 1/649، والبقاعيّ، نظم الدّرر: 1/166.

وفيه بيانُ فضيلة هذه الأمَّة بين الأمم في موقفِها من جميعِ الأنبياءِ؛ فاليهودُ آمنوا بالأنبياء، وكفروا بمحمَّدٍ وعيسى ﵉، والنَّصارى آمنوا بالأنبياء، وكفروا بمحمَّد ﷺ[1]، وهذه الأمَّة آمنت بجميعِ الأنبياءِ ولم تكفر بأحدٍ، وهذا هو معنى وسطيَّتِها وتطرُّف غيرِها.

بلاغةُ جملةِ: ﴿لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّنْهُمْ﴾:

التَّعريضُ بمن يُفرِّق بين أنبياء الله تعالى

في قولِه تعالى: ﴿لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّنْهُمْ﴾، إيماءٌ وإشعارٌ بذمِّ من يُفرِّق بين أنبياء اللّه، وأنَّه واقعٌ في الإثم العريض، بخلافِ هذه الأمَّة، ومجيءُ لفظ ﴿أَحَدٍ﴾ أفاد التَّنكيرُ العمومَ والشُّمولَ، وقد نُزِّل المُفردُ مَنزلةَ الجمْعِ، في تناوله الآحادَ مُطابقةً؛ لأنَّ لفظ: ﴿أَحَدٍ﴾ في معنى الجَماعة؛ ولذلك صحَّ دخول: ﴿بَيْنَ﴾ عليه[2].

ولأنَّ النَّكرةَ الواقعةَ في سِياق النَّفي تُفيدُ العمومَ لفظًا، ولأنَّ: ﴿أَحَدٍ﴾ اسمٌ موضوعٌ لـمَنْ يَصلُحُ أن يُخاطَب، ويستوي فيه المفردُ والمثنّى والمجموعُ والمذكَّرُ والمؤنَّث، إذا كانت همزتُه أصليَّةً، وعلى أنَّها مُبدَلَةٌ من الواو، فهو بمعنى (واحد)، وعمومُه؛ لوقوعه في حيِّزِ النَّفيِ[3].

تشابه الأطراف في الفاصلة ﴿وَنَحْنُ لَهُۥ مُسْلِمُونَ﴾:

التّأكيد على معنى الإيمان والاستسلام المطلق لله

جاءت الفاصلةُ: ﴿وَنَحْنُ لَهُۥ مُسْلِمُونَ﴾، لِتُؤكِّدَ معنى الآيةِ، الّذي تضمَّن الدَّعوةَ إلى الإيمان باللّه، والتَّسليم بكلِّ كتبِه ورسلِه، فقولُه تعالى: ﴿وَنَحْنُ لَهُۥ مُسْلِمُونَ﴾، مندَرجٌ تحتَ قولِه تعالى أوّلَ الآية: ﴿قُولُوٓاْ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْنَا﴾، على طريقة تَشابُه الأطراف، فلمَّا ذكرَ ما يتعلَّق بالقلب أوّلًا، وهو الإيمانُ، أي: التَّصديقُ، ناسَبَ أنْ

(1) ابن جرير، جامع البيان: 3/110.

(2) الزَّمخشريّ، الكشَّاف: 1/195، والآلوسّي، روح المعاني: 1/393.

(3) ابن المُنَيِّر، الانتصاف: 1/195.

يَختِمَ الآيةَ بذكر الإسلام، وهو الانقيادُ النَّاشئُ عن الإيمانِ الظَّاهر على الجوارح، فجَمَعَ بين الإيمانِ والإسلام، ليَجتمعَ الأَصلُ، والنَّاشِئُ عن الأَصل[1].

فالفاصلةُ بيَّنَت: أنَّ المُسلمَ لا بدَّ أن يكونَ مُستسلِمًا للّٰه بقلبه ولسانه وجوارحه، فيَستسلِمُ قلبُ المرءِ للّٰه تعالى محبَّةً وتعظيمًا وإجلالًا، ويَستسلِمُ لسانُه لِما أَمَرَه اللّٰهُ تعالى أنْ يقولَ، وتَستسلِمُ جوارحُه لِمَا أَمَرَه اللّٰهُ تعالى أنْ يفعلَ[2].

وجاءَت الفاصلةُ أسلوبًا خَبَريًّا مُؤكَّدًا باسميّة الجملة الدَّالّة على ثباتِ الوصفِ لهم ودوامِه: ﴿وَنَحۡنُ لَهُۥ مُسۡلِمُونَ﴾، وتقديم ما حقُّه التَّأخيرُ، فقد قدَّم شِبهَ الجُملةِ ﴿لَهُۥ﴾ على عامله ﴿مُسۡلِمُونَ﴾، والأَصلُ: ونحن مسلمون له، وهذا التَّقديمُ أفادَ: القصرَ بتخصيص الاستسلام المُطلَقَ للّٰه تعالى وحدَه، فضلًا على أنَّ فيه تحسينًا لفظيًّا للفاصلةِ والاهتمامَ بالمُقدَّم[3].

توجيه المُتشابه اللَّفظيِّ:

الخطاب في الموضعين بين العموم والخصوص

تشابهت بدايةُ هذه الآية الكريمة: ﴿قُولُوٓاْ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيۡنَا وَمَآ أُنزِلَ إِلَىٰٓ إِبۡرَٰهِـۧمَ وَإِسۡمَٰعِيلَ وَإِسۡحَٰقَ وَيَعۡقُوبَ وَٱلۡأَسۡبَاطِ وَمَآ أُوتِيَ مُوسَىٰ وَعِيسَىٰ وَمَآ أُوتِيَ ٱلنَّبِيُّونَ مِن رَّبِّهِمۡ لَا نُفَرِّقُ بَيۡنَ أَحَدٖ مِّنۡهُمۡ وَنَحۡنُ لَهُۥ مُسۡلِمُونَ ١٣٦﴾ مع آيةِ سورةِ آلِ عمرانَ، في قوله تعالى: ﴿قُلۡ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَمَآ أُنزِلَ عَلَيۡنَا وَمَآ أُنزِلَ عَلَىٰٓ إِبۡرَٰهِيمَ وَإِسۡمَٰعِيلَ وَإِسۡحَٰقَ وَيَعۡقُوبَ وَٱلۡأَسۡبَاطِ وَمَآ أُوتِيَ مُوسَىٰ وَعِيسَىٰ وَٱلنَّبِيُّونَ مِن رَّبِّهِمۡ لَا نُفَرِّقُ بَيۡنَ أَحَدٖ مِّنۡهُمۡ وَنَحۡنُ لَهُۥ مُسۡلِمُونَ﴾ [آل عمران: 84].

فبين الآيتين تشابهٌ لفظيٌّ في ثلاثةِ مواضعَ[4]:

الأوّل: أنَّه جاء بفعل القول بصيغة الجمع، في سورة البقرة: ﴿قُولُوٓاْ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ﴾، في حينَ جاء مُفردًا في سورة آل عمرانَ: ﴿قُلۡ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ﴾، وسِرُّ ذلك: أنَّ آيةَ البقرةِ جاءت عامّةً، والفعلُ ﴿قُولُوٓاْ﴾ أمرٌ لجميع المُخاطَبين المقصودين بهذا الخطاب، أمَّا آيةُ آلِ

(1) أبو حيَّان، البحر المحيط: 652-1/651.

(2) ابن عثيمين، تفسير القرآن الكريم: 2/91.

(3) الهرريّ، حدائق الرّوح والرّيحان: 2/322.

(4) الإسكافيّ، درَّة التَّنزيل، ص: 298، والكرمانيّ، أسرار التّكرار، ص: 71، والغرناطيّ، ملاك التّأويل: 53-1/52، والبقاعيّ، نظم الدُّرر: 2/188، وبتصرُّف.

عمرانَ، فأفردَ الفعلَ ﴿قُلۡ﴾؛ لأنَّه أمرٌ للنَّبيِّ ﷺ، فلَحِقَ ضميرُ الجَمعِ أوّلًا لخطابهم، ولم يَلَحَقْ في الثّاني؛ لإفراد الخطابِ، وضميرُ الواحد لا يبرزُ.

الثّاني: أنَّه عُدِّيَ الفعل أنزل بـ (إلى) في البقرة ﴿وَمَآ أُنزِلَ إِلَيۡنَا وَمَآ أُنزِلَ إِلَىٰٓ إِبۡرَٰهِـۧمَ﴾، في حينَ عُدِّيَ الفعل بـ (على) في آل عمرانَ ﴿وَمَآ أُنزِلَ عَلَيۡنَا وَمَآ أُنزِلَ عَلَىٰٓ إِبۡرَٰهِيمَ﴾، وبيانُه: أنَّ آيةَ البقرة عُدِّيَ الفعلُ ﴿أُنزِلَ﴾ بـ (إلى)، لَمّا قيلَ قبلَه: ﴿قُولُوٓاْ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ﴾، وهو أمرٌ للنَّبيِّ ﷺ ومَنِ اتَّبَعَهُ على التَّشريك، وإذا كان الأمرُ للجميع، وجرى على حقيقته، فإنّما أُنزِلَ إليهم، لأنّ المُنزَلَ عليه حقيقةً هو الرَّسولُ، لا المؤمنونَ، ولمّا قال في آل عمران: ﴿قُلۡ﴾، وكان الخطاب للنّبيِّ، ناسَبَهُ تَعْدِيَةُ الفعلِ بعلى (عَلَيۡنَا)؛ لأنَّه أنزلَ عليه، فجاء كلٌّ على ما يَجِبُ.

الثّالثُ: أنَّه كرَّرَ الفعلَ: ﴿أُوتِيَ﴾ في البقرة ﴿وَمَآ أُوتِيَ ٱلنَّبِيُّونَ مِن رَّبِّهِمۡ﴾، في حينِ لم يَذكرْه واكتفى بالعطف في آل عمرانَ ﴿وَٱلنَّبِيُّونَ مِن رَّبِّهِمۡ﴾ [آل عمران: 84]، وعلَّةُ ذلك: أنَّه كرَّرَ الفعلَ ﴿أُوتِيَ﴾ في البقرة؛ لأنَّ الأمرَ في البقرة، لمَّا كان للرُّسل وللمؤمنين، ناسبَه تأكيدُ ذِكرِ الإنزالِ على النَّبيِّين؛ لأنَّ المؤمنين لا يُفرِّقونَ بينَ أحدٍ منهم، وقد فرَّق غيرُهم، فناسَبَ حالَهم، وسَجَّلَ إيمانَهم بالجميع، تأكيدُ مقالِهم وتَثبيتُ اعتقادِهم، فقالوا: ﴿وَمَآ أُوتِيَ ٱلنَّبِيُّونَ مِن رَّبِّهِمۡ﴾، أمَّا في آل عمرانَ: فلمَّا توجَّه الأمرُ ببادئ الخطابِ من قوله: ﴿قُلۡ﴾ خاصًّا به، وبعدَ ذلك وقعَ التَّعميمُ، ناسَبَه عدمُ التّأكيد؛ لتَنزُّه النَّبيِّ ﷺ حالًا ومَقامًا، عن التَّفريق بين أحدٍ من الرُّسلِ.

دَلالةُ اقترانِ الشّرط بالفاء، في قوله: ﴿فَإِنۡ ءَامَنُواْ بِمِثۡلِ مَآ ءَامَنتُم بِهِۦ﴾:

إقامةُ الحجَّةِ على أهلِ الكتاب، بإبطالِ مذهبِهم

في التَّعبير بأسلوبِ الشَّرطِ المُقتَرِنِ بالفاء ﴿فَإِنۡ ءَامَنُواْ﴾: تَبْكيتٌ لأهل الكتاب من اليهود والنَّصارى، بإلجائهم إلى الاعترافِ بالحقِّ، بإرخاءِ العَنانِ وسَدِّ طُرُقِ المَجادلةِ عليهم؛ لأَنَّ دينَ الحَقِّ واحدٌ، لا مِثْلَ لهُ، وهُوَ دينُ الإسلامِ، ﴿وَمَن يَبۡتَغِ غَيۡرَ ٱلۡإِسۡلَٰمِ دِينٗا فَلَن يُقۡبَلَ مِنۡهُ﴾ [آل عمران: 85][1].

وفيه: تقريعٌ لهم بإبطالِ دينِهم، القائمِ على الشِّرك والضَّلال.

(1) الزَّمخشريّ، الكشَّاف: 1/195.

وإثبات أنَّ الدِّينَ الحقَّ واحدٌ، وهو الإسلامُ، وما سواه باطلٌ وضلالٌ؛ لأنَّ الفاءَ في أوَّل الآية هي لتَرتيب ما بعدَها على ما قبلَها، وبوجودِها في أوّل الآية، أقيمَتِ الحجَّةُ عليهم، لإعراضهم عن الإسلام، وقد دلَّ مفهومُ الشَّرط المُقترن بها، على أنَّهم غيرُ مؤمنين، ولا على الهَديِ المستقيم، ما داموا على غير مِلّة الإسلام[1].

سرُّ التَّعبيرِ بأداةِ (إنْ) دون (إذا):

الإشارةُ إلى غيبِ المستقبلِ

استعملَ النَّظمُ القرآنيُّ (فَإِنْ) دون (إذا) في قوله تعالى: ﴿فَإِنْ ءَامَنُواْ بِمِثْلِ مَآ ءَامَنتُم بِهِۦ فَقَدِ ٱهْتَدَواْۖ وَّإِن تَوَلَّوْاْ فَإِنَّمَا هُمْ فِي شِقَاقٍۖ فَسَيَكْفِيكَهُمُ ٱللَّهُۚ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ﴾ الدَّالّة على الشَّكِّ في تحقُّقِ الوقوع، وفائدةُ ذلك بيانُ أنَّ إيمانَهم غيرُ مَرجُوٍّ، ومَشكوكٌ في حُصوله ووُقوعِه منهم[2]، ففيه إشعارٌ بموقفهم المستقبليِّ، وأنَّهم ما بين مؤمنٍ ومتولٍ.

سِرُّ تقديمِ شرطِ الإيمانِ على شرطِ التَّولِّي:

القيمةُ الهداتيَّةُ نبراسُ النَّظمِ وأصلُ الكلامِ

قدَّم في قوله تعالى: ﴿فَإِنْ ءَامَنُواْ بِمِثْلِ مَآ ءَامَنتُم بِهِۦ فَقَدِ ٱهْتَدَواْۖ وَّإِن تَوَلَّوْاْ فَإِنَّمَا هُمْ فِي شِقَاقٍۖ فَسَيَكْفِيكَهُمُ ٱللَّهُۚ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ﴾ شرطَ الإيمان ﴿فَإِنْ ءَامَنُواْ﴾ على شرطِ التَّولِّي ﴿وَّإِن تَوَلَّوْاْ﴾ لنكتةٍ بيانيَّةٍ قائمةٍ على قيمةٍ هدائيَّةٍ، وهي أنَّه وإن كان أولئك لا يُتوقَّعُ منهم الإيمانُ إلَّا القليل، فإنَّ من شأنِ هذا القليل أن يُحرَصَ عليه؛ فالآيةُ تُعلِّمُ المؤمنين الاستبشارَ بإيمانِ الآخرين، مَهما عادَوْا ومَهْما عاندوا، فإنَّ الإيمانَ متوقَّعٌ وإن كان المقابلُ معاندًا؛ فالآيةُ تحثُّ المؤمنين على الحرصِ على هدايةِ الآخرين والاجتهاد في ذلك، ورجاء الخير لهم.

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 1/740.

(2) الزّمخشريّ، الكشّاف: 1/195، وبتصرُّف.

سِرُّ القصرِ بإنَّما في قولِه: ﴿فَإِنَّمَا هُمۡ فِي شِقَاقٖۖ﴾:

الإشارةُ إلى الشِّقاقِ الواقعِ، والإخبارُ عن شقاقٍ أشدّ

جاء أسلوبُ القَصْرِ الإضافيِّ بـ (إنَّما)، الواقع في جوابِ الشَّرطِ المُقترنِ بالفاء، في قوله تعالى: ﴿وَّإِن تَوَلَّوۡاْ فَإِنَّمَا هُمۡ فِي شِقَاقٖۖ﴾، إذ قَصَرَتْ هذه الجملةُ أهلَ الكتابِ على الشِّقاقِ والخِلافِ والعَداوةِ في غير الحقِّ - إنْ هم تولوا -، مُبالغةً في وصفهم بالشِّقاق، وبيانِ شدَّة مخالفتِهم وعداوتهم للمسلمينَ، فالقصرُ بإنَّما يُؤتى به عند معرفةِ المخاطَبِ بمضمونِ الخطاب، وهذا يزيد من معنى التَّأكيد فيها، ففيه بيانُ أنَّهم في شقاقٍ قبل التَّولية، وأنَّهم بعد التَّوليةِ في شقاقٍ أشدّ.

وأكَّدَ الجُملةَ الواقعةَ شَرطًا بإنَّ، وتأكَّدَ معنى الخبرِ ﴿فِي شِقَاقٖۖ﴾ الذي أفادَ قوَّةَ التَّمكّنِ والإحاطةِ؛ إذ جَعَلَهَ مُستوليًا عليهم، استيلاءَ الظَّرفِ على ما يُوضَعُ فيه، بحيث صار ظَرفًا لهم وهم مَظْروفونَ له؛ كأنَّ الشِّقاقَ مُستَولٍ عليهم من جميعِ جوانبِهم، ومحيطٌ بهم، إحاطةَ البيت بمَن فيه، بأسلوبٍ بليغ[1].

بلاغة الفاءِ في قوله: ﴿فَسَيَكۡفِيكَهُمُ ٱللَّهُۚ﴾ ودلالاتها البيانيَّة:

حاجةُ المؤمنِ للإعانةِ الإلهيَّة من تمامِ التَّوكُّلِ

من بديعِ نسيجِ الآيةِ الكريمة: التَّفريعُ بقوله تعالى: ﴿فَسَيَكۡفِيكَهُمُ ٱللَّهُۚ﴾؛ إذ فرَّعَ هذه الجُملةَ على ما سبقَها وهي: ﴿وَّإِن تَوَلَّوۡاْ فَإِنَّمَا هُمۡ فِي شِقَاقٖۖ﴾، لتَسليةِ النَّبيِّ ﷺ وتَثبيته، وتَفريحِ المؤمنين بوعدِ النُّصرةِ والغَلَبَةِ، وضمانِ التّأييد لهم[2]؛ لأَنَّ إعلامَهُ بأَنَّ هؤلاءِ في شقاقٍ، مع ما هو معروفٌ مِنْ كَثرتِهم، وقُوَّةِ أَنصارِهم، ممَّا قد يَتَحرَّجُ له السَّامعُ، فوعدَه اللَّهُ بأنَّه يَكفيه شَرَّهم الحاصلَ من تولِّيهم[3]، فأفادتِ الفاءُ سرعةَ وقوعِ الكفايةِ، وأفادت وقوعَ الشِّقاقِ، وأنَّه ليس

(1) أبو حيّان، البحر المحيط: 1/653.

(2) الآلوسي، روح المعاني: 1/394.

(3) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 1/741.

بأمرٍ متوقّعٍ، بل هو أمرٌ واقعٌ، ونستطيع حملَ الفاءِ على أن تكون فصيحة، بمعنى: إن وقع منهم شقاقٌ فسيكفيكهم اللّه، وعلى الاحتمالين فإنَّ الكفاية متحقّقةٌ، والطَّمأنينة ثابتةٌ، وفيها بيانُ حاجةِ قلبِ المؤمنِ إلى التّسلية والتَّثبيت بالإعانةِ الإلهيَّة، وأنَّ ذلك لا يقدحُ في التَّوكُّلِ على اللّه؛ لأنَّه إذا كان وحدَه تعالى هو الكافي والحافظُ، فيَجِبُ أنْ يكونَ التوكّلُ والاعتمادُ عليه وحدَه(1).

إيثارُ التَّعبير بـ (السِّين) دون (سوف) في ﴿فَسَيَكۡفِيكَهُمُ﴾:

اقـتـرانُ الـفـاءِ التَّعقيبيَّةِ بالسِّين يدلُّ على قرب الكفايةِ وسرعتِها

وممَّا أكَّد معنى التّسليةِ والتَّثبيتِ إيثارُ التَّعبيرِ بـ (السِّين)، دون (سوف) بعد فاء التَّفريع فقال: ﴿فَسَيَكۡفِيكَهُمُ﴾، وهذا مُشعِرٌ بتعقُّب الكفاية عقيبَ شقاقِهم مباشرةً دون مُهلةٍ، والمجيءُ بالسِّين يَدُلُّ على قُرب وقوع الكفايةِ لا مَحالةَ؛ وتحقيق وعد اللَّه تعالى، بأنَّه يَكفي النَّبيَّ ﷺ ومَنْ معه سُوءَ شِقاقِهم وشرَّه؛ لأنَّها أقربُ في التَّنفيس مِنْ (سوف)(2).

بلاغةُ الفاصلةِ القرآنيَّة: ﴿وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلۡعَلِيمُ﴾:

الـجـمـعُ بين وعيدِ الكافرين، ووعدِ النَّبيِّ ﷺ بالنُّصرة

جاءت الفاصلةُ القرآنيّةُ: ﴿وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلۡعَلِيمُ﴾ تَذييلًا مُقرِّرًا لِمَا سَبَقَ من الوعد في قوله تعالى: ﴿فَسَيَكۡفِيكَهُمُ ٱللَّهُۚ﴾ ومُؤكِّدًا له، فاللّه تعالى لـمَّا وَعَدَ نبيَّه بالنُّصرةِ والمعُونة، أَتْبعَهُ بما يَدُلُّ على أنَّ ما يُسِرُّونَ وما يُعلنونَ من هذا الأمرِ، لا يخفى عليهِ تعالى فقال: ﴿وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلۡعَلِيمُ﴾(3)؛ فالتَّذييلُ يَتَضمَّنُ أمرَين:

الأوّل: أنَّه وعيدٌ للكفَّار، بأنَّه سبحانه سميعٌ بما يَنطِقون به من الأذى والمَكائد والغلِّ، عليمٌ بما يُضمِرونه في قلوبهم، ممَّا لا خيرَ فيه، وهو معاقبُهم عليه، فلا يَقَعُ منهم أمرٌ؛ إلَّا وهو تعالى قادرٌ على كِفايتِه.

---

(1) ابن عثيمين، تفسير القرآن الكريم: 2/95.

(2) أبو حيّان، البحر المحيط: 1/654.

(3) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 1/168، والآلوسيّ، روح المعاني: 1/395.

والآخر: أنَّه وعدٌ للنّبيِّ ﷺ، والمعنى: أنَّه تعالى السَّميعُ لما تَدعو به، العَليمُ بما في نِيَّتِك من إظهارِ الإسلام، فيَستجيبُ لكَ، ويُوصلُكَ إلى مُرادكَ، وبهذا اشْتَمَلَتِ الفاصلةُ على الوعدِ والوعيدِ[1].

اشتمالُ الاسمين جميعَ الأقوالِ والأفعالِ الظَّاهرةِ والباطنة

لـمّا كان كيدُهم وغِلُّهم وشقاقُهم لا يخلو من الأقوالِ والأفعالِ، ناسَبَ أنْ يأتيَ في التَّذْييل باسمَين كريمَين من أسمائه تعالى وهما: ﴿ٱلسَّمِيعُ ٱلۡعَلِيمُ﴾، فهما يَقتضيان سَمْعَ الأقوالِ، وعِلْمَ الأفعالِ.

بلاغةُ القصرِ في بيانِ كمالِ الوصفين لله تعالى

مِنْ بلاغةِ التَّراكيبِ في فاصلة الآيةِ الكريمة: أسلوبُ القصرِ، المُستفادُ من ضميرِ الفصلِ: (هو)، وتعريفُ جُزْأَي الجملة: ﴿وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلۡعَلِيمُ﴾: وهو قصرٌ إضافيٌّ، يُفيدُ المُبالغةَ في كمال الوَصفَين له تعالى، بتَنزيل سَمع غيره وعلمه منزلةَ العدم، فهو تعالى المُختَصُّ بالعِلْم الكاملِ، والسَّمع الكاملِ، فجاء بالصِّفتَين مُعرَّفتَين؛ للدَّلالةِ على الكمالِ في الوصفِ، وجاءَ بضميرِ الفَصلِ للدَّلالة على قَصْرِ هاتَين الصِّفتَين عليه سبحانَه، وبيانِ أنَّ ما عداه لا يَعلمُ ولا يَسمعُ إذا ما قِيسَ بعِلمه وسَمعِه سبحانه، ولو جاءَ بهما نَكِرَتَين لم يُفيدا هذا المعنى؛ إذْ كلُّ مَنْ عندَه سَمْعٌ وعِلْمٌ يَصِحُّ أنْ يُوصَفَ بأنّه سَميعٌ عليمٌ[2].

ويُمكِنُ حَمْلُهُ على القَصْرِ الحقيقيِّ، باعتبار مُتَعلِّق خاصٍّ، أي: السَّميعُ لأذاهم بالقَولِ، العَليمُ بضمائرِهم، فاطْمَئِنَّ بأنَّ اللّه تعالى كافيكَ ما تَتَوجَّسُ مِنْ شَرِّهم وأذاهم، بكَثْرتهم ومَكْرِهم وغيرِ ذلك، وبهذا يكونُ القصرُ حقيقيًّا مُقيَّدًا مُغايرًا للقصرِ الإضافيِّ[3].

تقديمُ السَّميع على العليم باعتباره أوقع في النَّفسِ المُذنبة

وقدَّمَ صفةَ: ﴿ٱلسَّمِيعُ﴾ على صفة: ﴿ٱلۡعَلِيمُ﴾، فقال تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلۡعَلِيمُ﴾، وجاءَ هذا التَّقديمُ مُناسبًا لـمَضمونِ الآيةِ الكريمة،

(1) الزَّمخشريّ، الكشَّاف: 1/196، والرَّازيّ، مفاتيح الغيب: 4/74.
(2) السَّامرائّي، التَّعبير القرآنّي، ص: 194.
(3) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 1/742.

وسياقِها العامِّ؛ فلمَّا كانتِ الفاصلةُ وعيدًا يَتضمَّنُ التَّخويفَ والتَّهديدَ، بدأ بالسَّمعِ؛ لِأنَّه أوقعُ في بابِ التَّخويفِ مِنْ ذِكْرِ العَليمِ؛ فهو أولى بالتَّقديمِ، ويُمكِنُ أنْ يُقالَ: بأنَّه قدَّمَ السَّمْعَ؛ لأنَّه مِنْ وسائلِ العِلْمِ فهوَ يَسْبِقُهُ، فإذا كان اللّهُ تعالى سَميعًا لأقوالِهم، عَليمًا بأخبارِهم، فَسَيكفي نَبِيَّهُ شرَّهِم ومَكائدَهم[1]، وهؤلاء لـمَّا كانوا مذنبين كان إخبارُهم بسمعِ اللّه لأقوالِهم أوقعَ في نفوسِهم من مجرَّدِ إخبارِهم بالعلم.

علَّةُ اختيارِ لفظِ: ﴿صِبۡغَةَ﴾ دون غيرِه من الألفاظِ:

التَّعريضُ بالنَّصارى فيما يفخرون به على المسلمين

جاء قولُه تعالى: ﴿صِبۡغَةَ ٱللَّهِ وَمَنۡ أَحۡسَنُ مِنَ ٱللَّهِ صِبۡغَةٗۖ وَنَحۡنُ لَهُۥ عَٰبِدُونَ﴾ رَدًّا على دَعوةٍ باطلةٍ لأهلِ الكتابِ؛ بأنَّ المسلمينَ ليس لديهم صِبْغَةٌ تُطَهِّرُهم، وهي عندَهم الاغتسالُ بماءٍ خاصٍّ يُطهِّرُهم من الذُّنوب والمعاصي، وهو الـمُسمَّى عندَهم بالـمَعْموديَّةِ، وكانوا يَغمِسون فيه أطفالَهم في اليوم السَّابعِ مِنْ ميلادِهم، ويقُولونَ: هذا طَهُورٌ مكانَ الخِتانِ، فإذا فَعلوا ذلك قالوا: الآن صارَ نَصْرانيًّا حَقًّا، ويَغتسِلُ به الكبيرُ عندَهم أيضًا إذا كان عاصيًا، فأَنْزَلَ اللّهُ تعالى هذه الآيةَ رَدًّا عليهم، وأَصْلُ الصِّبغةِ ما يُلَوَّنُ بِهِ الثِّيابُ وما شابَه، والصِّبْغَةُ في الآيةِ: دِينُ اللّهِ وفِطرتُه، والمعنى: صَبَغَنا اللّهُ بفطرتِه الّتي فطر النَّاسَ عليها[2].

وسُمِّيَ دينُ اللّهِ وفطرتُه بالصِّبْغَةِ: على طريقةِ الـمُشاكلة التَّقديريَّة، بتَسْمية الشَّيءِ باسم غيرِه؛ لوقوع ﴿صِبۡغَةَ ٱللَّهِ﴾ في الآية رَدًّا على أهلِ الكتابِ، الّذين كانوا يَدَّعونَ أنَّ لديهم فقط صبغةً تُطهِّرُهم، فجاءت هذه الـمُشاكلةُ لِتَرُدَّ عليهم، وتُبيِّنَ أنَّ الصِّبْغةَ الحقيقيَّةَ هي بتَطهيرِه تعالى للمسلمينَ بالإيمانِ الحقِّ، لا ما هم عليه من الباطل الصُّوريِّ[3].

---

(1) ابن القيِّم الجَوزيّة، بدائع الفوائد: 1/64.

(2) ابن جرير، جامع البيان: 3/117-118، والواحديّ، أسباب النُّزول، ص: 41.

(3) الزَّمخشريّ، الكشَّاف: 1/196.

الاستعارة التَّصريحيَّة في قوله تعالى: (صِبۡغَةَ ٱللَّهِ):

بيانُ نزعةِ التَّميُّز على الآخرين، وأثره في التَّطرُّفِ الدِّينيِّ

في التَّعبيرِ بالصِّبغةِ في الآيةِ الكريمةِ: ﴿صِبۡغَةَ ٱللَّهِ وَمَنۡ أَحۡسَنُ مِنَ ٱللَّهِ صِبۡغَةٗۖ﴾: استعارةٌ تَصريحيَّةٌ، علاقتُها المُشابهةُ، وهي مشابهةٌ خفيَّةٌ حَسَّنَها قصدُ المُشاكلةِ، بإطلاق الصِّبغةِ على ماء المَعموديَّةِ، أو على الاغْتسالِ به، وهي اسْتعارةٌ مَبنيَّةٌ على تَشبيهٍ، وَجْهُهُ تَخْييليٌّ، إذ تَخيَّلوا أنَّ التَّعْميدَ يُكسِبُ المُعَمَّدَ به صفةَ النَّصرانيَّةِ، ويُلوِّنُه بلَونها كما يُلوِّنُ الصِّبغُ ثوبًا مَصبوغًا، وقريبٌ منهُ إطلاقُ الصِّبغِ على عادةِ القَومِ وَخُلُقِهم[1]، وهذه نزعةٌ عند النَّصارى تدلُّ على الغرور الدِّينيِّ بطلب التَّميُّز على الآخرين، وهو ما يُؤدِّي إلى التَّطرُّفِ في التَّعامل مع المخالفِ، ومعصيةِ اللّه في إرادتِه في جعلِ النَّاس جميعًا سواسيةً.

غرضُ الاستفهامِ في قوله: ﴿وَمَنۡ أَحۡسَنُ مِنَ ٱللَّهِ صِبۡغَةٗۖ﴾:

بيان أفضليّة الإسلام والإنكار على أهل الكتاب

جاءَ الاستفهامُ في الآية الكريمة: ﴿وَمَنۡ أَحۡسَنُ مِنَ ٱللَّهِ صِبۡغَةٗۖ﴾ إنكاريًّا مُتَضَمِّنًا معنى النَّفي، فهو إنكارٌ على أهل الكتابِ الزَّاعمين بأنَّ صِبْغتَهم أحسنُ صِبْغَةً، والنَّفيُ بالنَّظرِ إلى الواقعِ بأنّه لا أحد أحسن من اللّه تعالى صِبْغَةً، وهذا ما قرَّرَه حذفُ جوابِ الاستفهام: (لا أحدٌ)، أمَّا التَّوبيخُ فهو على ما ذهبوا إليه مِن اعتقادِهم الباطلِ الزَّائفِ، القائمِ على العبادةِ الصُّوريَّةِ الشَّكْليَّة[2].

وبهذا الاستفهام كان التَّعبيرُ أقوى دلالةً مِنَ النَّفي المُجرَّد؛ "لأنَّ النَّفيَ بالاستفهامِ فيه معنى: أنَّ المُخاطَبَ سُبِقَ إلى النَّفي، فكأنَّ النَّفيَ من القائلِ، والإقرارَ به من جهة المخاطَب"[3]، وقد حقَّقَتْ بلاغتُه في هذه الآيةِ نفيَ أنْ تكونَ ثمَّةَ صِبْغَةٌ أحسنَ مِنْ صِبْغَةِ اللّه

(1) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 1/743.

(2) البيضاويّ، أنوار التَّنزيل: 1/109، وأبو السُّعود، إرشاد العقل السّليم: 1/168.

(3) أبو زهرة، المعجزة الكبرى، ص: 212.

تعالى، وأنْ يكونَ دينٌ أفضلَ من دينِ اللّهِ تعالى، أو يُفْهَمَ منه بمَعونة مَقامِ المَدحِ نفيُ مُساواةِ دينٍ لدين اللّه تعالى في الحُسن، وأفضليَّةُ دينِ اللّه واضحةٌ في هذا المَقام، مِنْ إضافةِ اسم الصِّبغةِ إلى اللّه، إضافةَ تَشريفٍ وتعظيم، لإدخالِ الرَّوعةِ والمَهابة على مَنْ يَتَنَكَّرُ لأمرِ هذا الدِّين، أو يُعرِضُ عنهُ[1].

بلاغة صيغة التَّفضيل ﴿أَحۡسَنُ﴾:

دعوةُ المؤمنِ إلى الامتثالِ للحُسْنِ المطلوب في صبغةِ الله

صيغةُ (أفعل) الواردةُ في الاستفهام لا يُرادُ بها حقيقةُ التَّفضيل؛ إذ صِبغةُ غيرِ اللّه تعالى مُنْتَفٍ عنها الحُسْنُ، أو يُرادُ بها التَّفْضيلُ، باعتبارِ مَن يَظُنُّ أنَّ في صِبغةِ غيرِ اللّه حُسنًا، وأنَّ التَّفضيلَ إنَّما يَجري بين الصِّبْغتَين، لا بين الصَّابِغِينَ[2].

وصيغةُ (أفعل) فيها فائدتان: أولاهما: التَّفتيشُ النَّفسيُّ عن أَثَرِ الصِّبْغَةِ الحقيقيَّة أو الصُّوريّة، وما تُخفيه صدورُهم، بحيث يكونُ الشَّخصُ دائمَ التَّفتيش عن أَثَرِ دينِه فيه؛ لأنَّ اللّه تعالى يُريدُ أنْ يُقِرَّ الإنسانُ بهذا على نفسه، و(أَفْعَلُ) التَّفضيلِ في قوله تعالى: "أَحْسَنُ" على بابه، فصِبغَةُ اللّه أَحْسَنُ مِنْ أيِّ صِبْغَةٍ، أو نقولُ: إنَّه للحُسْنِ المُطلَقِ الّذي لا يَقْتَرِبُ مِنْ مكانتِه حُسْنٌ مهما يكنْ، فَضلًا عن أنْ يساويَه؛ فيكونُ أَفْعَلُ التَّفْضيلِ على غيرِ بابِه، والفائدةُ الثّانيةُ: بيانُ خطأِ مَنْ يَظُنُّ أنَّ في صِبْغَةِ غيرِ اللّهِ حُسنًا.

دلالة الفاصلة: ﴿وَنَحۡنُ لَهُۥ عَٰبِدُونَ﴾ على القَصر:

بيانُ أنَّ الصِّبغةَ الحقَّةَ لعبادِ الله الموحِّدين، والتَّعريض بغيرهم

أفادتِ الفاصلةُ: ﴿وَنَحۡنُ لَهُۥ عَٰبِدُونَ﴾ الرَّدَّ على أهل الكتاب بالقَصْرِ، بطريقَين:

الأوّل: تقديمُ ما حقُّه التَّأخيرُ، فقد قَدَّمَ شِبْهَ الجُملة من الجَارِّ والمجرور: ﴿لَهُۥ﴾، على عامله: ﴿عَٰبِدُونَ﴾، والأصلُ: (ونحن عابدون

(1) أبو السُّعود، ارشاد العقل السّليم: 1/168.

(2) أبو حيَّان، البحر المحيط: 1/656.

له)، فأفادَ تَخصيصَ العبادةِ للّه تعالى وحدَه، وقَصْرَها عليه دونَ غيرِه، وتحسينَ الفاصلةِ، والاهتمامَ بالـمُقدَّم[1].

الآخر: اسميَّةُ الجُملةِ، فقد أفادَتِ القصرَ أيضًا؛ لدَلالة الجُملةِ الاسميَّةِ على ثَباتِ الوَصْفِ ودوامِه لهم، والـمُتَمثِّلُ بالعبادةِ الخالصةِ للّه تعالى، وفي هذا: تعريضٌ بأهلِ الكتابِ الّذين اصْطَبغوا بالـمَعْموديَّةِ، وأشركوا باللّه تعالى، وردٌّ عليهم بأنَّهم بعيدونَ عن العبادةِ الصَّحيحةِ، الّتي تَتَطلَّبُ منهم توحيدَ اللّه تعالى وحدَه[2].

❁ الفُرُوقُ المُعْجَمِيَّةُ:

الدِّين وَالمِلَّة:

الدِّين ما يَذهَبُ إليه الإنْسَانُ، وَيعتقِدُ أنَّه يُقَرِّبُه إلى الله تعالى، وهو أعمُّ، والمِلَّة خاصَّةٌ، وهي السُّنَّةُ والطَّرِيقَةُ

الـمِلَّةُ: السُّنَّةُ والطَّرِيقَةُ، وأصبحَتْ اسمًا لِمَا شَرَعَ اللّهُ تعالى لعبادِهِ، على لسان الأنبياء، مِنْ حيثُ إنَّ الأنبياءَ يَعلمُونها ويَسْلُكُونها، ويوجّهون أتباعهم إلى سلوكها[3]، وَبِهَذَا الاعْتِبَار لَا تُضَاف إِلَّا إِلَى النَّبِيِّ الّذي تَسْتَنِدُ إليه، من ذلك: مِلَّةُ إبراهيمَ، وَلَا تكادُ تُوجدُ مُضَافَةً إِلَى اللّه تَعَالَى، وَلَا إِلَى آحَادِ أُمَّة النَّبِيِّ، وَلَا تُسْتَعْمَلُ إِلَّا في جُملَة الشَّرَائِع دونَ آحادِها، فلا يُقَالُ: مِلَّةُ اللّه، ولا مِلَّتي، وَلَا مِلَّةُ زيد، كَمَا يُقَال: دِينُ اللّه، وديني، وَدينُ زيد[4]؛ لأنَّها تُقالُ اعتبارًا بمَنْ يُؤدِّي الشَّرعَ عن اللّه تعالى، في حينِ تجدُ الدِّينَ يُقالُ اعتبارًا بمَنْ يُقيمُه ويَعمَلُ به[5]؛ لأنَّه مأخوذٌ من الجَزاءِ، يُقالُ: كما تَدينُ تُدانُ[6].

أمَّا الدِّين، بِالكَسْر، في اللُّغَة: فَهوَ العَادةُ مُطلقًا، وَهُوَ أوْسَعُ مَجالًا، يُطْلَقُ على الحَقِّ وَالبَاطِل أيضًا، والدِّينُ: ما يَذهَبُ إليه الإنْسَانُ ويعتقِدُ أنَّه يُقَرِّبُه إلى اللّه، وإنْ لَمْ يكُنْ

(1) البقاعيّ، نظم الدُّرر: 2/195.
(2) الألوسّي، روح المعاني: 1/395.
(3) ابن منظور، لسان العرب: (ملل).
(4) الكَفَويُّ، الكُلّيّات، ص: 524.
(5) الراغب، المفردات: (ملل).
(6) الزَّجّاج، معاني القرآن وإعرابه: 1/47.

فِيهِ شَرَائِعُ، مِثل دِينِ أَهْلِ الشِّرْكِ، وكلُّ مِلَّةٍ دِينٌ، وَلَيس كُلُّ دِينٍ مِلَّةً، واليَهُودِيَّةُ مِلَّةٌ؛ لأَنَّ فِيهَا شَرَائِعَ، وَلَيْس الشِّرْكُ مِلَّةً، وإذَا أُطْلِقَ الدِّينُ فَهوَ الطَّاعَة العَامَّة الّتِي يُجَازَى عَليهَا بالثَّوَاب[1].

والـمِلَّةُ: اسمٌ لِجُمْلةِ الشَّرِيعَة، فقد تُطلَقُ على أصول الشَّريعةِ، وهو ما يَعتقدُه المرءُ من الإيمانِ باللّه وملائكتِه ورُسلِه[2]، وقد تَسْري الـمِلَّةُ إلى الضِّدِّ، فتُقالُ في العقيدةِ الفاسدةِ على سبيل الـمُقابلَة، ومِنْ ذلك قولُه تعالى: ﴿أَوْ لَتَعُودُنَّ فِي مِلَّتِنَا﴾ [الأعراف: 88].

والدِّينُ: اسْمٌ لِمَا عليْه كُلُّ وَاحِدٍ مِن أَهْلِها، ألا تَرَى أنَّه يُقَالُ: فُلانٌ حَسَنُ الدِّين، وَلا يُقَالُ: حَسَنُ الـمِلَّةِ، وإنَّمَا يُقَالُ: هُوَ مِن أَهْلِ الـمِلَّةِ، وَيُقَالُ لِخِلافِ الذِّمّيّ: الـمِلِّيُّ؛ نُسِبَ إلى جُمْلَة الشَّرِيعَة، فَلا يُقَالُ لَه: دِينيٌّ، والدِّينُ إذا أطلِقَ فهو الطّاعةُ العامّةُ التي يُجازى عليها بالثّوابِ[3].

أمّا إذا قُيِّد: فتَختلفُ دَلالتُه، لكنَّها تَبقى تَمُتُّ الى الجَزاءِ بصِلَةٍ، قَالَ الشَّرِيفُ الجُرْجَانيُّ: "الدِّين والـمِلَّة: مُتَّحِداتٌ بالذَّات، وَمُخْتَلفَانِ بالاعْتِبَار؛ فإنَّ الشَّرِيعَة من حَيْث إنَّهَا تُطَاعُ تُسَمَّى: دِينًا، وَمِن حَيْثُ إنَّها تُجمَعُ تُسَمَّى: مِلَّةً، ومِن حَيْثُ إنَّها يُرجَعُ إليها تُسَمَّى: مَذْهبًا، وَقِيلَ: الفَرقُ بين الدِّينِ والـمِلَّةِ والـمَذْهبِ: إنَّ الدِّينَ مَنْسوبٌ إلى اللّه تَعَالى، وَالـمِلَّةَ مَنْسوبةٌ إلى الرَّسولِ، والـمَذْهَبَ مَنْسوبٌ إلى الـمُجْتَهِدِ"[4].

ويَشمَلُ الدِّينُ أصُولَ الشَّرَائِعِ وفروعَها؛ لِأَنَّهُ عِبَارَة عَن وَضْعٍ إلهِيٍّ سَائِقٍ لِذَوي العُقُول، باخْتِيَارِهم الـمَحْمُودِ إِلَى الخَيْرِ بِالذَّاتِ، قَلْبِيًّا كَانَ أَو قالَبِيًّا، كالاعْتِقَاد وَالعِلمِ وَالصَّلَاة، وَقَد يُتَجَوَّزُ فِيهِ، فَيُطْلَقُ عَلى الأُصُولِ خَاصَّةً، فَيكونُ بِمَعْنَى الـمِلَّة، وَعَلَيهِ قَوْله تَعَالَى: ﴿دِينًا قِيَمًا مِّلَّةَ إِبْرَاهِيمَ﴾ [الأنعام: 161] [5].

وممّا سَبَقَ يَتبيَّنُ: أنّ إيثارَ لفظِ (مِلَّة)؛ دَلَّ على الطَّريقةِ والسُّنَّة الّتي يَتَّبِعُها مَنْ أُضيفَتْ إليه، وهو أبو الأنبياءِ إبراهيمُ، عليه السلام، وفي ذلكَ: دَعوةٌ إلى التَّأمُّلِ والتَّفكُّرِ والتَّعلّمِ لِسيرته

(1) العَسْكَريُّ، الفُرُوق اللُّغَويّة: 177.
(2) القِنَّوجيّ، أبجد العلوم: 2/338 - 339.
(3) العَسْكَريُّ، الفُرُوق اللُّغَويّة، ص: 509.
(4) الشَّريفُ الجُرْجَانيُّ، التَّعريفات، ص: 106-105.
(5) الكَفَويُّ، الكُلّيّات ص: 524، وبتصرُّف.

وطَريقته، وما كان عليه مِنْ شريعة الإسلامِ، ولفظ (المِلَّة) أقربُ إلى هَدف إيرادها، وهو: الدَّلالةُ على أصول الشَّرائع الصَّحيحة؛ حيثُ إنّها تَجْمَعُ أعمدةَ الرَّسائلِ السَّماويَّةِ، الّتي يُرْجعُ إليها، ولا سيَّما عند الاختلافِ والادِّعاء، كما زعمَ اليهودُ والنَّصارى.

أَنزَلَ ونَزَّلَ:

الإنـزالُ أعـمُّ من التَّنْزيل

ثمة فرق بين نَزَّلَ وأَنْزَلَ مفاده أن نَزَّلَ يفيد التكثير [1]، وخُصَّ لفظُ ﴿أُنزِلَ﴾ بالاستعمال دونَ ﴿نَزَّلَ﴾ في قوله تعالى: ﴿قُولُوٓاْ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيۡنَا﴾؛ لِمَا رُوِيَ: أنّ القرآنَ نَزَلَ دَفْعةً واحدةً إلى سماءِ الدُّنيا، ثمّ نَزَلَ نَجْمًا فَنَجْمًا، فَضلًا عن أنَّ لفظَ الإنْزالِ أعمُّ من التَّنْزيل [2].

(الله) و(الإله):

اللّه: لا يُطلَقُ إلّا عليه سبحانه، والإله: قد يُطلَقُ على غيره، ويُؤكِّدُ ذلك ابنُ مالكٍ بقوله: "اللّه خاصٌّ له تعالى، جاهليّةً وإسلامًا، و(الإله) ليس كذلك؛ لأنّه اسمٌ لكلِّ مَعبودٍ" [3].

و(إله): اسمُ جنسٍ، يُطلَقُ على اللّه، كما يُطلَقُ على غيره، ولذا أَطلَقَهُ المشركونَ على أصنامِهم.

و(اللّه): لم يُستعمَلْ قطُّ مُنكَّرًا، و(إله): يُستعمَلُ مُنَكَّرًا مَقطوعًا عن الإضافةِ حِينًا، ومُضافًا حِينًا آخرَ.

و(اللّه): يُطلَقُ حقيقةً عليه تعالى، و(إله): يُطلَقُ على غيرِه، حكايةً أو مجازًا أو حقيقةً [4].

الـرَّسـول مَـن أرسله الله تعالى برسالةٍ وشرعٍ جديد، والنَّبيُّ المُنَبِّئُ عن الله تعالى بوحي، ليدعوَ إلى عبادة الله على أحد شرائع الرُّسل

النَّبيّ والرَّسول:

الرَّسُول: أَصْلُه مِن الرِّسْل، وَهُوَ الانْبِعَاث عَلى التُّؤَدَة، وإبلٌ مَرَاسِيل: مُنْبَعِثَةٌ انبعَاثًا سَهْلًا، وَمِنْه: الرَّسُولُ المُنْبَعِث، وسُمِّيَ الرَّسولُ رَسُولًا؛ لأَنَّه ذُو رَسُولٍ، أَي: ذُو رِسالةٍ، والرَّسولُ: اسْمٌ مِنْ

(1) الخليل، العَين، وابن سِيدَه، المُحكم: (نزل).

(2) الراغب، المُفردات: (نزل).

(3) ابن مالك، شرح الكافية: 1/145.

(4) نصر سعيد، الدّلالة في اسم الجلالة، من خلال سورة المجادلة: 13.

أَرْسَلْتُ، وَكَذَلِكَ الرِّسَالة[1]، والرَّسُولُ: الّذي يُتابِعُ أَخبارَ الّذي بَعَثَهُ، أَخْذًا مِنْ قَوْلِهِمْ: جَاءَتِ الإبلُ رَسَلًا، أَي: مُتَتَابِعَةً، والإِرْسَالُ: التَّوْجِيهُ، يُسلَكُ فيه التَّوقُّرُ والتَّفهُّمُ وَالتَّرفُّقُ، مِنْ غَيْرِ أَن يَرْفَعَ صَوْتَهُ شَدِيدًا[2].

الـرَّسـولُ أعـمُّ من النَّبيِّ، فكلُّ رسـولٍ نـبـيٌّ، وليس كـلُّ نبيٍّ رسولًا

وإذا أُطلِقَ لفظُ الرَّسُولِ أُريدَ به: "إِنْسانٌ بَعَثَهُ اللّهُ إلى الخَلْقِ، لِتَبْلِيغِ الأَحْكَام"[3]، في حينِ أَنَّ النَّبيَّ هُوَ: "مَنْ أوحِي إليه بِمَلَكٍ، أو أُلهِمَ في قَلْبِه، أَوْ نُبِّهَ بالرُّؤيا الصَّالِحَةِ، فَالرَّسُولُ أَفْضَلُ بِالوَحيِ الخَاصِّ، الّذي فَوقَ وَحيِ النُّبُوَّةِ؛ لأَنَّ الرَّسولَ هُو مَن أَوحى إليه جِبْرَائيلُ خَاصّةً، بِتَنْزِيلِ الكِتابِ مِن اللّه"[4]، والرِّسالَةُ: تُضافُ إلى اللّه؛ لأنّه الـمُرْسِلُ بِهَا، ولهذا قال تعالى: ﴿قَالَ يَٰمُوسَىٰٓ إِنِّي ٱصۡطَفَيۡتُكَ عَلَى ٱلنَّاسِ بِرِسَٰلَٰتِي وَبِكَلَٰمِي﴾ [الأعراف: 144]، ولَمْ يَقُلْ: بِنُبُوَّتي.

أمَّا النَّبيُّ: فَهوَ الـمُخْبِر عَن اللّه ﷻ، فَتُرِكَ هَمزُه، وَقِيلَ: النَّبيُّ مُشْتَقٌّ مِنَ النَّبَاوة، وَهِيَ الشَّيءُ الـمُرْتَفِعُ: أَي: إِنّهُ أَشْرَفُ عَلَى سَائِرِ الخَلْقِ، فأَصلُه غَيْرُ الهَمْزِ[5].

والإِنْبَاءُ عَن الشَّيءِ قَدْ يَكُونُ مِنْ غَيْرِ تَحميلِ النَّبأ، والإِرْسالُ لَا يَكُونُ بِتَحْميلٍ، والنُّبُوَّةُ: يَغْلِبُ عليها الإِضَافَةُ إلى النَّبيِّ، فَيُقَالُ: نُبُوَّةُ النَّبيِّ؛ لأنَّه يَستحِقُّ منها الصِّفةَ الّتي هي على طريقةِ الفاعِلِ[6]، والنُّبُوَّةُ: سِفَارَةٌ بينَ اللّهِ وبينَ ذَوِي العُقولِ من عباده، لإزاحة عِلَلِهم في أمرِ مَعادِهم ومَعاشِهم، والنَّبيُّ: لكونِه مُنبِّئًا بما تَسكُنُ إليه العقولُ الذَّكيَّةُ، وهو يَصِحُّ أَنْ يكونَ فَعِيلًا، بمعنى فاعِل، لقوله تعالى: ﴿نَبِّئۡ عِبَادِيٓ﴾ [الحجر: 49][7].

(1) الراغب، المفردات: (رسل).
(2) الأَزْهريُّ، تهذيبُ اللُّغة، وابن مَنْظور، لسانُ العَرب: (رسل).
(3) الجُرْجَانيُّ، التَّعريفات، ص: 110.
(4) الجُرْجَانيُّ، التَّعريفات، ص: 239.
(5) ابن مَنْظور، لسانُ العَرب: (نبأ).
(6) العَسْكَريُّ، الفُرُوق اللُّغَويّة: 1/162.
(7) الراغب، المفردات: (نبأ).

﴿قُلْ أَتُحَآجُّونَنَا فِى ٱللَّهِ وَهُوَ رَبُّنَا وَرَبُّكُمْ وَلَنَآ أَعْمَٰلُنَا وَلَكُمْ
أَعْمَٰلُكُمْ وَنَحْنُ لَهُۥ مُخْلِصُونَ ﴿١٣٩﴾ أَمْ تَقُولُونَ إِنَّ إِبْرَٰهِـۧمَ وَإِسْمَٰعِيلَ
وَإِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ وَٱلْأَسْبَاطَ كَانُوا۟ هُودًا أَوْ نَصَٰرَىٰ ۗ قُلْ ءَأَنتُمْ أَعْلَمُ
أَمِ ٱللَّهُ ۗ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن كَتَمَ شَهَٰدَةً عِندَهُۥ مِنَ ٱللَّهِ ۗ وَمَا ٱللَّهُ بِغَٰفِلٍ
عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴿١٤٠﴾ تِلْكَ أُمَّةٌ قَدْ خَلَتْ ۖ لَهَا مَا كَسَبَتْ وَلَكُم مَّا
كَسَبْتُمْ ۖ وَلَا تُسْـَٔلُونَ عَمَّا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿١٤١﴾﴾ [البقرة: 139-141]

مُنَاسَبَةُ الآيَاتِ لِمَا قَبْلَهَا:

محاجة أهل الكتاب، وإبطال مزاعمهم وبيان كذبهم بالدَّليل

جَاءَت الآياتُ الكريماتُ مناسِبةً لِمَا سَبَقَها؛ فهي تَسيرُ في الموضوعِ نفسِه، وهو: محاجةُ أهلِ الكتابِ من اليهود والنَّصارى، وإبطالُ مذهبِهم؛ حيث جاءتِ الآياتُ اسْتِئْنافًا عمَّا سَبَقَها، لإبطالِ مَزاعم أهلِ الكتابِ من اليهودِ والنَّصارى، وبيانِ كَذِبهم وتوبيخِهم عليه، قال البِقاعيُّ: "لـمّا أَمَرَ تعالى بقوله: ﴿قُلْ بَلْ مِلَّةَ إِبْرَٰهِـۧمَ حَنِيفًا ۖ﴾ [البقرة: 135]، وما بعدَه، بإعلامِ الخَصْمِ بالـمُخالفة، وأَنْ لا مُوافقةَ إلّا بتَرْكِ الهَوى، واتِّباعِ الهُدى؛ أَمَرَ هنا: بمُجادلتِهم بما يُوْهِي أقوالَهم، ويزيحُ شُبهَهم، فقال مُعرِضًا بالخطابِ عن الجَمْعِ، مُوجِّهًا له إلى رسوله، ﷺ، رَفْعًا لـمَقامِه، وتَعريفًا بعَليِّ مَنْصِبه، إعلامًا بأنَّه لا يَنهَضُ بذلك غيرُه، لِمَا لهم من العلم معَ ما عندَهم من الجَدَلِ واللَّدَدِ: ﴿قُلْ﴾ مُنْكِرًا لـمُحاجَّتِهم، ومُوبِّخًا لهم عليها: ﴿أَتُحَآجُّونَنَا﴾، ولما كان الأنسبُ في الـمُقارعةِ إعلامَ الخَصم بالـمُخالفة؛ لأنَّه أقطعُ لطَمَعِه، وأَمْكَنُ لغَيظِه، مع أنَّه هنا أقربُ إلى رِضى الخالقِ، قُدِّمَ على الـمُجادَلة"[1].

(1) البقاعيّ، نظم الدُّرر: 195-2/194.

❁ شَرْحُ المُفْرَدَاتِ:

1) ﴿أَتُحَآجُّونَنَا﴾: من (حَجَجَ)، حَجَّ علينا: قَدِمَ، وحَجَّهُ يَحُجُّهُ حَجًّا: قَصَدَه، والحَجُّ: كثرةُ القَصْدِ إلى مَن يُعَظَّمُ، و"الحُجَّةُ: الوَجْهُ الّذي يَكُونُ بِهِ الظَّفَرُ عِنْدَ الخُصُومَةِ، وَهُوَ رَجُلٌ مِحْجاجٌ، أَي: جَدِلٌ، والتَّحَاجُّ: التَّخاصُمُ، وَجَمْعُ الحُجَّة: حُجَجٌ وحِجاجٌ، وحاجَّه مُحاجَّةً وحِجاجًا: نَازَعَهُ الحُجَّةَ، وحَجَّه يَحُجُّه حَجًّا: غَلَبَهُ عَلَى حُجَّته"[1].

أمَّا المُحاجَّةُ فهي: أنْ يَطلُبَ كلُّ واحدٍ من المُحاجَّين رَدَّ صاحِبه عَن حُجَّتِه، أَوْ مَحَجَّتِه[2]، ومعنى: ﴿أَتُحَآجُّونَنَا﴾: أتجادِلُوننا وتخاصِمُوننا؟

2) ﴿أَظْلَمُ﴾: مِنْ (ظَلَمَ)، والظُّلْمُ: وَضْعُ الشَّيْءِ في غير مَوْضِعه تَعَدِّيًا[3]، ومِنَ المجاز: "ظَلَمَ الأرضَ: حَفَرَها في غيرِ مَوْضِعِ حَفْرِها، والبَعيرَ: نَحَرَهُ من غيرِ داءٍ، والوَادِيَ: بَلَغَ الماءُ مَوْضِعًا لم يَكُنْ بَلَغَهُ قَبْلَهُ، والوَطْبَ: سَقَى منه اللَّبَنَ قَبْلَ أن يَرُوبَ"[4].

والظُّلمُ: وضعُ الشَّيْء في غيرِ مَوْضِعِه؛ وَالتَّصرُّفُ في حَقِّ الآخرِ؛ ومُجاوزَةُ حَدِّ الشَّارِعِ، والمصدرُ الحَقِيقيُّ لـ (ظَلَمَ) هُوَ: الظَّلْم (بِالفَتْح)، وَيُفهَمُ مِنْهُ أَنَّ الظُّلْم -بِالضَّمِّ- في الأَصْل: اسْمٌ مِنْهُ وَإِنْ شاعَ اسْتِعْمَالُه في مَوضِعِ المصدرِ[5].

والمعنى الّذي وردَ به لَفظُ ﴿أَظْلَمُ﴾ في قوله تعالى: ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن كَتَمَ شَهَٰدَةً عِندَهُۥ مِنَ ٱللَّهِ﴾ هو: مَنْ وَضَعَ الشَّيْءَ في غيرِ مَوْضِعِه، وجاوزَ حَدَّ الشَّارِعِ.

3) ﴿كَتَمَ﴾: الكَافُ وَالتَّاءُ وَالمِيمُ أَصْلٌ صَحِيحٌ، يَدُلُّ عَلَى إِخْفاءٍ وَسَتْرٍ، مِنْ ذَلِكَ: كَتَمْتُ الحَدِيثَ، كَتْمًا وَكِتْمَانًا، كَتَمْتُه السِّرَّ كَتْمًا وكِتْمَانًا، وكَتَّمَه: بالغَ في كَتْمِه، وسِرٌّ وحَدِيثٌ مُكَتَّمٌ، واسْتَكْتَمْتُه أمري، وهو كَتَّامٌ وكَتَّامَةٌ للأَسْرَار، وكَاتَمْتُه العَدَاوَةَ: سَاتَرْتُه، وفُلَانٌ لا يَكْتَتِمُ أَيْ: لا يَكْتِم أَمْرَه وسِرَّه[6]، والكِتْمانُ: نَقيضُ الإعلانِ.

ودَلالَةُ ﴿كَتَمَ﴾ في قوله تعالى: ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن كَتَمَ شَهَٰدَةً عِندَهُۥ مِنَ ٱللَّهِ﴾ تُشيرُ إلى

(1) ابن مَنْظور، لسانُ العَرب: (حجج).
(2) السَّمين، عمدة الحفّاظ: (حجج).
(3) ابن فارس، مقاييس اللُّغة: (ظَلَمَ).
(4) الفَيْروزاباديّ، القَاموس المُحيط: (الظُّلْمُ).
(5) الكَفَويُّ، الكُلّيّات، ص: 595.
(6) ابن فارس، مقاييس اللُّغة: (كَتَمَ).

إخْفاءٍ وَسَتْرٍ، "وكلُّ ما في القُرْآنِ من التَّركيب، فَهُوَ بِمَعْنَى: حَبْس الكَلَامِ عَمَّا في القَلْب، مِن شَهَادَةٍ أَوْ عِلْمٍ أَوْ فِكْرٍ أو تَدْبيرٍ أَوْ عَقيدَةٍ"[1].

4) ﴿شَهَٰدَةً﴾: من (شَهِدَ)، والشَّهَادَة: خبرٌ قَاطِعٌ، تَقُولُ مِنْه: شَهِد الرَّجُل على كذا، وقولُهم: اشْهَدْ بِكَذَا، أي الحَلِف، والمُشَاهَدَةُ: المُعاينةُ، وشَهِدَهُ شُهودًا، أي: حَضَرَه، فهو شاهِدٌ، وقومٌ شُهودٌ، أي: حُضورٌ[2].

وشَهِدَ له بكذا شَهادةً، أي: أَدَّى مَا عِنْدَه من الشَّهَادَة، فَهُوَ شَاهِدٌ، وَالجَمْعُ شَهْدٌ، مِثْلُ: صاحِب وصَحْب، وَجَمْعُ الشَّهْد: شُهودٌ وأَشْهادٌ، والشَّهيدُ: الشَّاهِدُ: الحَاضِر، وَالجَمْعُ الشُّهَداء[3]، وشَهِدَ الشَّاهِدُ عِنْدَ الحَاكِم، أَيْ: بَيَّنَ مَا يَعْلَمُهُ وأَظْهَرَه[4].

والشَّهَادَةُ: قولٌ صادرٌ عن علمٍ، حَصَلَ بمُشاهَدَةِ بَصيرةٍ أو بَصَرٍ، وقولُه تعالى: ﴿أَشَهِدُواْ خَلْقَهُمْۚ سَتُكْتَبُ شَهَٰدَتُهُمْ﴾ [الزخرف: 19]، تَنْبيهًا أنّ الشّهادةَ تكونُ عن شُهُودٍ[5].

ومعنى الشَّهَادَةِ في قوله تعالى: ﴿كَتَمَ شَهَٰدَةً عِندَهُۥ مِنَ ٱللَّهِ﴾ كتمانُهم شهادةً عندهم من الله بأن إبراهيم وإسماعيل وإسحاق ويعقوبَ والأسباطَ كانوا مسلمين، فكتموا ذلك، ونحلُوهم اليهوديةَ والنصرانية.

5) ﴿بِغَٰفِلٍ﴾: "الغَيْنُ وَالفَاءُ وَاللَّامُ أَصْلٌ صَحِيحٌ، يَدُلُّ عَلَى تَرْكِ الشَّيْءِ سَهْوًا، وَرُبَّمَا كَانَ عَنْ عَمْدٍ"[6].

والتَّغافُلُ: التَّعَمُّدُ، والتَّغَفُّلُ: خَتْلٌ عَن غَفْلَةٍ[7]، و"الغَفْلَةُ: سَهْوٌ يَعْتَري الإنسانَ مِنْ قِلَّةِ التَّحفُّظِ والتَّيقّظِ، يُقالُ: غَفَلَ فهو غَافِلٌ"[8].

والمعنى في قوله تعالى: ﴿وَمَا ٱللَّهُ بِغَٰفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ﴾، جاء لينفيَ كلَّ معاني الغَفْلَةِ،

(1) جبل، المعجم الاشتقاقيّ المؤصّل: (كتم).
(2) الجَوْهَرِيُّ، الصّحاح: (الشَّهادة).
(3) ابن منظور، لسان العرب: (شهد).
(4) الأزهري، تهذيب اللّغة: (شهد).
(5) الراغب، المفردات: (شهد).
(6) ابن فارس، مقاييس اللُّغة: (غَفَلَ).
(7) الأَزْهريُّ، تهذيبُ اللُّغة: (غَفَلَ).
(8) الراغب، المفردات: (غَفَلَ).

من السَّهْوِ وقلَّةِ التَّحفّظِ والتَّيقّظِ عنه تعالى شأنُه، وليُثْبِتَ في الوَقْتِ نَفْسِه أنَّه سُبْحَانَه عَالمٌ ... خَبيرٌ بما يَعْمَلُ الظَّالمونَ[1].

6) ﴿أُمَّةٌ﴾: من (أَمَمَ)، وأُمُّ الشَّيءِ: أصلُهُ، ومَكَّةُ: أُمُّ القُرى، والأُمَّةُ: الجماعةُ، هو في اللَّفظِ واحدٌ، وفي المعنى جمعٌ، وكلُّ جنس من الحيوان أُمَّةٌ[2].

قال الرَّاغبُ الأصْفهانيُّ "والأُمّةُ: كلُّ جماعةٍ يَجمعُهم أَمرٌ ما، إمّا دِينٌ واحدٌ، أو زمانٌ واحدٌ، أو مكانٌ واحدٌ، سواءٌ كان ذلكَ الأمرُ الجامعُ تسخيرًا أو اختيارًا، وجمعُها: أُمَمٌ"[3]، وبهذه الدَّلالَةِ وَرَدَ لفظُ ﴿أُمَّةٌ﴾ في قَوْله تعالى: ﴿تِلْكَ أُمَّةٌ قَدْ خَلَتْ﴾.

7) ﴿خَلَتْ﴾: من (خلا)، يُقالُ: خَلَا يَخْلُو خَلاءً، فهو خالٍ، والخَلاءُ من الأرضِ: قرارٌ خالٍ، لا شيءَ فيه، وخَلَّى مكانَه، أي: ماتَ، وخَلَّيْتُ عنه، أي: أرسَلْتُه، وخَلَا قَرْنٌ، أي: مضى، فهو خالٍ، والخَلِيَّةُ: النّاقَةُ خَلَتْ مِنْ وَلَدِها، ورَعَتْ وَلَدَ غيرها، ويقالُ: هي الّتي ليس معها وَلَدٌ، والخِلاءُ في الإبل كالحِرَانِ في الدّابَّة، خَلَأَتِ النّاقةُ خِلَاءً، أي: لم تَبْرَحْ مكانَها، تَعَسُّرًا منها[4].

وخَلَوْتُ إليه: إذا اجتمعْتَ معه في خَلْوَةٍ، وَأنا منكَ خَلَاءٌ، أي: بَراءٌ[5].

ويأتي (خَلَا) بمعنى: مضى، ومنه قوله تعالى: ﴿تِلْكَ أُمَّةٌ قَدْ خَلَتْ﴾، والقُرُونُ الخَالِيَةُ: هم المَوَاضِي، وخَلا شَبابُكَ: مضى، وهو من القرونِ الخاليَةِ، وتقولُ: كان ذلك في القرون الأَوَالي، والأمَمِ الخَوَالي[6].

المَعْنَى الإجْمَالِيُّ:

مُحاجَجة أهل الكتاب بالدَّليل العقليّ والنَّقلي

تأتي هذه الآياتُ الكريماتُ في سِياق مُحاجَجةِ أهلِ الكتابِ، ويَعتمِدُ أسلوبُ الخطاب فيها على الحِجَاج بالدَّليل العقليِّ والنَّقليِّ والبرهانِ القاطعِ، فهي تُجادُلهم وتُسَفِّهُ أحلامَهم، وتُكذِّبُهم من خلال حِجاجِهم، وبيانِ بطلانِ عقائدِهم وفسادِها.

(1) الكَفويُّ، الكُلّيّات، ص: 546.
(2) الجَوْهَرِيُّ، الصّحاح: (أمم).
(3) الراغب، المفردات: (أمم).
(4) الخليل، العَين: (خلو).
(5) الجَوهَريُّ، الصّحاح: (خلا).
(6) الأزهريُّ، تهذيب اللُّغة: (خلا).

فَقَدِ افْتُتِحَتْ بأمرٍ من اللّه تعالى لنبيِّه محمَّدٍ ﷺ أنْ يقولَ لأهلِ الكتابِ من اليهود والنَّصارى، الّذين يُجادِلون سَفَهًا بغيرِ حقٍّ، مُنكِرًا عليهم: أتُجادِلُونَنا يا أهلَ الكتابِ في أنَّكم أولى باللّه ودِينِه منّا؛ لأنَّ دينَكم أقدمُ، وكتابَكم أَسْبَقُ، ومَنْ أين لكم هذه الدّعاوى الباطلةُ، بادّعاءِ الهدايةِ والقُربِ من اللّه دُونَنا؟ واللّه رَبُّنا جميعًا، لا ربُّكم فقط، ولكلٍّ منَّا أعمالُه الّتي سيُجازَى عليها، لنا أعمالُنا الّتي لا تُسألون عنها، ولكم أعمالُكم الّتي لا نُسألُ عنها، وكلٌّ سيُجْزى بعَمَلِه، فأنتم لستُم بأفضلَ منَّا، بلْ نحنُ أَوْلى باللّه منكم؛ لأنَّنا مُخلِصونَ له في العبادة والطّاعةِ، ولا نُشرِكُ به شيئًا، وأنتم تُشرِكونَ.

بيان كذب أهل الكتاب وافترائهم على الأنبياء، وتوبيخهم عليه

ثم تأتي الآيةُ الّتي بعدَها؛ لتُبيِّنَ كَذِبَ أقوالِ أهلِ الكتاب بافترائهم على الأنبياء، وَوَبَّخَتْهم عليه: أَمْ تقولونَ يا أهل الكتاب: إنَّ إبراهيمَ والأنبياءَ المَذكورينَ، كانوا على دِينِ اليهوديَّةِ، أو النَّصرانيَّة، مع أنَّ هاتَينِ الدِّيانتَينِ قد شُرِعَتا بعدَ المَذكورين من الأنبياءِ، ثمَّ أَمَرَ اللّهُ تعالى نبيَّه أنْ يسألَهم: أهُمْ أعلمُ بما كان عليه هؤلاءِ الأنبياءُ، أم اللّهُ؟ وعُلِمَ بذلك: أنَّ ما يَقولُونَه كَذِبٌ على اللّه تعالى ورُسُلِه، وأنَّهم كَتَمُوا الحقَّ الّذي نَزَلَ عليهم، ولا أحدَ أشدُّ ظُلمًا مِنَ الّذي كَتَمَ شهادةً ثابتةً عندَه عَلِمَها من اللّه تعالى، كَفِعلِ أهلِ الكتابِ، وليس اللّه بغافلٍ عن أعمالِكم، وسيُجازيكم عليها.

بيان أنّه لا أحدٌ يُؤخذ بذنب أحدٍ، ولا ينتفع بعمل غيره

وأخيرًا يُسْدَلُ السِّتارُ عن هذا المُحاجَجَةِ ببيانِ أنَّ هؤلاء الأنبياءَ الّذين يُجادَلون أمَّةٌ قد مَضَتْ مِنْ قبلكم، وأَفْضَتْ إلى ما قَدَّمَتْ مِنْ عَمَلٍ، ولنْ ينفعَكم الانتسابُ إليهم، ولن يعودَ إليكم من صلاحِهم وعملِهم الصّالحِ شيءٌ، فلها ما كَسَبَتْ من الأعمالِ، ولكم ما كَسَبْتم، ولا تُسألون عن أعمالهم، ولا يُسألون عن أعمالكم، فلا يُؤخَذُ أحدٌ بذَنْبِ أحدٍ، ولا يَنتفِعُ بعَمَلِ غيرِه، بلْ كلٌّ سيُجازى على ما قَدَّمَ[1].

(1) ابن جرير، جامع البيان: 3/123-128، والرَّازيُّ، مفاتيح الغيب: 2/76-78، وابنُ كثير، تفسير القرآن العظيم: 1/452-453، والمختصر في التَّفسير، ص: 21.

❁ الإيضَاحُ اللُّغَوِيُّ وَالبَلَاغِيُّ:

غرضُ الاستفهام في قوله: ﴿أَتُحَآجُّونَنَا فِي ٱللَّهِ﴾:

الإنكار على أهل الكتاب محاجتهم فيما يعلمون

لـمَّا كانت هذه الآياتُ في حِجاج أهلِ الكتابِ وإبطالِ مَذْهبِهِم، ناسَبَها أن تُفتتَحَ بالاستفهامِ في قوله تعالى: ﴿قُلۡ أَتُحَآجُّونَنَا فِي ٱللَّهِ وَهُوَ رَبُّنَا وَرَبُّكُمۡ﴾ [البقرة: 139]، والاستفهامُ إنكاريٌّ مَشُوبٌ بتعجُّبٍ، إنكار الـمُحاجَجَةِ الصَّادرةِ من أهل الكتابِ للمسلمين في اللّه تعالى، واصطفائِه نبيَّ آخرِ الزَّمانِ محمَّدٍ ﷺ من العرب[1]، والتَّعجيبُ من تلك الـمُحاججةِ مع عِلْمِهم بأنَّه الحَقُّ.

سِرُّ إيثارِ استعمالِ صيغةِ الفعل المضارع: ﴿أَتُحَآجُّونَنَا﴾:

واجبُ المسلم الاستعدادُ الحجاجيُّ والفكريُّ في كلِّ عصرٍ

جاء التَّعبيرُ بالفعل المضارع: ﴿أَتُحَآجُّونَنَا﴾ في قوله تعالى: ﴿قُلۡ أَتُحَآجُّونَنَا فِي ٱللَّهِ﴾؛ للدّلالةِ على استمرارِ مُحاجَجَةِ أهلِ الكتاب للمسلمينَ في نبيِّنا محمَّدٍ ﷺ ورسالته، وتَجدُّدِها كلَّ مَرَّةٍ مِنْ غيرِ انقطاعٍ منهم، مع بطلانها، ممَّا يزيدُ من تقبيح فعلِهم وتَشنيعِه.

فالفعلُ المضارعُ: ﴿أَتُحَآجُّونَنَا﴾ يَقتضي الـمُحاجَجَةَ، المرَّةَ بعدَ المرَّةِ؛ لأنَّ الفعلَ المضارعَ يَدُلُّ على التَّجدُّدِ والاستمرارِ، فهو فِعْلٌ دائِمٌ، وهذا ما يدعو إلى الاستنكارِ والتَّعجُّبِ من فعلِهم المستمرِّ بالجِدالِ بالباطلِ؛ فالآيةُ إخبارٌ عمَّا سيصدرُ عن أهل الكتابِ، ومقتضى الإخبارِ معرفةُ ما سيقعُ منهم، والاستعداد لذلك على المستوى العلمي والثقافي والفكري والحجاجيّ، بما يلزم في كلِّ عصرٍ بحسب أدواته، فالآية تزرع في عقل المسلم الوعيَ والفهمَ والاستعدادَ، وأنَّ ما يصدُر عن الآخرِ لا يصحُّ التَّهاونُ في شأنِه.

نكتةُ الإيجازِ بالحذفِ في قوله: ﴿فِي ٱللَّهِ﴾:

حُذِف الـمُضافُ في قوله تعالى: ﴿قُلۡ أَتُحَآجُّونَنَا فِي ٱللَّهِ﴾؛ وأُقيمَ

---

(1) الزَّمخشريّ، الكشَّاف: 1/197.

تصويرُ شَنَاعَةِ وقُبحِ ما وقعوا فيه من المُحَاجَجَةِ

المُضافُ إليه - وهو الاسم الكريم: (اللّه) - مَقامَه، أيْ: أتحاجُّونَنا في دِينِ اللّهِ، أو شريعةِ اللّه، أو شأن اللّه، ونكتةُ الحذفِ بيانُ شِدَّةِ جَهْلِ أهلِ الكتاب، فهم يُحاجُّون في ذات اللّه تعالى، لجَهلِهم وسَخافَةِ عقولِهم، وهو مكمنُ الإنكارِ عليهم، بقَصدِ المُبالغةَ[1]، وفائدتُه تظهرُ في تصوير شناعةِ وقُبحِ المحاجة التي وقعوا فيها!

ترشيحُ الإنكارِ بالأسلوبِ الخبريِّ: ﴿وَهُوَ رَبُّنَا وَرَبُّكُمْ وَلَنَآ أَعْمَٰلُنَا﴾:

إتباعُ الإنكارِ خبرًا حجاجيًّا يُثبِّتُ المعنى المُراد

لـمَّا كان جدالُ أهلِ الكتابِ للمسلمينَ ومُحاجَجتُهم مَحَطَّ إنكارٍ وتَعجيبٍ، جاء بعدَه الأسلوبُ الخَبريُّ في قوله تعالى: ﴿وَهُوَ رَبُّنَا وَرَبُّكُمْ وَلَنَآ أَعْمَٰلُنَا وَلَكُمْ أَعْمَٰلُكُمْ﴾؛ لتَأكيدِ معنى الإنكارِ وتصويرِ بشاعةِ المستنكرِ عليهم من أمرَين:

الأوّل: أنَّ اللّه تعالى أَعلمُ بتَدبيرِ خَلْقِه، وبمَنْ يَصلُحُ للرِّسالة وبمَنْ لا يَصلُحُ لها، فلا تَعترضوا على حكمِ اللّه وأمرِه؛ فليسَ للعبد أَنْ يعترضَ ويحاجج فيما ليس له به علم، بلْ يجبُ عليه تفويضُ الأَمرِ بالكُلِّيَّة إليه تعالى.

الآخر: أَنَّهُ لا نِسبةَ لكم إلى اللّه تعالى إلَّا بالعُبوديَّة، وهذه النِّسبةُ مُشتَرَكةٌ بينَنا وبينَكم، فَلِمَ تُرَجِّحونَ أَنفسَكم علينا، بلِ التَّرجيحُ مِنْ جانبنا؛ لأَنَّا مُخلصون له في العُبوديَّة[2].

التَّرقّي في المُحاجة في قوله: ﴿وَهُوَ رَبُّنَا وَرَبُّكُمْ وَلَنَآ أَعْمَٰلُنَا وَلَكُمْ أَعْمَٰلُكُمْ﴾:

التأسيسُ بالانتسابِ، يجبُ معه الإثباتُ بالأعمال

مِنَ البلاغةِ في الآيةِ الكريمةِ: التَّرقّي من الأدنى إلى الأعلى في قوله تعالى: ﴿وَهُوَ رَبُّنَا وَرَبُّكُمْ وَلَنَآ أَعْمَٰلُنَا وَلَكُمْ أَعْمَٰلُكُمْ﴾؛ فقد جاءت جُملةُ ﴿وَهُوَ رَبُّنَا وَرَبُّكُمْ﴾ حاليَّةً، أَي: كيف تُحاجُّونَنا في هاتِهِ الحالةِ المَعروفةِ الّتي لا تَقبَلُ الشَّكَّ، وبهذه الجُملة حَصَلَ بيانٌ

---

(1) السَّمين، الدُّرّ المصون: 1/145.
(2) الرّازيّ، مفاتيح الغيب: 4/76.

لموضُوعِ المُحاجَّةِ، ثمَّ ارْتقى في الإنكار عليهم، فقال: ﴿وَلَنَآ أَعۡمَٰلُنَا وَلَكُمۡ أَعۡمَٰلُكُمۡ﴾، فهذه الجملةُ عطفٌ على الحالِ، ارتقاءً في إبطالِ مُجادلتِهم، بعد بيانِ أَنَّ المَربُوبيَّةَ تُؤهِّلُ لإنعامِه كما أَهَّلَتْهُم، ارْتقى فجَعَلَ مَرْجُوّ رِضَى اللَّه تعالى على عبادِه أعمالهم، فإذا كان قد أكرمَكم لأَجلِ الأَعمالِ الصَّالحة فلعلَّه أكرمَنا لأَجلِ صالحاتِ أعمالِنا أيضًا، فتعالَوا فانظروا أَعمالَكم، وانظروا أَعمالَنا، تجدوا حالَنا أَقربَ إلى الصَّلاحِ منكم، وهذا التَّرقِّي أَضْفى على جدالهم قُبْحًا فوقَ قُبْحٍ[1].

قال البيضاويُّ: "كأَنَّه أَلْزمَهم على كلِّ مَذهبٍ يَنْتَحُونَه إفحامًا وتَبْكيتًا، فإنَّ كرامةَ النُّبُوءةِ إمَّا تَفَضُّلٌ من اللَّه على مَنْ يشاءُ، فالكُلُّ فيه سواءٌ، وإمَّا إفَاضَةُ حَقٍّ على المُسْتَعِدِّينَ لها، بالمُواظبةِ على الطَّاعةِ، فكما أَنَّ لكم أَعمالًا، رُبَّما يعتبرُها اللَّه في إعطائِها، فلنا أَيضًا أعمالٌ"[2].

التَّقديم للقصر في قوله: ﴿وَلَنَآ أَعۡمَٰلُنَا وَلَكُمۡ أَعۡمَٰلُكُمۡ﴾:

الأعـمـالُ ثـمـارُ الاعتقادِ ودليلُ القـبـول، وَكُـلُّ مُكَلَّفٍ مَقْرُونٌ بِعَمَلِهِ

مِنْ بلاغةِ قوله تعالى: ﴿وَهُوَ رَبُّنَا وَرَبُّكُمۡ وَلَنَآ أَعۡمَٰلُنَا وَلَكُمۡ أَعۡمَٰلُكُمۡ﴾: تقديمُ شِبْهِ الجُملةِ: ﴿وَلَنَآ﴾على المبتدأ: ﴿أَعۡمَٰلُنَا﴾، وتقديمُ شِبْهِ الجُملةِ: ﴿وَلَكُمۡ﴾ على المبتدأ: ﴿أَعۡمَٰلُكُمۡ﴾، وأفادَ هذا التَّقديمُ القصرَ، قصرَ أعمالِ كلِّ فريقٍ من الفريقَين عليه وتخصيصَها به، وفيه دَلالةٌ على "أنَّ العملَ هو أساسُ الأمرِ، وبه العبرةُ، وكما أنَّ لكم أعمالًا، يَعتبرُها اللَّه في إعطاءِ الكرامةِ ومنعِها، فنحنُ كذلكَ"[3]، وفيه وجوبُ البَراءَةِ من أعمالِ الكفَّارِ وشِرْكِهم، إذ فصلتِ الآيةُ بين أعمالِ كلِّ فريقٍ، وأعطته حكمًا خاصًّا به.

دلالةُ عطفِ قوله: ﴿وَلَكُمۡ أَعۡمَٰلُكُمۡ﴾:

جاءَ قولُه تعالى: ﴿وَلَكُمۡ أَعۡمَٰلُكُمۡ﴾ معطوفًا على قوله: ﴿وَلَنَآ أَعۡمَٰلُنَا﴾، احتراسًا يَدفَعُ تَوهُّمَ أَنْ يكونَ المسلمونَ مُشاركين

(1) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 1/746.
(2) البيضاويّ، أنوار التَّنزيل: 1/109.
(3) الزَّمخشريّ، الكشَّاف: 1/197.

دفع توهّم الاشتراكِ بين المسلمين وأهل الكتاب في الأعمال الصّالحات

لِلمُخَاطَبين من أهل الكتابِ في أعمالهم، وهو نَظيرُ عَطْفِ قولِه تعالى: ﴿وَلِيَ دِينِ ۝٦﴾ عَلَى قَوْلِه: ﴿لَكُمْ دِينُكُمْ﴾ [الكافرون: 6][1].

فدلَّ الاحتراسُ على أنَّ لكلِّ فريقٍ من المسلمينَ وأهلِ الكتاب أعمالَه الخاصَّةَ به، فلِلْمُسلمينَ أعمالُهم الصّالحة، ومنها: التَّوحيدُ، الّتي لا تَنْفعُكم ما دُمتُم على كُفركم، ولأهلِ الكتابِ أعمالُهم القبيحةُ، ومنها: الشِّرْكُ باللّه، التي لا تَضُرُّ المسلمينَ، بل وَبالُها على أصحابِها من المُشركينَ[2].

ومن فوائدِ العطفِ بيانُ المفاصلةِ بين الفريقين، فأعمالُ المؤمنين لا تتقاطع مع أعمالِ أهل الكتابِ في أيِّ شكلٍ، ما دام الاعتقادُ مختلفًا.

بلاغةُ الفاصلةِ: ﴿وَنَحْنُ لَهُۥ مُخْلِصُونَ﴾:

فائدةُ القصرِ بيانُ العبادةِ الحقَّةِ والتَّعريضُ بأهل الكتاب

جاءتِ الفاصلةُ القرآنيَّةُ: ﴿وَنَحْنُ لَهُۥ مُخْلِصُونَ﴾ للرَّدِّ على أهلِ الكتابِ والتَّعريض بهم بأسلوبِ القَصْرِ، بطريقَين:

الأوّل: تقديمُ ما حقُّه التّأخيرُ، فقد قَدَّمَ شِبه الجُملةِ من الجَارِّ والمجرور: ﴿لَهُۥ﴾ على عامله: ﴿مُخْلِصُونَ﴾، والأصلُ: ونحنُ مُخلصونَ له مُوَحِّدونَ، نَخُصُّه بالإيمانِ والطّاعةِ دونَكم، فأفادَ تَخصيصَ الإخلاصِ للّه تعالى وحدَه، وقصرَه عليه دونَ غيرِه، وفي التَّقديمِ أيضًا: مُراعاةٌ للفَواصل، والاهتمامُ بالمُقَدَّمِ[3].

الآخر: اسميَّةُ الجُملةِ، فقد أفادَت القَصْرَ أيضًا، لِدَلالةِ الجُملةِ الاسميَّةِ على ثَباتِ الوَصْفِ ودوامِه لهم، والمُتَمثِّل بالإخلاصِ للّه تعالى في العباداتِ والمُعاملاتِ، وفي هذا: تَعريضٌ بأهلِ الكتابِ الّذين أشركوا باللّه تعالى، وَرَدٌّ عليهم بأنَّهم بعيدونَ عن العبادةِ الصَّحيحةِ، الّتي تَتَطَلَّبُ منهم توحيدَ اللّه تعالى وحدَه، وإخلاصَ النِّيَّةِ لَهُ.

---

(1) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 1/746.

(2) الرّازيّ، مفاتيح الغيب: 4/74.

(3) البيضاويّ، أنوار التَّنزيل: 1/109.

جمالُ الاتِّساقِ في فواصِلِ الآياتِ:

الفاصِلةُ مظهرٌ من مظاهر إعجازِ القرآنِ، وقوّةِ اتّساقِه

مِنْ مقاصدِ الخطابِ القرآنيِّ وجَماليّاتِه: أنْ تُخْتَمَ الآيةُ بفاصلةٍ تُناسِبُ معناها، لتَقريرِ هذا المعنى وتأكيدِه في أذهان السَّامعينَ، عن طريقِ التَّعبيرِ بالتَّذْييلِ، وهو نوعٌ مِن أنواعِ الإطنابِ البلاغيِّ، وهوَ ما كان في فواصِلِ عَدَدٍ منِ الآياتِ السّابقاتِ، الّتي تَشابَهَتْ في التَّركيبِ، مع اختلافِ بعضِ ألفاظِها.

فقد جاءتْ الفواصلُ: ﴿وَنَحۡنُ لَهُۥ مُسۡلِمُونَ﴾، و﴿وَنَحۡنُ لَهُۥ عَٰبِدُونَ﴾، و﴿وَنَحۡنُ لَهُۥ مُخۡلِصُونَ﴾، مناسِبَةً لسِياقها الّذي وَرَدَتْ فيه.

فقولُه تعالى: ﴿وَنَحۡنُ لَهُۥ مُسۡلِمُونَ﴾ مناسِبٌ لـ(آمنا)، أيْ: نؤمِنُ باللّه، وبما أُنزِلَ على الأنبياء، عليهم الصَّلاةُ والسَّلامُ، ونَسْتَسْلِمُ له، ونَنْقادُ لأوامره ونواهيه، وقولُه تعالى: ﴿وَنَحۡنُ لَهُۥ عَٰبِدُونَ﴾ مُلائمٌ لقوله تعالى: ﴿صِبۡغَةَ ٱللَّهِ﴾؛ لأنّها بمعنى: دِينِ اللّه، فالمَصدرُ كالفَذْلَكَةِ لما سَبَقَ، وقولُه تعالى: ﴿وَنَحۡنُ لَهُۥ مُخۡلِصُونَ﴾ مُوافِقٌ لِمَا قبلَها[1].

وإنَّ تَكرارَ هذا النَّمَطِ مِنَ الفواصِلِ، مُتَشابِهَةِ التَّركيبِ، مُتنوِّعةِ الألفاظِ، في مُواجهةِ أهلِ الكتابِ وجدالِهم، القائمِ على الباطلِ وتزييف الحقائق: جاء "لإفحامِهم، وإغلاقِ البابِ في وجوهِهم مِنْ هذه النّاحيةِ؛ إذ تَبيّنَ أنّ أصولَ هذه المِلّةِ أَمْنَعُ مِنْ أنْ تَقْبَلَ الجِدالَ في شيءٍ منها"[2]؛ لأنّ في هذه التّراكيبِ المُتشابهةِ، دَلالةً على اعتناءِ السُّورةِ بما تَتَضَمَّنُه هذه الفواصلُ المُؤكِّدةُ لمَضمونِ الآياتِ، ولسِياقِها العامِّ.

الإسلام والعبادة والإخلاص أصول القبولِ وعليها مدارُ الأمرِ

وفي هذه الفواصلِ تَكْثيفٌ لحقيقةٍ عُظمى، عالَجَها القرآنُ الكريمُ في أغلبِ سُوَرِه، وتأكيد على ركيزةٍ مُهمَّةٍ في بناءِ المُجتمعِ

(1) الألوسّي، روح المعاني: 1/396.
(2) درَّاز، النّبأ العظيم، ص: 229.

الإسلاميِّ، فهيَ - وإنِ اختَلَفَتْ ألفاظُها: ﴿مُسۡلِمُونَ﴾، ﴿عَٰبِدُونَ﴾، ﴿مُخۡلِصُونَ﴾، إلّا أنَّ مَضمونَها واحدٌ، وتُقرِّرُ حقيقةً واحدةً ثابتةً، وهي: وَحْدَةُ دِينِ اللّهِ تعالى، واطِّرادُه على أيدي رُسلِهِ جميعًا، ونَفْيُ فِكرةِ احتكارِه في أيدي أمَّةٍ أو جِنْسٍ، وبيانُ أنَّ العقيدةَ تُراثُ القلبِ المؤمنِ، لا تراثُ العَصَبيَّةِ العَمياءِ، وأنَّ وِراثةَ هذا التُّراثِ لا تَقومُ على قَرابة الدَّمِ والجِنْسِ، ولكنْ على قَرابةِ الإيمانِ، فمَنْ آمنَ بهذه العقيدةِ، ورَعاها في أيِّ جِيلٍ، ومِنْ أيِّ قَبيلٍ؛ فهوَ أحقُّ بها مِنْ أبناءِ الصُّلْبِ، وأَقرباءِ العَصَبِ.

توجيهُ القراءاتِ القرآنيَّة:

الإنكارُ على مدَّعي يهوديَّة إبراهيم بالخطاب المباشِر وبالوساطةِ

قرأَ ابنُ عامرٍ وحمزةُ والكِسَائيُّ وحفصٌ عن عاصم ورويس عن يعقوب وخلف العاشر بالتَّاءِ: ﴿أَمۡ تَقُولُونَ﴾، بصِيغةِ المُخاطَبِ، وقَرَأَ الباقونَ؛ بالياءِ: ﴿أَمۡ يَقُولُونَ﴾ بصيغةِ الغائبِ[1].

فعلى قراءةِ الخطابِ: ﴿أَمۡ تَقُولُونَ﴾ تكونُ متَّسِقَةً مع ما قبلها: ﴿أَتُحَآجُّونَنَا﴾، وما بعدَها: ﴿قُلۡ ءَأَنتُمۡ أَعۡلَمُ أَمِ ٱللَّهُ﴾، فأتى بالفعلِ على الخطابِ، عَطفًا باللَّفظِ على معنى الخطابِ في سِياق الآياتِ ﴿أَتُحَآجُّونَنَا﴾، ﴿أَمۡ تَقُولُونَ﴾، ﴿قُلۡ ءَأَنتُمۡ﴾[2].

وعلى هذه القراءةِ: تكونُ ﴿أَمۡ﴾ مُتَّصلَةً، مُعادِلةً للهمزةِ في قوله: ﴿أَتُحَآجُّونَنَا﴾، أي: أتُحَاجُّونَنا في اللّه، أم تقولون: إنّ هؤلاءِ الأنبياءَ على دينِكم، فالاستفهامُ عن وقوعِ أحدِ هذَين الأمرَين: الـمُحاجَّةِ في اللّه تعالى، والادِّعاءِ على إبراهيمَ ﵇، ومَنْ ذُكِرَ معه، أنَّهم كانوا يهودًا أو نصارى؛ أيْ: أيُّ الأمرَين وقع منكم؟![3].

وعلى قراءةِ الغائبِ: ﴿أَمۡ يَقُولُونَ﴾، يكونُ الكلامُ الْتفاتًا مِنَ الخطابِ إلى الغيبة، والضَّميرُ لناسٍ مَخصوصِين، وعلى هذه القراءةِ: تكونُ ﴿أَمۡ﴾ مُنقطعةً، تُقدَّرُ بـ (بل) و(الهمزة) الدَّالَّةِ على الإنكار والتَّوبيخِ، أيْ: بل أيقولون إنّ هؤلاءِ الأنبياءَ على دينِكم،

(1) ابن الجزري، النشر، 2، 223.

(2) ابن خالويه، الحجّة في القراءات السّبع، ص: 89.

(3) الزَّمخشريّ، الكشَّاف: 1/197.

وكأنَّه أَنْكَرَ عليهم مُحاجَّتَهم في اللّه تعالى، ونِسْبَةَ أنبيائِه لليهوديَّة والنَّصرانيَّة، وقد وَقَعَ منهم ما أَنْكَرَ عليهم[1]، "فَوَبَّخَهم اللّهُ تعالى على الكلام في مَعرِضِ الاستفهام، على سبيلِ الإنكارِ، والغَرَضُ منه: الزَّجْرُ والتَّوبيخُ، وأَنْ يُقَرِّرَ اللّهُ في نفوسهم أَنَّهم يَعلمونَ أَنَّهم كانوا كاذِبينَ فيما يَقولون"[2].

والقراءتان مرادتان، فالآية تُنكرُ على أهلِ الكتابِ المحاجَّة وادِّعاءَ يهوديَّة إبراهيم عليه السلام ونصرانيَّته على القراءتين، إحداهما جاءتْ خطابًا للقوم مباشرةً، والثَّانية جاءتْ غيبةً، تعليمًا للمؤمنين الردَّ عليهم، ونكتةُ القراءتين، أنَّ إحداهما جاءت خطابًا للسَّامعين مباشرةً، والأخرى لمن وصلته الآيةُ بالوساطة.

إيثارُ اسْتِعمالِ الفِعلِ المُضَارِعِ: ﴿تَقُولُونَ﴾:

محاولةُ الانتماءِ إلى أهلِ الحقِّ ادِّعاءً دون متابعةٍ نهجٌ فاسدٌ ومسلكٌ باطل

آثر النَّظم القرآنيُّ استعمالَ الفعلِ المضارعِ ﴿تَقُولُونَ﴾، دون (قالوا) في قوله تعالى: ﴿أَمْ تَقُولُونَ إِنَّ إِبْرَٰهِـۧمَ وَإِسْمَٰعِيلَ﴾؛ للدّلالة على اسْتمرارِ تَقَوُّلِهم على الأنبياءِ وافترائهم عليهم، وتَجَدُّدِه كلَّ مرَّةٍ مِنْ غيرِ انقطاعٍ منهم، ممَّا يَزيدُ مِنْ تَقبيحِ فعلِهم وتَشنيعِه؛ لأنَّ الفعلَ المضارعَ يَدُلُّ على التَّجدُّدِ والاستمرارِ، فهو فعلٌ دائمٌ، وهذا ما يدعو إلى الاسْتنكارِ والتَّعجُّبِ من فعلِهم المُستمرِّ بالجِدالِ بالباطلِ، وهو يدلُّ على عنادِهم في كفرهم، وعتوّهم في كذبهم، وهو يكشفُ عن موقفِهم الثَّابتِ وزعمهم الآثم في ادّعاء يهوديّة إبراهيم ونصرانيّته، وهم بذلك يكشفون خسارتَهم، وأنَّهم ينتسبون لإبراهيم عليه السلام لتقويةِ موقفِهم، ولردفِ مسيرتهم، وهذا شأنُ كلِّ مبطلٍ، أن يتمسَّك بأهل الحقِّ السَّابقين، نعوذ باللّه من الخذلان المبين، وفي التَّعبير بالفعل المضارع إشعارٌ باستمرار منهجهم الباطلِ، وأنَّ كلَّ من يدّعي الانتسابَ إلى إبراهيم دون الالتزام بمنهج محمَّدٍ صلى الله عليه وسلم فقد تابع اليهود والنَّصارى في ضلالِهم، وافترى على إبراهيم عليه السلام الإثم المبين.

---

(1) أبو حيَّان، البحر المحيط: 1/660.

(2) الرَّازيّ، مفاتيح الغيب: 4/77.

ترتيبُ ذكر الأنبياء على طريقة التَّدلّي:

مراعاةُ ترتيبِ الزَّمانِ هي الأصلُ ما لم ترِد نكتةٌ خلافَ ذلك

راعى النَّظمُ التّرتيب الزّمانيّ في قولِه تعالى: ﴿أَمۡ تَقُولُونَ إِنَّ إِبۡرَٰهِـۧمَ وَإِسۡمَٰعِيلَ وَإِسۡحَٰقَ وَيَعۡقُوبَ وَٱلۡأَسۡبَاطَ كَانُواْ هُودًا أَوۡ نَصَٰرَىٰ﴾ على طريقة التَّدلّي؛ بذِكرِ الأقدم ثُمَّ الّذي يَليه، فقد ذَكَرَ أوّلًا: ما أُنزِلَ على سيِّدنا إبراهيم، لفَضلِه وأُبُوَّته، ثمَّ ذَكَرَ ابْنَهُ إسماعيل، الابنَ البِكْرَ الأكبرَ على أخيه إسحاق، وقَدَّمَ إسحاقَ على ابنِه يعقوب، وقَدَّمَ يعقوبَ على ولَدِه ﴿وَٱلۡأَسۡبَاطِ﴾ - وقد مَرَّ بيانُه -، وهذا التَّرتيبُ مَقصودٌ في هذا السِّياقِ، إذ جاءَ بترتيبِ الأنبياءِ حَسَبَ التَّرتيبِ الزَّمنيِّ لهم، فَضلًا أنَّ فيه دَلالةً على دُخول الأنبياءِ بعدَ سيِّدِنا إبراهيمَ، إذ هم داخلونَ في شَريعته.

والأمرُ نفسُه في تقديم اليَهوديَّة على النَّصرانيَّةِ، في قوله تعالى: ﴿كَانُواْ هُودًا أَوۡ نَصَٰرَىٰ﴾، فاليهوديَّة أقدم زمنًا من النّصرانية، وهذا هو الأصلُ في التَّرتيبِ، ما لم تكن ثمّة نكتةٌ تقتضي التَّرتيب الموضوعيَّ، فتُلاحظُ من السِّياقِ.

تقديمُ (إبراهيم) على الأنبياء باعتبارِه الأصلَ المُفترى عليه

ونُكتَةُ تقديم نبيِّ الله إبراهيم عليه السلام على الأنبياء كلِّهم: الاهتمامُ به، فهو مِحورُ الجدالِ، لأنَّه عليه السلام كان قبل نزولِ التَّوراةِ والإنجيل، أي: قبل تحريف دين موسى - وهو الإسلام - إلى اليهوديَّة، ومثله دين عيسى إلى النَّصرانيَّة، فكانَ البَدْءُ به تَعجيبًا مِنْ أمرِ جدالِهم فيه، وإنكارًا عليهم، وتوبيخًا لهم، وبيانَ كَذِبهم وافترائِهم، وذلك على سَنَنِ العربِ في تقديم الأهمِّ، حَسَبَ المَوقف، وهذا ما يُقوّيه مَجيءُ ﴿إِنَّ﴾ مُجرّدةً قبل اسمه، عليه السلام ﴿إِنَّ إِبۡرَٰهِـۧمَ﴾، لإنكارِ مَقولتِهم المَحكيّةِ والتَّعجيبِ منها، ليَتَسلَّطَ الإنكارُ على تَماديهم في الضّلالِ وتأكيدِهم ما يذهبون إليه من دعاوى كاذبةٍ، فقد حكى القرآنُ في مواضع عِدَّة، زَيْفَ ادِّعائِهم، وبَيَّنَ كَذِبَهم، مِنْ ذلك قولُه تعالى: ﴿يَـٰٓأَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ لِمَ تُحَآجُّونَ فِيٓ إِبۡرَٰهِيمَ وَمَآ أُنزِلَتِ ٱلتَّوۡرَىٰةُ وَٱلۡإِنجِيلُ

﴿إِلَّا مِنۢ بَعۡدِهِۦٓۚ أَفَلَا تَعۡقِلُونَ ٦٥ هَٰٓأَنتُمۡ هَٰٓؤُلَآءِ حَٰجَجۡتُمۡ فِيمَا لَكُم بِهِۦ عِلۡمٞ فَلِمَ تُحَآجُّونَ فِيمَا لَيۡسَ لَكُم بِهِۦ عِلۡمٞۚ وَٱللَّهُ يَعۡلَمُ وَأَنتُمۡ لَا تَعۡلَمُونَ ٦٦﴾ [آل عمران: 65-68].

براعةُ الاسْتِفهامِ التَّقريريِّ في قوله: ﴿ءَأَنتُمۡ أَعۡلَمُ أَمِ ٱللَّهُۗ﴾:

ردُّ الأمورِ إلى نصابِها بإثارةِ الفكرِ والعقلِ منهجُ القرآنِ في تقريرِ الحقائقِ

لـمَّا كانت هذه الآياتُ الكريماتُ تُواجِهُ أهلَ الكتابِ في مذهبِهم الباطلِ فيما ذهبوا إليه، كان الاستفهامُ يَتكرَّرُ مَرَّةً بعد أخرى، لبيانِ زَيفِ اعتقادِهم؛ لتكونَ العقيدةُ بذلك سَدًّا منيعًا في وجوههم، فقال تعالى مُخبرًا عن أمرٍ غيبيٍّ سابقٍ لزَمَنِ الخطاب: ﴿ءَأَنتُمۡ أَعۡلَمُ أَمِ ٱللَّهُۗ﴾، وأَرْدَفَهُ مباشرةً باستفهامٍ ثانٍ: ﴿وَمَنۡ أَظۡلَمُ مِمَّن كَتَمَ شَهَٰدَةً عِندَهُۥ مِنَ ٱللَّهِۗ﴾.

وقد خرج الاستفهامُ الأوَّلُ ﴿ءَأَنتُمۡ أَعۡلَمُ أَمِ ٱللَّهُۗ﴾: إلى معنى التَّقريرِ والتَّوبيخ، فقرَّر أنَّ اللّٰه تعالى أعلمُ منهم ومِنْ غيرِهم، في الأمور كلِّها، حاضرِها وغائبِها، وأنَّ دَعواهم فاسدة[1].

وهذا ما يُقرِّرُه حذفُ جوابِ الاستفهام، أي: "اللّٰهُ أعلمُ، وخبرُهُ أَصدقُ، وقد أَخبَرَ في التَّوراة والإنجيل، وفي القرآن على لسانِ محمَّد ﷺ أنَّهم كانُوا مُسلِمين مُبَرَّئِين عن اليهوديَّة والنَّصرانيَّة"[2]، وهذا كقوله تعالى: ﴿يَٰٓأَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ لِمَ تُحَآجُّونَ فِيٓ إِبۡرَٰهِيمَ وَمَآ أُنزِلَتِ ٱلتَّوۡرَىٰةُ وَٱلۡإِنجِيلُ إِلَّا مِنۢ بَعۡدِهِۦٓۚ أَفَلَا تَعۡقِلُونَ﴾ [آل عمران: 65].

وقد استُفِيدَ مِنْ هذا الاستفهامِ التَّقريريِّ: أَنَّ اللّٰه تعالى قد أَعلَمَهم بأَمرٍ، جهلَتْهُ عامَّتُهم، وكَتَمَتْهُ خاصَّتُهم، ولذلكَ قالَ بعدَها: ﴿وَمَنۡ أَظۡلَمُ مِمَّن كَتَمَ شَهَٰدَةً عِندَهُۥ مِنَ ٱللَّهِۗ﴾[3].

ولأبي السُّعودِ رأيٌ في هذا الاستفهامِ صاغه بقولِه: "إعادةُ الأمرِ ليستْ لـمُجرَّدِ تأكيدِ التَّوبيخِ وتشديدِ الإنكارِ عليهم؛ بل للإيذانِ بأنَّ ما بعدَه ليس مُتَّصلًا بما قبلَه، بلْ بينَهما

(1) ابن عطيّة، المحرّر الوجيز: 1/217.
(2) الرَّازيّ، مفاتيح الغيب: 4/77.
(3) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 1/747.

كلامٌ للمُخاطَبين، مُترتِّبٌ على ما سَبَقَ، مُسْتَتْبِعٌ لما لَحِقَ، قد ضُرِبَ عنه الذِّكرُ صَفحًا لظُهوره، وهو تصريحُهم بما وُبِّخوا عليه، من الافتراء على الأنبياءِ ﷺ، أيِّ: كذِبُهم في ذلك، وبَكَّتَهُم قائلًا: إنَّ الله يَعلمُ وأنتم لا تعلمون، وقد نَفَى عن إبراهيمَ ﷺ كِلا الأمرَين، حيثُ قال: ﴿مَا كَانَ إِبْرَٰهِيمُ يَهُودِيًّا وَلَا نَصْرَانِيًّا﴾، واحتَجَّ عليهم بقوله تعالى: ﴿وَمَآ أُنزِلَتِ ٱلتَّوْرَىٰةُ وَٱلْإِنجِيلُ إِلَّا مِنۢ بَعْدِهِۦٓ﴾، وهؤلاءِ المعطوفونَ عليه - ﷺ - أتْباعُه في الدِّين وِفاقًا، فكيفَ تقولونَ ما تقولونَ، سبحانَ الله عمَّا تصفونَ"[1].

غرضُ الاستفهامِ في قولِه: ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن كَتَمَ شَهَٰدَةً﴾:

كتمانُ الشَّهادةِ من أعظمِ أنواعِ الظُّلمِ، وأقبحه سلوكًا

جاء الاستفهامُ في قوله تعالى: ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن كَتَمَ شَهَٰدَةً عِندَهُۥ مِنَ ٱللَّهِ﴾، بعدَ الاستفهامِ الأوّلِ ﴿ءَأَنتُمْ أَعْلَمُ أَمِ ٱللَّهُ﴾، ليُقرِّرَ معناه ويُؤكِّدَه، وغرضُه النَّفي، مُبالغةً في وصفِ إجرامِهم وكذبِهم، وزيفِ ادِّعائهم، أي: لا أحدٌ أشدَّ ظُلمًا في كِتمان الشّهادة، ممَّنْ كَتَمَ شهادة الله تعالى[2]، مِنْ أنَّ إبراهيمَ وإسماعيلَ وإسحاقَ ويعقوبَ والأسباطَ كانوا مُسلمين، أو كَتَمَ ما جاء في كُتُبِهم من العِلم بصِفاتِ رسولِ الله ﷺ، وإثباتِ نُبوَّته[3].

وممَّا زادَ مِنْ بيانِ شِدَّةِ جُرْمِهم بِكتمانِ الشَّهادةِ: أنَّها جاءتْ نكرةً؛ لتَعظيمها وتفخيمها، لأنَّها ﴿مِنَ ٱللَّهِ﴾، فهي شهادتُه تعالى، وهذا زادَ مِنْ تَجريمِهم بكِتمان الشَّهادةِ، وتَفظيعِ حالِهم.

الكناية والتَّعريض في الاستفهام: ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن كَتَمَ شَهَٰدَةً﴾:

أفادَتْ الجملةُ الاستفهاميَّةُ في قولِه تعالى: ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن كَتَمَ شَهَٰدَةً عِندَهُۥ مِنَ ٱللَّهِ﴾ الكنايةَ والتَّعريضَ، فهذا الاستفهامُ: جاء كنايةً عن عدَمِ اغترارِ المسلمينَ بقول أهل الكتابِ، من اليهود والنَّصارى: إنَّ إبراهيم وأبناءَه كانوا هودًا أو نصارى، وليس هذا

---

(1) أبو السُّعود، إرشاد العقل السَّليم: 170-1/169.

(2) ابن عطيّة، المحرّر الوجيز: 1/217، والرَّازيّ، مفاتيح الغيب: 4/77، وأبو حيَّان، البحر المحيط: 1/664.

(3) ابن جرير، جامع البيان: 126-125، والواحديّ، الوجيز، ص: 134.

احْتجاجًا عليهم[1]، وفيه تعريضٌ باليهود والنَّصارى بكِتمانِهم شهادةَ اللّٰه لنَبيِّه محمَّدٍ ﷺ بالنُّبوَّة والرِّسالة في كتبهم[2].

دلالةُ فَاصِلَةِ الآيةِ الكَريمَةِ: ﴿وَمَا ٱللَّهُ بِغَٰفِلٍ عَمَّا تَعۡمَلُونَ﴾:

الخبرُ المرادُ به التَّهديدُ، أشدُّ من التَّهديدِ المباشِرِ

مِنْ أوجهِ التَّناسُبِ في الآية الكريمة خَتْمُها بقوله تعالى: ﴿وَمَا ٱللَّهُ بِغَٰفِلٍ عَمَّا تَعۡمَلُونَ﴾، فهذه الفاصلةُ جاءتْ مُؤكِّدةً لِما سَبَقَها من ادِّعاءاتٍ باطلةٍ، وتحريفٍ للحقائقِ وتزويرِها، وكِتْمانٍ للشَّهادةِ.

فجاءت هذه الفاصلةُ لتَرْبيةِ المَهَابَةِ عندَ المُخاطبِين، وهي خبرٌ مُستعمَلٌ في التَّهديد والوعيدِ الشَّديدِ لأهلِ الكتابِ من اليهود والنَّصارى، الّذين يَكتُمون ما أُنْزِلَ إليهم من العِلم، بمُجازاتِهم على ذلك، فاللّٰه تعالى ليس بِسَاهٍ عنهم، بل هو مُطَّلِعٌ على أعمالِهم، وقد أحصاها صغيرَها وكبيرَها، لا تَخفَى عليه منهم خافيةٌ، ولنْ يَضيعَ أمرُهم سُدَىً[3].

فائدةُ تَكرار آية: ﴿تِلۡكَ أُمَّةٞ قَدۡ خَلَتۡۖ لَهَا مَا كَسَبَتۡ﴾:

التَّكرار تحقيقٌ للمضمون، وتأكيدٌ للمعنى، بغرضِ إثباتِه لمن يُجادِل فيه

جاءَ قولُه تعالى: ﴿تِلۡكَ أُمَّةٞ قَدۡ خَلَتۡۖ لَهَا مَا كَسَبَتۡ وَلَكُم مَّا كَسَبۡتُمۡۖ وَلَا تُسۡـَٔلُونَ عَمَّا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ﴾ [البقرة: 134] [البقرة: 141]، مرَّتين في أوّل الخطاب وآخره؛ لاختِلافِ السِّياقِ؛ لأنَّها وَرَدَتْ هنا إِثْرَ أمرٍ مُغايرٍ لِمَا وردت في المَوضِعِ الأوَّلِ، فكان التَّكرارُ حَسَنًا؛ لاختلافِ الأقوالِ والسِّياقِ، فقد ذُكِرَتْ في الأوَّلِ عَقِبَ ما ثَبَتَ من تقريرِ يعقوبَ عليه السلام لبَنِيه، وإقرارِهم له في قوله تعالى: ﴿أَمۡ كُنتُمۡ شُهَدَآءَ إِذۡ حَضَرَ يَعۡقُوبَ ٱلۡمَوۡتُ﴾ [البقرة: 133]، وفي المَوضِعِ الثّاني: ذُكِرَتْ بعدَ قوله تعالى: ﴿أَمۡ تَقُولُونَ إِنَّ إِبۡرَٰهِـۧمَ وَإِسۡمَٰعِيلَ وَإِسۡحَٰقَ﴾ [البقرة: 140]، ففي الأوَّلِ: نَفْيُ ما هو ثابتٌ مِنْ إقرارِ بني إسرائيلَ، وفي الثَّاني: إثباتُ

(1) الزَّمخشريُّ، الكشّاف: 1/197.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 1/748.
(3) ابن عطيَّة، المحرّر الوجيز: 1/217، وابن كثير، تفسير القرآن العظيم: 1/452.

ما هو مُنْتَفٍ، مِنْ كون إبراهيمَ وإسماعيلَ وإسحاقَ هُودًا أو نصارى، وكلُّ واحدٍ من هذَين يُوجِبُ من البراءة، ويُستَحَقُّ به غِلَظُ الوعيدِ والتَّخويفُ بالعقاب، والتَّنبيهُ على الكبيرة الّتي تحبطُ الحسناتِ مثلَ ما يُوجِبُه الآخَرُ، فلذلكَ أُعيدَ في الدَّعوى الثّانية الباطلةِ ما قَدّمَ في الدَّعوى الأولى الكاذبة[1].

قال ابنُ عَطيَّةَ: "وقوله تُعالى: ﴿تِلْكَ أُمَّةٌ﴾ الآية، كَرَّرَها عَنْ قُرْبٍ؛ لأنَّها تَضَمَّنَتْ معنى التَّهديدِ والتَّخويفِ، أيْ إذا كان أولئكَ الأنبياءُ على إمامتِهم وفَضلهم يُجازَون بِكَسْبِهم فأنتم أَحْرى، فَوَجَبَ التَّأكيدُ؛ فلذلكَ كَرَّرها، ولتَرْدادِ ذِكْرِهم أيضًا في معنىً غيرِ الأوّلِ"[2].

التَّكرارُ تحذيرٌ وزجرٌ لمن غلُظَ فهمُه

ويكونُ التَّكرارُ للمُبالغةِ في التَّحذيرِ والزَّجْرِ عمَّا هُم عليه، من الافتخارِ بالآباءِ، والاتّكالِ على أعمالِهم، فكان في تَكرارها وَعْظٌ لليهود والنَّصارى، ولكلِّ مَنْ يَتَّكِلُ على فَضْلِ الآباء وشَرَفِهم؛ أنْ لا يَتَّكلوا على ذلكَ، فكلٌّ يُؤخَذ بعَملِه، ولا ينفعُه غيرُه[3].

وللتّأكيدِ و"زِيادةِ رُسوخِ مَدْلوله في نفوسِ السَّامعين، اهتمامًا بما تَضَمَّنَه؛ لكَونِه معنًى لم يَسبِقْ سماعُه للمُخاطَبِين، فلم يُقتنَع فيه بمرَّةٍ واحدةٍ"[4].

مناسبةُ الآيةِ الخاتمةِ في المحاجّةِ للسِّياقِ:

قوَّةُ الاتِّساقِ الموضوعيّ مظهرٌ من مظاهرِ الإعجازِ

خُتِمَتْ آياتُ المُحاجَجَة بقوله تعالى: ﴿تِلْكَ أُمَّةٌ قَدْ خَلَتْ لَهَا مَا كَسَبَتْ وَلَكُم مَّا كَسَبْتُمْ وَلَا تُسْـَٔلُونَ عَمَّا كَانُواْ يَعْمَلُونَ﴾؛ لبيانِ "أنَّ تلك أمَّةٌ قد خَلَتْ مُنفرِدةً بعَمَلِها، كما أنتم كذلكَ، وأنَّكم غيرُ مَسؤولِين عمَّا عَمِلُوه، وجاءتْ هذه الجُمَلُ مِن ابتداءِ ذِكْرِ إبراهيمَ إلى انتهاءِ الكلامِ فيه، على اختلافِ مَعانيه، وتَعَدُّدِ مَبانيه، كأنَّها

(1) الإسكافيّ، دُرّة التَّنزيل، ص: 297-296، وابن كثير، تفسير القرآن العظيم: 1/452.
(2) ابن عطيَّة، المحرّر الوجيز: 1/217.
(3) البيضاويّ، أسرار التَّنزيل: 1/110.
(4) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 1/748.

جملةٌ واحدةٌ، في حُسْنِ مَساقِها، ونَظْمِ اتِّساقِها، مُرْتقيةً في الفصاحةِ إلى ذِرْوةِ الإحسانِ، مُفصِحَةً أنَّ بلاغتَها خارجةٌ عن طبْعِ الإنسانِ، مُذَكِّرةً بقوله تعالى: ﴿قُل لَّئِنِ ٱجْتَمَعَتِ ٱلْإِنسُ وَٱلْجِنُّ عَلَىٰٓ أَن يَأْتُوا۟ بِمِثْلِ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ﴾ [الإسراء: 88]"[1].

غرضُ التَّقديمِ في قوله: ﴿لَهَا مَا كَسَبَتْ وَلَكُم مَّا كَسَبْتُمْ﴾:

المُكَلَّفُ مُحاسَبٌ على أعمالِه، ولا يتأثَّرُ بعملِ آبائه أو تقصيرِهم

قُدِّمَتْ شِبهُ الجملةِ ﴿لَهَا﴾ في قولِه تعالى: ﴿لَهَا مَا كَسَبَتْ وَلَكُم مَّا كَسَبْتُمْ﴾: على الاسم الموصولِ المبتدأِ وصِلَتِه ﴿مَا كَسَبَتْ﴾، وقُدِّمَ شِبْهُ الجُملةِ ﴿لَكُم﴾ على الاسم الموصولِ المبتدأِ وصِلَتِه ﴿مَّا كَسَبْتُمْ﴾؛ لإفادةِ القَصْرِ، أي: قصرِ أعمالِ كلِّ فريقٍ من الفريقَين عليه، وتخصيصِها به، وفيه دَلالةٌ على أنَّ عَمَلَ الإنسانِ وكَسْبَه هو أساسُ الأمرِ، وبه العِبرةُ، وأنَّ الانتسابَ للسَّابقين الفاضلين لا يُقدِّمُ ولا يُؤخِّر في القبولِ، فالأمرُ مرهونٌ بعملِ كلِّ عاملٍ.

الفُرُوقُ المُعْجَمِيَّةُ:

الحِجاج والمجادلة:

الغرض في الحِجاج ظهور الحجّة، وفي المجادلة الرّجوع عن المذهب

وَرَدَ الحِجاجُ في قوله تعالى: ﴿قُلْ أَتُحَآجُّونَنَا فِى ٱللَّهِ وَهُوَ رَبُّنَا وَرَبُّكُمْ﴾، وواضِحٌ مِنْ أَصْلِ اشتقاقِه، وهو (الحُجّة) أنَّ الغرضَ منه: ظُهورُ الحُجَّةِ.

كما وَرَدَ الجِدال في قوله تعالى: ﴿ٱدْعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِٱلْحِكْمَةِ وَٱلْمَوْعِظَةِ ٱلْحَسَنَةِ وَجَٰدِلْهُم بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ﴾ [النحل: 125]، و هو مُشْتَقٌّ من الجَدَالَةِ: الأرض، والجِدْلُ: -بالكسر والفتح: كُلُّ عَظْمٍ مُوَفَّرٍ كما هو، لا يُكْسَرُ ولا يُخْلَطُ به غيرُه، والجَديلُ: حَبْلٌ مَفْتولٌ، فالمُجادَلةُ: الْتِفافُ كُلٍّ على الآخَرِ بإصْرارٍ[2].

(1) أبو حيَّان، البحر المحيط: 665-1/664.

(2) جبل، المعجم الاشتقاقيّ المؤصَّل: (جدل).

والغرضُ من الجدالِ أو المُجادَلَة: بَذْلُ الجُهْدِ العقليِّ في صَرْفِ الطَّرَفِ الآخَرِ عَنْ رأيِهِ أو مَذْهبِه، كما في قِصَّةِ المُجادِلة.

وإيثارُ التعبير بالمُحاجَّة في قوله: ﴿قُلۡ أَتُحَآجُّونَنَا فِي ٱللَّهِ﴾ لأنَّه أَنْسَبُ للسِّياقِ؛ حيث إنَّه يُنكِرُ عليهم مُحاجتَه في ما ليس لهم به علمٌ، وادِّعائِهم في اللّٰهِ، أَيْ: في دِينه، أنَّ دينَه الحقَّ اليهوديَّةُ والنَّصرانيَّةُ، بل وَبَنَوا على هذا الادِّعاءِ، أنَّهم وحدَهم أصحاب الجنَّةَ.

الكِتمان والإخفاء:

الكِتمان أنسب في الدِّلالة على حبس ما لا يقوى على إخفائه

وَرَدَ كِتمانُ الشّهادةِ في قوله تعالى: ﴿وَمَنۡ أَظۡلَمُ مِمَّن كَتَمَ شَهَٰدَةً عِندَهُۥ مِنَ ٱللَّهِۗ وَمَا ٱللَّهُ بِغَٰفِلٍ عَمَّا تَعۡمَلُونَ﴾.

كما وَرَدَ الإخفاءُ في قوله تعالى: ﴿يُخۡفُونَ فِيٓ أَنفُسِهِم مَّا لَا يُبۡدُونَ لَكَۖ﴾ [آل عمران: 154].

فالكِتمانُ يكونُ بالسُّكوتِ عَنْ ذِكْرِ المعنى، ويَدورُ معناه: حَولَ مَنْعِ تَسَرُّبِ ما يَمْتَلِئُ به باطنُ الشَّيءِ، بِسَدِّ مَنافِذِ خُروجِه[1]، و خَتْمُ اللَّفْظِ بصوتِ الميم يُعَبِّرُ عنه تمامًا؛ حيث انطباقُ الشَّفتَين بها، ومنه كِتمانُ الشَّهادة، وهو حَبْسُ النُّطْقِ بها، أو الإتيانُ بها على غيرِ وَجْهِها، وهو نوعٌ من الكِتْمانِ، والإخفاءُ أَعَمُّ منه، فيكون في المعاني وغيرِها[2].

وإيثارُ ذِكْرِ كِتمانِ الشّهادة في حَيِّزِ الاستفهام المَنْفيِّ؛ لأنّه الأنسبُ للسِّياقِ والأَليَقُ بالشَّهادة؛ حيثُ استعظامُ جُرْمِهم، في كِتْمانِ شهادةِ اللّٰه الخاصَّة بإسلامِ هؤلاءِ الأنبياءِ المَذكورين، أو ذِكْرِ النَّبيِّ الخاتَم ﷺ في كُتُبِهم.

فهذه الشّهادةُ تَكادُ تَنطِقُ بها ألسنتُهم؛ لو أنّهم كانوا صادقين، فمِثْلُها لا يَخفى عندَهم.

وأمّا الإخفاءُ: فلم يَقترِنْ بالشَّهادةِ إلّا تجوُّزًا، وإنْ أُخفيَتِ الشّهادةُ فإنَّ إخفاءَها ليُشيرَ إلى ضَعفِها، و إمكانِ إغفالِ الخَصمِ، وهذا لا يُناسِبُ المَقامَ.

---

(1) جبل، المعجم الاشتقاقيّ المؤصَّل: (كتم).

(2) العسكريّ، الفروق اللُّغويّة، ص: 447، و448، وباختصار.

الخُلُوّ والمُضيّ:

الخُلُوُّ أوسع معنىً من المُضيّ، وأقوى في الدَّلالة على الذّهاب و البَراح الواسع الممتدّ

وَرَدَ الخُلُوُّ بمعنى المُضيّ في قوله تعالى: ﴿تِلْكَ أُمَّةٌ قَدْ خَلَتْ﴾، كما وَرَدَ المُضيُّ في قولِه تعالى: ﴿فَأَهْلَكْنَآ أَشَدَّ مِنْهُم بَطْشًا وَمَضَىٰ مَثَلُ ٱلْأَوَّلِينَ ٨﴾ [الزخرف: 8].

إنَّ دَلالةَ (خلا) على خُلوِّ المكانِ أو الزّمانِ معنىً مَقصودٌ؛ إذْ إنَّ قولَه ﴿خَلَتْ﴾ يَدُلُّ على كونِها مَضَت، وبَقِيَ المكانُ خاليًا من بعدِهم، وأنتم تَشهدونَ على ذلك، وقد تكونُ الأُمَّةُ الّتي خَلَت أمَّةً صالحةً، كالأنبياءِ المَذكورين، وقد تكون أمّةً فاسدةً، كقوله تعالى: ﴿قَالَ ٱدْخُلُواْ فِيٓ أُمَمٍ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِكُم مِّنَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ فِي ٱلنَّارِ﴾ [الأعراف: 38].

وتدبُّرُ معنى الخُلُوّ يُضاعِفُ العِظَةَ والاعتبارَ عند المخاطَبِ؛ إذْ إنَّه يُفكِّرُ في أَحوالِ مَن مَضى، كما يَرجِعُ إلى نَفْسِه و أَحوالِه، وقد حلَّ مكانَهم بعدَ أنْ خَلا منهم المكانُ والزّمانُ، فهو الأنسَبُ للسِّياقِ؛ حيث إنَّه أَبْلَغُ في الرَّدِّ على زَعمِهم أنَّ هؤلاءِ الأنبياءَ المَذكورِين كانوا هودًا أو نصارى، فكأنّه يقولُ لهم: إنَّ هؤلاءِ أَفْضَوا إلى ما قدَّموا، فَافْتَرَيتُم عليهم، ولم تعتَبِروا.

في حينِ "أنَّ المُضيَّ خِلافُ الاستقبالِ؛ ولذا يُقال: ماضٍ ومُستقبَل"[1]، ويَدورُ معناه حولَ "نَفاذ شيءٍ ومروره بِغِلَظٍ أو قوّةٍ، في أثناء شيءٍ أو منها، كما يَمضي السَّيفُ أي: يَنْفُذُ في جسم الضّريبةِ، وكما يَنْفُذُ الفَرَسُ عَدْوًا، يَجوزُ المكانَ بقُوَّةٍ، ومنه "مَضَى في الأرض مَضاءً: نَفَذَ وخلا وذَهَبَ"[2].

(1) العسكريّ، الفروق اللُّغويّة، ص: 498.
(2) جبل، المعجم الاشتقاقيّ المؤصَّل: (مضى).

الجُزْءُ الثَّانِي

﴿۞ سَيَقُولُ ٱلسُّفَهَآءُ مِنَ ٱلنَّاسِ مَا وَلَّىٰهُمۡ عَن قِبۡلَتِهِمُ ٱلَّتِي كَانُواْ عَلَيۡهَاۚ قُل لِّلَّهِ ٱلۡمَشۡرِقُ وَٱلۡمَغۡرِبُۚ يَهۡدِي مَن يَشَآءُ إِلَىٰ صِرَٰطٖ مُّسۡتَقِيمٖ ١٤٢﴾ [البقرة: 142]

مُناسبة الآية لِما قبلها

الحديثُ عن إبراهيمَ وما جرَى مع اليهودِ والنّصارى تمهيدٌ لتحويل القِبلة

"مُنَاسَبَةُ هَذِهِ الآيَةِ لِمَا قَبْلَهَا: أَنَّ اليَهُودَ وَالنَّصَارَى قَالُوا: إِنَّ إبرَاهِيمَ، وَمَنْ ذُكِرَ مَعَهُ، كَانُوا يَهُودًا وَنَصَارَى، ذَكَرُوا ذَلِكَ طَعنًا فِي الْإِسْلَامِ؛ لِأَنَّ النَّسْخَ عِنْدَ اليَهُودِ بَاطِلٌ، فَقَالُوا: الانتِقَالُ عَنْ قِبْلَتِنَا بَاطِلٌ وَسَفَهٌ، فَرَدَّ اللَّهُ تَعَالَى ذَلِكَ عَلَيْهِمْ بِقَوْلِه: ﴿قُل لِّلَّهِ ٱلۡمَشۡرِقُ وَٱلۡمَغۡرِبُۚ﴾ الآيَةَ، فَبَيَّنَ مَا كَانَ هِدَايَةً، وَمَا كَانَ سَفَهًا"[1].

ولـمّا ذَكَرَ اللّهُ تعالى إبراهيمَ -عَلَيْهِ السَّلَامُ- وملّتَهُ في الآياتِ السّابقة، وقد بَيَّنَتْ تلك الآياتُ سفاهةَ مَنْ يرغَبُ عن مِلّة إبراهيمَ، وتحدّثتْ عن الكعبةِ وبنائها، كانت تلك الآياتُ تمهيدًا لتحويل القِبلة، وكان مِنَ الجَليّ أنّ أعداء الإسلام سيستَقبِلُون ذلك التّحَوُّلَ بالاستهزاءِ والطّعن؛ فكانت هذه الآيةُ بين الآياتِ السّابقةِ وآية تحويلِ القِبلةِ: ﴿قَدۡ نَرَىٰ تَقَلُّبَ وَجۡهِكَ﴾ [البقرة: 144].

شَرحُ المُفْرَدَاتِ:

السّفهاءُ خفيفُو العُقول فارِغوها، البَعيدون عن التّروّي

1) ﴿ٱلسُّفَهَآءُ﴾: أَصْلُ السَّفَهِ: الاضْطِرابُ والمُنَازَعَةُ[2]، وهو: نقيضُ الحِلْم[3]، والسّفهاء في سياق الآية: خفيفو العقول فارغوها، البعيدون عن التّروّي ومعرفة مقاصد الأمور وأسرارها، مع النّزوع

(1) أبو حيّان، البحر المحيط: 2/9.
(2) ابن عباد، المحيط: (سفه).
(3) الخليل، العين: (سفه).

إلى الجدال والـمُنازعة، والمرادُ: كلُّ أعداء النّبي ﷺ والإسلام، من يهود ومنافقين ومشركين؛ "فكلٌّ قد عابوا، وكلٌّ سفهاء"[1].

ومعنى السُّفَهاءِ في الآية: "جَمْعُ سَفِيهٍ، وهو الكَذّابُ البَهّاتُ الـمُعْتَمِدُ خِلافَ ما يُعْلَمُ"[2]، "الخفيف إلى ما لا يجوز له أن يخِفّ إليه"[3]، وهو "كلُّ معتقدٍ باطلاً يُسرع إلى إظهارِ معتَقَدِه، ولا يكون له ثبات"[4].

التّـولّي عن الشّيء الانصِرافُ عنه والإعـراضُ وتـركُ الاقـترابِ منه

2) ﴿وَلَّىٰهُمۡ﴾: أصل الجذر (وَلِيَ) يدُلُّ على اتّجاه إلى شيءٍ أو وِجْهةٍ: ولَّى وجهَه شطْرَ كذا: وَجَّهَهُ إليه، وولّى وجهه إلى جهة: أقبلَ عليها واتّجه نحوها، وتولّى عن الشّيء: انصرَفَ وأعرضَ عنه، ووَلَّيْتُ سَمعي كذا، ووَلَّيْتُ وَجهي كذا: أقبلتُ به عليه، قال اللّه ﷻ: ﴿فَلَنُوَلِّيَنَّكَ قِبۡلَةٗ تَرۡضَىٰهَاۚ فَوَلِّ وَجۡهَكَ شَطۡرَ ٱلۡمَسۡجِدِ ٱلۡحَرَامِۚ﴾ [البقرة: 144][5].

ولفظ ﴿مَا وَلَّىٰهُمۡ﴾ في سياقِ الآيةِ معناه: "ما عَدَلهم وصَرَفهم؟!"[6].

سُمِّيَتْ قِبْلَةً لإِقْبَالِ النَّاسِ عَلَيْهَا فِي صَلَاتِهِمْ

3) ﴿قِبۡلَتِهِمُ﴾: أَصْل (القِبلَة) يَدُلُّ عَلَى مُوَاجَهَةِ الشّيءِ لِلشَّيءِ، ومُقدَّمِ الشّيءِ الّذي يُتَّجَه إليه لـمُلاقاته، وَالقِبلَةُ سُمِّيَتْ قِبلَةً لِإقبَالِ النَّاسِ عَلَيهَا في صَلَاتِهم، وَهِيَ مُقْبِلَةٌ عَلَيْهِمْ أيضًا[7].

4) ﴿ٱلۡمَشۡرِقُ﴾: أَصْلُ مادّة (شَرَقَ) يَدُلُّ عَلَى إِضَاءَةٍ وَفَتْحٍ، مِنْ ذَلِكَ شَرَقَتِ الشَّمْسُ[8]، و(المَشْرِق) المكانُ الّذي تُشرِقُ منه الشّمسُ في نظرِ العَين، ويُستَعْمَلُ للجِهةِ الّتي تَكْنُفُ ذلك المكانَ مهما امتدّت في جانِبَيه[9].

(1) الرّاغب، تفسير الراغب: (سفه).
(2) الشوكاني، فتح القدير: 1/174.
(3) الواحدي، التفسير البسيط: 3/367.
(4) الرّاغب، تفسير الراغب: 1/327.
(5) الرّاغب، المفردات: (ولي).
(6) الواحدي، التفسير البسيط: 3/368.
(7) ابن فارس، مقاييس اللغة: (قبل).
(8) ابن فارس، مقاييس اللغة: (شرق).
(9) جبل، المعجم الاشتقاقي المؤصل: (شرق).

5) ﴿ وَٱلۡمَغۡرِبُۚ﴾: أصل مادّة (غَرَبَ) يدلّ على الانصبابِ والانحدارِ، كما تَنْصَبُّ الدَّلْوُ الموصوفة في بئرِ السّانيةِ بقُوّة لعِظَمها، أو كما ينصبُّ الماءُ فيها بقوّة لعِظمه أيضًا، ومنه "غروب الشّمسِ" بانصبابها من الأفقِ وغيابِها في أدناه، والمغرِبُ: جهة الغروب[1].

المَعْنَى الإِجْمَالِيُّ:

إخبارٌ عن حدثٍ مستقبليّ، وتعليمٌ للرّسولِ الرّدَّ عليه

يُخبِرُ اللّه تعالى أنّه "سيقولُ الجهالُ وضِعافُ العقولِ من اليَهودِ وأمثالهم، في سخريةٍ واعتراضٍ: ما الذي صرفَ هؤلاءِ المسلمين عن قبلتِهم التي كانوا يُصَلُّون إلى جهتِها أوَّلَ الإسلامِ؟ وهي بيتُ المَقدسِ، قل لهم أيّها الرّسولُ: المشرقُ والمغربُ وما بينهما ملكٌ للّهِ، فليست جهةٌ من الجهاتِ خارجةً عن ملكِهِ، يهدي مَن يشاءُ من عبادِه إلى طريقِ الهدايةِ القَويم.

وفي هذا إشعارٌ بأنَّ الشَّأنَ كلَّه للّهِ في امتثالِ أوامرِه، فحيثما وَجَّهَنا تَوَجَّهْنا".

وهذا الإخبار ضربٌ من الإعجازِ الغيبيّ الّذي تحدّى به القرآنُ الكريمُ المخاطَبين في عهدِ النّبوّة؛ حيثُ نطقَتِ الآيةُ بذلك الحدثِ قبل وُقوعِه، وقد وقعَ كما قال علّامُ الغيوبِ -جلَّ شأنُه- ولا ريبَ في كلماتِ اللّهِ تعالى[2].

سبَبُ النّزول:

عن البراءِ بن عازبٍ ﵁، قال: كان رسولُ اللّه ﷺ صلّى نَحْوَ بيت المَقْدِس ستّةَ عشرَ أو سبعةَ عشرَ شهراً، وكان رسولُ اللّه ﷺ، يحبُّ أن يُوجَّه إلى الكعبة، فأنزل اللّه: ﴿قَدۡ نَرَىٰ تَقَلُّبَ وَجۡهِكَ فِي ٱلسَّمَآءِۖ﴾، فتوجّهَ نحو الكعبةِ، وقال السّفهاءُ من النّاس -وهم اليهودُ-: ﴿مَا وَلَّىٰهُمۡ عَن قِبۡلَتِهِمُ ٱلَّتِي كَانُواْ عَلَيۡهَاۚ قُل لِّلَّهِ ٱلۡمَشۡرِقُ وَٱلۡمَغۡرِبُۚ يَهۡدِي مَن يَشَآءُ إِلَىٰ صِرَٰطٖ

(1) جبل، المعجم الاشتقاقي المؤصل: (غرب).
(2) نخبة من العلماء، التفسير الميسر: ص: 22.

﴿مُّسۡتَقِيمٖ ١٤٢﴾، فصلّى مع النّبيّ ﷺ رجلٌ، ثمّ خرجَ بعدما صلّى، فمَرَّ على قوم من الأنصار في صلاةِ العصرِ نحو بيتِ المقدس، فقال: هو يشهدُ أنّه صلّى مع رسول اللّه ﷺ، وأنّه توجَّهَ نحو الكَعبة، فتحرّفَ القومُ حتّى توجّهُوا نحوَ الكَعبةِ[1].

❁ الإيضاحُ اللُّغويُّ والبلاغيُّ:

بلاغةُ الفَصْلِ في قولِه: ﴿سَيَقُولُ ٱلسُّفَهَآءُ مِنَ ٱلنَّاسِ﴾:

جمالُ الإعجازِ الغيبيِّ القريبِ يتجلّى في سرعةِ وقوعه وقوّةِ وَقْعِه

الآيةُ مفصولةٌ[2] عمّا قبلها؛ حيثُ جاءت بدونِ عطفٍ؛ لأنّ غرضَها مختلفٌ عن غرضِ الآياتِ السّابقة؛ فهي استئنافٌ لبيان معانٍ جديدةٍ، وليست جوابًا عن سؤال مقدّر[3]، وقدَّمتِ الآيةُ خبرًا غيبيًّا يقعُ قريبًا؛ وهو مقولةُ السُّفهاءِ في شأنِ القِبلةِ: ﴿مَا وَلَّىٰهُمۡ عَن قِبۡلَتِهِمُ ٱلَّتِي كَانُواْ عَلَيۡهَاۚ﴾، وهذه الآيةُ من الإعجازِ الغيبيِّ، الذي كَشَفَ غباءَ القَومِ، إذْ لم يستطِعْ أولئك السُّفهاءُ أنْ يُمسِكوا ألسِنتَهم عن قَوْلِ السَّفاهةِ.

معرفةُ القادِمِ فيه توطينُ النَّفسِ وإعدادُ الجوابِ وإظهارُ المُعجزةِ

"فإن قلتَ: أيُّ فائدةٍ في الإخبارِ بقولهم قبلَ وقوعه؟ قلت: فائدتُهُ أنّ مفاجأةَ المكروه أشدُّ، والعلمُ به قبل وقوعه أبعدُ من الاضطرابِ إذا وقع لما يتقدّمُهُ من توطينُ النّفسِ، وأنّ الجوابَ العتيدَ قبل الحاجةِ إليه أقطعُ للخصم وأردُّ لشغبِه، وقبلَ الرَّمي يُراشُ السَّهمُ"[4]؛ فالإخبارُ بخبرٍ قبل وقوعِهِ أدْعى لتوطينِ النّفس، فإنّ مُفاجأةَ المكروه على النّفسِ أشقّ وأشدُّ، وفي هذا الإخبار أيضًا إعدادٌ وتلقينٌ للنّبيّ ﷺ ما يردُّ به على أولئك السّفهاءِ، مع ما فيه

(1) رواه البخاري، حديث رقم: (7252)، وينظر: خالد المزيني، المحرر في أسباب نزول القرآن: 1/217.
(2) الفصل من موضوعات علم المعاني، وهو قسم من مبحث الفصل والوصل، وتعريفه: "الوصل عطف بعض الجمل على بعض، والفصل تركه"، الإيضاح في علوم البلاغة: 3/97.
(3) محمد بن سعد الدّبل، دليل البلاغة القرآنية: 1/196.
(4) الزمخشري، الكشاف: 1/198.

من دلائلِ النّبوةِ؛ حيثُ فيه إخبارٌ عن غيب[1]، وقد أحسنَ الفخرُ الرّازي في تَعدادِ فوائد هذا الإخبار[2]:

أحدها: أنّه ﷺ إذا أَخبرَ عن ذلكَ قبل وقوعِه، كان هذا إخبارًا عن الغيبِ فيكونُ معجزًا.

وثانيها: أنّه تعالى إذا أخبَرَ عن ذلكَ أوّلًا ثمّ سَمِعَهُ منهم، فإنّه يكونُ تأذّيه من هذا الكلامِ أقلَّ ممّا إذا سَمِعَهُ منهم أوّلًا.

وثالثها: أنّ اللّه تعالى إذا أسمعَه ذلك أوّلًا، ثمّ ذكر جوابَه معَه فحين يسمَعُه النّبيُّ ﷺ منهم يكونُ الجوابُ حاضرًا، فكان ذلكَ أولى ممّا إذا سَمِعَهُ ولا يكونُ الجوابُ حاضرًا.

براعةُ نَظمِ الإعجازِ الغَيْبيِّ في قوله: ﴿سَيَقُولُ﴾:

تأكيدُ صدورِ المقالةِ مستقبلًا؛ ليَكُونَ ذَلِكَ مُعْجِزًا للأغبياءِ ومُحرِجًا للسُّفهاءِ

صُدِّرت الآية بحرفِ التّنفيسِ (السِّين)، وفائدةُ هذا الحَرْفِ الاستقبالُ، فهو يصرفُ زمنَ الفعلِ إلى المستقبلِ، وهذا يقتضي أنّ الحدَثَ ليس واقعًا بعدُ.

وقد استشكلَ بعضُ المفسّرين هذه الآيةَ متسائلين: كيف يُخبرُ عن قولهم ذاك ولمَّا يقع تحوُّلُ القبلةِ بعدُ؟! فأوّلُوه بالماضي، قال الرّازيُّ: "هذا اللّفظُ وإنْ كانَ للمُستقبلِ ظاهرًا لكنّه قد يُستَعملُ في الماضي أيضًا"[3]، وهذا يقتَضي أنّ الآيةَ قد نزلت بعد آية تحوّلِ القبلةِ، ثم صَدَرَ منهم ذلك القولُ، فنزلت هذه الآيةُ مصدّرةً بالسّين، لكنْ على معنى الماضي ليدلّ على استمرارِهم فيه؛ والقولانِ لهما وجهٌ من القَبولِ، وكلاهما يدلُّ على الإعجازِ الغَيْبيِّ، فعلى قولِ أنَّهم لم ينطقوا بذلك بعد فهو إعجازٌ، وعلى قول أنَّهم نطقوا بتلك المقولةِ فإنَّ الإخبارَ بإعادةِ النُّطقِ بها إعجازٌ كذلك؛ ولا فرقَ بين الأمرين في كونِه إخبارًا عن حدَثٍ مستقبلٍ؛ لذا فالسّينُ باقيةٌ

(1) القاسمي، محاسن التأويل: 1/413.

(2) الرّازي، التفسير الكبير: 4/79، وابن عادل، اللباب في علوم الكتاب: 3/3.

(3) الرّازي، التفسير الكبير: 4/79.

على دِلالتِها المُستقبليّةِ وهذه دلالةُ الظَّاهرِ؛ لتفيدَ تأكيدَ صُدورِ مقالَتِهم تلك مستقبلًا، وليس بنادرٍ في القرآن أن يخبرَ عن أقوالهم المُستقبلَة، مثل قوله ﷻ: ﴿فَسَيَقُولُونَ مَن يُعِيدُنَاۖ قُلِ ٱلَّذِي فَطَرَكُمۡ أَوَّلَ مَرَّةٖۚ فَسَيُنۡغِضُونَ إِلَيۡكَ رُءُوسَهُمۡ﴾ [الإسراء: 51].

"سَيَقُولُ، ظَاهِرٌ فِي الاستِقبَالِ، وَأَنَّهُ إِخبَارٌ مِنَ اللَّهِ تَعَالَى لِنَبِيِّهِ ﷺ، أَنَّهُ يَصدُرُ مِنْهُمْ هَذَا القَولُ فِي المُستَقبَلِ، وَذَلِكَ قَبلَ أَنْ يُؤمَرُوا بِاستِقبَالِ الكَعبَةِ، وَتَكُونُ هَذِهِ الآيَةُ مُتَقَدِّمَةً فِي النُّزُولِ عَلَى الآيَةِ المُتَضَمِّنَةِ الأَمْرَ بِاستِقبَالِ الكَعبَةِ، فَتَكُونُ مِنْ بَابِ الإِخبَارِ بِالشَّيْءِ قَبلَ وُقُوعِهِ، لِيَكُونَ ذَلِكَ مُعجِزًا؛ إِذْ هُوَ إِخبَارٌ بِالغَيْبِ، وَلِتَتَوَطَّنَ النَّفسُ عَلَى مَا يَرِدُ مِنَ الأَعدَاءِ، وَتَستَعِدَّ لَهُ، فَيَكُونُ أَقَلَّ تَأثِيرًا مِنْهُ إِذَا فَاجَأَ، وَلَم يَتَقَدَّم بِهِ عِلمٌ، وَلِيَكُونَ الجَوَابُ مُستَعِدًّا لِمُنكِرِ ذَلِكَ، وَهُوَ قَوْلُهُ: ﴿قُل لِّلَّهِ ٱلۡمَشۡرِقُ وَٱلۡمَغۡرِبُۚ﴾"(1).

دلالةُ التّعبيرِ بالمُستقبَلِ في: ﴿سَيَقُولُ﴾:

مَنهجُ الطّعنِ في الحقِّ مُستمرٌّ بقطعِ النَّظرِ عن صُورتِه

وعُبِّر بالفعلِ المضارعِ المَصروفِ للاستقبال دونَ الاسم، فلم يقل: (إنّهم لقائلون) وغيره من التّراكيب المُمكنةِ في هذا الموطنِ؛ للدّلالةِ على أنّ هذا الفعلَ سوفَ يقعُ ابتداءً ويستمرُّ ويتجدّدُ، وأنّ الطّعنَ في تحويلِ القبلةِ سيَبقَى موضوعًا مطروقًا على ألسنةِ السُّفهاءِ وأشباهِهم من أهلِ الشُّبَه والفِتَن، قال ابن عطيَّة: "وجعلُ المستقبلِ موضعَ الماضي في قوله: ﴿سَيَقُولُ﴾ دلالةٌ على استدامةِ ذلك، وأنّهم يستَمرّون على ذلك القولِ"(2).

فائِدةُ اختيارِ لفظِ ﴿ٱلسُّفَهَآءُ﴾:

كلُّ من يَسْتهزئُ بالقرآنِ فهو داخِلٌ في السَّفاهةِ لا يُغادِرُها إلّا بتوبةٍ

اختلفَ المُفسِّرون في بيانِ المرادِ بالسّفهاءِ على ثلاثةِ أقوالٍ: المُشركون، والمُنافقون، واليَهود(3)، والصَّحيحُ أنّهم جميعًا

(1) أبو حيّان، البحر المحيط: 2/9.
(2) ابن عطية، المحرر الوجيز: 1/218.
(3) الرّازي، التفسير الكبير: 4/79.

مشمولُون بذلك، ولا فائدةَ في بيانِ الفئةِ الّتي قالت ذلك؛ فالقرآنُ وصفَهُم بالسّفاهَةِ، وهي شاملةٌ لكلِّ من استهزأَ بهذا التّحوُّل بقطعِ النّظرِ عن فِئَتِه وعقيدتِه، فإنَّه "يدخلُ فيه الكلُّ؛ لأنّ لفظَ السّفهاءِ لفظُ عُموم دَخَلَ فيه الألفُ واللّامُ، وقد بينّا صلاحيَّته لكلِّ الكفّارِ بحَسبِ الدّليل العقليّ، والنّصُّ - أيضًا - يدلُّ عليه، وهو قولُه: ﴿وَمَن يَرۡغَبُ عَن مِّلَّةِ إِبۡرَٰهِـۧمَ إِلَّا مَن سَفِهَ نَفۡسَهُۥ﴾ [البقرة: 130]"(1).

فائدةُ تعريفِ: ﴿ٱلسُّفَهَآءُ﴾:

السُّفهاءُ صِنفٌ معروفٌ، عُنوانُهم الاعتداءُ على الشَّرعِ

جاءَ لفظُ ﴿ٱلسُّفَهَآءُ﴾ معرفةً؛ للإيماءِ بأنّ هؤلاء القائلين مَعروفٌ دأبُهم معهودٌ شأنُهم، وأنّهم قد شُهروا به، حتّى باتت صفةُ السّفه كأنّها خاصّةٌ بهم، يتعرّفُون بها لا تفارِقُهم؛ فهم صِنْفٌ مُعيَّنٌ من النّاس، وفئةٌ معروفةٌ في المجتمعِ، وهم لا يقتصِرون على ملَّةٍ أو ديانةٍ أو جنسٍ بشريٍّ، إذ لفظُ السُّفهاء "يدخلُ فيه الكلُّ؛ لأنَّ لفظَ السّفهاءِ لفظُ عُموم، ودَخَلَ فيه الألفُ واللّامُ"(2)، والسُّفهاءُ موجودون في كلِّ زمنٍ، وفي كلِّ مكان، يظهرون في أوقاتٍ، وينغمسون في أخرى، عنوانُهم الاعتداءُ على الشَّرعِ، والقَوْلُ في القرآنِ جهلًا وحمقًا، فالسَّفيهُ والرُّوَيْبِضَةُ سواء.

فائدةُ قيدِ العمومِ ﴿مِنَ ٱلنَّاسِ﴾:

الحذَرُ من كلِّ سفيهٍ مطلوبٌ، والخطابُ يَصدُقُ على مَنْ وافقَهُم في كلِّ زمانٍ ومكانٍ

سبَقَ بيانُ أنَّ المقصودَ بالسُّفهاءِ كلُّ من أتى اعتداءً بقولِه على الشَّرعِ، من المنافقين واليهودِ والمشركين، ويدخلُ كذلك غيرُهم ممَّن سلك مسلَكَهم؛ لذلك أتى بقيدِ: ﴿مِنَ ٱلنَّاسِ﴾، ولم يقل: من الّذين كفَرُوا أو من أهلِ الكِتابِ؛ ليَشْمَلَ الكلامُ كلَّ من ينطبق عليه الكلامُ

(1) الرّازي، التفسير الكبير: 4/79.

(2) ابن عادل، اللباب في علوم الكتاب: 3/4.

من النَّاسِ جميعًا، كالمنافقين مثلًا، وكلّ من وافقهم[1]، وفائدةُ ذلك أن يحذَرَ المؤمِن من كلِّ من يأتي بمثلِ كلام هؤلاء، سواءٌ في أمرِ القبلةِ أو غيرِها.

وعليه فإنّ إظهارَ وصفِهم بأنّهم من النّاس يفيدُ المبالغةَ بصفةِ السَّفَه، وبيانُهُ: إنّ الإنسانَ مهما اتّصفَ بالسّفاهة والعَتَهِ والطّيش، فإنّه لا يخرجُ عن كونِهِ من النّاس، فكان يمكنُ أن يقالَ في غير القرآنِ: (سيقولُ السّفهاء ما ولّاهُم عن قبلتِهم)، ولكنّه وصفَهم بما هو معلومٌ؛ للتّنبيه على بلوغِهم الحدَّ الأقصى من السّفاهةِ بحيثُ لا يوجدُ في النّاس سفهاءُ غيرُهم، فإذا قُسِّمَ النّاسُ أصنافًا، كان هؤلاءِ صنفَ السّفهاءِ، فيفهَمُ أنّه لا سَفيهَ غيرُهم، وهذا على وجهِ المبالغةِ، والمعنَى: أنّ كلَّ مَنْ صَدَرَ منه هذا القولُ هو سَفيهٌ، سواء كان القائلَ اليهودُ، أو المشركون من أهل مكّة، أو المنافقون[2].

نُكتةُ تَخصيصِ السّفهاءِ بكونِهم ﴿مِنَ ٱلنَّاسِ﴾:

التَّهكُّمُ بالسُّفهاءِ؛ بتنزيهِ الجماداتِ والحيواناتِ عنِ الوقوعِ في السَّفاهةِ

سبقَ في النُّكتةِ السَّابقةِ أنَّ قيدَ ﴿مِنَ ٱلنَّاسِ﴾ أفادَ العُمومَ ليشملَ كلَّ من صدرَ عنه مثلُ هذا القولِ، وهنا نجد أنَّ ابن عطيَّة ذهب إلى مَلْحظٍ لُغويٍّ تَهكُّميٍّ وهو: أنَّ هذا القيدَ أفادَ تخصيصًا، فقال: وخَصَّ بقوله ﴿مِنَ ٱلنَّاسِ﴾؛ لأنّ السَّفَهَ يكونُ في جماداتٍ وحيواناتٍ"[3]، فأصلُ السَّفه: "الْخِفَّةُ؛ يُوصَفُ بِهِ الْجَمَادُ، قَالُوا: ثَوْبٌ سَفِيهٌ؛ أَيْ خَفِيفُ النَّسجِ وَالهَلهَلَة، وَرُمحٌ سَفِيهٌ: أَيْ خَفِيفٌ سَرِيعُ النُّفُوذِ، وَيُوصَفُ بِهِ الحَيَوَانَاتُ غَيرُ النَّاسِ، فَلَو اقتَصَرَ؛ لاحتَمَلَ النَّاسَ وَغيرَهُمْ؛ لأَنَّ القَوْلَ يُنسَبُ إِلَى النَّاسِ حَقِيقَةً، وإلى غيرهم مجازًا، فَارْتَفَعَ المَجَازُ بِقَوْلِهِ: مِنَ النَّاسِ"[4]، ونكتتُه: تنزيهُ الجماداتِ والحيواناتِ أن يقعوا فيما وقعَ فيه السُّفهاءُ من النَّاس، كما قال تعالى: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ كَٱلۡأَنۡعَٰمِ بَلۡ هُمۡ أَضَلُّۚ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡغَٰفِلُونَ ١٧٩﴾ [الأعراف: 179]، ويردُ عليه أنّ إسنادَ القولِ إليهم ﴿سَيَقُولُ﴾ كافٍ في

---

(1) البقاعي، نظم الدّرر: 2/202.

(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 2/7.

(3) ابن عطية، المحرر الوجيز: 1/218.

(4) أبو حيّان، البحر المحيط: 2/9-10.

بيان أنّهم من النّاس، "وردَّهُ ابنُ عرفةَ بأنّ القولَ المسندَ إليه في الآيةِ يُخصِّصُه بالحيوانِ"[1]، واعتراضُ ابنِ عرفةَ صحيحٌ، لكن بحملِه على التَّهكُّمِ يجعلُ له موضعًا من القَبولِ.

غرضُ الاستِفهامِ في قوله: ﴿مَا وَلَّىٰهُمْ﴾:

بيانُ منهجِ الاستهزاءِ بالدِّينِ، وأنّه قائِمٌ على تكثيرِ الأسئلةِ والاعتراضِ

غرضُ الاستفهامِ في قولِه تعالى: ﴿مَا وَلَّىٰهُمْ﴾ الاستهزاءُ والتّعجّبُ[2]، أو الاستهزاءُ فَقَطْ؛ أي: أنّهم سألوا ساخِرين مُتهكّمِين مُستهزِئين[3]؛ للتّعريضِ بالمسلمين، بالتّخطئةِ واضطرابِ العقلِ[4]؛ أو الإنكارُ، "أي: أيُّ شيءٍ، وأيُّ سببٍ اقتضَى انصرافَهم عن قبلتِهم التي كانُوا عليها، الّتي هي قبلةُ الأنبياءِ والمُرسلين؛ أي: لا سببَ يقتضِي ذلك، وإنّما هو من تَشَهِّيهم وتصرّفِهم برأيهم"[5].

فَالسُّفهاءُ في سؤالِهم على تنوُّعِ أغراضِه لا يُريدون جوابًا، بل مَطلبُهم الفتنةُ، وغرضُهم إثارةُ الاضطرابِ والتّشويش، وإظهارُ الخَطأ في أحكامِ الإسلامِ، والاستهزاءُ؛ أي: أنّهم أرادوا نِسبةَ المسلمين إلى السَّفهِ، فكانت النّتيجةُ أن باؤُوا بهذا الوصفِ، ووصفُ المُؤمنين بالسَّفاهة بسببِ انقيادِهم لشرعِ اللّه تعالى سلوكٌ ثابتٌ للسُّفهاءِ، وكثرةُ الأسئلةِ المراد بها الاستهزاءُ بالدِّينِ؛ تدلُّ على وقوعِ السَّائلين في مستنقعِ السَّفاهةِ.

إيثارُ الاستفهامِ بـ ﴿مَا﴾ دون (مَنْ) في ﴿مَا وَلَّىٰهُمْ﴾:

العقليّةُ المادّيّةُ والاستفهامُ بـ(ما)

آثر النَّظمُ أن يَحكيَ مَقولتَهم بالاستفهامِ بـ ﴿مَا﴾ دون "مَنْ"؛ ليُبيّن أنّ هذا التّساؤلَ يدلُّ على طريقة تفكيرٍ مادّيّ يرتبطُ بالأشياءِ والإراداتِ، ويُفسّرُ كلَّ شيءٍ من خلالِ هذه الفلسفَةِ المادّيّةِ؛ فهؤلاءِ

(1) ابن عرفة، تفسير ابن عرفة: 2/449.
(2) الرّازي، التفسير الكبير: 4/80.
(3) أبو زهرة، زهرة التّفاسير: 1/436.
(4) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 2/8.
(5) الهرري، تفسير حدائق الروح والريحان: 3/10، ومحمد بن سعد الدّبل، دليل البلاغة القرآنية: 1/196.

السّفهاءُ لا يعرِفُون الـمُسبِّبَ الحقيقيَّ للأسبابِ، ولا يُقيمون وزنًا للرّوح وعالـمِ الغَيبِ؛ من هنا أوثِرَ استعمالُ "ما" دون غيرها إيماءً إلى ما في عقولِهم وأذهانِهم من نظرةٍ مادّيّةٍ؛ لذلك جاء الجوابُ في الآية: ﴿قُل لِّلَّهِ ٱلۡمَشۡرِقُ وَٱلۡمَغۡرِبُۚ يَهۡدِي مَن يَشَآءُ إِلَىٰ صِرَٰطٖ مُّسۡتَقِيمٖ ١٤٢﴾، بِرَجْعِ الأمرِ والملكِ لله، أي: إلى الـمُسبِّبِ الحقيقيّ وخالقِ الأسبابِ.

فائدةُ التَّعبيرِ بضَميرِ الغَيبَةِ ﴿مَا وَلَّىٰهُمۡ عَن قِبۡلَتِهِمُ﴾:

الـغـالـبُ على السُّفهاءِ إثـارةُ الفتنةِ بعيدًا عن حضورِ المؤمنين

جاءتْ حكايةُ قولِ السُّفهاءِ بالغَيْبَةِ لا بالخطابِ؛ فلم يقل: ما ولّاكم عن قِبلتِكم، "إشارةً إلى أنّهم قالوا ذلكَ فيما بينَهُم ولم يُباشروا به الـمُؤمنين بوجهٍ، وهذا مرجّحٌ لأن تكونَ المقالةُ من المنافِقين"[1]، والصَّحيح أن تكونَ صادِرةً عنهم وعن غيرِهم؛ إلَّا أنَّها عنهم أكثر، وإيثارُ الغَيْبَةِ على الخِطابِ باعتبارِ الكثرةِ والقلَّةِ؛ فإنَّ السُّفهاءَ يُكثِرون من اللَّغطِ وفحشِ القول فيما بَيْنَهم وبين عموم النَّاس، بقصدِ الفتنةِ، بعيدًا عن حضورِ المؤمنين؛ فهم طالبو فتنةٍ لا طالبو فطنة، وهذا لا يمنعُ أن يقولوها بحضورِ المؤمنين، بل على الملإِ من النَّاسِ إذا تمكَّنوا وتجبَّروا.

تعيينُ مرجعِ الضّميرِ في قولِه ﴿مَا وَلَّىٰهُمۡ عَن قِبۡلَتِهِمُ﴾:

الـمقـامُ يُـعـيِّنُ مَرْجِعَ الضَّميرِ كـالـتَّـعـيـينِ اللَّفظيِّ

مَرجِع الضَّميرِ في قوله تعالى: ﴿مَا وَلَّىٰهُمۡ عَن قِبۡلَتِهِمُ ٱلَّتِي كَانُواْ عَلَيۡهَاۚ﴾ يعودُ إلى النّبيِّ ﷺ وأصحابِه[2]، وكان الظّاهرُ أن يقولوا: (ما ولّى المسلمين عن قبلتهم)؛ إذ لم يَجْرِ لـمَرْجِع الضّمير قبل ذلك ذِكْرٌ، والذي دلَّ على مرجع الضّمير في هذه الآية هو المقامُ[3]، إذْ هُم أصحابُ القبلةِ، وهم الذين ولَّوا وجوههم عن بيتِ المقدسِ إلى البيتِ الحرامِ.

(1) ابن عرفة، تفسير ابن عرفة: 2/450.
(2) الواحدي، التفسير البسيط: 3/368، وأبو حيّان، البحر المحيط: 2/10.
(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 2/8.

للضّمائرِ أثرٌ في بيانِ المعاني، ما لا تُؤدِّيه الألفاظُ الظَّاهِرةُ

لتعيينِ مرجعِ الضَّميرِ تعليلٌ لفظيٌّ أو مقاميٌّ، وتعليلٌ بلاغيٌّ، فسبق بيانُ الأوَّلِ، أمَّا البلاغيُّ الّذي من أجلِهِ آثرَ القرآنُ أن يقولَ: ﴿مَا وَلَّىٰهُمۡ عَن قِبۡلَتِهِمُ﴾ دون: (ما ولّى المسلمين عن قبلتهم)، أنّ الغرضَ من ذلك بيانُ شِدّةِ انشغالِ السّفهاءِ بالمسلمين؛ فالمسلمُون كانوا يمثِّلون هَمًّا لهؤلاءِ، وشُغلًا أقضّ مضاجعَهم، فهم في حديثٍ مستمرٍّ عنهم، لا ينفكّون عن ذلك، حاضرون في أذهانِهم في كلّ وقتٍ، يتطرَّقون لذكرهم كلمّا عَنَّ لهم ذلك وأمكنَ؛ فشدّةُ حضورِ المُسلمين في أذهانِ أولئك أغنتْ عن ذكرِهم لفظًا ظاهرًا قبل الإضمارِ، وللضَّمائرِ أثرٌ في بيانِ المعاني، ما لا تُؤدِّيه الألفاظُ الظَّاهِرةُ.

دلالةُ إضافةِ القبلةِ إلى الضَّمير ﴿قِبۡلَتِهِمُ﴾:

اختِصاصُ قبلةِ بيتِ المقدس بالمسلمين دون غَيْرِهم

لسَائلٍ أن يسألَ عن سرِّ إضافةِ القبلةِ إلى المسلمين مع تحوُّلِهم عنها؟ والجواب: "لِأَنَّهُمْ كَانُوا اسْتَقْبَلُوهَا زَمَنًا طَوِيلًا، فَصَحَّتِ الإِضَافَةُ"[1]، ويجب تقديرُ مضافٍ محذوفٍ "في قوله: ﴿عَلَيۡهَاۚ﴾ أي: على توجُّهِهَا أو اعتقادِها"[2]، فهو يدُلُّ على مزيدِ اختصاصِها بهم؛ إذ لم يستقبلْها غيرُهم من الأمم؛ لأنّ المشركين لم يكونُوا من المُصلّين أصلًا، وأهلَ الكتابِ لم يكونوا يستقبلُون في صلاتِهم[3]، وفيه إشعارٌ بأنَّ القبلةَ الأُولى هي للمسلمين، وإن تحوَّلوا عن التَّوجُّهِ إليها؛ فهي قِبلتُهم، فتركُ التَّوجُّه إليها لا يسلبُ عنها وصفَ اختصاصِ المسلمين بها.

دلالةُ حَرْفِ الاسْتِعْلَاءِ في قوله: ﴿ٱلَّتِي كَانُواْ عَلَيۡهَاۚ﴾:

دلَّ حرفُ الاستعلاءِ على التّمكُّن لِما فيه من معنَى الفوقيّةِ والاستعلاءِ؛ فقولُهُ: ﴿ٱلَّتِي كَانُواْ عَلَيۡهَاۚ﴾ يدلُّ على أنّهم كانوا مُلازمين لها، فـ"على" هنا للتمكّن المجازيّ، "بالاستعارةِ؛ حيثُ شبَّه

(1) أبو حيّان، البحر المحيط: 2/10.

(2) السمين، الدر المصون: 2/150.

(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 2/9.

دلَّ الِاسْتِعلَاءُ عَلَى تَمَكُّنِ الاسْتِقبَالِ، وأمرُ الله في التَّحوُّلِ أعلى وأمكنُ

مواظبتَهُم على المحافظةِ عليها باستعلاءِ منْ استَعلَى على الشَّيءِ"[1]، وهو شدّةُ الملازمةِ، مثل قوله: ﴿أُوْلَـٰٓئِكَ عَلَىٰ هُدًى مِّن رَّبِّهِمۡۖ﴾ [البقرة: 5]، وفيه زيادةُ توجيهٍ للإنكارِ والاستغرابِ من قائلي هذه المقولةِ؛ أي: كيفَ عدَلَوا عنها بعد أن لازَمُوها؟ ولم يكن استقبالُهم إيّاها مجرّدَ صُدفة، فإنّهم استقبلوا الكعبةَ ثلاثَ عشرةَ سنةً قبلَ الهجرة[2]، وهذا التّعبيرُ سيتكرّرُ في الآيةِ اللّاحقة: ﴿ٱلۡقِبۡلَةَ ٱلَّتِي كُنتَ عَلَيۡهَآ﴾.

براعةُ الاستئنافِ، في تعيينِ الجوابِ في قولِه: ﴿قُل لِّلَّهِ ٱلۡمَشۡرِقُ وَٱلۡمَغۡرِبُۚ﴾:

فُصِلَ بين جملةِ: ﴿مَا وَلَّىٰهُمۡ عَن قِبۡلَتِهِمُ﴾ وجملة: ﴿قُل لِّلَّهِ ٱلۡمَشۡرِقُ وَٱلۡمَغۡرِبُۚ﴾؛ لأنّ الجملةَ الثّانيةَ جوابٌ عن سؤال تُثيرُهُ الجملةُ الأولى، فكأنّ سائلًا قد سألَ: وماذا كانَ الجوابُ؟ وهنا تأتي الجملةُ الثّانية جوابًا عن هذا السّؤالِ: ﴿قُل لِّلَّهِ ٱلۡمَشۡرِقُ وَٱلۡمَغۡرِبُۚ﴾[3].

فائدةُ تعليمِ الجوابِ للنَّبيِّ ﷺ:

القائِدُ الشَّرعيُّ هو المُكلَّفُ في الرَّدِّ على الطَّاعنين؛ عندما تخُصُّ القضيّةُ الأمّةَ

فِعْلُ الأمر هنا تلقينٌ من اللهِ ﷻ لنبيّه ﷺ ليَرُدَّ عليهم، وهو يدلُّ على الإرشادِ والتّعليم، وأما الرّدودُ على سؤالهم وطُعونِهم فهي مفتوحةٌ غيرُ محدودةٍ، ولكلّ طَعْنٍ أجوبتُهُ، وعلى علماءِ المسلمين أن يجتهِدُوا في ذلك.

نلحظُ أنَّ اللّه تبارك وتعالى لقَّنَ نبيَّهُ ﷺ ليَرُدَّ عليهم، ولم يجعلِ الجوابَ مباشرًا؟ ومن حكمة ذلك -واللّه أعلمُ بأسرارِ التّنزيلِ وحِكمه- أنّ الاعتراضَ المتهكّمَ به كان على النّبيِّ ﷺ وأصحابِه؛ حيثُ رَمَوهُ بالتّحيّر[4]، فلمَّا وُجِّهَ السّؤالُ والاستهزاءُ إلى النّبيّ ﷺ والمسلمين، كان إجراءُ الجوابِ على لسانِه هو الأولى؛ لأنّه صاحبُ الشّريعة ومُبلّغُها، وهو المُكلَّفُ أن يَرُدَّ عليهم؛ فالقضيّةُ تعني الأُمّةَ كلَّها.

(1) الهرري، حدائق الروح والريحان: 3/23.

(2) أبو حيّان، البحر المحيط: 2/10، والسمين، الدر المصون: 2/150، وابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 2/9.

(3) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 1/171.

(4) أبو زهرة، زهرة التّفاسير: 1/437.

فائدةُ التّقديمِ والتّأخيرِ في قوله: ﴿لِلَّهِ ٱلۡمَشۡرِقُ وَٱلۡمَغۡرِبُۚ﴾:

أصلُ الكلامِ: المَشرقُ والمَغربُ لله، ولكنّه قدّمَ الخبرَ ﴿لِلَّهِ﴾، وأخّر المبتدأ ﴿ٱلۡمَشۡرِقُ وَٱلۡمَغۡرِبُۚ﴾؛ لإفادة التّخصيصِ والحَصرِ، فإنّ الجهاتِ كلّها لله ﷻ وليست لأحدٍ سِواه.

سرُّ العُدولِ عن ذكرِ القِبلةِ إلى ذكرِ المشرقِ والمغربِ في قولِه: ﴿لِلَّهِ ٱلۡمَشۡرِقُ وَٱلۡمَغۡرِبُۚ﴾:

إقامةُ الدّليلِ أقوى من ذكرِ الدّعوى، فمَن ملكَ أمَر

عدلَ الجوابُ عن إثباتِ أنَّ تحديدَ القبلةِ لله، إلى بيانِ ملك الله للسّماواتِ والأرض؛ لبيانِ أنَّ "له أن يأمرَ بالتّوجّه إلى أي جهةٍ شاءَ"[1]، فالتّوجُّه في الصّلاة لا يكون لذات الجهات، وإنّما يكون إليها بإيجاب الله تعالى[2]، "وَالمَعْنَى: أَنَّ الجِهَاتِ كُلَّهَا لِلَّهِ تَعَالَى، يُكَلِّفُ عِبَادَهُ بِمَا شَاءَ أَنْ يَستَقبِلَ منهَا، وَأَنْ تُجْعَلَ قِبْلَةً"[3]، فهو "لا يختَصُّ به مكانٌ دون مكانٍ بخاصيّةٍ ذاتيّة تمنعُ إقامةَ غيره مقامَه، وإنّما العبرةُ بارتسامِ أمرِهِ لا بخصوصِ المكان"[4]، فلا اعتراضَ على أمرِه؛ "فيأمر بالتّوجّه إلى حيثُ شاء، فتارةً الكعبة وطورًا إلى البيتِ المقدس، لا اعتراضَ عليه لأنّه المالكُ وحده"[5].

توجيهُ المخصوصِ بالذِّكرِ في قوله ﴿ٱلۡمَشۡرِقُ وَٱلۡمَغۡرِبُۚ﴾:

ذِكرُ المشرقِ والمغربِ يشمل بقيَّةَ الجهات، بخلافِ العكسِ

اقتصرتِ الآيةُ على ذكرِ المَشْرِقِ وَالمَغْرِب، ذلك لأنَّ الشمس لها جهة شروق وغروب بها تأتي على الأرض كلِّها على مدارِ العام، ﴿فَلَآ أُقۡسِمُ بِرَبِّ ٱلۡمَشَٰرِقِ وَٱلۡمَغَٰرِبِ إِنَّا لَقَٰدِرُونَ ٤٠﴾ [المعارج: 40]، فالمقصودُ بالمشرقِ والمغربِ كلُّ بقعةٍ تشرقُ فيها الشّمسُ وكلُّ بقعةٍ تغربُ فيها، هذا توجيهٌ.

(1) الواحدي، البسيط: 3/368.
(2) الكيا الهراسي، أحكام القرآن: 1/20.
(3) أبو حيّان، البحر المحيط: 2/11.
(4) البيضاوي، أنوار التنزيل: 1/110.
(5) النسفي، مدارك التنزيل: 1/136-137.

وتوجيهٌ آخر، أنَّ جهةَ الشَّرقِ والغربِ أوضحُ في ذهنِ المخاطَبِ، فلمَّا جعلهما له وحده، ثبتَ لُزومًا له الشَّمالُ والجنوبُ، فهما الأهمُّ في استعمالِ النّاس؛ فَبِهما يُعيِّنُ النّاس الشّمالَ والجنوبَ، وهما الأسهلُ في التَّعيينِ، فهما يُعرَفانِ بشروقِ الشّمس، أو النّجوم، وغروبِهما، ويَعُمّان جميعَ نقاطِ الأرض، أمّا الشّمالُ والجنوبُ فجهاتٌ لا تتحدّدان بذاتهما، فالمرادُ جميعُ الجهاتِ؛ من بابِ الكنايةِ عن الأرضِ كلِّها[1]، أي: إنّ اللّه تعالى مالكُ الأرضِ شرقيِّها وغربيِّها وشماليِّها وجنوبيِّها، واقتُصِرَ على ذكر الشّرق والغرب؛ لأنّ منْ مَلَكَهما ملكَ الأرضَ كلّها، فلَا فرق بين قريب وبعيد، وشَرّقٍ وغَرّبٍ، وإذا كان هو المالكَ للأرض، فهو يتخيَّرُ لموضع قبلتِهِ ما يشاءُ من أرضه وهو الحكيمُ العليم[2].

فنُّ الطّباقِ في قوله: ﴿ٱلۡمَشۡرِقُ وَٱلۡمَغۡرِبُۚ﴾:

جمعتِ الآيةُ بين ضدّين متتابعين، وهما المشرق والمغرب، فهذا طباق[3]، وهو من محسّناتِ الكلام الجماليّة.

دلالةُ التَّعبيرِ بالاسمِ الموصول ﴿مَن﴾:

(من) لفظٌ عامٌّ غيرُ مُحدَّد؛ يشملُ الجنسين من غير حاجةٍ للتّغليبِ

استعملَ الاسمَ الموصولَ ﴿مَن﴾ دون (الّذي، أو الّذين)؛ لأنّ (الّذي) وفروعه يطلقُ على محدّد معيّن بذاته، ولا عمومَ فيه؛ فلو قال: (يهدي الّذين يشاءُ) لكان المعنى أنّهم أشخاصٌ محدّدون مهما كثُروا، وأمّا قوله: ﴿مَن يَشَآءُ﴾ فهو عامٌّ غيرُ مُحدَّد؛ وهو أيضًا يشملُ الجنسين المذكّر والمؤنّث من غير حاجةٍ للتّغليب، فلو قال: (الّذين) لكان شمولُ الإناث بالتّغليبِ لا باللّفظِ.

بلاغةُ الاستعارةِ في قوله: ﴿صِرَٰطٖ مُّسۡتَقِيمٖ﴾:

استعارةٌ تصريحيّةٌ؛ بتشبيهِ الحقِّ بالطّريقِ الواضحِ الموصِلِ إلى الجنَّةِ

المركّبُ الوصفيُّ ﴿صِرَٰطٖ مُّسۡتَقِيمٖ ١٤٢﴾ في قوله ﷻ: ﴿يَهۡدِي مَن يَشَآءُ إِلَىٰ صِرَٰطٖ مُّسۡتَقِيمٖ ١٤٢﴾ استعارة تصريحيّة[4]؛ لأنّه صرّح بلفظِ

---

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 2/12.

(2) أبو زهرة، زهرة التّفاسير: 1/437.

(3) الطّباق: ويسمّى المطابقة، والتّضاد، والتّطبيق، والتّكافؤ، والتّطابق، وهو أن يجمع المتكلم في كلامه بين لفظين، يتنافى وجود معناهما معاً في شيء واحد، في وقت واحد، بحيث يجمع المتكلم في الكلام بين معنيين متقابلين، ينظر: أحمد الهاشمي، جواهر البلاغة، ص: 303.

(4) الاستعارة التّصريحية، أو المصرّحة: هي ما صُرّح فيها بلفظ المشبه به، أحمد الهاشمي، جواهر البلاغة، ص: 267.

المشبّهِ به ﴿صِرَٰطٖ مُّسۡتَقِيمٖ ١٤٢﴾؛ حيثُ شبّه الحقَّ، أو الإسلامَ بالطّريقِ الواضحِ المستقيم، فحذفَ المشبَّهَ، وصرّحَ بالمشبَّهِ به، والاستعارةُ مبنيّةٌ على تناسي التّشبيه، فيكونُ المشبّهُ كأنّه هو المشبّهُ به، فتكونُ فيها مبالغةٌ، وأثرُ الاستعارةِ في النّفوس لا يخفى، ومعنى إلى صراطٍ مستقم: "إلى دينٍ مستقيم، يريدُ: أنّي قد رضيتُ قبلةَ أولئك، ورضيتُ هذه القبلةَ لمحمّد ﷺ، "ودينُ الله" يسمّى: صراطًا مستقيمًا؛ لأنّه يؤدّي إلى الجنّة؛ كما يؤدّي الطّريقُ المستقيمُ إلى البُغيةِ"[1].

الفروقُ المعجميّة لألفاظ الآية:

الصِّرَاط والطَّرِيق والسّبيل:

الصِّرَاطُ لسهولتِهِ يعبّرُ به عن الدّينِ

الصِّرَاطُ: الطَّرِيقُ السّهلُ، قَالَ الشّاعر[2]:

حشونا أَرضهم بِالخَيْلِ حَتَّى *** تركناهم أذلّ من الصِّرَاط

فلذا يوصفُ به الطّريقُ الموصلُ لله تعالى: ﴿ٱلصِّرَٰطَ ٱلۡمُسۡتَقِيمَ ٦﴾ [الفاتحة: 6]؛ فلسهولتِهِ يعبّرُ به عن الدّين.

يستعملُ (السّبيلُ) لكلّ ما يتوصّلُ به إلى شيءٍ خيرًا كان أو شرًّا، والغالبُ استعمالُهُ في الخَيرِ

والسّبِيلُ: الطّريقُ الّذي فيه سهولةٌ، وجمعه سُبُلٌ، ويستعملُ السّبِيلُ لكلّ ما يتوصّلُ به إلى شيء خيرًا كان أو شرًّا، قال: ﴿ٱدۡعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ﴾ [النّحل: 125][3]؛ ولأنّ السّبيلَ يستعملُ لكلّ ما يتوصّلُ به، أطلِق على العملِ الّذي يكونُ لله تعالى، كالقتالِ في سبيله؛ والغالبُ استعمالُهُ في الخَير.

(الطّريقُ) لا يقتضي السّهولةَ، ولا يكادُ يرادُ به الخَيرُ إلّا مقترنًا بوصفٍ أو إضافةٍ تخلّصُهُ لذلك

والطّريق: لا يقتضي السّهولة، ولا يكاد يرادُ به الخَيرُ إلّا مقترنًا بوصفٍ أو إضافةٍ تخلّصُهُ لذلك، كقوله تعالى: ﴿يَهۡدِيٓ إِلَى ٱلۡحَقِّ وَإِلَىٰ طَرِيقٖ مُّسۡتَقِيمٖ ٣٠﴾ [الأحقاف: 30][4]، والسّبيلُ أوسعُ من الطّريق؛ لأنّ الطّريق لَا يَقْتَضِي السّهولة[5].

(1) الواحدي، التفسير البسيط: 3/369.
(2) العسكري، الفروق اللّغويّة: ص: 298.
(3) الراغب، المفردات: (سبل).
(4) الشيخ بيت الله بيات، معجم الفروق اللّغويّة، ص: 313.
(5) العسكري، الفروق اللّغويّة، ص: 298.

مُستقيم وقِيَم:

الوصفُ بـ(قِيَمًا) فيه مُبالَغةٌ؛ لأنّه مصدرٌ، و(مُستَقيم) دالٌّ على الاستقامةِ بدون مبالغةٍ

جاء في الذّكرِ الحكيمِ وَصْفُ الصّراطِ بالاستقامةِ، والدّين بالقِيَم، فما الفرقُ بين المفردتين؟ الجواب: اللّفظان من مادّة (قام)، والأصلُ يدلُّ على انْتِصَابٍ، قام: إذا استوى منتصبًا، القَوَامُ الطُّولُ الحَسَنُ[1]، والقِيَم: الاسْتِقَامَة، وقَول اللّه ﷻ: ﴿دِينًا قِيَمًا﴾ [الأنعام: 161]: القيِّم، هُوَ الـمُسْتَقِيم[2].

ومعنى قوله تعالى: ﴿مُّسْتَقِيمٍ﴾: من (الاستقامةِ) وهي في اللّغة: الاستواءُ، يقال: قام إذا استوى مُنتصبًا، وأقامه: إذا سوّاه، وقاومه إذا ساواه في القوّة، وقِيمة الشّيء ما يساويه من ثمنِه، ومعنى الاستقامةِ استمرارُ الشّيء في جهة واحدة[3]، في المعنى العامّ: اللّفظان (مُستَقيم) و(قِيَم) ينحدران من أصلٍ واحدٍ، والفرقُ يظهرُ من بنية كل لفظ؛ فالقِيَم: "مَصْدَرٌ بِمَعْنَى القِيَام كالصّغر، وَالكِبَر، وَالحِوَل، وَالشِّبَع، وَالتَّأْوِيلُ: دِينًا ذَا قِيَم، وَوَصَفَ الدِّينَ بِهَذَا الوَصْفِ عَلَى سَبِيلِ المُبَالَغَةِ"[4]؛ لأنّ الوصفَ بالمصدر يفيدُ المبالغةَ؛ فكأنّه هو الاستقامةُ بعينها؛ مبالغةً في وصفه بالاستقامة لما فيه من العَدلِ والخير وحفظِ الحقوق، فالوصفُ به أبلغُ من الوصفِ بـ (مُستَقيم) الدّالّ على الاستقامةِ بلا مبالغة.

والسّياقُ يظهرُ ذلك بجلاء؛ فجاء الوصفُ بالمصدر مع لفظ الدّين: ﴿دِينًا قِيَمًا﴾ الّذي جاء مع ألفاظ: صِراط، وملّة، وحَنيف، ونفي الشّرك: ﴿صِرَٰطٖ مُّسۡتَقِيمٖ دِينٗا قِيَمٗا مِّلَّةَ إِبۡرَٰهِيمَ حَنِيفٗاۚ وَمَا كَانَ مِنَ ٱلۡمُشۡرِكِينَ ١٦١﴾ [الأنعام: 161]؛ لأنّه في مقام بيان مزيّةِ هذا الدّين واستقامتِه والاهتمام به، وقد استُعْمِلَ وصفُ الدّين بالمبالغةِ من خلال استعمال المصدر للوصف في معرض الإخبار عن كونه قد هُديَ إلى هذا الدّين: ﴿قُلۡ إِنَّنِي هَدَىٰنِي رَبِّيٓ إِلَىٰ صِرَٰطٖ مُّسۡتَقِيمٖ دِينٗا قِيَمٗا﴾ [الأنعام: 161]، أمّا في سورةِ الفاتحةِ: ﴿ٱهۡدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلۡمُسۡتَقِيمَ ٦﴾ [الفاتحة: 6] فكان طلبًا للهدايةِ والثّباتِ عليها فجاء وصفُ الصّراط بأنّه مُستقيمٌ بدون مبالغةٍ.

(1) ابن فارس، مقاييس اللغة؛ والأزهري، تهذيب اللغة: (قام).
(2) الأزهري، تهذيب اللغة: (قام).
(3) الواحدي، البسيط: 1/528.
(4) الرّازي، التفسير الكبير: 14/190-191.

التّولية والصَّرْف:

أصل مادّة (ولي) يَدُلُّ عَلَى قُرْبٍ، الوَلَاءُ والتَّوَالي: أن يَحْصُلَ شيئان فصاعدًا حصولًا ليس بينهما ما ليس منهما، ويُستعار ذلك للقرب من حيث المكانُ، وإذا عُدّي الفعلُ (ولي) بـ (عن) لفظًا أو تقديرًا اقتضى معنَى الإعراضِ وتركِ القرب، ومن معانيه أيضًا لزومُ الشّيء شيئًا آخرَ تبعًا له، ومن هنا دلَّت على الاتّجاه إلى وِجْهٍ، ولَّى وجهَه شطْرَ كذا: وَجَّهَهُ إليه: ﴿فَوَلِّ وَجۡهَكَ شَطۡرَ ٱلۡمَسۡجِدِ ٱلۡحَرَامِۚ وَحَيۡثُ مَا كُنتُمۡ فَوَلُّواْ وُجُوهَكُمۡ شَطۡرَهُۥۗ﴾ [البقرة: 144]، فهذه بمعنى الإقبالِ والاتّجاه إلى الشّيء، وإذا عُدّي بـ (عن) فهي بمعنى الانصراف[1]، فهو انصرافٌ عن الجهةِ.

الصّرفُ تحوّلٌ عامّ، و(التولّي عن القبلةِ) انصرافٌ عن وجهةٍ خاصّةٍ

وأصل مادّة (صرف) يَدُلُّ عَلَى رَجْعِ الشَّيْءِ، وهو: ردُّ الشّيء من حالةٍ إلى حالةٍ، أو إبدالُه بغيره، يقال: صَرَفْتُهُ فَانْصَرَفَ، فقوله تعالى: ﴿ثُمَّ صَرَفَكُمۡ عَنۡهُمۡ﴾ [آل عمران: 152]، مِنْ ذَلِكَ، صَرَفْتُ القَوْمَ صَرْفًا وَانْصَرَفُوا، إِذَا رَجَعْتَهُمْ فَرَجَعُوا، وقوله تعالى: ﴿سَأَصۡرِفُ عَنۡ ءَايَٰتِيَ ٱلَّذِينَ يَتَكَبَّرُونَ﴾ [الأعراف: 146]، أي سأنحّي وأَعْدِلُ بهم عنها، يقال: صرفه عن كذا: إذا عَدَلَ به عنه ونحّاه[2]، فالتّوليةُ تدلُّ على الاتّجاه والتَّوجُّه، وعند تعديةِ الفعل (ولّى) بـ (عن) فإنّه يدلُّ على الصّرفِ بخصوصيّة، وخصوصيّتُه في الآية الدّلالةُ على الانصرافِ عن اتّجاه معيّن: ﴿مَا وَلَّىٰهُمۡ عَن قِبۡلَتِهِمُ﴾ بمعنى ما صرفَهُم عن هذا الاتّجاه وحوّلهم عنه، والصّرف تحوُّلٌ عامّ، بمعنى الرّدّ والإرجاع؛ جاء في سياقِ القتال، فصرفَهُم بمعنى ردّهُم وحوّلهُم، وهو ردٌّ عامٌّ لا يتعلّق بالتّوجه كما في ﴿وَلَّىٰهُمۡ عَن﴾، فالصّرف تحوّل عامّ، و(التولّي عن القبلةِ) هو انصرافٌ عن وجهةٍ خاصّةٍ.

(1) ابن فارس، مقاييس اللغة؛ الرّاغب، المفردات؛ جبل، المعجم الاشتقاقيّ: (ولي).
(2) ابن فارس، مقاييس اللغة؛ الرّاغب، المفردات؛ السّمين، عمدة الحفّاظ: (صرف).

﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلۡنَٰكُمۡ أُمَّةٗ وَسَطٗا لِّتَكُونُواْ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِ وَيَكُونَ ٱلرَّسُولُ عَلَيۡكُمۡ شَهِيدٗاۗ وَمَا جَعَلۡنَا ٱلۡقِبۡلَةَ ٱلَّتِي كُنتَ عَلَيۡهَآ إِلَّا لِنَعۡلَمَ مَن يَتَّبِعُ ٱلرَّسُولَ مِمَّن يَنقَلِبُ عَلَىٰ عَقِبَيۡهِۚ وَإِن كَانَتۡ لَكَبِيرَةً إِلَّا عَلَى ٱلَّذِينَ هَدَى ٱللَّهُۗ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُضِيعَ إِيمَٰنَكُمۡۚ إِنَّ ٱللَّهَ بِٱلنَّاسِ لَرَءُوفٞ رَّحِيمٞ ١٤٣﴾ [البقرة: 143]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِمَا قَبْلَها:

ذكَر سبحانه في الآيـةِ السّابقة الهداية المطلقة، وذكـرَ في هذه الآيـةِ السّببَ المُوجبَ لهداية هذه الأمّة

الآيةُ السّابقةُ انتهت بهدايةِ المسلمين إلى ﴿صِرَٰطٖ مُّسۡتَقِيمٖ ١٤٢﴾، وابتدأت هذه الآيةُ بوصفِ المسلمين بأنّهم (أمّة وسَط): أمّةُ العدلِ والخيريّةِ الّتي يصنعُها الصّراطُ المستقيمُ ويتسبّبُ في إخراجها للعالَمين، "ولما كان قوله: ﴿يَهۡدِي مَن يَشَآءُ إِلَىٰ صِرَٰطٖ مُّسۡتَقِيمٖ ١٤٢﴾، والمطلقُ يُحمَلُ على المقيّدِ، فإنّ الهدايةَ والضّلالَ لهما أسبابٌ أوجبتها حكمةُ اللّه وعدلُه، وقد أخبرَ في غير موضع من كتابه بأسبابِ الهداية، الّتي إذا أتى بها العبدُ حصلَ له الهدى كما قال تعالى: ﴿يَهۡدِي بِهِ ٱللَّهُ مَنِ ٱتَّبَعَ رِضۡوَٰنَهُۥ سُبُلَ ٱلسَّلَٰمِ﴾ [المائدة: 16]، ذكرَ في هذه الآيةِ السّببَ المُوجبَ لهدايةِ هذه الأمّةِ مطلقًا بجميع أنواع الهدايةِ، ومنة اللّه عليها فقال: ﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلۡنَٰكُمۡ أُمَّةٗ وَسَطٗا﴾"(1).

شَرْحُ المُفْرَدَاتِ:

جَعَلْنَاكُمْ أوجدَكم على هيئةٍ ونصبَكُم وأقامَكُم

1) ﴿جَعَلۡنَٰكُمۡ﴾: يقالُ: جَعَلْتُ هذا البابَ من شَجَرة كذا: صَنَعْته، وجَعَلْت الطّينَ خزفًا، وجعلت الشّيء: صَنَعته وصوَّرته(2)، والأصل: تحويلُ الشّيءِ إلى وضعٍ أو هيئةٍ معينةٍ (بعد تحوّل كتلته أو انتقالها)، كالفسيلةِ تُحَوَّل وتصيرُ نخلةً، وجعلَ في سياقِ الآيةِ:

(1) السعدي، تيسير الكريم الرحمن، ص: 70.
(2) ابن منظور، لسان العرب: (جعل).

يدلُّ على التّحويل والتّهيئة على وضع خاصّ، وهو تحويلٌ للهيئةِ بإنشاءِ هيئةٍ جديدة، فهو إيجادٌ يتأتّى منه النّصْبُ (الإقامة)، ومن هذا النّصب: ﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا شَيَٰطِينَ ٱلْإِنسِ وَٱلْجِنِّ﴾ [الأنعام: 112]؛ أي انتصب لك أعداءٌ كما انتصبوا للأنبياء من قبلك[1].

معنى الأُمَّة في سياق الآية المُسلمون

2) ﴿أُمَّةً﴾: يُطلقُ لفظ (أمّ) على الأَصْلِ وَالمَرْجِعِ وَالجَمَاعَةِ وَالدِّينِ[2]، كلُّ شيءٍ يضمُّ إليه سائر ما يليه فإنَّ العربَ تُسمِّي ذلك الشَّيْءِ أُمًّا، وَمِنْ ذَلِكَ أُمُّ الرَّأْسِ وَهُوَ الدِّمَاغُ[3]، ﴿إِنَّ إِبْرَٰهِيمَ كَانَ أُمَّةً﴾ [النّحل: 120]، أَيْ: إِمَامًا يُهْتَدَى بِهِ، وَهُوَ سَبَبُ الاجتِمَاعِ، والأصلُ: تضَامُّ شيءٍ أو أشياءٍ مُتجانسة، كما تضمُّ تلك الجلدةُ الرّقيقة مادّةَ المخ[4].

أَعْدَلُ الشَّيْءِ أَوْسَطُهُ وَوَسَطُهُ

3) ﴿وَسَطًا﴾: الأصل يَدُلُّ عَلَى العَدْلِ وَالنِّصفِ، وَأَعْدَلُ الشَّيْءِ: أَوْسَطُهُ وَوَسَطُهُ[5]، وهو كون الشّيء مكتنفًا من حواليه أو آخذًا منهما بالتّساوي امتدادًا أو قدرًا، "الْوَسَطُ: اسْمٌ لِمَا بَيْنَ الطَّرَفَيْنِ وُصِفَ بِهِ، فَأُطْلِقَ عَلَى الخِيَارِ مِنَ الشَّيْءِ"[6]؛ "فوسَط الشّيء هو أَصْوَنُه وأَبْعَدُه عن الابتذال، وهو أيضًا لُبّ الشّيء، وتحقّقت هذه الملاحظُ في ﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَٰكُمْ أُمَّةً وَسَطًا﴾ عُدولًا خيارًا، أخذًا من التّوازن بين النّاحيتين، والمعنى نفسُه هو المرادُ - لدى الجمهور -في قوله تعالى: ﴿قَالَ أَوْسَطُهُمْ أَلَمْ أَقُل لَّكُمْ لَوْلَا تُسَبِّحُونَ ﴿٢٨﴾﴾ [القلم: 28]، أفضلُهم وأرجحُهم عقلًا[7]، وهو في الآية هنا بمعنى العدل والخير، أي: عدولًا خيارًا.

(1) جبل، المعجم الاشتقاقي المؤصل: (جعل).
(2) ابن فارس، مقاييس اللغة: (أمم).
(3) الخليل، العين: (أمم).
(4) جبل، المعجم الاشتقاقي المؤصل: (أمم).
(5) ابن فارس، مقاييس اللغة: (وسط).
(6) أبو حيّان، البحر المحيط: 2/6.
(7) جبل، المعجم الاشتقاقي المؤصل: (وسط).

4) ﴿شُهَدَآءَ﴾: أصلُ مادّة (شهد) يدُلُّ عَلَى حُضُورٍ وَعِلْمٍ وَإِعْلَامٍ[1]، ثم صُرّفت الكلمة في أداء ما تقرّر عِلْمُه في النّفس، وشهد الشّاهد عند الحاكم: بيّن ما يعلم وأظهره، والشّهادة: إخبارُ الإنسان بما عَلِمه[2].

فالشّهداءُ في الآية: الّذين قامُوا بالمُعاينة، ويلزمهم: الحضورُ والعِلمُ والإعلامُ لاحقًا.

5) ﴿يَنقَلِبُ﴾: أَصْلُ مادّة (قَلَبَ) رَدُّ شَيْءٍ مِنْ جِهَةٍ إِلَى جِهَةٍ، ثم عبّروا به عن مجرّد التّغيير الكثير[3]، "الانقِلَابُ: الانصِرَافُ وَالارتِجَاعُ، وهُو لِلمُطَاوَعَة، قَلَبْتُهُ فَانْقَلَبَ"[4].

6) ﴿عَقِبَيۡهِۚ﴾: أَصْلُ مادّة (عقب) يَدُلُّ عَلَى تَأْخِيرِ شَيْءٍ وَإِتْيَانِهِ بَعْدَ غَيْرِهِ[5]، وانقلب على عقبيه، نحو رجع على حافرته[6]، والمعنى في قوله تعالى: ﴿وَمَن يَنقَلِبۡ عَلَىٰ عَقِبَيۡهِ﴾ [آل عمران: 144] أي: يرتدّ ناكصًا من حيثُ جاء، وهي كنايةٌ عن النّكوص عن الهُدَى[7].

7) ﴿لَكَبِيرَةً﴾: أَصْلُ مادّة (كبر) يَدُلُّ عَلَى خِلَافِ الصِّغَرِ[8]، وَالكِبْرُ بتسكين الباء: العَظَمَةُ، وَكَذَلِكَ الكِبْرِيَاءُ، ومن دلالة العظمة استعملت للثّقل والعِظَم والمشقّة، "وتستعملُ الكبيرةُ فيما يشقّ ويصعُب، نحو: ﴿وَإِنَّهَا لَكَبِيرَةٌ إِلَّا عَلَى ٱلۡخَٰشِعِينَ ۝٤٥﴾ [البقرة: 45][9]، أي: ثقُلَ عليهم ما تدعوهم إليه، والمعنى نفسُه هو الّذي جاء في قوله تعالى: ﴿وَإِن كَانَتۡ لَكَبِيرَةً إِلَّا عَلَى ٱلَّذِينَ هَدَى ٱللَّهُۗ﴾، فهي بمعنى ثقيلة شاقّة؛ والثّقل لازمٌ للعِظَم[10].

8) ﴿لِيُضِيعَ﴾: أَصْلُ مادّة (ضيع) يَدُلُّ عَلَى فَوْتِ الشَّيْءِ وَذَهَابِهِ وَهَلَاكِهِ[11]، ضاع

(1) ابن فارس، مقاييس اللغة: (شهد).
(2) جبل، المعجم الاشتقاقي المؤصل: (شهد).
(3) جبل، المعجم الاشتقاقي المؤصل: (قلب).
(4) أبو حيّان، البحر المحيط: 2/7.
(5) ابن فارس، مقاييس اللغة: (عقب).
(6) الرّاغب، المفردات: (عقب).
(7) جبل، المعجم الاشتقاقي المؤصل: (عقب).
(8) ابن فارس، مقاييس اللغة: (كبر).
(9) الرّاغب، المفردات: (كبر).
(10) جبل، المعجم الاشتقاقي المؤصل: (كبر).
(11) ابن فارس، مقاييس اللغة: (ضيع).

الشيء يضيع ضياعًا: إذا فُقِد ولم يعلم موضعه، واستُعملَ في الإبطالِ كالإضلالِ، فيقالُ: أضاعَ عَمَلَهُ وضيّعَه[1].

9) ﴿لَرَءُوفٌ﴾: أصلُ مادّة (رأف) يَدُلُّ عَلَى رِقَّةٍ وَرَحْمَةٍ[2]، والرَّأفَةُ: أشَدُّ الرَّحْمَةِ، أو أرَقُّها[3]، أي: رقّةٌ تنبعُ من الدّاخل، وتكون لتخفيف العذابِ، ومنه قوله تعالى: ﴿وَلَا تَأْخُذْكُم بِهِمَا رَأْفَةٌ فِى دِينِ ٱللَّهِ﴾ [النّور: 2]، أمّا حين تُسنَدُ الرّأفةُ والرّحمةُ إلى اللّه تعالى فالمرادُ آثارُهما: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ بِٱلنَّاسِ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ ۝١٤٣﴾[4]، "وَاسمُ الفَاعِلِ جَاءَ لِلمُبَالَغَةِ عَلَى فَعُولٍ، كَضَرُوبٍ، وَجَاءَ عَلَى فَعِلٍ، كَحَذِرٍ، وَجَاءَ عَلَى فَعْلٍ، كَنَدُسٍ، وَجَاءَ عَلَى فَعْلٍ، كَصَعْبٍ"[5].

المَعْنَى الإِجْمَالِيُّ:

إخبارٌ بخيريّةِ الأمّةِ، وشهادتها على الأمم، وذِكرُ نبأ تحويل القبلةِ

وكما هديناكُم - أيّها المسلمون - إلى الطَّريق الصّحيحِ في الدّينِ، جعلناكُم أمّةً خيارًا عدولًا؛ لتشهدُوا على الأمم في الآخرةِ أنّ رسلَهم بلَّغتهم رسالات ربّهم، وسوف يكونُ الرسولُ في الآخرة شهيدًا عليكم أنَّه بلَّغكم رسالةَ ربّه، وما جعلنا - أيّها الرسولُ - قبلةَ (بيت المقدس) الّتي كنت عليها، ثمّ صرفناك عنها إلى الكعبةِ بـ (مكّة)، إلّا ليظهرَ ما علِمناه في الأزلِ؛ عِلمًا يتعلّقُ به الثّوابُ والعقابُ فيظهر في الواقع مَن يتبعُك ومَن ينقلبُ مرتدًّا عن دينه لشكِّه ونفاقه، وإنّ هذه الحالَ الّتي هي تَحَوّلُ المسلم في صلاتِه من استقبال بيتِ المقدس إلى استقبال الكعبةِ لثقيلةٌ شاقّةٌ إلّا على الّذين هداهُم اللّهُ ومَنَّ عليهم بالإيمان والتّقوى، وما كان اللّهُ ليضيعَ إيمانَكم به واتِّباعَكم لرسولِه، ويُبطلَ صلاتَكم إلى القبلةِ السّابقة؛ إنّه - سبحانه وتعالى - بالنّاس لرءوفٌ رحيمٌ[6].

(1) السمين، عمدة الحفّاظ: (ضيع).
(2) ابن فارس، مقاييس اللغة: (رأف).
(3) الفيروابادى، القاموس المحيط: (رأف).
(4) جبل، المعجم الاشتقاقي المؤصل: (رأف).
(5) أبو حيّان، البحر المحيط: 2/7.
(6) نخبة من العلماء، التفسير الميسر: 22.

قوله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُضِيعَ إِيمَٰنَكُمۡۚ﴾؛ أي: صلاتكم إلى بيتِ المقدس، استُدِلَّ به على أنَّ الإيمانَ قولٌ وعملٌ[1].

سببُ النّزول:

أخرج البخاريُّ وأحمدُ ومسلمٌ والنَّسائيُّ عن البراءِ بن عازب ﷺ قال: إنَّ رسولَ الله ﷺ صلّى إلى بيت المقدس ستَّةَ عشر شهرًا، أو سبعةَ عشرَ شهرًا، وكان يُعجِبه أن تكون قبلته قِبَلَ البيتِ، وأنّه صلّى صلاة العصر، وصلّى معه قومٌ، فخرج رجلٌ ممّن كان صلّى معه، فمرَّ على أهل المسجدِ وهم راكعون، قال: أشهدُ باللّه لقد صلّيتُ مع النّبي ﷺ قِبَلَ مكّة، فداروا كما هُمْ قِبَلَ البيتِ، وكان الّذي ماتَ على القبلةِ قبل أن تحوّل قِبلَ البيت رجالٌ قُتِلُوا، لم ندرِ ما نقول فيهم فنزل: ﴿وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُضِيعَ إِيمَٰنَكُمۡۚ إِنَّ ٱللَّهَ بِٱلنَّاسِ لَرَءُوفٞ رَّحِيمٞ ١٤٣﴾[2].

التّدرجُ في التّغيير، وبيانُ أنَّ الخروج عن العاداتِ ممّا يشقُّ على النّفوسِ

دلّت الآية، وكذلك مجموع آيات تحويل القبلة، بما فيها من تهيئةٍ بأشكال متعدّدة قبل تغيير القبلة على أنّ التّغيير يُشترَطُ له التّدرج؛ فإنّ "الخروجَ عن العاداتِ وتَركَ الأمورِ المألوفاتِ، ممّا يشقُّ على النّفوسِ"[3]، فعلى من يتولّى مهامّ التّربية وقيادةِ المجتمعاتِ أن يتدرّجوا في مثل هذه الأمور، لأنّها ممّا يشقُّ على النّاس.

الإيضاحُ اللُّغويُّ والبلاغيُّ:

فنُّ الإطنابِ بقصدِ التّمهيدِ:

الإطنابُ يُؤسِّسُ لمعنًى جديدٍ، وهو شهادةُ هذه الأمّة على الأممِ

قولُه تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلۡنَٰكُمۡ أُمَّةٗ وَسَطٗا لِّتَكُونُواْ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِ وَيَكُونَ ٱلرَّسُولُ عَلَيۡكُمۡ شَهِيدٗاۗ﴾ من قبيل الإطناب[4]؛ لأنّها مُعترِضةٌ بين جملتي ﴿۞سَيَقُولُ ٱلسُّفَهَآءُ﴾ و﴿وَمَا جَعَلۡنَا ٱلۡقِبۡلَةَ﴾، فأصلُ الكلام بلا إطنابٍ: (سيقولُ السّفهاءُ من النّاس ما ولّاهم عن

(1) السيوطي، الإكليل في استنباط التنزيل، ص: 33.
(2) خالد المزيني، المحرر في أسباب نزول القرآن: 221-1/220.
(3) ابن عجيبة، البحر المديد: 1/176.
(4) الإطناب: زيادة اللفظ على المعنى لفائدة، أو هو تأدية المعنى بعبارة زائدة عن متعارف أوساط البلغاء؛ لفائدة تقويته وتوكيده، أحمد الهاشمي، جواهر البلاغة، ص: 201.

قبلتهم الَّتِي كَانُوا عَلَيْهَا قُلْ لِلَّهِ المَشرِقُ وَالمَغرِبُ يَهدِي مَنْ يَشَاءُ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ وما جعلنا القبلةَ الّتي كنتَ عليها)، فلمّا انتهت الجملة الأولى ببيان هدايةِ الأمّة إلى صراطِ اللّهِ المستقيم، انتقلَ - قبل أنْ يُكملَ الحديثَ عن القبلة - إلى بيان خيريّةِ هذه الأمّة وعدالتِها، ثمّ بيّنَ في هذا الإطنابِ سببَ جعل الأمّة عُدولًا خيارًا وهو الشّهادة على الأمم؛ حيثُ إنّ عدالةَ الأمّة وكونَها وسطًا لا علاقةَ له بالقبلة؛ فجيء بهذا الوصف ليُؤسَّسَ عليه معنًى جديدٌ، وهو شهادةُ هذه الأمّة على الأمم؛ لأنّ الآياتِ الواقعةِ بعدها هي في ذكر أمر القبلة، وهذه الآية لا تتعلّق بأمر القبلة"[1].

تشريفُ المؤمنين بمضمون الخِطابِ

توجيهُ الخطابِ في قولِه: ﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلۡنَٰكُمۡ﴾ "إلى المؤمنين بين الخِطابين المُختصّين بالرّسولِ ﷺ لتأييد ما في مضمون الكلامِ من التَّشريفِ"[2].

بيانُ المشبّه به في قوله ﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلۡنَٰكُمۡ﴾:

كثرةُ المُشبَّهات وقبولُ احتمالِها دليلُ اعتدالِ هذه الأمّةِ ووسطيّتها

قد يسأل سائلٌ: "ما المشبّهُ وما المشبّهُ به في قوله: ﴿وَكَذَٰلِكَ﴾؟ والجوابُ بتلخيص أقوالِ المفسِّرين:

الأوّل: "أَنَّهُ شَبَّهَ جَعْلَهُمْ أُمَّةً وَسَطًا بِهِدَايَتِهِ إِيَّاهُمْ إِلَى الصِّرَاطِ المُستَقِيم، أَي: أَنعَمْنَا عَلَيكُم بِجَعْلِكُمْ أُمَّةً وَسَطًا، مِثْلَ مَا سَبَقَ إِنعَامُنَا عَلَيكُم بِالهِدَايَةِ إِلَى الصِّرَاطِ المُستَقِيم، فَتَكُونُ الإِشَارَةُ بِذَلِكَ إِلَى المَصدَرِ الدَّالِّ عَلَيْهِ ﴿يَهۡدِي﴾، أي: جعلناكم أمّةً خِيَارًا مِثلَ مَا هَدَيْنَاكُمْ بِاتِّبَاعِ مُحَمَّدٍ ﷺ، وَمَا جَاءَ بِهِ مِنَ الحَقِّ.

"الكافُ متعلّقةٌ بالمعنى الذي في قوله: ﴿يَهۡدِي مَن يَشَآءُ﴾؛ أي: كما هديناكُم إلى قبلةِ إبراهيمَ وشريعتِه كذلكَ جعلناكُم أمّةً وسطًا "[3].

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 2/15.
(2) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 1/171-172.
(3) ابن عطية، المحرر الوجيز: 1/218-219.

الثّاني: أَنَّهُ شَبَّهَ جَعْلَهُمْ أُمَّةً وَسَطًا بِجَعْلِهِم عَلَى الصِّرَاطِ المُستَقِيم، أَيْ: جَعَلنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا مِثلَ ذَلِكَ الجَعلِ الغَرِيبِ الَّذِي فِيهِ اختِصَاصُكُم بِالهِدَايَةِ؛ لِأَنَّهُ قَالَ: يَهدِي مَنْ يَشاءُ، فَلَا تَقَعُ الهِدَايَةُ إِلَّا لِمَنْ شَاءَ اللّٰه تَعَالَى؛ "وذلكَ إشارةٌ إلى مصدرِ ﴿جَعَلۡنَٰكُمۡ﴾ لا إلى جعلٍ آخرَ مفهوم ممّا سبق كما قيل"(1).

الثّالث: كَمَا جَعَلنَا قِبلَتَكُمْ أفضلَ القِبَلِ، جَعَلنَاكُمْ خيرَ الأُمَمِ(2).

الرّابع: كَمَا جَعَلنَا قِبْلَتَكُمْ مُتَوَسِّطَةً بَينَ المَشرِقِ وَالمَغرِب، جَعَلنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا.

الخامس: كَمَا جَعَلنَا الكَعْبَةَ وَسَطَ الأَرْضِ، كَذَلِكَ جَعَلنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا.

وجميعُ هذه الأوجه فيها من اللُّطفِ الدّلاليّ، والرّبطِ المعنويِّ ما يجعلُها مقبولةً على حدٍّ سواء، وإن اختلفت في نسبها، فلاختلافِ تقديرِها.

دلالةُ اسمِ الإشارةِ في قوله ﴿وَكَذَٰلِكَ﴾:

استعمالُ اسمِ الإشارةِ الخاصّ بالبعيدِ لإفادةِ التّعظيمِ والإشادةِ بِعُلُوّ المنزلةِ

أفادت اللّامُ في "كذلك" الإشارةَ للبعيد، والإشارة للبُعد وظّفها القرآنُ الكريمُ لبيان عظمة المُشار إليه وعُلُوّ مكانته، كقوله ﷻ: ﴿ذَٰلِكَ ٱلۡكِتَٰبُ﴾، وهو قريبٌ مكانيًّا، ولكنّه بعيدٌ اعتباريًّا، ويظهرُ هذا المعنى في هذه الآية الكريمةِ التي تتحدَّثُ عن قضيّة كبيرة هي تنصيبُ أمّةٍ في مقام رفيع، وإشادةٌ بشأنها في عالَم الشّعوب والأُمم، وتنويهٌ بخيريّتها ووسَطيّتها، وهذا شأنٌ عظيمٌ ناسبه استعمالُ اسم الإشارة الخاصّ بالبعيدِ لإفادةِ التّعظيمِ والإشادةِ بِعُلُوّ المنزلةِ.

سببُ الخطابِ بالمفرد ﴿وَكَذَٰلِكَ﴾:

إغناءُ اللّحاقِ عنه؛ تخفيفًا واكتفاءً بدلالةِ المَقامِ عليه

يتضمّن اسم الإشارة حرفًا دالًّا على الخطاب، والأصلُ أن يكون مُناسبًا للمخاطَب، كقول يوسف عليه السلام: ﴿ذَٰلِكُمَا مِمَّا عَلَّمَنِي رَبِّيٓۚ﴾ [يوسف: 37] مُخاطبًا صاحِبَيْه في السّجن، وقول امرأة العزيز مُخاطبةً النّسوة اللاتي كُنّ في مجلسها: ﴿فَذَٰلِكُنَّ ٱلَّذِي لُمۡتُنَّنِي فِيهِۖ﴾ [يوسف: 32]، وفي هذه الآية، الخطابُ مُوَجّهٌ إلى جماعة المسلمين:

(1) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 1/172.

(2) البيضاوي، أنوار التنزيل: 1/110.

﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلۡنَٰكُمۡ أُمَّةٗ وَسَطٗا﴾، فكان مقتضى الظّاهر أن يُقال: كذلكم، ولكنّه وحّد الخطاب[1]؛ لأنّ تعيينَ المخاطَبِ ظاهرٌ في ﴿جَعَلۡنَٰكُمۡ﴾ التّالي لاسمِ الإشارة، فيكونُ تخفيفًا؛ اكتفاءً بدلالةِ المَقامِ مع عدمِ إثقالِ النّصّ.

دلالةُ الانتقالِ من الحديثِ عن السُّفهاءِ إلى خطابِ المُؤمنين:

يُمثِّلُ الانْتقالُ إهمالَ السُّفهاءِ والتَّوجُّه كليًّا إلى المُؤمنين

في الآيةِ السّابقة كان حديثُ الآيةِ عن السّفهاءِ، وكان الكلامُ عنهم بأسلوبِ الغَيْبةِ، وفي هذه الآيةِ انتقلَ إلى مخاطبةِ المُسلمين بيانًا لفضلِهم، وإظهارًا لمزيدِ تكريمِهم، فالسِّياق ضربَ صَفْحًا عن السُّفهاءِ، بهذا الوصفِ المشين، وتوجَّه بخطابِ المُسلمين خطابًا يلملم معانيَ الشَّرفِ والمجدِ الدَّائم.

إيثارُ الوصفِ بالمصدرِ المُذكَّرِ ﴿أُمَّةٗ وَسَطٗا﴾:

الوصفُ بالمصدرِ يفيدُ المبالغةَ، في بيانِ وسطيَّةِ الأمَّةِ

الأصلُ في التّعبيرِ الوصفُ بالمُشتَقّ، ولكنّ البيانَ القرآنيَّ آثرَ لفظَ ﴿وَسَطٗا﴾ وهو مصدرٌ دون متوسِّطةً؛ تصويرًا للمبالغةِ في وصفِ أفرادِ الأمّة كلِّها بأنّهم عُدولٌ خيارٌ أهلُ فضلٍ، والوصفُ بالمصدرِ يدخلُ في بابِ المبالغةِ، كأنّهم تحوّلوا حقيقةً إلى كونِهم وَسَطًا، وجاءَ الوصْفُ مذكَّرًا "لِكَونِهِ اسمًا كَانَ لِلوَاحِدِ والجمعِ وَالمُذَكَّرِ وَالمُؤَنَّثِ بِلَفظٍ وَاحِدٍ"[2]، وفيه أنَّ هذه الأمَّةَ يحملُ بعضُها بعضًا، فهم مُتكاتفون على الخيرِ، آمرون بالمعروف، ناهون عن المنكر، وبه كانوا أمَّةً وسطًا؛ إذ وسطيَّةُ الإسلامِ تعني الالتزامَ بشرعِ اللّه تعالى، كما أنزلَه دون تحريفٍ مقصودٍ، أو تأويلٍ لموافقةِ الهوى بحجَّةِ الوسطيَّةِ، فالوسطيَّةُ هي حكمُ اللّه تعالى لا آراءُ الرِّجالِ، ولا أهواءُ ذوي المالِ.

---

(1) البروسوي، روح البيان: 1/247-248.
(2) أبو حيّان، البحر المحيط: 2/6.

لُطفُ الاستعارة في وصفِ ﴿أُمَّةً﴾ بـ ﴿وَسَطًا﴾:

الخصالُ المحمودَةُ وسطٌ بين الخصالِ الذَّميمةِ، وهذا حالُ الأمَّة مع غيرِها

الوسطُ "في الأصل اسمٌ لما يستوي نسبةُ الجوانبِ إليه كالمركز، ثمَّ استُعيرَ للخصالِ المحمودة البشريّةِ؛ لكونها أوساطًا للخصال الذَّميمةِ المكتنفَةِ بها في طرفي الإفراطِ والتّفريطِ كالجُودِ بين الإسرافِ والبُخلِ، والشّجاعةِ بين الجُبن والتّهور"[1]، وعلى ذلك فمعنى: "﴿أُمَّةً وَسَطًا﴾؛ أي: خيارًا عدولًا، فالوسطُ مستلزِمٌ للخيار والعُدول، فأطلقَ الملزومَ وأراد اللّازمَ، فيكونان استعارةً"[2]، والأمَّةُ وسطٌ بين الأمم؛ كالخصالِ الحميدةِ بين الخصالِ الذّميمة.

معنى حرفِ اللّامِ في ﴿لِّتَكُونُواْ﴾:

معيارُ الوسطيَّةِ الشَّهادةُ على النَّاسِ

اللَّامُ في قَوْلِهِ: ﴿لِّتَكُونُواْ﴾ هِيَ لَامُ كَيْ، فَمَجِيءُ مَا بَعْدَهَا سَبَبًا لِجَعْلِهِم خِيَارًا[3]؛ فقوله تعالى: ﴿لِّتَكُونُواْ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِ﴾ تعليلٌ لجعل المسلمين أمّةً وسطًا، وفيه إعدادٌ نفسيٌّ لهم ليأخذُوا الأمانةَ بقوّة ويشهدوا شهادةَ حقٍّ حين يُطلَبُ منهم ذلك، فإنْ قيل: "كيفَ جعلَهم وسَطًا؟ ألِخُلُقٍ أم لِخَلْقٍ خصّهم به؟ أم لِعِلْم رَكَزه فيهم؟ أم لشرعٍ شرعَه لهم؟ قيل: قد خصّهم بكلّ ذلك، والظّاهر من ذلك هي الشّريعة الّتي إذا اعتُبِرت بسائرِ الشَّرائعِ وُجِدَ لها حدُّ الاعتدالِ"[4].

دلالةُ حرفِ الاستعلاءِ في قولِه: ﴿شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِ﴾:

ضُمّنَ ﴿شُهَدَآءَ﴾ معنى الرّقيبِ والمُهَيْمِنِ على المشهودِ له

فعلُ الشّهادة يتعدّى بحرفي الجرّ (على) و(اللّام)، والمعهودُ في كلام العرب أنّ (شهِدَ لـ) تُستعمَلُ فيما فيه منفعةٌ، و(شهِدَ على) تُستعمَلُ فيما فيه مَضرّة، وقد جاء تعدّي فعلِ الشّهادةِ في هذه الآيةِ بحرفِ الاستعلاء (على)، و"إِنَّمَا قَالَ: ﴿شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِ﴾ وَلَمْ

---

(1) محمود صافي، الجدول في إعراب القرآن: 2/293.
(2) الهرري، حدائق الروح والريحان: 3/23.
(3) أبو حيّان، البحر المحيط: 2/13.
(4) الرّاغب، تفسير الراغب: 1/329.

يَقُلْ: (شُهَدَاءَ لِلنَّاسِ) لأَنَّ قَولَهُمْ يَقتَضِي التَّكليفَ إِمَّا بِقَولٍ وَإِمَّا بِفعلٍ، وَذَلِكَ عَلَيهِ لَا لَهُ فِي الحَالِ"[1].

وذهب الزّمخشريُّ إلى أنّ فِعْلَ الشّهادةِ في قوله تعالى: ﴿وَيَكُونَ ٱلرَّسُولُ عَلَيۡكُمۡ شَهِيدًاۗ﴾ ضُمّنَ معنى الرّقيبِ والمُهَيْمِن على المشهودِ له، فقال: "فإنْ قلتَ: هلّا قيلَ: لكم شهيدًا، وشهادتُهُ لهم لا عليهم! قلتُ: لمّا كان الشّهيدُ كالرّقيبِ والمُهيمن على المشهود له، جيءَ بكلمةِ الاستعلاء، ومنه قوله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ شَهِيدٌ ٦﴾ [المجادلة: 6]، ﴿كُنتَ أَنتَ ٱلرَّقِيبَ عَلَيۡهِمۡۚ وَأَنتَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ شَهِيدٌ ١١٧﴾ [المائدة: 117]"[2].

والشأنُ نفسُه يسري في شهادةِ الأمّة الإسلاميّة على جميع الأمَم، قال العلاّمةُ الطّيبيُّ: "وقلتُ: التّحقيقُ فيه ما قرّرْناهُ أنَّ (شهِدَ عليه) إنّما تُستَعْمَلُ فيما فيه مَضَرّةُ المشهودِ عليه، وأوجبَ ها هنا مقامُ المَدحِ الحُكمَ بالعَكس، وأنْ يُضَمَّنَ الشّهيدُ معنى الرّقيب والمُهيمن ليُفيدَ معنى التَّزكية؛ لأَنَّ المُزَكِّيَ لا بُدَّ أن يكونَ مُراقِبًا على أحوال المُزَكّى، فإذا شاهدَ منه ما اقتضى الصّلاحَ والرُّشدَ والهدايةَ لا يشهدُ إلّا بعدالته، ولا يَصدُرُ منه إلّا تزكيتُهُ؛ ففي الكلام تضمينٌ ثمّ كناية، والله أعلم"[3].

التّنبيهُ عَلَى اتّصافِهِ ﷺ بالرِّسَالَةِ مِنْ عِندِ اللَّهِ إِلَى أُمَّتِهِ

إيثارُ التّعبيرِ بالرّسول:

"وَأَتَى بِلَفْظِ الرَّسُولِ، لِمَا فِي الدَّلَالَةِ بِلَفْظِ الرَّسُولِ عَلَى اتِّصَافِهِ ﷺ بِالرِّسَالَةِ مِنْ عِندِ اللَّهِ إِلَى أُمَّتِهِ"[4].

تشريفُ هذه الأمّةِ؛ فإنّها تشهدُ على الأمَمِ ولا يشهدُ عليها إلّا رسولُها

اختلافُ التّقديمِ والتّأخيرِ في قولِه: ﴿شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِ﴾ و﴿عَلَيۡكُمۡ شَهِيدًاۗ﴾:

في هذا الجزءِ من الآية نجدُ تقديمًا وتأخيرًا بين تركيبين مُتقاربين مُتعاطفين هما: ﴿شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِ﴾، و﴿عَلَيۡكُمۡ شَهِيدًاۗ﴾؛ حيثُ قدّم الجارّ والمجرورَ، في قوله: ﴿عَلَيۡكُمۡ شَهِيدًاۗ﴾ وأخّر في قوله: ﴿شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِ﴾.

(1) الرازي، التفسير الكبير: 4/88-89.
(2) الزمخشري، الكشاف: 1/199.
(3) الطّيبي، فتوح الغيب: 3/134.
(4) أبو حيّان، البحر المحيط: 2/14.

"أُخِّرت صلةُ الشّهادةِ أوّلًا وقُدِّمت آخرًا؛ لأنّ المرادَ في الأول إثباتُ شهادتِهم على الأمَم، وفي الآخر اختصاصُهم بكون الرّسولِ شهيدًا عليهم"(1)، فتقديمُ الجارّ والمجرور ﴿عَلَيۡكُمۡ﴾ يُفيدُ الحصر(2)؛ لبيان اختصاصِ شهادةِ النّبيِّ ﷺ بأمّتِه، ولم يقدّم الجارَّ والمجرورَ ﴿عَلَى ٱلنَّاسِ﴾ في قوله: ﴿شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِ﴾؛ لأنّه لم يقصد الحَصرَ(3)، "وقدمت الصلةُ للدّلالةِ على اختصاصِهم بكون الرّسول شهيدًا عليهم"(4)، ولا يخفى أنّ في هذا التّقديم تشريفًا لأمر هذه الأمّة؛ حيثُ إنّها تشهدُ على الأمم والرّسل وهي لا يشهدُ عليها إلّا رسولُها(5).

أمّا "﴿عَلَيۡكُمۡ شَهِيدٗاۗ﴾ فَتَقَدَّمُهُ مِنْ بَابِ الاتِّسَاعِ في الكَلَامِ لِلفَصَاحَةِ، وَلِأَنَّ ﴿شَهِيدٗاۗ﴾ أَشبَهُ بِالفَواصِلِ والمَقَاطِعِ مِنْ قَولِهِ: ﴿عَلَيۡكُمۡ﴾، فَكَانَ قَولُهُ: ﴿شَهِيدٗاۗ﴾ تَمَامَ الجُملَةِ، وَمَقطَعَهَا دُونَ ﴿عَلَيۡكُمۡ﴾، وَمَا ذَهَبَ إِلَيهِ الزَّمَخْشَرِيُّ مِنْ أَنَّ تَقدِيمَ (عَلَى) أَوَّلًا، لأَنَّ الغَرَضَ فِيهِ إِثبَاتُ شَهَادَتِهِمْ عَلَى الأُمَمِ وَتَأخِير (عَلَى) لِاختِصَاصِهِم بِكَونِ الرَّسُولِ شَهِيدًا عَلَيهِم، فَهُوَ مَبْنِيٌّ عَلَى مَذهَبِهِ: أَنَّ تَقدِيمَ المَفعُولِ وَالمَجرُورِ يَدُلُّ عَلَى الاختِصَاصِ، وَقَدْ ذَكَرنَا بُطلَانَ ذَلِكَ فِيمَا تَقَدَّمَ، وَأَنَّ ذَلِكَ دَعوَى لَا يَقُومُ عَلَيهَا بُرهَانٌ"(6).

جمالُ المقابلة بين الجُملِ:

جملةُ: ﴿لِّتَكُونُواْ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِ﴾ وجملة: ﴿وَيَكُونَ ٱلرَّسُولُ عَلَيۡكُمۡ شَهِيدٗاۗ﴾ بُنِيَتا على نسَقٍ واحدٍ، مع اختلاف في التّقديم والتّأخير، وهذا مُحسّنٌ معنويٌّ من مُحسّنات الكلام يُسمّى: المقابلة(7).

عَوْدٌ على بَدْءٍ:

بعدما انتَهَى الاستطرادُ في الجملةِ الاعتراضيّةِ ﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلۡنَٰكُمۡ﴾ التي بيّنت

---

(1) النسفي، مدارك التنزيل: 1/138.

(2) الحصر، أو القصر: هو تخصيص شيء بشيء بطريق مخصوص، أو هو تخصيص الحكم بالمذكور في الكلام، ونفيه عن سواه، أحمد الهاشمي، جواهر البلاغة، ص: 165

(3) الزّمخشري، الكشّاف: 1/199- 200، وابن جزي، التّسهيل لعلومِ التّنزيل: 1/99.

(4) البيضاوي، أنوار التنزيل: 1/111.

(5) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 2/22.

(6) أبو حيّان، البحر المحيط: 2/13- 14.

(7) المقابلة: هي أن يُؤتى بمعنيين متوافقين أو أكثر، ثمّ يؤتى بما يُقابل ذلك على التّرتيب، والمُراد بالتّوافق خلاف التّقابل، التفتازاني، مختصر المعاني، ص: 380.

مزيدُ تفصيلٍ في شأنِ القِبلةِ

وَسَطيَّةَ الأمّةِ وكونَها شاهدةً على الأمم، رجعَ الحديثُ إلى الإجابةِ عن اعتراضِهم الذي أثاروه حولَ موضوعِ تحويلِ القبلة: ﴿مَا وَلَّىٰهُمۡ عَن قِبۡلَتِهِمُ ٱلَّتِي كَانُواْ عَلَيۡهَاۚ﴾، فجاءَ بمزيدٍ من التّفصيلِ في الموضوع.

تفخيمُ شأنِ القِبلةِ في قولِهِ ﴿وَمَا جَعَلۡنَا ٱلۡقِبۡلَةَ﴾:

أسندَ الجعلُ إلى ضميرِ المتكلّمين ﴿جَعَلۡنَا﴾ العائدِ إلى اللّهِ تعالى تفخيمًا لشأن القبلةِ وتشريفًا لها[1].

نُكتةُ تعريفِ القِبلةِ بالألفِ واللّامِ:

الـــــرّدُّ عـلى المــشــركــين مُشاكلٌ لجنسِ لفظِهم

تكرّرَ قولُه تعالى: ﴿ٱلۡقِبۡلَةَ ٱلَّتِي كُنتَ عَلَيۡهَآ﴾؛ حيثُ وردَ في الآيةِ السّابقةِ لهذه الآية: ﴿قِبۡلَتِهِمُ ٱلَّتِي كَانُواْ عَلَيۡهَاۚ﴾، وفي هذه الآيةِ جاءت كلمةُ القبلة معرّفةً بالألف واللّام التّي تفيدُ العهدَ الذِّكْريّ[2]، بمعنى القبلةِ الّتي مضى ذكرُها آنفًا، وعدلَ عن التّعبير عنها باسمِها فلم يقل: (وما جعلنا قبلةَ بيتِ المقدسِ)، بل عبّرَ عنها بالاسم الموصولِ؛ لتحقيقِ التّماثل مع بناءِ الجملة الّتي عبّرت عن حديثهم: ﴿قِبۡلَتِهِمُ ٱلَّتِي كَانُواْ عَلَيۡهَاۚ﴾[3]؛ ليكون الرّدُّ عليهم مُشاكلًا ومُماثلاً لجنس لفظِهم، وكذلك فإنّ تكرارَ العباراتِ يمنحُ النّصَّ إيقاعًا جميلًا ويزيدُ في تماسُك أجزائِه، ويدعو السّامعَ إلى استذكار العباراتِ السّابقةِ والرّبط بينها.

حذفُ المضافِ في قولِه: ﴿وَمَا جَعَلۡنَا ٱلۡقِبۡلَةَ ٱلَّتِي كُنتَ عَلَيۡهَآ﴾:

حُذِفَ المضافُ في قولِه: ﴿وَمَا جَعَلۡنَا ٱلۡقِبۡلَةَ﴾ "والمعنى: وما جعلنا صرفَ القبلةِ الّتي كنتَ عليها وتحويلِها، فحذفَ المضافَ وأُقيمَ المضافُ إليه مقامَهُ"[4].

(1) محمد بن سعد الدّبل، دليل البلاغة القرآنية: 1/198.
(2) العهد الذّكري: أن يتقدم للمعرّف به ذِكرٌ سابقٌ في اللفظ نحو (زارنا رجلٌ فأكرمتُ الرّجلَ)، والمعنى أنك أكرمت الرّجل الّذي تقدم ذكره في العبارة.
(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 2/22.
(4) ابن عطية، المحرر الوجيز: 1/220.

القصرُ في قوله ﴿وَمَا جَعَلۡنَا ٱلۡقِبۡلَةَ ٱلَّتِي كُنتَ عَلَيۡهَآ إِلَّا لِنَعۡلَمَ﴾:

علّةُ تحويل القِبلةِ امتحانُ النّاسِ في اتِّباعِهم وثباتِهم

النّفيُ والاستثناءُ من طُرقِ القصر[1]، فقوله: ﴿إِلَّا لِنَعۡلَمَ﴾ "استِثنَاءٌ مُفَرَّغٌ مِنَ المَفعُولِ لَهُ، وفِيهِ حَصرُ السَّبَبِ، أَي: مَا سَبَّبَ تَحوِيلَ القِبلَةِ إِلَّا كَذَا"[2]، "﴿إِلَّا لِنَعۡلَمَ﴾ استثناءٌ مفرغٌ من أعمِّ العِلَلِ، أي: ما جَعَلنا ذلك لشيءٍ من الأشياءِ إلّا لنمتحنَ النّاسَ، أي: نعاملُهم معاملةَ منْ يمتحنُهم"[3].

وقد جاء القصرُ في الآيةِ ليبيّن العلّةَ من تحويلِ القبلةِ، وهو الجوابُ عن سؤالِهم: ﴿مَا وَلَّىٰهُمۡ عَن قِبۡلَتِهِمُ﴾؛ فإنَّ تحويلَ القبلة ليس حدثًا عبثيًّا خاليًا من الغايةِ والهدفِ، بل هناك كثيرٌ من الأسبابِ الّتي يمكنُ أن تقعَ في خيالِ المتأمّل والباحثِ عن الجوابِ، فجاءت الآيةُ تنفي جميعَ تلك التّخمينات وتحصرُ العلّةَ في شيءٍ واحدٍ، فهو "استثناءٌ من عِللٍ وأحوالٍ، أي: ما جعلنا ذلك لسَبَبٍ وفي حالٍ إلّا لنُظْهِرَ مَنْ كان صادقَ الإيمان في الحالتين: حالةِ تشريع استقبال بيت المقدس، وحالةِ تحويلِ الاستقبال إلى الكعبة[4]؛ فإنّ اللّه - جلّ شأنُه - لا تغيبُ عنه طويَّتُهم، ولا يحتاجُ إلى ابتلاء ليَكشِفَها، ولكنّه يُظْهِرها لنا من خلال بعض الأحداثِ؛ حتّى نعلمَها نحن، فالكشفُ والإعلامُ ليس للّهِ سبحانه، بل هو لنا، ونظيرُ ذلك قولُه: ﴿وَلَنَبۡلُوَنَّكُمۡ حَتَّىٰ نَعۡلَمَ ٱلۡمُجَٰهِدِينَ مِنكُمۡ وَٱلصَّٰبِرِينَ﴾ [محمد: 31].

المجازُ بإسنادِ العِلْمِ الحادثِ لله تعالى في: ﴿إِلَّا لِنَعۡلَمَ مَن يَتَّبِعُ ٱلرَّسُولَ﴾:

علمُ اللّهِ تَعَالَى أزَليٌّ، وما جاءَ في الآيةِ فمحمولٌ على ما يليقُ بالله سبحانه

إنِ استشكلَ مُستشكِلٌ إسنادَ العلمِ الحادثِ للّه تعالى، فقال: "هذا الكلامُ يوجِبُ أن يكون تحويلُ القبلةِ سببًا لأن يعلمَ اللّهُ من

---

(1) القصر: هو تخصيص شيء بشيء بطريق مخصوص، والطّريق المخصوص في الآية: (النفي والاستثناء).

(2) أبو حيّان، البحر المحيط: 2/15.

(3) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 1/173.

(4) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 2/22.

يتّبعُ الرّسولَ ممن ينقلبُ على عَقِبيه، وليس الأمرُ هكذا؛ لأنّه عالمٌ قبل الأشياءِ وقبل تحويلِ القبلة، فما وجهُ هذا الكلام؟ فالجوابُ:

قال قومٌ: معنى قولِه: ﴿إِلَّا لِنَعْلَمَ﴾؛ أي: لنرى، فعبّرَ عن الرؤيةِ بالعلم.

وقال قومٌ: إلّا لنميّز هؤلاءِ من هؤلاءِ.

وقال قومٌ: إنّ علمَ الله تعالى يشتملُ على الموجودِ والمعدوم، فالعلمُ بالموجودِ يُوجبُ الثّوابَ والعقابَ، والعلمُ بالمعدوم لا يُوجبُ شيئاً حتّى يُوجده، فإذا أوجده علمه موجودًا، فهذا العلمُ بعد الوجودِ حينئذٍ يُوجبُ الثّوابَ والعقابَ، فهذا شيءٌ يرجعُ إلى المعلوم لا إلى العلم، فإذا حصلَ المعلومُ تعلّق به ما يتعلّقُ بسائر الموجوداتِ، وإذا لم يحصل المعلومُ لم يتعلّق به حكمُه"[1].

وقال قومٌ: "أُوِّلَ عَلَى حَذفِ مُضَافٍ، أَي: لِيَعلَمَ رسولُنا والمؤمنون، وأسند عِلمَهُمْ إلى ذَاتِهِ، لأَنَّهُمْ خَوَاصُّهُ وَأَهْلُ الزُّلفى لَديه، فَيَكُونُ هَذَا مِنْ مَجَازِ الحَذفِ"[2].

"أَوْ عَلَى أَنَّهُ أَرَادَ بِالعِلمِ التَّثبِيتَ، أَي: لِنُثَبِّتَ التَّابِعَ، وَيَكُونُ مِنْ إِطلَاقِ السَّببِ، ويرادُ به المُسَبَّب؛ لأَنَّ مَنْ عَلِمَ اللَّه أَنَّهُ مُتَّبِعٌ لِلرَّسُولِ، فَهُوَ ثَابِتُ الاتِّبَاعِ.

أَو عَلَى أَنَّهُ أُرِيدَ بِالعِلمِ الجَزَاءُ، أَي: لِنُجَازِيَ الطَّائِعَ وَالعَاصِيَ، وَكَثِيرًا مَا يَقَعُ التَّهدِيدُ فِي القُرآنِ، وَفِي كَلَامِ العَرَبِ، بِذِكرِ العِلمِ، كَقَوْلِكَ: زِيدٌ عَصَاكَ، وَالمَعنَى: أَنَا أُجَازِيهِ عَلَى ذَلِكَ.

أَو عَلَى أَنَّهُ أُرِيدَ بِالمُستَقبَلِ هُنَا المَاضِي، التَّقدِيرُ: لِّمَا عَلِمنَا، أَوْ لِعِلمِنَا مَنْ يَتَّبِعُ الرَّسُولَ مِمَّنْ يُخَالِفُ.

فَهَذِهِ كُلُّهَا تَأْوِيلَاتٌ فِي قَوْلِهِ: ﴿لِنَعْلَمَ﴾، فِرَارًا مِنْ حُدُوثِ العِلمِ وَتَجَدُّدِهِ، إِذ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ مُستَحِيلٌ، وَكُلُّ مَا وَقَعَ فِي القُرآنِ، مِمَّا يَدُلُّ عَلَى ذَلِكَ، أُوِّلَ بِمَا يُنَاسِبُهُ من هَذِهِ التَّأْوِيلَاتِ"[3].

(1) الباقولّي، كشف المشكلات: 2/106.
(2) أبو حيّان، البحر المحيط: 2/15-16.
(3) أبو حيّان، البحر المحيط: 2/16.

اجتماعُ فنَّيِ الالتفاتِ مع إظهارِ ما حقُّه الإضمار:

الالتفاتُ إلى الغَيبةِ مع إيرادِهِ ﷺ بعنوانِ الرِّسالةِ للإشعارِ بعلّةِ الاتباعِ

قال جلّ شأنه: ﴿وَمَا جَعَلْنَا ٱلْقِبْلَةَ ٱلَّتِى كُنتَ عَلَيْهَآ إِلَّا لِنَعْلَمَ مَن يَتَّبِعُ ٱلرَّسُولَ﴾ ولم يقل: (يتّبِعُك)، حيثُ وجّهَ الخطابَ في البداية إلى النّبيّ ﷺ ﴿كُنتَ﴾، فكان الظّاهرُ أن يستعملَ الضّميرَ دون الاسم الظّاهر، فتحقّقَ هنا التفاتٌ من الخِطابِ إلى الغَيْبة، ومن الإضمارِ إلى الإظهار؛ حيثُ صرّح بلفظِ الرّسول لبيان أنّ سببَ الاتّباع هو الرّسالةُ، وأنّ هذا الحُكْمَ هو تبليغٌ من الرّسول، وليس من محمد ﷺ بوصفِه إنسانًا، فأظهَرَ لفظَ ﴿ٱلرَّسُولَ﴾ بيانًا لوَجْه التّشريع في المسألة، وتعظيمًا لأمر القبلة، وحثًّا على اتّباع النّبيّ [1]، "والالتفاتُ إلى الغيبةِ مع إيرادِهِ ﷺ بعنوان الرّسالة للإشعار بعلّة الاتباع"[2].

وظيفَةُ الاستعارةِ في تصوير المرتدّ على عَقِبَيْه بقولِه ﴿يَنقَلِبُ عَلَىٰ عَقِبَيْهِۚ﴾:

المرتَدُّ عن دينِه كالماشي المنقلِب على عَقِبيه، وهو أسوأُ حالاتِ المنقلِبِ

قولُه جلّ شأنه: ﴿مِمَّن يَنقَلِبُ عَلَىٰ عَقِبَيْهِۚ﴾ معناه: من يكفر بالله ورسولِه ويَرْتدّ عن دينه، وهو استعارةٌ، ووجْهُها: أنّ الـمُنقلِبَ على عَقِبَيْه قد تركَ ما بين يديه وأدبرَ عنه، أي: أنّهم لـمّا تركُوا الإيمانَ والدّلائلَ صاروا بمنزلة الـمُدبِر عمّا بين يديه فوُصِفوا بذلك[3]، وهذا التّعبيرُ من الاستعارة التّمثيليّة[4] الّتي يكون فيها وجهُ الشّبَه مُنتَزَعًا من متعدّدٍ، "بجامعِ أن المنقلبَ يتركُ ما في يديه ويدبرُ عنه على أسوأ أحوالِ الرّجوع، وكذلك المرتدُّ يرجعُ عن الإسلام ويتركُ ما في يديه من الدلائلِ على أسوأ حال"[5]؛ "فلذلك شُبّه المرتدُّ في الدّين به، وظاهرُ التّشبيه أنّه بالـمُتقهقر، وهي مشيةُ الحيوانِ

(1) القنّوجي، فتح البيان في مقاصد القرآن: 1/302.

(2) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 1/173.

(3) الرّازي، التفسير الكبير: 4/90.

(4) الاستعارة التّمثيلية: اللفظ المُركّب المُستعمل فيما شُبِّه بمعناه الأصلّي تشبيهَ التّمثيلِ للمبالغة في التّشبيه، أي: تشبيهُ إحدى صورتين منتزعتين من أمرين أو أمور بالأخرى، ثمّ تدخل المشبهَ في جنس المشبهِ بها، مبالغةً في التّشبيه، فتُذكر بلفظها من غير تغيير بوجه من الوجوه، الإيضاح في علوم البلاغة، ص: 284.

(5) محمود صافي، الجدول في إعراب القرآن: 2/293.

الفازع من شيءٍ قد قَرُبَ منه"[1]، أي: أنّه سبحانه وصفَ المرتَدَّ عن دينِه كالماشي المنقلِب على عَقِبيه الرّاجعِ القَهقَرى، وهو أسوأُ حالاتِ الرّاجع في مَشْيِه عن وجهِه.

قال الشّيخُ رشيدُ رضا: "ومعنَى الانقلابِ على العَقِبين هو الانصرافُ عن الشّيء بالرُّجوع إلى الوراءِ، وهو طريقُ العَقِبين، فالـمُنقلِبون قد خرجُوا من عِداد الـمُؤمنين، وعادوا إلى ما كانوا عليه من الكفر"[2].

نُكتةُ المجازِ في ﴿عَلَىٰ عَقِبَيۡهِۚ﴾:

"المجازُ المرسلُ في قوله: ﴿عَلَىٰ عَقِبَيۡهِۚ﴾، والعلاقةُ هي المصيرُ والمآل، فليس ثمّةَ أسمجُ ولا أقبحُ من رؤية الإنسانِ معكوسَ الخِلقةِ، مخالفًا للمألوفِ المعتادِ"[3].

فنُّ الطِّباقِ في قولِه: ﴿يَتَّبِعُ﴾ وقولِه: ﴿يَنقَلِبُ﴾:

في قوله تعالى: ﴿وَمَا جَعَلۡنَا ٱلۡقِبۡلَةَ ٱلَّتِي كُنتَ عَلَيۡهَآ إِلَّا لِنَعۡلَمَ مَن يَتَّبِعُ ٱلرَّسُولَ مِمَّن يَنقَلِبُ عَلَىٰ عَقِبَيۡهِۚ﴾ طِباقٌ؛ حيث جمعَ بين فعلين متقابلين في المعنى؛ ﴿يَتَّبِعُ﴾ ﴿يَنقَلِبُ﴾، وهو من المحسّناتِ المعنويّة[4].

فائدةُ التّوكيدِ في قوله ﴿وَإِن كَانَتۡ لَكَبِيرَةً﴾:

تحويلُ القبلة الـمُفاجئ شاقٌّ على النّفوس، فاقتَضَى المقامُ مزيدًا من التّوكيدِ

(إنْ) في قوله تعالى: ﴿وَإِن كَانَتۡ لَكَبِيرَةً﴾ هي الـمُخفّفَة من (إنَّ) المؤكّدة، والدّليلُ على أنّها (إنْ) المخفّفَة: دخولُ اللّام المؤكّدة -و"هي الفارقةُ بينها وبين النّافية"[5]- على الخبر ﴿لَكَبِيرَةً﴾، والغرضُ من تخفيفها إيلاؤُها ما لم يَجُزْ أنْ يلِيَها من الفعل، ومُسوّغُ التّوكيد في هذا السّياق هو أنّ أمْرَ تحويل القبلة الـمُفاجئ من بيت الـمَقْدس إلى الكعبة المشرّفة في مكّة المكرّمة لم يَكُنْ سهلًا ميسورًا، وإنّما هو ممّا يَشُقّ على النّفوس ويُبَلبِلُ بعضَها، فاقتضى المقامُ مزيدًا من التّوكيد في عرض الخبر فجيء بـ (إن) المخفّفَة.

(1) ابن عطية، المحرر الوجيز: 1/220.
(2) رشيد رضا، المنار: 2/9، وابن عاشور، التحرير والتنوير: 24-2/23.
(3) محيي الدين درويش، إعراب القرآن وبيانه: 1/203.
(4) محمد الدبل، دليل البلاغة القرآنية: 1/200.
(5) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 1/173.

مرجعُ الضّمير في قوله: ﴿وَإِن كَانَتۡ لَكَبِيرَةً﴾:

الضّميرُ في قوله: ﴿كَانَتۡ﴾ فيه وجهان[1]:

الضّميرُ في (كانت) راجعٌ إلى القبلةِ، أو إلى التّحوُّل إلى الكَعبةِ

الأوَّل: يعودُ إلى القبلة؛ لأنّه لا بدَّ له من مذكورٍ سابقٍ، وما ذاك إلّا القبلةُ إلى بيتِ المقدس[2] في قوله: ﴿وَمَا جَعَلۡنَا ٱلۡقِبۡلَةَ ٱلَّتِي كُنتَ عَلَيۡهَآ﴾ [البقرة: 143].

الثّاني: أنّه عائدٌ إلى ما دلَّ عليه الكلامُ السّابقُ وهو مُفارقةُ القبلةِ، والتّأنيثُ للتّولية؛ لأنّه قال: ﴿مَا وَلَّىٰهُمۡ عَن قِبۡلَتِهِمُ ٱلَّتِي كَانُواْ عَلَيۡهَاۚ﴾، ثمّ قال عطفًا على هذا: ﴿وَإِن كَانَتۡ لَكَبِيرَةً﴾، أي: وإن كانت التّولية إلى الكعبةِ[3].

حذفُ الضّمير للإيجاز في قولِه: ﴿ٱلَّذِينَ هَدَى ٱللَّهُۗ﴾:

في قولِه تعالى: ﴿إِلَّا عَلَى ٱلَّذِينَ هَدَى ٱللَّهُۗ﴾ إيجازٌ بالحذفِ، "أي: هداهُم اللّه؛ فحذَفَ العائدَ من الفعلِ إلى ﴿ٱلَّذِينَ﴾، وهو كثيرٌ في التّنزيل، كقوله تعالى: ﴿أَهَٰذَا ٱلَّذِي بَعَثَ ٱللَّهُ رَسُولًا ٤١﴾ [الفرقان: 41]؛ أي: بعثَه اللّه، فحذف الهاءَ، ولم يثبتها كما أثبتها في قوله: ﴿إِلَّا كَمَا يَقُومُ ٱلَّذِي يَتَخَبَّطُهُ ٱلشَّيۡطَٰنُ مِنَ ٱلۡمَسِّۚ﴾ [البقرة: 375] وقوله: ﴿كَٱلَّذِي ٱسۡتَهۡوَتۡهُ ٱلشَّيَٰطِينُ فِي ٱلۡأَرۡضِ﴾ [الأنعام: 71] وقوله: ﴿وَٱتۡلُ عَلَيۡهِمۡ نَبَأَ ٱلَّذِيٓ ءَاتَيۡنَٰهُ﴾ [الأعراف: 175]"[4].

الإظهارُ في موضع الإضمارِ في: ﴿وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُضِيعَ إِيمَٰنَكُمۡۚ﴾:

غرضُ الإظهارِ التّعظيمُ وتربيةُ المَهابةِ

جاء التّعبيرُ في الآياتِ السّابقةِ بضمير المُتكلّمينَ، أو (نا) الفاعلين الّتي تعودُ على اللّه تعالى: ﴿جَعَلۡنَٰكُمۡ﴾، ﴿وَمَا جَعَلۡنَا﴾، ﴿لِنَعۡلَمَ﴾، أمّا في قوله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُضِيعَ إِيمَٰنَكُمۡۚ﴾ فأظهر

(1) الزّمخشري، الكشّاف: 1/200، والرّازي، التفسير الكبير: 4/91.
(2) ابن عطية، المحرر الوجيز: 1/220.
(3) ابن عطية، المحرر الوجيز: 1/220.
(4) الباقولّي، كشف المشكلات: 2/109.

لفظَ الجلالة، ولم يقُلْ: (وما كنّا)، وهذا عدولٌ إلى الإظهار بدلَ الإضْمَارِ، والغرضُ منه التّعظيمُ وتربيةُ المَهابة، قال ابنُ عاشور: "وذِكْرُ اسمِ الجلالةِ من الإظهارِ في مَقامِ الإضمارِ للتّعظيم"(1).

نُكتةُ نفيِ الكَينونَةِ دون نفيِ الفِعلِ في قولِه: ﴿وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُضِيعَ إِيمَٰنَكُمۡۚ﴾:

تنزيهُ الله تعالى مـن أن يُضيع جـزاءَ أحـدٍ من عبادِه

نفى اللّه كينونةَ إضاعةِ الإيمان في قولِه: ﴿وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُضِيعَ إِيمَٰنَكُمۡۚ﴾، ولم ينفِ إضاعةَ الإيمانِ، فلم يقل: وما أضاع اللّه إيمانكم، ونحوه، "أي: ما كان اللّهُ مريداً أو متصدياً لأن يُضيعَ الإيمانَ، ففي توجيه النّفي إلى إرادة الفعل تأكيدٌ ومبالغةٌ ليس في توجهه إلى نفسه"(2)؛ حيثُ أوقعَ النّفيَ على ﴿كَانَ﴾، فنفى كينونة وُجود الفعلِ، ولم يقل: (وما يريد اللّه أن يضيع إيمانكم)؛ ونُكتةُ ذلك أنَّ نَفْيَ الكينونة أبلغُ من نَفي الفعل نفسِه، وفي هذا تنزيهٌ للّه تعالى من أن يُضيع جزاءَ أحدٍ من عباده(3).

بلاغةُ النّفي مع لامِ الجُحودِ في قولِه: ﴿وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُضِيعَ إِيمَٰنَكُمۡۚ﴾:

الـنّـفـيُ بـلام الـجـحـودِ فيه مبالغةٌ في النّفي

"أَتَى بِـ﴿كَانَ﴾ الـمَنفيَّة بِـ﴿وَمَا﴾ الجَائي بَعدَهَا لَامُ الجَحُود، لأَنَّ ذَلِك أَبلَغُ مِنْ أَنْ لَا يَأْتِيَ بِلَام الجُحُود، فَقَولُكَ: مَا كَانَ زَيْدٌ لِيَقُومَ، أَبْلَغَ مِن: ما كَانَ زَيْدٌ يَقُومُ، لأَنَّ في الـمِثَالِ الأَوَّلِ: هُوَ نَفيٌ لِلتَّهيئَةِ والإِرَادَةِ لِلقِيَام، وفِي الثَّاني: هُوَ نَفيٌ لِلقِيَام، وَنَفيُ التَّهيئَةِ وَالإِرَادَةِ لِلفِعلِ أَبلَغُ مِنْ نَفيِ الفِعلِ، لأَنَّ نَفيَ الفِعلِ لَا يَستَلزِمُ نَفيَ إِرَادَتِه، وَنَفيُ التَّهيئَةِ وَالصَّلَاحِ وَالإِرَادَةِ لِلفِعلِ تَستَلزِمُ نَفيَ الفِعلِ، فَلِذَلِك كَانَ النَّفيُ مَعَ لَامِ الجُحُودِ أَبْلَغَ"(4).

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 2/24.
(2) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 1/174.
(3) محمد الدّبل، دليل البلاغة القرآنية: 1/198.
(4) أبو حيّان، البحر المحيط: 2/20.

نُكتةُ مُخالفةِ مقتضى الظَّاهر بذكر ضميرِ المخاطَب بدل الغائبِ في ﴿إِيمَٰنَكُمۡۚ﴾:

إيــثــارُ لـفـظِ الخطاب ليتناولَ الماضين والباقين تغليباً لحكمِ المخاطَبِ

بعد تحويلِ القِبلة، أثارَ بعضُ المُسلمين تَساؤلًا عن إخوانِهم المسلمين الّذين قد ماتُوا ولم يُدركوا القبلةَ الجديدةَ، هل فقدوا أجْرَهم؟ فجاءت هذه الآيةُ بيانًا لذلك؛ فعلى هذا كان مُقتضى الكلامِ أن يكون الضّميرُ في قولِه: ﴿إِيمَٰنَكُمۡۚ﴾ للغائبين (إيمانَهم)، ولكنّه جاء بخطابِ الأحياء، وفي نُكتة ذلك يقولُ الفرّاءُ: "أُسنِدَ الإيمانُ إلى الأحياء من المؤمنين، والمعنى فيمن ماتَ من المسلمين قبل أنْ تُحَوَّلَ القِبلةُ؛ فقالوا للنّبيِّ ﷺ: كيف بصلاةِ إخوانِنا الّذين ماتُوا على القِبلة الأولى؟ فأنزل اللّه تبارك وتعالى: ﴿وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُضِيعَ إِيمَٰنَكُمۡۚ﴾ يُريد إيمانَهم؛ لأنّهم داخلون معهم في الملّة، وهو كقولك للقوم: قد قتلناكم وهَزَمْناكم، تريد: قَتلنا منكُم، فتواجهُهم بالقتلِ وهم أحياء"(1).

ورأى الرَّاغبُ أنّها جاءتَ كذلك "تغليباً لِحُكم المخاطَبِ على الغائبِ في اللّفظ"(2)، ومثلُه ابنُ عطيَّة(3)؛ فمن شَأْنِ العربِ إذا أُخبروا عن حاضرٍ وغائبٍ أن يُغلِّبوا الخطابَ فيقولوا: كنتَ أنتَ وفلانٌ الغائبُ فعلتُما(4).

المجازُ بالحذفِ في قولِه: ﴿لِيُضِيعَ إِيمَٰنَكُمۡۚ﴾:

ذكرُ الإيمانِ بدل الـثَّـوابِ لبيانِ قيمته في النَّجاة عند الله تعالى

في قولِه تعالى: ﴿لِيُضِيعَ إِيمَٰنَكُمۡۚ﴾ إيجازٌ، بحذفِ المضافِ إليه، وتقديرُه: "لا يُضيعُ ثوابَ إيمانكم؛ لأنّ الإيمانَ قد انقضى وفَنِيَ، وما كان كذلك استحالَ حِفظُه وإضاعتُه، إلّا أنّ استحقاقَ الثّوابِ قائمٌ بعد انقضائه؛ فصحّ حِفظُهُ وإضاعته"(5)، فالمضافُ إليه المحذوف

(1) الفرّاء، معاني القرآن: 1/83-84.
(2) الرّاغب، تفسير الراغب: 1/334.
(3) ابن عطية، المحرر الوجيز: 1/220-221.
(4) الرّازي، التفسير الكبير: 4/93.
(5) الرّازي، التفسير الكبير: 4/93.

هو لفظ "ثواب"، وهذا من الإيجاز بالحَذف، وَحَذْفُ المُضَافِ مَجَازٌ[1]؛ لأنّ حذفَ لفظٍ وإقامة لفظ آخر مقامَه لنوع من الارتباط بينهما لا يُمثّلُ الحقيقةَ على التّمام؛ والعلاقةُ بينهما السّببيّة، فحذفَ المسبَّب وهو الثّواب، وأقام المُسبِّب مقامه، ونكتةُ إبقاءِ المضافِ مكانَ المضافِ إليه، بيانُ قيمة الإيمانِ في النَّجاةِ، فإذا وُجِدَ الإيمانُ نجا المسلمُ، وإنْ ضاع الإيمانُ هلك المسلمُ بعده.

هدايةُ التعبيرِ عن الصّلاة بلفظِ الإيمان في ﴿لِيُضِيعَ إِيمَٰنَكُمۡۚ﴾:

الأصلُ هو الإيمانُ، وما يترتَّبُ عليه من أعمالٍ فمردُّها إليه

"فإنْ قيل: ولمَ قال: ﴿لِيُضِيعَ إِيمَٰنَكُمۡۚ﴾ ولم يقل: (صلواتكم)؟ قيل: عدلَ إلى لفظِ الإيمانِ الذي هو عامٌّ في الصّلاة وغيرها؛ ليُفيدهم أنّه لم يَضِع لهم شيءٌ مما عملوا به ثم نسخ عنهم"[2].

"وسمّى الصّلاةَ إيمانًا لمّا كانت صادرةً عن الإيمان والتّصديق في وقتِ بيتِ المقدس وفي وقت التّحويل، ولمّا كان الإيمانُ قطبًا عليه تدورُ الأعمالُ، وكان ثابتًا في حالِ التّوجّهِ هنا، وهنا ذكره؛ إذ هو الأصلُ الّذي به يرجعُ في الصّلاةِ وغيرها إلى الأمر والنّهي، ولئلا تندرجَ في اسم الصّلاة صلاةُ المنافقين إلى بيتِ المقدس، فذكر المعنى الذي هو ملاكُ الأمر، وأيضًا فسمّيت إيمانًا إذ هي من شُعَبِ الإيمان"[3]؛ و"لأنّ وجوبَها على أهل الإيمان وقبولَها من أهل الإيمان وأداءَها في الجمعة دليلُ الإيمان"[4]، و"لأنّها أعظمُ أركان الإسلامِ بعد الشّهادتين"[5].

بلاغةُ الفاصلةِ القرآنيّةِ في قوله: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ بِٱلنَّاسِ لَرَءُوفٞ رَّحِيمٞ ١٤٣﴾:

تعليلُ عدَمِ الإضاعةِ بذِكْرِ الأسماءِ الحسنى يُورثُ سَكينةً في القلب

جاءت جملةُ: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ بِٱلنَّاسِ لَرَءُوفٞ رَّحِيمٞ ١٤٣﴾ مفصولةً عن سابقاتِها؛ لأنّها جاءت تُجيبُ عن سؤال ينقدحُ في الذّهن بعد سماعِ

(1) الزركشي، البرهان في علوم القرآن: 3/146.

(2) الرّاغب، تفسير الرّاغب: 1/333-334.

(3) ابن عطية، المحرر الوجيز: 1/221.

(4) النسفي، مدارك التنزيل: 1/139.

(5) الصّاوي، حاشية الصّاوي: 1/61.

الكلام السّابق، فكأنّه قيل: ما دليلُ عدمِ إضاعة إيمانهم؟ أو: لماذا لا يُضيعُ اللّهُ إيمانَهم؟ فأجيبَ بقوله: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ بِٱلنَّاسِ لَرَءُوفٞ رَّحِيمٞ ١٤٣﴾؛ فهذه الجملةُ تعليليّةٌ، وهي من قبيل التّذييلِ الّذي جيء به بيانًا لسببِ عدم الإضاعة[1]، فهي "جَارِيَةٌ مَجرَى التَّعلِيلِ لِمَا قَبلَهَا، لِلُطفِ رَأفَتِهِ وَسَعَةِ رَحمَتِه، نَقَلَكُم مِنْ شَرعٍ إِلَى شَرعٍ أَصلَحَ لَكُم وَأَنْفَعَ فِي الدِّينِ"[2]، ومثل هذا التَّعليلِ من شأنه إيرادُ الطّمأنينةِ في قلبِ العبدِ، والرَّاحةِ والسَّكينةِ في نفسِه.

"وَلَمَّا كَانَ نَفيُ الجُملَةِ السَّابِقَةِ مُبالَغًا فِيهَا مِن حَيثُ لَامُ الجحُودِ، نَاسَبَ إِثبَاتُ الجُملَةِ الخَاتِمَةِ مُبَالِغًا فِيهَا، فَبُولِغَ فِيهَا بِإِنَّ وَبِاللَّامِ وَبِالوَزنِ عَلَى فَعُولٍ وَفَعِيلٍ، كُلُّ ذَلِكَ إِشَارَةٌ إِلَى سَعَةِ الرَّحمَةِ وَكَثرَةِ الرَّأفَةِ"[3].

دلالةُ الألفِ واللّامِ في قولِه: ﴿بِٱلنَّاسِ﴾:

"الأَلِفُ وَاللَّامُ فِي: ﴿بِٱلنَّاسِ﴾ يَحتَمِلُ الجِنسَ، كَما قَالَ: ﴿ٱللَّهُ لَطِيفُۢ بِعِبَادِهِۦ﴾ [الشورى: 19]، ﴿وَرَحۡمَتِي وَسِعَتۡ كُلَّ شَيۡءٖۚ﴾ [الأعراف: 156]، ﴿وَسِعۡتَ كُلَّ شَيۡءٖ رَّحۡمَةٗ وَعِلۡمٗا﴾ [غافر: 7]، وَيَحتَمِلُ العَهدَ، فَيَكُونُ المُرادُ بِالنَّاسِ المُؤمِنِينَ"[4].

نكتةُ تقديمِ الجارِّ والمَجرورِ:

التّنبيهُ على عنايةِ الله بعبادِه ليشكُرُوه

قُدِّمَ الجارُّ والمجرور ﴿بِٱلنَّاسِ﴾ في قوله: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ بِٱلنَّاسِ لَرَءُوفٞ رَّحِيمٞ﴾ على متعلّقه وهو ﴿لَرَءُوفٞ رَّحِيمٞ﴾، وأصلُ الكلام: (لرؤوفٌ رحيمٌ بالنّاس)؛ للتّنبيهِ على عنايته بهم تحفيزًا لهم ليشكُرُوه، و"اعْتِنَاءً بِالمَرءُوفِ بِهِم"[5]، مع إظهارِ حسنِ الفاصلة[6].

لُطْفُ الجَمْعِ بين صِفَتي (الرّأفةِ والرّحمةِ):

رأفتُهُ سبحانه خاصّةٌ بعباده الصّالحين، ورحمتُهُ واسعةٌ للخلق أجمعين

في تذييل الآيةِ، جمعَ سبحانه بين صِفتين مُتقاربتين في المعنى ﴿لَرَءُوفٞ﴾ و﴿رَّحِيمٞ﴾، وفائدةُ هذا الجمعِ هو تأكيدُ المعنى المُراد، ومن المعلوم أنَّ الصّفاتِ وإن اتّفقت في المعنى العامّ؛ فإنّها تحتفظُ

(1) محمد بن سعد الدّبل، دليل البلاغة القرآنية: 1/199.
(2) أبو حيّان، البحر المحيط: 2/20.
(3) أبو حيّان، البحر المحيط: 2/21، والهرري، حدائق الروح والريحان: 3/23- 24.
(4) أبو حيّان، البحر المحيط: 2/20.
(5) أبو حيّان، البحر المحيط: 2/21.
(6) أبو حيّان، البحر المحيط: 2/21.

بدلالةٍ خاصّةٍ لا يمكنُ التّعبير عنها بلفظٍ آخرَ، فالرّأفةُ هي شدّةُ الرّحمةِ، وهذا معنًى أخصُّ، والرّحمةُ أوسَعُ من الرّأفة وأعمُّ، وعلاوةً على التّأكيد المُستفاد من الجمع بين الصّفتين المتقاربتين في المعنى، وثمّة فائدة لطيفة ودقيقة، مُفادُها أنّ اللّه تبارك وتعالى يصِفُ نفسَهُ بأنّه رؤوفٌ شديدُ الرّحمة كثيرُها يتغشّى بها من يشاءُ من عبادِه الصّالحين المُنيبين ممّن علِمَ أزلًا أنّهم يستحقّون رأفتَه، فإن كان ثمّة عبادٌ هم أقلُّ منهم في العملِ والاجتهاد، فإنّ رحمتَه الواسعةَ العامّة تشملُهم، وفي هذا تحبيبٌ للتّوبة والإنابةِ إلى قلوبِ العباد.

سببُ تقديم ﴿لَرَءُوفٌ﴾ على ﴿رَّحِيمٌ﴾:

الـرّأفـةُ شـدّةُ الـرّحـمـةِ وهـي أقـوى في الـكـيـفـيَّةِ، والرَّحمةُ أكثرُ في الكميَّة

قدّم صفةَ الرّأفة على الرّحمة؛ وذلك لسببين: الأوّل دلاليّ يتعلّق بتقديم ﴿لَرَءُوفٌ﴾، والثّاني صوتيٌّ يتعلّق بتأخير ﴿رَّحِيمٌ﴾.

أمّا الدّلاليّ؛ فإنَّ الرّأفة تعني شدّةَ الرّحمةِ، وهي أبلغُ في هذا الوصف من الرّحمة؛ فلذا قدّمها، ليبدأ بالصّفة الأبلغِ في الدّلالة، "وقيل: الرّحمةُ أكثرُ من الرّأفة في الكمّيّة، والرّأفةُ أقوى منها في الكيفيّة؛ لأنّها عبارةٌ عن إيصال النّعم الصّافية عن الآلام، والرّحمةُ إيصالُ النّعمةِ مطلقًا"(1).

وأمّا الصّوتيّ؛ فإنّ تقديمَ ﴿لَرَءُوفٌ﴾ على ﴿رَّحِيمٌ﴾ سيوقعُ صفة ﴿رَّحِيمٌ ١٤٣﴾ في رأس الفاصلة(2)، وهذا يجعلُها تتوافقُ مع الفواصل السّابقة، "وَتَأَخَّرَ الوَصفُ بِالرَّحمَةِ لِكَونِهِ فَاصِلَةً"(3)، وقضيّة التّوافق الصّوتي في رؤوس الآي له أثرٌ جماليّ في النّسج اللّفظيّ القرآنيّ، وأثرٌ جميلٌ في نفس المتلقّي، ولا يخفى أنّ النّصّ القرآنيّ مُتكاملٌ دلاليًّا وجماليًّا، وهو يُوظّفُ كلّ العناصر للتّأثير في نفس المتلقّي.

---

(1) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 1/174.

(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 2/26.

(3) أبو حيّان، البحر المحيط: 2/21.

❁ الفُرُوقُ المُعْجَمِيَّةُ:

(الأُمَّة)، و(الشّعب)، و(الجَمَاعَة)، و(الفَرِيق):

استُعمِلَ في الآية ﴿أُمَّةً﴾، وجاء في مواضع أخرَ من الذّكر الحكيم استعمالُ ألفاظٍ مقاربة مثل: شعبٍ، وجماعةٍ، وفريقٍ، فما الفرقُ؟

الأمّةُ كلُّ جماعةٍ يجمعُهُم أمرٌ ما

الأمّةُ: كلُّ جماعة يجمعُهُم أمرٌ ما، إمّا دينٌ واحدٌ، أو زمانٌ واحدٌ، أو مكانٌ واحدٌ، ومنه قوله تعالى: ﴿وَمَا مِن دَآبَّةٍ فِي ٱلْأَرْضِ وَلَا طَٰٓئِرٍ يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ إِلَّآ أُمَمٌ أَمْثَالُكُم﴾ [الأنعام: 38]، وقوله - ﷻ -: ﴿كَانَ ٱلنَّاسُ أُمَّةً وَٰحِدَةً﴾ [البقرة: 213] أي: صنفًا واحدًا، وعلى طريقةٍ واحدة في الضّلال والكفر، وقوله ﷻ: ﴿إِنَّا وَجَدْنَآ ءَابَآءَنَا عَلَىٰٓ أُمَّةٍ﴾ [الزّخرف: 22] أي: على دينٍ مجتمعٍ[1].

القبيلةُ المُتشعّبةُ من حيٍّ واحدٍ، والشّعوبُ أكبرُ من القبائل

الشّعْبُ: القبيلةُ المُتشعّبةُ من حيٍّ واحدٍ، وجمعه: شُعُوبٌ، والشّعوبُ أكبرُ من القبائل، وهو ما تشعَّبَ من قبائل العرب[2]، في الأمّةِ معنى الانفصال والتّمايز بأمر ما، وفي الآية ناسبَ أن يستعملَ لفظَ (الأمّة) من هذا المعنى، خاصّة أنّه يمهّدُ لتحويل القبلة، أمّا (الشّعبُ) فهو يرتبطُ بالنّسَب وتشعّبِ القبائل، وهذا ليس مرادًا في الآية.

الجَماعةُ مجموعةٌ من النّاسِ

الجَمَاعَة: مجموعةٌ من النّاسِ، من جَمَعَ.

الفَريقُ الجَمَاعَةُ من جمَاعَةٍ أَكثر مِنهَا

الفريق: الجَمَاعَةُ من جمَاعَةٍ أَكثر مِنهَا، تَقول: جَاءَني فريق من القَوم، وفريقُ الخيل: مَا يُفَارِقُ جمهورها فِي الحلبة فَيخرج مِنْهَا[3].

العلم والمعرفة:

المعرفَةُ أخصُّ من العلم؛ لأنّها علم بِعَين الشّيْء مفصّلًا عَمَّا سواهُ، والعلمُ يكون مُجملًا ومفصَّلًا، وكلُّ معرفَة عِلمٌ، وَلَيسَ كلُّ عِلمٍ معرفَةً؛ وَذَلِكَ أَنّ لفظَ المعرفَة يُفِيد تَمييز المَعلُوم من

---

(1) الرّاغب، المفردات: (أمّ).

(2) الرّاغب، المفردات؛ والسّمين، عمدة الحفّاظ: (شعب).

(3) العسكري، الفروق اللّغويّة، ص: 277-280.

المعرفةُ أخصُّ من العلمِ؛ لأنّها علمٌ بِعَينِ الشّيْءِ مفصّلًا عَمَّا سواهُ، والعلمُ يكونُ مُجملًا ومفصَّلًا

غَيره، وَلَفظ العلم لَا يُفِيد ذَلِك إِلَّا بِضَربٍ آخرَ من التّخصِيص فِي ذكر المَعلُوم(1)، فَإِذا قلت: علمتُ زيدًا؛ فَذَكرتَه باسمه الَّذِي يعرفهُ بِهِ المُخَاطَب لم يُفِد، فَإِذا قلتَ: قائمًا، أفدتَ؛ لِأَنَّك دللت بذلك على أَنَّك علمت زيدًا على صفةٍ ما، وَإِذا قلت: عرفت زيدًا أفدت؛ لأنّه بِمَنْزِلَة قَوْلك: عَلمتُه متميّزًا من غيره، وقد يتّفقان في الاستعمال، والفرق بين العِلم والمعرفة إِنَّمَا يتَبَيَّن في الموضع الَّذِي يكون فِيهِ جملَة غير مُبهمَة، أَلا ترى أَن قولك: تعلّمتُ أَنّ لزيد ولدًا، وقولك: عرفتُ أَنّ لزيد ولدًا يجريان مجْرًى وَاحِدًا، قال أبو حيّان: "المعرفةُ: العلمُ المتعلّق بالمفردات، ويسبقه الجهلُ، بخلاف أصل العلم فإنّه يتعلّق بالنِّسَب، وقد لا يسبقه الجهلُ؛ ولذلك لم يُوصَف اللّه تعالى بالمعرفة، ووُصِف بالعلم"(2)، فناسب الآيةَ التّعبيرُ بالعلم؛ لأنّه يتعلّقُ بحالة معيّنة يتخصّص بها، وهي هنا تمييز مَنْ يتّبعُ الرّسول ممّن ينقلبُ على عقِبيْه ويرتدّ، ولأنّه لا يسبقُه جهلٌ أسند إلى اللّه تعالى ﴿لِنَعۡلَمَ﴾، ولا يجوزُ استعمالُ المعرفة في حقّه سبحانه وتعالى.

الرّحمة والرّأفة:

الرّأفة أبلغُ من الرَّحمَةِ؛ لأنّها أشدُّ الرّحمةِ وأَرَقُّ مِنها

الرّأفة أبلغُ من الرَّحمَة(3)؛ لأنّها أشدُّ الرّحمة(4)، وهي أَرَقُّ مِنَ الرَّحمَةِ وَلَا تكاد تَقَعُ فِي الكَرَاهَةِ، والرّحمةُ قَدْ تقَعُ في الكَرَاهَةِ للمَصلحة(5)؛ فذكر اللّه تعالى الرّأفة أوّلًا، بمعنى أنّه لا يضيعُ أعمالَهم، ويُخفِّفُ المِحنَ عنهم، ثمَّ ذكرَ الرّحمةَ لتكونَ أعمَّ وأشملَ(6).

(1) العسكري، الفروق اللّغويّة، ص: 80.
(2) أبو حيان، البحر المحيط: 1/478، والزبيدي، تاج العروس: (عرف).
(3) العسكري، الفروق اللّغويّة، ص: 196.
(4) أبو عبيدة، مجاز القرآن: 1/59، وأبو حيّان، البحر المحيط: 2/7.
(5) ابن منظور، لسان العرب: (رأف).
(6) الرّازي، التفسير الكبير: 4/93-94.

الانقلاب والنّكوص:

الانقلابُ ارتدادٌ عن الدّين ورجوعٌ إلى الحالةِ السّابقة له، والنّكوصُ رجوعٌ مُنْبَنٍ على خوفٍ وجُبنٍ وإحجامٍ

قال ﷻ: ﴿وَمَا جَعَلۡنَا ٱلۡقِبۡلَةَ ٱلَّتِي كُنتَ عَلَيۡهَآ إِلَّا لِنَعۡلَمَ مَن يَتَّبِعُ ٱلرَّسُولَ مِمَّن يَنقَلِبُ عَلَىٰ عَقِبَيۡهِۚ﴾ [البقرة: 143].

وقال ﷻ: ﴿فَلَمَّا تَرَآءَتِ ٱلۡفِئَتَانِ نَكَصَ عَلَىٰ عَقِبَيۡهِ وَقَالَ إِنِّي بَرِيٓءٞ مِّنكُمۡ إِنِّيٓ أَرَىٰ مَا لَا تَرَوۡنَ إِنِّيٓ أَخَافُ ٱللَّهَۚ وَٱللَّهُ شَدِيدُ ٱلۡعِقَابِ ٤٨﴾ [الأنفال: 48].

أَصْلُ مادّة (قَلَبَ) رَدُّ شَيْءٍ مِنْ جِهَةٍ إِلَى جِهَةٍ، فقَلْبُ الشّيء: تصريفُه وصَرفُه عن وجه إلى وجه، كقلبِ الثّوب، وقلبُ الإنسان، أي: صرفُهُ عن طريقته، والانقلابُ: الانصراف، قال: ﴿ٱنقَلَبۡتُمۡ عَلَىٰٓ أَعۡقَٰبِكُمۡۚ وَمَن يَنقَلِبۡ عَلَىٰ عَقِبَيۡهِ﴾ [آل عمران: 144]، وعبّروا بالتّركيب عن الرّجوع إذ هو عكس الذّهاب: ﴿وَإِذَا ٱنقَلَبُوٓاْ إِلَىٰٓ أَهۡلِهِمُ﴾ [المطففين: 31]: رجعوا، ﴿وَمَن يَنقَلِبۡ عَلَىٰ عَقِبَيۡهِ﴾ [آل عمران: 144]، فالانقلابُ على العقب كنايةٌ عن الرّجوع، وهو في سياق الآية بهذا المعنى؛ أي: الارتدادُ عن الدّين والرّجوع إلى الحالةِ السّابقة للدِّين[1].

وأَصْلُ مادّة (نَكَصَ): الإحجام عَنِ الشّيءِ خَوْفًا وَجُبنًا، فنَكَصَ عَلَى عَقِبَيْهِ: رَجَعَ عَمَّا كَانَ عَلَيهِ مِنْ خَيرٍ، لا يُقَالُ ذَلِكَ إِلَّا في الرُّجُوعِ عَنِ الخَيرِ، وقوله تعالى: ﴿نَكَصَ عَلَىٰ عَقِبَيۡهِ﴾ [الأنفال: 48]: أي رجعَ إلى ورائه، ومثلُه قولُه تعالى: ﴿فَكُنتُمۡ عَلَىٰٓ أَعۡقَٰبِكُمۡ تَنكِصُونَ ٦٦﴾ [المؤمنون: 66]، والنّكوصُ: الإحجامُ عن الشّيءِ وعدمُ الإقبال عليه[2].

فالانقلابُ هو ارتدادٌ؛ لأنّه ردٌّ من جهةٍ إلى أخرى وحسب بلا قيدٍ، والانقلابُ على العقبِ كنايةٌ عن الارتدادِ عن الدّين والرّجوع إلى الحالة السّابقةِ له، وأمّا النّكوصُ فهو رجوعٌ مُنْبَنٍ على خوفٍ وجُبنٍ وإحجام، وقد جاء هذا التّعبير ﴿نَكَصَ عَلَىٰ عَقِبَيۡهِ﴾ في سياق الحديثِ عن الشّيطان الّذي أصيبَ بالخوفِ والهلع يوم بدرٍ فصاح: ﴿إِنِّيٓ أَرَىٰ مَا لَا تَرَوۡنَ إِنِّيٓ أَخَافُ ٱللَّهَۚ وَٱللَّهُ شَدِيدُ ٱلۡعِقَابِ ٤٨﴾ [الأنفال: 48].

(1) ابن فارس، مقاييس اللغة؛ الرّاغب، المفردات؛ جبل، المعجم الاشتقاقي المؤصل: (قَلَبَ).
(2) ابن فارس، مقاييس اللغة؛ الرّاغب، المفردات؛ السّمين، عمدة الحفّاظ: (نَكَصَ).

﴿قَدۡ نَرَىٰ تَقَلُّبَ وَجۡهِكَ فِي ٱلسَّمَآءِۖ فَلَنُوَلِّيَنَّكَ قِبۡلَةٗ تَرۡضَىٰهَاۚ فَوَلِّ وَجۡهَكَ شَطۡرَ ٱلۡمَسۡجِدِ ٱلۡحَرَامِۚ وَحَيۡثُ مَا كُنتُمۡ فَوَلُّواْ وُجُوهَكُمۡ شَطۡرَهُۥۗ وَإِنَّ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡكِتَٰبَ لَيَعۡلَمُونَ أَنَّهُ ٱلۡحَقُّ مِن رَّبِّهِمۡۗ وَمَا ٱللَّهُ بِغَٰفِلٍ عَمَّا يَعۡمَلُونَ ١٤٤﴾ [البقرة: 144]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِمَا قَبْلَها:

بعد بيان وسطيّة الأمّة، جاء الأمرُ بالتّوجُّه إلى المسجدِ الحرام في الصّلاة

لـمّا ذكر في الآيتين السّابقتين مُمَهِّدات تحويل القبلة، سواء ببيان كيفيّة استقبال الـمُشركين وأهل الكتاب لهذا الأمر، أو بيان جَعلِ أمّةِ المسلمين أمّةً وسطًا، ليكونوا شُهداءَ على النّاس، وبيان علّةِ تحويل القبلةِ، أمرَ سُبحانه نبيَّهُ وجميعَ المسلمين في هذه الآيةِ بالتّوجّه إلى المسجدِ الحرام في صَلَواتِهم.

وذكرَ الإمامُ البقاعيُّ وَجْهًا آخر لمناسبةِ الآية لِما قبلها؛ مُفادُهُ أنَّ تحويلَ القبلة إلى الكعبةِ الـمُشَرَّفة من الرّأفةِ برسولِ اللّه ﷺ الذي كان مُتَشَوِّقًا إلى استقبالها، قال رحمهُ اللّه تعالى: "ولـمّا أشعرَ الكلامُ السّابقُ أهلَ البلاغة بإحداث أمْرٍ في القِبلة فتَوَقّعوا الخبرَ عن ذلك، وبيّنَ رأفتَهُ ورَحمتَهُ بالنّاس عُمومًا، بيّنَ ذلك برسوله خُصوصًا بأنَّ تحويلَهُ إلى الكعبة رأفةٌ منه به، ورحمةٌ له مع ما تقدَّمَ من فوائده"[1].

شَرْحُ الْمُفْرَدَاتِ:

1) ﴿تَقَلُّبَ﴾: الأَصْلُ في التّقليب: رَدُّ شَيْءٍ وتحويلُهُ مِنْ جِهَةٍ إلَى جِهَةٍ[2]، والتّقلُّبُ مُطاوِعُ التّقليب، وتقلّبُ الوجه - في سياق الآية - يعني: ترديدُ البصر في السّماء مرّةً بعد مرّة، والمعنى: إنّنا نرى تردّد وجهك وتصرُّفَ نظرك في جهة السّماء[3].

(1) البقاعي، نظم الدرر: 2/216.
(2) محمد حسن جبل، المعجم الاشتقاقي المؤصل: (قلب).
(3) الزّمخشري، الكشّاف: 1/202.

2) ﴿وَجۡهِكَ﴾: أَصْلُ مادّة (الوجهِ) يَدُلُّ عَلَى مُقَابَلَةٍ لِشَيءٍ، وَالوَجهُ مُستَقبِلٌ لِكُلِّ شَيءٍ[1]، وفي سياق الآية: المرادُ الوجهُ لدى الإنسانِ، وكذا في الآياتِ اللّاحقة [البقرة: 149- 150].

3) ﴿فَلَنُوَلِّيَنَّكَ﴾: فوَلِّ: التّوليةُ هنا بمعنى التّوجّهِ إلى الكعبة، وليس معناها الانصرافَ، كما سبق في قوله تعالى: ﴿مَا وَلَّىٰهُمۡ﴾، ﴿فَوَلِّ وَجۡهَكَ﴾ أي: أقبل بوجهكَ نحو المسجدِ الحرام[2].

4) ﴿تَرۡضَىٰهَاۚ﴾: أَصْلُ الجذر (رضي) وَاحِدٌ يَدُلُّ عَلَى خِلَافِ السُّخطِ[3]، ورِضَا العبدِ عن اللّه: أن لا يكرهَ ما يجري به قضاؤه، ورِضَا اللّهِ عن العبد هو أنْ يراهُ مُؤتمرًا بأمره، ومنتهيًا عن نهيه[4]، ومعنى ﴿تَرۡضَىٰهَاۚ﴾ في سياق الآية: تُحبُّها وتهواها؛ لأنّ النّبيَّ ﷺ كان راضيًا بالقِبلة الأولى، مُطيعًا للّه تعالى في حال صلاتِه إليها، ولكنّه أحبّ أنْ تكون قبلتُه الكعبةَ[5].

5) ﴿شَطۡرَ﴾: شَطْرُ الشّيء: نصفُهُ ووسطُه[6]، وكلُّ ما نُصِّفَ فقد شُطِّر، وشَطرُ الشّيء: جهتُهُ وناحيتُه ونَحوه وقصدُه[7]، وهو المعنى المرادُ في هذه الآية والمواطن الّتي بعدها: [البقرة: 144، 149، 150]، ﴿شَطۡرَهُۥۗ﴾، أي: نحوُه، قَصْدُهُ، جهتَه[8].

6) ﴿ٱلۡحَرَامِۚ﴾: أَصْلُ مادّة (حرم) المَنعُ وَالتَّشدِيدُ، فَالحَرَامُ: ضِدُّ الحَلَالِ[9]، المسجدُ الحَرامُ، أي: المُحَرَّم من المَنع، وسُمِّيت تلك البقعةُ حرامًا لما مُنع فيها من أشياءَ لم تُمْنَعْ في غيرها[10].

(1) ابن فارس، مقاييس اللغة: (وجه).
(2) الواحدي، التفسير البسيط: 3/389.
(3) ابن فارس، مقاييس اللغة: (رضي).
(4) الرّاغب، المفردات: (رضي).
(5) الواحدي، البسيط: 3/389.
(6) الرّاغب، المفردات: (شطر).
(7) جبل، المعجم الاشتقاقي المؤصل: (شطر).
(8) ابن فارس، مقاييس اللغة؛ الرّاغب، المفردات: (شطر)، والواحدي، البسيط: 3/389.
(9) ابن فارس، مقاييس اللغة: (حرم).
(10) الواحدي، البسيط: 3/390.

7) ﴿أُوتُواْ﴾: من الجذر (أتي)، الإِيتاءُ: الإِعْطاءُ، فأَتَيْنا: جِئْنا، وآتَيْنا: أَعْطَينا[1]، قال الرّاغبُ: "الإتيانُ مَجيءٌ بسهولة"[2]، ومعنى اللّفظ في سياق الآية: أُعْطُوا.

8) ﴿بِغَٰفِلٍ﴾: الغفلةُ: فَقْدُ الشُّعور بما حقُّهُ أن يُشعَرَ به، والذّهولُ عن الشّيء[3]، وعرّف الرّاغبُ الغفلةَ بقوله: "سهوٌ يعتري من قلّة التّحفّظ والتّيقُّظ"[4]، يقال: غفلَ الرّجلُ: صار غافلًا، وغفل عنه، واللّه - سبحانه وتعالى - لا تعتريه غفلةٌ ولا يأخذُهُ سهوٌ، ومعنى نفي الغفلة عن أعمال العباد أنّ اللّه جلّ شأنه مُطّلعٌ عليها، ومُحْصيها، وعالمٌ بجليلها ودقيقها، ويتفرّعُ عن ذلك أنّه - سبحانه - مُجازٍ عبادَه على أعمالِهم كلّها.

المَعْنَى الإِجْمَالِيُّ:

تحويلُ القبلةِ إلى الكعبة المُشَرَّفة من الرّأفة برسول الله ﷺ الّذي كان مُتَشَوِّقًا إلى استقبالِها

قد نرى تَرْديدَ نظرك وتقليبَ وجهك -أيها الرّسولُ ﷺ- إلى جهة السّماء، مرّةً بعد مرّة؛ ترقُّبًا لنزول الوحي إليك في شأن القبلة، فَلَنَصْرِفنَّك عن "بيت المقدس" إلى قبلة تُحِبُّها وترضاها، وهي وجهة المسجدِ الحرام بـ "مكّة"، فولِّ وجهك إليها، وفي أيّ مكانٍ كنتُم - أيّها المسلمون - وأردتم الصّلاة فتوجّهوا نحو المَسجدِ الحرام، وإنّ اليهودَ والنّصارى لَيعلمُون أنّ تحويلَكم إلى الكعبة هو الحقُّ الثّابتُ في كتبهم، وما اللّهُ بغافلٍ عمّا يعملُ هؤلاء المعترضون المُشكِّكون، وسيُجازيهم على ذلك.

الآيةُ دليلٌ على حُجّيّة السّنّةِ

وفي الآية إشارةٌ إلى أنَّ تركَ التّصريح من كمال الأدب[5].

إيضاحُهُ: لو حوَّلَ النبيّ ﷺ القبلةَ من غير أن ينزل قرآنٌ لاتَّبَعَتْهُ الأمّةُ من خلفه عملًا بسُنَّتِه العمليّة، ولكنَّ أدَبَهُ في هذا الشّأن العظيم منَعَهُ عن السّؤالِ والطّلب، واكتفى بالتّوجُّه ناظرًا في

(1) ابن منظور، لسان العرب: (أتي).
(2) الرّاغب، المفردات: (أتي).
(3) الزبيدي، تاج العروس: (غفل).
(4) الرّاغب، المفردات: (غفل).
(5) ابن عجيبة، البحر المديد: 1/177، ونخبة من العلماء، التفسير الميسر، ص: 22.

السّماء مُنتظرًا وراجيًا من الخالق أن يهديَهُ إلى الصّواب والهُدى في المسألة، والشّاهدُ أنّه لو فعله لكان لِزامًا على أمّتِه، ولكن منعَهُ الأدبُ بدليل تقليبِ وجهه في السّماءِ دون الطّلب والسّؤالِ المباشر.

سببُ النّزول:

أخرج البُخاريُّ وأحمدُ والتّرمذيُّ والنَّسَائِيُّ عن البَراء بنِ عازبٍ رضي الله عنه قال: لمّا قَدِمَ رسولُ اللّه ﷺ المدينةَ، صلّى نحوَ بيتِ المَقدِس ستّةَ عشرَ، أو سبعةَ عشرَ شهرًا، وكان يُحبُّ أن يُوجَّهَ إلى الكعبة، فأنزل اللّه تعالى: ﴿قَدۡ نَرَىٰ تَقَلُّبَ وَجۡهِكَ فِي ٱلسَّمَآءِۖ فَلَنُوَلِّيَنَّكَ قِبۡلَةٗ تَرۡضَىٰهَاۚ﴾ فَوُجِّهَ نحو الكعبة، وصلّى معه رجلٌ العصرَ، ثمّ خرج فمرَّ على قوم من الأنصار، فقال: هو يشهدُ أنّه صلّى مع النّبيّ ﷺ، وأنّه قد وُجِّه إلى الكعبةِ، فانحرفوا وهم ركوعٌ في صلاةِ العَصرِ[1].

الإيضاحُ اللُّغويّ والبلاغيّ:

غرضُ الاستئنافِ في قولِه: ﴿قَدۡ نَرَىٰ تَقَلُّبَ وَجۡهِكَ فِي ٱلسَّمَآءِۖ﴾:

تهيئةُ السَّامعِ لتلقّي تشريعِ استقبال القبلة

الآيةُ مستأنفةٌ مفصولة عمّا قبلها، وهي تتضمّن ابتداءَ تشريع استقبال القبلة، ونسْخَ التّوجّهِ إلى بيت المقدس، ومجيءُ الحكم مستأنفًا استئنافًا ابتدائيًا بلا أداة؛ تهيئةً للسّامع لتلقي الخبر، فيكون حال المتلقّي أنسبَ لسماع الحكم الجديد، لاسيّما وأنّه حكمٌ كبيرٌ.

الدّلالةُ على التّكثير في ﴿قَدۡ نَرَىٰ﴾:

التّكثيرُ بالنّظر لفعلِ النّبيِّ لا لرؤيةِ الله، وهو خطابُ تودّدٍ

أفادَ حرفُ ﴿قَدۡ﴾ "كثرة الرؤية"[2]، فهي "للتّكثير بقرينة ذكرِ التّقلُّبِ، والتّكثيرُ بالنسبة الى النّبيّ مُتعلّقٌ به ﷺ، وإلّا فهو محالٌ على اللّه تعالى"[3]، فهو "بالنّظر لفعلِ النّبيِّ لا لرؤيةِ اللّه، وهو خطابُ تودّدٍ"[4].

(1) خالد المزيني، المحرّر في أسباب نزول القرآن: 1/224.
(2) الزمخشري، الكشاف: 1/201.
(3) محيي الدين درويش، إعراب القرآن وبيانه: 1/206.
(4) الصّاوي، حاشية الصّاوي: 1/61.

وتفسيرُهم ﴿قَدۡ﴾ بـ (ربّما) "يحتملُ أن يكونَ إشارةً إلى أنّ ﴿قَدۡ﴾ في بابه للتّقليل، وإلى أنّه مستعارٌ للتّكثير بجامع التّضاد؛ لأنّ (رُبّ) استعمالُه شائعٌ في التّكثير وإن كان وضعه للتّقليل؛ ولعدم العلم بأحد الاحتمالين فسّروه بـ(رُبّ) لذلك؛ لأنّ من رفع بصره إلى السّماء مرّةً واحدة يصدقُ عليه أنّه قلبَ بصرَه إلى السّماء، وإلّا فيصدق أنّه لم يقلبه، وهو خلافُ الواقع على أنّه لا يلزمُ من حمله على التّقليل كونُ رفع بصره مرّةً واحدة، لجواز أن يكونَ مراراً غير واصل إلى حدِّ الكثرة، واستعمالُ ﴿قَدۡ﴾ للتّكثير ممّا ذكره سيبويهِ وصاحبُ المغني والزّمخشريُّ.

ولا يخفى أنّ التقلّبَ لا يقتضي الكثرةَ - كما عرفتَ من أنّه يصدقُ في مرّة واحدة - ألا ترى أنّهم صرّحُوا في مسألة الاستسقاءِ بأنّ الإمامَ قلب رداءَه، مع أنّه مرّة واحدة، وفي بيان شرط الرؤية تقلّب الحدقةِ وهو في مرّة واحدة، مع أنّه من باب التّفعيل، والتقلّب من باب التّفعّلِ، وهذا وهمٌ مَحْضٌ وإن ذهبَ إليه كثيرون، فالصَّوابُ أنّ مرادَ الشّيخين بإيراد (ربّما) ما ذكرنا من الإشارة إلى الاحتمالين التّقليل والتّكثير"[1].

المضارعُ بمعنى الماضي في ﴿قَدۡ نَرَىٰ﴾:

فعلُ "﴿نَرَىٰ﴾ هُنَا مُضَارِعٌ بِمَعنَى المَاضِي، وَقَد ذَكَرَ بَعضُ النَّحوِيِّينَ أَنَّ مِمَّا يَصرِفُ المُضَارِعَ إِلَى المَاضِي (قَدۡ) في بَعْضِ المَوَاضِعِ، وَمِنْهُ: ﴿قَدۡ يَعۡلَمُ مَآ أَنتُمۡ عَلَيۡهِ﴾ [النور: 64]، ﴿وَلَقَدۡ نَعۡلَمُ أَنَّكَ يَضِيقُ صَدۡرُكَ﴾ [الحجر: 97]، ﴿۞قَدۡ يَعۡلَمُ ٱللَّهُ ٱلۡمُعَوِّقِينَ مِنكُمۡ﴾ [الأحزاب: 18]"[2].

دلالةُ الكنايةِ في قولِه: ﴿قَدۡ نَرَىٰ تَقَلُّبَ وَجۡهِكَ﴾:

تحقيقُ الكلام كـنـايـةٌ عن حـصـولِ الـوَعـدِ ودَفعِ الاستبطاءِ

جاء حرفُ التّحقيق ﴿قَدۡ﴾، كنايةً عن دفع الاستبطاء، وتطميناً للنّبيّ ﷺ؛ لأنّه كان حريصًا على تحقّقه، فكان تحقيقُ الكلام كنايةً عن حصولِ الوَعدِ ودَفعِ الاستبطاءِ، ومن جهة أخرى، فإنّ هذه الكنايةُ تُترجمُ عن شدّة تشوّق النّبي ﷺ لتغيير القبلة، مع الإشهار

(1) القونوي، حاشية القونوي على البيضاوي: 4/324.

(2) أبو حيّان، البحر المحيط: 2/21، والسمين، الدر المصون: 2/159.

بأدبِهِ وحسن سلوكه مع الخالق تعالى؛ حيثُ إنّه لم يسأل ولم يطلُب، بل انتظر الوحيَ أدبًا مع اللّه تعالى[1].

سرُّ إطلاقِ الوجهِ وإرادةُ الأعينِ في قوله: ﴿تَقَلُّبَ وَجۡهِكَ﴾:

الوجـهُ أعـمُّ وأشـرفُ، وهـو المُستعمَلُ في طلبِ الحاجاتِ

المقصودُ بقوله تعالى: ﴿تَقَلُّبَ وَجۡهِكَ﴾ "تَقَلُّب عينيك، فذكرهما بلفظ الوجه، كما ذكر الأعينَ بلفظ الوجوه في قوله: ﴿وُجُوهٞ يَوۡمَئِذٖ نَّاضِرَةٌ ٢٢ إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٞ ٢٣﴾ [القيامة: 22-23]، وذلك أنّ ما تقعُ به المواجهةُ يسمّى وجهًا، كاللِّحية؛ قد يطلقُ عليها اسمُ الوجه، ويجوزُ أن يريدَ نفسَ الوجه؛ لأنّه كما يقلّب عينيه في السّماء يقلّب وجهه"[2]، "وتقلّبُ الوجهِ أبلغُ من تقلّب العينِ"[3]، "ومعنى: ﴿تَقَلُّبَ وَجۡهِكَ فِي ٱلسَّمَآءِ﴾: أي تطلّعك الوحيَ المنزلَ"[4]، "وذكر الوجهَ لأنّه أعمُّ وأشرف، وهو المستعملُ في طلب الرغائب"[5].

فائدةُ استعمالِ حرفِ الظَّرفيّةِ في قوله: ﴿فِي ٱلسَّمَآءِ﴾:

بـيـانُ شـدّة التّقليب، والنّظر إلى السّماء، حتّى صار مستقرًا فيها

لم تكنِ ﴿ٱلسَّمَآءِ﴾ ظرفًا للتّقليب، لأنَّ التَّقليبَ كان نحو السّماء وقِبَلها[6]، ومع ذلك فقد استعملَ حرفَ الظّرفيّةِ دون غيرِه من الأحرفِ؛ ليبيّنَ شدّة التّقليب، وصرف النّظر إلى السّماء، حتّى صار مستقرًّا في السّماء؛ ولهذا السّبب اختار ﴿فِي﴾ دون (إلى) فلم يقل: (إلى السّماء)؛ إذ لو قال ذلك لدلّ على أنّه ينظر باتّجاه السّماء وحسب، من غير تحمّل دلالةٍ أخرى؛ كالاستغراقِ في النّظر، وشدّة التّطلّع.

توجيهُ المخصوصِ بالذِّكرِ ﴿فِي ٱلسَّمَآءِ﴾:

السّماءُ جهةُ الرَّحمَةِ والوحيِ، وَهي قِبلَةُ الدُّعاءِ

"ومعنى التقلّب نحو السّماءِ أنّ السّماءَ جهةٌ قد تعوّدَ العَالَمُ منها الرّحمةَ؛ كالمطر والأنوار والوحي، فهم يجعلون رغبتهم حيثُ

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 2/26-27.
(2) الواحدي، البسيط: 3/387.
(3) الرّاغب، تفسير الراغب: 1/334.
(4) الرّاغب، تفسير الراغب: 1/335.
(5) ابن عطية، المحرر الوجيز: 1/221.
(6) ابن جرير، جامع البيان: 3/172.

توالت النّعم"[1]، فوجهُ تخصيصِ السَّماءِ بالذِّكرِ: أنَّها "جِهَةٌ تَعُودُ مِنهَا الرَّحْمَةُ، كَالـمَطَرِ وَالْأَنوَارِ وَالوَحي، فَهُم يَجعلُونَ رَغبَتَهُمْ حَيثُ تَوَالَتِ النِّعَمُ، وَلأَنَّ السَّمَاءَ قِبلَةُ الدُّعَاءِ، وَلِأَنَّهُ ﷺ كَانَ يَنتَظِرُ جبرِيل، وَكَانَ يَنزِلُ مِنَ السَّمَاءِ"[2].

الحالُ المحذوفة في قوله: ﴿قَدۡ نَرَىٰ تَقَلُّبَ وَجۡهِكَ فِي ٱلسَّمَآءِۖ﴾:

﴿فَلَنُوَلِّيَنَّكَ قِبۡلَةٗ تَرۡضَىٰهَاۚ﴾: هَذَا يَدُلُّ عَلَى أَنَّ في الجُملَةِ السَّابِقَةِ حَالًا مَحذُوفَةً، التَّقدِيرُ: قَد نَرَى تَقَلُّبَ وَجهِكَ فِي السَّمَاءِ طَالِبًا قِبلَةً غَيْرَ الَّتِي أنتَ مُستَقبِلُهَا[3].

دلالةُ (الفاءِ) و(اللّام) في ﴿فَلَنُوَلِّيَنَّكَ قِبۡلَةٗ تَرۡضَىٰهَاۚ﴾:

"﴿فَلَنُوَلِّيَنَّكَ قِبۡلَةٗ﴾: الفاءُ للدلالةِ على سَببيّة ما قبلَها لما بعدَها"[4]، "وَجَاءَ هَذَا الوَعدُ عَلَى إضمَارِ قَسَم مُبَالغَةً في وُقُوعِه، لأَنَّ القَسَمَ يُؤَكِّدُ مَضمُونَ الجُملَةِ المُقسَم عَلَيهَا"[5]، فالفاء: "داخلةٌ على قسمٍ محذوف يدلّ عليه (اللّام)؛ أي فواللّهِ لنولِّينَّك، أي: لنُعطِينَّكها ولنُمَكِّنَنَّك من استقبالها"[6].

دلالةُ تنكيرِ لفظِ: ﴿قِبۡلَةٗ﴾:

تشويقُ السَّامعِ وتعظيمُ القِبلةِ

جاءَ لفظُ ﴿قِبۡلَةٗ﴾ نَكِرَةً؛ "لأَنَّهُ لَمْ يَجرِ قَبلَهَا مَا يَقتَضِي أَنْ تَكُونَ مَعهُودَةً، فَتُعَرَّف بالأَلِفِ واللّام، ولَيْسَ في اللَّفظِ مَا يَدُلُّ عَلَى أَنَّهُ كَانَ يَطلُبُ باللَّفظِ قِبلَةً مُعَيَّنَةً"[7]، ونكَّر القبلةَ هنا للتّشويق والتّعظيم، فعندما يتلقّى السّامعُ خبرَ تحويل القبلة دون تعيين اسمها، فإنّه سيتشوّق لسماع اسمها وإن كان يعرفها مسبقًا، فلبيانِ غرضِ التّنكير هنا وهو التّعظيمُ؛ حجبَ التّعريفَ بالألف واللّام.

الجناس في قوله ﴿تَقَلُّبَ﴾ ﴿قِبۡلَةٗ﴾:

التماثلُ اللّفظيُّ في حروف ﴿تَقَلُّبَ﴾ ﴿قِبۡلَةٗ﴾ دون التّرتيب،

(1) ابن عطية، المحرر الوجيز: 1/221.
(2) أبو حيّان، البحر المحيط: 2/23.
(3) أبو حيّان، البحر المحيط: 2/23.
(4) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 1/174.
(5) أبو حيّان، البحر المحيط: 2/23.
(6) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 1/174.
(7) أبو حيّان، البحر المحيط: 2/23.

جناسٌ ناقصٌ[1]، فهما من بِنيتين مُختلفتين (قلب، قبل)، تماثلتا في الحروف دون ترتيبها.

التّعبيرُ بالفعل المضارعِ دون الاسم في ﴿تَرۡضَىٰهَاۚ﴾:

تشريفُ النَّبيِّ ﷺ وبيانُ استمرارِ الرِّضا

عبّر عن الرِّضَا بجملة فعليّة ﴿تَرۡضَىٰهَاۚ﴾ ولم يصفْها بالمفرد، للنّص على أن الرّاضي هو النّبي ﷺ؛ لكونه مخاطبًا بالفعل، والمفردُ (مرضية) لا يظهرُ فيه الخطاب، ففيه تشريفٌ وعنايةٌ بشأنِ النَّبيِّ ﷺ ما لا مزيدَ عليه.

وعبّرَ بالفعل المضارع إرادةً لزمنه الحاضر على الحقيقةِ، ويحملُ ذلك أيضًا الرّضا بها على الدّوام والاستمرار في المستقبل؛ لأنّ المضارع يدلُّ على الزّمنين: الحاضر والمستقبل، والسّياق هو الّذي يُحدّد إذا كان الزّمانان مقصودَيْن[2].

إيثار التّعبيرُ بفعل الرّضا، في قوله: ﴿تَرۡضَىٰهَاۚ﴾:

التّعبير بالرّضا يُشعر بالمحبّة عن معرفةٍ وعقلِ

"قوله تعالى: ﴿تَرۡضَىٰهَاۚ﴾ أي: تحبّها وتهواها؛ لأن النبي ﷺ كان راضيًا بالقبلة الأولى، مطيعًا لله في حال صلاته إليها، ولكنه أحبّ أن تكون قبلته الكعبة"[3]، وهذا الحبُّ جاءَ "لمقاصدَ دينية وافقتْ مشيئتَه تعالى وحِكْمتَه"[4]، واختار التّعبيرَ بالرّضا، دون المحبّة أو الهوى أو الرّغبة؛ لأنّ الرّضا يُشعرُ بالمحبّة عن معرفة وعقل، فالنّبيّ ﷺ أبعدُ من أن يتعلّق بالأماكن، أو يفضِّل مكانًا منها على آخر من غير غاية ساميةٍ، وأهدافٍ نبيلة[5]، والرّضا يكون بعد الحدث، وهو نقيضُ السّخط، فبذلك سينفي السّخط عنه ﷺ تزكيةً له، وحبُّه لها "بحسب الطّبع وإلّا فهو يحبُّ أوامر الله مطلقًا، ولكن إذا كانت

(1) الجناس الناقص، أو الجناس غير التّام: هو ما اختلف فيه اللّفظان في نوع الحروف، أو حركتها، أو ترتيبها، أو عددها، مع اختلافٍ في المعنى بينهما، يُنظر: أحمد الهاشمي، جواهر البلاغة، ص: 326.

(2) القونوي، حاشية القونوي على البيضاوي: 4/326.

(3) الواحدي، البسيط: 3/389.

(4) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 1/174.

(5) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 2/28.

موافقة للطّبع كانت أحبّ"[1]، فهو لا يحبُّ الكعبةَ "عن هوًى، ولكنّها قبلةُ العرب، فيتوفّرُ بها دواعيهم إلى الإيمان"[2].

نكتةُ تقديمِ الوعدِ على الأمر:

الوعدُ أحبُّ إلى الإنسان من الأمرِ فَرُوعِيَ ذلك

قُدِّم الوعدُ: ﴿فَلَنُوَلِّيَنَّكَ قِبۡلَةً تَرۡضَىٰهَاۚ﴾، على الأمر: ﴿فَوَلِّ وَجۡهَكَ شَطۡرَ ٱلۡمَسۡجِدِ ٱلۡحَرَامِۚ﴾ لبيانِ أنَّ النَّبيَّ ﷺ في هذا الأمرِ كسائرِ البشرِ، يحبُّ سماعَ الوعدِ قبل الأمرِ بمضمونه، فجاءَ "الوَعدُ قَبلَ الأَمرِ لِفَرَحِ النَّفسِ بالإِجَابَةِ، ثُمَّ بِإِنجَازِ الوَعدِ، فَيَتَوَالَى السُّرُورُ مَرَّتَين، وَلأَنَّ بُلُوغَ المَطلُوبِ بَعدَ الوَعدِ بِهِ آنَسُ في التَّوَصُّلِ مِن مُفَاجَأَةِ وُقُوعِ المَطلُوبِ"[3]، وهذا أحدُ أدلَّةِ أنَّ القرآنَ كلامُ اللّه تعالى، لا علاقةَ للنَّبيِّ ﷺ به إلَّا بالتَّبليغ والبيانِ.

دلالةُ (الفاء) في ﴿فَوَلِّ وَجۡهَكَ شَطۡرَ ٱلۡمَسۡجِدِ ٱلۡحَرَامِۚ﴾:

"﴿فَوَلِّ وَجۡهَكَ﴾: الفاءُ لتفريع الأمرِ بالتّولية على الوعدِ الكريم"[4].

توجيه المخصوص بالذِّكرِ في قوله: ﴿فَوَلِّ وَجۡهَكَ﴾:

الـوَجهُ أَشْرَفُ الأَعضَاءِ وهو معيارُ التَّوجُّه

التّوجّهُ للقبلة لا يقعُ بالوجه فقط، بل بالذّات والبدن وتوجُّهه بالكلّيّة، فقوله تعالى: ﴿فَوَلِّ وَجۡهَكَ﴾ من باب إطلاق الجزء وإرادة الكلّ، وهذا مجازٌ مرسل[5]؛ فأطلق الوجهَ وأراد به "جُملَةَ البَدَنِ؛ لأَنَّ الوَاجِبَ استِقبَالُهَا بِجُملَةِ البَدَنِ، وَكَنَّى بِالوَجهِ عَنِ الجُملَةِ، لأَنَّهُ

(1) الصّاوي، حاشية الصّاوي: 1/62.
(2) النيسابوري، إيجاز البيان عن معاني القرآن: 1/127.
(3) أبو حيّان، البحر المحيط: 2/23، والقونوي، حاشية القونوي على البيضاوي: 4/326.
(4) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 1/174.
(5) المجاز المرسل: المجاز الّذي تكون العلاقة فيه بين المعنى الحقيقيّ والمعنى المجازي الّذي استعمل اللفظ للدّلالة به عليه أمراً غير المشابهة، أو قائماً على التّوسع في اللّغة دون ضابطٍ معيّن، وسُمِّيَ "مجازاً مُرسلاً" لكونه مرسلاً عن التّقييد بعلاقة المشابهة، يُنظر: عبد الرّحمن حَبَنَّكَة، البلاغة العربية: 2/271.

أَشْرَفُ الأَعضَاءِ، وَبِهِ يَتَمَيَّزُ بَعضُ النَّاسِ عَنْ بَعضٍ"[1]، "وتخصيصُ التّوليةِ بالوجه لما أنّه مدارُ التّوجّه ومعيارُه"[2].

فائِدةُ اختلاف توجيه الأمر: ﴿فَوَلِّ وَجْهَكَ﴾، ﴿فَوَلُّواْ وُجُوهَكُمْ﴾:

تعظيم النَّبيِّ ﷺ وتشريفُ المؤمنين بخطابِهم بعد خطابِه

جاء الأمرُ بتولية الوجوه مرّةً للنَّبيِّ: ﴿فَوَلِّ وَجْهَكَ﴾ على وجه الخصوصِ "تعظيماً له وإيجاباً لرغبته، ثم عُمّم تصريحًا بعموم الحكم وتأكيدًا لأمر القبلة وتحضيضًا للأمّة على المتابعة"[3] فقال: ﴿فَوَلُّواْ وُجُوهَكُمْ﴾، ولا يخفى أنّ النّبيّ ﷺ يدخل في الخطاب الموجّه إلى المؤمنين في قوله تعالى: ﴿فَوَلُّواْ وُجُوهَكُمْ﴾، ولكنّه أفرد النّبيّ ﷺ بتوجيه الأمر إليه إرضاءً لرغبته كونه كان يتطلّع له[4]، ثمّ وجّه الأمرَ إلى المؤمنين تشريفًا لهم بالخطاب بعد خطاب رسوله ﷺ؛ لتشتدّ عزيمتُهم وتطمئنّ قلوبُهم، ويتلقّوا تلك الفتنةَ الّتي أثارها المنافقون وأهل الكتاب واليهود بعزيمةٍ صادقةٍ وثباتٍ على اتّباع الرّسول[5].

ومن فوائِد خطابِ الأمَّة؛ "فلأنّه، كان يجوزُ أن يُعتقد أنّ هذا أمر قد خُصَّ ﵇ به كما خُصَّ بقوله: ﴿قُمِ ٱلَّيۡلَ إِلَّا قَلِيلٗا ٢﴾ [المزمّل: 2]؛ ولأنّه لما كان تحويل القبلة أمراً له خطرٌ خصَّهم بخطابٍ مفردٍ ليكون ذلك أبلغَ، فمعلوم من السلطان إذا خاطب والياً من قبله بأمر ذي بال يعمّه، ورغبته أن يخصّه بخطاب مفردٍ ليكون ذلك أوقعَ عندهم وأدعى لهم إلى قبولهم، وليكون لهم في ذلك تشريفٌ، ولأنّ في الخطاب العامّ تعليقُ حكمٍ آخرَ به، وهو أنّه لا فرق بين القريب والبعيد في وجوب التّوجّه إلى الكعبة"[6].

فائدة ذكرِ ﴿ٱلۡمَسۡجِدِ ٱلۡحَرَامِۚ﴾ دون الكعبةِ:

قولُه تعالى: ﴿ٱلۡمَسۡجِدِ ٱلۡحَرَامِۚ﴾ "مجازٌ مرسلٌ من إطلاق اسم الكلِّ على الجزء إن

---

(1) أبو حيّان، البحر المحيط: 2/23.
(2) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 1/174.
(3) البيضاوي، أنوار التنزيل: 1/112.
(4) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 2/28.
(5) المراغي، تفسير المراغي: 2/10.
(6) الرّاغب، تفسير الراغب: 1/335- 336.

مراعاةُ التّوجُّه إلى المسجدِ الحرامِ أيسرُ من الكعبةِ

قلنا: المرادُ منه الكعبةُ كما علّله الأكثرون"[1]، وفي ذكر المسجدِ الحرامِ دون الكعبة وجوبُ مراعاةِ الجهةِ دون العَين؛ لأنّ في إِصابة عين الكعبة من البعيدِ حرجاً عظيماً على النّاس[2].

توجيه وصف المسجدِ بالحرام:

"قوله تعالى: ﴿ٱلْحَرَامِۚ﴾ بمعنى المحرّم، وأصله: من المنع، سمِّيت تلك البقعة حرامًا لما منع فيها من أشياءَ لم تُمنع في غيرها"[3].

فائدةُ الاستئنافِ في ﴿وَحَيْثُ مَا كُنتُمْ فَوَلُّواْ وُجُوهَكُمْ شَطْرَهُۥۗ﴾:

تعميمُ حكم استقبال القبلة على جميع المؤمنين

الواو في قولِه تعالى: ﴿وَحَيْثُ مَا﴾ استئنافية، فقد توجَّه الخطابُ "للمؤمنين مع التعرُّض لاختلاف أماكنِهم تأكيداً للحُكم، وتصريحاً بعُمومه لكافة العباد من كل حاضر بادٍ، وحثاً للأمَّة على المتابعة"[4]؛ فالاستئناف جاء لبيانِ "أَنَّ حُكمَهُ وَحُكمَ أُمَّتِهِ في ذَلِكَ وَاحِدٌ، مَعَ مَزِيدِ عُمُومٍ في الأَمَاكِنِ، لِئَلَّا يُتَوَهَّمَ أَنَّ هَذِهِ القِبلَةَ مُختَصَّةٌ بِأَهْلِ المَدِينَةِ، فَبَيَّنَ أنهم في أيما حَصَلُوا مِنْ بِقَاعِ الأَرْضِ، وَجَبَ أَنْ يَسْتَقبِلُوا شَطْرَ المَسجِدِ"[5].

سببُ إفرادِ النّبيِّ وأمرِه قبل أمرِ الأمّةِ:

"وَلَمَّا كَانَ ﷺ هُوَ المتشوّف لِأَمْرِ التَّحويلِ، بَدَأَ بِأَمْرِهِ أَوَّلًا ثُمَّ أَتْبَعَ أَمْرَ أُمَّتِهِ ثَانِيًا؛ لِأَنَّهُمْ تَبَعٌ لَهُ فِي ذَلِكَ، وَلِئَلَّا يُتَوَهَّمَ أَنَّ ذَلِكَ مِمَّا اخْتُصَّ بِهِ ﷺ"[6].

الفاء الفصيحةُ في: ﴿فَوَلُّواْ وُجُوهَكُمْ شَطْرَهُۥۗ﴾:

أثرُ الرِّوايةِ في توجيه البلاغةِ، وتقدير المحذوفاتِ

أفصحت الفاءُ عن مقدَّرٍ محذوفٍ في قولِه: ﴿فَوَلُّواْ وُجُوهَكُمْ شَطْرَهُۥۗ﴾، وتقديره: وحيثما كنتم وأردتم الصّلاة، فولّوا وجوهكم

---

(1) الهرري، حدائق الروح والريحان: 3/24.
(2) الزمخشري، الكشاف: 1/203، وأبو حيّان، البحر المحيط: 2/24، وأبو السعود، إرشاد العقل السليم: 1/174.
(3) الواحدي، التفسير البسيط: 3/390.
(4) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 1/175.
(5) أبو حيّان، البحر المحيط: 2/25.
(6) أبو حيّان، البحر المحيط: 2/25.

شطره"[1]، "قَالُوا: وَإِنَّمَا لَمْ يَذْكُرْ (في الصَّلَاةِ)؛ لِأَنَّ الآيَةَ نَزَلَتْ وَهُوَ فِي الصَّلَاةِ، فَأَغْنَى التَّلَبُّسُ بِالصَّلَاةِ عَنْ ذِكْرِهَا، وَمَنْ قَالَ نَزَلَتْ فِي غَيْرِ الصَّلَاةِ، فَأَغْنَى عَنْ ذِكْرِ الصَّلَاةِ أَنَّ الْمَطْلُوبَ لَمْ يَكُنْ إِلَّا ذَلِكَ، أَعْنِي: التَّوَجُّهَ فِي الصَّلَاةِ، وَأَقُولُ: فِي قَوْلِهِ: ﴿فَلَنُوَلِّيَنَّكَ قِبْلَةً تَرْضَىٰهَا﴾ مَا يَدُلُّ عَلَى أَنَّ الْمَقْصُودَ هُوَ فِي الصَّلَاةِ؛ لِأَنَّ القِبْلَةَ هِيَ الَّتِي يُتَوَجَّهُ إِلَيْهَا فِي الصَّلَاةِ"[2].

سِرُّ التّعبيرِ بالاسم الموصول في ﴿ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْكِتَٰبَ﴾ دون (أهل الكتاب):

الموصول دالٌّ على قوم معيَّنين؛ و(أهل الكتاب) مُشعرٌ بالعموم

جاءَ التَّعبيرُ بالاسم الموصولِ في قولِه تعالى: ﴿وَإِنَّ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْكِتَٰبَ لَيَعْلَمُونَ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّهِمْۗ وَمَا ٱللَّهُ بِغَٰفِلٍ عَمَّا يَعْمَلُونَ ١٤٤﴾ دون أهل الكتاب؛ "لعلمهم بأنّ عادتَه سبحانه وتعالى جاريةٌ على تخصيص كلِّ شريعةٍ بقِبلة، ومعاينتِهم لما هو مسطورٌ في كتبهم من أنه عليه الصّلاةُ والسّلام يصلّي إلى القِبلتين، كما يُشعر بذلك التعبيرُ عنهم بالاسم الموصول بإيتاء الكتاب"[3].

فالاسم الموصول ﴿ٱلَّذِينَ﴾ يدلُّ على قوم بعينهم؛ فالأحرى أن يكون المرادُ بـ ﴿ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْكِتَٰبَ﴾ الأحبار منهم، أمّا (أهل الكتاب) فيشعرُ بعموم اليهودِ والنّصارى، ويدلُّ عليه قوله اللّاحق ﴿لَيَعْلَمُونَ﴾، والعلمُ صفةٌ خاصّةٌ، وليست ممّا يكون عامًا لأمّة كاملة، والمقصود بهم الأحبار، قال الفخر الرّازيّ في تفسير قوله جلّ شأنه: ﴿نَبَذَ فَرِيقٌ مِّنَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْكِتَٰبَ كِتَٰبَ ٱللَّهِ وَرَآءَ ظُهُورِهِمْ كَأَنَّهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ١٠١﴾ [البقرة: 101]، "﴿ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْكِتَٰبَ﴾ فَفِيهِ قَوْلَانِ، أَحَدُهُمَا: أَنَّ الْمُرَادَ مِمَّنْ أُوتِيَ عِلْمَ الكِتَابِ مَنْ يَدْرُسُهُ وَيَحْفَظُهُ، الثَّانِي: الْمُرَادُ مَنْ يَدَّعِي التَّمَسُّكَ بِالكِتَابِ سَوَاءٌ عَلِمَهُ أَوْ لَمْ يَعْلَمْهُ، وَهَذَا كَوَصْفِ الْمُسلمِينَ بِأَنَّهُمْ مِنْ أَهْلِ الْقُرْآنِ لَا يُرَادُ بِذَلِكَ مَنْ يَخْتَصُّ بِمَعْرِفَةِ عُلُومِهِ، بَلِ الْمُرَادُ مَنْ يُؤْمِنُ بِهِ وَيَتَمَسَّكُ بِمُوجَبِهِ"[4]، وقال في موضع آخر: "الْمُرَادُ أَحْبَارُ الْيَهُودِ وَعُلَمَاءُ النَّصَارَى؛ وَهُوَ الصَّحِيحُ لِعُمُومِ اللَّفْظِ، وَلَا بُدَّ أَنْ يَكُونُوا عَدَدًا قَلِيلًا؛ لِأَنَّ الْكَثِيرَ لَا يَجُوزُ عَلَيْهِمُ التَّوَاطُؤُ عَلَى الكِتمَانِ"[5].

---

(1) الواحدي، التفسير البسيط: 3/390.
(2) أبو حيّان، البحر المحيط: 2/23.
(3) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 1/175.
(4) الرازي، التفسير الكبير: 3/616.
(5) الرازي، التفسير الكبير: 4/106.

مآلُ الاختلافِ واحدٌ، فالمسجدُ الحرامُ والتَّوليةُ إليه شيءٌ واحد

الاختلافُ في مرجعِ الضّميرِ في: ﴿أَنَّهُ ٱلۡحَقُّ﴾:

اختُلف في مرجع الضَّمير في قوله تعالى: ﴿لَيَعۡلَمُونَ أَنَّهُ﴾ فقيل: "يجوز أن ترجعَ إلى المسجد الحرام، أي: إنّهم عالمون أنّ المسجد الحرام قِبلَة إبراهيم وأنّه حقٌّ، ويجوز أن تعود الكناية إلى التّولية؛ لأنّ قوله: ﴿فَلَنُوَلِّيَنَّكَ﴾ دلَّ على المصدر، والتّولية، وإن كانت في لفظ المؤنث، فهو مصدر، كما أنّ قوله: ﴿وَلَا يَحۡسَبَنَّ ٱلَّذِينَ يَبۡخَلُونَ﴾ [آل عمران: 180] دلَّ على البخل، فكنّى عنه بقوله: ﴿هُوَ خَيۡرٗا لَّهُم﴾ [آل عمران: 180]"[1]، "والقولان في التّحقيق واحد"[2]؛ لأنَّ التَّولية هي للمسجدِ الحرام، والمقصود بالمسجد الحرامِ ما كان توليةً إليه.

القصرُ بالتّعريف في ﴿أَنَّهُ ٱلۡحَقُّ﴾:

يدلُّ قولُه: ﴿ٱلۡحَقُّ﴾ على أنّه لا حقَّ غيره في موضوع القبلة، وما دونه مجرّدُ أهواءٍ، فقوله: ﴿أَنَّهُ ٱلۡحَقُّ﴾؛ أي: يعلمون أن استقبالَ الكعبة هو الحقّ دون غيره، "والمعنى أنّ اليهودَ والنّصارى يعلمون أنّ الكعبةَ هي قبلةُ إبراهيم إمام الأمم، وأنّ استقبالها هو الحقُّ الواجبُ على الجميع اتّباعًا لمحمّدٍ ﷺ الّذي يجدونه في كتبهم"[3].

نفيُ الاجتهادِ، وبيان أنّ الأمرَ من الله تعالى

دلالةُ الجارّ والمجرور ﴿مِن رَّبِّهِمۡ﴾:

قولُه تعالى: "﴿مِن رَّبِّهِمۡ﴾: جَارٌّ وَمَجرُورٌ في مَوضِعِ الحَالِ؛ أَيْ: ثَابِتًا مِنْ رَبِّهِمْ، وَفي ذَلِكَ دَلِيلٌ عَلَى أَنَّ التَّحَوُّلَ مِنْ بَيْتِ المَقدسِ إِلَى الكَعْبَةِ لَمْ يَكُنْ بِاجتِهَادٍ، إِنَّمَا هُوَ بِأَمرٍ مِنَ اللَّهِ تَعَالَى"[4]، فهو أمرٌ خالصٌ من اللّه تعالى.

"وَفي إِضَافَةِ الرَّبِّ إِلَيهِمْ تَنبِيهٌ عَلَى أَنَّهُ يَجِبُ اتِّبَاعُ الحَقِّ الَّذي

(1) الواحدي، البسيط: 3/391-392.
(2) الرّاغب، تفسير الراغب: 1/336.
(3) ابن عطية، المحرر الوجيز: 1/222.
(4) أبو حيّان، البحر المحيط: 2/25.

هُوَ مُستَقِرٌّ مِمَّنْ هُوَ مُعتَنٍ بِإِصلَاحِك، كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿ٱلۡحَقُّ مِن رَّبِّكَ﴾"[1]، وليلحظ فيه معنى الرّعاية الّتي حظوا بها من اللّه تعالى، وكذلك لأنّ الرّبّ يُصْلِحُ أحوالَ خلقه، وأنّ هذا التّحوّل من باب الإصلاح والرّعاية.

فائدةُ نفي الغفلةِ عن الفعل لا عن الذّواتِ في ﴿بِغَٰفِلٍ عَمَّا يَعۡمَلُونَ﴾:

"قال ابنُ عباس: يريدُ أنّكم يا معشرَ المؤمنين تطلبون مرضاتي، وما أنا بغافل عن ثوابكم وجزائكم، وإنّ اليهودَ يطلبون سخطي، وما أنا بغافل عن خزْيهم في الدّنيا والآخرة"[2]، و"في خِطَابِهِمْ بِأَنَّ اللّه لا يَغفَلُ عَنْ أَعمَالِهِمْ، تَحْرِيكًا لَهُم بِأَنْ يَعمَلُوا بِمَا عَلِمُوا مِنَ الحَقِّ، لأَنَّ المُوَاجَهَةَ بِالشَّيْءِ تَقْتَضِي شِدَّةَ الإِنكَارِ وَعِظَمَ الشَّيْءِ الَّذِي يُنْكَرُ ... فَهُوَ إِعْلَامٌ بِأَنَّ اللَّه تَعَالَى لَا يُهْمِلُ أَعْمَالَ العِبَادِ، وَلَا يَغْفَلُ عَنْهَا، وَهُوَ مُتَضَمِّنٌ الوَعِيدَ"[3].

اللـه تـعـالَى لَا يُـهمِلُ أَعْـمَـالَ الـعِـبَـادِ، وَلَا يَـغـفَـلُ عَـنـهَـا، وكـفـى بـهـذا وعيدا

۞ الفُرُوقُ المُعْجَمِيَّةُ:

الإِرَادَةُ والرِّضَا:

الإِرَادَةُ تكون قبل الفعل، وأمّا الرِّضَا فيكون بعد الفعل، فَلَيْسَ الرِّضَا من الإِرَادَة في شَيْء، وَالرِّضَا أَيْضا نقيضُ السّخط، وليس كذلك الإرادة، وفي الآية استعمل ﴿تَرۡضَىٰهَا﴾ ليدلَّ على أنّ ذلك سيكون بعد أن تتحوّل القبلة، لينفي السّخط عنه ﷺ.

الإِرَادَةُ تكون قبلَ الفعل، والرِّضَا يـكـون بـعـدَ الفعل

الرّضا والمحبّة:

الرّضا: الأَصْلُ يَدُلُّ عَلَى خِلَافِ السُّخْطِ، رضيتُ الشّيء ورَضِيتُ بِهِ رِضًا، اخترته، ورِضَا العبدِ عن اللّه: أن لا يكره ما يجري به قضاؤه، ورِضَا اللّهِ عن العبد هو أنْ يراه مؤتمرًا لأمره، ومنتهيًا عن نهيه[4].

المحبّة ضدُّها البُغضُ، والرّضا ضدّه السّخط، والرّضا مشعرٌ بالقبول، والحبّ مشعر بالميل

(1) أبو حيّان، البحر المحيط: 2/25.
(2) الواحدي، التفسير البسيط: 3/392.
(3) أبو حيّان، البحر المحيط: 2/25-26.
(4) ابن فارس، مقاييس اللغة؛ الرّاغب، المفردات؛ الفيومي، المصباح المنير: (رضي).

والمحبَّة: الأصل: اللُّزُومُ وَالثَّبَاتُ، فَالحُبُّ وَالـمَحَبَّةُ: أَحَبَّهُ إِذَا لَزِمَهُ، والحبّ ودادٌ شديدٌ في مقابل البغض، والمحبّة إرادة ما تراه أو تظنّه خيرًا؛ فإنّ المحبّة أبلغُ من الإرادة[1]، ويظهر الفرقُ بضدّيهما، فالمحبّة ضدُّها البغضُ، والرّضا: ضدّه السّخطُ، وهو يرجع إلى الإرادة[2].

والرّضا مشعرٌ بالقبول، والحبّ مشْعِر بالميل، فاختارت الآيةُ لفظَ الرّضا؛ لبيان أنّ الرّسولَ ﷺ لم يكن يميل إلى الكعبة من باب الميل النّفسيّ العاطفيّ، ولكنّه من باب الإرادة والاختيار لما فيها من مصالح، وتعبّر أيضًا عن رضاه عنْ ربّه وقَبول أوامره، فلو قال: (تحبّها)؛ لكان التّحويل معبِّرًا استجابةً لرغبةٍ في قلب النّبيّ ﷺ فقط، بلا معنى القبول والرّضا عن اللّه وإطاعته، وعليه سيكون ترتيبُ الأفعال من حيثُ رتبتُها في القوّة والوجود: الإرادة ثمّ الرّضا ثمّ الحبّ.

الجعل والعَمَل:

العَمَلُ هُوَ إيجاد الأثرِ فِي الشَّيْءِ على مَا ذكرنَا، والجعل تَغْيِير بإيجاد الأَثر فِيهِ بِغَيْر ذَلِك، أَلا ترى أَنَّك تَقول: جعل الطّين خزفًا وَجعل السَّاكِن متحرّكًا، وَتقول: عمل الطّين خزفًا، وَلَا تَقول عمل السَّاكِن متحرّكًا؛ لأنّ الحَرَكَة لَيست بأثر يُؤثر بِهِ في الشَّيْء[3].

العَـمَـل إيـجـادُ الأثرِ فِي الشَّيْء، والجعلُ تَغْيِيرٌ بإيجاد الأثر فِيهِ

وفي الآية استعمل (جعل) مع الأمّة، ومع تغيير القبلة؛ لأنه تغيير بإيجاد أثر، وقال في آخر الآية ﴿يَعۡمَلُونَ ١٤٤﴾ لأنّه إحداثٌ وإيجادُ أثرٍ بلا دلالة تغيير.

تعملون، وتكسبون، وتفعلون، وتصنعون:

الكسبُ: الفِعْل العَائِد على فَاعله بنفع أَو ضرّ، وما وَقع بمراس وعلاج، وَقَالَ آخَرُونَ: الكسْب ما فُعل بجارحة؛ ولذا لَا يُوصف اللّه بِأَنَّهُ مكتسب، اكْتسب الرّجلُ مَالًا وعقلًا وثوابًا وعقابًا، وَيكون بِمَعْنى

الكسب الفِعْل الـعَـائِـد على فَاعله بنفع أَو ضـرّ، وما وَقع بمراسٍ وعلاجٍ

(1) ابن فارس، مقاييس اللغة؛ الرّاغب، المفردات: (حبب).
(2) الشيخ بيت الله بيات، معجم الفروق اللّغويّة: ص: 257.
(3) العسكري، الفروق اللّغويّة، ص: 136.

الفعل في قَوْلك: اكْتسب طَاعَة، فالمكتسِب: هُوَ الجَاعِل للشَّيْء مكتسَبًا لَهُ بحادث، فمكتسِب الطَّاعَة هُوَ الجَاعِل لَهَا مكتسَبة بإحداثها(1).

العَمَل إيجَاد الأثَر فِي الشَّيْء يُقَال فلَان يعْمل الطّين خزفًا، وَلَا يُقَال يفعل ذَلِك

العَمَل: إيجَاد الأَثر فِي الشَّيْء يُقَال: فلَان يعْمل الطّين خزفًا، وَلَا يُقَال: يفعل ذَلِك، قَالَ اللّه تَعَالَى: ﴿وَٱللَّهُ خَلَقَكُمۡ وَمَا تَعۡمَلُونَ ۝٩٦﴾ [الصافات: 96]، أَي خَلقكُم وَخلق مَا تؤثّرون فِيهِ بنحتكم إِيَّاه، وَلَا يُقَال للفِعل الوَاحِد عمل(2).

الفعلُ لفظٌ عامٌّ يـقـالُ لما كان بإجادةٍ وبدونها، ولما كان بعلمٍ أو غير علمٍ

الفِعلُ: يقالُ لما كان بإجادةٍ وبدونها، ولما كان بعلمٍ أو غير علمٍ، وقصدٍ أو غير قصدٍ، ولما كان من الإنسانِ والحيوان والجماد(3).

الصُّنعُ يكون من الإنسانِ دون سائر الحيواناتِ، ولا يقالُ إلّا لما كان بإجادة

الصّنعُ: هو من الإنسانِ دون سائر الحيوانات، ولا يقالُ إلا لما كان بإجادة؛ ولهذا يقال للحاذقِ: المُجيد وللحاذقةِ المجيدة: صَنَعٌ، فالصُّنْعُ أخصّ المعاني الثّلاثة، والفعل أعمُّها، والعملُ أوسطها، فكلُّ صنعٍ عملٌ، وليس كلُّ عملٍ صنعًا، وكلُّ عملٍ فعلٌ، وليس كلُّ فعلٍ عملًا(4).

شَطْر وتِلقَاء:

قال ﷻ: ﴿فَوَلِّ وَجۡهَكَ شَطۡرَ ٱلۡمَسۡجِدِ ٱلۡحَرَامِۚ﴾ ولم يقل: تلقاءَ كما في قوله تعالى: ﴿وَلَمَّا تَوَجَّهَ تِلۡقَآءَ مَدۡيَنَ﴾ [القصص: 22].

الشَّطرُ شَطْر الشّيء ناحيتُه وجهته

شَطَرَ: شَطْرُ الشّيء: نصفه ووسطه(5)، وكلّ ما نُصِّفَ فقد شُطِّر، والشَّطر: الجهةُ، وشَطر الشّيء ناحيته، وشَطر كلِّ شيء: نحوُه وقصدُه(6)، ومِنْ هَذَا البَابِ الشَّطْرُ الَّذي يُقَالُ فِي قَصْدِ الشَّيْءِ وَجِهَتِه، قَالَ اللَّه تَعَالَى فِي شَأْنِ القِبلَة: ﴿فَوَلُّواْ وُجُوهَكُمۡ شَطۡرَهُۥۗ﴾ أَيْ قَصْدَهُ.

(1) العسكري، الفروق اللّغويّة، ص: 137.
(2) العسكري، الفروق اللّغويّة، ص: 134-135.
(3) الشيخ بيت الله بيات، معجم الفروق اللّغويّة، ص: 322.
(4) الشيخ بيت الله بيات، معجم الفروق اللّغويّة، ص: 323.
(5) الرّاغب، المفردات: (شطر).
(6) جبل، المعجم الاشتقاقي المؤصل: (شطر).

اللِّقَاءُ مقابلةُ الشّيء ومصادفته معًا

تلقاء: الأصل (لقي)، اللِّقَاءُ: مقابلة الشّيء ومصادفته معًا، جهَة اللّقاءِ والمُقابَلَة، جَلَسْتُ تِلْقاءَهُ أي حِذَاءَهُ[1]، ومعنى ﴿تِلْقَآءَ مَدْيَنَ﴾ [القصص: 22]، أي سَلك في الطّريق الّتي تلقاء مَدْيَنَ فيها[2]، وقال الفخر الرّازيّ: ﴿تَوَجَّهَ تِلْقَآءَ مَدْيَنَ﴾ [القصص: 22]: خَرَجَ وَمَا قَصَدَ مَديَنَ، وَلَكِنَّهُ سَلَّمَ نَفسَهُ إِلَى اللَّه تَعَالَى وَأَخَذَ يَمشِي مِنْ غَيْرِ مَعْرِفَةٍ، فَأَوْصَلَهُ اللَّه تَعَالَى إِلَى مَدْيَنَ، وَهَذَا قَوْلُ ابْنُ عَبَّاسٍ، ولَمَّا خَرَجَ قَصَدَ مَدْيَنَ لَمْ يَكُنْ لَهُ عِلْمٌ بِالطَّرِيقِ بَلِ اعْتَمَدَ عَلَى فَضْلِ اللَّه تَعَالَى[3].

ويظهر أنّ الفرقَ من خلال ما قدّمنا في شيئين: الأوّل: أنّ التوجّه المعبّر عنه بـ ﴿تِلْقَآءَ﴾ يدلُّ على الذهاب إلى المتوجَّه إليه، ولقائه، ففيه معنى البلوغ والوصول واللّقاء، وهو اتّجاه للذّهاب، وليس اتّجاهًا للتّوجّه فقط، فقوله تعالى: ﴿تَوَجَّهَ تِلْقَآءَ مَدْيَنَ﴾ [القصص: 22] يعني يذهب إليها حتّى يبلغها، وأمّا: ﴿شَطْرَ ٱلْمَسْجِدِ﴾ فيعني التوجُّه إليه للمواجهة فقط بلا ذهاب وبلوغ، والثّاني: أنَّ التّوجُّه في ﴿تِلْقَآءَ﴾ [القصص: 22] من غير معرفة الطّريق المؤدّية إلى المَقصَد، فهو يعرف الاتّجاه العامّ له فقط، أمّا الشّطْر فمأخوذ من شَطر الشّيء ومناصفته، ففيه تحديدٌ ووضوح أكثر؛ فلذا استعمل مع المسجد الحرام؛ لأنّهم يعرفونه، فجاء في سياق القبلة الّتي تقتضي الوضوح والدّقّة، أمّا (مَدْيَنَ) [القصص: 22] فلم يكن لموسى فيها معرفةٌ دقيقةٌ؛ فذهابه إليها تلقائيّ بلا خطّة ومعرفة، وكذلك الفعل (ألقى) هو إلقاء بلا هدف.

(1) ابن فارس، مقاييس اللغة؛ الرّاغب، المفردات: (لقي).
(2) الزجاج، معاني القرآن وإعرابه: 4/138.
(3) الرّازي، التفسير الكبير: 24/588.

﴿وَلَئِنْ أَتَيْتَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْكِتَٰبَ بِكُلِّ ءَايَةٍ مَّا تَبِعُواْ قِبْلَتَكَۚ وَمَآ أَنتَ بِتَابِعٖ قِبْلَتَهُمْۚ وَمَا بَعْضُهُم بِتَابِعٖ قِبْلَةَ بَعْضٖۚ وَلَئِنِ ٱتَّبَعْتَ أَهْوَآءَهُم مِّنۢ بَعْدِ مَا جَآءَكَ مِنَ ٱلْعِلْمِ إِنَّكَ إِذٗا لَّمِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ١٤٥﴾

[البقرة: 145]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِمَا قَبْلَها:

بيانُ إعراض أهل الكتاب عن الحقّ لفرط عنادهم، وفي هذا تثبيت لقلب النّبيّ

لـمّا ذكر في الآية السّابقة أنّهم يَعلَمُون ولا يَعملون مُكابرةً منهم، بنَى على ذلك أنّهم لا مَطْمَعَ في اتّباعهم القبلة؛ لدَفعِ توهّم أنْ يطمع السّامع باتّباعهم؛ لأنّهم يعلمون أحقيّتها، فَعَدَمُ اتّباعهم ليس عن علم بل عن هوى.

قال الهرري: "لـمّا ذكر لنبيه ﷺ ما يقوله السّفهاءُ من اليهودِ عند تحويل القبلة من بيت المقدس إلى الكعبة المشرّفة، وأمر رسولَه ﷺ بأن يتوجّهَ في صلاته نحو الكعبة، وأعلمه أنّهم يَعلَمُون أنه الحقُّ وهم يكتمونه، ولا يرتِّبون على العلم به مقتضاه، سلَّاه ﷺ عن قبولهم الحقَّ بأنهم قد انتهوا في العناد وإظهار المعاداة إلى رتبةٍ لو جئتهم فيها بجميع المعجزات الّتي كلُّ معجزة منها تقتضي قبولَ الحقِّ ... ما تبعُوك، ولا سلكوا طريقك، وإذا كانوا لا يتبعونك مع مجيئك لهم بجميع المعجزات ... فأحرى أن لا يتّبعوك إذا جئتهم بمعجزةٍ واحدة، والمعنى بكل آيةٍ يدلُّ على أن توجّهك إلى الكعبة هو الحقُّ"[1].

شَرْحُ المُفْرَدَاتِ:

1) ﴿أَهْوَآءَهُم﴾: من الجذر (هَوِيَ) أَصْلُ مادّة (هويَ) يَدُلُّ عَلَى خُلُوٍّ وَسُقُوطٍ، أَصْلُهُ الهَوَاءُ بَيْنَ الأَرْضِ وَالسَّمَاءِ، سُمِّيَ لِخُلُوِّهِ، قَالُوا: وَكُلُّ خَالٍ هَوَاءٌ، وَهَوَى الشَّيْءُ يَهْوِي:

(1) الهرري، حدائق الروح والريحان: 3/25.

سَقَطَ[1]، وَأَمَّا الهَوَى فَمِنَ المَعنَيَيْنِ جَمِيعًا، لأَنَّهُ خَالٍ مِنْ كُلِّ خَيْرٍ، وَيَهْوِي بِصَاحِبِهِ فِيمَا لَا يَنْبَغِي[2]، وهو: محبةُ الإنسانِ الشّيءَ وغلبتُه على قلبه، ومتى أُطلق لم يكن إلّا مذمومًا ﴿وَنَهَى ٱلنَّفْسَ عَنِ ٱلْهَوَىٰ ۝٤٠﴾ [النّازعات: 40]، وبهذا المعنى كل (الهَوَى)، وجمعه (أهواء)[3].

2) ﴿ٱلظَّٰلِمِينَ﴾: من الجذر (ظَلَمَ)، يدلُّ أَصْلُ مادّة (ظلم) على خِلَافِ الضِّيَاءِ وَالنُّورِ، ووَضعِ الشَّيْءِ غَيْرَ مَوضِعِهِ تَعَدِّيًا[4]، ويدلُّ على حجبِ ما ينبغي أو ما يُسْتَحقّ، أي منعه أو انتقاصه، كمَنْعِ الضّوءِ في حالة الظّلمة، فالظّلام يحجبُ الرّؤية[5]، والظُّلْم: المَيلُ عَنِ القَصد[6].

❁ المَعْنَى الإِجْمَالِيُّ:

يُبيّنُ الله ﷻ لنبيّه ﷺ في هذه الآية الكريمة، بأنّ الّذين أوتوا الكتاب من يهود ونصارى لن يتّبعوا قبلتك الّتي حوّلك الله تعالى إليها مهما بسطتَ بين أيديهم من آياتٍ قاطعةٍ وبراهينَ ساطعةٍ؛ لأنّ تركهم اتّباعك ليس مَبْنيًّا على شبهة تزيلُها بإيراد الحُجّة، وإنّما هم قومٌ مُعانِدون يَنْطلقون في مَواقِفهم من مُكابرَةٍ وتصلُّبٍ وعِناد مع علمهم بما في كتبهم من نعتك بأنّك على الحقّ المبين، ثمّ حسم أطماعهم مُوضِحًا أنّ نبيّه ﷺ لا يتوجَّهُ إلى قبلتهم على وجه التّأبيد؛ إذ صوّرت الآية تَصَلُّبَ كُلِّ فريقٍ وثباتَهُ على موقفه: فريق أهل الإيمان وفي مقدّمتهم محمّد ﷺ لا يتخلّون ولا يتزحزحون عن الحقّ الّذي هم عليه، وفريق الّذي أوتوا الكتاب بأنّهم لا يُفارقون الباطل الّذي يُصرّون على الاستمساك به، وفي هذا البيان إراحةٌ لقلب النبيّ ﷺ ليَكُفّ عن التّطلّع إلى هدى بعضهم، ثمّ أخبر

تَركُ أهل الكتاب محجّة الإسلام ليس لشُبهة، وإنّما لفرط عنادهم وتكبُّرهم، وفي الآية تحذيرٌ من اتّباعِ الهوى، وتهييجٌ للثّبات على الحقّ

(1) ابن فارس، مقاييس اللغة: (هوي).
(2) ابن فارس، مقاييس اللغة: (هوي).
(3) محمد حسن جبل، المعجم الاشتقاقي المؤصل: (هوي).
(4) ابن فارس، مقاييس اللغة: (ظلم).
(5) جبل، المعجم الاشتقاقي المؤصل: (ظلم).
(6) ابن منظور، لسان العرب: (ظلم).

جلّ شأنه بأنّ اليهودَ والنّصارى على - اتّفاقهم وتظاهرهم على معاداتكم ومخالفتكم في شأن القبلة - فإنّهم مُختلفون فيما بينهم لاعتداد كل فريق بقبلته وتعصّبه لها، ثمّ وجّه سبحانه نبيّه ﷺ بأنّك لئن اتّبعت أهواءهم -على وجه الفرض والتّقدير- من بعد العلم الّذي جاءك به الوحيُ، فإنّك تكون من الظّالمين.

وفي الآية: خطاب لجميع الأمة، وهو تهديد ووعيد لمن يتبع أهواء المخالفين لشريعة الإسلام، وتعليمٌ للأمّة جميعها بأن يبتعدوا كلّ البعد عن اتّباع قبلة الآخرين، واقتفاء آثارهم في أعمالهم وتشريعاتهم، ومحاولة استرضائهم بالتّقرّب من حِمَى ما يدينون به، قال الزّمخشريّ: "وفي ذلك لُطفٌ للسّامعين، وزيادةُ تحذيرٍ واستفظاع لحال من يتركُ الدّليلَ بعد إنارته، ويتّبعُ الهوى، وتهييجٌ وإلهابٌ للثّبات على الحقّ"[1].

حقيقةُ الإنسان الجدليّة وما يجبُ إزاءها من الثّباتِ

تتكلّم الآيةُ عن حقيقةٍ إنسانيّةٍ مفادُها أنّ أصحابَ الأهواء لا يتّبعون الحقّ مهما جئت لهم بأدلّة وحجج، وعلى أصحاب الحقّ أمام هذا العناد أن لا ينحرفوا عمّا هم عليه، وإذا حدث فإنّ ذلك ظلمٌ للحقّ ومنعٌ للصّوابِ؛ لأنّه سيحجبُ المعرفةَ الحقّةَ أمام النّاس، وهذا ظلمٌ للنّاس وللحقّ، ولا ينبغي تجاوز الخلاف بين الملل المختلفة وتحقيق التّقارب من خلال اتّباع أهوائهم والاعتراف بخطئهم وإعطائه صفة الحقّ.

۞ الإيضاحُ اللّغويُّ والبلاغيُّ:

موضعُ قوله ﴿وَلَئِنْ أَتَيْتَ﴾ من الآيات السّابقة:

معرفةُ اليأسِ من الغافل، تُورِّثُ راحةَ العاملِ

قال ابن عرفة في قوله تعالى: ﴿وَلَئِنْ أَتَيْتَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ بِكُلِّ ءَايَةٍ﴾: "في هذا تهدئة روعته ﷺ وتطمينٌ له حتَّى لا يتهالك

(1) الزمخشري، الكشاف: 1/203.

على عدم إيمانهم وهو عامٌّ في جميع المعجزات"[1]، وهو "تَسْلِيَةٌ لِلرَّسُولِ عَنْ مُتَابَعَةِ أَهلِ الكِتَابِ لَهُ؛ أَعْلَمَهُ أَنَّهُمْ يَعْلَمُونَ أَنَّهُ الحَقُّ، وَهُمْ يَكتُمُونَهُ، وَلَا يُرَتِّبُونَ عَلَى العِلم بِهِ مُقتَضَاهُ، ثُمَّ سَلَّاهُ عَنْ قَبُولِهِمُ الحَقَّ، بِأَنَّهُمْ قَد انتَهَوْا فِي العِنَادِ وَإِظْهَارِ المُعَادَاةِ إِلَى رُتبَةٍ، لَوْ جِئْتَهُمْ فِيهَا بِجَمِيعِ المُعْجِزَاتِ الَّتِي كُلُّ مُعجِزَةٍ مِنْهَا تَقْتَضِي قَبُولَ الحَقِّ، مَا تَبِعُوكَ وَلَا سَلَكُوا طَرِيقَكَ، وَإِذَا كَانُوا لَا يَتَّبِعُونَكَ، مَعَ مَجِيئِكَ لَهُمْ بِجَمِيعِ المُعجِزَاتِ، فَأَحْرَى أَنْ لَا يُتبِعُوكَ إِذَا جِئْتَهُمْ بِمُعْجِزَةٍ وَاحِدَةٍ، وَالمَعْنَى: بِكُلِّ آيَةٍ يَدُلُّ عَلَى أَنَّ تَوَجُّهَكَ إِلَى الكَعْبَةِ هُوَ الحَقُّ"[2].

اجتماعُ القسمِ والشَّرطِ في قولِه: ﴿وَلَئِنْ أَتَيْتَ﴾:

اختزالُ الألفاظِ بتقديرِ الجوابِ، وأداءُ المعاني على وجهِ الصَّوابِ

اجتمع في قوله تعالى: ﴿وَلَئِنْ أَتَيْتَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْكِتَٰبَ بِكُلِّ ءَايَةٍ مَّا تَبِعُواْ قِبْلَتَكَۚ﴾ قسمٌ وشرطٌ، أمَّا القسمُ فدلَّت عليه اللامُ؛ فهي "تُؤْذِنُ بِقَسَمٍ مَحْذُوفٍ مُتَقَدِّمٍ؛ فَقَدِ اجْتَمَعَ القَسَمُ المُتَقَدِّمُ المَحْذُوفُ، وَالشَّرْطُ مُتَأَخِّرٌ عَنهُ، فَالجَوَابُ لِلقَسَمِ وَهُوَ قَوْلُهُ: ﴿مَّا تَبِعُواْ﴾، وَلِذَلِكَ لَمْ تَدْخُلْهُ الفَاءُ"[3]، والتقدير: "وعزَّتي وجلالتي لَئِن جئتَ يا محمدُ اليهودَ والنصارى الذين أعطوا التّوراة والإنجيل ﴿بِكُلِّ ءَايَةٍ﴾؛ أي: بكل حجّةٍ قطعيّةٍ دالّةٍ على صدقك في أنَّ تحوّلك بأمرٍ من الله، وذلك بأنّهم قالوا: ائتنا بآيةٍ على ما تقول، فأنزل الله هذه الآية: ﴿مَّا تَبِعُواْ قِبْلَتَكَۚ﴾ الكعبة، وما دخلوا في دينك، والجملة جواب القسم المحذوف"[4].

وإذا اجتمع الجزاءُ والقسمُ؛ فأيّهما سبق الآخرَ وتَصدّر، كان الجوابُ له، ومثالُ تصدُّرِ القسم قولك: "واللهِ لَئِنْ أتيتَني لأتيتُك"[5]، وجواب القسم المحذوف سدَّ مسدَّ جواب الشّرط[6]، فتقدير القسم:

(1) ابن عرفة، تفسير ابن عرفة: 2/456.
(2) أبو حيّان، البحر المحيط: 2/26.
(3) أبو حيّان، البحر المحيط: 2/26.
(4) الهرري، حدائق الروح والريحان: 3/25-26.
(5) ابن يعيش، شرح المفصل: 5/141.
(6) النسفي، مدارك التنزيل: 1/140.

والله لَئِنْ أَتَيْتَهم بِكُلِّ آيَةٍ مَا تَبِعُوا قِبْلَتَكَ، وتقدير الشّرط: إنْ أَتَيْتَهم بِكُلِّ آيَةٍ مَا تَبِعُوا قِبْلَتَكَ، "وما دخلوا في دينك، والجملة جواب القسم المحذوف"[1].

إظهارُ ما حقُّه الإضمارُ في قولِه: ﴿أَتَيْتَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ﴾:

الإيـذانُ بكمالِ سوءِ حالِهم من العنادِ مع علمهم بالكتاب

سبق التَّصريحُ بذكر ﴿ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ﴾ في الآية السّابقة، فالظّاهر أن يقول: (ولئن أتيتهم بكلّ آية) بالإضمار، ففي قوله: ﴿وَلَئِنْ أَتَيْتَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ﴾ "وضع الموصولُ موضعَ المضمرِ؛ للإيذان بكمالِ سوءِ حالِهم من العناد، مع تحقّق ما يُرْغِمُهم منه من الكتاب النّاطق بحقّيّة ما كابروا في قبوله"[2]، أي: "أنّهم قد انتهوا في العناد، وإظهار المعاداة إلى رتبةٍ لو جئتهم فيها بجميع المعجزات... ما تبعوك، ولا سلكُوا طريقك"[3]، فالآيةُ جاءت بالظّاهر؛ والقاعدة العامّة في استعمال الإظهار موضع الإضمار أن يكون المقصودُ منه زيادةَ العنايةِ والتّمكّن في الذّهن، ومزيدُ العناية هنا تفسَّر بالإعلان بمذمَّتهم؛ حتّى تكون هذه الجملة صريحة في تناولهم؛ فهو بيان بكمال سوء حالهم[4].

المجازُ المرسلُ في قولِه: ﴿بِكُلِّ ءَايَةٍ﴾:

إطلاقُ لفظِ (كلِّ) وإرادةُ الكثرة شائعٌ في كلام العرب

(كلّ) من ألفاظ العموم والشّمول، وفي هذا الموضع لا يرادُ به التّعميم، بل التّكثير؛ حيث أطلق لفظ الكلّ وأراد الكثرة؛ فهو مجاز لجعل الكثير من أفراد شيء مشابهًا لمجموع عموم أفراده؛ تشبيهَ العدد الكثير من أفراد الجنس بعموم جميع أفراده، فالمراد بـ ﴿بِكُلِّ ءَايَةٍ﴾: آيات كثيرة على أنّ استقبال الكعبة هو قبلة الحنيفيّة، وإطلاق لفظ (كلّ) على الكثرة شائع في كلام العرب[5]،

(1) الهرري، حدائق الروح والريحان: 3/25-26.
(2) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 1/175.
(3) الهرري، حدائق الروح والريحان: 3/42.
(4) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 2/35.
(5) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 2/35.

ومعنى ﴿بِكُلِّ ءَايَةٍ﴾: "بكلّ برهان قاطع أن التّوجّه إلى الكعبة هو الحقُّ، فليس المرادُ جميعَ الآيات، بل الآياتُ الّتي لها علاقة "في أمر القبلة؛ أي: في أنّ تحوّلك بأمر من اللّه"[1].

فائدةُ التّخصيص في قوله: ﴿قِبۡلَتَكَۚ﴾:

"أَضَافَ تَعَالَى القِبْلَةَ إِلَيْهِ؛ لِأَنَّهُ المُتَعَبِّدُ بِهَا وَالمُقْتَدَى بِهِ في التَّوَجُّهِ إِلَيْهَا"[2]، ولأنَّ الخطاب في سياقِ الآيات له: ﴿قَدۡ نَرَىٰ تَقَلُّبَ وَجۡهِكَ فِي ٱلسَّمَآءِۖ فَلَنُوَلِّيَنَّكَ قِبۡلَةٗ تَرۡضَىٰهَاۚ فَوَلِّ وَجۡهَكَ شَطۡرَ ٱلۡمَسۡجِدِ ٱلۡحَرَامِۚ﴾، و﴿وَلَئِنۡ أَتَيۡتَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡكِتَٰبَ﴾، فلذلك كان المناسبُ إفرادَه بالخطابِ في قولِه: ﴿قِبۡلَتَكَۚ﴾.

الغرضُ المجازي للخبر في ﴿وَمَآ أَنتَ بِتَابِعٖ قِبۡلَتَهُمۡۚ﴾:

الأمرُ والنّهيُ بصيغةِ الخبر يدلُّ على المبالغةِ في طلبهما

قولُه تعالَى: ﴿وَمَآ أَنتَ بِتَابِعٖ قِبۡلَتَهُمۡۚ﴾ جملةٌ خبريةٌ اختُلف في معناها؛ فقيل هي محمولةٌ على الإنشاء، وقيل: محمولة على الخبرِ المحض، فمَن حملها على الإنشاءِ ذهب إلى وجهين، الأوَّل: "النّهي، وطلب الدوام على قبلته؛ أي: لا تتبع قبلتهم، ودُمْ على قبلتك التي حوَّلناك إليها - وهي الكعبة - وإلّا فهو معصومٌ عن اتِّباع قبلتهم بعدَ ورود الأمر بالتحوّل"[3]، والثّاني: الأمر، فهي إخبارٌ لفظًا، ولكنّها تتضمّن الأمر، أي: اثبتْ ولا تتبع قبلتهم، والأمر بالخبر يدلُّ على المبالغة في قوّة الأمر، فتحويل الكلام من الإنشاء الّذي لا حقيقة له قابلة للصّدق والكذب، إلى كلام له حقيقة في الوجود قابلة للتّصديق والتّكذيب يعطي قوّة معنويّة له، ثمّ إنّ الخبر جاء منفيًّا على وجه المبالغة في النّفي، مما يزيدُ المبالغةَ في الأمر المراد من الخبر، والنّفي البليغ يتحصّل من الباء في خبر ما[4].

---

(1) الجمل، الفتوحات الإلهية: 1/178.
(2) أبو حيّان، البحر المحيط: 2/28.
(3) الهرري، حدائق الروح والريحان: 3/26.
(4) الطيبي، فتوح الغيب: 3/147.

ومن ذهب إلى أنَّها خبريَّة، قال: "هذه القبلةُ باقيةٌ غيرَ منسوخةٍ"[1]، والغرضُ من ذلك التأييس "﴿وَمَآ أَنتَ بِتَابِعٖ قِبۡلَتَهُمۡۚ﴾ حسمٌ لأطماعهم إذ كانوا ماجوا في ذلك وقالوا: لو ثبت على قبلتنا لكنّا نرجو أن يكون صاحبَنا الّذي ننتظره، وطمعوا في رجوعه إلى قبلتهم"[2].

المقارنةُ بين النَّفي بالجملة الاسميّة والفعليّة:

جملةُ: ﴿وَمَآ أَنتَ بِتَابِعٖ قِبۡلَتَهُمۡۚ﴾ أَشدُّ في النَّفْيِ مِنْ قوله: ﴿مَّا تَبِعُواْ قِبۡلَتَكَۚ﴾ "مِنْ حَيْثُ كَانَتِ اسْمِيَّةً تَكَرَّرَ فِيهَا الاسْمُ مَرَّتَيْنِ، وَمِنْ حَيْثُ أَكَّدَ النَّفْيَ بِالبَاءِ فِي قَوْلِهِ: ﴿بِتَابِعٖ﴾"[3]، ولم يقل: وما أنت تتّبع قبلتهم، مع أنّ النّفي بالفعل أعمّ؛ لأنّه مطلقٌ، ونفي الأعمّ يستلزم نفي الأخصّ، وذلك "أنّ الأوّل جاء على الأصل في أنّهم مصمّمون على عدم اتباعه، وأمّا نفيه هو بالاسم فلأنّ أفعاله ﷺ ثابتةٌ لازمةٌ؛ فهو إذا اتّبع أمرًا ثبتَ عليه ولا ينتقل عنه؛ فنُفي على حسب ما هو عليه"[4].

سرُّ إفرادِ القِبلة في قوله: ﴿قِبۡلَتَهُمۡۚ﴾:

بُطلان القبلتين يجعل لهما حكمًا واحدًا

"أَفْرَدَ القِبْلَةَ فِي قَوْلِهِ: ﴿قِبۡلَتَهُمۡۚ﴾، وَإِنْ كَانَتْ مُثَنَّاةً، إِذْ لِلْيَهُودِ قِبْلَةٌ، وَلِلنَّصَارَى قِبْلَةٌ مُغَايِرَةٌ لِتِلْكَ القِبْلَةِ، لِأَنَّهُمَا اشْتَرَكَتَا فِي كَوْنِهِمَا بَاطِلَتَيْنِ، فَصَارَ الاثْنَانِ وَاحِدًا مِنْ جِهَةِ البُطْلَانِ، وَحَسَّنَ ذَلِكَ المقابلَةُ فِي اللَّفْظِ، لِأَنَّ قَبْلَهُ ﴿مَّا تَبِعُواْ قِبۡلَتَكَۚ﴾"[5]، وكذلك فإنَّ إفرادَ القبلة في قوله: ﴿وَمَآ أَنتَ بِتَابِعٖ قِبۡلَتَهُمۡۚ﴾ مع كونهما قبلتين؛ لأنّه إذا اتّبع قبلة إحدى الطّائفتين كان غير متّبع قبلة الطّائفة الأخرى[6].

التّيئيس والتّأنيس في قوله ﴿وَمَا بَعۡضُهُم بِتَابِعٖ قِبۡلَةَ بَعۡضٖۚ﴾:

في قوله: ﴿وَمَا بَعۡضُهُم بِتَابِعٖ قِبۡلَةَ بَعۡضٖۚ﴾ تأنيسٌ للنّبيّ ﷺ بأنّ هذا دأب أهل الكتاب، وشِنْشِنتُهم من الخلاف، فقديمًا خالفَ

(1) الهرري، حدائق الروح والريحان: 3/26.
(2) الزمخشري، الكشاف: 1/203.
(3) أبو حيّان، البحر المحيط: 2/28.
(4) ابن عرفة، تفسير ابن عرفة: 2/45.
(5) أبو حيّان، البحر المحيط: 2/28، والزمخشري، الكشاف: 1/203-204.
(6) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 2/36.

بعضُهم بعضًا في قبلتهم، فخالفتِ النّصارى قبلةَ اليهودِ، وشريعةُ اليهودِ هي أصلُ النّصرانيّة[1]، وقد يكون المعنى: هم لم يتّبعوا قبلة بعضهم، فكيف يجوز لك أنْ تتّبع قبلتهم؟!، فلو كانوا متّفقين لكان من الممكن أنْ يكونَ اتّباعُ قبلتهم ممّا لا يمتنِعُ عقلًا أنْ يتطلّع له، ولكنّهم قد اختلفوا في قبلتهم، فأنّى لك أن تتّبع فريقًا منهم!

مرجعُ الضّمير ودلالته في ﴿وَمَا بَعۡضُهُم بِتَابِعٖ قِبۡلَةَ بَعۡضٖۚ﴾:

الإشَـارَةُ إِلَى أَنَّ اليَهُودَ والنَّصارى لَا يلتقيانِ في قبلةٍ واحدة

عادَ الضَّميرُ في قوله تعالى: ﴿وَمَا بَعۡضُهُم بِتَابِعٖ قِبۡلَةَ بَعۡضٖۚ﴾ "عَلَى أَهْلِ الكِتَابِ، وَالمَعْنَى: أَنَّ اليَهُودَ لَا يَتَّبِعُونَ قِبْلَةَ النَّصَارَى، وَلَا النَّصَارَى تَتَّبِعُ قِبْلَةَ اليَهُودِ؛ وَذَلِكَ إِشَارَةٌ إِلَى أَنَّ اليَهُودَ لَا تَتَنَصَّرُ، وَإِلَى أَنَّ النَّصَارَى لَا تَتَهَوَّدُ، وَذَلِكَ لِمَا بَيْنَهُمَا مِنْ إِفرَاطِ العَدَاوَةِ وَالتَّبَاغُضِ"[2].

دلالةُ الفرضِ والتّقديرِ في قوله: ﴿وَلَئِنِ ٱتَّبَعۡتَ أَهۡوَآءَهُم﴾:

بيانُ غضبِ الله تعالى لمن يتركُ قبلته، ويتبع أهلَ الكتابِ

بعد أن أفصح قولُه تعالى: ﴿وَمَآ أَنتَ بِتَابِعٖ قِبۡلَتَهُمۡۚ﴾ وجه الحقيقةِ السّافرةِ، قال: ﴿وَلَئِنِ ٱتَّبَعۡتَ أَهۡوَآءَهُم﴾ وهو "كلامٌ واردٌ على سبيل الفرض والتقدير، بمعنى: ولئن اتَّبعتهم مثلًا بعد وضوح البرهان والإحاطة بحقيقة الأمر ﴿إِنَّكَ إِذٗا لَّمِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ١٤٥﴾ المرتكبين الظلم الفاحش، وفي ذلك لطفٌ للسامعين وزيادة تحذير، واستفظاعٌ لحال من يتركُ الدّليلَ بعد إنارته ويتّبع الهوى، وتهييجٌ وإلهابٌ للثّبات على الحقّ"[3]، وفيه بيانُ شديد غضبِ اللّه تعالى لمَن يتَّبع اليهودَ والنَّصارى، ويُفرِّط في أمر الدِّين، فإذا كان الخطابُ مع رسولِ اللّه ﷺ الذي كان منه ما كان في أمرِ القبلةِ، فكيف بمن دونه من المؤمنين؟! وهي على حدِّ قوله تعالى: ﴿وَلَقَدۡ أُوحِيَ إِلَيۡكَ وَإِلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِكَ لَئِنۡ أَشۡرَكۡتَ لَيَحۡبَطَنَّ عَمَلُكَ وَلَتَكُونَنَّ مِنَ ٱلۡخَٰسِرِينَ ٦٥﴾ [الزمر: 65].

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 2/37.
(2) أبو حيّان، البحر المحيط: 2/29.
(3) الزمخشري، الكشاف: 1/203.

دلالةُ (اللّام) على القسمِ المحذوف في ﴿وَلَئِنِ ٱتَّبَعۡتَ أَهۡوَآءَهُم﴾:

"﴿وَلَئِنِ ٱتَّبَعۡتَ أَهۡوَآءَهُم﴾، اللَّامُ أَيْضًا مُؤْذِنَةٌ بِقَسَمٍ مَحْذُوفٍ، وَلِذَلِكَ جَاءَ الجَوَابُ بِقَوْلِهِ: إِنَّكَ"(1).

إيثارُ الجمع على الإفراد في ﴿وَلَئِنِ ٱتَّبَعۡتَ أَهۡوَآءَهُم﴾:

جُمِع الهوى في قولِه تعالى: ﴿وَلَئِنِ ٱتَّبَعۡتَ أَهۡوَآءَهُم﴾؛ "لاختِلَافِ أَغرَاضِهِمْ وَمُتَعَلَّقَاتِها وَتَبَايُنِهَا"(2)، والأهواءُ هي: "الأمورُ الّتي يهوَوْنها ويحبّونها منك، ومنها رجوعك إلى قبلتهم"(3).

إيثارُ التّعبير عن القبلة بالأهواء ﴿ٱتَّبَعۡتَ أَهۡوَآءَهُم﴾:

اتّباعُ القبلةِ عند أهـلِ الـكـتـابِ هوًى؛ لا دينٌ ولا التزام

الاتّباعُ يكون للقبلة، ولم يقل: (ولئنِ اتبعتَ قبلتهم)، ولكنّه وضع بدلها (الأهواء)؛ ليدلّ على أنّ اتّباعهم القبلة ليس عن علم، بل كان من آثار الخلاف بينهم، ولذلك أعقبه بـ ﴿ٱلۡعِلۡمِ﴾، فهم إنّما يتّبعون الهوى، وليس هوًى واحدًا، بل لكلٍّ هواه ورغبته، وإنّما عبر عن اتّباعهم القبلة باتّباع الهوى؛ لأنّه نابعٌ من غلبة حبّ الشّيء على القلب، فهو من المحبّة للشّيء أو للأشخاص وليس للعلم المجرّد الصّحيح، ولذا فإنّ الهوى يَهْوِي بِصَاحِبِهِ فِيمَا لَا يَنْبَغِي، ممّا يخالف العقل والعلم والحقّ.

دلالة ﴿مِنۢ﴾ في ﴿مِنۢ بَعۡدِ مَا جَآءَكَ مِنَ ٱلۡعِلۡمِ﴾:

"وَأَمَّا دُخُولُ ﴿مِنۢ﴾ فَفَائِدَتُهُ ظَاهِرَةٌ، وَهِيَ بَيَانُ أَوَّلِ الوَقْتِ الَّذِي وَجَبَ عَلَى النَّبِيِّ ﷺ أَنْ يُخَالِفَ أَهْلَ الكِتَابِ فِي أَمْرِ القِبْلَةِ، أَيْ: ذَلِكَ الوَقْتُ الَّذِي أَمَرَكَ اللَّهُ فِيهِ بِالتَّوَجُّهِ فِيهِ إِلَى نَحْوِ القِبْلَةِ، إِنِ اتَّبَعْتَ أَهْوَاءَهُمْ، كُنْتَ ظَالِمًا وَاضِعًا البَاطِلَ فِي مَوضِعِ الحَقِّ"(4).

(1) أبو حيّان، البحر المحيط: 2/29.
(2) أبو حيّان، البحر المحيط: 2/30.
(3) الجمل، الفتوحات الإلهية: 1/179.
(4) الجمل، الفتوحات الإلهية: 2/31.

بين اتّباع العلم واتّباع الأهواءِ:

الإسلامُ قائمٌ على العلم، بخلافِ الدِّين القائمِ على الهوى

أطلق لفظَ العلم على الوحي؛ فالعلمُ بشأن القبلة تحقَّقَ عن طريق الوحي، ووَضَعَ مقابلَه الهوى؛ ليبيّن أنّ مخالفةَ الوحي في الشّؤون الّتي لا يُتَوصَّل لها إلّا من خلال الوحي لن تكون إلّا خلافًا للعلم واتّباعًا للهوى، كما يلفت عناية هذه الأمّة إلى مكانة العلم، ويُحَذِّرُهُم من الزّيغ عنه، واتّباع الهوى؛ فإنّ الهوى أضلّ أصحاب الأديان السّابقة.

المجازُ في قوله: ﴿مِّنۢ بَعۡدِ مَا جَآءَكَ مِنَ ٱلۡعِلۡمِ﴾:

أَطْلَقَ اسْمَ الأَثَرِ عَلَى المُؤَثِّرِ، وسَمَّى تِلْكَ الدَّلَائِلَ عِلمًا، مُبَالِغَةً وَتَعْظِيمًا

معنى قوله: ﴿مِّنۢ بَعۡدِ مَا جَآءَكَ مِنَ ٱلۡعِلۡمِ﴾: "أَيْ مِنَ الدَّلَائِلِ وَالآيَاتِ الَّتِي تُفِيدُ لَكَ العِلْمَ وَتُحَصِّلُهُ، فَأَطْلَقَ اسمَ الأَثَرِ عَلَى المُؤَثِّرِ، سَمَّى تِلْكَ الدَّلَائِلَ عِلْمًا، مُبَالَغَةً وَتَعْظِيمًا وَتَنْبِيهًا عَلَى أَنَّ العِلْمَ مِنْ أَعْظَمِ المَخْلُوقَاتِ شَرَفًا وَمَرْتَبَةً"[1]، والعلمُ الّذي جاءه "من أمر القبلةِ بأنّك لا تعود إلى قبلتهم، وأنَّ القبلةَ هي الكعبةُ، وأنَّ دينَ اللّه هو الإسلامُ، وقيل معناه: من بعد ما وصل إليك من العلم بأنَّ اليهود والنّصارى مقيمون على باطلٍ وعنادٍ للحقِّ"[2].

فائدةُ المبالغةِ في الصّفة في ﴿إِنَّكَ إِذٗا لَّمِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ١٤٥﴾:

شرعُ اللّه لا مهادنةَ فيه، فمن يتّبع قبلة أهل الكتابِ يَنَلْهُ التّهديدُ البليغ

قال سبحانه مخاطبًا نبيَّه ﷺ: ﴿وَلَئِنِ ٱتَّبَعۡتَ أَهۡوَآءَهُم مِّنۢ بَعۡدِ مَا جَآءَكَ مِنَ ٱلۡعِلۡمِ إِنَّكَ إِذٗا لَّمِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ١٤٥﴾، ولم يقل: (إنكَ إذًا لظالمٌ)؛ لأنّ قوله: ﴿لَّمِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ١٤٥﴾ أبلغُ في الدّلالة على صفة الظّلم، قال الزّمخشريُّ في تفسير قوله تعالى: ﴿قَالَ إِنِّي لِعَمَلِكُم مِّنَ ٱلۡقَالِينَ ١٦٨﴾ [الشّعراء: 168]: "﴿مِّنَ ٱلۡقَالِينَ ١٦٨﴾ أبلغُ من أنْ يقول: إنّي لعملِكم قالٍ، كما تقول: فلانٌ من العلماء، فيكون أبلغَ من قولك: فلانٌ عالمٌ؛ لأنّك تشهدُ له بكونه معدودًا في زمرتهم، ومعروفةٌ مساهمتُه

(1) أبو حيّان، البحر المحيط: 2/30.
(2) الهرري، حدائق الروح والريحان: 3/27.

لهم في العلم"[1]، فيكون المعنى: ستكون من المشهورين بالظّلم، داخلًا في زمرتهم، وسببُ ذلك أنَّ ما يصدر عنه ﷺ ليس كما يصدر عن غيره، ففيه أنَّ أمرَ الشَّرعِ لا مهادنةَ فيه، وأنَّ على الجميع أن يلتزمَه، ولو كان رسول اللّه ﷺ، فأكَّد "تهديدَه وبالغ فيه تعظيمًا للحقِّ المعلوم، وتحريضًا على اقتفائه، وتحذيرًا من متابعةِ الهوى، واستفظاعًا لصدورِ الذنبِ عن الأنبياء"[2].

كثرةُ المؤكّدات في الآية:

مقصودُ كثرة المؤكّدات المبالغةُ في مضمونها

في قولِه تعالى: ﴿وَلَئِنِ ٱتَّبَعۡتَ أَهۡوَآءَهُم مِّنۢ بَعۡدِ مَا جَآءَكَ مِنَ ٱلۡعِلۡمِ إِنَّكَ إِذٗا لَّمِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ١٤٥﴾ "أكّدَ تهديدَه وبالغَ فيه من سبعةِ أوجه: أحدها: الإتيان باللّام الموطّئة للقسم، ثانيها: القسم المضمر، ثالثها: حرف التّحقيق وهو(إنَّ)، رابعها: تركيبه من جملة فعلية وجملة اسمية، وخامسها: الإتيان باللّام في الخبر، وسادسها: جعله من الظَّالِمِينَ، ولم يقل (إنّك ظالم)؛ لأنّ في الاندراج معهم إيهاماً بحصول أنواع الظلم، وسابعها: التّقييد بمجيء العلم تعظيماً للحقّ المعلوم، وتحريضًا على اقتفائه وتحذيراً عن متابعة الهوى، واستفظاعاً لصدور الذّنب عن الأنبياء"[3].

توجيه المتشابه اللّفظي:

في سورة البقرة: قد سبقت آيةٌ تُشابِهُ هذه الآية لفظيًّا، وهي قوله:

﴿وَلَئِنِ ٱتَّبَعۡتَ أَهۡوَآءَهُم بَعۡدَ ٱلَّذِي جَآءَكَ مِنَ ٱلۡعِلۡمِ مَا لَكَ مِنَ ٱللَّهِ مِن وَلِيّٖ وَلَا نَصِيرٍ ١٢٠﴾ [البقرة: 120].

﴿وَلَئِنِ ٱتَّبَعۡتَ أَهۡوَآءَهُم مِّنۢ بَعۡدِ مَا جَآءَكَ مِنَ ٱلۡعِلۡمِ إِنَّكَ إِذٗا لَّمِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ١٤٥﴾ [البقرة: 145].

فعبّر هنالك باسم الموصول ﴿ٱلَّذِي﴾، وهنا باسم الموصول ﴿مَا﴾، وهنالك ﴿بَعۡدَ﴾ وهنا ﴿مِّنۢ بَعۡدِ﴾، وجعل جزاء الشّرط هنالك انتفاء الوليّ والنّصير، وجعل الجزاءَ هنا أن يكون من الظّالمين؛ فللسَّائل أن يسأل عن سرِّ ذلك؟

(1) الزّمخشري، الكشّاف: 3/331.
(2) الهرري، حدائق الروح والريحان: 3/28.
(3) البيضاوي، أنوار التنزيل: 1/112.

والجواب: أنَّ السّياق الّذي جاءت فيه الآية [البقرة: 120] كان مسبوقًا بالحديثِ عن أصل ملّة الإسلام، وبطلان غيره من الملل بالنّسخ، وإثبات عناد الفريقين، وإثبات صحّة رسالةِ الإسلام، فكلّ هذه الموضوعات هي أصرحُ بالعلم؛ فكان من المناسب أن يكون الحديث عنها بالاسم الموصول الصَّريح في الموصوليّة وهو ﴿ٱلَّذِى﴾، أمّا الآية الثّانية [البقرة: 145] فهي حديثٌ عن القبلة فقط، وهو تشريع فرعيّ يمثّل جزءًا يسيرًا من العلم، فجاء التّعبيرُ عنه بالاسم الموصول الفرعّي ﴿مَا﴾.

وإنّما قال ﴿مِّنۢ بَعۡدِ﴾ في الآية الثّانية [البقرة: 145]؛ لأنّ هذه الآية وقعت بعد الآية الأولى [البقرة: 120] في سورة واحدة وليس بينهما بعيدُ فصل، فكان العلم الّذي جاءه في أمر القبلة هو جزئيّ من عموم العلم الّذي جاء في الآية [البقرة: 120] الّذي أبطل جميع ملّتهم، فكان جديرًا بأنْ يشار إلى الموضع الّذي يتناول القبلة بأنّه جزئيّ وذلك بإيراد ﴿مِن﴾ الابتدائيّة[1].

قال في البحر المحيط: "وَجَاءَ فِي هَذَا الـمَكَانِ: ﴿مِّنۢ بَعۡدِ مَا جَآءَكَ﴾، وَقَالَ قَبلَ هَذَا: ﴿بَعۡدَ ٱلَّذِى جَآءَكَ﴾، وَجَاءَ فِي الرَّعْدِ: ﴿بَعۡدَ مَا جَآءَكَ﴾ [الرعد: 37]، فَاخْتَصَّ مَوضِعًا بِـ﴿ٱلَّذِى﴾، وَمَوضِعَيْنِ بِـ﴿مَا﴾، وَهَذَا الـمَوْضِع بِـ﴿مِنۡ﴾، وَالَّذِي نَقُولُهُ فِي هَذَا: أَنَّهُ مِنَ اتِّسَاعِ العِبَارَةِ وَذِكرِ الـمُتَرَادِفِ، لِأَنَّ (مَا) (وَالَّذِي) مَوْصُولَانِ، فَأَيًّا مِنْهُمَا ذَكَرْتَ، كَانَ فَصِيحًا حَسَنًا، وَأَمَّا الـمَجِيءُ بِـ﴿مِنۡ﴾ فَهُوَ دَلَالَةٌ عَلَى ابتِدَاءِ بَعْدِيَّةِ الـمَجِيءِ"[2].

❁ الفُرُوقُ المُعْجَمِيَّةُ:

المجيء والإتيان:

الإتيان مجيء بسهولة وإزالة موانع ومعوّقاتٍ، والمجيءُ فيه شدّة وصعوبةٌ

الإتيان يدلُّ على مجيء بسهولة وإزالة موانع ومعيقات، وأمّا المجيءُ ففيه شدّة وصعوبةٌ، والإتيان يعني المجيء بسهولة، فهو مجيء مخصوص[3]، وقد ظهر ذلك في استعمال القرآن الكريم؛ حيث استعمل الفعلين الدّالّين على مفهوم المجيء والإتيان، في الآية نفسها، والإتيانُ يعني المجيء بسهولة، فهو مجيء مخصوص، وعبّر

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 39-2/38.
(2) أبو حيّان، البحر المحيط: 2/30.
(3) ابن فارس، مقاييس اللغة، والرّاغب، المفردات، وجبل، المعجم الاشتقاقي المؤصل: (جاء) (جيأ) (أتى).

به عن تحصيل الآيات وتقديمها لهم، فالفعل يدلُّ على أنّه لو تيسّر لك أن تأتي بكلّ آية تدلّ على صحّة قبلتك، فإنّهم لن يتّبعوها، فهنا استعمل الإتيان، وعندما تحوّل الخطاب إلى التّحذير والتّخويف من اتّباعهم والزّجر والوعيد كان المناسب لهذا السّياق أنْ يستعملَ فعلَ المجيء؛ ليتناسب مع شدّة التّحذير الّذي فيها؛ لأنّ المجيءَ فيه شدّةٌ وصعوبةٌ، فناسب كلٌّ فعلٍ موضعَه.

﴿ٱلَّذِينَ ءَاتَيۡنَٰهُمُ ٱلۡكِتَٰبَ يَعۡرِفُونَهُۥ كَمَا يَعۡرِفُونَ أَبۡنَآءَهُمۡۖ وَإِنَّ فَرِيقٗا مِّنۡهُمۡ لَيَكۡتُمُونَ ٱلۡحَقَّ وَهُمۡ يَعۡلَمُونَ ١٤٦﴾ [البقرة: 146]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِمَا قَبْلَها:

المُكابِرونَ يَرْفُضونَ الحَقَّ ويَتَّبِعونَ الهَوى

لمّا بَيَّنَ في الآيَةِ السّابِقَةِ أَنَّ عمومَ أهل الكتاب لَنْ يَتَّبِعوا قِبْلَةَ الإِسْلام، ولا هُمْ يَتَّبِعونَ قِبْلَةَ بَعْضٍ، ونَهى النَّبِيَّ ﷺ أَنْ يَتَّبِعَ أَهْواءَهُم، لأَنَّها سَوْفَ تَعْصِفُ بدَعْوَته، ودينُ اللّهِ يَقومُ عَلى مُرادِ اللّهِ، لا عَلى أَهْواءِ البَشَرِ، أَرادَ أَنْ يُبَيِّنَ أَنَّهُمْ لَمْ يَتَّبِعوا قِبْلَةَ الإِسْلام، لَيْسَ من بابِ الجَهْلِ، بَلْ هُمْ يَعْلَمونَ ذَلِكَ الحَقَّ، ولَكِنَّهُمْ يُكابِرونَ ويُعانِدونَ، وأَشارَ إِلى ذَلِكَ في قَوْلِه: ﴿وَلَئِنِ ٱتَّبَعۡتَ أَهۡوَآءَهُم مِّنۢ بَعۡدِ مَا جَآءَكَ مِنَ ٱلۡعِلۡمِ إِنَّكَ إِذٗا لَّمِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ١٤٥﴾ [البقرة: 145]، وفي هَذِهِ الآيَةِ أعطى مثالًا بيِّنًا، هو العلَّةُ الحقيقيَّةُ في عدمِ اتِّباعِ الحقِّ؛ لتكونَ الآيةُ كالمثلِ السَّائرِ في أنَّ المعرفةَ المحضةَ وحدَها غيرُ كافيةٍ في القَبولِ، بل لا بدَّ معها من متابعةٍ واتِّباعٍ، فبَيَّنَ أَنَّهُمْ يَعْلَمونَ الحَقَّ، ولَكِنَّهُمْ يَتَّبِعونَ الهَوى.

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

مَنْ أوتِيَ النُّورَ المُبينَ، ضَمِنَ المَصيرَ المَكينَ

1) ﴿ءَاتَيۡنَٰهُمُ﴾: (أُوتُوا): مِنَ الجذْرِ (أتي)، وهُوَ مِنْ: أَتَّيْتُ الماءَ: سَهَّلْتُ سَبيلَهُ ليَخْرُجَ إِلى مَوْضِعٍ[1]، وأَصْلُ المعنى: وُصولٌ إِلى مَكانٍ بتَهْيِئَةٍ أَوْ قُوَّةٍ تُزيلُ ما يَعوقُ[2] والإِيتاءُ: الإِعْطاءُ، فأَتَيْنا: جِئْنا، وآتَيْنا: أَعْطَيْنا[3]، (أَتَيْتَ بـ) من أَتى، بمَعْنى: جِئْتَ بـ، و(أُوتوا) من آتى، بمعنى: أُعْطُوا.

(1) ابن منظور، لسان العرب: (أتي).
(2) جبل، المعجم الاشتقاقي المؤصل: (أتي).
(3) ابن منظور، لسان العرب: (أتي).

الكِتابُ المُبِينُ هُدًى وعِصْمَةٌ

2) ﴿ٱلْكِتَٰبَ﴾: مِنَ الجذْرِ (كتب)، وهو أَصْلٌ يَدُلُّ عَلَى جَمْعِ شَيْءٍ إِلَى شَيْءٍ، من ذَلِكَ: الكِتابُ والكِتابَةُ[1]، وهيَ إلصاقٌ بدِقَّةٍ وقُوَّةٍ: كإلْصاقِ جانِبَيْ شَقِّ القِرْبَةِ وفَتْحَةِ المنخرِ بالخَرْزِ والخَزْمِ[2]، ومن ذَلِكَ: الكِتابَةُ المَعْروفَةُ فهِيَ إلصاقُ الكَلامِ بتَثْبيتِ رُموزِهِ في وجْهِ مادَّةٍ قَوِيَّةٍ: حَجَرٍ أَوْ جِلْدٍ، ومِنْهُ قَوْلُهُ تَعالى: ﴿وَلْيَكْتُب بَّيْنَكُمْ كَاتِبٌۢ بِٱلْعَدْلِ﴾ [البقرة: 282] مِنَ الكِتابَةِ بالمَعْنى المَشْهور، ومن ذَلِكَ الإلْصاقُ جاءَتْ بمَعْنى الإلْزامِ والفَرْضِ، قالَ تَعالى: ﴿كُتِبَ عَلَيْكُمُ ٱلصِّيَامُ﴾ [البقرة: 183]، أَيْ أُلْصِقَ بكُمْ وأُلْزِمْتُم، وسائِرُ ما في القُرْآنِ مِنَ التَّرْكيبِ فهُوَ - عَدا كُتُبِ اللهِ المُنَزَّلَةِ - بمَعْنى الفَرْضِ أَوِ القَضاءِ بأَمْرٍ، والتَّسْجيلِ كِتابَةً أَوْ في كِتابٍ.

والمعنى في: ﴿ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ﴾: الكُتُبُ المُنَزَّلَةُ في بَني إسْرائيلَ.

مَنْ عَرَفَ الحَقَّ، التَزَمَ بنَهْجِهِ

3) ﴿يَعْرِفُونَهُۥ﴾: مِنَ الجذْرِ (عرف)، وهو أَصْلٌ يَدُلُّ على تَمَيُّزِ أَعْلى الشَّيْءِ أَوْ ظاهِرِه، بمَلْمَحٍ يَدُلُّ عَلَيْهِ أَوْ عَلى أَمْرٍ فيه، كعُرْفِ الدِّيكِ والفَرَسِ، ومِنْهُ عُرْفُ الرَّمْلِ والجَبَلِ: أَعاليه، والعُرْفُ: النَّخْلَةُ أَوَّلَ ما تُطْعِمُ، كأَنَّهُمْ نَظَروا إلى ظُهورِ البُسْرِ الأَحْمَرِ في أَعْلاها لأَوَّلِ مَرَّةٍ، وعَرَفاتُ: المُرْتَفِعاتُ الكَثيرَةُ المُنْتَشِرَةُ، قال تَعالى: ﴿وَبَيْنَهُمَا حِجَابٌ ۚ وَعَلَى ٱلْأَعْرَافِ رِجَالٌ يَعْرِفُونَ كُلًّۢا بِسِيمَىٰهُمْ ۚ﴾ [الأعراف: 46]، وحِجابٌ أَيْ سورٌ، أَيْ عَلى أَعْرافِ السُّورِ، ومِنَ العُلُوِّ: عَريفُ القَوْمِ: سَيِّدُهُم، ومِنْهُ العَرْفُ: الرِّيحُ الطَّيِّبَةُ، تَسْطَعُ فوْقَ الشَّيْءِ وتَدُلُّ عَلَيْهِ[3].

البَشَرُ فَريقانِ مُخْتَلِفانِ، وكُلُّ إناءٍ بالَّذي فيهِ يَنْضَحُ

4) ﴿فَرِيقًا﴾: مِنَ الجذْرِ (فرق)، وهو أَصْلٌ يَدُلُّ عَلى تَمْييزٍ وتَزْييلٍ بَيْنَ شَيْئَيْنِ[4]، وفَصْلِ بَعْضِ شَيْءٍ أَوْ أَشْياءَ من بَعْضِها

(1) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (كتب).
(2) جبل، المعجم الاشتقاقيّ المؤصّل: (كتب).
(3) جبل، المعجم الاشتقاقيّ المؤصّل: (عرف).
(4) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (فرق).

الآخَرِ، فصْلًا واصِلًا إِلَى العُمْقِ: كالفَرْقِ بَيْنَ النَّخْلَتَيْنِ، والعُرْفَيْنِ، والشَّعْرِ، وهُوَ واصِلٌ إلى المَنْبَتِ[1].

والفُرْقانُ: كِتابُ اللَّهِ -تَعالى- فرَقَ به بَيْنَ الحَقِّ والباطِلِ، والفُرْقانُ: الصُّبْحُ، سُمِّيَ بذَلِكَ لِأَنَّهُ يَفْرِقُ بَيْنَ اللَّيْلِ والنَّهارِ، ويُقالُ لِأَنَّ الظُّلْمَةَ تَتَفَرَّقُ عَنْهُ[2]، فهُوَ يَدُلُّ عَلى انْقِسامٍ، ومِنْهُ انْقِسامٌ وانْفِصالٌ عَنِ المَجْموعِ.

والمَعْنى في الآيَةِ: جَماعَةٌ مِنْ اليهود، والفَريقُ: الجَماعَةُ المُنْفَرِدَةُ عَنْ آخَرينَ.

مَنْ كَتَمَ عِلْمًا أَلْجَمَهُ اللهُ بِلِجامٍ مِنْ نارٍ

5) ﴿لَيَكْتُمُونَ﴾: مِنَ الجذْرِ (كتم)، وكَتَمَ السِّقاءُ: أَمْسَكَ ما فيهِ مِنَ اللَّبَنِ والشَّرابِ، وسَحابٌ مُكْتَتِمٌ: لا رَعْدَ فيه، وخَرْزٌ كَتيمٌ: لا يَنْضَحُ الماءَ، وقَوْسٌ كَتومٌ: لا تُرِنُّ[3]، وأَصْلُ المادة يَدُلُّ عَلى إِخْفاءٍ وسَتْرٍ[4]؛ من ذَلِكَ: كَتَمْتُ الحَديثَ كَتْمًا وكِتْمانًا، قالَ اللَّهُ تَعالى: ﴿وَلَا يَكْتُمُونَ ٱللَّهَ حَدِيثًا ﴿٤٢﴾﴾ [النّساء: 42] والنّاقَةُ الكَتومُ، والجَمَلُ الكَتيمُ، لا يَصْدُرُ عَنْهُما الرُّغاءُ المُعْتادُ من غَيْرِهِما، فكَأَنَّ مَنْفَذَ الرُّغاءِ مَسْدودٌ[5]، ومن ذَلِكَ (كَتَمَ السِّرّ) سَتَرَهُ وأَخْفاهُ، كَتَمَ العِلْمَ والشَّهادَةَ، وكُلُّ ما في القُرْآنِ مِنَ الجذْرِ، فهُوَ بمَعْنى حَبْسِ الكَلامِ عَمّا في القَلْبِ؛ من شَهادَةٍ أَوْ عِلْمٍ أَوْ فِكْرٍ[6].

والمعنى في الآيَةِ: مَنْعُ العِلْمِ والشَّهادَةِ وإِخْفاؤهما.

العِلْمُ الاعْتِقادُ الجازِمُ المُطابِقُ للواقِعِ

6) ﴿يَعْلَمُونَ﴾: مِنَ الجذْرِ (علم)، العَلامَةُ والعَلَمُ: شيءٌ يُنْصَبُ

(1) محمد جبل، المعجم الاشتقاقيّ المؤصّل: (فرق).
(2) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (فرق)، محمد جبل، المعجم الاشتقاقيّ المؤصّل: (فرق).
(3) ابن منظور، لسان العرب: (كتم).
(4) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (كتم).
(5) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (كتم).
(6) جبل، المعجم الاشتقاقيّ المؤصّل: (كتم).

في الفَلَواتِ تَهْتَدي بِهِ الضّالَّةُ[1]، وهُوَ أَصْلٌ يَدُلُّ عَلى: أَثَرٍ بالشَّيْءِ يَتَمَيَّزُ بِهِ عَنْ غَيْرِهِ[2]، واسْتُعْمِلَ اللَّفْظُ في كُلِّ ما يَدُلُّ عَلى شَيْءٍ ما، والعِلْم: "الاعْتِقادُ الجازِمُ الثّابِتُ المُطابِقُ للواقِعِ، أو هُوَ صِفَةٌ توجِبُ تَمْييزًا لا يَحْتَمِلُ النَّقيضَ"[3].

المَعْنَى الإجْمَالِيُّ:

الجُحودُ عَمًى في البَصائِرِ لا في الأَبْصارِ

يُخْبِرُ اللّهُ تَعالى بكَلام مُسْتَأْنَفٍ، عَنْ طائِفَةٍ من أَهْلِ الكِتابِ، وهُمُ الأَحْبارُ وأَهْلُ العِلْمِ مِنْهُم، أَنَّهُمْ قَدْ ظَهَرَتْ لَهُمُ العَلاماتُ البارِزَةُ، الَّتي تُبَيِّنُ لَهُمْ صِدْقَ النَّبِيِّ محمد ﷺ؛ وهَذِهِ العَلاماتُ مَعْروفَةٌ لَهُم، ثابِتَةٌ في كُتُبِهِم، فعَرَفوهُ ومَيَّزوهُ مِثْلَ تَمْييزِهِمْ أَبْناءَهُم، لا يَخْتَلِطونَ عَلَيْهِمْ مَعَ غَيْرِهِم، ولا يَشْتَبِهونَ فيهم، وإِنَّ هَؤُلاءِ الأَحْبارَ فريقانِ: فريقٌ مِنْهُمْ قَدْ آثَروا مَنْعَ الحَقِّ وكَتْمَهُ، فلا يَنْشُرونَهُ ولا يَشْهَدونَ بما عِنْدَهُمْ من عِلْم، وقَدْ قاموا بذَلِكَ، وهُمْ يَعْلَمونَ أَنَّهُمْ يُخالِفونَ ما أُمِروا بِهِ، ويَعْلَمونَ أَنَّهُمْ يَمْنَعونَ الحَقَّ، ويُضِلُّونَ النّاسَ، لِمُكابَرَةِ أَهْلِ الكِتابِ: فهُمْ يَعْرِفونَ في قَرارَةِ أَنْفُسِهِمْ صِحَّةَ نُبُوَّةِ النَّبِيِّ ﷺ، وكَوْنَ ما فعَلَهُ حَقّا كما يَعْرِفونَ أَبْناءَهُم، والفريقُ الآخر يَكْتُمونَ الحَقَّ، وهُمْ يَعْلَمونَهُ حَقَّ العِلْمِ، وإِنَّ الحَقَّ هُوَ ما أَوْحى اللّهُ بِهِ، فلا مَحَلَّ للارْتِيابِ والتَّرَدُّدِ في اتِّباعِهِ[4].

الإيضَاحُ اللُّغَوِيُّ وَالبَلَاغِيُّ:

حُسنُ الاسْتِئْنافِ الابْتِدائِيّ:

سُطُوعُ نورِ معرفةِ رسولِ الله ﷺ يحسِّنُ مَعَه الاستئنافُ

قَوْلُه: ﴿ٱلَّذِينَ ءَاتَيۡنَٰهُمُ ٱلۡكِتَٰبَ يَعۡرِفُونَهُۥ كَمَا يَعۡرِفُونَ أَبۡنَآءَهُمۡۖ﴾: الآيَةُ اسْتِئْنافٌ ابْتِدائِيٌّ، وفَصْلٌ عَنْ سابِقِها، فأَرادَ أَنْ يُبَيِّنَ أَنَّ

(1) ابن منظور، لسان العرب: (علم).
(2) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (علم).
(3) الزبيدي، تاج العروس: (علم).
(4) محمد دروزة، التّفسير الحديث: 6/252.

الـمَعْنى الـمُضَمَّنَ في الآيَةِ، هُوَ حَقيقَةٌ مُسْتَقِلَّةٌ، لا يُؤَثِّرُ عَلى صِفَتِها تِلْكَ وُجودُها وكَيْنونَتُها، في سِياقٍ ما، فمَعْرِفَتُهُمُ النَّبِيَّ ﷺ بصِفاتِهِ جاءَتْ بكَلامٍ مُسْتَأْنَفٍ للتَّأْكيدِ عَلَيْهِ، والفَصْلِ بَيْنَ هَذا الكَلامِ وما قَبْلَهُ؛ لأنّ "الآياتِ السّالِفَةَ ورَدَتْ في شَأْنِ القِبْلَةِ، وهَذِهِ في شَأْنِ نَفْسِهِ صَلَواتُ اللّهِ عَلَيْهِ، فلَيْسَ بَيْنَهُما مُناسَبَةٌ[1]، ومن ثَمَّ ابْتَدَأَ بقَوْلِهِ: ﴿ٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ يَعْرِفُونَهُۥ﴾ من غَيْرِ عاطِفٍ"[2]، فلَوْ رَجَعَ الضَّميرُ إلى الـمَذْكورِ السّابِقِ لأَوْهَمَ نَوْعَ اتِّصالٍ ولَمْ يَحْسُنْ ذَلِكَ الحُسْنَ[3].

أُسْلوبُ اعْتِراضِ الاِسْتِطْرادِ:

معرفةُ القبلةِ كمعرفةِ رسول الله ﷺ، والموقف منهما إنكارٌ نابعٌ من استكبار

هَذِهِ الآيَةُ ﴿ٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ يَعْرِفُونَهُۥ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَآءَهُمْۖ﴾ مُعْتَرِضَةٌ بَيْنَ قَوْلِهِ: ﴿وَلَئِنْ أَتَيْتَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ بِكُلِّ ءَايَةٍ مَّا تَبِعُوا۟ قِبْلَتَكَۚ﴾، وقَوْلِهِ تَعالى: ﴿وَلِكُلٍّ وِجْهَةٌ هُوَ مُوَلِّيهَاۖ﴾، ذَلِكَ أَنَّها ظاهِرَةُ الاتِّصالِ، وما بَيْنَهُما اسْتِطْرادٌ وإِطْنابٌ، والدَّليلُ عَلى أَنَّ الآيَةَ تَحْوي اسْتِطْرادًا، وُرودُ قَوْلِهِ تَعالى بَعْدَ ذَلِكَ: ﴿وَلِكُلٍّ وِجْهَةٌ هُوَ مُوَلِّيهَاۖ﴾ [البقرة: 148]، فقَدْ عادَ السِّياقُ إلى الكَلامِ عَنِ اسْتِقْبالِ القِبْلَةِ، ومَسْأَلَةِ الجِدالِ الَّذي اسْتَشْرى، مُتَزامِنًا مَعَ قَضِيَّةِ تَحْويلِ القِبْلَةِ[4]، وفائِدَةُ هَذا الاِعْتِراضِ بالاِسْتِطْرادِ، تَأْكيدُ أَنَّهُمْ يَتَّبِعونَ الأَهْواءَ، كما ذُكِرَ في الآيَةِ السّابِقَةِ، ﴿وَإِنَّ فَرِيقًا مِّنْهُمْ لَيَكْتُمُونَ ٱلْحَقَّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ١٤٦﴾، حَيْثُ بَيَّنَ في هَذا الاِعْتِراضِ، أَنَّهُمْ يَعْرِفونَ النَّبِيَّ ﷺ، مَعْرِفَةً قاطِعَةً لا يَشوبُها شَكٌّ، ومَعَ ذَلِكَ، فإِنَّهُمْ يُكابِرونَ ويُعانِدونَ، فهم كذلك في شأنِ القبلةِ سواءً بسواء.

أثرُ معنى الكلامِ في تعيينِ مرجعِ الضَّمير في قَوْلِهِ: ﴿يَعْرِفُونَهُۥ﴾:

حصولُ الشُّهرة يُغني عن الإفْصَاحِ عن صَاحِبِ الضَّمير بحسبِ السِّياقِ

المعرفةُ الـمُرادَةُ في الآيَةِ هي معرفةُ رسولِ ﷺ، فالضَّميرُ عائِدٌ

(1) الطّيبي، فتوح الغيب: 3/150.

(2) ليس المراد بالمناسبة هنا علل التّرتيب في علم المناسبات، وإنّما المناسبة الموضوعيّة، أي أنَّ كلَّ مقطع في موضوعٍ، وهذا لا ينفي المناسبة التي تُعنى بالتَّرتيب بين الآيات والمقاطع.

(3) الطّيبي، فتوح الغيب: 3/150.

(4) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 2/39، الطّيبي، فتوح الغيب: 3/151.

لَهُ، "وجازَ الإضمارُ، وإنْ لَمْ يَسْبِقْ لَهُ ذِكْرٌ، لأَنَّ الكَلامَ يَدُلُّ عَلَيْه، ولا يَلْتَبِسُ عَلى السّامِعِ، ومِثْلُ هَذا الإضْمارِ، فيهِ تَفْخيمٌ وإشْعارٌ بأنَّهُ لشُهْرَتِه وكَوْنِه عَلَمًا، مَعْلومٌ بغَيْرِ إعْلامٍ"(1)؛ فالحُضورُ الاعْتِباريُّ(2) هُوَ المُعْتَبَرُ في مَرْجِعِ الضَّميرِ في الآيَةِ؛ لأَنَّها لا تَتَضَمَّنُ لَفْظًا صَريحًا، صالِحًا لأَنْ يَكونَ مَرْجِعًا للضَّميرِ.

ومَعْنى ذَلِكَ أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ، لشِدَّةِ حُضورِهِ في أَذْهانِ السّامِعينَ، ولِشُهْرَةِ ذِكْرِه بَيْنَ النّاسِ، وكَوْنِهِ يَجْري في حَديثِهِمْ - وما زالَ - فهُوَ مُتَعَلِّقٌ في العُقولِ والنُّفوسِ دائِمًا، فإنَّ ذَلِكَ الحُضورَ الذِّهْنِيَّ يُغْني عَنْ ذِكْرِهِ بلَفْظِه، فأُضْمِرَ بذَلِكَ الاعْتِبارِ، وهَذا فيهِ مُبالَغَةٌ وتَأْكيدٌ عَلى عُلُوِّ مَكانَةِ النَّبِيِّ ﷺ.

ولا يَجوزُ أَنْ يَعودَ الضَّميرُ عَلى القِبْلَةِ؛ فالضَّميرُ المَنْصوبُ في ﴿يَعْرِفُونَهُۥ﴾، لا يَعودُ إلى تَحْويلِ القِبْلَةِ؛ لأَنَّهُ لَوْ كانَ كذَلِكَ، لصارَتِ الجُمْلَةُ تَكْريرًا لمَضْمونِ قَوْلِهِ: ﴿وَإِنَّ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْكِتَٰبَ لَيَعْلَمُونَ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّهِمْۗ﴾ [البقرة: 144].

ولا يَجوزُ أَنْ يَكونَ المُرادُ القُرْآنَ؛ لأَنَّ الحَديثَ في السِّياقِ لا يُشيرُ إلَيْه، ولَوْ كانَ الضَّميرُ عائِدًا عَلى القُرْآنِ، لَوَجَبَ أَنْ يُقالَ: (يَعْرِفونَهُ كَما يَعْرِفونَ التَّوْراةَ)؛ رِعايَةً للمُناسَبَةِ، فلَمّا قيلَ: ﴿كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَآءَهُمْۖ﴾، عُرِفَ أَنَّ الضَّميرَ للرَّسولِ ﷺ(3).

وقَدْ يَرِدُ أَنَّ الآياتِ السّابِقَةَ قَدْ وَرَدَ فيها ذِكْرٌ للنَّبِيِّ ﷺ، فكَيْفَ يُقالُ: لَمْ يَجْرِ لَهُ ذِكْرٌ سابِقٌ؟ ومِن ذَلِكَ: ﴿وَمَا جَعَلْنَا ٱلْقِبْلَةَ ٱلَّتِي كُنتَ عَلَيْهَآ﴾، وقَوْلُهُ: ﴿قَدْ نَرَىٰ تَقَلُّبَ وَجْهِكَ﴾، وقَوْلُهُ: ﴿فَلَنُوَلِّيَنَّكَ قِبْلَةً تَرْضَىٰهَاۚ﴾، وقَوْلُهُ: ﴿فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِۚ﴾، وقَوْلُهُ: ﴿مِّنۢ بَعْدِ مَا جَآءَكَ مِنَ ٱلْعِلْمِ﴾.

والجَوابُ عَنْهُ: أَنَّهُ قَدْ تَقَرَّرَ أَنَّ الآيَةَ، اسْتِئْنافٌ وابْتِداءٌ في كَلامٍ جَديدٍ، فهُوَ فصْلٌ عَنِ الحَديثِ السّابِقِ، فالمُرادُ "عَدَمُ سَبْقِ ذِكْرِه، في الكَلامِ المُبْتَدَإِ المُنْقَطِعِ عمّا قَبْلَهُ، ومَعَ ذَلِكَ رَجَعَ الضَّميرُ إلَيْهِ، لأَنَّهُ لعُلُوِّ شَأْنِهِ وجَلالَةِ قَدْرِه، لا يَغيبُ عَنِ الأَذْهانِ، ولا

(1) الزمخشري، الكشاف: 1/204.

(2) الحضور الاعتباريّ: أريدُ به أن يعتبر حضور الشّخص في الذّهن، فيغني عن ذكره لفظًا، لصحّة الإضمار، لشهرته أو مكانته ورتبته، فيجوز الإضمار عنه، باعتبار حضوره ذهنًا، كما في قوله: ﴿إِنَّآ أَنزَلْنَٰهُ فِي لَيْلَةِ ٱلْقَدْرِ ۞﴾ [القدر: 01]، وقوله: ﴿يَعْرِفُونَهُۥ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَآءَهُمُۘ﴾ [الأنعام: 20].

(3) الطّيبيّ، فتوح الغيب: 3/150.

يَلْتَبِسُ المُرادُ عَلى السّامِعينَ، ومِثْلُ هَذا الإضْمارِ، فيهِ تَفْخيمٌ لشَأْنِ المُرْجَعِ إلَيْهِ، وإِشْعارٌ بأَنّهُ لشُهْرَتِهِ مَعْلومٌ بغَيْرِ سَبْقِ ذِكْرِهِ"[1].

بَلاغَةُ أُسْلوبِ الإلْتِفاتِ:

تأكيدُ ذِكْرِ النُّبُوَّةِ المُصْطَفاةِ في التَّوْراةِ بالأوصافِ المعهودةِ

ورَدَ ذِكْرُ النَّبِيّ ﷺ، بصيغَةِ الخِطابِ في الآياتِ السّابِقَةِ: ﴿ٱلَّتِي كُنتَ عَلَيۡهَآ﴾، ﴿تَقَلُّبَ وَجۡهِكَ﴾، ﴿فَلَنُوَلِّيَنَّكَ﴾، ﴿فَوَلِّ وَجۡهَكَ﴾، فالإتْيانُ بالضَّميرِ الغائِبِ في قَوْلِهِ: ﴿يَعۡرِفُونَهُۥ كَمَا يَعۡرِفُونَ أَبۡنَآءَهُمۡۖ﴾، هُوَ مِنَ الالْتِفاتِ، وَهُوَ عَلَى تَقْديرِ مُضافٍ أَيْ: يَعْرِفُونَ صِدْقَهُ[2].

وفائِدَةُ الالْتِفاتِ عَنِ الخِطابِ إلى الغَيْبَةِ، في هَذا المَوْضِعِ؛ الإيذانُ بأَنَّ المُرادَ لَيْسَ مَعْرِفَتَهُمْ لَهُ ﷺ، من حَيْثُ ذاتُهُ ونَسَبُهُ، بَلْ من حَيْثُ كَوْنُهُ مَذْكورًا في الكِتابِ، مَنْعوتًا بالنُّعوتِ الَّتي من جُمْلَتِها: أَنَّهُ يُصَلِّي إلى القِبْلَتَيْنِ، كأَنَّهُ قيلَ: (الّذينَ آتَيْناهُمُ الكِتابَ يَعْرِفُونَ مَنْ وصَفْناهُ فيهِ)[3].

بلاغةُ تشبيهِ المَعْرِفَةِ النَّظَرِيَّةِ البُرْهانِيَّةِ بالمعرفةِ الحسيَّةِ المشاهدة:

القطعُ بمعرفةِ اليهودِ للنَّبيِّ وأنَّه الرَّسولُ الخاتَم

جيءَ بحرفِ (الكاف) المُفيدِ للتَّشْبيهِ، ورُكْنا التَّشْبيهِ مَعْرِفَتُهُمُ النَّبِيَّ المُرْسَلَ ﷺ، ومَعْرِفَتُهُمْ أَبْناءَهُم، فالمَعْنى أَنَّهُمْ يَعْرِفونَ النَّبِيَّ ﷺ، مَعْرِفَةً واضِحَةً، كمَعْرِفَةِ أَبْنائِهِمُ الَّذينَ من أَصْلابِهِم؛ فهُوَ تَشْبيهٌ مُرْسَلٌ[4].

وقد قارنَ الشِّهابُ بينَ المعرفتينِ؛ إحداهما مشبَّهٌ بها والأخرى مشبّهةٌ، فقال: "المَعْرِفَةُ المُشَبَّهَةُ نَظَرِيَّةٌ، والمَعْرِفَةُ المُشَبَّهُ بها قَطْعِيَّةٌ ضَروريَّةٌ، مُسْتَنِدَةٌ إلى المُشاهَدَةِ والإحْساسِ، والمَعْرِفَةُ

---

(1) زاده، حاشية على البيضاوي: 2/373.

(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 2/39.

(3) محمد صديق خان، فتح البيان في مقاصد القرآن: 1/310.

(4) التّشبيهُ المرسل والتّشبيه المؤكّد: ينقسم التّشبيه باعتبار أداته إلى: أولًا: التّشبيه المرسل: وهو ما ذكرت فيه أداة من أدوات التّشبيه، كقوله: "إنّما الدّنيا كبيتٍ نسجُه من عنكبوت"، ثانياً: التّشبيه المؤكّد: وهو ما حُذفت منه أداته، كقوله: "أنت نجمٌ في رفعة وضياءٍ"، ينظر: السيد الهاشمي: جواهر البلاغة، ص: 238، وينظر أيضا حبنّكة الميدانيّ، البلاغة العربيّة: 2/173.

الضَّروريَّةُ أَقْوى مِنَ المَعْرِفَةِ النَّظَرِيَّةِ البُرْهانِيَّةِ، وإِنْ كانَتْ كُلُّ واحِدَةٍ مِنْها قَطْعِيَّةً، فلِذَلِكَ جُعِلَتِ الأولى مُشَبَّهًا بِها للثَّانِيَّةِ"[1].

فأهلُ الكتابِ يَعْرِفونَ النَّبيَّ ﷺ بأَوْصافِه، من كَوْنِه نَبيًّا، وكَوْنِه هُوَ المَوْعودَ ببَعْثَتِه في كُتُبِهِم، وكَوْنِه مِنَ الصّادِقينَ في تبليغِه عنِ اللهِ، فإنَّهُمْ كانوا يَعْرِفونَهُ بهَذِهِ الأَوْصافِ؛ لأَنَّهُمْ شاهَدوا بأُمِّ أَعْيُنِهِمْ ما خَلَقَ اللهُ في يَدِهِ مِنَ المُعْجِزاتِ، مَعْرِفَةً لا يَشوبُها اشْتِباهٌ، ولا يَعْرِضُ لَها التِباسٌ، وهُمْ في مَعْرِفَتِهِمْ تِلْكَ يَعْرِفونَهُ كما يَعْرِفونَ أَبْناءَهُمْ بذَواتِهِم وأَشْخاصِهِم، مُمَيَّزينَ عَنْ سائِرِ الغِلْمانِ، إذا رَأَوْهُمْ مُخْتَلِطينَ مَعَهُم، وفائدةُ هذا التَّشبيه القطعُ بمعرفةِ اليهودِ للنَّبيِّ ﷺ، وأنَّه الرَّسولُ الخاتم، وأنَّ العبرةَ ليست في المعرفةِ بل بالعملِ بمقتضاها، ولمَّا لم تُفِدْهم معرفتُهم أُلحِقَ بهم الذَّمُّ.

إيثارُ التَّشبيهِ عَلى أسلوبِ الإخْبارِ في التَّعْبيرِ:

إبــرازُ جماليَّة التَّشْبيهِ والمُبالَغَةُ في وَصْفِ المَعْرِفَةِ

سَبَقَ أَنْ استُعمل أُسلوبُ الخبرِ في قولِه تعالى: ﴿وَإِنَّ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡكِتَٰبَ لَيَعۡلَمُونَ أَنَّهُ ٱلۡحَقُّ مِن رَّبِّهِمۡۗ﴾ [البقرة: 144]، وهَذا خَبَرٌ مُؤَكَّدٌ، فلسائلٍ أن يسألَ عن إيثارِ التَّشبيه على الخبرِ في هذه الآيةِ؟

والجوابُ: أنَّ للتَّشْبيهِ جَماليَّةً في التَّعْبيرِ، مَعَ المُبالَغَةِ والتَّأْكيدِ، والجَمالُ في التَّشْبيهِ يَأْتي من إِعْمالِ الفِكْرِ في الرَّبْطِ بَيْنَ المُشَبَّهِ والمُشَبَّهِ بِهِ، والنَّظَرِ في الصِّفَةِ المُشْتَرَكَةِ بَيْنَهُما، وهَذا اسْتِدْعاءٌ للذِّهْنِ أَنْ يَتَأَمَّلَ النَّصَّ ويَتَفاعَلَ مَعَهُ، فلذا كانَ في الإِنْشاءِ فَنٌّ وجَمالٌ، فهُوَ لا يَسْلُكُ مَسْلَكَ الخَبَرِ في إِثْباتِ المَعْلومَةِ، بطَريقِ المُباشَرَةِ الخالي مِنَ التَّفاعُلِ بَيْنَ النَّصِّ والسّامِعِ، فلذا كان التَّشْبيهُ هُنا مُفيدًا تَأْكيدَ مَعْرِفَتِهِم، "والغَرَضُ من هَذا التَّشْبيهِ المُبالَغَةُ في وصْفِ المَعْرِفَةِ"[2]، فهُوَ تَشْبيهٌ يُفيدُ اليَقينَ في المَعْرِفَةِ؛ فإِنَّ الإِنْسانَ لا يُمْكِنُ أَنْ يَجْهَلَ ولَدَهُ الَّذي يَعْرِفُ نَسَبَهُ ساعَةً من زَمانٍ ما دامَ عاقِلًا مُدْرِكًا، وقَدْ يَجْهَلُ نَفْسَهُ، في الوَقْتِ الَّذي لَمْ يَكُنْ قَدْ بَلَغَ

(1) زاده، حاشية على البيضاويّ: 2/374.

(2) ابن جزي، التّسهيل لعلوم التّنزيل: 1/100.

فيهِ سِنَّ التَّمْييزِ، فكَما أَنَّ الَّذينَ أوتوا الكِتابَ، لا يُمْكِنُ أَنْ يَجْهَلوا أَبْناءَهُمُ الّذينَ من أَصْلابِهِمْ؛ فكَذَلِكَ لا يَجْهَلونَ الرَّسولَ الأَمينَ[1]، ليَدُلَّ عَلى جَلاءِ مَعْرِفَتِهِمْ وتَحَقُّقِها"[2].

ولَوْ أَخْبَرَ لاحْتَمَلَ الخَبَرُ الصِّدْقَ والكَذِبَ، ولدَفْعِ هَذا الاحْتِمالِ، يُؤتَى بالمُؤَكِّداتِ ليَكُونَ النَّصُّ بنحو: (وإِنَّ الَّذينَ أوتوا الكِتابَ ليَعْرِفونَ أَنَّهُ صادِقٌ)، وبذَلِكَ يَكونُ الكَلامُ مُباشِرًا مُقَرّرًا، خاليًا من جَمالِيَّةِ التَّشْبيهِ، الَّتي تَتَضَمَّنُ التَّأْكيدَ والمُبالَغَةَ الّتي يَقْتَضيها المَقامُ.

توجيهُ المخصُوصِ بالذِّكر:

وُرودُ التَّشْبيهِ بالأَوْلادِ، لأَنَّهُمْ حُشاشَةُ الأَكْبادِ

اخْتارَ في الآيَةِ، أَنْ يَكونَ المُشَبَّهُ بِهِ، هُوَ مَعْرِفَةَ الأَبْناءِ، وخَصَّصَ الأَبْناءَ بالذِّكرِ فلَمْ يَقُلْ مَثَلًا: (بَناتِهِم، أَوْ أَوْلادَهُم، أَوْ أَنْفُسَهُمْ)؟ والجَوابُ عَلى ذَلِكَ: راجِعٌ لكَوْنِ الذُّكورِ أَشْهَرَ وأَعْرَفَ عِنْدَهُمْ من البَناتِ، وهُمْ بصُحْبَةِ الآباءِ أَلْزَمُ، وبقُلوبِهِمْ أَلْصَقُ؛ فإِنْ قيلَ: لِمَ لَمْ يَقُلْ: (كَما يَعْرِفونَ أَنْفُسَهُمْ)؟ مَعَ أَنَّ مَعْرِفَةَ الشَّخْصِ نَفْسَهُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ من مَعْرِفَةِ سائِرِ الأَشْياءِ؟ فالجَوابُ: لأَنَّ الإِنْسانَ لا يَعْرِفُ نَفْسَهُ إِلّا بَعْدَ انْقِضاءِ بُرْهَةٍ من دَهْرِهِ، ويَعْرِفُ ولَدَهُ من حينِ وُجودِهِ[3]، وخَصَّ الأَبْناءَ لشِدَّةِ تَعَلُّقِ الآباءِ بِهِمْ؛ فيَكونُ التَّمَلّي من رُؤْيَتِهِمْ كَثيرًا، فتَتَمَكَّنُ مَعْرِفَتُهُمْ[4].

وكذلك مُلاحَظَةُ الجِنْسِ المُناسِبِ، وهُوَ الذُّكورَةُ؛ وذَلِكَ لتَحْقيقِ المُناسَبَةِ، وهَذِهِ عِلَّةٌ لَفْظِيَّةٌ ولَيْسَ دَلالِيَّةً، ومُراعاةُ الجانِبِ اللَّفْظِيِّ في بُنْيَةِ النُّصوصِ غايَةٌ سامِيَةٌ، خاصَّةً في الكَلامِ المُعْجِزِ.

دلالَةُ اسْتِعْمالِ لَفْظِ ﴿يَعۡرِفُونَهُۥ﴾ دون غيرِه من الألفاظِ:

المَعْرِفَةُ تَتَحَقَّقُ في الجُزْئِيّاتِ الظّاهِرَةِ، والمَلْمَحِيّاتِ البارِزَةِ

آثر النَّصُّ اسْتِعْمالَ لَفْظِ ﴿يَعۡرِفُونَهُۥ﴾ دون ألفاظ أخرى، في بَيانِ أَنَّ أَحْبارَ أَهْلِ الكِتابِ، قَدْ عَلِموا صِدْقَهُ، وأَنَّهُ هُوَ المُبَشَّرُ بِهِ؛ وذلك أَنَّ المَعْرِفَةَ تَتَحَقَّقُ في الجُزْئِيّاتِ، والمَلامِحِ الظّاهِرَةِ،

(1) أبو زهرة، زهرة التّفاسير: 1/453.

(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 2/40.

(3) أبو حيان، البحر المحيط في التّفسير: 2/34، والراغب، تفسير الراغب: 1/338.

(4) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 2/40.

والمُفْرَداتِ البارِزَة، الَّتي يَسْبقُها الجَهْلُ، فاسْتِعْمالُ لَفْظ ﴿يَعۡرِفُونَهُۥ﴾ يُبَيِّنُ أَنَّ صِفاتِهِ كانَتْ بارِزَةً مَعْروفَةً، ومن خِلالِ هَذِهِ الصِّفاتِ زالَ جَهْلُهُمْ بِه، وتَحَقَّقَتِ المَعْرِفَةُ، فهُمْ كانوا يَجْهَلونَ شَخْصَ النَّبِيِّ ﷺ قَبْلَ بَعْثَتِه، فلَمّا بُعِث ورَأَوا صِفاتِه عَرَفوهُ، ﴿فَلَمَّا جَآءَهُم مَّا عَرَفُواْ كَفَرُواْ بِهِۦۚ﴾ [البقرة: 89]، أَيْ أَنَّهُ النَّبِيُّ ﷺ الَّذي ذُكِرَ لَهُمْ نَعْتُهُ من قَبْلُ في التَّوْراة، فثَبَتَتْ سِماتُهُ في أَذْهانِهِم، فلَمّا ذُكِرَتْ تِلْكَ السِّماتُ في القُرْآنِ، عَرَفوا أَنَّهُ المَوْصوفُ في التَّوْراةِ؛ فهُمْ يَعْرِفونَ رِسالَتَهُ، وما جاء بِهِ من حَلالٍ وحَرامٍ، والأَرْضَ الَّتي يُبْعَثُ مِنْها، وقَوْمَهُ الأُمِّيِّينَ(1).

والعَلاماتُ البارِزَةُ الَّتي من خِلالِها تَحَقَّقَتْ مَعْرِفَتُهُمُ النَّبِيَّ المُرْسَلَ ﷺ كانَتْ مَعْروفَةً عِنْدَهُم، قال تَعالى: ﴿ٱلَّذِينَ يَتَّبِعُونَ ٱلرَّسُولَ ٱلنَّبِيَّ ٱلۡأُمِّيَّ ٱلَّذِي يَجِدُونَهُۥ مَكۡتُوبًا عِندَهُمۡ فِي ٱلتَّوۡرَىٰةِ وَٱلۡإِنجِيلِ يَأۡمُرُهُم بِٱلۡمَعۡرُوفِ وَيَنۡهَىٰهُمۡ عَنِ ٱلۡمُنكَرِ وَيُحِلُّ لَهُمُ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيۡهِمُ ٱلۡخَبَٰٓئِثَ وَيَضَعُ عَنۡهُمۡ إِصۡرَهُمۡ وَٱلۡأَغۡلَٰلَ ٱلَّتِي كَانَتۡ عَلَيۡهِمۡۚ﴾ [الأعراف: 157].

فائدةُ تقييدِ الكاتمينَ وعدمُ إطلاقِ الحكمِ:

بيانُ عدالةِ القرآنِ في الحكمِ على المخالفِ

ذكرتِ الآيةُ أنَّ الكتمانَ صادرٌ عن فريقٍ لا عن جميع أهلِ الكتابِ: ﴿وَإِنَّ فَرِيقٗا مِّنۡهُمۡ لَيَكۡتُمُونَ ٱلۡحَقَّ وَهُمۡ يَعۡلَمُونَ ١٤٦﴾، وهَذا من كَمالِ العَدالَةِ والدِّقَّةِ والتَّحَرّي، فالقُرْآنُ لا يُطْلِقُ أَحْكامًا تَهْضِمُ حُقوقَ النّاسِ، ولا يُسَوِّي في الحُكْمِ بَيْنَ المُخْتَلِفينَ، فهُوَ يَلْحَظُ الفَوارِقَ بدِقَّةٍ، وهَذا من لَوازِمِ الحَقِّ والسَّدادِ في تَقْسيمِ النّاسِ، حَيْثُ لَمْ يَقُلْ: (وإِنَّهُمْ)، بَلْ قالَ: ﴿وَإِنَّ فَرِيقٗا مِّنۡهُمۡ﴾.

ففي الآيةِ تَخْصيصٌ لبَعْضِ الَّذينَ أوتوا الكِتابَ، بالعِنادِ في أَمْرِ القِبْلَةِ، وفي غَيْرِهِ ممّا جاءَ بِهِ النَّبِيُّ ﷺ، وهُوَ أَيْضًا ذَمٌّ لَهُم، بأَنَّهُمْ يَكْتُمونَ الحَقَّ وهُمْ يَعْلَمونَهُ، وهَؤُلاءِ مُعْظَمُ الَّذينَ أوتوا الكِتابَ، فبَقِيَ فريقٌ آخَرُ يَعْلَمونَ الحَقَّ، ويُعْلِنونَ بِه، وهُمُ الَّذينَ آمَنوا بالنَّبِيِّ ﷺ مِنَ اليَهودِ، قَبْلَ عَبْدِ اللّهِ بْنِ سَلامٍ، ومِنَ النَّصارى مِثْلَ تَميمٍ الدّارِيِّ وصُهَيْبٍ(2)، وممّا يُؤَكِّدُ ذَلِكَ، أَنَّ عُمَرَ بْنَ الخَطّابِ سَأَلَ عَبْدَ اللّهِ بْنَ سَلامٍ، فقالَ لَهُ: كَيْفَ هَذِهِ المَعْرِفَةُ

---

(1) محمّد أبو زهرة، زهرة التّفاسير: 1/454.

(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 2/40.

المَذْكورَةُ في هَذِهِ الآيَةِ؟ فقالَ عَبْدُ اللّهِ: يا عُمَرُ، لَقَدْ عَرَفْتُهُ حينَ رَأَيْتُهُ، كما أَعْرِفُ ابْني، ومَعْرِفَتي بمُحَمَّدٍ أَشَدُّ من مَعْرِفَتي بابْني، فقالَ عُمَرُ: فكَيْفَ ذلِكَ؟ فقالَ: أَشْهَدُ أَنَّهُ رَسولُ اللّهِ حَقًّا، وقَدْ نَعَتَهُ اللّهُ في كِتابِنا، ولا نَدْري ما تَصْنَعُ النِّساءُ؟ فقَبَّلَ عُمَرُ رَأْسَهُ، وقالَ: وفَّقَكَ اللّهُ يا أبا سَلامٍ، فقَدْ صَدَقْتَ"[1].

والفريقُ المذكورُ خاصٌّ بمَنْ عانَدَ من عُلَماءِ أَهْلِ الكِتابِ فكتَمُوا الحقَّ، ويُخْرِجُ الَّذينَ آمَنوا مِنْهُمْ، قالَ الزَّمَخْشَريُّ[2]: "اسْتِثْناءٌ لِمَنْ آمَنَ مِنْهُم، أَوْ لِجُهّالِهِم، الَّذينَ قالَ فيهِمْ: ﴿وَمِنۡهُمۡ أُمِّيُّونَ لَا يَعۡلَمُونَ ٱلۡكِتَٰبَ إِلَّآ أَمَانِيَّ وَإِنۡ هُمۡ إِلَّا يَظُنُّونَ ٧٨﴾ [البقرة: 78]، والاسْتِثْناءُ هُنا مَعْنَويٌّ لا اصْطِلاحيٌّ، وهُوَ بمَعْنى الإِخْراجِ، إِخْراجٌ لِمَنْ آمَنَ مِنْهُم، أَوْ لِجُهّالِهِمْ"[3]؛ فذكرُ الكاتِمين يُخرجُ المؤمنين، والأميين من أهلِ الكتابِ.

نكتةُ إِظْهارِ مَا حقُّه الإِضْمارُ:

النَّصُّ عَلى أَنَّ المَكْتومَ هُوَ الحَقُّ

أَظْهرَ الاسْمُ في قولِه: ﴿لَيَكۡتُمُونَ ٱلۡحَقَّ﴾، فلَم يَقُلْ: (لَيَكْتُمونَهُ) بالإِضْمارِ؟ وذَلِكَ أَنَّهُ أَرادَ التَّنْصيصَ عَلى أَنَّ المَكْتومَ هُوَ الحَقُّ؛ لِيُبَيِّنَ سوءَ فِعْلِهِم، وفَسادَ طَوِيَّتِهِم، فلَوْ أَضْمَرَ لما أَفادَ الإِضْمارُ التَّنْبيهَ عَلى حَقِّيَّةِ ما يَكْتُمونَهُ.

نُكتةُ حذفِ مفعولِ العلمِ:

فواصِلُ الآياتِ مُرْتَكَزٌ مُهِمٌّ، للإِعْجازِ الصَّوْتِيِّ

يتعلَّق العلمُ بالمعلوم لفظًا أو تقديرًا، وفي الآيَةِ أَطْلَقَ العِلْمَ، ولَمْ يُخَصِّصْهُ بشَيْءٍ، للتَّوَسُّعِ في تَقْديرِ المَحْذوفِ، فقَدْ يَكونُ تَقْديرُ المَحْذوفِ: (وهُمْ يَعلَمونَ أَنَّهُمْ آثِمونَ)، أَوْ: (أَنَّهُمْ ظالِمونَ) أو غَيْرَ ذلك مِمّا يَصْلُحُ أَنْ يَكونَ مَعْلومًا لَهُمْ في هَذا المَقامِ، ولَوْ كانَ المُرادُ: (وهُمْ يَعْلَمونَ أَنَّهُ الحَقُّ)، لكَوْنِه ذُكِرَ في سِياقِ الآيَةِ؛ فيَكونُ

(1) الهرري، تفسير حدائق الرّوح والرّيحان: 3/29.
(2) الزّمخشري، الكشاف: 1/204.
(3) الطّيّبيّ، فتوح الغيب: 3/151.

حَذْفُهُ لدَلالَةِ المَقام عَلَيْه، من بابِ الإيجازِ، حَتَّى لا يَقَعَ في تَكْرارِ لَفْظٍ ذُكِرَ قَريبًا، وكَذَلكَ للْمُحافَظَةِ عَلى فاصِلَةِ الآيَةِ المُتَناسِقَةِ مَعَ الآياتِ الأُخَرِ، والتَّناسُقُ الصَّوْتِيُّ في النُّصوصِ لَهُ أَثَرُهُ الجَماليُّ، ويَؤُولُ إلى تَنْبيهِ السّامِعِ عَلى مَضْمونِ النَّصِّ.

دَلالَةُ الجُمْلَةِ الحاليَّةِ الاِسْمِيَّةِ عَلى التَّوْكيدِ:

قُبحُ العِنادِ المقترِنِ بالعلمِ وبشاعةُ مقترِفِه

قَوْلُهُ: ﴿وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾ جُمْلَةٌ اسْمِيَّةٌ حاليَّةٌ، جيءَ بها لتِبْيانِ الحالَةِ الَّتي كَتَموا فيها ما كَتَموا، وهِيَ أَنَّهُمْ كَتَموهُ في حالَةِ العِلْمِ؛ حَتَّى لا يَقَعَ شَكٌّ في أَنَّهُمْ رُبَّما فعَلوا ذَلكَ في حالَةِ جَهْلِهِمْ أَنَّهُ حَقٌّ، أَوْ كَوْنِهِمْ آثِمينَ، فنَصَّ عَلى أَنَّهُمْ فعَلوا ذَلكَ قَصْدًا وهُمْ عالِمونَ، فهَذِهِ الحالُ مُؤَكِّدَةٌ؛ لأَنَّ الكِتْمانَ إِنَّما يَكونُ بَعْدَ العِلْمِ، وجيءَ بِه تَوْبيخًا لَهُمْ عَلى تَرْكِ العَمَلِ بمُقْتَضى العِلْمِ، وزِيادَةً في ذَمِّهِم، فإِنَّ ارْتِكابَ الذَّنْبِ عَنْ عِلْمٍ أَقْبَحُ وأَفْظَعُ بالنِّسْبَةِ لارْتِكابِهِ عَنْ جَهْلٍ[1]، قالَ الشِّهاب في حاشِيَتِهِ عَلى البَيْضاوِيِّ عِنْدَ قَوْلِهِ تَعالى: ﴿وَإِنَّ فَرِيقًا مِّنْهُمْ لَيَكْتُمُونَ ٱلْحَقَّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ١٤٦﴾: "تَخْصيصٌ لمَنْ عانَدَ، واسْتِثْناءٌ لمَنْ آمَنَ"[2]؛ فعِنادُهم صادرٌ عن علمٍ.

تَناسُقُ الأَلْفاظِ في الآيَةِ:

دَلالَةُ الشُّحْنَةِ الدَّلاليَّةِ لأَلْفاظِ الآيَةِ، وارْتِباطُها بالحَياةِ والمَصيرِ

هناك تَناسُقٌ بَيْنَ ألفاظِ الآيةِ، فالأَلفاظُ الوارِدَةُ بَيْنَها تَناسُبٌ في الدَّلالَةِ العامَّةِ، فالآيَةُ تَحْوي ألفاظَ: (الكِتاب، والمَعْرِفَة، والحَقّ، والعِلْم) مَعَ مُلاحَظَةِ تَكْرارِ لَفْظِ ﴿يَعْرِفُونَ﴾، وورودِ لفظَي (العِلم والمَعْرِفَة) في آيَةٍ واحِدَةٍ، وهَذا يَدُلُّ عَلى قَصْدِ التَّنْبيهِ عَلى هَذِهِ الأَلْفاظِ، لما تَزْخَرُ بِهِ من شَحْنَةٍ دَلاليَّةٍ ذاتِ أَهَمِّيَّةٍ في الحَياةِ والمَصيرِ، فهُمْ لَدَيْهِمْ كِتابٌ، ولَدَيْهِمْ مَعْرِفَةٌ وعِلْمٌ بالحَقِّ، ولَكِنَّهُمْ يَكْتُمونَ هَذا الحَقِّ، والحَقُّ هُنا هُوَ المَعْلومَةُ الصَّحيحَةُ الثّابِتَةُ،

---

(1) زاده، حاشية على البيضاوي: 2/375.

(2) الخفاجي، عناية القاضي: 2/255.

فجَميعُ ألفاظِ الآيَةِ تتَمَحْوَرُ حوْلَ العِلْم ومَغبَّةِ كِتْمانِه، وفي الآيَةِ تَكرَّرَتْ صيغَةُ الأفْعالِ الخَمْسَةِ (يَعْرِفونَهُ، يَعْرِفونَ، لَيَكْتُمونَ، يَعْلَمونَ)، وهَذا مِمّا يُعْطي زيادَةً للتَّناسُقِ اللَّفْظيِّ، وهَذا التَّناسُبُ والتَّماثُلُ في مَوْضوعِ الألفاظِ، وصِيَغِها الصَّرْفيَّةِ يَخْلَعُ عَلى النَّصِّ قُوَّةَ البِناءِ ويَزيدُ في التَّماسُكِ بَيْنَ مُفْرَداتِه.

۞ الفُرُوقُ المُعْجَمِيَّةُ:

المَعْرِفَة والعِلْم:

العِلْمُ أَحكامٌ تَتَكَوَّنُ في القَلْبِ، بأَسْبابٍ ورَوافِدَ، والمَعْرِفَةِ تَمْييزٌ يَقومُ عَلى مَلامِحَ ظاهِرَةٍ للأَشْياءِ

الفَرْقُ بَيْنَ المَعْرِفَةِ والعِلْم، أَنَّ أَصْلَ المَعْرِفَةِ تَمْييزٌ يَقومُ عَلى مَلامِحَ ظاهِرَةٍ للأَشْياءِ، أَخْذًا مِن اسْتِعْمالِ التَّرْكيبِ في المَلامِحِ الظّاهِرَةِ الَّتي تُمَيِّزُ الشَّيْءَ عَنْ غَيْرِه، وهَذا أَساسُ أَنَّ "المَعْرِفَةَ: العِلْمُ المُتَعَلِّقُ بالمُفْرَدات، ويَسْبِقُهُ الجَهْلُ، ولذا لَمْ يوصَفِ اللَّه تَعالى بالمَعْرِفَةِ، أَمّا العِلْمُ فأَحْكامٌ تَتَكَوَّنُ في القَلْبِ، من رَوافِدَ وأَسْبابٍ مُحَدَّدَةٍ، ومِنْهُ قَوْلُهُ تَعالى: ﴿فَلَعَرَفْتَهُم بِسِيمَٰهُمْۚ وَلَتَعْرِفَنَّهُمْ فِي لَحْنِ ٱلْقَوْلِۚ﴾ [محمّد ﷺ: 30]، وقَوْلُه: ﴿فَدَخَلُواْ عَلَيْهِ فَعَرَفَهُمْ وَهُمْ لَهُۥ مُنكِرُونَ ۝٥٨﴾ [يوسف: 58]، وفي هَذا السِّياقِ يُلْحَظُ أنَّها مَعْرِفَةٌ بالسّيما والمَلامِحِ، ولَحْنُ القَوْلِ يُؤْخَذُ مِنَ الأَلْفاظِ المَسْموعَة.

وقَدْ عَدَلَ عَنْ أَنْ يُقالَ: (يَعْلَمونَهُ) إلى ﴿يَعْرِفُونَهُۥ﴾، لأَنَّ المَعْرِفَةَ تَتَعَلَّقُ غالِبًا بالذَّواتِ والأُمورِ المَحْسوسَة[1]، ويَسْبِقُها الجَهْلُ، أَمّا العِلْمُ فحُكْمٌ يَتَكَوَّنُ من خِلالِ رَوافِدَ وأَسْبابٍ حَتّى يَكونَ كالشَّيْءِ المُشاهَدِ الثّابِتِ؛ فلِذا اسْتَعْمَلَ المَعْرِفَةَ مَعَ النَّبيِّ ﷺ: لأَنَّهُمْ عَرَفوهُ من خِلالِ مَلامِحَ وعَلامات، واسْتَعْمَلَ العِلْمَ مَعَ الحَقِّ، لأَنَّهُ حُكْمٌ ثابِتٌ لَدَيْهِمْ عَلِموهُ من خِلالِ النَّظَرِ في كُتُبِهِم، وهَذا من بَلاغَةِ الاسْتِعْمالِ الدَّقيقِ للأَلْفاظِ في كِتابِ اللّهِ المُحْكَمِ البَليغ.

---

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 2/40.

﴿ٱلۡحَقُّ مِن رَّبِّكَ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلۡمُمۡتَرِينَ ١٤٧﴾ [البقرة: 147]

❁ مُناسَبَةُ الآيَةِ لِمَا قَبْلَها:

الـرَّبْـطُ بَـيْنَ الـتَّـحْـذيـرِ مِـنَ الأَهْـواءِ، وبَـيْنَ صِـدْقِ الـمُرْسَلِ والرِّسالَةِ

بَعْدَ أَنْ أَشارَ سُبْحانَهُ وتَعالى إِلى أَنَّهُ لا يَجوزُ لِمَنْ جاءَهُ الحَقُّ هُوَ ومَنْ مَعَهُ، أَنْ يَتَّبِعوا أَهْواءَ الَّذينَ أوتوا الكِتابَ، وأَنَّ مَنْ يَفْعَلُ ذَلِكَ يَكونُ مِنَ الظّالِمينَ ظُلْمًا مُؤَكَّدًا لا مِرْيَةَ فيه، بَعْدَ هَذا بَيَّنَ أَنَّ ما عِنْدَ النَّبِيِّ ﷺ والمُؤْمِنينَ، هُوَ الدِّينُ، وأَنَّهُ الحَقُّ[1].

❁ شَرْحُ المُفْرَداتِ:

الحَقُّ أَحَقُّ أَنْ يُتَّبَعَ

1) ﴿ٱلۡحَقُّ﴾: مِنَ الجِذْرِ (حقق)، والحَقُّ: خِلافُ الباطِلِ، والحَقُّ: واحِدُ الحُقوقِ، والحَقَّةُ أَخَصُّ مِنْهُ، يُقالُ: هَذِهِ حَقَّتي، أَيْ حَقّي، والحَقَّةُ أَيْضًا: حَقيقَةُ الأَمْرِ، يُقالُ: لَمَّا عَرَفَ الحَقَّةَ مِنّي هَرَبَ، وقَوْلُهُمْ: (لَحَقُّ لا آتيكَ)، هُوَ يَمينٌ لِلعَرَبِ يَرْفَعونَها بِغَيْرِ تَنْوينٍ، إِذا جاءَتْ بَعْدَ اللّامِ، وإِذا أَزالوا عَنْها اللّامَ قالوا: حَقًّا لا آتيكَ"[2]، وهُوَ مِن أَصْلٍ يَدُلُّ عَلى إِحْكامِ الشَّيْءِ وصِحَّتِهِ، وتَمَكُّنِ الشَّيْءِ في عُمْقِ مَقَرِّهِ، والشَّيْءِ الثّابِتِ الرّاسِخِ المُتَمَكِّنِ، بِشَريعَةٍ صَحيحَةٍ، أَوْ عُرْفٍ عامٍّ مُسَلَّمٍ، وحَقَّ الشَّيْءُ: ثَبَتَ، ووَجَبَ[3].

إِنَّ رَبَّكَ لَبِالمِرْصادِ

2) ﴿رَّبِّكَ﴾: مِنَ الجِذْرِ (ربّ)، وهُوَ لَفْظٌ يَدُلُّ عَلى إِصْلاحِ الشَّيْءِ والقِيامِ عَلَيْهِ[4]، وفيهِ مَعْنى الرِّعايَةِ والإِنْماءِ والتَّرْبِيَةِ، رَبَّ الرَّجُلُ وَلَدَهُ، والسَّحابُ يَرُبُّ المَطَرَ: يَجْمَعُهُ ويُنَمِّيهِ[5]،

(1) أبو زهرة، زهرة التّفاسير: 1/455.
(2) الجوهريّ، الصّحاح: (حقق).
(3) جبل، المعجم الاشتقاقي المؤصل: (حقق).
(4) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (ربّ).
(5) جبل، المعجم الاشتقاقي المؤصل: (ربب).

واللّهُ جَلَّ ثَناؤُهُ الرَّبُّ؛ لأَنَّهُ مُصلِحُ أَحْوالِ خَلْقِهِ[1]، فالرَّبُّ: المالِكُ، والخالِقُ، والصّاحِبُ، والمُصْلِحُ للشَّيْءِ[2].

وفي سِياقِ الآيَةِ يَعْني: اللّه جَلَّ ثَناؤُهُ.

لا يُهْلِكُ الأُمَمَ غَيْرُ المُمْتَرينَ في الدُّنْيا والدِّينِ

3) ﴿ٱلْمُمْتَرِينَ﴾: مِنَ الجذْرِ (مرى، مري)، والمُمْتَرون جمعُ مُمْتَرٍ، وهو اسْمُ فاعِلٍ من مارَيْتُهُ أُماريهِ مُماراةً ومِراءً، بمَعْنى جادَلْتُهُ، وامْتَرى في أَمْرِه، بمَعْنى شَكَّ فيه، ومن مَعاني مارَيْتُهُ: طَعَنْتُ في قَوْلِه، تَزييفًا للقَوْلِ، وتَصْغيرًا للقائِلِ، ولا يَكونُ المِراءُ إلّا اعْتِراضًا؛ بخِلافِ الجِدالِ[3].

ومِنْهُ: المِرْيَةُ: الشَّكُّ، وأصلُهُ مِنِ احْتِواءِ الباطِنِ عَلى رِقَّةٍ ورَخاوَةٍ، وهُوَ ضَعْفٌ وعَدَمُ تَمَيُّزِ حُدودٍ، وامْتَرى فيهِ: شَكَّ، وكَذلِكَ تَمارى، ومِنْهُ قَوْلُهُ تَعالى: ﴿بَلْ جِئْنَٰكَ بِمَا كَانُواْ فِيهِ يَمْتَرُونَ ٦٣﴾ [الحجر: 63]، ومِنْه: المِراءُ: المُجادَلَةُ؛ فهِيَ بسَبَبِ الشَّكِّ وعَدَمِ اليَقينِ في ما يَقولُ الآخَرُ، ولا يَخْرُجُ مَعْنى أَيٍّ من مُفْرَداتِ (مرى) الّتي ورَدَتْ في القُرْآنِ عَمّا ذَكَرْناهُ؛ الامْتِراءُ والمِرْيَةُ: الشَّكُّ، والمُماراةُ والمِراءُ: الجِدالُ، وهُوَ بسَبَبِ الشَّكِّ[4].

۞ المَعْنَى الإجْمَاليُّ:

تَوْجيهُ الرَّسولِ ﷺ والمُؤْمِنينَ إلى الاعْتِصامِ بالحَقِّ ونَبْذِ الشُّكوكِ

يُخْبِرُ اللّهُ تَعالى النَّبيّ ﷺ أَنَّ الَّذي أُنْزِلَ إلَيْكَ في أَمْرِ القِبْلَةِ، هي القِبلةُ الحقُّ التي كان عليها إبراهيم خليلُ الرحمن ومَنْ بعده من أنبياء اللّه ﷻ.

يقول تعالى ذكره له: فاعمل بالحقِّ الذي أتاك من ربِّك فهُوَ الحَقُّ الذي لا يخالطه خلل، فلا يَنْبَغي أَنْ تَكونَ مِنَ الشّاكِّينَ فيهِ.

(1) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (ربب).
(2) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (ربب).
(3) الشّيخلّي، بلاغة القرآن في الإعجاز: 1/334.
(4) جبل، المعجم الاشتقاقي المؤصل: (مرى).

والخِطابُ وإنْ جاءَ للنَّبيِّ ﷺ، لكنَّهُ مُوَجَّهٌ للمُؤْمنينَ؛ لأَنَّ النَّبيَّ ﷺ لا يَشُكُّ في ذَلكَ، ولا يُتَوَقَّعُ منْهُ.

❁ الإيضاحُ اللُّغويُّ وَالبَلَاغِيُّ:

دَلالَةُ الاِسْتِئْنافِ والتَّذْييلِ في الآيَةِ:

قوَّةُ ارتباطِ الآيةِ بالسَّابقةِ بحذْفِ الـمُسْنَدِ إلَيْـهِ وأَثَرُهُ في المَعْنى

قَوْلُهُ: ﴿ٱلۡحَقُّ مِن رَّبِّكَ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلۡمُمۡتَرِينَ ١٤٧﴾، جاءَ الكَلامُ بلا عاطِف، وهُوَ اسْتِئْنافٌ وفَصْلٌ؛ ليُقَرِّرَ حَقيقَةً مُسْتَقلَّةً بنَفْسِها؛ فلمّا بَيَّنَ في الآيَةِ السّابقَةِ أَنَّهُمْ يَعْرِفونَهُ، وأَنَّهُمْ يَكْتُمونَ الحَقَّ، انْتَقَلَ إلى خِطابِ النَّبيِّ ﷺ، ليُؤَكِّدَ أَنَّ هَذا الحَقَّ ثابتٌ في وسَطِ جُحودِهِمْ ونُكْرانِهِم، ويُحَذِّرَهُ أَنْ يَكونَ شاكًّا في هَذا الحَقِّ، ولَوْ عَطَفَ لفاتَ هَذا المَعْنى المُسْتَقلُّ، وقَدْ ورَدَ لَفْظُ ﴿ٱلۡحَقَّ﴾ في الآيَةِ السّابقَةِ: ﴿وَإِنَّ فَرِيقٗا مِّنۡهُمۡ لَيَكۡتُمُونَ ٱلۡحَقَّ وَهُمۡ يَعۡلَمُونَ ١٤٦﴾، فقَوْلُهُ: ﴿ٱلۡحَقُّ مِن رَّبِّكَ﴾ تَذْييلٌ للجُمْلَةِ في الآيَةِ السّابقَةِ، عَلى أَنَّ ﴿ٱلۡحَقُّ﴾ خَبَرُ مُبْتَدَأٍ مَحْذوفٍ، تَقْديرُهُ (هَذا الحَقُّ)، وحَذْفُ المُسْنَدِ إلَيْهِ في مِثْلِ هَذا، ممّا جَرى عَلى مُتابَعَةِ الاسْتِعْمالِ في حَذْفِ المُسْنَدِ إلَيْهِ، بَعْدَ جَرَيانِ ما يَدُلُّ عَلَيْهِ، مِثْلَ قَوْلِهِمْ بَعْدَ ذِكْرِ شَخْصٍ تَمْدَحُهُ، ثُمَّ تَقولُ: فتًى، ونَحْوَ ذَلكَ[1]، وممّا يُسْتَشْهَدُ به عَلى ذَلكَ:

هَلْ تَعْرِفُ اليَوْمَ رَسْمَ الدّارِ والطَّلَلا *** كما عَرَفْتَ بجَفْنِ الصَّيْقَلِ الخلَلا؟
دارٌ لـمَرْوَةَ إذْ أَهْلي وأَهْلُهُمُ *** بالكانِسيَّةِ نَرْعى اللَّهْوَ والغَزَلا

أَيْ: هِيَ دارٌ لـمَرْوَةَ، فحَذَفَ المُسْنَدَ إلَيْهِ، وهُوَ المُبْتَدَأُ هُنا، كعادَةِ العَرَبِ من حَذْفِ المُسْنَدِ إلَيْهِ في هَذا المَقامِ[2].

احتمالُ العهدِ والجِنْسِ في كلمةِ ﴿ٱلۡحَقُّ﴾:

الـحـمـلُ على الاستئنافِ هو الأنسبُ لاتِّساقِهِ مع الاستئنافِ

اللّامُ في كلمةِ ﴿ٱلۡحَقُّ﴾ تحتملُ أن تكونَ "للعَهْدِ، والإشارَةُ إلى ما عَلَيْهِ الرَّسولُ ﷺ أَوِ الحَقِّ الَّذي يَكْتُمونَهُ، أَوْ للجِنْسِ"[3]، وهو الأَنْسَبُ

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 2/41.
(2) حبنّكة الميداني، البلاغة العربيّة: 1/341.
(3) البيضاوي، أنوار التنزيل: 1/112-113.

لمَعْنى الاِسْتِئْناف، إذ جاءَتِ الآيَةُ لتُقَرِّرَ أَنَّ وُجودَ الحَقِّ المُطْلَق، إنَّما هُوَ مِنَ اللّهِ، والمَعْنى أَنَّ الحَقَّ ما ثَبَتَ أَنَّهُ مِنَ اللّهِ تَعالى كالَّذي أَنْتَ عَلَيْهِ، لا ما لَمْ يَثْبُتْ كالَّذي عَلَيْهِ أَهْلُ الكِتاب، بَلْ يَتَعَيَّنُ كَوْنُها للجِنْس، "عَلى تَقْدير أَنْ يَكونَ لَفْظُ ﴿ٱلْحَقُّ﴾ خَبَرَ مُبْتَدَأٍ مَحْذوفٍ، يَتَعَيَّنُ أَنْ تَكونَ اللّامُ فيهِ للجِنْس، ولا وجْهَ لأَنْ تَكونَ للعَهْدِ؛ إذْ لا مَعْنى أَنْ يُقالَ: "الحَقُّ هُوَ الحَقُّ"[1]، كما تُفيدُ (ال) التَّعْريفِ في ﴿ٱلْحَقُّ﴾ القَصْرَ، أَيْ: الحَقُّ الجَديرُ بالاِتِّباعِ الَّذي لا رَيْبَ فيهِ، هُوَ الَّذي يَنْزِلُ عَلَيْكَ من رَبِّك، وغَيْرُهُ باطِلٌ لا يُتَّبَعُ[2].

إفادَةُ التَّأْكيدِ في شِبْهِ الجُمْلَةِ ﴿مِن رَّبِّكَ﴾:

الحالُ المُؤَكِّدَةُ المُقَرِّرَةُ لمَضْمونِ الجُمْلَةِ الاِسْمِيَّةِ

فائِدَةُ الجارِّ والمَجْرور، بَيانٌ لهَيْئَةِ الحَقِّ، فهُوَ الحَقُّ الجَديرُ والمُطْلَقُ، في حالَةِ كَوْنِهِ من رَبِّك، فلَمّا كانَ التَّعْريفُ يُفيدُ الحَصْرَ، فإنَّ بَيانَ حالِ هَذا الحَقِّ، بأَنَّهُ مِنَ اللّهِ، أَعْطاهُ زِيادَةَ تَأْكيدٍ، فهُوَ "حالٌ مُؤَكِّدَةٌ مُقَرِّرَةٌ لمَضْمونِ الجُمْلَةِ الاِسْمِيَّةِ، لأَنَّ مَضْمونَها لازِمٌ لمَضْمونِ ما قَبْلَها، كما في قَوْلِك: هُوَ الحَقُّ بَيِّنًا"[3].

دَلالَةُ اسْتِعْمالِ لَفْظِ الرَّبِّ، عِوَضًا عَنِ اسْمِ الجَلالَةِ:

الإشارَةُ إلى الرِّعايَةِ التي دلَّ عليها السِّياق

آثَرَ النَّظْمُ التَّعْبيرَ بالرَّبِّ، دونَ لَفْظِ الجَلالَةِ (اللّه) في قَوْلِه: ﴿ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكَ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمُمْتَرِينَ ١٤٧﴾، إشارَةً لمَعْنى الرِّعايَةِ، فالسِّياقُ يَتَضَمَّنُ مَعانيَ الرِّعايَةِ، وهَذا يُناسِبُ لَفْظَ (الرَّبِّ)، وقَدْ أَضافَ الرَّبَّ إلى ضَميرِ الخِطابِ للنَّبِيِّ ﷺ لاسْتِدْعاءِ تِلْكَ المَعاني، ولتَذْكيرِهِ بقُرْبِهِ مِنْهُ، وأَنَّ الحَقَّ هُوَ مِنْحَةٌ من رَبِّكَ الَّذي سَبَقَ خَيْرُهُ مِنَّتَهُ، فلا يُزْعِجَنَّكَ ما رافَقَ تَحْويلَ القِبْلَةِ، من جَدَلٍ وأَقاويلَ تَقَوَّلَها السُّفَهاءُ؛ فلَفْظُ الرَّبِّ يَجْعَلُ الأَمْرَ أَهْوَنَ عَلى النَّفْسِ لما فيهِ من دَلالَةِ

(1) زاده، حاشيّة على البيضاويّ: 2/377.
(2) أبو زهرة، زهرة التّفاسير: 1/455.
(3) زاده، حاشيّة على البيضاويّ: 2/377.

الاهْتِمام والرِّعايَةِ، ولَوْ قالَ (مِنَ اللّهِ)، ثُمَّ أَعْقَبَهُ الأَمْرَ، لكانَ أَشَدَّ عَلى النَّفْسِ، والسِّياقُ لا يَقْتَضي ذَلِكَ، بَلْ يَقْتَضي خِلافَهُ، لأَنَّ مَوْقِفَ أَهْلِ الكِتابِ وتَكْذيبَهُمْ وعِنادَهُم، واسْتِهْزاءَ المُشْرِكينَ وغَيْرِهِم، كانَ شَديدًا عَلى النَّبِيِّ ﷺ والمُسْلِمينَ، فراعى السِّياقُ ذَلِكَ.

دلالَةُ الفاءِ في قَوْلِهِ: ﴿فَلَا تَكُونَنَّ﴾:

قُوَّةُ الأُمَّةِ في اليَقينِيّاتِ الرّاسِخَةِ، لا في الشُّكوكِ العاصِفَةِ

تُبَيِّنُ الفاءُ في قوله تعالى: ﴿فَلَا تَكُونَنَّ﴾، أَنَّ ما قَبْلَها سَبَبٌ لما بَعْدَها، فلَمّا كانَ الحَقُّ الجَديرُ بالاتِّباعِ الَّذي لا رَيْبَ فيه، هُوَ الَّذي من رَبِّكَ، وغَيْرُهُ باطِلٌ، فإِنَّ ذَلِكَ يوجِبُ عَلى أُمَّتِكَ، أَن لا يَكونوا مِنَ الشّاكِّينَ[1] تبعًا لك؛ لأَنَّ دواعيَ اليقينِ متوافرةٌ، فما بعد الفاءِ وهو النَّهي عن الامتراءِ، مبنيٌّ على ما قبلها وهو إثباتُ أنَّ الحقَّ من اللّه تعالى.

غرضُ النَّهْيِ عنِ الامتِراءِ:

نَهْيُ الأُمَّةِ عَنِ الإمْتِراءِ ضَمانٌ لِمُسْتَقْبَلِها الحَضارِيِّ

جاءَ في قوله تعالى: ﴿فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلۡمُمۡتَرِينَ ١٤٧﴾ النَّهيُ عنِ الامْتِراءِ وهُوَ الشَّكُّ، وهو مِمّا لا يُتَوَقَّعُ ولا يُظَنُّ في النَّبِيِّ ﷺ، فكَيْفَ يَتَوَجَّهُ النَّهْيُ عَنْ شَيْءٍ لا وُجودَ لَهُ؟ والجَوابُ عَنْهُ، أَنَّهُ لَيْسَ نَهْيًا عَلى الحَقيقَةِ: "فإذا أُورِدَتْ صورَةُ النَّهْيِ في مِثْلِ هَذِهِ المَواضِعِ، لا يُرادُ بها حَقيقَةُ النَّهْيِ، بَلْ يُقْصَدُ بها شَيْءٌ آخَرُ، فقَوْلُهُ: ﴿فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلۡمُمۡتَرِينَ ١٤٧﴾، من قَبيلِ الخِطابِ العامِّ الوارِدِ عَلى صورَةِ النَّهْيِ، والمَقْصودُ مِنْهُ إِخْبارُ كافَّةِ النّاسِ، بأَنَّ المَقامَ لَيْسَ بمَظَنَّةٍ لأَنْ يَرْتابَ فيهِ أَحَدٌ مِنَ الأَنامِ"[2]، ومَعْنى نَهْيِ الأُمَّةِ عَنِ الامْتِراءِ، أَمْرُهُمْ بضِدِّهِ الَّذي هُوَ اليَقينُ وطُمَأْنينَةُ القَلْبِ[3]، وهَذا لَيْسَ أَمْرًا اخْتِيارِيًّا صالِحًا لأَنْ يُكَلَّفَ بِهِ الإِنْسانُ، إِلّا أَنَّ الأَسْبابَ المُؤَدِّيَةَ إِلى

---

(1) أبو زهرة، زهرة التّفاسير: 1/455.

(2) زاده، حاشيّة على البيضاويّ: 2/378.

(3) البروسوي، روح البيان: 1/252.

حُصولِه اخْتِياريَّةٌ، فيَكونُ الأَمْرُ راجِعًا إِلى الأَمْرِ باكْتِسابِ أَسْبابِه، وما يَتَوَقَّفُ حُصولُهُ عَلَيْهِ[1].

دلالَةُ خطابِ الخاصِّ المُرادِ بِهِ العامُّ:

واجِبُ الأُمَّـةِ أَنْ تَـحْتاطَ لدينِها بِـالْـحَـقِّ لا بالإِمْتِراءِ

من أُسْلوبِ القُرْآنِ، أَنْ يُخاطِبَ النَّبيَّ ﷺ، والمُرادُ خِطابُ الأُمَّة، وهَذِهِ عادَةُ القُرْآنِ في كُلِّ تَحْذيرٍ مُهِمٍّ، ليَكونَ خِطابُ النَّبيِّ ﷺ، بمِثْلِ ذَلِكَ - وهُوَ أَقْرَبُ الخَلْقِ إلى اللّهِ تَعالى - دَليلًا عَلى أَنَّ مَنْ وقَعَ في مِثْلِ ذَلِك مِنَ الأُمَّةِ قَدْ حَقَّتْ عَلَيْهِ كَلِمَةُ العَذابِ[2]، فهُوَ مِنَ الخاصِّ ويُرادُ بِه العامُّ. فالخِطابُ للنَّبيِّ ﷺ والمُرادُ غَيْرُهُ[3]؛ لأَنَّ الشَّكَّ غَيْرُ مُتَصَوَّرٍ مِنْهُ، ولا أَنْ يَدْخُلَ صُفوفَ المُرْتابينَ، إِنَّما هُوَ أَمْرٌ لأُمَّتِه، بأَنْ يَحْتاطوا لدينِهِمُ الحَقِّ، فيُزَوِّدوا أَنْفُسَهُمْ بالعِلْمِ الَّذي يَحْفَظُ إيمانَهُمْ إزاءَ الطُّعونِ[4]، والأُسْلوبُ افْتِراضٌ، لأَنَّهُ نَهْيٌ مُحالٌ في حَقِّهِ الامْتِراءُ أَوِ الشَّكُّ، فهَلْ يُعْقَلُ أَنْ يَمْتَري وهُوَ المَعْصومُ الَّذي صَنَعَتْهُ رِعايَةُ اللّهِ، وحَفِظَتْهُ من كُلِّ طارِئٍ أَوْ زَيْغٍ؟، والجَوابُ: أَنَّ مُتَعَلَّقَ الامْتِراءِ، هُوَ عِلْمُ أَهْلِ الكِتابِ بحَقيقَةِ القُرْآنِ، وهُوَ أَحَدُ الأَجْوِبَةِ في الكَشّافِ، والثّاني أَنَّهُ من بابِ التَّهْييجِ والتَّحْريضِ عَلى الأَمْرِ[5].

أَثَرُ الكِنايَةِ في تجليةِ مَعْنى الآيَةِ:

خـطـابُ الـنَّـبيِّ ﷺ أوقـعُ أثـرًا في نهيِ الأمَّةِ عن الامتراءِ

إِنَّما نَهى أَنْ يَكونَ مِنَ المُمْتَرينَ، دونَ أَنْ يَكونَ الخِطابُ بالفِعْلِ المُباشِرِ، فلَمْ يَقُلْ: (لا تُمارِ)؛ لأَنَّهُ أَبْلَغُ؛ كما مَضى في قَوْلِهِ تَعالى: ﴿إِنَّكَ إِذًا لَّمِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ١٤٥﴾، فكَوْنُهُ من فِئَةٍ مُعَيَّنَةٍ، أَبْلَغَ مِنِ اتِّصافِهِ بها مُفْرَدًا، فالنَّهْيُ عَنْ أَنْ يَكونَ مِنْهُم، أَبْلَغُ مِنَ النَّهْيِ عَنْ نَفْسِ الفِعْلِ.

---

(1) زاده، حاشيّة على البيضاويّ: 2/278-279.

(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 2/41.

(3) النيسابوري، التّفسير البسيط: 3/398.

(4) أبو زهرة، زهرة التّفاسير: 1/455-456.

(5) الدّرة، تفسير القرآن وإعرابه وبيانه: 1/346.

وإذا كانَ المُرادُ بخِطابِ النَّبيِّ ﷺ خطابَ أمَّته؛ فلماذا لَمْ يُوَجِّه الخِطابَ إليهم فيَقولُ مَثَلًا: (فَلا تكونوا مِنَ المُمْتَرينَ)؟ والجَوابُ: أنَّهُ أرادَ تَحْذيرَ الأُمَّةِ، بأُسْلوبٍ بَليغٍ مَعَ التَّأْكيدِ، فجاءَ بهَذا الأُسْلوبِ الكِنائيِّ غَيْرِ الصَّريحِ، وهُوَ تَعْريضٌ بِهِم، فكَنَّى بخِطابِ النَّبيِّ ﷺ عَنْ خِطابِ الأُمَّةِ، أَيْ: لا يَكُنْ أَحَدٌ من أُمَّتِهِ مِنَ المُمْتَرينَ؛ والكِنايَةُ أَبْلَغُ مِنَ التَّصْريحِ[1]، فإذا كان النَّبيُّ ﷺ منهيًّا عن مثل هذا فكيف بأمَّته؟!

دلالةُ تَكْرارِ التَّرْكيبِ في سِياقاتٍ مُخْتَلِفَةٍ:

النَّهْيُ عَنِ الإمْتِراءِ حِكْمَةٌ بالِغَةٌ في التَّحْصينِ من الانطواءِ تحت لواءِ الآخرِ

تَكَرَّرَ هَذا التَّرْكيبُ: ﴿فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلۡمُمۡتَرِينَ ١٤٧﴾ في القُرْآنِ أربع مَرّاتٍ في سِياقاتٍ مُخْتَلِفَة، في سِياقِ الحَديث عَنْ أَنَّ القُرْآنَ مُنَزَّلٌ مِنَ اللهِ بالحَقِّ، ثُمَّ يُوَجَّهُ النَّهْيُ عَنِ الامْتِراءِ، كما في سورَةِ البَقَرَةِ، قالَ تَعالى: ﴿ٱلۡحَقُّ مِن رَّبِّكَ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلۡمُمۡتَرِينَ ١٤٧﴾ [البقرة: 147]، وفي قولِه تعالى: ﴿ٱلۡحَقُّ مِن رَّبِّكَ فَلَا تَكُن مِّنَ ٱلۡمُمۡتَرِينَ ٦٠﴾ [آل عمران: 60]، وفي قَوْلِه تَعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ ءَاتَيۡنَٰهُمُ ٱلۡكِتَٰبَ يَعۡلَمُونَ أَنَّهُۥ مُنَزَّلٞ مِّن رَّبِّكَ بِٱلۡحَقِّۖ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلۡمُمۡتَرِينَ ١١٤﴾ [الأنعام: 114]، وفي قَوْلِه تَعالى: ﴿فَإِن كُنتَ فِي شَكّٖ مِّمَّآ أَنزَلۡنَآ إِلَيۡكَ فَسۡـَٔلِ ٱلَّذِينَ يَقۡرَءُونَ ٱلۡكِتَٰبَ مِن قَبۡلِكَۚ لَقَدۡ جَآءَكَ ٱلۡحَقُّ مِن رَّبِّكَ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلۡمُمۡتَرِينَ ٩٤﴾ [يونس: 94]، فالأولى في إبْرازِ مَعْرِفَةِ الَّذيَن أوتوا الكتابَ الحَقَّ كما يَعْرِفونَ أَبْناءَهُم، والثّانِيَةُ في رَفْضِ أَنْ يُتَّخَذَ حُكْمًا غَيْرُ اللهِ، وهُمْ يَعْلَمونَ أَنَّهُ مُنَزَّلٌ مِنَ اللهِ بالحَقِّ، والثّالِثَةُ في مَعْرِضِ الامْتِنانِ عَلى ما بَوَّأَ بَني إِسْرائيلَ، وتَأْكيدِ النَّهْيِ عَنِ الامْتِراءِ في المَواقِعِ الثَّلاثَةِ، وفي الآياتِ الثَّلاث جاءَ لفظُ الحقِّ قبل النَّهي، وكونه من الرَّبِّ سبحانه وتعالى، المضاف إلى ضميرِ المخاطَب، ففي ذلك كلِّه براعةٌ في التَّأكيدِ والمبالغةِ في النَّهي أن يكون مسلمٌ من الممترين بعد ذلك كلِّه، وفيه تقويةٌ لهذه الأمَّة أن تقوى وتعتزَّ بدينها وبقرآنِها، وأن لا تُماري بغيةَ التَّقرُّب أو الاقتراب من الآخر.

(1) القنوجي، فتح البيان: 1/311، والسيوطيّ، نواهد الأبكار: 2/344.

أثرُ المعاني في توكيدِ الخطابِ القرآنيِّ

توجيهُ المُتشابِه اللَّفظيِّ:

حَيْثُ اسْتَعْمَلَ تَرْكيبَ النَّهْيِ بطَريقَتَيْنِ: قَوْلُهُ: ﴿فَلَا تَكُن﴾، و﴿فَلَا تَكُونَنَّ﴾، فالأولى ورَدَتْ في قَوْلِه تَعالى: ﴿ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكَ فَلَا تَكُن مِّنَ ٱلْمُمْتَرِينَ ۝٦٠﴾ [آل عمران: 60]، والثّانيَةُ في بقية الآيات [البقرة: 147] و[الأنعام: 114] و[يونس: 94]، فلماذا قالَ في مَوْضِعٍ: ﴿فَلَا تَكُن﴾ وقالَ في البقيَّة: ﴿فَلَا تَكُونَنَّ﴾؟

والجَوابُ عَنْهُ أَنَّ السِّياقَ في سورَةِ البَقَرَة، قَدْ بُنِيَ عَلى التَّوْكيد، وقَدْ ورَدَتْ صيغَةُ تَأْكيدِ الفِعْلِ بنونِ التَّوْكيدِ، في الآياتِ السّابِقَة: ﴿فَلَنُوَلِّيَنَّكَ﴾ ومثلها سورة الأنعام ويونس.

وأمّا آيَةُ آلِ عمرانَ، فإنّها في سِياقٍ لَمْ يُبْنَ عَلى التَّوْكيد، فجاءَتْ عَلى الأَصْلِ: ﴿فَلَا تَكُن﴾، وفي البَقَرَةِ ﴿فَلَا تَكُونَنَّ﴾، لأَنَّ ما في آل عمران جاءَ عَلى الأَصْلِ ولَمْ يَكُنْ فيها ما أَوْجَبَ إِدْخالَ نونِ التَّوْكيدِ في الكَلِمَة، بخِلافِ سورَةِ البَقَرَةِ فإنَّ فيها في أَوَّلِ القِصَّة: ﴿فَلَنُوَلِّيَنَّكَ قِبْلَةً تَرْضَىٰهَا﴾، بنونِ التَّوْكيد، فأَوْجَبَ الازْدِواجُ إِدْخالَ النُّونِ في الكَلِمَة، فيَصيرُ التَّقْدير: (فَلَنُوَلِّيَنَّكَ قِبْلَةً تَرْضاها فلا تَكُونَنَّ مِنَ المُمْتَرِينَ)"[1]، فهُناكَ تَناسُبٌ بَيْنَ الصِّيَغِ الوارِدَةِ في النَّصِّ، وهِيَ من مُقْتَضَياتِ تَماسُكِ النَّصِّ وسَبْكِه، وتَكْرارُ الصِّيَغِ يُفيدُ تَقْوِيَةَ البِناء، وجَماليَّةَ شَكْلِه اللُّغَوِيِّ الّذي يُبْنى عَلى التَّناسُبِ في البُنْيَةِ اللُّغَوِيَّة، بَلْ إِنَّ هَذا التَّناسُبَ وتَكْرارَ الصِّيَغِ المُتَماثِلَة، من مُسْتَلْزَماتِ تَكْوينِ النَّصِّ، فإِنَّ الصِّيَغَ تَتَآلَفُ في الآياتِ بتَكْرارِها.

الفُروقُ المُعْجَمِيَّةُ:

كُلُّ شَكٍّ جَهْلٌ، ولَيْسَ كُلُّ جَهْلٍ شَكًّا

الشَّكّ والإِمْتِراء:

إنَّ الامْتِراءَ هُوَ اسْتِخْراجُ الشُّبَهِ المُشْكِلَة، ثُمَّ كَثُرَ حَتَّى سُمِّيَ

(1) الكرماني، البرهان في توجيه متشابه القرآن، ص: 91-92، وزكريا الأنصاري، فتح الرّحمن بكشف ما يلتبس في القرآن: 1/45، وابن جماعة، كشف المعاني في المتشابه من المثاني، ص: 131.

الشَّكُّ مِرْيَةً وامْتِراءً[1]، والشَّكُّ: اعْتِدالُ النَّقيضَيْنِ عِنْدَ الإِنْسانِ وتَساويهما، وذَلِكَ قَدْ يَكونُ لوُجودِ أَمارَتَيْنِ مُتَساوِيَتَيْنِ عِنْدَ النَّقيضَيْنِ، أَوْ لعَدَمِ الأَمارَةِ فيهما، والشَّكُّ رُبَّما كانَ في الشَّيْءِ هَلْ هُوَ مَوْجودٌ أَوْ غَيْرُ مَوْجودٍ؟ ورُبَّما كانَ في جِنْسِهِ، من أَيِّ جِنْسٍ هُوَ؟ ورُبَّما كانَ في بَعْضِ صِفاتِه، ورُبَّما كانَ في الغَرَضِ الَّذي لأَجْلِهِ أوجِدَ، وهُوَ ضَرْبٌ مِنَ الجَهْلِ، وهُوَ أَخَصُّ مِنْهُ، لأَنَّ الجَهْلَ قَدْ يَكونُ عَدَمَ العِلْمِ بالنَّقيضَيْنِ، فكُلُّ شَكٍّ جَهْلٌ، ولَيْسَ كُلُّ جَهْلٍ شَكًّا[2]، أمّا المِرْيَةُ: فهِيَ التَّرَدُّدُ في الأَمْرِ، وهُوَ أَخَصُّ مِنَ الشَّكِّ، قالَ تَعالى: ﴿وَلَا يَزَالُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ فِى مِرْيَةٍ مِّنْهُ﴾ [الحج: 55]، وقال أَيْضًا: ﴿فَلَا تَكُ فِى مِرْيَةٍ مِّمَّا يَعْبُدُ هَٰٓؤُلَآءِ﴾ [هود: 109]، والامْتِراءُ والمُماراةُ: المُحاجَّةُ فيما فيه مِرْيَةٌ، قالَ تَعالى: ﴿قَوْلَ ٱلْحَقِّ ٱلَّذِى فِيهِ يَمْتَرُونَ ﴿٣٤﴾﴾ [مريم: 34]، وقال: ﴿بِمَا كَانُواْ فِيهِ يَمْتَرُونَ ﴿٦٣﴾﴾ [الحجر: 63]، وقال: ﴿فَلَا تُمَارِ فِيهِمْ إِلَّا مِرَآءً ظَٰهِرًا﴾ [الكهف: 22] وأَصْلُهُ مِنْ: مَرَيْتُ النّاقَةَ: إِذا مَسَحْتُ ضَرْعَها للحَلْبِ[3]، فالامْتِراءُ أَخَصُّ مِنَ الشَّكِّ؛ لأَنَّهُ جُهْدٌ لاسْتِخْراجِ شُبَهٍ وتَرْكِها بلا حَلٍّ، فهُوَ إِثارَةُ المُشْكِلَةِ، أَمّا الشَّكُّ فهُوَ جَهْلٌ وتَرَدُّدٌ، يَمْنَعُ من تَبَنّي الأَمْرِ، ويَعوقُ الحَسْمَ فيه، فلِذا ناسَبَ الآيَةَ الامْتِراءُ، ولذا لَمْ يَأْتِ النَّهْيُ عَنِ الشَّكِّ، وجاءَ عَنِ الامْتِراءِ، فالشَّكُّ لَيْسَ في الوُسْعِ، أَمّا الامْتِراءُ ففيهِ جُهْدٌ، يَصْحَبُهُ عِلْمٌ ومَعْرِفَةٌ، ولَكِنْ مَعَهُ تَرَدُّدٌ، وفي هَذا السياقِ يَقولُ تَعالى، في آيَةٍ تَجْمَعُ بَيْنَ لَفْظَي الشَّكِّ والامْتِراءِ: ﴿فَإِن كُنتَ فِى شَكٍّ مِّمَّآ أَنزَلْنَآ إِلَيْكَ فَسْـَٔلِ ٱلَّذِينَ يَقْرَءُونَ ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلِكَ ۚ لَقَدْ جَآءَكَ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكَ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمُمْتَرِينَ ﴿٩٤﴾﴾ [يونس: 94].

(1) العسكري، الفروق اللّغوية، ص: 99- 100.
(2) الراغب، المفردات: (شكك).
(3) المصدر السّابق: (مرى).

﴿وَلِكُلّٖ وِجۡهَةٌ هُوَ مُوَلِّيهَاۖ فَٱسۡتَبِقُواْ ٱلۡخَيۡرَٰتِۚ أَيۡنَ مَا تَكُونُواْ يَأۡتِ بِكُمُ ٱللَّهُ جَمِيعًاۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٞ ١٤٨﴾ [البقرة: 148]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِمَا قَبْلَها:

الأجْدَرُ بالمُؤْمنينَ الإشْتِغالُ بفِعْلِ الخَيْراتِ

لـمّا بَيَّنَت الآياتُ السّابِقَةُ أَنَّ الفِرَق الـمُخْتَلِفَةَ لا يَتَّبِعُ بَعْضُها قِبْلَةَ الآخَرِ، وأَنَّ عَدَمَ اتِّباعِهِم لشِرعةِ الإسلامِ إنَّما هُوَ مِنَ العِنادِ والمُكابَرَةِ، فهُمْ يَعْرِفونَ الحَقَّ، ولَكِنَّهُمْ لا يَتَّبِعونَهُ، جاءَ الخِطابُ في هَذِهِ الآيَةِ، لِيُبَيِّنَ أَنَّ كُلَّ قَوْمٍ يَتَّبِعونَ قِبْلَتَهُم، لِيُنَبِّهَنا إلى أَنَّنا يَجِبُ أَنْ نَتَّجِهَ إلى قِبْلَتِنا وشَرْعِنا، ولَيْسَ عَلَيْنا أَنْ نُغَيِّرَ ما عِنْدَ غَيْرِنا، إنِ اتَّبَعوا أَهْواءَهُمْ بَعْدَ أَنْ عَرَفوا الحَقَّ، بَلْ نَنْصَرِفُ إلى فِعْلِ الخَيْراتِ والطّاعاتِ.

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

الإحاطَةُ والشُّمولُ، مَنوطَةٌ بما يَدُلُّ عَلَيْهِ السِّياقُ

1) ﴿وَلِكُلّٖ﴾: (كلّ) اسْمٌ دالّ عَلى الإحاطَةِ والشُّمولِ، وهُوَ مُبْهَمٌ يَتَعَيَّنُ بالـمُضافِ إِلَيْهِ، فإِذا حُذِفَ الـمُضافُ إِلَيْهِ، عُوِّضَ عَنْهُ بالتَّنْوينِ الـمُسَمَّى تَنْوينَ العِوَضِ؛ لأَنَّهُ يَدُلُّ عَلى الـمُضافِ إِلَيْهِ، فهُوَ عِوَضٌ عَنْهُ، ولا يُتَصَوَّرُ أَنَّ الإحاطَةَ والشُّمولَ مُطْلَقَةٌ، بَلْ هِيَ مُقَيَّدَةٌ بالـمُضافِ إِلَيْهِ، وبما يَدُلُّ عَلَيْهِ السِّياقُ.

الوِجْهَةُ القِبْلَةُ والـمَقْصِدُ، وكِلاهُما لَهُ دَوْرٌ في وَحْدَةِ الأُمَّةِ

2) ﴿وِجۡهَةٌ﴾: مِنَ الجذْرِ (وجه)، وهو أَصْلٌ يَدُلُّ عَلى مُقابَلَةٍ لشَيْءٍ[1]، وهـو أيضًا مُقْتَبَلُ الشَّيْءِ ومُقَدَّمُهُ الـمَكْشـوفُ الَّذي يُعْرَفُ بِهِ، وتُعْرَفُ حَقيقَتُهُ، كَوَجْهِ البَيْتِ والكَعْبَةِ والإنْسانِ والحَيَوانِ[2]، والوِجْهَةُ: القِبْلَةُ، والـمَقْصِدُ، وهِيَ حَيْثُما نَتَوَجَّهُ للشَّيْءِ.

(1) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (وجه).
(2) جبل، المعجم الاشتقاقي المؤصل: (وجه).

والمعنى في قوله تَعالى: ﴿وَلِكُلّٖ وِجۡهَةٌ هُوَ مُوَلِّيهَاۖ﴾ [البقرة: 148]، إشارَةٌ إلى الشَّريعَة، كقَوْلِه: ﴿لِكُلّٖ جَعَلۡنَا مِنكُمۡ شِرۡعَةٗ وَمِنۡهَاجٗاۚ﴾ [المائدة: 48][1].

التَّوَجُّهُ إلى القِبْلَةِ الْتِفاتٌ وانْصِرافٌ إلَيْها بالكُلِّيَّة

3) ﴿مُوَلِّيهَاۖ﴾: منَ الجذْرِ (ولي)، والأَصْلُ فيه: الوَلِيَّةُ: وهِيَ البَرْذَعَةُ، ما يوضَعُ على ظَهْرِ البَعير، كالسَّرْجِ للفَرَس، والوَليُّ: المَطَرُ، يَأْتي بَعْدَ الوَسْميّ، والوَسْميُّ هُوَ مَطَرُ الرَّبيعِ الأَوَّلُ، فيهِ مَعْنى المُتابَعَة، ومِنْهُ أُخِذَ التَّوَجُّهُ والانْصِرافُ، ومِنَ الأَصْلِ دَلَّ عَلى الاتِّجاهِ، والتَّوَجُّهُ إلى الشَّيْءِ التِفاتٌ وانْصِرافٌ إلَيْه، ووَلَّيْتُ وجْهِيَ كذا: أَقْبَلْتُ بِهِ عَلَيْه، وهُوَ في سِياقِ الآيَةِ بمَعْنى التَّوَجُّهِ والإقْبالِ، كُلٌّ مُوَلٍّ وجْهَهُ إلَيْها[2].

يُسْتَعارُ السَّبْقُ لإحْرازِ الفَضْلِ والتَّبْريز

4) ﴿فَٱسۡتَبِقُواْ﴾: مِنَ الجذْرِ (سبق)، والسَّبْقُ: القُدْمَةُ في الجَرْيِ، وفي كُلِّ شَيْءٍ؛ تَقولُ: لَهُ في كُلِّ أَمْرٍ سُبْقَةٌ وسابِقَةٌ، والجَمْعُ السَّوابِقُ، وقَدْ سَبَقَهُ يَسْبُقُهُ ويَسْبِقُهُ سَبْقاً: تَقَدَّمَهُ[3]، وهو أَصْلٌ يَدُلُّ على التَّقْديم، وتَقَدُّم الشَّيْءِ من بَيْنِ ما حَوْلَهُ في قُوَّةٍ وجِدٍّ[4]، والتَّقَدُّمِ إلى الأَشْياءِ، أَعْيانًا كانَتْ أَوْ مَعانيَ[5]، واسْتُعْمِلَ بمَعْنى الإفْلاتِ، وبمَعْنى المُضيِّ، فمِنَ الإفْلاتِ وإعْجازِ المُلاحِقِ، قَوْلُهُ: ﴿أَمۡ حَسِبَ ٱلَّذِينَ يَعۡمَلُونَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ أَن يَسۡبِقُونَاۚ﴾ [العنكبوت: 4]، وقَوْلُهُ: ﴿وَمَا نَحۡنُ بِمَسۡبُوقِينَ ٦٠﴾ [الواقعة: 60، المعارج: 41]، لَنْ يُعْجِزونا أَنْ نَفْعَلَ بِهِمْ ما نَشاءُ، ويُسْتَعارُ السَّبْقُ لإحْرازِ الفَضْلِ والتَّبْريز، وعَلى ذَلِكَ ورَدَ قَوْلُهُ تَعالى: ﴿وَٱلسَّٰبِقُونَ ٱلسَّٰبِقُونَ ١٠﴾ [الواقعة: 10][6].

---

(1) الراغب، المفردات: (وجه).
(2) الواحدي، التّفسير البسيط: 3/400.
(3) ابن منظور، لسان العرب: (سبق).
(4) ابن فارس، مقاييس اللّغة، جبل، المعجم الاشتقاقي المؤصل: (سبق).
(5) السمين، عمدة الحفّاظ: (سبق).
(6) الراغب، المفردات: (سبق).

والمعنى في الآيَةِ: التَّقدُّمُ والاِسْتِباقُ والمُبادَرَةُ والمُناضَلَةُ في فِعْلِ الفَضائِلِ.

الخَيْرُ خِلافُ الشَّرِّ، والمُسارَعَةُ إِلَيْهِ جَوْهَرُ الدِّينِ الحَقِّ

5) ﴿ٱلۡخَيۡرَٰتِۚ﴾، جَمْعُ خَيْر: مِنَ الجذْرِ (خور، خير)، والخَيْرُ: خِلافُ الشَّرِّ؛ لأَنَّ كُلَّ أَحَدٍ يَميلُ إِلَيْه ويَعْطِفُ على صاحِبِهِ، وهُوَ مِنَ الرَّخاوَةِ والطَّراءَةِ، كما أَنَّ الشَّرَّ مِنَ الجَفافِ والحِدَّةِ، والاِسْتِخارَةُ: اسْتَخارَ الرَجُلَ: اسْتَعْطَفَهُ، (رَجا أَنْ يَلينَ قَلْبُهُ وباطِنُهُ ويَسْهُلَ، واللَّيِّنُ السَّهْلُ الباطِنُ يَنْعَطِفُ ويَنْثَني)، ويُجْمَعُ الخَيْرُ عَلى خَيْراتٍ، ويُطْلَقُ الخَيْرُ عَلى المالِ، لأَنَّهُ لُيونَةٌ في الحَياةِ، وطَراءَةٌ وسُهولَةٌ[1]، ولا يُقالُ للمالِ خَيْرٌ، حَتَّى يَكونَ كَثيرًا[2]، وسائِرُ ما في القُرْآنِ من لَفْظ (خير)، هُوَ إِمّا مِنَ الخَيْرِ الَّذي هُوَ ضِدُّ الشَّرِّ، وإِمّا بمَعْنى أَفْضَلَ (أَيْ أَخْيَرَ).

أَصْلُ (أتى) وُصولٌ إِلى مَكانٍ بِقُوَّةٍ تُزيلُ ما يَعوقُ

6) ﴿يَأۡتِ بِكُمُ﴾: مِنَ الجذْرِ (أتى): وهُوَ مِنْ: أَتَّيْتُ الماءَ: سَهَّلْتُ سَبيلَهُ، ليَخْرُجَ إِلى مَوْضِعٍ[3]، والأَتِيُّ: النَّهْرُ يَسوقُهُ الرَّجُلُ إِلى أَرْضِه، وكُلُّ مَسيلٍ سَهَّلْتَهُ لماءٍ أَتِيٌّ[4]، والأَصْلُ فيه: وُصولٌ إِلى مَكانٍ بتَهْيِئَةٍ أَوْ قُوَّةٍ تُزيلُ ما يَعوقُ[5]، والإِيتاءُ: الإِعْطاءُ، آتى يُؤاتي إِيتاءً، وآتاهُ إِيتاءً: أَيْ أَعْطاهُ، فأَتَيْنا جِئْنا، وآتَيْنا أَعْطَيْنا[6]، (أَتَيْتَ بِهِ) من أَتى، بمَعْنى: جِئْتَ بِهِ، و(أُوتوا) من آتى، بمَعْنى: أَعْطى.

والمعنى في الآية: سيجمعكم اللّهُ من أيِّ مكان كنتم فيه يومَ القيامة.

---

(1) ابن فارس، مقاييس اللّغة، جبل، المعجم الاشتقاقي المؤصل: (خير).
(2) الراغب، المفردات: (خير).
(3) ابن منظور، لسان العرب: (أتى).
(4) ابن منظور، لسان العرب: (أتى).
(5) جبل، المعجم الاشتقاقي المؤصل: (أتى).
(6) ابن منظور، لسان العرب: (أتى).

القَديرُ الفاعِلُ لما يَشاءُ، عَلى قَـدْرِ ما تَقْتَضي الحِكْمَةُ

7) ﴿قَدِيرٌ﴾: مِنَ الجذْرِ (قدر)، وهُوَ من إِمْساكِ الشّيْءِ وضَبْطِهِ كي لا يَتَسَيَّبَ، يقال: قَدَرَ على الشّيْءِ، واقْتَدَرَ عَلَيْه: أي: قَوِيَ عَلَيْهِ[1]، والقُدْرَةُ إذا وُصِفَ بها الإنْسانُ، فاسْمٌ لهَيْئَةٍ لَهُ بها يَتَمَكَّنُ من فِعْلِ شَيْءٍ ما، وإذا وُصِفَ بها الباري تعالى، فهِيَ نَفْيُ العَجْزِ عَنْهُ[2]، قالَ تَعالى: ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ مُّقۡتَدِرًا ﴿٤٥﴾﴾ [الكهف: 45].

والقَديرُ: هُوَ الفاعِلُ لما يَشاءُ، عَلى قَدْرِ ما تَقْتَضي الحِكْمَةُ، لا زائِدًا عَلَيْهِ، ولا ناقِصًا عَنْهُ، ولذَلِكَ لا يَصِحُّ أَنْ يوصَفَ بِهِ إلّا اللّهُ تَعالى[3]؛ وذَلِكَ لما فيهِ مِنَ المُبالَغَةِ[4].

۞ المَعْنَى الإجْمَاليُّ:

الواجِبُ التَّسْليمُ لأَمْرِ الوَحْيِ، بلا تَأَخُّرٍ ولا تَهاوُنٍ

تَمْضي الآياتُ في تَأْييدِ مَوْقِفِ النَّبِيِّ ﷺ، في توجُّهه إلى المَسْجِدِ الحَرامِ، وإبْطالِ دَعاوى المُنْكِرينَ، فذَكَرَ اللّهُ تَعالى، أَنَّ لكُلِّ أُمَّةٍ قِبْلَةً خاصَّةً بها، فلَيْسَ لكُلِّ الأُمَمِ قِبْلَةٌ واحِدَةٌ: فلِلْيَهودِ قِبْلَةٌ، ولِلنَّصارى قِبْلَةٌ، ولِلمُسْلِمينَ قِبْلَةٌ، والواجِبُ التَّسْليمُ لأَمْرِ الوَحْيِ، واللّهُ يُجازي كُلَّ عامِلٍ بما عَمِلَ، والأَمْكِنَةُ في ميزانِ اللّهِ واحِدَةٌ، فلا تُجادِلوا في تَحْويلِ القِبْلَةِ، ولا تَعْتَرِضُوا عَلَيْهِ، وقِبْلَةُ المُسْلِمينَ واحِدَةٌ، في مُخْتَلفِ أَنْحاءِ الأَرْضِ، في البَرِّ والبَحْرِ والجَوِّ، ولا فائِدَةَ من مُحاجَّةِ المُشْرِكينَ في القِبْلَةِ، بَلِ اخْشَوُا اللّهَ ولا تَعْصوا لَهُ أَمْرًا، فأَيْنَما تَكونوا يَأْتِ بِكُمُ اللّهُ جَميعًا يَوْمَ القِيامَةِ، فيُحاسِبُكُمْ عَلى أَعْمالِكُم، واللّهُ عَلى كُلِّ شَيْءٍ قَديرٌ[5].

(1) جبل، المعجم الاشتقاقي المؤصل: (قدر).
(2) الراغب، المفردات: (قدر).
(3) الراغب، المفردات: (قدر).
(4) السمين، عمدة الحفاظ: (قدر).
(5) وهبة الزحيلي، التّفسير المنير: 2/31.

الإيضاحُ اللُّغويُّ وَالبَلَاغِيُّ:

بلاغةُ وَصْلِ الجملِ بَعْدَ الاِسْتِئْنَافِ:

توجيهُ المؤمنين إلى الاهْتِمامِ بالمَقاصِدِ، وتركِ الجدالِ بغيرِ طائِلٍ

بَعْدَ أَنْ تَمَّ الاعْتِراضُ والاِسْتِطْرادُ في الآيَتَيْنِ السّابِقَتَيْنِ، رَجَعَ الكَلامُ إلى موضوعِ اسْتِقْبالِ القِبلَةِ، فالجُمْلَةُ ﴿وَلِكُلٍّ وِجْهَةٌ﴾ مَعْطوفَةٌ، عَلى قوله: ﴿وَلَئِنْ أَتَيْتَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ بِكُلِّ ءَايَةٍ مَّا تَبِعُوا۟ قِبْلَتَكَ﴾، فالآيَةُ متَّصلَةٌ بتِلْكَ الآياتِ، وفائِدَةُ الوَصْلِ أَنْ تَكونَ هَذِهِ الجُمْلَةُ تَذْييلًا لما سَبَقَ، من تَلْقينِ الرَّسولِ ﷺ الجَوابَ عَنْ قَوْلِهِمْ: ﴿مَا وَلَّىٰهُمْ عَن قِبْلَتِهِمُ﴾، وتَبْيينِ فضيلَةِ قِبلَةِ المُسْلِمينَ، وأَنَّهُمْ عَلى الحَقِّ، وتَأْييسِهِمْ من تَرَقُّبِ اعْترافِ اليَهودِ، بِصِحَّةِ اسْتِقْبالِ الكَعْبَةِ، ذُيِّلَ ذَلِكَ بِهَذِهِ الآيَةِ الجامِعَةِ لِمَعانٍ ساميَةٍ، للتَّحَوُّلِ عَنْ أَمْرِ المُجادَلَةِ مَعَهُم، والمَعْنى أَنَّ لِكُلٍّ فريقٍ اتِّجاهًا في طَلَبِ الحَقِّ، وهَذا الكَلامُ مُوَجَّهٌ إلى المُسْلِمينَ، أَيْ: اتْرُكوا مُجادَلَةَ أَهْلِ الكِتابِ في أَمْرِ القِبلَةِ، ولا تَنْشَغِلوا بخِلافِهِم، وفيهِ توجيهٌ للمُسْلِمينَ إلى الاهْتِمامِ بالمَقاصِدِ، والاعْتِناءِ بإِصْلاحِ مُجْتَمَعِهِم؛ ولذلك أَعْقَبَهُ بِقَوْلِهِ: ﴿فَٱسْتَبِقُوا۟ ٱلْخَيْرَٰتِ﴾، كما في قَوْلِهِ: ﴿۞ لَّيْسَ ٱلْبِرَّ أَن تُوَلُّوا۟ وُجُوهَكُمْ قِبَلَ ٱلْمَشْرِقِ وَٱلْمَغْرِبِ وَلَٰكِنَّ ٱلْبِرَّ مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ﴾ [البقرة: 177][1].

حَذْفُ المُضافِ إِلَيْهِ لِدَلالَةِ المَقامِ عَلَيْهِ مِنْ قَوْلِهِ: ﴿وَلِكُلٍّ﴾:

حَذَفَ ما أُضيفَ إِلَيْهِ (كل) لِدَلالَةِ المَقامِ عَلَيْهِ، سَواءٌ ذُكِرَ سابقًا أَمْ لَمْ يُذْكَرْ، والتَّقْديرُ: ولِكُلِّ أَهْلِ دينٍ وِجْهَةٌ، أَوْ ولِكُلٍّ مِنَ المُسْلِمينَ، واليَهودِ، والنَّصارى، وِجْهَةٌ، وحديثُ السِّياقِ عَنِ القِبلَةِ، فيَكونُ المُضافُ إِلَيْهِ المَحْذوفُ بِمَعْنى الأُمَّةِ أَوِ المِلَّةِ وغَيْرِهِ، والأَوْلى تَقْديرُ المُضافِ إِلَيْهِ بِلَفْظِ المُفْرَدِ المُذَكَّرِ نَحْوَ (دينٍ، أَوْ إِنْسانٍ)؛ لاقْتِضاءِ صيغَةِ ﴿مُوَلِّيهَا﴾ اللَّفظيَّةِ، وللضَّميرِ (هُوَ) في قَوْلِهِ: ﴿هُوَ مُوَلِّيهَا﴾.

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 2/41.

صلاحُ استعمالِ لَفْظِ ﴿وِجۡهَةٌ﴾ للمَعْنَيَيْنِ الحقيقيِّ والمَجازِيِّ:

تُسْتَعارُ الوِجْهَةُ لما يَهْتَمُّ بِهِ المَرْءُ مِنَ الأمورِ، تَشْبِيها بالمَكانِ المُوَجَّهِ إِلَيْهِ، وهو من تَشْبِيهِ المَعْقولِ بالمَحْسوسِ، ولَفْظُ ﴿وِجۡهَةٌ﴾ في الآيَةِ، صالِحٌ للمَعْنَيَيْنِ الحَقيقيِّ والمَجازِيِّ، فالتَّعْبِيرُ بِهِ كَلامٌ مُوَجَّهٌ، وهُوَ مِنَ المَحاسِنِ، وقَريبٌ مِنْهُ، قَوْلُهُ: ﴿لِكُلّٖ جَعَلۡنَا مِنكُمۡ شِرۡعَةٗ وَمِنۡهَاجٗاۚ﴾ [المائدة: 48][1].

مَرْجِعُ الضَّميرِ ودَلالَتُهُ في قَوْلِه: ﴿هُوَ مُوَلِّيهَاۖ﴾:

اخْتِيارُ العَبْدِ يَجِبُ أَنْ يَتَّجِهَ إلى اخْتِيارِ اللهِ، لِيَكونَ مُتَّبِعًا لَهُ بالكُلِّيَّةِ

في مَرْجِعِ الضَّميرِ في قَوْلِه: ﴿هُوَ مُوَلِّيهَاۖ﴾ احْتِمالانِ:

الأَوَّلُ: أَنْ يَكونَ المَرْجِعُ للفظِ (كُلٍّ)، وعليه أَكْثَرُ أَهْلِ اللُّغَةِ، والمَعْنى: "هُوَ مُوَلِّيها وجْهَهُ"، أَيْ: "وكُلُّ أَهْلِ وِجْهةٍ هُمُ الّذين ولَّوْا وُجوهَهُمْ إلى تِلْكَ الجِهَةِ"[2]، قال الفَرّاءُ: "وقَوْلُهُ: ﴿وَلِكُلّٖ وِجۡهَةٌ﴾ يَعْني: قِبْلَةً، ومُوَلِّيها: مُسْتَقْبِلُها، الفِعْلُ لكُلّ، يُريدُ: مُوَلٍّ وجْهَهُ إِلَيْها"[3]، فيَكونُ الضَّميرُ عائِدًا إلى المُضافِ إِلَيْهِ المَحْذُوفِ في (كُلّ)، وتَقْديرُهُ: لكُلِّ إِنْسانٍ وِجْهَةٌ مُوَلِّيها وجْهَهُ[4].

الآخرُ: المُرادُ بِهِ (اللّه)؛ "قال قَوْمٌ: أَيْ: اللَّهُ - عَلى ما يَزْعُمونَ - يُوَلِّي أَهْلَ كُلِّ مِلَّةٍ القِبْلَةَ الَّتي يُريدُ"[5].

والصَّحيحُ أَنَّ الضميرَ عائِدٌ للفظِ كلٍّ فهو ما يقتضيه الظّاهِرُ، ويدلُّ عليه السِّياقُ، ولا يَصِحُّ أَنْ يَكونَ الضَّميرُ مُرادًا بِهِ اللّهُ، لأَنَّهُ تَكَلَّمَ عَنِ القِبْلَةِ الحَقِّ، ولَوْ اعْتَبَرْنا أَنَّ الضَّميرَ مُرادٌ به (اللّه)، لكانَ حُجَّةً وذَريعَةً للَّذينَ لَمْ يَتَّبِعوا النَّبِيَّ ﷺ في قِبْلَتِهِ، فيَكونُ الضَّميرُ للمُضافِ إِلَيْهِ المَحْذوفِ، الّذي قَدَّرْناهُ بالإِنْسانِ المُفْرَدِ.

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 2/42.
(2) الزجاج، معاني القرآن وإعرابه: 1/225.
(3) الفراء، معاني القرآن: 1/85.
(4) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 2/43.
(5) الزجاج، معاني القرآن وإعرابه: 1/225، والنيسابوري، التّفسير البسيط: 3/400.

إيجازٌ بحَذْفِ المَفْعُولِ بهِ في قَوْلِهِ: ﴿مُوَلِّيهَا﴾:

الـمَفْعولُ الأَوَّلُ لـمُوَلِّيها مَحذوفٌ، والتَّقديرُ: (هُوَ مُوَلّيها نَفْسَهُ أَوْ وجْهَهُ)، والـمَعْنى هُوَ مُقْبِلٌ عَلَيْها ومُلازِمٌ لها[1].

براعةُ المَجازِ في قَوْلِهِ: ﴿فَٱسۡتَبِقُواْ ٱلۡخَيۡرَٰتِۚ﴾:

الإسْـتِـبـاقُ إلى فِـعْـلِ الخَيْراتِ، ميدانُ الـصَّـالـحـيـن، ومِضمارُ الكُمَّلِ الفالحين

المرادُ بالاِسْتِباقِ، الاِهْتِمامُ والحِرْصُ والمُبادَرَةُ، فكما يَكونُ الـمُتَسابِقُ حَريصًا عَلى التَّقَدُّمِ وفي الرُّتْبَةِ الأولى، فكَذَلِكَ يَجِبُ أَنْ يكونَ المتسابِقُونَ في فِعْلِ الخَيْراتِ، مُبادِرِينَ لا تَذْهَبُ أَوْقاتُهمْ بالتَّسويفِ، ويجودونَ بالـمَذْخورِ من وُسْعِهِم، في فِعْلِ العَمَلِ الصّالِحِ[2]، والأَمْرُ بالاِسْتِباقِ إلى الخَيْراتِ، قَدْرٌ زائِدٌ عَلى الأَمْرِ بِفِعْلِ الخَيْراتِ، فإِنَّ الاِسْتِباقَ إليها، يَتَضَمَّنُ فِعْلَها، وتَكْميلَها، وإيقاعَها عَلى أَكْمَلِ الأَحْوالِ، والـمُبادَرَةَ إليها.

نَقَلَ مُحْيي الدِّين زادَه عَنِ الرّاغِبِ قَوْلَهُ: "في الآية قَوْلٌ آخَرُ، وهُوَ أَنَّ اللهَ ﷻ قَيَّضَ النّاسَ في أُمورِ دُنْياهُمْ وأُخْراهُم، لأَحْوالٍ مُتَفاوِتَةٍ، وجَعَلَ بَعْضَهُمْ أَعْوانَ بَعْضٍ، فواحِدٌ يَزْرَعُ، وواحِدٌ يَطْحَنُ، وواحِدٌ يَخْبِزُ، وكذَلِكَ في أَمْرِ الدِّينِ؛ واحِدٌ يَجْمَعُ الحَديثَ، وآخَرُ يَطْلُبُ الفِقْهَ، وواحِدٌ يَطْلُبُ الأُصولَ، وهُمْ في الظّاهِرِ مُخْتارونَ، وفي الباطِنِ مُسَخَّرونَ، وإِلَيْهِ أَشارَ النَّبيُّ ﷺ بقَوْلِهِ: (كُلٌّ مُيَسَّرٌ لما خُلِقَ لَهُ)، وجَعَلَ للكُلِّ سَبيلًا للوُصولِ إِلَيْهِ تَعالى، إذا راعى ما هُوَ بصَدَدِهِ، وأَدَّى الأَمانَةَ"[3].

التَّـوجُّـه إلى القِبلةِ لأنَّها من الـخـيراتِ، لا لمناكدةِ الآخر

دلالةُ لفظِ ﴿ٱلۡخَيۡرَٰتِۚ﴾ بين الخصوصِ السِّياقيِّ والعمومِ اللَّفظيّ:

الـمُرادُ من قَوْلِه: ﴿ٱلۡخَيۡرَٰتِۚ﴾ اسْتِقْبالُ القِبْلَةِ، وهَذا معنًى سياقيٌّ خاصٌّ، ولتحلِّيه بالأَلِفِ واللّامِ ﴿ٱلۡخَيۡرَٰتِۚ﴾ دلَّ عَلى الشُّمولِ[4]؛ فلَفْظُ

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 2/43.
(2) ابن جزَيّ، التّسهيل لعلوم التّنزيل: 1/100.
(3) زاده، حاشية على البيضاويّ: 2/380.
(4) القنوجي، فتح البيان في مقاصد القرآن: 1/312.

الخَيْراتِ عامٌّ، يَتناوَلُ كُلَّ عَمَلٍ صالِحٍ بُيِّنٍ في الشَّرْعِ حُسْنُهُ وفَضْلُه، فاللّفْظُ يَدُلُّ عَلى العُموم، والسِّياقُ يَدُلُّ عَلى الخُصوص، ولا تعارُضَ بين ما دلَّ عليه السِّياقُ، وما دلَّ عليه عمومُ اللَّفظِ، فالمُرادُ الجَميعُ؛ لأَنَّها جاءَتْ تَعْقيبًا عَلى قَوْلِه: ﴿وَلِكُلٍّ وِجْهَةٌ هُوَ مُوَلِّيهَا﴾، فهُو يقُولُ: إذا ثَبَتَ أَنَّ لكلِّ دينٍ قِبْلَةً يُصلُّونَ إِلَيْها، ولا يَنْصرفُونَ عَنْها إلى القِبْلَةِ الحَقِّ، وإِنْ أَتَيْتَهُمْ بكُلِّ آيَةٍ، تَدُلُّ عَلى أَنَّ القِبْلَةَ هِيَ الكَعْبَةُ، فإذا كان الأَمْرُ كذلِكَ، فاسْتَبِقوا أَنْتُمْ وبادِروا إلى أَفْعالِ الخَيْراتِ، وهِيَ ما ثَبَتَ أَنَّها منه تَعالى، ولا تَقْتَفوا أَمْرَ الـمُكابِرينَ، الذين يَتَّبِعونَ أَهْواءَهُمْ(1)، فانْصَرِفوا عَنِ الجَدَلِ في أَمْرِ القِبْلَةِ، وبادِروا بالأَعْمالِ الصّالِحَةِ، واتْرُكوا الجَدَلَ، واسْتَثْمِروا بالعَمَلِ.

عِلَّةُ الفَصْلِ في قَوْلِه: ﴿أَيْنَ مَا تَكُونُواْ يَأْتِ بِكُمُ ٱللَّهُ جَمِيعًا﴾:

التَّنبيهُ على القِيامَةِ سبيلُ القرآنِ في التَّرغيبِ والتَّرهيبِ

والجُمْلَةُ في قَوْلِه: ﴿أَيْنَ مَا تَكُونُواْ يَأْتِ بِكُمُ ٱللَّهُ جَمِيعًا﴾ فَصْلٌ؛ لأَنَّها جاءَتْ عِلَّةً للجُمْلَةِ السّابِقَةِ، فهِيَ تُبَيِّنُ سَبَبَ الأَمْرِ بالاسْتِباقِ، وفُصِلَتْ لأَنَّ العِلَّةَ لا تُعْطَفُ؛ إِذْ هِيَ بمَنْزِلَةِ الـمَفْعولِ لأَجْلِه، والـمَعْنى: فاسْتَبِقوا إلى الخَيْرِ، لتَكونوا مَعَ الَّذينَ يَأْتي بِهِمُ اللّهُ للرَّفيقِ الحَسَنِ، لأَنَّ اللّه يَأْتي بالنّاس جَميعًا خَيْرِهِمْ وشَرِّهِمْ(2).

فائِدةُ اسْتِعمَالِ الاسْتِفهَامِ في الشَّرطِ:

بيانُ قدرةِ الله تعالى المحيطةِ بكلِّ أحدٍ، فلا يفلتُ منه قريبٌ أو بعيدٌ

قالَ الفَرّاءُ: "إذا رَأَيْتَ حُروفَ الاسْتِفْهامِ قَدْ وُصِلَتْ بـ (ما)، مِثْلَ قَوْلِه: أَيْنَما، ومَتى ما، وأَيُّ ما، وحَيْثُ ما، وكَيْفَ ما، و﴿أَيًّا مَّا تَدْعُواْ﴾ [الإسراء: 110]، كانَتْ جَزاءً ولَمْ تَكُنِ اسْتِفْهامًا"(3). فأَيْنَما اسْمُ شَرْطٍ دالٌّ عَلى الـمَكانِ، وجَوابُهُ: ﴿يَأْتِ بِكُمُ ٱللَّهُ جَمِيعًا﴾، والـمَعْنى أَنَّهُ في أَيِّ مَكانٍ كُنْتُم، لا بُدَّ أَنْ يَأْتِيَ اللّهُ تعالى بكُم، وتَجْتَمِعوا للجَزاءِ

(1) زاده، حاشيّة على البيضاويّ: 2/379.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 2/42-43.
(3) الفراء، معاني القرآن: 1/85.

يَوْمَ القِيامَةِ، فهُوَ وعْدٌ لأَهْلِ الطّاعَةِ بالثَّوابِ، ووَعيدٌ لأَهْلِ المَعْصِيةِ بالعِقابِ، ففي هَذِهِ العِبارَةِ، تَبْشيرٌ وإِنْذارٌ؛ تَبْشيرٌ لمَنِ اسْتَبَقوا الخَيْراتِ، وإِنْذارٌ لمَنْ كابَروا ولَجُّوا وعانَدوا في اتِّباعِ الحَقِّ[1]، وفائدةُ استعمالِ أداةِ الاستفهام في أسلوبِ الشَّرطِ بيانُ قدرةِ اللّه تعالى المحيطةِ على الإتيانِ بكلِّ أحدٍ مهما نأتْ به ديارُه، وتباعدتْ جهاتُه.

دلالَةُ المَجازِ في قَوْلِهِ تَعالى: ﴿يَأۡتِ بِكُمُ ٱللَّهُ﴾:

البَـعْـثُ مِـنَ الـقُـبـورِ، أَمْـرٌ حَتْمِيٌّ للعَوْدَةِ والنُّشورِ

الإتْيانُ بالشّيْءِ جَلْبُهُ، وهُوَ بمَعْنى البَعْثِ مَجازٌ، أَيْ: يَبْعَثُكُمْ من قُبورِكُم، فذَكَرَ الإتْيانَ بالنَّاسِ يَوْمَ القِيامَةِ، وأَرادَ البَعْثَ مِنَ القُبورِ والإِحْياءَ للحِسابِ والجَزاءِ[2]، وأفاد هذا التَّعبيرُ الكشفَ عمَّا يجولُ في نفوس بعضِ النَّاس من الحرص على المهربِ من ذلك اليوم الجَلَلِ.

والتَّعبيرُ بلفظِ الجلالةِ يوحي بالمهابةِ والعظمةِ، ممَّا يزيدُ من الشُّعورِ بأنَّ الفاعلَ هو اللّه تعالى، وهذا يزيدُ التَّأكيدَ الحتميَّ الذي لا مفرَّ من اعتقادِه والعملِ له.

بلاغةُ الفاصلةِ في قَوْلِهِ: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٞ﴾:

البَعْثُ والجَزاءُ في الـمَـصـيرِ، دَلائِلُ عَلى قُدْرَةِ القَديرِ

بيَّن سبحانه وتَعالى قُدْرَتَهُ بهَذِهِ الجُمْلَةِ المُؤَكَّدَةِ بـ (إنَّ)، وبكَوْنِها جُمْلَةً اسْميَّةً، ثُمَّ تَصْديرُها بلَفْظِ الجَلالَةِ الدّالِّ عَلى القُدْرَةِ الَّتي لَيْسَتْ فوْقَها قُدْرَةٌ، مَعَ دَلالَةِ حَرْفِ الاسْتِعْلاءِ (عَلى)، الدّالِّ عَلى التَّمَكُّنِ، وصيغَةِ العُمومِ والشُّمولِ في لَفْظِ (كُلّ) المُضافِ إلى نَكِرَةٍ، وكُلُّ هَذِهِ رَوافِدُ تُضْفي تَأْكيدًا وقُوَّةً للمَعْنى المُضَمَّنِ، وفائِدَةُ هَذا الخَبَرِ المُؤَكَّدِ التَّعْقيبُ بحَسَبِ ما يَقْتَضيهِ الحالُ؛ فهُوَ يُناسِبُ المَعانيَ السّابِقَةَ، فجاء تَذْييلًا لها.

ولَمّا سَبَقَ الأَمْرُ باسْتِباقِ الخَيْراتِ، والعُزوفِ عَنِ الجِدالِ،

(1) القنوجي، فتح البيان: 1/312، وأبو زهرة، زهرة التّفاسير: 1/457.
(2) ابن جزَيّ، التّسهيل لعلوم التّنزيل: 1/101.

والتَّفرُّغِ للعَمَلِ، ثُمَّ قالَ: ﴿أَيۡنَ مَا تَكُونُواْ يَأۡتِ بِكُمُ ٱللَّهُ جَمِيعًاۚ﴾، وفيهِ مَعْنى الإعادَةِ بَعْدَ المَوْتِ، وما يَتْبَعُهُ مِنَ الجَزاءِ والحِسابِ، ناسَبَ أَنْ يُذَيِّلَهُ بتَعْقيبٍ عَلى تِلْكَ المَعاني تَأْكيدًا عَلَيْها[1]، في قولِه: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٞ﴾.

السِّمةُ التَّعبيريّةُ والتّناسُبُ اللَّفْظِيُّ في السِّياقِ:

بِناءُ الآيَةِ عَلى ألفاظِ الإحاطةِ والشُّمولِ يَزيدُ مَعانِيَها قُوَّةً وتَأْكيدًا

طُبِعَتْ هَذِهِ الآيَةُ بطابَعِ القُوَّةِ والتَّأْكيد، فمِنَ التَّناسُبِ اللَّفْظِيِّ: غَلَبَةُ الأَلْفاظِ الدّالَّةِ عَلى العُمومِ والشُّمولِ: ﴿وَلِكُلّٖ﴾، ﴿أَيۡنَمَا تَكُونُواْ﴾، ﴿جَمِيعًاۚ﴾، ﴿عَلَىٰ كُلِّ﴾، ﴿شَيۡءٖ﴾ (نَكِرَةٌ)، ﴿ٱلۡخَيۡرَٰتِۚ﴾، شامِلَةً لكُلِّ عَمَلٍ صالِحٍ؛ فكُلُّ هَذِهِ الأَلْفاظِ دالَّةٌ عَلى الشُّمولِ والسَّعَةِ، وهَذا الشُّمولُ يُناسِبُ المَعانيَ المُؤَكَّدَةَ الَّتي جاءَتِ الآيَةُ لبَيانِها، ومِنَ التَّناسُبِ اسْتِعْمالُ الأَلْفاظِ الَّتي تَتَوافَقُ في الدَّلالَةِ العامَّةِ، فالأَلْفاظُ: (وِجْهَةٌ، مُوَلّيها، اسْتَبِقوا)، كُلُّها تَتَضَمَّنُ الاتِّجاهَ في المَكانِ، والسَّيْرَ ضِمْنَ حَيِّزٍ، وكذَلِكَ ناسَبَهُ اسْتِعْمالُ اسْمِ الشَّرْطِ الدّالِّ عَلى المَكانِ ﴿أَيۡنَمَا تَكُونُواْ﴾، ومِنَ الألفاظِ المُكَرَّرَةِ (وَلِكُلّٖ، عَلَىٰ كُلِّ)، وهَذا التَّكْرارُ يَتَناسَبُ مَعَ سِياقِ الآيَةِ وغَرَضِها في الدَّلالَةِ عَلى الشُّمولِ والإِطْلاقِ، ويَظْهَرُ هَذا التّناسُبُ أَكْثَرَ عِنْدَ مُلاحَظَةِ أَنَّهُ اسْتَعْمَلَ ﴿جَمِيعًاۚ﴾ أَيْضًا.

وهَذِهِ الآيَةُ فيها ثَلاثَةُ أَفْعالٍ فقَطْ، فقَدْ بُنِيَتْ عَلى الأَسْماءِ؛ وهَذا يَزيدُ مَعانِيَها قُوَّةً وتَأْكيدًا، فابْتَدَأَتْ بجُمْلَةٍ اسْمِيَّةٍ تَدُلُّ عَلى العُمُومِ، وانْتَهَتْ بجُمْلَةٍ اسْمِيَّةٍ مُؤَكَّدَةٍ تَدُلّ عَلى القُدْرَةِ المُطْلَقَةِ.

(1) القنوجي، فتح البيان: 1/312، وابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 2/44.

﴿وَمِنۡ حَيۡثُ خَرَجۡتَ فَوَلِّ وَجۡهَكَ شَطۡرَ ٱلۡمَسۡجِدِ ٱلۡحَرَامِۖ وَإِنَّهُۥ لَلۡحَقُّ مِن رَّبِّكَۗ وَمَا ٱللَّهُ بِغَٰفِلٍ عَمَّا تَعۡمَلُونَ ١٤٩﴾ [البقرة: 149]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِمَا قَبْلَها:

عَوْدٌ إلى موضوع تَحْويلِ القِبْلَةِ، لِنَسْخ ما مَضى وتَرْسيخِ ما يَأْتي

مضى في الآياتِ السّابقةِ الاهتمامُ بشأنِ القِبلةِ، وتَعظيمِها، وبَيّنَ تَمَسُّكَ كلِّ قوم بِقِبْلَتِهم، وأَمَرَ سبحانه المُسلِمينَ بِالمُبادَرَةِ إلى فِعْلِ الخَيراتِ والانصرافِ عنِ الجدالِ، ثُمَّ رَجَعَ إلى موضوع القِبْلَةِ، لِيُبَيِّنَ اتِّجاهَ المُسلِمينَ في صَلاتِهِم، وتَمَيُّزَهم عَنِ الأقْوامِ الآخَرينَ، فجاءَ الأمْرُ للنَّبِيِّ ﷺ بِنَسْخِ القِبْلَةِ السّابِقَةِ وتَوجيهِهِ شطرَ المَسْجِدِ الحرام.

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

الإخْراجُ مِنَ الدِّيارِ مِنْ أكْبَرِ البَلاءِ في كُلِّ العُصورِ

1) ﴿خَرَجۡتَ﴾: مِنَ الجذْرِ (خرج)، والخَرْجُ والخُرُوجُ: النَّفاذُ عَنِ الشَّيْءِ، النّفاذُ مِنَ الحَيِّزِ أو الأَثْناءِ، بِتَجَمّعٍ: كالوَرَم مِنَ الجِسْمِ والسَّحابِ من جَوْفِ الأُفُقِ(1)، ومن ذلِكَ الخُروجُ بِمَعْناهُ المَشْهورِ: ﴿خَرَجُواْ مِن دِيَٰرِهِمۡ﴾ [البقرة: 243]، بَرَزَ مِنْ مَقَرِّهِ ودارِهِ، وسَواءٌ كانَ مَقَرُّهُ دارًا، أو بَلَدًا، أَوْ ثَوْبًا(2)، وَفُلَانٌ خِرِّيجُ فُلَانٍ، إِذَا كَانَ يَتَعَلَّمُ مِنْهُ، كَأَنَّهُ هُوَ الَّذِي أَخْرَجَهُ مِنْ حَدِّ الْجَهْلِ، وَالْخَرُوجُ: النَّاقَةُ تَخْرُجُ مِنَ الْإِبِلِ، تَبْرُكُ نَاحِيَةً(3).

فعل الأمر (وَلِّ) أمرٌ بالتوجّه إلى القبلة

2) ﴿فَوَلِّ﴾: مِنَ الجذْرِ (ولي)، والأَصْلُ فيه: الوَلِيَّةُ: وهي البَرْذَعَةُ؛ التي تُوضَعُ على ظَهْرِ البَعيرِ، كالسَّرْجِ للفَرَسِ، وفيهِ مَعْنى المُتابَعَةِ، ومِنْهُ أُخِذَ التَّوَجُّهُ والانْصِرافُ، ومِن الأَصْلِ دَلَّ على الاتّجاهِ، والتّوجُّهُ إلى الشّيْءِ: التِفاتٌ وانْصِرافٌ إلَيْهِ، ووَلَّيْتُ وجْهي كَذا: أَقْبَلْتُ بِهِ عَلَيْهِ.

---

(1) ابن فارس، مقاييس اللّغة، جبل، المعجم الاشتقاقي المؤصل: (خرج).
(2) الراغب، المفردات: (خرج).
(3) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (خرج).

والمعنى في الآيةِ: التَّوَجُّه والإقبالِ والانْصِرافِ.

3) ﴿وَجْهَكَ﴾: مِنَ الجذْرِ (وجه)، ووجْهُ البَيْتِ: الحَدُّ الَّذي يَكُونُ فيه بَابُهُ، ووَجْه الإنْسانِ وغَيْرِه: مَعْروفٌ[1]، وأصْلُ المَعْنى ما يَدُلُّ عَلَى مُقَابَلَةٍ لِشَيْءٍ، والْوَجْهُ مُسْتَقْبِلُ لِكُلِّ شَيْءٍ[2]، ومُقْتَبَلُ مَلامِحِ الشّيْءِ ومُقَدَّمُهُ المَكْشوفُ الّذي يُعْرَفُ بِهِ، وتُعْرَفُ حَقيقَتُهُ[3].

مَنْ حَسُنَ وَجْهُهُ، وسَمَا خُلُقُهُ، أَلِفَ وأُلِفَ

وفي الآيَةِ: المُرادُ الوَجْهُ المَعْروفُ، وكَذا في الآيَةِ اللّاحِقَةِ:

[البقرة: 150].

4) ﴿شَطْرَ﴾: مِنَ الجذْرِ (شطر)، وشَطْرُ الشّيْءِ: نِصْفُهُ ووَسَطُهُ[4]، وأَصْلُ المادّةِ يَدُلُّ عَلَى نِصْفِ الشَّيْءِ[5]، وانْقِسامِ الشّيْءِ إلى نِصْفَيْنِ بِحَسَبِ الجِهَةِ، أي الأمامِ والخَلْفِ، والأعْلى والأسْفَلِ، ومِنِ اعْتِبارِ أنّ الانْقِسامَ إلى جِهاتٍ أُخِذَ: الشَّطْرُ: الجِهَةُ، ناحِيَةُ الشَّيْءِ.

لا صَلاةَ إلّا بِالتَّوَجُّهِ شَطْرَ المَسْجِدِ الحَرامِ

والمعنى في الآية: نَحْوُ البيتِ الحرامِ وقَصْدُهُ وجِهَتُهُ[6].

5) ﴿ٱلْمَسْجِدِ﴾: مِنَ الجذْرِ (سجد)، نَخْلَةٌ ساجِدَةٌ: أمالَهَا حَمْلُها[7]، وأَصْلُ المادّةِ يَدُلُّ عَلَى تَطامُنٍ وَذُلٍّ[8]، وعلى انْخِفاضِ أعْلى الشَّيْءِ القائِمِ أي المُنْتَصِبِ مُنْثَنِيًا إلى أسْفَلَ، كالنَّخْلَةِ يَحْنيها ثِقَلُ حَمْلِها[9]، والمَسْجِدُ: المُصَلّى، وكلّ مَوْضِعٍ يُتَعَبَّدُ فيه، ومَكانُ أداءِ الصّلاةِ الّتي أكْثَرُها سُجودٌ، قال تعالى:

المَسْجِدُ الحَرامُ آمِنٌ إلى يَوْمِ القِيامَةِ

(1) ابن منظور، لسان العرب: (وجه).
(2) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (وجه).
(3) جبل، المعجم الاشتقاقي المؤصل: (وجه).
(4) الراغب، المفردات: (شطر).
(5) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (شطر).
(6) جبل، المعجم الاشتقاقي المؤصل: (شطر).
(7) ابن منظور، لسان العرب: (سجد).
(8) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (سجد).
(9) جبل، المعجم الاشتقاقيّ المؤصّل: (سجد).

﴿فَوَلِّ وَجۡهَكَ شَطۡرَ ٱلۡمَسۡجِدِ ٱلۡحَرَامِۚ﴾ [البقرة: 144][1]، وفي الآية: المَسْجِدُ الحَرامُ في مكّةَ المشرّفةِ قِبْلَةِ المُسلمينَ.

المسجد الحرام أوّل بيت وضع للنّاس

6) ﴿ٱلۡحَرَامِۚ﴾: مِنَ الجذْرِ (حرم)، وهُوَ حَيِّزٌ مَمْنوعٌ تابعٌ لِشَيْءٍ، تُمْنَعُ فيهِ أُمورٌ وتَصرُّفاتٌ مُعيَّنَةٌ، كَما يُمْنَعُ الصَّيْدُ وقَطْعُ الشَّجرِ في حَرَمِ مكّةَ المكرّمَةِ والمَدينَةِ المُنَوَّرَةِ[2]، وفي سِياقِ الآيَةِ: بِمَعنى المُحَرّمِ، وأصْلُه مِنَ المَنْعِ، وسُمِّيَتْ تِلكَ البُقْعَةُ حَرامًا لِما مُنِعَ فيها من أشْياءَ لَم تُمْنَع في غَيْرِها[3].

الحَقُّ الصّدُوق، نَقيضُ البَاطِلِ الزّهُوق

7) ﴿لَلۡحَقُّ﴾: مِنَ الجذْرِ (حقق)، والحُقُّ مِنَ الوَرِكِ: مَغْرِزُ رأسِ الفَخِذِ وما أَشْبَهَها[4]، وهو أصْلٌ يَدُلُّ عَلَى إحْكامِ الشَّيْءِ وصِحَّتِه، فالحَقُّ نَقيضُ الباطِلِ[5]، وهو تَمَكُّنُ الشّيءِ في عُمْقِ مَقَرِّهِ، أو وسَطِهِ، كَما يَتَمَكَّنُ رَأْسُ الوَرِكِ في حُقِّهِ[6]، ومن ذَلِكَ: الحَقّ: نَقيضُ الباطِلِ، والشّيءُ الثّابتُ الرّاسِخُ المُتَمَكِّنُ بِشَريعَةٍ صَحيحَةٍ، أَوْ عُرْفٍ عامٍّ مُسَلَّمٍ، وحَقَّ الشّيْءُ: ثَبَتَ، ووَجَبَ[7].

الغافِلُ عَنْ حَقائِقِ الأمـورِ، تُصيبُهُ مَغَبَّةُ غَفْلَتِهِ ولَو بَعْدَ حينٍ

8) ﴿بِغَٰفِلٍ﴾: مِنَ الجذْرِ (غفل)، والغُفْلُ: أرضٌ سَبْسَبٌ مَيْتَةٌ لا عَلامَةَ فيها، والأَغْفالُ: المَواتُ[8]، وهو أَصْلٌ يَدُلُّ على الخُلُوِّ ممّا يَلْفِتُ ويُنَبِّهُ، كالأَرْضِ السَبْسَبِ، ومِنْهُ: غَفَلَ عَنِ الشّيْءِ، وأَغْفَلَهُ: تَرَكَهُ وسَها عَنْهُ، لَمْ يَلْتَفِتْ أَوْ يَتَنَبَّهْ إليْهِ[9].

(1) جبل، المعجم الاشتقاقي المؤصل: (سجد).
(2) جبل، المعجم الاشتقاقي المؤصل: (حرم).
(3) الواحدي، التّفسير البسيط: 3/390.
(4) ابن منظور، لسان العرب: (حقق).
(5) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (حقق).
(6) محمد حسن جبل، المعجم الاشتقاقي المؤصل: (حقق).
(7) المرجع السّابق: (حقق).
(8) ابن منظور، لسان العرب: (غفل).
(9) جبل، المعجم الاشتقاقي المؤصل: (غفل).

والمعنى في سياق الآية: نَفْيُ هَذِهِ الصِّفَةِ عَنِ اللّه جَلّ وعلا؛ لِأَنّه العَليمُ الخَبيرُ بِكُلِّ شَيْءٍ، لا يَغْفُلُ ولا يَسْهو.

العَمَلُ جُهْدٌ مادِّيٌّ، يُؤَدّي إلى إِحْداثِ أَثَرٍ في الواقِعِ

9) ﴿تَعۡمَلُونَ﴾: مِنَ الجذْرِ (عمل)، وهو أَصْلٌ عامٌّ في كُلِّ فِعْلٍ يُفْعَلُ[1]، وكلّ جُهْدٍ مادّيّ، يؤدّي إلى إِحْداثِ شَيْءٍ[2]، وهُوَ صالِحٌ لِلتّعْبيرِ بِهِ عَنْ أيّ نَشاطٍ يَسْتَوْفي ما ذَكَرْناهُ[3].

المَعْنَى الإِجْمَالِيُّ:

تَوْجيهُ النُّفوسِ لِعِمارَةِ المَسْجِدِ الحَرامِ، والحِفاظِ عَلى قُدْسِيَّتِهِ

يُخاطبُ اللّه تَعالى النّبيَّ ﷺ فارضًا عَليهِ التَّوجُّهَ إلى المَسْجِدِ الحَرام، قائِلًا لَهُ: من أيِّ مَكانٍ خَرَجْتَ من بَلَدِكَ لِلسَّفَرِ، وأَرَدْتَ الصَّلاةَ، فعَلَيْكَ أنْ تَتَوجّه إلى جِهَةِ المَسْجِدِ الحَرام، وإنّ هَذا الفَرْضَ، هُوَ الحَقُّ الثّابتُ، المُوحَى به إليك من ربِّك، والّذي فرَضَ هَذا هُوَ رَبُّكَ الّذي يُنْعِمُ عَلَيْكُمْ بتَعاليمِ الدّينِ وسائِرِ النِّعَمِ، ولا تَتَهاوَنوا في أَمْرِ القِبْلَةِ، فإنَّ اللّه لا يَغْفُلُ عَمّا تَعْمَلونَ، فلا تَكونوا كما فعَلَ أَهْلُ الكِتابِ، فإنّي سَأَبْعَثُكُمْ لِلحِسابِ والجَزاءِ، وقَدْ جَعَلَ اللّهُ تَعالى المَسْجِدَ الحَرامَ قِبْلَةً لِلمُوَحِّدينَ؛ لِيوَجِّهَ النُّفُوسَ إِلَيْه، فَيَكونَ ذَلكَ مُقَدِّمَةً لِتَطْهيرِهِ وإِتْمامِ النِّعْمَةِ بفتحه والاسْتيلاءِ عَلَيْه، والسَّيْرِ فيه عَلَى مِلَّةِ إِبْراهيمَ، مِنَ التَّوْحيدِ والعِبادَةِ الصَّحيحَةِ لِلّه تَعالَى وحْدَهُ، ويُؤَيِّدُ ذلك قَوْلُهُ تَعالَى بَعْدَ ذِكْرِ فتْحِ مَكَّةَ في سُورَةِ الفَتْحِ: ﴿وَيُتِمَّ نِعۡمَتَهُۥ عَلَيۡكَ وَيَهۡدِيَكَ صِرَٰطٗا مُّسۡتَقِيمٗا ٢﴾ [الفتح: 2] فكانَ في الآيَةِ بِشارَةٌ بِفَتْحِ مَكَّةَ[4].

الإِيضَاحُ اللُّغَوِيُّ وَالبَلَاغِيُّ:

فائِدةُ عطفِ الحكمِ على نفسِه:

شُمولُ حكمِ استقبالِ القبلةِ لكلِّ الأحوالِ ومِن جميعِ الجهاتِ

عُطِفَ قَوْلُهُ: ﴿وَمِنۡ حَيۡثُ خَرَجۡتَ فَوَلِّ وَجۡهَكَ شَطۡرَ ٱلۡمَسۡجِدِ ٱلۡحَرَامِۖ﴾، عَلى قَوْلِه: ﴿فَوَلِّ وَجۡهَكَ شَطۡرَ ٱلۡمَسۡجِدِ ٱلۡحَرَامِۚ﴾ [البقرة: 144]؛

(1) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (عمل).
(2) جبل، المعجم الاشتقاقي المؤصل: (عمل).
(3) جبل، المعجم الاشتقاقي المؤصل: (عمل).
(4) محمد رشيد رضا، تفسير القرآن الحكيم: 2/21-22.

حَيْثُ كَرّر ذكرَ الحُكْم، فعَطَفَ حكمَ استقبالِ القبلةِ على نفسِه؛ للإعْلام بأنَّ اسْتِقْبالَ الكَعْبَةِ في الصّلاةِ المَفْروضَة، لا تَهاوُنَ في القِيامِ بِه، ولَوْ في حالَةِ العُذْرِ كالسَّفرِ؛ لِأَنّ السَّفَرَ مَظِنَّةُ المَشَقّةِ، في الاهْتِداءِ لِجِهَةِ الكَعْبَةِ، فرُبّما يَتَوَهَّمُ مُتَوهِّمٌ سُقوطَ الاسْتِقبالِ عَنْهُ[1]، أوِ التَّهاوُن فيه.

القِبْلَةُ واحِدَةٌ في الحَضَرِ والسَّفَرِ

ودلَّ الحذفُ في قَوْلِه تعالَى: ﴿وَمِنۡ حَيۡثُ خَرَجۡتَ﴾ على شُمولِ حكمِ استقبالِ القِبلةِ من كلِّ جهةٍ ومكان، أيْ: ومن أيِّ بلدٍ خَرَجْتَ للسَّفَرِ، فحَذَفَ السَّفَرَ، والدّليلُ عَليه الخُروجُ[2].

فائدةُ التّأكيدِ بمؤكِّداتٍ عدَّة:

دفعُ أوهامِ النَّسخِ عن حكمِ القبلةِ

أُكِّدَ الخبرُ في قولِه تعالى: ﴿وَإِنَّهُۥ لَلۡحَقُّ مِن رَّبِّكَۗ﴾ بإنَّ واللّام، والجُمْلةِ الاسْميّة؛ لِبَيانِ الاهتِمامِ بأَمْرِ القِبْلَة، فهُوَ تَكْرارٌ وتَأكيدٌ لِقولِه في الآيةِ السّابقةِ: ﴿ٱلۡحَقُّ مِن رَّبِّكَ﴾ [البقرة: 147][3]، وجاء الخبرُ هنا مُؤكَّدًا لدفعِ أوهامِ النَّسخِ، فحكمُ استقبالِ القبلةِ محكمٌ غيرُ قابلٍ للنَّسخِ[4]، ولبيانِ أنَّ هذا الحكمَ مثارُ تحريكِ الأوهامِ، أرادتِ الآيةُ بيانَ ثباتِ الحكمِ، وتأكيدِ أمرِه لدفعِ كلِّ وهمٍ.

مَرْجِعُ الضَّميرِ في قولِه: ﴿وَإِنَّهُۥ لَلۡحَقُّ مِن رَّبِّكَۗ﴾:

عودةُ الضَّميرِ على مضمونِ الكلامِ ومعناه

يعودُ الضَّميرُ في قولِه: ﴿وَإِنَّهُۥ لَلۡحَقُّ مِن رَّبِّكَۗ﴾ إلى مَضْمُونِ الجُمْلَةِ، الّتي تَناوَلَتْ تَحْويلَ القِبْلَة، فهُوَ راجِعٌ إلى ما يُؤخذ من المَقام، وهُوَ التَّوجُّهُ المَدْلولُ عَلَيْهِ بقَوْلِه: ﴿فَوَلِّ وَجۡهَكَ﴾، فالضَّميرُ هُنا كالضَّميرِ في قَوْلِه: ﴿ٱلَّذِينَ ءَاتَيۡنَٰهُمُ ٱلۡكِتَٰبَ يَعۡرِفُونَهُۥ كَمَا يَعۡرِفُونَ أَبۡنَآءَهُمۡۖ﴾ [البقرة: 146][5]، ويَجوزُ أن يَعودَ على شَطْرِ المَسجِدِ[6].

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 2/44- 45.
(2) النّسفي، مدارك التنزيل: 1/142.
(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 2/45، وأبو زهرة، زهرة التّفاسير: 1/459.
(4) الماوردي، النكت والعيون: 1/207.
(5) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 2/46، وأبو زهرة، زهرة التّفاسير: 1/459.
(6) النيسابوري، التّفسير البسيط: 3/406.

التَّعبيرُ بِلَفْظِ الرُّبوبِيَّةِ للإيماءِ بأنَّ هذا الحقَّ اقتضته تربيةُ الحقِّ:

جاءَ التَّعبيرُ بلفظِ الرُّبوبيّةِ، في قولِه: ﴿مِن رَّبِّكَۖ﴾، ولَم يَقُلْ (مِنَ اللّهِ)، لِلإشارَةِ إلى أنَّ هذا الحَقّ اقْتَضَتْه تَرْبِيَتُه لك، وقِيامُهُ على شُؤونِك، وأنَّه سارٍ عَلى حِكْمَتِهِ، ولأنَّه رأى تَقَلُّبَ وجْهِكَ في السّماءِ[1].

فائِدَةُ النَّفْيِ فِي قَوْلِهِ: ﴿وَمَا ٱللَّهُ بِغَٰفِلٍ﴾:

لا يَقَعُ فِعْلٌ في الوُجودِ عَلى غَيْرِ عِلْمٍ مِنَ اللهِ سُبْحانَهُ

النّفْيُ المُؤَكَّدُ فائِدَتُهُ الإثباتُ المُؤَكَّدُ، فنَفْيُ الغَفْلَةِ بِطَريقِ التّأكيدِ، يُثْبِتُ نَقيضَها، وهُوَ العِلْمُ والمَعْرِفَةُ، والتَّأكيدُ في النَّفْيِ يَنْعَكِسُ عَلى نَقيضِهِ، وهُوَ الإثْباتُ، فنَفَى الغفْلَةَ عن نَفْسِه؛ ليُثْبتَ العِلْمَ الكامِلَ، بِتَأكيدِ نَفْيِ أنْ يَقَعَ فِعْلٌ في الوُجودِ على غَيْرِ عِلْم منْهُ، باسْتِغراقِ النّفْيِ، وبِذِكْرِ لَفْظِ الجَلالَةِ الّذي يَتَّصِفُ بكلّ كَمالٍ، ويَسْتَحيلُ عَلَيْهِ أيُّ نَقْصٍ، وبالباءِ الدّالّةِ عَلى اسْتِغراقِ النَّفْيِ[2].

الفَرْقُ بَيْنَ التَّعبيرِ عَنِ المَعْنى بِالنَّفْيِ، والتَّعْبيرِ عَنْهُ بالإثْباتِ:

دفعُ الأوهامِ يُناسبه النَّفيُ

آثرَ النَّظمُ التَّعبيرَ عن إثباتِ العلمِ بقوله تعالى: ﴿وَمَا ٱللَّهُ بِغَٰفِلٍ عَمَّا تَعۡمَلُونَ ١٤٩﴾، دون التَّعبير المباشر كَقولِهِ: ﴿وَٱللَّهُ بِكُلِّ شَيۡءٍ عَلِيمٞ ٢٣١﴾ [البقرة: 282]، فما الفَرْقُ بينَ التَّعبيرين؟

والجوابُ: إنَّ التّعْبيرَ عَنِ المَعْنى، يَكونُ بِطَريقَتينِ: الإثباتِ الإيجابِيِّ، والإثباتِ السَّلْبِيّ، فالأوّلُ وهُوَ التَّعبيرُ بطَريقَةِ الإثباتِ، هُوَ إثْباتٌ إيجابيٌّ، وقَد ورَدتْ هَذِهِ الصّيغَةُ ﴿بِكُلِّ شَيۡءٍ عَلِيمٞ﴾، ستَّ عَشْرَةَ مَرَّةً، كُلُّها في سِياقِ إثْباتِ العِلْمِ، لِأنّ المَقامَ يَحْتاجُ إلى إثباتِ العِلْمِ، لا نَفْيِ الجَهْلِ والغَفْلَة.

أمّا الثّاني وهُوَ التَّعْبيرُ عَنِ المَعْنى بِطَريقَةِ النَّفْيِ فهُوَ الإثْباتُ السَّلْبِيُّ، وقَدْ ورَدَتْ عِبارَةُ: ﴿وَمَا ٱللَّهُ بِغَٰفِلٍ عَمَّا تَعۡمَلُونَ﴾ ستَّ مَرّاتٍ، وكُلُّها في سِياقِ التَنبيهِ والوَعيد؛ فتَأتي هَذهِ العِبارَةُ في مَقامِ

---

(1) أبو زهرة، زهرة التّفاسير: 1/459.

(2) أبو زهرة، زهرة التّفاسير: 1/459.

الوَعيدِ والتَّنبيهِ والجِدالِ، وهَذهِ المَواضِعُ تَحتاجُ إلى زَجْرٍ، فالنَّفْيُ في مَقامِ التَّخْويفِ أبْلَغُ، وبَيانُهُ: أنّ منْ يقومُ بالفعلِ المَنهيِّ عنْهُ، قد يظُنُّ أنّ فِعلَهُ هذا قد يَغيبُ ويَخفى عَنِ الملاحَظةِ، فتَأتي هَذهِ العِبارَةُ لِتَدفعَ ذلِكَ الظَّنِّ، وهذا التَعبيرُ يُناسِبُ مَقامَ الفعلِ الآثمِ أوِ السّيّءِ، وهو أنْسَبُ بالأسْلوبِ الدّالِّ عَلى الرَّدعِ والزَّجْرِ؛ لِذلِكَ اسْتُعمِلَ هُنا لَفْظُ الجَلالةِ دونَ لَفْظِ (رَبّ)، ليُناسِبَ مَقامَ الرَّدْعِ والتّنبيهِ.

بلاغَةُ التَّنبيهِ في تَعْميمِ الخِطابِ للمُؤْمِنينَ:

صَراحَةُ الخِطابِ دُونَ كِنايَةٍ عَنهُ، أوقعُ في التَّنبيهِ

والخِطابُ مُوَجَّهٌ إلى المُؤمنينَ عامَّةً، ولَيس مُوَجّهًا إلى النّبيّ ﷺ، بدَليلِ أنّ الخِطابَ كانَ باللّفظ الدّالّ على الجَمْع: ﴿عَمَّا تَعْمَلُونَ ١٤٩﴾[1]، فجاءَ خِطابًا لِلأُمّةِ صَراحَةً، ولَيْسَ عن طَريقِ الكِنايَةِ، كما مَضى في قوله: ﴿فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمُمْتَرِينَ ١٤٧﴾، لِيَكُون أبلغَ في التَّنبيهِ، كما أنّ التّنبيهَ اكتَسَبَ بَلاغةً، لأنّهُ جاء بِطَريقَةِ الإثباتِ السّلْبِيّ، كما بَيّنّا آنِفًا.

(1) أبو زهرة، زهرة التّفاسير: 1/459.

﴿وَمِنۡ حَيۡثُ خَرَجۡتَ فَوَلِّ وَجۡهَكَ شَطۡرَ ٱلۡمَسۡجِدِ ٱلۡحَرَامِۚ وَحَيۡثُ مَا كُنتُمۡ فَوَلُّواْ وُجُوهَكُمۡ شَطۡرَهُۥ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَيۡكُمۡ حُجَّةٌ إِلَّا ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ مِنۡهُمۡ فَلَا تَخۡشَوۡهُمۡ وَٱخۡشَوۡنِي وَلِأُتِمَّ نِعۡمَتِي عَلَيۡكُمۡ وَلَعَلَّكُمۡ تَهۡتَدُونَ ١٥٠﴾ [البقرة: 150]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِمَا قَبْلَها:

عَطْفُ أَمْرِ الأُمَّةِ عَلى أَمْرِ النّبيّ ﷺ تَعميمٌ لِلحُكْمِ

لَمّا تقرَّر في الآيَةِ السّابِقَةِ أنَّ تَحْويلَ القِبْلَةِ فرْضٌ في حقِّ النّبيِّ ﷺ، وبَيّن أنَّهُ حَقٌّ ثابِتٌ، جاءَ الخِطابُ في هَذِهِ الآيَةِ مُتَضَمّنًا تَكرارَ الأَمْرِ للنّبيّ ﷺ، عاطِفًا عليْهِ الأمْرَ لأُمَّتِه، لِيَعُمَّ الحُكْمُ الجَميعَ، عَنْ طَريقِ النَّصّ.

شَرْحُ المُفْرَدَاتِ:

الحُجّةُ الدَّلالَةُ المُبَيِّنَةُ للمَحَجّةِ

1) ﴿حُجَّةٌ﴾: مِنَ الجذْرِ (حجج)، والحُجّةُ البُرْهانُ، وهي في الأصْلِ كأنّها طَرفٌ قويٌّ صُلبٌ للرّأي، يَحْفَظُه ويَدْعَمُهُ، والمُحاجَّةُ: المجادَلَةُ، مِن هَذا، فكلٌّ يَأتي بِحُجّتِه، قال تَعالى: ﴿أَلَمۡ تَرَ إِلَى ٱلَّذِي حَآجَّ إِبۡرَٰهِـۧمَ فِي رَبِّهِۦٓ﴾ [البقرة: 258]، ومِنْهُ الفعلُ (حاجّ) ومُضارِعُهُ، و(يَتَحاجُّونَ)، و(حُجّة) بالضَّمِّ[1]، وقد جَعَلَ ابنُ فارِسٍ والرّاغِبُ الأصلَ مِنَ القَصْدِ: أنَّ كُلَّ قَصْدٍ حَجٌّ، ويُمْكِنُ أنْ تكُونَ الحُجَّةُ مُشْتَقَّةً من هَذا؛ لِأَنَّها تُقْصَدُ، أَوْ بها يُقْصَدُ الحَقُّ المَطْلُوبُ[2]، "والحُجَّةُ: الدّلالَةُ المُبَيّنَةُ للمَحَجّةِ، أي: المَقْصَدِ المستَقيمِ الّذي يَقْتَضي صِحّةَ أحَدِ النَّقيضَيْنِ، قال تعالى: ﴿لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَيۡكُمۡ حُجَّةٌ إِلَّا ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ﴾، فجَعَلَ ما يَحْتَجّ بِهِ الّذين ظلموا، مُسْتَثْنًى مِنَ الحُجَّةِ وإنْ لَمْ يَكُنْ حُجَّةً[3].

(1) جبل، المعجم الاشتقاقي المؤصل: (حجج).
(2) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (حجج).
(3) الراغب، المفردات: (حجج).

أَمَرَ اللهُ المُؤمِنينَ ألّا يَظلِمَ بَعضُهُم بَعضًا

2) ﴿ظَلَمُواْ﴾: مِنَ الجذرِ (ظلم)، وهو أَصْلٌ يَدُلُّ عَلى خِلافِ الضِّياءِ والنُّورِ، ووَضْعِ الشَّيْءِ غَيْرَ مَوْضِعِه تَعَدِّيًا[1]، وحَجْب ما ينبغي أو ما يُسْتحقُّ، أي مَنْعِه، كمَنْعِ الضّوءِ في حالةِ الظُّلمَةِ، وكَمَنْعِ المَطرِ عَنِ الأَرْضِ "المَظْلومَة، والظّلامُ يَحجُبُ الرُّؤْيَةَ[2]، والظُّلْمُ: المَيْلُ عَنِ القَصْدِ، والعَرَبُ تَقُولُ: الزَمْ هَذا الصَّوْبَ، ولا تَظْلِمْ عَنْهُ، أَيْ لا تَجُرْ عَنْهُ، والظَّلَمَةُ: المانِعونَ أَهْلَ الحُقوقِ حُقُوقَهُمْ[3].

مَنْ خَشِيَ اللهَ اسْتَشْعَرَ عَظَمَتَهُ

3) ﴿فَلَا تَخۡشَوۡهُمۡ﴾: مِنَ الجذرِ (خشي)، وهو يَدُلُّ عَلَى خَوْفٍ وذُعْرٍ، فالخَشْيَةُ الخَوْفُ، والخَشْيَةُ فيها اسْتِشعارُ النَّفْسِ حِدّةً تَقَعُ لا مَهرَبَ مِنْها، إذا اسْتُوجِبَتْ، وفيها -مع ذلك- اسْتِيحاشٌ وجَفْوَةٌ وخُشُونَةٌ، قد يُعَبِّرُ عنها التوتُّرُ الحادُّ، قال تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ يُبَلِّغُونَ رِسَٰلَٰتِ ٱللَّهِ وَيَخۡشَوۡنَهُۥ وَلَا يَخۡشَوۡنَ أَحَدًا إِلَّا ٱللَّهَۗ﴾ [الأحزاب: 39]، فالخَشْيَةُ فيها اسْتِشعارُ شَيءٍ مع الخَوْفِ، أساسُهُ تِلكَ الخُشونَةُ والجَفافُ[4]، ولهذا فالخَشْيَةُ أَخَصُّ مِنَ الخَوْفِ، قال الرّاغِبُ: "الخَشْيَةُ: خَوْفٌ يَشوبُهُ تَعْظيمٌ، وأكثَرُ ما يَكونُ ذلك عَنْ عِلْمٍ بما يُخْشى مِنْه"[5].

كُلُّ ما في القُرآنِ مِنْ مُشْتَقّاتِ التّمامِ، هُوَ بِمَعْنَى اسْتيفاءِ الشّيْءِ كَمالَهُ

4) ﴿وَلِأُتِمَّ﴾: مِنَ الجذرِ (تمم)، وهو أَصْلٌ يدلُّ على الكَمالِ[6]، يُقالُ تَمَّ الشَّيْءُ، إذا كَمَلَ، وأَتْمَمْتُهُ أَنا، وذلِكَ باسْتيفاءِ جِرْمِ الشَّيءِ حَجْمَهُ، مُتَمَيّزًا عَنْ غَيْرِه، كالقَمَرِ لَيْلَةَ البَدْرِ، وكالتّامِّ الخَلْقِ مِنَ النّاسِ، والخَيْلِ، والنَّبْتِ، ولَيلُ التَّمام: أَطْولُ ما يَكونُ من ليالي الشِّتاءِ، قال تَعالى: ﴿وَأَتۡمَمۡنَٰهَا بِعَشۡرٖ فَتَمَّ مِيقَٰتُ رَبِّهِۦٓ أَرۡبَعِينَ لَيۡلَةٗۚ﴾ [الأعراف: 142]، أي بلَغها كامِلةً، وقال أيضًا: ﴿ثُمَّ أَتِمُّواْ ٱلصِّيَامَ إِلَى ٱلَّيۡلِۚ﴾ [البقرة: 187].

---

(1) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (ظلم).
(2) جبل، المعجم الاشتقاقي المؤصل: (ظلم).
(3) ابن منظور، لسان العرب: (ظلم).
(4) جبل، المعجم الاشتقاقي المؤصل: (خشي).
(5) الراغب، المفردات: (خشي).
(6) ابن فارس، مقاييس اللّغة، جبل، المعجم الاشتقاقي المؤصل: (تمم).

وكلُّ ما في القُرآنِ مِن هذا التّركيب، هُو بِمَعْنى اسْتيفاءِ الشّيْءِ حَجْمه أوْ كَمالَهُ[1].

مَـنْ لَـبِـسَ النِّعْمَةَ بلا شُكْرٍ لِلخالِقِ، نَزَعَها اللهُ عَنْهُ أمامَ الخَلائِقِ

5) ﴿نِعۡمَتِي﴾: مِنَ الجِذْرِ (نعم)، وهو أَصْلٌ[2] يَدُلُّ عَلَى تَرَفُّهٍ وطِيبِ عَيْشٍ وصَلاحٍ، وعلى رِقَّةِ الشّيءِ أوْ لُيونَتِهِ وخُلُوِّهِ مِنَ الغِلَظِ والخُشونَةِ، ومِنْهُ النِّعْمَةُ، والنَّعْماءُ والنّعيمُ، والنُّعْمى: الخَفْضُ والدَّعَةُ وغَضارَةُ العَيْشِ، والمالُ (لِينٌ ويُسْرٌ)، وكلُّ ما يُنْعِمُ اللّهُ تعالَى عَلَى عَبْدِهِ بِهِ من مالٍ وعَيْشٍ، يُقالُ: لِلّهِ تَعالَى عَلَيْهِ نِعْمَةٌ، والنِّعْمَةُ: المِنَّةُ، وكَذا النَّعْماءُ، والنَّعْمَةُ: التَّنَعُّمُ وطِيبُ العَيْشِ، قالَ اللّهُ تَعالَى: ﴿وَنَعۡمَةٖ كَانُواْ فِيهَا فَٰكِهِينَ ٢٧﴾ [الدّخان: 27].

الهُدى الرَّشادُ والدَّلالَةُ، بَعيدًا عَنِ الضَّلالَةِ

6) ﴿تَهۡتَدُونَ﴾: مِنَ الجِذْرِ (هدى)، وهُو أَصْلٌ يدلّ على تَبَيُّنِ الوِجْهَةِ، أو تَبْيينِها بِالتَّقَدُّمِ أوِ الكَشْفِ، وعلى التَّقَدُّمِ لِلْإِرْشادِ؛ هَدَيْتُهُ الطَّرِيقَ هِدايَةً، أَيْ تَقَدَّمْتُهُ لِأُرْشِدَهُ[3]، كما تَتَبَيَّنُ الوِجْهَةُ مِن اتّجاهِ أوائِلِ الخَيْلِ والإبلِ[4]، والهُدى: الرَّشادُ والدَّلالَةُ، ضِدُّ الضّلالِ.

۞ المَعْنَى الإِجْمَاليُّ:

تَحويلُ القِبْلَةِ مِنْ تَمامِ نِعْمَةِ اللهِ على الأمَّةِ

يَتَكَرَّرُ الأَمْرُ في هَذِهِ الآيَةِ بِفَرْضِ الاتِّجاهِ إلى المَسْجِدِ الحَرام، ويَشْمَلُ هَذِهِ المَرّةَ الأمَّةَ جَميعًا، فيَكونُ الأَمْرُ شامِلًا لَهُم بِالنَّصِّ، فمن أيِّ مكانٍ خَرَجْتَ -أيُّها النَّبيّ- فتَوَجَّهْ إلى المَسْجِدِ الحرام، وحيثُما كُنْتم -أيُّها المُسلمون-، بأيِّ قُطْرٍ من أقْطارِ الأرْضِ، فوَلُّوا وُجُوهَكُم نَحْوَ المَسْجِدِ الحرام؛ وإنَّما أَمَرْتُكُم بالتَّوَجُّه إلى الكَعْبَةِ دونَ صخْرَةِ بيت المَقْدس، لِتَدْفَعُوا حُجَجَ النّاسِ؛ فإنَّ اليَهودَ رُبّما قالوا: المَنْعوتُ في التّوراةِ قِبْلَتُه الكعبةُ، وهَذا يَستقبلُ الصَّخْرَةَ، أو إنَّ محمّدًا يُخالِفُ

(1) جبل، المعجم الاشتقاقي المؤصل: (تمم).
(2) ابن فارس، مقاييس اللّغة، جبل، المعجم الاشتقاقي المؤصل: (نعم).
(3) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (هدى).
(4) جبل، المعجم الاشتقاقي المؤصل: (هدى).

دينَنا، ويَسْتَقْبِلُ قبلَتَنا! والمُشرِكونَ رُبّما قالوا: يَدّعي مِلَّةَ إبراهيمَ، ويُخالفُ قِبلَتَهُ، فأمَرْتُكم باسْتِقبالِ القبلة، دَفْعًا لحُجَجِ النّاس، إلّا المعاندينَ منْهُم، فلا يَنْقَطِعُ شَغبُهُم، فإنّهُم يقولُونَ: ما تَحَوَّلَ إلى الكعبَةِ إلّا مَيْلًا إلى دِينِ قَوْمِهِ، وحُبّا لبلَدِه، أو بَدا لَهُ فرَجَعَ إلى قِبْلَةِ آبائِهِ، ويُوشِكُ أن يَرْجِعَ إلى دينِهم، فلا تَخافوهُمْ وخافوني بامْتِثالِ الأوامرِ، واجْتِنابِ النَّواهي؛ ولِيَكونَ ذَلِكَ التّحويلُ مِن تَمامِ نِعْمَتي عليكم، باخْتِيارِ أكْمَلِ الشّرائعِ لَكُم، ولَعَلّكم تَهْتَدون إلى الحَقِّ والصَّوابِ[1].

الإيضَاحُ اللُّغَوِيُّ وَالبَلَاغِيُّ:

تكرارُ الأمرِ بتولية الوجهِ إلى القبلةِ:

تَكْرارُ لَفْظِ القِبْلَةِ لِزيادَةِ البَيانِ والتّأكيدِ

في قَوْلِهِ تعالى: ﴿وَمِنۡ حَيۡثُ خَرَجۡتَ فَوَلِّ وَجۡهَكَ شَطۡرَ ٱلۡمَسۡجِدِ ٱلۡحَرَامِۚ﴾، إطنابٌ؛ حيثُ كَرّر الأَمْرَ بتوَليةِ الوجهِ إلى شَطْرِ المَسجِدِ الحَرام، وفائِدَةُ هذا الإطنابِ التّأكيدُ عَلى أهَمّيّةِ القِبلة، وتَعظيمُ التّوَلّي إليها، وقَدْ تَكرّرتْ بلَفْظِها؛ لزيادَةِ البَيان والتّأكيد، ولإفادةِ أن لا حجةَ عليهم فيه؛ لقوله: ﴿لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَيۡكُمۡ حُجَّةٌ﴾[2].

بلاغةُ عَطْفِ خطابِ الأمَّة على خطابِ النَّبيِّ ﷺ:

أمرُ القبلةِ ذو شأنٍ عظيمٍ، وهو يعمُّ الأمَّةَ ونبيَّها

عُطِفَ قَوْلُهُ: ﴿وَحَيۡثُ مَا كُنتُمۡ فَوَلُّواْ وُجُوهَكُمۡ شَطۡرَهُۥ﴾ عَلى صَدْرِ الآيَة: ﴿وَمِنۡ حَيۡثُ خَرَجۡتَ﴾، والمَقْصَدُ التَّعْميمُ في هذا الحُكْم في السَّفرِ للمُسْلِمينَ، لِئَلّا يُتَوَهَّمَ تَخْصيصُه بالنَّبيّ ﷺ، وحَصَل من تَكْريرِ مُعْظَمِ الكَلِمات تَأكيدٌ لِلْحُكْم لِيَتَرتَّبَ عَلَيْه قَوْلُهُ: ﴿لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَيۡكُمۡ حُجَّةٌ﴾[3]، ولكي يكونَ موقفُ المؤمنين من أمرِ القبلةِ تابعًا لموقفِ نبيِّهم سواءً بسواء، وأنَّ الأمرَ لا يخصُّ النَّبيَّ ﷺ وحدَه، بل يخصُّ الأمَّةَ بأكملها.

---

(1) ابن عجيبة، البحر المديد: 1/181.

(2) الماوردي، النكت والعيون: 1/207.

(3) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 2/45.

أثرُ التّكْرارِ في تَجْلِيَةِ المَعْنى وتأكِيدِه:

التّكْرارُ في الكَلام البَليغِ لا يَأْتي حَشْوًا ولا تَزَيُّدًا، بل لَهُ غايَةٌ دَلاليّةٌ، وفي الآيَةِ هُنا أفادَ التّكرارُ التّأكيدَ، وذلِكَ أنّه إنّما كَرَّرَ لأنّ هذا مِن مواضِعِ التّوْكيدِ؛ لأجْلِ النّسخِ الّذي نُقلوا فيه من جِهَةٍ إلى جِهَةٍ للتَّقْريرِ[1]، فالتّكْرارُ يُؤَكّدُ النَّسْخَ، ويُقَرِّرُ الاتّجاهَ الجَديدَ؛ والنَّسْخُ من مَظانِّ الفِتْنَةِ والشُّبْهَةِ، فكان حَريًّا أن يُؤَكَّدَ أمرُها، ويُعادَ ذِكرُها مَرّةً بعدَ أخْرى[2]؛ لأنّ مَوْضوعَ القِبْلَةِ له شَأنٌ عَظيمٌ، فلذا اقْتَضى مَزيدًا مِنَ التّأكيدِ والاهتِمامِ، والتّكْرارُ من مُفيداتِ التّأكيدِ وبَيانِ الاهتِمامِ.

التَّـكـرار يـكـونُ لـبـنـاءِ مـعـانٍ عـدّة، وتأكيدها بألفاظٍ متطابقة

وثَمّةَ سَبَبٌ بيانيٌّ آخَرُ، فهو أرادَ بيانَ عِلّةِ التَّغييرِ، فبَعْدَ أن أنْجَزَ النَّسْخَ، والتَّكليفَ بالقِبْلَةِ الجَديدةِ، كَرّرَ النّصَّ لِيُبيِّنَ العِلّةَ من ذلك كُلِّه، وأُعيدَ لَفظُ الجُملَةِ السّالِفةِ، لِيُبْنى عليه التَّعليلُ، بِقولِه: ﴿لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَيۡكُمۡ حُجَّةٌ﴾[3].

الـــرَّدُّ عـلـى المنكِرينَ، بِحُجّةٍ دامِغةٍ وإفْصاحٍ مُبينٍ

تَكَرَّرَ الأمْرُ باسْتقبالِ النّبيّ ﷺ الكَعبةَ ثَلاثَ مرّاتٍ، وتَكَرّرَ الأمْرُ باسْتِقبالِ المُسلمينَ الكَعبةَ مَرّتينِ، وتَكرّرَ أنّه الحَقّ ثَلاثَ مَرّاتٍ، وتَكرّرَ تَعميمُ الجِهاتِ ثلاثَ مَرّاتٍ، والقَصدُ من ذلكَ كُلِّه الاهتِمامُ باستِقبالِ الكَعْبةِ، والتَّحذيرُ مِنَ التَّساهُلِ في ذلكَ؛ تَقْريرًا للحَقِّ في نُفوسِ المُسلمينَ، وزِيادَةً في الرَّدِّ على المنكِرينَ، وفيهِ إظهارُ أحَقّيّةِ الكَعبةِ بذلِكَ، لأنّ الّذي يَكونُ على الحَقّ، لا يَزيدُه إنكارُ المنكِرينَ إلّا تَصْميمًا، والتَّصْميمُ يَسْتَدعي إعادَةَ الكَلامِ الدّالِّ على ما صَمَّمَ عليه؛ لأنَّ الإعادَةَ تَدُلُّ على التّحقّقِ في معنى الكَلامِ[4].

ذكـــرُ فَـــوائـــدِ تَـحـويـلِ الـقِـبـلـةِ للتَّعليلِ والإقْناعِ

اتَّبعَتِ الآياتُ طَريقَةَ تَنويعِ الجُمَلِ والعِباراتِ، لِتخفيفِ كَثافَةِ

(1) الواحدي، التّفسير البسيط: 3/406.
(2) ابن عجيبة، البحر المديد: 1/181.
(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 2/45.
(4) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 2/45.

التَّكرارِ، وهذِهِ الجُمَلُ تَحْمِل مَعانيَ يَحْتاجُها النَّصُّ، فأفادَتْ زِيادَةَ البَيانِ، كما أفادَتْ دَفْعَ المَلَلِ.

وقَد ذُكِرَ في خلالِ ذَلِك من بَيان فوائِدِ هذا التّحويل، وما حَفّ بِهِ، ما يَدْفَعُ قَليلَ السّآمَةِ العارِضَةِ، لِسَماعِ التّكْرار، فذُكِرَ قَوْلُه: ﴿وَإِنَّهُۥ لَلۡحَقُّ مِن رَّبِّكَۗ وَمَا ٱللَّهُ بِغَٰفِلٍ عَمَّا تَعۡمَلُونَ ١٤٩﴾، وذُكِرَ قَوْلُه: ﴿لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَيۡكُمۡ حُجَّةٌ إِلَّا ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ مِنۡهُمۡ﴾[1].

التَّعليلُ في قوله: ﴿لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَيۡكُمۡ حُجَّةٌ﴾:

ارتباطُ الأحكامِ الشَّرعيَّة بالواقعِ الاتِّصاليِّ مع الآخر

يَتَكوّنُ تركيبُ ﴿لِئَلَّا﴾ من ثَلاث أدَواتٍ مُتَجاوِرَةٍ: لامُ كَيْ، وأنْ المَصدَرِيّةُ، ولا النّافِيَةُ، والمعنى الذي تُفيدُه التّعليل، فقولُه: ﴿لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَيۡكُمۡ حُجَّةٌ﴾، علّةٌ لقوله: ﴿فَوَلُّواْ﴾، أيْ: شَرَعتُ لكم ذلِكَ حَتّى لا يكون لَدى النّاسِ حُجَّةٌ عليكُم[2]، وفائدةُ التَّعليل تظهرُ في أنَّ اللّه سبحانه أرادَ بيانَ ارتباطِ الأحكامِ الشَّرعيّة بالواقعِ الاتّصاليِّ مع النَّاس في إقامةِ الحجج، ونصبِ البيِّنات.

الاسْتِغراقُ لِشُمولِ جَميعِ الحُججِ والشُّبَهِ

التّعريفُ في قولِه: ﴿لِلنَّاسِ﴾ لِلاسْتِغراقِ، ويَشْمَلُ مُشْرِكي مكَّة وأهلَ الكِتابِ وغيرَهُم، ومِن ثَمَّ يَشمَلُ جميعَ الحُجَجِ والشُّبَهِ.

سِرُّ إطلاقِ لفظِ الحجّةِ على الشبهةِ:

التَّهكُّمُ بمن يتقوّى بالأباطيلِ والأراجيفِ

الحُجّة لا تُطْلَق حَقيقَةً، إلّا على البُرهانِ والدّليلِ النّاهِض المُبَكّتِ للمُخالِفِ، وأمّا إطلاقُها عَلى الشُّبْهة فمَجازٌ، ومِنْهُ قَوْلُه تعالى: ﴿حُجَّتُهُمۡ دَاحِضَةٌ عِندَ رَبِّهِمۡ﴾ [الشّورى: 16][3]، وتَسْمِيَةُ هَذِهِ الكَلِمَةِ الشّنْعاءِ حُجّةً، مَعَ أنّها أفحَشُ الأباطيلِ، لأنّ أهلَ الكتاب ومن تابعهم كانوا يَسوقُونها مَساقَ الحجج، ويُوردونَها مَوقِعَها، فسُمِّيَتْ حُجَّةً مَجازًا؛ تَهكُّمًا بِهِم[4].

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 2/45.
(2) أبو القاسم النيسابوري، إيجاز البيان عن معاني القرآن: 1/128.
(3) النّسفي، مدارك التنزيل: 1/142، وابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 47-2/46.
(4) البروسوي، روح البيان: -1/254 255.

تردُّدُ الاستِثناءِ بينَ الاتِّصالِ والانْقِطاعِ:

الجـمـعُ بين المعنى التَّهكُميِّ في المتَّصلِ، وتأكيدِ محاجةِ الظَّالمين في المنقطعِ

الاسْتِثناءُ في قوله تعالى: ﴿لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَيْكُمْ حُجَّةٌ إِلَّا ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ مِنْهُمْ﴾ يحتملُ أن يكون متَّصلًا، وأن يكون منقطعًا[1].

فمعناه على الاتِّصال: أنّ الّذين ظَلَموا لَهُمْ حُجَّةٌ، ولَكِنّ الحُجَّة هُنا لَيْسَت عَلى الحَقيقَةِ، فأَطْلَقَ عَليها حُجَّةً، لِأَنّهُم يَسوقونَها مَساقَ البُرهانِ، أيْ: فاسْتِثناءُ الّذينَ ظَلموا يَقْتَضي أنّهُمْ يَأتونَ بِحُجَّةٍ، أيْ بِما يُشْبِهُ الحُجَّةَ، فحَرْفُ ﴿إِلَّا﴾ يَقْتَضي تَقْديرَ لَفْظِ حُجَّةٍ مُسْتَعمَلًا في مَعْناه المَجازيِّ[2].

وأمّا معناه على الانقطاع: فإنَّ (إلاّ) في الاسْتِثناءِ المُنْقَطِع لَها مَعْنَيان: أَحدُهُما: أنْ يَكونَ الّذي بَعْدَها مُسْتَأْنَفًا، فـ (إلّا) بِمَنْزِلَةِ (لَكِنْ)، والذي بَعْدَ (لَكِنْ) مُسْتَأْنَفٌ؛ كَقَوْلِه ﷻ: ﴿وَأَن تَجۡمَعُواْ بَيۡنَ ٱلۡأُخۡتَيۡنِ إِلَّا مَا قَدۡ سَلَفَۚ﴾ [النّساء: 23]، مَعْناهُ: لَكِنْ ما قَدْ سَلَفَ فأَنْتُم غَيرُ مُؤاخَذينَ بِهِ.

والآخر: أنْ يَكُونَ مُؤكّدًا لما قَبْلَهُ، وذلِكَ أنّ الرّجُل إذا قال: ارْتَحَلَ النّاسُ إلّا الأَثْقالَ، أكّدَ ارْتِحالَ النّاسِ بِقَوْلِه: (إلّا الأَثْقالَ)، فإنَّهُ إذا لَمْ يَبْقَ إلّا الأَثْقالُ، كانَ القَومُ كلُّهُم مُرْتَحلينَ، وكان تَأويلُهُ: ارْتَحَلَ النّاسُ كلُّهُم، فهذان المَعْنَيانِ تَحْتَمِلُهما الآية؛ لأنّ الظّالمين، وإن لَمْ يَكُنْ لَهُم حُجَّةٌ، فهُمْ يُمَوّهُون ويَحْتَجُّون بالباطِلِ، وأيضًا: فإنَّهُ إذا لم يَكُنْ لِأَحَدٍ عَلَيْهِمْ حُجَّةٌ إلّا مَنْ كانَ ظالِمًا، كان في هذا تَأكيدٌ لنَفْيِ الحُجّةِ[3]، فيَكونُ مَعناهُ: ولَكِنّ الّذينَ ظَلموا يُحاجّونَكُمْ بِالباطِلِ والشُّبْهَةِ، كَقَولِ النّابِغَةِ:

وَلا عَيْبَ فِيهِمْ غَيْرَ أَنَّ سُيُوفَهُمْ *** بِهِنَّ فُلُولٌ من قِراعِ الكَتائِبِ

أيْ: إنْ كان فيهم عَيبٌ فهذا، ولَيْس هذا بِعَيْبٍ، فإذًا لا عَيْبَ فيهم، وإن كانَ على المُؤمِنينَ حُجَّةٌ فلِلظّالِمِ، ولا حجّة لَهُ، فلَيْس إذًا عَليهِمْ حُجّةٌ[4].

---

(1) ابن جزَيّ، التّسهيل لعلوم التّنزيل: 1/101.

(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 2/47.

(3) الواحدي، التّفسير البسيط: 3/410- 411.

(4) أبو القاسم النيسابوري، إيجاز البيان عن معاني القرآن: 1/128، وكذلك حاشية الشّهاب على البيضاويّ: 2/257.

وقد ذكَرَ الأَخْفَشُ والفَرّاءُ وأبو عُبَيْدَةَ معمَرُ بنُ المثنَّى، أنّ (إلّا) تَأتي عاطِفَةً، بِمَنْزِلَةِ الواوِ في التَّشْريكِ بين اللّفْظِ والمعْنى، وعَليه اعْتَبروا ﴿إِلَّا﴾ في هَذِهِ الآيَةِ، وفي قوله تعالى: ﴿يَٰمُوسَىٰ لَا تَخَفْ إِنِّي لَا يَخَافُ لَدَيَّ ٱلْمُرْسَلُونَ ۝١٠ إِلَّا مَن ظَلَمَ ثُمَّ بَدَّلَ حُسْنًۢا بَعْدَ سُوٓءٍ فَإِنِّي غَفُورٌ رَّحِيمٌ ۝١١﴾ [النمل: 10-11]، وتَأوَّلَها الجُمهورُ عَلى الاسْتِثناءِ المُنْقَطِعِ، واسْتَشهَدوا بقَوْلِ الفَرَزْدَق:

ما بِالمَدِينَةِ دارٌ غَيْرُ واحِدَةٍ *** دارُ الخَليفَةِ إلّا دارُ مَرْوانا(1)

بلاغةُ التَّوسُّطِ بين الكمالين في قولِه: ﴿فَلَا تَخْشَوْهُمْ وَٱخْشَوْنِي﴾:

قولُه تعالى: ﴿فَلَا تَخْشَوْهُمْ وَٱخْشَوْنِي﴾ عطفٌ بين إنشاءٍ طلبيٍّ صورتُه النَّهي، وإنشاءٍ طلبيٍّ صورته الأمر، وهذا من التَّوسُّطِ بين الكمالين، أيْ: كمال الاتِّصالِ وكمالِ الانقطاع، فقَوْلُه: ﴿فَلَا تَخْشَوْهُمْ﴾، أي: فلا تَخافوا مَطاعِنَهُمْ في قِبْلَتِكُمْ؛ فإنَّهُمْ لا يَضُرُّونَكُمْ ﴿وَٱخْشَوْنِي﴾، فلا تُخالِفُوا أمْري(2).

التَّخليةُ مقدَّمةٌ على التَّحليةِ، فمن أراد خشيةَ الله، فعليه بنبذِ ما سواه

جمع النَّظمُ بين النَّهي ﴿فَلَا تَخْشَوْهُمْ﴾ والأمرِ ﴿وَٱخْشَوْنِي﴾ وقدَّمَ النَّهيَ على الأمر؛ لمقامِ التَّخلية قبل التّحلية، فلا تكتمل الخشيةُ من اللّه ما لم يتخلَّصِ القلبُ من خشيةِ غيره.

بلاغةُ قولِه تَعالى: ﴿وَلِأُتِمَّ نِعْمَتِي﴾:

وجْهُ النِّعْمَةِ في تَحْويلِ القِبْلَةِ

قولُه تعالى: ﴿وَلِأُتِمَّ نِعْمَتِي﴾ معطوفٌ على قَولِه: ﴿لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَيْكُمْ حُجَّةٌ﴾، وهو تَعْليلٌ ثانٍ لِقَولِه: ﴿وَحَيْثُ مَا كُنتُمْ فَوَلُّوا۟ وُجُوهَكُمْ شَطْرَهُۥ﴾، فالمعنى: أمَرْتُكُم بذَلِكَ لِأُتِمّ نِعْمَتي عَلَيْكُمْ باسْتِيفاءِ أسْبابِ ذلِك الإتْمامِ، ومِنْها أنْ تَكونَ قِبْلَتُكُم إلى أفْضَلِ بَيْتٍ بُنِيَ للّه تعالى(3).

ووَجهُ النّعمَةِ في ذَلك التّحويلِ؛ أنّهُ تَضمّنَ إجابةَ النّبيِّ ﷺ، إذْ

(1) الدّرّة، تفسير القرآن الكريم: 1/350.
(2) النّسفي، مدارك التنزيل: 1/143.
(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 2/47.

كانَ يُقلِّب وجهَهُ في السّماء، ولِما فيه من تشْريفِ البيتِ الحَرام، وإحْياءِ مِلّة إبْراهيمَ ﵇، وتَأليفِ العَرب، ولأنَّ ذلك إيذانٌ بفتح مكّة، وإزالَةِ الأوثانِ، وإقامَةِ دعائم الإسلام، وتِلك كُبْرى النِّعَمِ[1].

معنى الوَصْلِ في قَولِهِ تَعالى: ﴿وَلَعَلَّكُمۡ تَهۡتَدُونَ﴾:

الاهتداءُ مطلبٌ عـزيـزٌ وقـائـمٌ بـنـفـسـه في تحويلِ القبلةِ

العَطفُ هنا يُفيدُ أنّ رجاءَ الهدايةِ لكُم، هُوَ من غاياتِ تَحْويلِ القِبْلَة، فهِيَ عَطفٌ على قَوْلِه: ﴿وَلِأُتِمَّ﴾، أيْ: أمَرْتُكُم بذلِكَ رَجاءَ امْتِثالِكُم، فيَحصُلُ الاهتِداءُ مِنْكُم إلى الحَقِّ[2]، فالاهتداءُ مطلبٌ مستقلٌ قائمٌ بذاته من مطالب تحويل القبلةِ؛ فإنَّ التَّحوّلَ يحتاجُ إلى ثباتِ المؤمنين على ما هم عليه من الإيمانِ والاستجابةِ لكلِّ ما أمر به الشَّرعُ.

معنى الرَّجاءِ في قَولِهِ تعالَى: ﴿وَلَعَلَّكُمۡ تَهۡتَدُونَ﴾:

لا يُوصَف الله تـعـالى إلّا بما يَليق بِجَلالِهِ وكَمالِهِ

لا يَصِحُّ إجْراءُ مَعْنى بَعْضِ الألفاظِ على اللّه تَعالى، ومِنْها الألفاظُ الّتي تَدُلّ على التَّوَقُّعِ والرَّجاءِ والطَّمَع، فـ(لَعلّ) في قوله: ﴿وَلَعَلَّكُمۡ تَهۡتَدُونَ﴾، مَجازٌ في لازِمِ مَعْنى الرَّجاءِ، وهُوَ قُرْبُ ذلك وتَوَقُّعُه، ومَعْنى جَعْلِ ذلِك القُرْبِ عِلّةً، أنَّ اسْتِقبالَهُمُ الكعْبةَ مُؤذِنٌ بأنّهُم يَكُونُون مُهْتَدين في سائِرِ أمُورِهِم[3]، فالرّجاءُ مِنَ النّاسِ لا مِنَ اللّهِ، فتَعالى اللّهُ عَنْ ذَلِك عُلُوًّا كَبيرًا[4]، أوْ أنْ يُقال: إنَّ (لَعَلَّ، وعَسى) مِنَ اللّهِ واجِبَةٌ[5].

الإيجازُ البَليغُ لِعِلَلِ تَحْويلِ القِبْلَةِ:

الإيجازُ والبَيانُ، لِقَضِيَّةِ تَحْويلِ الـقِـبـلـةِ ذاتِ الأهَمّيّةِ الكُبرى

لقد أوْجَزَ القُرآنُ في آيَةٍ واحِدَةٍ، عِلَلَ تَحْويلِ القِبلَة، بِثلاثة اعْتِباراتٍ؛ ما يَتَعَلّق بعَلائِقِنا بالنّاسِ، وما يَخُصّ إنْعامَ اللّهِ وعَطاءَهُ المُغْدِقَ، وما يَرْتَبِطُ بالأمَّةِ مِنَ المؤمنينَ على اخْتِلافِ أنْواعِهِم، فكان تَحْويلُ القِبلَةِ، يَتَعلّقُ بِهذِهِ الاعْتِبارات، وذَكَرَتِ الآيَةُ عِلّةً لِكُلّ

(1) أبو زهرة، زهرة التّفاسير: 1/461.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 2/47.
(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 2/47- 48.
(4) أبو زهرة، زهرة التّفاسير: 1/461.
(5) القنوجي، فتح البيان: 1/314.

اعْتِبارٍ، وبالمُجْمَل تُبَيِّنُ الآيَةُ أنّ هناكَ ثَلاثَ غاياتٍ، وكُلّ واحِدَةٍ تَتَعَلّقُ بِجِهَةٍ: فقوله: ﴿لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَيْكُمْ حُجَّةٌ﴾ تَتَعَلّقُ بالنّاسِ، وقَوْلُه: ﴿وَلِأُتِمَّ نِعْمَتِي عَلَيْكُمْ﴾ تتعلّق باللّه، وقَوْلُه: ﴿وَلَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ﴾ تَتَعلق بالمُؤْمنينَ، وهذا غايَةُ الإيجازِ والبَيانِ، حَيْثُ أَوجَزَ في ثلاثِ عِباراتٍ الغاياتِ المُرادَةَ من قَضِيَّةٍ كَبيرَةٍ وخَطيرةٍ، وهي تحويلُ القِبْلَةِ.

❁ الفُرُوقُ المُعْجَمِيَّةُ:

الخَوف والخَشْيَة:

الخَشْيَةُ خَوْفٌ مَخْصُوصٌ، يَقْتَرِنُ دائمًا مع التَّعْظيمِ

الخَوْفُ يَتَعَلَّق بالمَكْرُوهِ وبتَرْكِ المَكْرُوه؛ تَقولُ: خِفْتُ زَيْدًا، كَما قالَ تَعالَى: ﴿يَخَافُونَ رَبَّهُم مِّن فَوْقِهِمْ﴾ [النحل: 50]، وتَقولُ: خِفْتُ المَرَضَ، كَما قالَ سُبْحانَهُ: ﴿وَيَخَافُونَ سُوٓءَ ٱلْحِسَابِ ﴿٢١﴾﴾ [الرعد: 21].

والخَشْيَةُ تَتَعَلَّق بِمَنْزِلة المَخوفِ مِنْهُ، ولا يُسَمَّى الخَوْفُ من نَفْسِ المَكْرُوهِ خَشيَةً، ولِهَذا قالَ: ﴿وَيَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ وَيَخَافُونَ سُوٓءَ ٱلْحِسَابِ ﴿٢١﴾﴾ [الرعد: 21]، فإنْ قيل: أَلَيْسَ قد قالَ: ﴿إِنِّي خَشِيتُ أَن تَقُولَ فَرَّقْتَ بَيْنَ بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ وَلَمْ تَرْقُبْ قَوْلِي ﴿٩٤﴾﴾ [طه: 94]، قُلْنا: إنَّه خَشيَ القَوْلَ المُؤَدِّيَ إلَى الفُرْقَة، والمُؤَدّي إلَى الشَّيْءِ بِمَنْزِلَة من يَفْعَلُهُ[1].

الخَوْفُ: تَوقُّعُ مَكرُوهٍ عَن أمارَةٍ مَظنُونَةٍ، أو مَعلُومَة، كما أنَّ الرَّجاءَ والطّمعَ تَوَقُّعُ مَحْبُوبٍ عنْ أمارَةٍ مَظنُونَةٍ، أو مَعْلُومَةٍ، ويُضادُّ الخوفَ الأَمْنُ، ويُسْتَعْمَلُ ذلكَ في الأُمُورِ الدُّنْيَويَّةِ والأُخْرَويَّةِ[2].

والخَشْيَة: خوفٌ يشُوبُه تَعْظيمٌ، وأكثرُ ما يَكونُ ذَلكَ عَنْ عِلْمٍ بما يُخْشى مِنْهُ، ولذَلِكَ خُصّ العُلَماءُ بها، في قوله: ﴿إِنَّمَا يَخْشَى ٱللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ ٱلْعُلَمَٰٓؤُاْ﴾ [فاطر: 28][3]، فهيَ خَوْفٌ مَخْصُوصٌ، يَلْزَمُهُ التَّعْظيمُ، فلِذا جاءَ في الآية مَنْهِيًّا عَنْهُ مع المُعانِدينَ، ومَأمُورًا به مع اللّه تعالى، فهُو الحَقيقُ بأنْ يُخْشى، ففي الآيَةِ تَعَلَّقَتِ الخَشْيَةُ بالمَنْزِلَة، فجاءَتْ عَلى الأَصْلِ.

---

(1) العسكري، الفروق اللّغوية، ص: 241.
(2) الراغب، المفردات: (خوف).
(3) الراغب، المفردات: (خشي).

﴿كَمَآ أَرۡسَلۡنَا فِيكُمۡ رَسُولٗا مِّنكُمۡ يَتۡلُواْ عَلَيۡكُمۡ ءَايَٰتِنَا وَيُزَكِّيكُمۡ وَيُعَلِّمُكُمُ ٱلۡكِتَٰبَ وَٱلۡحِكۡمَةَ وَيُعَلِّمُكُم مَّا لَمۡ تَكُونُواْ تَعۡلَمُونَ ١٥١﴾ [البقرة: 151]

مُناسَبةُ الآيَةِ لِما قَبلَها:

فَضلُ اللهِ في نِعمَتَي القِبلةِ والقُدوَةِ

لـمّا مَيّزَ اللّهُ الـمُسلِمينَ في الآياتِ السّابقَةِ، بِتَوْجيهِهِمْ إلى القِبْلَةِ الّتي كانَ يَتَطَلَّعُ إليها النّبيُّ ﷺ، وجَعَلَهمْ عَلى الحَقِّ، وبَيَّنَ أنّ ذَلكَ من تَمامِ النِّعْمَةِ عَليْهِم، جاءَتْ هَذهِ الآيَةُ لتَذْكيرِهِمْ بِنِعْمَةٍ أُخْرى، وهِيَ نِعْمَةُ إرْسالِ رَسولٍ مِنْهُم بِصِفاتٍ تَزيدُ النِّعْمَةَ امْتِنانًا، فهُوَ مِنْهُم ويَتَكَلَّمُ بلِسانِهِم[1].

شَرحُ المُفْرَداتِ:

الرّسولُ مَبْعوثُ العِنايَةِ للهِدايَةِ

1) ﴿أَرۡسَلۡنَا﴾: مِنَ الجِذْرِ (رسل)، وأَرْسَلْتُ الطّائِرَ من يَدي: أطْلَقْتُهُ[2]، وأَصلُ المادّة يَدُلُّ عَلَى الانْبِعاثِ والامْتِدادِ[3]، وأَرْسَلْتُ رَسُولًا: بَعَثْتُهُ برِسالةٍ يُؤدّيها، فهُوَ فعُول بِمَعْنى مَفْعولٍ[4]، فالرّسولُ يَنْطَلِقُ من طَرَفِ مَنْ أرسَلَه برِسالَةٍ مُتَمَيِّزةٍ عنْهُ، أي ليسَ هُوَ مُنشِئَها، قال تعالى: ﴿مُّحَمَّدٞ رَّسُولُ ٱللَّهِۚ﴾ [الفتح: 29][5].

تِلاوَةُ القُرْآنِ إعْمارٌ لِلوِجْدانِ

2) ﴿يَتۡلُواْ﴾: مِنَ الجِذْرِ (تلو)، وهو أَصْلٌ[6] يَدُلُّ على الاتِّباعِ؛ يُقالُ: تَلَوْتُهُ: إذا تَبِعْتَهُ، ومِنْهُ تِلاوَةُ القُرْآنِ؛ لأَنَّ التالي يُتْبِعُ آيَةً بَعْدَ آيَةٍ، وهو: اتّباعُ الشّيْءِ ما يَسْبِقُهُ لُحوقًا به من خَلْفِه:

(1) البروسوي، روح البيان: 1/255، وأبو زهرة، زهرة التّفاسير: 1/462.
(2) الفيومي، المصباح المنير: (رسل).
(3) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (رسل).
(4) الفيّومي، المصباح المنير: (رسل).
(5) جبل، المعجم الاشتقاقي المؤصل: (رسل).
(6) ابن فارس، مقاييس اللّغة، جبل، المعجم الاشتقاقي المؤصل: (تلو).

كالأعْجازِ، وكَوَلَدِ الحِمارِ والنّاقَةِ يَتْبَعانِ أُمّيْهِما، ومِنهُ: فُلانٌ يَتْلو فُلانًا: يَحْكيهِ ويَتْبَعُ فِعْلَهُ: ﴿وَٱلْقَمَرِ إِذَا تَلَىٰهَا ۝٢﴾ [الشّمس: 2]: تَبِعَها، وتَتَلَّى الشَّيْءَ: تَتَبَّعَهُ، ومِنْهُ أُخِذَ الاتِّباعُ العَمَلِيّ، أي التَّنْفيذُ: ﴿ٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ يَتْلُونَهُۥ حَقَّ تِلَاوَتِهِۦٓ﴾ [البقرة: 102] يَتْبَعونَه حَقّ اتِّباعِه ويَأْخُذونَ بِهِ عَمَلًا.

والمعنى في الآية: يقرأ عليكم.

الآيَةُ هِيَ الحُجَّةُ والبُرهانُ، عَلى صِدْقِ القُرآنِ

3) ﴿ءَايَٰتِنَا﴾: جمع آيَةٍ: مِنَ الجذْرِ (أيي)، وإيجازُهُ: تَأَيّا الشَّيْءَ: تَعَمَّدَ آيَتَهُ، أيْ شَخْصَهُ، وآيَةُ الرَّجُلِ: شَخْصُهُ[1]، وأصلُه: بَقاءُ الشَّيْءِ في مَكانِه شاخِصًا، عَلامَةً لِشَيْءٍ[2]، ومِنها: الآيَةُ مَنَ القُرآنِ الكَريمِ: الجَماعَةُ من كَلِماتِ القُرآنِ.﴿مَا نَنسَخْ مِنْ ءَايَةٍ أَوْ نُنسِهَا﴾ [البقرة: 106]، ومِنْها بِمَعْنى عَلامَة إعْجازِيَّةٍ، أو عَلامَةٍ دالَّةٍ على وُجودِ الخالِقِ وصُنْعِه، وبِمَعْنى العِبْرَةِ، وهيَ في سِياقِ الآية بِمَعْنى: الحُجّةِ والدّليلِ والبُرْهانِ.

التَّزْكِيَةُ تَطْهيرٌ وبَرَكَةٌ ونَماءٌ

4) ﴿وَيُزَكِّيكُمْ﴾: مِنَ الجذْرِ (زكو)، وهو أَصْلٌ[3] يَدُلُّ عَلَى نَماءٍ وزِيادَةٍ، أي زِيادَةِ الشّيءِ في ذاتِه مَعَ جَوْدَةِ نَوْعِه، كالأَرْضِ الزَّكِيَّةِ تُنَمّي الزَّرْعَ مَع كَوْنِه جَيّدًا بَيْنَ جنسِه، وكذلِكَ زَكاءُ الزَّرْعِ نُمُوُّهُ مَع رَيْعِه، فرَيْعُهُ أن يَفوقَ مِثْلَهُ، أو يَكونَ عَلى خَيْرِ حالِ مِثْلِه، وكلُّ لَفظِ (زَكاة) في القُرآنِ، فبمعنى زكاة المال: ﴿وَأَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُواْ ٱلزَّكَوٰةَ﴾ [البقرة: 43]، والتّزكية: التَّطهيرُ والبَرَكَةُ والتّنْمِيَةُ في وُجوهِ الخَيْرِ والبِرِّ، ومِنْهُ تَطْهيرُ النَّفْسِ، قال تعالى: ﴿قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّىٰهَا ۝٩﴾ [الشّمس: 9].

والمعنى في الآية: ويطهركم بما يأمركم به من الفضائل والمعروف، وما ينهاكم عنه من الرذائل والمنكر.

(1) ابن منظور، لسان العرب: (أيي).
(2) جبل، المعجم الاشتقاقي المؤصل: (أيي).
(3) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (زكى)، جبل، المعجم الاشتقاقي المؤصل: (زكو).

5) ﴿وَيُعَلِّمُكُمُ﴾: مِنَ الجذْرِ (علم)، وهو أَصْلٌ يَدُلُّ عَلى: أَثَرٍ بالشَّيْءِ، يَتَمَيَّزُ بِهِ عَنْ غَيْرِهِ[1]، والدَّلالَةُ: الهِدايَةُ بِمُرْتَفَعٍ كالعَلَمِ في الصَّحْراءِ[2]، وعَمَّموا اللَّفْظَ في كُلِّ ما يَدُلّ عَلى شَيْءٍ، ومن دَلالَةِ الأَصْلِ: أُخِذَ مَعْنى العِلْمِ[3]، وهُوَ: "الاعْتِقادُ الجازِمُ الثّابِتُ المُطابِقُ للواقِعِ، أَوْ هُوَ صِفَةٌ توجِبُ تَمْييزًا لا يَحْتَمِلُ النَّقيضَ"[4].

العِلْمُ صِفَةٌ توجِبُ تَمْييزًا لا يَحْتَمِلُ النَّقيضَ

6) ﴿وَٱلۡحِكۡمَةَ﴾: مِنَ الجذْرِ (حكم)، وهو أَصْلٌ[5] يَدلُّ على المَنْعِ، وهو ضَبْطٌ يَمْنَعُ التَّسَيُّبَ، ويُمَكِّنُ من جَعْلِ الشَّيْءِ عَلى ما يَنْبَغي ويُرادُ، والحُكْمُ هُوَ المَنْعُ مِنَ الظُّلْمِ، وتقولُ: حَكَّمْتُ فُلانًا تَحْكيمًا: مَنَعْتُهُ عَمّا يُريدُ، والعَرَبُ تقولُ: حَكَمْتُ، بِمَعْنى مَنَعْتُ ورَدَدْتُ، ومن هَذا قيلَ للحاكِمِ بَيْنَ النّاسِ حاكِمٌ، لأَنّهُ يَمْنَعُ الظّالِمَ مِنَ الظُّلْمِ[6]، والحِكْمَةُ هَذا قِياسُها؛ لأَنَّها تَمْنَعُ مِنَ الجَهْلِ.

الحِكْمَةُ ضالَّةُ المُؤْمِنِ، أَنَّى وَجَدَها فهُوَ أَحَقُّ بها

والحِكْمَةُ: هِيَ السُّنَنُ والفقهُ في الدِّين، ومَعْرِفَةُ أَفْضَلِ الأَشْياءِ بأَفْضَلِ العُلوم، مَعْرِفَةً جامِعَةً مُتْقَنَةً[7].

المَعْنَى الإجْمَاليّ:

تُبَيِّنُ هَذِهِ الآيَةُ نِعْمَةَ اللهِ عَلى عِبادِهِ بِإِرْسالِ رَسولٍ مِنْهُمْ: وهُوَ مُحَمَّدٌ ﷺ، فكما أنعمنا عليكم باستقبال الكعبة أرسلنا فيكم رسولاً منكم، يَتْلو عَلَيْكُمْ الآياتِ الَّتي تُرْشِدُ إِلى الحَقِّ، وتَهْدي إِلى سَبيلِ

رِسالَةُ الإِسْلامِ سُمُوٌّ بالنُّورِ، وتَطْهيرٌ مِنْ رِجْسِ الجاهِلِيَّةِ

(1) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (علم).
(2) جبل، المعجم الاشتقاقي المؤصل: (علم).
(3) جبل، المعجم الاشتقاقي المؤصل: (علم).
(4) الزبيدي، تاج العروس من جواهر القاموس: (علم).
(5) ابن فارس، مقاييس اللّغة، جبل، المعجم الاشتقاقي المؤصل: (حكم).
(6) ابن منظور، لسان العرب: (حكم).
(7) جبل، المعجم الاشتقاقي المؤصل: (حكم).

الرَّشادِ، ويُطَهِّرُكُمْ من رِجْسِ الوَثَنِيَّة، ويُعَلِّمُكُمْ ما تَسْمو بِهِ نُفوسُكُمْ وتَزْكو، ويُطَهِّرُكُمْ من عاداتِ الجاهِلِيَّةِ القَبيحَة، مِثْلِ وأْدِ البَناتِ، وقَتْلِ الأَوْلادِ تَخَلُّصًا من النَّفَقَة، وسَفْكِ الدِّماءِ لأَوْهَنِ الأَسْبابِ، ويُعَلِّمُكُمُ القُرْآنَ الكَريمَ، ويُبَيِّنُ لكُمُ الأَحْكامَ الشَّرْعِيَّةَ، والأَسْرارَ التَّشْريعِيَّةَ الَّتي من أَجْلِها كانَ القُرْآنُ هُدًى ونُورًا، ويُعَلِّمُكُمُ الحِكْمَةَ، وأَسْرارَ الأَحْكامِ وغاياتِها، ويُعَلِّمُكُمْ ما لَمْ تَكونوا تَعْلَمونَ من أَخْبارِ المُغَيَّباتِ، وسِيَرِ الأَنْبِياءِ، وقِصَصِ الأَقْوامِ الغابِرَةِ، وأَحْوالِ الأُمَمِ البائِدَةِ، أَوِ الَّتي كانَتْ مَجْهولَةً عِنْدَ العَرَبِ[1].

الإيضَاحُ اللُّغَوِيُّ وَالبَلَاغِيُّ:

بلاغةُ التَّشْبيهِ في قولِه: ﴿كَمَآ أَرۡسَلۡنَا﴾:

نعْمَةُ التَّوجُّهِ إلى القِبْلَةِ؛ كنعْمَةِ إرسالِ الرَّسولِ

تعلَّقتِ الكافُ في قَوْلِهِ: ﴿كَمَآ أَرۡسَلۡنَا فِيكُمۡ رَسُولٗا مِّنكُمۡ﴾ بقَوْلِهِ تَعالى: ﴿وَلِأُتِمَّ نِعۡمَتِي﴾، فيَكونُ المَعْنى: ولأُتمَّ نِعْمَتي عَلَيْكُم، كإرْسالي إلَيْكُمْ رَسولًا، أَيْ: أُتمُّ هَذِهِ كما أَتْمَمْتُ تِلْكَ[2]؛ فشَبَّهَ نِعْمَةَ تَوْجيهِ القِبْلَةِ إلى المَسْجِدِ الحَرامِ بنِعْمَةِ إرْسالِ النَّبيِّ ﷺ، أَوْ: شَبَّهَ عِلَّةَ تَمامِ النِّعْمَةِ بعِلَّةِ الهِدايَةِ؛ فعِلَّةُ تَحْويلِ القِبْلَةِ إتْمامُ النِّعْمَةِ، وعِلَّةُ إرْسالِ الرّسولِ ﷺ رَجاءُ الهِدايَةِ، فالمُشَبَّهُ هُوَ نِعْمَةُ تَحْويلِ القِبْلَةِ، والمُشَبَّهُ بِهِ هُوَ الإرْسالُ رَجاءً للْهِدايَةِ، ووَجْهُ الشَّبَهِ الامْتِنانُ بالنِّعْمَةِ، أَيْ ذَلِكَ من نِعْمَتي عَلَيْكُمْ كنِعْمَةِ إرْسالِ مُحَمَّدٍ ﷺ، وجَعَلَ الإرْسالَ مُشَبَّهًا بِهِ، لأَنَّهُ أَسْبَقُ وأَظْهَرُ، تَحْقيقًا للمُشَبَّهِ[3]، وفائِدَةُ هَذا التَّشْبيهِ الدَّلالَةُ عَلى أَنَّ النِّعْمَةَ في القِبْلَةِ، كالنِّعْمَةِ في الرِّسالَةِ، وهُوَ تَشْبيهٌ يَدُلُّ عَلى عِظَمِ شَأْنِ تَحْويلِ القِبْلَةِ إلى الكَعْبَةِ[4].

سرُّ استعمالِ صيغةِ الإفرادِ والجمعِ في التَّعبيرِ عن المتكلِّم:

اختيارُ الصيغةِ بناءً على المعنى المتحدَّثِ عنه

جاءَ التَّعبيرُ عن المتكلِّمِ في قولِه تعالى: ﴿وَٱخۡشَوۡنِي﴾، وقوله: ﴿وَلِأُتِمَّ نِعۡمَتِي﴾ بصيغَةِ المُفْرَدِ، ثُمَّ جاءَ في هَذِهِ الآيَةِ ﴿أَرۡسَلۡنَا﴾ بصيغَةِ

---

(1) وهبة الزحيلي، التّفسير المنير: 2/34.

(2) الواحدي، البسيط: 3/416-417.

(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 2/48.

(4) وهبة الزحيلي، التّفسير المنير: 2/36.

التَّعْظيم، والتَّعبيرُ بصيغةِ التَّكَلُّم الدّالَّة عَلى العَظَمَة، بَعْدَ التَّعْبيرِ بصيغَةِ المفردِ يَسْتَدْعي العَظَمَةَ والوَقارَ؛ وهُوَ يُناسِبُ المَقامَ، حَيْثُ إنَّ إرْسالَ الرِّسالَة شَأْنٌ عَظيمٌ، يَسْتَدْعي أَنْ يَكونَ التَّكَلُّمُ مُتَضَمِّنًا أَساليبَ التَّعْظيم، ومِنْها التَّكَلُّمُ بصيغَةِ الجَمْع، بخلافِ الأمرِ بالخشيةِ، فإنَّ الخطابَ فيها بصيغة المفردِ يدلُّ على التَّعظيم؛ لدلالةِ الأمر بالخشيةِ على ذلك.

إيثارُ التَّعبيرِ بلَفْظِ ﴿فِيكُمْ﴾ دونَ لَفْظِ (إِلَيْكُمْ):

التَّنبيه إلى إنَّ دعوةَ الرَّسولِ مستمرَّةٌ إلى يوم الدِّين

قال تعالى: ﴿كَمَآ أَرۡسَلۡنَا فِيكُمۡ رَسُولٗا مِّنكُمۡ﴾ ولم يقل: (إليكم) مع أنَّه مقتضى الظَّاهر؛ وذلك لأنَّ الرّسولَ مِنْهُم، ومن بَلَدِهِم، وليُؤَكِّدَ ما نَصَّ عَلَيْهِ بَعْدَ ذَلِكَ أَنَّهُ مِنْهُم، لِمَزيدِ الامْتِنانِ، ولَوْ قالَ: (إِلَيْكُمْ)، لأَشْعَرَ بالبُعْدِ، والتَّعْبيرُ بـ (إلى) يُناسِبُ مَنْ أُرْسِلَ مِنَ الخارِجِ، فهُوَ يَدُلُّ عَلى أَنَّ الرِّسالَةَ بُلِّغَتْ للنَّبِيِّ ﷺ وهُوَ بَيْنَهُم، ولَوْ كانَ أُرْسِلَ إِلَيْهِمْ من غَيْرِ بِلادِهِم، أو من بلادِهم وهو ليس فيهم؛ لاسْتَعْمَلَ (إلى)؛ فالتَّعْبيرُ بـ (في) يُناسِبُ مَقامَ الامْتِنانِ.

فالخِطابُ في قَوْلِهِ: ﴿فِيكُمۡ﴾ وما بَعْدَهُ للمُؤْمنينَ مِنَ المُهاجِرينَ والأَنْصارِ، تَذْكيرًا لَهُمْ بنِعْمَةِ اللّهِ عَلَيْهِم، بأَنْ بَعَثَ إِلَيْهِمْ رَسولًا بَيْنَ ظَهْرانيهِم، ومن قَوْمِهِم، لأَنَّ ذَلِكَ أَقْوى تَيْسيرًا لهدايَتِهِم، وهَذا عَلى نَحْوِ دَعْوَةِ إبْراهيمَ، حَيْثُ يَقولُ: ﴿رَبَّنَا وَٱبۡعَثۡ فِيهِمۡ رَسُولٗا مِّنۡهُمۡ﴾ [البقرة: 129] وقَدْ امْتَنَّ اللّهُ عَلى عُمومِ المُؤْمنينَ مِنَ العَرَبِ وغَيْرِهِم، بقَوْلِهِ: ﴿لَقَدۡ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَى ٱلۡمُؤۡمِنِينَ إِذۡ بَعَثَ فِيهِمۡ رَسُولٗا مِّنۡ أَنفُسِهِمۡ﴾ [آل عمران: 164]، أَيْ: جِنْسِهِمُ الإِنْسانيِّ؛ لأَنَّ ذَلِكَ آنَسُ لَهُم، مِمّا لَوْ كانَ رَسولُهُمْ مِنَ المَلائِكَةِ[1].

وفيه تنبيهٌ على أنَّ هذا الرَّسولَ فيهم، وسيبقى فيهم، في دعوته وهدايته ورسالته وقيمه وأخلاقه، ففي استعمال حرفِ الظَّرفيّة إيماءٌ للغيب، وأنَّ إرسالَه سيستمر إلى يوم الدِّين، وقَدْ يُسْتَعْمَلُ (إلى) في سِياقِ غَيْرِ سِياقِ الامْتِنانِ، جَرْيًا عَلى الحَقيقَةِ، أَوْ في سِياقِ الاحْتِجاجِ؛ ﴿إِنَّآ أَرۡسَلۡنَآ إِلَيۡكُمۡ رَسُولٗا شَٰهِدًا عَلَيۡكُمۡ كَمَآ أَرۡسَلۡنَآ إِلَىٰ فِرۡعَوۡنَ رَسُولٗا ١٥﴾ [المزّمّل: 15].

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 2/48.

إيثارُ التَّنْكيرِ في التَّعْبيرِ عَنْ صاحِبِ الرِّسالَةِ في قَوْلِهِ: ﴿رَسُولًا﴾:

التَّعْبيرُ بالفِعْلِ يُؤَهِّلُ الصِّفاتِ لِكَيْ تَمْتازَ بالاِسْتِمْرارِيَّةِ

اسْتَعْمَلَ النَّكِرَةَ في التَّعْبيرِ عَنِ الرَّسولِ، فلَمْ يَقُلْ (الرّسولَ)؛ للتَّعْظيم، وهُوَ يَتَناسَبُ مَعَ المَقام، ولذا اسْتَعْمَلَ مَعَهُ التَّكَلُّمَ بصيغَةِ الجَمْعِ، فقالَ: ﴿أَرْسَلْنَا﴾ كما بَيَّنّا، والسِّياقُ يَتَكَلَّمُ عَنِ الامْتِنانِ بالنِّعَمِ العَظيمَةِ، فكانَ المُناسِبُ أَنْ يَأْتِيَ ذَلِكَ بأُسْلوبِ التَّعْظيمِ، والتَّكَلُّمُ بصيغَةِ الجَمْعِ والتَّنْكيرُ من مُؤَدِّياتِ التَّعْظيمِ حَسَبَ السِّياقِ.

وهُناكَ فائِدَةٌ تَعْبيرِيَّةٌ أُخْرى، وهِيَ أَنَّهُ أَرادَ أَنْ يَصِفَهُ بصِفاتٍ، وهَذِهِ الصِّفاتُ تَمْتازُ بالاِسْتِمْرارِيَّةِ؛ فلِذا عَبَّرَ عَنْها بالفِعْلِ، والوَصْفُ بالفِعْلِ يَقْتَضي أَنْ يَكونَ المَوْصوفُ نَكِرَةً، فآثَرَ تَنْكيرَهُ لِتَجْرِيَ عَلَيْهِ الصِّفاتُ الَّتي كُلُّ واحِدَةٍ مِنْها نِعْمَةٌ خاصَّةٌ[1].

أَثَرُ جِناسِ الاِشْتِقاقِ في التَّوافُقِ الصَّوْتِيِّ في الآيَةِ:

إِرْسالٌ مُنْتَقًى للرَّسولِ، يُؤَكِّدُ قيمَةَ ما نَقَلَهُ مِنْ نُقولٍ

ومن جَمالِيّاتِ الأَلْفاظِ أَنْ يَسْتَعْمِلَ في الجُمْلَةِ الواحِدَةِ أَلْفاظًا تَتَشابَهُ في حُروفِها، وهَذا التَّكْرارُ يُعْطي الشَّكْلَ اللُّغَوِيَّ للنَّصِّ تَوافُقًا صَوْتِيًّا، يُثيرُ الأُذُنَ للإِصْغاءِ، ويَسْتَجْلِبُ الاِنْتِباهَ، لما فيهِ من جَمالٍ، فالجِناسُ هُنا بَيْنَ كَلِمَتَيْ ﴿أَرْسَلْنَا﴾ و﴿وَرَسُولًا﴾، فكِلاهُما مِنَ الجِذْرِ (رسل)، وهَذا جِناسُ الاِشْتِقاقِ، وهُوَ مِنَ المُحَسِّناتِ البَديعِيَّةِ.

التَّعْبيرُ بأَفْعالِ المُضارِعِ ودَلالَةُ كُلٍّ مِنْها:

الرِّسالَةُ مُزاوَلَةٌ ومُعالَجَةٌ واسْتِمْرارِيَّةٌ

عَبَّرَ بصيغَةِ الفِعْلِ المُضارِعِ ﴿يَتْلُواْ﴾؛ لأَنَّهُ يَدُلُّ على الاِسْتِمْرارِيَّةِ والدَّوامِ، وهَذا تَعْبيرٌ عَنِ الواقِعِ، فإِنَّ نُزولَ القُرْآنِ مُسْتَمِرٌّ، وقِراءَةُ النَّبِيِّ ﷺ لهُ مُتَوالِيَةٌ، وفي كُلِّ قِراءَةٍ يَحْصُلُ عِلْمٌ بالمُعْجِزَةِ للسّامِعينَ[2]، وعَبَّرَ بصيغَةِ الفِعْلِ المُضارِعِ: ﴿وَيُزَكِّيكُمْ﴾، والتَّزْكِيَةُ تَطْهيرُ النَّفْسِ، مُشْتَقَّةٌ من الزَّكاةِ، وهِيَ النَّماءُ، وذَلِكَ لأَنَّ في أَصْلِ خِلْقَةِ النُّفوسِ كَمالاتٌ وطَهاراتٌ، تَعْتَرِضُها أَرْجاسٌ ناشِئَةٌ عَنْ ضَلالٍ

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 2/48.
(2) المصدر السّابق: 2/49.

أَوْ تَضْليلٍ، فتَهْذيبُ النُّفوسِ وتَقْويمُها، يَزيدُها من ذَلِكَ الخَيْرِ المُودَعِ فيها[1]، وهَذا لا يَقَعُ في مَرَّةٍ واحِدَةٍ، بَلْ فيهِ مُزاوَلَةٌ ومُعالَجَةٌ واسْتِمْرارِيَّةٌ، ويَتَطَلَّبُ زَمانًا؛ لذَلِكَ عَبَّرَ عَنْهُ بالفِعْلِ المُضارِعِ، وعَبَّرَ بصيغَةِ الفِعْلِ المُضارِعِ ﴿وَيُعَلِّمُكُمُ﴾؛ لأَنَّ تَعْليمَ الكِتابِ لا يَنْقَضي، فهُوَ مُسْتَمِرٌّ بالنُّزولِ، فلِذا كانَ تَعْليمُهُ مُسْتَمِرًّا، وهَذا يَقْتَضي التَّعْبيرَ بالفِعْلِ المُضارِعِ.

العَلاقَةُ الدَّلالِيَّةُ بَيْنَ الكِتابِ والحِكْمَةِ في الآيَةِ:

الحِكْمَةُ مَعْرِفَةٌ، يَتَمَكَّنُ بها الفَرْدُ، مِنْ وَضْعِ كُلِّ حُكْمٍ مَوْضِعَهُ

قَوْلُهُ: ﴿وَيُعَلِّمُكُمُ ٱلۡكِتَٰبَ وَٱلۡحِكۡمَةَ﴾، فالكِتابُ عِنْدَ إِطْلاقِهِ، يَنْصَرِفُ إلى القُرْآنِ الكَريمِ، ومَعْنى الحِكْمَةِ: وَضْعُ الشَّيْءِ في مَوْضِعِهِ، والكِتابُ فيهِ أَحْكامٌ بَيْنَ الأَمْرِ والنَّهْيِ، وكُلُّها تَدورُ مَعَ المَصْلَحَةِ، تَبْتَغي الخَيْرَ، وتَحْفَظُ النّاسَ مِنَ الشَّرِّ[2]، والحِكْمَةُ هِيَ أَنْ تَكونَ أَفْعالُكَ عَلى ضَوْءِ ذَلِكَ، فتَطْبيقُ آياتِ القُرْآنِ بَعْدَ التَّعْليمِ، يَقْتَضي مَعْرِفَةً يَتَمَكَّنُ الفَرْدُ بمُقْتَضاها من وضْعِ كُلِّ حُكْمٍ مَوْضِعَهُ، وهَذا عَيْنُ الحِكْمَةِ.

وتَفْسيرُ الحِكْمَةِ بالسُّنَّةِ، لَيْسَ من بابِ الدَّلالَةِ اللُّغَوِيَّةِ، بَلْ هُوَ تَفْسيرُ اللَّفْظَةِ بمُؤَدّاها ونَتيجَتِها وتَطْبيقِها، فالسُّنَّةُ بَيَّنَتِ المَعانيَ وفَصَّلَتْها، فوَضَعَتْ كُلَّ شَيْءٍ في مَوْضِعِهِ، وهَذا هُوَ الحِكْمَةُ، لذَلِكَ جاءا في جُمْلَةٍ واحِدَةٍ، واشْتَرَكا بعامِلٍ واحِدٍ، وهُوَ الفِعْلُ: ﴿وَيُعَلِّمُكُمُ﴾، فهَذا الفِعْلُ تَسَلَّطَ عَلى الكِتابِ والسُّنَّةِ في عِبارَةٍ واحِدَةٍ، ولَمْ يُفْصَلْ بَيْنَهُما، كما قالَ: ﴿وَيُعَلِّمُكُم مَّا لَمۡ تَكُونُواْ تَعۡلَمُونَ ١٥١﴾، فجَعَلَهُما مَعًا في جُمْلَةٍ واحِدَةٍ؛ ليَدُلَّ عَلى العَلاقَةِ بَيْنَهُما، فالحِكْمَةُ مُتَعَلِّقَةٌ بالقُرْآنِ، وهِيَ وَضْعُ ما يُعَلِّمُهُمْ مِنَ الكِتابِ مَوْضِعَهُ، بتَبْيينِهِ وتَفْصيلِهِ.

الفَهْمُ السَّديدُ لا يَتَأَتَّى إلَّا للحَكيمِ الرَّشيدِ

جاءَتِ الحِكْمَةُ مُضَمَّنَةً في القُرْآنِ، في قَوْلِهِ تَعالى: ﴿وَيُعَلِّمُكُمُ ٱلۡكِتَٰبَ وَٱلۡحِكۡمَةَ﴾، فذِكْرُها من بابِ ذِكْرِ الخاصِّ بَعْدَ ذِكْرِ العامِّ،

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 2/49.
(2) تفسير الشّعراوي: 1/645.

فخَصَّ تَعْليمَ الحِكْمَةِ من عُمومِ تَعْليمِ الكِتابِ، لأَنَّ الحِكْمَةَ مَنالُ الأَمْرِ الَّذي فيهِ عُسْرٌ[1]، والعُسْرُ هُنا يَأْتي من كَثْرَةِ الأَحْكامِ، وتَعَدُّدِ رُتَبِها ومَنازِلِها، واخْتِلافِها في أَوْلَويّاتِها، وفي فضائِلِها، ومَعْرِفَةُ ذَلِكَ لا تَتَيَسَّرُ إِلّا لِمَنْ أوتِيَ الحِكْمَةَ، بَعْدَ تَعْليمِ الكِتابِ.

بلاغةُ ذِكْرِ العامِّ بَعْدَ الخاصِّ:

العِلْمُ في الإِسْلامِ يَسْتَوْعِبُ كُلَّ فُروعِ المَعْرِفَةِ ومَقاصِدِها

قَوْلُهُ تعالى: ﴿وَيُعَلِّمُكُم مَّا لَمۡ تَكُونُواْ تَعۡلَمُونَ ١٥١﴾، من بابِ ذِكْرِ العامِّ بَعْدَ الخاصِّ، لإِفادَةِ الشُّمولِ بما يُسَمَّى الإِطْنابَ، وتَقْديرُ ذَلِكَ: (يُعَلِّمُكُمْ أُمورًا تَعْلَمونَها بعُقولِكُم، ولا تَصِلُ إِلَيْها أَفْهامُكُمْ)، وذَلِكَ بما ذُكِرَ مُفَصَّلاً ومُجْمَلاً في القُرْآنِ، نَحْوَ قِصَصِ الأُمَمِ السّابِقَةِ، وقِصَصِ الأَنْبِياءِ وأَقْوامِهِم، وأَخْبارِ الحَوادِثِ الَّتي وقَعَتْ، والّتي سَوْفَ تَقَعُ مُسْتَقْبَلًا، ناهيكَ عَنِ الأُمورِ المُتَعَلِّقَةِ بالتَّشْريعِ الَّتي لَمْ تَكُنْ مَوْجودَةً في الدِّيّاناتِ، ولا عِلْمَ لَهُمْ بها[2].

دَلالَةُ الأَلِفِ واللّامِ في لَفْظَيِ ﴿ٱلۡكِتَٰبَ﴾ و﴿وَٱلۡحِكۡمَةَ﴾:

القُرْآنُ كِتابُ الخِتامِ الَّذي لا رَيْبَ فيهِ

مِنَ المَعْلومِ أَنَّ هُناكَ كُتُبًا غَيْرَ القُرْآنِ، ولَكِنَّ الكِتابَ عِنْدَ إِطْلاقِهِ، يَنْصَرِفُ إلى القُرْآنِ الكَريمِ، وتَعْريفُهُ بالأَلِفِ واللّامِ، هُوَ والحِكْمَةَ، فيه إِشارَةٌ إلى أَنَّهُما يَجْمَعانِ كُلَّ كِتابٍ وحِكْمَةٍ مِمّا يَعْلَمُهُ الأَوَّلونَ والآخِرونَ.

تَكْرارُ الفِعْلِ ﴿وَيُعَلِّمُكُمُ﴾، ودَلالَةُ التَّناظُرِ بَيْنَ الجُمْلَتَيْنِ الفِعْلِيَّتَيْنِ:

البُنْيَةُ التَّناظُرِيَّةُ بَيْنَ الجُمَلِ، أَبْلَغُ مِنْ تَتَبُّعِ العَطْفِ بالمُفْرَداتِ

فائِدَةُ تَكْرارِ الفِعْلِ ﴿وَيُعَلِّمُكُمُ﴾، هي تَأْكيدُ النِّعْمَةِ بالتَّعْليمِ، وللتَّنْبيهِ عَلى الامْتِنانِ بِهِ، هَذا باعْتِبارِهِ مَعْنَويًّا، وأَمّا باعْتِبارِهِ لَفْظِيًّا، فالتَّكْرارُ هُنا يُحَقِّقُ التَّناظُرَ من خِلالِ جُمْلَتَيْنِ فِعْلِيَّتَيْنِ: ﴿وَيُعَلِّمُكُمُ ٱلۡكِتَٰبَ وَٱلۡحِكۡمَةَ﴾، ﴿وَيُعَلِّمُكُم مَّا لَمۡ تَكُونُواْ تَعۡلَمُونَ ١٥١﴾، وهَذا أَفْضَلُ من جُمْلَةٍ واحِدَةٍ طَويلَةٍ بالعَطْفِ المُفْرَدِ، فهَذِهِ

(1) البقاعي، نظم الدّرر: 2/242.

(2) الدّرة، تفسير القرآن الكريم: 1/150-151.

البُنْيَةُ التَّناظُرِيَّةُ بَيْنَ الجُمَلِ، أَخَفُّ من تَتَبُّعِ العَطْفِ بالمُفْرَداتِ، مَعَ ما فيها من جَماليَّةٍ من خِلالِ التّناظُرِ.

الفَرْقُ بَيْنَ تِلاوَةِ الآياتِ، وتَعْليمِ الكِتابِ:

تلاوةُ الآياتِ باعتبارِها معجزةً، وتعليمُ الكتابِ باعتبارِه شريعةً

قالَ تعالَى: ﴿يَتْلُواْ عَلَيْكُمْ ءَايَٰتِنَا﴾، وقالَ: ﴿وَيُعَلِّمُكُمُ ٱلْكِتَٰبَ﴾، والآياتُ هِيَ الكِتابُ، فلِماذا عَبَّرَ بالتِّلاوَةِ مَعَ الآياتِ، وبالتَّعْليمِ مَعَ الكِتابِ؟ وهَلّا وحَّدَ؟ والجَوابُ: أَنَّهُ أَجْراهُ عَلى الحَقيقَةِ؛ فهُوَ لَمْ يَكُنْ يَتْلُو الكِتابَ كُلَّهُ، بَلْ كانَ يَتْلُو آياتٍ، ومَهْما كَثُرَتْ فإِنَّها لَنْ تَكونَ الكِتابَ كُلَّهُ عَلى وجْهِ الحَقيقَةِ في آنٍ واحدٍ متَّصلٍ، أَمّا الكِتابُ فتعليمُه متحقِّقٌ مع تطاولِ الأوقاتِ، فيكون تعليمًا على الحقيقيةِ، إذ لا يُطلبُ العلمُ دفعةً واحدةً.

والمُغايَرَةُ وإِنْ كانَتْ قَدْ جَرَتْ عَلى التَّعْبيرِ بالحَقيقَةِ، فإِنَّها لا تَخْلُو من تَفَنُّنٍ؛ فلَوْ كُرِّرَ اللَّفْظُ مَرَّتَيْنِ، لكانَ في ذلك مجانَبَة للبَلاغَةِ والفَصاحَةِ، فنَوَّعَ وغَيَّرَ اللَّفْظَ لتَجَنُّبِ الوَهَنِ في التَّعْبيرِ، مَعَ كَوْنِه أَنْسَبَ للحَقيقَةِ كما بَيَّنّا.

وهو من بابِ الإِعْجازِ والشَّريعَةِ، فالتِّلاوَةُ تَتَعَلَّقُ بالآياتِ، لأَنَّها بمَعْنى الحُجَّةِ والبُرْهانِ، فهِيَ تُتْلى لإِظْهارِ الإِعْجازِ، أَمّا تَعْليمُ الكِتابِ، فهُوَ باعْتِبارِ أَنَّهُ شَريعَةٌ تَحْتاجُ إِلى تَعْليم، قالَ ابْنُ عاشور: "﴿يَتْلُواْ عَلَيْكُمْ ءَايَٰتِنَا﴾ أَيْ: يَقْرَأُ عَلَيْكُمُ القُرْآنَ، وسَمّاهُ أَوَّلًا آياتٍ، باعْتِبارِ كَوْنِ كُلِّ كَلامٍ مِنْهُ مُعْجِزَةً، وسَمّاهُ ثانِيًا كِتابًا، باعْتِبارِ كَوْنِه كِتابَ شَريعَةٍ"(1).

دَلالَةُ الإِطْنابِ بذِكْرِ العامِّ بَعْدَ الخاصِّ:

القُرْآنُ عَلَّمَ العَرَبَ الدِّينَ باعتبارِه غايةً، والدُّنيا باعتبارِها وسيلةً

قَوْلُه: ﴿وَيُعَلِّمُكُم مَّا لَمْ تَكُونُواْ تَعْلَمُونَ ١٥١﴾، معطوفٌ على ﴿وَيُعَلِّمُكُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ﴾، من بابِ ذِكْرِ العامِّ بَعْدَ الخاصِّ، وهَذا إِطْنابٌ، وذَلِكَ للتَّنْصيصِ عَلى إِفادَةِ الشُّمولِ(2)، وذِكْرِ الخاصِّ:

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 2/49.

(2) وهبة الزحيلي، التّفسير المنير: 2/30.

﴿ٱلۡكِتَٰبَ وَٱلۡحِكۡمَةَ﴾، مَعَ أنَّهُ داخِلٌ ضِمْنَ العامِّ: ﴿مَّا لَمۡ تَكُونُواْ تَعۡلَمُونَ ١٥١﴾؛ لأنَّهُ الأَصْلُ في الرِّسالَةِ والغايَةُ مِنْها، وهُوَ بَيانُ الشَّريعَةِ وفَضائِلِ الأُمورِ، ثُمَّ ذَكَرَ العامَّ، وهُوَ تَعْليمُهُمْ ما لَمْ يَكونوا يَعْلَمونَ، لإفادَةِ الشُّمولِ، وقَوْلُهُ: ﴿وَيُعَلِّمُكُم مَّا لَمۡ تَكُونُواْ تَعۡلَمُونَ ١٥١﴾، تَعْميمٌ لكُلِّ ما كانَ غَيْرَ شَريعَةٍ ولا حِكْمَةٍ، من مَعْرِفَةِ أَحْوالِ الأُمَمِ وأَحْوالِ سِياسَةِ الدُّوَلِ، وأَحْوالِ الآخِرَةِ، وغَيْرِ ذَلِكَ(1).

توجيهُ المُتَشابِهِ اللَّفْظِيِّ بَيْنَ هَذِهِ الآيَةِ وما في سورَةِ المُزَّمِّلِ:

سياق الامتنان يأتي بحرف الظَّرفيّة، وسياق الاحتجاج بحرف الغاية

هُناكَ تَشابُهٌ لَفْظِيٌّ بَيْنَ قَوْلِهِ تَعالى: ﴿كَمَآ أَرۡسَلۡنَا فِيكُمۡ رَسُولٗا مِّنكُمۡ﴾ [البقرة: 151]، وقَوْلِهِ تَعالى: ﴿إِنَّآ أَرۡسَلۡنَآ إِلَيۡكُمۡ رَسُولٗا شَٰهِدًا عَلَيۡكُمۡ كَمَآ أَرۡسَلۡنَآ إِلَىٰ فِرۡعَوۡنَ رَسُولٗا ١٥﴾ [المزمّل: 15]، حَيْثُ عَلَّقَ الفِعْلَ أَرْسَلْنا مَرَّةً بحَرْفِ الجَرِّ (في)، ومَرَّةً بالحَرْفِ (إلى)، حَيْثُ عَلَّقَ الفِعْلَ أَرْسَلْنا بحَرْفِ الجَرِّ (في) في هَذا المَوْضِعِ، لأَنَّ هَذا مَقامُ امْتِنانٍ وبَيانٍ للنِّعْمَةِ، وأَمّا في سورَةِ المُزَّمِّلِ فهُوَ مَقامُ احْتِجاجٍ، ولا يَحْتاجُ إلى بَيانِ ظَرْفِيَّةِ الرِّسالَةِ الَّتي تُبَيِّنُ النِّعْمَةَ، فناسَبَ أَنْ يَذْكُرَ ما بِهِ تَمامُ المِنَّةِ، وهِيَ أَنْ جَعَلَ رَسولَهُمْ فيهِمْ ومِنْهُم، أَيْ هُوَ مَوْجودٌ في قَوْمِهِمْ وهُوَ عَرَبِيٌّ مِثْلُهُم، والمُسلِمونَ يَوْمَئِذٍ هُمُ العَرَبُ، أَيِ الَّذينَ يَتَكَلَّمونَ باللُّغَةِ العَرَبِيَّةِ، فالأُمَّةُ العَرَبِيَّةُ يَوْمَئِذٍ تَتَكَلَّمُ بلِسانٍ واحِدٍ، إِذْ نِعْمَةُ الرِّسالَةِ في الإبْلاغِ والإفْهامِ، فالرَّسولُ يُكَلِّمُهُمْ بلِسانِهِم، فيَفْهَمونَ جَميعَ مَقاصِدِهِ، ويُدْرِكونَ إِعْجازَ القُرْآنِ، ويَفوزونَ بمَزِيَّةِ نَقْلِ هَذا الدِّينِ إلى الأُمَمِ، وهَذِهِ المَزِيَّةُ يَنالُها كُلُّ مَنْ تَعَلَّمَ اللِّسانَ العَرَبِيَّ(2).

۞ الفُروقُ المُعْجَمِيَّةُ:

القِراءَةُ والتِّلاوَةُ:

كُلُّ تِلاوَةٍ قِراءَةٌ، ولَيْسَتْ كُلُّ قِراءَةٍ تِلاوَةً

المَعْروفُ أَنَّ التِّلاوَةَ لا تَكونُ إلّا لكَلِمَتَيْنِ فصاعِدًا، والقِراءَةُ تَكونُ للْكَلِمَةِ الواحِدَةِ، يُقالُ: قَرَأَ فُلانٌ اسْمَهُ، ولا يُقالُ: تَلا اسْمَهُ؛ وذَلِكَ

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 2/49-50.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 2/48-49.

أَنَّ أَصْلَ التِّلاوَةِ اتِّباعُ الشَّيْءِ الشَّيْءَ، يُقالُ: تَلاهُ إِذا تَبِعَهُ، فتَكونُ التِّلاوَةُ في الكَلِماتِ يَتْبَعُ بَعْضُها بَعْضًا، ولا تَكونُ في الكَلِمَةِ الواحِدَةِ؛ إِذْ لا يَصِحُّ فيها التُّلُوُّ[1]، فإِذا لَمْ تَكُنِ الكَلِمَةُ تَتْبَعُ أُخْتَها، لَمْ تُسْتَعْمَلْ فيها التِّلاوَةُ، وتُسْتَعْمَلُ فيها القِراءَةُ؛ لأَنَّ القِراءَةَ اسْمُ الجِنْسِ لِهَذا الفِعْلِ[2].

والتِّلاوَةُ تَخْتَصُّ باتِّباعِ كُتُبِ اللهِ المُنَزَّلَةِ، تارَةً بالقِراءَةِ، وتارَةً بالارْتِسامِ لما فيها من أَمْرٍ ونَهْيٍ، وتَرْغيبٍ وتَرْهيبٍ، أَوْ ما يُتَوَهَّمُ فيه ذَلِكَ، وهُوَ أَخَصُّ مِنَ القِراءَةِ، فكُلُّ تِلاوَةٍ قِراءَةٌ، ولَيْسَت كُلُّ قِراءَةٍ تِلاوَةً، لا يُقالُ: تَلَوْتُ رُقْعَتَكَ، وإِنَّما يُقالُ في القُرْآنِ في شَيْءٍ، إِذا قَرَأْتَهُ وجَبَ عَلَيْكَ اتِّباعُهُ[3]، وفي آية سورة يونس أُريدَ مَعْنى التَّتابُعِ، وكَوْنَهُ ﷺ كان يَفْعَلُ ذَلِكَ باسْتِمْرارٍ، فناسَبَ المقامَ فِعْلُ التِّلاوةِ لا القراءَةِ، وذَلِكَ في قَوْلِه تَعالى: ﴿قُل لَّوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَا تَلَوْتُهُۥ عَلَيْكُمْ وَلَآ أَدْرَىٰكُم بِهِۦ ۖ فَقَدْ لَبِثْتُ فِيكُمْ عُمُرًا مِّن قَبْلِهِۦٓ ۚ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿١٦﴾﴾ [يونس: 16].

(1) العسكري، الفروق اللّغويّة، ص: 64-63.

(2) العسكري، الفروق اللّغويّة، ص: 27.

(3) الراغب، المفردات: (تلو).

﴿فَٱذۡكُرُونِيٓ أَذۡكُرۡكُمۡ وَٱشۡكُرُواْ لِي وَلَا تَكۡفُرُونِ ١٥٢﴾ [البقرة: 152]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِمَا قَبْلَها:

حَثٌّ للمُسْلِمينَ عَلى ذِكْرِ اللهِ وشُكْرِهِ

لـمّا بَيَّنَ نِعْمَةَ القِبْلَةِ، ثُمَّ أَعْقَبَهُ ببيانِ نِعْمَتِهِ عَلَيْهِم ببِعْثَةِ النَّبيِّ ﷺ فيهم، كان ذَلِكَ مِمّا يَقْتَضي الشُّكْرَ، فجاءَتْ هَذِهِ الآيَةُ تحُثُّ المُسْلِمينَ عَلى ذِكْرِ اللّهِ وشُكْرِهِ[1].

شَرْحُ المُفْرَدَاتِ:

الذِّكْرُ تَعْبيرٌ عَنْ حُضورِ اللهِ في قَلْبِ العَبْدِ

1) ﴿فَٱذۡكُرُونِيٓ أَذۡكُرۡكُمۡ﴾: كلاهُما مِنَ الجذْرِ (ذكر)، وذِكْرُ الشَّيْءِ بالصَّوْتِ وُجودٌ قَويٌّ لَهُ، يَتْبَعُهُ وُجودُهُ في الأَسْماعِ والقُلوبِ، قالَ تَعالى: ﴿سَمِعۡنَا فَتٗى يَذۡكُرُهُمۡ﴾ [الأنبياء: 60]، وجُمْهورُ ما في القُرْآنِ مِنَ الذِّكْرِ اللِّسانيِّ، ومِنْهُ ذِكْرُ اللّهِ، وذِكْرُ اسْمِ اللّهِ، وفِعْلُ الأَمْرِ مِنْهُ يَصْلُحُ لذِكْرِ اللِّسانِ، وضِدِّ النِّسيانِ، ومِنْهُ الذِّكْرُ باللِّسانِ، وأَنّهُ قُوَّةُ وُجودٍ وإِعْلانُ اسْمٍ يَتَأَتّى، و"الذِّكْرُ: الشَّرَفُ"[2]، قال تعالى: ﴿وَإِنَّهُۥ لَذِكۡرٞ لَّكَ وَلِقَوۡمِكَۖ﴾ [الزّخرف: 44]، ومِنْهُ الذِّكْرُ: الحِفْظُ للشَّيْءِ، ضِدُّ النِّسيانِ؛ لأَنَّ ذِكْرَ الشَّيْءِ يَعْني بَقاءَهُ قَويًّا واضِحًا في الذِّهْنِ.

وحَصيلَةُ ذَلِكَ كُلِّهِ، أَنَّ (ذكر اللّه)، يُعَبِّرُ عَنْ حُضورِ اللّهِ في قَلْبِ العَبْدِ، فإِذا كانَ العَبْدُ خاليًا، فإِنَّهُ يَذْكُرُ رَبَّهُ في قَلْبِهِ ولِسانِهِ، وإِذا كانَ يَشْهَدُ حَدَثًا، أَوْ يَفْعَلُ شَيْئًا، فإِنَّهُ يَذْكُرُ اللّهَ، لَيْسَ لأَنَّهُ نَسيَ، بَلْ لشِدَّةِ حُضورِهِ في قَلْبِهِ، فإِنَّهُ يَذْكُرُهُ في كُلِّ فِعْلٍ، وعَلى هَذا تُساعِدُ عِبارَةُ الرّاغِبِ: "الذِّكْرُ ذِكْرانِ: ذِكْرٌ بالقَلْبِ، وذِكْرٌ باللِّسانِ، وكُلُّ واحِدٍ مِنْهُما ضَرْبانِ: ذِكْرٌ عَنْ نِسْيانٍ، وذِكْرٌ لا عَنْ نِسْيانٍ، بَلْ عَنْ إِدامَةِ الحِفْظِ"[3].

(1) أبو زهرة، زهرة التّفاسير: 1/463.
(2) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (ذكر).
(3) الراغب، المفردات: (ذكر).

وفي الآيَةِ - فيما يتعلَّق بالعبد - يَحْتَمِلُ كُلَّ ذَلِكَ، الذِّكْرَ، والتَّذَكُّرَ لا عَنْ نِسْيانٍ، بَلْ إظْهارُ المَحْفوظِ في القَلْبِ (شِدَّةُ حُضورِ اللّهِ في قَلْبِ المُؤْمِنِ)، وفيما يتعلَّق باللّه تعالى، فالمراد هو ثناؤه سبحانه في الملأ الأعلى على مَن ذكره.

الشُّكْرُ عِرْفانُ الإحْسانِ لصاحِبِهِ ونَشْرُهُ وإظْهارُهُ

2) ﴿وَٱشۡكُرُواْ لِي﴾: مِنَ الجذْرِ (شكر)، والشُّكْرُ: عِرْفانُ الإحْسانِ لصاحِبِهِ ونَشْرُهُ، وإظْهارُهُ؛ إذْ هُوَ تَعْبيرٌ عَنِ امْتِلاءِ النَّفْسِ ورِضاها، بما قُدِّمَ لها من خَيْرٍ، ونُجوعِ هَذا الخَيْرِ فيها، فهُوَ إخْبارٌ عَنِ الشِّبَعِ بنِعْمَةِ اللّهِ، قالَ تَعالى: ﴿لَئِن شَكَرۡتُمۡ لَأَزِيدَنَّكُمۡۖ﴾ [إبراهيم: 7]، وهُوَ الثَّناءُ عَلى المُحْسِنِ بما أَوْلاهُ مِنَ المَعْروفِ، يُقالُ: شَكَرْتُهُ وشَكَرْتُ لهُ، وباللّامِ أَفْصَحُ، ولَمّا كانَ الشُّكْرُ يَعْني تَصَوُّرَ النِّعْمَةِ وإظْهارَها، فيَكونُ ضِدَّهُ الكُفْرُ، وهُوَ: نِسْيانُ النِّعْمَةِ وسَتْرُها، ودابَّةٌ شَكورٌ: مُظْهِرةٌ بسِمَنِها إسْداءَ صاحِبِها إلَيْها[1]، وكُلُّ ما في القُرْآنِ مِنَ التَّرْكيبِ هُوَ مِن شُكْرِ النِّعْمَةِ هَذا[2].

الكافِرُ باللّهِ غَطَّى في نَفْسِهِ شَواهِدَ وُجودِ اللهِ وعَظَمَتِهِ

3) ﴿وَلَا تَكۡفُرُونِ﴾: مِنَ الجِذْرِ (كفر)، وهو أَصْلٌ[3] يَدُلُّ عَلى مَعْنًى واحِدٍ، وهُوَ السَّتْرُ والتَّغْطِيَةُ تَغْطِيَةً تامَّةً كَثيفَةً لا يَظْهَرُ مَعَها شَيْءٌ مِنَ المُغَطّى، ويُقالُ للزّارِعِ كافِرٌ، لأَنَّهُ يُغَطِّي الحَبَّ بتُرابِ الأَرْضِ، والكُفْرُ: ضِدُّ الإيمانِ، سُمِّيَ لأَنَّهُ تَغْطِيَةُ الحَقِّ، فالكافِرُ باللّهِ، غَطَّى في نَفْسِهِ شَواهِدَ وُجودِ اللّهِ وعَظَمَتِهِ الظّاهِرَةِ والباطِنَةِ، أَوْ تَغَطَّى عَنْها، ومن ذَلِكَ كُفْرُ النِّعْمَةِ، كَفَرَ نِعْمَةَ اللّهِ: جَحَدَها، أَنْكَرَها وغَطّاها، أَوْ تَغَطَّى عَنْها، كأَنَّها غَيْرُ مَوْجودَةٍ، قالَ تَعالى: ﴿وَبِنِعۡمَتِ ٱللَّهِ

(1) الراغب، المفردات: (شكر).

(2) ابن منظور، لسان العرب، جبل، المعجم الاشتقاقي المؤصل: (شكر).

(3) ابن فارس، مقاييس اللّغة، جبل، المعجم الاشتقاقي المؤصل: (كفر).

﴿هُمۡ يَكۡفُرُونَ ٧٢﴾ [النّحل: 72]، وهَذا ضِدُّ ﴿وَأَمَّا بِنِعۡمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثۡ ١١﴾ [الضّحى: 11]، وفي الآيَةِ المُرادُ بالكفر كُفْرُ النِّعْمَةِ وهُوَ نقيضُ الشُّكْرِ.

المَعْنَى الإِجْمَالِيُّ:

ذِكْرُ اللهِ بالامْتِثالِ والشُّكْرانِ، يُقابِلُهُ اللهُ بالثَّوابِ والإحْسانِ

يَأْمُرُ اللّهُ تَعالى المُؤْمنِينَ بذِكْرِه، فيَقولُ لَهُمْ: اذْكُروني بقلوبكم وجوارحكم بالطّاعَةِ والامْتِثالِ والعَمَلِ الصّالِح، مِثْلُ الحَمْدِ والتَّسْبيح والشُّكْرِ، وقِراءَةِ القُرْآنِ، وتَدَبُّرِ آياتِه، أَذْكُرْكُمْ عِنْدي بالثناء عليكم في الملأ الأعلى والحفظ لكم، وإِفاضَةِ الخَيْرِ، ودَوام السَّعادَةِ والعِزَّةِ؛ فالجزاء من جنس العمل، واشْكُروا نِعْمَتِيَ الَّتي أَنْعَمْتُها عَلَيْكُمْ بالقَلْبِ واللِّسانِ، واسْتِعْمالِ كُلِّ عُضْوٍ فيما خُلِقَ لهُ مِنَ الخَيْرِ والنَّفْعِ، ولا تَكْفُروا هَذِهِ النِّعَمَ، بصَرْفِها في غَيْرِ ما يُبيحُهُ الشَّرْعُ، فإِنِّي مُجازيكُمْ عَلى ما قَدَّمْتُم، إِنْ خَيْرًا فخَيْرٌ، وإِنْ شَرًّا فشَرٌّ[1].

الإِيضَاحُ اللُّغَوِيُّ وَالبَلَاغِيُّ:

دَلالَةُ العَطفِ بالفاء في قَولِه تَعالى: ﴿فَٱذۡكُرُونِيٓ﴾:

يأتي الذِّكْرُ بمَعْنى الشُّكْرِ إذا اقترَنَ بما يُؤيده

أفادتِ الفاءُ معنى السَّبَبِيَّة، فما قَبْلَها سَبَبٌ لما بَعْدَها، وهِيَ للتَّفريع، إذ عَطَفَتْ جُمْلَةَ الأَمْرِ بذِكْرِ اللّهِ وشُكْرِه، عَلى جُمَلِ النِّعَم المُتَقَدِّمَة، أَيْ: إِذْ قَدْ أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ بتِلْكَ النِّعَم، فأنا آمُرُكُمْ بذِكْري[2]، وفُسِّر الذِّكْرُ بأَنَّهُ يَشْمَلُ جميعَ الطّاعاتِ، وبهَذا المَعْنى يَكونُ الذِّكْرُ بمَعْنى الشُّكْرِ، لاسِيَّما وقَدْ ذُكِرَ بَعْدَ الفاءِ السَّبَبِيَّة، المُفيدَةِ لكَوْنِ مَدْخولِها جزاءً لما تَقَدَّمَ، وكَوْنِ مَضْمونِ الكَلامِ السّابِقِ شَرْطًا لهُ، فهُوَ فِعْلُ أَمْرٍ وجوابُهُ، وفيه مَعْنى الشَّرْطِ[3]، فكَأَنَّهُ قيلَ: (إذا أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ بهَذِهِ النِّعَم الجَليلَة، فاذْكُروني بالطّاعَة)، والطّاعَةُ الواقِعَةُ بإزاءِ النِّعْمَةِ المُسَبَّبَة عَنْها، هِيَ الشُّكْرُ بلا شُبْهَةٍ[4].

(1) وهبة الزحيلي، التّفسير المنير: 2/35، والمختصر في تفسير القرآن الكريم، ص: 23.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 2/50.
(3) القنوجي، فتح البيان: 1/315.
(4) زاده، حاشيّة على البيضاويّ: 2/389.

دَلالَةُ مَعْنى الشَّرْطِ في قَوْلِهِ: ﴿فَٱذۡكُرُونِيٓ أَذۡكُرۡكُمۡ﴾:

في الآيَةِ مَعْنى الشَّرْطِ، بتَقْدير: (إنْ تَذْكُروني أَذْكُرْكُمْ)، وحُذِفَتْ صِلَتا الفِعْلَيْنِ اخْتِصارًا، والمعنى: (اذْكُروني بالطّاعَةِ، أَذْكُرْكُمْ بالمَغْفِرَةِ)[1].

المَجازُ والمُشاكَلَةُ في قَوْلِهِ ﴿أَذۡكُرۡكُمۡ﴾:

مكانةُ الذّاكرين تعظُمُ بقدرِ ذِكرِهم لله تعالى في قلوبِهم وألسنتِهم وجوارِحِهم

المُرادُ بقولِه: ﴿أَذۡكُرۡكُمۡ﴾ ما يَفْعَلُ بهِمْ مِنَ اللُّطْفِ والإِحْسانِ، وما يُغْدِقُهُ عَلَيْهِمْ من فُيوضاتِ الخَيْراتِ، وفَتْحِ أَبْوابِ السَّعاداتِ، وقَدْ أَطْلَقَ عَلَى هذا المراد لَفْظَ (الذِّكْرِ)، بطَريقِ المَجازِ والمُشاكَلَةِ، لوُقوعِه في صُحْبَةِ ذِكْرِ العَبْدِ[2]، فالذِّكْرُ بمَعْنَيَيْهِ: اللِّسانيِّ، أوِ الذِّكْرِ بَعْدَ النِّسْيانِ، لا يَجوزُ في حَقِّ اللّهِ تَعالى، فلذا كانَ مَجازًا، أَيْ: أُعامِلُكُمْ مُعامَلَةَ مَنْ لَيْسَ مَغْفولًا عَنْهُ، بزِيادَةِ النِّعَمِ والنَّصْرِ والعِنايَةِ في الدُّنْيا، وبالثَّوابِ ورَفْعِ الدَّرَجاتِ في الآخِرَةِ، أَوْ أَخْلُقُ ما يَفْهَمُ مِنْهُ النّاسُ في المَلَأِ الأَعْلى وفي الأَرْضِ، فضْلَكُمْ والرِّضا عَنْكُم، وحُسْنَ مَصيرِكُمْ في الآخِرَةِ، والمَفْعولُ بِهِ في ﴿أَذۡكُرۡكُمۡ﴾ مَجازٌ أَيْضًا، فهُوَ لا يَذْكُرُهُمْ بذَواتِهِم، إذْ لَيْسَ المُرادُ تَذَكُّرَ الذَّواتِ ولا ذِكْرَ أَسْمائِها، بَلِ المُرادُ تَذَكُّرُ ما يَنْفَعُهُم - إذا وصَلَ إِلَيْهِم -، وذِكْرُ فضائِلِهِمْ[3].

الفَرْقُ بَيْنَ قَوْلِهِ: ﴿ٱذۡكُرُواْ نِعۡمَتِيَ﴾ [البقرة: 40] وقَوْلِهِ: ﴿فَٱذۡكُرُونِيٓ﴾:

أُمَّةُ الإسْلامِ خَيْرُ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ للنَّاسِ

لَقَدْ كانَ الخِطابُ مُوَجَّهًا إلى بني إِسْرائيلَ بقَوْلِهِ تَعالى في سورَةِ البَقَرَةِ: ﴿يَٰبَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ ٱذۡكُرُواْ نِعۡمَتِيَ ٱلَّتِيٓ أَنۡعَمۡتُ عَلَيۡكُمۡ﴾ [البقرة: 40]، وقالَ لأُمَّةِ مُحَمَّدٍ ﷺ: ﴿فَٱذۡكُرُونِيٓ أَذۡكُرۡكُمۡ﴾، ليَكونَ نَظَرُ الأُمَمِ مِنَ النِّعْمَةِ إلى المُنْعِمِ، ونَظَرُ أُمَّةِ مُحَمَّدٍ مِنَ المُنْعِمِ إلى النِّعْمَةِ، وشَتّانَ بَيْنَ هَذا وذاكَ[4].

---

(1) بهجت الشّيخلي، بلاغة القرآن الكريم في الإعجاز: 1/345.

(2) زاده، حاشيّة على البيضاويّ: 2/388.

(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 2/50-51.

(4) الدّرّة، تفسير القرآن وإعرابه وبيانه: 1/354.

الفَرْقُ الدَّلالِيُّ بَيْنَ قَوْلِهِ: (شَكَرَهُ) و(شَكَرَ لَهُ):

الشُّكْرُ لله هُوَ أَنْ تَعْتَبِرَ إحْسانَهُ الصَّادِرَ عَنْهُ وشكرُه أن تعتبرَ ذاته

إذا اعتبرتَ إحسانَ المشكورِ الصَّادرَ عنه فتقول: شَكَرْت لهُ: فتُثْني عَلَيْه بذَلِك، وإذا لَمْ تَلْتَفِتْ إلى فِعْلِه، بَلْ تَجاوَزْتَ إلى ذِكْرِ ذاتِه دونَ اعْتِبارِ أَحْوالِه وأَفْعالِه؛ فتقول: شكرته، وقال هنا: ﴿وَٱشْكُرُواْ لِى﴾، ولَمْ يَقُلْ: (واشْكُرُوني) عِلْمًا بقُصورِهِمْ عَنْ إدْراكِه، بَلْ عَنْ إدْراكِ آلائه، كما قالَ تَعالى: ﴿وَإِن تَعُدُّواْ نِعْمَةَ ٱللَّهِ لَا تُحْصُوهَآ﴾ [إبراهيم: 34]، فأَمَرَهُمْ أَنْ يَعْتَبِروا بَعْضَ أَفْعالِه في الشُّكْرِ[1]، ومَعَ الفَرْقِ الدَّلالِيِّ بَيْنَ (اشْكُروني) و﴿وَٱشْكُرُواْ لِى﴾، فإنّ الوَجْهَ الأَفْصَحَ في اللُّغَةِ تَعْدِيَتُهُ باللّام، وتُسَمَّى لامَ التَّبْليغِ، ولامَ التَّبْيين، كما قالوا: نَصَحَ لهُ، ونَصَحَهُ، كقَوْلِهِ تَعالى: ﴿فَتَعْسًا لَّهُمْ﴾ [محمّد: 8][2].

قَوْلُهُ: ﴿وَٱشْكُرُواْ لِى﴾، يَتَعَدَّى في الأَكْثَرِ باللّام، وشَكَرْتُ للّه: اعْتَرَفْتُ بنِعْمَتِه، وفَعَلْتُ ما يَجِبُ من فِعْلِ الطّاعَةِ، وتَرْكِ المَعْصِيَّةِ، ولهَذا يَكونُ الشُّكْرُ بالقَوْلِ والعَمَلِ، ورُبَّما تَعَدَّى بنَفْسِه، فيُقالُ: شَكَرْتُهُ، وأَشارَ أبو حَيّانَ إلى أنَّهُ يَتَعَدَّى بحَرْفِ الجَرِّ، ويَتَعَدَّى بنَفْسِه، وأَنْشَدَ قَوْلَ القائِل:

ولَوْ كانَ يَسْتَغْني عَنِ الشُّكْرِ مُنْعِمٌ *** لرِفْعَةِ شَأْنٍ أَوْ عُلُوِّ مَكانِ
لما أَمَرَ اللّه العِبادَ بشُكْرِه *** فقالَ اشْكُروا لي أيُّها الثَّقَلانِ[3]

بلاغةُ أُسْلوبِ الاحتراسِ في قَوْلِهِ تَعالى: ﴿وَلَا تَكْفُرُونِ﴾:

النَّهْيُ فِي الآيَةِ، هُوَ مَحْضُ التَّنْبيهِ، عَلى أَنَّ تَرْكَ الشُّكْرِ كُفْرانٌ

لسائِلٍ أن يسأَلَ عن قَوْلِه: ﴿وَٱشْكُرُواْ لِى﴾، إذ إنَّه يَقْتَضي النَّهْيَ عَنِ الكُفْرِ، فبفِعْلِ الشُّكْرِ يَنْتَفي الكُفْرُ، فما فائِدَةُ قَوْلِه: ﴿وَلَا تَكْفُرُونِ﴾، إذا كانَ الأَمْرُ بالشُّكْرِ يَقْتَضيه؟

والجَوابُ: لا يُسَلَّمُ أَنَّهُ يَقْتَضيه؛ لأَنَّ المُرادَ بالكُفْرِ سَتْرُ النِّعْمَةِ،

(1) البروسوي، روح البيان: 1/256.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 2/51.
(3) السّيوطيّ، نواهد الأبكار: 2/344.

والشُّكْرُ لا يَقْتَضي عَدمَهُ[1]، قيلَ لابْنِ عَرَفَة: إِنَّهُ دَليلٌ على أَنَّ الأَمْرَ بالشَّيْءِ لَيْسَ نَهْيًا عَنْ ضِدِّه، إِذْ لَوْ كانَ نَهْيًا عَنِ الضِّدِّ، لما كانَ لقَوْلِه: ﴿وَلَا تَكۡفُرُونِ﴾ فائِدَةٌ؟ فقالَ: الأَمْرُ بالشُّكْرِ مُطْلَقٌ فيَصْدُقُ بشُكْرِهِ يَوْمًا واحِدًا، ثُمَّ يَكْفُرُ دائمًا، فلَمّا قالَ: ﴿وَلَا تَكۡفُرُونِ﴾، أفادَ النَّهْيَ عَنِ الكُفْرِ دائمًا[2]، والكُفْرُ هُنا لَيْسَ كُفْرًا باللّٰه، بَلْ هُوَ كُفْرانُ النِّعْمَةِ وجَحْدُها، فلَوْ أرادَ الكُفْرَ الَّذي هُوَ ضِدُّ الإيمانِ، لقالَ: (ولا تَكْفُرُوا)، فقَوْلُهُ: ﴿وَلَا تَكۡفُرُونِ﴾، هَذِهِ نونُ المُتَكَلِّم، وحُذِفَتْ نونُ الجَماعَةِ للجَزْمِ، وحُذِفَتِ الياءُ الَّتي بَعْدَها تَخْفيفًا؛ لأَنَّها رَأْسُ آيَة، ولَوْ كانَ نَهْيًا عَنِ الكُفْرِ ضِدِّ الإيمانِ، لكانَ: ولا تَكْفُروا، بغَيْرِ النُّونِ[3]، فالجَمْعُ بَيْنَ الأَمْرِ بالشُّكْرِ والنَّهْيِ عَنِ الكُفْرِ ضَرورَةٌ؛ فلَوِ اقْتَصَرَ على قَوْلِه: ﴿وَٱشۡكُرُواْ لِي﴾، لكان يَجوزُ أَنْ يُتَوَهَّمَ أَنَّ مَنْ شَكَرَهُ مَرَّةً، أَوْ عَلى نِعْمَةٍ ما، فقَدِ امْتَثَلَ، ولَوِ اقْتَصَرَ عَلى قَوْلِه: ﴿وَلَا تَكۡفُرُونِ﴾، لكانَ أَنْ يُتَوَهَّمَ أَنَّ ذَلِكَ نَهْيٌ عَنْ تَعاطي فِعْلٍ قَبيحٍ دونَ حَثٍّ عَلى الفِعْلِ الجَميلِ، فجَمَعَ بَيْنَهُما لإِزالَةِ هَذا التَّوَهُّمِ؛ ولأَنَّ في قَوْلِه: ﴿وَلَا تَكۡفُرُونِ﴾، تَنْبيهًا عَلى أَنَّ تَرْكَ الشُّكْرِ كُفْرانٌ[4].

بلاغةُ الإيجازِ بالحَذْفِ في قَوْلِهِ: ﴿وَٱشۡكُرُواْ لِي وَلَا تَكۡفُرُونِ﴾:

شُمولُ جميعِ النِّعَمِ التي يُدرِكُها المؤمنُ بقلبه وعقله

المطلوبُ بالشُّكرِ هو شكر النِّعْمَة، وهي مَحْذوفَةٌ مِنَ الآيَة لفظًا؛ لأَنَّ مَعْنى الكَلامِ: (واشْكُروا لي نِعْمَتي)؛ لأَنَّ حَقيقَةَ الشُّكْرِ إِنَّما هُوَ إِظْهارُ النِّعْمَةِ، لا إِظْهارُ المُنْعِم، وكذَلِكَ ﴿وَلَا تَكۡفُرُونِ ١٥٢﴾، أَيْ: لا تَكْفُروا نِعْمَتي[5]، وقد حُذِفت لظُهورِ معناها في سياقِ الكلامِ، وهي تعمُّ كلَّ نعمةٍ، ولو ذكرت لظَنَّ أَنَّ المقصودَ نعمةٌ مخصوصة.

دَلالَةُ التَّناسُبِ اللَّفْظِيِّ والتَّناسُقِ الصَّوْتِيِّ في أَلْفاظِ الآيَةِ:

تَجلِّيَاتُ مَتانَةِ النَّصِّ، وحُسْنِ سَبْكِهِ، ورَوْعَةِ تَماسُكِهِ

وَرَدَ في الآيَةِ أَلْفاظٌ فيها تَناسُبٌ لَفْظِيٌّ وتَناسُقٌ في الصَّوْتِ: (ذكر، شكر، كفر)، فهِيَ مُتَوافِقَةٌ باحْتِوائِها عَلى صَوْتَيِ (الكافِ،

(1) زكريا الأنصاري، فتح الرّحمن بكشف ما يلتبس في القرآن: 1/47.
(2) ابن عرفة، تفسير ابن عرفة: 2/468.
(3) ابن عطيّة، المحرر الوجيز: 1/227.
(4) البروسوي، روح البيان: 1/256.
(5) الواحدي، التّفسير البسيط: 3/420.

والرّاءِ)، واحْتَوَتْ عَلى الأَضْدادِ (الشُّكْرِ والكُفْرِ)، وتَكْرارِ الأَلْفاظِ ﴿فَٱذۡكُرُونِيٓ أَذۡكُرۡكُمۡ﴾، وهُوَ أَمْرٌ ووَعْدٌ، وتَكَرَّرَتْ فيها حُروفُ العَطْفِ ثَلاثَ مَرّاتٍ، والآيَةُ احْتَوَتْ عَلى فِعْلَيْ أَمْرٍ: ﴿فَٱذۡكُرُونِيٓ﴾، ﴿وَٱشۡكُرُواْ لِي﴾، واحْتَوَتْ عَلى وعْدٍ: ﴿أَذۡكُرۡكُمۡ﴾، ونَهْيٍ: ﴿وَلَا تَكۡفُرُونِ﴾، وفِعْلُ الأَمْرِ الأَوَّلُ وقَعَ بَعْدَهُ طَلَبٌ، فهُوَ كالشَّرْطِ، ﴿فَٱذۡكُرُونِيٓ أَذۡكُرۡكُمۡ﴾، وفِعْلُ الأَمْرُ الثّاني وقَعَ بَعْدَهُ نَهْيٌ، ليُتَمِّمَ المَعْنى: ﴿وَٱشۡكُرُواْ لِي وَلَا تَكۡفُرُونِ ١٥٢﴾، والأَمْرُ هُنا والنَّهْيُ مُتَقابِلانِ مِنَ الأَضْدادِ، فنَرى الآيَةَ مُتَوافِقَةً ومُتَكَرِّرَةً في صِيَغِها وجُذورِها وحُروفِها، وهَذا يُبَيِّنُ مَتانَةَ النَّصِّ، وحُسْنَ سَبْكِهِ ورَوْعَةَ تَماسُكِهِ.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱسۡتَعِينُواْ بِٱلصَّبۡرِ وَٱلصَّلَوٰةِۚ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلصَّٰبِرِينَ ١٥٣﴾ [البقرة: 153]

❁ مُناسَبَةُ الآيَةِ لِمَا قَبْلَها:

الإِنْسانُ إِمَّا في نِعْمَةٍ فيَشْكُرُ، وإِمَّا في نِقْمَةٍ فيَصْبِرُ

لما سُبِقَتِ الآيةُ بذِكْرِ الأَذى مِنَ الـمُسْتَهْزِئينَ والسُّفَهاءِ، في شَأْنِ تَحْويلِ القِبْلَة، وتَخَلَّلَها الأَمْرُ باسْتِقْبالِ المَسْجِدِ الحَرام، وخَشْيَةِ اللّهِ، واسْتِباقِ الخَيْراتِ، وذِكْرِ اللّهِ، وشُكْرِه، نَاسَبَ أَنْ يَعْقُبَهَا بالأَمْرِ بالاسْتِعانَةِ بالصَّبْرِ والصَّلاةِ، فإِنَّ تِلْكَ الفَرائِضَ، ومَواقِفَ المُعانِدينَ، تَتَطَلَّبُ التَّزَوُّدَ بالقُوَّةِ، فدَلَّهُمْ عَلى أَنَّ مِدادَ ذَلِك يَكْمُنُ في الصَّبْرِ والصَّلاةِ، فلَمْ يَأْمُرْهُمْ بالصَّلاةِ والصَّبْرِ، بَلْ طَلَبَ مِنْهُمُ الاسْتِعانَةَ بهما إِزاءَ تِلْكَ الفَرائِضِ، وإِزاءَ اللَّجاجِ الَّذي أَثارَهُ أَهْلُ الفِتْنَةِ[1]، فلَمّا سَبَقَ الأَمْرُ بالشُّكْرِ، ناسَبَ أَنْ يُتْبِعَهُ بالصَّبْرِ، فجاءَ التَّوْجيهُ إِلى الاسْتِعانَةِ بالصَّبْرِ والصَّلاةِ؛ فإِنَّ الإِنْسانَ إِمّا أَنْ يَكونَ في نِعْمَةٍ فيَشْكُرَ اللّه تعالى عَلَيْها، وإِمّا في نِقْمَةٍ فيَصْبِرَ عَلَيْها.

❁ شَرْحُ المُفْرَداتِ:

الإِيمانُ ثِقَةٌ وخُضوعٌ، والْتِزامٌ بالشَّرْعِ

1) ﴿ءَامَنُواْ﴾: مِنَ الجِذْرِ (أمن)، وأَصْلُه: وثاقَةٌ في الباطِنِ، وسُكونُ القَلْبِ، والتَّصْديقُ، كالنّاقَةِ الوَثيقَةِ الخَلْقِ، وآمَنُ المالِ وآمَنُ الدّواءِ: خالِصُهُ: لُبُّهُ الـمُتَمَكِّنُ في باطِنِه، ومِنْهُ: آمَنَ بالشَّيْءِ: صَدَّقَ، (قَبِلَ الكَلامَ ووَثِقَ بِه فتَمَكَّنَ من قَلْبِه)، والإِيمانُ: الثِّقَةُ، وإِظْهارُ الخُضوعِ، وقَبولُ الشَّريعَةِ[2]، أَي الإِيمانُ بدينٍ أَوْ عَقيدَةٍ، قَبولُ تَعاليمِ الدِّينِ وتَصَوُّراتِه، وتَمَكُّنُها في القَلْبِ وامْتِلاؤُهُ بها.

(1) البقاعي، نظم الدّرر: 2/245-246.
(2) الفيروزابادي، القاموس المحيط: (أمن).

مَدلول (اسْتَعينوا) اطْلُبوا العَوْنَ والمَدَدَ والقُوَّةَ

2) ﴿ٱسْتَعِينُواْ﴾: مِنَ الجذْرِ (عون)، وهو أَصْلٌ يَدُلُّ عَلى مَدَدٍ زائِد، أَوِ امْتِدادٍ من قُوَّةٍ، ومِنَ الأَصْلِ أُخِذَ العَوْنُ: الظَّهيرُ، فهُوَ يُقَوِّي أَيْ يُمِدُّ بالقُوَّةِ، ومِنْهُ الإعانَةُ، وبهَذا المَعْنى سائِرُ ما جاء في القُرْآنِ مِنَ التَّرْكيب، قال تَعالى: ﴿فَأَعِينُونِي بِقُوَّةٍ﴾ [الكهف: 95]، أَيْ (أَمِدُّوني)، ومَعْنى قَوْلِه: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ۝٥﴾ [الفاتحة: 5]، نَطْلُبُ العَوْنَ، وقَدْ جاءَ من هَذِهِ الصّيغَةِ الأَخيرَة، صيغَةُ الطَّلَب، وصيغَةُ المَطْلوبِ مِنْهُ العَوْنُ: (المُسْتَعانُ)[1]، وقَوْلُهُ: ﴿ٱسْتَعِينُواْ﴾ تَعْني: اطْلُبوا العَوْنَ والمَدَدَ والقُوَّةَ.

الصَّبْرُ الدَّعْوَةُ لتَوْطينِ النَّفْسِ عَلى احْتِمالِ المَكارِهِ

3) ﴿بِٱلصَّبْرِ﴾، ﴿ٱلصَّٰبِرِينَ﴾: مِنَ الجذْرِ (صبر)، ومِنْهُ أُخِذَ (الصَّبْرُ): نَقيضُ الجَزَعِ، "وحَقيقَتُهُ الثَّباتُ للمُصيبَةِ أَوِ المَشَقَّة، والتَّماسُكُ والاسْتِمْرارُ، وعَدَمُ الانْقِطاعِ أَوِ الزَّوالِ عَنْهُ، قالَ تَعالى: ﴿ٱسْتَعِينُواْ بِٱلصَّبْرِ﴾، أَيْ بالثَّباتِ عَلى ما أَنْتُمْ عَلَيْهِ مِنَ الإيمان، وكُلُّ ما في القُرْآنِ من هَذا التَّرْكيب، فهُوَ بمَعْنى الثَّباتِ عِنْدَ الشِّدَّةِ أَوِ المُجاهَدَةِ[2]، والأَمْرُ بالصَّبْرِ، أَوِ الدَّعْوَةُ لَهُ، هُوَ الدَّعْوَةُ لتَوْطينِ النَّفْسِ عَلى احْتِمالِ المَكارِهِ، وتَحَمُّلِ المَشاقِّ.

4) ﴿وَٱلصَّلَوٰةِۚ﴾: مِنَ الجذْرِ (صلي)، وجَعَلوا الدُّعاءَ هُوَ الأَصْلَ في تَسْمِيَةِ الصَّلاةِ المَفْروضَة، فلمَعْنى الضَّراعَةِ اسْتُعْمِلَتْ في أَهَمِّ صُوَرِ التَّضَرُّعِ للَّه (ﷻ)، وهِيَ الصَّلاةُ ذاتُ الرَّكوعِ والسُّجود، قالَ تَعالى: ﴿إِنَّ ٱلصَّلَوٰةَ كَانَتْ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ كِتَٰبًا مَّوْقُوتًا ۝١٠٣﴾ [النّساء: 103]، والاجْتِهاداتُ في المَأْخَذِ الاشْتِقاقِيِّ للصَّلاةِ كَثيرَةٌ، وفيها تَكَلُّفٌ، والرّاجِحُ ما ذَهَبَ إلَيْهِ ابْنُ فارس، إذ قالَ: "فأَمَّا الصَّلاةُ فيُقالُ: إِنَّها من صَلَّيْتُ العُودَ، إذا لَيَّنْتَهُ، لأَنَّ المُصَلّي يَلينُ ويَخْشَعُ"[3].

---

(1) جبل، المعجم الاشتقاقي المؤصل: (عون).
(2) جبل، المعجم الاشتقاقي المؤصل: (صبر).
(3) ابن فارس، مجمل اللّغة: (صلي).

والَّذي جاءَ في القُرْآنِ مِنَ التَّرْكيبِ: الدُّعاءُ، والعِبادَةُ الـمَعْروفَةُ، وصُلِيُّ النّارِ وتَصْليَتُها، وسِياقُ كُلٍّ مِنْهُما مُتَمَيِّزٌ[1].

والمعنى في الآية: عبادةُ الصَّلاةِ ذاتُ الرَّكوعِ والسُّجودِ.

۞ المَعْنَى الإِجْمَاليُّ:

الصَّلاةُ تَزيدُ مِنْ قُــوَّةِ الإيـمـانِ، وتُـعــينُ عَـلـى الثَّباتِ في الحَياةِ

يُخاطِبُ اللّٰهُ تَعالى الـمُؤْمنينَ ويُوَجِّهُهُمْ إلى الاِسْتِعانَةِ بالصَّبْرِ والصَّلاةِ، فيُوَطِّنوا أَنْفُسَهُمْ عَلى الثَّباتِ والتَّمَسُّكِ، وتَحَمُّلِ الـمَشاقِّ، وحَبْسِ النَّفْسِ وكَفِّها عَمّا تَكْرَهُ فإنَّ تَحَمُّلَ التَّكاليفِ والـمَسْؤوليَّةِ، وكَوْنَهُمْ أُمَّةً وسَطًا، يَحْملونَ الحَقَّ، كُلِّفوا بالثَّباتِ عَلَيْهِ، ومُواجَهَةِ الـمُعانِدينَ والـمُكَذِّبينَ، وفي ذَلِكَ لا بُدَّ مِنَ التَّزَوُّدِ بِعِبادَةِ اللّٰهِ بالصَّلاةِ لَهُ تَعالى ومُناجاتِهِ، وبالفزع منكم - معشرَ المؤمنين - فيما يَنوبكم من مُفظِعات الأمور إلى الصلاة لي، فإنكم بالصبر على المَكاره تُدركون مرضاتي، وبالصلاة لي تستنجحون طلباتكم قبَلي، وتدركون حاجاتكم عندي؛ ليَزيدكُمْ ربُّكم من قُوَّةِ الإيمانِ والثَّباتِ، لأنَّ اللّٰه تَعالى مَعَ الصّابرينَ، الَّذينَ يَثْبُتونَ عَلى تَعاليمِ رَبِّهِم، فهُوَ مَعَهُمْ حِفْظًا وتَأْييدًا ولُطْفًا، فأَمَرَ عِبادَهُ الـمُؤْمِنينَ، بالاِسْتِعانَةِ في جَميعِ أُمورِهِمْ الدِّينيَّةِ والدُّنْيَوِيَّةِ بالصَّبْرِ، وأَنْ يَسْتَعينوا بالصَّلاةِ، مُخْبِرًا سُبْحانَهُ، أَنَّهُ مَعَ الصّابِرينَ مَعِيَّةً خاصَّةً، تَقْتَضي القُرْبَ مِنْهُم، ومَحَبَّتَهُم، ونَصْرَهُمْ وإعانَتَهُم[2].

۞ الإيضَاحُ اللُّغَويُّ وَالبَلَاغِيُّ:

دَلالَةُ أُسْلوبِ النِّداءِ في قَوْلِهِ: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾:

تنبيهُ المؤمنين إلى عظيم شأنِ الأخبارِ المطلوبِ تحقيقُها

افْتُتِحَ الكَلامُ بالنِّداءِ، بقَوْلِهِ تَعالى: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾، وهو اعْتِراضٌ مُطْنِبٌ ابْتُدِئَ بِهِ إعْدادُ الْمُسْلِمينَ لِمَا هُمْ أَهْلُهُ مِنْ نَصْرِ دِينِ اللّٰهِ شُكْرًا لَهُ عَلَى ما خَوَّلَهُمْ مِنَ النِّعَمِ المَعْدُودَةِ في الآيَاتِ

(1) جبل، المعجم الاشتقاقي المؤصل: (صلي).
(2) ابن جرير، جامع البيان: 2/698.

السَّالِفَة، وَافْتُتِحَ الْكَلَامُ بِالنِّدَاءِ لِأَنَّ فِيهِ إِشْعَارًا بِخَبَرٍ مُهِمٍّ عَظِيمٍ، فإِنَّ شَأْنَ الأَخْبارِ العَظيمَةِ الَّتي تُهَوِّلُ الـمُخاطَبَ، أَنْ يُقَدَّمَ قَبْلَها ما يُهَيِّئُ النَّفْسَ لقبولِها؛ لتَسْتَأْنِسَ بها، قَبْلَ أَنْ تَفْجَأَها[1]، فالنِّداءُ يُفيدُ التَّنْبيهَ عَلى ما سَيأْتي بَعْدُ.

سرُّ التَّعبيرِ بالاسمِ الموصولِ دون الاسمِ الظَّاهر:

تنبيهُ المؤمنينَ إلى أنَّ المطلوبَ هو الفعلُ بعد الاعتقادِ

جاءَ نداءُ المؤمنين بالإسْمِ المَوْصولِ، وصِلَتِه الجُمْلَةِ الفِعْليّة، فقالَ: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾، ولَمْ يُنادِهِمْ بالاسم الظَّاهرِ؛ فلَمْ يَقُلْ: (يا أيُّها الـمُؤْمِنُونَ)، كما قالَ: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلْكَـٰفِرُونَ ۝١﴾ [الكافرون: 1]؛ إشارَةً للحَدَثِ، وفِعْلِ التَّصْديقِ الَّذي قاموا بِهِ إزاءَ تَحْويلِ القِبْلَةِ، ولَوْ قالَ: (الـمُؤمنونَ) لكانَ خِطابًا لَهُم بصِفَةِ الإيمانِ الثّابِتَةِ فيهم، من غَيْرِ مُلاحَظَةِ الفِعْلِ الَّذي قاموا بِهِ، فالآيَةُ تناديهم بأوصافِهم، وأفعالِهم، تنبيهًا أنَّ المطلوبَ فيما بعد النِّداءِ هو تطبيقُ ما يعرفونه ويعلمونه.

توجيهُ المخصوصِ بالذِّكرِ في قَوْلِهِ تَعالى: ﴿ٱسْتَعِينُواْ بِٱلصَّبْرِ وَٱلصَّلَوٰةِۚ﴾:

الـصَّـلاةُ أصـلُ العملِ، والصَّبرُ أصلُ الاستمرارِ فيه

خَصَّ النَّظمُ الصَّبْرَ والصَّلاةَ بالذِّكْرِ في حَيِّزِ الاِسْتِعانَةِ، دونَ غَيْرِهما مِنَ العِباداتِ والأَعْمالِ؛ لأَنَّ الصَّبْرَ أَشَدُّ الأَعْمالِ القَلْبِيَّةِ عَلى النَّفْسِ، وخُصَّتِ الصَّلاةُ، لأَنَّها أَشَدُّ عَمَلٍ ظاهِرِيٍّ عَلى الإِنْسانِ، إِذْ فيها انْقِطاعٌ عَنِ الدُّنْيا واتِّجاهٌ إِلى اللّهِ[2]، وهذان الفعلان، هما أصلُ كلِّ نجاحٍ، فالصَّلاة هي أصل العملِ، والصَّبر هو أصل الاستمرارِ.

لماذا كانَ الأَمْرُ بالإِسْتِعانَةِ دونَ فِعْلِ (اصبروا)؟

قالَ تعالى: ﴿ٱسْتَعِينُواْ بِٱلصَّبْرِ﴾، ولَمْ يَقُلِ (اصْبِرُواْ)؛ لأَنَّ الصَّبْرَ لَيْسَ هُوَ الغايَةَ المطلوبة من العبدِ وحدَه، بل المطلوبُ الصَّبرُ الـمُستعانُ به من اللّه تعالى، ففي الأمر بيانُ أنَّ الاستعانةَ هي ركنٌ أصيلٌ في القبولِ، .

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 2/51-52.

(2) وهبة الزحيلي، التّفسير المنير: 2/39-40.

بلاغةُ الفاصلةِ القرآنيَّة:

التَّذْييلُ لبيانِ مَعْنى التَّعْليلِ

لـمّا حَثَّهُمْ عَلى الاِسْتِعانَةِ بالصَّبْرِ، في مُفْتَتَحِ الآيَةِ، بَيّنَ لَهُمْ عِلَّةَ ذَلِكَ في خِتامِها: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلصَّٰبِرِينَ﴾، فكان الأُسْلوبُ تَذْييلًا في مَعْنى التَّعْليلِ، أَيْ: اصْبِروا ليَكونَ اللّهُ مَعَكُم؛ لأَنَّهُ مَعَ الصّابِرينَ[1]، وجاءَتْ هَذِهِ المَعِيّةُ بطَريقَةِ الخَبَرِ المُؤكّد، فأَكَّدَ الجُمْلَةَ بـ (إنّ)، لتَقْوِيَةِ المَعْنى، ولَيْسَ لأَنَّ المُؤْمِنينَ لَدَيْهِمْ شَكٌّ، أَوْ ما يَسْتَوْجِبُ التَّأْكيدَ لتَصْديقِهِم، بَلْ إِنَّ المَعْنى يَحْتاجُ إِلى تَأْكيدٍ.

مَعِيَّةُ اللهِ بالمَدَدِ والعَوْنِ، لا تُنالُ إلَّا بالمُصابَرَةِ

أفادَ التَّعْبيرُ ﴿مَعَ ٱلصَّٰبِرِينَ﴾ أَنَّ الصَّبْرَ يكون بالاجتماعِ والتَّواصي والتآزرِ والتَّعاونِ، وهَذا يُشْعِرُ بأَنَّ للمَعِيَّةِ شَرْطًا، وهُوَ دَوامُ الصَّبْرِ في الشَّخْصِ، فمَعِيَّةُ اللّهِ بالمَدَدِ والعَوْنِ والنُّصْرَةِ، إِنَّما يَجِدُها مَنْ كان ذَلِكَ وصْفَهُ.

الصَّبرُ وسيلةٌ للاستعانةِ به على الغايةِ العظمى وهي الصَّلاةُ

لسائلٍ أن يسأَلَ: لماذا أَمَرَ بالاِسْتِعانَةِ بالصَّبْرِ والصَّلاةِ، وعَلَّلَ الاِسْتِعانَةَ بالصَّبْرِ دونَ الصَّلاةِ؟ والجوابُ: أَنَّ الاِسْتِعانَةَ بالصَّبْرِ تكونُ عَلى المَشاقِّ كُلِّها، ولَمّا كانَ الصَّبْرُ مُسْتَلْزِمًا لتَحْصيلِ جَميعِ العِباداتِ، ومِنْها الصَّلاةُ اسْتَغْنى بِهِ عَنْها[2]، فالصَّلاةُ تَقْتَضي الصَّبْرَ، لأَنَّها طاعَةٌ مِنَ الطّاعاتِ الَّتي تَحْتاجُ إِلى صَبْرٍ.

وقَدْ قيلَ في تَعْليلِ ذَلِكَ: "لـمّا كانَ فِعْلُ الصَّلاةِ أَشْرَفَ وأَعْلى مِنَ الصَّبْرِ، إِذْ قَدْ يَنْفَكُّ الصَّبْرُ عَنِ الصَّلاةِ، ولا تَنْفَكُّ الصَّلاةُ عَنِ الصَّبْرِ، ذَكَرَ هُنا الصّابِرينَ، فعُلِمَ أَنَّهُ تعالى إِذا كانَ مَعَ الصّابِرينَ، فهُوَ لا مَحالَةَ يَكونُ مَعَ المُصَلّينَ بطَريقِ الأَوْلى، وقالَ هُناكَ: ﴿وَإِنَّهَا لَكَبِيرَةٌ إِلَّا عَلَى ٱلۡخَٰشِعِينَ ٤٥﴾ [البقرة: 45]، فذَكَرَ الصَّلاةَ دونَ الصَّبْرِ، تَنْبيهًا عَلى أَنَّها أَشْرَفُ مَنْزِلَةً مِنَ الصَّبْرِ"[3].

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 2/53.
(2) تفسير ابن عرفة: 1/187.
(3) زاده، حاشية على البيضاوي: 2/391.

جمالُ فنِّ التَّصديرِ:

في الآيَةِ مِنَ الـمُحَسِّناتِ اللَّفْظِيَّةِ فنُّ التَّصدير، وهو اتِّفاقُ آخرِ الآيةِ مع أوّلِها، فقالَ في صَدْرِ الآيَةِ: ﴿ٱسۡتَعِينُواْ بِٱلصَّبۡرِ﴾، ثُمَّ قالَ في آخرِها: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلصَّٰبِرِينَ﴾، فردَّ ﴿ٱلصَّٰبِرِينَ﴾ على ﴿بِٱلصَّبۡرِ﴾.

توجيهُ المُتَشابِهِ اللَّفظِيِّ:

الـمُستَعينُ بـالـصَّبْرِ والصَّلاةِ يَحظى بـالـخُـشـوعِ، ويَـفـوزُ بـمَـعِـيَّـةِ اللهِ

هناك تشابُهٌ لفظيٌّ بين قَوْلِهِ تعالى: ﴿وَٱسۡتَعِينُواْ بِٱلصَّبۡرِ وَٱلصَّلَوٰةِۚ وَإِنَّهَا لَكَبِيرَةٌ إِلَّا عَلَى ٱلۡخَٰشِعِينَ ٤٥﴾ [البقرة: 45]، وقَوْلِه تعالى: ﴿ٱسۡتَعِينُواْ بِٱلصَّبۡرِ وَٱلصَّلَوٰةِۚ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلصَّٰبِرِينَ ١٥٣﴾ [البقرة: 153]، وقد اختلفت الآيتان في التَّعْقيبِ والتَّذْييلِ، فلماذا اخْتَلَفَ التَّذْييلُ بَيْنَ الآيَتَيْنِ؟

الجَوابُ عَنْ ذَلِكَ: أَنَّ قَوْلَهُ تَعالى: ﴿وَإِنَّهَا لَكَبِيرَةٌ إِلَّا عَلَى ٱلۡخَٰشِعِينَ ٤٥﴾ [البقرة: 45]، ورَدَ في سِياقِ الحَديثِ عَنْ بَني إِسْرائيلَ، مُشيرًا إلى التَّثاقُلِ عَنْها، والتَّكاسُلِ الجارِيَيْنِ في الغالِبِ والأَكْثَرِ، مَعَ ضعْفِ اليَقينِ، وذَلِكَ مُناسِبٌ لحالِهِم، فلَمّا كان قَوْلُهُ تعالى في الآيَةِ الأولى: ﴿وَٱسۡتَعِينُواْ بِٱلصَّبۡرِ وَٱلصَّلَوٰةِۚ﴾ [البقرة: 45]، مُكْتَنَفًا بأَمْرِ بَني إِسْرائيلَ ونَهْيِهِم، ناسَبَ أَنْ يَكونَ تَذْييلُهُ قَوْلَهُ تعالى: ﴿وَإِنَّهَا لَكَبِيرَةٌ إِلَّا عَلَى ٱلۡخَٰشِعِينَ ٤٥﴾ [البقرة: 45]، ولـمّا كانَتِ الآيَةُ الثّانِيَةُ، مُعَقَّبًا بها أَمْرُ الـمُؤْمِنينَ في قَوْلِهِ تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱسۡتَعِينُواْ بِٱلصَّبۡرِ وَٱلصَّلَوٰةِۚ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلصَّٰبِرِينَ ١٥٣﴾، وحالُ مَنْ وُسِمَ بالإيمانِ حالُ رِضىً واسْتِقامَةٍ، ناسَبَ التَّذْييلُ بمَعِيَّةِ اللّهِ مَعَ الصّابِرينَ، فجاءَ كُلٌّ عَلى ما يُناسِبُ، ولَمْ يَكُنْ لِيُلائِمَ واحِدًا مِنَ الـمَوْضِعَيْنِ غَيْرُ ما أَعْقَبَ بِهِ[1]. إِنَّ اللّهَ تَعالى قالَ في سِياقِ الحَديثِ مَعَ بَني إِسْرائيلَ: ﴿وَإِنَّهَا لَكَبِيرَةٌ﴾، عِلْمًا مِنْهُ بِضعْفِ عَزائِمِهِمْ عَنْ عَظائِمِ الأَعْمالِ، فقال في ذَلِكَ السِّياقِ: ﴿إِلَّا عَلَى ٱلۡخَٰشِعِينَ ٤٥﴾ [البقرة: 45]، ولَمْ يَذْكُرْ مِثْلَ هَذا هُنا، إِشارَةً إلى أَنَّ الـمُسْلِمينَ قَدْ يُسِّرَ لَهُمْ ما يَصْعُبُ عَلى غَيْرِهِم،

(1) ابن الزبير الغرناطي، ملاك التّأويل: 1/32.

وأَنَّهُمْ الخاشِعونَ الَّذينَ اسْتَثْناهُمُ اللّهُ هُنالِكَ، وزادَ هُنا فقالَ: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلصَّٰبِرِينَ ۝١٥٣﴾، فبَشَّرهُمْ بأَنَّهُمْ مِمَّنْ يَمْتَثِلُ هَذا الأَمْرَ، ويُعَدُّ لذَلِكَ في زُمْرَةِ الصّابِرينَ(1).

التَّناسُقُ اللَّفْظِيُّ في ألفاظِ الآيَةِ:

النَّصُّ يَتَضَمَّنُ أُصولَ الدِّينِ، وأَرْقى الأَعْمالِ في الإسْلامِ المَتينِ

وَرَدَ في الآيَةِ الأَلْفاظُ: (الإيمانُ، والصَّبْرُ، والصَّلاةُ، والاِسْتِعانَةُ)، وهَذِهِ أَلْفاظٌ تَحْمِلُ مَعانيَ أَساسِيَّةً في الدِّين، فهِيَ تُمَثِّلُ أَصْلَ الدِّين كما في قَوْلِهِ: ﴿وَٱلْعَصْرِ ۝١ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَفِى خُسْرٍ ۝٢ إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَتَوَاصَوْا۟ بِٱلْحَقِّ وَتَوَاصَوْا۟ بِٱلصَّبْرِ ۝٣﴾ [العصر: 1-3]، وهِيَ خِطابٌ للمُؤْمنينَ فقَط، وجاءَ الإيمانُ والاِسْتِعانَةُ بصيغَةِ الفِعْلِ، والصَّبْرُ والصَّلاةُ بصيغَةِ الاِسْمِ؛ لأَنَّ الإيمانَ والاِسْتِعانَةَ، لوحِظَ فيهِما الإِحْداثُ، فكما أَنَّكُمْ قَدْ صَدَّقْتُم، فلَكُمْ أَنْ تَسْتَعينوا بأَعْمالٍ تُعينُكُمْ عَلى الثَّباتِ عَلى طَريقِ التَّصْديقِ، ولاسِيَّما أَنَّ أَلفاظَ هَذِهِ الآيَةِ، سُبِقَتْ بأَلْفاظِ (الذِّكْرِ، والشُّكْرِ، والكُفْرِ) في صيغَةِ النَّهْيِ، فالآيَتانِ تَتَضَمَّنانِ أُصولَ الدِّينِ، والأَعْمالَ العَظيمَةَ في الإِسْلامِ، بإيجازٍ بَليغٍ.

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 2/53.

﴿وَلَا تَقُولُواْ لِمَن يُقۡتَلُ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ أَمۡوَٰتُۢۚ بَلۡ أَحۡيَآءٞ وَلَٰكِن لَّا تَشۡعُرُونَ ١٥٤﴾ [البقرة: 154]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِمَا قَبْلَها:

الآيَــةُ تهْيئةٌ لِلْمُسْلِمينَ، لاسْتِقْبالِ الشَّدائِدِ والصَّبرِ عَليْها

لـمَّا جاءَ الأَمْرُ في الآيَةِ السَّابِقَةِ بِالاسْتِعَانَةِ بِالصَّبْرِ والصَّلَاةِ، وبَيَانُ أَنَّ اللّٰه تَعالَى مَعَ الصَّابِرِينَ؛ شَرَعَ في الحَدِيثِ عَن مَوَاضِعَ يَلْزَمُ فِيها الصَّبْرُ؛ وهِيَ الابْتِلَاءَاتُ والجِهَادُ في سَبِيلِ اللّٰه تَعَالَى، ومَا يَصْحَبُهُ من القتْلِ، فَهَذِهِ الآيَةُ تَهْيِئَةٌ لِلْمُسْلمينَ لِلصَّبْرِ عَلَى شَدَائِدِ الحَرْبِ، والابْتِلَاءِ الَّذي لَا تَنْفَكُّ الحَيَاةُ عَنْهُ، وتأكيدٌ عَلى أنَّ الشّهادَةَ في سَبيلِ اللّٰهِ هِيَ انْتقالٌ إلى حَياةٍ أَرْقى وأَبْقَى.

شَرْحُ المُفْرَدَاتِ:

قتل النّفس بغير حقّ، اعتداءٌ على صنعة الله

1) ﴿يُقۡتَلُ﴾: مِنَ الجَذْرِ (قتل)، وهو في الأَصْلِ يَدُلُّ عَلَى إذْلَالٍ وإمَاتَة، ومَقَاتِلُ الإنْسَانِ: المَوَاضِعُ التي إذَا أُصيبَتْ قَتَلَهُ ذَلِكَ[1]، وأصْلُ القَتْلِ: إزالةُ الرّوحِ عَنِ الجَسَدِ، كالموت، لكنْ إذا اعْتُبِرَ بِفِعْلِ المتَوَلّي لذلك يُقال: قَتْلٌ، وإذَا اعْتُبِر بفَوْتِ الحَياة، يُقالُ: مَوْتٌ، قالَ تَعالى: ﴿أَفَإِيْن مَّاتَ أَوۡ قُتِلَ﴾ [آل عمران: 144][2]، وقَتَلْتُهُ قَتْلًا: أَزْهَقْتُ رُوحَهُ[3].

سبيل الله غاية كلّ مُؤمن مُخلص صادق

2) ﴿فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾: السّبيلُ مِنَ الجَذْرِ (سبل)، وهو في الأَصْلِ يَدُلُّ عَلَى إِرْسَالِ شَيْءٍ من عُلُوٍّ إِلَى سُفْلٍ، وعَلَى امْتِدَادِ شَيْءٍ، والـمُمْتَدُّ طُولًا: السّبِيلُ، وهُوَ الطَّرِيقُ، سُمِّيَ بِذَلِكَ لِامْتِدَادِهِ[4]، والسّبيلُ: الطّريقُ الّذي فيه سُهُولَةٌ، وجَمْعُه سُبُلٌ، ويُسْتَعْمَلُ السّبيلُ لكلِّ ما

(1) ابن فارس، مقاييس اللُّغة: (قتل).
(2) الرَّاغب، المفردات: (قتل).
(3) الفيّوميّ، المصباح المنير: (قتل).
(4) ابن فارس، مقاييس اللُّغة: (سبل).

يُتَوَصَّل به إلى شَيْءٍ؛ خيرًا كان أَوْ شَرًّا، قال تعالى: ﴿ٱدۡعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ﴾ [النّحل: 125][1].

المـوت زوال القُوّة ٱلحيوانيّة وإبانة الرّوح عن ٱلجسد

3) ﴿أَمۡوَٰتُۢ﴾: أَصْلُ مادّة (موت) يَدُلُّ عَلَى ذَهَابِ القُوَّةِ مِنَ الشَّيْءِ[2]، وأَنْوَاعُ المَوْتِ بِحَسَبِ أَنْوَاعِ الحَيَاةِ: فالأوّلُ -وهُو المعْنيُّ في الآيةِ-: مَا هُوَ بِإزَاءِ القُوَّةِ النَّامِيَةِ المَوْجُودَةِ في الإِنْسَانِ والحَيَوَانَاتِ والنَّبَاتِ، كما في قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَلَا تَحۡسَبَنَّ ٱلَّذِينَ قُتِلُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ أَمۡوَٰتَۢاۚ بَلۡ أَحۡيَآءٌ﴾ [آل عمران: 169]، ونَفَى المَوْتَ عَن أَرْوَاحِهِم تَنْبِيهًا عَلَى تَنَعُّمِهِمْ، وأمّا قَوْلُهُ ﷻ: ﴿كُلُّ نَفۡسٖ ذَآئِقَةُ ٱلۡمَوۡتِۗ﴾ [آل عمران: 185] فالمعنى: زَوَالِ القُوَّةِ الحَيَوَانِيَّةِ وإبَانَةِ الرُّوحِ عَنِ الجَسَدِ[3].

الحـياة وجـود الـقوّة النّاميّة والـحـركـة في جسد الإنسان

4) ﴿أَحۡيَآءٌ﴾: مِنَ الجَذْرِ (حيي)، وأَصْلُ المادّة يدل على خِلَافِ المَوْتِ[4]، والحَيَا: المطرُ؛ لأنّه يُحيي الأرْضَ بعْدَ مَوْتِها، وإلى هذا أَشَارَ تَعَالَى بِقوله: ﴿وَجَعَلۡنَا مِنَ ٱلۡمَآءِ كُلَّ شَيۡءٍ حَيٍّۚ﴾ [الأنبياء: 30]، والحياةُ تُسْتَعمَلُ على أَوْجهٍ؛ الأوّلُ: لِلقُوّةِ النّامِيَةِ الموجُودَةِ في النّباتِ والحَيَوانِ، ومِنْهُ قيلَ: نَبَاتٌ حَيٌّ، قال ﷻ: ﴿ٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ يُحۡيِ ٱلۡأَرۡضَ بَعۡدَ مَوۡتِهَاۚ﴾ [الحديد: 17]، ومنها: عِبَارَةٌ عن ارتفاعِ الغَمِّ، وعلى هذا قَوْلُه ﷻ: ﴿وَلَا تَحۡسَبَنَّ ٱلَّذِينَ قُتِلُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ أَمۡوَٰتَۢاۚ بَلۡ أَحۡيَآءٌ عِندَ رَبِّهِمۡ﴾ [آل عمران: 169]، أي: هُمْ مُتَلَذِّذونَ[5].

الـشّـعـور هـو العلم بالشّيء، والـفـطـنـة لـه، والإحساس به

5) ﴿تَشۡعُرُونَ﴾، مِنَ الجَذْرِ (شعر)، وهوفي الأَصْلِ يَدُلُّ عَلَى عِلْمٍ وعملٍ، وقَوْلُهُم: شَعَرتُ بِالشَّيْءِ، إِذَا عَلِمْتَهُ وفَطِنْتَ لَهُ[6]، وشَعَرْتُ: أَصبتُ الشَّعَرَ، ومنه استُعِيرَ: شَعَرْتُ كذا، أَيْ: عَلِمْتُ عِلْمًا في الدّقّةِ كإِصَابَةِ الشَّعْرِ، وسُمّيَ الشَّاعِرُ شاعِرًا لِفِطْنَتِهِ ودقّةِ مَعْرِفتِهِ،

(1) الرَّاغب، المفردات: (سبل).
(2) ابن فارس، مقاييس اللُّغة: (موت).
(3) الرَّاغب، المفردات: (موت).
(4) ابن فارس، مقاييس اللُّغة: (حي).
(5) الرَّاغب، المفردات: (حيي).
(6) ابن فارس، مقاييس اللُّغة: (شعر).

فَالشِّعْرُ في الأَصْلِ اسْمٌ لِلعِلْمِ الدَّقِيقِ، وقولُهم: لَيْتَ شِعْرِي، أي: لَيْتَني عَلِمْتُ[1]، والمَشَاعِرُ: الحواسُّ، وقَوْلُه ﷻ: ﴿وَأَنتُمۡ لَا تَشۡعُرُونَ ۝٢﴾ [الحجرات: 2]، ونحْوُ ذلِكَ، مَعْناه: لا تُدْرِكُونه بالحواسِّ[2].

المَعْنَى الإجْمَاليُّ:

الشّهادَةُ وِسامٌ يُعَلّقُهُ الشَّهيدُ عَلى جَبينِ أُمَّتِهِ

هَذِهِ الآيَةُ تَوْجيهٌ للمُؤمنينَ، يُؤكّد لهُم أَنْ لا يقُولُوا لِلَّذينَ يُقْتَلُونَ مُجَاهِدِينَ في سَبيلِ اللّهِ: (هُم أَمْوَاتٌ)، بَل هُم أَحيَاءٌ حيَاةً خَاصَّةً بِهِم في قُبُورِهِمْ، لَا يَعْلَمُ كَيْفِيَّتَهَا إِلَّا اللّهُ تَعَالَى، ولَكِنَّكُم لَا تُحِسُّونَ بِهَا[3]، ويُؤَيِّدُ ذَلِكَ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَلَا تَحۡسَبَنَّ ٱلَّذِينَ قُتِلُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ أَمۡوَٰتَۢاۚ بَلۡ أَحۡيَآءٌ عِندَ رَبِّهِمۡ يُرۡزَقُونَ ۝١٦٩﴾ [آل عمران: 169][4]، ولَقَد صَوَّرَ النَّبِيُّ الموحى إليهِ ﷺ حَيَاتَهُمْ، إذ قالَ: "إنَّ أَرْوَاحَ الشّهداءِ في حَواصِلِ طَيرٍ خُضْرٍ، تَسْرحُ في الجَنّةِ حيثُ شاءَتْ، ثُمَّ تأْوِي إلى قَنَاديل مُعلَّقَةٍ تَحتَ العَرْشِ"[5].

الإيضَاحُ اللُّغَويُّ وَالبَلَاغِيُّ:

سِرُّ الْوَصْلِ بَيْنَ جملَةِ الأمرِ وجُملَةِ النَّهي:

الـصَّـبْرُ مـبـدأٌ تـمـامُـه حـيـاةٌ غَيْبيَّةٌ

عُطِفَ النَّهيُ في قَوْلِهِ ﷻ: ﴿وَلَا تَقُولُواْ﴾ على الأَمْرِ في الْجُمْلَةِ السَّابِقَةِ: ﴿وَٱسۡتَعِينُواْ بِٱلصَّبۡرِ وَٱلصَّلَوٰةِۚ﴾؛ فهو من بابِ عَطْفِ الإنشاءِ على الإنشاءِ، وهو "مَسُوقٌ لِبَيَانِ أَنْ لَا غَائِلَةَ لِلْمَأْمُورِ بِهِ، وَأَنَّ الشَّهَادَةَ

---

(1) الجوهريّ، الصّحاح: (شعر).

(2) الرَّاغب، المفردات: (شعر).

(3) نخبة من العلماء، التّفسير الميسّر، ص: 24.

(4) أبو زهرة، زهرة التَّفاسير: 1/469.

(5) الحديث رواه مسلم، عَن مَسْرُوق قَالَ: سألْنا عَبْدَ اللّه أي ابن مسعود عَن هَذه الآيَة: ﴿وَلَا تَحۡسَبَنَّ ٱلَّذِينَ قُتِلُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ أَمۡوَٰتَۢاۚ بَلۡ أَحۡيَآءٌ عِندَ رَبِّهِمۡ يُرۡزَقُونَ ۝١٦٩﴾ [آل عمران: 169]، قَالَ: أَمَا إِنَّا قَد سألنا عَن ذَلِكَ، فَقَالَ: «أَرْوَاحُهُم في جَوْفِ طَيْرٍ خُضْرٍ، لَهَا قَنَادِيلُ مُعَلَّقَةٌ بِالْعَرْشِ، تَسْرَحُ مِنَ الْجَنَّةِ حَيْثُ شَاءَتْ، ثُمَّ تَأْوِي إِلَى تِلْكَ الْقَنَادِيلِ، فَاطَّلَعَ إِلَيْهِم رَبُّهُمْ اطِّلَاعَةً، فَقَالَ: "هَل تَشْتَهُونَ شَيْئًا؟ قَالُوا: أَيّ شَيْءٍ نَشْتَهِي ونَحْنُ نَسْرَحُ مِنَ الْجَنَّةِ، حَيْثُ شِئْنَا؟! فَفَعَلَ ذَلِكَ بِهِم ثَلَاثَ مَرَّاتٍ، فَلَمَّا رَأَوْا أَنَّهُم لَن يُتْرَكُوا مِن أَن يُسْأَلُواْ، قَالُوا: يَا رَبِّ، نُرِيدُ أَن تَرُدَّ أَرْوَاحَنَا في أَجْسَادِنَا حَتَّى نُقْتَلَ في سَبِيلِكَ مَرَّةً أُخْرَى، فَلَمَّا رَأَى أَن لَيْسَ لَهُم حَاجَةٌ تُرِكُوا»، صحيح مسلم، حديث رقم: (1887).

الَّتِي رُبَّمَا يُؤَدِّي إِلَيْهَا الصَّبْرُ حَيَاةٌ أَبَدِيَّةٌ"[1]، فجمْلَةُ النَّهي تتميمٌ لما بدأَتْه جملةُ الأمرِ، إذ هي تمامُ الصَّبرِ.

تعيينُ مُرادِ النّهْيِ مبْنِيٌّ على مقصدِ السّياق في قولِه: ﴿وَلَا تَقُولُواْ﴾:

الاعتقادُ أصْلُ الأعمالِ والأقوالُ ثمرتُه

النَّهْيُ عَنِ الْقَوْلِ في قَوْلِهِ ﷻ: ﴿وَلَا تَقُولُواْ﴾، لَيْسَ الْمُرَادُ مِنْهُ النَّهْيَ عَنِ التَّلَفُّظِ، بَلْ عن الاعْتِقَادِ الفاسد، والْقَوْلُ دَلِيلُ الاعْتِقَاد، وَقَدْ صَرَّحَ بِالنَّهْيِ عَنِ الاعْتِقَادِ في آيَةٍ أُخْرَى، في مَعْنَى هَذِهِ الآيَةِ الْكَرِيمَة، وَفي مَوْضُوعِهَا فَقَالَ: ﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ قُتِلُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ أَمْوَٰتَۢاۚ بَلْ أَحْيَآءٌ عِندَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ ١٦٩﴾ [آل عمران: 169][2].

إيثارُ التّعبيرِ بالمُضارِعِ في قولِه: ﴿لِمَن يُقْتَلُ﴾:

التّنبيهُ على المُستقبلِ للاستعدادِ له

وَقَعَ التَّعْبِيرُ بِالْمُضَارِعِ في قَوْلِهِ ﷻ: ﴿لِمَن يُقْتَلُ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾، الْمُشْعِرِ بِأَنَّهُ أَمْرٌ سوف يقع في المستقبل، إذْ وقعَتْ غزوَةُ بَدْرٍ بُعَيدَ نُزُولِ هَذِهِ الآيَةِ؛ فَغَزْوَةُ بَدْرٍ وَقَعَتْ بَعْدَ تَحْوِيلِ الْقِبْلَةِ بِنَحْوِ شَهْرَيْنِ[3]، فهي تنبيهٌ على أمرٍ سيقعُ قريبًا، وعلى المُؤمنين الاستعدادُ له.

فائدةُ قَيْدِ: ﴿فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾:

الأعمالُ بمقاصِدِها

قَوْلُهُ ﷻ: ﴿فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾، تَقْيِيدٌ وَتَخْصِيصٌ، فَلَيْسَ كُلُّ مَنْ يُقْتَلُ سَيَكُونُ ضِمْنَ من وَصَفَتهم الآيَةُ، فلَو قَالَ: (وَلَا تَقُولُوا لِمَنْ يُقْتَلُ أَمْوَاتٌ بل أحياءٌ)، لما كَانَ هُنَاكَ فَائِدَةٌ وَخُصُوصِيَّةٌ، وَهَذَا الْقَيْدُ يُبَيِّنُ أَهَمِّيَّةَ الْإِخْلَاصِ وَالنِّيَّة، وَأَنَّ الْأَعْمَالَ بِمَقَاصِدِهَا[4].

فنُّ الطِّبَاقِ في قَوْلِهِ: ﴿أَمْوَٰتُۢۚ بَلْ أَحْيَآءٌ﴾:

بضدّها تتميّز الأشياء

قَابَلَتِ الآيةُ بَيْنَ الكَلِمةِ وضدِّها؛ فقوله ﴿أَمْوَٰتُۢۚ﴾ نقيضُ قوله: ﴿أَحْيَآءٌ﴾، أي: لا تعتقدوا موتَهم بل اعلموا أنَّهم على عكسِ ذلك

(1) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 1/179.
(2) أبو زهرة، زهرة التَّفاسير: 1/468.
(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 2/52- 53.
(4) الدّبل، من غريب بلاغة القرآن الكريم، ص: 477.

وهو الحياةُ، وهُو مِن الـمُحَسِّناتِ المَعْنَويَّة؛ فتقابُلُ المَعْنَيَين، ممّا يزيدُ الكلامَ حُسْنًا وطَرَافةً ووضوحًا واستجلاءً.

دَلَالَةُ حَذْفِ المفعُولِ فِي قَوْلِهِ: ﴿وَلَٰكِن لَّا تَشۡعُرُونَ﴾:

الغَيْبُ لا يُحسُّ في الدُّنيا بل يُعتَقَدُ

أيْ: ولكِنْ لا تَحسُّونهم بمرْأى العَينِ، وَذَلكَ لَا يَقْتَضِي أنّهُمْ ماتُوا، بَلْ هُمْ عِنْدَ رَبّهِم يُرْزَقون[1]، وهو تَنْبيهٌ على أنَّ حَياتَهم لَيْسَتْ بِالجَسَدِ، ولا مِن جِنْسِ ما يُحسُّ بِهِ مِن الحَيَواناتِ، وإنّما هي أَمْرٌ لا يُدْرَكُ بالعَقْل، بلْ بالوَحْي[2]، لأَنَّ حياتَهُم لا نَشْعرُ بها؛ فهي لَيْسَتْ مادِّيَّةً، بحَيْثُ تُدْرِكُها حَواسُّنا، ولَيْستْ بِمَعْنى القُوّةِ الّتي تكون مَبْدأً لِلْحِسّ والحَرَكةِ الإراديّةِ، بِدَلالةِ أنّا لا نَحُسُّ مِنهُم ما يَترتَّبُ عليْها، فَالمُرادُ بِحياةِ الشُّهداءِ أمْرٌ لا يُدْرَكُ بالحِسّ والعَقْلِ، بلْ بالوَحْي[3]، و"حَذَفَ مَفْعُولَ ﴿تَشۡعُرُونَ﴾ لِدَلَالَةِ فَحْوَى الْكَلَامِ عَلَيْهِ"[4]، وَلِرِعَايَةِ الْفَاصِلَةِ[5].

توجيهُ المُتَشابه اللّفظيّ:

الـمُـؤمـنـون مـأمـورون باعـتـقـادِ حياةِ الـشُّـهـداءِ قـبـلَ مـوتِـهـم استعدادًا وبعدَ موتِهم استبشارًا

قال تعالى: ﴿وَلَا تَقُولُواْ لِمَن يُقۡتَلُ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ أَمۡوَٰتُۢۚ بَلۡ أَحۡيَآءٞ وَلَٰكِن لَّا تَشۡعُرُونَ ١٥٤﴾ [البقرة: 154]، وقال في آية آل عمران: ﴿وَلَا تَحۡسَبَنَّ ٱلَّذِينَ قُتِلُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ أَمۡوَٰتَۢاۚ بَلۡ أَحۡيَآءٌ عِندَ رَبِّهِمۡ يُرۡزَقُونَ ١٦٩﴾ [آل عمران: 169]؛ فيُسألُ عن سرِّ اختلافِ النَّظم بين الآيتين؟

والجواب: أنَّ النّهيَ في الأُولى مُتَسلِّطٌ على القَولِ: ﴿وَلَا تَقُولُواْ﴾، أمّا في الثّانيَةِ؛ فالنّهيُ عنِ الظَّنِّ ﴿وَلَا تَحۡسَبَنَّ﴾، وفي الأُولى الخِطابُ عامٌّ لكلِّ من يُقْتَلُ لقوله ﴿لِمَن يُقۡتَلُ﴾، وفي الثّانيةِ الخِطابُ خَاصٌّ لمعهودينَ ﴿ٱلَّذِينَ قُتِلُواْ﴾، فالخطاب العامّ يُناسِبُ الآيةَ الأولى؛ لإنّهُ يُقرّرُ ويُمهّدُ ما سَيَقعُ، وما يجبُ الاسْتعدادُ لهُ، فأخبرهم أنّهُ سيكُونُ

(1) أبو زهرة، زهرة التّفاسير: 1/469.
(2) البيضاويّ، أنوار التّنزيل: 1/114.
(3) زاده، حاشية على البيضاويّ: 2/391- 392.
(4) زاده، حاشية على البيضاويّ: 2/391.
(5) القُونَويّ، حاشيةٌ على البيضاويّ: 4/369.

قتالٌ، وسيقَعُ قَتْلى، ونهاهم عن وصْفِهم بالموت، وهُو مُناسِبٌ للقول بأنّها نَزَلتْ قَبْلَ مَعركةِ بَدرٍ، وأمّا الخِطابُ بالاسْمِ الموصول ﴿ٱلَّذِينَ قُتِلُواْ﴾ الدّالّ على قَوم بِعَينِهم، فَجَاء في سُورةِ آلِ عِمْران، في سِياقِ مَعْركةِ أُحُدٍ، فالحَدِيثُ هنا عن قوم قُتِلوا ونالوا الشّهادة، فقتْلُهم مُنجزٌ وواقعٌ، فالحَدَثُ واقِعٌ، ولَيْسَ في مَعْرَضِ التّهيئةِ لَهُ، والفائِدَة التّطبيقيَّةُ أنَّ كلَّ آيةٍ تُذكَرُ بما يُناسِبُها في الواقع، فيُخاطَبُ بمن يستعدُّ للجهادِ بآية البقرةِ، وتُتلى آيةُ آل عمران على منِ استُشهِدَ، وهذا من فِقهِ تنزيلِ الآياتِ على الواقِعِ.

﴿وَلَنَبۡلُوَنَّكُم بِشَيۡءٖ مِّنَ ٱلۡخَوۡفِ وَٱلۡجُوعِ وَنَقۡصٖ مِّنَ ٱلۡأَمۡوَٰلِ وَٱلۡأَنفُسِ وَٱلثَّمَرَٰتِۗ وَبَشِّرِ ٱلصَّٰبِرِينَ ١٥٥﴾ [البقرة: 155]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِمَا قَبْلَها:

نُقْلَة متَوالِيَةٌ مِنَ الوَعظِ إلى وَصْفِ الابتِلاءاتِ المُسْتوجِبَةِ لِلصّبرِ

الآيَةُ مِنْ تَمَامِ الحَدِيثِ عَنِ المَوْضُوعَاتِ المُتَرَتِّبَةِ عَلَى الأَمْرِ بِالاسْتِعَانَةِ بِالصَّبْرِ والصَّلَاةِ، فَلَمَّا سَبَقَ في الآيَةِ الحَدِيثُ عَنِ النَّهْيِ عَن وصْفِ مَن قُتِلَ في سَبيلِ اللّه بأَنَّهُ مَيِّتٌ، انْتَقَلَ إلى بَيَانِ أَنْوَاعِ الابْتِلَاءَاتِ الَّتِي تَسْتَوْجِبُ الصَّبْرَ.

شَرْحُ المُفْرَدَاتِ:

الابتلاء اختبار بتسليط شدّة تهزّ الوجدان

1) ﴿وَلَنَبۡلُوَنَّكُم﴾: مِنَ الجَذْرِ (بَلَوَ، بَلَي)، وأَصْلُ المادّةِ يدل على إخْلَاقِ الشَّيْءِ، وأيضًا على نَوْعٍ مِنَ الاخْتِبَارِ[1]، وهو حَوْزُ الشّيءِ بشِدّةٍ، لِمدًى طويل، ويَلْزَمُهُ بَيَانُ حَالِ الشَّيْءِ الّذي حِيزَ في شدَّة، وابْتلاهُ اللّه: اخْتَبَرَهُ، كأنّما اخْتَبَرَ صَبْرَه وتحمُّلَهُ بالِاحْتِباسِ والبَقَاءِ على وضْعٍ شَديدٍ[2]، والمراد في الآية: الاخْتِبارُ بتَسليطِ شِدَّة.

الخوف حالة نفسيّة مزلزلة لكيان الانسان

2) ﴿ٱلۡخَوۡفِ﴾: مِنَ الجَذْرِ (خَوَفَ)، وهو في الأَصْلِ يَدُلُّ عَلَى الذُّعْرِ والفَزَعِ[3]، والخَوْفُ: تَوَقُّعُ مَكْروهٍ عن أَمارةٍ مَظْنونة، أو مَعْلومَةٍ، كما أنّ الرَّجاءَ والطَّمعَ توقُّعُ مَحبوبٍ عَن أَمارةٍ مَظْنونة، أو مَعْلومَة، ويضادُّ الخوفَ الأَمْنُ، ويُسْتعملُ ذلك في الأُمُورِ الدُّنْيَويّةِ والأُخْرَويّة[4].

الجوع ألم وحرمان ومعاناة

3) ﴿وَٱلۡجُوعِ﴾: مِنَ الجَذْرِ (جَوَعَ)، والجُوعُ ضِدُّ الشِّبَعِ، ويُقَالُ: عَامُ مَجَاعَةٍ ومَجُوعَةٍ[5]، والجُوعُ: الأَلَمُ الّذي يَنالُ الحيوانَ مِنْ خُلُوِّ

(1) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (بلو- بلي).
(2) جبل، المعجم الاشتقاقيّ المؤصّل: (بلو).
(3) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (خوف).
(4) الرّاغب، المفردات: (خوف).
(5) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (جوع).

المَعِدَةِ من الطَّعام، والمَجَاعةُ: عِبارةٌ عن زَمانِ الجَدْبِ، ويُقالُ: رَجُلٌ جائِعٌ وجَوعانُ: إذا كَثُرَ جُوعُهُ[1].

النّقص أخذٌ من الشّيء حتّى يتقلّص ويضمحلّ

4) ﴿وَنَقْصٍ﴾: مِنَ الجَذْرِ (نقص)، والنّقْصُ: خِلَافُ الزِّيَادَةِ[2]، وكذلك الخُسْرَانُ في الحَظِّ[3]، وانتَقَص الشّيءَ، وتَنَقَّصَه: أَخذَ منه قَليلًا قليلًا، فيقِلُّ جِرْمُه، أو يَخِفُّ بعد ذهابه، وسائِرُ ما في القرآن من التَّركيبِ هو مِنَ النّقص بهذا المَعْنَى[4].

حبّ المال مغروسٌ في قلوب الرّجال

5) ﴿ٱلْأَمْوَٰلِ﴾: مِنَ الجَذْرِ (مَوَلَ)، والمالُ: ما مَلَكْتَه من جَميع الأشياءِ[5]، فهُوَ: مادَّةُ الأثْمانِ والنَّفَقةِ الّتي تُتِيحُ الشِّراءَ، وتَتَحصَّلُ من البَيعِ أو الإرْثِ، أو أجْرِ العَمَلِ؛ كالإبلِ وسائرِ المالِ المَمْلوكِ، وكلُّ ما في القرآن من التّركيبِ هو المالُ المَمْلوكُ[6].

أهمّ مقاصد الدّين الحفاظ على الأنفس

6) ﴿وَٱلْأَنفُسِ﴾: مِنَ الجَذْرِ (نفس)، وأَصْل المادّة يَدُلُّ عَلَى خُرُوجِ النّسِيم، مِن رِيح أو غَيْرِهَا، ويُقَالُ: لِلْمَاءِ نَفَسٌ؛ لِأَنَّ قِوَامَ النّفْسِ بِهِ، والنّفْسُ قِوَامُهَا بِالنَّفَسِ[7]، وهي: الرُّوحُ في قوله تعالى: ﴿أَخْرِجُوٓا۟ أَنفُسَكُمُ﴾ [الأنعام: 93][8].

الثّمرات كلّ قطاف يطعمه البشر

7) ﴿وَٱلثَّمَرَٰتِ﴾: مِنَ الجَذْرِ (ثمر)، والثَّمَر هُوَ شَيْءٌ يَتَوَلَّدُ عَن شَيْءٍ مُتَجَمِّعًا[9]، وهو اسْمٌ لكُلِّ ما يُتَطعَّم من أَحْمالِ الشَّجَر، كقَوْلِه تعالى: ﴿وَأَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَخْرَجَ بِهِۦ مِنَ ٱلثَّمَرَٰتِ رِزْقًا لَّكُمْ﴾ [البقرة: 22][10]، فالثَّمراتُ: ما يُجْنَى من شجر الفاكِهَةِ ونَحْوِهِ[11].

---

(1) الرَّاغب، المفردات: (جوع).
(2) ابن فارس، مقاييس اللُّغة: (نقص).
(3) الرَّاغب، المفردات: (نقص).
(4) جبل، المعجم الاشتقاقيّ المؤصّل: (نقص).
(5) ابن منظور، لسان العرب: (مول).
(6) جبل، المعجم الاشتقاقيّ المؤصّل: (مول).
(7) ابن فارس، مقاييس اللُّغة: (نفس).
(8) الرَّاغب، المفردات: (نفس).
(9) ابن فارس، مقاييس اللُّغة: (ثمر).
(10) الرَّاغب، المفردات: (ثمر).
(11) جبل، المعجم الاشتقاقيّ المؤصّل: (ثمر).

البـشـارة تبهج النّفس وتفتح الأمل

8) ﴿وَبَشِّرِ﴾: مِنَ الجَذْرِ (بشر)، وهو في الأَصْلِ ظُهُورُ الشَّيْءِ مَعَ حُسْنٍ وجَمَالٍ، فَالبَشَرَةُ: ظَاهِرُ جِلْدِ الإِنْسَانِ، ويُقَالُ: بَشَّرْتُ فُلَانًا بِالخَيْرِ، وبالشَّرِّ، فَأَمَّا إِذَا أُطْلِقَ الكَلَامُ إِطْلَاقًا فَالبِشَارَةُ بِالخَيْرِ والنِّذَارَةُ بِغَيْرِهِ[1]، وتعني: الإِخْبَارَ بِخَبَرٍ سارٍّ يَبْسُطُ بَشَرَةَ الوَجْهِ[2].

۞ المَعْنَى الإِجْمَالِيُّ:

البَلاءُ بِالمَصائِبِ يُظْهِرُ الطِّباعَ، ويُسْفِرُ عَنْ أَخْلاقِ الرِّجالِ

ولَنَخْتَبِرَنَّكُمْ بِشَيْءٍ يَسِيرٍ مِنَ الخَوْفِ، ومِن الجُوعِ، وبِنَقْصٍ مِن الأَمْوَالِ، بِتَعَسُّرِ الحُصُولِ عَلَيْهَا، أَو ذَهَابِهَا، ومِن الأَنْفُسِ: بِالمَوْتِ، أَوِ الشَّهَادَةِ في سَبِيلِ اللّٰه، وبِنَقْصٍ من الثَّمَرَاتِ بِقِلَّةِ نَاتِجِهَا، أَو فَسَادِهَا، وبَشِّرْ أَيُّهَا النَّبِيُّ الصَّابِرِينَ عَلَى هَذَا وأَمْثَالِهِ بِمَا يُفْرِحُهُم ويَسُرُّهُم من حُسْنِ العَاقِبَةِ في الدُّنْيَا والآخِرَةِ[3].

فأَخْبَرَ تَعَالَى أَنَّهُ لَا بُدَّ أَن يَبْتَلِيَ عِبادَهُ بِالمِحَنِ، لِيَتَبَيَّنَ الصَّادِقُ مِن الكَاذِبِ، والجَازِعُ مِن الصَّابِرِ، وهذِهِ سُنَّتُهُ تَعالى في عِبادِهِ[4]، كما في قولِهِ ﷻ: ﴿أَحَسِبَ ٱلنَّاسُ أَن يُتۡرَكُوٓاْ أَن يَقُولُوٓاْ ءَامَنَّا وَهُمۡ لَا يُفۡتَنُونَ ۝٢ وَلَقَدۡ فَتَنَّا ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِمۡۖ فَلَيَعۡلَمَنَّ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ صَدَقُواْ وَلَيَعۡلَمَنَّ ٱلۡكَٰذِبِينَ ۝٣﴾ [العنكبوت: 2- 3].

۞ الإِيضاحُ اللُّغويُّ والبلاغيُّ:

فائِدَةُ العَطْفِ في قوله: ﴿وَلَنَبۡلُوَنَّكُم﴾:

عـطـفُ المقصدِ على المقدِّمة

الجُمْلَةُ مَعْطوفَةٌ على قولِهِ ﷻ: ﴿ٱسۡتَعِينُواْ بِٱلصَّبۡرِ وَٱلصَّلَوٰةِ﴾ [البقرة: 153]، عَطْفَ المقصدِ على المقدِّمة[5]، فوقُوعُ الابْتِلاءِ كان لا بُدَّ لَه مِنْ تَمهيدٍ بالأَمْرِ بالصَّبرِ مقدِّمةً لَهُ.

(1) ابن فارس، مقاييس اللُّغة: (بشر).
(2) الرَّاغب، المفردات: (بشر).
(3) نخبة من العلماء، التّفسير الميسّر، ص: 24.
(4) السّعديّ، تيسير الكريم الرّحمن، ص: 76.
(5) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 2/54.

فائِدَةُ القَسَمِ في قوله: ﴿وَلَنَبۡلُوَنَّكُم﴾ التَّأكيدُ على وقوعِ الابتلاءِ:

النَّفسُ تنأى عن توقُّعِ الابتلاءِ والاستعدادِ لمَا بعدَه

اللَّامُ في قوله تعالى: ﴿وَلَنَبۡلُوَنَّكُم﴾[1]، "جَوابُ قَسَم مَحْذُوف، أَي: واللهِ لَنُعَامِلَنَّكُم مُعَامَلَةَ المُبْتَلَى؛ هَل تَصبِرُونَ عَلَى البَلَاءِ وتَسْتَسْلِمُونَ لِلْقَضَاءِ"[2] وفائدةُ القَسَمِ التّأكيدُ على أهميّة ما جاءَ القَسمُ لأجْله، والإشعارُ بِعَظَمَتِه، وهو الابْتِلاءُ في الحياة، والتَّأكيدُ على وقوعِه لا محالةَ[3]، ويُؤكِّد ذلك مجيءُ القسَم بصيغَةِ تَعْظيم المُتكَلِّم؛ لِلإشْعارِ بِأهَمِّيَّةِ المَعْنَى المُضَمَّنِ في الكَلام، وهُوَ الابْتِلاءُ؛ فإنَّ النَّفسَ تنأى عن توقُّعه والاستعدادِ لمَا بعدَه، ولذلك فالخِطَابُ لَا يُرَادُ بِهِ مُعَيَّنٌ، بَل هُوَ عَامٌّ، لَا يَتَقَيَّدُ بِزمَانٍ ولَا بمُخَاطَبٍ خَاصٍّ، فَكَأَنَّهُ قِيلَ: ولَنُصِيبَنَّ بِكَذَا، فَيَكُونُ في ذَلِك تَحْذِيرٌ، وأَنَّهُ لِلصَّحَابَةِ وغَيْرِهِمْ[4].

دلالةُ المُضارِعِ ونونِ الجَمْعِ والجملةِ الخبريّةِ في قوله: ﴿وَلَنَبۡلُوَنَّكُم﴾:

توطئةٌ تربويّةٌ لتَوطينِ النَّفسِ على التَّحمُّلِ عند وقوعِ الابْتِلاءِ

آثَرَت الآيةُ التَّعبير بالفعلِ المُضارِعِ في قوله: ﴿وَلَنَبۡلُوَنَّكُم﴾؛ إيذانًا بتَحقيقِ الابتلاءِ في الواقِعِ؛ توطئةً تربويَّةً لتَوطينِ النَّفسِ على التَّحمُّلِ، والصَّبرِ على أقدارِ اللهِ تعالى[5]، ويُؤكِّد ذلك مجيءُ الخطابِ في قوله: ﴿وَلَنَبۡلُوَنَّكُم﴾ بصيغة المتكلّمين، أي (لنبلُونَّكُمْ نَحْنُ) بتعظيم المتكلّم؛ للإشعار بأهميّة المَعْنَى المُضَمّن في الكلام، وهو الابتلاء، و"الإتيانُ بالجملة الخبريّة مُقَسَمًا عليها، من باب التّأكيد لوقوع الابتلاء، وإسناد الفعل إليه صريحٌ في إضافته أسباب البلايا إليه، وأنّ هذه المحن من الله تعالى"[6].

(1) الواحديّ، البسيط: 3/424.
(2) إسماعيل حقّي، روح البيان: 1/260.
(3) الزّوينيّ، من غريب بلاغة القرآن الكريم، ص: 478.
(4) أبو حيّان، البحر المحيط: 2/54.
(5) الدّبل، دليل البلاغة: 1/214.
(6) الهرريّ، حدائق الرّوح والرّيحان: 3/56.

فائِدَةُ تَقْييدِ الابْتلاءِ بِلفْظِ: ﴿بِشَيۡءٖ﴾:

التَّهوينُ من المَصائبِ فمَهْمَا كبُرَت في نفسِ المُبتلى فقليلةٌ في الواقِع

الآيَة قَيَّدَتِ الابْتِلاءَ بِالجَارِّ والمَجْرُورِ ﴿بِشَيۡءٖ﴾، وأفادَ لفظُ التَّنْكِيرِ التَّقْلِيلَ، أيْ: بِشَيْءٍ قَلِيلٍ؛ فَجِيءَ بِهَذِهِ الكَلِمَةِ تَهْوِينًا لِلْخَبَرِ المُفْجِعِ[1]، "وَالتَّقْلِيلُ المُسْتَفَادُ من تَنْكِيرِ شَيْءٍ، فيهِ إشَارَةٌ إلَى أنَّ مَا يَدْخُلُ تَحتَ قُدْرَةِ اللّهِ تَعَالَى، مِن وُجُوهِ المُصِيبَةِ كَثِيرٌ مُتَفَاوِتٌ، بَعْضُهُ أشَدُّ هَوْلًا من بَعْضٍ؛ فَإِنَّ مَا يَتَعَلَّقُ مِنْهَا بِالدِّينِ، أشْنَعُ وأفْظَعُ مِن مَصَائِبِ الدُّنْيَا، الَّتِي هِيَ مُتَفَاوِتَةٌ أيْضًا، وهَذِهِ الإشَارَةُ ذَرِيعَةٌ إلَى تَسْلِيَةِ المُصَابِ بِتَخْفِيفِ مَا أصَابَهُ بِالنِّسْبَةِ إلَى مَا وقَاهُ في الدُّنْيَا"[2].

نكتةُ إيثارِ إفرادِ شَيْءٍ عَلى الجَمْعِ:

المُؤْمِنُ عَلى يَقينٍ بِأنّ ما وقاهُ اللهُ في دُنْياهُ، أكْثَرُ مِمّا أصابَهُ

آثَرَ النَّظمُ الكريمُ إفرادَ شَيْءٍ على جمعها، إرادةً للتّقليلِ من شَأْنِ الابْتِلاءِ، أي: "بِقَلِيلٍ من كُلِّ واحدٍ من هَذِهِ البَلَايَا، وطَرَفٍ مِنْهُ"[3]، "وَلَم يَقُل: (بِأَشْيَاءَ)؛ لأنَّه جَاءَ عَلَى الاخْتِصَارِ، والمَعْنَى يَدُلُّ عَلَى أنَّهُ: وشَيْءٍ مِن الخَوْفِ، وشَيْءٍ من الجُوعِ، وشَيْءٍ من نَقْصِ الأَمْوَالِ والأَنْفُسِ"[4]، قال أبو حيّانَ: "أَفْرَدَهُ لِيَدُلَّ عَلَى التَّقْلِيلِ، إذ لَو جَمَعَهُ فَقَالَ: بِأَشْيَاءَ، لاحْتَمَلَ أن تَكُونَ ضُرُوبًا من كُلِّ واحِدٍ مِمَّا بَعْدَهُ"[5]، وفي التّفسيرِ البَسيطِ ألْمَحَ إلى أنّ لَفْظَةَ (مِنْ) أغْنَتْ عَن ذَلك: "وَلَم يَقُلْ: بِأَشْيَاء، وقَد ذَكَرَ بَعْدَهُ مَا هُوَ أشْيَاءُ؛ لِمَكَانِ (مِنْ)، والمَعْنَى: بِشَيْءٍ من الخَوْفِ وشَيْءٍ مِن الجُوعِ، وهُوَ كَقَوْلِ القَائِلِ: أَعْطِنِي شَيْئًا من الدَّرَاهِمِ، ومِن الطَّعَامِ، فَيَصِيرُ (شَيْء) كَالمُكَرَّرِ في المَعْنَى، ولَو كَانَ (بِأَشْيَاء) كَانَ صَوَابًا"[6]، والمُرادُ من ذلك التَّقليلُ: أي

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 2/54.
(2) زاده، حاشية على البيضاويّ: 2/293-294.
(3) الزّمخشريّ، الكشّاف: 1/207.
(4) الزّجّاج، معاني القرآن: 1/230.
(5) أبو حيّان، البحر المحيط: 2/54.
(6) الواحديّ، البسيط: 3/425.

بِقَلِيلٍ مِن ذَلِكَ، فَإِنَّ مَا وقَاهُم مِنْهُ أَكْثَرُ بِالنِّسْبَةِ إِلَى مَا أَصَابَهُمْ بِأَلْف مَرَّة، وكَذَا مَا يُصِيبُ بِهِ مُعَانِدِيهِمْ"[1].

نكتةُ ذكرِ شَيْءٍ دونَ حذْفِها:

النَّصُّ على إرادةِ التَّقليلِ لتسليةِ المُؤمنين وحثِّهم على الصَّبرِ

من المَعلوم أنّ التّنكيرَ يفيدُ التّعْظيمَ، والتّنويعَ، والتّقليلَ، وفي سِيَاقِ الآية، لو قالَ: (ولنَبْلُوَنَّكُمْ بِخَوْفٍ وجوعٍ)، لاحْتَمَلَ التَّنْكيرُ التّعظيمَ للخَوفِ والجُوعِ، ولكنّهُ تعالى أَرادَ التّخفيفَ، فقالَ: ﴿بِشَيْءٍ﴾ بصيغةِ التّنكيرِ؛ لِأَنَّ كلِمَةَ (شَيْءٍ) من الأجناسِ العاليةِ[2]، فإذا أضيفت إلى اسْمِ جنْسٍ، فإنّها تُفيدُ التّقليلَ؛ لأنَّ الاقْتصارَ على اسمِ الجنْسِ الّذي ذكرَهُ المتكلِّمُ بَعْدَها، لو شاء المتكلِّمُ لأغْنى عنها، فما ذَكَرَ كلمةَ شَيءٍ، إلّا والقَصْدُ أن يدُلَّ على أنّ تَنكيرَ اسمِ الجنْسِ، لَيْسَ لِلتَّعظيم، ولا لِلتّنويع، فبقيت له الدّلالةُ على التّحْقيرِ[3]؛ فعُلِم أنَّ هذه الدّلالةَ مرادَةٌ لذاتِها، وهو ما يزيدُ من تسليةِ المُؤمنين عندَ وقوعِ الابتلاءِ، وَطُمَأْنِينَتِهم بمرورِه وذهابِ أثرِه.

التّنكيرُ في قوله: ﴿وَنَقْصٍ﴾؛ لبيانِ لُطْفِ الله بعبادِه:

قولُه تعالى: ﴿وَنَقْصٍ﴾ مَعْطوفٌ على قوله: ﴿بِشَيْءٍ﴾، أو على: ﴿ٱلْخَوْفِ﴾، بمعنى: وشَيْءٍ مِن نَقصِ الأمْوالِ[4]، عَطْفَ نكرةٍ على نكرةٍ، والغايةُ التّقليلُ والتَّهوينُ من ذلِكَ النَّقْصِ، فهُو تهوينٌ لِلابْتلاءِ؛ فلَيْسَ المُرادُ أن يُهلِكَهُم[5]، بلِ المُرادُ تقريبُهم بالأجرِ والثّوابِ النَّاشِئِ عن الصَّبرِ والرِّضا.

عَطفُ الخاصِّ عَلى العامّ لِلاهْتِمامِ:

عطْفُ الثمراتِ في قَولِه تعالى: ﴿وَٱلثَّمَرَٰتِ﴾، من عطْفِ الخاصِّ على العامِّ؛ فإنَّ

---

(1) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 1/180.

(2) كلمة (شَيْءٍ) اسْمٌ عَامٌّ مِنَ الأجناس العالية، وهي المقولات العشرة، ذَاتِ الْعُمُومِ الْكَثِيرِ، قِيلَ: هُوَ الْمَوْجُودُ، وَقِيلَ: هُوَ مَا يُعْلَمُ وَيَصِحُّ وُجُودُهُ، وَالْأَظْهَرُ فِي تَعْرِيفِهِ أَنَّهُ الْأَمْرُ الَّذِي يُعْلَمُ، وَيَجْرِي عَلَيْهِ الْإِخْبَارُ سَوَاءٌ كَانَ مَوْجُودًا أَوْ صِفَةَ مَوْجُودٍ أَوْ مَعْنًى يُتَعَقَّلُ وَيُتَحَاوَرَ فِيهِ، ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 7/166.

(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 55-2/54.

(4) الزّمخشريّ، الكشّاف: 1/207.

(5) الدّبل، دليل البلاغة: 1/215.

نَقْصَ الثَّمَراتِ كان مَفهومًا مِنْ قوله: ﴿ٱلْجُوعِ﴾، وجاءَ ذلك العطفُ "لِشُمُولِ الأَمْوَالِ لِلثَّمَرَاتِ وغَيْرِهَا"[1]، فَذكرَهُ لأهميّةِ ذلِكَ الخاصِّ في حَياتِهِمْ؛ فإنَّ النَّصَّ على ما يكون بَيْنَ الأيدي أدعى للاستعدادِ والتَّوطئةِ ممَّا لو لم يكن كذلك.

السِّرُّ في تَرْتيبِ المذكوراتِ فيما يُبْتَلى فيه العِبادُ:

تَــهـذيــبُ الــنُّــفــوسِ، وَتَــرويــضُ الــعــقــولِ على الرِّضا والقبولِ

جاء ترتيبُ المذكوراتِ في الآيةِ للتَّرَقّي مِنَ الأَدْنى إلى الأَعْلى؛ "لِأَنَّ الجُوعَ أَشَدُّ مِن الخَوْفِ، فَإِن قُلْتَ: إِنَّهُ أَيْضًا أَشَدُّ من النَّقْصِ من الأَمْوَالِ، قُلْتُ: الجَوَابُ أَنَّ النَّقْصَ من الأَمْوَالِ أَكْثَرُ وُجُودًا في النَّاسِ من الجُوعِ؛ فَهُوَ أَشَدُّ مَفْسَدَةً، والنَّقْصُ من الأَنْفُسِ بالمَرَضِ، أَو بالمَوْتِ أَشَدُّ من الجَميعِ"[2]، وفائدَتُه تهيئةُ نفوسِ المُخاطَبين تدريجيًّا؛ فهو خطابٌ تربويٌّ يُهذِّبُ النُّفوسَ، ويُروِّضُ العقولَ على الرِّضا والقبولِ.

فائِدَةُ العَطْفِ في قولِه: ﴿وَبَشِّرِ ٱلصَّٰبِرِينَ﴾:

إكــســابُ الــمُخاطَبِ لونًا مِــن الــبُــشــرى، بعد البلوى

قَوْلُهُ ﷻ: ﴿وَبَشِّرِ ٱلصَّٰبِرِينَ﴾ مَعْطُوفٌ عَلَى ﴿وَلَنَبْلُوَنَّكُم﴾، والخِطَابُ لِلرَّسُولِ ﷺ بِمُنَاسَبَةِ أَنَّهُ مِمَّن شَمِلَهُ قولُه: ﴿وَلَنَبْلُوَنَّكُم﴾، وهُوَ عَطْفُ إِنْشَاءٍ عَلَى خَبَرٍ، ولَا ضَيْرَ فِيهِ عِنْدَ من تحقَّقَ أَسَالِيبَ العَرَبِ، ورَأَى في كَلَامِهم كَثْرَةَ عَطْفِ الخَبَرِ عَلَى الإِنْشَاءِ وعَكْسِهِ[3]، وفائدتُه إكسابُ المُخاطَبِ لونًا من البُشرى بعد البلوى.

دلالةُ اسمِ الإشارةِ على المحذوفِ في قولِه: ﴿وَبَشِّرِ ٱلصَّٰبِرِينَ﴾:

الإيــذانُ بعُلوِّ رُتبةِ الصَّابرين، والإشــارةُ إلى ثوابِهم العالي

حُذِفَ المُبشَّرُ به في قولِه تعالى: ﴿وَبَشِّرِ ٱلصَّٰبِرِينَ﴾؛ و"دَلَّ عَلَيْهِ قوله: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ عَلَيۡهِمۡ صَلَوَٰتٌ﴾، أَيْ: وبَشِّرِ الصَّابِرينَ بِأَنَّ عَلَيْهِم صَلَوَاتٍ من رَبِّهِم ورَحْمَةً، فَحُذِفَ لِلاخْتِصَارِ؛ لِدَلَالَةِ قوله: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ

(1) القِنَّوجيُّ، فتح البيان: 1/319.
(2) ابن عرفة، تفسير ابن عرفة: 470-2/469.
(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 2/56.

﴿عَلَيۡهِمۡ صَلَوَٰتٞ﴾ [البَقَرَة: 157] عَلَيْه؛ وإنَّمَا اخْتِيرَ هَذَا الأُسْلُوبُ؛ لأَنَّ التَّعْبِيرَ بأُولَئِكَ مُؤْذِنٌ بِعُلُوِّ رُتْبَتِهِمْ، ومُشْعِرٌ بِأَنَّ اسْتِحْقَاقَهُم مَا ذُكِرَ؛ لِكَوْنِ اتِّصَافِهِم بِمَا ذُكِرَ مِن النُّعُوتِ أَوْفَى بِالمَرَامِ وأَحْرَى بِالمَقَامِ"[1].

الفُرُوقُ المُعْجَمِيَّةُ:

الخَوف والخَشْية:

المؤمِنُ لا يَنفَكُّ عَنِ الخَوفِ مِنَ اللهِ، ولا يَسْتَغني عَنْ خَشْيَتِهِ

الخَوْفُ يتَعَلَّقُ بالمكرُوه، وبتَرك المَكْرُوه؛ تَقول: خِفْتُ زَيْدًا، كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿يَخَافُونَ رَبَّهُم مِّن فَوۡقِهِمۡ﴾ [النحل: 50]، وتقول: خفتُ المَرَض، كَمَا قَالَ سُبْحَانَهُ: ﴿وَيَخَافُونَ سُوٓءَ ٱلۡحِسَابِ ٢١﴾ [الرعد: 21].

والخشيةُ تتَعَلَّق بمُنْزِلِ المَكْرُوه، ولَا يُسمَّى الخَوْف من نَفسِ المَكْرُوه خشْيَةً، ولِهَذَا قَالَ: ﴿وَيَخۡشَوۡنَ رَبَّهُمۡ وَيَخَافُونَ سُوٓءَ ٱلۡحِسَابِ ٢١﴾ [الرعد: 21]، فَإِن قيل: أَلَيْسَ قد قَالَ: ﴿إِنِّي خَشِيتُ أَن تَقُولَ فَرَّقۡتَ بَيۡنَ بَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ﴾ [طه: 94]، قُلْنَا: إِنَّه خشِيَ القَوْل المُؤَدِّي إِلَى الفُرْقَة، والمُؤَدّي إِلَى الشَّيْء بِمَنْزِلَة من يَفْعَله[2].

والخَوْفُ: تَوقُّعُ مكرُوهٍ عن أمارَةٍ مَظنُونة، أو مَعلُومة، كما أنّ الرّجاءَ والطَّمعَ توقُّعُ محبوبٍ عن أمارةٍ مظنُونة، أو معلُومة، ويُضادُّ الخوفُ الأمْنَ، ويُستَعْمَلُ ذلكَ في الأُمُور الدُّنيويّة والأُخرويّة[3]، والخَشْيَة: خَوفٌ يَشُوبُه تَعْظيمٌ، وأكْثَرُ ما يكونُ ذلكَ عَن عِلْم بما يُخْشى مِنْه، ولِذلِكَ خُصَّ العُلماءُ بها في قَوْلِه ﷻ: ﴿إِنَّمَا يَخۡشَى ٱللَّهَ مِنۡ عِبَادِهِ ٱلۡعُلَمَٰٓؤُاْۗ﴾ [فاطر: 28][4]، فهي خَوفٌ مخْصوصٌ، يَلْزَمُه التَّعْظيمُ؛ فلذا جاءَ في الآيةِ مَنْهيًّا عَنهُ مَعَ المُعانِدِين، ومَأْمورًا بِهِ مَعَ اللّه تَعَالى، فَهو الحَقِيقُ بِأن يُخْشى، ففي الآيةِ تَعَلَّقَ الخَوفُ بالمَكروهاتِ المُتَوَقَّعة الَّتي سَتأْتي بَعْدَ تِلْكَ الأحداثِ، مِن تَغْيِيرِ القِبْلَة، واستقلالِ الأُمَّةِ، واسْتِشْرافِ مَرْحلةِ الصِّراعِ والحَرْبِ.

---

(1) القُونَوِيّ، حاشيةٌ على البيضاويّ: 4/377.
(2) العسكريّ، الفروق اللّغويّة، ص: 241.
(3) الرَّاغب، المفردات: (خوف).
(4) الرَّاغب، المفردات: (خشي).

﴿ٱلَّذِينَ إِذَآ أَصَٰبَتۡهُم مُّصِيبَةٞ قَالُوٓاْ إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّآ إِلَيۡهِ رَٰجِعُونَ ١٥٦﴾

[البقرة: 156]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِمَا قَبْلَها:

استرسالٌ في بيانِ صفاتِ الصّابرينَ:

لَمّا ذَكَرَ في الآيَةِ السَّابِقَةِ أَنْوَاعَ المَصَائِبِ والاِبْتِلَاءَاتِ الَّتِي تُصِيبُ المُؤْمِنِينَ، وخَتَمَهَا بالأَمْرِ بِتَبْشِيرِ الصَّابِرِين؛ بيَّنَ في هذه الآية سُلُوكَ أُولَئِكَ الصَّابِرِينَ، وكَيْفَ يَسْتَقْبِلُونَ تِلْكَ الاِبْتِلَاءَاتِ والمَصَائِبَ، فَهُوَ اسْتِرْسَالٌ في بَيَانِ صِفَتِهِمْ.

شَرْحُ المُفْرَدَاتِ:

لفظ (مُصيبة) استُعمل في القرآن في التّعبير عن الشّرّ الطّارئ

1) ﴿أَصَٰبَتۡهُم﴾: مِنَ الجَذْرِ (صوب)، والإصابة: النُّزولُ بالشّيء واللَّحاقُ بِه، خَيرًا كان النّازلُ أو شَرًّا[1]، وأَصَابَ السّهمُ: إذا وصلَ إلى المَرْمَى، والمُصِيبَةُ أصلُها في الرَّمْيَة، ثُمّ اخْتَصّتْ بالنّائِبَةِ، نَحوَ: ﴿فَكَيۡفَ إِذَآ أَصَٰبَتۡهُم مُّصِيبَةُۢ﴾ [النّساء: 62][2]، والمُصيبَةُ: ما أصابَ بِهِ الدَّهرُ: ﴿ٱلَّذِينَ إِذَآ أَصَٰبَتۡهُم مُّصِيبَةٞ﴾ [البقرة: 156]، و﴿مُّصِيبَةٞ﴾ لم تُستَعمل في القرآن إلّا في التَّعبيرِ عمّا يَعُدُّهُ الإنسانُ شَرًّا[3].

من له الرّجوع فإليه المصير

2) ﴿رَٰجِعُونَ﴾: مِنَ الجَذْرِ (رجع)، وهو في الأَصْلِ يَدُلُّ عَلَى رَدٍّ وتَكْرَارٍ، تَقُولُ: رَجَعَ يَرْجِعُ رُجُوعًا، إِذَا عَادَ[4]، والرُّجُوعُ: العَوْدُ إلى ما كان مِنهُ البَدءُ، مَكانًا كان أو فِعْلًا، أو قولًا، والرَّجْعَةُ في الطَّلاقِ، وفي العَودِ إلى الدّنيا بَعْدَ المَمَاتِ، ويُقال: فلانٌ يؤمن بالرَّجْعَةِ[5].

(1) ابن منظور، لسان العرب: (صوب)
(2) الرَّاغب، المفردات: (صوب).
(3) جبل، المعجم الاشتقاقيّ المؤصّل: (صوب-صيب).
(4) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (رجع).
(5) الرَّاغب، المفردات: (رجع).

المَعْنَى الإِجْمَاليُّ:

يقول اللّهُ تَعَالَى ذِكْرُهُ لِنَبِيِّهِ ﷺ: يَا مُحَمَّدُ بَشِّرِ الصَّابِرِينَ عَلَى امْتِحَانِي بِمَا أَمْتَحِنُهُم بِهِ، والحَافِظِينَ أَنْفُسَهُم عَنِ الإِقدامِ على نَهْيِي عَمَّا أَنْهَاهُم عَنْهُ، والآخِذِينَ أَنْفُسَهُم بِأَدَاءِ مَا أُكَلِّفُهُم مِن فَرَائِضِي مَعَ ابْتِلَائِي إِيَّاهُمْ، بِمَا ابْتَلَيْتُهُم بِهِ، القَائِلِينَ إِذَا أَصَابَتْهُم مُصِيبَةٌ: ﴿إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّآ إِلَيْهِ رَاجِعُونَ﴾، فَأَمَرَهُ اللّهُ تَعَالَى ذِكْرُهُ بِأَن يَخُصَّ بِالبِشَارَةِ عَلَى مَا يَمْتَحِنُهُم بِهِ مِنَ الشَّدَائِدِ، أَهْلَ الصَّبْرِ الَّذِينَ وصَفَ اللّهُ صِفَتَهُمْ(1).

تخصيص المؤمنين بالبشارة، رغم ما يمتحنُهُمْ به منَ الشَّدَائد

وهَذِهِ العِبَارَةُ تَحْمِلُ من قُوَّةِ المَعْنَى مَا يَجْعَلُهَا في غَايَةِ الإِيجَازِ؛ لأنّها أَوْجَزَت كُلَّ مَا يُعِينُ عَلَى الصَّبْرِ، فَكَوْنُ العَبْدِ مَمْلُوكًا للّهِ تعالى، يتبيّنُ أَنَّ المُلكَ الحَقِيقيَّ للّهِ تعالى، فَنَحْنُ أَنْفُسُنَا مَمْلُوكُونَ لَهُ، فَعَلَى أَيِّ شَيْءٍ الأَسَى بَعْدَ ذَلِكَ.

تذكير النّفس بأنّ كلّ شيْء سينْتهي، وأنّ إلى الله الرُّجعى

ثُمَّ تَأْتِي العِبَارَةُ الثَّانِيَةُ: ﴿وَإِنَّآ إِلَيْهِ رَاجِعُونَ ١٥٦﴾ بِصِيغَةِ التَّأْكِيدِ؛ لِتَذْكِيرِ النَّفْسِ بِأَنَّ كُلَّ شَيْءٍ سَيَنْتَهِي، ثُمَّ نَرْجِعُ إِلَى اللّهِ تعالى، وهَذِهِ العِبَارَةُ مِن أَبْلَغِ مَا يُعِينُ النَّفْسَ بَعْدَ الابْتِلَاءِ.

الإيضاحُ اللُّغويُّ والبلاغيُّ:

بلاغةُ استفتاحِ الآيةِ بوصْفِ الصَّابِرين:

الأوجهُ الإعرابيَّةُ تُعرِبُ عنِ الثَّناءِ والمَدْحِ

ابتدأتِ الآيةُ ببيانِ صفةِ الصَّابرين بالاسم الموصولِ؛ فالنَّفسُ تتطلَّعُ إلى معرفةِ صفاتِهم وأحوالِهم، فجاءَ البيانُ في صلةِ الموصولِ تفصيلًا، بما يُزيلُ الغموضَ والإبهامَ عنهم، وفيه من المَدْحِ والثَّناءِ عليهم بالدَّليل وهو قولُهم، والأوفقُ أنْ يكونَ الاسمُ الموصولُ نعتًا، ويصحُّ أن يكون منصوبًا على المدْحِ، وأن يكونَ خبرًا لمبتدأٍ محذوفٍ فيكون على القطع أوِ الاستئنافِ، وكلاهما فيه معنى الثَّناءِ عليهم،

(1) ابن جرير، جامع البيان: 3/221.

وخلاصةُ الأمرِ أنَّ هذه الأوجه تصُبُّ في مَيْدانِ القبولِ الدَّائرِ حولَ المَدْحِ والثَّناءِ[1].

فائدةُ الشَّرْطِ بـ (إِذَا) دون (إِنْ):

في قولِه ﷻ: ﴿ٱلَّذِينَ إِذَآ أَصَٰبَتۡهُم مُّصِيبَةٞ﴾ آثَرَ ﴿إِذَآ﴾؛ لأنّها تُفيدُ القَطْعَ واليَقِينَ، وأمَّا (إِنْ) فَإِنَّهَا تُفِيدُ الشَّكَّ وعَدَمَ اليَقِينِ، وسرُّ ذلك أنَّ قولَ الصَّابرين المُبَشَّرين: ﴿إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّآ إِلَيۡهِ رَٰجِعُونَ﴾ مقطوعٌ به عند وقوعِ المُصيبةِ؛ لذلك هم مُبشَّرون؛ لِذَا كَانَ لَا بُدَّ أَن يَكُونَ التَّعْبِيرُ بِمَا يُفِيدُ ذَلِكَ القَطْعَ واليَقِينَ المُنَاسِبَ لِلْوَصْفِ، وهُوَ مَا تُؤَدِّيه إِذَا.

سرُّ التَّعبيرِ بلَفْظِ ﴿مُّصِيبَةٞ﴾ دون لَفْظِ (ابْتِلاء):

لَمَّا صُدِّرَتِ الآيَةُ السَّابِقَةُ بِالتَّأْكِيدِ عَلَى وُقُوعِ الابْتِلَاءِ، بقوله ﷻ: ﴿وَلَنَبۡلُوَنَّكُم﴾، كَانَ الظَّاهِرُ أَن يَقُولَ: (الَّذِينَ إِذَا أَصَابَهُم بَلَاءٌ)؛ ولَكِنَّهُ عَدَلَ عَن ذَلِكَ إِلَى قَوْلِهِ ﷻ: ﴿إِذَآ أَصَٰبَتۡهُم مُّصِيبَةٞ﴾؛ لِأَنَّهُ أَرَادَ تَخْصِيصَ نَوْعِ الابْتِلَاءِ، وهُوَ الابْتِلَاءُ بِالشَّرِّ، وبِمَا يَسُوءُ الإِنْسَانَ، وهَذَا تَتَنَاوَلُه لَفْظَةُ ﴿مُّصِيبَةٞ﴾، والمُصِيبَةُ: النَّكْبَةُ يُنْكَبُهَا الإِنْسَانُ وإن صَغُرَتْ، وتُسْتَعْمَلُ في الشَّرِّ[2]، ولَم تُسْتَعْمَل في القُرْآنِ إلَّا في التَّعْبِيرِ عَمَّا يَعُدُّهُ الإِنْسَانُ شرًّا[3]، أَمَّا (الابْتِلَاءُ) فَهُوَ يَشْمَلُ الابْتِلَاءَ بِالْخَيْرِ والشَّرِّ، مِصْدَاقًا لِقَوْلِهِ ﷻ: ﴿كُلُّ نَفۡسٖ ذَآئِقَةُ ٱلۡمَوۡتِۗ وَنَبۡلُوكُم بِٱلشَّرِّ وَٱلۡخَيۡرِ فِتۡنَةٗۖ وَإِلَيۡنَا تُرۡجَعُونَ ٣٥﴾ [الأنبياء: 35]، فالآية تُبيِّنُ أنّ هؤلاءِ الصَّابرين المُسْتَحِقّين لِلبِشارةِ، هُمُ الّذين يَقولُون: ﴿إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّآ إِلَيۡهِ رَٰجِعُونَ ١٥٦﴾ عِنْدَ وُقُوعِ المُصِيبَةِ ومَا يَسُوؤُهم مِمَّا يَكْرَهُونَ، وهَذَا أَثْقَلُ عَلَى النَّفْسِ.

الجمالُ الصَّوْتِيُّ في قولِه: ﴿أَصَٰبَتۡهُم مُّصِيبَةٞ﴾:

إِنَّ اسْتِعْمَالَ الأَلْفَاظِ مِنَ الجَذْرِ (صوب)، لِلتَّعْبِيرِ عَن وُقُوعِ

البَلاءُ بالشّرّ والخَيْرِ فِتْنَةٌ للمُؤمِن، والمُصيبةُ خاصَّةٌ في الشَّرِّ

بَيانُ فَضيلَةِ الصّابِرينَ بِأَلْفَاظٍ مُوحِيَةٍ بِالْقُوَّةِ، وبِصوتٍ مُفْصِحٍ

(1) السّمين، الدّرّ المصون: 2/186.

(2) القرطبيّ، الجامع لأحكام القرآن: 2/175.

(3) جبل، المعجم الاشتقاقيّ المؤصّل: (صوب-صيب).

الابْتِلَاءِ، يُلَاحَظُ فِيهِ قُوَّةُ الصَّوتِ؛ حَيْثُ إنَّ صَوْتَ الصَّادِ مِن أَصْوَاتِ الصَّفِيرِ والاسْتِعْلَاءِ، وهُمَا مِن صِفَاتِ القُوَّةِ، واسْتِعْمَال اللَّفْظِ مُكَرَّرًا بِصيغَةِ الفِعْلِ مَرَّةً، والاسْمِ مَرَّةً، ممَّا يَزيدُ أَثَرَ هَذَا الصَّوْتِ، فَكَانَ مُمْكِنًا أَن يَقُولَ: (الَّذِينَ إِذَا ابْتَلينَاهُم بِشَيْءٍ) أَو غيرَها؛ ولَكِنَّهُ أَرَادَ أَن يُبَيِّنَ فَضِيلَةَ الصَّابِرِينَ بِأَلْفَاظٍ مُوحِيَةٍ بِالْقُوَّةِ؛ لِيَتَّصِفَ مَا يَحِيقُ بِهِم بِالشِّدَّةِ، فَيَظْهَرُ فَضْلُهُمْ، وهَذِهِ القُوَّةُ في الصَّوْتِ، من أسبابِ تَخْصِيصِ المُصِيبَةِ بالتَّعْبِيرِ عَن الشَّرِّ، وما أجمَلَ ائتلاف الدّلالة بالصَّوتِ، وفيه مَا يُسَمَّى بِالْجِنَاسِ الاشْتِقَاقِيِّ.

دلالةُ التَّنْكيرِ في لفظِ: ﴿مُّصِيبَةٌ﴾:

آثرَ النَّظمُ التَّنْكِيرَ؛ لِأَنَّهُ يُفِيدُ العمومَ والشُّمُول، فَهُم يَقُولُونَ: ﴿إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّآ إِلَيۡهِ رَٰجِعُونَ ١٥٦﴾، مَعَ كُلِّ أَنْوَاعِ المَصَائِبِ، وفي كلِّ أوقاتِها، كَمَا يُفِيدُ التَّنكيرُ تعْظِيمَ المُصيبةِ في النَّفسِ، إذِ التَّنكيرُ بريدُ الإبهامِ، فيصدُقُ على كلِّ مصيبةٍ يستعظِمُها الإنسَانُ.

فائِدَةُ العَطْفِ والتَّقديمِ في قوله: ﴿قَالُوٓاْ إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّآ إِلَيۡهِ رَٰجِعُونَ﴾:

إثباتُ المِلكِ مقدَّمٌ على إثباتِ الرُّجوعِ، كتقديمِ الدَّعوى على دليلِها

في قوله تعالى: ﴿إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّآ إِلَيۡهِ رَٰجِعُونَ ١٥٦﴾ جُمْلَتان مَعْطوفَتانِ: ﴿إِنَّا لِلَّهِ﴾ و﴿وَإِنَّآ إِلَيۡهِ رَٰجِعُونَ ١٥٦﴾؛ لاتِّحَادِهِمَا في الخَبَرِيَّةِ، فَهُما جُمْلَتَانِ خَبَرِيَّتَانِ مُؤَكَّدَتَانِ، كلٌّ منهما تُؤدّي معنًى مُستقلًّا مُرادًا، فَلَو لَم يَعْطِف، وقَالَ: (إِنَّا للَّه إِنَّا إِلَيْه رَاجِعُونَ)، لَكَانَت الثَّانيَةُ بَيَانًا لِلْأُولَى، بَدَلًا عَنْهَا، وتَفْسِيرًا لَهَا، فَهِيَ لا تُؤدّي معنًى ثانيًا مُسْتَقِلًّا، وهذا لَيْسَ المُرادَ، إذِ المرادُ بَيَانُ الاخْتِصَاصِ والتَّأْكِيدِ؛ فَالرُّجُوعُ لَن يَكُونَ إِلَّا للَّه تَعَالَى، مَعَ إِفَادَةِ تَقْوِيَةِ الْعَوْدَةِ، وبَيَانِ أَنَّهُم مُوقِنُونَ بِذَلِكَ[1]، "وَأَنَّهُ رَاجِعٌ إِلَى رَبِّهِ، لَا إِلَى غَيْرِهِ، إِشَارَةً إِلَى الحَصْرِ المُسْتَفَادِ مِن تَقْدِيمِ الجَارِّ"[2]؛ فهذا من باب تقديم الدَّعوى على الدَّليلِ، معَ ما فيه مِنْ حُسْنِ الفاصِلَة.

(1) الرّوينيّ، من غريب بلاغة القرآن الكريم، ص: 480.

(2) القُونَوِيّ، حاشيةٌ على البيضاويّ: 4/377.

﴿أُوْلَٰٓئِكَ عَلَيۡهِمۡ صَلَوَٰتٞ مِّن رَّبِّهِمۡ وَرَحۡمَةٞۖ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُهۡتَدُونَ ١٥٧﴾ [البقرة: 157]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِمَا قَبْلَها:

مَـنْ صَبَرَ عَلى البَلاء، نالَ الأجْرَ والجَزاء

لَمّا ذَكَرَ أَنْوَاعَ الابْتِلَاءِ، وذَكَرَ سُلُوكَ الصَّابِرِينَ إِزَاءَهُ بِحِكايَةِ قَوْلِهِمْ: ﴿إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّآ إِلَيۡهِ رَٰجِعُونَ ١٥٦﴾، بَيَّنَ في هَذِهِ الآيَةِ جَزَاءَ صَبْرِهِمْ، ومَا يَنَالُهُم مِنَ اللَّهِ تَعَالى من الصّلوات والرّحمة، وبَيَّنَ صِفَتَهُم وهِيَ أَنَّهُم هُم المُهْتَدُونَ حَقًّا.

شَرْحُ المُفْرَدَاتِ:

الأصلُ اللُّغويُّ للصّلاة أنّها دعاءٌ و رحمةٌ

1) ﴿صَلَوَٰتٞ﴾: مِنَ الجَذْرِ (صلي)، وصَلَّيْتُ العَصَا تَصلِيَةً: إِذا أَدَرْتَها على النّارِ؛ لِتُقوِّمَها[1]، وإِذا اعْوَجّتْ أَلْزَمَها مُقَوِّمُها حَرَّ النّارِ حَتَّى تَلِينَ لَهُ وتُجِيبَ التّثقيف.

فالصّلاة مِنْ صلَّيْتُ العُوْدَ، إذا ليَّنْتَه؛ لأَنّ المصلّي يَلِينُ ويخْشَعُ[2]، فَأَمَّا الصّلَاةُ مِنَ اللهِ تَعَالَى فَالرَّحْمَةُ[3] بإنْزالِ الرّحْمَةِ والبرَكَاتِ[4].

ربوبيّة الله للعباد عطاءٌ ولطفٌ وإمدادٌ

2) ﴿رَّبِّهِمۡ﴾: مِنَ الجَذْرِ (ربب)، وهوفي الأَصلِ يدلّ على إِصْلَاحِ الشَّيْءِ والْقِيَامِ عَلَيْهِ[5]، ويَعْني الرّعايَةَ والإنْماءَ والتَّربيَةَ، والسَّحابُ يَرُبُّ المَطَرَ: يَجمَعُهُ وينَمّيه[6]، ويُقَالُ: رَبَّ فُلَانٌ ضَيْعَتَهُ، إذا قَامَ عَلَى إِصْلَاحِهَا، والرَّبُّ: المُصْلِحُ لِلشَّيْءِ، واللّهُ (جَلَّ ثَنَاؤُهُ) الرَّبُّ؛ لأنّه

(1) الأزهريّ، تهذيب اللُّغة: (صلى).
(2) ابن فارس، مجمل اللُّغة، ص: 538.
(3) ابن فارس، مقاييس اللُّغة: (صلي).
(4) جبل، المعجم الاشتقاقيّ المؤصّل: (صلو-صلى).
(5) ابن فارس، مقاييس اللُّغة: (رب).
(6) جبل، المعجم الاشتقاقيّ المؤصّل: (ربب-ربرب).

مُصْلِحُ أَحْوَالِ خَلْقِهِ[1]، فَالرَّبُّ هو: المَالِكُ، والْخَالِقُ، والصّاحِبُ، والمُصْلِحُ لِلشَّيْءِ[2].

رحمة الله نعمةٌ وسعت كلّ شيء

3) ﴿وَرَحۡمَةٞۖ﴾: مِنَ الجَذْرِ (رحم)، وهوفي الأَصْلِ يَدُلُّ عَلَى الرِّقَّةِ والْعَطْفِ والرَّأْفَةِ[3]، والرّحمةُ: رِقَّةُ القَلبِ، والعَطْفُ مِن الشّخْص على مَن يَضُمّ، يُقَالُ مِن ذَلِكَ: رَحِمَهُ: رَقَّ لَهُ وتَعَطَّفَ عَلَيْهِ، ورحمةُ اللّه للعباد جودٌ وفضل، وتتضمَّن أيضاً لازِمَ الرّحْمَةِ، كالمغْفِرَةِ، والنِّعْمَةِ، والبَرَكَةِ، وغيرِها[4].

الهداية سبيل العبد للنّجاة في العاجلة والآجلة

4) ﴿ٱلۡمُهۡتَدُونَ﴾: مِنَ الجَذْرِ (هدي)، وهو في الأصل: تَبَيُّنُ الوُجْهَةِ بالتَّقَدُّم، هَدَيْتُه الطَّرِيقَ هِدَايَةً، أَي: تَقَدَّمْتُه؛ لِأُرْشِدَهُ، وكُلُّ مُتَقَدِّمٍ لِذَلِكَ هَادٍ[5]، والهُدَى: الرّشَادُ والدّلالَةُ، ضِدُّ الضّلالِ.

والْمُهْتَدُونَ في الآيَةِ: هُم الَّذِينَ رَشَدُواْ، وعَرَفُوا طَرِيقَ الحَقِّ، والصِّرَاطَ القَوِيمَ، المُهْتَدُونَ لِطَرِيقِ الصَّوَابِ[6].

المَعْنَى الإِجْمَالِيُّ:

كِفاءُ الصَّبْرِ عَلى المُصيبَةِ صَلَواتٌ ورَحَماتٌ، والصَّابِرون بِصِدْقٍ هُمُ المُهْتَدون

يُخْبِرُ اللّهُ تَعَالَى عَن جَزَاءِ أُولَئِكَ الصَّابِرِينَ، بِأَنَّ اللّه تَعَالَى سَيُعْقِبُهُم رَحْمَةً وبَرَكَةً مِنْهُ تَعَالَى، وأَنَّ الصَّبْرَ إِزَاءَ المَصَائِبِ يُنْبِئُ عَن الهِدَايَةِ، فَوَصَفَ الصَّابِرِينَ في خِتَامِ الآيَةِ بِكَوْنِهِمْ: ﴿هُمُ ٱلۡمُهۡتَدُونَ﴾، وهَذَا بَيَانٌ لِفَضِيلَةِ صِفَتِهِمْ؛ فَلَم تُزْعِجْهُمُ المَصَائِبُ، ولَم تَكُن لَهُم حَاجِبًا عَن التَّحَقُّقِ في مَقَامِ الصَّبْرِ؛ لِعِلْمِهِم أَنَّ الحَيَاةَ لَا تَخْلُو مِن الأَكْدَارِ، ورَحْمَةُ اللَّهِ وجوده وفضله وصلَاتُهُ يَلِيقُ بِهَا الشَّخْصُ المُتَّصِفُ بِصِفَةِ تَحَمُّلِ الأَذَى، والتَّرَيُّثِ والتَّلَبُّثِ، إِزَاءَ

(1) ابن فارس، مقاييس اللُّغة: (رب).
(2) ابن فارس، مقاييس اللُّغة: (رب).
(3) ابن فارس، مقاييس اللُّغة: (رحم).
(4) جبل، المعجم الاشتقاقيّ المؤصّل: (رحم).
(5) ابن فارس، مقاييس اللُّغة: (هدي).
(6) الزّمخشريّ، الكشّاف: 1/208، والبيضاويّ، أنوار التّنزيل: 1/115.

المصائِبِ؛ فَلِذَا جَاءَ العَطَاءُ الإلَهِيُّ بِالرَّحْمَةِ والتَّزْكِيَةِ والمَغْفِرَةِ الَّتِي تَحْتَمِلُهَا لَفْظَةُ ﴿صَلَوَٰتٌ﴾.

الإيضاحُ اللُّغويُّ والبلاغيُّ:

بَيانُ جزاءِ الصَّابِرينَ عِنْدَ اللهِ رَبِّ العالَمين:

عَطاءُ اللهِ لِلصّابِرينَ بِلا حِسابٍ

الآيَةُ فَصْلٌ عَن سَابِقَتِهَا؛ لِوُقُوعِها مَوْقِعَ الجَوَابِ عَن سُؤَالٍ نَشَأَ عَنِ السَّابِقَةِ، فَكَأَنَّهُ قِيلَ: فَما جَزَاءُ أُولَئِكَ الصَّابِرِينَ المبشَّرِ بِه؟ فَجَاءَ الجَوَابُ في هَذِهِ الآيَةِ بِقَوْلِهِ ﷻ: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ عَلَيۡهِمۡ صَلَوَٰتٞ مِّن رَّبِّهِمۡ وَرَحۡمَةٞۖ﴾، فالفَصْلُ قامَ مقامَ البيانِ والإيضاحِ، على طريقِ السُّؤَالِ المُفترَضِ.

دَلالَةُ اسمِ الإشارَةِ ﴿أُوْلَٰٓئِكَ﴾:

الحُكْمُ الوارِدُ بَعْدَ اسْمِ الإشارَةِ، مُبرِزٌ جَميلَ جَزاءِ الصّابرينَ

جاء الإِتْيَانُ بِاسْمِ الإِشَارَةِ -في قَوْلِهِ ﷻ: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ عَلَيۡهِمۡ صَلَوَٰتٞ مِّن رَّبِّهِمۡ وَرَحۡمَةٞۖ﴾- "إِشَارَةً إِلَى الصَّابِرِينَ بِاعْتِبَارِ اتِّصَافِهِم بِمَا ذَكَرَ مِن النُّعُوتِ"[1]، وتَنْبِيهًا عَلَى أَنَّ المُشَارَ إِلَيْهِ، هُوَ ذَلِكَ المَوْصُوفُ بِجَمِيعِ الصِّفَاتِ السَّابِقَةِ، وأَنَّ الحُكْمَ الَّذِي يَرِدُ بَعْدَ اسْمِ الإِشَارَةِ، مُتَرَتِّبٌ عَلَى تِلْكَ الأَوْصَافِ، مِثْلُ قَوْلِهِ ﷻ: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ عَلَىٰ هُدٗى مِّن رَّبِّهِمۡۖ﴾ [البقرة: 5]، وهَذَا بَيَانٌ لِجَزَاءِ صَبْرِهِمْ[2]، وَجَاءَ اسْمُ الإِشَارَةِ بِصِيغَةِ البُعْدِ ﴿أُوْلَٰٓئِكَ﴾ "وَمَعْنَى البُعْدِ فِيهِ لِلإِيذَانِ بِعُلُوِّ رُتْبَتِهِمْ"[3].

دَلالَةُ الحَرْفِ (عَلَى) فِي قَوْلِهِ تَعالى: ﴿عَلَيۡهِمۡ﴾:

الإشعارُ بِنُزولِ الرَّحمةِ والمغفرةِ من اللهِ تعالَى، وهذا غايةُ الرَّجاءِ

آثَرَ النَّظمُ استِعْمَالَ حَرْفِ الجَرِّ (عَلَى)، في قَوْلِهِ ﷻ: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ عَلَيۡهِمۡ صَلَوَٰتٞ مِّن رَّبِّهِمۡ﴾، ولَم يَقُل (لَهُمْ)؛ لبيانِ تمكُّنِ تلكَ الصَّلَوَاتِ مِنْهُمْ، وتأْكِيدِ أَثَرِهَا فيهم، وللإشعارِ بمعنى النُّزولِ؛ فإنَّ مَنْ أُصيبَ بمصيبةٍ وصَبَرَ فإنَّ اللّهَ يُنزِلُ عليه رحمتَه ومغفرتَه، ففيها إشارَةٌ

(1) القاسميّ، محاسن التّأويل: 443-1/442.

(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 2/57.

(3) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 1/180.

إلى عظيمِ رِعايةِ اللّه لعبادِه الصَّابرين، وأنَّ جزاءَهم عظيمٌ في نزول الرَّحمات والمغفرة، والصَّلَواتُ هنا التَّزْكيَاتُ، والمَغْفِرَاتُ؛ لِذَلِكَ عُطِفَت عَلَيْهَا الرَّحْمَةُ الَّتِي هِيَ مِن مَعَانِي الصَّلَاةِ لغةً، كالصّلاة في قَوْلِهِ تَعَالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ وَمَلَٰٓئِكَتَهُۥ يُصَلُّونَ عَلَى ٱلنَّبِيِّۚ﴾ [الأحزاب: 56][1].

دَلالَةُ التَّنْكِيرِ والجَمْعِ في قولِه: ﴿صَلَوَٰتٌ﴾:

فخامةُ وتعظيمُ ما كانَ مِنَ اللهِ، وبيانُ أثرِها في النَّفسِ

أفادَ التّنكيرُ في ﴿صَلَوَٰتٌ﴾ التَّفْخيمَ والتَّعْظيمَ، فهِيَ صَلواتٌ لَيْسَتْ مَعْهودَةً ولا مَعْروفَةً، وهذا يُناسِبُ وصْفَها بِكونِها: ﴿مِّن رَّبِّهِمْ﴾؛ إذِ المُرادُ بَيانُ أنَّ جَزاءَ أولئك الصّابرينَ إزاءَ المَصائِبِ العَظيمَةِ، هُوَ عَطاءاتٌ منَ الله عَظيمَةٌ، ودَلّ الجَمْعُ على التَّنويع، وهذا يُدلُّ على عَظيم جَزاءِ الصّابرينَ، فلَيْسَ الجزاءُ صَلاةً واحِدَةً، إذْ قَد تَنْصَرِفُ لِمَعْنًى واحِدٍ، بل هيَ صَلواتٌ؛ لِتشْمَلَ كُلَّ ما يَنْدَرِجُ تَحت مَعنى الصّلاةِ مِنَ الرّحمَةِ، والتّزْكِيَةِ، والبَرَكَةِ، وغيرِها من عطاءاتِ الله وفضلِه.

إيثارُ لَفْظِ الرُّبوبيّةِ في قوله: ﴿مِّن رَّبِّهِمْ﴾:

الإشارةُ إلى وعدِ اللهِ في الرِّعايةِ للصّابرين بعد وقوعِ المُصيبةِ

آثَرَ النَّظمُ التَّعْبِيرَ بِلَفْظِ الرُّبُوبِيَّةِ مَعَ الإِضَافَةِ إِلَى الضَّمِيرِ العَائِدِ عَلَيْهِمْ، في قَوْلِهِ ﷻ: ﴿رَّبِّهِمْ﴾؛ لِإِظْهَارِ مَزِيدِ العِنَايَةِ بِهِمْ، وزادَ ذلكَ ظُهُورًا ﴿مِّن﴾ الابتدائِيّةُ، فهي "في مَحَلِّ الرَّفْعِ، أَيْ: صَلَوَاتٌ كَائِنَةٌ مِن رَبِّهِمْ"[2]، فالتَّعبيرُ بعنوانِ الرُّبوبيَّةِ فيه إبرازُ التَّربيَّةِ لهم بعد وقوعِ المُصيبةِ؛ ففي الآيةِ إشارَةٌ إلى وعدِ اللّه برعايةِ الصَّابرين على صبرِهم، إذِ الرِّعايةِ والعنايةُ من آثارِ الرُّبوبيَّة.

دَلالَةُ المقابلةِ بَيْنَ جَمْعِ ﴿صَلَوَٰتٌ﴾ وإفْرَادِ ﴿وَرَحْمَةٌۖ﴾:

جُمِعَتِ الصَّلواتُ في الآيةِ مَعَ أَنَّهَا في الأَصْلِ مَصْدَرٌ؛ "لِلتَّنْبِيهِ

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 2/57.

(2) زاده، حاشية على البيضاويّ: 2/294.

عَلَى كَثْرَتِهَا وتَنوُّعِها"[1]، والنُّكْتَةُ مَبْنِيَّةٌ عَلَى الإِرَادَةِ، ولِعَدَمِ إِرَادَةِ التَّنْبِيهِ عَلَى كَثْرَةِ الرَّحْمَةِ نَوْعًا لَم تُجْمَعْ، والمُرَادُ بِالرَّحْمَةِ اللُّطْفُ والإِحْسَانُ، وحَاصِلُهُ الإِنْعَامُ، فَيَكُونُ مُغَايِرًا لِلصَّلَاةِ، ولَو أُرِيدَ بِهَا إِرَادَةُ الخَيْرِ؛ لَكَانَ مُغَايِرًا لَهَا أيضًا[2].

فَخامَةُ التَّرْكيبِ تُناسِبُ فَخامَةَ الجَزاء:

تَعْظيمُ جَزاءِ الصَّبْرِ دَليلٌ على مَكانِتِهِ عِنْدَ الله

جَاءَ التَّعْبِيرُ عَن جَزَاءِ الصَّابِرِينَ في هَذِهِ العِبَارَةِ بِجُمْلَتَيْنِ: كُبْرَى وصُغْرَى، فَبَدَأَت العِبَارَةُ بِالْمُبْتَدَأ، وهو اسْمُ الإِشَارَةِ المُشِيرُ إِلَى الصَّابِرِينَ؛ لِاسْتِحْضَارِهِم مَعَ صِفَاتِهِمْ، ثُمَّ يَشْرَعُ في بَيَانِ الحُكْمِ الَّذِي سَيُسْنَدُ إِلَيْهِم بِجُمْلَةٍ ثَانِيَةٍ: ﴿عَلَيۡهِمۡ صَلَوَٰتٞ مِّن رَّبِّهِمۡ﴾، فقوله: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ﴾: مُبْتَدَأٌ، و﴿صَلَوَٰتٞ﴾ مُبْتَدَأٌ ثانٍ، و﴿عَلَيۡهِمۡ﴾ خَبَرُهُ مُقَدَّمٌ عَليه، والجُمْلَة ﴿عَلَيۡهِمۡ صَلَوَٰتٞ﴾ خَبَرُ قَوْلِه: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ﴾[3]، وكِلتا الجُمْلَتَيْنِ اسْمِيَّةٌ، وهَذَا مِمَّا يُفِيدُ التَّأْكِيدَ وتَقْوِيَةَ الحُكْمِ وثُبُوتَهُ، وجَاءَ التَّرْكِيبُ بِالْمُبْتَدَأ النَّكِرَةِ ﴿صَلَوَٰتٞ﴾ لِلتَّعْظِيمِ، وتَقْدِيمُ الخَبَرِ ﴿عَلَيۡهِمۡ﴾ لِإِفَادَةِ التَّأْكِيدِ وتَقْوِيَةِ الحُكْمِ.

سرُّ تَأْكيدِ لَفْظِ (الصَّلاة) بِمعنى الرَّحمةِ:

تنبيهٌ بديعٌ على احتياجِ المُصابِ إلى الرَّحمةِ على وجه الخُصوصِ

في قولِهِ ﷻ: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ عَلَيۡهِمۡ صَلَوَٰتٞ مِّن رَّبِّهِمۡ وَرَحۡمَةٞۖ﴾، ذَكَرَ الصَّلاةَ والرَّحْمَةَ، وفُسِّرَتِ الصَّلاةُ بِالرَّحْمَةِ، فكانَ مِن بابِ التَّكْرارِ والتَّوسُّعِ، وفيه قال الواحِدِيُّ: "إنَّمَا ذَكَرَ الرَّحْمَةَ، ومَعْنَى الصَّلَوَاتِ هَاهُنَا الرَّحْمَةُ؛ لِإِشْبَاعِ المَعْنَى، والاتِّسَاعِ في اللَّفْظِ، ومِثْلُه قوله: ﴿أَمۡ يَحۡسَبُونَ أَنَّا لَا نَسۡمَعُ سِرَّهُمۡ وَنَجۡوَىٰهُمۚ﴾ [الزّخرف: 80]"[4]، فهُوَ كما جَمعَ بينَ الرَّأفةِ والرَّحْمَةِ، كما في "قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿رَأۡفَةٗ وَرَحۡمَةٗ﴾ [الحديد: 27]، وقولِه: ﴿لَرَءُوفٞ رَّحِيمٞ ١٤٣﴾ [البقرة: 143]، والمَعْنَى: عَلَيْهِم رَأْفَةٌ

(1) البيضاويّ، أنوار التّنزيل: 1/115.
(2) القُونَوِيّ، حاشيةٌ على البيضاويّ: 4/378.
(3) السّمين، الدّرّ المصون: 2/186.
(4) الواحديّ، البسيط: 434-3/433.

بَعْد رَأْفَةٍ"[1]، فقد جَمَعَ بين الصَّلواتِ والرَّحمةِ، "وَكَرَّرَ الرَّحْمَةَ، وهِيَ مِن أَعْظَمِ أَجْزَاءِ الصَّلَاةِ، لـمّا اخْتَلَفَ اللَّفْظُ؛ تَأْكِيدًا مِنْهُ تَعَالَى"[2]، فهي من قبيلِ عطفِ الخاصِّ على العامّ لنُكتةٍ في الخاصّ، وهي هنا: احتياجُ الـمُصابِ إلى خصوصِ الرَّحمةِ، ففيه تنبيهٌ بديعٌ على ضرورةِ تراحمِ الـمؤمنين مع الـمُصابِ.

فائِدَةُ الوَصْلِ بين الجملِ:

ترتيبُ الأجرِ بعد الأجرِ، فالجزاءُ العظيمُ الثَّباتُ على الهدايةِ

الجُمْلَة في قَولِهِ ﷻ: ﴿وَأُوْلَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُهۡتَدُونَ﴾، مَعْطُوفَةٌ عَلَى قَوْلِهِ ﷻ: ﴿أُوْلَـٰٓئِكَ عَلَيۡهِمۡ صَلَوَٰتٞ مِّن رَّبِّهِمۡ وَرَحۡمَةٞۖ﴾، ووَصَلَ بَيْنَهُمَا لِاتِّحَادِهِمَا في الْخَبَرِيَّةِ، فَكُلُّ جُمْلَةٍ تَحمِلُ مَعْنًى مُسْتَقِلًّا، فَهُمَا خَبَرَانِ مختلفانِ معنًى[3] عَنِ الصَّابِرينَ؛ لِبَيَانِ فَضْلِهم وجَزائِهم[4]، وجُملةُ: ﴿وَأُوْلَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُهۡتَدُونَ﴾: "اعْتِرَاضٌ مُقَرِّرٌ لِمَضْمُونِ مَا قَبْلَهُ، كَأَنَّهُ قِيلَ: وأُولَئِكَ هُمُ الْمُخْتَصُّونَ بِالاهْتِدَاءِ لِكُلِّ حَقٍّ وصَوَابٍ؛ ولِذَلِك اسْتَرْجَعُوا واسْتَسْلَمُوا لِقَضَاءِ اللَّهِ تَعَالَى"[5]، وفائدةُ الوَصْلِ التَّنبيه على كلِّ معنًى باستقلالِه عنِ الآخرِ، فهم مُجازون بصلواتِ اللّه ورحمتِه، وهم بعد ذلك مُهتدون، أي: ثابتون على الخَيْر.

فائِدَةُ تَكْرارِ اسْمِ الإشارَةِ ﴿أُوْلَـٰٓئِكَ﴾:

مَـنِ اسْتَـنَـدَ إلى اللهِ عَظُمَ شَأْنُهُ عِنْدَ اللهِ والنّاسِ

تَكَرَّرَ اسْمُ الإِشَارَةِ في الآيَةِ مَرَّتَيْنِ: ﴿أُوْلَـٰٓئِكَ عَلَيۡهِمۡ صَلَوَٰتٞ مِّن رَّبِّهِمۡ وَرَحۡمَةٞۖ وَأُوْلَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُهۡتَدُونَ﴾ إِشَارَةً لِلصَّابِرِينَ، في مَعْرِض بَيَانِ جَزَائِهِم وفَضْلِهِمْ؛ لِلتَّأْكِيدِ عَلَى عُلُوِّ شَأْنِهِمْ، وبَيَانِ الاهْتِمَام والْعِنَايَةِ بِهِمْ، فقَد "كَرَّرَ أُولَئِكَ لِشِدَّةِ الاعْتِنَاءِ بِهِم وتَمْيِيزِهِمْ"[6]،

---

(1) الزّمخشريّ، الكشّاف: 1/208.

(2) الثّعالبيّ، الجواهر الحِسَان: 1/341.

(3) القُونَوِيّ، حاشيةٌ على البيضاويّ: 4/379.

(4) الدّبل، دليل البلاغة: 1/219.

(5) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 1/181.

(6) الخفاجيّ، عناية القاضي: 2/258.

و"تَنْبِيهًا عَلَى أَنَّ اتِّصافَهُم بِتِلْكَ الصِّفَاتِ، يَقْتَضِي كُلَّ واحِدَةٍ مِن الْأَثَرَتَينِ، وأَنَّ كُلًّا مِنْهُمَا كَافٍ في تَمْيِيزِهِم من غَيْرِهِمْ"[1].

دَلالَةُ القَصْرِ في قَوْلِهِ ﴿هُمُ ٱلْمُهْتَدُونَ﴾:

في قوله: ﴿هُمُ ٱلْمُهْتَدُونَ﴾ قَصْرٌ وتَأكيدٌ، والْحَصْرُ لِتأْكِيدِ الصِّفَةِ على وجْهِ الكَمَالِ، فهو "إِشَارَةٌ إِلَى قَصْرِ الْهِدَايَةِ عَلَيْهِمْ، وأَنَّهُم الْمُهْتَدُونَ حَقًّا، وذَلِكَ بتَعْرِيف الْمُسْنَدِ والْمُسْنَدِ إِلَيْهِ، وبِالضَّمِيرِ ﴿هُمُ﴾، وذَلِكَ أَشْرَفُ بَيَانٍ، أَنَّهُم الْمُخْتَصُّونَ وحْدَهُم بِالْهِدَايَةِ الْكَامِلَةِ"[2]، فالقصْرُ ادِّعائيٌّ؛ فكأنَّ غيرَهم ليس مُهتديًا بالنسبةِ إليهم، لزيادةِ مكانتِهم، والإشارةِ إلى عُلوِّ شأنِهم.

(1) القُونَوِيّ، حاشيةٌ على البيضاويّ: 4/379.

(2) أبو زهرة، زهرة التّفاسير: 1/475.

﴿إِنَّ ٱلصَّفَا وَٱلْمَرْوَةَ مِن شَعَآئِرِ ٱللَّهِۖ فَمَنْ حَجَّ ٱلْبَيْتَ أَوِ ٱعْتَمَرَ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِ أَن يَطَّوَّفَ بِهِمَاۚ وَمَن تَطَوَّعَ خَيْرًا فَإِنَّ ٱللَّهَ شَاكِرٌ عَلِيمٌ ١٥٨﴾ [البقرة: 158]

۞ مُناسَبَةُ الآيَةِ لِمَا قَبْلَها:

عَلاقَةُ السَّعْيِ بَيْنَ الصَّفا والمَرْوَةِ بتَحويلِ القِبْلَةِ مِنْ حَيْثُ التَّرَدُّدُ والإسْتِشْكالُ

المُنَاسَبَةُ بَيْنَ هذه الآية وبَيْنَ مَا قَبْلَهَا: أَنَّ الْعُدُولَ عَن السَّعْيِ بَيْنَ الصَّفَا والمَرْوَة، يُشْبِهُ فِعْلَ مَن عَبَّرَ عَنْهُم بِالسُّفَهَاءِ، في شَأْنِ تَحْوِيلِ الْقِبْلَة، وإِنْكَارِهِمُ الْعُدُولَ عَن اسْتِقْبَالِ بَيْتِ الْمَقْدِس[1]، فَلَمَّا جَاءَ الْحَدِيثُ في الْآيَاتِ السَّابِقَةِ عَنِ الْقِبْلَةِ واسْتِقْلَالِ الْأُمَّةِ بِالتَّوَجُّهِ إِلَى الْكَعْبَةِ - ثُمَّ أَعْقَبَ ذَلِكَ تَوجيهَ الْأَمْرِ بِالاسْتِعَانَةِ بِالصَّبْرِ؛ إِشْعَارًا بِأَنَّ الْأُمَّةَ سَتُوَاجِهُ مَا تُوَاجِهُهُ الْأُمَمُ مِن الْحُرُوبِ والْقِتَالِ، ومَا يَتْبَعُهُ مِن ضِيقِ الْعَيْشِ - جَاءَ الْحَدِيثُ في هَذِهِ الْآيَةِ عَن بَعْضِ أَعْمَالِ الْحَجِّ الَّتِي تَقَعُ في الْمَسْجِدِ الْحَرَام، وهُوَ السَّعْيُ بَيْنَ الصَّفَا والمَرْوَة، فَقَد وقَعَ فِيهِمَا تَرَدُّدٌ واسْتِشْكَالٌ، فَنَاسَبَ وُرُودُهُ هُنَا بَعْدَ الْحَدِيثِ عَن الْقِبْلَةِ، والتَّوَجُّهِ إِلَى الْمَسْجِدِ الحَرام، حَيْثُ تُقَامُ أَعْمَالُ الْحَجِّ.

۞ شَرْحُ المُفْرَدَاتِ:

1) ﴿ٱلصَّفَا وَٱلْمَرْوَةَ﴾: الصفا والمروةُ اسم لجبلين في مكة صغيرين متقابلين، فأمَّا الصفا فرأس نهاية جبل أبي قُبَيْس، وأمَّا المروة فرأس منتهى جبل قُعَيقِعَانَ.

فالصَّفا: مِنَ الجَذْرِ (صفو)، والأَصْلُ فيه أنه يَدُلُّ عَلَى الخُلُوصِ من كُلِّ شَوْبٍ، والصّفاءُ ضِدُّ الْكَدَرِ، والصّفا، الْحَجَرُ الْأَمْلَسُ، وهُوَ الصّفْوَانُ، الْوَاحِدَةُ: صَفْوَانَةٌ، تَصْفُو مِنَ الطِّينِ والرَّمْلِ[2].

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 59-3/58.

(2) ابن فارس، مقاييس اللُّغة: (صفو).

والصَّفا اسْمٌ لِمَوْضِعٍ مَخْصوصٍ[1]، وهو أحد جبلي المَسْعى، ومنه يبدأ السَّعْي، ويقع في الجهة الجنوبية مائلًا إلى الشرق من الكعبة.

والمَرْوَة: مِنَ الجَذْرِ (مرو)، وهو في الأصلِ يَدُلُّ عَلَى صَلَابَةٍ في شَيْءٍ، والمَرْوَةُ، حِجَارَةٌ تَبْرُقُ[2]، ومَرْوَةُ المَسْعَى الّتي تُذكَرُ مَعَ الصَّفا، وهِيَ أَحَدُ رأْسَيْه اللّذَيْنِ ينتهِي السّعْيُ إليهما[3].

الصّفا والمروة تجديد لتّاريخ إبراهيم وإسماعيل وهاجر

والصَّفا والمَرْوَةُ في هَذَا المَوْضِعِ: الجَبَلَانِ المُسَمَّيَانِ بِهَذَيْنِ الاِسْمَيْنِ في المَسْجِدِ الحَرام، دُونَ سَائِرِ الصَّفَا والمَرْوَة[4].

2) ﴿شَعَآئِرِ﴾ مِنَ الجَذْرِ (شعر)، ومَشَاعِرُ الحَجِّ: مَوَاضِعُ المَنَاسِك، سُمِّيَتْ بِذلِكَ لأنّها المَعَالمُ الظّاهِرَةُ للحَواسِّ، والشَّعِيرَةُ: واحِدَةُ الشَّعَائِرِ، وهِيَ أَعْلَامُ الحَجِّ وأَعْمَالُه، قَالَ اللّهُ ﷻ: ﴿۞إِنَّ ٱلصَّفَا وَٱلۡمَرۡوَةَ مِن شَعَآئِرِ ٱللَّهِۖ﴾ [البقرة: 158][5]، وشَعَائِرُ اللّه: مُتَعَبَّدَاتُه الّتي أَشْعَرَهَا، أَيْ: جَعَلَهَا أَعْلَامًا لَنَا، وهِيَ كُلُّ مَا كَانَ مِن مَشْعَرٍ، أَو مَوْقِفٍ، أَو مَسْعًى، أَو مَنْحَرٍ[6].

الشّعائر، هي أعْلامُ الحجِّ وأعْمالُهُ

3) ﴿حِجُّ ٱلۡبَيۡتَ﴾: أمّا (حَجَّ) فهو مِنَ الجَذْرِ (حجج)، وأصلُ الحَجِّ: القَصْدُ لِلزّيارَة، وكُلُّ قَصْدٍ حَجٌّ، ثُمَّ خُصَّ في تَعاريفِ الشَّرْعِ بِقَصدِ بَيتِ اللّه تعالى، إقامةً لِلنُّسُك، فقيلَ: الحَجُّ والحِجُّ، فالحَجُّ مَصْدَرٌ، والحِجُّ اسْمٌ، ويَوْم الحجّ الأكبر يومُ عرفة[7]، وأمّا البيت: فهُوَ المَأْوَى والمَآبُ، ومَجْمَعُ الشَّمْلِ[8]، بَاتَ: أقام باللّيل، كما يُقالُ: ظَلَّ بالنّهارِ، ثمّ يقالُ للمَسْكَنِ بَيْتٌ، من غيرِ اعْتِبارِ اللّيلِ فيه، ﴿فَتِلۡكَ

حــجّ الـبـيـت تلبيّة لنداء الله لـلـنّـاس بـأداء المناسك

(1) الرَّاغب، المفردات: (صفو).
(2) ابن فارس، مقاييس اللُّغة: (مري).
(3) ابن منظور، لسان العرب: (مرا)؛ الفيّوميّ، المصباح المنير: 2/570.
(4) ابن جرير، جامع البيان: 3/226.
(5) ابن فارس، مقاييس اللُّغة: (شعر)؛ الرَّاغب، المفردات: (شعر).
(6) الواحديّ، البسيط: 3/435.
(7) ابن فارس، مقاييس اللُّغة: (حجج)؛ الرَّاغب، المفردات: (حج).
(8) ابن فارس، مقاييس اللُّغة: (بيت).

﴿بُيُوتُهُمۡ خَاوِيَةَۢ بِمَا ظَلَمُوٓاْۚ﴾ [النّمل: 52]، وبيتُ اللّهِ، والبَيتُ العَتِيقُ: الكعبة، قَالَ ﷻ: ﴿وَلۡيَطَّوَّفُواْ بِٱلۡبَيۡتِ ٱلۡعَتِيقِ ٢٩﴾ [الحجّ: 29]، يعني: بيتَ اللّهِ[1]، وبَيْتُ اللّهِ: الْمُرَادُ بِهِ الْمَسْجِدُ الْحَرَامُ.

والمعنى في الآية: فمن قصد المسجد الحرام لأداء نُسُك الحج.

العـمـرة سنّة الإسلام للوصل بالبيت الحـرام على مدار العام

4) ﴿ٱعۡتَمَرَ﴾: مِنَ الجَذْرِ (عمر)، والاِعْتِمَارُ والْعُمْرَةُ: الزِّيَارَةُ الَّتِي فِيهَا عِمَارَةُ الْوِدِّ، وجُعِلَت في الشَّرِيعَةِ لِلْقَصْدِ الْمَخْصُوصِ[2]، فَهِي زِيارَةٌ لِلْمُكْثِ زَمانًا ﴿وَأَتِمُّواْ ٱلۡحَجَّ وَٱلۡعُمۡرَةَ لِلَّهِۚ﴾ [البقرة: 196].

والـمُرادُ في الْآيَةِ: زِيارَةُ الْبَيْتِ الْحَرَامِ في غَيْرِ وقْتِ الْحَجِّ، أو في وقْتِهِ بِدُونِ حُضُورِ عَرَفَة.

لا جناح عليكم بمعنى لابأس ولا إثم عليكم

5) ﴿فَلَا جُنَاحَ﴾: مِنَ الجَذْرِ (جنح)، وهو في الأَصْلِ يَدُلُّ عَلَى الْمَيْلِ والْعُدْوَانِ، يُقَالُ: جَنَحَ إِلَى كَذَا، أَيْ: مَالَ إِلَيْهِ[3]، والْجُنَاحُ: الْإِثْمُ، سُمِّيَ بِذَلِكَ لِمَيْلِهِ عَن طَرِيقِ الْحَقِّ.﴿۞وَإِن جَنَحُواْ لِلسَّلۡمِ فَٱجۡنَحۡ لَهَا﴾ [الأنفال: 61]، أي: مالوا، من قولهم: جَنَحَتِ السّفينةُ، أي: مالتْ إلى أحَدِ جانبَيها، وسُمِّيَ الإثْم المائلُ بالإنسان عن الحقِّ جُناحًا، ثمَّ سمّي كلُّ إثم جُنَاحًا[4].

والمعنى في الآية: فلا إثم عليه.

الطّواف معراج الرّوح إلى عوالم الصّفاء المفتوح

6) ﴿يَطَّوَّفَ﴾: مِنَ الجَذْرِ (طوف)، وهو في الأَصْلِ يَدُلُّ عَلَى دَوَرَانِ الشَّيْءِ عَلَى الشَّيْءِ، وأَن يُحَفَّ بِهِ، يُقَالُ: طَافَ بِالْبَيْتِ يَطُوفُ طَوْفًا وطَوَافًا[5]، الطَّوْفُ: المَشْيُ حولَ الشَّيْءِ، قال تعالى: ﴿يَطُوفُ عَلَيۡهِمۡ وِلۡدَٰنٌ﴾ [الواقعة: 17]، وقَالَ: ﴿فَلَا جُنَاحَ عَلَيۡهِ أَن يَطَّوَّفَ بِهِمَاۚ﴾ [البقرة: 158][6].

والمعنى في الآية: يسعى بين الجبلين المعروفين بالصفا والمروة قرب الكعبة.

---

(1) الرَّاغب، المفردات: (بيت).
(2) الرَّاغب، المفردات: (عمر).
(3) ابن فارس، مقاييس اللُّغة: (جنح).
(4) الرَّاغب، المفردات: (جنح).
(5) ابن فارس، مقاييس اللُّغة: (طوف).
(6) الرَّاغب، المفردات: (طوف).

التّطوّع فتح لمجال العبادة بالاختيار

7) ﴿تَطَوَّعَ﴾: مِنَ الجَذْرِ (طوع)، وهو في الأَصْلِ يَدُلُّ عَلَى الْإِصْحَابِ والانْقِيَاد، طَاعَهُ: إِذَا انْقَادَ مَعَهُ، ومَضَى لِأَمْرِه، تَطَوَّعَ بِهِ: انْقَادَ مَعَ خَيْرٍ أَحَبَّ أَن يَفْعَلَهُ، ولَا يُقَالُ هَذَا إِلَّا في بَابِ الخَيْرِ والبِرِّ[1]، ضِدُّ الْكُرْهِ، قال ﷻ: ﴿ٱئۡتِيَا طَوۡعًا أَوۡ كَرۡهًا﴾ [فصّلت: 11]، والتَّطَوُّعُ: تكلُّفُ الطَّاعَةِ، وهو التّبرّع بما لا يَلْزَم كالتَّنَفُّلِ[2].

والمعنى: فعل الطاعات طَواعيةً من نفسه.

المسارعة للخير تجديدٌ للوصل بالله

8) ﴿خَيۡرًا﴾: مِنَ الجَذْرِ (خير)، والأَصْلُ في الخير: الْعَطْفُ والْمَيْلُ، خِلَافُ الشَّرِّ؛ لأنّ كُلَّ أَحَدٍ يَميلُ إِلَيْه، ويَعْطِفُ عَلَى صَاحِبِه، ومَا يَرْغَبُ فِيهِ الْكُلُّ، كَالْعَقْلِ مَثَلاً، والْعَدْلِ، والْفَضْلِ، والشَّيْءِ النَّافِعِ[3]، ويُجْمَعُ على خَيْراتٍ ﴿فَٱسۡتَبِقُواْ ٱلۡخَيۡرَٰتِۚ﴾ [البقرة: 148]، ويُطْلَقُ الخَيْرُ على المَالِ[4]، عِندَما يكون كثيرًا[5].

الشّكر ضدّ الكفر

9) ﴿شَاكِرٌ﴾: مِنَ الجَذْرِ (شكر)، وهو في الأَصْلِ الرِّضَا بِالْيَسِيرِ[6]، وهو عِرفانُ الإحسانِ لصاحبه ونَشْرُه، وإظهارُهُ؛ والثّناءُ عَلَى الْمُحْسِنِ بِمَا أَوْلاكَهُ مِنَ الْمَعْرُوفِ[7]، ويضادّهُ الكُفْرُ، وهو: نسيانُ النِّعْمَة وسَتْرُها، وإذا وُصف اللّه بالشّكر، كما في قوله ﷻ: ﴿وَٱللَّهُ شَكُورٌ حَلِيمٌ ١٧﴾ [التّغابن: 17]، فَإِنَّمَا يُعْنَى بِهِ إِنْعَامُهُ عَلَى عِبادِهِ، وجَزَاؤُهُ بِمَا أَقَامُوهُ مِن الْعِبَادَةِ[8]، فالشَّاكِرُ في وصْفِهِ مَعْنَاهُ: مُجَازٍ عَلَى الْقَليلِ كَثِيرًا[9].

(1) ابن فارس، مقاييس اللُّغة: (طوع).
(2) الرَّاغب، المفردات: (طوع).
(3) الرَّاغب، المفردات: (خير).
(4) ابن فارس، مقاييس اللُّغة، جبل، المعجم الاشتقاقيّ المؤصّل: (خير).
(5) الرَّاغب، المفردات: (خير).
(6) ابن فارس، مقاييس اللُّغة: (شكر)؛ جبل، المعجم الاشتقاقيّ المؤصّل: (شكر).
(7) ابن منظور، لسان العرب: (شكر)؛ جبل، المعجم الاشتقاقيّ المؤصّل: (شكر).
(8) الرَّاغب، المفردات: (شكر).
(9) النَّسفيّ، مدارك التّنزيل: 1/146.

10) ﴿عَلِيمٌ﴾: مِنَ الجَذْرِ (علم)، والأَصْلُ فيه أن يَدُلَّ عَلَى: أَثَرٍ بالشَّيْءِ، يَتَمَيَّزُ بِهِ عَن غَيْرِهِ[1]، واستُعمل اللّفظُ في كلّ ما يَدُلّ على شيءٍ ما، والعِلْم: الاعْتِقادُ الجازِمُ الثَّابتُ المُطابِقُ للواقِع، أَو هُوَ صِفَةٌ توجِبُ تَمْييزًا لَا يحتَمِلُ النّقيضَ[2]، والْعَالمُ في وصْفِ اللَّهِ: هُوَ الَّذِي لَا يَخْفَى عَلَيْهِ شَيْءٌ، وذَلِكَ لَا يَصِحُّ إِلَّا في وصْفِهِ تَعَالَى[3].

اللـه عليـمٌ بـالظّـواهـر والبواطن

۞ المَعْنَى الإِجْمَاليُّ:

"كَانَ أَهْلُ الْجَاهِلِيَّةِ يَطُوفُونَ، أي: يسْعَوْنَ بَيْنَ الصَّفَا والمَرْوَةِ، ويمسَحُونَهما، فَلَمَّا جَاءَ الْإِسْلَامُ وكُسِرَت الْأَصْنَامُ، كَرِهَ الْمُسْلِمُونَ الطَّوَافَ بَيْنَهُمَا؛ لِأَجلِ الصَّنَمَيْنِ؛ فَأَنْزَلَ اللَّهُ ﷻ هَذِهِ الآيَةَ، مُنَبِّهًا لَهُم عَلَى أَنَّ الطَّوَافَ بِالصَّفَا والمَرْوَةِ لَا تَبِعَةَ فِيهِ عَلَيْهِمْ، وأَنَّهُ طَاعَةٌ لِلَّهِ تَعَالَى"[4]، وقد أَعْلَمَ اللَّهُ تَعَالَى ذِكْرُهُ عِبادَهُ الْمُؤْمِنينَ أَنَّ السَّعْيَ بَيْنَهُمَا من مَشَاعِرِ الْحَجِّ الَّتِي سَنَّهَا لَهُمْ، فَالصَّفَا والمَرْوَةُ من مَعَالم دِينِ اللَّهِ الظَّاهِرَةِ، حيث تَعَبَّدَ اللَّهُ عِبادَهُ بالسَّعْيِ بَيْنَهُمَا، فَمَن قَصَدَ الْكَعْبَةَ حَاجًّا، أَو مُعْتَمِرًا، فَلَا إِثْم عَلَيْهِ ولَا حَرَج في أَن يَسْعَى بَيْنَهُمَا، بَل يَجِبُ عَلَيْهِ ذَلِك، ومَن فَعَلَ الطَّاعَاتِ طَوَاعِيَةً من نَفْسِه، مُخْلِصًا بِهَا لِلَّهِ تَعَالَى، فَإِنَّ اللَّه تَعَالَى شَاكِرٌ يُثِيبُ عَلَى الْقَلِيلِ بِالْكَثِيرِ، عَليمٌ بِأَعْمَالِ عِبادِهِ، فَلَا يَبْخَسُ أَحَدًا مِثْقَالَ ذَرَّةٍ[5].

إنّ الصّفـا والـمَـرْوَةَ مِـنْ شَـعـائِـرِ اللـهِ الـمُـعَـظَّـمَـةِ الَّتِي سَنَّهَا اللهُ لعِبادِهِ في الحَجِّ لَا إِثْمَ عَلَى الحاجِّ والـمُـعْـتَـمِـرِ أَن يَسْعَى بَيْنَهُمَا، بَـل يَـجِـبُ عَلَيْهِ ذَلِك

۞ الإِيضاحُ اللُّغويُّ والبلاغيُّ:

دَلالَةُ الاِسْتِئْنافِ وتَأْكِيدِ الخَبَرِ في الآيَة:

جَاءَت الآيَةُ من قَولِه: ﴿۞إِنَّ ٱلصَّفَا وَٱلْمَرْوَةَ مِن شَعَآئِرِ ٱللَّهِ﴾، مُسْتَأْنَفَةً مَفْصُولَةً عَن سَابِقَتِهَا، وجَاءَ الْخَبَرُ مُؤَكَّدًا بِإِنَّ وبِالْجُمْلَةِ

مُعالَجَةُ التَّرَدُّدِ بِيَقِينِ الحُكْمِ الفاصِل

(1) ابن فارس، مقاييس اللُّغة: (علم).
(2) الزَّبيديُّ، تاج العروس: (علم).
(3) الرَّاغب، المفردات: (علم).
(4) الواحديّ، البسيط: 440-3/439.
(5) ابن جرير، جامع البيان: 228-3/227، ونخبة من العلماء، التّفسير الميسّر، ص: 24.

الاسْمِيَّةِ في هذه الآية؛ لِمَا وقعَ فيهِمَا من التَّرَدُّدِ؛ فَأَكَّدَ الْجُمْلَةَ بـ (إنَّ)؛ لأَنَّ الْمُخَاطَبِين مُتَرَدِّدُونَ في كَوْنِهِمَا من شَعَائِرِ اللَّهِ تَعَالى؛ لأَنَّهُم رَأَوَا أَنَّهُمَا من أَعْمَالِ الْجَاهِلِيَّةِ، فَجَاءَ التَّأْكِيدُ لإِزَالَةِ ذَلِكَ الظَّنِّ[1].

توجِيهُ المَخْصُوصِ بالذِّكرِ:

الصَّفا والـمَرْوَةُ ارتباطٌ بالابتلاءِ الــذي عــرَضَ لإسماعيلَ عليه السلام

خصَّتِ الآيةُ الصَّفَا والمَرْوَةَ بالذِّكرِ، دون بقيَّةِ الشَّعائرِ؛ ذلكَ أنَّ الصَّفا والمروةَ تُمَثِّلانِ وتُذكِّرانِ بحَدَثٍ تاريخيٍّ إسلاميٍّ، وهو ما حَصَلَ لهاجر مع إسماعيلَ عليهما السلام، فقد تعرَّضت هي وابنُها للخوْفِ والجوعِ وفَقْدِ الماءِ والاقترابِ من دائرةِ الخَطرِ وهي الموتُ في تلك الأرضِ التي لا زَرْعَ فيها، فكان ذكرُ هاتين الشَّعيرَتَيْن من دواعي تذكُّرِ تلك الحادثةِ، لاسيَّما بعد آياتِ الابتلاءِ والحثِّ على الصَّبْرِ، فهي إرشادٌ للصَّبرِ على الابتلاءِ، والقيام بالعبادةِ على وجهها المطلوب شرعًا، "فَقَدْ كَانَ السَّعْيُ بَيْنَ الصَّفَا وَالْمَرْوَةِ مِنْ أَعْمَالِ الْحَجِّ مِنْ زَمَنِ إِبْرَاهِيمَ عليه السلام تَذْكِيرًا بِنِعْمَةِ اللَّهِ عَلَى هَاجَرَ وَابْنِهَا إِسْمَاعِيلَ إِذْ أَنْقَذَهُ اللَّهُ مِنَ الْعَطَشِ"[2].

سِرُّ تقديمِ الصَّفا على المروةِ:

الإشـــارَةُ إلى الإعـــجـــازِ التَّاريخيِّ

قُدِّمتِ الصَّفا على المروةِ للإشارةِ إلى أنَّ بدايةَ سَعْيِ هاجر عليها السَّلامُ من الصَّفا، ففيه إعجازٌ تاريخيٌّ، فقد جاء في البخاريِّ: «جَعَلَتْ أُمُّ إِسْمَاعِيلَ تُرْضِعُ إِسْمَاعِيلَ وَتَشْرَبُ مِنْ ذَلِكَ المَاءِ، حَتَّى إِذَا نَفِدَ مَا فِي السِّقَاءِ عَطِشَتْ وَعَطِشَ ابْنُهَا، وَجَعَلَتْ تَنْظُرُ إِلَيْهِ يَتَلَوَّى، - أَوْ قَالَ يَتَلَبَّطُ -، فَانْطَلَقَتْ كَرَاهِيَةَ أَنْ تَنْظُرَ إِلَيْهِ، فَوَجَدَتِ الصَّفَا أَقْرَبَ جَبَلٍ فِي الأَرْضِ يَلِيهَا، فَقَامَتْ عَلَيْهِ، ثُمَّ اسْتَقْبَلَتِ الوَادِيَ تَنْظُرُ هَلْ تَرَى أَحَدًا فَلَمْ تَرَ أَحَدًا، فَهَبَطَتْ مِنَ الصَّفَا حَتَّى إِذَا بَلَغَتِ الوَادِيَ رَفَعَتْ طَرَفَ دِرْعِهَا، ثُمَّ سَعَتْ سَعْيَ

(1) الرّوينيّ، من غريب بلاغة القرآن الكريم، ص: 483.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 2/59.

الإِنْسَانِ المَجْهُودِ حَتَّى جَاوَزَتِ الوَادِيَ، ثُمَّ أَتَتِ المَرْوَةَ فَقَامَتْ عَلَيْهَا وَنَظَرَتْ هَلْ تَرَى أَحَدًا فَلَمْ تَرَ أَحَدًا» ... الحديث"[1].

تشريفُ الشّعائِرِ بإضافتِها للفظِ الجلالةِ:

إِضَافَةُ الشَّعَائِرِ - الَّتِي يُقْصَدُ بِهَا الْحَجُّ وَالْعُمْرَةُ - إِلَى لفْظِ الجلالَّة؛ في قوله: ﴿مِن شَعَآئِرِ ٱللَّهِ﴾، لِأَنَّهُمَا مِن الْعَلَامَاتِ الدَّالَّةِ عَلَى عِبَادَتِه، أَو لِأَنَّهُ جَعَلَهُمَا كَذَلِكَ، وهَذَا تَشْرِيفٌ لِهَذِهِ الشَّعَائِرِ والْأَعْمَالِ، ولَم يَقُلْ: (مِن الشَّعَائِرِ)؛ لِأَنَّ التَّشْرِيفَ لَن يَكُونَ ظاهرًا في صِيغَةِ التَّعْرِيفِ بِالْأَلفِ واللَّام[2] كما هو في النَّظم الكريم.

الإيجازُ بالحَذْفِ في قَوْلِهِ: ﴿مِن شَعَآئِرِ ٱللَّهِ﴾:

في الآيَةِ إِيجَازٌ بالحَذْفِ؛ فَحَذَفَ المُضَافَ، وأَقَامَ المضاف إِلَيْهِ مقامَهُ؛ لِأَنَّ الدِّينَ مُتَعَلِّقٌ باللَّهِ تَعَالَى، فَمَا كَانَ لِلدِّينِ فَهُوَ لَهُ، "وَلَيْسَ الْجَبَلَانِ لِذَاتِهِمَا مِن شَعَائِرِ اللَّهِ، بَل ذَلِكَ عَلَى حَذْفِ مُضَافٍ، أَي: إِنَّ طَوَافَ الصَّفَا والْمَرْوَةِ"[3]، أو يكونُ التقدير: (مِن شَعَائِرِ دِينِ اللَّهِ الَّذي شَرَعَهُ لِعِبَادِهِ)، حُذِفَ من الآيَةِ لَفظُ الدِّينِ[4].

مُناسَبَةُ ذِكْرِ الحَجِّ والعُمْرَةِ بعدَ ذكرِ الصَّفَا والْمَرْوَةِ:

"وَلَمَّا كَانَ الطَّوَافُ بَيْنَهُمَا لَيْسَ عِبَادَةً مُسْتَقِلَّةً، إِنَّمَا يَكُونُ عِبادَةً، إِذَا كَانَ بَعْضَ حَجٍّ أَو عُمْرَةٍ، بَيَّنَ تَعَالَى ذَلِكَ بِقوله: فَمَن حَجَّ الْبَيْتَ أَوِ اعْتَمَرَ"[5].

دَلالَةُ الفاءِ التّفْريعِيّةِ في قوله: ﴿فَمَنْ حَجَّ ٱلْبَيْتَ﴾:

التَّفْريعُ تَوْلِيدُ مَعانٍ جَديدَةٍ، اعْتِمادًا على مَعانٍ سابِقَةٍ

الْفَاءُ تَفْرِيعِيَّةٌ، وهِيَ: فَاءُ الاسْتِئْنَافِ؛ وإِنَّمَا يُقَال لَهَا تَفْرِيعِيَّةٌ؛ لِمَا فِيهَا من فَائِدَةِ التَّفْصِيل، فَهِيَ تَفْصِيلُ مَا قَبْلَهَا من كَلَام مُجْمَلٍ، أَو أَنَّ مَا قَبْلَهَا مُسَبِّبٌ لِمَا بَعْدها مَعْنَوِيًّا؛ لِأَنَّ التَّفْرِيعَ يَعْنِي: تَوْلِيدَ مَعَانٍ جَدِيدَةٍ اعْتِمَادًا عَلَى مَعَانٍ سَابِقَةٍ، والرّابط بَيْنَ المَعْنَيَيْنِ، هو الفَاءُ

---

(1) البخاريّ، صحيح البخاريّ، حديث رقم: (3364).

(2) الدّبل، دليل البلاغة: 1/220.

(3) أبو حيّان، البحر المحيط: 2/65.

(4) محمد علي جميل، الإبداع البيانّي في القرآن، ص: 34.

(5) أبو حيّان، البحر المحيط: 2/65.

التّفْريعيَّةُ[1]، فقولُهُ ﷻ: ﴿فَمَنْ حَجَّ ٱلْبَيْتَ﴾، تفريعٌ على كونِهِما من شَعَائِرِ اللّهِ، وأنَّ السَّعْيَ بَيْنَهما في الحجِّ والعُمْرَةِ من المناسِك[2].

إشرابُ الاسمِ الموصولِ معنى الشَّرطِ:

عَبّرَتِ الآيةُ بلفظ (مَنْ) دون الاسم الموصولِ الظَّاهرِ، لإشرابِه معنى الشَّرطِ، وهو نفي الجناحِ عمَّن يريدُ الحجَّ والعمرةَ، أي: فمن نوى الحجَّ فعليه الطَّوافُ.

الفَرْقُ بَيْنَ لَفْظِ (الحج)، وقَوْلِهِ: ﴿حَجَّ ٱلْبَيْتَ﴾:

مَقامُ البَيانِ والإطْنابِ، يَقْتَضي زِيادَةَ المَبْنى لزِيادَةِ المَعْنى

الْحَجُّ عِنْدَ الْإِطْلَاقِ يَدُلُّ عَلَى قَصْدِ الْبَيْتِ الْحَرَامِ الَّذِي بِمكَّة؛ لِعبَادَةِ اللّهِ تَعَالَى فيه، بالطَّوَافِ والْوُقُوفِ بعَرَفَة والْإِحْرَام، فَهُوَ جِنْسٌ بالْغَلَبَةِ كَالْعَلَم بالْغَلبَة؛ فَلَا يَحْتَاجُ إضافَتهُ إِلَى الْبَيْت؛ ولِذَلكَ ورَدَ في الْقُرْآنِ مَقْطُوعًا عَن الْإِضَافَة، قَالَ تعَالَى: ﴿ٱلْحَجُّ أَشْهُرٌ مَّعْلُومَٰتٌۚ﴾ [البقرة: 197]، ولَكِن يُضَافُ إِلَى الْبَيْت في مَقَام الاعْتنَاء والاهْتمَام، كَقَوْلِه ﷻ: ﴿وَلِلَّهِ عَلَى ٱلنَّاسِ حِجُّ ٱلْبَيْتِ﴾ [آل عمران: 97]؛ لِأَنَّهُ مَقَامُ ابْتدَاء تَشْرِيع، فَهُوَ مَقَامُ بَيَانٍ وإِطْنَابٍ، أَمَّا الْفعْلُ (حَجَّ) بمَعْنَى قَصَدَ، فقد بَقِيَ عَلَى إطْلَاقِه في كَلَام الْعَرَبِ؛ فَلِذَلكَ كَانَ ذكْرُ الْمَفْعُولِ لِزِيَادَة الْبَيَانِ[3].

دَلالَةُ حَذْفِ المَفْعولِ بِهِ في: ﴿ٱعْتَمَرَ﴾:

تَقْدِيرُ الْكَلَامِ (اعْتَمَرَ الْبَيْتَ)، فَحُذِفَ الْبَيْتُ اكتفاءً؛ لِأَنَّ دَلَالَةَ ﴿ٱعْتَمَرَ﴾، تَدُلُّ بِالْغَلَبَةِ عَلَى زِيَارَةِ الْبَيْتِ، فَتَكْفِي في الدَّلَالَةِ عَلَى الْبَيْتِ عِنْدَ إِطْلَاقِه.

الفرقُ بينَ نَفْيِ الجنْسِ ونَفْيِ الوحدةِ:

نَفْيُ الجنسِ نَصٌّ في الاستغراقِ، وهو أبلغُ في رَفْعِ الحَرَجِ

النَّفْيُ بلفظ (لَا) النَّافِيَةِ لِلْجِنْسِ يُفِيدُ التَّنْصِيصَ عَلَى اسْتِغْرَاقِ نَفْيِ الْجِنْسِ، لَا عَلَى سَبِيلِ الِاحْتِمَالِ - فـ "لَمَّا قُصِدَ بِهَا التَّنْصِيصُ

(1) التّفْريع: جعل شيءٍ عَقيب شيءٍ؛ لاحتياج اللاّحق إلى السّابق، الجرجانّي، التّعريفات، ص: 63، وقد يكون تَفْريع السَّبَب على المُسَبَّب، وتفريع اللاّزِم على المَلْزُوم أيْضًا، ينظر: الكَفويّ، الكلّيّات، ص: 676.

(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 2/61.

(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 62-2/61.

عَلَى الْعُمُوم، اخْتَصَّتْ بِالِاسْم -لِأَنَّ قَصْدَ الِاسْتِغْرَاقِ عَلَى سَبيلِ التَّنْصِيص يَسْتَلْزِمُ وُجُودَ (مِنْ)، لَفْظًا أو مَعْنًى، ولَا يَلِيقُ ذَلِكَ إلَّا بِالْأَسْمَاءِ النَّكِرَات، فَوَجَبَ لـ (لَا) -عِنْدَ ذَلِكَ الْقَصْدِ - عَمَلٌ فِيمَا يَلِيهَا، فَإن قُلْتَ: فَلِمَ عَمِلت عَمَلَ إنَّ؟ قُلْتُ: لِمُشَابَهَتِهَا لَهَا في التَّوْكِيد؛ فَإِنَّ (لَا) لِتَوْكِيدِ النَّفْي، و(إنَّ) لِتَوْكِيد الْإِثْبَات"[1]، والنَّفْيُ الْمُؤَكَّدُ مِمَّا يُنَاسِبُ التَّرَدُّدَ الَّذي حَصَلَ في أَمْرِ الصَّفَا والْمَرْوَة.

وَنَفْيُ الْجِنْسِ يَسْتَلْزِمُ نَفْيَهُ عَن جَمِيعِ أَفْرَادِه، فَقَوْلُهُ ﷻ: ﴿فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِ﴾، نَصٌّ عَلَى انْتِفَاءِ جِنْسِ الْإِثْم، ولَا يَتَطَرَّقُ إلَيْه الِاحْتِمَالُ، كَاحْتِمَالِ أَن يُرَادَ بِه الْإِثْمُ الْكَبِيرُ دُونَ الصَّغِير، فَنَفْيُ الِاحْتِمَالِ يَشْمَلُ جَمِيعَ صُوَرِ الإِثْم، ولَو قَالَ: (فَلَا جُنَاحٌ عَلَيْه)؛ فَإِنَّهُ يَحْتَمَلُ أَن يُرِيدُ شُمُولَ الْإِثْمِ كُلِّه، أَو أَن يريدَ الْإِثْمَ الْوَاحِدَ، فَلَن يَكُونَ نَصًّا في نَفْيِ الْجِنْس.

تَعْيِينُ غَرَضِ النَّفي يُعْلَمُ بالسِّياق.

قَوْلُه ﷻ: ﴿فَلَا جُنَاحَ﴾ "لَيْسَ الْمَقْصدُ مِنْهُ إبَاحَةَ الطَّوَافِ لِمَن شَاءَ؛ لِأَنَّ ذَلِكَ بَعْدَ الْأَمْرِ لَا يَسْتَقِيمُ، وإِنَّمَا الْمَقْصدُ مِنْهُ رَفْعُ مَا وقَعَ في نُفُوسِ قَوْمٍ من الْعَرَب، مِن أَنَّ الطَّوَافَ بَيْنَهُمَا فِيهِ حَرَجٌ، وإِعْلَامُهُم أَنَّ مَا وقَعَ في نُفُوسِهِم غَيْرُ صَوَاب"[2].

فَإِن قُلْتَ: كَيْفَ قِيلَ: إنَّهُمَا من شَعَائِرِ اللَّه، ثُمَّ قِيلَ: لَا جُنَاحَ عَلَيْه أَن يَطَّوَّفَ بِهِمَا؟ فالجَوابُ: أنَّ ذلك لِمَا وقَعَ فِيهِمَا من حَرَجٍ؛ لِكَوْنِهِمَا صَنَمَيْنِ من أَصْنَامِ الْجَاهِلِيَّة، فَرَفَعَ الْحَرَجَ والْجُنَاح[3].

تَصْحِيحُ الْمَفاهِيمِ ضَرورَةٌ لِتَرْسِيَةِ التَّشْريعِ الفِقْهِيّ

تَثْقِيلُ اللّفْظِ لبَيانِ ثِقَلِ العَمَلِ لا ثِقَلِ المُعتَقَد:

قَالَ سُبْحَانَه: ﴿يَطَّوَّفَ﴾ ولم يَقُلْ: (يَطُوفَ)؛ لِإِظْهَارِ الشِّدَّة في هَذَا الطَّوَافِ، فَالطَّوَّافُ أَو السَّعْيُ بَيْنَ الصَّفَا والمَرْوَة، لَيْسَ يَسِيرًا،

عَلى قَدْرِ المَشَقَّةِ يَكونُ الأَجْرُ

(1) المراديّ، الجنى الدّاني، ص: 292-291.

(2) ابن عطيّة، المحرّر الوجيز: 1/229.

(3) الطِّيبيّ، فتوح الغيب: 3/170.

بَل هُوَ مِمَّا يَتَطَلَّبُ جُهْدًا، فَإِيثَارُ الْفِعْلِ ﴿يَطَّوَّفَ﴾ عَلَى (يَطُوفَ)؛ لإِظْهَارِ هَذَا الْجُهْدِ، و﴿يَطَّوَّفَ﴾ أَصْلُهُ (يَتَطَوَّفُ)، فَأَدْغَمَ التَّاءَ في الطَّاءِ[1]، وهَذَا الإِدْغَامُ أَعْطَى ثِقَلاً لِلَّفْظِ، وهَذَا الثِّقَلُ يُنَاسِبُ شِدَّةَ الْفِعْلِ وصُعُوبَتَهُ، وَكذلِك فِيهِ إِشَارَةٌ إِلى أَنَّ الثِّقَلَ يجِبُ أَنْ يكونَ في العملِ البَدَنيِّ لا في النَّفس.

دَلالَةُ قِراءَةِ ﴿وَمَن تَطَوَّعَ﴾ وقِراءَةِ ﴿يَطَّوَّعْ﴾:

تَوْجِيهُ القِراءَةِ القُرْآنِيَةِ للمَعْنى، تَجْلِيَةٌ لِلإِعْجازِ اللُّغَوِيِّ والبَيانِيِّ

قَرَأَ حَمْزَة والْكِسّائِي ويَعْقُوب: ﴿يَطَّوَّعْ﴾، وأَصْلُهُ (يَتَطَوَّع) فَأُدْغِمَ، مِثْل يَطَّوَّف[2]، جاء في تفسير الطّبريّ: "اختلَفَ القرّاءُ في قراءةِ ذلك، فقرأَتْهُ عامّةُ قُرّاءِ أهلِ المَدينَةِ والبصْرة: ﴿وَمَن تَطَوَّعَ خَيْرًا﴾، على لَفظ المُضيّ؛ بالتّاءِ وفتح العينِ، وقرَأَتْه عامّةُ قُرّاءِ الكوفيّين: ﴿وَمَن يَطَّوَّعْ خَيْرًا﴾؛ بالياءِ وجَزم العَيْنِ وتشديد الطّاء، بمعْنَى: (ومَنْ يَتطَوّعْ)، وذُكر أنّها في قراءة عبد اللّه: (ومَن يَتطَوَّعْ)، فقرأ ذلك قُرّاء أهل الكوفةِ على ما وصَفْنا، اعتبارًا بالّذي ذَكَرْنا من قراءَةِ عبد اللّهِ -سوى عَاصِم، فإنّه وافق المدنيّين- فشدّدُوا الطّاءَ، طلبًا لإدغام التّاء في الطّاء، وكلتا القراءَتَيْنِ مَعْروفَةٌ صَحيحَةٌ، مُتَّفِقٌ مَعنَياهُما غيرُ مُخْتَلفَين؛ لأنّ الماضيَ منَ الفعل، مع حُروف الجزاءِ، بمعنى المستَقْبَل، فبِأَيّ القراءَتَين قرأ ذلكَ قارِئٌ، فمُصيبٌ"[3].

وَهَذِهِ الْقِرَاءَةُ تُظْهِرُ تَوَافُقًا في البِنْيَةِ الصَّوْتِيَّةِ بَيْنَ الفعْلَيْن، ولَا سِيَّمَا أَنَّهُمَا مُتَّفِقَانِ في الصَّوْتَيْنِ الأَوَّلِ والثَّاني: (طَاف، طَاعَ)، وهِيَ تُنَاسِبُ الشِّدَّةَ والتَّكَلُّفَ في التَّطَوُّع، فَالتَّثْقِيلُ يُنَاسِبُ الأَفْعَالَ الَّتِي فِيهَا صُعُوبَةٌ، وثِقَلٌ عَلَى النَّفْسِ والْبَدَنِ، والمَطْلوبُ هنا البَدَنُ دونَ النَّفْس.

دَلالَةُ (الفاءِ) عَلى يَقينِ تَحقُّقِ الجزاءِ عَلى التَّطَوُّع:

"هَذِهِ الْفَاءُ إِذَا دَخَلَت في خَبَرِ الْمَوْصُولِ أَو النَّكِرَةِ الْمَوْصُوفَة، أَفَادَتْ أَنَّ الثَّانِيَ إِنَّمَا وجَبَ

(1) النَّسفيّ، مدارك التّنزيل: 1/145.
(2) البيضاويّ، أنوار التّنزيل: 1/115.
(3) ابن جرير، جامع البيان: 3/247.

لِوُجُوبِ الْأَوَّلِ"[1]، وهَذَا يَعْنِي أَنَّ تَطَوُّعَ الْعِبَادِ يُقَابِلُهُ اللَّهُ تَعَالَى بِالْجَزَاءِ الْمُحَقَّقِ عَلَى وجْهِ الْيَقِينِ، وهو معنًى مستفادٌ من سِياقِ الكَلامِ.

تعليلُ الشَّرطِ بأَسْمَاءِ الله الحُسْنَى:

شُكْرُ اللِّهِ لِعِبادِهِ لُطْفٌ ومِنَّةٌ

شُكْرُ اللّه للعَبدِ إمّا بالثّوابِ، وإمّا بالثّناءِ عَليه، قال أبو السُّعود: "﴿شَاكِرٌ﴾: مُجازٍ على الطّاعَة، عبّر على ذلكَ بِالشُّكرِ، مُبالَغةً في الإحسانِ إلى العِبادِ، و﴿عَلِيمٌ﴾: مُبالِغٌ في العِلم بالأشْياءِ، فيَعْلَمُ مَقاديرَ أَعْمالِهِمْ وكَيْفيّاتها، فلا يَنْقُصُ منْ أجُورِهِمْ شَيْئًا، وهو عِلَّةٌ لِجَوابِ الشَّرْطِ، قائمٌ مَقامَهُ، كَأَنَّه قيلَ: (ومَنْ تَطوَّعَ خَيرًا جازاهُ اللّهُ وأثابَهُ، فإنَّ اللّه شاكِرٌ عَليمٌ)"[2]، وهذا من بليغِ الوَعْدِ على المُجازاة.

تَوْجِيهُ المُتشابِهِ اللَّفظيِّ في آياتِ الأحكامِ:

أثرُ النَّظمِ في إظهارِ العُمومِ والخُصوصِ التَّشريعيِّ

صُدِّرَتِ الْآيَةُ بِلَفْظٍ من أَلْفَاظِ الْعُمُومِ، وهُوَ (مَنْ)، وجَاءَ فِيهَا لَفْظُ الخَيْرِ بِصِيغَةِ التَّنْكِيرِ المُفِيدَةِ لِلعُمُومِ والشُّمُولِ؛ فَالْجُمْلَةُ تَحُثُّ عَلى فِعْلِ الْخَيْرِ عَامَّةً، ولَيْسَ الْمَقْصُودُ خُصوصَ عِبَادَةِ السَّعْيِ بَيْنَ الصَّفَا والمَرْوَة؛ فَقَالَ ﷻ: ﴿وَمَن تَطَوَّعَ خَيْرًا فَإِنَّ ٱللَّهَ شَاكِرٌ عَلِيمٌ ١٥٨﴾، ولوقَالَ: (فَمَن تَطوَّعَ الخَيْرَ)، لَكَانَ الْمُرَادُ خُصُوصَ هَذَا الفِعْلِ؛ لِأَنَّ الْفَاءَ تَعْنِي السَّبَبِيَّةَ، وإن كَانَت تُؤَدِّي الاسْتِئْنَافَ والتَّفْرِيعَ، فَيَكُونُ الْمَعْنَى: فمَنْ تطوَّعَ في السَّعْيِ، والمُرادُ التَّطوُّعُ الأعمُّ من ذلك؛ فَاسْتُعْمِلَتِ الْوَاوَ بَدَلَ الْفَاءِ لِذَلِكَ.

ولو نَظَرْنا في استعمالِ الْفَاءِ مَعَ الْفِعْلِ ﴿تَطَوَّعَ﴾ في آيةِ الصِّيَامِ: ﴿وَعَلَى ٱلَّذِينَ يُطِيقُونَهُۥ فِدْيَةٌ طَعَامُ مِسْكِينٍۖ فَمَن تَطَوَّعَ خَيْرًا فَهُوَ خَيْرٌ لَّهُۥۚ وَأَن تَصُومُوا۟ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ١٨٤﴾ [البقرة: 184]؛ لَعَلِمنا أَنَّهُ أَرَادَ بَيَانَ أَنَّ الصَّوْمَ مَعَ وُجُودِ الرُّخْصَةِ في الْفِطْرِ، أَفْضَلُ من

(1) الرّازيّ، التّفسير الكبير: 4/138
(2) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 1/181.

تَرْكِه، أو أَنَّ الزِّيَادَةَ عَلَى إِطْعَام مِسْكِينٍ أَفْضَلُ مِن الاقْتِصَارِ عَلَيْه[1]، فَهِيَ تَتَكَلَّمُ عَن خُصُوصِيَّةٍ في عِبادَةِ الصَّوْم، فافترقَ المعنى عمومًا وخُصوصًا بافتراقِ الحرفِ المُسْتعملِ.

إِيثَارُ اسْتِعمالِ الْفِعْلِ ﴿تَطَوَّعَ﴾:

مَنْ تَطَوَّعَ، تَلْبِيَةً لأَمْرِ اللهِ فيما شَرَعَ، نال الأَجْرَ الأَوْفى

اسْتعملتِ الآيةُ فعلَ التَّطوعِ دونَ بقيَّةِ الأفعالِ، من مثل: عَملَ، أو فَعَلَ، أو غيرها، فإنَّ لفظَ (عَملَ) مثلًا لَا يَدُلُّ عَلَى التَّزَيُّدِ من الْفِعْلِ، فلَو قَالَ: (وَمن عَملَ خَيْرًا)، لَكَانَ شَامِلاً لِكُلِّ عَمَلٍ يَتَّصِفُ بِالْخَيْرِ واجبًا أو نافِلةً، كثيرًا أو قليلًا، والآيةُ تريدُ الحَثَّ على الفِعْلِ الزَّائدِ على المَطلوبِ شرْعًا، وهو الذي يَأتي بِه العبْدُ من تِلقاءِ نفسِه، ويدخُلُ في ذلك السَّعيُ بين الصَّفا والمروةِ دُخولًا أوليًّا، والأنسبُ في ذلك اسْتِعمالُ فعلِ التَّطوُّع.

دَلَالَةُ التَّنْكِيرِ في قولِه: ﴿خَيْرًا﴾ العُمُومُ:

أَفَادَ التَّنْكِيرُ في قولِه: ﴿خَيْرًا﴾ الشُّمُولَ والعُمومَ؛ لِيَكُونَ التَّطَوُّعُ بِالْكَثِيرِ والْقَلِيلِ، دَاخِلًا ضِمْنَ حُكْمِ الْآيَةِ، فَمَهْمَا كَانَ الْمُتَطَوَّعُ بِهِ قَلِيلًا، فَإِنَّ جَزَاءَهُ الشُّكْرُ مِنَ اللهِ تعالى.

أَوْجُهُ التَّأْوِيلِ الإِعْرابِيِّ ثَراءٌ للمَعْنى السياقي:

نصبُ ﴿خَيْرًا﴾: إمّا على أَنَّهُ صِفَةُ مَصْدَرٍ مَحْذُوفٍ، والتَّقْديرُ: مَن تَطَوَّعَ تَطَوُّعًا خَيْرًا، أو أَنَّهُ نُصِبَ: بِحَذْفِ الْجَارِّ وإِيصَالِ الْفِعْلِ إِلَيْهِ، أَو بِتَعْدِيَةِ الْفِعْلِ لِتَضَمُّنِه مَعْنَى (أَتَى) أَو (فَعَل)[2]، وآثرَ النَّظمُ ما جَاءَ عَلَيْه لبيانِ أَنَّ التَّطوُّعَ يجبُ أن يبدأَ خيرًا وينتهي خيرًا، ولذلك تسلَّطَ الفعلُ عليْه.

فائِدَةُ تَأْكِيدِ الخَبَرِ في قولِه: ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ شَاكِرٌ عَلِيمٌ﴾:

دَفْعُ وَهْمِ عَدَمِ شُكْرِ الأَعْمَالِ التَّطَوّعِيَّةِ

بَدَأَت الْجُمْلَةُ بِتَأْكِيدِ الْخَبَرِ؛ لتأكيدِ الشُّكْرِ على التَّطوُّعِ، فإنَّ

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 2/64.

(2) البيضاويّ، أنوار التّنزيل: 1/155.

الأعمالَ التَّطوعيَّةَ لا يُرجى من ورائِها الأجرُ في الدُّنيا، فكانَ تأكيدُ الأجرِ الأُخرويِّ لدَفْعِ مَظنَّةِ أنْ لا أجرَ على التَّطوّعِ، وهذا من بديعِ الخطابِ في تلبيةِ احتياجاتِ النَّفسِ للطمأنينةِ.

بلاغةُ إظْهارِ الاسْمِ الأحْسَنِ في قولِه: ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ شَاكِرٌ عَلِيمٌ﴾:

لـمَّا سَبَقَ ذِكْرُ لَفْظِ الْجَلَالَةِ في قَوْلِه ﷻ: ﴿۞إِنَّ ٱلصَّفَا وَٱلْمَرْوَةَ مِن شَعَآئِرِ ٱللَّهِۖ﴾، فقد يظنُّ ظانٌّ أنَّ الْمُنَاسِبَ الْإِضْمَارُ؛ فَيَقُولَ: (فَإِنَّهُ شَاكِرٌ عَلِيمٌ)، وما جَاءَ عليه النَّظمُ الكريمُ هو الـمُناسِبُ واللَّائقُ بالبلاغةِ؛ ذلك أنَّه جاءَ مُظهَرًا لتَعْظِيمِ الصِّفَاتِ الَّتِي سِيقَت بَعْدَهُ المبنيَّةِ عليه، وفيه تعظيمُ الأجرِ الجزيلِ.

بلاغةُ إيرَادِ الأسماءِ الحُسنى اختيارًا وترتيبًا:

التَّـنـبـيـهُ على القَصْدِ والفِعْلِ، وتقديمُ النتائجِ على العِلَلِ

"وقَعَت الصِّفَتَانِ هُنَا الْمَوْقِعَ الْحَسَنَ، لِأَنَّ التَّطَوُّعَ بِالْخَيْرِ، يَتَضَمَّنُ الْفِعْلَ وَالْقَصْدَ، فَنَاسَبَ ذِكْرَ الشُّكْرِ بِاعْتِبَارِ الْفِعْلِ، وذِكْرَ الْعِلْمِ بِاعْتِبَارِ الْقَصْدِ"(1)، وقُدِّمَتْ صِفَةُ الشُّكْرِ عَلَى صِفةِ الْعِلْمِ، من بابِ تقديمِ النَّتيجةِ على العِلَّةِ، فَهُوَ يَشْكُرُ أَعْمَالَهُمْ؛ لِأَنَّهُ يَعْلَمُ مَا يَفْعَلُونَ.

دَلالةُ كَسْرِ النَّسَقِ في الفاصِلَةِ:

الإعْجازُ الصَّوْتِيُّ في الـقُـرْآن، تَـــواؤُمٌ في الإيقاعِ، ومُتْعَةٌ في الإسْتِماعِ

الْآيَاتُ السَّابِقَةُ كَانَت تُخْتَمُ بِالْوَاوِ والنُّونِ، وهَذِهِ الْآيَةُ خَرَجَت عَن هَذا النّسق، فَكَسَرَتْه؛ ويُكسَرُ النَّسَقُ في الْفَاصِلَةِ للتَّنْوِيعِ، ممَّا يُعْطِي جَمَالِيَّةً لِلصَّوْتِ الَّذِي تُخْتَتَمُ بِهِ الْآيَاتُ، فَكُلُّ آيَةٍ لَهَا خَاتِمَةٌ صَوْتِيَّةٌ، فَعِنْدَمَا تَتَوَالَى الْخَوَاتِيمُ مُتَوَافِقَةً، فَإِنَّ هَذَا نَسَقٌ مُتَلَائِمٌ يُعْطِي انْسِيَابِيَّةً فِي الصَّوْتِ، وفِي أُذُنِ الْمُتَلَقِّي، مَعَ مَا فِيهِ من جَمَالِيَّةٍ، ثُمَّ تَأْتِي آيَةٌ خِلَالَ ذَلِكَ النَّسَقِ مُبَايِنَةٌ، فَتَكْسِرُ هَذَا النَّسَقَ، وعليه فَإِنَّ ذَلِكَ يُثِيرُ انْتِبَاهَ الْأُذُنِ، وهَذَا تَنْوِيعٌ فِي الْخَاتِمَةِ الصَّوْتِيَّةِ، يَدْفَعُ الْمَلَلَ والسَّآمَةَ، مِن الرَّتَابَةِ الصَّوْتِيَّةِ الْمُتَكَرِّرَةِ بِنَسَقٍ واحِدٍ.

(1) أبو حيّان، البحر المحيط: 2/68.

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَكۡتُمُونَ مَآ أَنزَلۡنَا مِنَ ٱلۡبَيِّنَٰتِ وَٱلۡهُدَىٰ مِنۢ بَعۡدِ مَا بَيَّنَّٰهُ لِلنَّاسِ فِي ٱلۡكِتَٰبِ أُوْلَٰٓئِكَ يَلۡعَنُهُمُ ٱللَّهُ وَيَلۡعَنُهُمُ ٱللَّٰعِنُونَ ١٥٩﴾ [البقرة: 159]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِمَا قَبْلَها:

العَلاقَةُ بَيْنَ استِنْكارِ تَحْويلِ القِبْلَةِ، وكَتْمِ العُلَماءِ العِلْمَ

تَغْليظُ العُقوبَةِ عَلى كِتْمانِ العِلْمِ؛ لِأَنَّهُ مِنْ أَبْشَعِ الأَفْعالِ، وأَسْوَإِ الخِلالِ

لَمَّا سَبَقَ الْحَدِيثُ عَن تَحْوِيلِ القِبْلَة، وذَكَرَ أَنَّ بعضًا مِن الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ يَكْتُمُونَ الْعِلْمَ في قَوْلِه ﷻ: ﴿ٱلَّذِينَ ءَاتَيۡنَٰهُمُ ٱلۡكِتَٰبَ يَعۡرِفُونَهُۥ كَمَا يَعۡرِفُونَ أَبۡنَآءَهُمۡۖ وَإِنَّ فَرِيقٗا مِّنۡهُمۡ لَيَكۡتُمُونَ ٱلۡحَقَّ وَهُمۡ يَعۡلَمُونَ ١٤٦﴾ [البقرة: 146]، ثُمَّ تَكَلَّمَ عَن شَرْعِيَّةِ السَّعْيِ بَيْنَ الصَّفَا والمَرْوَة، وكَانَ السَّعْيُ بَيْنَهُمَا مِن أَعْمَالِ الْعَرَبِ الْمُشْرِكِينَ، فَتَحَرَّجَ بَعْضُ الْمُسْلِمِينَ مِن السَّعْيِ بَيْنَهُمَا، فكَانَ تَبْيِينُ الْحَقِّ في ذَلِك مِن الْوَاجِب، فَإِنَّ حَقِيقَةَ الشَّيْءِ مَهْما لَحِقَهَا مِن سُوءٍ بِسَبَبِ فِعْلٍ خَارِجِيٍّ، فَإِنَّهُ لا يَقْدَحُ في قِيمَتِهَا، فَكَانَ بَيَانُ تِلْكَ الْقِيمَةِ والْمَكَانَةِ والْمَشْرُوعِيَّة، مِمَّا يَجِبُ أَلَّا يُكْتَم، فذَلِك يُنَاسِبُ الْحَدِيثَ عَن كَتْمِ الْعَلَمِ والْحَقِّ والْبَيِّنَات، ووَجْهُ الْمُنَاسَبَةِ هُنَا أَنَّهُ لَمَّا تَقَدَّمَ الْإِخْبَارُ بِحُكْمٍ شَرْعِيٍّ عَقَّبَه بِبَيَانِ عُقُوبَةِ الْعَالِمِ إِذَا كَتَمَ عِلْمَهُ[1]، وهَذِهِ الْآيَةُ وإن كَانَت خَاصَّةً لِبَعْضِ النَّاسِ، فَإِنَّهَا عَامَّةٌ لِكُلِّ مَن سُئِلَ عَن عِلْمٍ يَعْلَمُهُ فَكَتَمَهُ[2].

شَرْحُ المُفْرَدَاتِ:

كتم العلم حبسه في الصّدر، والضنّ به على مستحقّه

1) ﴿يَكۡتُمُونَ﴾: مِنَ الجَذْرِ (كتم)، وهو في الأَصْلِ يَدُلُّ عَلَى إِخْفَاءٍ وسَتْرٍ؛ مِن ذَلِكَ: كَتَمْتُ الْحَدِيثَ كَتْمًا وكِتْمَانًا، وقَالَ اللّٰه تَعَالَى: ﴿وَلَا يَكۡتُمُونَ ٱللَّهَ حَدِيثٗا ٤٢﴾ [النّساء: 42][3]، كَتَمَ السِّرَّ: سَتَرَهُ

(1) ابن عرفة، تفسير ابن عرفة: 2/475.

(2) مكّيّ القيسّي، الهداية إلى بلوغ النّهاية: 1/527.

(3) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (كتم).

وأَخْفاهُ، وكذا: كَتَمَ العِلْمَ، والشَّهَادَةَ، وكُلُّ ما في القُرآنِ فهُوَ بِمَعْنَى حَبْسِ الْكَلَامِ عَمَّا في الْقَلْبِ مِن شَهَادَةٍ أَو عِلْمٍ أو فِكْرٍ[1].

ما أنزله الحقّ، فهو مطلوبةٌ بحقّ

2) ﴿أَنزَلْنَا﴾: مِنَ الجَذْرِ (نزل)، وهو في الأصلِ يدُلُّ عَلَى هُبُوطِ شَيْءٍ ووُقُوعِه، وهو انحطَاطٌ من عُلوّ، قال تعالى: ﴿أَنزِلْنِى مُنزَلًا مُّبَارَكًا وَأَنتَ خَيْرُ ٱلْمُنزِلِينَ ﴿٢٩﴾﴾ [المؤمنون: 29]، ويَتَعَدَّى بِالْحَرْفِ والْهَمْزَةِ والتّضْعِيفِ، فَيُقَالُ: نَزَلْتُ بِه، وأَنْزَلْتُه، ونَزَّلْتُهُ[2]، وإنْزالُ اللّه تعالى نِعَمَهُ ونِقَمَهُ على الخَلْقِ: إعطاؤُهُم إيّاها، قَالَ تَعالى: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ عَلَىٰ عَبْدِهِ ٱلْكِتَٰبَ﴾ [الكهف: 1][3].

البيِّنة الدّلالة الواضحةُ، مجرّدة كانت أو محسوسة

3) ﴿ٱلْبَيِّنَٰتِ﴾: مِنَ الجَذْرِ (بين)، وهو في الأصل يدل على بُعْدِ الشَّيْءِ وانْكِشَافِه، وبَانَ الشَّيْءُ: اتَّضَحَ وانْكَشَفَ، وفُلَانٌ أَبْيَنُ من فُلَانٍ؛ أَي: أَوْضَحُ كَلَامًا مِنْهُ[4]، بَانَ: انْفَصلَ، وظَهَرَ ما كان مُسْتَتِرًا مِنْهُ، بانَ الصّبحُ: ظَهَرَ، ويقال: آيَةٌ مُبَيَّنَةٌ؛ اعتبارًا بمَن بيَّنها، وآيةٌ مُبَيِّنَة اعتبارًا بنفْسِها، وآياتٌ مبيَّناتٌ ومبيِّناتٌ، والبَيِّنَةُ: الدَّلالةُ الوَاضِحَةُ، عَقْلِيَّةً كانَت أَو مَحْسُوسةً[5].

والْبَيِّنَات والْهُدَى: أَمْرُ النبيّ مُحَمَّد ﷺ ثُمَّ يَعُمُّ بَعْدُ كُلَّ مَا يُكْتَمُ مِن خَيْرٍ[6].

من لعنه الله هلك في الدّنيا وخاب في الآخرة

4) ﴿يَلْعَنُهُمُ﴾: مِنَ الجَذْرِ (لعن)، واللّعْنُ: الطّردُ والإبْعادُ على سَبِيلِ السُّخْطِ[7]، وكلُّ مَن لَعَنَهُ اللّه فَقَد أَبْعَدَهُ عَن رَحْمَتِه، واسْتَحَقَّ العذابَ فَصَارَ هَالِكًا[8]، فاللّعْنُ مِن اللّهِ تَعالى في الآخِرَةِ عُقُوبةٌ،

(1) جبل، المعجم الاشتقاقيّ المؤصّل: (كتم).
(2) الفيّوميّ، المصباح المنير: 2/600.
(3) ابن فارس، مقاييس اللُّغة: (نزل)؛ الرَّاغب، المفردات: (نزل).
(4) ابن فارس، مقاييس اللُّغة: (بين).
(5) الرَّاغب، المفردات: (بين).
(6) ابن عطيّة، المحرّر الوجيز: 1/231.
(7) ابن فارس، مقاييس اللُّغة: (لعن)؛ الرَّاغب، المفردات: (لعن).
(8) ابن منظور، لسان العرب: (لعن).

وفي الدُّنْيا انْقِطَاعٌ من قَبُولِ رَحْمَتِهِ وتَوْفِيقِه، ومن الإنْسانِ دُعاءٌ على غَيْرِه، قَالَ تَعَالَى: ﴿أَلَا لَعۡنَةُ ٱللَّهِ عَلَى ٱلظَّٰلِمِينَ ١٨﴾ [هود: 18][1].

المَعْنَى الإِجْمَالِيُّ:

التَّشْنيعُ عَلى عُلَماءِ اليَهودِ والنَّصارى، في كَتْمِ دَلائِلِ صِدْقِ مُحَمّدٍ ﷺ ورسالَتِهِ

نَزَلَت في عُلَمَاء الْيَهُودِ في كَتْمِهم دَلَائِلَ صِدْقِ النَّبِيّ ﷺ، وصِفَاتِهِ وصِفَاتِ دِينِه المَوْجودة في التَّوْرَاة، وفي كَتْمِهم آيَةَ الرَّجْم، وغَيْرَهَا مِن الْأَحْكَام الَّتِي كَانَت في التَّوْرَاة[2]، وسَبَبُ النُّزُولِ لَا يَمْنَعُ عُمُومَ الْآيَة؛ فَهِيَ شَامِلَةٌ كلَّ مَن كَتَمَ شَيْئًا من أَمْرِ الدِّينِ؛ لِأَنَّ اللَّفْظ عَامٌّ، والْعِبْرَةَ بِعُمُومِ اللَّفْظِ لَا بِخُصُوصِ السَّبَبِ[3].

والمعنى العام: إِنَّ الَّذينَ يُخْفُونَ مَا أَنْزَلْنَا من الآيَاتِ الْوَاضِحَاتِ الدَّالَّةِ عَلَى نُبُوَّةِ مُحَمَّدٍ المصطفى ﷺ ومَا جَاءَ بِهِ، وهُم أَحْبَارُ الْيَهُودِ وعُلَمَاءُ النَّصَارَى وغَيْرُهمْ، مِمَّن يَكْتُمُ مَا أَنْزَلَ اللَّه من بَعْدِ ما أَظْهَرْنَاهُ لِلنَّاسِ في التَّوْرَاةِ والإِنْجيل، أُولَئِكَ يَطْرُدُهُم اللَّه من رَحْمَتِهِ، ويَدْعُو عَلَيْهِم باللَّعْنَةِ جَمِيعُ الْخَلِيقَةِ[4].

الإيضاحُ اللُّغويُّ والبلاغيُّ:

غَرَضُ الِاسْتِئْنافِ وَتَأْكِيدُه فِي الآيَةِ:

فَظاعَةُ كَتْمِ العِلْمِ مِنْ أشْنَعِ ما نَدَّدَ بِهِ النَّصُّ القُرْآنيّ

الْجُمْلَةُ في قَوْلِه ﷻ: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَكۡتُمُونَ مَآ أَنزَلۡنَا مِنَ ٱلۡبَيِّنَٰتِ وَٱلۡهُدَىٰ﴾ اسْتِئْنَافٌ؛ لِلاهْتِمَام بِمَضْمُونِ الْجُمْلَة، والْغَرَضُ بيانُ فَظَاعَةِ مَا قَامَ به أهلُ الكِتابِ مِن الْكَتْم، ولذلكَ جاءَ الكَلامُ مُؤَكَّدًا؛ فلمَّا كان أَهْلُ الكِتَابِ يتَساهلُونَ في كِتمانِهم، ويظنّونَ أنَّهم ناجُون، كانَ لهذا التَّوكِيدِ مَحلُّه في التَّأثيرِ، وموقعُه في الأَثَرِ؛ لِدفْعِ هذه الأوهامِ، ومَحْقِ هذه الخُزعبَلاتِ.

---

(1) الرَّاغب، المفردات: (لعن).

(2) الواحديّ، أسباب النّزول، ص: 29، والخازن، لباب التّأويل: 1/97.

(3) الخازن، لباب التّأويل: 1/97.

(4) نخبة من العلماء، التّفسير الميسّر، ص: 24.

دَلالَةُ اسْتِعمالِ الْفِعْلِ الْمُضَارِعِ: ﴿يَكۡتُمُونَ﴾:

أفادَ التَّعْبِيرُ بِالْفِعْلِ الْمُضَارِعِ فائِدَتينِ: الأُولى: أَنَّ الْوَعِيدَ في هَذِهِ الْآيَةِ مَشُوبٌ بِالرَّجَاءِ، فلَم يَقُل: (كَتَمُوا) بِالْمَاضِي، تَنْبِيهًا عَلَى أَنَّ مَا وقعَ مِنْهُم قَبْلَ ذَلك مَعْفُوٌّ عَنْهُ، لا يَتَنَاوَلُهُ هَذا الْوَعِيدُ، ثُمَّ أَكَّدَ هَذَا الرَّجَاءَ بِرَجَاءٍ آخَرَ، وهُوَ أَنَّ الْكَتْمَ الصَّادِرَ مِنْهُم في الْمُسْتَقْبَلِ، إِنَّمَا يُعَاقَبُونَ عَلَيْهِ مَعَ الْإِصْرَارِ عَلَيْهِ والْمُدَاوَمَةِ؛ لِقَوْلِهِ ﷻ: ﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ تَابُواْ﴾[1]، والثَّانية: الإخبارُ باستمرارِهم في الكِتمانِ، بدليلِ الاستثناءِ؛ فهم في الجُملَةِ مُستمرُّون بالكِتمانِ، وبه يستحقُّون الكِتمانَ في اللَّعنِ إلى يوم القيامة.

الوَعيدُ المَشوبُ بالرَّجاءِ تَرْغِيبًا، والإخبارُ بالوَاقِعِ تَرْهِيبًا

إِيْثَارُ الْعُمُومِ عَلَى الْخُصُوصِ فِي قوله: ﴿مَآ أَنزَلۡنَا﴾:

آثرتِ الآيَةُ التَّعبيرَ بِالاسْمِ الْمَوْصُولِ الْحَرْفِيِّ الدَّالِ عَلَى الْعُمُومِ في قوله: ﴿مَآ أَنزَلۡنَا﴾؛ فلَمْ تُعيِّنْه أو تُخَصِّصه، وهُم وإن لَم يَكْتُمُوا جَمِيعَ مَا أُنْزِلَ إلَّا أنَّهم عُومِلوا معامَلَةَ من كَتَمَ جَميعَ مَا أُنْزِلَ؛ لِأَنَّ مَنْ كَتَمَ شَيْئًا من كِتَابِ اللَّهِ وتَعَالِيمِهِ؛ فكَأَنَّهُ كَتَمَ كُلَّ التَّعَالِيمِ والْبَيِّنَاتِ؛ لِأَنَّ الْكَتْمَ اعْتِرَاضٌ ضِمنيٌّ عَلَى حُكْمِ اللَّهِ، والاعْتِرَاضُ عَلَى اللَّهِ لا فَرْقَ بَيْنَ كَثِيرِهِ وقَلِيلِهِ.

كَتْمُ الجُزْءِ له حُكْمُ كَتْمِ الكُلِّ، لأنَّه اعْتِراضٌ على حُكْمِ اللَّهِ

دَلَالَة إِسْنَادِ الْإِنْزَالِ لِلَّهِ تَعَالَى: ﴿أَنزَلۡنَا﴾:

عَبَّرَ عَمَّا يَكْتُمُونَهُ، بِأَنَّهُ أُنزِلَ مِن اللَّهِ تَعالَى، ولَم يَقُلْ: (إِنَّ الَّذِينَ يَكْتُمُونَ الْبَيِّنَاتِ والْهُدَى)؛ لِتَعْظِيمِ الْمُنَزَّلِ الَّذِي كَتَمُوهُ، فَإِنَّ شَرَفَ التَّعَالِيمِ مُكْتَسَبٌ من مَصْدَرِهَا، فَلَمَّا كَانَت التَّعَالِيمُ والْبَيِّنَاتُ من وحْيِ اللَّهِ تَعَالَى، كَانَ كِتْمَانُهَا أَشَدَّ فَظَاعَةً وشَنَاعَةً.

كِتمانُ بيِّناتِ اللهِ أَفْظَعُ وأَشْنَعُ من كِتمانِ كلامِ غيرِه

الجمعُ بين دلالةِ تعظيمِ المُنزِلِ وتقبيحِ الكاتِمِ في قولِه: ﴿أَنزَلۡنَا﴾:

عُبِّرَ بِصِيغَةِ الْفِعْلِ الْمُسْنَدِ إِلَى ضَمِيرِ الْمُتَكَلِّمِينَ، لِلتَّعْبِيرِ عَن

---

(1) ابن عرفة، تفسير ابن عرفة: 477-2/476.

خِطَابِ اللَّهِ تَعَالَى الْوَاحِد، يُرَادُ مِنْهُ التَّعْظِيمُ، وفي هذا تشْريفٌ وتعظيمٌ لِلمُنْزَلِ، وتشديدٌ وتقبيحٌ لكاتِمِه.

دَلَالَةُ حَرْفِ (مِنْ) وسِرُّ الجمْعِ بَيْنَ: ﴿ٱلْبَيِّنَٰتِ وَٱلْهُدَىٰ﴾:

تقييدُ الكتمِ بالبيِّناتِ والهدى توسِعةٌ على العبادِ ورَحْمَةٌ

(مِنْ) هُنَا بَيَانِيَّةٌ، تُبَيِّنُ المكتوم من أيِّ شَيْءٍ، وبِهَذَا فَإِنَّ كَتْمَ مَا لَيْسَ من الْبَيِّنَاتِ لَيْسَ مَذْمُومًا؛ فَقَوْلُهُ ﷻ: ﴿مِنَ ٱلْبَيِّنَٰتِ وَٱلْهُدَىٰ﴾، دَلِيلٌ عَلَى أَنَّهُ يَجُوزُ كَتْمُ غَيْرِ ذَلِكَ، ممَّا لا يتَّصِفُ بأنَّه من البيِّنات والهُدى، أي: ممَّا لا يَنبني عَلَيْه بيانٌ أو هِدايةٌ، وهذا سرُّ الجمعِ بينَ هاتين الكَلِمتَيْن.

سِرُّ إِفْرادِ الهُدى وتَأْخِيرِهِ عن البيّنات في قَوْلِهِ: ﴿ٱلْبَيِّنَٰتِ وَٱلْهُدَىٰ﴾:

البيِّناتُ توضيحٌ للغَوامِضِ، والهُدَى لما يُسْتَقبلُ منها

جاءَ التَّعبيرُ بإفرادِ الهُدى وَلَم يُجمَع "مِثْلَ الْبَيِّنَاتِ؛ لِكَوْنِهِ مَصْدَرًا"[1]، فيُؤدِّي معنى الجمْعِ، وأُخِّرَ عَن الْبَيِّنَاتِ؛ لأنَّ البيِّنات هي لما سبَقَ الكَلامُ عليه من بعثة النَّبيِّ ﷺ، فهُم يَكتُمونَ ما يجبُ بيانُه ممَّا هو مُتوقِّفٌ على البيانِ، وأمَّا الهُدَى فأُخِّر لأنَّ الهداية تكونُ لِمَا يُستقبَلُ من الأعمالِ، "إِذِ الْهِدَايَةُ بَعْدَ الْوُضُوحِ"[2].

مَدْلولُ (مِنْ) الابْتِدائِيَةِ في قولِهِ: ﴿مِنۢ بَعْدِ مَا بَيَّنَّٰهُ﴾:

كِتْمانُ البَيِّناتِ مَعَ انْتِفاءِ العُذْرِ مِنْ أَكْبَرِ الخَطيئاتِ

(مِنْ) في قَوْلِهِ: ﴿مِنۢ بَعْدِ مَا بَيَّنَّٰهُ﴾ ابْتِدَائِيَّةٌ، يَعْنِي: بَدَأَ كِتْمَانُهُم بَعْدَ الْبَيَانِ، فَذَكَرَ ذَلِكَ لِزِيَادَةِ التَّفْظِيعِ لِحَالِ الْكِتْمَانِ، وذَلِكَ أَنَّهُم كَتَمُوا الْبَيِّنَاتِ والْهُدَى، مَعَ انْتِفَاءِ الْعُذْرِ في ذَلِكَ؛ لِأَنَّهُم لَو كَتَمُوا مَا لَم يُبَيَّنْ لَهُم، لَكَانَ لَهُم بَعْضُ الْعُذْرِ أَن يَقُولُوا: كَتَمْنَاهُ لِعَدَمِ اتِّضَاحِ مَعْنَاهُ، فَكَيْفَ وهُوَ قد بُيِّنَ ووُضِّحَ في التَّوْرَاةِ[3]!

دَلالَةُ حرْفِ اللَّامِ في قولِه ﴿بَيَّنَّٰهُ لِلنَّاسِ﴾:

اللَّامُ في قَوْلِهِ ﷻ: ﴿لِلنَّاسِ﴾ للتَّعْلِيلِ، أَي: بَيَّنَّاهُ في الْكِتَابِ لِأَجَلِ

(1) القُونَوِيّ، حاشيةٌ على البيضاوِيّ: 4/385.
(2) القُونَوِيّ، حاشيةٌ على البيضاوِيّ: 4/385.
(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 2/67.

الاعْتِداءُ بِحِرْمانِ المُسْتَحِقِّ ما قُرِّرَ لَهُ ظُلْمٌ وتَسَلُّطٌ

النَّاسِ، أَي: أَرَدْنَا إِعْلَانَهُ وإِشَاعَتَهُ، أَي: جَعَلْنَاهُ بَيِّنًا، وفي هَذَا زِيَادَةُ تَشْنِيعِ عَلَيْهِمْ، فِيمَا أَتَوْهُ من الْكِتْمَانِ، وهُوَ -أَنَّهُ مَعَ كَوْنِهِ كِتْمَانًا لِلْحَقِّ، وحِرْمَانًا مِنْهُ- اعْتِدَاءٌ عَلَى مُسْتَحِقِّهِ الَّذِي جُعِلَ لِأَجْلِهِ؛ فَفِعْلُهُمْ هَذَا تَضْلِيلٌ وظُلْمٌ[1].

دَلالَةُ الظَّرْفِيَةِ في قَولِهِ: ﴿فِي ٱلْكِتَـٰبِ﴾:

تَحْريفُ الكُتُبِ السَّماوِيَّةِ، نَتيجَةٌ لسَيْطَرَةِ الأَهْواءِ البَشَرِيَّةِ

تشير شبه الجملة إلى مَكَانِ التَّبْيِينِ، وهَذَا تَخْصِيصٌ، فَيَكُونُ التَّبْيِينُ مَعْرُوفًا لَا غِشَاوَةَ عَلَيْهِ، مَعْرُوفًا لَدَيْهِمْ، يَتْلُونَهُ في الْكِتَابِ، وهَذَا يُفِيدُ زِيَادَةَ الذَّمِّ؛ فَهُم يَعْلَمُونَ أَنَّهُم يَكْتُمُونَ عَن إِصْرَارٍ وعِنَادٍ، "وَمَعْنَى كِتْمَانِهِم في الْكِتَابِ: أَنَّهُ وقَعَ في الْكِتَابِ، فَإِنَّ الْمُرَادَ بِالْكِتْمَانِ، إِمَّا سَتْرُهُ وإِخْفَاؤُهُ، أَو إِزَالَتُهُ ووَضْعُ شَيْءٍ آخرَ مَوْضِعَهُ؛ فَإِنَّهُم مَحَوْا نُعُوتَهُ ﷺ، وكَتَبُوا مَكَانَهَا مَا يُخَالِفُهَا، وهُوَ الْمُعَبَّرُ عنه بِالتَّحْرِيفِ، وهَذَا هُوَ الْمُرَادُ هُنَا"[2].

دَلالَةُ التَّعْرِيفِ في لَفْظِ ﴿ٱلْكِتَـٰبِ﴾:

الظَّاهِرُ أَنَّهُ يَعْنِي بِهِ الْكِتَابَ الَّذِي ذُكِرَ فِيهِ النَّبِيُّ ﷺ، وهُوَ التَّوْرَاةُ، وقَد يَكُونُ الْمُرَادُ بِالْكِتَابِ اسْمَ الْجِنْسِ، وتَعْرِيفُهُ بِالْأَلِفِ واللَّامِ، يُفِيدُ شُمُولَهُ لِجَمِيعِ الْكُتُبِ السَّمَاوِيَّةِ[3]، والْأَوَّلُ أَرْجَحُ؛ لِأَنَّهُ يَتَكَلَّمُ عَن مَعْهُودٍ، "وَاللَّامُ فِيهِ لِلْعَهْدِ؛ بِقَرِينَةِ أَنَّ الْكَتْمَ وقَعَ مِن الْيَهُودِ، وكِتَابُهُم التَّوْرَاةُ"[4]، وهذا وإِنْ كانَ هو الرَّاجِحَ؛ فيدخلُ فيه كلُّ كتابٍ سماويٍّ بدلالة الفحوى.

سِرُّ اسْتِعمَالِ اسمِ الإشَارَةِ ﴿أُوْلَـٰٓئِكَ﴾:

كِتْمانُ العِلْمِ وإِخْفاءُ الحَقِّ مُبْعِدٌ صاحِبَهُ مِنْ رَحْمَةِ اللهِ

جاءَ الْمُسْنَدُ إِلَيْهِ اسْمَ إِشَارَةٍ؛ لِتَمْيِيزِهِ بِمَا يَخُصُّهُ، فَهُوَ إِشَارَةٌ إِلَى الَّذِينَ يَكْتُمُونَ العِلْمَ، والْإِشَارَةُ إِلَى مَوْصُوفٍ بِوَصْفٍ، تدلُّ على

---

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 2/67.

(2) القُونَوِيّ، حاشيةٌ على البيضاوِيّ: 4/386.

(3) القِنَّوجيّ، فتح البيان: 324-1/323.

(4) القُونَوِيّ، حاشيةٌ على البيضاوِيّ: 4/386.

أَنَّ الْوَصْفَ عِلَّةٌ لِلْحُكْمِ، فَكِتْمَانُ العِلْمِ عِلَّةٌ لِلإِبْعَادِ عَن رَحْمَةِ اللَّهِ تَعَالَى[1]، والتَّعْبِيرُ بِاسْمِ الْإِشَارَةِ بَعْدَ تَعْقِيبِ الْمُشَارِ إِلَيْهِ بِأَوْصَافٍ، يَدُلُّ عَلَى أَنَّ الْمُشَارَ إِلَيْهِ جَدِيرٌ بِمَا يَرِدُ بَعْدَه[2]، وهو بعيدٌ عن منزلةِ القَبولِ والرَّحمةِ، ففي الإشارةِ إلى معنى الإبعادِ في اسمِ الإشارةِ، توطئةٌ إلى الإبعاد في اللَّعنِ.

دلالةُ خُلُوِّ ﴿أُوْلَـٰٓئِكَ﴾ من حرفِ الفَاءِ:

التَّنبيهُ على كثرةِ أسبابِ لعنِ الكاتِمين

ورَدَ كَثِيرًا في الْقُرْآنِ اقْتِرانُ الْفَاءِ بِاسْمِ الْإِشَارَةِ الْوَاقِعِ خَبَرًا، كَقَوْلِهِ ﷻ: ﴿مَن كَسَبَ سَيِّئَةٗ وَأَحَٰطَتۡ بِهِۦ خَطِيٓـَٔتُهُۥ فَأُوْلَـٰٓئِكَ أَصۡحَٰبُ ٱلنَّارِۖ هُمۡ فِيهَا خَٰلِدُونَ ٨١﴾ [البقرة: 81]، وقوله ﷻ: ﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ تَابُواْ وَأَصۡلَحُواْ وَٱعۡتَصَمُواْ بِٱللَّهِ وَأَخۡلَصُواْ دِينَهُمۡ لِلَّهِ فَأُوْلَـٰٓئِكَ مَعَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَۖ وَسَوۡفَ يُؤۡتِ ٱللَّهُ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ أَجۡرًا عَظِيمٗا ١٤٦﴾ [النّساء: 146]، فَاسْمُ الْإِشَارَةِ هُنَا خَبَرٌ عَن اسْمِ ﴿إِنَّ﴾، ولَكِنَّهُ لَم يَقْتَرِن بِالْفَاءِ؛ لِلتَّنْبِيهِ عَلَى أَنَّ سببَ لَعْنِهم هو أَذاهُم للرَّسُولِ الأكرمِ ﷺ، وعِبادَتُهُمُ الْعِجْلَ، وطَلَبُ رُؤْيَةِ اللَّهِ تَعَالَى عِيانًا، وغيرُها، لَا بخُصُوصِ سببِ الْكِتْمَانِ، فَالْكِتْمَانُ لَيْسَ سَبَبًا وَحِيدًا لِذَلِكَ اللَّعْنِ، بَل هُوَ سَبَبٌ مَعَ أَسْبَابٍ أُخْرَى[3].

دَلَالَةُ التَّجَدُّدِ في قولِه: ﴿يَلۡعَنُهُمُ ٱللَّهُ﴾:

تجدُّدِ اللَّعنِ ناشئٌ عن تجدُّدِ الكِتمانِ

اخْتَارَتِ الآيةُ الْفِعلَ الْمُضَارِعَ في التَّعْبِيرِ عَن لَعْنِهِمْ؛ لِلدَّلَالَةِ عَلَى التَّجَدُّدِ؛ لِأَنَّهُم مَا زَالُوا يَكْتُمُونَ الْحَقَّ، فناسَبَ التَّعبيرُ عن تجدُّدِ كِتمانِهم بتجدُّدِ لعنِهم، وهذا من عدالةِ النَّظمِ، النَّاشئةِ عن عدالةِ الجزاءِ.

بَلاغَةُ الالْتِفاتِ من التَّكلُّمِ إلى الغَيْبةِ

لَم يَقُلْ: (نَلْعَنُهُمْ)، أَوْ (لَعَنَّاهُمْ)؛ جَرْيًا عَلَى قولِهِ: ﴿أَنزَلۡنَا﴾،

---

(1) أبو زهرة، زهرة التّفاسير: 1/480.

(2) القُونَوِيّ، حاشيةٌ على البيضاوِيّ: 4/386.

(3) القُونَوِيّ، حاشيةٌ على البيضاوِيّ: 4/386.

﴿بَيَّنَّاهُ﴾ بِصِيغَةِ الْمُتَكَلِّمِ، ولَكِنَّهُ اسْتَعْمَلَ صِيغَةَ الْغَائِبِ بِاسْتِعْمَالِ الاسْمِ الظَّاهِرِ؛ لِلدَّلَالَةِ عَلَى إِظْهَارِ السُّخْطِ عَلَيْهِمْ، ولِلْإِشْعَارِ بِغِلَظِ اللَّعْنِ، ويُكون الْكَلَامُ أَكْثَرَ وقْعًا في لَعْنِهِمْ، وطَرْدِهم من رَحْمَةِ اللّٰهِ تعالى.

دلَالَةُ تَكْرَارِ الْفِعْلِ ﴿يَلْعَنُهُمُ﴾:

لـعـنـةُ الـلّـهِ أصلٌ تشريعيٌّ للعبادِ، يُعمَلُ بـمـقـتـضـاه التَّشريعيّ

كرَّرَتِ الآيةُ اللَّعنَ تَمْيِيزًا بَيْنَ مَعْنَى اللَّعْنَتَينِ؛ فَإِنَّ اللَّعْنَ من اللّٰه تعالَى الْإِبْعَادُ عَنِ الرَّحْمَةِ، واللَّعْنَ مِنَ الْبَشَرِ الدُّعَاءُ عَلَيْهِمْ[1]، وفَائِدَةُ التَّكْرَارِ هُنَا الْمُبَالَغَةُ في تَأْكِيدِ الذَّمِّ، وتَشْنِيعِ فِعْلِهِمْ، فَدَلَّ النَّصُّ عَلَى التَّمَايُزِ بَيْنَ اللَّعْنَتَيْنِ، وهَذَا فِيهِ مُبَالَغَةٌ في لَعْنِهِمْ؛ حَيْثُ إِنَّهُم اسْتَحَقُّوا لَعْنَةً من اللّٰه؛ لِأَنَّهُم كَتَمُوا تَعَالِيمَهُ، واسْتَحَقُّوا اللَّعْنَةَ من النَّاسِ، لِأَنَّهُم كَتَمُوا تَعَالِيمَ اللّٰهِ عَنْهُمْ، ولعنةُ اللّٰه تعالى هي الأصلُ التَّشريعيُّ في الأمرِ بلعنِهم، إذِ الإخبارُ عن فعلِ اللّٰه في النَّاس، هو أمرٌ بالمتابعةِ اعتقادًا أو قولًا أو فعلًا؛ فمن لعنَه اللّٰهُ أو حكَمَ بكفرِه، فهو ملعونٌ كافرٌ، ومن قالَ بخلافِ ما حكَمَ اللّٰهُ به فقد ناوأ اللّٰه تعالى في حُكمِه، وأتى عظيمةً من عظائم العقائدِ.

دَلَالَةُ التَّعْرِيفِ فِي قَوْلِهِ تَعالى: ﴿ٱللَّٰعِنُونَ﴾:

مَنْ لَعَنَهُ اللهُ، غَضِبَ عَلَيْهِ، وأَغْضَبَ عَلَيْهِ خَلْقَهُ

(الْ) في قَوْلِهِ ﷻ: ﴿ٱللَّٰعِنُونَ﴾ لِلاسْتِغْرَاقِ، أَي: يَلْعَنُهُم كُلُّ لَاعِنٍ، وفي هَذَا مُبَالَغَةٌ في اللَّعْنِ، وبَيَانٌ لِشَنِيعِ مَا صَنَعُوا، و﴿ٱللَّٰعِنُونَ﴾: "أَي الَّذِينَ يَتَأَتَّى مِنْهُمُ اللَّعْنُ عَلَيْهِم؛ من الْمَلَائِكَةِ والثَّقَلَيْنِ"[2]، وكيفيَّةُ لَعْنِهم: أَنْ "يَسْأَلَ رَبَّهُم اللَّاعِنُونَ أَن يَلْعَنَهُمْ؛ لِأَنَّ كُلَّ لَاعِنٍ إِنَّمَا يَقُولُ: اللَّهُمَّ الْعَنْ هَذَا"[3].

قوَّةُ جِنَاسِ الِاشْتِقَاقِ فِي قوله: ﴿وَيَلۡعَنُهُمُ ٱللَّٰعِنُونَ﴾:

قَوْلُهُ ﷻ: ﴿وَيَلۡعَنُهُمُ ٱللَّٰعِنُونَ﴾ فِيهِ جِنَاسُ الاشْتِقَاقِ، فَكِلَا

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 2/68.
(2) البيضاويّ، أنوار التّنزيل: 1/116.
(3) مكّيّ القيسي، الهداية إلى بلوغ النّهاية: 1/528.

اللَّفْظَيْنِ مَأْخُوذٌ مِن (لَعَنَ)، وهُوَ مِن الْمُحَسِّنَاتِ الْبَدِيعِيَّة، فَتَكْرَارُ الْجِذْرِ باشتِقاقَيْنِ مُتَبَايِنَينَ لَهُ قوَّةٌ صَوْتِيَّةٌ في الْأُذُنِ، ويزدادُ جَمالُه الصَّوتيُّ بمجيئِه في فاصِلَةِ الآيَة.

دَلالَةُ المُتَشابِهِ اللّفظيّ بين الآيَةِ وغيْرِها مِنَ السُّوَرِ:

عَلى قَدْرِ الجُرْمِ تَكونُ العُقوبَةُ

وَرَدَت في الْقُرْآنِ آياتٌ تَتَشابَهُ مَعَ هذه الآيَةِ ففي سورةِ البَقرة: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَكۡتُمُونَ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلۡكِتَٰبِ وَيَشۡتَرُونَ بِهِۦ ثَمَنٗا قَلِيلًا أُوْلَٰٓئِكَ مَا يَأۡكُلُونَ فِي بُطُونِهِمۡ إِلَّا ٱلنَّارَ وَلَا يُكَلِّمُهُمُ ٱللَّهُ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ وَلَا يُزَكِّيهِمۡ وَلَهُمۡ عَذَابٌ أَلِيمٌ ١٧٤﴾ [البقرة: 174]، وفي آلِ عمران قولُه ﷻ: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَشۡتَرُونَ بِعَهۡدِ ٱللَّهِ وَأَيۡمَٰنِهِمۡ ثَمَنٗا قَلِيلًا أُوْلَٰٓئِكَ لَا خَلَٰقَ لَهُمۡ فِي ٱلۡأٓخِرَةِ وَلَا يُكَلِّمُهُمُ ٱللَّهُ وَلَا يَنظُرُ إِلَيۡهِمۡ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ وَلَا يُزَكِّيهِمۡ وَلَهُمۡ عَذَابٌ أَلِيمٞ ٧٧﴾ [آل عمران: 77].

فَلِلسَّائِلِ أَن يَسأَلَ عَن تَخْصيص آيَتَي الْبَقَرَة بِذِكْرِ الْكَتْمِ بقَوْلِه ﷻ في الْآيَتَيْن: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَكۡتُمُونَ﴾؟ والْجَوابُ عَن الآيَتَيْنِ الْأُولَيَيْن أَنَّهُ لَمَّا تَقدَّمَ قَبْلَهُمَا في السُّورَةِ نَفْسِهَا قَوْلُهُ ﷻ: ﴿وَلَا تَلۡبِسُواْ ٱلۡحَقَّ بِٱلۡبَٰطِلِ وَتَكۡتُمُواْ ٱلۡحَقَّ وَأَنتُمۡ تَعۡلَمُونَ ٤٢﴾ [البقرة: 42]، فَنَهَاهُم اللَّهُ سُبْحَانَهُ عَن الْكَتْم، ولَم يَجْرِ مَعَ هَذَا النَّهْيِ ذِكْرُ جَزَاءٍ في هَذِهِ الآيَة، فَلَمَّا خَالَفُوا وكَتَمُوا بَعْدَ أَن حُذِّرُوا عَن الْكَتْم، ورَدَتِ الآيَةُ بَعْدُ مُعَرِّفَةً بجَزاءِ مَن كَتَمَ بَعْدَ أَن حُذِّرَ، فَقَالَ تَعَالَى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَكۡتُمُونَ مَآ أَنزَلۡنَا مِنَ ٱلۡبَيِّنَٰتِ وَٱلۡهُدَىٰ مِنۢ بَعۡدِ مَا بَيَّنَّٰهُ لِلنَّاسِ فِي ٱلۡكِتَٰبِ أُوْلَٰٓئِكَ يَلۡعَنُهُمُ ٱللَّهُ وَيَلۡعَنُهُمُ ٱللَّٰعِنُونَ ١٥٩﴾، فَذَكَرَ حالَ الْكَاتِمينَ، وجَزاءَهُم الْمُتَرَتِّبَ عَلَى فِعْلِهِمْ، مِن اسْتِحْقَاقِ اللَّعْنِ مِنَ اللَّهِ سُبْحَانَهُ، ومِمَّن ذَكَرَ مِن عِبادِه، ثُمَّ إِنَّهُ سُبْحَانَهُ تَدارَكَ مَن تَابَ مِنْهُمْ، وأَصْلَحَ، وبَيَّنَ، بَعْدَ أَن كَانَ كَتَمَ، فَلَمَّا بَيَّنَ في هَذِهِ الآيَةِ أَمْرَ هَؤُلَاءِ، أَعْقَبَ في الْأُخْرَى بَعْدَ ذِكْرِ حَالِ الْمُتَمَادِينَ عَلَى مُرْتَكَبِهِم مِن الْكَتْم، ومَا زَادُوا إِلَى ذَلِكَ مِن الآثَام، فَجَاءَ الْجَزَاءُ بِزِيَادَةٍ مِن الْعِقَاب، مُوَازِنَةً لِزِيَادَةِ الْمُرْتَكَب، فَقَالَ ﷻ: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ مَا يَأۡكُلُونَ فِي بُطُونِهِمۡ إِلَّا ٱلنَّارَ وَلَا يُكَلِّمُهُمُ ٱللَّهُ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ وَلَا يُزَكِّيهِمۡ وَلَهُمۡ عَذَابٌ أَلِيمٌ ١٧٤﴾ [البقرة: 174].

وَلَم يُذْكَر لِهَؤُلَاءِ حَالُ تَوْبَة؛ إِن تَابُوا لِسُوءِ الْمُرْتَكَب، ولَيْسَ الْمُرَادُ أَنَّهُم لَا تَوْبَةَ لَهُمْ، ولَكِنَّ عَدَمَ ذِكْرِهَا أَوْقَعُ في الْإِغْلَاظ؛ لِمَا ذَكَرَ مِن سُوءِ مُرْتَكَبِهِمْ؛ لِيَجْرِيَ مَعَ قَوْلِه تَعَالَى: ﴿وَلَا

يُزَكِّيهِمْ﴾ [البقرة: 174]؛ فَإِنَّ التَّزْكِيَةَ تَطْهِيرٌ مِن الْإِثْمِ، فَلَمْ يَكُنْ لِيُلَائِمَ هُنَا ذِكْرَ التَّوْبَةِ، والْآيَةُ في سُورَةِ آلِ عِمْرَانَ وَرَدَتْ في إِثْمِ مَخْصُوصٍ غَيْرِ الْكَتْمِ، وقَد يَكُونُ مِن غَيْرِ الْكَاتِمِينَ، فَهُوَ يَقَعُ مِنْهُم ومِنْ غَيْرِهِمْ، فَانْفَرَدَ هَذَا الْإِثْمُ الشَّنِيعُ بِمَا تُوُعِّدُوا عَلَيْهِ مِن الْوَعِيدِ الشَّدِيدِ[1].

(1) الغرناطيّ، ملاك التّأويل: 1/59-61.

﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ تَابُواْ وَأَصۡلَحُواْ وَبَيَّنُواْ فَأُوْلَٰٓئِكَ أَتُوبُ عَلَيۡهِمۡ وَأَنَا ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ ١٦٠﴾ [البقرة: 160]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِمَا قَبْلَها:

رَبْـطُ عِـقـابِ الكاتِمينَ لِمَا أَنْزَلَ اللهُ، بِبَقاءِ بابِ التَّوْبَةِ مَفْتوحًا لَهُمْ

لَمّا بَيَّنَ تعالى عَظِيمَ الْوَعِيدِ في الَّذِينَ يَكْتُمُونَ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ، كَانَ يَجُوزُ أَن يُتَوهَّمَ أَنَّ الْوَعِيدَ يَلْحَقُهُم عَلَى كُلِّ حَالٍ، فَبَيَّنَ تَعَالَى أَنَّهُم إِذَا تَابُوا تَغَيَّرَ حُكْمُهُمْ، واسْتَحَقُّوا أَن يَتُوبَ اللَّهُ تَعالى عَلَيْهِمْ[1].

شَرْحُ المُفْرَدَاتِ:

كُـلّـمـا تـكـرّرت الـتّـوْبـة، تَـكـرّر القبول

1) ﴿تَابُواْ﴾، ﴿أَتُوبُ﴾، ﴿ٱلتَّوَّابُ﴾: مِنَ الجَذْرِ (توب)، وهو في الأصل يَدُلُّ عَلَى الرُّجُوعِ، يُقَالُ: تَابَ مِن ذَنْبِه، أَي: رَجَعَ عَنْهُ[2]، والتَّوْبُ: تَرْكُ الذَّنْبِ عَلَى أَجْمَلِ الْوُجُوه، وتَابَ اللَّهُ عَلَيْه، أَيْ: قَبِلَ تَوْبَتَهُ، ومِنْهُ: ﴿فَتَابَ عَلَيۡكُمۡ وَعَفَا عَنكُمۡۖ﴾ [البقرة: 187]، والتَّوَّابُ: الْعَبْدُ الْكَثِيرُ التَّوْبَة، وقد يُقَالُ ذَلِكَ لِلَّه تَعَالَى، لِكَثْرَة قَبُولِه تَوْبَة الْعِبَادِ، حالًا بَعْدَ حالٍ[3]، فالتَّوَّابُ هُوَ الَّذِي يَتُوبُ عَلَى عِبَادِه، فَيَقْبَلُ تَوْبَتَهُمْ، كُلَّمَا تَكَرَّرَتِ التَّوْبَةُ تَكَرَّرَ الْقَبُولُ[4].

الـصّـلاح ضـدّه الفسادُ

2) ﴿وَأَصۡلَحُواْ﴾: مِنَ الجَذْرِ (صلح)، وهو في الأَصْلِ يَدُلُّ عَلَى خِلَافِ الْفَسَادِ[5]، والصَّلَاحُ قُوبِل في القرآن تارةً بالفَسَادِ، وتَارَةً بالسَّيِّئَةِ؛ قَالَ تَعَالَى: ﴿خَلَطُواْ عَمَلٗا صَٰلِحٗا وَءَاخَرَ سَيِّئًا﴾ [التّوبة: 102]، ﴿وَلَا تُفۡسِدُواْ فِي ٱلۡأَرۡضِ بَعۡدَ إِصۡلَٰحِهَا﴾ [الأعراف: 56][6]، وأَصْلَحَ الشَّيْءَ:

(1) الرّازيّ، التّفسير الكبير: 4/142.
(2) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (توب).
(3) الرّاغب، المفردات: (توب).
(4) البيهقيّ، الأسماء والصّفات: 1/195.
(5) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (صلح).
(6) الرّاغب، المفردات: (صلح).

أَقَامَهُ بَعْدَ فَسَادٍ، قال تعالى: ﴿فَمَن تَابَ مِنۢ بَعۡدِ ظُلۡمِهِۦ وَأَصۡلَحَ فَإِنَّ ٱللَّهَ يَتُوبُ عَلَيۡهِۚ﴾ [المائدة: 39]، أَتَى بالصَّلاحِ، وهُوَ الخَيْرُ والصَّوابُ[1].

المَعْنَى الإِجْمَالِيُّ:

تُقْبَلُ التَّوْبَةُ مِنَ الخَطيئاتِ، إذا صَفَتِ النِّيّاتُ

يُخْبِرُ اللّٰه تَعالَى بَعْدَ ذِكرِ اللَّعْنَةِ لِلْكَاتِمينَ أَنَّهُ يَسْتَثْنِي الَّذِينَ رَجَعُوا مُسْتَغْفِرِينَ اللّٰه مِن خَطَايَاهُمْ، وأَصْلَحُوا مَا أَفْسَدُوهُ، وبَيَّنُوا مَا كَتَمُوهُ، فَأُولَئِكَ يقْبَلُ تَوْبَتَهُم ويجَازِيهم بالْمَغْفِرَةِ، وهو التَّوَّابُ عَلَى مَن تَابَ مِن عبادِه، الرَّحيمُ بهِمْ؛ إِذْ وفَّقَهُم لِلتَّوْبَةِ وقبلها مِنْهُمْ[2].

الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغِيُّ:

دلالَةُ الاِسْتِثْناءِ في قوله: ﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ تَابُواْ وَأَصۡلَحُواْ وَبَيَّنُواْ﴾:

اسْتِثْناءُ التّائِبينَ مِنَ اللَّعْنَةِ، دَليلُ الرَّحْمَةِ

قَوْلُهُ ﷻ: ﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ تَابُواْ﴾: اسْتِثْنَاءٌ مِن ﴿ٱلَّذِينَ يَكۡتُمُونَ﴾، أَي فَهُمْ لَا تَلْحَقُهُم اللَّعْنَةُ، وهُوَ اسْتِثْنَاءٌ حَقِيقِيٌّ مَنْصُوبٌ عَلَى تَمَامِ الْكَلَامِ مِن ﴿ٱلَّذِينَ يَكۡتُمُونَ﴾[3].

براعةُ اللَّفِّ والنَّشْرِ المُرتَّبِ:

في الْآيَةِ بديعُ اللَّفِّ والنَّشْرِ، وهُوَ مُتَعَلِّقٌ بِالْكَلَامِ الْوَارِدِ في الْآيَةِ السَّابِقَةِ: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ يَلۡعَنُهُمُ ٱللَّهُ وَيَلۡعَنُهُمُ ٱللَّٰعِنُونَ ١٥٩ إِلَّا ٱلَّذِينَ تَابُواْ وَأَصۡلَحُواْ وَبَيَّنُواْ﴾، فَالتَّوْبَةُ والإِصْلَاحُ رَاجِعَانِ لِقَوْلِهِ ﷻ: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ يَلۡعَنُهُمُ ٱللَّهُ﴾؛ لِأَنَّهُ يَعْلَمُ السِّرَّ وأَخْفَى، وقوله: ﴿وَبَيَّنُواْ﴾، رَاجِعٌ إِلى قوله: ﴿وَيَلۡعَنُهُمُ ٱللَّٰعِنُونَ ١٥٩﴾؛ لِأَنَّ النَّاسَ لَا يَعْلَمُونَ تَوْبَتَهُمْ، إِلَّا إِذَا بَيَّنُوا، وظَهَرَ عَلَى حَالِهِم ذَلِكَ[4].

أَثَرُ المُغَايَرَةِ في اِسْتِعمَالِ صِيَغِ الأَفْعَالِ:

دِقَّةُ التَّعْبيرِ في تَعْيينِ المُرادِ، وَنَفْيِ مَا سِواه

غايرتِ الآيةُ في التَّعبيرِ عن صِيَغِ الأفعالِ؛ فعَبَّرَ عَنِ التَّوْبَةِ

(1) جبل، المعجم الاشتقاقيّ المؤصّل: (صلح).
(2) نخبة من العلماء، التّفسير الميسّر: 1/24.
(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 2/71.
(4) ابن عرفة، تفسير ابن عرفة: 2/478.

والْإِصْلَاحِ والْبَيَانِ بِالْفِعْلِ الْمَاضِي، بَعْدَ أَن عَبَّرَ عَن الْكِتْمَانِ بِالْفِعْلِ الْمُضَارِعِ؛ لِأَنَّهُ أَرَادَ إِنجازَ تِلْكَ الْأَفْعَالِ؛ لِأَنَّهُ أَعْقَبَهَا بِالْجَزَاءِ، وهُوَ قَبُولُ التَّوْبَةِ عَنْهُمْ، ولَو عَبَّرَ عَن تِلْكَ الْأَفْعَالِ بِالْفِعْلِ الْمُضَارِعِ، الدَّالِّ عَلَى كَوْنِ الْحَدَثِ في طَوْرِ الْمُعَالَجَةِ والتَّجَدُّدِ، لَكَانَ الْجَزَاءُ مُسْتَحَقًّا، لِأَفْعَالٍ لَم تُنْجَزْ بَعْدُ.

الْإِيجَازُ بِالْحَذْفِ فِي قَوْلِهِ ﷻ: ﴿وَبَيَّنُواْ﴾:

مَنْ بَيَّنَ بَعْدَ كِتْمانٍ، وآمَنَ بَعْدَ كُفْرانٍ، بَرِئَتْ ذِمَّتُهُ

مُقْتَضَى التَّوْبَةِ أَن يُبَيِّنَ الكاتِمُونَ مَا كَتَمُوا، فَلَم يُذْكَر في الْآيَةِ أَيُّ شَيْءٍ بَيَّنُوا، فَيَكُونُ الْمُرَادُ الْعُمُومَ، فَيَكُونُ مَعْنَاهُ: بَيَّنُوا تَوْبَتَهُمْ، ومَا كَتَمُوه من أَمْرِ النَّبِيِّ ﷺ، وهَذَا يَعْنِي أَنَّ مَن تَابَ وبَيَّنَ ذَلِكَ، يَقْتَضِي في الْغَالِبِ أَنَّهُ قَد أَسْلَمَ، فَتَجِيءُ الْآيَةُ فِيمَن أَسْلَمَ بعدَ كَتْمٍ مِن الْيَهُودِ والنَّصَارَى[1].

دَلالَةُ الفاءِ عَلَى السَّبَبِيَّةِ فِي الآيَة:

الإيجازُ البَديعُ في الآيَةِ، أَكْسَبَها رَوْنَقًا وجَمالِيَّةً

دَخَلَتِ الْفَاءُ عَلَى اسْمِ الْإِشَارَةِ ﴿فَأُوْلَٰٓئِكَ﴾؛ لِلتَّنْبِيهِ عَلَى سَبَبِيَّةِ مَا قَبْلَه لِمَا بَعْدَه؛ لِأَنَّ التَّعْبِيرَ بِاسْمِ الْإِشَارَةِ لَا يُغْنِي عَنِ الْفَاءِ في كُلِّ مَوْضِعٍ؛ فَالْفَاءُ تُؤَكِّد مَا فُهِمَ من الْإِشْعَارِ بِالسَّبَبِيَّةِ الْمَفْهُومَةِ من اسْمِ الْإِشَارَةِ[2]، وفي الْفَاءِ مَعْنَى التَّعْقِيبِ؛ لِلدَّلَالَةِ عَلَى شَيْءٍ زَائِدٍ عَلَى مفادِ الاسْتِثْنَاءِ، وهُوَ أَنَّ تَوْبَتَهُم يَعْقُبُهَا رِضى اللَّه تَعَالَى عَنْهُمْ، فَجَاءَ في الْآيَةِ نَظْمٌ بَدِيعٌ تَقْدِيرُهُ: (إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا انْقَطَعَتْ عَنْهُمُ اللَّعْنَةُ فَأَتُوبُ عَلَيْهِمْ)، أَي: أَرْضَى، وزَادَ توسّطُ اسْمِ الْإِشَارَةِ الدّلَالَةَ عَلَى التَّعْلِيلِ، وهُوَ إِيجَازٌ بَدِيعٌ[3]، فَهُم لَيْسُوا خَارِجِينَ من اللَّعْنِ بَعْدَ تَوْبَتِهِم، وحَسْبُ، بَل إِنَّ اللَّه سَيَقْبَلُهُم ويَرْحَمُهُمْ، ورَحْمَتُهُ هُنَا رِضَى عَنْهُمْ.

---

(1) ابن عطيّة، المحرّر الوجيز: 1/231.

(2) القُونَوِيّ، حاشيةٌ على البيضاوِيّ: 4/387، ويقول النّحاة في اقتران الخبر بالفاء: إذا قصد الدّلالة على تضمين المبتدأ معنى الشّرط في اللّفظ، فيجب دخول الفاء فيه، وإذا لم يقصد فلا يجب دخولُه فيه، بل يجب عدمُه، فالفاء تأتي لبيان قصد السّببيّة، الرّضيّ، شرح كافية ابن الحاجب: 1/267.

(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 2/72.

إِيثَارُ اسْمِ الْإِشَارَةِ الدَّالِّ عَلَى الْبُعْدِ فِي قَوْلِهِ: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ﴾:

استِحقاقُ المنزلةِ الرَّفيعةِ بالتوبةِ الرَّفيعة

آثَرَ اسْتِعْمَالَ اسْمِ الْإِشَارَةِ الدَّالِّ عَلَى الْبُعْدِ، فَقَالَ: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ﴾، ولَم يَقُلْ: (هَؤُلَاءِ)؛ لِلْإِشْعَارِ بِبُعْدِ مَنْزِلَتِهِم في الصَّلَاحِ[1]، وهَذَا إِشْعَارٌ بِفَضِيلَةِ التَّوْبَةِ والرُّجُوعِ إِلَى الْحَقِّ، وإِصْلَاحِ الْفَسَادِ، فبعدَ أن كانوا في أبعدِ منازِلِ الطَّردِ، استحقُّوا أن يكونوا في أرفعِ منازلِ الرَّحمةِ، وهذا من العدْلِ في النَّظمِ النَّاشئِ عن عدالةِ المعنى.

الالْتِفاتُ في قوله: ﴿أَنزَلْنَا﴾، ﴿بَيَّنَّٰهُ﴾، ﴿يَلْعَنُهُمُ ٱللَّهُ﴾، ﴿أَتُوبُ﴾:

التَّفنُّنُ في الأساليبِ والألفاظِ يُغْني الدّلالَةَ، ويَرْقى بِالأُسْلوبِ

الِالْتِفَاتُ من نُونِ الْعَظَمَةِ في قَوْلِهِ ﷻ: ﴿أَنزَلْنَا﴾، و﴿بَيَّنَّٰهُ﴾ إِلَى الْغَيْبَةِ بِاسْتِعْمَالِ الِاسْمِ الظَّاهِرِ في قَوْلِهِ ﷻ: ﴿يَلْعَنُهُمُ ٱللَّهُ﴾، ثُمَّ الِالْتِفَاتُ من الْغَيْبَةِ إِلَى صِيغَةِ الْمُتَكَلِّمِ وحْدَهُ في قوله: ﴿أَتُوبُ﴾؛ لبيانِ حالِهم بعد قبولِ تَوْبَتِهم، وتشريفِ منْزِلَتِهم؛ فناسَبَ أن يكونَ الكلامُ صادرًا عنِ الـمُتكلِّم سبحانه، زيادةً في إكرامِهم وتوقيرِهم.

بلاغةُ الفَاصِلَةِ في قوله: ﴿وَأَنَا ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ﴾:

قيامُ الفَاصِلةِ بمنزلةِ الدّليلِ على الدَّعوى

جَاءَ قولُه تعالى: ﴿ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ﴾ مُعرَّفًا بِالْأَلِفِ واللَّامِ؛ لِإِفَادَةِ الْحَصْرِ، فَالتَّوْبَةُ والرَّحْمَةُ عَلَى وجهِ الْحَقِيقَةِ، إِنَّمَا هِيَ من اللَّهِ تَعَالَى، وهَذَا يُفِيدُ تَأْكِيدَ الْمَعْنَى، مَعَ مَا في صِيغَةِ الْمُبَالَغَةِ من التَّكْثِيرِ، وهو اعْتِرَاضٌ تَذْيِيلِيٌّ مُقَرِّرٌ لِمَا قَبْلَهُ، والْمَعْنَى: وإِنَّ عَادَتِي قَبُولُ تَوْبَةِ التَّائِبِينَ، وإِفَاضَةُ الرَّحْمَةِ مَعَ الْمَغْفِرَةِ؛ ولِهَذَا أَتُوبُ عَلَى التَّائِبِينَ عَنِ الْكِتْمَانِ، وسَائِرِ الطُّغْيَانِ، وهُوَ مُنَاسِبٌ في سِيَاقِ الْحَدِيثِ عَن تَوْبَةِ اللَّهِ تَعَالَى عَلَى عِبَادِهِ ورَحْمَتِهِ بِهِمْ، فَهَذِهِ الْجُمْلَةُ بِمَنْزِلَةِ الدَّلِيلِ عَلَى مَا قَبْلَهَا[2].

دَلَالَةُ صِيَغِ الْمُبَالَغَةِ في حَقِّ اللَّهِ تَعَالَى:

صِفاتُ اللهِ لا يجُوزُ فيها زِيادَةُ الفِعْلِ، بَل تَعَدُّدُ الـمَفْعُولاتِ، وكَثْرَةُ الْمُتَعَلَّقاتِ

صِيغَةُ الْمُبَالَغَةِ، إِذَا جَاءَت تَعْبِيرًا عَن صِفَاتِ اللَّهِ تَعَالَى؛ فَإِنَّ الْمُبَالَغَةَ فِيهَا لا يُرَادُ مِنْهَا تَكْثِيرُ هَذَا الْوَصْفِ، وإِثْبَاتُ الزِّيَادَةِ فِيهِ؛

(1) القُونَوِيّ، حاشيةٌ على البيضاوِيّ: 4/388.

(2) القُونَوِيّ، حاشيةٌ على البيضاوِيّ: 4/388.

فَالْمُبَالَغَةُ في حَقِّ اللّهِ تَعَالَى، لَا تَعْنِي زِيَادَةَ الْفِعْلِ، بل تَعَدُّدَ الْمَفْعُولَاتِ، وكَثْرَةَ الْمُتَعَلَّقَاتِ، فَاَللّهُ تَوَّابٌ لِكَثْرَةِ مَن يَتُوبُ إِلَيْهِ، مِن عبادِهِ، ولِكَثْرَةِ قَبُولِهِ تَوْبَتَهُمْ، واللّهُ قَدِيرٌ بِاعْتِبَارِ تَكْثِيرِ الْمُتَعَلَّقِ، ولَيْسَ تَكْثِيرَ الْوَصْفِ، واللّهُ عَلِيمٌ بِاعْتِبَارِ عُمُومِ الْعِلْمِ لِكُلِّ الْأَفْرَادِ، لَا بِاعْتِبَارِ الْمُبَالَغَةِ في الْوَصْفِ، إِذِ الْعِلْمُ لَا تَفَاوُتَ فِيهِ، ولَا يَصِحُّ ذَلِكَ مَعَهُ[1].

(1) الزّركشّي، البرهان: 2/507-508،أحمد مختار عمر، أسماء اللّه الحسنى دراسة في البنية والدّلالة، ص: 95-94.

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَمَاتُواْ وَهُمۡ كُفَّارٌ أُوْلَٰٓئِكَ عَلَيۡهِمۡ لَعۡنَةُ ٱللَّهِ وَٱلۡمَلَٰٓئِكَةِ وَٱلنَّاسِ أَجۡمَعِينَ ١٦١﴾ [البقرة: 161]

❁ مُناسَبَةُ الآيَةِ لِمَا قَبْلَها:

الرّبطُ بَيْنَ جَزاءِ التَّوْبَةِ، وسُوءِ مَصيرِ مَن ماتَ دُونَها

يَجُوزَ في الآيَةِ أَن تَكُونَ مِن تَمَامِ الْمَوْضُوعِ قَبْلَهَا، فَتَكُونُ الْمُنَاسَبَةُ: أنَّه لَمّا تَكَلَّمَ في الآيَةِ السَّابِقَة عَنِ اللَّعْنَةِ - الَّتِي تُصِيبُ مَن يُكَابِرُ ويُعَانِدُ، ويَكْفُرُ بآيَاتِ اللّه، ويَكْتُمُ الْبَيِّنَاتِ والْهُدَى، ثُمَّ اسْتَثْنَى مَنْ يَتُوبُ مِنْهُمْ، ويُصلِحُ، ويُبَيِّنُ، فَإِنَّ اللّه تعالى سَيَتُوبُ عَلَيْه - بَيَّنَ في هَذِهِ الآيَةِ أَنَّ مَن لَم يَتُب، ومَاتَ عَلَى كُفْرِه، فَإِنَّهُ لَا يُسْتَثْنَى مِن اللَّعْنَةِ ولَا تَلْحَقُهُ تَوْبَةٌ.

وَيَجُوزُ أَن تَكُونَ مُسْتَأْنَفَةً بِكَلَامٍ جَدِيدٍ، فَتَكُونُ الْمُنَاسَبَةُ: بَعْدَ أن انْتَهَتْ مَوْضُوعَاتُ أَهْلِ الْكِتَابِ في هَذَا الْمَوْضِعِ مِن الْقُرْآنِ، وقَد كَانَ فِيهِم كُفْرَانُ النِّعَمِ، والنِّفَاقُ وكَثْرَةُ الْعُدْوَانِ والْفَسَادِ في الْأَرْضِ، والعَبَثُ بِالْأَحْكَامِ، والاسْتِهْزَاءُ بآيَاتِ اللّه تَعَالَى، بَعْدَ ذَلِكَ أَخَذَ بِبيانِ أَقْوَالِ الْوَثَنِيِّينَ، وإِثْبَاتِ وحْدَانِيَّةِ اللّه تَعَالَى، وابْتَدَأَ الْقَوْلَ في بَيَانِ حَالِ الْكُفَّارِ مِن الْمُشْرِكِينَ وأَهْلِ الْكِتَابِ الَّذِينَ مَاتُوا عَلَى الْكُفْرِ[1].

❁ شَرْحُ المُفْرَدَاتِ:

الكفر جحود بالمنعم، وإنكار للنّعمة

1) ﴿كَفَرُواْ﴾: مِنَ الجَذْرِ (كفر)، والأَصْلُ فيه السّتْرُ والتّغْطِيَةُ[2]، تغطية تامّة كثيفة لا يظهر معها شيءٌ، ويُقَالُ لِلزَّارِعِ: كَافِرٌ؛ لأنّه يُغَطِّي الْحَبَّ بِتُرَابِ الْأَرْضِ، والْكُفْرُ: ضِدُّ الإِيمَانِ، سُمِّيَ لأنّه تَغْطِيَةُ الْحَقِّ، فالكافر باللّه غطّى في نفسه شواهدَ وجود اللّه، وعظَمَتِهِ الظّاهرةِ والباطنَة، أو تغطّى عنها، ومن ذلك كُفْرُ النِّعْمَة،

(1) أبو زهرة، زهرة التّفاسير: 1/483.
(2) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (كفر)؛ جبل، المعجم الاشتقاقيّ المؤصّل: (كفر).

كَفَرَ نعمةَ اللّهِ: جَحَدَها، أنكَرَها وغطَّاها، أو تَغَطَّى عنها كأنّها غيرُ مَوجودَةٍ، ﴿وَبِنِعْمَتِ ٱللَّهِ هُمْ يَكْفُرُونَ ۝٧٢﴾ [النّحل: 72].

الموتُ بابٌ وكلُّ النّاس داخلُهُ

2) ﴿وَمَاتُوا۟﴾: مِنَ الجَذْرِ (موت)، والأصلُ في الموت ذَهَابُ الْقُوَّةِ مِنَ الشَّيْءِ[1]، فالموت عبارةٌ عن زَوالِ القوَّة النّاميَةِ الموجودَةِ في الإنسانِ والحيواناتِ والنّباتِ، نحوُ قوله تعالى: ﴿يُحْىِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَآ﴾ [الروم: 50]، وقوله ﷻ: ﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ قُتِلُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ أَمْوَٰتًۢا ۚ بَلْ أَحْيَآءٌ﴾ [آل عمران: 169]، فَنَفيُ المَوْتِ عَن أَرْوَاحِهِمْ؛ تنبيهٌ عَلَى تَنَعُّمِهِمْ، وقَوْلُهُ ﷻ: ﴿كُلُّ نَفْسٍ ذَآئِقَةُ ٱلْمَوْتِ﴾ [آل عمران: 185] فَعِبَارَةٌ عَن زَوَالِ الْقُوَّةِ الْحَيَوَانِيَّة، وإِبَانَةِ الرُّوحِ عَنِ الْجَسَدِ[2].

الملائكة أجسامٌ نورانيّة يعبدون الله، ويفعلون ما يؤمرون

3) ﴿وَٱلْمَلَٰٓئِكَةِ﴾: مِنَ الجَذْرِ (ألك)، والأَلُوكُ: الرِّسَالَةُ وهِيَ المَأْلُكَةُ، سُمِّيَتْ أَلوكًا؛ لأنّه يُؤْلَكُ في الْفَمِ، مُشْتَقٌّ من قَوْلِ الْعَرَبِ: الْفَرَسُ يَأْلُكُ اللُّجُمَ[3]، ومَلَكٌ أَصْلُهُ: مَأْلَكٌ، والمَأْلَكُ: الرِّسالَةُ، والْمَلَائِكَةُ تَقَعُ عَلَى الْوَاحِدِ والْجَمْعِ: ﴿ٱللَّهُ يَصْطَفِى مِنَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ رُسُلًا﴾ [الحجّ: 75][4].

۞ المَعْنَى الإجْمَاليُّ:

مَـنْ مـاتَ عَلى كُفْرانِه، خَسِرَ الدُّنْيا والآخِرَةَ

يُخْبِرُ اللّه تَعَالَى أَنَّ الَّذِينَ جَحَدُوا الْإِيمَانَ وكَتَمُوا الْحَقَّ، واسْتَمَرُّوا عَلَى ذَلِكَ حَتَّى مَاتُوا، أُولَئِكَ عَلَيْهِم لَعْنَةُ اللّهِ، بِالطَّرْدِ من رَحْمَتِهِ، وعليهم دعاءُ الملائكةِ والناسِ كلِّهم بالطرد من رحمة اللّه والإبعاد منها، ولَا يَشْمَلُهُم الاسْتِثْنَاءُ الْوَارِدُ في الْآيَةِ السَّابِقَةِ[5].

۞ الإيضاحُ اللُّغويُّ والبلاغيُّ:

دَلالَةُ الاِسْتِئْنافِ على التَّهْدِيدِ:

قَولُه تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَمَاتُوا۟ وَهُمْ كُفَّارٌ﴾، اسْتِئنافٌ؛

(1) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (موت).
(2) الرّاغب، المفردات: (موت).
(3) ابن منظور، لسان العرب: (ألك).
(4) الرّاغب، المفردات: (ألك).
(5) نخبة من العلماء، التّفسير الميسّر: 1/24.

الاستئناف لا يُلغي التَّعلُّقَ بالسَّابقِ بل يرتبطُ فيه بنوعِ ارتباطٍ

لِتَحْقِيقِ بَقَاءِ اللَّعْنِ، عَلَى مَن لَم يُحَقِّقْ شُرُوطَ الاِسْتِثْنَاءِ الْوَارِدِ في الْآيَةِ السَّابِقَةِ؛ لِتَأْكِيدِ دَوَامِ اللَّعْنِ واسْتِمْرَارِهِ، كَمَا أَنَّ فِيهِ تَهْدِيدًا ووَعِيدًا لِلْكَافِرِينَ الَّذِينَ مَا زَالُوا عَلَى كُفْرِهِم وعِنَادِهِمْ، وفِيهِ حَثٌّ عَلَى التَّوْبَةِ والرُّجُوعِ لِلَّهِ تَعَالَى، قَالَ الْفَخْرُ الرَّازِيّ في مفاتيح الغيب: "إِنَّ ظَاهِرِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَمَاتُواْ وَهُمْ كُفَّارٌ﴾، عَامٌّ في حَقِّ كُلِّ مَن كَانَ كَذَلِكَ، فَلَا وجْهَ لِتَخْصِيصِهِ بِبَعْضِ مَن كَانَ كَذَلِكَ، وقِيلَ: يَجِبُ حَمْلُهُ عَلَى الَّذِينَ تَقَدَّمَ ذِكْرُهُمْ، وهُمُ الَّذِينَ يَكْتُمُونَ الْآيَاتِ، والْجَوَابُ عَنْهُ: أَنَّ هَذَا إِنَّمَا يَصِحُّ مَتَى كَانَ الَّذِينَ يَمُوتُونَ مِن غَيْرِ تَوْبَةٍ، لَا يَكُونُونَ دَاخِلِينَ تَحْتَ الْآيَةِ الْأُولَى، فَأَمَّا إِذَا دَخَلُوا تَحْتَ الآيةِ الْأُولَى، اسْتَغْنَى عَن ذِكْرِهِمْ، فَيَجِبُ حَمْلُ الْكَلَامِ عَلَى أَمْرٍ مُسْتَأْنَفٍ"(1)، وهذا لا يُلغي الارتباطَ بالسَّابقِ، بل ينشئُ حكمًا مستأنفًا يجمعُ بين تأكيدِ حالِ السَّابقين الذين لم يتوبوا، وتهديدِ غَيْرِهم من الكافرين الذين تَنْطَبِقُ عليهم الآيةُ.

دلَالَةُ الِاسْمِ المَوْصُولِ على العُمومِ:

الكُفْرُ مِلَّةٌ واحِدَةٌ

التَّعْرِيفُ بِالِاسْمِ الْمَوْصُولِ في قولِه تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾ يُرَادُ بِهِ تَعْرِيفُ الْجِنْسِ، فَهُوَ يَشْمَلُ كُلَّ مَن اتَّصَفَ بِذَلِكَ الْفِعْلِ(2)، فهوَ عامٌّ في حَقِّ كُلِّ مَن كانَ كَذَلِكَ، فَلا وجْهَ لِتَخْصِيصِه بِبَعْضِ مَن كانَ كَذَلِكَ(3)، فهو عامٌّ فيهم وفي غَيْرِهم مِمَّن كَفرَ، ودليلُ ذلك الإخبارُ عنهم بموتِهم على الكُفرِ، وهذا يعمُّ ولا يخصُّ.

أثرُ الفَصْلِ في بيانِ المعاني في قولِه: ﴿أُوْلَـٰٓئِكَ عَلَيۡهِمۡ لَعۡنَةُ ٱللَّهِ﴾:

الْجُمْلَةُ مُسْتَأْنَفَةٌ، وفِيهَا فَصْلٌ عَن سَابِقَتِهَا؛ لِوُقُوعِهَا مَوْقِعَ سُؤَالٍ نَشَأَ عَمَّا قَبْلَهُ، فلَمَّا قال: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَمَاتُواْ وَهُمْ كُفَّارٌ﴾، قِيلَ:

(1) الرّازيّ، التّفسير الكبير: 143-4/142.

(2) القُونَويّ، حاشيةٌ على البيضاويّ: 4/388.

(3) الرّازيّ، التّفسير الكبير: 143-4/142.

مَا جزَاؤُهُمْ؟ فَجاءَ الْجَوابُ: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ عَلَيۡهِمۡ لَعۡنَةُ ٱللَّهِ وَٱلۡمَلَٰٓئِكَةِ وَٱلنَّاسِ أَجۡمَعِينَ ١٦١﴾.

تغايرُ الصِّيَغِ في التَّعْبِيرِ عنِ اللَّعنِ:

تجدُّدُ اللَّعنِ بتجدُّدِ الكُفرِ، واستقرارُه بموْتِ الكافِرِ

عَبَّرَ النَّظمُ عَنِ اللَّعْنَةِ في الْآيَةِ السَّابِقَةِ بِالْجُمْلَةِ الْفِعْلِيَّةِ: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ يَلۡعَنُهُمُ ٱللَّهُ وَيَلۡعَنُهُمُ ٱللَّٰعِنُونَ ١٥٩﴾ [البَقَرَة: 159]؛ لِأَنَّ الْمُرَادَ حُدُوثُهُ وتَجَدُّدُهُ؛ لِتَحقُّقِ عِلَّتِهِ واسْتِمْرَارِهَا وهِيَ كَتْمُ الْحَقِّ، بَيْنَما عَبَّرَ عنْها هُنَا بِالْجُمْلَةِ الاسْمِيَّةِ: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ عَلَيۡهِمۡ لَعۡنَةُ ٱللَّهِ﴾؛ لِلتَّنْبِيهِ عَلَى اسْتِقْرَارِ اللَّعْنِ عَلَيْهِم بَعْدَ مَوْتِهم على الكُفْرِ؛ فأتى في كلِّ آيةٍ بما يُناسِبُها من الصِّيغة.

أثرُ التَّقْدِيمِ والتَّأْخِيرِ في إبرازِ العنايةِ بالمعاني:

قَدَّمَ الْخَبَرَ، وهُوَ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿عَلَيۡهِمۡ﴾، وأخَّرَ الْمُبْتَدَأ، وهُوَ قَوْلُهُ عَجَلَّ: ﴿لَعۡنَةُ ٱللَّهِ﴾؛ للاهتمام ببيانِ كبيرِ أثرِ اللَّعْنَةِ عَلَيْهِم؛ فَإِنَّ اللَّعْنَةَ لَا تَخْتَصُّ بِهِمْ، فَهِيَ تَشْمَلُ غَيْرَ الْكَاتِمينَ والْكَافِرِينَ.

ذِكْرُ الْعَامِّ واحتِمالُ إرادَتِه أو إِرَادَةِ الْخَاصِّ:

مَنِ اسْتَحقَّ اللّعْنَةَ بظُلْمِه، تَجَرَّدَ النَّاسُ جَمِيعًا لِلَعْنِهِ

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَٱلنَّاسِ﴾، تَدُلُّ عَلَى النَّاسِ جَميعًا، وتَأْكِيدُهَا بـ ﴿أَجۡمَعِينَ ١٦١﴾ يَزِيد ذَلِكَ الْمَعْنَى قُوَّةً، ولَكِن مِنَ الْمَعْلُومِ بِالضَّرُورَةِ، أَنَّ الْكَافِرِينَ لَا يَلْعَنُونَ مَن مَاتَ مِنْهُمْ، وهُم دَاخِلُونَ في عُمُومِ النَّاسِ، فَلِمَاذا اسْتَعْمَلَ ذَلكَ؟ الْجَوابُ عَنْهُ أَنَّ الْمُرَادَ بِالنَّاسِ الْمُؤْمِنِينَ خَاصَّةً؛ لِأَنَّهُ إِمَّا لَم يَعْتَدَّ بِسِوَاهُمْ، أَو مُبَالَغَةً في الْحُكْمِ، أَو أَن يُحمَلَ وُقُوعُ اللَّعْنِ عَلَى اسْتِحْقَاقِ اللَّعْنِ، وحِينئِذٍ يَعُمُّ ذَلِكَ[1]، قال الزّمخشريّ: "فَإِن قُلْتَ: مَا مَعْنَى قوله: ﴿وَٱلنَّاسِ أَجۡمَعِينَ﴾، وفِي النَّاسِ الْمُسْلِمُ والْكَافِرُ؟ قُلْتُ: أَرَادَ بِالنَّاسِ مَن يُعْتَدُّ بِلَعْنِه، وهُم الْمُؤْمِنُونَ"[2]، وللمفسِّرينَ فيها تَوْجِيهاتٌ، قال الواحِديُّ "إِنْ قِيلَ: كَيْفَ يَلْعَنُهُ النَّاسُ أَجْمَعُونَ،

(1) الرّازيّ، التّفسير الكبير: 4/143.

(2) الزّمخشريّ، الكشّاف: 1/210.

وأَهْلُ دِينِهِ لَا يَلْعَنُونَهُ؟ قِيلَ: يَلْعَنُونَهُ في الآخِرَةِ؛ لِقوله: ﴿ثُمَّ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ يَكْفُرُ بَعْضُكُم بِبَعْضٍ وَيَلْعَنُ بَعْضُكُم بَعْضًا﴾ [العنكبوت: 25][1]، ومنها: "إِنَّمَا جَاءَ لَفْظُ ﴿وَٱلنَّاسِ أَجْمَعِينَ﴾ بِلَفْظ العُمُوم، وقَد عُلِمَ أَنَّ أَهْلَ دِينِهم لَا يَلْعَنُونَهُمْ؛ لِأَنَّهُم - وإن كَانُوا لَا يَقْصِدُونَ باللَّعْنَة أَهْلَ دِينِهِمْ - لَا بُدَّ لَهُم أَن يَقُولُوا: "لَعَنَ اللَّهُ الظَّالِمَ" أَو "الظَّالِمِينَ"، فَيَدْخُلُ في ذَلِك كُلُّ كَافِرٍ كَائِنًا مَن كَانَ[2].

(1) الواحديّ، البسيط: 448-3/447.

(2) مكّيّ القيسّي، الهداية إلى بلوغ النّهاية: 1/533.

﴿خَٰلِدِينَ فِيهَا لَا يُخَفَّفُ عَنۡهُمُ ٱلۡعَذَابُ وَلَا هُمۡ يُنظَرُونَ ١٦٢﴾

[البقرة: 162]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِمَا قَبْلَها:

الـرَّبْـطُ بَـيْنَ اسْـتِحـقـاقِ الـلَّـعْـنَـةِ بالكُفْرانِ، وبَيْنَ الخُلودِ أبَدًا في النّيرانِ

لَمَّا أَخْبَرَ سُبحانَهُ وتعالى في الآيَةِ السَّابِقَةِ أَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا، ومَاتُوا عَلَى كُفْرِهِم، ولَم يَتُوبُوا، وأَشْرَكُوا حَتَّى مَمَاتِهِمْ، وبَيَّنَ اسْتِحْقَاقَهُمُ اللَّعْنَةَ مِن اللَّهِ والمَلَائِكَةِ والنَّاسِ؛ أَخْبَرَ في هَذِهِ الآيَةِ عَن مُدَّةِ بَقائِهم في تِلْكَ اللَّعْنَةِ، أَو لَازِمِهَا، وهِيَ النَّارُ، فَنَاسَبَ أَن يُبَيِّنَ خُلُودَهم فيها بَعْدَ أَن اسْتَحقُّوها.

شَرْحُ المُفْرَدَاتِ:

الأَصْـلُ في (الخلود) الملازمة على حالة ثابتة، مِـنْ غير طروء التّغيير

1) ﴿خَٰلِدِينَ فِيهَا﴾: مِنَ الجَذْرِ (خلد)، وهو في الأَصْلِ يَدُلُّ عَلَى الثَّبَاتِ والمُلَازَمَة، رَجُلٌ مُخْلَدٌ ومُخْلِدٌ، إِذَا أَبْطَأَ عَنْهُ المَشِيبُ[1]، ﴿۞وَيَطُوفُ عَلَيۡهِمۡ وِلۡدَٰنٞ مُّخَلَّدُونَ﴾ [الإنسان: 19]، مِنَ الخُلْدِ، وهُوَ البَقَاءُ، أي: لَا يَمُوتُونَ[2]، والخُلُودُ في الجنّة: بَقَاءُ الأَشْيَاءِ عَلَى الحَالَةِ الَّتِي هي عَلَيْهَا مِن غَيْرِ اعْتِرَاضِ الفَسَادِ، قَالَ تَعَالَى: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ أَصۡحَٰبُ ٱلۡجَنَّةِۖ هُمۡ فِيهَا خَٰلِدُونَ ٨٢﴾ [البقرة: 82]، ﴿أُوْلَٰٓئِكَ أَصۡحَٰبُ ٱلنَّارِۖ هُمۡ فِيهَا خَٰلِدُونَ ٣٩﴾ [البقرة: 39][3].

ومعنى الآية ﴿خَٰلِدِينَ فِيهَا﴾: دائمين في اللَّعْنَةِ والنار.

عذابُ النّار ألمٌ لا يُخفّف، وبلاءٌ لا ينقطع

2) ﴿لَا يُخَفَّفُ﴾: مِنَ الجَذْرِ (خفف)، وهو في الأَصْلِ شَيْءٌ يُخَالِفُ الثِّقَلَ والرَّزَانَةَ[4]، خَفَّ القومُ: قَلُّوا، وأَخَفَّ الرّجلُ: إِذَا كَانَ

(1) ابن فارس، مقاييس اللُّغة: (خلد)؛ الرَّاغب، المفردات: (خلد).
(2) ابن فارس، مقاييس اللُّغة: (خلد).
(3) الرَّاغب، المفردات: (خلد).
(4) ابن فارس، مقاييس اللُّغة: (خف).

قَليلَ الثِّقَلِ في سفَره أَو حَضَره، والتَّخْفِيفُ: ضدُّ التَّثْقِيلِ[1]، قال ﷻ: ﴿ٱلۡـَٔـٰنَ خَفَّفَ ٱللَّهُ عَنكُمۡ﴾ [الأنفال: 66]، وكلُّ ما في القرآن من الخفَّة فهو ضِدّ الثِّقَل[2].

وفي الآية يَعْني لا يَنْقُصُ عَذابُهُمْ.

3) ﴿ٱلۡعَذَابُ﴾: مِنَ الجَذْرِ (عذب)، وأصلُه من الضَّرْب بِعَذَبَة السَّوْط، وعَذَبَةُ السّوطِ واللّسانِ والشّجَرِ: أطْرافُها، والعَذَابُ: هو الإيجاعُ الشّديدُ، وقد عَذَّبَهُ تَعْذيباً: أَكْثَرَ حبْسَه في العَذَابِ[3]، وهُوَ النَّكَالُ والْعُقُوبَةُ، فَمَعْنَاهُ إِهْلَاكٌ وإِفْنَاءٌ لِلْقُوَّةِ والْغِلَظ، والْحَيَوِيَّة الْمُنْبَثَّةِ في الْبَدَنِ، أَيِ: تَجْرِيدٌ مِنْهَا بِإِيقاعِ الْآلَامِ الْمُؤَدِّيَةِ إِلَى ذَلِكَ، كَالضَّرْبِ، والجَلْدِ، والكيِّ بالنَّار، ونَحْوِها[4].

العذابُ نكالٌ وعقوبةٌ، يعجزُ البطلُ الجلْدُ عن تحمُّلها

4) ﴿يُنظَرُونَ﴾: مِنَ الجَذْرِ (نظر)، وهو في الأَصْلَ تَأَمُّلُ الشَّيْءِ ومُعَايَنَتُهُ، نَظَرْتُ إِلَى الشَّيْءِ أَنْظُرُ إِلَيْه، إِذَا عَايَنْتُهُ، ونَظَرْتُهُ: انْتَظَرْتُهُ، كَأَنَّه يَنْظُرُ إِلَى الْوَقْتِ الَّذِي يَأْتِي فِيه[5]، والنَّظَرُ: الانْتِظارُ، يقال: نَظَرْتُهُ وأَنْظَرْتُهُ، أي: أَخَّرْتُهُ، قال تعالى: ﴿فَمَا بَكَتۡ عَلَيۡهِمُ ٱلسَّمَآءُ وَٱلۡأَرۡضُ وَمَا كَانُواْ مُنظَرِينَ ٢٩﴾ [الدّخان: 29]، فنَفَى الإِنْظارَ عَنْهم إشارةً إلى ما نبَّهَ عليه بقَوْلِه ﷻ: ﴿فَإِذَا جَآءَ أَجَلُهُمۡ لَا يَسۡتَأۡخِرُونَ سَاعَةٗ وَلَا يَسۡتَقۡدِمُونَ ٣٤﴾ [الأعراف: 34][6].

مِن بوغت باخترام الأجل، لم يكن في إنظاره ساعةٍ من أمل

ومعنى الآية ﴿لَا يُنظَرُونَ﴾: لا يُمْهَلُون لكي يَعْتَذِرُوا.

المَعْنَى الإِجْمَاليُّ:

إِنَّ الَّذِينَ جَحَدُوا نُبُوَّةَ مُحَمَّدٍ ﷺ وَكَذَّبُوه ومَاتُوا عَلَى جُحُودِهُم

مَن ماتَ مِن عُتاةِ الكَفَرَة، لَمْ تَنْفَعْهُ يَوْمَ يُبْعَثُ مَعْذِرَة

(1) ابن منظور، لسان العرب: (خفف).
(2) جبل، المعجم الاشتقاقيّ المؤصّل: (خفف).
(3) الرّاغب، المفردات: (عذب).
(4) جبل، المعجم الاشتقاقيّ المؤصّل: (عذب).
(5) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (نظر)؛ الرّاغب، المفردات: (نظر).
(6) الرّاغب، المفردات: (نظر).

وتَكْذِيبِهِم له، سيبقَوْنَ دَائِمِينَ في اللَّعْنَةِ والنَّارِ، لَا يُخَفَّفُ عَنْهُم الْعَذَابُ، ومصيرُهم دَوَامُ العذاب عليهم أبدًا من غير توقيت، ولَا هُم يُمْهَلُونَ بِمَعْذِرَةٍ يَعْتَذِرُونَ بِهَا[1].

الإيضاحُ اللُّغويُّ والبلاغيُّ:

وجْهُ النَّصْبِ في قولِه ﴿خَٰلِدِينَ﴾:

مَـنِ اسْـتَـحَـقَّ اللّعْنَةَ العامَّةَ بِـكُـفْرانِه، كان خُلودُهُ في النّارِ غِبَّ أوانِه

قوله: ﴿خَٰلِدِينَ﴾: مَنْصُوبٌ عَلَى أَنَّهُ حَالٌ مِن الضَّمِيرِ في ﴿عَلَيۡهِمۡ﴾ في قَوْلِهِ ﷻ: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ عَلَيۡهِمۡ لَعۡنَةُ ٱللَّهِ وَٱلۡمَلَٰٓئِكَةِ وَٱلنَّاسِ أَجۡمَعِينَ ١٦١﴾، وانْتَصَبَ بِمَعْنَى الاسْتِقْرَارِ الْمُقَدَّرِ في ﴿عَلَيۡهِمۡ﴾، "وَالْعَامِلُ في الْخَالِدِينَ: الظَّرْفُ من قَوْلِهِ ﴿عَلَيۡهِمۡ﴾؛ لِأَنَّ فيه مَعْنَى الاسْتِقْرَارِ، وهُوَ حَالٌ من الْهَاءِ والْمِيمِ في ﴿عَلَيۡهِمۡ﴾"[2].

تنوُّعُ الاحتمالِ في مَرْجِعِ الضَّمير:

اخْتِلافُ مَرْجِعِ الـضَّـمـيرِ لا يلزم عنه تبايُنُ المعاني

يُحتمَلُ رجوعُ الضَّميرِ في قَوْلِهِ ﷻ: ﴿فِيهَا﴾ عَلَى قَوْلِهِ في الْآيَةِ السَّابِقَةِ: ﴿لَعۡنَةُ ٱللَّهِ﴾، فيَكُونُ الْمَعْنَى: خَالِدِينَ في اللَّعْنَةِ، "وقِيلَ: عَلَى النَّارِ، وإن كَانَ لَم يَجْرِ لَهَا ذِكْرٌ، لِثُبُوتِهَا في الْمَعْنَى"[3]، و"تَفْخِيمًا لِشَأْنِهَا وتَهْوِيلًا"[4]، "أَو اكْتِفَاءً بِدَلَالَةِ اللَّعْنِ عَلَيْهَا"[5]، وعلى ترجيح عَوْدَةِ الضَّميرِ على اللعنة يجبُ تقديرُ النَّارِ، لدلالة اللّحاقِ عَلَيْها، وسَوَاءٌ كَانَ المَرْجِعُ النَّارَ أَم اللَّعْنَةَ، فَالْمَعْنَى الْمُتَحَصِّلُ واحِدٌ فـ "خُلُودُهُم فِيهَا خُلُودٌ في العَذَابِ"[6].

بلاغةُ دُخُولِ لا النَّافيةِ على الفِعْلِ المُضَارِعِ:

نـفـيُ تـجـدُّدِ الـتَّـخـفـيـفِ إثباتٌ لاستمرار العذابِ

جاءَ النَّفْيُ بِلَا، دُونَ لَنْ؛ لِأَنَّهُ أَرَادَ الْحَالَ، فَالنَّفْيُ بِـ (لن) يَصْرِفُ الزَّمَانَ لِلْمُسْتَقْبَلِ؛ لِأَنَّهَا نَصٌّ في نَفْيِ الْمُسْتَقْبَلِ، وفي النَّفيِ بِـ (لَا) مع

(1) ابن جرير، جامع البيان: 3/261، ونخبة من العلماء، التّفسير الميسّر: 1/24.
(2) الواحديّ، البسيط: 3/448.
(3) ابن عطيّة، المحرّر الوجيز: 1/232.
(4) الزّمخشريّ، الكشّاف: 1/210.
(5) البيضاويّ، أنوار التّنزيل: 1/116.
(6) الزّجّاج، معاني القرآن: 1/236.

الفعْلِ المضارِعِ إِشْعَارٌ بِأَنَّ الانْتِفاءَ مُتجدِّدٌ، ولـمَّا كان عَدَمُ التَّخفيفِ مُتجدِّدًا، أفادَ بالضَّرورةِ تجدُّدَ العذابِ، فنفيُ تَجَدُّدِ التَّخفيفِ إثباتٌ لاستمرَارِ العذابِ، وهذا في غايةِ البراعَةِ في التَّرهيبِ، إذ إنَّ التَّخفيفَ مَطْمَعُهم، وبنفيه فلا يبقى في الوِجدانِ أمَلٌ في الاستراحة، ومثلُه قَوْلُه ﷻ: ﴿وَلَا هُمۡ يُنظَرُونَ﴾، فهو نصٌّ في نفيِ تجدُّدِ الإمْهالِ، ومجموعُ الجُملَتَيْنِ يُصَوِّرُ حالَ القَوْمِ في عذابِ النَّارِ.

تَرَابُطُ جُمَلِ الْوَصْلِ في بيانِ مَقْصُودِ المعنى:

ما بَعْدَ ذَلِكَ التَّشْنِيعِ المُخيفِ، غَيْرُ الهَلاكِ المُزَلْزِلِ العَنيفِ

جَاءَ الْوَصْلُ بَيْنَ الْجُمْلَتَيْنِ بِحَرْفِ الْعَطْفِ؛ لِاتِّحَادِهِمَا في الْخَبَرِيَّةِ، فَأَرَادَ الْإِخْبَارَ بِانْتِفَاءِ مَعْنَيَيْنِ عَنِ الْخُلُودِ، وهُمَا التَّخْفِيفُ والتَّأْخِيرُ، فَالْخُلُودُ واسْتِقْرَارُهُم في النَّارِ، رُبَّمَا يُظَنُّ مِنْهُ أَنَّهُم بِطُولِ مُكْثِهِمْ، سَيُخَفَّفُ عَنْهُم الْعَذَابُ، أو رُبَّمَا سَيُمْهَلُونَ، ويُؤَخَّرُونَ عَنْهَا، فَجَاءَ النَّفْيُ لِتِلْكَ الظُّنُونِ بِخَبَرَيْنِ مَنْفِيَّيْنِ، لِتَثْبِيتِ الْحُكْمِ، ونَقْضِ ذَلِكَ الْوَهْمِ والاحْتِمَالِ، "ثُمَّ أَعْلَمَ تَعَالَى بِرَفْعِ وُجُوهِ الرِّفْقِ عَنْهُمْ؛ لِأَنَّ الْعَذَابَ إِذَا لَم يُخَفَّفْ، ولَم يُؤَخَّر فَهُوَ النِّهَايَةُ"[1].

إِيثَارُ الْفِعْلِ الْمَبْنِيِّ لِلْمَفعُولِ لتحقيقِ المهانةِ المعنويَّةِ:

الْفِعْلُ في كِلتا الْعِبَارَتَيْنِ مَبْنِيٌّ لِلْمَفْعُولِ، فَلَم يُذْكَر الْفَاعِلُ لِلْفِعْلَيْنِ، وَهُوَ اللَّهُ جَلَّ شَأْنُهُ؛ لِتَحْقِيقِ الْمَهَانَةِ، وعَدَمِ الِالْتِفَاتِ إِلَيْهِمْ، كَمَا في قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿قَالَ ٱخۡسَـُٔواْ فِيهَا وَلَا تُكَلِّمُونِ ١٠٨﴾ [المؤمنون: 108]، فَيَكُونُ آخِرُ عَهْدِهِم بِكَلَامِ اللَّهِ تَعَالَى إِهْمَالًا لَهُم وتَرْكَ الِالْتِفَاتِ إِلَيْهِمْ، وفيه إهانَةٌ مَعْنَوِيَّةٌ، في مضامينِ الإخبارِ بعذابِهم المادّيِّ.

إِيثَارُ التَّعْبِيرِ بِالاسْمِيَّةِ في قوله: ﴿وَلَا هُمۡ يُنظَرُونَ﴾:

الحُكْمُ بالتَّأبيدِ عَلى أَهْلِ النِّيران، لا يُؤَثِّرُ فيه طولُ الزَّمان

الْجُمْلَةُ الاسْمِيَّةُ الَّتِي خَبَرُهَا جُمْلَةٌ فِعْلِيَّةٌ، مِثْلُ الْجُمْلَةِ الْفِعْلِيَّةِ في عَدَمِ إِفَادَةِ الدَّوَامِ والثُّبُوتِ، فَإِيثَارُ الاسْمِيَّةِ يُفِيدُ تَقْوِيَةَ الْحُكْمِ[2]،

(1) ابن عطيّة، المحرّر الوجيز: 1/232.

(2) القُونَوِيّ، حاشيةٌ على البيضاوِيّ: 4/392.

والْجُمْلَةُ الاسْمِيَّةُ الَّتِي يَكُونُ الْمُسْنَدُ فِيهَا فِعْلًا، تَكْتَسِبُ صِفَتَيْنِ: الْقُوَّةَ في الْحُكْمِ، والاسْتِمْرَارَ والتَّجَدُّدَ، فَيَكُونُ نَفْيُ الْإِنْظَارِ مِثْلَ نَفْي التَّخْفِيف، لَكِن مَعَ قُوَّةٍ اكْتَسَبَهَا من خِلَالِ الْجُمْلَةِ الاسْمِيَّة، فَالْمُرَادُ هُوَ نَفْيُ التَّأَثُّرِ بالزَّمَنِ، فَالْحُكْمُ عَلَيْهِم لَا يَتَغَيَّرُ، ولَا يَتَأَثَّرُ بِعَامِلِ الزَّمَنِ؛ لِأَنَّهُ حُكْمٌ ثَابِتٌ مُسْتَقِرٌّ، لا يَتَبَدَّلُ مَهْما مَرَّ عَلَيْهِ الزَّمَانُ.

الفُرُوقُ المُعْجَمِيَّةُ:

الإِنْظار والتَّأْخير:

(يَجوزُ أَنْ تُنْظَرَ اللّيالي *** والخُلْدُ في الدّهر لا يجُوزُ)

جاء قوله: ﴿لَا يَسْتَأْخِرُونَ﴾ في القرآن مع الأجَل المُحدَّد: قال ﷻ: ﴿وَلِكُلِّ أُمَّةٍ أَجَلٌ فَإِذَا جَآءَ أَجَلُهُمْ لَا يَسْتَأْخِرُونَ سَاعَةً وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ ۝٣٤﴾ [الأعراف: 34]، ومثله في: [يونس: 49]، و[النّحل: 61]، و[المؤمنون: 43].

وجاءَ الإِنْظارُ مَعَ ما فيه مِنْ سُوءِ المُنْقَلَبِ، كالعَذابِ، واللَّعْنَة، والفَتحِ، والفتحُ سُوءُ مُنقلَب في حقِّ المُنْهَزِم، وكذا يَوْمُ القيامَةِ في حَقِّ مُنْكِرِها، في قوله ﷻ: ﴿خَٰلِدِينَ فِيهَا لَا يُخَفَّفُ عَنْهُمُ ٱلْعَذَابُ وَلَا هُمْ يُنظَرُونَ﴾ [البقرة: 162]، و[آل عمران: 87، 88]، ومثله في: [النّحل: 85]، و[الأنبياء: 40]، و[السّجدة: 29].

فالتّأخيرُ هُو تَغييرُ التَّوقيتِ المَوْضوعِ مُسبقًا، فهُو عامٌّ في الوَقْت، أمّا الإِنْظارُ ففيه تَأخيرٌ مع عُذْرٍ، ولا عَلاقَةَ له بِوَقْتٍ موضوعٍ مُحَدَّدٍ، كقوله ﷻ: ﴿وَإِن كَانَ ذُو عُسْرَةٍ فَنَظِرَةٌ إِلَىٰ مَيْسَرَةٍ﴾ [البقرة: 280]، فلا تَوقيتَ مُحَدَّدًا لِبُلوغ المَيْسَرَة، فاللّعْنَةُ والعذابُ وغيرُهما، هيَ أَحْداثٌ لَيْسَت مُؤَقَّتَةً، كتَوْقيت الأجَلِ، فالإنظارُ تَأْخيرٌ مَخْصوصٌ، وهكذا اسْتَعْمَلَهُ القُرآنُ.

﴿وَإِلَٰهُكُمۡ إِلَٰهٞ وَٰحِدٞۖ لَّآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلرَّحۡمَٰنُ ٱلرَّحِيمُ ١٦٣﴾

[البقرة: 163]

❁ مُناسَبَةُ الآيَةِ لِمَا قَبْلَها:

الرَّبْطُ بَيْنَ التَّحْذيرِ مِنَ الكِتْمانِ، والإِقْرارِ بِالتَّوْحيدِ، مُرْتَكَزٌ لِلإيمانِ

لَمَّا حَذَّر تَعالَى من كِتْمانِ الْحَقِّ، بَيَّنَ أَنَّ أَوَّلَ مَا يَجِبُ إِظْهَارُهُ، ولَا يَجُوزُ كِتْمَانُهُ، أَمْرُ التَّوْحِيدِ[1]؛ فَمَجِيءُ الْإِخْبَارِ بِالتَّوْحِيدِ بَعْدَ الْحَدِيثِ عَن كَتْمِ الْبَيِّنَاتِ والْهُدَى؛ إِشَارَةٌ إِلَى أَنَّ التَّوْحِيدَ هُوَ أَوَّلُ مَا يَجِبُ بَيَانُهُ ويَحْرُمُ كِتْمَانُهُ[2].

❁ شَرْحُ المُفْرَدَاتِ:

واحِدِيَّةُ اللهِ الصَّمَدِ عَقيدَةٌ ثابِتَةٌ لا تَتَحَوَّلُ ولا تَتَبَدَّلُ

1) ﴿وَٰحِدٞۖ﴾: مِنَ الجَذْرِ (وحد)، وهو في الأَصْلِ يَدُلُّ عَلَى الانْفِرَاد، مِن ذَلِكَ الْوَحْدَة، وهُوَ واحِدُ قَبِيلَتِه، إِذَا لَم يَكُن فِيهِم مِثْلُهُ، ونَسِيجُ وحْدِه، أي لا يُنْسَجُ غَيْرُهُ لِنَفَاسَتِه، والْوَاحِدُ: الْمُنْفَرِدُ[3]، وهو الشّيءِ الّذي لا جُزْءَ له البَتَّة، وإِذَا وُصِفَ اللَّهُ تَعَالَى بِالْوَاحِد، فَمَعْنَاهُ: هُوَ الَّذِي لَا يَصِحُّ عَلَيْهِ التّجزُّؤُ، ولا التّكثُّر[4]، إِلَهٌ واحِدٌ، ورَبٌّ واحِدٌ، لَيْسَ لَهُ في إِلَاهِيَّتِهِ ورُبُوبِيَّتِهِ شَرِيكٌ؛ لِأَنَّ الْمُشْرِكِينَ أَشْرَكُوا مَعَهُ آلِهَةً فَكَذَّبَهُم اللَّه ﷻ، فَقَالَ: ﴿وَإِلَٰهُكُمۡ إِلَٰهٞ وَٰحِدٞۖ﴾[5].

❁ المَعْنَى الإِجْمَالِيُّ:

إِخْبارُ النّاسِ كافَّةً، بِأَنَّ اللهَ مُتَفَرِّدٌ بِأُلوهِيَتِهِ، وأَنَّهُ رَحْمَنٌ رَحيمٌ

رُوِيَ عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ: قَالَت كُفَّارُ قُرَيْش: يَا مُحَمَّدُ، صِفْ لَنَا رَبَّك، فَأَنْزَلَ اللَّه تَعَالَى هَذِهِ الآيَةَ، وسُورَةَ الْإِخْلَاص، وكَانَ لِلْمُشْرِكِينَ ثَلَاثُمِائَةٍ وسِتُّونَ صَنَمًا يَعْبُدُونَهَا من دُونِ اللَّه، فَبَيَّنَ اللَّه تَعَالَى أَنَّهُ إِلَهٌ

(1) القرطبيّ، الجامع لأحكام القرآن: 2/190.
(2) الشّوكانّي، فتح القدير: 1/187.
(3) ابن فارس، مقاييس اللُّغة: (وحد).
(4) الرَّاغب، المفردات: (وحد).
(5) الواحديّ، البسيط: 3/449-450.

واحِدٌ، فَأَنْزَلَ هَذِهِ الآيَةَ[1]، وفي هذه الآيَةِ يُخْبِر اللّه ﷻ جَميعَ النَّاسِ، أَنَّهُ سُبْحَانَهُ وتَعَالَى واحِدٌ في ذَاتِهِ، لَا قَسِيمَ لَهُ، ووَاحِدٌ في صِفَاتِه لَا شَبِيهَ لَهُ، ووَاحِدٌ في أَفْعَالِه لَا شَرِيكَ لَهُ، يُخْبِرُهُم عَنْ تَفَرُّدِهِ بالإِلَهِيَّةِ، وأَنَّهُ لَا شَرِيكَ لَهُ ولَا عَدِيلَ، لا معبود بحق إلا هو، الرحمنُ المتصفُ بالرحمة في ذاته وأفعاله لجميع الخلق، الرحيمُ بالمؤمنين[2].

الإيضاحُ اللُّغويُّ والبلاغيُّ:

دَلَالَةُ حَرْفِ الوَاوِ بَيْنَ الْعَطْفِ والاسْتِئْنَافِ:

قوَّةُ الاستئنافِ في كونِ الواوِ قَفلَةً لما سَبَقَ وتوطِئةً لما لَحِق

الواوُ في قولِه: ﴿وَإِلَٰهُكُمۡ إِلَٰهٞ وَٰحِدٞۖ﴾ إمَّا أَنْ نحملَها على أن تكونَ عاطفةً، عطفَتِ الآيةَ عَلَى الْجُمْلَةِ الْوَارِدَةِ في الآيَةِ السَّابِقَة: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَمَاتُواْ وَهُمۡ كُفَّارٌ﴾[3]؛ لبيان اتِّصالِ الكلام بعضِه ببَعْضٍ، وإمَّا أن نحملَها على الاستئنافِ؛ لتقريرِ معنى التَّوحيدِ، وأنَّ مَدارَ الأمرِ عَلَيْه، وعليه فيكونُ قَفلةً لما مضى، وتوطِئةً لما سيأتي.

نُكْتَةُ تَوَسُّطِ لَفْظِ الإلَه بَيْنَ المُبْتَدَأِ والخَبَرِ في قوله: ﴿وَإِلَٰهُكُمۡ إِلَٰهٞ وَٰحِدٞۖ﴾:

التَّحويلُ مِن الخَبَرِ إِلَى الوَصْفِ، تَقْرِيرٌ لِصِفَةِ الأُلُوهِيَّةِ الواحِدةِ

إِنَّمَا ذَكَرَ ﴿إِلَٰهٞ﴾ في قَوْلِهِ ﷻ ﴿إِلَٰهٞ وَٰحِدٞۖ﴾: تَنْبِيهًا عَلَى أَنَّ ذِكْرَهُ في نَظْمِ الْكَلَامِ لِتَوْصِيفِهِ بِالْوَاحِدِ؛ فَالْخَبَرِ بِالْحَقِيقَةِ واحِدٌ[4]، فـ"وَاحِدٌ" صِفَةٌ، وهُوَ الْخَبَرُ في الْحَقِيقَةِ؛ لِأَنَّهُ مَحَطُّ الْفَائِدَةِ، أَلا تَرَى أَنَّهُ لَو اقْتَصَرَ عَلَى مَا قَبْلَهُ[5] لَم يُفِدْ، وهَذَا يُشْبِهُ الْحَالَ الْمُوَطِّئَةَ، نَحْو: (مَرَرْتُ بِزَيْدٍ رَجُلًا صَالِحًا)، فَرَجُلًا حَالٌ، ولَيْسَت مَقْصُودَةً، إِنَّمَا الْمَقْصُودُ وصْفُهَا[6]، فَقَوْلُهُ: ﴿وَٰحِدٞۖ﴾ في الأَصْلِ، هُوَ الْخَبَرُ عَنِ الْمُبْتَدَأِ ﴿وَإِلَٰهُكُمۡ﴾، ولَكِنَّهُ لَمَّا كَرَّرَ لَفْظَ ﴿إِلَٰهٞ﴾ صَارَ قولُهُ ﴿وَٰحِدٞۖ﴾ صِفَةً، وفَائِدَةُ التَّحْوِيلِ مِن الْخَبَرِ

(1) العسقلانّي، العجاب في بيان الأسباب: 1/413.
(2) الرّازيّ، التّفسير الكبير: 4/148، والقاسميّ، محاسن التّأويل: 1/457، ونخبة من العلماء، التّفسير الميسّر، ص: 24.
(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 2/74.
(4) القُونَويّ، حاشيةٌ على البيضاويّ: 4/393.
(5) أي لو قال: (وإلهُكم إلهٌ)، فهذا القول لا يفيد؛ لأنّ الخبر في الحقيقة هو واحد.
(6) السّمين، الدّرّ المصون: 2/197.

إِلَى الْوَصْفِ، تَقْرِيرُ صِفَةِ الْوَحْدَةِ في الْأُلُوهِيَّةِ عَلَى وجْهِ الثَّبَاتِ؛ لأَنَّ أَصْلَ الصِّفَةِ أن تَكُونَ وصْفًا ثَابتًا، وأَصْلَ الْخَبَرِ أن يَكُونَ وصْفًا حَادِثًا، وهَذَا اسْتِعْمَالٌ مُتَّبَعٌ في فَصِيحِ الْكَلَامِ[1]، وفي قَوْلِنَا: "سَيِّدُكُم سَيِّدٌ واحِدٌ"، من تَقْرِيرِ السِّيَادَةِ مَا لَيْسَ في: "سَيِّدُكُم واحِدٌ"؛ فَلِذَا كَرَّرَ لَفْظَ ﴿إِلَٰهٌ﴾، ولم يَقُلْ: (وَإِلَٰهُكُمْ وَاحِدٌ)[2].

بَلَاغَة التَّنْكِيرِ ودَلَالَةُ الْوَحْدَةِ، في قوله: ﴿وَإِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَاحِدٌ﴾:

انْتِظامُ الكَوْنِ ودِقَّةُ حَرَكَةِ الفُلْك، قائِمَةٌ بِأَمْرِ اللهِ الواحِدِ الأَحَدِ

التَّنْكِير في قَوْلِهِ ﷻ: ﴿إِلَٰهٌ﴾ لِلنَّوْعِيَّةِ؛ لِأَنَّ الْمَقْصُودَ مِنْهُ تَقْرِيرُ مَعْنَى الْأُلُوهِيَّةِ، ولَيْسَ لِلْإِفْرَادِ؛ لأَنَّ الْإِفْرَادَ اسْتُفِيدَ من قَوْلِهِ واحِدٌ[3]، وقَوْلُهُ ﷻ: ﴿وَإِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَاحِدٌ﴾، يَعْنِي: أَنَّهُ واحِدٌ في الْإِلَهِيَّةِ؛ لأَنَّ وُرُودَ لَفْظِ الْوَاحِدِ بَعْدَ لَفْظِ الْإِلَهِ يَدُلُّ عَلَى أَنَّ تِلْكَ الْوَحْدَةَ مُعْتَبَرَةٌ في الْإِلَهِيَّةِ، لَا في غَيْرِهَا، فَهُوَ بِمَنْزِلَةِ وصْفِ الرَّجُلِ بِأَنَّهُ سَيِّدٌ واحِدٌ[4].

دَلالَةُ خُلُوِّ الْإِخْبَارِ من التَّأكيدِ في قوله: ﴿وَإِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَاحِدٌ﴾:

سُطُوعُ أُلوهِيّةِ اللهِ الواحِدِ، باعتبارِهِ مُعْتَمَدَ الكَوْنِ، وغايَةَ الإِرْسالِ

إِنَّ تَحْقِيقَ الْوَحْدَانِيَّةِ، هو الْغَايَةُ الْأُولَى من إِرْسَالِ الرُّسُلِ، وجَاءَ الْخَبَرُ عَن ذَلِكَ خَالِيًا من التَّأْكِيدِ؛ لِأَنَّ مَضْمُونَ الْخَبَرِ من شِدَّةِ ظُهُورِهِ، أُخْبِرَ عَنْهُ بِطَرِيقَةِ الْخُلُوِّ من الْمُنْكِرِينَ؛ لِأَنَّ وحْدَانِيَّةَ اللَّهِ تَعَالَى، ممَّا لَا يُنْكَرُ ولَا يُجْهَلُ، فَأَجْرَاهُ مَجْرَى الْمُقَرَّرَاتِ لِسُطُوعِ حَقِيقَتِهَا، وخُلُوُّ الخبرِ مِنَ التّأكيدِ، هُوَ تَنْزِيلٌ لِلمُنْكِرِ مَنْزِلَةَ غيرِ المُنْكِرِ، وذلك أنّهم لو نَظَروا في البَراهينِ السّاطِعَةِ، والحُجَجِ القاطِعَةِ، لوجدوا فيها غايَةَ الإقْناعِ.

قَصْرُ الْأُلُوهِيَّةِ عَلَى اللَّهِ تَعَالَى، في قوله: ﴿لَّآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ﴾:

القَصْر بِأُسْلُوبِ النَّفْيِ والإِثْبَاتِ، فَنَفَى أَوَّلاً جِنْسَ الإِلَهِ، ثُمَّ اسْتَثْنَى من ذَلِكَ الجِنْسِ المَنْفِيِّ الإِلَهَ الحَقَّ، والمَعْنَى: أَنَّ الأُلُوهِيَّةَ مُنْتَفِيَةٌ عَن كُلِّ إِلَهٍ إِلَّا هَذَا الإِلَهَ الحَقَّ.

---

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 75-2/74.

(2) القُونَوِيّ، حاشيةٌ على البيضاوِيّ: 4/393.

(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 2/75.

(4) الرّازيّ، التّفسير الكبير: 4/149.

الفَرْقُ فِي الإِخْبَارِ عَنِ التَّوْحِيدِ بين قوله: ﴿وَإِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٞ وَٰحِدٞۖ﴾، وقوله: ﴿لَّآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ﴾؟

لا إلَـهَ بحَقٍّ لا رَيْبَ فيهِ إلّا اللهُ الواحِدُ الأَحَدُ

لَمَّا قالَ ﷻ: ﴿وَإِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٞ وَٰحِدٞۖ﴾، أَمْكَنَ أَن يَخْطُرَ ببَالِ أَحَدٍ، أَنَّ هَذَا يَخُصُّ إلَهنَا، فَلَعَلَّ إِلَهَ غَيْرِنَا مُغَايِرٌ لإِلَهِنَا، فَأَزَالَ هَذَا الوَهْمَ ببَيَانِ التَّوحِيدِ المُطْلَقِ، فَقَالَ: لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ[1]، فَالغَرَضُ دَفْعُ التَّوَهُّم، وَمَنْشَأُ التَّوَهُّمِ هُنَا تَقْيِيدُ وحْدَةِ الإِلَهِ بالإِضَافَةِ إِلَى المُخَاطَبِينَ، فَهَذِهِ الوَحْدَةُ لَا تَقْتَضِي وحْدَةَ الإِلَهِ مُطْلَقًا[2].

هَذَا التَّسَاؤُلُ يُمْكِنُ صِيَاغَتُهُ بوَجْهٍ آخر، فَيُقَال: هَل المَعْنَى هُوَ ذَاتُهُ في الآيَتَيْنِ؟ فَيَكُونُ مِن التَّكْرَارِ الَّذِي لَا حَاجَةَ لَهُ، أَو مَا فَائِدَةُ الجَمْعِ بَيْنَ: ﴿وَإِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٞ وَٰحِدٞۖ﴾، وبَيْنَ ﴿لَّآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ﴾؟ والجَوَابُ أَنَّهُ لَمَّا بَيَّنَ بقَوْلِهِ ﷻ: ﴿وَإِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٞ وَٰحِدٞۖ﴾، أَنَّهُ المَقْصُودُ بالعِبَادَةِ أَو المُسْتَحِقُّ لَهَا - وكَانَ يَجُوزُ أَن يُتَوَهَّمَ أَن يُوجَدَ إِلَهٌ غَيْرُهُ، ولَكِن لَا يُعْبَدُ ولَا يَسْتَحِقُّ العِبَادَةَ- أَكَّدَهُ بقَوْلِهِ ﷻ: ﴿لَّآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ﴾، وحُقَّ لِهَذَا المَعْنَى أَن يَكُونَ مُؤَكَّدًا، وتُكَرَّرَ عَلَيْهِ الأَلْفَاظُ؛ إِذ هُوَ مَبْدَأُ مَقْصُودِ العِبَادَةِ ومُنْتَهَاه[3].

بَلَاغَةُ التَّعْبِيرِ عَنِ اللّٰهِ ﷻ بِضَمِيرِ الغَائِبِ ﴿هُوَ﴾:

اللـهُ واحِـدٌ في ألوهِيَتِهِ، ولا إلَهَ غَيْرُهُ يَسْتَحِقُّ أَنْ يُعْبَدَ مِنْ دونِه

إِنَّمَا عَبَّرَ عَنِ اللّٰهِ ﷻ بالضَّمِيرِ الغَائِبِ ﴿هُوَ﴾؛ لِأَنَّهُ سَبَقَ ذِكْرُ الإِلَهِ اسْمًا ظَاهِرًا، وهَذَا يَقْتَضِي الغَيْبَةَ، فَكَانَ المُنَاسِبُ أَن يَسْتَعْمِلَ الضَّمِيرَ الغَائِبَ؛ لِأَنَّهُ يُرِيدُ أَن يُثْبِتَ صِفَةً أُخْرَى لِذَلِكَ الإِلَهِ الوَاحِدِ، وهِيَ نَفْيُ صِفَةِ الإِلَهِيَّةِ عَن غَيْرِهِ.

لِمَاذَا قَالَ: ﴿لَّآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ﴾، ولَم يَقُلْ: (لَا إِلَهَ إِلَّا اللّٰهُ)؟

لَم يَسْتَعْمِلِ الاسْمَ الظَّاهِرَ الدَّالَّ عَلَى الذَّاتِ العَلِيَّةِ (ﷻ)، وهُوَ

(1) الرّازيّ، التّفسير الكبير: 4/149.
(2) القُونَوِيّ، حاشيةٌ على البيضاوِيّ: 4/394.
(3) القاسميّ، محاسن التّأويل: 1/457.

إثْباتُ الألوهيّةِ للهِ، ونَفْيُها عَمَّن سِواهُ، هُما جَوْهَرا التَّوْحيدِ الحَقِّ

الإِلَهُ الحَقُّ المَقْصُودُ بِالقَصْرِ، في قوله: ﴿لَّآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ﴾؛ لِأَنَّهُ أَرَادَ الإِشَارَةَ إِلَى الإِلَهِ الوَاحِدِ الَّذِي سَبَقَ ذِكْرُهُ في بِدَايَةِ الآيَةِ: ﴿وَإِلَٰهُكُمۡ إِلَٰهٞ وَٰحِدٞۖ﴾ فلو قَالَ: (لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّه)؛ لَانْقَطَعَ هَذَا الوَصْلُ بَيْنَ الجُمْلَتَيْنِ، وانْقَطَعَ المَعْنَى المُرَادُ مِن كِلَيْهِمَا، وهُوَ إِثْبَاتُ صِفَةِ الوَحْدَانيَّةِ، ونَفْيُ صِفَةِ الإِلَهِيَّةِ عَن غَيْرِهِ، وإِثْبَاتُهَا لَهُ حَصْرًا.

إِيثَارُ اسْتِعْمَالِ الِاسْمَيْنِ: ﴿ٱلرَّحۡمَٰنُ ٱلرَّحِيمُ﴾:

مَظاهِرُ الجَلالِ والجَمالِ، مَسْلَكٌ لِمَعْرِفَةِ اللهِ بِصِفاتِ الكَمالِ

إِنَّمَا خَصَّ هَذَا المَوْضِعَ بِذِكْرِ هَاتَيْنِ الصِّفَتَيْنِ؛ لِأَنَّ ذِكْرَ الإِلَهِيَّةِ الفَرْدَانِيَّةِ، يُفِيدُ القَهْرَ والعُلُوَّ، فَعَقَّبَهُمَا بِذِكْرِ هَذِهِ المُبَالَغَةِ في الرَّحْمَةِ؛ تَرْوِيحًا لِلْقُلُوبِ عَن هَيْبَةِ الإِلَهِيَّةِ، وعِزَّةِ الفَرْدَانِيَّةِ، وإِشْعَارًا بِأَنَّ رَحْمَتَهُ سَبَقَت غَضَبَهُ، وأَنَّهُ مَا خَلَقَ الخَلْقَ إِلَّا لِلرَّحْمَةِ والإِحْسَانِ[1]، وسبب تعلُّق الصّفتين بالوَحْدانيّة؛ لأنّ "﴿ٱلرَّحۡمَٰنُ ٱلرَّحِيمُ﴾، كَالحُجَّةِ عَلَيْهَا، فَإِنَّهُ لَمَّا كَانَ مُوْلِي النِّعَمِ كُلِّهَا -أُصُولِهَا وفُرُوعِهَا، ومَا سِوَاهُ إِمَّا نِعْمَةٌ أَو مُنْعَمٌ عَلَيْهِ- لَم يَسْتَحِقَّ العِبَادَةَ أَحَدٌ غَيْرُهُ"[2].

قَصْرُ صِفَةِ الرَّحْمَةِ عَلَى اللّهِ في قوله: ﴿ٱلرَّحۡمَٰنُ ٱلرَّحِيمُ﴾:

المُشْرِكُونَ مِن العَرَبِ كَانُوا يَعْرِفُونَ اللّه تَعَالَى، وفي الشَّدَائِدِ يَلْجَؤُونَ إِلَيهِ وحْدَهُ، مُسْتَعِينِينَ طَالِبِينَ الرَّحْمَةَ مِن عِنْدِهِ، ولَا يَرْجُونَ الرَّحْمَةَ مِن غَيْرِهِ؛ ولِذَا كَانَ وصْفُهُ بِالرَّحْمَةِ تَذْكِيرًا بِوَحْدَانِيَّتِهِ تَعَالَى؛ لِأَنَّهُم يَلْجَؤُونَ إِلَيْهِ وحْدَهُ، عِنْدَ رَجَاءِ الرَّحْمَةِ، فَلَا يَرْجُونَهَا مِن غَيْرِهِ، وكَأَنَّ المَعْنَى: الوَاحِدُ الأَحَدُ، هُوَ الَّذِي يَرْحَمُكُم عِنْدَمَا تَتَضَرَّعُونَ إِلَيْهِ، فَكَانَ المَنْطِقُ يُوجِبُ عَلَيْكُم أَلَّا تَعْبُدُوا غَيْرَهُ، فَفِيهِ إِثْبَاتُ الوَحْدَانِيَّةِ، مِن خِلَالِ قَصْرِ صِفَةِ الرَّحْمَةِ، عَلَى الإِلَهِ الوَاحِدِ[3].

---

(1) الرّازيّ، التّفسير الكبير: 4/152.

(2) البيضاويّ، أنوار التّنزيل: 1/116، والنّسفيّ، مدارك التّنزيل: 1/147.

(3) القُونَويّ، حاشيةٌ على البيضاويّ: 4/396، وأبو زهرة، زهرة التّفاسير: 487-1/486، وابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 76-2/75.

﴿إِنَّ فِي خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱخْتِلَٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ وَٱلْفُلْكِ ٱلَّتِي تَجْرِي فِي ٱلْبَحْرِ بِمَا يَنفَعُ ٱلنَّاسَ وَمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مِن مَّآءٍ فَأَحْيَا بِهِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَبَثَّ فِيهَا مِن كُلِّ دَآبَّةٍ وَتَصْرِيفِ ٱلرِّيَٰحِ وَٱلسَّحَابِ ٱلْمُسَخَّرِ بَيْنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ لَأَيَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ١٦٤﴾ [البقرة: 164]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِمَا قَبْلَها:

الرَّبْطُ بَيْنَ دَلائِلِ العَظَمَةِ في الكَوْنِ، وبَيْنَ التَّأكيدِ عَلى صِدْقِ التَّوْحيدِ

لَمّا ذَكَرَ في الآيَةِ السّابِقَةِ التَّوْحيدَ، ناسَبَ أَنْ يُقَدِّمَ في هذه الآيَةِ الدَّليلَ عَلَى أَنَّ الإِلَهَ واحِدٌ؛ فالآيَةُ دالَّةٌ عَلَى التَّوْحيدِ المَذْكُورِ في الآيَةِ الأُولى[1]؛ فلَمَّا حَكَمَ سُبْحانَهُ وتَعالى لِنَفْسِه بالفَرْدانيَّةِ والوَحْدانيَّةِ، ذَكَرَ ثَمانيَةَ أَنْواعٍ مِنَ الدَّلائِلِ الَّتي يُمْكِنُ أَنْ يُسْتَدَلَّ بِهَا عَلَى وُجُودِه سُبْحانَهُ أَوَّلاً، وعَلَى تَوْحيدِه وبَراءَتِه عَنِ الأَضْدادِ والأَنْدادِ ثانيًا[2]، فهِيَ الاسْتِدْلالُ عَلَى التَّوْحيدِ المَذْكورِ قَبْلَها في قَوْلِه ﷻ: ﴿وَإِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ﴾[3].

وَقَدْ يَكُونُ مِنَ المُناسَبَةِ، أَنَّهُ عَقَّبَ بِهَذِهِ الآيَةِ بَعْدَ ذِكْرِ الكِتْمَانِ المَنْهِيِّ عَنْهُ في الآياتِ السَّابِقَةِ؛ فلَمَّا حَذَّرَ تعالى مِنْ كِتْمَانِ الحَقِّ، بَيَّنَ أَنَّ أَوَّلَ مَا يَجِبُ إِظْهَارُهُ ولَا يَجُوزُ كِتْمَانُهُ، أَمْرُ التَّوْحيدِ، ووَصَلَ ذَلِكَ بِذِكْرِ البُرْهَانِ، والفِكْرِ في عَجَائِبِ الصُّنْعِ[4].

شَرْحُ المُفْرَدَاتِ:

لا يوصف بالخالق البديع إلّا الله الّذي أوجد من عدمٍ بقدرته

1) ﴿خَلْقِ﴾ من جذر (خلق)، وأَصْلُ المادّةِ يدلّ على تَقْدِيرِ الشَّيْءِ[5]، ويُسْتَعْمَلَ في إِبْدَاعِ الشَّيْءِ مِنْ غَيْرِ أَصْلٍ ولا احْتِذاءٍ، قال

(1) مكّيّ بن أبي طالب، الهداية إلى بلوغ النّهاية: 1/533-534.
(2) الرّازيّ، مفاتيح الغيب: 4/152.
(3) ابن جزيّ، التسهيل لعلوم التنزيل: 1/105.
(4) القرطبيّ، الجامع لأحكام القرآن: 2/190-191.
(5) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (خلق).

تعالى: ﴿خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ﴾ [الأنعام: 01]، أَيْ: أَبْدَعَهُمَا، ولَيْسَ الخَلْقُ الَّذي هُوَ الإِبْدَاعُ إِلَّا لِلّٰه تعالى؛ ولِهَذَا قالَ: ﴿أَفَمَن يَخۡلُقُ كَمَن لَّا يَخۡلُقُۚ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ١٧﴾ [النّحل: 17][1].

الأرض مسخّرة بحكمة الله ورحمته للبشر

2) ﴿وَٱلۡأَرۡضِ﴾ أَصْلُ مَادَّةِ (أرض)، كُلُّ شَيْءٍ يَسْفُلُ ويُقَابِلُ السَّمَاءَ، والأَرْضُ: الَّتِي نَحْنُ عَلَيْهَا[2]، والَّذِي ورَدَ في القُرْآنِ الكَرِيمِ (الْأَرْضُ) هَذِهِ الَّتِي نَعِيشُ عَلَيْهَا، أَوْ بُقْعَةٌ خَاصَّةٌ مِنْهَا يُعَيِّنُهَا السِّيَاقُ[3].

والمعنى في الآية: الْأَرْضُ هَذِهِ الَّتِي نَعِيشُ عَلَيْهَا.

الاختلاف قانونٌ كونيٌّ مطّردٌ

3) ﴿وَٱخۡتِلَٰفِ﴾: أَصْلُ مَادَّةِ (خلف): أَنْ يَجِيءَ شَيْءٌ بَعْدَ شَيْءٍ يَقُومُ مَقَامَهُ[4]، فخَلْفُ: ضِدُّ قُدَّام، وقَوْلُهُ تعالى: ﴿إِنَّ فِي ٱخۡتِلَٰفِ ٱلَّيۡلِ وَٱلنَّهَارِ﴾ [يونس: 6]، أَيْ: في مَجِيءِ كُلِّ واحِدٍ مِنْهُمَا خَلْفَ الآخَرِ وتَعَاقُبِهِمَا[5]، بِمَعْنَى: أَنَّ كُلَّ واحِدٍ مِنْهُمَا يَخْلُفُ مَكَانَ صَاحِبِهِ؛ إِذَا ذَهَبَ اللَّيْلُ جَاءَ النَّهَارُ بَعْدَهُ، وإِذَا ذَهَبَ النَّهَارُ جَاءَ اللَّيْلُ خَلْفَهُ[6].

عمر الإنسان يُبليه الجديدان اللّيلُ والنّهارُ

4) ﴿ٱلَّيۡلِ وَٱلنَّهَارِ﴾: ﴿ٱلَّيۡلِ﴾ مِنَ الجِذْرِ (ليل)، وأَصْلُ مَادَّةِ (ليل) خِلَافُ النَّهارِ[7]، وطَبِيعَةُ الظَّلَامِ مَعَ عُمُومِهِ، هُوَ المَلْحَظُ في تَسْمِيَةِ اللَّيْلِ؛ بِدَلِيلِ مُقَابَلَتِهِ بالضِّيَاءِ في قَوْلِهِ تعالى: ﴿قُلۡ أَرَءَيۡتُمۡ إِن جَعَلَ ٱللَّهُ عَلَيۡكُمُ ٱلَّيۡلَ سَرۡمَدًا إِلَىٰ يَوۡمِ ٱلۡقِيَٰمَةِ مَنۡ إِلَٰهٌ غَيۡرُ ٱللَّهِ يَأۡتِيكُم بِضِيَآءٍۚ﴾ [القصص: 71][8].

و﴿وَٱلنَّهَارِ﴾: مِنَ الجِذْرِ (نهر)، وأَصْلُ مادّة (نهر) يَدُلُّ عَلَى

(1) الراغب، المفردات: (خلق).
(2) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (أرض).
(3) جبل، المعجم الاشتقاقيّ المؤصّل: (أرض).
(4) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (خلف).
(5) الراغب، المفردات: (خلف).
(6) ابن جرير، جامع البيان: 3/272.
(7) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (ليل).
(8) جبل، المعجم الاشتقاقيّ المؤصّل: (ليل).

تَفَتُّح شَيْءٍ، أَوْ فتحِه، ومِنْهُ النَّهَارُ: انْفِتَاحُ الظُّلْمَةِ عَنِ الضِّيَاءِ، مَا بَيْنَ طُلُوعِ الفَجْرِ إِلَى غُرُوبِ الشَّمْسِ[1]، الوَقْتُ الَّذِي يَنْتَشِرُ فِيهِ الضَّوْءُ، مَا بَيْنَ طُلُوعِ الشَّمْسِ إِلَى غُرُوبِهَا[2].

جريانُ الفُلْك في المـاء، آيـةٌ على قدرته

5) ﴿وَٱلْفُلْكِ ٱلَّتِى تَجْرِى﴾، الفُلْكُ مِنَ الجذْرِ (فلك)، وأَصْلُ المادّةِ يَدُلُّ عَلَى اسْتِدَارَةٍ في شَيْءٍ، وأَمَّا السَّفِينَةُ فتُسَمَّى فُلْكًا؛ لأَنَّهَا تُدَارُ في المَاءِ[3]، فهِيَ تَدُورُ بالمَاءِ أَسْهَلَ دَوْرٍ[4]، ويُسْتَعْمَلُ للوَاحِدِ والجَمْع، ﴿وَٱلْفُلْكِ ٱلَّتِى تَجْرِى فِى ٱلْبَحْرِ﴾، ﴿وَتَرَى ٱلْفُلْكَ فِيهِ مَوَاخِرَ﴾، [فاطر: 12][5].

وأمّا ﴿تَجْرِى﴾ فهي مِنَ الجِذْرِ (جري)، وأَصْلُ هذه المادّة: انْسِيَاحُ الشَّيْءِ[6]، والجَرْيُ: المرُّ السَّرِيعُ، كَمَرّ المَاءِ[7]، والانْتِقَالُ بحَرَكَةٍ خَفِيفَةٍ، يقال: جَرَت الشَّمْسُ وسَائِرُ النُّجُوم، والسَّفِينَةُ والرِّيَاحُ، وكُلّها فِيهِ خِفَّةُ الحَرَكَةِ[8]، قال ﷻ: ﴿وَهَٰذِهِ ٱلْأَنْهَٰرُ تَجْرِى مِن تَحْتِىٓ﴾ [الزّخرف: 51]، وقال: ﴿وَلِتَجْرِىَ ٱلْفُلْكُ﴾ [الرّوم: 46][9].

اتّساع البحار، دليل على سعة ملك الله القهّار

6) ﴿ٱلْبَحْرِ﴾ مِنَ الجِذْرِ (بحر)، وأَصْلُ هذه المَادَّة: كُلُّ مَكَانٍ واسِعٍ جَامِعٍ للماءِ الكَثِيرِ[10]، سُمِّيَ بَحْرًا لاِسْتِبْحَارِهِ، أي انْبِسَاطِهِ وسَعَتِهِ[11]، وهُوَ خِلافُ البَرِّ[12]، وكُلُّ نَهْرٍ لَا يَنْقَطِعُ مَاؤُهُ من الأَنْهَارِ العَذْبَةِ، مِثْلُ دِجْلَةَ والنِّيلِ: فهِيَ بِحارٌ، والبَحْرُ الكَبِيرُ وهُوَ مَغِيضُ هَذِهِ

(1) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (نهر).
(2) الراغب، المفردات: (نهر).
(3) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (فلك).
(4) الواحدي، التّفسير البسيط: 3/455.
(5) الراغب، المفردات: (فلك).
(6) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (جري).
(7) الراغب، المفردات: (جري).
(8) جبل، المعجم الاشتقاقيّ المؤصّل: (جري).
(9) الراغب، المفردات: (جري).
(10) الراغب، المفردات: (بحر).
(11) الخليل، العين: (حرب).
(12) الجوهري، الصّحاح: (بحر).

الأَنْهَار، فمَاؤُهُ مِلْحٌ أُجَاجٌ، وسُمِّيَتْ هَذِهِ الأَنْهَارُ بِحَارًا لِأَنَّهَا مَشْقُوقَةٌ في الأَرْضِ شَقًّا[1].

لا نفع إلّا بقضاء، ولا ضرّ إلّا بقدر

7) ﴿يَنفَعُ﴾: مِنَ الجِذْرِ (نفع)، وأَصْلُ هذه المادّةِ يَدُلُّ عَلَى خِلَافِ الضَّرِّ[2]، النَّفْعُ: ما يُسْتَعَانُ بِهِ في الوُصُولِ إلى الخَيْرَاتِ، وما يُتَوَصَّلُ به إلى الخَيْرِ، فهُوَ خَيْرٌ، فالنَّفْعُ خَيْرٌ، وضِدُّهُ الضُّرُّ، قال تعالى: ﴿وَلَا يَمْلِكُونَ لِأَنفُسِهِمْ ضَرًّا وَلَا نَفْعًا﴾ [الفرقان: 3]، وقال: ﴿قُل لَّآ أَمْلِكُ لِنَفْسِي نَفْعًا وَلَا ضَرًّا﴾ [الأعراف: 188][3].

أنزل الله الشّرائع، لهداية النّاس إلى صراط مستقيم

8) ﴿أَنزَلَ﴾: مِنَ الجِذْرِ (نزل)، وأَصْلُ هذه المادّةِ يَدُلُّ عَلَى هُبُوطِ شَيْءٍ ووُقُوعِهِ[4]، والنُّزُولُ في الأَصْلِ هُوَ انْحِطَاطٌ مِنْ عُلُوٍّ، وإِنْزَالُ اللَّهِ تعالى نِعَمَهُ ونِقَمَهُ عَلَى الخَلْقِ، وإِعْطَاؤُهُمْ إِيَّاهَا، كَإِنْزَالِ القُرْآنِ، والحَدِيدِ، واللِّبَاسِ، ونَحْوِ ذَلِكَ، قال تعالى: ﴿أَنزَلَ عَلَىٰ عَبْدِهِ ٱلْكِتَٰبَ﴾ [الكهف: 1][5].

البثُّ إيجاد وانتشار وإظهار

9) ﴿وَبَثَّ﴾: مِنَ الجِذْرِ (بثث)، وأَصْلُ المادّة: تَفْرِيقُ الشَّيْءِ وإِظْهَارُهُ، يُقَالُ: بَثَّ الصَّيَّادُ كِلَابَهُ عَلَى الصَّيْدِ[6]، واللَّهُ تعالى خَلَقَ الخَلْقَ وبَثَّهُمْ في الأَرْضِ لِمَعَاشِهِمْ، وبَثَثْتُ الحَدِيثَ، أَيْ: نَشَرْتُهُ، وقَوْلُهُ ﷻ: ﴿وَبَثَّ فِيهَا مِن كُلِّ دَآبَّةٍ﴾ [البقرة: 164]، إِشَارَةٌ إِلَى إِيجَادِهِ تعالى مَا لَمْ يَكُنْ مَوْجُودًا وإِظْهَارِهِ إِيَّاهُ[7].

ما مِنْ دابَّةٍ إلّا وضَمِنَ اللهُ رِزْقَها، مُدَّةَ وُجودِها في الحَياةِ

10) ﴿دَآبَّةٍ﴾: مِنَ الجِذْرِ (دبب)، وأَصْلُ المادّة يدلّ على حَرَكَةٍ عَلَى الأَرْضِ أَخَفَّ مِنَ المَشْيِ، تَقُولُ: دَبَّ دَبِيبًا، وكُلُّ مَا مَشَى عَلَى الأَرْضِ فهُوَ دَابَّةٌ[8]، ومِنْهُ قَوْلُهُ ﷻ: ﴿وَٱللَّهُ خَلَقَ كُلَّ دَآبَّةٍ مِّن مَّآءٍ فَمِنْهُم

(1) الأزهري، تهذيب اللّغة: (حرب).
(2) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (نفع).
(3) الراغب، المفردات: (نفع).
(4) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (نزل).
(5) الراغب، المفردات: (نزل).
(6) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (بثّ).
(7) الراغب، المفردات: (بثّ).
(8) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (دبّ).

﴿مَّن يَمۡشِي عَلَىٰ بَطۡنِهِۦ وَمِنۡهُم مَّن يَمۡشِي عَلَىٰ رِجۡلَيۡنِ وَمِنۡهُم مَّن يَمۡشِي عَلَىٰٓ أَرۡبَعٖۚ﴾ [النّور: 45]، فتكُونُ الدَّابَّةُ جَمْعًا لِكُلِّ شَيْءٍ يَدِبُّ: ﴿۞إِنَّ شَرَّ ٱلدَّوَآبِّ عِندَ ٱللَّهِ﴾ [الأنفال: 22][1]، ومعنى الآية: كلُّ مَا دَبَّ عَلَى الأَرْضِ مِن النَّاسِ وغَيْرِهِمْ[2].

حِكْمَةُ الله في تَصْريفِ الرّياحِ، يُوقِنُ بها كُلُّ فَلّاحٍ

11) ﴿وَتَصۡرِيفِ ٱلرِّيَٰحِ﴾: التصريفُ مِنَ الجذْرِ (صرف)، وأَصْلُ هذه المادّة يَدُلُّ عَلَى رَجْعِ الشَّيْءِ[3]، والصَّرْفُ: رَدُّ الشَّيْءِ مِنْ حَالَةٍ إِلَى حَالَةٍ، أَوْ إِبْدَالُهُ بِغَيْرِهِ، وتَصْرِيفُ الرِّيَاحِ: صَرْفُهَا مِنْ حَالٍ إِلَى حَالٍ: ﴿وَصَرَّفۡنَا ٱلۡأٓيَٰتِ﴾ [الأحقاف: 27]، ﴿وَصَرَّفۡنَا فِيهِ مِنَ ٱلۡوَعِيدِ﴾ [طه: 113][4].

ومعنى قوله: ﴿وَتَصۡرِيفِ﴾: أي تَقْليبِ الرياح قَبُولًا ودَبُورًا، وشَمالًا وجَنوبًا، بالرَّحْمَةِ وبالعَذَابِ، وحارَّةً وبارِدَةً، ولَيِّنَةً، وعَاصِفَةً[5].

و﴿ٱلرِّيَٰحِ﴾: مِنَ الجذْرِ (روح)، وأَصْلُ هذه المادّة يَدُلُّ عَلَى سَعَةٍ وفُسْحَةٍ واطِّرَادٍ، وأَصْلُ اليَاءِ في الرِّيحِ وَاوٌ، فالرُّوحُ رُوحُ الإِنْسَانِ، وإِنَّمَا هُوَ مُشْتَقٌّ مِنَ الرِّيحِ[6]، والرِّيحُ: الهَوَاءُ المُتَحَرِّكُ[7]، وسُمِّيَت الرِّيحُ رِيحًا؛ لِأَنَّ الغَالِبَ في هُبُوبِهَا المَجِيءُ بِالرُّوحِ والرَّاحَةِ، وانْقِطَاعُ هُبُوبِهَا يُكْسِبُ الكَرْبَ والغَمَّ[8].

سَخَّرَ الله السَّحابَ لإِحْياءِ الأَرْضِ بَعْدَ مَوْتِها

12) ﴿وَٱلسَّحَابِ ٱلۡمُسَخَّرِ﴾: السّحَابُ مِنَ الجذْرِ (سحب)، وأَصْلُ هذه المادّةِ يَدُلُّ عَلَى جَرِّ شَيْءٍ مَبْسُوطٍ ومَدِّهِ، وسُمِّي السَّحَابُ سَحَابًا، تَشْبِيهًا لَهُ بِذَلِكَ، كَأَنَّهُ يَنْسَحِبُ في الهَوَاءِ انْسِحَابًا[9]، ومِنْهُ

(1) الراغب، المفردات: (دبّ).
(2) الواحدي، التّفسير البسيط: 3/458.
(3) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (صرف).
(4) الراغب، المفردات: (صرف).
(5) ابن جرير، جامع البيان: 3/275، والنيسابوري، التّفسير البسيط: 3/465.
(6) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (روح).
(7) الراغب، المفردات: (روح).
(8) الواحدي، التّفسير البسيط: 3/459
(9) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (سحب).

سَحْبُ الإِنْسَانِ عَلَى الوَجْهِ، قال تعالى: ﴿يَوۡمَ يُسۡحَبُونَ فِي ٱلنَّارِ عَلَىٰ وُجُوهِهِمۡ﴾ [القمر: 48][1].

ولفظ ﴿ٱلۡمُسَخَّرِ﴾: مِنَ الجِذْرِ (سخر)، وأَصْلُ هذه المادّة يَدُلُّ عَلَى احْتِقَارٍ واسْتِذْلَالٍ، سَخَّرَ اللَّهُ ﷻ الشَّيْءَ، إِذَا ذَلَّلَهُ لَهُ لِأَمْرِهِ وإِرَادَتِهِ[2]، والتَّسْخِيرُ: سِيَاقَةٌ إِلَى الغَرَضِ المُخْتَصِّ قَهْرًا، قال تعالى: ﴿وَسَخَّرَ لَكُم مَّا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِ﴾ [الجاثية: 13]، فالمُسَخَّرُ هو المُقيَّضُ للفِعْلِ[3].

بَعَثَ اللهُ لِكُلِّ قَوْمٍ رَسولًا مِنْهُمْ، لِيَهْدِيَهُمْ سَواءَ السَّبيلِ

13) ﴿لِّقَوۡمٍ﴾: مِنَ الجِذْرِ (قوم)، وأَصْلُ هذه المادّة يَدُلُّ عَلَى جَمَاعَةٍ من النَّاسِ، والقَوْمُ: جَمْعُ امْرِئٍ، ولَا يَكُونُ ذَلِكَ إِلَّا لِلرِّجَالِ غالباً، قال اللَّه تعالى: ﴿لَا يَسۡخَرۡ قَوۡمٌ مِّن قَوۡمٍ﴾ [الحُجُرَاتِ: 11]، ثُمَّ قَالَ: ﴿وَلَا نِسَآءٌ مِّن نِّسَآءٍ﴾[4]، والقوم هُم الرِّجَالُ الَّذين يقُوم بَعضُهم مَعَ بعضٍ في الأُمُور، ولَا يَقَعُ عَلَى النِّسَاءِ إِلَّا عَلَى وجْهِ التَّبَعِ، والشَّاهِدُ قَوْلُ زُهَيْر:

وَمَا أَدْرِي وسَوْفَ إِخالُ أَدْرِي *** أَقومٌ آلُ حِصنٍ أَمْ نِسَاءُ

فأَخْرَجَ النِّسَاء من القَوْمِ[5]، وفي القُرْآنِ أُرِيدَ بِهِ الرِّجَالُ والنِّسَاءُ جَمِيعًا، وحَقِيقَتُهُ للرِّجَالِ[6].

مَنْ شاوَرَ النّاسَ، فقَدْ شارَكَهُمْ في عُقولِهِمْ

14) ﴿يَعۡقِلُونَ﴾ مِنَ الجِذْرِ (عقل)، وأَصْلُ هذه المادّة يَدُلُّ عَلَى حُبْسَةٍ في الشَّيْءِ، فالعَقْلُ حابِسٌ عَنْ ذَمِيمِ القَوْلِ والفِعْلِ[7]، وعَقَلْتُ البَعِيرَ عَقْلًا: أَنْ تَثْنِيَ وظِيفَهُ مَعَ ذِرَاعِهِ، فتَشُدَّهُمَا جميعًا، وذَلِكَ هُوَ العِقَالُ، وعَقَلْتُ الشَّيْءَ عَقْلًا: تَدَبَّرْتُهُ، ثُمَّ أُطْلِقَ العَقْلُ الَّذِي هُوَ

(1) الراغب، المفردات: (سحب).
(2) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (سخر).
(3) الراغب، المفردات: (سخر).
(4) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (قوم).
(5) أبو هلال العسكري، معجم الفروق اللّغويّة: ص: 280.
(6) الراغب، المفردات: (قوم).
(7) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (عقل).

مَصْدَرٌ عَلَى الحِجَا واللُّبِّ، وهو غَريزَةٌ يَتَهَيَّأُ بِهَا الإِنْسَانُ إِلَى فهْم الخِطَابِ[1]، وهُوَ: نَقِيضُ الجَهْلِ[2]، والقُوَّةُ المُتَهَيِّئَةُ لِقَبُولِ العِلْم[3].

❁ المَعْنَى الإجْمَاليُّ:

بَدائِعُ المَخْلوقاتِ، دَلائِلُ عَلى إعجازِ قُدْرَةِ خالِقِ المَوْجوداتِ

هَذِهِ دَعْوَةٌ للنَّاسِ أَنْ يَتَأَمَّلُوا بَدِيعَ مَا خَلَقَ اللَّه، وأَنْ يُبْصِرُوا الآيَاتِ المَبْثُوثَةَ في كُلِّ أَرْكَانِ الوُجُودِ، ومَا أَوْدَعَ فِيهَا مِنْ حِكْمَةٍ ورَحْمَةٍ، شَاهِدَةٍ عَلَى الخَالِقِ الوَاحِدِ، نَاطِقَةٍ بِعَظَمَتِهِ وجَلَالِه وتَوْحِيدِهِ:

وفِي كُلِّ شَيْءٍ لَهُ آيَةٌ *** تَدُلُّ عَلَى أنّهُ الوَاحِدُ

التَّأَمُّلُ في المَخْلوقاتِ طَريقٌ إلى مَعْرِفَةِ اللهِ، وإدْراكِ إعْجازِ الخَلْقِ في الكَوْنِ

إِنَّ النَّظَرَ في مَخْلُوقَاتِ اللّه طَرِيقٌ إِلَى مَعْرِفتِه، ومعرفة مَا وراءَ هَذِهِ المَخْلُوقَاتِ؛ فالآيَاتُ الدَّالَّةُ عَلَى الخَالِقِ العَظِيم شَاخِصَةٌ بَيِّنَةٌ، في خَلْقِ السَّمَاوَاتِ بارتفاعها واتساعها، والأَرْض بجبالها وسهولها وبحارها، وفي تَعَاقُبِ اللَّيْلِ والنَّهَارمن الطُّول والقِصَر، والظلمة والنور، وفي السُّفُنِ الَّتِي تَجْرِي عَلَى المَاءِ الَّذِي يَحْمِلُهَا، وبالهَوَاءِ الَّذِي يَدْفَعُهَا، حَامِلَةً مَا يَنْفَعُ النَّاسَ مِمَّا يَحْتَاجُونَ إِلَيْه، وفي الغَيْث الَّذِي يُعِيدُ الحَيَاةَ لِلأَرْض بَعْدَ مَوْتِهَا، فتَصِيرُ مُخْضَرَّةً، ذَاتَ بَهْجَة، بَعْدَ أَنْ كَانَتْ يَابِسَةً، لَا نَبَاتَ فِيهَا، وفي الكَائِنَاتِ المَبْثُوثَةِ في أَنْحَاءِ الأَرْضِ، وفي الرِّيَاحِ وتَنَوُّعِهَا، وحَرَكَتِهَا مِنْ جِهَةٍ لِجِهَةٍ، وفي السَّحَابِ المُذَلَّلِ بَيْنَ السَّمَاءِ والأَرْضِ، كُلُّ هَذِهِ الآيَات، ومَا فِيهَا مِنْ أَسْرَار، دَلَائِلُ بَيِّنَةٌ عَلَى خَالِقِ الكَوْنِ الوَاحِدِ سُبْحَانَهُ، لِمَنْ لَدَيْه بَصِيرَةٌ في فهْم الأَدِلَّة والبَرَاهِين[4]، فهَذِهِ الأَشْيَاءُ وحُدُوثُهَا وإِحْكَامُ صَنْعَتِهَا عَلَامَاتٌ بَيِّنَةٌ، ودَلَالَةٌ واضِحَةٌ، عَلَى تَوْحِيدِ خَالِقِهَا، وتَمْحِيضِ العِبَادَةِ لَهُ دُونَ غَيْرِه[5].

(1) الفيّومي، المصباح المنير: (عقل).
(2) الخليل، العين: (عقل).
(3) الراغب، المفردات: (عقل).
(4) عبد الكريم الخطيب، التّفسير القرآني للقرآن: 1/184، وجماعة من العلماء، المختصر في تفسير القرآن الكريم: ص: 25.
(5) مكّي بن أبي طالب، الهداية إلى بلوغ النّهاية: 1/534.

قال الشّهابُ الخفاجي: "واعْلَمْ أنّ دَلالةَ هذِهِ الآياتِ على وُجودِ الإلهِ ووَحْدَتِه، مِنْ وُجوهٍ كَثيرَةٍ، يَطولُ شَرْحُها مُفَصَّلًا، والكَلامُ المُجْمَلُ: أنَّها أمورٌ مُمْكِنَةٌ، وُجِّهَ كُلٌّ مِنْها بِوَجْهٍ مَخْصوصٍ، مِنْ وُجوهٍ مُحْتَمِلَةٍ، وأنْحاءٍ مُختلِفةٍ، إذْ كان مِنَ الجائِزِ مَثَلًا أَنْ لا تَتَحرّكَ السّماواتُ أو بعضُها كالأرضِ، وأن تَتَحَرّكَ بِعكسِ حَركاتِها، وبحيثُ تَصيرُ المِنطَقةُ دائرةً مارّةً بالقُطْبَين، وأن لا يَكونَ لَها أَوْجٌ وحَضيضٌ أصْلًا، أو عَلى هذا الوَجهِ، لِبَساطَتِها وتَساوي أَجْزائِها، فلا بُدَّ لها مِنْ مُوجِدٍ قادِرٍ حَكيمٍ، يُوجِدُها عَلى ما تَسْتَدْعيهِ حِكْمَتُهُ، وتَقْتَضيهِ مَشيئَتُهُ، مُتَعاليًا عَنْ مُعارَضَةِ غَيْرِهِ"[1].

الإيضاحُ اللُّغَويُّ والبَلاغِيُّ:

فائِدَةُ تَأْكِيدِ الخَبَرِ في قَوْلِهِ ﷻ: ﴿إِنَّ فِي خَلۡقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ﴾:

إنْزالُ المُخاطَبينَ مَنْزِلَةَ المُنْكِرينَ، لِتَأْكيدِ أدِلَّةِ وُجودِ اللهِ

أَكَّدَتِ الآيةُ الخَبَرَ بـ ﴿إِنَّ﴾ والجُمْلَةِ الاسْميَّةِ؛ لِلاهْتِمَامِ بمضمونِ الخَبَرِ، ولِأَنَّ الإنسانَ يَغفلُ عن الاستدلالِ بخلقِ السَّماواتِ والأرضِ على بديعِ الصُّنْعِ، واستحقاقِ الخالقِ توحيدَه وإفرادَه بالعبادةِ الحقَّةِ؛ فنُزِّلَ المُخاطَبُ منزلةَ المُنكرِ أن يكونَ هذا الخلْقُ آيةً لأولي الألبابِ.

بلاغةُ جَمْعِ السّماواتِ وإفرادِ الأرْضِ:

عَطْفُ الأرضِ عَلى السّماواتِ، ودَلالَتُهُ في الآيَةِ

جُمِعَتِ السَّمَاوَاتُ؛ لِأَنَّهَا أَجْنَاسٌ مُخْتَلِفَةٌ، كُلُّ سَمَاءٍ مِنْ جِنْسٍ غَيْرِ الأُخْرَى، ووَحَّدَ الأَرْضَ؛ لِأَنَّهَا كُلَّهَا تُرَابٌ[2]، ولِأَنَّ الأَرْضَ عَالَمٌ واحِدٌ، والمَعْنَى: أَنَّ في خَلْقِ مَجْمُوعِ السَّمَاوَاتِ مَعَ الأَرْضِ آيَاتٍ؛ فلِذَلِكَ أُفْرِدَ الخَلْقُ وجُعِلَت الأَرْضُ مَعْطُوفًا عَلَى السَّماوَاتِ؛ لِيَتَسَلَّطَ المُضَافُ عَلَيْهِمَا[3].

(1) الخفاجي، عِنَايةُ القَاضِي: 2/263.

(2) الواحدي، التّفسير البسيط: 3/453، والبغويّ، معالم التنزيل: 1/195.

(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 2/77.

فائِدَةُ إضافَةِ الاخْتِلافِ لِلّيلِ والنّهارِ في الآيَةِ:

أُضِيفَ الاخْتِلَافُ لِكُلٍّ مِن اللَّيْلِ والنَّهَارِ؛ لِأَنَّ كُلَّ واحِدٍ مِنْهُمَا يخْلُفُ الآخَرَ؛ فتَحْصُل مِنْهُ فوائِدُ الآخرِ، بِحَيْثُ لَوْ دَامَ أَحَدُهُمَا لَانْقَلَبَ النَّفْعُ ضَرَرًا[1]، وعَلَى هَذَا قَوْلُهُ ﷻ: ﴿قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِن جَعَلَ ٱللَّهُ عَلَيْكُمُ ٱلَّيْلَ سَرْمَدًا إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَـٰمَةِ مَنْ إِلَـٰهٌ غَيْرُ ٱللَّهِ يَأْتِيكُم بِضِيَآءٍ ۖ أَفَلَا تَسْمَعُونَ ٧١﴾ [القصص: 71- 72].

في اخْتِلافِ اللّيْلِ والنّهارِ، تَكامُلٌ بَيْنَ مُهِمَّةِ كُلٍّ مِنْهُما، لِسَيْرورَةِ الحَياةِ

تقْدِيمُ اللَّيلِ على النَّهارِ، في قوله: ﴿وَٱخْتِلَـٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ﴾:

قَدَّمَ النَّظمُ اللَّيْلَ عَلَى النَّهَارِ في الذِّكْرِ؛ لِأَنَّهُ مُقَدَّمٌ عَلَيهِ، باعْتِبارِهِ مُنسَلِخًا مِنْهُ، قال اللّٰهُ ﷻ: ﴿وَءَايَةٌ لَّهُمُ ٱلَّيْلُ نَسْلَخُ مِنْهُ ٱلنَّهَارَ﴾ [يس: 37][2]؛ ففيها إشارةٌ إلى القائلين بأنَّ اللَّيلَ هو بدايةُ اليوم.

دلالَةُ الفُلْكِ عَلى الجَمْعِ، في قوله: ﴿وَٱلْفُلْكِ ٱلَّتِى تَجْرِى فِى ٱلْبَحْرِ﴾:

يَعنِي بالفُلكِ السُّفُنَ، واحِدُهُ وجَمْعُهُ سَوَاءٌ، فإذَا أُرِيدَ بِهِ الجَمْعُ يُؤَنَّثُ، وإذا أُرِيدَ بِهِ الوَاحِدُ يُذَكَّرُ، قَال ﷻ، في الإفْرادِ والتَّذْكِيرِ: ﴿إِذْ أَبَقَ إِلَى ٱلْفُلْكِ ٱلْمَشْحُونِ ١٤٠﴾ [الصّافّات: 140]، وقَال في الجَمْعِ والتَّأْنِيثِ: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا كُنتُمْ فِى ٱلْفُلْكِ وَجَرَيْنَ بِهِم بِرِيحٍ طَيِّبَةٍ﴾ [يُونس: 22][3]، وفي الآيَةِ أَرَادَ بِهِ الجَمْعَ؛ لِأَنَّهُ أَظْهَرُ لِلامْتِنَانِ.

فائِدَةُ التَّعْبِيرِ بالمُضَارِعِ ﴿تَجْرِى﴾، ووَصفِ الفُلْكِ بالجَرْيِ:

عَبَّرَ بالفِعلِ المُضَارِعَ ﴿تَجْرِى﴾ عن جَرْيِ السُّفُنِ؛ للدَّلَالَةِ عَلَى التَّجَدُّدِ والحُدُوث، وهَذَا أَظْهَرُ لِلامْتِنَانِ والاعْتِبَارِ؛ لِأَنَّهُمْ يَرَوْنَهَا تَجْرِي، ووَصَفَ السُّفُنَ بِقَوْلِهِ ﷻ: ﴿ٱلَّتِى تَجْرِى﴾، أَيْ بالمَوْصُولِ وصِلَتِهِ؛ لِتَعْلِيلِ العَطْفِ، أَيْ أَنَّ عَطْفَهَا عَلَى ﴿خَلْقِ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾، في كَوْنِهَا آيَةً، مِنْ حَيْثُ إِنَّهَا تَجْرِي في البَحْرِ، وفي كَوْنِهَا نِعْمَةً، مِنْ حَيْثُ إِنَّهَا

المُشابَهَةُ بَيْنَ الفُلْكِ الجارِيَةِ في البَحْرِ، وفُلْكِ الكَوْنِ الضَّخْمَةِ العَجِيبَةِ الصُّنْعِ

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 2/79.

(2) البغويّ، معالم التنزيل: 1/195.

(3) البغويّ، معالم التنزيل: 1/195.

تَجْرِي بِمَا يَنْفَعُ النَّاسَ[1]، وقَوْلُهُ ﷻ: ﴿فِي ٱلْبَحْرِ﴾ تَوْكِيدٌ؛ إِذْ مَعْلُوم أَنَّهَا لَا تَجْرِي في غَيْرِه، فهُوَ كقَوْلِه تعالى: ﴿يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ﴾ [الأنعام: 38][2].

المَجازُ العَقْلِيُّ في قَوْلِهِ ﴿وَٱلْفُلْكِ ٱلَّتِي تَجْرِي﴾:

أَسْنَدَ الجَرَيَانَ إِلَى السُّفُنِ عَلَى سَبِيلِ التَّوَسُّعِ؛ حَيْثُ جَعَلَ لَهَا قُدْرَةً عَلَى الجَرْيِ مِنْ ذَاتِهَا، وهَذَا من المَجَازِ العَقْلِيِّ، إذِ الجَريُ لا يكونُ إلَّا بأمرِ اللّٰه تعالى، وهو ما يُؤَكِّدُه السِّياقُ؛ فهي أدلةٌ مسوقةٌ لإثباتِ قدرةِ اللّٰه في السَّماءِ والأرضِ والبحرِ.

دَلَالَةُ (مَا) في قَوْلِهِ: ﴿بِمَا يَنفَعُ ٱلنَّاسَ﴾:

الأدواتُ تُجلِّي المَعاني وتكشفُ عن بلاغةِ المباني

قَوْلُه ﷻ: ﴿بِمَا يَنفَعُ﴾ في (مَا) قَوْلَانِ: أَحَدُهُمَا: أَنَّهَا مَوْصُولَةٌ اسْمِيَّةٌ، وعَلَى هَذَا فالبَاءُ لِلحَالِ أَيْ: تَجْرِي مَصْحُوبَةً بالأَعْيَانِ الَّتِي تَنْفَعُ النَّاسَ، والثَّاني: أَنَّهَا حَرْفِيَّةٌ مَصْدَرِيَّةٌ، وعَلَى هَذَا تَكُونُ البَاءُ لِلسَّبَبِ، أَيْ: تَجْرِي بِسَبَبِ نَفْعِ النَّاسِ في التِّجَارَةِ وغَيْرِهَا[3].

دَلَالَةُ التَّعْبِيرِ عَنِ المَطَرِ بالمَوْصُولِ، في قَوْلِهِ: ﴿وَمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ﴾:

إيثارُ الإطنابِ على الإيجازِ اللَّفظيِّ مُرتهنٌ بالبلاغةِ

قَوْلُهُ ﷻ: ﴿وَمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مِن مَّآءٍ﴾، مَعْطُوفٌ عَلَى الأَسْمَاءِ الَّتِي قَبْلَهُ، جِيءَ بِهِ اسْمَ مَوْصُولٍ؛ لِيَأْتِيَ عَطْفَ صِلَةٍ عَلَى صِلَةٍ؛ فتَبْقَى الجُمْلَةُ بِمَقْصِدِ العِبْرَةِ والنِّعْمَةِ، فالصِّلَةُ ﴿أَنزَلَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مِن مَّآءٍ﴾، تَذْكِيرٌ بالعِبْرَةِ؛ لِأَنَّ في الصِّلَةِ من اسْتِحْضَارِ الحَالَةِ مَا لَيْسَ في نَحْوِ كَلِمَةِ المَطرِ والغَيْثِ[4]، وفَائِدَةُ ذَلِكَ إِظْهَارُ المُنْزِلِ وهُوَ اللّٰه تعالى، ولَوْ عَبَّرَ عَنِ المذكُورِ بالمَطَرِ؛ لَانْتَفَت الحَاجَةُ لِلصِّلَةِ الَّتِي أَمْكَنَ مِنْ خِلَالِهَا التَّعْبِيرُ عَنِ المُنْزِلِ وهُوَ اللّٰه ﷻ، وهو خلافُ مقصودِ السِّياقِ من تثبيتِ الامتنانِ في ثنايا

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 2/80.

(2) السمين، الدّر المصون: 2/201.

(3) السمين، الدّر المصون: 2/202.

(4) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 2/82.

الاستدلال، وذكرِ لفظِ الجلالةِ، وبيانِ أنَّ النزولَ بدأ من السَّماءِ، بما يُثري معاني الجلال والجمال.

معنى حرفِ ﴿مِن﴾ في قَوْلِهِ ﷻ: ﴿وَمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مِن مَّآءٍ﴾:

الماءُ المُنزَلُ مُعجِزٌ، والتَّعبيرُ المُنْزَلُ مُعْجِزٌ

حرفُ ﴿مِن﴾ الأُولَى مَعْنَاهَا ابْتِدَاءُ الغَايَةِ، أَي: أَنْزَلَ مِنْ جِهَةِ السَّمَاءِ، وأَمَّا الثَّانِيَةُ فتَحْتَمِلُ ثَلَاثَةَ أَوْجُهٍ، أَحَدُهَا: أَنْ تَكُونَ لِبَيَانِ الجِنْسِ؛ فإِنَّ المُنَزَّلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءٌ وغَيْرُهُ، والثَّانِي: أَنْ تَكُونَ لِلتَّبْعِيضِ؛ فإِنَّ الماءَ المُنَزَّلَ مِنْهُ بَعْضُ النَّازِلِ لَا كُلُّه، والثَّالِثُ: أَنْ تَكُونَ هِيَ ومَا بَعْدَهَا، بَدَلًا مِنْ قَوْلِهِ: ﴿مِنَ ٱلسَّمَآءِ﴾، بَدَلَ اشْتِمَالٍ بِتَكْرِيرِ العَامِلِ[1].

بلاغةُ قَوْلِهِ ﷻ: ﴿فَأَحۡيَا بِهِ ٱلۡأَرۡضَ﴾:

دقَّةُ ألفاظِ سياقِ الامتنانِ

عَطَفَتِ الآيةُ ﴿فَأَحۡيَا﴾ عَلَى ﴿أَنزَلَ﴾ في قَوْلِه: ﴿فَأَحۡيَا بِهِ﴾ بِفَاءِ التَّعْقِيبِ؛ دَلَالَةً عَلَى سُرْعَةِ الإِنْبَاتِ[2]، فلَمْ يَكُنْ بَيْنَهُمَا مُهْلَةٌ، والبَاءُ يَجُوزُ أَنْ تَكُونَ لِلسَّبَبِ، وأَنْ تَكُونَ بَاءَ الآلَةِ[3]، وهو تَعْدَادٌ للنِّعَم وبيانُ كَمالِ القُدْرَةِ، حَيْثُ أَحيا الأرضَ بما أَنْزَلَ مِنَ السَّحابِ المُثْقَلِ بالغَيْثِ العَمِيم، فوافى الأَرْضَ مُتَهَيِّئَةً للعَطاءِ، بِما يَتَفَتَّقُ من زَهَرٍ، وما يَكْتَمِلُ مِن ثَمَرٍ[4].

بلاغةُ المجازِ العقليِّ:

إيجازٌ بَليغٌ في الدّلالةِ على المعاني الكثيرةِ

أَرَادَ بِمَوْتِ الأَرْضِ: جُدُوبَتَهَا ويُبُوسَتَهَا، فسَمَّاهَا مَوْتًا مَجَازًا؛ لِأَنَّ الأَرْضَ إِذَا لَمْ يُصِبْهَا مَطَرٌ لَمْ تَنْبُتْ، ولَمْ تُنْمِ نَبَاتًا، وكَانَتْ مِنْ هَذَا الوَجْهِ كَالمَيِّتِ[5]؛ لِأَنَّ الحَيَاةَ لَا تَصِحُّ إِلَّا عَلَى مَنْ يُدْرِكُ ويَصِحُّ أَنْ يَعْلَمَ، وكَذَلِكَ المَوْتُ، إِلَّا أَنَّ الجِسْمَ إِذَا صَارَ حَيًّا حَصَلَ فِيهِ أَنْوَاعٌ من

(1) السمين، الدّر المصون: 2/202.
(2) السمين، الدّر المصون: 2/202.
(3) السمين، الدّر المصون: 2/202.
(4) القرطبيّ، الجامع لأحكام القرآن: 10/122.
(5) النيسابوري، التّفسير البسيط: 3/457.

الحُسْنِ والنُّضْرَةِ والبَهَاءِ، والنُّشُورِ والنَّمَاءِ، فأَطْلَقَ لَفْظَ الحَيَاةِ عَلَى حُصُولِ هَذِهِ الأَشْيَاءِ، وهَذَا مِنْ فصِيحِ الكَلَامِ الَّذِي - عَلَى اخْتِصَارِهِ - يَجْمَعُ المَعَانِيَ الكَثِيرَةَ[1]، فإِطْلَاقُ المَوْتِ والحَيَاةِ عَلَى الأَرْضِ مجَازٌ عَقْلِيٌّ؛ لأَنَّ المَوْتَ والحَيَاةَ لَا يُطْلقَانِ إِلَّا عَلَى مَنْ يُحِسُّ ويُدْرِكُ.

فنُّ الطِّبَاقِ فِي قَوْلِهِ: ﴿فَأَحْيَا بِهِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا﴾:

تنبيهُ الأذهانِ على تمامِ النِّعمةِ وكمالِ المنَّةِ

في مقابلةِ الإحياءِ للموتِ في قوله: ﴿فَأَحْيَا﴾ و﴿مَوْتِهَا﴾ فنُّ الطِّبَاقِ، وهُوَ مِن المُحَسِّنَاتِ المَعْنَوِيَّةِ، والتَّقابُلُ بَيْنهما هو تقابُلٌ ضديٌّ غايتُه زيادةُ الامتنانِ على العبادِ، فإنَّ دَرْكَ قيمةِ حياةِ الأرضِ لا يكونُ تامًّا إلَّا بعد دَرْكِ مَوْتِها.

تعدُّدُ احْتِمالِ تعيينِ المعطوفِ عَلَيْهِ:

بَثُّ الدَّوابِّ في الأرضِ، مُتَّصِلَةٌ بالإنْزالِ والإحْياءِ، دَلالَةً عَلى تَكامُلِ الأفْعالِ

قَوْلُهُ: ﴿وَبَثَّ فِيهَا﴾، قال الزَّمَخْشَرِي: "فَإِن قُلْتَ: قَوْلُهُ: ﴿وَبَثَّ فِيهَا﴾ عَطْفٌ عَلَى ﴿أَنزَلَ﴾ أَمْ ﴿أَحْيَا﴾؟ قُلْتُ: الظَّاهِرُ أَنَّهُ عَطفٌ عَلَى ﴿أَنزَلَ﴾، دَاخِلٌ تَحْتَ حُكْمِ الصِّلَةِ؛ لِأَنَّ قَوْلَهُ: ﴿فَأَحْيَا بِهِ ٱلْأَرْضَ﴾ عَطْفٌ عَلَى ﴿أَنزَلَ﴾، فاتَّصَلَ بِهِ وصَارَا جَمِيعًا كَالشَّيْءِ الوَاحِدِ، فكَأَنَّهُ قِيلَ: (وَمَا أَنْزَلَ في الأَرْضِ مِنْ مَاءٍ وبَثَّ فِيهَا مِنْ كُلِّ دَابَّةٍ)، ويَجُوزُ عَطْفُهُ عَلَى ﴿أَحْيَا﴾، عَلَى مَعْنَى: (فَأَحْيَا بالمَطَرِ الأَرْضَ، وبَثَّ فِيهَا مِنْ كُلِّ دَابَّةٍ)؛ لِأَنَّهُمْ يَنْمُونَ بالخِصْبِ ويَعِيشُونَ بالحَيَا"[2].

تَنْكِيرُ ﴿دَآبَّةٍ﴾ للتَّنويعِ:

التَّنْكِيرُ في ﴿دَآبَّةٍ﴾ في قَوْلِه ﷻ: ﴿وَبَثَّ فِيهَا مِن كُلِّ دَآبَّةٍ﴾؛ لِلتَّنْوِيعِ، أَيْ أَكْثَرَ اللَّه تعالى مِنْ كُلِّ الأَنْوَاعِ، لَا يَخْتَصُّ ذَلِكَ بِنَوْعٍ دُونَ آخَر[3].

---

(1) الرّازيّ، مفاتيح الغيب: 4/170.
(2) الزّمخشريّ، الكشّاف: 1/210، والحَيَا: المطرُ.
(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 2/84.

تصريفُ اللَّهِ الرِّياحَ، مِنَ المُعجِزاتِ الظَّاهِرَةِ في الكَوْنِ

أوْجُهُ الإيجازِ بالحَذْفِ في قَوْلِهِ: ﴿وَتَصۡرِيفِ ٱلرِّيَٰحِ﴾:

قَوْلُه تعالى: ﴿وَتَصۡرِيفِ ٱلرِّيَٰحِ﴾، يُحتملُ أن يكون المعنى: وتَصْريفِ اللَّهِ الرِّياحَ، فأَضَافَ المَصْدَرَ إلَى المَفْعُولِ، والفاعِلُ مَحْذُوفٌ، وهُوَ كَثِيرٌ، وفِيهِ وجْهٌ آخَرُ، وهُوَ أَنْ يَكُونَ ﴿وَتَصۡرِيفِ﴾ مَصْدَرًا مُضافًا لِلْفَاعِلِ، أي: والمَفْعُولُ مَحْذُوفٌ، تَقْدِيرُهُ: وتَصْرِيفُ الرِّيَاحِ السَّحَابَ، فإِنَّهَا تَسُوقُ السَّحَابَ[1].

تَنوُّعُ عَطفِ لَفْظِ السَّحاب، في قَوْلِهِ: ﴿وَٱلسَّحَابِ ٱلۡمُسَخَّرِ﴾:

قَوْلُه ﷻ: ﴿وَٱلسَّحَابِ ٱلۡمُسَخَّرِ﴾ عَطْفٌ عَلَى قَوْلِه: ﴿وَتَصۡرِيفِ ٱلرِّيَٰحِ﴾، أَوْ عَلَى ﴿ٱلرِّيَٰحِ﴾، ويَكُون التَّقْدِيرُ: وتَصْرِيفِ السَّحَابِ المُسَخَّرِ، أَيْ: نَقْلِه مِنْ مَوْضِعٍ إلَى مَوْضِعٍ[2].

الآيةُ مُتَّصِلَةُ الأواخي، في التَّعبيرِ عَنِ الإعْجازِ الكَوْنِيّ، بِبَلاغَةٍ ودِقَّةٍ

فائِدَةُ الفَصْلِ بَيْنَ الجُمَلِ مِنْ أَوَّلِ الآيَةِ إلَى آخِرِهَا:

هنالك عَطْفٌ بَيْنَ الجُمَلِ مِنْ بِدايَةِ الآيَةِ حَتَّى نِهَايَتِها؛ لِاتِّحادِ هَذِهِ الجُمَلِ بالخَبَرِيَّةِ، فكُلُّ جُمْلَةٍ تَحمِلُ دَلِيلًا جَدِيدًا مُخْتَلفًا عَنْ سَابِقِه؛ لِذَلِكَ اسْتَعْمَلَ حَرْفَ الوَاوِ لِلعَطْفِ بَيْنَهَا[3].

تأكيدُ الآياتِ، لِلَفْتِ نَظَرِ العُقَلاءِ إلى بَديعِ صُنْعِ الله

فائِدَةُ اللَّامِ في قَوْلِهِ: ﴿لَأٓيَٰتٖ لِّقَوۡمٖ يَعۡقِلُونَ﴾:

اللَّامُ لِلتَّوْكِيدِ، وهِيَ واقِعَةٌ في اسْمِ ﴿إِنَّ﴾ المُؤَخَّرِ، فقَوْلُهُ ﷻ: ﴿لَأٓيَٰتٖ﴾ اسْمُ ﴿إِنَّ﴾، والجارُّ والمَجْرُورُ ﴿فِي خَلۡقِ﴾ خَبَرٌ مُقَدَّمٌ، ودَخَلَت اللَّامُ عَلَى الاسْمِ؛ لِتَأَخُّرِهِ عَنِ الخَبَرِ، ولَوْ كَانَ مَوْضِعَهُ لما جَازَ ذَلِكَ فيه[4].

دَلالَةُ الآياتِ الكُلِّيَّةُ أوِ الجُزْئِيَّةُ المُبْرِزَةُ لِعَظَمَةِ الكَوْنِ المُسَخَّرِ

دَلالَةُ الجَمْعِ في قَوْلِهِ: ﴿لَأٓيَٰتٖ لِّقَوۡمٖ يَعۡقِلُونَ﴾:

قَوْلُهُ ﷻ: ﴿لَأٓيَٰتٖ﴾ جَمْعٌ، فيُحْتَمَلُ أَنْ يَكُونَ ذَلِكَ رَاجِعًا إلَى

---

(1) النيسابوري، التّفسير البسيط: 3/458، والسمين، الدّر المصون: 2/206.

(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 2/87.

(3) محمد بن سعد الدبل، دليل البلاغة القرآنيّة: 1/226.

(4) السمين، الدّر المصون: 2/208.

الكُلِّ، أَيْ مَجْمُوعُ هَذِهِ الأَشْيَاءِ آيَاتٌ، ويُحْتَمَلُ أَنْ يَكُونَ راجعًا إلى كلِّ واحدةٍ من المذكُوراتِ، أي: أَنَّ في كُلِّ واحِدٍ مِمَّا ذُكِرَ آيَاتٍ كثيراتٍ وأدِلَّةً مُتعدِّدةً[1].

دَلالَةُ التَّنْكِيرِ فِي قَوْلِهِ: ﴿لَأَيَـٰتٍ﴾:

التَّنْكيرُ أدَلُّ عَلى العَظَمَةِ، وأقْرَبُ لِروحِ السِّيَاقِ في الآيَةِ

آثَرَ السِّياقُ التَّنْكِيرَ في قَوْلِهِ ﷻ: ﴿لَأَيَـٰتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ١٦٤﴾، ولَمْ يَقُلْ: (إِنَّ تِلْكَ الآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ) بالتَّعْرِيفِ؛ لِتَفْخِيمِ الآيَاتِ، أَيْ: إِنَّ في تِلْكَ الدَّلائِلِ آيَاتٍ عَظِيمَةً دَالَّةً عَلَى قُدْرَةٍ قَاهِرَةٍ وحِكْمَةٍ بَاهِرَةٍ.

وجْهُ تَخْصِيصِ الآيَاتِ بقوْلِهِ: ﴿لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾، ودَلالَةُ اللّامِ فيها:

خِطابُ العَقْلِ والعُقَلاءِ، مَنْهَجٌ أصيلٌ في الخِطابِ القُرْآنِيِّ

إِنَّمَا خَصَّ الآيَاتِ بِهِمْ؛ لِأَنَّهُم الذينَ يَتَمَكَّنُونَ من النَّظَرِ فِيهِ، والاِسْتِدْلَالِ بِهِ عَلَى مَا يَلْزَمُهُمْ مِنْ تَوْحِيدِ رَبِّهِمْ، وعَدْلِهِ، لِيَقُومُوا بِشُكْرِهِ، ومَا يَلْزَمُ عِبَادَتَهُ وطَاعَتَهُ[2]، مع الإشارةِ إلى أنَّ اللَّامَ في قَوْلِهِ ﷻ: ﴿لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ١٦٤﴾، تُفِيدُ الاخْتِصَاصَ؛ فهَذِهِ المَذْكوراتُ هِيَ لَهُمْ آياتٌ بالانتفاعِ بها دُونَ سِوَاهُمْ؛ فغيرُهُمْ لا يُلاحِظونَ كونَها آيَةً؛ وإِنَّمَا خَصَّتْهُمْ لِكَوْنِهِمْ يَعْقِلُونَ الآيَاتِ، ويَفْهَمُونَ أَنَّ ورَاءَهَا مُبْدِعًا عَظِيمًا.

دَلالَةُ التّعبيرِ بِلَفْظِ (قَوْمٍ):

لا يَنْتَفِعُ بِالنَّظَرِ في الآيـاتِ، إلّا أُولُـو النُّهـى والحصافَةِ

قَالَ ﷻ: ﴿لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ١٦٤﴾، دُونَ أَنْ يُقَالَ (لِلَّذِينَ يَعْقِلُونَ)، أَوْ (لِلعَاقِلِينَ)؛ لِأَنَّ إِجْرَاءَ الوَصْفِ عَلَى لَفْظِ (قَوْم)، يُومِئُ إِلَى أَنَّ ذَلِكَ الوَصْفَ سَجِيَّةٌ فِيهِمْ، ومِنْ مُكَمِّلَاتِ قَوْمِيَّتِهِمْ؛ فإِنَّ لِلقَبَائِلِ والأُمَمِ خَصَائِصَ تُمَيِّزُهَا، وتُشْتَهَرُ بِهَا، كَمَا قال تعالى: ﴿وَمَا هُم مِّنكُمْ وَلَـٰكِنَّهُمْ قَوْمٌ يَفْرَقُونَ ٥٦﴾ [التّوبة: 56]، وقَدْ تَكَرَّرَ هَذَا في مَوَاضِعَ كَثِيرَةٍ مِن القُرْآنِ، ومِنْ كَلَامِ العَرَبِ، فالمَعْنَى أَنَّ في ذَلِكَ آيَاتٍ لِلَّذِينَ

(1) الرّازيّ، مفاتيح الغيب: 4/173.
(2) المصدر السّابق: 4/174.

سَجِيَّتُهُم العَقْلُ، وهُوَ تَعْرِيضٌ بِأَنَّ الَّذِينَ لَمْ يَنْتَفِعُوا بِآيَاتِ ذَلِكَ لَيْسَتْ عُقُولُهُمْ بِرَاسِخَةٍ[1]، وفيها كذلك أنَّ العقلَ ممَّا يقومُ به الإنسانُ ويعيشُ به.

دَلَالَةُ التَّعْبِيرِ بِالفِعْلِ المُضَارِعِ، فِي قَوْلِهِ: ﴿لِّقَوۡمٖ يَعۡقِلُونَ﴾:

تـجَـدُّدِ عـقـلِ الآيــاتِ منهم فكُلَّما نَظَروا عَقَلُوا

قَوْلُهُ: ﴿يَعۡقِلُونَ﴾: الجُمْلَةُ في مَحَلِّ جَرٍّ؛ لِأَنَّهَا صِفَةٌ لِقَوْمٍ[2]، وآثَرَ أَنْ يَكُونَ الوَصْفُ بالجُمْلَةِ الفِعْلِيَّةِ الَّتِي فِعْلُهَا مُضَارِعٌ؛ لِلدَّلَالَةِ عَلَى تَجَدُّدِ فِعْلِ العَقْلِ إِزَاءَ تِلْكَ الآيَاتِ، ولَوْ وصَفَهُ بِالِاسْمِ، فقَالَ: (لِقَوْمٍ عَاقِلِينَ)، لَمَا دَلَّ عَلَى تجَدُّدِ عقلِ الآياتِ منهم كما في التَّعبيرِ بالفعليَّةِ، فإنَّهم كلَّما نظروا عقلوا.

توجيهُ المخصُوصاتِ بالذِّكْرِ:

جـمَـعـتْ بَـيْنَ كَوْنِهَا دَلَائِـلَ، وكَوْنِهَا نِعَمًا؛ فهي أَنْـجَـعُ في القُلُوبِ، وأَشَدُّ تَأْثِيرًا في الخَوَاطِرِ

قَالَ الفَخْر الرَّازِي: إِنَّ "سَائِرَ الأَجْسَام والأَعْرَاض، وإِنْ كَانَتْ تَدُلُّ عَلَى الصَّانِعِ، فهُوَ تعالى خَصَّ هَذِهِ الثَّمَانِيَةَ بِالذِّكْرِ؛ لِأَنَّهَا جَامِعَةٌ بَيْنَ كَوْنِهَا دَلَائِلَ، وبَيْنَ كَوْنِهَا نِعَمًا عَلَى المُكَلَّفِينَ عَلَى أَوْفَرِ حَظٍّ ونَصِيبٍ، ومَتَى كَانَتِ الدَّلَائِلُ كَذَلِكَ، كَانَتْ أَنْجَعَ في القُلُوبِ، وأَشَدَّ تَأْثِيرًا في الخَوَاطِرِ"[3].

---

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 2/89.

(2) السمين، الدّر المصون: 2/208.

(3) الرّازيّ، مفاتيح الغيب: 4/174.

﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَتَّخِذُ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَندَادًا يُحِبُّونَهُمۡ كَحُبِّ ٱللَّهِۖ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَشَدُّ حُبًّا لِّلَّهِۗ وَلَوۡ يَرَى ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓاْ إِذۡ يَرَوۡنَ ٱلۡعَذَابَ أَنَّ ٱلۡقُوَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا وَأَنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلۡعَذَابِ ١٦٥﴾ [البقرة: 165]

❁ مُناسَبَةُ الآيَةِ لِمَا قَبْلَها:

تقريرُ دَلائِلِ التَّوحيدِ، والنَّصُّ على تَقْبيحِ ما يُضادُّهُ

لَمَّا ذَكَرَ اللّٰه تعالى الأَدِلَّة عَلَى وحْدَانِيَّتِهِ في الآيَةِ السَّابِقَة، أَخْبَرَ أَنَّ قَوْمًا بَعْدَ ذَلِكَ البَيَانِ يَتَّخِذُونَ الأَنْدَادَ، مَعَ عِلْمِهِمْ أَنَّهُمْ لَا يَأْتُونَ بِشَيْءٍ مِمَّا ذُكِرَ[1]. فلمّا قَرَّرَ سُبْحَانَهُ وتَعَالَى التَّوْحِيدَ بِالدَّلَائِلِ، أَرْدَفَ ذَلِكَ بِتَقْبِيحِ مَا يُضَادُّ التَّوْحِيدَ؛ لِأَنَّ تَقْبِيحَ ضِدِّ الشَّيْءِ، مِمَّا يُؤَكِّدُ حُسْنَ الشَّيْءِ، وبِضِدِّهَا تتميَّزُ الأَشْيَاءُ؛ فلِهَذَا السَّبَبِ أَرْدَفَ اللّٰه تعالى الآيَةَ الدَّالَّةَ عَلَى التَّوْحِيدِ بِهَذِهِ الآيَةِ[2].

❁ شَرْحُ المُفْرَدَاتِ:

اتّخاذُ غَيْرِ اللهِ إلهًا ضلالٌ في السَّعْيِ، وانْحِرافٌ في القَصْدِ

1) ﴿يَتَّخِذُ﴾: مِنَ الجذْرِ (أَخَذَ)، وأَصْلُ هذه المادّة: حَوْزُ الشَّيْءِ وجَبْيُهُ وجَمْعُهُ، وهُوَ التَّنَاوُلُ، خِلَافُ العَطَاءِ[3]، والاتِّخَاذُ افْتِعَالٌ مِنْهُ، ويُعَدَّى إِلَى مَفْعُولَيْنِ، ويَجْرِي مَجْرَى الجَعْلِ، نَحْوَ قَوْلِهِ تعالى: ﴿لَا تَتَّخِذُواْ ٱلۡيَهُودَ وَٱلنَّصَٰرَىٰٓ أَوۡلِيَآءَ﴾ [المائدة: 51]، ﴿أَمِ ٱتَّخَذُواْ مِن دُونِهِۦٓ أَوۡلِيَآءَۖ﴾ [الشّورى: 9][4].

لا نِدَّ لِلّٰهِ في ذاتِهِ، ولا شَريكَ لَهُ في مُلْكِهِ

2) ﴿أَندَادًا﴾: مِنَ الجذْرِ (ندد)، ونَدِيدُ الشَّيْءِ: مُشَارِكُهُ في جَوْهَرِهِ، مِنَ المُمَاثَلَةِ، وكُلُّ نِدٍّ مِثْلٌ، ولَيْسَ كُلُّ مِثْلٍ نِدًّا، قال تعالى: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَتَّخِذُ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَندَادًا﴾ [البقرة: 165][5]، ولَا يَكُونُ

(1) الواحدي، التّفسير البسيط: 3/466.
(2) الرّازيّ، مفاتيح الغيب: 4/174.
(3) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (أخذ).
(4) الراغب، المفردات: (أخذ).
(5) الراغب، المفردات: (ندد).

النِّدُّ إلَّا مُخَالِفًا[1]، وفُلَانٌ نِدُّ فُلَانٍ، أَي: مِثْلُه وشِبْهُهُ[2]، والمُرَادُ بِهِمُ الأَصْنَامُ، أَوْ مَنْ يُطِيعُونَهُمْ من الرِّجَالِ، مِنْ دُونِ اللَّهِ ﷻ، فالأَصْنَامُ أَنْدَادٌ، بَعْضُهَا لِبَعْضٍ، أَيْ: أَمْثَالٌ، لَيْسَتْ أَنَّهَا أَنْدَاد لِلَّهِ تعالى[3].

حُبُّ اللهِ طاعَةٌ وامْتِثالٌ

3) ﴿يُحِبُّونَهُمْ﴾: مِنَ الجذْرِ (حبب)، وأَصْلُ هذه المادّة: اللُّزُومُ والثَّبَاتُ، مِنْ: أَحَبَّهُ إِذَا لَزِمَهُ[4]، وحَبَّةُ القَلْبِ تَشْبِيهًا بالحَبَّةِ في الهَيْئَةِ، وحَبَبْتُ فلانًا: أَصَبْتُ حَبّةَ قَلْبِه، وجَعَلْتُ قَلْبي مُعَرَّضًا لحُبِّه، والمَحَبَّةُ: إِرَادَةُ مَا تَرَاهُ أَوْ تَظُنُّهُ خَيْرًا[5]، ومَحَبَّةُ العَبْدِ لِلَّهِ تعالى إِرَادَةُ طَاعَتِه، والاعْتِنَاءُ بِتَحْصِيلِ مَرَاضِيه[6].

أَشَدُّ النّاسِ حُبًّا للهِ، المتَّبِعونَ لِرَسولِهِ ﷺ

4) ﴿أَشَدُّ﴾: مِنَ الجذْرِ (شدّ)، وأَصْل هذه المادّة يَدُلُّ عَلَى قُوَّةٍ في الشَّيْءِ[7]، والشَّدُّ: العَقْدُ القَوِيّ، يقالُ: شَدَدْتُ الشَّيْءَ: قَوّيتُ عَقْدَهُ، قال اللَّه تعالى: ﴿وَشَدَدْنَآ أَسْرَهُمْ﴾ [الإنسان: 28][8]، و قَوْلُهُ: ﴿شَدِيدُ﴾: من مادّة (شدّ) أيضًا، شَدَّ الشَّيْءُ يَشِدُّ: قَوِيَ، فهُوَ شَدِيدٌ.

مَنْ فُتِحَتْ بَصيرَتُهُ، رَأَى بِعَيْنِهِ الحَقائِقَ، وذاقَ بِقَلْبِهِ الرَّقائِقَ

5) ﴿يَرَى﴾: مِنَ الجذْرِ (رأي)، والأَصْلُ فيه الدلالة عَلَى نَظَرٍ وإِبْصَارٍ بِعَيْنٍ أَوْ بَصِيرَةٍ[9]، والرُّؤْيَةُ: إدراكُ المَرْئِيِّ[10]، والمُرَادُ بِالرُّؤْيَةِ هَاهُنَا: رُؤْيَةُ العَيْنِ المُتَعَدِّيَةُ إِلَى مَفْعُولٍ واحِدٍ[11].

6) ﴿ظَلَمُوٓاْ﴾: مِنَ الجذْرِ (ظَلَمَ)، وأَصْلُ هذه المادّة يَدُلُّ على خِلَافِ الضِّيَاءِ والنُّورِ، ووَضْعِ الشَّيْءِ غَيْرَ مَوْضِعِه تَعَدِّيًا[12]، ويَدُلُّ على

---

(1) الفيّومي، المصباح المنير: (ندد).
(2) الواحدي، التّفسير البسيط: 2/228.
(3) المصدر السّابق: 3/466-467.
(4) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (حبب).
(5) الراغب، المفردات: (حبب).
(6) البيضاويّ، أنوار التنزيل: 1/117.
(7) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (شدّ).
(8) الراغب، المفردات: (شدّ).
(9) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (رأى).
(10) الراغب، المفردات: (رأى).
(11) الواحدي، التّفسير البسيط: 3/472.
(12) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (ظلم).

الظّلْمُ مَرْتَعُهُ وخيمٌ

حَجْبِ مَا يَنْبَغِي أَوْ مَا يُسْتَحقّ، أي منْعِهِ أو انْتِقاصِه، كَمَنْعِ الضَّوْءِ في حَالَةِ الظُّلْمَة، فالظَّلامُ يَحْجُبُ الرُّؤْيَةَ[1]، والظُّلْمُ: المَيْلُ عَنِ القَصْدِ[2].

العَذابُ دَلالَةٌ عَلى عَدْلِ اللهِ مَعَ عِبادِهِ

7) ﴿ٱلْعَذَابَ﴾: مِنَ الجذْرِ (عذب)، وأصله من الضّرب بِعَذَبَةِ السّوطِ، وعَذَبَةُ السّوطِ واللّسانِ والشّجرِ: أطرافُها، والعَذَابُ: هو الإيجاعُ الشَّديدُ، وقدْ عَذَّبَهُ تَعْذِيبًا: أَكْثَرَ حَبْسَهُ في العَذَابِ[3].

مَنْ قَوِيَ بِالتَّوَكُّلِ عَلى اللهِ، لَمْ يَرْهَبْ أحدًا سِواهُ

8) ﴿ٱلْقُوَّةَ﴾: مِنَ الجذْرِ (قوي)، وأَصْلُ هذه المادّة يَدُلُّ عَلَى شِدَّةٍ وخِلَافِ ضَعْفٍ، والقوِيُّ: خِلَافُ الضَّعِيفِ، ورَجُلٌ شَدِيدُ القُوَى، أَيْ شَدِيدُ أَسْرِ الخَلْقِ[4]، والقُوَّةُ تُسْتَعْمَلُ في مَعْنَى القُدْرَة، نَحْوُ قَوْلِه: ﴿خُذُواْ مَآ ءَاتَيۡنَٰكُم بِقُوَّةٖ﴾ [البقرة: 63]، وفي القُدْرَةِ الإلَهِيَّة، نَحْوُ قَوْلِه: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ قَوِيٌّ عَزِيزٞ ۝٢١﴾ [المجادلة: 21][5].

المَعْنَى الإجْمَالِيُّ:

الاعْتِصامُ بالإيمانِ باللهِ مَنَعَةٌ، واللّجوءُ إلى غَيْرِهِ هَلَكَةٌ

وبعدَ كُلِّ الأدلّةِ والآياتِ النّاطقَةِ بتَوحيدِ اللّه تَعالى، هُنَاكَ فِئَةٌ مِنَ النّاسِ - مَعَ أَنَّهُمْ يُقِرّونَ بِهَذِهِ الآياتِ، وأَنَّ اللّه هُوَ الخَالِقُ الوحيدُ، والإلَهُ العَظيمُ - يُسَوُّون بينَ هذا الخالِقِ العظيم، والرّبِّ الرَّحيم، وبَيْنَ كُبَرائِهِمْ، والأصنامِ الّتي يَعْبُدُونَهَا؛ لِتُقَرِّبَهم إلى اللّه كما يَدَّعونَ، فهم أضاعُوا الطّريقَ المُستقِيمَ إلى اللّه؛ فاللّه تعالى عِنْدَهُمْ ربٌّ مَعَ أربابٍ، وإلَهٌ بينَ آلِهَةٍ، فوَلاؤُهُمْ وحُبُّهُمْ قِسْمَةٌ بَيْنَ الآلِهَةِ والأربابِ في السَّرّاءِ، أمّا في الضّرّاءِ فلا يَدْعونَ إلّا اللّه، ولَيسَ هذا مِنَ الحُبِّ الّذي يرتضيهِ الإلَهُ، ولَيْسَ كذلكَ حُبُّ الّذينَ آمَنوا، وأَخْلَصوا إيمانَهُم لِلّه، فحُبُّهُمْ كلُّه للّه تعالى وحْدَهُ؛ لِأَنّهُمْ لا يُشْرِكُون معَ اللّه أحدًا، ويُحِبُّونَهُ في السّرّاءِ والضّرّاءِ.

(1) جبل، المعجم الاشتقاقيّ المؤصّل: (ظلم).
(2) ابن منظور، لسان العرب: (ظلم).
(3) الراغب، المفردات: ، ص: 455-554.
(4) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (قوي).
(5) الراغب، المفردات: (قوي).

الوَحدانيّةُ والقُوّةُ للهِ وَحْدَهُ، والهَلاكُ لِمَنْ أَشْرَكَ بِهِ سِواهُ

ولو يَرى المُشركونَ حَالَهُم في الآخِرَةِ، حِينَ يُشاهدونَ العَذابَ؛ لعَلِموا أنَّ المُتَفَرِّدَ بالقوّة جَميعًا هُو اللّه، وأنَّهُ شَديدُ العَذابِ لمَنْ عَصاهُ، فلَوْ رَأَوْا ذلك لَما أشْرَكوا مَعَهُ أحَدًا، فهُوَ انتقالٌ لما سيكون يَوْمَ القيامَةِ، يقرِّرُ نَهايَةَ حُبِّ الأنداد من دُون اللّهِ تعالى؛ لأنَّهُ حُبٌّ أُعْطِيَ لآخَرينَ، بِصِفَةٍ لَيْسَتْ لَهُم، فأعْطَوْهُم ما لا يَسْتَحِقُّون، وهذا ظلمٌ كبيرٌ، ومَيْلٌ عنِ الحَقّ، وفي ذلك اليوم سَيَرَوْنَ أنَّ المُلك للّهِ وحْدَهُ، وأَنَّ القوّةَ كلَّها بيَدِهِ، ولَنْ يَدْفَعَ عَنْهُمْ أَحَدٌ العَذابَ الشّديدَ الّذي وُعِدوا به.

الإيضاح اللُّغَوِيُّ والبَلاغِيُّ:

الاسْتِئنافُ لِبَيانِ حالِ المُشْرِكينَ:

مَنْ لَمْ يَتَعَقّلْ دَلائِلَ التَّوْحيدِ، أضاعَ عُمْرَهُ في الكُفْرانِ والجُحودِ

الآيَةُ من قوله تعالى: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَتَّخِذُ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَندَادًا﴾، اسْتِئْنَافٌ لبَيَانِ حَالِ المُشْرِكِينَ، بَعْدَ أَنْ قَدَّمَ أَدِلَّةَ التَّوْحِيدِ، اسْتَأْنَفَ الكَلَامَ؛ لِيُبَيِّنَ أَنَّ من النَّاسِ فِئَةً لَمْ يَعْقِلُوا تِلْكَ الآيَاتِ الدَّالَّةَ عَلَى التَّوْحِيدِ[1].

دَلَالَةُ (مِنْ) في قَوْلِهِ: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ﴾:

مَنْ رَفَضَ الدَّليلَ، هَوى في مَتاهاتِ التَّخْييلِ

يَدُلُّ حَرْفُ الجَرِّ (مِنْ) عَلَى التَّبْعِيضِ؛ فالَّذِينَ يَتَّخِذُونَ أَنْدَادًا مِنْ دُونِ اللَّه تعالى، هُم بَعْضُ النَّاسِ، حيثُ إنّ "(مِنْ) لِلبَعْضِيَّةِ، أَيْ: بَعْضُ النَّاسِ، وفي ذَلِكَ تَصْغيرٌ لِشَأْنِهِمْ، وتَهْوِينٌ لِأَمْرِهِمْ، سَوَاءً أَكَانُوا عَدَدًا قَلِيلًا، أَمْ كَانُوا عَدَدًا كَثِيرًا، فهم مَهِينُونَ في تَفْكِيرِهِمْ، إذْ هُم رَفَضُوا الدَّلِيلَ المُشْتَقَّ مِنْ وُجُودِهِمْ، ومَا يُحِيطُ بِهِمْ، فضَلُّوا ضَلَالًا بَعِيدًا"[2].

دَلالَةُ الاسْمِ المَوْصولِ (مَنْ):

القُرآنُ يُعْنَى بالمُعتقداتِ، ولا يَلْتَفِتُ غالِبًا إلى الأشْخاصِ

التَّعْبِيرُ بِالاسْمِ المَوْصُولِ (مَنْ)؛ لِأَنَّهُ لَا يَعْنِي أَشْخَاصًا بِأَعْيَانِهِمْ؛ ذلك أنّهُ يُريدُ التَّعْميمَ؛ حَيْثُ يَقْصِدُ الانْحِرَافَ عَنْ عِبَادَةِ

(1) محمد بن سعد الدبل، دليل البلاغة القرآنيّة: 1/229.

(2) أبو زهرة، زهرة التّفاسير: 1/492-493.

اللّه، ولَيسَ الأَشْخاصَ المُتَّخِذينَ الأَنْدادَ، وهَذَا مِنْ دِقَّةِ التَّعْبيرِ القُرْآنيِّ؛ لِأَنَّهُ يريدُ بيانَ العَقَائِدِ لا الأَشْخَاصِ.

دَلَالَةُ فعل (الِاتِّخَاذِ) في الآية:

التَّعْبير بالفِعْلِ ﴿يَتَّخِذُ﴾ في قَوْلِهِ ﷻ: ﴿يَتَّخِذُ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَندَادًا﴾؛ إشَارَةٌ إلَى أَنَّ وُجُودَ الأَنْدَادِ مُصْطَنَعٌ، فلَيْسَ لَهَا وُجُودٌ ذَاتيٌّ[1]، وفِيهِ دَلَالَةٌ عَلَى أَنَّ هَؤُلَاءِ القَوْمِ لَيْسُوا مُقَلِّدِينَ آبَاءَهُمْ وحَسب، بَلْ لَدَيْهِمْ إِصْرَارٌ وقَصْدٌ؛ لِذَا عَبَّرَ بَعْدَ ذَلِكَ عَنْ حُبِّهِمْ لَهُمْ، فكَأَنَّ الآيَةَ لَا تَعْنِي جَمِيعَ المُشْرِكِينَ، بَلْ أُولَئِكَ الَّذِينَ يَخْتَارُونَ الأَنْدَادَ عَنْ قَصْدٍ وحُبٍّ، مُعْرِضِينَ عَنْ تِلْكَ الآيَاتِ الَّتِي تُظْهِرُ لَهُمْ وحْدَانِيَّةَ الخَالِقِ لِهَذَا الكَوْنِ، والتَّعْقِيبُ عَلَى تِلْكَ الآيَاتِ بِهَؤُلَاءِ الَّذِينَ يَخْتَارُونَ الأَنْدَادَ، ويُحِبُّونَهُمْ ويُعْرِضُونَ عَنِ الخَالِقِ الوَاحِدِ، مُنَاسِبٌ لِلآيَةِ السَّابِقَةِ؛ فهُمْ يَخْتَارُونَ الإِعْرَاضَ مَعَ تَوَفُّرِ الآيَاتِ.

نكتةُ إِفْرادِ فِعْلِ ﴿يَتَّخِذُ﴾، وجَمْعِ فِعْلِ ﴿يُحِبُّونَهُمْ﴾:

الفِعْلُ ﴿يَتَّخِذُ﴾ جاء مُفْرَدًا على لَفْظِ (مَنْ)، والفعلُ ﴿يُحِبُّونَهُمْ﴾ جاء جَمْعًا، على مَعْنى (مَنْ)، لأنّ (مَنْ) مُفْرَدةٌ لفظًا، مَجْموعَةٌ مَعنًى[2]، فكانَ الاتِّخاذُ ﴿يَتَّخِذُ﴾، فِعْلًا فَرْدِيًّا مَعْزولًا، يُبادِرُ بِهِ النُّخْبَةُ عادَةً، أمّا فِعْلُ مَحبَّةِ الأصنام كحُبِّ اللّه ﴿يُحِبُّونَهُمْ﴾، فهُو جَمْعٌ لأنّهُ مِنْ فعلِ العامَّةِ بَعْدَ الخاصَّةِ، وهُوَ شائعٌ مُنْتَشِرٌ في البيئَةِ الجاهِلِيّةِ عادةً، والاتِّخاذُ فِعلٌ يُلاحظُ فيه الاتحادُ في الفِعل، بخلافِ الحبِّ فهو متفاوِتٌ في درجاته.

فائِدَةُ التَّعْبِيرِ بِقَوْلِهِ: ﴿مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾:

أفادَ قَوْلُهُ ﷻ: ﴿مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾ معنى الإعراضِ عن اللّه تعالى، والانهماكِ في عبادَةِ ما سِواه؛ لِأَنَّ كَلِمَةَ (دُونَ) تُؤْذِن بالحَيْلُولَةِ، فلو

التَّنديدُ بِأَصْحابِ المَقَاصِدِ والفَهْمِ أشَدُّ؛ لِأَنَّهُمْ ضَلّوا عَلَى عِلْمٍ

اتِّحادُ دَرَجَةِ المُتَّخِذين، وتفاوُتُ درجاتِ المُحبِّين

الإِعْراضُ عَنِ اللهِ خُسْرانٌ، وعِبادَةُ غَيْرِهِ هَوانٌ

(1) أبو زهرة، زهرة التّفاسير: 1/493.

(2) الشّيخلّي، بلاغة القرآن في الإعجاز: 1/363.

قيل: (اتَّخذَهُ دُون اللَّهِ)، فالمَعْنَى: أَفْرَدَهُ وأَعْرَضَ عَن اللَّهِ، بينما معنى: (اتَّخذَهُ مِنْ دُونِ اللَّهِ): جَعَلَهُ حَائِلًا عَن اللّهِ، أَيْ أَشْرَكَهُ مَعَ اللَّهِ؛ لِأَنَّ الإِشْرَاكَ يَسْتَلْزِمُ الإِعْرَاضَ عَنِ اللّهِ، في أَوْقَاتِ الشُّغْلِ بِعِبَادَةِ ذَلِكَ الشَّرِيكِ[1].

فائِدَةُ التَّنْكِيرِ في قَوْلِهِ: ﴿أَندَادٗا﴾:

تـنـوُّعُ الأنْـدادِ وكثرتُهم في كلِّ عصرٍ وأوانٍ

في قَوْلِهِ عَزَّ جَلَّ: ﴿يَتَّخِذُ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَندَادٗا﴾، عَبَّرَ عَن الأَنْدَادِ بالتَّنْكِيرِ؛ لِلتَّنْوِيعِ والتَّكثيرِ والإبهامِ، فالأَنْدَادُ كَثِيرُونَ؛ إِذْ يَدْخُلُ ضِمْنَهُم الأَصْنَامُ والآلِهَةُ، والسَّادَةُ والكُبَرَاءُ، ومن كانَ معلومًا عند نُزولِ الآيةِ ومن لم يكن معلومًا؛ كَقَوْلِهِ ﷻ: ﴿وَقَالُواْ رَبَّنَآ إِنَّآ أَطَعۡنَا سَادَتَنَا وَكُبَرَآءَنَا فَأَضَلُّونَا ٱلسَّبِيلَا۠ ٦٧﴾ [الأحزاب: 67]، فإنَّ الأنداد كثيرون، وفي كلِّ عصرٍ جديدٍ اختِراعُ أنداد.

التَّعْبِيرُ عَنِ الأَصْنَامِ بِالضَّمِيرِ الخَاصِّ بالعَاقِلِ:

التَّـنـبـيـهُ على خـطـورةِ الأنـدادِ العقلاءِ، وأنَّهم شرٌّ من غيرِهم

عَبّر بالضَّمِيرِ (هُمْ) الخَاصِّ بالعُقَلَاءِ عَن الأَصْنَامِ، "وهِيَ لَا تَعْقِلُ؛ لِأَنَّهَا كَانَتْ عِنْدَهُمْ مِمَّنْ يَعْقِلُ ويَفْهَمُ، فخُوطِبُوا عَلَى مَا كَانَ في ظَنِّهِمْ، فأُجْرِيَتْ مُجْرَى مَنْ يَعْقِلُ"[2]، وهَذَا يَجْرِي عَلَى قَوْلِ مَنْ فسَّرَ الأَنْدَادَ بالأَصْنَامِ، وأمّا مَنْ فسَّرَهَا بِأَنَّها سَادَتُهُمْ من الرِّجَالِ، الَّذِينَ كَانُوا يُطِيعُونَهُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ تعالى، فالضَّميرُ يَجْرِي عَلَى حَقِيقَتِهِ، وهُوَ مَا رَجَّحَهُ الفَخْرِ الرَّازِيُّ، فالمُرَادُ بالأَنْدَادِ قَوْمٌ عُقَلَاءُ؛ ومن الأَدِلَّةِ عَلَى ذَلِكَ أَنَّ اللَّهَ تعالى ذَكَرَ بَعْدَ هَذهِ الآيَةِ: ﴿إِذۡ تَبَرَّأَ ٱلَّذِينَ ٱتُّبِعُواْ مِنَ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُواْ﴾ [البَقَرَة: 166]، وذَلِكَ لَا يَلِيقُ إِلَّا بِمَن اتَّخَذَ الرِّجَالَ أَنْدَادًا وأَمْثَالًا لِلَّهِ تعالى، يَلْتَزِمُونَ مِنْ تَعْظِيمِهِمْ والانْقِيَادِ لَهُمْ، مَا يَلْتَزِمُهُ المُؤْمِنُونَ مِن الانْقِيَادِ لِلَّهِ تعالى[3].

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 2/89.
(2) مكّيّ بن أبي طالب، الهداية إلى بلوغ النّهاية: 1/535.
(3) الرّازيّ، مفاتيح الغيب: 4/175.

مَعْنَى التَّشْبِيهِ فِي قَوْلِهِ: ﴿كَحُبِّ ٱللَّهِۖ﴾:

من اسْتَوى عِنْدَهُ حُبُّ اللهِ وحُبُّ سِواهُ، فهُوَ سادِرٌ في غَيِّهِ وضلالِهِ

قَوْلُهُ ﷻ: ﴿كَحُبِّ ٱللَّهِۖ﴾ تَشْبيه مُرْسَلٌ مُجمَلٌ[1]؛ حَيْثُ ذُكِرَتِ الأَدَاةُ، وحُذِف وجْهُ الشّبَه، فشُبِّهَ حُبُّ الكُفَّارِ لِلأَصْنَام بِحُبِّ المُؤْمِنينَ لِلَّهِ تعالى[2]، وذَكَرَ الزَّمَخْشَرِيُّ تَأْوِيلًا آخَر لِلتَّشْبِيه، فشَبَّهَ حُبَّ المُشْرِكِينَ لِلأَنْدَاد، بِحُبِّ المُشْرِكينَ لِلَّه تعالى: "كَحُبِّهِمُ اللَّه، أَيْ: يُسَوُّونَ بَيْنَهُ وبَيْنَهُمْ في مَحَبَّتِهِمْ؛ لِأَنَّهُمْ كَانُوا يُقِرُّونَ بِاللَّهِ، ويَتَقَرَّبُونَ إِلَيْه، فإِذَا رَكِبُوا في الفُلْك دَعَوُا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ"[3]، وهَذَا التَّأْوِيلُ "أَشْهَرُ؛ لِأَنَّهُمْ يَلْتَجِئُونَ إِلَيْهِ تعالى في الشَّدَائِد، ويَدْعُونَهُ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ، قال تعالى: ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُۚ﴾ [لقمان: 25]"[4]، ورجّح أَبُو السُّعُود أنّه: "مَصْدَرٌ تَشْبِيهِيٌّ، أَيْ نَعْتٌ لِمَصْدَرٍ مُؤَكِّدٍ لِلفِعْلِ السَّابِق، ومِنْ قَضِيَّةِ كَوْنِهِ مَبْنِيًّا لِلفَاعِل، كَوْنُهُ أَيْضًا كَذَلِكَ، والظَّاهِرُ اتِّحَادُ فاعِلِهِمَا؛ فإِنَّهُمْ كَانُوا يُقِرُّونَ بِهِ تعالى أَيْضًا، ويَتَقَرَّبُونَ إِلَيْه، فالمَعْنَى: يُحِبُّونَهُمْ حُبًّا كَائِنًا كَحُبِّهِمْ لِلَّهِ تعالى، أَيْ يُسَوُّونَ بَيْنَهُ تعالى وبَيْنَهُمْ في الطَّاعَةِ والتَّعْظِيم"[5].

إِيثَارُ الإِظْهَارِ عَلَى الإِضْمَارِ فِي قَوْلِهِ: ﴿يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ ٱللَّهِۖ﴾:

المؤمنون أشدُّ حُبًّا للهِ، والمُشركون يَخلِطُون حُبَّهُ بِسواهُ

آثَرَ النَّظمُ إظهارَ اسْم الجَلالَةِ عَلَى إِضْمَارِه، مَعَ أَنَّهُ سَبَقَ ذِكْرُهُ في الآيَة، في قَوْلِه ﷻ: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَتَّخِذُ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَندَادًا يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ ٱللَّهِۖ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَشَدُّ حُبًّا لِّلَّهِۗ﴾، فلم يَقُلْ: (كَحُبِّهِ)؛ "وَإِظْهَارُ الاِسْم الجَلِيلِ في مَقَام الإِضْمَار؛ لِتَرْبِيَةِ المَهَابَة، وتَفْخِيم المُضَافِ، وإِبَانَةِ كَمَالِ قُبْحِ مَا ارْتَكَبُوهُ"[6].

(1) محمد علي جميل، صفوة التّفاسير: 1/99.
(2) النيسابوري، التّفسير البسيط: 3/469.
(3) الزّمخشريّ، الكشّاف: 1/211.
(4) حاشية القونوي على تفسير البيضاوي: 4/410.
(5) أبو السّعود، إرشاد العقل السليم: 1/185.
(6) المصدر السّابق: 1/186.

دَلالَةُ الإيجَازِ بِالحَذْفِ فِي هَذِهِ الآيَةِ:

لا يَنْفَعُ الحُبُّ لله، إلّا إذا صُفِّيَ تمامًا مِنْ كَدَرِ الإشْراكِ

في قَوْلِهِ ﷻ: ﴿كَحُبِّ ٱللَّهِ﴾، أُضِيفَ المَصْدَرُ (حُبّ) إلَى المَفْعُولِ، وحُذِفَ الفَاعِلُ، وفي تَقْدِيرِ الفَاعِلِ طَرِيقَتَانِ: إحداهما: أَنَّ المَعْنَى: كَحُبِّ المُؤْمِنِينَ اللّه، أَيْ: يُحِبُّونَ الأَصْنَامَ كَمَا يُحِبُّ المُؤْمِنُونَ رَبَّهُمْ، الثَّانِية: أَنَّ المَعْنَى: يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ اللّهِ، أَيْ: يُسَوُّونَ بَيْنَ هَذِهِ الأَصْنَامِ وبَيْنَ اللّهِ ﷻ في الحُبِّ، فيَكُونُ تَقْدِيرُ الآيَةِ: يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّهِم اللّه، فالمُشْرِكُونَ هُمُ المُحِبُّونَ، وبِهَذَا فقَدْ أَثْبَتَ لِلمُشْرِكِينَ حُبًّا لِلّه، فشَبَّهَ حُبَّهُمُ الأَصْنَامَ بِحُبِّهِمُ اللّه تَعالى[1]، ويَصِحُّ أَنْ يُقَدَّرَ: يُحِبُّونَهُمْ كَمَا يَجِبُ أَنْ يُحَبَّ اللّهُ تعالى[2].

دَلالَةُ التَّعْبِيرِ عَنِ الحُبِّ بِـ﴿أَشَدُّ﴾ دُونَ (أَحَبُّ) فِي الآيَةِ:

مَحبّةُ المُؤمِنينَ للهِ خالِيَةٌ مِنَ الشَّوائِبِ، خالِصَةٌ لَهُ مِنْ دُونِ النّاسِ

قَوْلُهُ ﷻ: ﴿أَشَدُّ حُبًّا لِّلَّهِ﴾، فِيهِ تَصْرِيحٌ بِشِدَّةِ الحُبِّ، مَعَ مَا فِيهِ مِن المُقَارَنَةِ والمُفَاضَلَةِ، وبِهَذَا فهُوَ أَبْلَغُ مِنْ أَنْ يَقُولَ: (أَحَبُّ لِلَّه)، قال البَيْضَاوِيُّ في قَوْلِهِ ﷻ: ﴿فَهِيَ كَٱلۡحِجَارَةِ أَوۡ أَشَدُّ قَسۡوَةٗ﴾ [البَقَرَة: 74]: "وإِنَّمَا لَمْ يَقُلْ: (أَقْسَى)؛ لِمَا فِي ﴿أَشَدُّ﴾ مِن المُبَالَغَةِ، والدَّلالَةِ عَلَى اشْتِدَادِ القَسْوَتَينِ، واشْتِمَالِ المُفَضَّلِ عَلَى زِيادَةٍ"[3]، وقَوْلُهُ ﷻ: ﴿أَشَدُّ حُبًّا﴾ مِثْلُهُ؛ "لأَنَّ فِيهِ إِشَارَةً إِلَى أَنَّ المَحَبَّتَيْنِ مُشْتَدَّتَانِ، والمُفَضَّلَ - أَعْنِي مَحَبَّةَ المُؤْمِنِينَ رَبَّهُمْ - مُشْتَمِلٌ عَلَى زِيادَةِ الاشْتِدَادِ مِن المُفَضَّلِ عَلَيْهِ - وهُوَ مَحَبَّةُ المُشْرِكِينَ الأَنْدَادَ ... فلَوْ قِيلَ: (أَحَبُّ لِلّه)؛ لَفَاتَتْ هَذِهِ المُبَالَغَةُ؛ ولَفُهِمَ أَنَّهُمْ والمُشْرِكِينَ مُتَشارِكَانِ في نَفْسِ المَحَبَّةِ، واشْتِمَالُ المُفَضَّلِ عَلَى زِيَادَةِ المَحَبَّةِ، لَا اشْتِدَادِهَا، ولَا رَيْبَ فِي أَنَّ زِيَادَةَ اشْتِدَادِ المَحَبَّةِ، أَبْلَغُ وأَقْوَى مِنْ زِيَادَةِ نَفْسِ المَحَبَّةِ"[4].

(1) النيسابوري، التّفسير البسيط: 3/468-469.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 2/91.
(3) البيضاويّ، أنوار التنزيل: 1/88.
(4) حاشية القونوي على تفسير البيضاوي: 4/412.

وجهُ وصفِ حُبِّ المُؤْمِنِينَ بالشِّدَّةِ في قوْلِه: ﴿أَشَدُّ حُبًّا لِّلَّهِۗ﴾:

حُبُّ المؤمنينَ لله حُبٌّ خالِصٌ، لا يضعُفُ بأدنى الأسْبابِ

عَبَّرَ باسْمِ التَّفْضِيلِ ﴿أَشَدُّ﴾؛ لِأَنَّهُ فضَّلَ مَحَبَّةَ المُؤْمنِينَ بِقَوْلِه: ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَشَدُّ حُبًّا لِّلَّهِۗ﴾ مِنْ حُبِّ الكَفَرَةِ لِأَنْدادِهِمْ[1]، وقدْ بَيَّنَ الزَّمَخْشَرِيُّ سَبَبَ ذَلِكَ بِقَوْلِه: "لِأَنَّهُمْ لا يَعْدِلُونَ عَنْهُ إِلَى غَيْرِه، بِخِلَافِ المُشْرِكِينَ؛ فإِنَّهُمْ يَعْدِلُونَ عَنْ أَنْدادِهِمْ إِلَى اللَّهِ عِنْدَ الشَّدائِدِ، فيَفْزَعُونَ إِلَيْه، ويَخْضَعُونَ لَهُ، ويَجْعَلُونَهُمْ وسَائِطَ بَيْنَهُمْ وبَيْنَهُ، فيَقُولُونَ: هَؤُلَاءِ شُفَعَاؤُنَا عِنْدَ اللهِ، ويَعْبُدُونَ الصَّنَمَ زَمَانًا ثُمَّ يَرْفُضُونَهُ إِلَى غَيْرِه[2]، وفي ذَلِكَ أَضافَ الشَّيْخُ ابنُ عَاشُور: أَيْ أَشَدُّ مِنْ مَحَبَّةِ أَصْحَابِ الأَنْدَادِ أَنْدَادَهُمْ، ومِنْ مَحَبَّةِ بَعْضِهِمْ لِلَّه، مِمَّنْ يَعْتَرِفُ بِاللَّهِ مَعَ الأَنْدادِ، لِأَنَّ مَحَبَّةَ جَمِيعِ هَؤُلَاءِ المُحِبِّينَ، لَا تَبْلُغُ مَبْلَغَ مَحَبَّةِ المُؤْمِنِينَ لِلَّهِ تعالى؛ لِأَنَّ إِيمَانَهُمْ بِهِمْ لِأَغْرَاضٍ عَاجِلَةٍ، كَقَضَاءِ الحَاجَاتِ، ودَفْعِ المُلِمَّاتِ، بِخِلَافِ حُبِّ المُؤْمِنِينَ لِلَّه؛ فإِنَّهُ حُبٌّ لِذَاتِه، وأَغْرَاضُهُمْ أَعْظَمُهَا آجِلَةٌ، يَبْتَغُونَ رَفْعَ الدَّرَجَاتِ، وتَزْكِيَةَ النَّفْسِ[3].

إِيثَارُ الإِظْهَارِ عَلَى الإِضْمَارِ:

تَفخيمُ حُبِّ اللهِ وتَشريفُه، إشعارًا بأنَّه سببُ العمل

آثَرَ أَنْ يُظْهِرَ اسْمَ الجَلَالَةِ عَلَى الإِضْمَارِ، فقَالَ ﷻ: ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَشَدُّ حُبًّا لِّلَّهِۗ﴾، ولَمْ يَقُلْ: (أشدُّ حُبًّا لَهُ)؛ وغايَتُهُ تَفْخِيمُ وتَشْرِيفُ حُبِّ اللَّهِ تعالى، مِمّا عَبَّرَ عَنْهُ أبو السُّعودِ بقَولِه: "وَإِيثَارُ الإِظْهَارِ في مَوْضِعِ الإِضْمَارِ لِتَفْخِيمِ الحُبِّ والإِشْعَارِ بِعِلَّتِه"[4].

دَلَالَة حَذْفِ المُفَضَّلِ عَلَيْهِ في قوْلِه: ﴿أَشَدُّ حُبًّا لِّلَّهِۗ﴾:

حُبُّ المؤمنين لا يَنْقَطِعُ ولا ينقلبُ بُغْضًا، كحُبِّ المُشْرِكين للأنْدادِ

"المُفَضَّلُ عَلَيْهِ مَحْذُوفٌ، أَيْ: المُؤْمِنُونَ أَشَدُّ حُبًّا لَهُ تعالى مِنْهُمْ لِأَنْدادِهِمْ، ومَآلُهُ أَنَّ حُبَّ أُولَئِكَ لَهُ تعالى أَشَدُّ مِنْ حُبِّ هَؤُلَاءِ لِأَنْدادِهِمْ، فِيهِ مِن الدَّلَالَةِ عَلَى كَوْنِ الحُبِّ مَصْدَرًا من المَبْنِيّ

(1) إسماعيل حقي، روح البيان: 1/270.
(2) الزّمخشريّ، الكشّاف: 1/211.
(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 2/92.
(4) أبو السّعود، إرشاد العقل السليم: 1/186.

لِلفَاعِلِ مَا لا يَخْفَى؛ وإنَّمَا لـمْ يجْعَلِ الـمُفَضَّلُ عَلَيْهِ حُبَّهُمْ لِلّهِ تعالى؛ لِمَا أَنَّ الـمَقْصُودَ بَيَانُ انْقِطَاعِهِ وانْقِلَابِهِ بُغْضًا، وذَلِكَ إنَّمَا يُتَصَوَّرُ في حُبِّهِمْ لِأَنْدَادِهِمْ؛ لِكَوْنِهِ مَنُوطًا بِمبَانٍ فاسِدَةٍ، ومَبَادٍ مَوْهُومَةٍ، يَزُولُ بِزَوَالِهَا، قِيلَ: ولِذَلِكَ كَانُوا يَعْدِلُونَ عَنْهَا عِنْدَ الشَّدَائِدِ إلى اللّهِ سُبْحَانَهُ"[1].

فائِدَةُ الوَصْلِ بين الجُمَلِ:

انتقالٌ من بيانِ الأسـبـابِ إلى بيانِ المُسبَّباتِ

قَوْلُهُ ﷻ: ﴿وَلَوۡ يَرَى ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓاْ﴾، مَعْطُوفٌ عَلَى قَوْلِهِ ﷻ: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَتَّخِذُ﴾؛ لِأَنَّ قَوْلَهُ ذَلِكَ لَمَّا كَانَ شَرْحًا لِحَالِ ضَلَالِهِم الفَظِيعِ في الدُّنْيَا، مِنِ اتِّخَاذِ الأَنْدَادِ لِلّهِ، مَعَ ظُهُورِ أَدِلَّةِ وَحْدَانِيَّتِهِ، وهو مُؤْذِنٌ بالتَّعْجِيبِ مِنْ حَالِهِمْ، وزِيدَ في شَنَاعَتِهِ أَنَّهُمْ أَحَبُّوهَا كَحُبِّهِ، نَاسَب أَنْ يَنْتَقِلَ إِلَى ذَلِكَ[2] المشهدِ الغَيْبِيِّ، الذي بَيَّن حالَهم في الآخرةِ بعد بيانِها في الدُّنيا، فهو انتقالٌ من بيانِ الأسبابِ إلى بيانِ الـمُسبَّباتِ.

فائِدةُ حَذْفِ جوابِ (لَوْ):

مَنْ عَـرَفَ الله؛ ما أحبَّ سِواه

في قوله تعالى: ﴿وَلَوۡ يَرَى ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓاْ﴾: حُذِف جوابُ ﴿وَلَوۡ﴾ لغايَةِ الاخْتِصارِ، وتَقْدِيرُهُ: لَعَلِمُوا أو لَنَدِمُوا عَلى الشِّرْكِ به سبحانه، أو لَمَا أحبُّوا تلك الأنداد، ولَأقرُّوا أنّ القوّة للّه جميعًا، والمصدرُ المؤوَّلُ ﴿أَنَّ ٱلۡقُوَّةَ لِلَّهِ﴾، في محلِّ نَصبِ مفعولِ (أقرُّوا)، كما حُذف مفعُولُ ﴿يَرَى﴾ اختصارًا أيضًا، والتّقديرُ: (وَلَوْ يَرَى الَّذِينَ ظَلَمُواْ حَالَهُمْ)[3].

نكتةُ إِظْهَارِ ما حقُّه الإِضْمَارُ:

بيانُ عِلَّةِ الظُّلم بالنَّصِّ عليه

في قَوْلِهِ ﷻ: ﴿وَلَوۡ يَرَى ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓاْ﴾، لَم يَقُلْ: (وَلَوْ يَرَوْنَ)؛ فـ"وَضَعَ الظَّاهِرَ مَوْضِعَ الـمُضْمَرِ، واخْتِيرَ الـمَوْصُولُ؛ لِلتَّسْجِيلِ عَلَى

(1) المصدر السّابق: 1/186.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 2/93.
(3) بلاغة القرآن الكريم في الإعجاز: 1/363.

ظُلْمِهِمْ بِالاتِّخَاذِ المَذْكُورِ؛ ولِلإِشْعَارِ عَلَى عِلِّيّة الحُكْم"[1]، فهُوَ لِبَيَانِ سَبَبِ العَذَابِ، وهُوَ الظُّلْمُ المعَبَّرُ عَنْهُ بالمَوْصُولِ وصَلِتِه.

تنوُّعُ تقديرِ حَذْفِ مفعولِ ﴿يَرَى﴾:

في قَوْلِهِ ﷻ: ﴿وَلَوۡ يَرَى ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓاْ إِذۡ يَرَوۡنَ ٱلۡعَذَابَ﴾، "حُذِف مَفْعُولُ ﴿يَرَى﴾؛ لِدَلَالَةِ المَقَام، تَقْدِيرُهُ: لَوْ يَرَوْنَ عَذَابَهُمْ، أَوْ لَوْ يَرَوْنَ أَنْفُسَهُمْ، أَوْ يَكُونُ ﴿إِذۡ﴾ اسْمًا غَيْرَ ظَرْفٍ، أَيْ لَوْ يَنْظُرُونَ الآنَ ذَلِكَ الوَقْتَ، فيَكُونُ بَدَلَ اشْتِمَالٍ من الذينَ ظَلَمُوا"[2].

حَذْفُ المَفْعُولِ بِهِ لِلتَّعْمِيمِ في قَوْلِهِ: ﴿ظَلَمُوٓاْ﴾:

حُذِفَ المَفْعُولُ بِهِ الَّذِي يَقْتَضِيه الفِعْلُ ﴿ظَلَمُوٓاْ﴾؛ لِأَنَّهُ أَرَادَ التَّعْمِيمَ؛ إِذْ إِنَّ التَّعْبِيرَ عَنِ اتِّخَاذِهِمُ الأَنْدَادَ بِالظُّلْمِ؛ لِمَا فِيهِ مِنْ تَعَدٍّ عَلَى عِدَّةِ حُقُوقٍ؛ فقَد اعْتَدَوْا عَلَى حَقِّ اللَّهِ تعالى، مِنْ وُجُوبِ تَوْحِيدِهِ، واعْتَدَوْا عَلَى مَنْ جَعَلُوهُمْ أَنْدَادًا لِلَّهِ تعالى، العُقَلَاءِ مِنْهُمْ وغَيْرِ العُقَلَاءِ، ظَلَمُوهُمْ إِذْ كَانُوا سَبَبًا لِهَوْلٍ يَحْصُلُ لَهُمْ من السُّؤَالِ يَوْمَ القِيَامَةِ، كَمَا قال اللَّه تعالى: ﴿وَإِذۡ قَالَ ٱللَّهُ يَٰعِيسَى ٱبۡنَ مَرۡيَمَ ءَأَنتَ قُلۡتَ لِلنَّاسِ ٱتَّخِذُونِي وَأُمِّيَ إِلَٰهَيۡنِ مِن دُونِ ٱللَّهِۖ﴾ [المَائِدَة: 116]، وظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ في ذَلِكَ بِتَعْرِيضِهَا لِلسُّخْرِيَةِ في الدُّنْيَا، ولِلعَذَابِ في الآخِرَةِ، وظَلَمُوا أَعْقَابَهُمْ، وقَوْمَهُمُ الذِينَ يَتْبَعُونَهُمْ في هَذَا الضَّلَالِ، فتَمْضِي عَلَيْهِ العُصُورُ والأَجْيَالُ[3].

الظُّلْمُ يَسْرِي ويَسْتَشْرِي في النَّفْسِ والمُحِيطِ، حَتَّى يُهْلِكَ الحَرْثَ والنَّسْلَ

بلاغةُ اجْتِماعِ ﴿إِذۡ﴾ الدّالَّةِ على الماضي، و(لَوْ) الدّالَّةِ على المُسْتَقْبَل:

جُمِعَ في قَوْلِهِ ﷻ: ﴿إِذۡ يَرَوۡنَ ٱلۡعَذَابَ﴾ بَيْنَ ﴿إِذۡ﴾ الدَّالّة عَلَى المَاضِي، و﴿لَوۡ﴾ في قَوْلِهِ: ﴿وَلَوۡ يَرَى ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓاْ﴾ الدَّالّة عَلَى المُسْتَقْبَل، وفي بَيَانِ ذَلِكَ قال الوَاحِدِيُّ: "فإِنْ قِيلَ: كَيْفَ جَاءَت

الظُّلْمُ شَنِيعٌ مَهما كان زَمانُهُ، ماضِيًا أَوْ حاضِرًا أَو مُسْتَقْبَلًا

---

(1) حاشية القونوي على تفسير البيضاوي: 4/413.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 2/93.
(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 2/94.

﴿إِذْ﴾ في قَوْلِه: ﴿إِذۡ يَرَوۡنَ ٱلۡعَذَابَ﴾ مَعَ قَوْلِه: ﴿وَلَوۡ يَرَى ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓاْ﴾ وهَذَا أَمْرٌ مُسْتَقْبَلٌ، و﴿إِذْ﴾ لِمَا مَضَى؟ قِيلَ: إِنَّمَا جَاءَ عَلَى لَفْظِ المُضِيِّ؛ لِإِرَادَةِ التَّقْرِيبِ في ذَلِكَ، كَمَا جَاءَ: ﴿وَمَآ أَمۡرُ ٱلسَّاعَةِ إِلَّا كَلَمۡحِ ٱلۡبَصَرِ أَوۡ هُوَ أَقۡرَبُۚ﴾ [النَّحْلِ: 77]، ﴿وَمَا يُدۡرِيكَ لَعَلَّ ٱلسَّاعَةَ قَرِيبٞ ١٧﴾ [الشُّورَى: 17]، فلَمَّا أُرِيدَ فِيها التَّحْقِيقُ والتَّقْرِيبُ؛ جَاءَ عَلَى لَفْظِ المُضِيِّ، وعَلَى هَذَا جَاءَ في مَا هُوَ مِنْ أَمْرِ الآخِرَةِ أَمْثِلَةُ المَاضِي، كَقَوْلِه: ﴿وَنَادَىٰٓ أَصۡحَٰبُ ٱلۡجَنَّةِ﴾ [الأَعْرَاف: 44]، ومِمَّا جَاءَ عَلَى لَفْظِ المُضِيِّ لِلتَّقْرِيبِ مِن الحَالِ: قَوْلُ المُقِيم: (قَدْ قَامَتِ الصَّلَاةُ)، يَقُولُ ذَلِكَ قَبْلَ إِيقَاعِهِ التَّحْرِيمَ بِالصَّلَاةِ؛ لِقُرْبِ ذَلِكَ مِنْ قَوْلِه، وقَدْ جَاءَ كَثِيرٌ مِمَّا في التَّنْزِيلِ مِنْ هَذَا الضَّرْبِ، كَقَوْلِه: ﴿وَلَوۡ تَرَىٰٓ إِذۡ وُقِفُواْ﴾ [الأَنْعَام: 27]، ﴿وَلَوۡ تَرَىٰٓ إِذِ ٱلظَّٰلِمُونَ﴾ [الأَنْعَام: 93]، ﴿وَلَوۡ تَرَىٰٓ إِذۡ فَزِعُواْ﴾ [سَبَأ: 51]، ﴿وَلَوۡ تَرَىٰٓ إِذۡ يَتَوَفَّى﴾ [الأَنْفَال: 50]، فكَمَا جَاءَتْ هَذِهِ الآيَةُ الَّتِي يُرَادُ بِهَا الاسْتِقْبَالُ، بـ﴿إِذْ﴾، كَذَلِكَ جَاءَ: ﴿وَلَوۡ يَرَى ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓاْ إِذۡ يَرَوۡنَ﴾[1].

مَقْصَدُ حَذْفِ جَوَابِ (لَوْ):

أَحْسَنُ الرُّؤى، ما ذَهبَ القَلبُ فيه كلَّ مَذْهَبٍ

قَوْلُهُ ﷻ: ﴿وَلَوۡ يَرَى ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓاْ﴾، لَم يرِدْ فِيهِ جَوَابُ (لَوْ)، فَهُوَ مَحْذُوفٌ، ومِثْلُ هَذَا كَثِيرٌ في القُرْآنِ الكَرِيم، كَقَوْلِهِ ﷻ: ﴿وَلَوۡ أَنَّ قُرۡءَانٗا﴾ [الرَّعْد: 31]، وقَوْلِه: ﴿وَلَوۡ تَرَىٰٓ إِذۡ وُقِفُواْ عَلَى ٱلنَّارِ﴾ [الأَنْعَام: 27]، وقَوْلِه: ﴿وَلَوۡ تَرَىٰٓ إِذِ ٱلظَّٰلِمُونَ فِي غَمَرَٰتِ ٱلۡمَوۡتِ﴾ [الأَنْعَام: 93]، والحِكْمَةُ مِنْ ذَلِكَ أَنَّ حَذْفَ جَوَابِ (لَوْ) في مِثْلِ هَذه الآيِ، يَكُونُ أَفْخَمَ وأَبْلَغَ؛ لِذَهَابِ المُخَاطَبِ المُتَوَعَّدِ إِلَى كُلِّ ضَرْبٍ من الوَعِيدِ، ولَوْ ذُكِرَ لَهُ ضَرْبٌ من الوَعِيدِ لَمْ يَكُنْ مَثَلَ أَنْ يُبْهَمَ عَلَيْه؛ لِأَنَّهُ يُوَطِّنُ نَفْسَهُ عَلَى ذَلِكَ المَذْكُورِ، ومَنْ وطَّنَ نَفْسَهُ عَلَى شَيْءٍ لَمْ يَصْعُبْ عَلَيْهِ صُعُوبَتَهُ عَلَى مَنْ لَمْ يُوَطِّنْ نَفْسَهُ عَلَيْه، وقَدْ أَحْسَنَ أَبُو القَاسِمِ النَّيْسَابُورِيُّ في صِيَاغَةِ قَاعِدَةٍ بَيَانِيَّةٍ مِنْ ذَلِكَ، فقَالَ: "(لَوْ): إِذَا جَاءَ فِيمَا يُشَوَّقُ إِلَيْه، أَوْ يُخَوَّفُ مِنْهُ، قَلّما يُوصَلُ بِجَوَابِهِ؛ لِيَذْهَبَ القَلْبُ فِيهِ كُلَّ مَذْهَبٍ"[2].

---

(1) النيسابوري، التّفسير البسيط: 3/476-477.

(2) إيجاز البيان عن معاني القرآن: 1/130.

فائِدَةُ تأكيدِ القوَّة بـ﴿جَمِيعًا﴾ في قوْلِه: ﴿أَنَّ ٱلْقُوَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا﴾:

قوّةُ غيرِ اللهِ بالنّسبَةِ لِقُوَّةِ اللهِ كالعَدَمِ

الخَبَرُ المُؤَكَّدُ في قَوْلِه ﷻ: ﴿أَنَّ ٱلْقُوَّةَ لِلَّهِ﴾، أَفَادَ كَوْنَ القُوَّةِ لِلّه تعالى، وهَذا التَّأْكِيدُ لَا يَنْفِي أَنْ يَكُونَ لِأَحَدٍ مَا قُوَّةٌ، فجَاءَ بـ ﴿جَمِيعًا﴾؛ لِيُبَيِّنَ أَنَّ قُوَّةَ غَيْرِه كَالعَدَمِ، وانْتَصَبَ ﴿جَمِيعًا﴾ عَلَى التَّوْكِيدِ؛ لِقَوْلِه: ﴿ٱلْقُوَّةَ﴾، أَيْ: جَمِيعُ جِنْسِ القُوَّةِ ثَابِتٌ لِلَّه، وهُوَ مُبَالَغَةٌ لِعَدَمِ الاعْتِدَادِ بِقُوَّةِ غَيْرِه، فمُفَادُ ﴿جَمِيعًا﴾ هُنَا، مُفَادُ لَامِ الاسْتِغْرَاقِ في قَوْلِه: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ﴾ [الفَاتِحَة: 02][1]، وكذلك يصحُّ أن يُعربَ حالًا من الجارِّ والمجرور، وهو يُفيدُ التَّوْكِيدَ بمعنى كل[2]، فعلى الوَجْهين التَّوْكِيدُ حاضرٌ.

فائدةُ الوَصْلِ في قَوْلِه: ﴿أَنَّ ٱلْقُوَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا وَأَنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعَذَابِ﴾:

تهويلُ الخَطْبِ بعطفِ شِدَّةِ العذابِ على كونِ القوَّةِ لله جميعًا

عَطَفَ بَيْنَ الجُمْلَتَيْنِ بالوَاوِ؛ لِاتِّحَادِهِمَا في الخَبَرِيَّةِ؛ فكُلُّ جُمْلَةٍ تَحْمِلُ خَبَرًا مُبَايِنًا لِخَبَرِ الأُخْرَى، "وفَائِدَتُهُ: المُبَالَغَةُ في تَهْوِيلِ الخَطْبِ، وتَفْظِيعِ الأَمْرِ؛ فإِنَّ اخْتِصَاصَ القُوَّةِ بِهِ تعالى، لَا يُوجِبُ شِدَّةَ العَذَابِ؛ لِجَوَازِ تَرْكِهِ عَفْوًا مَعَ القُدْرَةِ عَلَيْهِ"[3].

إِيثَارُ الإِظْهَارِ عَلَى الإِضْمَارِ في قَوْلِه: ﴿وَأَنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعَذَابِ﴾:

شِدَّةُ العَذابِ مُهابَةٌ كَمَنْ صَدَرَتْ عنه

آثَرَ أَنْ يُعَبِّرَ بِلَفْظِ الجَلَالَةِ دُونَ الضَّمِيرِ، في قَوْلِه ﷻ: ﴿وَأَنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعَذَابِ﴾، فلَمْ يَقُلْ: (وَأَنَّهُ شَدِيدُ العَذَابِ)؛ لِتَرْبِيَةِ المَهَابَةِ، وتَفْخِيمِ العَذَابِ، والمُبَالَغَةِ في شِدَّتِهِ، وإِظْهَارِ سُوءِ صَنِيعِهِمْ.

۞ الفُرُوقُ المُعْجَمِيَّةُ:

العَذَاب والعِقاب:

في عِقابِ الآخِرَةِ حِفْظٌ لِلحُقوقِ، وإنْصافٌ لِلضُّعَفاءِ والمَظلومينَ

العِقَابُ يُنبِئُ عَن اسْتِحْقَاقٍ، وسُمِّيَ بِذلك؛ لِأَنَّ الفَاعِلَ يَسْتَحِقُّهُ عَقِيبَ فعلِهِ، ويجوزُ أن يَكونَ العَذَابُ مُسْتَحَقًّا وغيرَ مُسْتَحَقٍّ،

---

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 2/95.

(2) السمين، الدر المصون: 2/216.

(3) أبو السّعود، إرشاد العقل السليم: 1/186، وإسماعيل حقي، روح البيان: 1/270.

وأصل العقَابِ التُّلُوُّ، وهُوَ تأديَةُ الأوّل إِلَى الثَّاني، يُقَال: عَقِبَ الثَّاني الأوّلَ: تَلاهُ، وعِقَبَ اللَّيْلُ النَّهَارَ[1].

والعقابُ يقتضي بِظاهِرِه الجزاءَ على فِعْلِه؛ لأنّهُ مِنَ التّعقيبِ والمُعاقَبَة، والعَذابُ ليسَ كذلِكَ؛ إذ يُقالُ للظّالم المُبتدئ بالظّلم إنّه مُعذِّبٌ، وإنْ قيلَ معاقِبٌ فهوَ على سبيل المجازِ لا الحَقيقَةِ، فبَينَهما عُمومٌ وخُصوصٌ[2].

القُوَّة والشِّدَّة:

اللــــــهُ ذُو الـقُـوّة المتـينُ، وبِـيَـدِهِ مَقاليدُ الـسّـمــاواتِ والأرضِ

الشِّدَّةُ في الأَصْل هِيَ مُبَالغَةٌ في وَصْفِ الشَّيْءِ في صلابَةٍ، ولَيْسَت هي من قَبيلِ القُدْرَة؛ ولِهَذَا لَا يُقَال للّه: شَدِيدٌ، والقُوَّة من قبيل القُدْرَة، وتَأْويل قَوْله تعالى: ﴿أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً﴾ [الروم: 9]، أَيْ أَقْوى منْهُم، وفي القُرْآن: ﴿ذُو ٱلْقُوَّةِ ٱلْمَتِينُ ۝٥٨﴾ [الذاريات: 58]، أَيِ العَظِيمُ الشَّأْن في القُوَّة، وهُوَ اتِّساعٌ[3].

(1) الفروق اللّغويّة، ص: 239.

(2) الفروق اللّغويّة، ص: 365.

(3) الفروق اللّغويّة، ص: 107.

﴿إِذۡ تَبَرَّأَ ٱلَّذِينَ ٱتُّبِعُواْ مِنَ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُواْ وَرَأَوُاْ ٱلۡعَذَابَ وَتَقَطَّعَتۡ بِهِمُ ٱلۡأَسۡبَابُ ١٦٦﴾ [البقرة: 166]

❁ مُناسَبَةُ الآيَةِ لِما قَبْلَها:

الرّبطُ بيْنَ عذابِ الظّالمين، وتبرُّؤِ بعضِهِمْ مِنْ بعضٍ يوْمَ الدِّينِ

لَمّا بَيَّنَ حالَ مَنْ يَتَّخِذُ مِنْ دُونِ اللّٰهِ أَنْدادًا، بِقَوْلِهِ: ﴿وَلَوۡ يَرَى ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓاْ إِذۡ يَرَوۡنَ ٱلۡعَذَابَ﴾ عَلَى طَرِيقِ التَّهْدِيدِ، زَادَ في هَذَا الوَعِيدِ بِقَوْلِه تعالى: ﴿إِذۡ تَبَرَّأَ ٱلَّذِينَ ٱتُّبِعُواْ مِنَ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُواْ وَرَأَوُاْ ٱلۡعَذَابَ وَتَقَطَّعَتۡ بِهِمُ ٱلۡأَسۡبَابُ ١٦٦﴾؛ فبَيَّنَ أَنَّ الَّذِينَ أَفْنَوْا عُمْرَهُمْ عَلَى عِبادَتِهِمْ، واعْتَقَدُوا أَنَّهُمْ أَوكَدُ أَسْبَابِ نَجَاتِهِمْ، فإِنَّهُمْ يَتَبَرَّؤُونَ مِنْهُمْ عِنْدَ احْتِيَاجِهِمْ إِلَيْهِمْ[1].

❁ شَرْحُ المُفْرَدَاتِ:

تبرُّؤُ المتبُوعِ مِنَ التّابِعِ، لَيسَ إلّا فِرارًا مِنَ التَّبِعاتِ

1) ﴿تَبَرَّأَ﴾: من الجذر (برأ)، وأَصْلُ هذه المادّةِ: التَّبَاعُدُ مِنَ الشَّيْءِ ومُزَايَلَتُهُ[2]، والبَرَاءُ: الانفصالُ مِمّا يُكْرَهُ مجاوَرَتُه؛ ولذلك قيل: بَرَأْتُ من المَرَضِ، قال ﷻ: ﴿بَرَآءَةٞ مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦٓ﴾ [التوبة: 1]، ﴿أَنَّ ٱللَّهَ بَرِيٓءٞ مِّنَ ٱلۡمُشۡرِكِينَ وَرَسُولُهُۥ﴾ [التوبة: 3][3].

كلُّ سَبَبٍ مَوْصُولٍ بِغيرِ الله فهُوَ مُنْقَطِعٌ

2) ﴿وَتَقَطَّعَتۡ﴾: من الجذر (قطع)، وأَصْلُ هذه المادّةِ يَدُلُّ عَلَى صَرْمٍ وإِبَانَةِ شَيْءٍ مِنْ شَيْءٍ[4]، والقَطْعُ: فَصْلُ الأشياءِ المحْسوسَةِ، كالأَجْسام، أَوِ الأشياءِ المعْقُولَةِ، قال تعالى: ﴿لَأُقَطِّعَنَّ أَيۡدِيَكُمۡ وَأَرۡجُلَكُم مِّنۡ خِلَٰفٖ﴾ [الأعراف: 124]، وقَطْعُ الرّحِم يكون بالهجْرانِ، قال تعالى: ﴿وَتُقَطِّعُوٓاْ أَرۡحَامَكُمۡ ٢٢﴾ [محمد ﷺ: 22][5].

(1) الرّازيّ، مفاتيح الغيب: 180-1/179.
(2) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (برأ).
(3) الراغب، المفردات، السمين، عمدة الحفاظ: (برأ).
(4) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (قطع).
(5) الراغب، المفردات: (قطع).

أبقى أسبابِ العلائقِ وأقْواها، ما كانَ للهِ دونَ سواهِ

3) ﴿ٱلۡأَسۡبَابُ﴾: منَ الجذر (سبب)، وأَصْلُ هذه المادّةِ يَدُلُّ عَلَى طُولٍ وامْتِدَادٍ، ومِنْ ذَلِكَ السَّبَبُ[1]، وهو: الحَبْلُ الّذي يُصْعَدُ به النّخْلُ، وجمعُهُ أَسْبَابٌ، قال تعالى: ﴿فَلۡيَرۡتَقُواْ فِي ٱلۡأَسۡبَٰبِ ١٠﴾ [ص: 10]، وسمّيَ كلُّ ما يُتَوصّل به إلى شَيْءٍ سَبَبًا، قال تعالى: ﴿وَءَاتَيۡنَٰهُ مِن كُلِّ شَيۡءٖ سَبَبٗا ٨٤ فَأَتۡبَعَ سَبَبًا ٨٥﴾ [الكهف: 84- 85][2].

وفي الآية يعني بها: وُصَلَهُمُ الّتي كانت تَجْمَعُهُمْ، أسبابُ المودّة والوُصَلات الّتي كانت بينهم في الدّنيا، تقطّعتْ وصارتْ مُخالَّتُهُمْ عَداوةً[3]، يَعْني القَرابات الّتي كانتْ بَيْنَهم في الدّنيا والصّداقات، فلم يَنتَفِعوا بها[4].

❁ المَعْنَى الإِجْمَالِيُّ:

عِنْدَ مُعايَنَةِ عَذَابِ الآخِرَة، يَتَبَرَّأُ الرُّؤَسَاءُ المَتْبُوعُونَ مِمَّن اتَّبَعَهُمْ عَلَى الشِّرْكِ، وتَنْقَطِعَ بَيْنَهُمْ كُلُّ الصِّلَاتِ الَّتِي ارْتَبَطُوا بِهَا في الدُّنْيَا: مِنَ القَرَابَةِ، والاتِّبَاعِ، والدِّينِ، وغَيْرِ ذَلِكَ[5]، فيُسْقَطُ في أَيْدِيهِمْ، ولَا يَجِدُونَ مَلْجَأً مِنَ اللهِ إلَّا إلَيْهِ، ولَكِنْ هَيْهَاتَ وقَدْ رَأَوا العَذَابَ وتَقَطَّعَتْ بِهِمِ الأَسْبَابُ! فيَنْدَمُونَ ولَاتَ حِينَ مَنْدَمٍ.

❁ الإيضاح اللُّغويُّ والبَلاغيُّ:

تقديرُ مُتَعَلَّقِ الظَّرْفِ في قَوْلِهِ: ﴿إِذۡ تَبَرَّأَ ٱلَّذِينَ ٱتُّبِعُواْ﴾:

في مَوْقِفِ الآخِرَةِ لا تُغني نَفْسٌ عَنْ نَفْسٍ شَيْئًا

ظَرْفُ الزَّمَانِ ﴿إِذۡ﴾ في قَوْلِهِ ﷻ: ﴿إِذۡ تَبَرَّأَ ٱلَّذِينَ ٱتُّبِعُواْ﴾، جَعَلَهُ بَعْضُ المُفَسِّرِينَ ظَرْفًا لِشِدَّةِ العَذَابِ، "والمَعْنَى: وإنَّ اللّه شَدِيدُ العَذَابِ حِينَ ﴿تَبَرَّأَ ٱلَّذِينَ ٱتُّبِعُواْ﴾ - وهُمْ سَادَاتُ الكُفَّارِ،

(1) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (سبب).
(2) الراغب، المفردات: (سبب).
(3) الواحدي، التّفسير البسيط: 3/480.
(4) مكّي بن أبي طالب، الهداية إلى بلوغ النّهاية: 1/538.
(5) نخبة من العلماء، التّفسير الميسّر: ص25.

وأَهْلُ الرَّأْيِ مِنْهُمْ، والجَبَابِرَةُ - ﴿مِنَ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُواْ﴾، وهُمْ أَتْبَاعُ السَّادَات"[1]، "عَامِلُ الإِعْرَابِ في (إِذْ) مَعْنَى شَدِيد، كَأَنَّهُ قَالَ: هُوَ شَدِيدُ العَذَابِ ﴿إِذۡ تَبَرَّأَ﴾، يَعْنِي في وقْتِ التَّبَرُّؤِ"[2]، فشِدَّةُ العَذَابِ تَكُونُ وقْتَ التَّبَرُّؤِ.

واخْتَارَ الزَّمَخْشَرِي أَنَّ: ﴿إِذۡ تَبَرَّأَ﴾ بَدَلٌ مِنْ: ﴿إِذۡ يَرَوۡنَ ٱلۡعَذَابَ﴾[3]؛ فهُمْ تَبَرَّؤُوا مِنْهُمْ في وقْتِ رُؤْيَةِ العَذَابِ، والإعرابَانِ صَحِيحَا المَعْنى، وإن كان الثَّاني أَقْرَب.

إِيثَارُ التَّعْبِيرِ بالفِعْلِ المَاضِي في قَوْلِهِ: ﴿إِذۡ تَبَرَّأَ﴾:

ما أخْبَرَ اللهُ بِوُقوعِهِ، فهُو واقِعٌ لا مَحالَةَ

في قَوْلِهِ ﷻ: ﴿إِذۡ تَبَرَّأَ ٱلَّذِينَ ٱتُّبِعُواْ﴾، "جِيءَ بالفِعْلِ بَعْدَ (إِذْ) هُنَا مَاضِيًا، مَعَ أَنَّهُ مُسْتَقْبَلٌ في المَعْنَى؛ لِأَنَّهُ إِنَّمَا يَحْصُلُ في الآخِرَة؛ تَنْبِيهًا عَلَى تَحَقُّقِ وُقُوعِه"[4]، فهو حديثٌ عن حالٍ مستقبلَةِ الوقوعِ، بأسلوبِ الإخبارِ عمَّا حصَلَ، تحقيقًا لوقوعِه.

مَا فائِدَةُ ذِكْرِ ﴿تَبَرَّأَ﴾ إِذَا كَانَ مَصِيرُهُم العَذَابَ جَمِيعًا؟

الهالِكُ في مَوْقِفِ القِيامَةِ، لا يَنْفَعُ نَفْسَهُ ولا غَيْرَهُ

إِذَا كَانَ العَذَابُ مَصِيرَ الأَتْبَاعِ والمَتْبُوعِينَ جَمِيعًا، فما فائِدَةُ قَوْلِهِ ﷻ: ﴿إِذۡ تَبَرَّأَ ٱلَّذِينَ ٱتُّبِعُواْ مِنَ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُواْ وَرَأَوُاْ ٱلۡعَذَابَ﴾؟ وقَدْ أَجَابَ الرَّازِي عَنْهُ بِقَوْلِهِ: "مَعْنَى الآيَةِ أَنَّ المَتْبُوعِينَ يَتَبَرَّؤُونَ من الأَتْبَاعِ ذَلِكَ اليَوْم، فبَيَّنَ تعالى مَا لِأَجْلِه يَتَبَرَّؤُونَ مِنْهُمْ، وهُوَ عَجْزُهُمْ عَنْ تَخْلِيصِهِمْ من العَذَابِ الَّذِي رَأَوْهُ؛ لِأَنَّ قَوْلَهُ: ﴿وَتَقَطَّعَتۡ بِهِمُ ٱلۡأَسۡبَابُ ١٦٦﴾ يَدْخُلُ في مَعْنَاهُ أَنَّهُمْ لَمْ يَجِدُوا إِلَى تَخْلِيصِ أَنْفُسِهِمْ وأَتْبَاعِهِمْ سَبَبًا، والآيِسُ مِنْ كُلِّ وجْهٍ يَرْجُو بِهِ الخَلَاصَ، مِمَّا نَزَلَ بِهِ وبِأَوْلِيَائِهِ من البَلَاءِ، يُوصَفُ بِأَنَّهُ تَقَطَّعَتْ بِهِ الأَسْبَابُ"[5].

---

(1) مكّيّ بن أبي طالب، الهداية إلى بلوغ النّهاية: 1/538.

(2) الرّازيّ، مفاتيح الغيب: 4/180.

(3) الزّمخشريّ، الكشّاف: 1/212.

(4) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 2/96.

(5) الرّازيّ، مفاتيح الغيب: 4/180.

فنُّ التَّرْصِيعِ في قَوْلِهِ: ﴿إِذۡ تَبَرَّأَ ٱلَّذِينَ ٱتُّبِعُواْ مِنَ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُواْ﴾:

المحسّنات البَديعيَّةُ لَها أَثَرٌ في النَّفسِ والإيقاعِ

في الآيَةِ ورَدَ تَعْبيرَانِ مُتَوافِقَانِ، قَوْلُهُ: ﴿ٱلَّذِينَ ٱتُّبِعُواْ﴾، ﴿مِنَ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُواْ﴾، ويُسَمَّى هَذَا بِالتَّرْصِيعِ[1]، وهُوَ أَنْ يَكُونَ الكَلامُ ذا وَقْعٍ صوتيٍّ مُناسِبٍ؛ كَقَوْلِهِ تَعالى: ﴿وَلَسۡتُم بِـَٔاخِذِيهِ إِلَّآ أَن تُغۡمِضُواْ فِيهِۚ﴾ [البقرة: 267]، "وهو مُحَسِّنٌ الحَذْفَ لِضَمِيرِ المَوْصُولِ في قَوْلِهِ: ﴿مِنَ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُواْ﴾، إِذْ لَوْ جاءَ (اتَّبَعُوهم)؛ لَفاتَ هَذا النَّوْعُ مِنَ البَدِيعِ"[2].

إعرابُ جملةِ ﴿وَرَأَوُاْ ٱلۡعَذَابَ﴾:

ذهَبَ أساطينُ البلاغةِ إلى أنَّ معنى الحالِ هو الأوفقُ بالمقامِ

الوَاو في قَوْلِهِ ﷻ: ﴿وَرَأَوُاْ ٱلۡعَذَابَ﴾ لِلحَالِ، والجُمْلَةُ بَعْدَهَا حَالِيَّةٌ، والعَامِلُ في هَذِهِ الحَالِ: ﴿تَبَرَّأَ﴾[3]، وهُوَ اخْتِيَارُ الزَّمَخْشَرِي: "أَيْ: تَبَرَّؤُوا في حَالِ رُؤْيَتِهِمُ العَذَابَ"[4]، ورجّحَهُ الرّازيّ بحجَّةِ أنَّه "أَوْلَى مِنْ سَائِرِ الأَقْوَالِ؛ لِأَنَّ في تِلْكَ الحَالَةِ يَزْدَادُ الهَوْلُ والخَوْفُ"[5]، وجَعَلَهُ أَبُو السُّعُود "لِلتَّنْبِيهِ عَلَى عِلَّةِ التَّبَرُّؤِ"[6]، وزَادَ ابن عَاشُور ذَلِكَ بَيَانًا فقال: "مَوْقِعُ الحَالِ هُنَا حَسَنٌ جِدًّا، وهِيَ مُغْنِيَةٌ عَنِ الاسْتِئْنَافِ الَّذِي يَقْتَضِيهِ المَقَامُ؛ لِأَنَّ السَّامِعَ يَتَسَاءَلُ عَنْ مُوجِبِ هَذَا التَّبَرُّؤِ؛ فإِنَّهُ غَرِيبٌ، فيُقَالُ: رَأَوُا العَذَابَ، فلَمَّا أُرِيدَ تَصْوِيرُ الحَالِ وتَهْوِيلُ الاستِفظاعِ، عَدَلَ عَنِ الاسْتِئْنَافِ إِلَى الحَالِ؛ قَضَاءً لِحَقِّ التَّهْوِيلِ، واكْتِفَاءً بِالحَالِ عَنِ الاسْتِئْنَافِ؛ لِأَنَّ مَوْقِعَهُمَا مُتَقَارِبٌ"[7].

---

(1) التّرصيع: ويقال فيه: السَّجْعُ المرصَّعُ، وهو أن تكون الألفاظ المتقابلة في السَّجْعَتَيْنِ متّفقةً في أوزانِها وفي أعْجَازِها، أي: في الحرف الأخير من كلّ متقابلين فيها، مثل قول الله ﷻ: ﴿إِنَّ إِلَيۡنَآ إِيَابَهُمۡ ۝٢٥ ثُمَّ إِنَّ عَلَيۡنَا حِسَابَهُم ۝٢٦﴾ [الغاشية: 25 - 26]، فالتّقابُلُ في كَلِمَاتِ الفقرتين يُلاحَظُ فيه الاتفاقُ في الأوزان وفي الحرف الأخير: (إنّ - إِلَيْنَا - إِيَابَهُمْ - ثم إنَّ - عَلَيْنَا - حِسَابَهُمْ)، أمّا كلمة (ثُمَّ)، فهي بمثابة المشترك بين الفقرتين، حبنّكة الميداني، البلاغة العربيّة: 2/505.

(2) أبو حيّان، البحر المحيط: 2/92.

(3) السمين، الدّر المصون: 2/217.

(4) الزّمخشريّ، الكشّاف: 1/212.

(5) الرّازيّ، مفاتيح الغيب: 4/180.

(6) أبو السّعود، إرشاد العقل السليم: 1/187.

(7) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 2/97.

أثرُ الوَصْلِ في تشديدِ العذابِ على الظَّالمين:

التّبرُّؤُ وانْقِطاعُ الأسبابِ، عذابٌ معنويٌّ من ورائِه عذابٌ مادّيٌّ

الوَاو في قَوْلِه : ﴿وَتَقَطَّعَتۡ بِهِمُ﴾، عَطْفٌ عَلَى: ﴿إِذۡ تَبَرَّأَ ٱلَّذِينَ ٱتُّبِعُواْ﴾[1]، فيكُونُ المَعْنَى: عِنْدَ رُؤْيَةِ العَذَابِ حَدَثَ شَيْئَانِ (تَبَرَّؤُوا مِنْهُمْ)، و(تَقَطَّعَتْ بِهِمُ الأَسْبَابُ)، في حَالَةِ رُؤْيَةِ العَذَابِ، وهذا من أشدِّ ما يقعُ على الظَّالمين، إذ يجتمعُ عليهم أمران: تبرُّؤُ المتبوعِين منهم، وانقطاعُ أسبابِ الرَّجاءِ.

مَرْجِعُ الضَّمِيرِ في قَوْلِهِ: ﴿وَرَأَوُاْ﴾، و﴿بِهِمُ﴾:

تَصْويرُ أَزْمَةِ العَلائِقِ بَيْنَ التّابِعِ والمَتْبوعِ، وأنَّهُ لا نَجاةَ لِلطَّرَفينِ

في قَوْلِهِ : ﴿إِذۡ تَبَرَّأَ ٱلَّذِينَ ٱتُّبِعُواْ مِنَ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُواْ وَرَأَوُاْ ٱلۡعَذَابَ وَتَقَطَّعَتۡ بِهِمُ ٱلۡأَسۡبَابُ ١٦٦﴾، ورَدَ اسْمَانِ ظَاهِرَانِ، وهُمَا قَوْلُهُ: ﴿ٱلَّذِينَ ٱتُّبِعُواْ﴾، و﴿مِنَ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُواْ﴾، أي المتبوع والتّابعُ كلاهُما، ثُمَّ أَتْبَعَهُمَا إِضْمَارًا، في قَوْلِه: ﴿وَرَأَوُاْ ٱلۡعَذَابَ﴾، و﴿وَتَقَطَّعَتۡ بِهِمُ﴾، فضَمير "﴿رَأَوُاْ﴾ ضَميرٌ مُبْهَمٌ، عَائِدٌ إِلَى فريقَي الَّذِينَ اتُّبِعوا والّذين اتَّبَعُوا ... والضَّميرُ المَجْرُورُ ﴿بِهِمُ﴾ عَائِدٌ إِلَى كِلَا الفَرِيقَيْنِ"[2]، وهذا يَقُودُ العاقِلَ إلى عَدَمِ مُتَابَعَةِ الظَّالمين في أعمالِهم وأقوالِهم، فلنْ يعْدُو أن يكونَ حِينَئِذٍ إلَّا من أولئك المتقطِّعةِ بهم الأسباب.

مَعْنَى البَاءِ في قَوْلِهِ: ﴿وَتَقَطَّعَتۡ بِهِمُ ٱلۡأَسۡبَابُ﴾:

يَوْمَ القِيامَةِ لا سَبَبَ ولا نَسَبَ إلّا ما كان باللهِ وللهِ

جَعَلَ الوَاحِدِيُّ البَاءَ في قَوْلِهِ : ﴿وَتَقَطَّعَتۡ بِهِمُ﴾ "بِمَعْنَى (عَنْ)، كَقَوْلِه: ﴿فَسۡـَٔلۡ بِهِۦ خَبِيرٗا ٥٩﴾ [الفُرْقَان: 59]، أَيْ: عَنْهُ"[3]، والرَّاجِحُ أَنْ لَا يَخْرُجَ الحَرْفُ إِلَى مَعْنَى حَرْفٍ آخَرَ عَلَى وجْه التَّمام، وهَذا مَا عَلَيْهِ المُحَقِّقُونَ من النُّحَاةِ وأَهْلِ العَرَبِيَّة، وهُوَ مَذْهَبُ البَصْرِيِّينَ؛ فهُمْ لَا يُخْرِجُونَ مَعْنَى حَرْفِ جَرٍّ إِلَى مَعْنَى حَرْفٍ آخَرَ، وهَذَا أَحَقُّ مَعَ كِتَابِ اللّهِ تعالى، وفي البَاءِ هُنَا مِن الدَّلَالَةِ مَا لَيْسَ في (عَنْ)؛ فـ﴿وَتَقَطَّعَتۡ

(1) الزّمخشريّ، الكشّاف: 1/212، والرّازيّ، مفاتيح الغيب: 4/180.

(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 2/97.

(3) النيسابوري، التّفسير البسيط: 3/478.

بِهِمُ﴾، يُبَيِّنُ أَنَّ وقتَ زَوَالِ الأَسْبَابِ كَانَ وقتَ الحَاجَةِ إِلَيْهَا؛ لِمَا في البَاءِ مِنْ مَعْنَى الإِلْصَاقِ، فكَأَنَّ الأَسْبَابَ زَالَتْ عَنْهُمْ وقتَ حَاجَتِهِمْ إِلَيْهَا، وهُمْ يَظُنُّونَ قُرْبَهَا وفَائِدَتَهَا، فزَالَتْ عَنْهُمْ فجْأَةً، وهَذَا أَظْهَر لِلحَسْرَةِ والفَاجِعَةِ المُرَادِ التَّعْبِيرُ عَنْهَا، وصَرَّحَ بِهَا في الآيَةِ اللَّاحِقَةِ، وهَذَا المَعْنَى لَا يَتَوَفَّرُ عَلَيْهِ الحرفُ (عَنْ)، وإِلَى هَذَا المَعْنَى أَلَمَّحَ الفَخْر الرَّازِي بِقَوْلِهِ: "فبَيَّنَ أَنَّ الَّذِينَ أَفْنَوْا عُمْرَهُمْ عَلَى عِبَادَتِهِمْ، واعْتَقَدُوا أَنَّهُمْ أَوكَدُ أَسْبَابِ نَجَاتِهِمْ، فإِنَّهُمْ يَتَبَرَّؤُونَ مِنْهُمْ عِنْدَ احْتِيَاجِهِمْ إِلَيْهِمْ"(1).

ومِنَ الوُجُوهِ الَّتِي ذَكَرُوهَا في البَاءِ هُنَا، أَنَّهَا "لِلسَّبَبِيَّةِ؛ أَيْ تَقَطَّعَتْ بِسَبَبِ كُفْرِهِم الأَسْبَابُ الَّتِي كَانُوا يَرْجُونَ بِهَا النَّجَاةَ، أَوْ لِلتَّعْدِيَةِ، أَيْ قَطَّعَتْهُم الأَسْبَابُ، كَمَا تَقُولُ: فرَّقَتْ بهم الطَّرِيقُ، أَيْ فرَّقَتْهُمْ"(2)، وأَحْسَنَ ابنُ عَاشُورٍ إِذْ قَالَ: "البَاءُ في ﴿بِهِمُ﴾ لِلمُلَابَسَةِ، أَيْ: تَقَطَّعَت الأَسْبَابُ مُلْتَبِسَةً بِهِمْ، أَيْ فسَقَطُوا، وهَذَا المَعْنَى هُوَ مَحَلُّ التَّشْبِيهِ؛ لِأَنَّ الحَبْلَ لَوْ تَقَطَّعَ غَيْرَ مُلَابِسٍ لِلمُرْتَقِي عَلَيْهِ، لَمَا كَانَ في ذَلِكَ ضُرٌّ؛ إِذْ يُمْسِكُ بِالنَّخْلَةِ ويَتَطَلَّبُ سَبَبًا آخَر يَنْزِلُ فِيهِ؛ ولِذَلِكَ لَمْ يَقُلْ: (وَتَقَطَّعَتْ أَسْبَابُهُمْ)، أَوْ نَحْوَهُ، فمَنْ قَال إِنَّ البَاءَ بِمَعْنَى (عَنْ)، أَوْ لِلسَّبَبِيَّةِ، أَو التَّعْدِيَةِ، فقَدْ بَعُدَ عَن البَلَاغَةِ"(3).

دَلالَةُ التَّعْريف في لَفْظِ ﴿ٱلۡأَسۡبَابُ﴾:

تَنَوُّعُ مَفْهوم الأسبابِ إلى سَبْعَةِ أقْوالٍ، دَليلُ ثَراءِ اللُّغَةِ القُرْآنِيَّةِ واتِّساعِها

آثَرَ النَّظمُ أَنْ يُعبِّرَ عَن الأَسْبَابِ بِالتَّعْرِيفِ في قَوْلِهِ ﷻ: ﴿وَتَقَطَّعَتۡ بِهِمُ ٱلۡأَسۡبَابُ ١٦٦﴾؛ لِأَنَّهُ أَرَادَ بِهَا أَسْبَابًا مَعْهُودَةً بَيْنَهُمْ من جهةٍ، ومن جهةٍ أخرى أرادَ أن يجمعَها في كلمةٍ واحدةٍ؛ لتحُلَّ في أذهانِهم جميعًا، وقَدْ أَحْسَنَ الفَخْرُ الرَّازِيّ، إِذْ جَمَعَ مَا قِيلَ في بَيَانِ هَذِهِ الأَسْبَابِ فقَالَ: "ذَكَرُوا في تَفْسِيرِ الأَسْبَابِ سَبْعَةَ أَقْوَالٍ، الأَوَّلُ: أَنَّهَا المُوَاصَلَاتُ الَّتِي كَانُوا يَتَوَاصَلُونَ عَلَيْهَا، الثَّانِي: الأَرْحَامُ الَّتِي كَانُوا يَتَعَاطَفُونَ بِهَا، الثَّالِث: الأَعْمَالُ الَّتِي كَانُوا يُلْزَمُونَهَا، والرَّابِعُ: العُهُودُ والحِلْفُ الَّتِي كَانَتْ بَيْنَهُمْ، يَتَوَادُّونَ عَلَيْهَا، الخَامِس: مَا

(1) الرّازيّ، مفاتيح الغيب: 4/179-180.

(2) إسماعيل حقي، روح البيان: 1/270.

(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 2/98.

كَانُوا يَتَوَاصَلُونَ بِهِ مِن الكُفْرِ، وكَانَ بِهَا انْقِطاعُهُمْ، السَّادِسُ: المَنَازِلُ الَّتِي كَانَتْ لَهُمْ في الدُّنْيَا، السَّابِع: أَسْبَابُ النَّجَاةِ تَقَطَّعَتْ عَنْهُمْ، والأَظْهرُ دُخُولُ الكُلِّ فِيه، لِأَنَّ ذَلِكَ كَالنَّفْيِ، فيَعُمُّ الكُلَّ، فكَأَنَّهُ قَالَ: وزَالَ عَنْهُمْ كُلُّ سَبَبٍ يُمْكِنُ أَنْ يُتَعَلَّقَ بِهِ، وأَنَّهُمْ لَا يَنْتَفِعُونَ بالأَسْبَابِ عَلَى اخْتِلَافِهَا، مِنْ مَنْزِلَةٍ، وسَبَبٍ، ونَسَب، وحِلْفٍ، وعَقْدٍ، وعَهْدٍ، وذَلِكَ نِهَايَةُ مَا يَكُونُ مِن اليَأْسِ، فحَصَلَ فِيهِ التَّوْكِيدُ العَظِيمُ في الزَّجْرِ"[1].

الاِسْتِعَارَةُ التَّمْثِيلِيَّةُ في تَقَطُّعِ الأسْبابِ:

بَلاغَةُ هَذِهِ الآيَةِ مِنْ بَديعِ ما يُحَيِّرُ العَقْلَ المُتَأَمِّلَ، في رَوْعَةِ القُرْآنِ ودِقَّتِهِ

في قَوْلِهِ ﷻ: ﴿وَتَقَطَّعَتۡ بِهِمُ ٱلۡأَسۡبَابُ ١٦٦﴾ اسْتِعَارَةٌ تَمْثِيلِيَّةٌ؛ فتَقَطُّعُ الصِّلَاتِ بَيْنَ الأَتْبَاعِ والمُتَّبَعِينَ، شُبِّهَ بتَقَطُّعِ الحِبَالِ بالَّذِي يصْعَدُ النَّخْلَةَ، عَلَى سَبِيلِ الاسْتِعَارَةِ التَّمْثِيلِيَّةِ، وهُوَ تَمَاثُلٌ بَيْنَ صُورَتَيْنِ مُرَكَّبَتَيْنِ، وقَدْ فصّلَ الشَّيْخُ ابْنُ عَاشُور هَذِهِ الاسْتِعَارَة، فقال: "شُبِّهَتْ هَيْئَتُهُمْ عِنْدَ خَيْبَةِ أَمَلِهِمْ، حِينَ لَمْ يَجِدُوا النَّعِيمَ الَّذِي تَعِبُوا لِأَجْلِهِ مُدَّةَ حَيَاتِهِمْ، وقَدْ جَاءَ إِبَّانُهُ في ظَنِّهِمْ، فوَجَدُوا عِوَضَهُ العَذَابَ، بِحَالِ المُرْتَقِي إِلَى النَّخْلَةِ لِيجْتَنِيَ الثَّمَرَ الَّذِي كَدَّ لِأَجْلِهِ طُولَ السَّنَةِ، فتَقَطَّعَ بِهِ السَّبَبُ عِنْدَ ارْتِقَائِهِ فسَقَطَ هَالِكًا، فكَذَلِكَ هَؤُلَاءِ، قَدْ عَلِمَ كُلُّهُمْ حِينَئِذٍ أَنْ لَا نَجَاةَ لَهُمْ، فحَالُهُمْ كَحَالِ السَّاقِطِ مِنْ عُلُوٍّ، لَا تُرْجَى لَهُ سَلَامَةٌ، وهِيَ تَمْثِيلِيَّةٌ بَدِيعَةٌ؛ لِأَنَّ الهَيْئَةَ المُشَبَّهَةَ تَشْتَمِلُ عَلَى سَبْعَةِ أَشْيَاءَ، كُلُّ واحِدٍ مِنْهَا يَصْلُحُ لِأَنْ يَكُونَ مُشَبَّهًا بِوَاحِدٍ مِن الأَشْيَاءِ الَّتِي تَشْتَمِلُ عَلَيْهَا الهَيْئَةُ المُشَبَّهُ بِهَا، وهِيَ: تَشْبِيهُ المُشْرِكِ في عِبَادَتِهِ الأَصْنَام، واتِّبَاعِ دِينِهَا، بالمُرْتَقِي، بِجَامِعِ السَّعْيِ، وتَشْبِيهُ العِبَادَةِ، وقَبُولِ الآلِهَةِ مِنْهُ، بالحَبْلِ المُوصِلِ، وتَشْبِيهُ النَّعِيمِ والثَّوَابِ، بالثَّمَرَةِ في أَعْلَى النَّخْلَةِ؛ لِأَنَّهَا لَا يَصِلُ لَهَا المَرْءُ إِلَّا بَعْدَ طُولٍ، وهُوَ مُدَّةُ العُمْرِ، وتَشْبِيهُ العُمْرِ بالنَّخْلَةِ في الطُّولِ، وتَشْبِيهُ الحِرْمَانِ مِن المَوْصُولِ لِلنَّعِيمِ بِتَقَطُّعِ الحَبْلِ، وتَشْبِيهُ الخَيْبَةِ بالبُعْدِ عَن الثَّمَرَةِ، وتَشْبِيهُ الوُقُوعِ في العَذَابِ بِالسُّقُوطِ المُهْلِكِ"[2].

(1) الرّازيّ، مفاتيح الغيب: 181-4/180.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 98-2/97.

﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُواْ لَوۡ أَنَّ لَنَا كَرَّةٗ فَنَتَبَرَّأَ مِنۡهُمۡ كَمَا تَبَرَّءُواْ مِنَّاۗ كَذَٰلِكَ يُرِيهِمُ ٱللَّهُ أَعۡمَٰلَهُمۡ حَسَرَٰتٍ عَلَيۡهِمۡۖ وَمَا هُم بِخَٰرِجِينَ مِنَ ٱلنَّارِ ١٦٧﴾ [البقرة: 167]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِمَا قَبْلَها:

أمْنِيّاتٌ بِالرُّجوعِ إلى الدُّنْيا، لِيَتَبَرَّأَ التّابِعُ مِنَ المَتْبوعِ كما تَبَرَّأَ مِنْهُ:

تَهافُتُ الشِّرْكِ وهَوانُه في الدُّنْيا والآخِرَةِ

لَمَّا بَيَّنَ في الآياتِ السَّابِقَةِ حَالَ الأَتْبَاعِ والمُتَّبِعِينَ، وإِعْلَانَ بَرَاءَةِ الكُبَرَاءِ والسَّادَةِ مِنْ أَتْبَاعِهِمْ حِينَ يَرَوْنَ العَذَابَ، بَيَّنَ في هَذِهِ الآيَةِ أَنَّ أُولَئِكَ الأَتْبَاعَ يَتَمَنَّوْنَ الرُّجُوعَ إِلَى الدُّنْيَا ليَتبرّؤوا مِنَ المتبوعين، فالآيَةُ تُكْمِلُ مَا جَاءَ في الآيَتَيْنِ السَّابِقَتَيْنِ، مِنْ بَيَانِ الحَسْرَةِ والنَّدَمِ، وتَقَطُّعِ الصِّلَاتِ بَيْنَ الأَنْدَادِ وأَتْبَاعِهِمْ، لإِظْهَارِ تَهَافُتِ الشِّرْكِ وهَوَانِهِ في الدُّنْيَا والآخِرَةِ.

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿كَرَّةٗ﴾: مِنَ الجذْرِ (كرر)، وأَصْلُ هذه المادّةِ يَدُلُّ عَلَى جَمْعٍ وتَرْدِيدٍ، ومِنْ ذَلِكَ: كَرَرْتُ، وذَلِكَ رُجُوعُكَ إِلَيْهِ بَعْدَ المَرَّةِ الأُولَى[1]، الكَرُّ: العطف على الشَّيْءِ بالذّات أو بالفِعْلِ، قال تعالى: ﴿ثُمَّ رَدَدۡنَا لَكُمُ ٱلۡكَرَّةَ عَلَيۡهِمۡ﴾ [الإسراء: 06]، ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُواْ لَوۡ أَنَّ لَنَا كَرَّةٗ﴾ [البقرة: 167][2]، أي: رَجْعَةً إلى الدّنيا[3].

2) ﴿فَنَتَبَرَّأَ﴾: مِنَ الجذْرِ (برأ)، وأَصْلُ هذه المادّة: التَّبَاعُدُ مِنَ الشَّيْءِ ومُزَايَلَتُهُ[4]، والبُرْءُ، والبَرَاءُ: الانفصال ممّا يُكْرَهُ مجاوَرَتُه؛ ولِذلك قيل: بَرَأْتُ مِنَ المَرَض، قال ﷻ: ﴿بَرَآءَةٞ مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦٓ﴾ [التّوبة: 01]، ﴿أَنَّ ٱللَّهَ بَرِيٓءٞ مِّنَ ٱلۡمُشۡرِكِينَ وَرَسُولُهُۥ﴾ [التّوبة: 03][5].

(1) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (كرّ).
(2) الراغب، المفردات: (كرّ).
(3) الواحدي، التّفسير البسيط: 4/488.
(4) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (برأ).
(5) الراغب، المفردات، السمين، عمدة الحفاظ: (برأ).

3) ﴿حَسَرَٰتٍ﴾: مِنَ الجذْرِ (حسر)، وأَصْلُ هذه المادّةِ يدلُّ على كَشْفِ الشَّيْءِ، والحَسْرَةُ: التَّلَهُّفُ عَلَى الشَّيْءِ الفَائِتِ، وذَلِكَ انْكِشَافُ أَمْرِهِ في جَزَعِهِ وقِلَّةِ صَبْرِهِ[1]، وهي: الغَمّ على ما فاتَهُ، والنَّدَمُ عَلَيه، كَأنّهُ انْحَسَرَ عَنهُ الجَهلُ الّذي حمَلَه على ما ارْتَكَبَهُ، قال تعالى: ﴿لِيَجْعَلَ ٱللَّهُ ذَٰلِكَ حَسْرَةً فِي قُلُوبِهِمْۗ﴾ [آل عمران: 156]، وقال تعالى: ﴿كَذَٰلِكَ يُرِيهِمُ ٱللَّهُ أَعْمَٰلَهُمْ حَسَرَٰتٍ عَلَيْهِمْۖ﴾ [البقرة: 167][2]، والحسرةُ أعلى دَرجاتِ النَّدامَةِ، والهَمِّ بِما فاتَ[3].

❁ المَعْنَى الإِجْمَاليُّ:

لا تُغْني عنِ الضّالّينَ أمانيهِمْ ولا تَبَرُّؤُهُمْ، وما هم بِخارِجينَ مِنَ النّارِ

يُخبِرُ اللّه تعالى أنّ الأَتْباعَ والضُّعَفاء، سَيَتَمَنّوْن الرُّجوع إلى الدُّنيا، ليَتبرّؤوا منَ الرؤساءِ الّذين غرّرُوا بِهِم، وهُو ما عَبَّر عَنهُ بما مفادُهُ: أنّ الضُّعَفَاء والأَتْبَاعَ قالُوا: لَيْتَ لَنَا رَجْعَةً إِلَى الدُّنْيَا، فنَتَبَرَّأَ مِنْ رُؤَسَائِنَا، كَمَا تَبَرَّؤُوا مِنَّا! وكَمَا أَرَاهُم اللّهُ العَذَابَ الشَّدِيدَ في الآخِرَةِ، يُرِيهِمْ عَاقِبَةَ مُتَابَعَتِهِمْ لِرُؤَسَائِهِمْ عَلَى البَاطِلِ، حَسراتٍ وأَحْزَانًا، ولَيْسُوا بِخَارِجِينَ أَبَدًا من النَّارِ[4].

❁ الإيضاح اللُّغويُّ والبَلاغيُّ:

دَلَالَة التَّمَنِّي بِـ﴿لَوْ﴾، في قَوْلِهِ: ﴿لَوْ أَنَّ لَنَا كَرَّةً فَنَتَبَرَّأَ مِنْهُمْ﴾:

كلُّ الأماني خُلّبٌ يومَ القِيامَةِ

أداةُ ﴿لَوْ﴾ في قَوْلِه ﷻ: ﴿لَوْ أَنَّ لَنَا كَرَّةً فَنَتَبَرَّأَ مِنْهُمْ﴾ أفادَتْ مَعْنَى التَّمَنِّي؛ ولِذَلكَ أُجِيبَ بالفاءِ الَّذي يُجَابُ بِهِ التَّمَنِّي، كَأَنَّهُ قِيلَ: لَيْتَ لَنَا كَرَّةً فنَتَبَرَّأَ مِنْهُمْ[5]، وهو ما يُثيرُ الحسْرَةَ تلوَ الحسْرَة في نُفوسِهم، ولو أنَّ الأتباعَ في الدُّنيا اسْتَجَابُوا لـمَا تَحسَّرُوا.

(1) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (حسر).
(2) الراغب، المفردات: (حسر).
(3) ابن عطيّة، المحرَّر الوجيز: 1/236.
(4) جماعة من العلماء، المختصر في تفسير القرآن الكريم: ص: 25.
(5) الزّمخشريّ، الكشّاف: 1/212.

الإيجاز بالحذْفِ في قَوْلِهِ: ﴿لَوۡ أَنَّ لَنَا كَرَّةٗ﴾:

بيانُ استحالةِ أن يَكُونَ هُناكَ كَرَّةٌ إلى الدُّنيا بَعدَ فِراقِها

في قَوْلِهِ ﷻ: ﴿لَوۡ أَنَّ لَنَا كَرَّةٗ فَنَتَبَرَّأَ مِنۡهُمۡ﴾، حُذِفَ المُتَعَلِّقُ بالكَرَّة، وتَقْديرُهُ: (لَوْ أَنَّ لَنَا كَرَّةً إِلَى الدُّنْيَا)، والكَرَّةُ الرَّجْعَةُ إِلَى مَحَلٍّ كَانَ فِيهِ الرَّاجِعُ؛ ولِذَلِكَ تُطْلَقُ في القُرْآنِ عَلَى الرُّجُوعِ إِلَى الدُّنْيَا، فالكَرَّةُ: رَجْعَةٌ إِلَى الدُّنْيَا[1]؛ لِأَنَّهُ رُجُوعٌ لِمَكَانٍ سَابِقٍ، وحُذِفَ مُتَعَلَّقُ (الكَرّة) هُنَا لِظُهُورِهِ[2]، وأجرَى الكلامَ على لِسانِهم؛ لبيانِ علمِهم وتسليمِهم باستحالةِ الرُّجوعِ، وهذا من أبلغِ التَّحسُّرِ النَّفسيِّ.

مَا فائِدَةُ ذِكْرِ التَّبَرُّؤِ إِذَا كَانَ مَصِيرُهُمْ واحِدًا؟

التَّخفيفُ عن الأنفسِ يمثِّلُ حالةَ الإفلاسِ

التَّبَرُّؤُ لَا يَنْفَعُهُمْ شَيْئًا في ذَلِكَ اليَوْمِ، في قَوْلِهِ ﷻ: ﴿لَوۡ أَنَّ لَنَا كَرَّةٗ فَنَتَبَرَّأَ مِنۡهُمۡ﴾، ولَكِنَّهُمْ "تَمَنَّوْا ذَلِكَ؛ لِأَنَّ التَّبَرُّؤَ يَوْمَ القِيَامَةِ لَا يَضُرُّهُمْ؛ لِأَنَّهُمْ في دَهْشَةٍ عَظِيمَةٍ، والتَّعَارُفُ والأُلْفَةُ بَيْنَهُمْ مُنْقَطِعَةٌ، فمُرَادُهُمْ بِالتَّبَرُّؤِ، الإِذْلَالُ والتَّحْقِيرُ"[3]، فالآيةُ تُبيِّنُ حالَهم المُفلسة، فلا يستطيعونَ شَيْئًا سوى التَّمنِّي، طلبًا للتَّخفيفِ عن أنفسِهم.

دَلَالَةُ الكَاف في قَوْلِهِ: ﴿فَنَتَبَرَّأَ مِنۡهُمۡ كَمَا تَبَرَّءُواْ مِنَّاۗ﴾:

التَّبرُّؤُ دَليلُ القُنُوطِ وخَيْبَةِ الأَمَلِ

الكَاف في قَوْلِهِ ﷻ: ﴿كَمَا تَبَرَّءُواْ﴾، "لِلتَّشْبِيهِ، اسْتُعْمِلَتْ في المُجَازَاةِ؛ لِأَنَّ شَأْنَ الجَزَاءِ، أَنْ يُمَاثِلَ الفِعلَ المُجَازَى، قال تعالى: ﴿وَجَزَٰٓؤُاْ سَيِّئَةٖ سَيِّئَةٞ مِّثۡلُهَاۖ﴾ [الشّورى: 40]"[4].

بَيَانُ التَّشْبِيهِ في قَوْلِهِ: ﴿كَذَٰلِكَ﴾:

مَنْ قَطَعَ وَصْلَهُ باللهِ في الدُّنْيا، انْقَطَعَ رَجَاؤُهُ فيه في الآخِرَةِ

في قَوْلِهِ ﷻ: ﴿كَذَٰلِكَ يُرِيهِمُ ٱللَّهُ أَعۡمَٰلَهُمۡ حَسَرَٰتٍ عَلَيۡهِمۡۖ﴾ تَشْبِيهٌ، وقَدْ أَوْجَزَ الرَّازِي بَيَانَهُ، فقال عند قوله تعالى: ﴿كَذَٰلِكَ يُرِيهِمُ﴾: "وجْهَانِ، الأَوَّل: كَتَبَرُّؤِ بَعْضِهِمْ مِنْ بَعْضٍ، يُرِيهِمُ اللّهُ أَعْمَالَهُمْ

(1) النيسابوري، التّفسير البسيط: 4/480.

(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 2/99.

(3) حاشية القونوي على تفسير البيضاوي: 4/418.

(4) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 2/99.

حَسَرَاتٍ؛ وذَلِكَ لانْقِطاعِ الرَّجاءِ مِنْ كُلِّ أَحَد، الثَّاني: كَمَا أَرَاهُمُ العَذَابَ يُرِيهِمُ اللَّه أَعْمَالَهُمْ حَسَرَاتٍ؛ لِأَنَّهُمْ أَيْقَنُوا بِالهَلَاكِ"[1].

دلالةُ اسْمِ الإِشَارَةِ في قَوْلِهِ: ﴿كَذَٰلِكَ يُرِيهِمُ﴾:

مَنْ أُرِيَ أعمالَهُ حَسَراتٍ عليهِ فهُوَ مِنَ الهالِكِينَ

الإِشَارَة في قَوْلِه ﷻ: ﴿كَذَٰلِكَ يُرِيهِمُ ٱللَّهُ أَعْمَٰلَهُمْ﴾، "إِشَارَةٌ إِلَى إِرَاءٍ آخَرَ، يَقْصِدُ تَشْبِيهَ هَذَا الإِرَاءِ بِهِ، أَيْ: يُرِيهِمُ اللَّه أَعْمَالَهُمْ مِثْلَ ذَلِكَ الإِرَاءِ، ويَجُوزُ أَنْ يَكُونَ ذَلِكَ إِشَارَةً إِلَى إِرَائِهِمُ الأَهْوَالَ المَذْكُورَةَ سَابِقًا، مِنْ شِدَّةِ عَذَابِ اللَّه تعالى، بِحَيْثُ تَيَقَّنُوا بِهَا أَنَّ اللَّه قَوِيٌّ عَزِيزٌ، وتَقَطَّعَ مَا بَيْنَهُمْ مِنَ الأَسْبَابِ، أَيْ مِثْلَ إِرَاءَتِهِمْ مَا ذُكِرَ مِنَ الأَهْوَالِ، يُرِيهِمُ اللَّه أَعْمَالَهُمْ حَسَرَاتٍ"[2]، أَوْ "لِلإِرَاءَةِ المَأْخُوذَةِ مِنْ ﴿يُرِيهِمُ﴾، عَلَى أُسْلُوبِ: ﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَٰكُمْ أُمَّةً وَسَطًا﴾ [البَقَرَة: 143]، والمَعْنَى: أَنَّ اللَّه يُرِيهِمْ عَوَاقِبَ أَعْمَالِهِمْ، إِرَاءً مِثْلَ هَذَا الإِرَاءِ؛ إِذْ لَا يَكُونُ إِرَاءٌ لِأَعْمَالِهِمْ أَوْقَعَ مِنْهُ، فَهُوَ تَشْبِيهُ الشَّيْءِ بِنَفْسِه، بِاخْتِلَافِ الاعْتِبَارِ، كَأَنَّهُ يُرَامُ أَنْ يُرِيَهُمْ أَعْمَالَهُمْ في كَيْفِيَّةٍ شَنِيعَةٍ، فلَمْ يُوجَدْ أَشْنَعُ مِنْ هَذِهِ الحَالَةِ، وهَذَا مِثْلُ الإِخْبَارِ عَنِ المُبْتَدَأ بِلَفْظِه، في نَحْوِ: شِعْرِي شِعْرِي، أَوْ بِمُرَادِفِه، نَحْوَ: والسَّفَاهَةُ كَاسْمِهَا"[3].

مَعْنَى الرُّؤْيَةِ في قَوْلِهِ: ﴿يُرِيهِمُ ٱللَّهُ أَعْمَٰلَهُمْ حَسَرَٰتٍ عَلَيْهِمْ﴾:

مهما يَكُنْ ما يَرَوْنَ في ذلك المَوْقِفِ، فإنَّ حَسراتِ الفُؤادِ، تُفتِّتُ الأكبادَ

دَلَالَة الرُّؤْيَة في قَوْلِه ﷻ: ﴿كَذَٰلِكَ يُرِيهِمُ ٱللَّهُ أَعْمَٰلَهُمْ حَسَرَٰتٍ عَلَيْهِمْ﴾، تَحْتَمِلُ أَنْ تَكُونَ مِنَ الرُّؤْيَةِ القَلْبِيَّةِ أَو البَصَرِيَّةِ؛ فـ"إِنْ كَانَتِ البَصَرِيَّةَ فقولُهُ: ﴿حَسَرَٰتٍ﴾ مُنْتَصِبٌ عَلَى الحَالِ، وإِنْ كَانَتِ القَلْبِيَّةَ فهُوَ المَفْعُولُ الثَّالِثُ، والمَعْنَى: أَنَّ أَعْمَالَهُم الفَاسِدَةَ يُرِيهِمُ اللَّه إِيَّاهَا، فتَكُونُ عَلَيْهِمْ حَسَرَاتٍ، أَوْ: يُرِيهِم الأَعْمَالَ الصَّالِحَةَ الَّتِي أَوْجَبَهَا عَلَيْهِمْ، فتَرَكُوهَا، فيَكُونُ ذَلِكَ حَسْرَةً عَلَيْهِمْ"[4].

---

(1) الرّازيّ، مفاتيح الغيب: 4/181.

(2) زاده، حاشية على البيضاوي: 2/412.

(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 100-2/99.

(4) الشّوكاني، فتح القدير: 1/192.

دَلَالَةُ النَّفْيِ المُؤَكَّدِ في قَوْلِهِ: ﴿وَمَا هُم بِخَٰرِجِينَ مِنَ ٱلنَّارِ﴾:

الخُلودُ في النّارِ لَعْنَةٌ لا تَنْتهي، وأَلَمٌ لا يَنقَطِعُ

جَاءَ النَّفْيُ مُؤَكَّدًا بالبَاءِ، في قَوْلِهِ ﷻ: ﴿وَمَا هُم بِخَٰرِجِينَ مِنَ ٱلنَّارِ﴾؛ لِيَدُلَّ "عَلَى قُوَّةِ أَمْرِهِمْ فِيمَا أَسْنَدَ إِلَيْهِمْ، لَا عَلَى الاخْتِصَاصِ"[1]، فبَقَاؤُهُمْ في النَّارِ لَا يُنْقَضُ.

إيثَارُ التَّعْبِيرِ بالجُمْلَةِ الاسْمِيَّةِ في قَوْلِهِ: ﴿وَمَا هُم بِخَٰرِجِينَ مِنَ ٱلنَّارِ﴾:

غـايَـةُ الـكـافِـرِ أن يُـزَحْـزَحَ عَـنِ الـنّـارِ، ولـكِـنْ (مَـا هُـمْ مِنْـهَـا بِمُخْرَجِينَ)

آثَرَ النَّظمُ أَنْ يُعَبِّرَ عَنْ ذَلِكَ بالجُمْلَةِ الاسْمِيَّةِ، ولَمْ يَقُلْ: (وَمَا يَخْرُجُونَ مِن النَّارِ)؛ لإِفَادَةِ الخُلُودِ والثَّبَاتِ، قال البَيْضَاوِيُّ: "﴿وَمَا هُم بِخَٰرِجِينَ مِنَ ٱلنَّارِ ١٦٧﴾ أَصْلُهُ: (وَمَا يَخْرُجُونَ)، فعَدَلَ بِهِ إِلَى هَذِهِ العِبَارَةِ؛ لِلمُبَالَغَةِ في الخُلُودِ، والإِقْنَاطِ عَنِ الخَلَاصِ، والرُّجُوعِ إِلَى الدُّنْيَا "[2]، وقَالَ أَبُو السُّعُود: "والأَصْلُ (ومَا يَخْرُجُونَ)، والعُدُولُ إِلَى الاسْمِيَّةِ لإِفَادَةِ دَوَامِ نَفْيِ الخُرُوجِ، والضَّمِيرُ لِلدَّلَالَةِ عَلَى قُوَّةِ أَمْرِهِمْ، فِيمَا أُسْنِدَ إِلَيْهِمْ"[3].

الاقتصادُ في الكَلَامِ بِذِكْرِ بَعْضِه الدّالِ على بعضِه الآخر:

لا حَسْـرَةَ أكْـبَرَ مِـنْ دخـولِ النّارِ، بلا أَمَلٍ في الخُروجِ مِنْها

ذَكَرَتِ الآيَةُ انْتِفَاءَ الخُرُوجِ، ولَمْ تَذْكُرِ الدُّخُولَ فِيهَا قَبْلَهُ، قال أَبُو حَيَّان في بَيَانِه: "هَذَا يَدُلُّ عَلَى دُخُولِ النَّارِ، إِذْ لَا يُقَالُ: مَا زَيْدٌ بِخَارِجٍ مِنْ كَذَا، إِلَّا بَعْدَ الدُّخُولِ، ولَمْ يَتَقَدَّمْ في الآيَةِ نَصٌّ عَلَى دُخُولِهِمْ، إِنَّمَا تَقَدَّمَ رُؤْيَتُهُم العَذَابَ، ومُفَاوَضَةٌ بِسَبَبِ تَبَرُّؤِ المَتْبُوعِينَ مِن الأَتْبَاعِ"[4].

الاعْتِرَاضُ والتَّذْيِيلُ في الآيَةِ:

لا يُغْني حِجاجٌ، ولا يَـنْـفَـعُ احْتِجاجٌ، بَعْدَ الفَصلِ في تقريرِ المَصيرِ

قَوْلُهُ ﷻ: ﴿وَمَا هُم بِخَٰرِجِينَ مِنَ ٱلنَّارِ ١٦٧﴾، عَقِبَ ذِكْرِ الحَسَرَاتِ؛ لِيَزِيدَ أَلَمَ الحَسْرَةِ والنَّدَمِ؛ ولِيَكُونَ كَالخَاتِمَةِ لِمَا حَصَلَ بَيْنَهُمْ مِن المُدَافَعَةِ والاحْتِجَاجِ والتَّبَرُّؤِ وتَمَنِّي العَوْدَةِ؛ فالنَّارُ هِيَ المُسْتَقَرُّ الأَخِيرُ، ولَمْ تَنْفَعْهُمْ كُلُّ تِلْكَ المُنَاوَشَاتِ الَّتِي حَصَلَتْ قَبْلَ دُخُولِهِمُ

---

(1) الزّمخشريّ، الكشّاف: 1/212.

(2) البيضاويّ، أنوار التنزيل: 1/118.

(3) أبو السّعود، إرشاد العقل السليم: 1/187.

(4) أبو حيّان، البحر المحيط: 2/94.

النَّارَ، وهُوَ "اعْتِرَاضٌ في آخِرِ الكَلَامِ؛ لِقَصْدِ التَّذْييلِ لِمَضْمُون ﴿كَذَٰلِكَ يُرِيهِمُ ٱللَّهُ أَعۡمَٰلَهُمۡ حَسَرَٰتٍ عَلَيۡهِمۡۖ﴾؛ لِأَنَّهُمْ إِذَا كَانُوا لَا يَخْرُجُونَ مِن النَّارِ، تَعَيَّنَ أَنَّ تَمَنِّيَهُمُ الرُّجُوعَ إِلَى الدُّنْيَا، وحُدُوثَ الخَيْبَةِ لَهُمْ مِنْ صُنْعِ رُؤَسَائِهِمْ، لَا فائِدَةَ فيهِ إِلَّا إِدْخَالُ أَلَمِ الحَسَرَاتِ عَلَيْهِمْ، وإِلَّا فهُمْ بَاقُونَ في النَّارِ عَلَى كُلِّ حَال"[1].

الفُرُوقُ المُعْجَمِيَّةُ:

الحَسْرَة والغَمّ والأسَف:

الحَسْرَةُ: غَمٌّ يَتَجَدَّدُ لفَوْتِ فائِدَةٍ، فلَيْسَ كلُّ غمّ حَسرَةً، والأَسَفُ: حَسْرَةٌ معهَا غَضَبٌ أو غَيْظٌ، والآسِفُ الغضبانُ المتَلَهّفُ على الشَّيْءِ، ثمَّ كَثُرَ ذَلِك حَتَّى جَاءَ في معنى الغَضَب وَحْدَهُ في قَوْله تعالى ﴿فَلَمَّآ ءَاسَفُونَا ٱنتَقَمۡنَا مِنۡهُمۡ فَأَغۡرَقۡنَٰهُمۡ أَجۡمَعِينَ ٥٥﴾ [الزّخرف: 55]، أَي أغضَبونا، والغَضَبُ من صِفَات اللّه تعالى، وحَقِيقَتُهُ إِيجَابُ العقَاب للمغضُوب عَلَيْه[2].

مَنْ أضاعَ سَعْيَهُ في الكُفْرانِ والنُّكْرانِ، تَجَرَّعَ الحَسْرَةَ وذاقَ الهَوانَ

فالحَسْرَةُ تَخْتَصُّ بِفَوْتِ الفَائِدَةِ، فتَكُونُ أَكْثَرَ مُنَاسَبَةً في الآيَةِ؛ لِأَنَّهَا تَعْبِيرٌ عَنْ تِلْكَ الأَعْمَالِ الَّتِي اكتَسَبُوا مِنْهَا العَنَاءَ، فضَاعَتْ آثَارُهَا يَوْمَ القِيَامَةِ، حَيْثُ كَانُوا يَظُنُّونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعًا، فإِذَا أَعْمَالُهُمْ كَسَرَابٍ بِقِيعَةٍ، والغَمُّ لَا تَجَدُّدَ فيهِ، والأَسَفُ فِيهِ مَعْنَى الغَضَبِ؛ فهُمَا لَا يُنَاسِبَانِ التَّعْبِيرَ في الآيَةِ.

الكَرَّة والرُّجُوع:

أَصْلُ مادّة (كرّ) يَدُلُّ عَلَى جَمْعٍ وتَرْدِيدٍ، مِنْ ذَلِكَ كَرَرْتُ، وذَلِكَ رُجُوعُكَ إِلَيْهِ بَعْدَ المَرَّةِ الأُولَى[3]، والكَرُّ: العطف على الشَّيْءِ بالذّات أو بالفِعْلِ، قال تعالى: ﴿ثُمَّ رَدَدۡنَا لَكُمُ ٱلۡكَرَّةَ عَلَيۡهِمۡ﴾ [الإسراء: 06]،

في الفَرْقِ اللَّفْظيِّ تَتَجَلّى المَعاني، ويُدْرَكُ مَلْمَحُ الاخْتِيَارِ

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 2/100.
(2) العسكري، الفروق اللّغويّة، ص: 267.
(3) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (كرر).

﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُواْ لَوۡ أَنَّ لَنَا كَرَّةٗ﴾ [البقرة: 167][1]؛ أيْ: رجعَةً إلى الدّنْيا[2]، والرُّجُوعُ: العَوْدُ إلَى مَا كَانَ مِنْهُ البَدْءُ، مَكَانًا كَانَ أَوْ فِعْلًا، أَوْ قَوْلًا، وبِذَاتِهِ كَانَ رُجُوعُهُ، أَوْ بِجُزْءٍ مِنْ أَجْزَائِه، أَوْ بِفِعْلٍ مِنْ أَفْعَالِه، والرَّجْعُ: الإعَادَةُ، والرَّجْعَةُ العَودُ إِلَى الدُّنْيَا بَعْدَ المَمَاتِ، ويُقَالَ: فُلَانٌ يُؤْمِنُ بالرَّجْعَةِ[3].

وجاءَ التَّعْبيرُ في الآيَةِ، عَلى غايَةِ البَلاغَةِ والبَراعَة، فالرُّجُوعُ يَدُلُّ على العَوْدَةِ إلى مَكانِ البَدْءِ، أمّا الكَرّةُ فعَوْدَةٌ معَ إرادَةِ التَّكْرارِ؛ فهُم لَمْ يَطْلُبُوا الرُّجوعَ إلى الدُّنيا وحَسْبُ، بل أرادُواْ تَكْرارَ أمرِ التّبرُّؤ، فَهُم لَمْ يَتَمَنَّوْا العَوْدَةَ إلى الدُّنْيَا في هَذَا المَوْضِعِ لِلنَّجَاةِ مِن العَذَابِ بِأَنْ يُؤْمنُوا، بَلْ لِلانْتِقامِ والتَّشَفِّي مِنْ سَادَتِهِمْ، بِالتَّبَرُّؤِ مِنْهُمْ.

---

(1) الراغب، المفردات: (كرر).

(2) الواحدي، التّفسير البسيط: 3/480.

(3) العسكري، معجم الفروق اللّغويّة: ص: 249.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ كُلُواْ مِمَّا فِي ٱلۡأَرۡضِ حَلَٰلٗا طَيِّبٗا وَلَا تَتَّبِعُواْ خُطُوَٰتِ ٱلشَّيۡطَٰنِۚ إِنَّهُۥ لَكُمۡ عَدُوّٞ مُّبِينٌ ١٦٨﴾ [البقرة: 168]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِمَا قَبْلَها:

العَلاقَةُ بَيْنَ إنْعامِ الله، والحَثِّ عَلى أكْلِ الطَّيِّباتِ، واجْتِنابِ المَنْهِيَّاتِ

لَمَّا بَيَّنَ التَّوْحِيدَ ودَلَائِلَهُ، ومَا لِلمُوَحِّدِينَ مِن الثَّوابِ، وأَتْبَعَهُ بِذِكْرِ الشِّرْكِ، ومَنْ يَتَّخِذُ مِنْ دُونِ اللّهِ أَنْدَادًا، أَتْبَعَ ذَلِكَ بِذِكْرِ إِنْعَامِهِ عَلَى الفَرِيقَيْنِ، وإِحْسَانِهِ إِلَيْهِمْ، وبيان أَنَّ مَعْصِيَّةَ مَنْ عَصَاهُ، وكُفْرَ مَنْ كَفَرَ بِهِ، لَمْ تُؤَثِّرْ في قَطْعِ إِحْسَانِهِ ونِعَمِهِ عَنْهُمْ، فقَالَ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ كُلُواْ مِمَّا فِي ٱلۡأَرۡضِ﴾؛ لِأَنَّهُ تعالى رَبُّ العَالَمِينَ، فإِحْسَانُهُ عَامٌّ لِجَمِيعِ الأَنَامِ، دُونَ تَمْيِيزٍ بَيْنَ مُؤْمِنٍ وكَافِرٍ، وبَرٍّ وفَاجِرٍ[1].

شَرْحُ المُفْرَدَاتِ:

أكل الطيّبات من نعم الله على عباده الصّالحين

1) ﴿كُلُواْ﴾: من الجذرِ (أكل)، والأَكْلُ: تناوُلُ المَطْعَم، والأُكُلُ: لِما يُؤْكَلُ، قال تعالى: ﴿أُكُلُهَا دَآئِمٞ﴾ [الرّعد: 35]، وقوله تعالى: ﴿إِنَّمَا يَأۡكُلُونَ فِي بُطُونِهِمۡ نَارٗاۖ﴾ [النّساء: 10]، تنبيهًا على أنّ تناوُلَهُمْ لأموال اليتامى ظلماً يُؤَدّي بهِمْ إلى النّارِ[2].

أكْلُ الطّيّب الحلال، مأمُورُ الله ذي الجلال

2) ﴿حَلَٰلٗا﴾: مِنَ الجذرِ (حلّ)، وأَصْلُ المادّة: فتْحُ الشَّيْءِ، يُقَالُ حَلَلْتُ العُقْدَةَ أَحُلُّهَا، والحَلَالُ: ضِدُّ الحَرَام، مِنْ حَلَلْتُ الشَّيْءَ، إِذَا أَبَحْتَهُ وأَوْسَعْتَهُ لِأَمْرٍ فِيهِ[3]، حَلَّ الشَّيْءُ حلالًا، قال اللّه تعالى: ﴿وَكُلُواْ مِمَّا رَزَقَكُمُ ٱللَّهُ حَلَٰلٗا طَيِّبٗاۚ﴾ [المائدة: 88]، وقال تعالى: ﴿هَٰذَا حَلَٰلٞ وَهَٰذَا حَرَامٞ﴾ [النّحل: 116][4]، ومعنى الحَلالِ: المباحُ الّذي انْحَلّتْ عُقْدَةُ الحَظْرِ عنه[5].

(1) الرّازيّ، مفاتيح الغيب: 5/185، وزاده، حاشية على البيضاوي: 2/413.
(2) الراغب، المفردات: (أكل).
(3) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (حلّ).
(4) الراغب، المفردات: (حلل).
(5) الواحدي، التّفسير البسيط: 4/483.

لا يكون الحلال إلّا طيّبًا

3) ﴿طَيِّبًا﴾، أصلُ مادّة (طيب) يَدُلُّ عَلَى خِلَافِ الخَبِيثِ، مِنْ ذَلِكَ الطَّيِّبُ: ضِدُّ الخَبِيثِ، والأَطْيَبَانِ: الأَكْلُ والنِّكَاحُ[1]، وأصل الطَّيِّبِ: ما تَسْتَلِذُّهُ الحَواسُّ، وما تَسْتَلِذُّهُ النّفسُ، وعلى ذلك قوله تعالى: ﴿كُلُواْ مِن طَيِّبَٰتِ مَا رَزَقۡنَٰكُمۡ﴾ [البقرة: 172]، ﴿فَكُلُواْ مِمَّا رَزَقَكُمُ ٱللَّهُ حَلَٰلٗا طَيِّبٗا﴾ [النّحل: 114][2]، وهو ما يُسْتَلَذُّ ويُستطابُ، ووُصفَ به الحلالُ على جِهَةِ التَّشْبيهِ؛ لأنّ النَّجِسَ تكرهُهُ النّفسُ، فلا يُسْتَلَذُّ، والحرامُ غيرُ مُسْتلَذٍّ؛ لأنّ الشّرع يَزْجُرُ عَنْهُ[3].

مــن احــتــذى خـــطـــوات الشّيطان، لم يكن من شرّه في أمان

4) ﴿خُطُوَٰتِ﴾: مِنَ الجذْرِ (خطو)، وأصلُ هذه المادّة يَدُلُّ عَلَى تَعَدِّي الشَّيْءِ، والذَّهَابِ عَنْهُ، والخُطْوَةُ: مَا بَيْنَ الرِّجْلَيْنِ[4]، قال تعالى: ﴿وَلَا تَتَّبِعُواْ خُطُوَٰتِ ٱلشَّيۡطَٰنِۚ﴾ [البقرة: 168]، أي: لا تتَّبعُوهُ[5]، المعْنَى: لا تتّبِعوا سَبيلَه، ولا تَسْلُكوا طريقَهُ، ولا تَأْتَمّوا به، ولا تَقْفُوا أَثَرَهُ[6].

الشّيطان عدوٌّ الإنسان في كلّ أوان

5) ﴿عَدُوّٞ﴾: مِنَ الجذْرِ (عدو)، وأصلُ هذه المادّة يَدُلُّ عَلَى تَجَاوُزٍ في الشَّيْءِ وتَقَدُّمٍ لِمَا يَنْبَغِي أَنْ يُقْتَصَرَ عَلَيْهِ[7]، والعَدْوُ: التّجاوُزُ ومُنافاةُ الالْتِئام، فمن المعاداة يقال: رجل عدوٌّ، وقوم عدوٌّ، قال تعالى: ﴿بَعۡضُكُمۡ لِبَعۡضٍ عَدُوّٞۖ﴾ [طه: 123][8].

الأمـرُ بـتـوخّـي الـطّـيِّـبـاتِ، ومُـجـافـاةِ الشَّيْطانِ وسُبُلِهِ الخادِعاتِ

المَعْنَى الإجْمالِيُّ:

يخاطِبُ اللّه تعالى النّاسَ مُبيِّنًا لهمُ المباحَ مِنَ الطّيِّبات: يَا أَيُّهَا النَّاسُ كُلُوا مِنْ رِزْقِ اللَّهِ الَّذِي أَبَاحَهُ لَكُمْ في الأَرْضِ، وهُوَ الطَّاهِرُ غَيْرَ النَّجِسِ، النَّافِعُ غَيْرَ الضَّارِّ، فكُلّ ما في الأرض هُوَ حَلالٌ طيِّبٌ،

(1) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (طيب).
(2) الراغب، المفردات: (طيب).
(3) الواحدي، التّفسير البسيط: 4/483.
(4) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (خطو).
(5) الراغب، المفردات: (خَطو).
(6) الواحدي، التّفسير البسيط: 3/484.
(7) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (عدو).
(8) الراغب، المفردات: (عدو).

إلّا بَعضَ ما حُرِّم عَليهِمْ، ولَا تَتَّبِعُوا طُرُقَ الشَّيْطَانِ في التَّحْلِيلِ والتَّحْرِيمِ، والـمَعَاصِي، إنَّهُ عَدُوٌّ لَكُمْ ظَاهِرُ العَدَاوَةِ(1).

إنَّ في الحَلالِ مَنْدوحَةً عَنِ الحَرامِ

وهذه الآيَةُ نَزَلَتْ في ثَقِيفٍ وخُزَاعَةَ وعَامِرِ بْنِ صَعْصَعَةَ، حَرَّمُوا عَلَى أَنْفُسِهِمْ مِن الحَرْثِ والأَنْعَامِ، وحَرَّمُوا البَحِيرَةَ والسَّائِبَةَ والوَصِيلَةَ والحَامِي(2)، وقَالَ ابْنُ عَبَّاس، في رِوَايَةِ أَبِي صَالِح: نَزَلَتْ في الَّذِينَ حَرَّمُوا عَلَى أَنْفُسِهِم السَّوَائِبَ والوصَائِلَ والبَحَائِرَ، وقَالَ في رِوَايَةِ عَطَاءٍ: يَعْنِي: الـمُؤْمِنِينَ خَاصَّةً(3).

الإيضاح اللُّغويُّ والبَلاغِيُّ:

فائِدَةُ الاسْتِئْناف في قوْله: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ﴾:

أكلُ الطّيّباتِ مِنْ نِعَمِ الله على عِبادِهِ الصّالِحينَ

قَوْلُهُ ﷻ: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ كُلُواْ مِمَّا فِى ٱلْأَرْضِ حَلَـٰلًا طَيِّبًا وَلَا تَتَّبِعُواْ خُطُوَٰتِ ٱلشَّيْطَـٰنِۚ إِنَّهُۥ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ ١٦٨﴾، اسْتِئْنَافٌ ابْتِدَائِيٌّ، وهُوَ تَمْهِيدٌ، وتَلْخِيص لِمَا يَعْقبُهُ مِنْ ذِكْرِ شَرَائِعِ الإِسْلَامِ، في الأَطْعِمَةِ وغَيْرِهَا، الَّتِي سَتَأْتِي مِنْ قَوْلِهِ تعالى: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُلُواْ مِن طَيِّبَـٰتِ مَا رَزَقْنَـٰكُمْ﴾ [البَقَرَة: 172]"(4).

دَلَالَة فِعْلِ الأَمْرِ في قَوْلِهِ: ﴿كُلُواْ﴾:

(كلوا ممّا في الأرضِ) يَدُلُّ عَلَى الإِبَاحَةِ

فِعْلُ الأَمْرِ في قَوْلِهِ ﷻ: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ كُلُواْ مِمَّا فِى ٱلْأَرْضِ﴾ يَدُلُّ عَلَى الإِبَاحَةِ(5)، إذ من الـمُستحيلِ أن يُؤمَرَ النَّاسُ بأكلِ كلِّ ما في الأرضِ جميعًا، إذ هو خارِجٌ عن نِطاقِ الاستطاعَةِ، داخلٌ في دائرةِ الاستحالَةِ، ففُهِم أنَّ الأمرَ للتَّخيير، وهو الإباحَةُ، وهو ما يدُلُّ عليه التَّبعيضُ، هذا في أصلِ الأمرِ، والتَّفْصِيلُ أَنَّ "الأَمْرَ مُسْتَعْمَلٌ في كُلِّ

(1) التفسير الميسر، ص: 25.
(2) أسباب النّزول، الواحديّ، ص: 48، والعجاب في بيان الأسباب: 1/416.
(3) الواحدي، التّفسير البسيط: 3/482.
(4) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 2/101.
(5) النّسفيّ، مدارك التنزيل وحقائق التأويل: 1/149.

مِن الوُجُوبِ والنَّدْبِ والإِبَاحَةِ، الأَوَّل إِذَا كَانَ لِقِيَامِ البِنْيَةِ، والثَّانِي كَالأَكْلِ مَعَ الضَّيْفِ، والثَّالِثُ كَغَيْرِ مَا ذُكِر"[1]، وهو الأَكْثَرُ.

حِكْمَةُ التَّبْعِيضِ فِي قَوْلِهِ: ﴿مِمَّا فِى ٱلْأَرْضِ﴾:

الأكْلُ مِنْ كُلّ ما في الأرْضِ، عَامٌّ مُخَصَّصٌ بِكَوْنِهِ حلالًا طيّبًا

(مِنْ) في قَوْلِهِ ﷻ: ﴿مِمَّا فِى ٱلْأَرْضِ﴾ لِلتَّبْعِيضِ؛ لِأَنَّ كُلَّ مَا فِي الأَرْضِ لَيْسَ بِمَأْكُولٍ[2]؛ وذَلِكَ "لِلقَطْعِ بِأَنَّ فِي الأَرْضِ مَا هُوَ حَرَامٌ، كَالحِجَارَةِ، لَا يُؤْكَلُ أَصْلًا، ولَيْسَ كُلُّ مَا يُؤْكَلُ يَجُوزُ أَكْلُهُ؛ فلِذَلِكَ قَالَ: ﴿حَلَٰلًا﴾ وفَائِدَةُ التَّبْعِيضِ هُنَا بَيَانُ التَّنْوِيعِ"، فالتَّبْعِيضُ رَاجِعٌ إِلَى كَوْنِ المَأْكُولِ بَعْضًا مِنْ كُلِّ نَوْعٍ، ولَيْسَ رَاجِعًا إِلَى كَوْنِ المَأْكُولِ أَنْوَاعًا دُونَ أَنْوَاعٍ؛ لِأَنَّهُ يُفَوِّتُ غَرَضَ الآيَةِ، فـ﴿مِمَّا فِى ٱلْأَرْضِ﴾، عَامٌّ خَصَّصَهُ الوَصْفُ بِقَوْلِهِ: ﴿حَلَٰلًا طَيِّبًا﴾، فخَرَجَتِ المُحَرَّمَاتُ الثَّابِتُ تَحْرِيمُهَا بِالكِتَابِ، أَوِ السُّنَّةِ"[3].

دَلَالَةُ العُمُومِ فِي قَوْلِهِ: ﴿مِمَّا فِى ٱلْأَرْضِ﴾:

الأصْلُ حِلُّ ما في الأرْضِ، حَتّى يَرِدَ دَليلٌ يَقْتَضي تَحْريمَهُ

الِاسْمُ المَوْصُولُ (مَا) في قَوْلِهِ ﷻ: ﴿كُلُوا۟ مِمَّا فِى ٱلْأَرْضِ حَلَٰلًا طَيِّبًا﴾، يَدُلُّ عَلَى العُمُومِ، وهَذَا يَدُلُّ "عَلَى أَنَّ كُلَّ مَا لَمْ يَرِدْ فِيهِ نَصٌّ، أَوْ ظَاهِرٌ مِن الأَعْيَانِ المَوْجُودَةِ فِي الأَرْضِ، فأَصْلُهُ الحِلُّ، حَتَّى يَرِدَ دَلِيلٌ يَقْتَضِي تَحْرِيمَهُ، وأَوْضَحُ دَلَالَةً عَلَى ذَلِكَ مِنْ هَذِهِ الآيَةِ قَوْلُهُ تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ لَكُم مَّا فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا﴾ [البقرة: 29]"[4].

وظِيفَةُ قَوْلِهِ: ﴿حَلَٰلًا طَيِّبًا﴾ الإعرابيّة في الجُمْلَة:

بَيانُ الحُكْمِ الشَّرْعيّ مع عِلَّتِه

قَوْلُهُ ﷻ: ﴿كُلُوا۟ مِمَّا فِى ٱلْأَرْضِ حَلَٰلًا طَيِّبًا﴾، اخْتَلَفَ المُفَسِّرُونَ فِي بَيَانِ وظِيفَةِ: ﴿حَلَٰلًا طَيِّبًا﴾ قال الرَّازِي: "إِنْ شِئْتَ نَصَبْتَهُ عَلَى الحَالِ مِمَّا فِي الأَرْضِ، وإِنْ شِئْتَ نَصَبْتَهُ عَلَى أَنَّهُ مَفْعُولٌ"[5]،

(1) القِنّوجي، فتح البيان: 1/334.
(2) الزّمخشريّ، الكشّاف: 1/213، والنّسفيّ، مدارك التنزيل: 1/149.
(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 2/102.
(4) القِنّوجي، فتح البيان: 1/334.
(5) الرّازيّ، مفاتيح الغيب: 5/185.

و﴿حَلَٰلٗا﴾ مفْعُولُ ﴿كُلُواْ﴾، أَوْ صِفَةُ مَصْدَرٍ مَحْذُوف، أَوْ حَالٌ من ﴿مِمَّا فِي ٱلۡأَرۡضِ﴾"[1]، وقَالَ ابْنُ عَطِيَّة: "مَقْصِدُ الكَلَامِ لَا يُعْطِي أَنْ يَكُونَ ﴿حَلَٰلٗا﴾ مَفْعُولاً بـ ﴿كُلُواْ﴾"[2]، وقَدْ أَحْسَنَ الشَّيْخُ ابْنُ عَاشُور في بَيَانِ ذَلِكَ: "وَقَوْلُهُ: ﴿حَلَٰلٗا طَيِّبٗا﴾ حَالَانِ مِنْ (مَا) المَوْصُولَة، أَوَّلُهُمَا لِبَيَانِ الحُكْمِ الشَّرْعِيِّ، والثَّاني لِبَيَانِ علَّته؛ لِأَنَّ الطَّيِّبَ مِنْ شَأْنِهِ أَنْ تَقْصِدَهُ النُّفُوسُ لِلانْتِفَاعِ بِهِ، فإِذَا ثَبَتَ الطِّيبُ ثَبَتَتِ الحِلِّيَّةُ؛ لِأَنَّ اللّٰهَ رَفِيقٌ بِعِبَادِهِ، لَمْ يَمْنَعْهُمْ مِمَّا فِيهِ نَفْعُهُم الخَالِصُ أَوِ الرَّاجِحُ"[3].

دَلالَةُ الجَمْعِ بَيْنَ الصِّفَتَيْنِ: الحَلالِ والطَّيِّبِ:

كُـلُّ مـا جَـمَـعَ الصِّفَتَيْنِ، جازَ الانْـتِـفـاعُ بِـهِ بِكُلِّ وَجْهٍ أحَلَّهُ الشَّرْعُ

في قَوْلِهِ ﷻ: ﴿كُلُواْ مِمَّا فِي ٱلۡأَرۡضِ حَلَٰلٗا طَيِّبٗا﴾، جَمَعَ بَيْنَ صِفَتَيْنِ: الحَلَالِ والطَّيِّبِ؛ لِأَنَّهُ "أَرَادَ كُلَّ مَا يُغْتَذَى بِهِ مِن المَطَاعِمِ؛ ولِهَذَا جَمَعَ بَيْنَ الوَصْفَيْنِ لاخْتِلَافِ الفَائِدَتَيْنِ؛ إِذْ وصْفُهُ بِأَنَّهُ حَلَالٌ، يُفِيدُ أَنَّهُ طلْقٌ، ووَصْفُهُ بِأَنَّهُ طَيِّبٌ أَنَّهُ يُغْتَذَى بِهِ، وهُوَ مُستلَذٌّ في العَاجِلِ والآجِلِ، فعَلَى هَذَا: التُّرَابُ والخَشَبُ طَاهِرانِ، ولَا يَحِلُّ أَكْلُهُمَا؛ لِأَنَّهُمَا لَيْسَا مِن الطِّيبِ الَّذِي يُغْتَذَى بِهِ"[4]، وقَالَ الزَّجّاجُ: "هَذَا عَلَى ضَرْبَيْنِ: أَحَدُهُمَا الإِبَاحَةُ، لِأَكْلِ جَمِيعِ الأَشْيَاءِ إِلَّا مَا قَدْ حَظَرَ اللّٰه ﷻ من المَيْتَة، ومَا ذَكَرَ مَعَهَا، فيَكُونُ ﴿طَيِّبٗا﴾ نَعْتًا لِلحَلَالِ، ويَكُون لفظُ ﴿طَيِّبٗا﴾ نَعْتًا لِمَا يستَطَابُ، والأَجْوَد أَنْ يَكُونَ ﴿طَيِّبٗا﴾: مِنْ حَيْثُ يَطِيبُ لَكُمْ، أَيْ لَا تَأْكُلُوا وتُنْفِقُوا مِمَّا يَحْرُمُ عَلَيْكُمْ"[5]. فالآيَةُ تَخُصُّ المَأْكُولَ، فما يُؤْكَلُ يَجِبُ أَنْ يَجْمَعَ الصِّفَتَيْنِ، وإِلَى هَذَا أَشَارَ أَبُو حَيَّان: "وَظَاهِرُ الآيَةِ أَنَّ مَا جَمَعَ الوَصْفَيْنِ: الحِلَّ والطَّيِّبَ مِمَّا في الأَرْضِ، فهُوَ مَأْذُونٌ في أَكْلِه، أَمَّا تملُّكُهُ والتَّصَدُّقُ بِهِ، أَوِ ادِّخَارُهُ، أَوْ سَائِرُ الانْتِفَاعَاتِ بِهِ غَيْرَ الأَكْلِ، فلَا تَدُلُّ عَلَيْهِ الآيَةُ"[6].

---

(1) البيضاويّ، أنوار التنزيل: 1/118.
(2) ابن عطيّة، المحرَّر الوجيز: 1/237، وأبو حيّان، البحر المحيط: 2/99.
(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 2/102، وإسماعيل حقي، روح البيان: 1/271.
(4) النيسابوري، التّفسير البسيط: 3/483.
(5) الزّجّاج، معاني القرآن وإعرابه: 1/241.
(6) أبو حيّان، البحر المحيط: 2/101.

إباحةُ الأكْلِ مِنَ الحَلالِ الطّيِّبِ، يُـفْـهَـمُ مِـنـها ضِمْنًا النّهيُ عَنِ الحَرامِ الخَبيثِ

دَلَالَة النَّهْيِ عَن اتِّبَاعِ الخُطوَاتِ في قَوْلِه: ﴿وَلَا تَتَّبِعُواْ خُطُوَٰتِ ٱلشَّيۡطَٰنِۚ﴾:

الخُطُوَات في قَوْلِه: ﴿وَلَا تَتَّبِعُواْ خُطُوَٰتِ ٱلشَّيۡطَٰنِۚ﴾، تَعْنِي كُلَّ المَعَاصِي، فلَا تَخْتَصُّ بِمَعْصِيَةٍ دُونَ غَيْرِهَا، فالمُرَادُ "النَّهْيُ عَنْ مَعْصِيَةِ اللَّهِ، وكَأَنَّهُ تعالى لَمَّا أَبَاحَ لَهُمُ الأَكْلَ من الحَلَالِ الطَّيِّب، نَهَاهُمْ عَنْ مَعَاصِي اللَّهِ، وعَن التَّخَطِّي إِلَى أَكْلِ الحَرَام؛ لِأَنَّ الشَّيْطَانَ يُلْقِي إِلَى المَرْءِ، مَا يَجْرِي مَجْرَى الشُّبْهَة، فيُزَيِّنُ بذَلِكَ مَا لَا يَحِلُّ، فزَجَرَ اللَّه عَنْ ذَلِكَ ... والنَّهْيُ هُنَا عَنِ اتِّبَاعِ كُلِّ فرْدٍ من المَعَاصِي، لَا أَنَّ ذَلِكَ يُفِيدُ الجَمْعَ، فلَا يَكُونُ نَهْيًا عَن المُفْرَد"(1).

الشّيطانُ عدُوٌّ الإنْسانِ عَلى الدَّوامِ، واتِّباعُ خُطُواتِهِ ضَلالٌ وهَلاكٌ

براعةُ الاسْتِعارَةِ في جَرَيانِها مجرى المَثَل:

النَّهْي في قَوْلِه ﷻ: ﴿وَلَا تَتَّبِعُواْ خُطُوَٰتِ ٱلشَّيۡطَٰنِۚ﴾ يَعْنِي تَرْكَ اتِّبَاعِه، وجَعَلَهُ الشَّرِيفُ الرَّضِيّ اسْتِعَارَةً عَن الاقْتِدَاءِ بِه، واتِّبَاع آثَارِه، قال في تَلْخِيص البَيَان: "وقَوْلُهُ تعالى: ﴿وَلَا تَتَّبِعُواْ خُطُوَٰتِ ٱلشَّيۡطَٰنِۚ﴾، أَيْ لَا تَنْجَذِبُوا في قِيَادِه، لِأَنَّ المُنْجَذِبَ في قِيَادِ غَيْرِه، تَابِعٌ لِخُطُوَاتِه، وهَذِه مِنْ شَرَائِفِ الاسْتِعَارَة؛ فهِيَ أَبْلَغُ عِبَارَةٍ عَن التَّحْذِيرِ مِنْ طَاعَةِ الشَّيْطَانِ، فِيمَا يَأْمُرُ بِه، وقَبُولِ قَوْلِه فِيمَا يَدْعُو إِلَى فِعْلِه"(2).

ووضَّح كلامَه ابْنُ عَاشُور فقال: "واتِّبَاعُ الخُطُوَاتِ تَمْثِيلِيَّةٌ، أَصْلُهَا أَنَّ السَّائِرَ إِذَا رَأَى آثَارَ خُطُوَاتِ السَّائِرِينَ، تَبِعَ ذَلِكَ المَسْلَكَ؛ عِلْمًا مِنْهُ بِأَنَّهُ مَا سَارَ فِيه السَّائِرُ قَبْلَهُ إِلَّا لِأَنَّهُ مُوَصِّلٌ لِلمَطْلُوب، فشَبَّهَ المُقْتَدِيَ الَّذِي لَا دَلِيلَ لَهُ سِوى المُقْتَدَى بِه، وهُوَ يَظُنُّ مَسْلَكَهُ مُوَصِّلًا، بِالَّذِي يَتَّبِعُ خُطُوَاتِ السَّائِرِينَ، وشَاعَتْ هَاتِه التَّمْثِيلِيَّةُ حَتَّى صَارُوا يَقُولُونَ: هُوَ يَتَّبِعُ خُطا فُلَان، بِمَعْنى يَقْتَدِي بِه ويَمْتَثِلُ لَهُ"(3).

(1) المصدر السّابق: 2/101.

(2) الشريف الرضي، تلخيص البيان في مجازات القرآن: 2/118.

(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 2/103.

وجعَلَها أَبُو حَيَّانَ من الكِنَايَةِ، قَالَ: "والنَّهْيُ عَنِ اتِّبَاعِ خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ، كِنَايَةٌ عَنْ تَرْكِ الاقْتِدَاءِ بِهِ، وعَن اتِّبَاعِ مَا سَنَّ من المَعَاصِي"[1]، ومَعْنَى (خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ) طُرُقُهُ، أَيْ لَا تَسْلُكُوا الطَّرِيقَ الَّذِي يَدْعُوكُمْ إِلَيْهِ الشَّيْطَانُ"[2]، ومآلَها في المعنى إلى التَّمثيليَّة.

دلالة الألف واللّامِ في ﴿ٱلشَّيۡطَٰنِۚ﴾ بين الجنسِ والعَهْدِ:

العَهديَّةُ تدلُّ على الأصلِ والجنسيَّةُ تدلُّ على الفَرْعِ، واتِّباعُ أحدِهما اتِّباعٌ للآخرِ

الألف واللَّام في قَوْلِهِ : ﴿ٱلشَّيۡطَٰنِۚ﴾، يَجُوزُ فِيهَا أَنْ تَكُونَ لِلجِنْسِ، أو لِلعَهْدِ، قال أَبُو حَيَّان: "وَالشَّيْطَانُ هُنَا إِبْلِيسُ"[3]، وهِيَ بِهَذَا التَّفْسِيرِ تَدُلُّ عَلَى العَهْدِ، وأَشَارَ الشَّيْخُ ابْنُ عَاشُور إِلَى أَنَّ لَهَا مَعْنَيَينِ؛ فقال: "واللَّامُ في ﴿ٱلشَّيۡطَٰنِۚ﴾ لِلجِنْسِ، ويَجُوزُ أَنْ تَكُونَ لِلعَهْدِ، ويَكُونُ المُرَادُ إِبْلِيسَ، وهُوَ أَصْلُ الشَّيَاطِينِ وآمِرُهُمْ؛ فَكُلُّ مَا يَنْشَأُ مِنْ وسْوَسَةِ الشَّيَاطِينِ، فهُوَ رَاجِعٌ إِلَيْهِ؛ لِأَنَّهُ الَّذِي خَطَا الخُطُوَاتِ الأُولَى"[4].

دَلالَةُ قَوْلِهِ تعالى: ﴿إِنَّهُۥ لَكُمۡ عَدُوّٞ مُّبِينٌ﴾:

تعليلُ التّحذيرِ مِنِ اتِّباعِ الشَّيطانِ، حَصانَةٌ لِلإنْسانِ

جَاءَ قَوْلُهُ : ﴿إِنَّهُۥ لَكُمۡ عَدُوّٞ مُّبِينٌ﴾، بَعْدَ النَّهْيِ عَنْ اتِّبَاعِ خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ، في قَوْلِهِ جَلَّ شَأْنُهُ: ﴿وَلَا تَتَّبِعُواْ خُطُوَٰتِ ٱلشَّيۡطَٰنِۚ﴾، لِيَكُونَ جَوَابًا عَنْ سُؤَالٍ عَن العِلَّةِ الَّتِي مِنْ أَجْلِهَا مَنَعَ اتِّبَاعَ خُطُوَاتِهِ. فالجُمْلَةُ "تَعْلِيلٌ لِسَبَبِ هَذَا التَّحْذِيرِ مِنَ اتِّبَاعِ الشَّيْطَانِ، لِأَنَّ مَنْ ظَهَرَتْ عَدَاوَتُهُ واسْتَبَانَتْ، فهُوَ جَدِيرٌ بِأَنْ لَا يُتَّبَعَ في شَيْءٍ، وأَنْ يُفَرَّ مِنْهُ، فإِنَّهُ لَيْسَ لَهُ فِكْرٌ إِلَّا في إِرْدَاءِ عَدُوِّهِ"[5]، فهو "تَعليلٌ للنّهي عَنِ الاتِّباعِ"[6]، ويُؤَكِّدُ ذلك مَجيءُ (إنّ)؛ لِأنّها تُفيد مَعنى التَّعليلِ والرَّبْطِ، بَعْدَ الأمرِ والنّهي.

(1) أبو حيّان، البحر المحيط: 2/101.
(2) الزجّاج، معاني القرآن وإعرابه: 1/241.
(3) أبو حيّان، البحر المحيط: 2/101.
(4) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 2/103.
(5) أبو حيّان، البحر المحيط: 2/101.
(6) القِنّوجي، فتح البيان: 1/335.

دَلالَةُ تَأْكِيدِ الخَبَرِ:

عَداوَةُ الشَّيطانِ للنَّاسِ مُتَقَرِّرَةٌ في العقولِ مُغيَّبَةٌ في الأعمالِ

جاء الخبرُ مُؤكّدًا بـ (إنّ) في قوله ﷻ: ﴿إِنَّهُۥ لَكُمۡ عَدُوّٞ مُّبِينٌ ١٦٨﴾، للاهْتِمام بالخَبر؛ "لأنّ العداوةَ بين الشّيطان والنّاسِ، معلومةٌ متقرّرة، عند المؤمنين والمشركين، وقد كانُوا في الحجّ يرمون الجمار، ويَعْتَقدُون أنّهُم يرجُمُون الشّيطانَ، أو تجعل (إنّ) للتّأكيد، بتنزيلِ غيرِ المتردِّدِ في الحكم مَنزلةَ المُتَرَدِّدِ أو المُنْكِرِ؛ لأنّهُمْ لِاتّباعِهِمُ الإشاراتِ الشّيطانيَّةَ، بِمَنزلةِ مَنْ يُنْكِرُ عَداوتَهُ"[1]، وهذا الاهتمامُ يبلُغُ مبلغَ خطابِ المُنكرين؛ لأنَّ اتِّباعَ الشَّيطانِ هو حالُ الجُمهورِ الأعظمِ من النَّاس، فباتَتْ أعمالُهم دليلَ أفكارِهم، بل أصبح هناك من يعبدُ الشَّيطانَ من دون اللّه، اتِّباعًا للشُّهرَة، وانقيادًا للتَّفاهة.

نكتةُ التَّقْدِيمِ والتَّأْخِيرِ في قَوْلِهِ: ﴿إِنَّهُۥ لَكُمۡ عَدُوّٞ مُّبِينٌ﴾:

القُرآنُ مُوَجَّهٌ لكلِّ إنسانٍ، وعلى المُخاطَبينَ إيصالُهُ إلى كلِّ إنسانٍ

قدّمَ الجارَّ والمجرورَ ﴿لَكُمۡ﴾ في قولِه ﷻ: ﴿إِنَّهُۥ لَكُمۡ عَدُوّٞ مُّبِينٌ ١٦٨﴾، على مُتَعَلَّقِهِ وهو قولُهُ: ﴿عَدُوّٞ مُّبِينٌ ١٦٨﴾؛ لِبَيَانِ أَنَّ عَدَاوَتَهُ لِلمُخَاطَبِينَ دُونَ سِوَاهُمْ، وذلك باعتبارِ أنَّ هذه الآيةَ يجبُ أنْ تصلَ إلى كلِّ إنسانٍ تبليغًا واحتجاجًا فتكون خطابًا له، ففيها دعوةٌ إلى تبليغ القُرآنِ للأنام، وأنَّ التَّقصيرَ في ذلك عمدًا هو من اتِّباعِ خُطُواتِ الشَّيطانِ.

التّعبيرُ عَن عَداوةِ الشّيطانِ بالإبانَةِ بِقَوْلِهِ: ﴿مُّبِينٌ﴾:

الشّيطانُ عَصِيٌّ عليهِ الأتْقِيَاءُ، ولا يَسْتَدرِجُ إلّا مَطْمُوسي البَصائِرِ

عبّرَ قولُه ﷻ: ﴿إِنَّهُۥ لَكُمۡ عَدُوّٞ مُّبِينٌ ١٦٨﴾، بالإبَانَةِ عَنِ انْكِشَافِ عَدَاوَةِ الشَّيْطَانِ لِلنَّاسِ، فهي ظاهرةٌ لا خَفاءَ بها، فالشيطان "ظَاهِرُ العَدَاوَةِ لَا خَفَاءَ بِهِ، ظَاهِرِ العَدَاوَةِ عِنْدَ ذَوِي البَصِيرَةِ وإِنْ كَانَ يُظْهِرُ المُوَالَاةَ لِمَنْ يُغْوِيه، ولِذَلِكَ سَمَّاهُ وليًّا، في قولِهِ تعالى: ﴿أَوۡلِيَآؤُهُمُ ٱلطَّٰغُوتُ﴾ [البقرة: 257]"[2]، وهذه الآية لا يناقضُها قولُه ﷻ: ﴿وَٱلَّذِينَ

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 2/104.
(2) البيضاويّ، أنوار التنزيل: 1/118.

كَفَرُوٓاْ أَوۡلِيَآؤُهُمُ ٱلطَّٰغُوتُ﴾ [البقرة: 257]، على أنّ المرادَ بالطّاغوت الشّيطانُ، فالتَّعبيرُ بِأنّهُ وليٌّ لهم، لا يناقِضُ عَداوَتَهُ؛ " لأنّه عَدُوٌّ للنّاسِ حقيقَةً، ووليُّهم ظاهرًا؛ فإنّه يُريهم في الظّاهرِ الموالاةَ، ويزيّن لهم أعمالَهُمْ، ويُريد بذلِكَ هَلاكَهُم في الباطِنِ"[1].

(1) النّسفيّ، مدارك التنزيل: 1/149.

﴿إِنَّمَا يَأۡمُرُكُم بِٱلسُّوٓءِ وَٱلۡفَحۡشَآءِ وَأَن تَقُولُواْ عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا تَعۡلَمُونَ ١٦٩﴾ [البقرة: 169]

❁ مُناسَبَةُ الآيَةِ لِمَا قَبْلَها:

رَبطٌ بَينَ عداوةِ الشَّيطانِ وما يَتَمَخّضُ عَنْها مِنْ سُوءٍ وفَحْشاءَ وافْتِراءٍ عَلى اللهِ

بَعْد أَنْ ذَكَرَ ﷻ في الآيَةِ السَّابِقَةِ أَنَّ الشَّيْطَانَ عَدُوٌّ مُبِينٌ لِلإِنْسَانِ، بَيّنَ في هَذِهِ الآيَةِ مَاذَا يَفْعَلُ مع الإنسان، أي: شرع في ذكر ثَمَرَةَ العَدَاوَةِ، ومَا نَشَأَ عَنْهَا، وهُوَ أَمْرُهُ بِمَا ذَكَرَهُ في الآيَةِ[1]، فالآيَةُ كَالتَّفْصيلِ لِجُمْلَةِ عَدَاوَتِه، وهي تَفْسِيرٌ لِقَوْلِهِ تعالى: ﴿وَلَا تَتَّبِعُواْ خُطُوَٰتِ ٱلشَّيۡطَٰنِۚ﴾[2]، الّتي ورَدَتْ في سُورَةِ البَقَرةِ بَعْدَ ذلِكَ، في الآيتين 168 و208.

❁ شَرْحُ المُفْرَدَاتِ:

لفظ (السُّوء) اسمٌ جامعٌ لكلّ آفة وقُبح

1) ﴿بِٱلسُّوٓءِ﴾: مِنَ الجذْرِ (سوء)، وأصلُ هذه المادّة يدُلُّ على القُبْحِ، وسُمِّيَت النَّارُ سُوأَى، لِقُبْحِ مَنْظَرِهَا[3]، وساء الشَّيْءُ: قَبُحَ، والسّوءُ نَعْتٌ لكلِّ شيءٍ رَديءٍ، وهو اسمٌ جامعٌ للآفاتِ والدّاءِ[4]، وهوَ: كلُّ ما يَغُمُّ الإنسانَ، والسَّيِّئَةُ: الفِعْلَةُ القبيحةُ[5].

كُلُّ شيْءٍ جاوز قدْرهُ المشروع، من أحكام الدّين، فهُو فاحشٌ

2) ﴿وَٱلۡفَحۡشَآءِ﴾: مِنَ الجذْرِ (فحش)، وأصلُ هذه المادّة يَدُلُّ عَلَى قُبْحٍ في شَيْءٍ وشَنَاعَةٍ، وكُلُّ شَيْءٍ جَاوَزَ قَدْرَهُ فهُوَ فاحِشٌ، ولَا يَكُونُ ذَلِك إلّا فِيمَا يُتَكَرَّهُ[6]، والفُحْشُ والفَحْشَاءُ والفَاحِشَةُ: ما عَظُمَ قُبحُه من الأفعالِ والأقوالِ، قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَأۡمُرُ بِٱلۡفَحۡشَآءِۖ﴾ [الأعراف: 28][7].

(1) أبو حيّان، البحر المحيط: 2/102، والواحدي، التّفسير البسيط: 3/487.
(2) الرّازيّ، مفاتيح الغيب: 5/186.
(3) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (سوء).
(4) الخليل، العين: 7/327.
(5) الراغب، المفردات: (سوء).
(6) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (فحش).
(7) الراغب، المفردات: (فحش).

❁ المَعْنَى الإِجْمَالِيُّ:

يُبَيِّنُ اللَّهُ تعالى لِلنَّاسِ عَدَاوَةَ الشَّيْطَانِ؛ فهُوَ لَا يَأْمُرُكُمْ إلَّا بالأَفْعَالِ القَبِيحَة، فيُزَيِّنُ لَكُمْ مَعَاصِيَ اللّهِ تعالى، مِمَّا لَا يَرْضَاهُ لَكُمْ، ويُوَسْوِس لَكُمْ بالشَّهَوَاتِ والآثَام، إنَّمَا يَأْمُرُكُم الشَّيْطَانُ بكُلِّ ذَنْبٍ قَبِيحٍ، وبكُلِّ مَعْصِيَّةٍ بَالِغَة القُبْحِ، وبِأَنْ تَفْتَرُوا عَلَى اللّهِ الكَذِبِ مِنْ تَحْرِيمِ الحَلَالِ وغَيْرِهِ بِدُونِ عِلْمٍ[1].

مَـن تَـبِـعَ الـشّـيـطـانَ، ولَـغَ في السّوءِ والـفَـحـشـاءِ، وافْتَرى عَلى اللهِ بِغيرِ عِلمٍ

❁ الإِيضاحُ اللُّغَوِيُّ والبَلاغِيُّ:

الاسْتِئنافُ البَيانِيُّ، ومَظاهِرُ الإغْواءِ الشَّيْطانِيّ:

التَّنْبيهُ عَلى أنّ أمْـرَ الشَّيْطانِ النّاسَ بالسُّوءِ والفَحْشاءِ، يُعَدُّ عِلّةَ العِلَلِ

قوله ﷻ: ﴿إِنَّمَا يَأۡمُرُكُم بِٱلسُّوٓءِ وَٱلۡفَحۡشَآءِ وَأَن تَقُولُواْ عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا تَعۡلَمُونَ ١٦٩﴾، اسْتِئْنافٌ، وقَد حَسُنَ هنا لِحاجَة الكَلام السّابِق إلى تَبْيينٍ وتَفسيرٍ، فالآيَةُ "بَيانٌ لوُجوبِ الانتهاءِ عَنِ اتِّباعِه، وظُهورِ عَداوَتِه، أيْ لا يأمُرُكم بِخَيرٍ قَطُّ"[2]، فهو "اسْتِئنافٌ لبَيان كَيفيّة عَدَاوتِه، وتفصيلٌ لفُنونِ شَرِّه وإفسادِه، وانْحِصارِ مُعامَلَته مَعَهُم في ذلك"[3]، وفائدته أنّه يُبيِّن علّةَ كون الشّيطان عدوًّا ظاهرَ العداء، المعبَّرِ عنه في قوله ﷻ: ﴿إِنَّهُۥ لَكُمۡ عَدُوّٞ مُّبِينٌ ١٦٨﴾ في الآية السّابقة، وقد كان قوله تعالى هذا، علّةً للنّهي عَنِ اتّباعِ خطُواتِه، فيَكونُ قَولُه ﷻ: ﴿إِنَّمَا يَأۡمُرُكُم بِٱلسُّوٓءِ وَٱلۡفَحۡشَآءِ﴾، علّةً للعلّة، وهذا ما أشار إليه الشّيخ ابن عاشور؛ فقال: "اسْتِئنافٌ بيانيٌّ لقوله: ﴿إِنَّهُۥ لَكُمۡ عَدُوّٞ مُّبِينٌ ١٦٨﴾، فيؤُولُ إلى كونه علّةً للعلَّة؛ إذ يَسألُ السّامعُ عن ثُبوت العَداوَةِ مَع عَدَم سَبْقِ المعرفة، ومع بُعْدِ ما بَيْنَنَا وبينَه، فقيل: ﴿إِنَّمَا يَأۡمُرُكُم﴾، أي: لأنّه لا يأمركم إلّا بالسّوء ... إلخ، أيْ يُحَسِّنُ لكم ما فيه مَضَرَّتُكم؛ لأنّ عَداوَتَهُ أمْرٌ خَفِيٌّ، عَرَفناهُ من آثارِ أفعالِهِ"[4].

---

(1) نخبة من العلماء، التّفسير الميسّر، ص: 25.

(2) الزّمخشريّ، الكشّاف: 1/213.

(3) أبو السّعود، إرشاد العقل السليم: 1/188.

(4) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 2/104.

التّفْصيلُ والتَّبيينُ في الآيَةِ لِما أُجْمِلَ سابقًا:

الشَّيْطانُ يَدْعُو لِكُلِّ مَفْسَدةٍ مِنَ السّوءِ والفحشاءِ والكذِبِ على اللهِ

في قوله: ﴿إِنَّمَا يَأۡمُرُكُم بِٱلسُّوٓءِ وَٱلۡفَحۡشَآءِ وَأَن تَقُولُواْ عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا تَعۡلَمُونَ ١٦٩﴾، تَفصيلٌ لما أُجْمِلَ في قوله: ﴿إِنَّهُۥ لَكُمۡ عَدُوّٞ مُّبِينٌ ١٦٨﴾، وبَيّنَ الفخْرُ الرّازيّ ذلكَ التَّفصيلَ بقوله: "﴿إِنَّمَا يَأۡمُرُكُم بِٱلسُّوٓءِ وَٱلۡفَحۡشَآءِ وَأَن تَقُولُواْ عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا تَعۡلَمُونَ ١٦٩﴾، فهذا كالتَّفصيلِ لِجُمْلَةِ عَداوتِه، وهو مشتَمِلٌ على أمورٍ ثلاثةٍ، أوَّلُها: ﴿بِٱلسُّوٓءِ﴾، وهو مُتَناوِلٌ جميعَ المعاصي، سواء كانت تلك المعاصي من أفعالِ الجوارح، أو أفعالِ القلوبِ، وثانيها: ﴿وَٱلۡفَحۡشَآءِ﴾، وهي نوعٌ من السّوء، لأنّها أقبحُ أنواعِه، وهو الّذي يُستعظَمُ ويُستَفحَشُ من المعاصي، وثالثها: ﴿وَأَن تَقُولُواْ عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا تَعۡلَمُونَ ١٦٩﴾، وكأنّه أقبحُ أنواعِ الفحشاء؛ لأنّ وصفَ اللّه تعالى بما لا ينبغي، من أعْظم أنواعِ الكبائِرِ، فصارَتْ هَذِهِ الجُمْلَةُ كالتَّفسيرِ لِقوله تعالى: ﴿وَلَا تَتَّبِعُواْ خُطُوَٰتِ ٱلشَّيۡطَٰنِۚ﴾، فيَدْخُلُ في الآية أنّ الشّيطانَ يدعُو إلى الصّغائرِ والكبائرِ والكُفرِ والجهلِ باللّه"[1].

تأكيدُ عَداوَةِ الشَّيْطانِ بالحَصْرِ بـ ﴿إِنَّمَا﴾:

وَساوِسُ إبْليسَ تُعْمِي البَصَر، وتُخْفِي عَلى النّاسِ نُورَ الفِكَرِ

دلّ الحصْرُ في قوله ﷻ: ﴿إِنَّمَا يَأۡمُرُكُم بِٱلسُّوٓءِ وَٱلۡفَحۡشَآءِ﴾، على أنّ الشّيطان لا يأمر إلّا بالقبائحِ؛ لأنّه ذكَرَهُ بكَلِمَةِ ﴿إِنَّمَا﴾ وهي للحَصْرِ[2]، وفائِدَةُ هذا الحصرِ تَأكيدُ عداوَتِهِ للنّاسِ، فهو لا يَأمُرُ بخيْرٍ.

اسْتِعارَةُ الفِعْلِ ﴿يَأۡمُرُكُم﴾، لإبْرازِ دَورِ الشّيطانِ في الإضْلالِ:

مَكْرُ الشّيْطانِ لا حَدَّ لَهُ، ولَكِنَّهُ لا سُلْطانَ لَهُ عَلى المُؤْمنينَ

وقدِ اسْتُعيرَ الفعلُ ﴿يَأۡمُرُكُم﴾ لتَزيينِ الشَّيْطانِ الأمْرَ، وحَثِّه لَهم على الشّرّ، تسفيهًا لِرَأْيِهم، وتَحقيرًا لِشأنهم، وممّا يدلّ على أنّ الأمر هنا يُراد به التّزيينُ أنّه ﷻ نَفى أن يكُون للشّيطانِ سُلطانٌ، قال تعالى: ﴿وَٱسۡتَفۡزِزۡ مَنِ ٱسۡتَطَعۡتَ مِنۡهُم بِصَوۡتِكَ وَأَجۡلِبۡ عَلَيۡهِم

(1) الرّازيّ، مفاتيح الغيب: 5/186.

(2) الرّازيّ، مفاتيح الغيب: 5/187.

بِخَيْلِكَ وَرَجِلِكَ وَشَارِكْهُمْ فِي ٱلْأَمْوَٰلِ وَٱلْأَوْلَٰدِ وَعِدْهُمْۚ وَمَا يَعِدُهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ إِلَّا غُرُورًا ﴿٦٤﴾ إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَٰنٌۚ وَكَفَىٰ بِرَبِّكَ وَكِيلًا ﴿٦٥﴾﴾ [الإسراء: 64- 65]، وأشار إليه الزَّمَخْشَريّ بقوله: "فإنْ قلتَ: كيفَ كان الشّيطان آمِرًا، مَع قوله: ﴿لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَٰنٌ﴾ [الحجر: 42]؟ قلتُ: شبَّه تزيينَهُ، وبعثَهُ على الشّرِّ بأمرِ الآمِرِ، كما تقولُ: أَمَرَتْني نَفْسي بكذا، وتحتَه رَمْزٌ إلى أنّكم منه بمَنْزِلَةِ المأمورينَ لِطاعَتِكُمْ لَه، وقبولِكُمْ وساوِسَهُ؛ ولذلك قال: ﴿وَلَأٓمُرَنَّهُمْ فَلَيُبَتِّكُنَّ ءَاذَانَ ٱلْأَنْعَٰمِ وَلَأٓمُرَنَّهُمْ فَلَيُغَيِّرُنَّ خَلْقَ ٱللَّهِۚ﴾ [النساء: 119]، وقال اللّه تعالى: ﴿إِنَّ ٱلنَّفْسَ لَأَمَّارَةٌۢ بِٱلسُّوٓءِ﴾ [يوسف: 53]؛ لما كان الإنسان يطيعُها فيُعْطيها ما اشْتَهَتْ"[1].

وقولُه: "﴿يَأْمُرُكُم﴾ من قَبيل الاستعارَةِ التّبعيَّة، حيثُ شَبَّهَ بَعثه على الشّرِّ بأمرِ الآمر به، في أنّ كلًّا منهما سببٌ لوقوع الشّرّ، فأطلق اسم المشبّه به على المشبّه، ثمّ اشتقّ من الأمر - بمعنى البعث - لفظ ﴿يَأْمُرُكُم﴾، فيكون استعارة تبعيّة"[2].

دَلالَةُ عَطْفِ الفحشاءِ على السّوءِ في قوله: ﴿إِنَّمَا يَأْمُرُكُم بِٱلسُّوٓءِ وَٱلْفَحْشَآءِ﴾:

المُؤمِنُ لا يَرْتَكِبُ سُوءًا، ولا يَقْتَرِفُ فحشاءَ، وقوفًا عند حدود الله

السّوءُ والفحشاءُ: ما أنْكَرَهُ العَقلُ، واسْتَقْبَحَهُ الشّرعُ، والعَطْفُ لاختلاف الوَصفَين، فإنَّه سُوءٌ لاغتمام العَقل بِه، وفحشاءُ باستِقباحِه إيّاه، وقيل: السُّوءُ يَعُمّ القَبائحَ والفحشاءَ برُمّتها، ويجاوِزُ الحَدّ في القُبْحِ من الكبائِرِ، وقيل: الأوّل ما حُدّ له، والثّاني ما شُرِع فيه الحَدُّ[3]، وهُوَ مِنْ عَطْفِ الخاصِّ على العامِّ؛ لأنّ السُّوءَ يَشْمَلُ جميعَ المعاصي، والفَحْشاءُ داخِلَةٌ ضِمْنَها، فقَوْلُهُ: ﴿وَٱلْفَحْشَآءِ﴾: "أيْ: أقبح أنْواع المعاصي وأعظمها مَساءَةً، فالزِّنى فاحِشَةٌ، والبُخْلُ فاحِشَةٌ، وكُلُّ فِعْلَةٍ قبيحةٍ فاحِشَةٌ"[4]، واسْتُسيغَ هذا العَطْفُ؛ "لِاختلافِ الوَصْفَين؛ فإنّه سُوءٌ لِاغتمام العاقِلِ به، وفَحْشاءُ باسْتِقباحِهِ إيّاهُ"[5].

(1) الزّمخشريّ، الكشّاف: 1/213.
(2) زاده، حاشية على البيضاوي: 2/415.
(3) الخفاجي، عِنَايةُ القَاضِي: 2/266 (بتصرّف).
(4) إسماعيل حقي، روح البيان: 1/272.
(5) البيضاويّ، أنوار التنزيل: 1/118.

المُبالَغَةُ بِالوَصْفِ بِالمَصْدَرِ:

المُؤْمِنُ يَغْتَمُّ مِنَ السُّوءِ، ويَسْتَقْبِحُ الفاحِشَةَ

"المُغايَرَةُ بَينَ السُّوءِ والفَحشاءِ، بِحَسَبِ المَفْهوم دونَ الذّاتِ، فإنَّهُ سُمِّيَتِ المعصيةُ سُوءًا لاغتِمامِ العاقِلِ بها، وفَحْشاءَ باستِقباحِهِ إيّاها، فإطْلاقُ السُّوءِ والفَحشاءِ على المَعْصِيَّةِ، مِنْ قَبيلِ التَّوْصيفِ بِالمَصْدَرِ للمُبالَغَةِ، مِثْلَ: رَجُلٌ عَدْلٌ"[1].

توجيهُ المخصوصِ بِالذِّكْرِ، في قوله: ﴿وَأَن تَقُولُواْ عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا تَعۡلَمُونَ﴾:

أكثرُ ما يقعُ النَّاسُ بسببِهِ في الضَّلالِ القولُ على الله بغيرِ عِلمٍ

إنّ قولَه ﷻ: ﴿وَأَن تَقُولُواْ عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا تَعۡلَمُونَ ١٦٩﴾، داخلٌ ضمن قوله: ﴿إِنَّمَا يَأۡمُرُكُم بِٱلسُّوٓءِ﴾ "وخَصَّهُ بالعَطْفِ، مَعَ أَنَّهُ بَعْضُ السُّوءِ والفَحْشاءِ؛ لاشْتِمالِه عَلى أَكْبَرِ الكَبائِرِ، وهُوَ الشِّرْكُ، والتَّقَوُّلُ على اللّه"[2]، والقَوْلُ على اللّهِ بغيرِ علمٍ هو بدايةُ طريقِ الضَّلالِ، وهو أكثرُ ما يُستهانُ به، ولذلك كانَ مدْخلَ الشَّيطانِ، فتخصيصُه بالذِّكرِ باعتبارِ الغفلَةِ عن أثرِه القبيحِ في الضَّلالِ، وباعتبارِ التَّحذيرِ منه في جميعِ الأحوالِ.

فائدةُ حَذْفِ المَفْعولِ بِهِ في قَولِهِ: ﴿مَا لَا تَعۡلَمُونَ﴾:

طَريقُ مَعْرِفَةِ رِضا الله وأمْرِه، هُوَ الرُّجوعُ إلى الوَحْيِ

حُذِفَ المفعولُ به في قولِه ﷻ: ﴿مَا لَا تَعۡلَمُونَ ١٦٩﴾، وتقديرُه: مَا لَا تَعْلَمُونَ أَنَّهُ مِنْ عِندِ اللّه، بِقرينَةِ قولِه: ﴿عَلَى ٱللَّهِ﴾، أيْ لا تَعلمُون أنَّهُ يُرضيهِ ويَأْمُرُ بِه، وطَريقُ معرفةِ رضا اللّه وأمرِه، هُو الرُّجوع إلى الوحي"[3]، وفائِدتُه التَّنبيهُ على خطورةِ الجهلِ، والقولِ على اللّه بغيرِ علمٍ، وأنَّ العوْدَةَ إلى الوحي هي أوفقُ معاييرِ الحقِّ.

الفُرُوقُ المُعْجَمِيَّةُ:

السُّوءِ والفَحْشاء:

السّوءُ: يدلُّ على القُبْحِ[4]، والسَّيِّئَةُ: الفِعْلَةُ القَبيحَةُ[5]، والفَحْشَاءُ:

(1) إسماعيل حقي، روح البيان: 1/272.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 2/105.
(3) المصدر السّابق: 2/105.
(4) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (سوء).
(5) الراغب، المفردات: (سوء).

تَدُلُّ عَلَى قُبْحٍ في شَيْءٍ وشَنَاعَةٍ، وكُلُّ شَيْءٍ جَاوَزَ قَدْرَهُ فهُوَ فاحِشٌ[1]، والفُحْشُ والفَحْشَاءُ والفَاحِشَةُ: ما عَظُمَ قُبحُهُ مِنَ الأفْعالِ والأقْوالِ، وقال: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَأۡمُرُ بِٱلۡفَحۡشَآءِۖ﴾ [الأعراف: 28][2].

كل ما عَظُمَ قُبْحُه مِنَ الأفْعالِ والأقْوالِ، مِنْ سُوءٍ أو فاحِشَةٍ، فهُوَ مَنْهِيٌّ عَنْهُ

فالسُّوءُ: كُلُّ فِعْلٍ قَبيحٍ، والفاحِشَةُ: ما عَظُمَ من تلك الأفعال القبيحَةِ، فكُلُّ فاحِشَةٍ سُوءٌ، وليس كُلُّ سُوءٍ فاحشةً.

(1) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (فحش).
(2) الراغب، المفردات: (فحش).

﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ ٱتَّبِعُواْ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ قَالُواْ بَلۡ نَتَّبِعُ مَآ أَلۡفَيۡنَا عَلَيۡهِ ءَابَآءَنَآۚ أَوَلَوۡ كَانَ ءَابَآؤُهُمۡ لَا يَعۡقِلُونَ شَيۡـٔٗا وَلَا يَهۡتَدُونَ ١٧٠﴾

[البقرة: 170]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِمَا قَبْلَها:

الاتّباعُ بِلا عَقْلٍ ولا هُدًى، ضلالٌ وهلاكٌ وضياعٌ

لَمّا تقدَّمَ الزَّجْرُ عنِ اتِّباعِ خُطواتِ الشَّيْطانِ في الآيةِ السّابقة، ذَكَرَ هنا تَمسُّكَ الكافرين باتّباعِ أسلافِهِمْ، ورَفْضِ دَعوةِ اللّه تعالى؛ تنْبيهًا على أنَّه لا فَرْقَ بَيْنَ مُتَابعَةِ وساوِسِ الشَّيْطانِ، وبيْنَ مُتَابَعَةِ التَّقْليدِ[1].

شَرْحُ المُفْرَدَاتِ:

(ألْـفَـى) فعلٌ مُـتعـدٍّ بمعنى وجد ولقي

1) ﴿مَآ أَلۡفَيۡنَا﴾: من الجذر (لفي)، وأَصْلُ المادّة يَدُلُّ على انْكِشَافِ شَيْءٍ وكَشْفِه، وألفَيْتُهُ: لَقِيتُهُ ووَجَدْتُه، إلْفَاءً، وتَلَافَيْتُه: تَدارَكْتُهُ[2]، قال اللّه تعالى: ﴿قَالُواْ بَلۡ نَتَّبِعُ مَآ أَلۡفَيۡنَا عَلَيۡهِ ءَابَآءَنَآۚ﴾[3]، "وَلَيْسَتْ هُنَا مُتَعَدِّيَةً إلى اثْنَيْنِ، لِأَنَّهَا بِمَعْنَى وجَدَ، الَّتي بِمَعْنَى أَصَابَ"[4]، أَلْفَيْتُهُ يُصَلّي: وجَدْتُهُ على تِلْكَ الحَالَةِ[5]، قال ابنُ سِيدَه: "أَلْفَى الشَّيءَ: وجَدَهُ، وتلافاهُ: افْتَقَدَهُ، وقَوْلُهُ -أَنْشَدَهُ ابن الأعرابيّ-:

يُخَبِّرُني أنِّي به ذُو قَرَابَةٍ *** وأَنْبَأْتُهُ أَنِّي به مُتَلافي

فَسَّرَهُ فَقَالَ: مَعْنَاهُ أَنِّي به أُدْرِكُ ثَأْرِي، واللَّفَى: الشَّيءُ المطْرُوحُ، كَأَنَّهُ مِنْ أَلْفَيْتُ، أو تَلافَيْتُ، والجمعُ أَلْفَاءٌ، وإنَّما قَضَيْنَا عَلَيْهِ بالياءِ لأَنَّها لامٌ"[6].

(1) القاسميّ، محاسن التّأويل: 1/470، والقِنّوجي، فتح البيان: 1/338.
(2) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (لفا).
(3) الرّاغب، المفردات: (لفي).
(4) أبو حيّان، البحر المحيط: 2/103.
(5) الفيوميّ، المصباح المنير: (لفي).
(6) المحكم والمحيط الأعظم: 10/418.

العَقْلُ غَريزَةٌ في الإنْسَانِ، لفَهْمِ الخِطَابِ، وإدراك المجرّدات

2) ﴿يَعۡقِلُونَ﴾: أَصْلُ مادّة (عقل) يَدُلُّ على حُبْسَةٍ في الشَّيْءِ، والعَقْلُ حابِسٌ عَنْ ذَميمِ القَوْلِ والفِعْلِ[1]، وهوَ نَقيضُ الجَهْلِ[2]، وأُطْلِقَ العَقْلُ - الّذي هو مَصْدَرٌ - على الحِجَا واللُّبِّ، وهو غَريزَةٌ يَتَهَيَّأُ بها الإنْسَانُ إلى فَهْمِ الخِطَابِ[3]، وقُوَّةٌ مُتَهَيِّئَةٌ لِقَبولِ العِلْمِ[4]، وفي قوله تعالى: ﴿وَأَكۡثَرُهُمۡ لَا يَعۡقِلُونَ﴾ [المائدة: 103]، يَعني: لَيْس لهم عَقْلٌ يعقِلونَ بهِ أنّ اللّه هو المُحَلّل والمحرِّم، ولَيس لغيره أَنْ يُحِلّ ويُحرِّمَ"[5]، وفي قوله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ لَا يَعۡقِلُونَ﴾ [الأنفال: 22]، قال الماوَرْدِيّ: "يَحتَمِل وجْهَين: أحدهما: لا يعقلون عن اللّه تعالى أمرَهُ ونَهْيَهُ، والثّاني: لا يَعْتَبِرُون اعتِبارَ العُقلاءِ"[6].

❁ المَعْنَى الإِجْمَالِيُّ:

الآيـةُ تُوجّهُ المُؤمِنَ لاستِعمالِ العَقْلِ، والنّأيِ عَنِ التّقليدِ الأصَمّ

يُخْبِرُ اللَّهُ تعالى أَنَّ أَهلَ الضَّلَالِ إذا قيلَ لَهُمْ: اتَّبِعُوا مَا أَنْزَلَ اللّهُ مِنَ القُرْآنِ والهُدَى، أَصَرّوا على تَقْليدِ أَسْلَافِهِمُ المشْرِكينَ قَائِلينَ: لا نَتَّبِعُ دينَكُمْ، بَلْ نَتَّبِعُ مَا وجَدْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا، أَيتَّبِعون آبَاءَهُمْ، ولَوْ كَانوا لا يَعْقِلونَ عَنِ اللّهِ شَيْئًا، ولَا يُدْرِكونَ رُشْدًا؟![7].

"وَالآيَةُ تَضَمَّنَتِ النَّهْيَ عَنِ التَّقْليدِ؛ لِأَنَّ اللّهَ تعالى أَنْكَرَ عَلَيْهِمْ مُتَابَعَةَ آبَائِهِمْ، وأَمَرَ بِمُتَابَعَةِ العَقْلِ والهُدَى"[8]، "وفي ذلك دليل على قُبْحِ التّقليدِ"[9].

(1) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (عقل).
(2) الخليل، العين، باب (عقل).
(3) الفيوميّ، المصباح المنير: (عقل).
(4) الرّاغب، المفردات: (عقل).
(5) السّمرقنديّ، بحر العلوم: 1/423.
(6) الماوردي، النّكت والعيون: 2/306.
(7) نخبة من العلماء، التّفسير الميسّر: 1/26.
(8) الواحدي، التَّفْسِير البَسِيط: 3/490.
(9) الشوكاني، فتح القدير: 1/193.

❁ الإيضاحُ اللُّغويُّ وَالبَلَاغِيُّ:

معنى الواوِ بين الاستِئْنافِ والعَطفِ في قوله: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ ٱتَّبِعُواْ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ﴾:

اشتراكُ معنى الاستئنافِ والعطفِ في التَّشنيعِ على مخالفي اتِّباعِ الحقِّ

اختلفَ المفسِّرون في معنى الواوِ في قوله تعالى: ﴿وَإِذَا قِيلَ﴾ على قولين:

الأوّل: الواو استئنافيّة، وذلك على أن تكون نزلت في شأنِ اليَهودِ، "وَذَلِكَ حينَ دَعَاهُمْ رَسولُ اللَّهِ ﷺ إلى الإِسْلَامِ، فَقَالوا: نَتَّبِعُ مَا وجَدْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا، فَهُمْ كَانوا خَيْرًا وأَعْلَمَ مِنَّا؛ فَعلى هَذا، الآيَةُ مُسْتَأْنَفَةٌ"[1].

الآخر: الواو عاطفة، قال ابن عاشور: "الأَحْسَنُ عِنْدي أَنْ يَكونَ عَطْفًا على قَوْلِهِ: ﴿وَلَا تَتَّبِعُواْ خُطُوَٰتِ ٱلشَّيۡطَٰنِۚ﴾ [البَقَرَة: 168]، فَإِنَّ المقْصُودَ بالخِطَابِ في ذَلِكَ هُمُ المشْرِكُونَ، فَإِنَّهُمُ الّذينَ ائْتَمَرُوا لِأَمْرِهِ بالسُّوءِ والفَحْشَاءِ"[2].

فائدة العطف زيادةُ تَفْظيعٍ لِحَالِ أَهْلِ الشِّرْك

العطفُ هُنا فيه "زِيادَةُ تَفْظيعٍ لِحَالِ أَهْلِ الشِّرْك، فَبَعْدَ أَنْ أَثْبَتَ لَهُمُ اتِّبَاعَهُمْ خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ فيمَا حَرَّمُوا على أَنْفُسِهِمْ مِنَ الطَّيِّبَات، أَعْقَبَ ذَلِكَ بِذِكْرِ إِعْرَاضِهِمْ عَمَّنْ يَدْعُوهُمْ إلى اتِّبَاعِ مَا أَنْزَلَ اللَّه، وتَشَبَّثُوا بِعَدَمِ مُخَالَفَتِهِمْ مَا أَلفَوْا عَلَيْهِ آبَاءَهُمْ، وأَعْرَضُوا عَنِ الدَّعْوَةِ إِلى غَيْرِ ذَلِكَ دُونَ تَأَمُّلٍ ولَا تَدَبُّرٍ"[3].

دلالةُ أداةِ (إذا) في قوله: ﴿وَإِذَا قِيلَ﴾:

تَكرارُ جوابِ الكافرين دليلٌ على الإغراقِ في الضَّلالةِ

"المُرَادُ بِقَوْلِه: ﴿وَإِذَا﴾ التَّكْرَارُ"[4]، فَهَذا القَوْلُ لَمْ يَكُنْ مَرَّةً واحِدَةً، وجَوَابُهُمْ إِزَاءَهُ يَتَكَرَّرُ كَمَا هُوَ، وفيهِ إيحَاءٌ بِثَبَاتِ المُؤْمِنينَ على دَعْوَتِهِمُ الرّبانيّةِ، والكافِرينَ عَلى ما أَلْفَوْا عليه

(1) الواحدي، التَّفْسِير البَسِيط: 3/489.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 2/106.
(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 2/106.
(4) أبو حيّان، البحر المحيط: 2/103.

آباءَهُمُ السّابقينَ، مِنْ ضَلالِهِمُ العاتي المَهين، وفي هذا التَّكرارِ بيانُ منهجِ الكافرين في الثَّباتِ على الضَّلالِ والتَّشبُّثِ في أذيالِ الكفرِ والخسارة.

إيثارُ اسْتِعْمَالِ صيغةِ الفِعْلِ المبْنِيِّ لِلْمَفعولِ: ﴿قِيلَ﴾:

ليس مقصودُ النَّظمِ تعيينَ القائِلِ، بل تعيينَ وجودِه

"وَبَنَى ﴿قِيلَ﴾ لِمَا لَمْ يُسَمَّ فَاعِلُه، لِأَنَّهُ أَخْصَرُ، ولَوْ ذُكِرَ الآمِرُونَ لَطَالَ الكَلَامُ، لِأَنَّ الآمِرَ بِذَلِكَ هُوَ الرَّسُولُ ﷺ ومَنْ يَتْبَعُهُ مِنَ المُؤْمِنِينَ"[1]، وتَرْكُ الفَاعِلِ في مِثْلِ هَذا المَوْضِعِ يُوحي بِالكَثْرَة؛ لِأَنَّ هذا القَوْلَ مِمَّا يُكَرَّرُ، فَيَكْثُرُ القائلون تَبَعًا لَهُ، وفيه دعوةٌ لهذه الأمَّة أن تنتهجَ نهجَ نبيِّها ﷺ في مخاطبةِ الضَّالين وتحذيرِهم من متابعةِ الأباطيل، فليس المقصودُ تعيينَ القائلِ، بل تعيينَ وجودِه.

تعيينُ مَرْجِعِ الضّميرِ في قولِه: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ﴾:

قد يُرَادُ بِالضَّميرِ النَّاسُ، على وجْهِ الالتِفاتِ، أوِ اليهودُ، أوْ مُشرِكو العَرَبِ

اختَلَفَ المُفسِّرون في بَيَانِ مَرْجِعِ ضميرِ: ﴿لَهُمُ﴾؛ فَقِيلَ: يرجِعُ إلى اليهودِ، وقيل: يرجِعُ إلى المشركين، فَإِذا كَانَت في اليَهُودِ؛ "فعلى هَذا الآيَةُ مُسْتَأْنَفَةٌ، والكِنَايَةُ في ﴿لَهُمُ﴾ تَعُودُ إلى غَيْرِ مَذْكُورٍ، إلّا أَنَّ الضَّميرَ قَدْ يَعُودُ على المعْلُومِ، كَمَا يَعُودُ على المذْكُورِ"[2].

وَإِذا كَانَتْ في كُفَّارِ قُرَيْشٍ، فَالكِنَايَةُ تَعُودُ إلى ﴿مَن﴾ في قَوْلِهِ: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَتَّخِذُ﴾ [البقرة: 165]، وإذا كَانَتْ في الّذينَ حَرَّمُوا على أَنْفُسِهِمْ شَيْئًا مِنَ الحَرْثِ والأَنْعَامِ، فَالكِنَايَةُ تَرْجِع إلى ﴿ٱلنَّاس﴾ في قَوْلِه: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ كُلُواْ مِمَّا فِي ٱلْأَرْضِ﴾ [البقرة: 168]، عَدَلَ عَنِ المُخَاطَبَةِ إلى الغَيْبَةِ[3]، ورَجَّحَ هَذا الطَّبَرِيُّ فقال: "وَأَشْبَهُ عِنْدي وأَوْلَى بِالآيَةِ، أَنْ تَكُونَ الهَاءُ والميمُ في قَوْلِهِ ﴿لَهُمُ﴾ مِنْ ذِكْرِ ﴿ٱلنَّاس﴾، وأَنْ يكون ذَلِك رُجُوعًا مِنَ الخِطَابِ إلى الخَبَرِ عَنِ الغَائِبِ، لِأَنَّ ذَلِك

(1) أبو حيّان، المصدر السّابق: 2/103.
(2) الرّازي، مفاتيح الغيب: 5/188.
(3) الواحديّ، التَّفسِير البَسِيط: 3/489- 489.

عَقِيبَ قَوْلِهِ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ كُلُواْ مِمَّا فِى ٱلْأَرْضِ﴾ [البقرة: 168]، فَلَأَنْ يكون خَبَرًا عَنْهُمْ، أَوْلَى مِنْ أَنْ يكون خَبَرًا عَنِ الّذين أُخْبِرَ أَنَّ مِنْهُمْ مَنْ يَتَّخِذُ مِنْ دُونِ اللَّهِ أَنْدَادًا، مَعَ مَا بَيْنَهُمَا مِنَ الآيَاتِ، وانْقِطَاعِ قَصَصِهِمْ بِقِصَّةٍ مُسْتَأْنَفَةٍ غَيْرِهَا"[1]، وهَذا اخْتيارُ الزَّمَخْشَرِيّ[2].

وقال ابْنُ عَطِيّةَ: "وقوله تعالى: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ﴾ يَعْنِي كُفَّارَ العَرَبِ"[3]، وكَذا عِنْدَ أبي حيّان: "الضَّميرُ في ﴿لَهُمُ﴾ عَائِدٌ على كُفَّارِ العَرَبِ، لِأَنَّ هَذا كان وَصْفَهُمْ، وهُوَ الاقْتِدَاءُ بِآبَائِهِمْ"[4].

وَيَبْعُدُ أَنْ يكون المرَادُ أَهْلَ الكِتَابِ مِنَ اليَهُودِ والنَّصَارَى، لِأَنَّهُمْ يتَّبِعون الكِتَابَ، والمَشْهُورُ بِاتِّبَاعِ الآبَاءِ هُمْ مُشْرِكُو العَرَبِ، فَيَتَرَجَّحُ قَوْلُ ابن عطيَّة؛ فَيكونُ الضَّميرُ رَاجِعًا على غَيْرِ مَذْكُورٍ؛ وذَلِكَ لِشُهْرَةِ الخِلَافِ مَعَهُمْ.

براعةُ الالتِفَاتِ في قَوْلِهِ: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ﴾:

إبرازُهم في صُورَةِ مَنْ دُعِيَ إلى اتِّباعِ شَريعةِ اللّه، فأجاب باتّباعِ شَريعَةِ أبيه

إِذا كان مَرْجِعُ الضَّميرِ في قوله تعالى: ﴿لَهُمُ﴾ عائدًا إلى ﴿ٱلنَّاسُ﴾؛ فَيكون في الآيَةِ الْتِفَاتٌ؛ "وَقال آخَرُونَ: نَزَلَتْ في الذين حَرَّمُوا على أَنْفُسِهِمْ شيئًا مِنَ الحَرْثِ والأَنْعَام، والكِنَايَةُ تَرْجِعُ إلى ﴿ٱلنَّاسُ﴾، في قَوْلِهِ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ كُلُواْ مِمَّا فِى ٱلْأَرْضِ﴾ [البقرة: 168]، عَدَلَ عَنِ المُخَاطَبَةِ إلى الغَيْبَةِ"[5]، وإِنّما عَدَلَ "بِالخِطَابِ عَنْهُمْ على طَرِيقَةِ الالتِفَاتِ؛ لِلنِّدَاءِ على ضَلالِهِمْ، لِأَنَّهُ لا ضَالَّ أَضَلُّ مِنَ المُقَلِّد، كَأَنَّهُ يَقُولُ لِلْعُقَلَاءِ: انْظُرُوا إلى هَؤُلَاءِ الحَمْقَى مَاذا يَقُولُونَ"[6]! أو "مُبَالَغَةً في بَيَانِ ضَلَالِهِم"[7]، أَوْ "تَسْجيلًا بِكَمَالِ ضَلَالِهِم، وإيذانًا بِإِيجَابِ تَعْدَادِ مَا ذُكِرَ مِنْ جِنَايَاتِهِمْ؛ لِصَرْفِ الخِطَابِ عَنْهُمْ، وتَوْجِيهِهِ إلى العُقَلَاءِ، وتَفْصيلِ مَسَاوِئِ أَحْوَالِهِمْ"[8].

---

(1) ابن جرير، جامع البيان: 3/305.
(2) الزّمخشريّ، الكشّاف: 1/213.
(3) ابن عطيّة، المحرّر الوجيز: 1/238.
(4) أبو حيّان، البحر المحيط: 2/102.
(5) الواحديّ، التَّفْسِير البَسِيط: 3/489.
(6) الزّمخشريّ، الكشّاف: 1/213.
(7) الرّازيّ، مفاتيح الغيب: 5/188.
(8) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 1/188.

وَقال أَبو حَيَّان: "وَحِكْمَتُهُ أَنَّهُمْ أُبرِزُوا في صُورَةِ الغَائِبِ الّذي يُتَعَجَّبُ مِنْ فِعْلِه، حَيْثُ دُعِيَ إلى اتِّبَاعِ شَرِيعَةِ اللَّهِ الَّتِي هِيَ الهُدَى والنُّورُ، فَأَجَابَ بِاتِّبَاعِ شَرِيعَةِ أَبِيه، وكَأَنَّهُ يُقَالُ: هَلْ رَأَيْتُمْ أَسْخَفَ رَأْيًا وأَعْمَى بَصِيرَةً، مِمَّنْ دُعِيَ إلى اتِّبَاعِ القُرْآنِ المُنَزَّلِ مِنْ عِنْدِ اللَّه، فَرَدَّ ذَلِكَ وأَضْرَبَ عَنْهُ؟ وأَثْبَتَ أَنَّهُ يَتَّبِعُ مَا وجَدَ عَلَيْهِ أَبَاهُ"[1]؟! "كَأَنَّهُ الْتَفَتَ إلى العُقَلَاءِ، وقال لَهُمْ: انْظُرُوا إلى هَؤُلَاءِ الحَمْقَى مَاذا يُجِيبُونَ"[2]!

غرضُ الأمْرِ في قوله: ﴿ٱتَّبِعُواْ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ﴾:

شرعُ الله رحمةٌ ويُسْرٌ وحكمةٌ مع النَّاسِ أجمعين

الأَمْرُ في قَولِه ﷻ: ﴿ٱتَّبِعُواْ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ﴾ لِلدّعوة والنَّصيحةِ والإرْشادِ؛ "وَإذا قِيلَ لِلْمُشْرِكِينَ مِنَ النَّاس على وجْهِ النَّصِيحَةِ والإرْشَادِ: ﴿ٱتَّبِعُواْ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ﴾، كِتَابَ اللَّهِ الّذي أَنْزَلَهُ، فَاعْمَلُوا بِتَحْلِيلِ مَا أَحَلَّ اللَّه، وتَحْرِيمِ مَا حَرَّمَ اللَّه في القُرْآنِ، ولَا تَتَّبِعُوا خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ"[3]، تَلَطُّفًا بهم، وخوفًا على مَصيرِهِم، ورَغبةً في هِدايَتِهِم، ولكنّهم لا يَسْتَجيبونَ.

فَائِدَةُ إِسْنَادِ الفِعْلِ لِله تعالى في قوله: ﴿ٱتَّبِعُواْ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ﴾:

شتَّان بين الحقِّ النَّازِلِ وأعْرافِ الهَوى

فَائِدَةُ إِسْنَادِ الفِعْلِ ﴿أَنزَلَ﴾ إلى اللّه تعالى في قَوْلِه ﷻ: ﴿ٱتَّبِعُواْ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ﴾، فلم يقُل: (اتَّبعوا ما أُنزل) هي "إِعْلَامٌ بِتَعْظِيمِ مَا أَمَرُوهُمْ بِاتِّبَاعِه، أَنْ نُسِبَ إِنْزَالُهُ إلى اللَّهِ الّذي هُوَ المشَرِّعُ لِلشَّرَائِعِ، فَكان يَنْبَغِي أَنْ يُتَلَقَّى بِالقَبُولِ، ولَا يعارَضَ باتّباعِ آبائِهِمْ رُؤُوسِ الضَّلَالَةِ"[4].

أثرُ حرفِ الإضْرابِ في تقديرِ الجُمْلةِ المحذوفةِ:

حرفُ الإضرابِ ﴿بَلۡ﴾ في قوله ﷻ: ﴿بَلۡ نَتَّبِعُ مَآ أَلۡفَيۡنَا عَلَيۡهِ ءَابَآءَنَآ﴾،

(1) أبو حيّان، البحر المحيط: 2/102.
(2) البيضاويّ، أنوار التّنزيل: 1/119.
(3) البروسويّ، روح البيان: 1/274.
(4) أبو حيّان، البحر المحيط: 2/103.

عطفَ جملةً مذكورةً وهي ﴿نَتَّبِعُ مَآ أَلۡفَيۡنَا عَلَيۡهِ ءَابَآءَنَآ﴾ على أُخرى محذوفةٍ تقديرُها: "(لَا نَتَّبِعُ مَا أَنْزَلَ اللّٰه، بَلْ نَتَّبِعُ مَا ألفيْنا عليْهِ آباءَنا)، ولَا يَجُوزُ أَنْ يُعْطَفَ على قوْلِه: اتَّبِعُوا مَا أَنْزَلَ اللّٰه"[1]، ذلك أنَّ حرف "بَلْ: إضْرَابُ إِبْطَالٍ، أَيْ: أَضْرَبُوا عَنْ قَوْلِ الرَّسُولِ: ﴿ٱتَّبِعُواْ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ﴾، إِضْرَابَ إِعْرَاضٍ بِدُونِ حُجَّةٍ، إلّا بِأَنَّهُ مُخَالِفٌ لِمَا أَلْفَوْا عَلَيْه آباءَهُمْ"[2].

توَجِيهُ المُتشابهِ اللّفظيِّ بَينَ: ﴿مَآ أَلۡفَيۡنَا﴾، و﴿مَا وجدۡنَا﴾:

اختصاصُ (ألفيتُ) بنوعِ دلالةٍ عن (وجدتُ)

لسائلٍ أن يسألَ عنِ الفرقِ بين قوله تعالى: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ ٱتَّبِعُواْ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ قَالُواْ بَلۡ نَتَّبِعُ مَآ أَلۡفَيۡنَا عَلَيۡهِ ءَابَآءَنَآۚ أَوَلَوۡ كَانَ ءَابَآؤُهُمۡ لَا يَعۡقِلُونَ شَيۡـٔٗا وَلَا يَهۡتَدُونَ ١٧٠﴾ [البقرة: 170]، وقوله تعالى: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ ٱتَّبِعُواْ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ قَالُواْ بَلۡ نَتَّبِعُ مَا وَجَدۡنَا عَلَيۡهِ ءَابَآءَنَآۚ﴾ [لقمان: 21]، وقوله في سورة المائدة: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمۡ تَعَالَوۡاْ إِلَىٰ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ وَإِلَى ٱلرَّسُولِ قَالُواْ حَسۡبُنَا مَا وَجَدۡنَا عَلَيۡهِ ءَابَآءَنَآۚ﴾ [المائدة: 104]، فقال هنا في سورة البقرة: ﴿مَآ أَلۡفَيۡنَا﴾، وقال في سورة المائدة: وسورة لقمان: ﴿مَا وَجَدۡنَا﴾.

وَقَدْ أَجَابَ الخَطِيبُ الإِسْكَافي عَنْ ذَلِكَ بِقَوْلِه: "أَنَّ ﴿أَلۡفَيۡنَا﴾ يَقْصِدُ بها بَعْضَ الوُجُوهِ التِي يُسْتَعْمَلُ عَلَيْهَا ﴿وَجدۡنَا﴾؛ لِأَنَّهُ يُقَالُ: وجَدْتُ الشَّيْءَ، فَلَا يَحْتَاجُ إلى مَفْعُولٍ ثَانٍ إذا وجَدْتهُ عَنْ عَدَم، ولِوِجْدَانِ الضَّالَّةِ تَقُولُ: وجَدْتُ الضَّالَّةَ، وتَقُولُ: وجَدْتُ زَيْدًا عَاقِلًا، فَيكون الوُجُودُ مُتَعَلِّقًا بِالخَبَرِ الّذي هُوَ المفْعُولُ الثَّاني، فَلَا بُدَّ لَهُ في هَذا الوَجْهِ مِنْهُ، ولَا يَكْتَفي بالمَفْعُولِ الأَوَّلِ، وأَمَّا قَوْلُهُمْ: أَلفَيْتُ، فَإِنَّهَا مَخْصُوصَةٌ بِهَذا الوَجْه مِنْ وُجُوهِ (وَجَدْتُ)، لا يُقَالُ: أَلفَيْتُ دِرْهَمًا، بِمَعْنَى: وجَدْتُ دِرْهَمًا، ولَا أَلفَيْتُ الضَّالَّةَ بِمَعْنَى وجَدْتُها، وإنّمَا يُقَال: أَلفَيْتُ زَيْدًا عَاقِلًا، وأَلفَيْتُه على الهُدَى وعلى الضَّلَالَة، فَكان في الموْضِعِ الأَوَّلِ اسْتِعْمَالُ اللَّفْظِ الأَخَصِّ أَوْلَى، وتَأْخِيرُ اللّفْظِ المشْتَرَكِ إلى المكَانِ الثَّاني أَوْلَى"[3].

(1) أبو حيّان، البحر المحيط: 2/103، وابن عرفة، تفسير ابن عرفة: 2/501.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 2/106.
(3) الخطيب الإسكافيّ، درّة التّنزيل وغُرَّة التّأويل: 312-1/310.

تَحْرِيرُ الاسْتِفْهَامِ فِي قَوْلِهِ: ﴿أَوَلَوْ كَانَ ءَابَآؤُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ شَيْـًٔا وَلَا يَهْتَدُونَ﴾:

صحَّةُ اجتماعِ معنى الإنكارِ والتَّعجُّبِ والتَّوبيخِ في هَمْزَةِ الاستفهامِ

اختلف المفسِّرون في معنى الهمزة في قوله تعالَى: ﴿أَوَلَوْ كَانَ ءَابَآؤُهُمْ﴾ على ثلاثةِ أقوالٍ:

القول الأوَّل: الهمزةُ بمعنى الرَّدِّ والتَّعجُّب؛ والمعنى: "أيَتَّبِعُونَهُمْ ولَوْ كانَ آباؤُهُمْ لا يَعْقِلُونَ شَيْئًا مِنَ الدِّينِ ولَا يَهْتَدُونَ لِلصَّوَابِ"[(1)]؛ فإنّهم لَمَّا قالوا: ﴿بَلْ نَتَّبِعُ مَآ أَلْفَيْنَا عَلَيْهِ ءَابَآءَنَآ﴾، عقَّبَ على هذا الاتِّباعِ بهذه الجملة، فلذلكَ تَتَسلّطُ همزةُ الاستفهامِ على فعل الاتّباع؛ فالتّقديرُ عند الزَّمخشريّ: (أيَتَّبِعونَهُمْ)؟! "دَخَلَتْ هَمْزَةُ التَّعَجُّبِ على الجُمْلَةِ الحَالِيَّةِ لِلرَّدِّ عَلَيْهِمْ"[(2)].

القولُ الثَّاني: الهمزةُ للتَّوبيخ، "وإنّمَا جُعِلَ ألفُ الاسْتِفْهَامِ لِلتَّوْبِيخِ؛ لِأَنَّهُ يَقْتَضِي مَا الإِقْرَارُ بِهِ فَضِيحَةٌ، كَمَا يَقْتَضِي الاسْتِفْهَامُ الإِخْبَارَ عَنِ المُسْتَفْهَمِ عَنْهُ، وفي هَذا حُجَّةٌ عَلَيْهِمْ، كَأَنَّهُ قِيلَ: إذا جَازَ لَكُمْ أَنْ تَتَبَّعُوا آبَاءَكُمْ فِيمَا لا تَدْرُونَ أَعَلَى حَقٍّ هُمْ فِيهِ أَمْ بَاطِلٍ، فَأَنْتُمْ كَمَنْ قال: نَتْبَعُهُمْ وإِنْ كَانُوا على بَاطِلٍ! وهَذا غَايَةُ الفَضِيحَةِ"[(3)].

"وإنّمَا جُعِلَتْ هَمْزَةُ الاسْتِفْهَامِ لِلتَّوْبِيخِ؛ لِأَنَّهَا تَقْتَضِي الإِقْرَارَ بِشَيْءٍ يَكُونُ الإِقْرَارُ بِهِ فَضِيحَةً، كَمَا يَقْتَضِي الاسْتِفْهَامُ الإِخْبَارَ عَنِ المسْتَفْهَمِ عَنْهُ"[(4)].

القول الثَّالث: الهمزةُ للإنكار، وهي تدلُّ على عدم عقلهم، فإنَّ "هَمْزَةَ الإِنْكَارِ عَلَيْهِمْ في حَالِ عَدَمِ العَقْلِ، تَدُلُّ على أَنَّهُمْ قَصَدُوا اتِّبَاعَهُمْ مُطْلَقًا، في حَالَةِ العَقْلِ وعَدَمِهِ، أَيْ: أَيَتّبِعون إِيَّاهُمْ ولَوْ كَانُوا لا يَعْقِلُونَ شَيْئًا ولاَ يَهْتَدُونَ؟!"[(5)]، وفيه بيان حماقةِ القوم في اتِّباع آبائهم فيما يُعقل وما لا يُعقل؛ فالآيةُ "اسْتِئْنَافٌ مَسُوقٌ مِنْ جِهتِه تعالى، ردًّا لمقالَتِهِمُ الحَمْقاءِ، وإظهارًا لبُطْلان آرائِهِمْ"[(6)].

(1) الزّمخشريّ، الكشّاف: 1/213.
(2) الطّيبيّ، فتوح الغيب: 3/192-193.
(3) الواحديّ، التَّفْسِير البَسِيط: 3/490.
(4) الرّازيّ، مفاتيح الغيب: 5/188.
(5) ابن عرفة، تفسير ابن عرفة: 2/503.
(6) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 1/188.

والصَّحيحُ أنَّ هذه المعاني جميعُها وجيهةٌ في الاستفهام، فإنَّ التَّعجُّبَ من حال المشركين يقتضي الإنكارَ عليهم، ولا يكون الأمرُ منكرًا إلَّا وصاحبُه قد لحِقَه التَّوبيخُ، ولذلك قال أبو حيان: "الهَمْزَةُ لِلاسْتِفْهَامِ المصْحُوبِ بِالتَّوْبِيخِ والإِنْكارِ والتَّعَجُّبِ مِنْ حَالِهِمْ"[1]، وهي: "لِإنكارِ الواقعِ واسْتِقباحِهِ والتّعْجيبِ مِنْهُ"[2].

الهمزة مُسْتعْمَلةٌ في الإنْكارِ كِنايَةً، وفي التَّعْجيبِ إيماءً

وقال ابن عاشور: "وَقَوْلُهُ: ﴿أَوَلَوْ كَانَ ءَابَآؤُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ شَيْـًٔا وَلَا يَهْتَدُونَ ١٧٠﴾، كَلامٌ مِنْ جَانِبٍ آخَرَ، لِلرَّدِّ على قَوْلِهِمْ نَتَّبِعُ مَا ألفيْنا عَلَيْهِ آباءَنا، فَإِنَّ الـمُتَكَلِّمَ لَمَّا حَكاهُ عَنْهُمْ، رَدَّ قَوْلَهُمْ هَذا بِاسْتِفْهَامٍ يُقْصَدُ مِنْهُ الرَّدُّ، ثُمَّ التَّعْجِيبُ، فَالهَمْزَةُ مُسْتَعْمَلَةٌ في الإِنْكَارِ كِنَايَةً، وفي التَّعْجِيبِ إيمَاءً، والمُرَادُ بِالإِنْكَارِ الرَّدُّ والتَّخْطِئَةُ، لا الإِنْكَارُ بِمَعْنَى النَّفْيِ"[3].

أقوالُ المفسرين في مَعْنَى الوَاوِ في قَوْلِهِ: ﴿أَوَلَوْ كَانَ ءَابَآؤُهُمْ﴾:

اختلفَ المفسِّرون في معنى الواوِ في قوله تعالى: ﴿أَوَلَوْ﴾ على قولين:

القولُ الأوَّل: الواوُ للعطف، قال الواحديُّ: "وَالوَاوُ في ﴿أَوَلَوْ﴾ واوُ العَطْفِ، دَخَلَتْ عَلَيْهَا أَلِفُ الاسْتِفْهَامِ"[4]، "الوَاو لِلْعَطْفِ قِيلَ على الجُمْلَةِ الـمتَقَدِّمَة، وإِلَيْهِ ذَهَبَ البَيْضَاوِيُّ[5]، ولَا أَعْلَمُ لَهُ سَلَفًا فِيهِ، وهُوَ وجِيهٌ جِدًّا، أَيْ: قالوا: بَلْ نَتَّبِعُ ولَوْ كان آبَاؤُهُمْ"[6].

القول الثَّاني: الواوُ للحالِ، قال الزَّمَخْشَرِيُّ: "﴿أَوَلَوْ كَانَ ءَابَآؤُهُمْ﴾: الواوُ لِلحالِ"[7]، والوَاوُ حَالِيَّةٌ، والجُمْلَةُ حَالِيَّةٌ مَسُوقَةٌ لِاسْتِنْكَارِ اتِّبَاعِ آبَائِهِمْ في كُلِّ حَالَةٍ، حَتَّى في الحَالَةِ التِي لا مَسَاغ لِلْعَاقِلِ أَنْ يَتَّبِعَهَا، ويَجْنَحَ إِلَيْهَا، وهِيَ تَلَبُّسهمْ بِعَدَمِ العُقُولِ وانْتِفَاءِ الهِدَايَةِ[8].

(1) أبو حيّان، البحر المحيط: 2/103.
(2) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 1/188.
(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 2/106.
(4) الواحديّ، التَّفْسِير البَسِيط: 3/490.
(5) البيضاويّ، أنوار التّنزيل: 1/119.
(6) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 2/108.
(7) الزّمخشري، الكشّاف: 1/213.
(8) الدّرويش، إعراب القرآن وبيانه: 1/238.

الواو إمَّا أن تُحمَلَ على العطفِ أو الحالِ، ولكلٍّ معنًى تفسيرٌ

وَقَدْ فَصّلَ أَبُو حَيَّانَ في ذَلِكَ فقال: "وَأَمَّا الوَاوُ بَعْدَ الهَمْزَةِ، فَقال الزَّمَخْشَرِيُّ: الوَاوُ لِلْحَالِ، ومَعْنَاهُ: أَيَتَّبِعُونَهُمْ، ولَوْ كان آبَاؤُهُمْ لا يَعْقِلُونَ شَيْئًا مِنَ الدِّينِ ولَا يَهْتَدُونَ لِلصَّوَابِ؟! وقال ابْنُ عَطِيَّةَ: الوَاوُ لِعَطْفِ جُمْلَةِ كَلَام على جُمْلَة، لِأَنَّ غَايَةَ الفَسَادِ في الالتِزَام أَنْ يَقُولُوا: نَتَّبِعُ آبَاءَنَا ولَوْ كَانُواْ لا يَعْقِلُونَ، فَقُرِّرُوا على التِزَام هَذا، أَيْ هَذِهِ حَالُ آبَائِهِمْ، انْتَهَى كَلَامُهُ.

وَظَاهِرُ قَوْلِ الزَّمَخْشَرِيِّ أَنَّ الوَاوَ لِلْحَالِ، مُخَالِفٌ لِقَوْلِ ابْنِ عَطِيَّةَ أَنَّهَا لِلْعَطْفِ، لِأَنَّ واوَ الحَالِ لَيْسَتْ لِلْعَطْفِ، والجَمْعُ بَيْنَهُمَا أَنَّ هَذِهِ الجُمْلَةَ المصْحُوبَةَ بِـ(لَوْ) في مِثْلِ هَذا السِّيَاقِ، هِيَ جُمْلَةٌ شَرْطِيَّةٌ؛ فَإِذا قال: (اضْرِبْ زَيْدًا ولَوْ أَحْسَنَ إِلَيْكَ)، المعْنَى: وإِنْ أَحْسَنَ، وكَذَلِكَ: (أَعْطُوا السَّائِلَ ولَوْ جَاءَ على فَرَسٍ، رُدُّوا السَّائِلَ ولَوْ بِشِقِّ تَمْرَةٍ)، المعْنَى فِيهَا: (وإِنْ)، وتَجِيءُ (لَوْ) هُنَا تَنْبِيهًا على أَنَّ مَا بَعْدَهَا لَمْ يَكُنْ يُنَاسِبُ مَا قَبْلَهَا، لَكِنَّهَا جَاءَتْ لِاسْتِقْصَاءِ الأَحْوَالِ الَّتي يَقَعُ فِيهَا الفِعْلُ، ولِتَدُلَّ على أَنَّ المُرَادَ بِذَلِكَ وُجُودُ الفِعْلِ في كُلِّ حَالٍ، حَتَّى في هَذِهِ الحَالِ الَّتِي لا تُنَاسِبُ الفِعْلَ، ولِذَلِكَ لا يَجُوزُ: (اضْرِبْ زَيْدًا ولَوْ أَسَاءَ إِلَيْكَ)، ولَا (أَعْطُوا السَّائِلَ ولَوْ كان مُحْتَاجًا)، ولَا (رُدُّوا السَّائِلَ ولَوْ بِمِئَةِ دِينَارٍ)"[1].

حَذْفُ جَوَابِ (لَوْ) لدلالةِ السِّياقِ عليه في قَوْلِهِ: ﴿أَوَلَوۡ كَانَ ءَابَآؤُهُمۡ﴾:

براعةُ التَّرْكِيبِ القرآنيِّ ووجازةُ لفظِه

حُذِفَ جوابُ (لو) في قوله تعالى: ﴿أَوَلَوۡ كَانَ ءَابَآؤُهُمۡ﴾ وقد دلَّ عليه السِّباقُ، والمعنى: "أَيتّبِعُونَ آبَاءَهُمْ وإِنْ كَانُوا جُهَّالًا؟!؛ فَتَرَكَ جَوَابَ (لَوْ) لِأَنَّهُ مَعْرُوفٌ، والتَّقْدِيرُ: أَوَلَوْ كان آبَاؤُهُمْ لا يَعْقِلُونَ شَيْئًا ولَا يَهْتَدُونَ؛ يَتّبِعُونَهُمْ؟!"[2]، أو "لاتَّبَعُوهُمْ، والـمُسْتَفْهَمُ عَنْهُ هُوَ الارْتِبَاطُ الذي بَيْنَ الشَّرْطِ وجَوَابِهِ، وإنّمَا صَارَتِ الهَمْزَةُ لِلرَّدِّ لِأَجْلِ

---

(1) أبو حيّان، البحر المحيط: 2/103-104.

(2) الواحديّ، التَّفْسِير البَسِيط: 3/489، والبيضاوي، أنوار التّنزيل: 1/119.

العِلْم بِأَنَّ الـمُسْتَفْهَمَ عَنْهُ يُجَابُ عَنْهُ بِالإِثْبَاتِ بِقَرَائِنِ حَالِ الـمُخْبَرِ عَنْهُ والـمُسْتَفْهِم، ومِثْلُ هَذا التَّرْكِيبِ مِنْ بَدِيعِ التَّرَاكِيبِ العَرَبِيَّة، وأَعْلَاهَا إيجازًا، و(لَوْ) في مِثْلِه تُسَمَّى وصْلِيَّةً"[1].

إطلاقُ العُمُومِ وإرَادَةُ الخُصُوصِ في قولِه: ﴿لَا يَعْقِلُونَ شَيْـًٔا﴾:

نفيُ العامِّ جارٍ على طَريقةِ البُلَغاءِ، بِجَعْلِ الغالِبِ أَمْرًا كُلِّيًّا عامًّا

نفتِ الآيةُ عن متَّبعي الآباءِ العقلَ في قولِه تعالى: ﴿لَا يَعْقِلُونَ شَيْـًٔا﴾، وهو نفيٌ عامٌّ، لكنَّ "مَعْنَاهُ الخُصُوصُ؛ لِأَنَّهُمْ كَانُوا يَعْقِلُونَ أَمْرَ الدُّنْيَا، ومَعْنَاهُ: لا يَعْقِلُونَ شَيْئًا مِنْ أَمْرِ الدِّين، قال ابْنُ عَبَّاسٍ: لا يَعْقِلُونَ عَظَمَةَ اللَّهِ، ولَا يَهْتَدُونَ إلى دِينِه"[2]، و"هَذا يَدُلُّ على جَوَازِ ذِكْرِ العَامِّ مَعَ أَنَّ الـمُرَادَ بِه الخَاصُّ"[3].

فالنَّفْيُ هُنا "جارٍ على طَرِيقَةِ البُلَغاءِ في المبالَغَةِ، بِجَعْلِ الغالِبِ أَمْرًا كُلِّيًّا عامًّا، يَقُولُونَ في الضّالِّ في عامَّةِ شُؤُونِه: إنَّهُ لا يَعْقِلُ شَيْئًا ولا يَهْتَدِي إلى الصَّواب، ويَقُولُونَ في البَلِيدِ إنَّهُ لا يَفْهَمُ شَيْئًا، وهَذا لا يُنافي أَنْ يَعْقِلَ الأَوَّلُ بَعْضَ الأَشْياءِ، ويَفْهَمَ الثّاني بَعْضَ المسائِلِ"[4].

إعرابُ ﴿شَيْـًٔا﴾ مبنيٌّ على معنى العُمُومِ:

وقال أبو حَيّانَ: "وَانْتِصابُ ﴿شَيْـًٔا﴾ على وجْهَيْن: أَحَدُهُما: على الـمفْعُولِ بِه، فَعَمَّ جَمِيعَ الـمعْقُولَاتِ، لِأَنَّهَا نَكِرَةٌ في سِيَاقِ النَّفْيِ فتَعُمُّ، ولَا يُمْكِنُ أَنْ يكون الـمرادُ نَفْيَ الوحْدَةِ فَيكون الـمعْنَى لا يَعْقِلُونَ شَيْئًا بَلْ أَشْياءَ، والثَّاني: أَنْ يكون مَنْصُوبًا على الـمصْدَرِ، أَيْ: شَيْئًا مِنَ العَقْلِ، وإذا انْتَفَى، انْتَفَى سَائِرُ العُقُولِ"[5].

ولـمَّا دخلت هَمْزَةُ الإِنْكارِ علَيْهِمْ في حَالِ عَدَمِ العَقْلِ، دلَّتْ على أَنَّهُمْ قَصَدُوا اتِّبَاعَهُمْ مُطْلَقًا، في حَالَةِ العَقْلِ وعَدَمِه، أَيْ: أَيَتَّبِعونَهم ولَوْ كَانُوا ﴿لَا يَعْقِلُونَ شَيْـًٔا وَلَا يَهْتَدُونَ﴾؟! وهَذا نَفْيٌ أَخَصُّ، فَالتَّأْكِيدُ بِالمصْدَرِ دَخَلَ على الـمنْفِيّ فَأَكَّدَهُ؛ لِأَنَّهُ سَابِقٌ على النَّفْيِ، وإِنْ جَعَلْتَ ﴿شَيْـًٔا﴾ مَفْعُولًا، لَمْ يَحْتَجْ إلى هَذا[6].

---

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير، /106.
(2) الواحدي، التَّفْسِير البَسِيط: 3/490.
(3) الرّازي، مفاتيح الغيب: 5/189.
(4) محمّد رشيد رضا، تفسير القرآن الحكيم: 2/75.
(5) أبو حيّان، البحر المحيط: 2/104.
(6) ابن عرفة، تفسير ابن عرفة: 2/503.

تَوجِيهُ المُتشابهِ اللَّفظيِّ:

وجه التّشابُهِ بينَ ما في البَقَرَةِ: ﴿لَا يَعۡقِلُونَ﴾، وما في المائدة: ﴿لَا يَعۡلَمُونَ﴾:

لسائلٍ أن يسألَ عنِ الفرقِ بين قولِه تعالى: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ ٱتَّبِعُواْ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ قَالُواْ بَلۡ نَتَّبِعُ مَآ أَلۡفَيۡنَا عَلَيۡهِ ءَابَآءَنَآۚ أَوَلَوۡ كَانَ ءَابَآؤُهُمۡ لَا يَعۡقِلُونَ شَيۡـٔٗا وَلَا يَهۡتَدُونَ ١٧٠﴾ [البقرة: 170]، وقوله تعالى: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمۡ تَعَالَوۡاْ إِلَىٰ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ وَإِلَى ٱلرَّسُولِ قَالُواْ حَسۡبُنَا مَا وَجَدۡنَا عَلَيۡهِ ءَابَآءَنَآۚ أَوَلَوۡ كَانَ ءَابَآؤُهُمۡ لَا يَعۡلَمُونَ شَيۡـٔٗا وَلَا يَهۡتَدُونَ ١٠٤﴾ [المائدة: 104]، فقال في البقرة: ﴿لَا يَعۡقِلُونَ﴾، وقال في المائدة: ﴿لَا يَعۡلَمُونَ﴾.

وَقَدْ أَجابَ الخَطِيبُ الإِسْكَافي عَنْ ذَلِكَ بِقَوْلِهِ: "إنَّ لِقَوْلِه: ﴿يَعۡلَمُونَ﴾ رُتْبَةً لَيسَتْ لِقَوْلِه: ﴿يَعۡقِلُونَ﴾، وإذا وقفْتَ على مَا بَيْنَهَا سَهُلَتْ عَلَيْكَ مَعْرِفَةُ مَا أَوْجَبَ تَخْصِيصَ كُلِّ مَكَانٍ بِاللَّفظِ المُخْتَصِّ بِه؛ فَقَوْلُ القَائِلِ: (يَعْلَم)، مَعْنَاهُ: يُدْرِكُ الشَّيْءَ على مَا هُوَ بِهِ مَعَ سُكُونٍ إِلَيْه، وقَوْلُهُ: (يَعْقِلُ)، مَعْنَاهُ يَحْصُرُهُ بِإِدْرَاكٍ لَهُ عَمَّا لا يُدْرِكُه، ولِذَلِكَ جَازَ أَنْ تَقُولَ: يَعْلَمُ اللَّه كذا، ولَا يَجُوزُ أَنْ تَقُولَ: يَعْقِلُ اللَّه كَذا؛ لِأَنَّ العَقْلَ: الشَّدُّ، والعَاقِلُ: الّذي يَحْبِسُ نَفْسَهُ عَمَّا تَدْعُو إِلَيْهِ الشَّهَوَاتُ، ولَا شَهْوَةَ للَّهِ تعالى فَيَحْبِسَ عَنْهَا، فَلِذَلِكَ لا يُقَالُ: اللَّهُ عَاقِلٌ، ويُقال: عَقَلَ فُلَانٌ الشَّيْءَ، وهُوَ يَعْقِلُهُ بِمَعْنَى حَصَرَهُ، بِإِدْرَاكِهِ لَهُ عَمَّا لا يُدْرِكُهُ، وشَدَّهُ بِتَمْيِيزِهِ لَهُ عَنْ غَيْرِهِ مِمَّا لا يُدْرِكُهُ، وهَذا لا يَصِحُّ في حَقِّ اللَّهِ تعالى، فَإذا كَانَتْ رُتْبَةُ ﴿يَعۡلَمُونَ﴾ زَائِدَةً على رُتْبَةِ ﴿يَعۡقِلُونَ﴾، فَأَخْبَرَ اللَّهُ تعالى عَنِ الكُفَّارِ في سُورَةِ المائِدَةِ فَقال: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمۡ تَعَالَوۡاْ إِلَىٰ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ وَإِلَى ٱلرَّسُولِ قَالُواْ حَسۡبُنَا مَا وَجَدۡنَا عَلَيۡهِ ءَابَآءَنَآۚ أَوَلَوۡ كَانَ ءَابَآؤُهُمۡ لَا يَعۡلَمُونَ شَيۡـٔٗا وَلَا يَهۡتَدُونَ ١٠٤﴾ [المائدة: 104] فَبَيَّنَ أَنَّهُمُ ادَّعَوْا رُتْبَةَ العِلْمِ بِصِحَّةِ مَا كان آبَاؤُهُمْ عَلَيْهِ؛ لِأَنَّهُمْ قَالُوا: ﴿حَسۡبُنَا مَا وَجَدۡنَا عَلَيۡهِ ءَابَآءَنَآۚ﴾، ولفظة ﴿حَسۡبُنَا﴾ تُسْتَعْمَلُ فِيمَا يَكْفي في بَابِهِ، ويُغْني عَنْ غَيْرِه، فَالمُدْرِكُ لِلشَّيْءِ إذا أَدْرَكَهُ على مَا هُوَ بِه، وسَكَنَتْ نَفْسُهُ إِلَيْه، فَذاكَ حَسْبُهُ، فَاسْتَعْمَلَ لَفْظَةَ ﴿يَعۡلَمُونَ﴾، ونَفَى عَنْهُمُ الهِدايَةَ، لِأَنَّهُمُ ادَّعَوْهَا بِقَوْلِهِمْ: ﴿حَسۡبُنَا﴾، فَكَأَنَّهُمْ قَالُوا: مَعَنَا عِلْمٌ سَكَنَتْ نُفُوسُنَا إِلَيْهِ، مِمَّا وجَدْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا مِنَ الدِّينِ، فَنَفَى مَا ادَّعَوْهُ بِعَيْنِهِ، وهُوَ العِلْمُ"(1).

(1) الخطيب الإسكافيّ، درّة التّنزيل وغُرّة التّأويل: 315-1/310.

فائدةُ الحذفِ في قولِهِ تَعالى: ﴿وَلَا يَهْتَدُونَ﴾:

عدمُ اعتبارِ أيِّ هدايةٍ لا توصلُ إلى النَّجاةِ عند اللهِ بمعيارِ القرآنِ

حُذِفَ مُتَعَلَّقُ ﴿وَلَا يَهْتَدُونَ﴾ والمعنى: ولا يهتدون إلى شَيْءٍ، "وَهَذِهِ الحالَةُ مُمْتَنِعَةٌ في نَفْسِ الأَمْرِ؛ لِأَنَّ لِآبائِهِمْ عُقُولًا تُدْرِكُ الأَشْياءَ، وفِيهِمْ بَعْضُ الاهْتِداءِ، مِثْلُ اهْتِدائِهِمْ إلى إثْباتِ وُجُودِ اللَّهِ تعالى، وإلى بَعْضِ ما عَلَيْهِ أُمُورُهُمْ مِنَ الخَيْرِ؛ كَإغاثَةِ المَلْهُوفِ، وقِرَى الضَّيْفِ، وحِفْظِ العَهْدِ، ونَحْوِ ذَلِكَ"(1)، فأطلقَ نفيَ الاهتداءِ وأرادَ به خصوصَ الهدايةِ الموصلةِ إلى النَّجاةِ؛ فإنَّ معرفةَ وجودِ اللّه تعالى، والاعتراف له بأنَّه الخالق، أو الاعتراف ببعضِ الرُّسلِ وإنكار رسالةِ محمَّدٍ ﷺ لا يُؤدِّي إلى النَّجاةِ أبدًا، فلا بدَّ من الاعترافِ والإقرارِ بالهدايةِ القرآنيَّةِ بكاملِ شروطِها وأركانِها، وفائدةُ الإطلاقِ مع أنَّ المرادَ الهدايةَ الموصلةَ إلى النَّجاةِ، عدمُ اعتبارِ أيِّ هدايةٍ إلَّا الهدايةِ المنجيةِ.

سِرُّ تَقْدِيمِ نَفْيِ العَقْلِ على نَفْيِ الهِدايَةِ:

الأصلُ مُقدَّمٌ على الفرعِ

قُدِّمَ نَفْيُ العقلِ في قوله تعالَى: ﴿أَوَلَوْ كَانَ ءَابَآؤُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ شَيْـًٔا وَلَا يَهْتَدُونَ ١٧٠﴾؛ "لِأَنَّهُ الّذي تَصْدُرُ عَنْهُ جَمِيعُ التَّصَرُّفاتِ، وأُخِّرَ نَفْيُ الهِدايَةِ لِأَنَّ ذَلِكَ مُتَرَتِّبٌ على نَفْيِ العَقْلِ؛ لِأَنَّ الهِدايَةَ لِلصَّوابِ هِيَ ناشِئَةٌ عَنِ العَقْلِ، وعَدَمُ العَقْلِ عَدَمٌ لَها"(2)، والعقلُ أصلُ الهدايةِ؛ فلا يهتدي من كان فاقدًا للعقلِ، وبه يظهرُ أثرُ هذه الجوهرةِ في الوصولِ إلى الحقِّ، وأنَّ المشركين لـمَّا فقدوها، فقدوا الخيرَ كلَّه.

نَفْيُ العَقْلِ يَتَضَمَّنُ نَفْيَ الهِدايَةِ، فَما أبْيَنَهَا في قوله: ﴿لَا يَعْقِلُونَ شَيْـًٔا وَلَا يَهْتَدُونَ﴾:

موضوعُ العقلِ التّدبُّرُ، وموضوعُ الاهْتداءِ الاتّباعُ

لسائلٍ أن يسألَ عن ذكر الهدايةِ بعد العقلِ، ومعلومٌ أنَّ نفيَ العقلِ يتضمَّنُ نفيَ الهدايةِ؟! "فَالجَوابُ: أَنَّ المُرادَ ﴿لَا يَعْقِلُونَ شَيْـًٔا﴾ من

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 2/110.

(2) أبو حيّان، البحر المحيط،: 2/104.

ذاتِ أَنْفُسِهِمْ، ولَوْ نَبَّهَهُمْ غَيْرُهُمْ لَمَا اهْتَدَوا"[1]، كما أنَّ موضوعَ العقلِ يختلفُ عن موضوعِ الهدايةِ؛ "فَمَوْضُوعُ العَقْلِ تُفَكُّرٌ، وتَدَبُّرٌ، وطَرِيقُهُ المنْطِقُ والبُرْهَانُ، ومَوْضُوعُ الاهْتِدَاءِ اتِّبَاعٌ لِهَادٍ مُرْشِدٍ، كَنَبِيٍّ مُرْسَلٍ، فَمَا كان لَهُمْ عَقْلٌ مُفَكِّرٌ ولَا هَادٍ يَهْتَدُونَ بِهَدْيِهِ"[2]، فقَوْلُهُ: ﴿لَا يَعۡقِلُونَ شَيۡـٔٗا﴾، يُرادُ منه عدمُ علمهم شَيْئًا مِنَ الدِّينِ، وقَوْلُهُ تعالى: ﴿وَلَا يَهۡتَدُونَ﴾ يُراد منه عدم هدايتهم إلى كَيْفِيَّةِ اكْتِسَابِهِ[3].

❁ الفُرُوقُ المُعْجَمِيَّةُ:

(وَجَدَ) و(ألفَى):

لفظ (ألفى) وُجودٌ بهَيْئَةٍ خاصَّةٍ، ولَفْظ (وَجَدَ) وُجُودٌ عَامٌّ

جَعَلَهُمَا الرَّازِي بِمَعْنًى واحِدٍ: "أَلْفَيْنا بِمَعْنَى وجَدْنا، بِدَلِيلِ قَوْلِهِ تعالى في آيَةٍ أُخْرَى: ﴿بَلۡ نَتَّبِعُ مَا وَجَدۡنَا عَلَيۡهِ ءَابَآءَنَآۚ﴾ [لقمان: 21]"[4]، وفرّق غيرُهُ، فقال ابن عرفة: "كان بَعْضُهُمْ يَقُولُ: إنّما لم يَقُولُوا: ﴿مَا وَجَدۡنَا عَلَيۡهِ ءَابَآءَنَآۚ﴾ ولَوْ كان المعْنَى واحِدًا؛ لِأَنَّ الوِجْدانَ يكون اتِّفَاقِيًّا على غَفْلَةٍ مِنْ غَيْرِ قَصْدٍ، ومِنْهُ وِجْدَانُ الضَّالَّةِ، و﴿أَلۡفَيۡنَا﴾ يَقْتَضِي وِجْدَانَ مَا كان ثَابِتًا دَائِمًا مُسْتَقِرًّا"[5].

أَلفَيْتُهُ يُصَلِّي: وجَدْتُهُ على تِلْكَ الحَالَةِ[6]، فَفِيهِ مَعْنَى الوُجُودِ على هَيْئَةٍ خَاصَّةٍ، وأمّا الوُجُودُ مَدْلُولُ (وَجَدَ) فهو وُجُودٌ عَامٌّ، وفي الآيَةِ يَدلُّ على الاتِّبَاعِ بِلَا تَدَبُّرٍ، بَلْ بتَقْلِيدٍ أَعمى، وهُوَ مَوْضُوعُ الآيَةِ فَنَاسَبَهُ؛ كقوله تعالى: ﴿إِنَّهُمۡ أَلۡفَوۡاْ ءَابَآءَهُمۡ ضَآلِّينَ ٦٩﴾ [الصّافات: 69]، "أَيْ وجَدُوا آبَاءَهُمْ ضَالِّينَ، فَاتَّبَعُوهُمْ على ضَلَالَتِهِمْ، مُسْرِعِينَ في ذَلِكَ لا يُثَبِّطُهُمْ شَيْءٌ"[7]، "أَيْ دُونَ تَدَبُّرٍ فيمَا دَعَاهُمْ إِلَيْهِ الرُّسُلُ"[8].

---

(1) ابن عرفة، تفسير ابن عرفة: 2/503.
(2) أبو زهرة، زهرة التّفاسير: 1/503.
(3) الرّازيّ، مفاتيح الغيب: 5/189.
(4) الرّازيّ، مفاتيح الغيب: 5/188.
(5) ابن عرفة، تفسير ابن عرفة: 2/501.
(6) الفيوميّ، المصباح المنير: (لفي).
(7) أبو حيّان، البحر المحيط: 9/107.
(8) جبل، المعجم الاشتقاقيّ المؤصّل: (لفو).

﴿وَمَثَلُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ كَمَثَلِ ٱلَّذِي يَنۡعِقُ بِمَا لَا يَسۡمَعُ إِلَّا دُعَآءٗ وَنِدَآءٗۚ صُمُّۢ بُكۡمٌ عُمۡيٞ فَهُمۡ لَا يَعۡقِلُونَ ١٧١﴾ [البقرة: 171]

❁ مُناسَبَةُ الآيَةِ لِمَا قَبْلَها:

تَشْبِيهُ المُعْرِضِينَ عَنِ الهُدى، والمُتَّبِعِينَ لِسابِقِيهِم عَنْ عَمايَةٍ، بِأبْشَعِ تَشْبِيهٍ

"لَمَّا ذَكَرَ تعالى أَنَّ هَؤُلَاءِ الكُفَّارَ إذا أُمِرُوا باتِّبَاعِ مَا أَنْزَلَ اللّه، أَعْرَضُوا عَنْ ذَلِك ورَجَعُوا إلى مَا أَلْفَوْهُ مِن اتّباع الباطِلِ الّذي نَشَؤوا عَلَيْه ووَجَدُوا عَلَيْهِ آبَاءَهُمْ، ولَمْ يَتَدَبَّرُوا مَا يُقالُ لَهُمْ، وصَمُّوا عَنْ سَمَاعِ الحَقِّ، وخَرِسُوا عَنِ النُّطْقِ بِه، وعَمُوا عَنْ إبْصَارِ النُّورِ السَّاطِعِ النَّبَوِيِّ، ذَكَرَ هَذا التَّشْبِيهَ العَجِيبَ في هَذِهِ الآيَةِ، مُنَبِّهًا على حَالَةِ الكَافِرِ في تَقْلِيدِهِ أَبَاهُ، ومُحَقِّرًا نَفْسَهُ، إِذْ صَارَ هُوَ في رُتْبَةِ البَهِيمَةِ، أَوْ في رُتْبَةِ دَاعِيهَا"[1]، "عُقِّبَ ذَلِكَ كُلُّهُ بِتَمْثِيلِ فَظِيعِ حَالِهِمْ، إِبْلَاغًا في البَيَانِ، واسْتِحْضَارًا لَهُمْ بالمِثَالِ"[2].

المُعْرِضونَ عمّا أنزَلَ اللهُ (صُمٌّ بُكْمٌ عُمْيٌ)، بِلا عَقْلٍ ولا بَصيرَةٍ

من ناحية أخرى، أنه سبحانه"لَمَّا حَكَى عَنِ الكُفَّارِ أَنَّهُمْ عِنْدَ الدُّعَاءِ إلى اتِّبَاعِ مَا أَنْزَلَ اللّه، تَرَكُوا النَّظَرَ والتَّدَبُّرَ، وأَخْلَدُوا إلى التَّقْلِيد، وقَالُوا: ﴿بَلۡ نَتَّبِعُ مَآ أَلۡفَيۡنَا عَلَيۡهِ ءَابَآءَنَآۚ﴾ [البقرة: 170]، ضَرَبَ لَهُمْ هَذا المثَلَ، تَنْبِيهًا لِلسَّامِعِينَ لَهُمْ، أَنَّهُمْ إنّما وقَعُوا فِيمَا وقَعُوا فِيهِ بِسَبَبِ تَرْكِ الإِصْغَاءِ، وقِلَّةِ الاهْتِمَامِ بالدِّين، فَصَيَّرَهُمْ مِنْ هذا الوَجْهِ بِمَنْزِلَةِ الأَنْعَامِ"[3].

الصّوتُ موهبةُ اللهِ، فطائرٌ يشدُو، وآخرُ ينعقُ

❁ شَرْحُ المُفْرَدَاتِ:

1) ﴿يَنۡعِقُ﴾: مِنَ الجذر (نعق)، وهُوَ في الأصلِ يدُلُّ على صَوْتٍ، ونَعَقَ الرَّاعِي بِالغَنَم يَنْعَقُ ويَنْعِق، إذا صَاحَ بها زَجْرًا، نَعِيقًا[4]،

(1) أبو حيّان، البحر المحيط: 2/104.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 2/111.
(3) الرّازيّ، مفاتيح الغيب: 5/189.
(4) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (نعق).

"النَّعِيقُ: دُعَاءُ الرَّاعِي وتَصْوِيتُهُ بِالغَنَمِ"[1]، فالنَّعيقُ صَوْتُ الرّاعي حِينَ يَصيحُ بِغَنَمِهِ زَجْرًا لها.

قَالَ الأخطل:

فَانْعِقْ بِضَأْنِكَ يَا جَرِيرُ فَإِنَّمَا *** مَنَّتْكَ نَفْسُكَ فِي الْخَلَاءِ ضَلَالَا[2]

وقوله: "﴿كَمَثَلِ ٱلَّذِى يَنْعِقُ بِمَا لَا يَسْمَعُ﴾، وجْهُ الكلام: كَمثل المَنْعوقِ به، فجاءَ النّاعِقُ في مَوضِعِ المَنعوقِ به، لأنَّهُ جَعَلَ الكُفّارَ بِمَنْزِلَة الغَنَمِ المَنْعوقِ بها"[3]، "وحَكى ابنُ كَيْسانَ: نعَقَ الغُرابُ بالعَيْنِ غير مُعْجَمة، قَالَ الزّمخْشَريُّ: والغيْنُ أعلَى، أَي: صاحَ، وقَالَ الأزهريّ: نعيقُ الغُراب، ونُعاقُه، ونَغيقُه، ونُغاقُه، مثل نَهيقِ الحِمارِ ونُهاقِهِ، ولكنّ الثِّقات من الأئمّة يَقُولُونَ: كلامُ العرَبِ: نَغَقَ الغُرابُ، بالغيْنِ المعْجَمَة، ونَعَقَ الرّاعي بالشّاءِ، بِالْعينِ المهْملة، ولَا يُقال في الغُراب نَعَق، ويجوز نعَبَ"[4].

لا يكونُ الدّعاءُ إلّا معه الاسم، بخلاف النّداء

2) ﴿دُعَآءً﴾: أصلُ مادّة (دعو)، هُوَ أَنْ تُميلَ الشَّيْءَ إِلَيْكَ بِصَوْتٍ وكَلَامٍ[5]، "والدُّعاءُ: واحد الأَدْعِيَة، وأَصْلُهُ: دُعاوٌ، لأنّه من دَعوتُ، إلّا أنّ الواو لَمَّا جاءت بعد الألف هُمِزَتْ، وتقولُ للمرأة: أَنْتِ تَدْعِينَ، وفيه لُغَة ثانيةٌ: أَنْتِ تَدْعُوِينَ، وفيه لُغَةٌ ثالثةٌ: أَنْتِ تَدْعُِينَ بإشمام العين الضَّمَّةَ، ولِلجماعة: أَنْتُنَّ تَدْعُونَ، مثلَ الرّجالِ سَواءً"[6]، و"الدُّعَاءُ كالنِّداءِ، إلّا أنّ النِّدَاءَ قَدْ يُقَالُ بـ(يَا، أَوْ أَيَا)، ونَحْوِ ذَلِكَ، مِنْ غَيْرِ أَنْ يُضَمَّ إِلَيْهِ الاسْمُ، والدُّعَاءُ لا يَكَادُ يُقَالُ إِلّا إذا كان مَعَهُ الاسْمُ، نَحْو: يَا فُلَانُ، وقَدْ يُسْتَعْمَلُ كُلُّ واحِدٍ مِنْهُمَا مَوْضِعَ الآخَرِ، قال تعالى: ﴿كَمَثَلِ ٱلَّذِى يَنْعِقُ بِمَا لَا يَسْمَعُ إِلَّا دُعَآءً وَنِدَآءً﴾ [البقرة: 171]"[7].

النّداءُ رفعُ الصّوت المُجرّد، والجهرُ به وإظهاره

3) ﴿وَنِدَآءً﴾: من الجذرِ (ندا/ ندي)، و"النِّدَاءُ: رَفْعُ الصَّوت

(1) أبو حيّان، البحر المحيط: 2/98.
(2) ديوان جرير، ص: 50، وتح: صالحاني، ص: 116، وتح: قباوة.
(3) ابن دريد، جمهرة اللّغة: 2/943، وكذلك الزّمخشريّ، أساس البلاغة: 2/286.
(4) الزَّبيدي، تاج العروس: 26/428.
(5) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (دعو).
(6) الجوهريّ، الصّحاح: (دعا).
(7) الرّاغب، المفردات: (دعو).

وظُهُورُهُ، وقد يُقال ذلك لِلصَّوْتِ المُجرَّدِ، وإيّاه قَصَدَ بقولِه: ﴿وَمَثَلُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ كَمَثَلِ ٱلَّذِى يَنْعِقُ بِمَا لَا يَسْمَعُ إِلَّا دُعَآءً وَنِدَآءً﴾، أيْ: لا يَعْرِفُ إلّا الصَّوْتَ المجرَّدَ دُونَ المعْنَى الذي يَقْتَضِيه تَرْكِيبُ الكَلَام"[1]، ونَقل الزَّبيديُّ عن الرَّاغب قولَهُ: "النِّداءُ: رَفْعُ الصَّوتِ المجرَّدِ، وإيَّاه قَصَدَ بقولِه تعالى: ﴿إِلَّا دُعَآءً وَنِدَآءً﴾"، "قالَ: واسْتِعارَةُ النّداءِ للصَّوْت، من حيثُ إنَّ مَنْ تَكْثُرُ رُطُوبَة فَمِه حَسُنَ كَلامُه، ولِهَذا يُوصَفُ الفَصِيحُ بكَثْرةِ الرِّيقِ"[2]، ونَدَى الصَّوْتِ: بُعْدُ مَذْهَبِه، وهُوَ أَنْدَى صَوْتًا مِنْهُ: أَيْ أَبْعَدُ، قال:

فَقُلْتُ ادْعِي وأَدْعُ فَإِنَّ أَنْدَى *** لِصَوْتٍ أَنْ يُنَادِيَ دَاعِيَانِ[3]

الصّمم فُقْدانُ حاسّة السّمْع، وبه يُوصفُ مَنْ لا يُصْغي إلى الحقّ

4) ﴿صُمٌّ﴾: مِنَ الجَذْرِ (صمم)، وهُوَ "أَصْلٌ يَدُلُّ عَلَى تَضَامِّ الشَّيْءِ، وزَوَالِ الْخَرْقِ، والسَّمِّ، مِنْ ذَلِكَ: الصَّمَمُ في الْأُذُنِ، يُقَالُ: صَمِمْتَ، وأَنْتَ تَصَمُّ صَمَمًا، ورُبَّمَا قَالُوا: صُمَّ، بِمَعْنَى صَمَّ، ويُقَالُ: أَصْمَمْتُ الرَّجُلَ، إِذَا وجَدْتَهُ أَصَمَّ، قَالَ ابْنُ أَحْمَرَ:

أَصَمَّ دُعَاءُ عَاذِلَتِي تَحَجَّى *** بِآخِرِنَا وتَنْسَى أَوَّلِينَا[4]

والصَّمَمُ: فُقْدانُ حَاسَّةِ السَّمْعِ، وبِهِ يُوصَف مَنْ لا يُصْغِي إلى الحَقِّ ولَا يَقْبَلُهُ، قال تعالى: ﴿صُمٌّ بُكۡمٌ عُمۡيٌ﴾[5]، "وأَصْلُ الصَّمَمِ السَّدُّ، ومِنْهُ صَمَمْتُ القَارُورَةَ: إذا شَدَدْتَ رَأْسَهَا"[6].

والمعنى في الآية: هؤلاء الكفار صُمٌّ سَدُّوا أسماعهم عن الحق.

كُلُّ أبْكم أخْرس، وليس كُلُّ أخرس أبْكم

5) ﴿بُكۡمٌ﴾: مِنَ الجذرِ (بكم)، وأَصْلُ المادّة يَدُلّ على الخَرَسِ[7]،

(1) الرّاغب، المفردات: (ندا).
(2) الزّبيديّ، تاج العروس: 40/58.
(3) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (ندي).
(4) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (صمم).
(5) الرّاغب، المفردات: (صمم)
(6) السّمين، عمدة الحفّاظ: (صمم)
(7) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (بَكَمَ)

قال ﷻ: ﴿صُمٌّ بُكْمٌ﴾، جَمْعُ أَبْكَم، وهُوَ الّذي يُولَدُ أَخْرَس، فَكُلُّ أَبْكَمَ أَخْرَسُ، ولَيْسَ كُلُّ أَخْرَسَ أَبْكَمَ[1]، ويقال: "رَجُلٌ أبكَمُ، من قوم بُكم، والأُنْثَى بَكماءُ، وقَالَ قومٌ: لَا يُسَمّى أبكَمَ حَتَّى يجْتَمع فِيهِ الخَرَس والبَلَهُ، وقد قَالُوا: بَكيمٌ في معنى أَبْكَم، وجَمْعُوهُ: أَبْكَامًا، وهُوَ أَحَدُ مَا جَاءَ على فَعِيلٍ فَجُمِعَ على أَفعَالٍ، وهِي قَليلَة"[2].

الأبكمُ من لا يعي شيئًا ولا يفهمُهُ، وهُو من لا يستطيعُ كلامًا

وقال ابن الأنباري: فيه قولانِ: أَحَدُهما: أن يَكونَ الأَبْكَمُ: المَسْلوبَ الفُؤاد، الّذي لا يَعي شيئًا ولا يَفْهَمُهُ، والقولُ الآخَرُ: أن يَكونَ الأَبْكَمُ: الأَخْرس، يُقالُ: قد بَكِمَ الرَّجُلُ يَبْكَمُ بَكَماً ....، قال اللّهُ ﷻ: ﴿صُمٌّ بُكْمٌ عُمْيٌ﴾، فَسَّرَ المُفسِّرونَ البُكْمَ بالخُرْسِ، ويقال أيضًا: البُكْمُ: المَسْلوبُو الأَفْئِدَة[3]، وفي قَوْلِ الرّسولِ ﷺ: «إِذا رَأَيْتَ العُراةَ الحُفَاةَ الصُّمَّ الْبُكْمَ مُلُوكَ الأَرْضِ»[4]: المُرَادُ بِالْبُكْم هُنَا: رَعاعُ النَّاسِ وجَهَلَتُهُمْ، قَالَ اللّه تَعَالَى: ﴿صُمٌّ بُكْمٌ عُمْيٌ﴾، أَيْ لَمّا لَم يَنْتَفِعوا بِجَوارِحِهِم هَذه فِيمَا خلقهَا اللّهُ لَهُ، كَأَنَّهُمْ عَدموها، وقَالَ الطَّحّاوِيّ: صُمٌّ بُكْمٌ عَنِ الْخَيْر، وقيلَ صُمٌّ بُكْمٌ لِشُغْلِهِم بلَذّاتِهِم، ومَا تقدّمَ أَوْلى؛ لِأَنّ الحَديث لَا يدلّ أَنَّهَا صِفَتُهُمْ بَعد مُلْكِهِم، بلْ صِفَتُهُمُ اللَّازِمَةُ لَهُم[5].

والمعنى في الآية: هؤلاء الكفار بُكْم أخرسوا ألسنتهم عن النُّطق بالحقِّ.

العمى حقيقيٌّ ومجازيٌّ، والحقيقيّ أهونُ من المجازيّ

6) ﴿عُمْيٌ﴾: من الجذرِ (عمى، عمي)، وأَصلُ المادّةِ يَدُلُّ على سَتْرٍ وتَغْطِيَةٍ، والعَمَى: ذَهَابُ البَصرِ مِنَ العَيْنَيْنِ كِلْتَيْهِمَا[6]، ويُقالُ

(1) الرّاغب، المفردات: (بَكَمَ).
(2) ابن دريد، جمهرة اللّغة: (بَكَمَ).
(3) الأنباري، الزّاهر في معاني كلمات الناس: 1/277.
(4) ابن منده، الإيمان، حديث رقم: (154).
(5) عِيَاض اليحصبيّ، مشارق الأنوار على صحاح الآثار: 1/88.
(6) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (عمى).

في افْتِقادِ البَصَرِ والبَصيرَةِ، وجَمْع أَعْمَى: عُمْيٌ وعُمْيانٌ، قال تعالى: ﴿بُكۡمٌ عُمۡيٌ﴾ [البقرة: 171][1]، والفِعْلُ مِنْهُ: عَمِيَ يَعْمَى عَمًى، ورُبَّمَا قَالُوا: اعْمَايَّ يَعْمَايُّ اعْمِيّاءً، مِثْلَ ادْهَامَّ، أَخْرَجُوهُ عَلَى لَفْظِ الصَّحِيحِ.

وَرَجُلٌ عَمٍ: إِذَا كَانَ أَعْمَى القَلْبِ، وقَوْمٌ عَمُونَ، ويَقُولُونَ في هَذَا المعْنَى: مَا أَعْمَاهُ! ولَا يَقُولُونَ في عَمَى البَصَرِ: مَا أَعْمَاهُ! لأَنَّ ذَلِكَ نَعْتٌ ظَاهِرٌ يُدْرِكُه البَصَرُ، ويَقُولُونَ فِيمَا خَفِيَ مِنَ النُّعُوتِ: مَا أَفْعَلَهُ! قَالَ الخَلِيلُ: لأَنَّهُ قَبِيحٌ أَنْ تَقُولَ لِلْمُشَارِ إِلَيْهِ: مَا أَعْمَاهُ! والمُخَاطَبُ قَدْ شَارَكَكَ في مَعْرِفَةِ عَمَاهُ[2]، والعَمَى: ضِدُّ البَصَرِ، والعَمى نَوعانِ: حَقيقيٌّ ومَجازيٌّ، وهو ما عَبَّرَ عنه تَعالى بِقَولِه: ﴿فَإِنَّهَا لَا تَعۡمَى ٱلۡأَبۡصَٰرُ وَلَٰكِن تَعۡمَى ٱلۡقُلُوبُ ٱلَّتِي فِي ٱلصُّدُورِ ٤٦﴾ [الرعد: 46]، وعَمَى الأَبْصارِ أَهْوَنُ مِنْ عَمى البَصائِرِ[3]، قال حَسّانُ بن ثابتٍ الأنصاريُّ لِبَني قُرَيْظَةَ:

هُمُ أُوتُوا الْكِتَابَ فَضَيَّعُوهُ *** فَهُمْ عُمْيٌ عَنِ التَّوْرَاةِ بُورُ[4]

۞ المَعْنَى الإِجْمَاليُّ:

مَثَلُ تَقْليدِ الكافِرينَ آباءَهُم، كَالبَهائِمِ الّتي يَنعِقُ عَلَيْهَا الرَّاعي، وهي لا تعقِل شيْئًا

يُخْبِرُ اللَّهُ تعالى أَنَّ صِفَةَ الّذينَ كَفَرُوا ومَنْ يَدْعُوهُمْ إلى الهُدَى والإيمَانِ، كَصِفَةِ الرَّاعي الّذي يَصيحُ مُنَادِيًا على بَهَائِمِه، فَتَسْمَعُ صَوْتَهُ، ولَا تَفْهَمُ قَوْلَهُ؛ فَهُمْ صُمٌّ عَنْ سَمَاعِ الحَقِّ سَمَاعًا يَنْتَفِعُونَ بِهِ، بُكْمٌ قَدْ خَرِسَتْ أَلسِنَتُهُمْ عَنِ النُّطْقِ بالحَقِّ، عُمْيٌ عَنْ إِبْصارِهِ، ولِهَذا لا يَعْقِلُونَ الهُدَى الّذي تَدْعُوهُمْ إِلَيْهِ، ولَا يَرَوْنَ بَرَاهِينَهُ البَاهِرَةَ، فَهُمْ لا يُعْمِلُونَ عُقُولَهُمْ فِيمَا يَنْفَعُهُمْ[5].

التَّقْليدُ بِغَيْرِ عَقْلٍ شَأْنُ الكافِرينَ، والتَّدَبُّرُ بِوَعْيٍ دَيدَنُ المُؤْمِنينَ

وَالآيَةُ صَريحَةٌ في أَنَّ التَّقْليدَ بِغَيْرِ عَقْلٍ ولَا هِدايَةٍ، هُوَ شَأْنُ الكَافِرِينَ، وأَنَّ المرْءَ لا يكون مُؤْمِنًا إِلّا إذا عَقَلَ دِينَهُ وعَرَفَهُ بِنَفْسِه حَتَّى اقْتَنَعَ بِهِ، فَمَنْ رُبِّيَ على التَّسْليمِ بِغَيْرِ عَقْلٍ، والعَمَلِ -وَلَوْ

(1) الرّاغب، المفردات: (عمى).
(2) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (عمي).
(3) الزّمخشري، أساس البلاغة: (عمي).
(4) ديوان حسّان بن ثابت، ص: 253، ومعاني القرآن: 3/66.
(5) جماعة من العلماء، المختصر في تفسير القرآن الكريم، ص: 26، ونخبة من العلماء، التّفسير الميسّر، ص: 26.

صَالِحًا- بِغَيْرِ فِقْهِ، فَهُوَ غَيْرُ مُؤْمِنٍ، لِأَنَّهُ لَيْسَ القَصْدُ مِنَ الإِيمَانِ أَنْ يُذَلِّلَ الإِنْسَانُ لِلْخَيْرِ كَمَا يُذَلَّلُ الحَيَوَانُ، بَلِ القَصْدُ مِنْهُ أَنْ يَرْتَقِيَ عَقْلُهُ، وتَتَزَكَّى نَفْسُهُ، بِالعِلْمِ بِاللهِ والعِرْفَانِ في دِينِهِ[1].

۞ الإيضَاحُ اللُّغَوِيُّ وَالبَلَاغِيُّ:

دَلَالَةُ العَطْفِ فِي قَوْلِهِ تعالى: ﴿وَمَثَلُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ كَمَثَلِ ٱلَّذِى يَنْعِقُ بِمَا لَا يَسْمَعُ﴾:

إقامةُ الصِّفةِ باستقلالٍ دلاليٍّ

الجُمْلَةُ في قَوْلِهِ ﷻ: ﴿وَمَثَلُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾، "ابْتِدَائِيَّةٌ وارِدَةٌ لِتَقْرِيرِ مَا قَبْلَهَا بِطَرِيقِ التَّصْوِيرِ"[2]، وقد جاءت هنا معطوفةً بالواوِ ولم تُفصل "كَمَا فَصَلَ قَوْلَهُ: ﴿مَثَلُهُمْ كَمَثَلِ ٱلَّذِى ٱسْتَوْقَدَ نَارًا﴾ [البقرة: 17]؛ لِأَنَّهُ أُرِيدَ هُنَا جَعْلُ هَذِهِ صِفَةً مُسْتَقِلَّةً لَهُمْ، في تَلَقِّي دَعْوَةِ الإِسْلَامِ، ولَوْ لَمْ يَعْطِفْهُ لَمَا صَحَّ ذَلِكَ"[3].

تَمْثيلُ فَظاعَةِ حالِ ﴿ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾، إمْعانًا في البَيانِ، واسْتِحْضارًا لَهُمْ بِالمِثالِ

آثَرَ النَّظمُ أُسْلُوبَ التَّمْثِيلِ؛ لِبَيَانِ ضَلَالِ مَنْ يَتَّبِعُ آبَاءَهُ السَّابِقِينَ، ويُعْرِضُ عَنِ الدِّينِ القَوِيمِ؛ لِمَا فِيهِ مِنْ تَصْوِيرٍ لِفِعْلِهِمُ المذْمُومِ، وهُوَ إِنْ "عُطِفَ عَلَى قَوْلِهِ: ﴿لَا يَعْقِلُونَ شَيْـًٔا وَلَا يَهْتَدُونَ ١٧٠﴾، عَلَى سَبِيلِ البَيانِ، فيَكونُ المُرادُ بِالَّذِينَ كَفَرُوا إيَّاهُمْ، وضْعًا لِلْمُظْهَرِ مَوضِعَ المضْمَرِ، للإشْعارِ بغَلَبَةِ عَدمِ الاهْتِداءِ، وسَلْبِ العُقولِ، نَعْيًا عَلى المُخاطَبِ، وتَسْجيلًا عَلى ضَلالِهِمْ، وفي عَطفِ الجُملَةِ الاسْميّةِ على الفِعْليّةِ، إيذانٌ بأنّ المضارِعَ في قوله: ﴿لَا يَعْقِلُونَ شَيْـًٔا وَلَا يَهْتَدُونَ ١٧٠﴾، المُرادُ بِهِ الاسْتِمْرارُ"[4].

وضعُ الظَّاهر - الاسْمِ المَوْصولِ - موضع الضّميرِ:

إيرادُ المُشابَهَةِ؛ لِلإشْعارِ بِغَلَبَةِ عَدَمِ الاهْتِداءِ، وسَلْبِ العُقُولِ

أفادَ التَّعبيرُ بِالاسْمِ الموْصُولِ في قَوْلِهِ ﷻ: ﴿وَمَثَلُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾، إظْهَارَ الفِعْلِ المذْمُومِ وهو الكفرُ، المعبّرِ عَنْهُ في صِلَةِ

(1) محمّد رشيد رضا، تفسير القرآن الحكيم: 2/77.
(2) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 1/190.
(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 2/111.
(4) السّيوطيّ، نواهد الأبكار: 2/361.

المَوْصُولِ؛ لِذَلِكَ آثَرَهُ على التَّعبيرِ بِالضَّميرِ، فَلَمْ يَقُلْ: (وَمَثَلُهُمْ)؛ "وَضْعًا لِلْمُظْهَرِ مَوْضِعَ المضمَرِ، لِلْإِشْعَارِ بِغَلَبَةِ عَدَمِ الاهْتِدَاءِ، وسَلْبِ العُقُولِ، نَعْيًا على المخاطَبِ وتَسْجِيلًا على ضَلَالِهِمْ"[1]، "وَوَضَعَ الموْصُولَ مَوْضِعَ الضَّميرِ الرَّاجِعِ إلى مَا تَرْجِعُ إِلَيْهِ الضَّمائِرُ السَّابِقَةُ؛ لِذَمِّهِمْ بِمَا في حَيِّزِ الصِّلَةِ؛ ولِلْإِشْعَارِ بِعِلَّةِ مَا أَثْبَتَ لَهُمْ مِنَ الحُكْمِ، والتَّقْدِيرُ: مَثَلُ ذَلِكَ القَائِلِ"[2].

حَذْفُ المضَافِ لِلتَّلَطُّفِ بِخِطَابِ النَّبِيِّ ﷺ:

الإِيجَازُ بِالحَذْفِ يَتَماشَى مَعَ أَدَبِ الخِطابِ المُهَذَّبِ

في قوله ﷻ: ﴿وَمَثَلُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾، يجبُ تقديرِ مُضافٍ مَحذوفٍ، "تقديرُهُ: (ومَثَلُ داعِي الَّذينَ كَفَرُوا كَمَثَلِ الَّذِي يَنْعِقُ)"[3]، وهذا المَحذوفُ مِنَ الإيجَازِ بِالحَذْفِ؛ ولَمْ يُصَرِّحْ بِالدَّاعِي - وهُوَ الرَّسُولُ - للعلم به، وتَمَشِّيًا مَعَ الأَدَبِ الرَّفِيعِ في حُسْنِ التَّلَطُّفِ بِالخِطَابِ، والتَّهْذِيبِ الّذي يَجِبُ أَنْ يَتَّسِمَ بِهِ الشُّعَرَاءُ والكُتَّابُ[4].

دَلالَةُ التَّشْبِيهِ فِي قَوْلِهِ: ﴿وَمَثَلُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ كَمَثَلِ ٱلَّذِى يَنْعِقُ﴾:

التَّمْثِيلُ لِإِهَانَةِ المُعْرِضِينَ عَنْ دِينِ اللَّهِ تعالى واحْتِقَارِهِمْ

فَائِدَةُ التَّمْثِيلِ في قَوْلِهِ ﷻ: ﴿وَمَثَلُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ كَمَثَلِ ٱلَّذِى يَنْعِقُ بِمَا لَا يَسْمَعُ إِلَّا دُعَآءً وَنِدَآءً﴾، إِهَانَةُ المُعْرِضِينَ عَنْ دِينِ اللَّهِ تَعالى واحْتِقَارُهُمْ؛ لِأَنَّهُ مَثَّلَهُمْ بِالأَنْعَامِ في انْتِفَاءِ قُدْرَتِهَا على فَهْمِ المنْطُوقِ، ومَآلُهُ بَيَانُ قِلَّةِ العَقْلِ والفَهْمِ، وذكرُوا أنّهُ تَشْبِيهٌ مُرْسَلٌ ومُجْمَلٌ؛ مُرْسَلٌ لِذِكْرِ الأداةِ، ومُجْمَلٌ لِحَذْفِ وجْهِ الشَّبَهِ، "لَكَ أَنْ تَجْعَلَ هَذا التَّشْبِيهَ مِنَ المُركَّبِ، وأَنْ تَجْعَلَهُ مِنَ التّشبيهِ المُفَرَّقِ، فإنْ جَعَلْتَهُ مِنَ المُرَكَّبِ، كانَ تَشْبِيهًا لِلْكُفّارِ في عَدَمِ فِقْهِهِمْ وانتِفاعِهِمْ بِالغَنَمِ الّتِي يَنْعِقُ بِها الرّاعِي، فلا تَفْقَهُ مِنْ قَوْلِهِ شَيْئًا، غَيرَ الصَّوتِ المُجَرّدِ الّذي هُوَ الدُّعاءُ والنِّداءُ، وإن جَعَلْتَهُ مِنَ التَّشبيهِ المُفَرَّقِ،

---

(1) السّيوطيّ، نواهد الأبكار: 2/361.
(2) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 1/190.
(3) الزّمخشريّ، الكشّاف: 1/214.
(4) درويش، إعراب القرآن وبيانه: 1/240.

فالّذين كَفروا بِمَنْزِلَةِ البَهائِم، ودُعاءُ داعِيهِمْ إلى الطَّريقِ والهُدى، بَمَنْزِلَةِ الّذي يَنْعِقُ بها، ودُعاؤُهُمْ إلى الهُدى بِمَنْزِلَةِ النَّعْقِ، وإدراكُهُمْ مُجَرّدَ الدّعاءِ والنِّداءِ، كإدْراكِ البَهائِمِ مُجَرّدَ صَوْتِ النّاعِقِ"[1].

الأوْجهُ الأَرْبَعَةُ لِاخْتِلافِ المُفَسِّرينَ في قَوله: ﴿وَمَثَلُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ كَمَثَلِ ٱلَّذِى يَنْعِقُ﴾:

وتَفصيلُ ما سَلَفَ، أَنَّهُمْ اخْتَلَفوا في هَذِهِ الآيَةِ اخْتِلَافًا كَثيرًا، واضْطَرَبُوا فيها اضْطِرَابًا شَديدًا، ولَا سَبيلَ إلى مَعْرِفَةِ الإعْرَابِ، إلّا بَعْدَ مَعْرِفَةِ المعْنَى، وقَدِ اخْتَلَفُوا في ذَلِكَ، فَمِنْهُمْ مَنْ قال: مَعْنَاهَا أَنَّ المثَلَ مَضْرُوبٌ بِتَشْبِيهِ الكَافِرِ بِالنَّاعِقِ، ومِنْهُمْ مَنْ قال: هُوَ مَضْرُوبٌ بِتَشْبِيهِ الكَافِرِ بِالمَنْعُوقِ بِهِ، ومِنْهُمْ مَنْ قال: هُوَ مَضْرُوبٌ بِتَشْبِيهِ الدَّاعِي والكَافِرِ بِالنَّاعِقِ والمَنْعُوقِ بِهِ[2]، وخُلَاصَةُ ذَلِكَ أَنَّهُمْ ذَكَرُوا في بَيَانِ مَعْنَى التَّشْبِيهِ أَرْبَعَةَ وُجُوهٍ:

الوَجْهُ الأَوَّلُ: تَشْبِيهُ الكَافِرِ بِالمَنْعُوقِ بِهِ:

انْهِمَاكُ الكَفَرَةِ في التَّقْلِيدِ جَعَلَهُمْ كَالبَهَائِمِ؛ تَسْمَعُ الصَّوْتَ ولَا تَفْهَمُ مَعْنَاهُ

قال الفرّاءُ: "أَضَافَ المثَلَ إلى الّذينَ كَفَرُوا، ثُمَّ شَبَّهَهُمْ بِالرَّاعِي، ولَمْ يَقُلْ: كَالغَنَم، والمعْنَى -واللَّهُ أَعْلَمُ-: مَثَلُ الّذين كَفَرُوا كَمَثَلِ البَهَائِمِ التي لا تَفْقَهُ مَا يَقُولُ الرَّاعِي أَكْثَرَ مِنَ الصَّوْتِ، فَلَو قال لَهَا: ارْعَيْ أَوِ اشْرَبي، لمْ تَدْرِ مَا يَقُولُ لَهَا، فَكَذَلكَ مَثَلُ الّذينَ كَفَرُوا فِيمَا يَأْتِيهِمْ مِنَ القُرْآنِ، وإِنْذارِ الرَّسُولِ، فَأُضِيفَ التَّشْبِيهُ إلى الرَّاعِي، والمعْنَى -واللَّهُ أَعْلَمُ- في المرْعِيِّ، وهُوَ ظَاهِرٌ في كَلَامِ العَرَبِ أَنْ يَقُولُوا: فُلَانٌ يَخَافُكَ كَخَوْفِ الأَسَدِ، والمعْنَى: كَخَوْفِهِ الأَسَدَ؛ لِأَنَّ الأَسَدَ هُوَ المَعْرُوفُ بِأَنَّهُ المَخُوفُ"[3].

فَهُوَ تَشْبِيهٌ مُرْسَلٌ ومُجْمَلٌ[4]؛ "شَبَّهَ الكُفَّارَ بِالبَهَائِمِ الّتِي تَسْمَعُ صَوْتَ المُنَادِي دُونَ أَنْ تَفْقَهَ كَلَامَهُ وتَعْرِفَ مُرَادَهُ"[5]، وقال الوَاحِديُّ: "مَعْنَى الآيَةِ: ومَثَلُ الّذينَ كَفَرُوا في قِلَّةِ عَقْلِهِمْ وفَهْمِهِمْ عَنِ اللَّهِ ﷻ،

(1) محمّد علي الدّرة، تفسير القرآن الكريم وإعرابه وبيانه: 1/390 -391.
(2) السّمين، الدُّرُّ المَصونُ: 2/229.
(3) الفرّاء، معاني القرآن: 1/99- 100.
(4) التَّشْبِيهُ المرْسَلُ: هُوَ التَّشْبِيهُ الذي ذُكِرَتْ فِيهِ أَدَاةٌ مِنْ أَدَوَاتِ التَّشْبِيهِ، والتَّشْبِيهُ المُجْمَلُ: هُوَ التَّشْبِيهُ الذي لَمْ يُذْكَرْ فِيهِ وجهُ الشَّبَهِ، ينظر: عبد الرحمن حسن، البلاغة العربيّة: 2/173.
(5) محمد علي جميل، صفوة التّفاسير: 1/103.

وعَنْ رَسُولِه، كَمَثَلِ المنْعُوقِ بِهِ مِنَ البَهَائِمِ الّتي لا تَفْقَهُ مِنَ الأَمْرِ والنَّهْيِ غَيْرَ الصَّوْتِ، فَيكونُ المَعْنَى لِلْمَنْعُوقِ بِهِ، والكَلَامُ خَارِجٌ على النَّاعِقِ، وهُوَ جَائِزٌ عِنْدَ العَرَبِ، يَقْلِبُونَ الكَلَامَ لاتِّضاحِ المعْنَى عِنْدَهُمْ، فَيَقُولُونَ: اعْرِضِ الحَوْضَ على النَّاقَةِ، وإنّمَا هُوَ: اعْرِضِ النَّاقَةَ على الحَوْضِ، وعلى هَذا حُمِلَ قَوْلُهُ تَعالى: ﴿مَآ إِنَّ مَفَاتِحَهُۥ لَتَنُوٓأُ بِٱلْعُصْبَةِ﴾ [القصص: 76]، المَعْنى: أنَّ العُصْبَةَ تَنُوءُ بِالمَفَاتِحِ"(1).

اعتراضُ ابنِ قتيبة على قولِ الفرّاء

وَاعْتَرَضَ ابْنُ قُتَيْبَةَ على هَذا القَوْلِ بِأَنْ قال: "وكان بَعْضُ أَصْحَابِ اللُّغَةِ يَذْهَبُ في قَوْلِ اللَّهِ تعالى: ﴿وَمَثَلُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ كَمَثَلِ ٱلَّذِى يَنْعِقُ بِمَا لَا يَسْمَعُ إِلَّا دُعَآءً وَنِدَآءً﴾ إلى مِثْلِ هَذا في القَلْبِ، ويَقُولُ: وقَعَ التَّشْبِيهُ بِالرَّاعِي في ظَاهِرِ الكَلَامِ، والمَعْنَى لِلْمَنْعُوقِ بِهِ وهُوَ الغَنَمُ، وكَذَلِكَ قَوْلُهُ سُبْحَانَهُ: ﴿مَآ إِنَّ مَفَاتِحَهُۥ لَتَنُوٓأُ بِٱلْعُصْبَةِ أُو۟لِى ٱلْقُوَّةِ﴾ [القصص: 76] أَيْ: تَنْهَضُ بها وهِيَ مُثْقَلَةٌ"(2)، ثُمَّ قال: "وَهَذا مَا لا يَجُوزُ لِأَحَدٍ أَنْ يَحْكُمَ بِهِ على كِتَابِ اللَّهِ ﷻ لَوْ لَمْ يَجِدْ لَهُ مَذْهَبًا؛ لِأَنَّ الشُّعَرَاءَ تَقْلِبُ اللَّفْظَ، وتُزِيلُ الكَلَامَ على الغَلَطِ، أَوْ على طَرِيقِ الضَّرُورَةِ لِلْقَافِيَةِ، أَوْ لِاسْتِقَامَةِ وزْنِ البَيْتِ"(3)، "وَاللَّه تعالى لا يَغْلَطُ ولَا يُضْطَرُّ، وإنّمَا أَرَادَ: ومَثَلُ الّذينَ كَفَرُوا ومَثَلُنَا في وعْظِهِمْ، كَمَثَلِ النَّاعِقِ بِمَا لا يَسْمَعُ، فَاقْتَصَرَ على قَوْلِهِ: ﴿وَمَثَلُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟﴾، وحَذَفَ (ومَثَلُنا)؛ لِأَنَّ الكَلَامَ يَدُلُّ عَلَيْهِ، ومِثْلُ هَذا كَثِيرٌ في الاخْتِصَارِ"(4).

انتصارُ الواحديِّ لقولِ الفرّاء

وَصَحَّحَ الوَاحِدِيُّ قَوْلَ الفَرّاءِ، ورَدّ على إِنْكَارِ ابْنِ قُتَيْبَةَ قائلًا: "وَقَوْلُ الفَرّاءِ صَحِيحٌ وإِنْ أَنْكَرَهُ ابْنُ قُتَيْبَةَ، مُوَافِقٌ لِمَذاهِبِ العَرَبِ في فُنُونِ مُخَاطَبَاتِها؛ فَإِنَّهُمْ يَفْعَلُونَ الشَّيْءَ لِلضَّرُورَةِ، ثُمَّ يَصِيرُ وجْهًا

(1) الواحدي، التَّفْسِير البَسِيط: 3/491- 492.
(2) ابن قتيبة، تأويل مشكل القرآن، ص: 126.
(3) ابن قتيبة، تأويل مشكل القرآن، ص: 126.
(4) ابن قتيبة، تأويل مشكل القرآن: 3/129.

ومَذْهَبًا لَهُمْ في الكَلَام، حَتَّى يُجيزُوهُ وإِنْ لَمْ تَدْعُ إِلَيْهِ ضَرُورَةٌ، وعلى هَذا الطَّرِيقِ أَرَادَ ﴿بِمَا لَا يَسۡمَعُ إِلَّا دُعَآءٗ وَنِدَآءٗۚ﴾: البَهَائِمَ الّتِي لا تَعْقِلُ ولَا تفْهَمُ مَا يَقُولُ الرَّاعِي، إنّما تَسْمَعُ صَوْتًا ولَا تَدْرِي مَا تَحْتَهُ، لَوْ قال لَهَا: كُلِي واشْرَبِي لَم تَقِفْ على مَعْنَى قَوْلِه، فَالّذينَ كَفَرُوا يَسْمَعُونَ كَلَامَ النَّبِيِّ ﷺ، وهُمْ كَالغنَمِ؛ إِذْ كَانُوا لا يَسْتَعْمِلُونَ مَا يَأْمُرُهُمْ بِهِ، ولَا يَنْتَهُونَ عَمَّا نَهَاهُمْ عَنْهُ"[1]، "وَالمَعْنَى أَنَّ الكَفَرَةَ لانْهِمَاكِهِمْ في التَّقْلِيدِ لا يُلْقُونَ أَذْهَانَهُمْ إلى مَا يُتْلَى عَلَيْهِمْ، ولَا يَتَأَمَّلُونَ فِيمَا يُقَرَّرُ مَعَهُمْ، فَهُم في ذَلِكَ كَالبَهَائِمِ التي يُنْعَقُ عَلَيْهَا فَتَسْمَعُ الصَّوْتَ، ولَا تَعْرِفُ مَغْزَاهُ، وتُحِسُّ بِالنِّدَاءِ ولَا تَفْهَمُ مَعْنَاهُ"[2].

الوَجْهُ الثَّاني: تَشْبِيهُ دَاعِي الكَفَرَةِ بِرَاعِي الغَنَمِ:

الدَّاعِي كَالرَّاعِي يَدْعُو البَهَائِمَ، ولَا تَفْقَهُ مِنْ صَوْتِهِ إِلّا الصَّوْتَ

قال الفَرّاءُ: "وَفِيهَا مَعْنًى آخَرُ: تُضِيفُ المثَلَ إلى ﴿ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾، وإِضَافَتُهُ في المعْنَى إلى الوَعْظِ، كَقَوْلِكَ: مَثَلُ وعْظِ الّذينَ كَفَرُوا ووَاعِظِهِمْ كَمَثَلِ النَّاعِقِ"[3]، فَيَكونُ مِنْ قبيلِ التَّشْبِيهِ المَفْرُوقِ[4]، حَيثُ "شَبَّهَ دَاعِيَ الكَافِرِ بِالنَّاعِقِ، ونَفْسَ الكَفَرَةِ بِالبَهَائِمِ المنْعُوقِ بها، ودُعَاءَ دَاعِي الكَفرَةِ بِنَعِيقِ النَّاعِقِ بالبَهَائِم، والمعْنَى: مَثَلُكَ يَا مُحَمَّدُ، ومَثَلُ الّذينَ كَفَرُوا، في وعْظِهِمْ ودُعَائِهِمْ إلى اللَّهِ وعَدَمِ اهْتِدَائِهِمْ، كَمَثَلِ الرَّاعِي الّذي يَصِيحُ بِالغَنَمِ ويُكَلِّمُهَا ويَقُولُ: كُلِي واشْرَبِي وارْعَيْ، وهِيَ لا تَفْهَمُ"[5].

فَنُّ الاحتبَاكِ في التَّشْبِيهِ التَّمثيلِيِّ

وقال السَّمينُ الحلبيُّ مُرَجِّحًا هذا الوَجْهَ: "فَمَعْنَى الآيَةِ: أَنَّ مَثَلَ دَاعِي الكَفَرَةِ، كَمَثَلِ الرَّاعِي النَّاعِقِ بِالغَنَمِ، والغَنَمِ المنْعُوقِ بها، في

---

(1) الواحدي، التَّفْسِير البَسِيط: 33/493.

(2) البيضاوي، أنوار التّنزيل: 31/119.

(3) الفرّاء، معاني القرآن: 31/100.

(4) التَّشْبيهُ المفْرُوقُ: مَا يَتَعَدَّدُ طَرَفَاهُ، ويُجْمَعُ كُلُّ طَرَفٍ مَعَ صَاحِبِهِ، بِأَنْ يُجْمَعَ كُلُّ مُشَبَّهٍ مَعَ مُشَبَّهٍ بِهِ، ينظر: حسن إسماعيل، البلاغَة الصَّافِيَة في المعاني والبيان والبديع، ص: 295، وهُوَ مِنْ أَقْسَامِ التَّشْبِيهِ بِاعْتِبَارِ تَعَدُّدِ الطَّرَفَيْنِ أَوْ أَحَدِهِمَا، وهُوَ: مَا أُتِيَ فيهِ بِمُشَبَّهٍ ومُشَبَّهٍ بِهِ ثُمَّ بِمُشَبَّهٍ ومُشَبَّهٍ بِهِ، وهَكَذَا، يُنْظَرُ: عصام الدّين الحنفيّ، الأَطول شَرْح تَلخيصِ مِفْتاحِ العُلومِ: 31/80.

(5) البروسويّ، روح البيان: 1/274.

أَنَّهُ لَمْ يَحْصُلْ لِلْكَفَرَةِ مِنَ الدُّعَاءِ الهَدْيُ الأَمْثَلُ مَا يَحْصُلُ لِلْغَنَمِ مِنْ صَوْتِ النَّاعِقِ بها، وهُوَ سَمَاعُ الصَّوْتِ مِنْ غَيْرِ فَهْمٍ لِمَعْنَاهُ؛ ولِذَلِكَ قال: ﴿إِلَّا دُعَآءً وَنِدَآءً﴾ [البقرة: 171]، فَذَكَرَ في أَوَّلِ الآيَةِ المَدْعُوَّ، وحَذَفَ الدَّاعِيَ، وفي آخِرِهَا ذَكَرَ الدَّاعِيَ وحَذَفَ المدْعُوَّ، فَحَذَفَ مِنَ الأَوَّلِ لِدَلَالَةِ الثَّاني عَلَيْه، ومِنَ الثَّاني لِدَلَالَةِ الأَوَّلِ عَلَيْه، وفي الآيَةِ أَقْوَالٌ هَذا أَبْيَنُهَا"[1].

وَقال الوَاحِدِيُّ مُبَيِّنًا قَوْلَ الفرَّاءِ: "تَقْدِيرُ الآيَةِ: ومَثَلُكَ يَا مُحَمَّدُ، ومَثَلُ الَّذينَ كَفَرُوا في وعْظِهِمْ ودُعَائِهِمْ إلى اللَّهِ ﷻ؛ فَحَذَفَ أَحَدَ المثَلَيْنِ اكْتِفَاءً بالثَّاني، كَقَوْلِه: ﴿سَرَٰبِيلَ تَقِيكُمُ ٱلْحَرَّ﴾ [النّحل: 81]، وعلى هَذا التَّقْدِيرِ: شَبَّهَ الكُفَّارَ بِالبَهَائِمِ، وشَبَّهَ دَاعِيَهُمْ بِالَّذي يَصِيحُ بها وهِيَ لا تَعْقِلُ شَيْئًا"[2].

الوَجْهُ الثَّالِثُ: إِجْرَاؤُهُ على ظَاهِرِه:

الجاحِدونَ لا يَفْقَهونَ، مِثْلَ البَهائِمِ التِّي لا تَفْهَمُ

ومن المفسِّرين من يَجْعَلُ الآيَةَ بِلَا إِضْمَارٍ، قال الوَاحِدِيُّ: "مَعْنَاهَا: ومَثَلُ الكُفَّارِ في قِلَّةِ فَهْمِهِمْ وعَقْلِهِمْ، كَمَثَلِ الرُّعَاةِ يُكَلِّمُونَ البُهْمَ، والبُهْمُ لا تَعْقِلُ عَنْهُمْ، وعلى هَذا التَّفْسِيرِ لا تَحْتَاجُ الآيَةُ إلى إِضْمَارٍ"[3]، وقد فصّل فيه الرّازيّ فقالَ: "إِجْرَاؤُهَا على ظَاهِرِهَا مِنْ غَيْرِ إِضْمَارٍ، وفِيهِ وجْهَانِ؛ أَحَدُهُمَا: أَنْ يَقُولَ: مَثَلُ الّذينَ كَفَرُوا في قِلَّةِ عَقْلِهِمْ في عِبَادَتِهِمْ لِهَذِهِ الأَوْثَانِ، كَمَثَلِ الرَّاعِي إذا تَكَلَّمَ مَعَ البَهَائِمِ، فَكَمَا أَنَّهُ يُقْضَى على ذَلِكَ الرَّاعِي بِقِلَّةِ العقْلِ، فكَذا هاهُنا، الثَّاني: مَثَلُ الّذينَ كَفَرُوا في اتِّبَاعِهِمْ آبَاءَهُمْ وتَقْلِيدِهِمْ لَهُمْ، كَمَثَلِ الرَّاعِي إذا تَكَلَّمَ مَعَ البَهَائِمِ، فَكَمَا أَنَّ الكَلَامَ مَعَ البَهَائِمِ عَبَثٌ عَدِيمُ الفَائِدَةِ، فَكَذا التَّقْلِيدُ عَبَثٌ عَدِيمُ الفَائِدَةِ"[4].

وَمِنْهُ أَنْ يُجْعَلَ تَشْبِيهًا بِعِبَادَةِ الأَصْنَامِ: "فَتَضَمَّنَ هَذا المثَلُ نَاعِقًا، أَيْ مُصَوِّتًا بِالغَنَمِ وغَيْرِهَا، ومَنْعُوقًا بِهِ، وهُوَ الدَّوَابُّ، فَقِيلَ:

(1) السّمين، عمدة الحفاظ: 4/196، والدُّرُّ المصون: 2/229.
(2) الواحدي، البسيط: 3/491- 492.
(3) الواحديّ، البسيط: 3/493.
(4) الرّازيّ، مفاتيح الغيب: 5/190.

النَّاعِقُ: العَابِدُ، وهُوَ الدَّاعِي لِلصَّنَم، والصَّنَمُ هُوَ المنْعُوق بِهِ المدْعُوُّ، وإنَّ حَالَ الكَافِرِ في دُعَائِهِ كَحَالِ مَنْ يَنْعِقُ بِمَا لا يَسْمَعُهُ"[1].

وَضعَّفَ البَيْضَاوِيُّ هَذا الوَجْهَ؛ لِأَنَّهُ أَثْبَتَ لَهُمْ سَمَاعًا بِالاسْتِثْنَاءِ، ﴿إِلَّا دُعَآءً وَنِدَآءً﴾: "لأنَّ الأصْنامَ لا تَسْمَعُ، إلّا أَنْ يُجعَلَ ذلِكَ مِنْ باب التَّمثيلِ المُركَّب"[2]، "وَقِيلَ: تَمْثِيلُهُمْ في دُعَائِهِمُ الأَصْنَامَ بِالنَّاعِقِ في نَعْقِهِ، وهُوَ تَصْوِيتُهُ على البَهَائِم، وهَذا غَنِيٌّ عَنْ الإِضْمَارِ، لَكِنْ لا يُسَاعِدُهُ قَوْلُهُ: ﴿إِلَّا دُعَآءً وَنِدَآءً﴾؛ فَإِنَّ الأَصْنَامَ بِمَعْزِلٍ مِنْ ذَلِكَ"[3].

الوَجْهُ الرَّابِعُ: أَنَّهُ تَشْبِيهٌ مُرَكَّبٌ:

الكُفَّارُ في عَدَمِ الانْتِفَاعِ، كَالغَنَمِ الَّتِي لَا تَفْقَهُ غَيْرَ الصَّوْتِ المُجَرَّدِ

فَإِنْ جَعَلْتَ التَّمثِيلَ مِنَ المُرَكَّبِ كان تَشْبِيهًا لِلْكُفَّارِ في عَدَم فِقْهِهِمْ وانْتِفَاعِهِمْ، بِالغَنَم التي يَنْعِقُ بها الرَّاعِي فَلَا تَفْقَهُ مِنْ قَوْلِهِ شَيْئًا غَيْرَ الصَّوْتِ المُجَرَّدِ الّذي هُوَ الدُّعَاءُ والنِّدَاءُ"[4]، "وَمَثَّلَهُمْ في دُعَائِهِمُ الأَصْنَامَ فِيمَا لا جَدْوَى فِيهِ، كَمَثَلِ النَّاعِقِ بِمَا لا يَسْمَعُ، إلّا دُعَاءً ونِدَاءً"[5].

بيانُ حَذْفِ المُضافِ في: ﴿كَمَثَلِ ٱلَّذِى يَنْعِقُ بِمَا لَا يَسْمَعُ﴾:

مَثَلُ الكافِرينَ كَالبَهَائِمَ الَّتي يُنْعَقُ بِها، فلا تَسمَعُ إلّا جَرَسًا ودَوِيًّا

إذا كانَ المشَبَّهُ بِهِ هُوَ البَهَائِمَ، فَالتَّقْدِيرُ: كَمَثَلِ بَهَائِم الّذي يَنْعِقُ بها، و"إنّما حُذِفَ المضَافُ مِنَ الموْصُولِ الثَّاني لِدَلَالَةِ كَلِمَةِ (مَا) عَلَيْهِ؛ فَإِنَّهَا عِبارَةٌ عَنْهُ، مُشْعِرَةٌ -مَعَ مَا في حَيِّزِ الصِّلَةِ- بِمَا هُوَ مَدَارُ التَّمْثِيلِ، أَيْ مَثَلُ الّذينَ كَفَرُوا فِيمَا ذُكِرَ مِنَ انْهِمَاكِهِمْ فِيمَا هُمْ فِيهِ، وعَدَمِ التَّدَبُّرِ فِيمَا أُلقِيَ إِلَيْهِمْ مِنَ الآيَاتِ، كَمَثَلِ بَهَائِمِ الّذي يَنْعِقُ بها، وهِيَ لا تَسْمَعُ مِنْهُ إلّا جَرَسَ النَّغْمَةِ، ودَوِيَّ الصَّوْتِ"[6]، فلا بُدَّ مِنْ مُضافٍ مَحْذوفٍ، تَقديرُهُ: (ومَثَلُ الّذِينَ كَفَرُوا كبَهَائِمِ الَّذي يَنْعِقُ)"[7].

(1) ابن القيّم، أمثال القرآن: 2/45.
(2) البيضاويّ، أنوار التّنزيل: 1/119.
(3) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 1/190.
(4) ابن القيّم، أمثال القرآن: 2/46.
(5) السّيوطيّ، نواهد الأبكار: 2/361.
(6) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 1/190.
(7) الزّمخشريّ، الكشّاف: 1/214.

تَوَهُّمُ زِيَادَةِ (إِلَّا)، بِاعْتِبارِ الخلطِ بين المنفيَّات:

فَـرْقٌ بـينَ نَفْيِ السَّماعِ، ونَفْيِ فَهْمِ المَسْموعِ

الاستثناءُ في قَوْلِه ﷻ: ﴿كَمَثَلِ ٱلَّذِى يَنْعِقُ بِمَا لَا يَسْمَعُ إِلَّا دُعَآءً وَنِدَآءً﴾، "مُفَرَّغٌ؛ لِأَنَّ قَبْلَهُ فِعْلٌ مَبْنِيٌّ مُتَعَدٍّ لَمْ يَأْخُذْ مَفْعُولَهُ، وذَهَبَ بَعْضُهُمْ إلى أَنَّهُ لَيسَ اسْتِثْنَاءً مُفَرَّغًا، وأنّ ﴿إِلَّا﴾ زَائِدَةٌ، والدُّعَاءُ والنِّدَاءُ مَنْفيٌّ سَمَاعُهُمَا، والتَّقْدِيرُ: بِمَا لا يَسْمَعُ دُعَاءً ولَا نِدَاءً، وهَذا ضَعِيفٌ؛ لِأَنَّ القَوْلَ بِزِيَادَةِ (إِلَّا) قَوْلٌ بِلَا دَلِيلٍ"[1].

وجعل ابْنُ عَرَفَةَ سببَ القولِ بزيادةِ ﴿إِلَّا﴾ تَوَهُّمَ التَّنَاقُضِ؛ لِأَنَّ قولَه: ﴿لَا يَسْمَعُ إِلَّا دُعَآءً وَنِدَآءً﴾، يَلْزَمُ عنه أَنْ يكونَ الدُّعَاءُ والنِّدَاءُ مَسْمُوعَيْنِ لَهُ، وقَوْلُهُ: ﴿صُمٌّۢ بُكْمٌ عُمْىٌ﴾ يَدُلّ على أَنَّهُ لا يَسْمَعُ شَيْئًا بِوَجْهٍ من الوجوه[2]، فَادِّعَاء الزِّيَادَةِ سَبَبُهُ الوَهْمُ في فَهْمِ الآيَةِ؛ فَالآيَةُ لا تتناولُ نَفْيَ السَّمْعِ، ولَكِنْ نَفْيَ فَهْمِ المَسْمُوعِ.

حالُ مَنْ لا يَنْتَفِعُ بِحَاسَّتِهِ، كَحَالِ فَاقِدِهَا:

في السِّيَاقِ إيجَازٌ مُـفـادُهُ عَـدَمُ إِدْراكِ المَعاني والأَغْرَاضِ

"فَإِنْ قِيلَ: قَوْلُهُ ﴿لَا يَسْمَعُ إِلَّا دُعَآءً وَنِدَآءً﴾، لَيْسَ المَسْمُوعُ إلّا الدُّعَاءَ والنِّدَاءَ، فَكَيْفَ ذَمَّهُمْ بِأَنَّهُمْ لا يَسْمَعُونَ إلّا الدُّعَاءَ؟ وكَأَنَّهُ قِيلَ: لا يَسْمَعُونَ إلّا المَسْمُوعَ، وهَذا لا يَجُوزُ؛ فَالجَوَابُ: أَنَّ في الكلامِ إيجازًا، وإنّمَا المعْنَى: لا يَفْهَمُونَ مَعَانِيَ مَا يُقَالُ لَهُمْ، كَمَا لا تُمَيِّزُ البَهَائِمُ بَيْنَ مَعَانِي الألفاظِ الَّتِي لا تُصَوِّتُ بها، وإنّمَا تَفْهَمُ شَيْئًا يَسِيرًا، وقَدْ أَدْرَكَتْهُ بِطُولِ المَمَارَسَةِ وكَثْرَةِ المعَاوَدَةِ، فَكَأَنَّهُ قِيلَ: لَيْسَ لَهُمْ إلّا سَمَاعُ النِّدَاءِ دُونَ إِدْرَاكِ المعَانِي والأَغْرَاضِ"[3].

قال الرّازيّ: "قَوْلُهُ تعالى: ﴿صُمٌّۢ بُكْمٌ عُمْىٌ﴾، فَاعْلَمْ أَنَّهُ تعالى لَمَّا شَبَّهَهُمْ بِالبَهَائِمِ، زَادَ في تَبْكِيتِهِمْ، فَقَال: ﴿صُمٌّۢ بُكْمٌ عُمْىٌ﴾؛ لِأَنَّهُمْ صَارُوا بِمَنْزِلَةِ الصُّمِّ في أَنَّ الذي سَمِعُوهُ كَأَنَّهُمْ لَمْ يَسْمَعُوهُ"[4].

(1) أبو حيّان، البحر المحيط: 2/108.
(2) تفسير ابن عرفة: 2/504- 505.
(3) أبو حيّان، البحر المحيط: 2/108.
(4) الرّازيّ، مفاتيح الغيب: 5/190.

سِرُّ الجَمْعِ بَيْنَ الدُّعَاءِ والنِّدَاءِ في قوله: ﴿إِلَّا دُعَآءً وَنِدَآءً﴾:

تَقْرِيرُ عَدَمِ انْتِفَاعِ الكَافِرِ بِشيءٍ من وُجُوهِ الخِطَابِ والدَّعْوَةِ

جُمِعَ بَيْنَ الدُّعَاءِ والنِّدَاءِ، في قوله ﷻ: ﴿إِلَّا دُعَآءً وَنِدَآءً﴾؛ "لأَنَّ الدُّعَاءَ طَلَبُ الفِعْلِ، والنِّدَاءَ إِجَابَةُ الصَّوْتِ"[1]، قال ابْنُ عَرَفَة: "وَعَادَتُهُمْ يُفَرِّقُون بَيْنَ الدُّعَاءِ والنِّدَاءِ، بأَنَّ الدُّعَاءَ يكونُ بلَفْظِ الطَّلَب، وسَوَاءٌ كانَ مَعَهُ نِدَاءٌ أَوْ لَمْ يُكنْ، والدُّعَاءُ أَخَفُّ مِنَ النِّدَاءِ؛ لأَنَّ البَهَائِمَ تُنَادِيها فَلَا تُجِيبُ، فَإذا دَعَوْتَهَا وزَجَرْتَهَا أَتَتْ، فَالنِّدَاءُ لِلْخَوَاصِّ، والدُّعَاءُ لِلْعَوامِّ، فَمَنْ لَمْ يَسْتَجِبْ لِلنِّدَاءِ قَدْ يَسْتَجِيبُ للدُّعَاءِ، ومَنْ لَمْ يَنْفَعْ فِيهِ الدُّعَاءُ فَهُوَ في غَايَةِ الجَهْلِ والغَبَاوَةِ"[2]، ومَآلُهُ التَّمْثِيلُ على عَدَمِ انْتِفَاعِ الكَافِرِ بشيءٍ من وُجُوهِ الخِطَابِ والدَّعْوَةِ.

مَجْمُوعُ المُتَرادِفَينِ، يَحْصُلُ به مَعْنًى لَا يُوجَدُ عِنْدَ انْفِرادِهِما

جاء في (الكُلّيّات)، أنّ التّرادُفَ هُوَ: "الاتِّحَادُ في المَفْهُوم، لَا الاتِّحَادُ في الذَّات، كالإِنْسانِ والبَشَرِ، وحقُّ المُترادِفَيْنِ صحّةُ حُلُولِ كُلٍّ مِنْهُمَا مَحلَّ الآخَرِ؛ هَذَا مُخْتَارُ ابْنِ الْحَاجِبِ في (أُصُولِه)، وهُوَ أَنَّهُ يَجبُ ذَلِك مُطلقًا، ومختارُ الْبَيْضَاوِيّ: إِن كَانَا من لُغَةٍ واحِدَةٍ، ومُخْتَارُ الإِمَام: أَنّه غيرُ واجِبٍ.

والمَترادِفانِ يُفيدانِ فَائِدَةً واحِدَةً مِنْ غَيرِ تَفاوُتٍ، والتَّابعُ لَا يُفيدُ وحدَهُ شَيْئًا، بَل بِشَرْطِ كَونِه مُقَيَّدًا بِتَقدُّمِ الأَوّلِ عَلَيْهِ، قَالَه فَخرُ الدّين.

والمترادفانِ مِثلُ: ﴿بَثِّي وَحُزْنِيٓ﴾ [يوسف: 86]، ﴿سِرَّهُمۡ وَنَجۡوَىٰهُمۡ﴾ [التوبة: 78]، ﴿شِرۡعَةٗ وَمِنۡهَاجٗاۚ﴾ [المائدة: 48]، ﴿لَا تُبۡقِي وَلَا تَذَرُ ٢٨﴾ [المدثر: 28]، ﴿إِلَّا دُعَآءٗ وَنِدَآءٗۚ﴾ [البقرة: 171]، ﴿أَطَعۡنَا سَادَتَنَا وَكُبَرَآءَنَا﴾ [الأحزاب: 67]، ﴿صَلَوَٰتٞ مِّن رَّبِّهِمۡ وَرَحۡمَةٞۖ﴾ [البقرة: 157]، ﴿عُذۡرًا أَوۡ نُذۡرًا ٦﴾ [المرسلات: 6].

والمَخْلَصُ في هَذا أَنْ يَعْتَقِدَ أَنَّ مَجْمُوعَ المُترادِفَيْنِ يُحَصِّلُ

(1) أبو حيّان، البحر المحيط: 2/108.
(2) ابن عرفة، تفسير ابن عرفة: 2/504.

مَعنًى لَا يُوجَدُ عِنْد انفرادِهما؛ فَإِنّ التَّرْكِيبَ يُحدِثُ مَعنًى زَائِدًا، وإذا كَانَتْ كَثْرَةُ الْحُرُوفِ تُفِيدُ زِيَادَةَ المَعْنى فَكَذَلك كَثْرَةُ الْأَلْفَاظِ"[1].

دَلالَةُ الاحْتِباكِ في قَوْلِهِ: ﴿وَمَثَلُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ كَمَثَلِ ٱلَّذِى يَنْعِقُ﴾:

حَـذْفُ ما يُثْبَتُ نَظيرُهُ في الكَلامِ، مِن بَديعِ كَلامِ العَرَبِ

والأرجَحُ في الآيَةِ أنّها مِنَ الاحْتِباكِ[2]، وهُوَ حَذْفُ جُزْءٍ من كُلِّ طَرَفٍ أُثْبِتَ نَظيرُه في الآخَرِ، والتَّقْديرُ: (ومَثَلُ الذينَ كَفَروا مَعَكَ يا مُحَمَّدُ، كَمَثَلِ النّاعِقِ مع الغَنَم)، وهَذا هُو الّذي اخْتارَهُ الكِرْمانيُّ شَيْخُ الزَّمخشَريّ، وقال: إنَّه أبْلَغُ ما يَكونُ مِنَ الكَلامِ، وقَدْ نَصّ عَليه سِيبوَيْه، وقَرَّرَهُ ابنُ طاهِرٍ والشَّلَوْبينُ، وابنُ خَروفٍ، وقالوا: إنَّهُ من بَديعِ كَلامِ العَرَبِ[3].

وقال الرُّعينيُّ الغرناطيُّ في شرحِ البديعيّة في عِلمِ البلاغَة والمَعاني: "ومِن أنْواعِ البَديعِ الاحْتِباكُ، وهُوَ نَوْعٌ عَزيزٌ، وهُوَ أنْ يُحْذَفَ مِنَ الأَوّلِ ما أُثْبِتَ نَظيرُه في الثّاني، ومن الثّاني ما أُثْبِتَ نَظيرُهُ في الأوّل، كقَوله تعالى: ﴿وَمَثَلُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ كَمَثَلِ ٱلَّذِى يَنْعِقُ﴾، والتّقْديرُ: (ومَثَلُ الأنبياءِ والكُفّارِ، كَمَثَلِ الّذي يَنْعِقُ، والّذي يُنْعَقُ بِهِ)، فحُذِفَ مِنَ الأوّل (الأنْبياءُ) لِدلالَةِ ﴿ٱلَّذِى يَنْعِقُ﴾ عليه، ومِن الثّاني (الّذي يُنْعَقُ به)؛ لدلالة ﴿ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾ عليه"[4].

دَلالَةُ الاسْتِئْنافِ في قَوْلِه: ﴿صُمُّۢ بُكۡمٌ عُمۡىٞ فَهُمۡ لَا يَعۡقِلُونَ﴾:

الألْفاظُ الثّلاثَةُ (صمّ بكم عمي) أَخْبارٌ لِمُبْتَدآتٍ مَحْذوفَةٍ مُقَدَّرَةٍ

قَوْلُهُ ﷻ: ﴿صُمُّۢ بُكۡمٌ عُمۡىٞ فَهُمۡ لَا يَعۡقِلُونَ﴾، "رَفْعٌ؛ وهُوَ وجهُ الكَلَامِ؛ لِأَنَّهُ مُسْتَأْنَفٌ خَبَرٌ، يَدُلُّ عَلَيْهِ قَوْلُهُ: ﴿فَهُمۡ لَا يَعۡقِلُونَ﴾، كَمَا تَقولُ فِي الكَلامِ: هُوَ أَصَمُّ فَلَا يَسْمَعُ، وهُوَ أَخْرَسُ فَلَا يَتَكَلَّمُ"[5]، قال الطَّبَرِيُّ: "وَأَمَّا الرَّفْعُ في قَوْلِه: ﴿صُمُّۢ بُكۡمٌ عُمۡىٞ﴾ فَإِنَّهُ أَتَاهُ مِنْ قِبَلِ

---

(1) الكَفَويّ، الكلّيات، ص: 315.
(2) السّيوطيّ: نواهد الأبكار: 2/360.
(3) السّيوطيّ: نواهد الأبكار: 2/360.
(4) التّهانوي، موسوعة كشّاف اصطلاحات الفنون والعلوم: 1/107.
(5) الفرّاء، معاني القرآن: 1/100.

الابْتِدَاءِ والاسْتِئْنَاف، يَدُلُّ على ذَلِكَ قَوْلُهُ: ﴿فَهُمۡ لَا يَعۡقِلُونَ﴾، كَمَا يُقَالُ في الكَلَامِ: هُوَ أَصَمُّ لا يَسْمَعُ، وهُوَ أَبْكَمُ لا يَتَكَلَّمُ، فتَقْدِيرُ (هُمْ) يَدُلّ عَليه الضَّميرُ (هُمْ)، في قوله: ﴿فَهُمۡ لَا يَعۡقِلُونَ﴾"[1].

﴿صُمُّۢ﴾ ومَا عُطِفَ عَلَيْهِ: خَبَرٌ لِمُبْتَدَأٍ مَحْذُوف، فهُمْ ﴿صُمُّۢ﴾ لا يَسْمَعُونَ المواعِظَ، ولَا يَنْزَجِرُونَ بها، وهُمْ ﴿بُكۡمٌ﴾ لا يَنْطِقُونَ بالحَقِّ، وهُمْ ﴿عُمۡيٌ﴾ لا يَنْظُرُونَ الهُدَى، ولَا يَتَّبِعُونَهُ، وإنْ كَانَتْ صُورَةُ الحَوَاسِّ مَوْجُودَةً[2].

الاسْتِعارَةُ التَّصْريحيَّةُ والتَّشْبيهُ البَليغُ في قوله: ﴿صُمُّۢ بُكۡمٌ عُمۡيٌ﴾:

يحتملُ قولُه تعالى: ﴿صُمُّۢ بُكۡمٌ عُمۡيٌ﴾ إمَّا على التَّشبيه البليغ، أو الاستعارة التَّصريحيّة، فمَعْنَى التَّشْبيهِ في قَوْلِهِ ﷻ: ﴿صُمُّۢ بُكۡمٌ عُمۡيٌ﴾ أَيْ: "حَالُهُمْ حَالُ الأَصَمِّ الأَبْكَمِ الأَعْمَى؛ إذْ لا يَنْتَفِعُونَ بِذَلِكَ فِيمَا يُدْعَونَ إِلَيْهِ"[3].

فـقـدُ الـبـصـائـرِ أشـدُّ وقـعًـا من فقدِ الحواسِّ

وقد حُذِفَتْ أداةُ الشَّبَهِ ووَجْهُ الشَّبَهِ في قولِه تعالى: ﴿صُمُّۢ بُكۡمٌ عُمۡيٌ﴾: "فهُوَ تَشْبيهٌ بَليغٌ[4]، أي: هُمْ كالصُّمِّ في عَدَمِ سَمَاعِ الحَقِّ، وكالعُمْيِ وكالبُكْمِ، في عَدمِ الانْتفاعِ بنُورِ القُرآن"[5]، "أَيْ: أَنَّهُمْ في عَدَمِ سَمَاعِهِمْ لِلْحَقِّ الّذي دُعُوا إِلَيْهِ، كَالصُّمِّ الّذينَ لا يَسْمَعُونَ، وهُوَ تَشْبيهُ حَالِهِمُ المعْنَويَّةِ في عَدَمِ سَمَاعِهِمْ لِدَعْوَةِ الحَقِّ إذا نَادَى المنَادِي بِهِ، بِحَالِ الأَصَمِّ الّذي لا يَسْمَعُ شَيْئًا، وفي عَدمِ نُطْقِهِمْ بالحَقِّ واسْتِجَابَتِهِمْ لَهُ، بِحَالِ الأَبْكَمِ الّذي لا يَتَكَلَّمُ، شَبَّهَ عَدَمَ إِدْرَاكِهِمُ الحَقَّ الّذي بَدَتْ مَعَالِمُهُ وظَهَرَ نُورُهُ، بِحَالِ الأَعْمَى الّذي لا يُبْصِرُ، ﴿فَإِنَّهَا لَا تَعۡمَى ٱلۡأَبۡصَٰرُ وَلَٰكِن تَعۡمَى ٱلۡقُلُوبُ ٱلَّتِي فِي ٱلصُّدُورِ ٤٦﴾ [الحج: 46]"[6]، وقَدْ شَبَّهَ مَن لا يُصْغِي إلى الحَقّ بِذَلِكَ التَّوْصِيفِ الشَّنيعِ، والقَوْمُ

(1) ابن جرير، جامع البيان: 3/316.
(2) حاشية الصّاوي على تفسير الجلالين، ص: 72.
(3) مكيّ بن أبي طالب، الهداية إلى بلوغ النّهاية: 1/546.
(4) التَّشْبِيهُ البَلِيغُ: هُوَ التَّشْبِيهُ الذي لَمْ تُذْكَرْ فِيهِ أَدَاةُ التَّشْبِيهِ، ولَمْ يُذْكَرْ فِيهِ أَيْضًا وجْهُ الشَّبَهِ، ينظر: عبد الرحمن حسن، البلاغة العربيّة: 2/173.
(5) محمد علي جميل، صفوة التّفاسير: 1/103.
(6) أبو زهرة، زهرة التّفاسير: 1/505.

كانوا يَسْمَعون ويَنْطِقون ويُبْصِرونَ، لَكِنَّهُم لـمّا عَزَفوا عَن القُرْآنِ، فلَمْ يَسْمَعوهُ ولم يَقْرَؤوهُ، ولم يَنْظُروا في دَلالاتِه، جُعِلوا كَذلِكَ، ولَيْتَهُمْ كانوا فاقِدينَ لِهَذِهِ الحَواسِّ خاصَّةً، إنّما المُصيبَةُ في فُقْدانِ البصائِرِ[1].

وظيفة الاستعارةِ المبالغةُ في بيانِ المعنى تحذيرًا وتنبيهًا

وَيجُوز أن يَكونَ اسْتِعارةً تَصْريحيَّةً: "في تَشْبيهِ الكافِرينَ بِالصُّمِّ والبُكْمِ والعُمْيِ، وحَذْفِ المُشَبَّهِ وإبْقاءِ المشَبَّهِ بِهِ"[2]؛ فَجَعَلَهُمْ صُمًّا على وجْهِ الاسْتِعَارَةِ؛ مُبَالَغَةً في بَيَانِ ﴿صُمٌّۢ بُكۡمٌ عُمۡىٌ﴾؛ "لِأَنَّهُ أَشَدُّ بَلَاءً مِمَّا بَعْدَهُ؛ لِأَنَّهُ يَذْهَبُ بِهِ السَّمْعُ والعَقْلُ، أَلَا تَرَى إلى قَوْلِهِ تعالى: ﴿أَفَأَنتَ تُسۡمِعُ ٱلصُّمَّ وَلَوۡ كَانُواْ لَا يَعۡقِلُونَ ﴿٤٢﴾﴾ [يونس: 42] فَذَكَرَ ذَهَابَ السَّمْعِ مَعَ الصُّمِّ، وذَكَرَ بَعْدَهُ ذَهَابَ البَصَرِ مَعَ العُمْيِ لا غَيْرُ"[3].

دَلالَةُ الفاءِ في قَوْلِه: ﴿فَهُمۡ لَا يَعۡقِلُونَ﴾:

فقدُ الأدواتِ والوسائلِ يقطعُ الإنسانَ عن بلوغِ الغاياتِ

لَمّا شَبّه الحقُّ الكافرين "بِفَاقِدِي هَذِهِ القُوَى الثَّلَاثِ الَّتِي يُتَوَسَّلُ بِها إِلى تَمْيِيزِ الحَقِّ مِنَ البَاطِلِ، واخْتِيَارِ الحَقِّ، فَرَّعَ على هَذا التَّشْبِيهِ قَوْلَهُ: ﴿فَهُمۡ لَا يَعۡقِلُونَ﴾، أَيْ لا يَكْتَسِبُونَ الحَقَّ بِمَا جُبِلُوا عَلَيْهِ مِنَ العَقْلِ الغَرِيزِيِّ؛ لِأَنّ اكْتِسَابَهُ إِنّما يَكونُ بِالنَّظَرِ والاسْتِدْلَالِ، ومَنْ كان كَالأَصَمِّ والأَعْمَى في عَدَمِ اسْتِمَاعِ الدَّلَائِلِ ومُشَاهَدَتِهَا، كَيْفَ يَسْتَدِلُّ على الحَقِّ ويَعْقِلُهُ! ولِهَذا قِيلَ: مَنْ فَقَدَ حِسًّا فَقَدْ فَقَدَ عِلْمًا"[4]؛ فَنَفْيُ هَذِهِ الحَوَاسِّ سَبَبٌ في انْتِفَاءِ العَقْلِ؛ فلذا عقَّبَ عَلَيْهَا بِالفَاءِ في قَوْلِهِ: ﴿فَهُمۡ لَا يَعۡقِلُونَ﴾؛ لِأَنَّ طَرِيقَ التَّعَقُّلِ هُوَ التَّدَبُّرُ في مَبَادِئِ الأُمُورِ المعْقُولَةِ، والتَّأَمُّلُ في تَرْتِيبِها، وذَلِكَ إِنّما يَحْصُلُ بِاسْتِمَاعِ آيَاتِ اللَّهِ، ومُشَاهَدَةِ حُجَجِهِ الوَاضِحَةِ، والمُفَاوَضَةِ مَعَ مَنْ يُؤْخَذُ مِنْهُ العُلُومُ، فَإِذا كَانُوا صُمًّا بُكْمًا عُمْيًا، فَقَدِ انْسَدَّ عَلَيْهِمْ أَبْوَابُ التَّعَقُّلِ، وطُرُقُ الفَهْمِ بِالكُلِّيَّةِ"[5].

(1) السّمين، عمدة الحفاظ: 2/354.
(2) محمود عبد الرّحيم صافي، الجدول في إعراب القرآن: 2/341.
(3) مكيّ بن أبي طالب، الهداية إلى بلوغ النّهاية: 1/546.
(4) البروسويّ، روح البيان: 1/274.
(5) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 1/190.

دلالةُ نفي العقل في قَوله: ﴿فَهُمۡ لَا يَعۡقِلُونَ﴾:

الـمـرادُ نَـفْـيُ الانـتِـفـاعِ بالعَقْلِ، ولَيْسَ نَفْيَ أَصْلِ العَقْلِ

نفيُ العقلِ في قَوْلِه ﷻ: ﴿فَهُمۡ لَا يَعۡقِلُونَ ١٧١﴾، فِيهِ نَفْيُ الانتفاعِ بالعَقْلِ عَنْهُمْ، "وَلَيْسَ المرَادُ نَفْيَ أَصلِ العَقْلِ؛ لِأَنَّ نَفْيَهُ رَأْسًا لا يَصْلُحُ طَرِيقًا لِلذَّمِّ"[1]، فالمنفيُّ "العقلُ التّكليفيّ النَّافِع"[2]، أو "العَقْلُ الِاكْتِسَابِيُّ؛ لِأَنَّ العَقْلَ المطْبُوعَ كان حَاصِلًا لَهُمْ، والعَقْلُ عَقْلَانِ: مَطْبُوعٌ، ومَكْسُوبٌ، ولَمَّا كان الطَّرِيقُ لِاكْتِسَابِ العَقْلِ المكْتَسَبِ هُوَ الِاسْتِعَانَةَ بِهَذِهِ القُوَى الثَّلَاثِ، كان إِعْرَاضُهُمْ عَنْهَا فَقْدًا لِلْعَقْلِ المكْتَسَبِ، ولِهَذا قِيلَ: مَنْ فَقَدَ حِسًّا فَقَدَ عَقْلًا"[3].

الفُرُوقُ المُعْجَمِيَّةُ:

الدُّعاء والنِّداء:

تَعاقُبُ الدُّعاءِ والنِّداءِ؛ لِلتَّمْثِيلِ على عَدَمِ انْتِفَاعِ الكَافِرِ مِنْ وُجُوهِ الخِطَابِ

بَيَّنَ السَّمِينُ الحَلَبِيُّ الفَرْقَ بَيْنَهُمَا في التَّرْكِيبِ النَّحْوِيِّ بقوله: "وَالدُّعَاءُ كَالنِّدَاءِ إلّا أَنَّ النِّدَاءَ قَدْ يُقَالُ إِذا قِيلَ: (يَا، وأَيا)، وإِنْ لَمْ يُضَمَّ مَعَهُ اسْمٌ، والدُّعَاءُ لا يَكَادُ يُقَالُ إلّا ومَعَهُ اسْمُ المدْعُوِّ، نَحْوُ: يَا فُلَانُ، وقَدْ يَقَعُ كُلٌّ مِنْهُمَا مَوْقِعَ الآخَرِ"[4].

وقال ابْنُ عَرَفَةَ: "وَعَادَتُهُمْ يُفَرِّقُونَ بَيْنَ الدُّعَاءِ والنِّدَاءِ، بِأَنَّ الدُّعَاءَ يَكونُ بِلَفْظِ الطَّلَبِ، وسَوَاءٌ كان مَعَهُ نِدَاءٌ أَوْ لَمْ يَكُنْ، والدُّعَاءُ أَخَفُّ مِنَ النِّدَاءِ؛ لِأَنَّ البَهَائِمَ تُنَادِيهَا فَلَا تُجِيبُ، فَإِذا دَعَوْتَهَا وزَجَرْتَهَا أَتَتْ، فَالنِّدَاءُ لِلْخَوَاصِّ، والدُّعَاءُ لِلْعَوَامِّ، فَمَنْ لَمْ يَسْتَجِبْ لِلنِّدَاءِ قَدْ يَسْتَجِيبُ لِلدُّعَاءِ، ومَنْ لَمْ يَنْفَعْ فِيه الدُّعَاءُ، فَهُوَ في غَايَةِ الجَهْلِ والغَبَاوَةِ"[5]، "وَالنِّدَاءُ مَا يُسْمَعُ، والدُّعَاءُ قَدْ يُسْمَعُ، وقَدْ لا يُسْمَعُ"[6]، ونَقَلَ أَبُو حَيَّانَ بَعْضَ تَخْصِيصَاتِ النِّدَاءِ، فَهُوَ "مُخْتَصٌّ

(1) البروسويّ، روح البيان: 1/274.
(2) ابن عرفة، تفسير ابن عرفة: 2/505.
(3) أبو حيّان، البحر المحيط: 2/108، والرّازيّ، مفاتيح الغيب: 5/190.
(4) السّمين، عمدة الحفّاظ: (دعو).
(5) تفسير ابن عرفة: 2/504.
(6) النّسفيّ، مدارك التّنزيل: 1/151.

بِالجَهْرِ، وقِيلَ: بِالبُعْدِ، وقِيلَ: بِغَيْرِ المعَيَّنِ"[1]، و"إنّما ثَنَّى ﴿إِلَّا دُعَآءً وَنِدَآءً﴾؛ لِأَنَّ الدُّعَاءَ طَلَبُ الفِعْلِ، والنِّدَاءَ إِجَابَةُ الصَّوْتِ"[2].

والخُلاصَةُ: أنّ الدُّعَاءَ فِيهِ طَلَبٌ وتَخْصِيصٌ بِاسْمٍ أَوْ شَيْءٍ، أَمَّا النِّدَاءُ فَرَفْعُ الصَّوْتِ لِلتَّنْبِيهِ والإجَابَةِ، وأَمَّا التَّفْرِيقُ في الاسْتِعْمَالِ، فَإِنَّهُمَا قَدْ جَاءَا مُتَعَاقِبَيْنِ مَعًا في آيَةٍ واحِدَةٍ؛ لِيَشْمَلَ جَمِيعَ وُجُوهِ الخِطَابِ الّتِي يُوَجِّهُهَا الرَّاعِي إلى غَنَمِهِ، ومَآلُهُ التَّمْثِيلُ على عَدَمِ انْتِفَاعِ الكَافِرِ بأيّ وجه من وُجُوهِ الخِطَابِ والدَّعْوَةِ.

(1) أبو حيّان، البحر المحيط: 2/98.

(2) المصدر السّابق: 2/108.

﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُلُواْ مِن طَيِّبَٰتِ مَا رَزَقۡنَٰكُمۡ وَٱشۡكُرُواْ لِلَّهِ إِن كُنتُمۡ إِيَّاهُ تَعۡبُدُونَ ١٧٢﴾ [البقرة: 172]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِمَا قَبْلَها:

الـمُزاوَجَةُ بَينَ ذَمِّ الـمُشْرِكينَ وتَأكيدِ الإنْعامِ عَلى المُؤمنينَ

ذَكَرَ المفسِّرُونَ أقوالا مُخْتَلِفَةً في وجه المُنَاسَبَة، قال ابْنُ عَرَفَة: "تَقْرِيرُ مُنَاسَبَتِهَا لِمَا قَبْلَهَا أَنَّهُ لَمَّا تَضَمَّنَ الكَلَامُ السَّابِقُ ذَمَّ المشْرِكِينَ، لِكَوْنِهِمْ لَيْسُوا أَهْلًا لِأَنْ يُخَاطَبُوا بِشَيْءٍ مِنَ الأَخْبَارِ، ولَا بِشَيْءٍ مِنَ الأَوَامِرِ والنَّوَاهِي، عَقَّبَ ذَلِكَ بِخِطَابِ المؤْمِنِينَ بِهَذا الأَمْرِ المُسْتَلْزِمِ لِكَوْنِهِمْ أَهْلًا لِلْمُخَاطَبَة.

وَقَرَّرَ الفَخْرُ وجْهَ مُنَاسَبَتِهَا بِوَجْهٍ لا يَنْهَضُ[1]، وقَوْلُ الرَّازِيّ الّذي لَمْ يَرْتَضِهِ ابْنُ عَرَفَة: هُو "أَنَّ اللّٰه سُبْحَانَهُ وتعالى تَكَلَّمَ مِنْ أَوَّلِ السُّورَةِ إلى هاهنا، في دَلَائِلِ التَّوْحِيدِ والنُّبُوَّة، واسْتَقْصَى في الرَّدِّ على اليَهُودِ والنَّصَارَى، ومِنْ هُنَا شَرَعَ في بَيَانِ الأَحْكَامِ"[2].

التَّحَوُّلُ إلى التَّخْصيصِ في الخِطابِ بَعْدَ التَّعْميم

وَأَلْمَحَ البَيْضَاوِيُّ إلى أَنَّ المنَاسَبَةَ فِيهَا التَّحَوُّلُ إلى التَّخْصِيص في الخِطَابِ بَعْدَ التَّعْمِيم: "لَمَّا وسَّعَ الأَمْرَ على النَّاسِ كَافَّةً، وأَبَاحَ لَهُمْ مَا في الأَرْضِ سِوَى مَا حَرّمَ عَلَيْهِمْ، أَمَرَ المؤْمِنِينَ مِنْهُمْ أَنْ يَتَحَرَّوْا طَيِّبَاتِ مَا رُزِقُوا ويَقُومُوا بِحُقُوقِهَا فَقال: ﴿وَٱشۡكُرُواْ لِلَّهِ﴾ على مَا رَزَقَكُمْ وأَحَلَّ لَكُمْ"[3].

شَرْحُ المُفْرَدَاتِ:

الأكل تناول ما يقيم الصّلب، ويحفظ الحياة

1) ﴿كُلُواْ﴾: مِنَ الجَذرِ (أكل)، والأَكْلُ: تَنَاوُلُ المَطْعَم، قال تعالى: ﴿أُكُلُهَا دَآئِمٞ﴾ [الرّعد: 35][4]، أَكَلَ الطَّعَامَ يأْكُلُهُ أَكْلًا[5]، الأَكْلُ:

(1) تفسير ابن عرفة: 2/505.
(2) الرّازيّ، مفاتيح الغيب: 5/190.
(3) البيضاويّ، أنوار التّنزيل: 1/119.
(4) الرّاغب، المفردات: (أكل).
(5) ابن منظور، لسان العرب: (أكل).

المَصدرُ[1]، والأُكُلُ: ما أُكِلَ[2]، والـمُرَادُ بِالأَكْلِ الانْتِفَاعُ مِنْ جَمِيعِ الوُجُوهِ، وقِيلَ: هُوَ الأَكْلُ المعْتَادُ[3]، و"يُقال في الأمْرِ: كُلْ، بِحَذفِ الهَمْزَةِ، قال اللّه تعالى: ﴿كُلُوا واشْرَبُوا﴾، وبعضُ العرب يقول: أُؤْكُلْ، بهمزة.

ويقال: إنّ حقيقة الأَكْل التَّنَقُّصُ، ويقال: أَكَلَت النّارُ الحطبَ"[4]، والأصل: اُؤْكُلوا، فالهمزة الأولى هَمزةُ وصْل، والثّانيّة فاء الكلمة، إلّا أنّهم حذَفوا الفاءَ، فاسْتَغْنَوْا عَنْ همزةِ الوَصلِ، لتَحَرُّك ما بعدَها، والحذفُ هنا شاذٌّ ليس بقِيَاسٍ، ولم يأتِ إلّا في (كُلْ، وخُذْ، ومُرْ)، قال ابن مالك في (لاميّة الأفعال):

وَشَذَّ بالْحَذْفِ: مُرْ وخُذْ وكُلْ، وفَشَا***وأْمُرْ، ومُسْتَنْدَرٌ: تَتْمِيمُ خُذْ وكُلَا[5]

الطّيّبُ ما تَستَمْرِئُه الحَوَاسُّ، وتستلذُّه النّفسُ

2) ﴿طَيِّبَٰتِ﴾: من الجذر (طيب)، وأَصْلُ المَادَّةِ يَدُلُّ على خِلَافِ الخَبِيثِ[6]، والطَّيِّبُ: مَا تَسْتَلِذُّهُ الحَوَاسُّ، ومَا تَسْتَلِذُّهُ النَّفْسُ، قال تعالى: ﴿كُلُواْ مِن طَيِّبَٰتِ مَا رَزَقْنَٰكُمْ﴾[7]، وهُوَ مَا يُسْتَلَذُّ ويُسْتَطَابُ[8]، ومثله في قوله تعالى: ﴿أَنفِقُواْ مِن طَيِّبَٰتِ مَا كَسَبْتُمْ﴾، أَيْ مِنْ جِيَادِ مَكْسُوبَاتِكُمْ أَوْ مِنْ حَلَالِهَا[9]، والطِّيبُ -بِكَسْرِ الطّاءِ المَمدودَةِ- مِنْ (طابَ)، جَمْعُه: أطيابٌ وطُيوبٌ: كُلُّ ذي رائِحَةٍ عِطرَةٍ، يُتَطَيَّبُ بِه، والطَّيِّبُ -بفتْحٍ فكَسْرٍ- جَمْعُه: طيِّباتٌ: ما تَستلِذُّه الحَواسّ والنَّفسُ، والطّاهرُ النّظيفُ، وقد قال تعالى: ﴿فَتَيَمَّمُواْ صَعِيدًا طَيِّبًا﴾ [النساء: 43][10].

الرّزق يُطلقُ على العطاء الإلهيّ، دُنْيويًّا كان أمْ أُخْرويًّا

3) ﴿رَزَقْنَٰكُمْ﴾: مِنَ الجَذْرِ (رزق)، وأَصْلُ المَادَّةِ يَدُلُّ على عَطَاءٍ

(1) السّمين، عمدة الحفّاظ: (أكل).
(2) الجوهريّ، الصّحاح: (أكل).
(3) القرطبي، الجامع لأحكام القرآن: 2/215.
(4) نشوان الحميريّ، شمس العلوم: 1/298.
(5) الصّعيديّ، فتح المتعال على لاميّة الأفعال، ص: 268، وتفسير الرّوح والرّيحان: 3/116.
(6) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (طَيَب).
(7) الرّاغب، المفردات: (طَيَب).
(8) الواحدي، التَّفْسِير البَسِيط: 3/483.
(9) الخوارزمي، المغرب في ترتيب المعرب، ص: 296.
(10) قلعجيّ وقنيبيّ، معجم لغة الفقهاء، ص: 294.

لِوَقْت، ثُمَّ يُحمَلُ عَلَيْهِ غيرُ المَوْقُوت، فَالرِّزْقُ: عَطاءُ اللَّهِ جَلَّ ثَنَاؤُهُ[1]، ويُقَالُ لِلْعَطَاءِ الجَارِي تَارَةً، دُنْيَوِيًّا كان أَمْ أُخْرَوِيًّا[2]، ﴿وَمِمَّا رَزَقْنَـٰهُمْ﴾ [البقرة: 3]، أَيْ أَعْطَيْنَاهُمْ، وأَنْعَمْنَا عَلَيْهِمْ بِهِ[3]، "والرَّزْقُ المَصدَرُ، بِفَتْحِ الرَّاء، وكلُّ مَن أَجْرَيْتَ عَلَيْهِ جِرايَةً فقد رَزَقْتَه رَزْقًا، واللّه ﷻ الرَّازِق والرَّزَّاقُ، وجَمْعُ الرِّزق أَرْزاقٌ، والرِّزق: الشُّكر، لُغَةٌ سَرَوِيَّةٌ[4].

ما في القُرْآن من (الشُّكر)، هو شُكْر النّعْمة، والثّناء على المنعم

4) ﴿وَٱشْكُرُواْ﴾: من الجَذر (شكر)، وأَصْلُ المَادَّةِ يَدُلّ على الثَّنَاءِ على الإِنْسَانِ بِمَعْرُوفٍ يُولِيكَهُ، والشُّكرُ: الرِّضَا بِاليَسِيرِ[5]، وهو: عِرفانُ الإِحْسَانِ لِصَاحِبِه، ونَشْرُه، ضِدُّ الكُفْرِ، وهُوَ: نِسْيَانُ النِّعْمَةِ وسَتْرُهَا[6].

وَكُلُّ مَا في القُرْآنِ مِنَ التَّرْكِيب، هُوَ مِنْ شُكْرِ النِّعْمَةِ[7]، و"الشَّكُورُ من أسماءِ اللّه جلّ وعزّ، مَعْنَاهُ أَنّه يزكو عِنْده القليلُ من أعمال العِبادِ، فيُضَاعفُ لَهُم بِهِ الجَزَاءَ، قَالَ ذَلِك أَبُو إسحاقَ الزَّجّاجُ، وأمّا الشّكورُ من عباد اللّه، فهُوَ الَّذِي يَجتهدُ في شُكرِ رَبِّه، بِطَاعَتِه وأدائِه مَا وُظِّفَ عَلَيْهِ من عِبَادَته، قَالَ اللّه جلّ وعزّ: ﴿ٱعْمَلُوٓاْ ءَالَ دَاوُۥدَ شُكْرًا ۚ وَقَلِيلٌ مِّنْ عِبَادِيَ ٱلشَّكُورُ ١٣﴾ [سبأ: 13]، نُصِبَ قَوْلُه: (شكرًا) لِأَنَّهُ مفعولٌ لَهُ، كَأَنَّهُ قَالَ: اعْمَلُوا للّهِ شكرًا، وإِن شِئْتَ كَانَ مَنْصُوبًا على أنّه مصدرٌ مؤكِّدٌ"[8].

العبادةُ غايةُ التّذلُّل، ولا تكون إلّا لله الّذي له غايةُ الإفْضال

5) ﴿تَعْبُدُونَ﴾: مِنَ الجَذْرِ (عبد)، وأَصْلُ المَادَّةِ يَدُلُّ على لِينٍ وذُلٍّ[9]، والعُبُودِيَّةُ: إِظْهَارُ التَّذَلُّلِ، والعِبَادَةُ أَبْلَغُ مِنْهَا؛ لِأَنَّهَا غَايَةُ

(1) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (رَزَقَ).
(2) الرّاغب، المفردات: (رَزَقَ).
(3) السّمين، عمدة الحفّاظ: (رزق).
(4) ابن دريد، جمهرة اللّغة: (رزق).
(5) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (شكر).
(6) الرّاغب، المفردات: (شكر).
(7) ابن منظور، لسان العرب، جبل، المعجم الاشتقاقيّ المؤصّل: (شكر).
(8) ابن منظور، لسان العرب، جبل، المعجم الاشتقاقيّ المؤصّل: (شكر).
(9) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (عبد).

التَّذَلُّلِ، ولَا يَسْتَحِقُّهَا إلّا مَنْ لَهُ غايَةُ الإفْضَالِ، وهُوَ اللّٰه تعالى؛ ولِهَذا قال: ﴿أَلَّا تَعۡبُدُوٓاْ إِلَّآ إِيَّاهُ﴾ [الإسراء: 23][1].

المَعْنَى الإجْمَاليُّ:

الشُّكرُ قَيْدُ النِّعمَةِ المُسْداةِ من ربِّ الأرضِ والسّماواتِ

يَا أيُّهَا الّذينَ صَدّقُوا اللّٰهَ ورَسُولَهُ، وأَقَرُّوا لِلّٰه بالعُبُودِيَّة، وأَذْعَنُوا لَهُ بالطَّاعَة، كلوا مِنْ حَلَالِ الرِّزْقِ الذي أَحْلَلْنَاهُ لَكُمْ، فَطَابَ لَكُمْ بتَحْلِيلي إيَّاهُ لَكُمْ - مِمَّا كُنْتُمْ تُحَرِّمُونَ أَنْتُمْ ولَمْ أَكُنْ حَرَّمْتُه عَلَيْكُمْ - مِنَ المطَاعِمِ والمَشَارِبِ، وأَثْنُوا على اللّٰهِ بِمَا هُوَ أَهْلُهُ مِنْكُمْ، بقلوبكم وألسنتكم وجوارحكم على النِّعَمِ الَّتِي رَزَقَكُم، وطَيَّبَهَا لَكُمْ، إنْ كُنْتُمْ مُنْقَادِينَ لِأَمْرِهِ سَامِعِينَ مُطِيعِينَ، تعبدونه وحده لا شريك له[2].

الإيضَاحُ اللُّغويُّ وَالبَلَاغِيُّ:

نُكتةُ تأكيدِ الأَمْرِ بالأكلِ في قولِه: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُلُواْ﴾:

المأكلُ والمشربُ من القضايا التي يجبُ اتِّباعُ الشَّريعةِ فيها

قَوْلُه ﷻ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُلُواْ مِن طَيِّبَٰتِ مَا رَزَقۡنَٰكُمۡ﴾: "مُؤَكِّدٌ لِقَوْلِه: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ كُلُواْ مِمَّا فِي ٱلۡأَرۡضِ﴾ [البقرة: 168]"[3]، وكان النِّدَاءُ إلى النَّاسِ الّذينَ كان مِنْهُمْ مَنِ اتَّبَعَ خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ[4] في الآيةِ الأولى، ثمَّ توجَّه إلى خصوصِ المؤمنين؛ فَتَكْرَارُ الأَمْرِ "تَأْكِيدٌ لِلْأَمْرِ الأَوَّلِ"[5]؛ فإنَّ مَأْكَلَ النَّاسِ مِنْ حَيْثُ بَيَانُ حَلَالِه وحَرَامِه، مِنَ القَضَايَا الكَبِيرَةِ التِي تستلزمُ التَّأكيدَ؛ لِمَا وقَعَ فِيهِ مِنْ زَيْغٍ وافْتِرَاءٍ.

سِرُّ الانتقالِ من نداءِ عمومِ النَّاسِ إلى نداءِ خصوصِ المؤمنين:

تَشْرِيفُ المؤمنينَ بالخِطَابِ؛ لأنَّهُمُ المَعْنِيُّون بالحَلالِ والحَرامِ

"لَمَّا كان لَفْظُ ﴿ٱلنَّاسُ﴾ يَعُمُّ المؤمِنَ والكَافِرَ، مَيَّزَ اللّٰه المؤمِنينَ بِهَذا النِّدَاءِ، تَشْرِيفًا لَهُمْ وتَنْبِيهًا على خُصُوصِيَّتِهِمْ"[6]، فعَدَلَ عَنْ

(1) الرّاغب، المفردات: (عبد).
(2) ابن جرير، جامع البيان: 3/316 - 317.
(3) أبو حيّان، البحر المحيط: 2/108 - 109.
(4) أبو زهرة، زهرة التّفاسير: 1/506.
(5) القرطبي، الجامع لأحكام القرآن: 2/215.
(6) أبو حيّان، البحر المحيط: 2/109.

خطابِ النّاسِ العامِّ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ﴾ إلى خطابِ المُؤمنينَ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾، وخَصَّ المؤمنينَ هُنَا بالذِّكرِ تَفْضيلًا[1].

وقد خَصَّ المؤمنينَ بالخِطَابِ لِأَنَّهُمْ "لا يَتَّبِعُونَ خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ، إنّما يَتَّبِعُونَ شَرْعَ الرَّحْمَنِ"[2]، وهُمُ الّذينَ يَنْتَفِعُونَ بالتَّشْرِيعِ دُونَ سِوَاهُمْ، فَإنّما جَاءَ الأَمْرُ لِلْمُؤْمِنِينَ خَاصَّةً، بَعْدَ الأَمْرِ العَامِّ؛ "وَذَلِكَ أَنَّهُمْ هُمُ المنْتَفِعُونَ على الحَقِيقَةِ بالأَوَامِرِ والنَّوَاهِي، بِسَبَبِ إيمَانِهِمْ، فَأَمَرَهُمْ بِأَكْلِ الطَّيِّبَاتِ مِنَ الرِّزْقِ، والشُّكْرِ لِلَّهِ على إِنْعَامِهِ، بِاسْتِعْمَالِهَا بِطَاعَتِهِ، والتَّقَوِّي بها على مَا يُوصِلُ إِلَيْهِ، فَأَمَرَهُمْ بِمَا أَمَرَ بِهِ المرْسَلِينَ في قَوْلِهِ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلرُّسُلُ كُلُواْ مِنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَٱعْمَلُواْ صَٰلِحًا﴾ [المؤمنون: 51]"[3].

غرضُ الأَمْرِ في قولِه تعالى: ﴿كُلُواْ مِن طَيِّبَٰتِ مَا رَزَقْنَٰكُمْ﴾:

الأَمْرُ في الآيَـةِ يَدُلُّ عَلى مطلقِ الإِبَاحَةِ

الأَمْرُ على إطلاقه في الآيةِ الكريمةِ هو "أَمْرُ إباحَةٍ؛ لا نَدْبٍ ولا إيجابٍ"[4]، فالأَكْلُ "قَدْ يكون واجبًا، وذَلِكَ عِنْدَ دَفْعِ الضَّرَرِ عَنِ النَّفْسِ، وقَدْ يكون مَنْدُوبًا، وذَلِكَ أَنَّ الضَّيْفَ قَدْ يَمْتَنِعُ مِنَ الأَكْلِ إذا انْفَرَدَ ويَنْبَسِطُ في ذَلِكَ إذا سُوعِدَ، فَهَذا الأَكْلُ مَنْدُوبٌ، وقَدْ يكون مُبَاحًا إذا خَلَا عَنْ هَذِهِ العَوَارِضِ، والأَصْلُ في الشَّيْءِ أَنْ يَكونَ خَالِيًا عَنِ العَوَارِضِ، فَلَا جَرَمَ كان مُسَمَّى الأَكْلِ مُبَاحًا، وإذا كان الأَمْرُ كَذَلِك كان قَوْلُهُ: (كُلُوا) في هَذا الموْضِعِ لا يُفِيدُ الإيجَابَ والنَّدْبَ، بَلِ الإِبَاحَةَ"[5].

المرَادُ بِإِبَاحَةِ الأَكْلِ عمومُ الانْتِفَاعِ:

خُصَّ الأكـلُ بـالـذِّكـرِ لِأَنَّـهُ أَعْظَمُ المنَافِعِ

اخْتُلِفَ في المرادِ بالأمرِ بالأكلِ في الآيةِ الكريمةِ، فقيل: الأكلُ المعهود، وقيل: "الِانْتِفَاعُ بِهِ، ونَبَّهَ بِالأَكْلِ على وُجُوهِ الِانْتِفَاعِ، إِذْ كان

---

(1) القرطبي، الجامع لأحكام القرآن: 2/215.

(2) أبو زهرة، زهرة التّفاسير: 1/506.

(3) السّعدي، تيسير الكريم الرّحمن، ص: 81.

(4) الواحديّ، التّفسير البسيط: 3/495.

(5) الرّازيّ، مفاتيح الغيب: 5/190.

الأَكْلُ أَعْظَمَهَا، إِذْ به تَقومُ البِنْيَةُ، قِيلَ: وهَذا أَقْرَبُ إلى المعْنَى، لِأَنَّهُ تعالى مَا خَصَّ الحِلَّ والحُرْمَةَ بِالمَأْكُولَاتِ، بَلْ بِسَائِرِ مَا يُنْتَفَعُ بِهِ مِنْ أَكْلٍ وشُرْبٍ ولُبْسٍ وغَيْرِ ذَلِكَ"[(1)]، وعليه يكون "الأَمْرُ هُنَا لِلْعُمُومِ إلّا مَا سَوْفَ يَسْتَثْنِيهِ تَعالى"[(2)].

توجيهُ تَخْصِيصِ الطّيّبات بِالذِّكْرِ:

دفـعُ تـوهُّـمِ مـنعِ الـتَّوسّعِ في الـطّـيّبـاتِ، وتَوسيع دائِـرَةِ الحلالِ

قال ﷻ قَبْلَ هَذِهِ الآيَةِ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ كُلُواْ مِمَّا فِي ٱلۡأَرۡضِ حَلَٰلٗا طَيِّبٗا﴾ [البقرة: 168]، فجعلَ الطَّيِّبَ وصفًا للحلالِ، وبه يكونُ قد جَمَعَ بينَ لفظي الحَلَالِ والطَّيِّبِ، وفي قَوْلِهِ ﷻ: ﴿كُلُواْ مِن طَيِّبَٰتِ مَا رَزَقۡنَٰكُمۡ﴾ اقْتَصَرَ على لفظِ الطَّيِّبَاتِ، وسرُّ ذلك دفعُ ما قد يظُنُّه أقوامٌ "أَنَّ التَّوَسُّعَ في المَطَاعِمِ، والاسْتِكْثَارَ مِنْ طَيِّبَاتِهَا، مَمْنُوعٌ مِنْهُ؛ فَأَبَاحَ اللَّه تعالى ذَلِكَ بِقَوْلِهِ: كُلُوا مِنْ لَذائِذِ مَا أَحْلَلْنَاهُ لَكُمْ، فَكان تَخْصِيصُهُ بِالذِّكْرِ لِهَذا المعْنَى"[(3)]، أو "لِأَنَّ المؤمِنَ أَبَاحَ اللَّه لَهُ الطَّيِّبَاتِ مِنَ الرِّزْقِ، خَالِصَةً مِنَ التَّبِعَةِ، ولِأَنَّ إِيمَانَهُ يَحْجِزُهُ عَنْ تَنَاوُلِ مَا لَيْسَ لَهُ"[(4)].

دَلالَةُ حرفِ (مِنْ) في قَوْلِهِ ﷻ: ﴿كُلُواْ مِن طَيِّبَٰتِ مَا رَزَقۡنَٰكُمۡ﴾:

بَـعْـضُ الـرِّزْقِ لَـيْـسَ حَـلَالًا، والمـأذونُ فيه الحلالُ الطّيّب

"مفعولُ ﴿كُلُواْ﴾ محذوفٌ، أي: كُلوا رزقَكم، وفي ﴿مِن﴾ حينئذٍ وجهان، أحدُهما: أَنْ تكونَ لابتداءِ الغايةِ فتتعلّقَ بـ﴿كُلُواْ﴾، والثَّاني: أَنْ تكونَ تبعيضيَّةً فتتعلّقَ بمحذوفٍ؛ إذ هي حالٌ من ذلك المفعولِ المقدَّرِ، أي: كُلوا رزقَكم حالَ كونِه بعضَ طيباتِ ما رزقناكم"[(5)].

وعلى القولِ بأنَّ ﴿مِن﴾ في قَوْلِهِ ﷻ: ﴿كُلُواْ مِن طَيِّبَٰتِ مَا رَزَقۡنَٰكُمۡ﴾ تَبْعِيضِيَّةٌ؛ فالطَّيِّبُ هُنَا يَجْمَعُ الحَلَالَ المُسْتَلَذَّ، والآيَةُ

(1) أبو حيّان، البحر المحيط: 2/109.
(2) إبراهيم الأبياري، الموسوعة القرآنيّة: 9/134.
(3) الرّازيّ، مفاتيح الغيب: 5/190.
(4) السّعدي، تيسير الكريم الرّحمن، ص: 81.
(5) السمين، الدر المصون: 2/234.

تُشِيرُ بِتَبْعِيضِ ﴿مِن﴾ إلى أَنَّ الحَرَامَ رِزْقٌ[1]، ووَجْهُ دَلَالَتِهَا على ذَلكَ مِنَ المفْهُوم؛ لِأَنَّ مَفْهُومَهُ أَنَّ البَعْضَ الآخَرَ -وَهُوَ الذي لَيْسَ بِحَلَالٍ ولَا مُسْتَلَذٍّ- غَيْرُ مَأْذُونٍ فِيهِ[2].

سِرُّ اختيارِ لفظِ الطَّيِّباتِ في قوله: ﴿مِن طَيِّبَٰتِ مَا رَزَقۡنَٰكُمۡ﴾:

اشتمالُ اللَّفظِ على التَّحليلِ والتَّعليلِ

الطَّيِّباتُ من رَزقِ اللّه تَعالَى، فَهُنَا نِعْمتَانِ أَنعَمَ اللّه تعالَى بهمَا، وهما: نِعْمَةُ الرِّزْق والْعطاء، ونِعمَةُ الإباحة لِلطَّيِّبات، وكَان الشُّكْرُ على النِّعْمتَيْنِ واجبًا[3]، واختير لفظُ الطَّيِّبات لبيانِ أنَّ هذه المأكولات هي طيِّبات، فاشتملَ اللَّفظُ على التَّحليلِ، وعلى التَّعليلِ، فهو تعليلٌ لأكلِ الطِّيباتِ والانتفاعِ بها.

توجيهُ المتشابه اللّفظيّ:

خطابُ الرُّسلِ يختصُّ بنوعِ دلالةٍ عن سائرِ المُؤمنين

لسائلٍ أن يسأل عن الفرقِ في النَّظم بين ما جاء هنا في قولِه تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُلُواْ مِن طَيِّبَٰتِ مَا رَزَقۡنَٰكُمۡ﴾، وبين قولِه تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلرُّسُلُ كُلُواْ مِنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَٱعۡمَلُواْ صَٰلِحًاۖ﴾ [المؤمنون: 51]، "مَعَ أنَّ تِلْك خِطَابٌ لِلرُّسُلِ؛ فَهُوَ قد كان أَولَى بِهَذا اللَّفظِ؟ وعادتُهم يُجيبون بِوَجْهَين:

الأوَّل: أَمَّا إذا قُلنَا: إنَّ الرِّزْق لا يُطلَقُ إلّا على الحلَالِ، فَنقُول: لَمّا كان الأَنْبياءُ معْصومين، أُمِرُوا أَمْرًا مُطلقًا من غَيْر تَعيين الحلَالِ، وغيرُهم لَيْس بمعْصوم، فقيّدَ الإذْن في الأكْلِ لَه بِالحلال فقط، فَيكون الطِّيِّبُ على هذا المرادُ به المُسْتَلَذُّ.

الجَوابُ الثَّاني: الرُّسُل في مَقَام كَمَالِ التَّوحيد، ونِسبَة كُلِّ الأَشْياءِ إلى اللّه ﷻ، وأمَّا غيْرُهم فليْس كَذلك، فقد يَذْهَلُ حِينَ اقْتِطافِ الثَّمَرَة، ويَظُنُّ أنّهَا مِنَ الشَّجَرة، ويَغْفَلُ عَن كَوْنِ اللَّه تعالى

(1) ابن عطية، المحرر الوجيز: 1/239.
(2) تفسير ابن عرفة: 2/505.
(3) أبو زهرة، زهرة التّفاسير: 1/507.

هُو الّذي أخْرجَهَا منهَا، وأنْبتهَا، فقيل لَهُم: ﴿كُلُواْ مِن طَيِّبَٰتِ مَا رَزَقۡنَٰكُمۡ﴾ حَتَّى يَعْتَقِدوا حِين التَّناولِ أنَّ ذَلك الرِّزْقَ كُلَّه مِن عِنْد اللَّه، وليْسَ لِلْمتَسَبِّب فِيه صُنْعٌ بوَجْه[1].

بَيَانُ دَلَالَةِ ﴿مَا﴾ في قَولِه: ﴿مِن طَيِّبَٰتِ مَا رَزَقۡنَٰكُمۡ﴾:

تَنَوُّعُ الاحتمالاتِ دَليلٌ عَلى ثَراءِ اللُّغَةِ وسعةِ السِّياقِ

تحتملُ ﴿مَا﴾ في قَوْلِه ﷻ: ﴿مِن طَيِّبَٰتِ مَا رَزَقۡنَٰكُمۡ﴾ أكثرَ من تَوْجيهٍ؛ فيَصِحُّ أَنْ تَكُونَ: مَصْدَرِيَّةً، أَيْ: مِنْ طَيِّبَاتِ رِزْقِنَا إيَّاكُمْ، أَوِ اسْمَ مَوْصُولٍ والجُمْلَةُ صِلَةٌ، أَيْ: مِنْ طَيِّبَاتِ الشَّيْءِ الّذي رَزَقْنَاكُمُوهُ، أَوْ نَكِرَةً مَوْصُوفَةً والجُمْلَةُ صِفَةٌ، أيْ: شَيْءٍ رَزَقْنَاكُمُوهُ[2].

التَّعْظِيمُ في الخِطَابِ بِضَميرِ الجَمْعِ لِبَيَانِ الامْتِنَان:

أُسنِد الرِّزقُ في قَوْلِه ﷻ: ﴿مَا رَزَقۡنَٰكُمۡ﴾: "إلى ضَميرِ المتَكَلِّم بِنُونِ العَظَمَةِ؛ لِمَا في الرِّزْقِ مِنَ الامْتِنَانِ والإحْسَانِ"[3].

دَلَالَةُ الأمرِ في قولِه تعالى: ﴿وَٱشۡكُرُواْ لِلَّهِ﴾:

وُجوبُ الاعْتِقادِ بِعَظَمةِ الله بالقَلبِ واللِّسانِ والجَوارِحِ

جَاءَ الأَمْرُ بالشُّكْرِ في قَوْلِه ﷻ: ﴿وَٱشۡكُرُواْ لِلَّهِ﴾ والمرادُ به: إظْهَارُ تَعْظِيم اللّه تعالى، وفي بَيَانِ ذَلكَ قال الرَّازي: "قَوْلُهُ: ﴿وَٱشۡكُرُواْ لِلَّهِ﴾ أَمْرٌ ولَيْسَ بِإِبَاحَةٍ، فَإِنْ قِيلَ: الشُّكْرُ إمَّا أَنْ يكون بالقَلْبِ أَوْ باللِّسَانِ أَوْ بالجَوَارِحِ؛ أَمَّا بالقَلْبِ فَهُوَ إمَّا العِلْمُ بِصُدُورِ النِّعْمَةِ عَنْ ذَلكَ المنْعِم، أَوِ العَزْمُ على تَعْظِيمه باللِّسَانِ وبالجَوَارِحِ، أَمَّا ذَلك العِلْمُ فَهُوَ مِنْ لَوَازِم كَمَالِ العَقْلِ، فَإِنَّ العَاقِلَ لا يَنْسَى ذَلكَ، فَإِذا كان ذَلكَ العِلْمُ ضَرُورِيًّا فَكَيْفَ يُمْكِنُ إيجَابُهُ؟ وأَمَّا العَزْمُ على تَعْظيمه باللِّسَانِ والجَوَارِح، فَذَلكَ العَزْمُ القَلْبِيُّ مَعَ الإقْرَارِ باللِّسَانِ والعَمَلِ بالجَوَارِح، فَإذا بَيَّنَّا أَنَّهُمَا لا يَجبَانِ كان العَزْمُ بِأَنْ لا يَجِبَ أَوْلَى، وأَمَّا الشُّكْرُ باللِّسَانِ فَهُوَ إمَّا أَنْ يُقِرَّ بالاعْتِرَافِ لَهُ بِكَوْنِه مُنْعِمًا أَوْ

(1) تفسير ابن عرفة: 2/505-506.
(2) حاشيّة الصّاوي على تفسير الجلالين، ص: 72.
(3) أبو حيّان، البحر المحيط: 2/109.

بِالثَّنَاءِ عَلَيْه، فَهَذا غَيْرُ واجِبٍ بِالاتِّفَاقِ، بَلْ هُوَ مِنْ بَابِ المَنْدُوبَاتِ، وأَمَّا الشُّكْرُ بِالجَوَارِحِ والأَعْضَاءِ، فَهُوَ أَنْ يَأْتِيَ بِأَفْعَالٍ دَالَّةٍ على تَعْظِيمِه، وذَلِكَ أَيْضًا غَيْرُ واجِبٍ، وإِذا ثَبَتَ هَذا فَنَقُولُ: ظَهَرَ أَنَّهُ لا يُمْكِنُ القَوْلُ بِوُجُوبِ الشُّكْرِ، قُلْنَا الّذي تَلَخَّصَ في هَذا البَابِ، أَنَّهُ يَجِبُ عَلَيْهِ اعْتِقَادُ كَوْنِه مُسْتَحِقًّا لِلتَّعْظِيمِ، وإِظْهَارُ ذَلِكَ بِاللِّسَانِ أَوْ بِسَائِرِ الأَفْعَالِ، إِنْ وُجِدَتْ هُنَاكَ تُهْمَةٌ"[1].

دلالةُ إرداف الأَمْرِ بالشُّكْرِ بعد الأمرِ بالأكلِ:

شُكْرُ الله تعالى سلوكُ الأوفياء، ومنهجُ الأتقياء

في قَوْلِه ﷻ: ﴿كُلُواْ مِن طَيِّبَٰتِ مَا رَزَقۡنَٰكُمۡ وَٱشۡكُرُواْ لِلَّهِ﴾؛ "أَرْدَفَ اللَّهُ سُبْحَانَهُ وتعالى الأَمْرَ بِالأَكْلِ مِنَ الطَّيِّبَاتِ بِالأَمْرِ بِالشُّكْرِ؛ لِأَنَّ هَذِهِ الإِبَاحَةَ لِلطَّيِّبَاتِ نِعْمَةٌ، والنِّعْمَةُ تُوجِبُ الشُّكْرَ مِنَ المنْعِمِ الذي أباحَ ومكَّن، والشكرُ يكونُ بتركِ المعاصي ولزومِ الطَّاعات والتّقوى، والتَّقرُّب إليه سبحانه وتعالى، وطلب رضوانه"[2].

براعةُ الالتفاتِ من التَّكلُّمِ إلى الغَيْبةِ:

الأوامر الشَّرعيّةُ مقترنةٌ بالقيمِ التَّربويّة

في قَوْلِه ﷻ: ﴿وَٱشۡكُرُواْ لِلَّهِ﴾ "التِفَاتٌ مِنْ ضَمِيرِ المُتَكَلِّمِ إلى الغَيْبَةِ؛ إِذْ لَوْ جَرَى على الأُسْلُوبِ الأَوَّلِ لَقَال: (وَاشْكُرُونَا)"[3]، "وَحِكْمَةُ ذَلِكَ ظَاهِرَةٌ؛ لِأَنَّ هَذا الاِسْمَ الظَّاهِرَ مُتَضَمِّنٌ لِجَمِيعِ الأَوْصَافِ الَّتِي مِنْهَا وَصْفُ الإِنْعَامِ والرِّزْقِ والشُّكْرِ، لَيْسَ على هَذا الإِذْنِ الخَاصِّ، بَلْ يُشْكَرُ على سَائِرِ الإِنْعَامَاتِ والامْتِنَانَاتِ الَّتِي مِنْهَا هَذا الامْتِنَانُ الخَاصُّ"[4]، و"لِتَرْبِيَةِ المهَابَةِ"[5]، و"لِعَظَمِ الاهْتِمَامِ بِهِ سُبْحَانَهُ"[6].

(1) الرّازيّ، مفاتيح الغيب: 5/191.
(2) أبو زهرة، زهرة التّفاسير: 1/507.
(3) القِنَّوجي، فتح البيان: 1/341.
(4) أبو حيّان، البحر المحيط: 2/109.
(5) محمود عبد الرّحيم صافي، الجدول في إعراب القرآن: 2/342.
(6) الدّرويش، إعراب القرآن وبيانه: 1/243.

سرُّ تعديةِ فعلِ (شَكَرَ) باللّامِ لا بنفسِه:

التَّخفيفُ عن العبادِ في التَّكاليفِ أوفقُ بأحوالِهم، وأرفقُ بقدراتهم

قال ﷻ: ﴿وَٱشۡكُرُواْ لِلَّهِ﴾ ولَمْ يَقُل: (اشْكُرُوني) لِمَا بَيْنَهُمَا مِنْ فَرقٍ، فـ(شَكَرْتَ لَهُ): أَنْ تَعْتَبِرَ إِحْسَانَهُ الصَّادِرَ عَنْهُ، فَتُثْنِي عَلَيْهِ بِذَلِكَ، و(شَكَرْتَهُ): إذا لَمْ تَلْتَفِتْ إلى فِعْلِه، بَلْ تَجاوَزْتَ إلى ذِكْرِ ذاتِه دُونَ اعْتِبَارِ أَحْوَالِهِ وأَفْعَالِه، وإنَّمَا قال: ﴿وَٱشۡكُرُواْ لِلَّهِ﴾، ولم يَقُلْ: (واشكُروني)؛ عِلْمًا بِقُصُورِهِمْ عَنْ إِدْرَاكِه، بَلْ عَنْ إِدْرَاكِ آلَائِه، كَمَا قال تعالى: ﴿وَإِن تَعُدُّواْ نِعۡمَةَ ٱللَّهِ لَا تُحۡصُوهَآۗ﴾ [النحل: 18]، فَأَمَرَهُمْ أَنْ يَعْتَبِرُوا بَعْضَ أَفْعَالِه في الشُّكْرِ[1]، وفي ذلك تخفيفٌ عن العبادِ، بحسبِ ما يستطيعونَه من الشُّكرِ، ويتفاوتون فيه من مراتبِ التَّوجُّه إليه.

دِلالةُ الشَّرطِ في قوله: ﴿وَٱشۡكُرُواْ لِلَّهِ إِن كُنتُمۡ إِيَّاهُ تَعۡبُدُونَ﴾:

الشَّرْطُ غايَتُهُ التَّثبُّتُ وهَزُّ النُّفوسِ، رَبْطًا لِلعبادةِ بِالشُّكْرِ

عَلَّقَ النَّظمُ الأمرَ بالشُّكرِ بالعِبَادَةِ؛ فجعَلَ شرطَ الشُّكرِ العبادةَ، على معنى: "إِنْ صَحَّ أَنَّكُمْ تَخُصُّونَهُ بِالعِبَادَةِ"[2]، ذلك أنَّه إِنْ كَانَتِ العِبَادَةُ لِلَّهِ واجِبَةً عَلَى العبادِ، لأنَّه إلهُهم؛ فَالشُّكْرُ لَهُ واجِبٌ بِأَنَّهُ مُحْسِنٌ إِلَيْهِمْ، فَمَعْنَى الشَّرْطِ هَاهُنَا: المظَاهَرَةُ في الحِجاجِ[3]؛ فلا "يُرَادُ بِالشَّرْطِ هُنَا إلّا التَّثَبُّتُ والهَزُّ لِلنُّفُوسِ، وكأَنَّ المعْنَى: العِبَادَةُ لَهُ واجِبَةٌ، فَالشُّكْرُ لَهُ واجِبٌ، وذَلِكَ كَمَا تَقُولُ لِمَنْ هُوَ مُتَحَقِّقُ العُبُودِيَّةِ: إِنْ كُنْتَ عَبْدِي فَأَطِعْنِي، لا تُرِيدُ بِذَلِكَ التَّعْلِيقَ المحْضَ، بَلْ تُبْرِزُهُ في صُورَةِ التَّعْلِيقِ، لِيكون أَدْعَى لِلطَّاعَةِ وأَهَزَّ لَهَا"[4]، فالأمرُ بالشُّكرِ من قبيلِ إطلاقِ اسْمِ الأَثَرِ على المُؤَثِّرِ[5].

دلالةُ تقديمِ ﴿إِيَّاهُ﴾، وتأخيرِ (الفِعْلِ):

الدّلالةُ على العبادةِ الكاملةِ الخاصَّةِ به سبحانه وتعالى

قُدِّمَ ﴿إِيَّاهُ﴾ وهو مَفْعُولُ ﴿تَعۡبُدُونَ﴾ في قَوْلِهِ ﷻ: ﴿إِن كُنتُمۡ إِيَّاهُ تَعۡبُدُونَ﴾: "لِكَوْنِ العامِلِ فيهِ وقَعَ رَأْسَ آيَةٍ، ولِلاهْتِمامِ بِهِ والتَّعْظِيمِ

(1) البروسويّ، روح البيان: 1/256.
(2) الزّمخشريّ، الكشّاف: 1/214.
(3) الواحديّ، التّفسير البسيط: 3/495.
(4) أبو حيّان، البحر المحيط: 2/110.
(5) الرّازيّ، مفاتيح الغيب: 5/191.

لِشَأْنِه، لِأَنَّهُ عائِدٌ على اللَّهِ تعالى، كَما في: ﴿وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ۝٥﴾ [الفاتحة: 5]، وهَذا مِنَ المواضع الَّتي يَجِبُ فِيها انْفِصالُ الضَّميرِ، وهُوَ إذا تَقَدَّمَ على العامِلِ أَوْ تَأَخَّرَ، لَمْ يَنْفَصِلْ إلّا في ضَرُورَةٍ"[1]؛ والمعنى: "تَخُصُّونَهُ بالعِبادَةِ، وتُقِرُّونَ بِأَنَّه إِلَهُكُمْ لا غَيْرُهُ"[2]، فقدّمَ ﴿إِيَّاهُ﴾ لِإِفادَةِ الاخْتِصاصِ؛ "أَيْ: واشْكُرُوا لَهُ، لِأَنَّكُمْ تَخُصُّونَهُ بالعِبادَةِ؛ وتَخْصِيصُكُمْ إيّاهُ بالعِبادَةِ، يَدُلُّ على أَنَّكُمْ تُرِيدُونَ عِبادَةً كامِلَةً تَلِيقُ بِكِبْرِيائِه"[3].

أثرُ السِّياقِ في تقديرِ جوابِ الشَّرْطِ المحْذُوفِ

جَوابُ الشَّرْطِ في قَوْلِه ﷻ: ﴿إِن كُنتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ ۝١٧٢﴾ مَحْذُوفٌ، وقد دَلَّ عَلَيْهِ ما قَبْلَهُ، وهو الأَمْرُ، أَيْ: فَكُلُوا مِنْ طَيِّباتِ ما رَزَقْنَاكُمْ واشْكُرُوا لِلَّهِ[4]، ﴿إِن كُنتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ ۝١٧٢﴾ فاشْكُرُوا لِلّه.

(1) أبو حيّان، البحر المحيط: 2/110.
(2) القِنَّوجي، فتح البيان: 1/341.
(3) محمود عبد الرّحيم صافي، الجدول في إعراب القرآن: 2/343.
(4) الصاوي، حاشية الصّاوي على تفسير الجلالين، ص: 72.

﴿إِنَّمَا حَرَّمَ عَلَيْكُمُ ٱلْمَيْتَةَ وَٱلدَّمَ وَلَحْمَ ٱلْخِنزِيرِ وَمَآ أُهِلَّ بِهِۦ لِغَيْرِ ٱللَّهِ ۖ فَمَنِ ٱضْطُرَّ غَيْرَ بَاغٍ وَلَا عَادٍ فَلَآ إِثْمَ عَلَيْهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ١٧٣﴾ [البقرة: 173]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِمَا قَبْلَها:

إيرادُ ألْوانٍ مِنَ الـمُحَرَّماتِ، بَعْدَ ذِكْرِ ما أَحَلَّ لِعِبادِهِ في الآيَةِ السّابِقَةِ.

"اعْلَمْ أَنَّهُ سُبْحَانَهُ وتعالى لَمَّا أَمَرَنا في الآيَةِ السَّالِفَةِ بِتَناوُلِ الحَلَالِ، فَصَّلَ في هَذِهِ الآيَةِ أَنْوَاعَ الحَرَامِ"[1]، "ثُمَّ بَيَّنَ المحَرَّمَ مَا هُوَ، فَقال عَزَّ مِنْ قَائِلٍ: ﴿إِنَّمَا حَرَّمَ عَلَيْكُمُ ٱلْمَيْتَةَ﴾"[2].

إيراد ألوان من المُحرّمات، بعد ذكر ما أحلّ لعباده في الآية السّابقة

شَرْحُ المُفْرَدَاتِ:

1) ﴿ٱلْمَيْتَةَ وَٱلدَّمَ﴾: فالـمَيْتَةُ مِنَ الجَذْرِ (موت)، وأَصْلُهَا الـمَيِّتَةُ، فَحُذِفَتِ اليَاءُ الثَّانِيَةُ اسْتِخْفَافًا[3]، ونَقَلَ ابْنُ عَطِيَّةَ أَنَّهُمَا لُغَتانِ[4]، ﴿ٱلْمَيْتَةَ﴾: هُوَ الذي خَرَجَ مِنْ أَنْ يكون حَيًّا مِنْ دُونِ نَقْضِ بِنْيَةٍ، وفي الشَّرْعِ هُوَ غَيْرُ الـمُذَكّى؛ إِمَّا لِأَنَّهُ لَمْ يُذْبَحْ، أَوْ ذُبِحَ ولَكِنْ لَمْ يَكُنْ ذَبْحُهُ ذَكاةً[5].

الـميتةُ غَيْرُ الـمذَكَّى من الحيوان، والدَّمُ هو السَّائِل أو المسفوح

وأصْلُ ﴿ٱلْمَيْتَةَ﴾ بِتَشْدِيدِ الياءِ؛ لأَنَّ بِناءَهُ (فَيْعَلَةٌ)، والأصل (مَيْوِتَة)، وقد قلبت واوه ياء، وأدغمت الياء في الياء، والمَيْتة والمَيْتُ بالسّكون، هو من فارقت روحُه جسده، وأمّا المشدّدُ فهو الحيّ الّذي سيموت، قال بعضهم في هذا المعنى:

---

(1) الرّازيّ، مفاتيح الغيب: 5/191، والقِنَّوجي، فتح البيان: 1/341.
(2) الواحديّ، التّفسير البسيط: 3/495.
(3) الزّجاج، معاني القرآن وإعرابه: 1/243.
(4) ابن عطية، المحرّر الوجيز: 1/239.
(5) الرّازيّ، مفاتيح الغيب: 5/195.

أَيَا سَائِلِي تَفْسِيرَ مَيْتٍ ومَيِّتٍ***فَدُونَكَ قَدْ فَسَّرْتُ مَا عَنْهُ تَسْأَلُ
فَمَنْ كَانَ ذَا رُوحٍ فَذَلِكَ مَيِّتٌ***ومَا الميْتُ إِلَّا مَنْ إِلَى الْقَبْرِ يُحْمَلُ[1]

والدَّمُ "يَعْنِي السَّائِلَ؛ لِقَوْلِهِ في مَوْضِعٍ آخَرَ: ﴿أَوْ دَمًا مَّسْفُوحًا﴾ [الأنعام: 145]"[2].

الإهـلالُ رفْـعُ الصَّوْت بما ذُكر عليْه غـيْرُ اسْم اللّـه، قـربانًا للأصْنام

2) ﴿أُهِلَّ﴾: منَ الجَذْرِ (هلّ)، و"أصلُ المادَّةِ يَدُلُّ على رَفعِ صَوْتٍ"[3]، فالإهلالُ: رَفْعُ الصَّوتِ عِنْدَ رُؤْيَةِ الهِلالِ، ثُمَّ اسْتُعْمِلَ لِكُلِّ صَوْتٍ، ومنه ما رُفِعَ بِهِ الصَّوْتُ لِلصَّنَمِ؛ وذَلِكَ قَوْلُ أَهْلِ الجاهِلِيَّةِ: بِاسْمِ اللَّاتِ والعُزَّى[4].

ومعنى قَوْلِهُ: ﴿وَمَآ أُهِلَّ بِهِۦ لِغَيۡرِ ٱللَّهِۖ﴾ [البقرة: 173] أَيْ: مَا ذُكِرَ عَلَيْهِ غَيْرُ اسْمِ اللَّهِ، وهُوَ مَا كان يُذْبَحُ لِأَجْلِ الأَصْنَامِ[5].

الاضطرار سبيلٌ للرّخصة والتّيسير

3) ﴿ٱضۡطُرَّ﴾: منَ الجَذْرِ (ضرر)، وأصلُ المادَّةِ يَدُلُّ على خِلافِ النَّفْعِ، واضطُرَّ فُلانٌ إلى كَذا، منَ الضَّرُورَةِ[6]، و"اضْطَرَّهُ إلى كَذا: منَ الضَّرورَةِ، يُقالُ: الاضْطِرارُ يُذْهِبُ الاخْتِيارَ، ورَجُلٌ ذُو ضارُورةٍ وضَرُورةٍ: أَي ذُو حاجَةٍ، وقَدِ اضْطُرَّ إلى الشَّيءِ: أَي أُلْجِئَ إليه؛ قَالَ الشَّاعِرُ:

أَثِيبِي أَخا ضارُورةٍ أَصْفَقَ العِدَى***عَلَيْهِ، وقَلَّتْ في الصَّدِيقِ أَوَاصِرُهْ[7]

والمعنى: فمن أُحوِج وأُلجِئَ، وهُوَ افْتُعِلَ مِنَ الضَّرُورَةِ، مَعْنَاهُ: ضُيِّقَ عَلَيْهِ الأَمْرُ بِالجُوعِ، وأَصْلُهُ مِنَ الضَّرَرِ وهُوَ الضِّيقُ[8].

الباغي المتعدّي مَا حُدَّ لَهُ، والمتجاوزُ لما رُسم لهُ

4) ﴿بَاغٖ﴾: مِنَ الجَذْرِ (بغي)، و"البَغْيُ: طَلَبُ تَجاوُزِ الاقْتِصادِ فِيمَا يَتَحَرَّى"[9]، و"بَغَى الرَّجُلُ عَلَى صَاحِبِهِ يَبْغِي بَغْيًا، وذَلِكَ أَنْ

(1) الدّرّة، تفسير القرآن الكريم وإعرابه وبيانه: 1/394.
(2) النّسفي، مدارك التّنزيل: 1/151.
(3) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (هلّ).
(4) النّسفي، مدارك التّنزيل: 1/151، وأبو حيّان، البحر المحيط: 2/98.
(5) الرّاغب، المفردات: (هلل).
(6) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (ضرّ).
(7) ابن منظور، لسان العرب: 1/483.
(8) الواحدي، التَّفْسِير البَسِيط: 3/500.
(9) الرّاغب، المفردات: (بغي).

يَحْمِلَهُ عَلَى مَا يَكْرَهُ مُقْتَدِرًا، و(باغ) اسْمُ فَاعِلٍ، وزْنُهُ فَاعٍ، وفِيهِ إِعْلَال بِالحَذْفِ، حَيْثُ حُذِفَت اليَاءَ لِمُنَاسَبَةِ التَّنْوِين لِأَنَّهُ مَنْقُوصٌ، وأَصْلُهُ البَاغِي[1]، "وَالمُرَادُ بِالبَاغِي مَنْ يَأْكُلُ فَوْقَ حَاجَتِهِ"[2].

ومعنى ﴿غَيْرَ بَاغٍ﴾: أَيْ غَيْرَ مُتَعَدٍّ مَا حُدَّ لَهُ، أَوْ غَيْرَ طَالِبٍ مَا لَيْسَ لَهُ طَلَبُهُ، ولا مُتَجَاوِزٍ لِمَا رُسِمَ لَهُ[3].

لفظ (عادٍ) تعني من يأكُلُ المحرَّمات دون اضطرار

5) ﴿عَادٍ﴾: مِنَ الجَذْرِ (عدو)، وأَصْلُ المادّةِ يَدُلُّ على تَجَاوُزٍ في الشَّيْءِ وتقدُّم لِمَا يَنْبَغِي أَنْ يُقْتَصَرَ عَلَيْهِ[4]، ﴿وَلَا عَادٍ﴾، أَيْ ولا مُتَجَاوِزٍ مَا حُدَّ لَهُ[5]، و﴿عَادٍ﴾: اسْمُ فَاعِلٍ، أَصْلُهُ مِنَ العُدْوَانِ، وهُوَ الظُّلْمُ ومُجَاوَزَةُ الحَدِّ.

والمُرَادُ بِهِ مَنْ يَأْكُلُ هَذِهِ المحَرَّمَاتِ وهُوَ يَجِدُ عَنْهَا مَنْدُوحَةً وبُلْغَةً[6].

الله غفورٌ للعاصي، فلا يمسُّهُ العذاب، إذا ندم وتاب

6) ﴿غَفُورٌ﴾: من الجَذر (غفر)، وأصلُ المادَّة يَدُلّ عَلى السَّتْرِ[7]، وغَفُورٌ: صِفَةٌ مُشْتَقَّةٌ، وزْنُهَا فَعُولٌ، وهِيَ مُبَالَغَةُ اسْمِ الفَاعِلِ[8]، والغُفْرَانُ والمَغْفِرَةُ مِنَ اللهِ: هُوَ أَنْ يَصُونَ العَبْدَ مِنْ أَنْ يَمَسَّهُ العَذَابُ[9].

۞ المَعْنَى الإِجْمَالِيُّ:

أبطَلَ اللهُ ما حَرَّمَتِ الجاهِلِيَّةُ، وأبانَ ما رَخَّصَ من الضَّرورَةِ

إنّما حَرَّم اللّه عليكم - أَيُّهَا المؤمِنُونَ باللّهِ وبِرَسُولِه - ما يضرُّكم؛ كالميتة التي لم تُذْبح بطريقة شرعية، والدَّم المسفوح، ولحمِ الخنزير، والذَّبائح التي ذُبِحت لغير اللّه، ومِن فَضْلِ اللّه

(1) محمود عبد الرّحيم صافي، الجدول في إعراب القرآن: 2/345.
(2) القِنَّوجي، فتح البيان: 1/344.
(3) السّمين، عمدة الحفّاظ: (بغي).
(4) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (عَدَوَ).
(5) السّمين، عمدة الحفّاظ: (عدو).
(6) القِنَّوجي، فتح البيان: 1/344.
(7) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (غفر).
(8) محمود عبد الرّحيم صافي، الجدول في إعراب القرآن: 2/345.
(9) الرّاغب، المفردات: (غفر).

عليكم وتيسيره أنه أباح لكم أكل هذه المُحرَّمات عند الضرورة، فمن ألجأته الضرورةُ إلى أكل شيء منها، غيرَ ظالم في أكله فوقَ حاجته، ولا متجاوزٍ حدودَ الله فيما أُبيحَ له، فلا ذنب عليه في ذلك؛ إن الله غفور لعباده، رحيم بهم[1].

"وَفي هَذِهِ الآيَةِ دَلِيلٌ على القَاعِدَةِ المشْهُورَةِ: (الضَّرُورَاتُ تُبِيحُ المحْظُورَاتُ)، فكلّ محظورٍ اضْطُرَّ إليه الإنسان، فقد أَباحَه له الملِكُ الرَّحْمَنُ"[2].

۞ الإيضَاحُ اللُّغَوِيُّ وَالبَلَاغِيُّ:

براعةُ الاسْتِئْنَافِ البيانيّ في إظهارِ الأضدادِ:

كـثرةُ الطَّيِّباتِ المُباحاتِ، وقلَّةُ المُحرَّماتِ؛ دليلُ حكمةِ التَّشريعِ

جاءَ قولُه تعالى: ﴿إِنَّمَا حَرَّمَ عَلَيۡكُمُ ٱلۡمَيۡتَةَ وَٱلدَّمَ وَلَحۡمَ ٱلۡخِنزِيرِ﴾ اسْتِئْنَافًا بَيَانيًّا؛ "ذَلِكَ أَنَّ الإِذْنَ بِأَكْلِ الطَّيِّبَاتِ، يُثِيرُ سُؤَالَ مَنْ يَسْأَلُ: مَا الطَّيِّبَاتُ؟ فَجَاءَ هَذا الاسْتِئْنَافُ مُبَيِّنًا المحَرَّمَاتِ، وهِيَ أَضْدَادُ الطَّيِّبَاتِ، لِتُعْرَفَ الطَّيِّبَاتُ بطريق المُضادَّةِ المُسْتَفادَةِ مِنْ صِيغَةِ الحَصْرِ، وإنّمَا سَلَكَ طَرِيقَ بَيَانِ ضِدّ الطَّيِّبَاتِ لِلاخْتِصَارِ فَإِنَّ المحَرَّمَاتِ قَلِيلَةٌ، ولِأَنَّ في هَذا الحَصْرِ تَعْرِيضًا بِالمُشْرِكِينَ الّذينَ حَرَّمُوا عَلَى أَنْفُسِهِمْ كَثِيرًا مِنَ الطَّيِّبَاتِ وأَحَلُّوا الميْتَةَ والدَّمَ"[3]، وهذا يدلُّ على حكمةِ التَّشريعِ القرآنيِّ؛ فإنَّه قائمٌ على تقليلِ مساحةِ المُحرَّمات، رِفقًا بالعبادِ، ومراعاةً للواقع.

فَائِدَةُ الحصْرِ بـ ﴿إِنَّمَا﴾ دون غيرها في قوله: ﴿إِنَّمَا حَرَّمَ عَلَيۡكُمُ ٱلۡمَيۡتَةَ﴾:

المُحرَّماتُ كانَتْ مَعْلومَةَ الخطَرِ والضَّرَرِ، وذُكِرت للتَّنبيه

أفادتْ ﴿إِنَّمَا﴾ في قَوْلِهِ ﷻ: ﴿إِنَّمَا حَرَّمَ عَلَيۡكُمُ ٱلۡمَيۡتَةَ وَٱلدَّمَ وَلَحۡمَ ٱلۡخِنزِيرِ وَمَآ أُهِلَّ بِهِۦ لِغَيۡرِ ٱللَّهِۖ﴾، الحَصْرَ، والمَعْنَى: "مَا حَرّمَ عَلَيْكُمْ إِلّا الميْتَةَ، والدَّمَ، ولَحْمَ الخنْزِيرِ؛ لِأَنَّ (إِنَّمَا) تَأْتِي إِثْبَاتًا لِمَا يُذْكَرُ

(1) ابن جرير، جامع البيان: 3/317، ونخبة من العلماء، التفسير الميسر: ص26.
(2) السّعدي، تيسير الكريم الرّحمن، ص: 82.
(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 2/115.

بَعْدَهَا ونَفيًا لِمَا سِواهُ"[1]، و"الغَايَةُ مِنَ القَصْرِ: تَمْكِينُ الكَلَامِ وتَقْرِيرُهُ في الذِّهْنِ"[2]، وهَذا يَعْنِي أَنَّهَا تَأْتِي لِتَقْرِيرِ مَا سَبَقَ العِلْمُ بِه، فالأَصْلُ في (إنَّمَا) "أَنْ تَجِيءَ لِأَمْرٍ مِنْ شَأْنِهِ أَلَّا يَجْهَلَهُ المخاطَبُ، ولا يُنْكِرَهُ، وإنّمَا يُرَادُ تَنْبِيهُهُ فَقَط، أَوْ لِمَا هو مُنَزَّلٌ هَذِهِ المنْزِلَةَ"[3].

وَالمُحَرَّمَاتُ المذْكورَةُ في الآيَة مَعْلومٌ تَحْرِيمُها لَدَيْهِم؛ "فَإِنَّهُ تعالى قال في آيَة أُخْرَى: ﴿قُل لَّآ أَجِدُ فِي مَآ أُوحِيَ إِلَيَّ مُحَرَّمًا عَلَىٰ طَاعِمٍ يَطۡعَمُهُۥٓ إِلَّآ أَن يَكُونَ مَيۡتَةً أَوۡ دَمٗا مَّسۡفُوحًا أَوۡ لَحۡمَ خِنزِيرٖ﴾ [الأنعام: 145]، فَصَارَتِ الآيَتَانِ واحِدَةً؛ فَقَوْلُهُ: ﴿إِنَّمَا حَرَّمَ عَلَيۡكُمُ﴾ في هَذِهِ الآيَةِ مُفَسِّرٌ لِقَوْلِه: ﴿قُل لَّآ أَجِدُ فِي مَآ أُوحِيَ إِلَيَّ مُحَرَّمًا﴾ إِلّا كَذا، في تِلْكَ الآيَةِ"[4]، وآيَةُ الأَنْعَام مُتَقَدِّمَةٌ على آيَةِ البَقَرَة، وهَذا يَدُلُّ على أَنَّ هَذِهِ المحَرَّمَاتِ لَيْسَتْ مَجْهولَةً عِنْدَهُمْ، ولذلك حَسُنَ مجيءُ أداة (إنَّما) دون غيرها.

توجيهُ القَصْرِ في قولِه تعالى: ﴿إِنَّمَا حَرَّمَ عَلَيۡكُمُ ٱلۡمَيۡتَةَ﴾:

القَصْرُ إضافيٌّ، وهو رَدٌّ على مَنْ حَرَّمَ ما لم يُحَرِّمِ اللهُ

لا يَخْفَى أَنَّ هُنَاكَ مُحَرَّمَاتٍ لَمْ تُذْكَرْ في الآيَةِ، فَما وَجْهُ قَصْرِ المُحَرَّم على مَا ذُكِرَ؟ والمفسِّرون "اتَّفَقوا على أَنَّ ظَاهِرَ الآيَةِ يَقْتَضِي أَنْ لا يُحَرَّم سِوَى هَذِهِ الأَشْيَاءِ، لَكِنَّا نَعْلَمُ أَنَّ في الشَّرْعِ أَشْيَاءَ أُخَرَ سِوَاهَا مِنَ المحَرَّمَاتِ"[5].

والجوابُ أن يُقالُ: إنَّ "المرَادَ قَصْرُ الحُرْمَةِ على مَا ذُكِرَ ممَّا اسْتَحَلَّهُ الكُفَّارُ، لا مُطْلَقًا، وقَصْرُ مَا ذُكِرَ على حَالِ الاخْتِيَارِ، كَأَنَّهُ قِيلَ: إنّما حَرَّمَ عَلَيْكُمْ هَذِهِ الأَشْيَاءَ، مَا لَمْ تُضْطَرُّوا إِلَيْهَا"[6].

وَالوَجْهُ أَنَّ قَوْلَهُ تعالى: ﴿إِنَّمَا حَرَّمَ عَلَيۡكُمُ ٱلۡمَيۡتَةَ﴾ مِنَ القَصْرِ الإِضَافيِّ[7]؛ فـ"المَقْصُودُ مِنْ هَذا الحَصْرِ الرَّدُّ على مَنْ

(1) الزجاج، معاني القرآن وإعرابه: 1/243.
(2) أحمد الهاشميّ، جواهر البلاغة في المعاني والبيان والبديع، ص: 170.
(3) أحمد الهاشميّ، جواهر البلاغة في المعاني والبيان والبديع، ص: 170.
(4) الرّازيّ، مفاتيح الغيب: 5/191- 192.
(5) المصدر السّابق: 5/201.
(6) الشّربيني، السّراج المنير: 1/113.
(7) يُقَسَّمُ القَصْرُ بِاعْتِبَارِ الحَقِيقَةِ والْوَاقِعِ إِلىَ قِسْمَيْنِ: قَصْر حَقِيقِيّ: وهُوَ أَنْ يَخْتَصَّ المقْصُورُ بِالْمَقْصُورِ عَلَيْهِ بِحَسَبِ الحَقِيقَةِ والْوَاقِعِ، بِأَلاَّ يَتَعَدَّاهُ إِلَى غَيْرِهِ أَصْلًا، نَحْو: لَا إِلَهَ إِلّا اللَّه. وقَصْر إِضَافِيّ: وهُوَ أَنْ يَخْتَصَّ المقْصُورُ بِالْمَقْصُورِ عَلَيْهِ بِحَسَبِ الإِضَافَةِ والنِّسْبَةِ إِلَى شَيْءٍ آخَرَ مُعَيَّنٍ، لَا لِجَمِيعِ مَا عَدَاهُ، نَحْو: مَا خَلِيلٌ إِلّا مُسَافِرٌ، فَإِنَّكَ تَقْصِدُ قَصْرَ السَّفَرِ عَلَيْهِ بِالنِّسْبَةِ لِشَخْصٍ غَيْرِهِ، كَمَحْمُودٍ مَثَلًا، ولَيْسَ قَصْدُكَ أَنَّهُ لَا يُوجَدُ مُسَافِرٌ سِوَاهُ، إِذ الوَاقِعُ يَشْهَدُ بِبُطْلَانِهِ، ينظر: أحمد الهاشميّ، جواهر البلاغة في المعاني والبيان والبديع، ص: 170.

حَرّمَ البَحِيرَةَ والسَّائِبَةِ والوصِيلَةِ والحَامي، وعلى مَنْ أَحَلَّ بَعْضَ المحَرَّمَاتِ؛ فَالحَصْرُ إِضَافِيٌّ"[1].

ويُذكَرُ أنّ هذِهِ الآيَةَ الكريمة، قَدْ حَصَرَتِ المُحَرَّمَ، لا سِيَّما وقَد جاءَتْ عَقِبَ المُحَلَّلِ في الآيَةِ السّابِقَةِ، الّتي أدَّتْ مَعْنى الإباحَةِ عَلى الإطلاقِ، ثُمّ أَعْقَبَتْها أَداةُ الحَصْرِ (إنّما)، فاقْتَضى ذلِكَ الإيعابَ للقِسْمَيْنِ، وعَليه فلا مُحَرَّمَ يَخْرُجُ عَنْ هذِهِ الآيَةِ[2].

نُكتةُ الإيجازِ بِحَذْفِ المضَافِ في: ﴿حَرَّمَ عَلَيۡكُمُ ٱلۡمَيۡتَةَ﴾:

تنفيرُ المخاطَبِ من المُحرَّماتِ

أُسْنِدَ التَّحْرِيمُ إلى الميْتَةِ في قَوْلِه ﷻ: ﴿حَرَّمَ عَلَيۡكُمُ ٱلۡمَيۡتَةَ﴾ فالظَّاهِرُ "أَنَّ المحْذُوفَ هُوَ الأَكْلُ؛ لِأَنَّ التَّحْرِيمَ لا يَتَعَلَّقُ بِالعَيْنِ، ولِأَنَّ السَّابِقَ المُبَاحَ هُوَ الأَكْلُ في قَوْلِه: ﴿كُلُواْ مِمَّا فِي ٱلۡأَرۡضِ﴾، ﴿كُلُواْ مِن طَيِّبَٰتِ مَا رَزَقۡنَٰكُمۡ﴾، فَالمَمْنُوعُ هُنَا هُوَ الأَكْلُ، وهَكَذا حَذْفُ المضَافِ يُقَدَّرُ بِمَا يُنَاسِبُ"[3] السِّياقَ، ومقتضى السِّياقِ هنا أن يكون تقديرُ المحذوفِ الأكلَ، ونكتةُ ذلك تنفيرُ المخاطَبِ من الميتةِ؛ بإيقاعِ التَّحريم عليها كلِّها.

وَجهُ ذكرِ لَفْظِ (اللَّحْم) مَعَ الخِنْزِيرِ دُونَ المَيْتَةِ:

لحمُ الخنزيرِ هو المقصودُ بالتّحريمِ أصالةً، وغيرُه تابعٌ له

ذُكر اللَّحمُ مضافًا إلى الخنزير دون الميتةِ، مع تقدُّمِها عليه، في قَوْلِه ﷻ: ﴿حَرَّمَ عَلَيۡكُمُ ٱلۡمَيۡتَةَ وَٱلدَّمَ وَلَحۡمَ ٱلۡخِنزِيرِ﴾؛ وذلك "أَنَّ الخِنْزِيرَ غَيْرُ مَقْدُورٍ عَلَيْهِ إلّا بالاصْطِيَادِ، والاصْطِيَادُ فِيهِ في غَالِبِ أَمْرِهِ إنّما يكون لِلَحْمِه، فَعُلِّقَ بِمَا هُوَ المقْصُودُ فِيهِ غَالِبًا، بِخِلَافِ المَيْتَةِ؛ فَإِنَّ النُّفُوسَ تَفِرُّ مِنْهَا وتَكْرَهُ لَحْمَهَا، فَالمُحَرَّمَ جَمِيعُهَا"[4].

وأراد بالخنزيرِ "جَمِيعَ أَجْزَائِهِ، لَكِنَّهُ خَصَّ اللَّحْمَ؛ لِأَنَّهُ المقْصُودُ

(1) حاشية الصّاوي على تفسير الجلالين، ص: 72.

(2) ابن عقيلة، الزّيادة والإحسان في علوم القرآن: 4/333.

(3) أبو حيّان، البحر المحيط: 2/111.

(4) ابن عرفة، تفسير ابن عرفة: 2/506-507.

بالأَكْلِ"[1]، وقَدْ "أَجْمَعَتِ الأُمَّةُ على أَنَّ الخِنْزِيرَ بِجَمِيعِ أَجْزَائِه مُحَرَّمٌ، وإنّمَا ذَكَرَ اللّٰه تعالى لَحْمَهُ، لِأَنَّ مُعْظَمَ الانْتِفَاعِ مُتَعَلِّقٌ بِه، وهو كقَوْلِه: ﴿إِذَا نُودِىَ لِلصَّلَوٰةِ مِن يَوْمِ ٱلْجُمُعَةِ فَٱسْعَوْاْ إِلَىٰ ذِكْرِ ٱللَّهِ وَذَرُواْ ٱلْبَيْعَ﴾ [الجمعة: 9] فَخُصَّ البَيْعُ بِالنَّهْيِ لَمَّا كان هُوَ أَعْظَمَ المهمَّات عِنْدَهُمْ"[2]، وقال ابْنُ عَطِيَّة: "خُصَّ ذِكْرُ اللَّحْمِ مِنَ الخِنْزِير؛ لِيَدُلَّ على تَحْرِيم عَيْنِه، ذُكِّيَ أَوْ لَمْ يُذَكَّ، ولِيَعُمَّ الشَّحْمَ ومَا هُنَالِكَ مِنَ الغَضَارِيفِ وغَيْرِهَا"[3]، أو "لأَنَّهُ مُعْظَمُ مَا يُؤْكَلُ مِنَ الحَيَوَانِ، وسَائِرُ أَجْزَائِه كَالتَّابِعِ لَهُ"[4]، واكْتَفَى بِاللَّحْمِ دُونَ الشَّحْمِ؛ "لأَنَّ الشَّحْمَ دَاخِلٌ في ذِكْرِ اللَّحْم؛ لِكَوْنِه تَابِعًا لَهُ، وصِفَةً فِيه، بِدَلِيلِ قَوْلِهِمْ: لَحْمٌ سَمِينٌ، يُرِيدُونَ أَنَّهُ شَحِيمٌ"[5].

بَيانُ المَفْعولِ الّذي لَم يُسَمَّ فاعِلُهُ، في قوله: ﴿وَمَآ أُهِلَّ بِهِۦ﴾:

المـقـصـودُ هُـوَ فِعْلُ الإِهْلالِ، لا فاعِلُهُ

قولُه تعالى: "﴿أُهِلَّ﴾: مَبْنِيٌّ لِلْمَفْعُولِ الّذي لَمْ يُسَمَّ فَاعِلُهُ، والمَفْعُولُ الّذي لَمْ يُسَمَّ فَاعِلُهُ هو الجارُّ والمَجْرُورُ في قَوْلِه: ﴿بِهِۦ﴾، والضَّميرُ في ﴿بِهِۦ﴾، عَائِدٌ على ﴿مَا﴾"[6]، وهُوَ مَا ذُبِحَ، ثمّ إنّ البِناءَ للفاعِلِ غَيْرِ المَعْلوم، يُفيدُ أَنَّ ما ذُكِرَ وما لَمْ يُذْكَرْ مِنَ الأَنْعام الصّالِحَةِ للذَّكَاةِ، إذا أُهِلَّ بها لِغَيْرِ اللّٰه، لَم تُصبِحْ حَلالًا، ولم يُحَدَّدْ في السِّيَاقِ مَنْ فَعَلَ ذَلِكَ؛ لِأَنَّ الفاعِلَ لَمْ يُسَمَّ، فالمقصودُ هُوَ الفِعْلُ والنِّيَّةُ والقَوْلُ، ولَيْسَ الفاعِلَ، ولِذلِكَ جاءَ غَيْرَ مَعْلوم ولا مُسَمًّى، وهُوَ مِنْ بلاغةِ الأسْلوبِ القُرآنيِّ البَديع.

يَنْدَرِجُ في لَفْظِ (غَيْرِ اللَّهِ) الصَّنَمُ، وكلّ ما كان لِلتَّفَاخُرِ والتَّبَاهِي

في قَوْلِه ﷻ: ﴿وَمَآ أُهِلَّ بِهِۦ لِغَيْرِ ٱللَّهِ﴾، حَدَّدَ بَعْضُ المفسِّرينَ المرَادَ بِغَيْرِ اللّٰه تعالى، فَذَكَرُوا أنَّهُ مَا أُهِلَّ بِهِ لِلْأَصْنَام، أوِ الافْتِخَار،

(1) الرّازيّ، مفاتيح الغيب: 5/192.
(2) المصدر السّابق: 5/200.
(3) ابن عطيّة، المحرّر الوجيز: 1/240.
(4) البيضاويّ، أنوار التّنزيل: 1/119.
(5) الزّمخشريّ، الكشّاف: 1/215.
(6) أبو حيّان، البحر المحيط: 2/115-116.

"﴿وَمَآ أُهِلَّ بِهِۦ لِغَيۡرِ ٱللَّهِۖ﴾؛ أَيْ مَا ذُبِحَ لِلْأَصْنَام والطَّوَاغِيت؛ قالهُ ابْنُ عَبَّاس ومُجَاهِدٌ وقَتَادَةُ والضَّحَّاكُ، أَوْ مَا ذُكِرَ عَلَيْهِ اسْمُ غَيْرِ اللّٰهِ؛ قالهُ الرَّبِيعُ بْنُ أَنَس وغَيْرُهُ، أَوْ مَا ذُكِرَ اسْمُ المسِيحِ عَلَيْهِ؛ قالهُ الزُّهْرِيُّ"[1]، "اسْتَدَلَّ بِهِ مَنْ حَرَّمَ مَا ذَبَحَهُ أَهْلُ الكِتَابِ لِأَعْيَادِهِمْ وكَنَائِسِهِمْ وعلى اسْمِ المسِيحِ"[2].

وَقال الرَّازِي: "فَمَعْنَى قَوْلِه: ﴿وَمَآ أُهِلَّ بِهِۦ لِغَيۡرِ ٱللَّهِۖ﴾، يَعْنِي مَا ذُبِحَ لِلْأَصْنَام، وهُوَ قَوْلُ مُجَاهِدٍ، والضَّحَّاك، وقَتَادَة، وقال الرَّبِيعُ بْنُ أَنَسٍ وابْنُ زَيْدٍ: يَعْنِي مَا ذُكِرَ عَلَيْهِ غَيْرُ اسْمِ اللّٰهِ، وهَذا القَوْلُ أَوْلَى، لِأَنَّهُ أَشَدُّ مُطَابَقَةً لِلَّفْظِ"[3].

وَالوَجْهُ جَعْلُهُ عَامًّا يَدْخُلُ فِيهِ كُلُّ مَا ذَكَرَ ظَاهِرُ قَوْلِه: ﴿لِغَيۡرِ ٱللَّهِۖ﴾، "لِأَنَّ الإِهْلَالَ لِغَيْرِ اللّٰهِ هُوَ إِظْهَارُ غَيْرِ اسْمِ اللّٰهِ، ولَمْ يُفَرِّقْ بَيْنَ اسْمِ المسِيحِ واسْمِ غَيْرِهِ، فَيَنْدَرِجُ في لَفْظِ (غَيْرِ اللّٰهِ) الصَّنَمُ والمَسِيحُ والفَخْرُ واللَّعِبُ ومَا قُصِدَ بِهِ غَيْرُ وجْهِ اللّٰهِ تعالى لِلتَّفَاخُرِ والتَّبَاهِي"[4].

وَممَّا يُرَجِّحُ كَوْنَ المرَادِ الأَصْنَامَ قَوْلُهُ تعالى: ﴿وَمَا ذُبِحَ عَلَى ٱلنُّصُبِ﴾ [المائدة: 3]، تَنْبِيهًا على أَنَّ المقْصُودَ بِالخِطَابِ هُمُ المشْرِكُونَ؛ لِأَنَّهُمْ كَانُوا يَسْتَحِلُّونَ هَذِهِ الأُمُورَ، ولَيْسَ المرَادُ تَخْصِيصَ (مَا كان لغَيْرِ اللّٰهِ تعالى) بِهِ[5]، فَالمُرَادُ غَيْرُ اللّٰهِ مُطْلَقًا، سَوَاءٌ كان صَنَمًا أَوْ غَيْرَهُ، ولَيْسَ الغَرَضُ تَخْصِيصَ ذَلِكَ بِالصَّنَم، وإِنْ كان أَكْثَرُ وُقُوعِه مِنَ المشْرِكِينَ[6].

وَإِنْ كان قَدْ حَرَّمَ في هَذِهِ الآيَةِ مَا ذُكِرَ عَلَيْهِ غَيْرُ اسْمِ اللّٰهِ، فَإِنَّهُ قَدْ حَرَّمَ في آيَةٍ أُخْرَى مَا لَمْ يُذْكَرْ عَلَيْهِ اسْمُ اللّٰهِ: ﴿وَلَا تَأۡكُلُواْ مِمَّا لَمۡ يُذۡكَرِ ٱسۡمُ ٱللَّهِ عَلَيۡهِ وَإِنَّهُۥ لَفِسۡقٌۗ﴾ [الأنعام: 121]، قال الطَّبَرِيّ: "لا تَأْكُلوا، أَيُّهَا المؤْمِنُونَ، مِمَّا مَاتَ فَلَمْ تَذْبَحُوهُ أَنْتُمْ، أَوْ يَذْبَحْهُ مُوَحِّدٌ يَدِينُ لِلّٰهِ بِشَرَائِعَ شَرَعَهَا لَهُ في كِتَابٍ مُنَزَّلٍ، فَإِنَّهُ حَرَامٌ عَلَيْكُمْ، ولا ﴿مَآ أُهِلَّ بِهِۦ لِغَيۡرِ ٱللَّهِۖ﴾ مِمَّا ذَبَحَهُ المشْرِكُونَ لِأَوْثَانِهِمْ، فَإِنَّ أَكْلَ ذَلِكَ فِسْقٌ"[7].

---

(1) أبو حيّان، البحر المحيط: 2/115.
(2) السّيوطي، الإكليل في استنباط التّنزيل، ص: 36.
(3) الرّازي، مفاتيح الغيب: 5/192.
(4) أبو حيّان، البحر المحيط: 2/115.
(5) محمّد عبد الحقّ، الإكليل على مدارك التّنزيل: 2/6.
(6) عصام الدّين الحنفيّ، حاشية القونويّ على تفسير البيضاويّ: 4/443.
(7) ابن جرير، جامع البيان: 12/76.

بَيَانُ مَعْنَى البَاءِ في: ﴿وَمَآ أُهِلَّ بِهِۦ﴾:

الإهلالُ عِندَ الذَّبحِ، وعلاقتُهُ بالظَّرفيَّةِ الزَّمانيَّةِ

اختُلف في معنى الباءِ في قَوْلِهِ ﷻ: ﴿وَمَآ أُهِلَّ بِهِۦ﴾، فقيل: عِنْدَ ذَبْحِهِ بَيَانًا لِلتَّلَبُّسِ، وقيل: بمعنى السَّبَبِيَّة، أيْ: بِسَبَبِ ذَبْحِهِ[1]، وقيل: بمعنى الظَّرفيَّة، وحينها "لَا بُدَّ مِنْ حَذْفِ مُضَافٍ، أيْ (في ذَبْحِه)؛ لِأَنَّ المعْنَى: ومَا صِيحَ في ذَبْحِه لِغَيْرِ اللَّه"[2]، فَيكون بِمَعْنَى الظَّرْفِيَّة الزَّمَانِيَّة، أيْ: في وقْتِ ذَبْحِهِ ذُكِرَ اسْمُ غَيْرِ اللَّهِ؛ "أيْ: رُفِعَ الصَّوْتُ لِغَيْرِ اللَّهِ عِنْدَ ذَبْحِه"[3].

توجيه المتشابه اللَّفظيّ:

تقديمُ (بِهِ) وتأخيرُه مدارُه على مقصودِ الكلامِ

قُدِّم الجارُّ والمجرورُ في قولِه تعالى: ﴿وَمَآ أُهِلَّ بِهِۦ لِغَيْرِ ٱللَّهِۖ﴾ [البقرة: 173]، بينما أُخِّر ذكرُه في بقيَّة الآيات: ﴿وَمَآ أُهِلَّ لِغَيْرِ ٱللَّهِ بِهِۦ﴾ [المائدة: 3]، [الأنعام: 145]، [النحل: 115]؛ وذَلِكَ لِأَنَّ الباءَ لِلتَّعْدِيَةِ، كالهَمْزَةِ والتَّشْدِيدِ، فهِيَ كَالجُزْءِ مِنَ الفِعْلِ، فكانَ المَوْضِعُ الأَوَّلُ أَوْلى بها وبِمَدْخُولِها، وأُخِّرَ في بَقِيّةِ المَواضِعِ، نَظَرًا لِلمَقْصودِ فيها، مِنْ ذِكْرِ المُسْتَنْكَرِ، وهُوَ الذَّبْحُ لِغَيرِ اللَّه[4].

"وإنّما قُدِّمَ ﴿بِهِۦ﴾ هُنَا؛ لِأَنَّهُ أَمَسُّ بالفِعْلِ، وأُخِّرَ في مَوَاضِعَ أُخَرَ نَظَرًا لِلْمَقْصُودِ فِيهَا مِنْ ذِكْرِ المُسْتَنْكَرِ، وهُوَ الذَّبْحُ لِغَيْرِ اللَّهِ عَزَّ شَأْنُهُ"[5]، و"قَدَّمَ ﴿بِهِۦ﴾ في هَذِه السُّورة وأَخَّرها في [المَائِدَة: 3]، و[الأنعام: 145]، و [النّحل: 115]؛ لِأَنَّ تَقْدِيمَ البَاءِ هو الأَصْلُ؛ فَإِنَّهَا تجْرِي مَجْرَى الهَمْزَةِ والتَّشْدِيدِ في التَّعَدِّي، فَكَانَت كحرفٍ من الفِعْلِ، فَكان الموضِعُ الأَوَّلُ أولى بِمَا هُوَ الأَصْلُ؛ لِيُعلَمَ مَا يَقْتَضِيهِ اللَّفْظ، ثمَّ قَدَّمَ فِيمَا سواهَا مَا هُوَ المستَنْكَر، وهُوَ الذّبحُ لِغيرِ اللَّه، وتَقْدِيم مَا هُوَ الغَرَضُ أَوْلَى"[6].

(1) محمّد عبد الحقّ، الإكليل على مدارك التّنزيل: 2/5 12.
(2) الجمل، الفتوحات الإلهيّة: 1/208.
(3) محمّد عبد الحقّ، الإكليل على مدارك التّنزيل: 2/16.
(4) الهرريّ، تفسير حدائق الرّوح والرّيحان: 3/103.
(5) الآلوسي، روح المعانّي: 1/440.
(6) الكرماني، أسرار التّكرار في القرآن، ص: 81، والفيروزآبادي، بصائر ذوي التّمييز: 1/150- 151.

دلالة (الفاء) في قوله: ﴿فَمَنِ ٱضۡطُرَّ غَيۡرَ بَاغٖ وَلَا عَادٖ﴾:

"الفَاءُ فِيهِ لِتَفْرِيعِ الإِخْبَارِ لا لِتَفْرِيعِ المعْنَى، فَإِنَّ مَعْنَى رَفْعِ الحَرَجِ عَنِ المضْطَرِّ لا يَنْشَأُ عَنِ التَّحْرِيمِ"[1].

تَعلُّقُ الحُكْمِ بِالأَشْخَاصِ، يُرَجِّحُ كَوْنَ (مَنْ) مَوْصُولَةً:

في قَوْلِهِ ﷻ: ﴿فَمَنِ ٱضۡطُرَّ غَيۡرَ بَاغٖ وَلَا عَادٖ﴾ الأَوْلَى أَنْ تَكُونَ (مَنْ) مَوْصُولَةً؛ لِأَنَّ القَضِيَّةَ الشَّرْطِيَّةَ لا تَدُلُّ على وُقُوعِ الشَّيْءِ، ولَا على إِمْكَانِ وُقُوعِهِ[2]، وتَعَلُّقُ الحُكْمِ بِالأَشْخَاصِ يُرَجِّحُ كَوْنَ (مَنْ) مَوْصُولَةً.

الإِيجَازُ بِالحَذْفِ لمقدّر: ﴿فَمَنِ ٱضۡطُرَّ غَيۡرَ بَاغٖ وَلَا عَادٖ﴾:

الاضْطِرَارُ لِلأَكْلِ مِنَ المُحَرَّمِ يَرْفَعُ الإِثْمَ؛ رُخْصَةً لِلمُضْطَرِّ

في قَوْلِهِ ﷻ: ﴿فَمَنِ ٱضۡطُرَّ غَيۡرَ بَاغٖ وَلَا عَادٖ﴾ "إِضْمَارٌ، مَعْنَاهُ: فَمَنِ اضْطُرَّ إلى شَيْءٍ مِمَّا ذَكَرْنَا أَنَّهُ مُحَرَّمٌ"[3]؛ إِذِ الاضْطِرَارُ "لَيْسَ مِنْ أَفْعَالِ المُكَلَّفِ، حَتَّى يُقالَ: إِنَّهُ لا إِثْمَ عَلَيْهِ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ؛ فَإِذَنْ لا بُدَّ هَاهُنَا مِنْ إِضْمَارٍ، وهُوَ الأَكْلُ، والتَّقْدِيرُ: فَمَنِ اضْطُرَّ فَأَكَلَ فَلَا إِثْم عَلَيْهِ، والحَذْفُ هَاهُنَا كَالحَذْفِ في قَوْلِهِ: ﴿فَمَن كَانَ مِنكُم مَّرِيضًا أَوۡ عَلَىٰ سَفَرٖ فَعِدَّةٞ مِّنۡ أَيَّامٍ أُخَرَۚ﴾ [البَقَرَة: 184] أَيْ: فَأَفْطَرَ، فَحَذَفَ (فَأَفْطَرَ)، وقَوْلِهِ: ﴿فَمَن كَانَ مِنكُم مَّرِيضًا أَوۡ بِهِۦٓ أَذٗى مِّن رَّأۡسِهِۦ فَفِدۡيَةٞ مِّن صِيَامٍ أَوۡ صَدَقَةٍ﴾ [البَقَرَة: 196] ومَعْنَاهُ: (فَحَلَقَ فَفِدْيَةٌ)، وإِنَّمَا جَازَ الحَذْفُ لِعِلْمِ المخَاطَبِينَ بِالحَذْفِ، ولِدَلَالَةِ الخِطَابِ عَلَيْهِ"[4]، "وَالمحْذُوفُ الّذي قَدَّرْنَاهُ مِنْ قَوْلِنَا: فَأَكَلَ، لا بُدَّ مِنْهُ، لِأَنَّهُ لا يَنْفِي الإِثْمَ عَمَّنْ لَمْ يُوجدْ مِنْهُ الاضْطِرَارُ، ولَا يَتَرَتَّبُ ذَلِكَ على الاضْطِرَارِ وحْدَهُ، بَلْ على الأَكْلِ المتَرَتِّبِ على الاضْطِرَارِ"[5].

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 2/120.
(2) تفسير ابن عرفة: 2/507.
(3) الواحديّ، التَّفْسِير البَسِيط: 3/500.
(4) الرّازي، مفاتيح الغيب: 5/193.
(5) أبو حيّان، البحر المحيط: 2/118.

قوله (غَيْرَ باغٍ)، تعالجُ شأْن المضطرِّ، مع الإشارة إلَى علَّةِ الرُّخْصَةِ

دلالةُ مجيءِ (غَيْر) دون (لا) في الآية:

في قَوْلِه ﷻ: ﴿فَمَنِ ٱضۡطُرَّ غَيۡرَ بَاغٖ وَلَا عَادٖ﴾، جاءَت كلمةُ ﴿غَيۡرَ﴾ حالًا "لِلْمُضطرِّ، كَأنَّكَ قُلْتَ: فَمَنَ اضْطُرَّ لا بَاغيًا ولَا عَاديًا، فَهُوَ لَهُ حَلَالٌ، والنَّصْبُ هَاهُنَا بِمنْزِلَة قَوْلِه: ﴿أُحِلَّتۡ لَكُم بَهِيمَةُ ٱلۡأَنۡعَٰمِ إِلَّا مَا يُتۡلَىٰ عَلَيۡكُمۡ غَيۡرَ مُحِلِّي ٱلصَّيۡدِ﴾ [المائدة: 1]، ومِثْلُه: ﴿إِلَّآ أَن يُؤۡذَنَ لَكُمۡ إِلَىٰ طَعَامٍ غَيۡرَ نَٰظِرِينَ إِنَىٰهُ﴾ [الأحزاب: 53]، و﴿غَيۡرَ﴾ هَاهُنَا لا تَصلُحُ (لا) في مَوْضِعِهَا؛ لِأَنَّ (لَا) تَصلُحُ في مَوْضِعِ (غَيْر)، وإذا رَأَيْتَ (غَيْر) يَصلُحُ (لا) في مَوْضِعِهَا فَهِيَ مُخَالِفَةٌ (لِغَيْر) التي لا تَصلُحُ (لَا) في مَوْضِعِهَا"[1]؛ فقَوْلُه تعالى: ﴿غَيۡرَ بَاغٖ﴾ "يَصلُحُ أَنْ يكون (غَيْرَ) حَالًا لِلْمُضطرِّ، ولَا يَصلُحُ أَنْ يكون اسْتِثْنَاءً؛ لِأَنَّ (غَيْرَ) هَاهُنَا بِمَعْنى: النَّفْي؛ ولِذَلِك عَطَفَ عَلَيْهَا بِـ (لَا)؛ لِأَنَّهَا في مَعْنى (لَا)"[2].

"وَمَجِيءُ هَذِه الحَالِ هُنَا لِلتَّنْوِيه بِشَأْنِ المضطرِّ في حَالِ إِبَاحَة هَاتِه المحَرَّمَاتِ لَهُ، بِأَنَّهُ بِأَكْلِهَا يكون غَيْرَ بَاغٍ ولَا عَادٍ، لِأَنَّ الضَّرُورَةَ تُلْجِئُ إِلَى البَغْيِ والاعْتِدَاءِ، فَالآيَةُ إِيمَاءٌ إِلَى عِلَّةِ الرُّخْصَةِ؛ وهِيَ رَفْعُ البَغْيِ"[3].

إذهابُ ما في النَّفسِ من الشُّعورِ بالحرَجِ بعدَ أكلِ المحرَّمات حالَ الضَّرورةِ

سِرُّ ذِكْرِ المغْفِرة بَعْدَ نَفْيِ الإِثْمِ:

في قَوْلِه ﷻ: ﴿فَلَآ إِثۡمَ عَلَيۡهِۚ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٞ رَّحِيمٌ﴾، ذَكَرَ أَنَّهُ غَفُورٌ بَعْدَ أَنْ نَفَى الإِثْمَ؛ لأنّ تَقْدِيرَ الحَاجَة في الأَكْلِ مِنَ المحْظُورِ قَدْ يَصْحَبُهُ تَجَاوُزٌ، وهوَ مِمَّا يَعْسُرُ تَقْدِيرُ قَدْرِه، فَعَقَّبَ عَلَيْهِ تعالى بِالمَغْفِرة والرَّحْمَة، فَمَنْ أَبَاحَ أَوَّلًا غَفَرَ آخرًا.

قال الرَّازي: "فِيه إِشْكَالٌ؛ وهُوَ أَنَّهُ لَمَّا قال: ﴿فَلَآ إِثۡمَ عَلَيۡهِ﴾، فَكَيْفَ يَلِيقُ أَنْ يَقُولَ بَعْدَهُ: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٞ رَّحِيمٌ﴾؛ فَإِنَّ الغُفْرَانَ إِنّما يكون عِنْدَ حُصُولِ الإِثْمِ؟! والجَوَابُ: مِنْ وُجُوهٍ، أَحَدهَا: أَنَّ المقْتَضِيَ

(1) الفرّاء، معاني القرآن: 1/102-103.
(2) الواحدي، التَّفْسِير البَسِيط: 3/501.
(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 2/120.

لِلْحُرْمة قَائِمٌ في الـميْتة والدَّم، إلّا أَنَّهُ زَالَتِ الحُرْمة لِقِيَام الـمعَارِض، فَلَمَّا كان تَناوُلُهُ تَناوُلًا لِما حَصَلَ فِيهِ الـمقْتضِي لِلْحُرْمة، عَبَّرَ عَنْهُ بِالـمَغْفِرَة، ثُمَّ ذَكَرَ بَعْدَهُ أَنَّهُ رَحِيمٌ، يَعْنِي: لِأَجْلِ الرَّحْمة عَلَيْكُمْ، أَبَحْتُ لَكُمْ ذَلِك، وثانيها: لَعَلَّ الـمضْطَرَّ يَزِيدُ على تَناوُلِ الحاجَة، فَهُوَ سُبْحانَهُ غفُورٌ، بِأَنْ يَغْفِرَ ذَنْبَهُ في تَناوُلِ الزِّيادَة، رَحِيمٌ حَيْثُ أَباحَ تَناوُلَ قَدْرِ الحاجَةِ، وثالِثُها: أَنَّهُ تعالى لَمّا بَيَّنَ هَذِهِ الأَحْكامَ عَقَّبَها بِكَوْنِهِ غَفُورًا رَحِيمًا؛ لِأَنَّهُ غَفُورٌ لِلْعُصاة إِذا تابُوا، رَحِيمٌ بِالـمُطِيعِينَ الـمسْتَمِرِّينَ على نَهْجِ حُكْمِهِ سُبْحانَهُ وتعالى"[1].

و"لَمّا ذَكَرَ أَشْياءَ مُحَرَّمةً اقْتَضَى الـمنْعَ مِنْها، ثُمَّ ذَكَرَ إِباحَتَها لِلْمُضْطَرِّ في تِلْكَ الحالِ الـمقَيَّدَةِ لَهُ، أَتْبَعَ ذَلِك بِالإِخْبارِ عَنْ نَفْسِه، بِأَنَّهُ تعالى غَفُورٌ رَحِيمٌ، لِأَنَّ الـمخاطَبَ بِصَدَدِ أَنْ يُخالِفَ، فَيَقَعَ في شَيْءٍ مِنْ أَكْلِ هَذِهِ الـمحَرَّمات، فَأَخْبَرَ بِأَنَّهُ غَفُورٌ لِلْعُصاة إِذا تابُوا، رَحِيمٌ بِهِمْ، أَوْ لِأَنَّ الـمخاطَبَ إِذا اضْطُرَّ فَأَكَلَ ما يَزِيدُ على قَدْرِ الحاجَة، فَهُوَ تعالى غَفُورٌ لَهُ ذَلِك، رَحِيمٌ بِأَنْ أَباحَ لَهُ قَدْرَ الحاجَةِ، أَوْ لِأَنَّ مُقْتَضَى الحُرْمة قائِمٌ في هَذِهِ الـمحَرَّمات، ثُمَّ رَخَّصَ في تَناوُلِها مَعَ قِيامِ المانِعِ، فَعَبَّرَ عَنْ هَذا التَّرْخِيصِ والإِباحة بِالـمَغْفِرَة، ثُمَّ ذَكَرَ بَعْدَ الغُفْرانِ صِفَةَ الرَّحْمَة، أَيْ: لِأَجْلِ رَحْمَتِي بِكُمْ أَبَحْتُ لَكُمْ ذَلِكَ"[2]، أَوْ قَدْ يكون أَنَّهُ أَخْطَأَ بِتَقْدِيرِ أَنَّهُ مُضْطَرٌّ، وهُوَ لَيْسَ كَذَلِك، فـ "وَجْهُ مُناسَبَةِ الـمَغْفِرَة، أَنَّهُ قَدْ يَظُنُّ أَنَّهُ مُضْطَرٌّ فَيَأْكُلُ الـمَيْتَة، ولا يَكُونُ مُضْطَرًّا إِلَيْها"[3].

دَلالَةُ التَّذْيِيلِ فِي قَوْلِهِ: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾:

رفْعُ الإثْـمِ عَـنِ الـمُـضْـطَـرِّيـنَ امـتـنـانٌ مـؤيَّـدٌ بـالـمـغـفـرة والرَّحمةِ

قَوْلُهُ: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ "تَذْيِيلٌ قُصِدَ بِهِ الامْتِنانُ، أَيْ: إِنَّ اللَّه مَوْصُوفٌ بِهَذَيْنِ الوَصْفَيْنِ، فَلا جَرَمَ أَنْ يَغْفِرَ لِلْمُضْطَرِّ أَكْلَ الـميْتة؛ لِأَنَّهُ رَحِيمٌ بِالنّاس، فالمَغْفِرة هُنا بِمَعْنَى التَّجاوُزِ عَمّا تُمْكِنُ الـمؤاخَذَةُ عَلَيْهِ، لا بِمَعْنَى تَجاوُزِ الذَّنْبِ ونَحْوِهِ"[4].

"وقوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ﴾ أَيْ: لِلْمَعاصِي، وفِيهِ إِشارة إِلى أَنَّهُ إِذا كان يَغْفِرُ الـمعْصِية فَإِنَّهُ لا يَأْخُذُ بِما جَعَلَ فِيهِ الرُّخْصَةَ، ﴿رَحِيمٌ﴾

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 5/194.
(2) أبو حيّان، البحر المحيط: 2/119.
(3) ابن عرفة، تفسير ابن عرفة: 2/509.
(4) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 2/121-122.

حيث رَخَّصَ لِلْمُضطَرِّ في أَكْلِ المَيْتَةِ"[1]، "وَمَعْنَى الآيَةِ: أَنَّ رَفْعَ الإِثْمِ عَنِ المُضطَرِّ حُكْمٌ يُناسِبُ مَنِ اتَّصَفَ بالمغفرة والرَّحْمَةِ"[2].

بلاغةُ الجمعِ بَيْنَ لفظ ﴿بَاغٍ﴾ ولفظِ ﴿عَادٍ﴾:

البَاغي آخِذٌ دُونَ اسْتِحْقاقٍ، والعادِي مُتَجاوِزٌ دُونَ اسْتِئْذانٍ

(الباغي): مِنَ البَغْيِ، وهُوَ: "شدَّة الطَّلَبِ لما لَيْسَ بِحَقٍّ"[3]، و(العادِي) مِن العَدْوِ، وهُوَ التَّعَدِّي في الأُمُورِ، وتَجاوُزُ ما يَنْبَغِي أَنْ يُقْتَصَرَ عَلَيْهِ"[4]، واستِعْمالُهُما في الآيَةِ عَلى غايَةِ البَلاغَةِ؛ (فالباغِي) هُوَ الّذي يَطْلُبُ ذَلِكَ المُباحَ بِشِدَّةٍ، مَعَ الفَسادِ الّذي يُرافِقُ فِعْلَهُ في النِّيَّةِ، فَهُوَ يَطْلُبُ ما لَيْسَ يَسْتَحِقُّهُ، أَمّا (العادِي) فَهُوَ الّذي يَتَجاوَزُ ما يَنْبَغِي أَنْ يَقْتَصِرَ عَلَيْهِ، فَيَمِيلُ عَنِ الحَدِّ المُباحِ ويَبْعُدُ عَنْهُ، (فالباغِي) هُوَ الآخِذُ بِالرُّخْصة مِنْ غَيْرِ اسْتِحْقاقٍ، (والعادِي) هُوَ مَنْ يَفْعَلُ أَكْثَرَ مِنْ حَدِّ الرُّخْصَةِ، وذكرُهما للتَّنبيهِ على عدمِ جوازِ التَّجاوزِ، فإن حصلَ واستمرَّ الباغي في بغيه فهو عادٍ.

توجيهُ المُتشابِه اللَّفظيّ:

مُراعاةُ مُقْتَضى حَالِ المُضْطَرِّ، وتَوْجيهُ الخِطابِ لَهُ وفْقَ ذَلِكَ

وَرَدَ في القُرآنِ الكَريمِ مَوْضِعانِ مُشَابِهان لِقوله تعالى: ﴿فَمَنِ ٱضْطُرَّ غَيْرَ بَاغٍ وَلَا عَادٍ فَلَآ إِثْمَ عَلَيْهِۚ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ [البقرة: 173]، وهما: ﴿فَمَنِ ٱضْطُرَّ غَيْرَ بَاغٍ وَلَا عَادٍ فَإِنَّ رَبَّكَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ [الأنعام: 145] و﴿فَمَنِ ٱضْطُرَّ غَيْرَ بَاغٍ وَلَا عَادٍ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ [النّحل: 115].

فهل لِهَذه التَّعْقيباتِ خُصوصيّة بِمَوْضِعِهَا؟

جاء في (دُرّة التَّنزيل): "قَصَدَ اللَّهُ تعالى في المواضع الثَّلاثة، أن يُبيِّن لِلْمضطرِّ مَا لَه أن يتناوله مِن المحرّم الذِّي يُمْسِك به

(1) الواحدي، التَّفْسِير البَسِيط: 3/504.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 2/122.
(3) أبو هلال العسكريّ، الفروق اللّغويّة، ص: 232.
(4) الرّازي، مفاتيح الغيب: 5/193.

رَمقَهُ، فَذكَر في الموْضِعَيْن الأخيرَيْن: ﴿فَإِنَّ رَبَّكَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ١٤٥﴾ [الأنعام: 145]، و﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ١١٥﴾ [النحل: 115]، فَكَان تعْريضًا بمغْفرته لِمَن اضْطُرَّ إلى تَناوُل المُحَرَّم في حَالَته، والمَوْضِعُ الأوَّل بدأَ فِيه بصريح اللَّفْظ في إسقَاط الإثْم فقال: ﴿فَلَآ إِثْمَ عَلَيْهِۚ﴾ [البقرة: 173] ثُمَّ عقَّبَه بِمَا اتَّصف به مِن المغْفرة والرَّحْمة"[1]، ومثلها قولُه تعالى: ﴿فَمَنِ ٱضْطُرَّ فِي مَخْمَصَةٍ غَيْرَ مُتَجَانِفٍ لِّإِثْمٍ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ٣﴾ [المائدة: 3].

لماذا قالَ في مَوْضِعٍ: ﴿فَإِنَّ رَبَّكَ﴾ وفي الآخَرِ: ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ﴾؟

لِكُلِّ مَوضعٍ مَعْنًى يُوجِبُ اخْتِصاصَ اللَّفْظِ الّذي ذُكِرَ فِيهِ

جاء في (فتح الرّحمن بِكَشْفِ ما يَلْتَبِسُ في القُرآنِ): "قولُهُ تَعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾، قالَهُ هُنا، وقال في الأنْعام: ﴿فَإِنَّ رَبَّكَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ١٤٥﴾ [الأنعام: 145]؛ لأنَّ لفظَ الرَّبِّ تكرَّر ثَمَّ مرَّاتٍ، مع ذِكر ما يحتاج إلى التَّربية، من الثِّمار، والحبوب، والحيوان، من الضَّأن والمَعَز والإبل والبَقَر في قوله: ﴿۞وَهُوَ ٱلَّذِيٓ أَنشَأَ جَنَّٰتٍ﴾ [الأنعام: 141] إلخ، فكان ذِكرُ الرَّبِّ ثَمَّ أنْسَبَ"[2].

جاء في (دُرّة التَّنزيل): "لِكلِّ مَوضعٍ مَعْنًى يُوجِبُ اختِصاصَ اللَّفْظ الّذي ذُكِرَ فِيه، فَأمَّا الأوَّل فلأنَّه لَمَّا قالَ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُلُواْ مِن طَيِّبَٰتِ مَا رَزَقْنَٰكُمْ وَٱشْكُرُواْ لِلَّهِ إِن كُنتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ ١٧٢ إِنَّمَا حَرَّمَ عَلَيْكُمُ﴾، كان بِمَا قَدَّمَه مُثْبتًا عليهم إلهيَّتَهُ، لأنَّ الإلهَ هُوَ الّذي تَحقُّ لَه العِبادَةُ بِمَا لَه مِن النِّعْمَة، فَلمَّا قَدَّم ذِكْرَ مَا رَزَقهم مِنهَا، وطالبَهُم بِشُكْرِهَا، أَتْبَعَهُ بقوْلِه: ﴿إِن كُنتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ ١٧٢﴾، وخَتَم الآيةَ بأنْ قال: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾، أي: إنَّ مَنْ أنعمَ عليْكم غَايَةَ النِّعْمة، واسْتَحقَّ بها غَاية التَّعَبُّد والتَّذلُّل، هُو الّذي يَغْفِرُ لَكُم عِنْد الضَّرورة تَناوُلَ مَا حَرَّمَ عَليْكُمْ في حالِ الاخْتيارِ، رَحيمٌ بِكُمْ، وكَذلِكَ الآيةُ الثَّالثَةُ، مَبْنِيّةٌ على مِثْل هذا؛ لِأنَّ أوَّلَها: ﴿فَكُلُواْ مِمَّا رَزَقَكُمُ ٱللَّهُ حَلَٰلًا طَيِّبًا وَٱشْكُرُواْ نِعْمَتَ ٱللَّهِ إِن كُنتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ ١١٤﴾ [النحل: 114] فكان مشْبهًا لما قدَّمْنا

(1) الإسكافيّ، درّة التّنزيل: 1/320، و321.

(2) زكريا الأنصاريّ، فتح الرّحمن بكشف ما يلتبس في القرآن: 1/50- 51.

ذِكْره، فقال: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾، وأمَّا الثَّانية فلأنَّه قَدَّم ذِكْر أَصنَاف مَا خَلقَه اللّٰه تعالى لِترْبية الأجْسام، فَقَال: ﴿۞وَهُوَ ٱلَّذِىٓ أَنشَأَ جَنَّٰتٍ مَّعْرُوشَٰتٍ وَغَيْرَ مَعْرُوشَٰتٍ﴾ [الأنعام: 141] فَذكَر الثِّمَار، والحبَّ، وأَتْبعَه بِذكْر الحيوان؛ مِن الإبِل، والبَقر، والغَنم، خَصَّ هذا المَوْضِع بِذكْر (الرَّب)؛ لِأنَّ الرَّب هُو القائم بِمصالح المرْبوب فَكَان هذا أليقَ بِهَذا المكَان"[1].

(1) الإسكافي، درّة التّنزيل وغُرَّة التّأويل: 1/320-323.

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَكۡتُمُونَ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلۡكِتَٰبِ وَيَشۡتَرُونَ بِهِۦ ثَمَنًا قَلِيلًا أُوْلَٰٓئِكَ مَا يَأۡكُلُونَ فِي بُطُونِهِمۡ إِلَّا ٱلنَّارَ وَلَا يُكَلِّمُهُمُ ٱللَّهُ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ وَلَا يُزَكِّيهِمۡ وَلَهُمۡ عَذَابٌ أَلِيمٌ ١٧٤﴾ [البقرة: 174]

۞ مُناسَبَةُ الآيَةِ لِمَا قَبْلَها:

ذِكْرُ ما أَنْزَلَ اللّهُ في الكِتابِ، والتَّحذيرُ مِنْ كِتْمانِهِ وتَحْريفِهِ.

العُقُوبَةُ الشَّنيعَةُ لِلمُحَرِّفينَ لِأَحْكامِ اللهِ، في الدُّنْيا والآخِرَةِ

"وَنَاسَبَ ذِكْرُ هَذِهِ الآيَةِ ما قَبْلَها، لِأَنَّهُ تعالى ذَكَرَ في الآية قَبْلَها إِباحَةَ الطَّيِّباتِ، ثُمَّ فَصَّلَ أَشْياءَ مِنَ المُحَرَّماتِ، فَناسَبَ أَنْ يَذْكُرَ جَزاءَ مَنْ كَتَمَ شَيْئًا مِنْ دِينِ اللّهِ، ومِمّا أَنْزَلَهُ على أَنْبِيائِهِ، فَكانَ ذَلِكَ تَحْذيرًا أَنْ يَقَعَ المؤْمِنُونَ فِيما وقَعَ فِيهِ أَهْلُ الكِتابِ، مِن كَتْمِ ما أنزل اللّه عَلَيْهِمْ واشْتِرائِهِمْ بِهِ ثَمَنًا قَلِيلًا"[1].

۞ شَرْحُ المُفْرَداتِ:

البَطْنُ خلافُ الظَّهْرِ، ويُعبَّرُ بهِ عنْ داخلِ الشَّيْءِ

1) ﴿بُطُونِهِمۡ﴾: مِنَ الجَذْرِ (بطن)، وأَصلُ المادّة: إِنْسِيُّ الشَّيْءِ، والمُقْبِلُ مِنْهُ، فَالبَطْنُ خِلافُ الظَّهْرِ[2]، ويُعَبَّرُ بِهِ عَنْ دَاخِلِ الشَّيْءِ، كَمَا يُعَبَّرُ بِالظَّاهِرِ عَنْ خَارِجِهِ، ويُعَبَّرُ بِهِ عَنِ الجِهَةِ السُّفْلَى، كَمَا يُعَبَّرُ بِهِ عَنِ العُلْيَا"[3]، و"(بُطُونٌ): جَمْعُ بَطْنٍ، وهُوَ اسْمٌ جَامِدٌ لِجَوْفِ كُلِّ شَيْءٍ، وزْنُهُ: فَعْلٌ"[4]، وقيل: "البَطْنُ في كلّ شَيْءٍ: خِلافُ الظَّهْرِ، كَبَطْنِ الأَرْضِ وظَهْرِها، وكالباطِنِ والظّاهِرِ، وكالبِطانَةِ والظِّهارَةِ، يَعْني: باطِنَ الثَّوبِ وظاهِرَهُ، قال اللّه ﷻ: ﴿مُتَّكِـِٔينَ عَلَىٰ فُرُشِۢ بَطَآئِنُهَا مِنۡ إِسۡتَبۡرَقٖۚ﴾ [الرحمن: 54]"[5].

(1) أبو حيّان، البحر المحيط: 2/123.
(2) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (بطن).
(3) السّمين، عمدة الحفّاظ: (بطن).
(4) محمود عبد الرّحيم صافي، الجدول في إعراب القرآن: 2/347.
(5) الخليل، العين: 7/440.

2) ﴿أَلِيمٌ﴾: منَ الجذْرِ (ألم)، وأصل المادّة يدلُّ على الوَجَع[1]، والأليمُ: المُوجِعُ[2]، "و(أَليمٌ): اسمُ فاعلٍ بمَعنى مُؤْلم"[3]، قال ابنُ فارس: "وَالْفِعْلُ مِنَ الْأَلَم: أَلِم، وهُوَ أَلِمٌ، والمُجَاوِزُ: أَلِيمٌ، فَهُوَ عَلَى هَذَا الْقِيَاسِ فَعِيلٌ بِمَعْنَى مُفْعِلٍ، وكَذَلِكَ وجِيعٌ بِمَعْنَى مُوجِعٍ، قَالَ أَبو عُبَيْدٍ: يُقَالُ: أَلِمْتَ نَفْسَكَ، كَمَا تَقُولُ سَفِهْتَ نَفْسَكَ، والعَرَبُ تَقُولُ: "الْحُرُّ يُعْطِي والْعَبْدُ يَأْلَمُ قَلْبُهُ""[4].

ومعنى قَوله تَعالى: ﴿وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ١٧٤﴾: ولهم عَذابٌ مُؤْلمٌ؛ فصُرِفَ عَنْ: مُؤلمٍ، إلى: أَليمٍ، قال عمرُو بن معْدي كَرِبَ:

أَمِنْ رَيْحَانَةَ الدَّاعِي السَّمِيعُ *** يُؤَرِّقُنِي، وأَصْحَابِي هُجُوعُ

معناه: الدّاعي المُسْمِعُ، فصرف عن: مُفعِل، إلى: فَعِيل، وقال ذو الرّمّة:

وَنَرْفَعُ مِنْ صُدُورِ شَمَرْدَلاتٍ *** يَصُكُّ وُجُوهَهَا وهَجٌ أَلِيمُ

معناه: وهجٌ مُؤلمٌ؛ فصُرِف عن: مُفعِل، إلى: فَعيل[5].

المَعْنَى الإِجْمَالِيُّ:

إيجازٌ بَديعٌ في تَوْصيفِ التَّحريفِ، لِلوَحْيِ المُنيفِ

إنَّ الذينَ يُخْفُونَ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ في كُتُبِهِ مِنْ صِفة النَّبِيِّ ﷺ، وغَيْرِ ذَلِكَ مِنَ الحَقِّ، ويَحْرِصُونَ على أَخْذِ القَليلِ مِنْ عَرَضِ الحَيَاةِ الدُّنْيَا مُقَابِلَ هَذا الإِخْفَاءِ، كَرِئَاسَةٍ أَوْ جَاهٍ أَوْ مَالٍ، هَؤُلَاءِ مَا يَأْكُلُونَ إلّا مَا يكون سَبَبًا لِتَعْذِيبِهِمْ بِالنَّارِ، ولَا يُكَلِّمُهُمُ اللَّهُ يَوْمَ القِيَامة لِغَضَبِه وسُخْطِهِ عَلَيْهِمْ، ولَا يُطَهِّرُهُمْ مِنْ دَنَسِ ذُنُوبِهِمْ وكُفْرِهِمْ، ولَهُمْ عَذابٌ مُوجِعٌ[6]، "قال ابْنُ عَبَّاس: نَزَلَتْ هَذِهِ الآية في رُؤَسَاءِ اليَهُودِ؛ كَعْبِ بْنِ الأَشْرَفِ، وكَعْبِ بْنِ أَسَدٍ، ومَالِكِ بْنِ الصَّيْفِ، وحُيَيِّ بْنِ أَخْطَبَ، وأَبِي يَاسِرِ بْنِ أَخْطَبَ، كَانُوا يَأْخُذُونَ مِنْ أَتْبَاعِهِمُ الهَدَايَا،

(1) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (ألم).
(2) الجوهريّ، الصّحاح: (ألم).
(3) ابن عطية، المحرّر الوجيز: 1/241.
(4) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (ألم).
(5) الأنباري، الزّاهر في معاني كلمات النّاس: 1/80.
(6) نخبة من العلماء، التّفسير الميسّر، ص: 26، وجماعة من العلماء، المختصر في تفسير القرآن الكريم، ص: 26.

فَلَمَّا بُعِثَ مُحَمَّدٌ ﷺ، خَافُوا انْقِطَاعَ تِلْكَ المنَافِعِ، فَكَتَمُوا أَمْرَ مُحَمَّدٍ ﷺ، وأَمْرَ شَرَائِعِه، فَنَزَلَتْ هَذِهِ الآيَةُ"[1]، و"العِبْرَةُ بِعُمُومِ اللَّفْظِ لا بِخُصُوصِ السَّبَبِ، فَالآيَةُ وإِنْ نَزَلَتْ في اليَهُودِ، لَكِنَّهَا عَامَّةٌ في حَقِّ كُلِّ مَنْ كَتَمَ شَيْئًا مِنْ بَابِ الدِّينِ يَجِبُ إِظْهَارُهُ"[2].

۞ الإيضَاحُ اللُّغَوِيُّ وَالبَلَاغِيُّ:

تأكيدُ الخبرِ في قولِه: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَكۡتُمُونَ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ﴾:

جاء الخبر مؤكّدًا ب(إنَّ) والجملة الاسميّة؛ لِمُجرّد تقويَةِ الخبَرِ في نَفسِه، فَهُمْ اسْتَسْهلوا كِتْمَانَ الحَقِّ، فاتَّخذوهُ مَبيعًا يُبَاع ويُسْتَبْدل بثَمنٍ، فَجَاءَ التَّأْكيدُ في الخَبَرِ لِلتَّنْبيهِ عَلى شَناعَةِ مَا فَعلُوهُ.

تَأْكِيدُ شَنَاعَةِ فِعْلِهِم مِنَ الكَتْمِ، واسْتِبْدال الحَقّ بِثَمنٍ قليلٍ

سِرُّ التَّعبيرِ بالِاسْمِ المَوْصولِ، في قولِه: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَكۡتُمُونَ﴾:

عبَّرَ النَّظمُ عن الكاتمين وهم "عُلَمَاءُ اليَهُودِ؛ لِأَنَّهُمْ كَتَمُوا مَا أَنْزَلَ اللّٰه في التَّوْرَاةِ مِنْ صِفَةِ مُحَمَّد ﷺ ونَعْتِه، ووَقْتِ نُبُوَّتِه"[3] بالاسمِ الموصولِ لا بالاسمِ الظَّاهرِ؛ "لِمَا فِي الصِّلَةِ مِنَ الإيماءِ إِلَى سَبَبِ الخَبَرِ وعِلَّتِهِ"[4].

نكتةُ التَّعبيرِ بالاسمِ الموصولِ في قَوْلِهِ: ﴿يَكۡتُمُونَ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ﴾:

اخْتَلَفَ المفسِّرون في أَيِّ شَيْءٍ كان الكِتمان؟ "فَقِيلَ: كانُوا يَكْتُمُونَ صِفَةَ مُحَمَّدٍ ﷺ ونَعْتَهُ والبِشارَةَ بِهِ، وهُوَ قَوْلُ ابْنِ عَبّاسٍ، وقَتادَةَ، والسُّدِّيِّ، والأَصَمِّ، وأَبِي مُسْلِم، وقال الحَسَنُ: كَتَمُوا الأَحْكامَ"[5]، أو يَكْتُمُونَ مَعانيَ ما أَنْزَلَ اللّٰه مِنَ الكِتاب؛ فيَذْكُرُونَ لَها تَأْويلاتٍ باطِلَةً، ويَصْرِفُونَها عَنْ مَحامِلِها الصَّحِيحَةِ الدّالَّةِ على نُبُوَّةِ مُحَمَّدٍ[6] ﷺ،

لـمّا تَعَدَّدَ المكْتُومُ؛ أُبْهِمَ ذِكْرُهُ لِيَشْمَلَ كُلَّ ما كُتِمَ

(1) الرّازي، مفاتيح الغيب: 5/204.
(2) الرّازي، مفاتيح الغيب: 5/206.
(3) القِنَّوجي، فتح البيان: 1/345.
(4) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 2/122.
(5) الرّازي، مفاتيح الغيب: 5/204.
(6) المصدر السّابق: 5/204.

والتَّعْبيرُ عَنْ ذَلِكَ بِالِاسْمِ المَوْصُولِ المبْهَمِ (ما)، يَدُلُّ على شُمُولِ كُلِّ ما كَتَمُوهُ مِنْ صِفاتِ النَّبِيِّ ﷺ، والأَحْكامِ وغَيْرِها.

التَّعْبيرُ بِالفِعْلِ المُضارِعِ في قَوْلِهِ: ﴿يَكۡتُمُونَ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ﴾:

الكُتُبُ المُنَزَّلَةُ أَمانَةٌ، لا يَجوزُ أَنْ تلعبَ بها أَهْواءُ البَشَرِ

اسْتَعْمَلَ الفِعْلَ المضارِعَ لِلتَّعْبيرِ عَنِ الكَتْمِ والشِّراءِ في قَوْلِهِ: ﴿يَكۡتُمُونَ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ﴾؛ لِأَنَّ الفِعْلَ المضارِعَ يُناسِبُ الأَحْداثَ الّتِي فِيها اسْتِمْرارِيَّةٌ وتَجَدُّدٌ، وكَتْمُ الحَقِّ لا يَحْدُثُ مَرَّةً ويَنْقَطِعُ؛ لِأَنَّ الكاتِمَ لا يَتَحَقَّقُ كَتْمُهُ، ما لَمْ يَكُنْ مُسْتَمِرًّا بِهَذا الكَتْمِ، فَهُوَ دائِمٌ بِكَتْمِهِ، وبِالِانْتِفاعِ بِهَذا الكَتْمِ المُعَبَّرِ عَنْهُ بِالشِّراءِ.

فائِدَةُ التَّعْبيرِ بِـ (مِنْ) البَيانيَّة، وموقعُها الإعرابيّ:

تَبْشيعُ التِزامِ كِتْمانِ ما أَنْزَلَه الرَّحْمَنُ

حرفُ ﴿مِنَ﴾ في قوله: ﴿مِنَ ٱلۡكِتَٰبِ﴾ لِلبَيانِ[1]، بِمعْنَى أَنَّ المكْتُومَ هُوَ الّذِي أَنْزَلَهُ اللَّهُ مِنْ تِلْكَ الكُتُبِ، وهَذا فِيهِ تشنيعٌ عَليهِم؛ فَهُمْ يَكتُمون الكِتابَ الّذِي هُو الوَحْيُ المنَزَّلُ مِن اللَّه تَعالَى، وممَّا يزيدُ من التَّشنيعِ عليهم أنَّ المطلوبَ منهم هو الإظهارُ لا الكِتمانُ، وهم يصنعون عكسَ المطلوبِ، إذِ المكْتومُ هو مِن جِنْسِ قَوْلِ اللَّه تعالَى، وليْس أيَّ كلامٍ!

فقولُه: ﴿مِنَ ٱلۡكِتَٰبِ﴾ "حالٌ مِنَ العائِدِ المَحْذُوفِ، أَيْ: أَنْزَلَهُ اللَّهُ حالَ كَوْنِهِ مِنَ الكِتابِ، وهُوَ التَّوْراةُ المشْتَمِلُ على نَعْتِ مُحَمَّدٍ عَلَيْهِ السَّلَامُ"[2]، وفائِدةُ ذَلِك أَنَّه أَراد تَبْيِينَ أنَّ المُنْزَلَ هُوَ مِن الوحْيِ الّذِي يُدوَّنُ في الكِتابِ؛ وليْس مِنْ وحْيٍ آخرَ غَيْرِ مَكْتُوبٍ؛ لِلدَّلالَةِ عَلى عَظيمِ جُرْمِهِمْ؛ حَيْثُ كَتَمُوا ما هُو ثابِتٌ لَدَيهِمْ في الكِتابِ.

سرُّ الوَصْلِ بَيْنَ الجُمْلَتَيْنِ بالواوِ دونَ الفاءِ:

عطفتِ الآيةُ قولَه تعالى: ﴿وَيَشۡتَرُونَ بِهِۦ ثَمَنٗا قَلِيلًا﴾ على قولِه: ﴿يَكۡتُمُونَ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ﴾ بالواوِ لا بالفاءِ؛ وذلك "لأَنَّ المُرادَ الذَّمُّ على كُلِّ وصْفٍ مِنْهُما لا على واحِدٍ فَقَطْ"[3].

(1) الجمل، الفتوحات الإلهيّة: 1/209.

(2) البروسويّ، روح البيان: 1/279.

(3) تفسير ابن عرفة: 2/509.

بَلاغَةُ الاستعارةِ التَّصريحيَّة في قوله: ﴿وَيَشۡتَرُونَ بِهِۦ ثَمَنٗا قَلِيلًا﴾:

أُطْلِقَ الاشْتِراءُ على الاسْتِبدالِ مُشابَهَةً لِلْعِوَضِ المادِّيِّ، مُقابِلَ الكِتْمانِ

المرادُ بالاشْتراءِ هُنا الاسْتِبْدالُ[1]؛ فإنَّهُمْ "لَمَّا تَعَوَّضُوا عَنِ الكَتْمِ شَيْئًا مِنْ سُحْتِ الدُّنْيا، أَشْبَهَ ذَلِكَ البَيْعَ والشِّراءَ، لِانْطِوائِهِما على عِوَضٍ ومُعَوَّضٍ عَنْهُ، فَأُطْلِقَ عَلَيْهِ اشْتِراءٌ"[2]، فـ"كان غَرَضُهُمْ مِنْ ذَلِكَ الكِتْمانِ أَخْذَ الأَمْوالِ بِسَبَبِ ذَلِكَ، فَهَذا هُوَ المرادُ مِنِ اشْتِرائِهِمْ بِذَلِكَ ثَمَنًا قَلِيلًا"[3]؛ "وَذلِك أَنَّهُم لَو أظهروه لَوَجَدَهُ سِفْلَتُهُم مُطابِقًا لِصفاتِهِ المشاهَدَةِ خارجًا، فيُؤْمِنُون به، فَيفُوتُ على الرُّؤساءِ ما يأْتيهِم مِنْه"[4]، وهذا استعارةٌ تصريحيَّةٌ، صرَّح بالاشتراءِ وهو المُشبَّهُ بِهِ، والمرادُ الاستبدال؛ لطلبهم العِوض، ونكتةُ الاستعارةِ بيانُ حرصِ الكاتمين على المالِ المكتسبِ، والجاهِ المجتَلَبِ.

بيانُ مرجعِ الضَّميرِ في قوله: ﴿وَيَشۡتَرُونَ بِهِۦ﴾:

يحتملُ عَوْدُ الضَّميرِ في قوله: ﴿وَيَشۡتَرُونَ بِهِۦ﴾ "على (ما) الموصولةِ، وأَنْ يعودَ على الكَتْمِ المفهومِ من قولِه: (يَكْتُمُونَ)، وأَنْ يعودَ على الكتابِ، أظهرُها أوَّلُها، ويكونُ ذلك على حَذْفِ مضافٍ، أي: يشترون بكَتْمِ ما أَنْزل"[5].

وَجهُ وصفِ الثَّمنِ بالقليلِ في قوله: ﴿ثَمَنٗا قَلِيلًا﴾:

اعتبارُ القِلَّةِ والكثرةِ شرعيٌّ ومآليٌّ

وصفَ اللّه تعالى الثَّمنَ بالقليلِ في قوله تعالى: ﴿ثَمَنٗا قَلِيلًا﴾ "إِمّا لأَنَّهُ في نَفْسِه قَلِيلٌ، وإِمّا لأَنَّهُ بالإِضافَةِ إلى ما فِيهِ مِنَ الضَّرَرِ العَظِيمِ قَلِيلٌ"[6]، أو "سَمّاهُ قَلِيلًا لانْقِطاعِ مُدَّتِهِ وسُوءِ عاقِبَتِهِ"[7]، وهذه الأوجه الثَّلاثةُ صحيحةٌ متَّجهةٌ، فالثَّمنُ قليلٌ في ذاته مهما

(1) القِنَّوجي، فتح البيان: 1/345.
(2) أبو حيّان، البحر المحيط: 2/120.
(3) الرّازي، مفاتيح الغيب: 5/205.
(4) الجمل، الفتوحات الإلهيّة: 1/209.
(5) السّمين، الدُّرُّ المصون: 2/241، وأبو حيّان، البحر المحيط: 2/120.
(6) الرّازي، مفاتيح الغيب: 5/205.
(7) إبراهيم الأبياريّ، الموسوعة القرآنيّة: 9/136.

بلغ في مقابلِ الوحي، وهو قليلٌ باعتبار الضَّرر اللَّاحق، وهو قليلٌ لأنَّ زمانَه قليلٌ.

دلالة العطْفُ بَيْن الأخْبارِ في السِّيَاقِ الواحدِ:

تـعـدُّدُ الأخـبـارِ عن مبتدأٍ واحدٍ دلـيـلُ عـظـيـم الفعلِ

أخبرَ الحقُّ عن اسم (إنَّ) في قولِه عزَّوجلَّ: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَكۡتُمُونَ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ﴾ بأربعةِ أخبارٍ؛ وهِيَ الجُمَلُ الأرْبعةُ: قوله: ﴿أُوْلَـٰٓئِكَ مَا يَأۡكُلُونَ فِي بُطُونِهِمۡ إِلَّا ٱلنَّارَ﴾، وقوله: ﴿وَلَا يُكَلِّمُهُمُ ٱللَّهُ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ﴾، وقوله: ﴿وَلَا يُزَكِّيهِمۡ﴾، وقوله: ﴿وَلَهُمۡ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾، "وَتَرَتَّبَ على الكِتْمانِ واشْتِراءِ الثَّمَنِ القليل هذه الأخبار الأَرْبَعَةُ، وانْعَطَفَتْ بالواوِ الجامِعَةِ لَها، وعَطَفَ الأَخْبارَ بالواوِ، ولا خِلافَ في جَوازِهِ"[1]، وقد جمعت هذه الأخبارُ عذابَ الدُّنيا والآخرةِ، والعذابَ المعنويَّ والماديَّ.

نكتةُ الإخْبارِ باسم الإشارةِ في قولِه: ﴿أُوْلَـٰٓئِكَ مَا يَأۡكُلُونَ فِي بُطُونِهِمۡ إِلَّا ٱلنَّارَ﴾:

لاسـتـحـضـارِ الصُّورةِ البَشِعةِ التي كان عليها الـكـاتِـمـون وتمييزِهم عمَّن سِواهُم

عُبِّر باسم الإشارةِ في قولِه تعالى: ﴿أُوْلَـٰٓئِكَ مَا يَأۡكُلُونَ فِي بُطُونِهِمۡ إِلَّا ٱلنَّارَ﴾ لبيانِ أنَّ "سببَ الحُكم هُو هَذِه الصِّفَة"[2]، فاسمُ الإشارةِ ﴿أُوْلَـٰٓئِكَ﴾ هو "إشارَةٌ إلى المَوْصولِ باعْتبارِ اتِّصافِهِ بما في حَيِّزِ الصِّلَة مِن الوصفيْنِ الشَّنيعَيْنِ المُمَيِّزَيْنِ لَهُم عَمَّن عداهُمْ أَكْمَلَ تَمييزٍ، الجاعِلَيْنِ إيّاهم بِحَيثُ كأَنَّهم حُضّارٌ مُشاهَدُون على ما هُم عليْه، وما فِيه مِن مَعْنَى البُعْدِ؛ لِلْإيذانِ بغايَةِ بُعْدِ منْزِلتِهِمْ في الشَّرِّ والفَسادِ"[3]، وقد "جيءَ بِاسْمِ الإشارَةِ لِإِشْهارِهِمْ، لِئَلّا يَخْفَى أَمْرُهُمْ عَلَى النّاسِ، ولِلتَّنْبيهِ عَلَى أَنَّ ما يُخْبَرُ بِهِ عَنِ اسْمِ الإشارَةِ، اسْتَحَقُّوهُ بِسَبَبِ ما ذُكِرَ قَبْلَ اسْمِ الإشارَةِ"[4].

(1) أبو حيّان، البحر المحيط: 2/122-123.
(2) أبو زهرة، زهرة التّفاسير: 1/513.
(3) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 1/191.
(4) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 2/123.

بلاغةُ التَّعْبيرِ بالأكْلِ في قولِه: ﴿مَا يَأْكُلُونَ فِي بُطُونِهِمْ إِلَّا ٱلنَّارَ﴾:

الأكلُ يُغيِّبُ الطَّعامَ كحالِ الرِّشوةِ لا تظهرُ للعيانِ

عبَّرتِ الآيةُ بالأكلِ في قولِه تعالى: ﴿مَا يَأْكُلُونَ فِي بُطُونِهِمْ إِلَّا ٱلنَّارَ﴾ والمرادُ الانتفاعُ؛ "لِأَنَّهُ أَعْظَمُ مَنافِعِ ما تُصرَفُ فيهِ الأَمْوالُ"[1]، وهو "مُسْتَعارٌ لِلانْتِفاعِ مَعَ الإِخْفاءِ، لِأَنَّ الأَكْلَ انْتِفاعٌ بِالطَّعامِ وتَغْييبٌ لَهُ، فَهُوَ خَفِيٌّ لا يَظْهَرُ كَحالِ الرِّشْوَةِ، ولَمّا لَمْ يَكُنْ لِآكِلِ الرِّشْوَةِ عَلَى كِتْمانِ الأَحْكامِ أَكْلُ نارٍ، تَعَيَّنَ أَنَّ في الكَلامِ مَجازًا، فَقِيلَ: هُوَ مَجازٌ عَقْلِيٌّ، في تَعَلُّقِ الأَكْلِ بِالنّارِ، ولَيْسَتْ هِيَ لَهُ وإنّما لَهُ سَبَبُها؛ أَعْنِي الرِّشْوَةَ"[2].

فائدةُ ذكرِ قولِه: ﴿فِي بُطُونِهِمْ﴾ بعد ذكرِ الأكلِ:

اتِّساعُ أقوالِ المفسِّرينَ دليلُ اتِّساعِ النَّظمِ وبراعةِ احتمالاته

من المعلوم أنَّ الأَكْلَ لا يكون إلّا في البَطْنِ، لكنَّ الحقَّ سبحانه ذَكَرَ ﴿فِي بُطُونِهِمْ﴾، على سَبيلِ التَّوْكيدِ، فَصارَ نَظيرَ: ﴿وَلَا طَٰٓئِرٍ يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ﴾ [الأنعام: 38][3]، و"تَنْبيهًا على شَرهِهِم، وتَقْبيحًا لِتَضْييعِ أَعْظَمِ النِّعَمِ لِأَجْلِ المطْعُومِ الّذي هُوَ أحسَنُ مُتَناوَلٍ"[4]، "ودَلالةً على حَقيقَةِ الأَكْلِ"[5]، يَعني حَقيقَتَهُ في الآخِرَةِ، فقولُه: "﴿فِي بُطُونِهِمْ﴾: مُتَعَلِّقٌ بـ﴿يَأْكُلُونَ﴾، وفائدتُه تَأْكيدُ الأكلِ وتَقْريرُهُ بِبَيانِ مَقَرِّ المَأكولِ"[6]، "وزِيادَةَ تَشْنيعِ عَليهِمْ، وتَصْويرِهِم بِمَنْ يَتَناوَلُ رَضْفَ جَهَنَّمَ، وذَلِكَ أَفْظَعُ سَماعًا، وأَشَدُّ إيجاعًا"[7].

"أَوْ كِنايَةٌ عَنْ مَلْءِ البَطْنِ، لِأَنَّهُ يُقالُ: فُلانٌ أَكَلَ في بَطْنِهِ، وفُلانٌ أَكَلَ في بَعْضِ بَطْنِهِ، أَوْ لِرَفْعِ تَوَهُّمِ المجازِ، إِذْ يُقالُ: أَكَلَ فُلانٌ مالَهُ، إذا بَذَّرَهُ وإِنْ لَمْ يَأْكُلْهُ"[8]، وقيلَ إِنَّهُ يُعاقِبُهُمْ عَلى كِتْمانِهِمْ، بِأَكْلِ

(1) أبو حيّان، البحر المحيط: 2/121.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتنوير: 2، و/123.
(3) أبو حيّان، البحر المحيط: 2/121.
(4) أبو حيّان، المصدر السّابق: 2/121.
(5) ابن عطيّة، المحرّر الوجيز: 1/241.
(6) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 1/191.
(7) محمد علي جميل، الإبداع البيانيّ في القرآن العظيم، ص: 34، وصفوة التّفاسير: 1/103.
(8) أبو حيّان، البحر المحيط: 2/121.

النّارِ حَقيقَةً، كأنّما أَخْبَرَ عَن المآلِ بالحالِ، كما قال تَعالى في سُورة النّساء: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَأْكُلُونَ أَمْوَٰلَ ٱلْيَتَـٰمَىٰ ظُلْمًا إِنَّمَا يَأْكُلُونَ فِى بُطُونِهِمْ نَارًا ۖ وَسَيَصْلَوْنَ سَعِيرًا ۝١٠﴾، أَيْ: إنَّ عاقبَتَهُ تَؤُولُ إلى ذلِكَ، ومِنْهُ قَوْلُ سابِقٍ البَرْبَرِيِّ:

فَلِلْمَوْتِ تَغْذُو الْوَالِدَاتُ سِخَالَهَا *** كَمَا لِخَرَابِ الدُّورِ تُبْنَى المسَاكِنُ

وكذلكَ قَولُ عبدِاللّه بنِ الزِّبَعْرَى، في مِثْلِ ذَلِكَ:

فَإِنْ يَكُنِ الـموْتُ أَفْنَاهُمُ *** فَلِلْمَوْتِ مَا تَلِدُ الْوَالِدَهْ[1]

"قال بَعْضُهُمْ: ذِكْرُ البَطْنِ هاهُنا زِيادَةُ بَيانٍ؛ لِأَنَّهُ يُقالُ: أَكَلَ فُلانٌ المالَ، إذا بَذَّرَهُ وأَفْسَدَهُ، وقال آخَرُونَ: بَلْ فِيهِ فائِدَةٌ؛ فَقَوْلُهُ: ﴿فِى بُطُونِهِمْ﴾ أَيْ: مِلْءَ بُطُونِهِمْ، يُقالُ: أَكَلَ فُلانٌ في بَطْنِهِ، وأَكَلَ في بَعْضِ بَطْنِهِ"[2]، "والأَكْلُ: المَضْغُ، فهُوَ في الفَمِ لا في البَطْنِ، لَكِنْ روعِيَ السَّبَبُ"[3]، "وَفي ذِكْرِ البَطْنِ تَنْبيهٌ على مَذْهَبِهِمْ، بِأَنَّهُمْ باعُوا آخِرَتَهُمْ بِحَظِّهِمْ مِنَ المَطْعَمِ الّذي لا خَطَرَ لَهُ، وعلى هُجْنَتِهِمْ بطاعَةِ بُطُونِهِمْ"[4].

نكتةُ ذكرِ النَّار في قولِه: ﴿مَا يَأْكُلُونَ فِى بُطُونِهِمْ إِلَّا ٱلنَّارَ﴾:

المَجازُ المُرسَلُ في أكْلِ النّارِ، عَلاقَتُهُ السَّبَبِيّةُ، بِجَعْلِ ما هُوَ سَبَبٌ لِلنّارِ نارًا

وَجَعَلَ المَأْكُولَ النّارَ في قولِه: ﴿مَا يَأْكُلُونَ فِى بُطُونِهِمْ إِلَّا ٱلنَّارَ﴾، "تَسْمِيَةً لَهُ بِما يَؤُولُ إِلَيْهِ، لِأَنَّهُ سَبَبُ النّارِ، وذَلِكَ كما يَقُولُونَ: أَكَلَ فُلانٌ الدَّمَ، يُرِيدُونَ الدِّيَةَ، لِأَنَّها بَدَلٌ مِنَ الدَّمِ، قال الشّاعِرُ:

أَكَلْتُ دَماً إنْ لَمْ أَرُعْكِ بِضَرَّةٍ *** بَعِيدَةِ مَهْوَى الْقُرْطِ طَيِّبَةِ النَّشْرِ

وَمَعْنَى التَّلَبُّسِ مَوْجُودٌ في جَمِيعِ ذَلِكَ، وتَسْمِيَةُ الشَّيْءِ بما يَؤُولُ إِلَيْهِ كَثِيرٌ"[5]، فهُوَ مِن المَجازِ المُرسَلِ في أكْلِ النّارِ، "والعَلاقَةُ هِيَ

(1) الدّرّة، تفسير القرآن الكريم وإعرابه وبيانه: 1/399.
(2) الرّازي، مفاتيح الغيب: 5/205.
(3) ابن عرفة، تفسير ابن عرفة: 2/510.
(4) ابن عطية، المحرّر الوجيز: 1/241.
(5) أبو حيّان، البحر المحيط: 2/121.

السَّبَبِيَّةُ، فقد جَعَلَ ما هُوَ سَبَبٌ لِلنّارِ نارًا"[1]، فـ "سُمّيَ مَأكُولُهُمْ نَارًا؛ لِأَنَّهُ يَؤولُ بِهِمْ إلى النّارِ"[2]، وهُوَ مِنْ بَديعِ المَجازِ"[3].

فقولُه: "﴿مَا يَأۡكُلُونَ فِي بُطُونِهِمۡ إِلَّا ٱلنَّارَ﴾، أمّا في الآخرَةِ فظاهرٌ، لأنَّهُم لا يَأْكُلونَ يومَ القِيامَةِ إلّا عَيْنَ النّارِ، عُقوبَةً لَهُم عَلى أَكْلِهِمُ الرِّشْوَةَ في الدّنيا، وأمّا في الدّنيا فبِأَكْلِ سَبَبِها، فإنَّ أَكْلَهُمْ ما أخَذوهُ مِنْ أتْباعِهِمْ، سَبَبٌ مُؤَدٍّ إلى أَنْ يُعاقَبوا بالنّارِ، فإطْلاقُ النّارِ عَليهِ مِن قَبيلِ إطْلاقِ اسمِ المُسَبَّبِ على السَّبَبِ"[4]، "لأنّها - أيِ النّارُ - مآلُهُ، أيْ مَآلُ ما يَأْخُذونَهُ، أيْ عاقِبَتُهُ وغايَتُهُ"[5].

"قيلَ: إنَّ أَكْلَهُمْ في الدُّنْيا - وَإِنْ كانَ طَيِّبًا في الحالِ - فَعاقِبَتُهُ النّارُ، فَوُصِفَ بذَلِكَ، كَقَوْلِهِ: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَأۡكُلُونَ أَمۡوَٰلَ ٱلۡيَتَٰمَىٰ ظُلۡمًا إِنَّمَا يَأۡكُلُونَ فِي بُطُونِهِمۡ نَارٗاۖ﴾ [النِّساء: 10]؛ وذَلِكَ لِأَنَّهُ لَمّا أَكَلَ ما يُوجِبُ النّارَ، فَكَأَنَّهُ أَكَلَ النّارَ، وقَوْلُهُ: ﴿إِنِّيٓ أَرَىٰنِيٓ أَعۡصِرُ خَمۡرٗاۖ﴾ [يُوسُف: 36] أيْ عِنَبًا، فسَمّاهُ باسمِ ما يَؤولُ إِلَيْهِ، وقِيلَ: إِنَّهُمْ في الآخِرَةِ يَأْكُلونَ النّارَ، لِأَكْلِهِمْ في الدُّنيا الحَرامَ"[6].

الاِسْتِعارَةُ التَّمْثِيلِيَّةُ في قولِه: ﴿مَا يَأۡكُلُونَ فِي بُطُونِهِمۡ إِلَّا ٱلنَّارَ﴾:

﴿أُوْلَٰٓئِكَ مَا يَأۡكُلُونَ فِي بُطُونِهِمۡ إِلَّا ٱلنَّارَ﴾؛ لأنَّهُمْ أكلوا ما يَتَلَبّسُ بالنّارِ، وهُوَ الرُّشى؛ لِكَوْنِها عُقوبَةً لها، فتكونُ في الآيَةِ اسْتِعارَةٌ تَمْثيلِيَّةٌ، بِأَنْ شَبَّهَ الهَيْئَةَ الحاصِلَةَ مِنْ أَكْلِهِمْ ما يَتَلَبَّسُ بالنّارِ بالهَيْئَةِ المُنْتَزَعَةِ مِنْ أَكْلِهِمُ النّارَ، مِنْ حَيْثُ ما يَتَرَتَّبُ على أَكْلِ كُلٍّ مِنْهما مِنْ تَقَطُّعِ الأمْعاءِ، والألَمِ، وما يَتَرَتَّبُ عَلى الآخَرِ، فاسْتُعْمِلَ لَفْظُ المُشَبَّهِ بِهِ في المُشَبَّهِ"[7].

توجيه مَن حَمَلَ قولَه: ﴿مَا يَأۡكُلُونَ فِي بُطُونِهِمۡ إِلَّا ٱلنَّارَ﴾ على الحقيقةِ:

ومن المفسِّرين من حمل قولَه: ﴿مَا يَأۡكُلُونَ فِي بُطُونِهِمۡ إِلَّا ٱلنَّارَ﴾ "على ظاهِرِه، وقالَ: إنَّ ذَلِكَ يكون في الدُّنْيا، وإنّ الرُّشَى الَّتي هُمْ يَأْكُلونَها تَصيرُ في أَجْوافِهِمْ نارًا، فَلا

(1) درويش، إعراب القرآن وبيانه: 1/247.
(2) ابن عطيّة، المحرّر الوجيز: 1/241.
(3) محمد علي جميل، الإبداع البياني في القرآن العظيم، ص: 34.
(4) البروسويّ، روح البيان: 1/279.
(5) الجمل، الفتوحات الإلهيّة: 1/209.
(6) الرّازي، مفاتيح الغيب: 5/205.
(7) محمود عبد الرّحيم صافي، الجدول في إعراب القرآن: 2/347.

يُحِسُّونَ بِها إلّا بَعْدَ المَوْتِ، ومَنَعَ تعالى أَنْ يُدْرِكُوا أَنَّها نارٌ، اسْتِدْراجًا وإمْلاءً لَهُمْ، ويكون في هَذا المعْنَى بَعْضُ تَجَوُّزٍ، لِأَنَّهُ حالَةَ الأَكْلِ لَمْ يَكُنْ نارًا، إنَّما بَعْدُ صارَتْ في بُطُونِهِمْ نارًا، وقِيلَ: إنَّ ذَلِكَ يكون في الآخِرَةِ، فَهُوَ حَقِيقَةٌ أَيْضًا، واخْتَلَفُوا فَقِيلَ: جَمِيعُ ما أَكَلُوهُ مِنَ السُّحْتِ والرُّشَى في الدُّنْيا، يُجْعَلُ نارًا في الآخِرَةِ، ثُمَّ يُطْعِمُهُمُ اللَّه إيّاهُ في النّارِ، وقِيلَ: يَأْمُرُ الزَّبانِيَةَ أَنْ تُطْعِمَهُمُ النّارَ لِيكون عُقُوبَةُ الأَكْلِ مِنْ جِنْسِه، وأَكْثَرُ العُلَماءِ على تَأْوِيلِ قَوْلِه: ﴿مَا يَأۡكُلُونَ فِي بُطُونِهِمۡ إِلَّا ٱلنَّارَ﴾ على مَعْنَى: أَنَّهُمْ يُجازَوْنَ على ما اقْتَرَفُوهُ مِنْ كَتْمِ ما أَنْزَلَ اللَّه، والاشْتِراءِ بِهِ الثَّمَنَ القَلِيلَ، بِالنّارِ، وأَنَّ ما اكْتَسَبُوهُ بِهَذِهِ الأَوْصافِ الذَّمِيمَةِ مَآلُهُ إلى النّارِ"(1).

المقصودُ بنفي تكليمِ الكاتمين يومَ القيامةِ في قوله: ﴿وَلَا يُكَلِّمُهُمُ ٱللَّهُ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ﴾:

نفي التّكليم دليلُ الغضب والحرمانِ وانحطاطِ المنزلة

ظاهِرُ قوله تعالى: ﴿وَلَا يُكَلِّمُهُمُ ٱللَّهُ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ﴾ "نَفْيُ الكَلَامِ مُطْلَقًا، أَعْنِي مُبَاشَرَتَهُمْ بِالكَلَام، فَيكون مَا جَاءَ في القُرْآنِ، أَوْ في السُّنَّة، ممَّا ظَاهِرُهُ أَنَّهُ تعالى يُحَاوِرُهُمْ بِالكَلَام، مُؤَوَّلًا بِأَنَّهُ يَأْمُرُ مَنْ يَقُولُ لَهُمْ ذَلِكَ، نَحْوُ قَوْلِهِ تعالى: ﴿قَالَ ٱخۡسَـُٔواْ فِيهَا وَلَا تُكَلِّمُونِ ١٠٨﴾ [المؤمنون: 108]، ويكون في نَفْيِ كَلَامِه تعالى إيَّاهُمْ دَلَالَةٌ على الغَضَبِ عَلَيْهِمْ؛ أَلَا تَرَى أَنَّ مَنْ غَضِبَ على شَخْص، صَرَمَهُ وقطَعَ كَلَامَهُ؛ لِأَنَّ في التَّكَلُّم، ولَوْ كان بِشَرٍّ، تَأْنِيسًا مَا والتِفَاتًا إلى المكَلَّم"(2)، فقولُه تعالى: ﴿وَلَا يُكَلِّمُهُمُ ٱللَّهُ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ﴾ "عِبارَةٌ عَنْ غَضَبِهِ عَلَيْهِمْ، وتَعْرِيضٌ بِحِرْمانِهِمْ حالَ مُقابِلِيهِمْ في الكَرامَةِ والزُّلْفى مِنَ اللّه"(3)، وهو تَعْبِيرٌ عَنِ انْحِطاطِ المَنْزِلَة: "بِمَنْزِلَةِ قَوْلِكَ: فُلانٌ لا يُكَلِّمُهُ السُّلْطانُ ولا يَلتَفِتُ إلَيه، وأنتَ إنّما تُعَبِّرُ عَنِ انْحِطاطِ مَنْزِلَتِهِ لَدَيْه"(4).

وقد أَحْسَنَ الرّازي في تَبْيِينِ الوُجوهِ المَذْكورَةِ في الإجابَةِ عَنْ

(1) أبو حيّان، البحر المحيط: 2/121.
(2) أبو حيّان، البحر المحيط: 2/122، والقِنَّوجي، فتح البيان: 1/345.
(3) البيضاوي، أنوار التّنزيل: 1/120، وأبو السعود، إرشاد العقل السّليم: 1/192، وابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 2/124.
(4) ابن عطية، المحرَّر الوجيز: 1/241.

ذَلِكَ: "﴿وَلَا يُكَلِّمُهُمُ ٱللَّهُ﴾ فظاهِرُهُ: أَنَّهُ لا يُكَلِّمُهُمْ أَصْلًا، لَكِنَّهُ لَمَّا أَوْرَدَهُ مَوْرِدَ الوَعيدِ، فُهِمَ مِنْهُ مَا يَجْرِي مَجْرَى العُقُوبَةِ لَهُمْ، وذَكَرُوا فيهِ ثَلاثَةَ أَوْجُهٍ:

الأَوَّلُ: أَنَّهُ قَدْ دَلَّتِ الدَّلَائِلُ على أَنَّهُ سُبْحَانَهُ وتعالى يُكَلِّمُهُمْ، وذلِكَ قَوْلُه: ﴿فَوَرَبِّكَ لَنَسْـَٔلَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ۝٩٢ عَمَّا كَانُواْ يَعْمَلُونَ﴾ [الحجر: 92- 93] وقَوْلُه: ﴿فَلَنَسْـَٔلَنَّ ٱلَّذِينَ أُرْسِلَ إِلَيْهِمْ وَلَنَسْـَٔلَنَّ ٱلْمُرْسَلِينَ ۝٦﴾ [الأعراف: 6] فعَرَفْنَا أَنَّهُ يَسْأَلُ كُلَّ واحِدٍ مِنَ المكَلَّفينَ، والسُّؤَالُ لا يكون إلّا بِكَلَامٍ، فَقَالُوا: وجَبَ أَنْ يكون المُرَادُ مِنَ الآيَةِ، أَنَّهُ تعالى لا يُكَلِّمُهُمْ بِتَحيّةٍ وسَلَامٍ، وإنّمَا يُكَلِّمُهُمْ بِمَا يَعْظُمُ عِنْدَهُ الغَمُّ والحَسْرَةُ؛ مِنَ المُنَاقَشَةِ والمُساءَلَةِ، وبِقَولِه: ﴿قَالَ ٱخْسَـُٔواْ فِيهَا وَلَا تُكَلِّمُونِ ۝١٠٨﴾ [المؤمنون: 108].

الثَّاني: أَنَّهُ تعالى لا يُكَلِّمُهُم، وأمّا قَولُهُ تَعالى: ﴿فَوَرَبِّكَ لَنَسْـَٔلَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ۝٩٢﴾ [الحِجْر: 92] فَالسُّؤَالُ إنّما يكون مِنَ الملائِكَةِ بِأَمْرِهِ تعالى، وإنّمَا كان عَدَمُ تَكْليمِهِمْ يَوْمَ القيامَةِ مَذْكُورًا في مَعْرِضِ التَّهْديدِ، لِأَنَّ يَوْمَ القيامَةِ هُوَ اليَوْمُ الّذي يُكَلِّمُ اللّٰه تعالى فيهِ كُلَّ الخَلَائِقِ بِلَا واسِطَةٍ، فَيَظْهَرُ عِنْدَ كَلامِهِ السُّرُورُ في أَوْليائِه، وضِدُّهُ في أَعْدَائِه، ويَتَمَيَّزُ أَهْلُ الجَنَّةِ بِذَلِكَ مِنْ أَهْلِ النَّارِ، فَلَا جَرَمَ كان ذَلِكَ مِنْ أَعْظَمِ الوَعيدِ.

الثَّالِثُ: أَنَّ قَوْلَهُ: ﴿وَلَا يُكَلِّمُهُمُ﴾ اسْتِعَارَةٌ عَنِ الغضَبِ، لِأَنَّ عَادَةَ الملُوكِ أَنَّهُمْ عِنْدَ الغَضَبِ يُعْرِضُونَ عَنِ المغْضُوبِ عَلَيْهِ، ولَا يُكَلِّمُونَهُ، كَمَا أَنَّهُمْ عِنْدَ الرِّضَا يُقْبِلُونَ عَلَيْهِ بِالوَجْهِ والحَديثِ"(1).

نَفيُ التَّكليمِ كِنايَةٌ؛ لأَنَّه لازِمٌ مِنْ لَوازِمِ الغَضَبِ عُرْفًا

وخلاصةُ الأمرِ أَنَّ نفيَ التَّكليمِ هو كنايةُ الغضبِ، فهو "يَكونُ عَلَيْهِمْ غَضْبانَ، كَما يُقالُ: فُلانٌ لا يُكَلِّمُ فُلانًا، إذا كانَ عليهِ غَضبانَ، لِما ثَبَتَ بِالنُّصوصِ أَنَّهُ تَعالى يَسْأَلُهم، والسُّؤَالُ كَلامٌ، فحُمِلَ نَفْيُ الكَلامِ على الغَضَبِ؛ فَهُوَ كِنايَةٌ"(2)، أَو: "لا يُكَلِّمُهُمُ اللّٰه بِطَريقِ الرَّحْمَةِ، غَضَبًا عَلَيْهِمْ، فلَيْسَ المُرادُ بِهِ نَفْيَ الكَلامِ حَقيقَةً، لِئَلَّا يَتَعارَضَ بِقَوْلِهِ تَعالى: ﴿فَوَرَبِّكَ لَنَسْـَٔلَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ۝٩٢﴾ [الحجر: 92]،

(1) الرّازي، مفاتيح الغيب: 5/205.

(2) الشّربيني، السّراج المنير: 1/114.

ونَحْوِهِ، بَلْ هُو كِنايَةٌ عَنِ الغَضَبِ، لِأَنّ نَفْيَ الكَلامِ لازِمٌ لِلغَضَبِ عُرْفًا"(1).

التَّعْريضُ بنفي التّزكية في: ﴿وَلَا يُزَكِّيهِمۡ﴾، ضَربٌ مِنَ الكِنايَةِ:

تَنَوُّعُ وُجوهِ الدَّلالَةِ، في تَأْويلِ قَولِهِ (ولا يزكيهم)

"التَّعْريضُ: في عَدَم تَكليمِ اللّهِ إيّاهُمْ، بِحِرْمانِهِم حالَ أَهْلِ الجنّة، وتزكيَتَهُم بكَلامِه تعالى، والتَّعْريضُ ضربٌ مِنَ الكناية، لأنَّ الكنايةَ إذا كانتْ عَرَضيّةً مَسُوقَةً لِأجْل مَوْصوفٍ غَيْرِ مَذْكورٍ، كان المُناسِبُ أَنْ يُطْلَقَ عَليها اسْمُ التَّعْريض"(2).

"قَوْلُهُ: ﴿وَلَا يُزَكِّيهِمۡ﴾ وفيهِ وُجُوهٌ؛ الأَوَّلُ: لا يَنْسُبُهُمْ إلى التَّزْكيةِ ولَا يُثْني عَلَيْهِمْ، الثّاني: لا يَقْبَلُ أَعْمَالَهُمْ كَمَا يَقْبَلُ أَعْمَالَ الأَزْكياءِ، الثّالِثُ: لا يُنْزِلُهُمْ مَنَازِلَ الأَزْكِيَاءِ"(3)، وقيل: "لا يُثْني عَلَيْهِم ولا يُطَهِّرُهُم من دَنَسِ الذُّنوبِ، يَوْمَ يُطَهِّرُ المُؤمنينَ من ذُنوبِهِم بالمَغْفِرَة"(4).

وقيل: "لا يُصْلِحُ أعمالَهُمُ الخَبيثَةَ، فيُطَهِّرَهُمْ، أوْ لا يُنْزِلُهُم منازِلَ الأَزْكياءِ.

وقيلَ: لا يُطَهِّرُهُم مِنْ دَنَسِ الذّنوبِ"(5)، " أَيْ لا يُثْني عَلَيْهِمْ في ذَلِكَ المجْمَعِ؛ وذَلِكَ إِشْعَارٌ لَهُمْ بِأَنَّهُمْ صَائِرُونَ إِلَى العَذابِ، لِأَنَّهُ إذا نُفِيَتِ التَّزْكيةُ، أَعْقَبَهَا الذَّمُّ والتَّوْبِيخُ، فَهُوَ كِنَايَةٌ عَنْ ذَمِّهِمْ في ذَلِكَ الجَمْعِ، إِذْ لَيْسَ يَوْمَئِذٍ سكُوتٌ"(6).

السِّرُّ في تَرتيبِ هذِهِ الأخبارِ الأَرْبَعَةِ:

التَّرْتيبُ للمَعْنَى واللَّفْظِ معًا، أَوِ التَّرْتيبُ لِلمَعْنَى فَقَطْ

"وَنَاسَبَ ذِكْرُ هَذِهِ الأَخْبَارِ مَا قَبْلَهَا، ومُنَاسِبُ عَطْفُ بَعْضِهَا على بَعْضٍ، لِمَا نَذْكُرُهُ فَنَقُولُ: مَتَى ذُكِرَ وصْفٌ ورُتِّبَ عَلَيْهِ أَمْرٌ، فَلِلْعَرَبِ فيهِ طَريقَانِ: أَحَدُهُمَا: أَنْ تَكُونَ تِلْكَ الأُمُورُ المتَرَتِّبَةُ على الأَوْصَافِ

(1) البروسويّ، روح البيان: 1/279.
(2) الدّرويش، إعراب القرآن وبيانه: 1/247-248.
(3) الرّازيّ، مفاتيح الغيب: 5/205-206.
(4) البروسويّ، روح البيان: 1/279.
(5) القِنَّوجي، فتح البيان: 1/346.
(6) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 2/124.

مُقَابَلَةً لَهَا؛ الأَوَّلُ مِنْهَا لِأَوَّلِ تِلْكَ الأَوْصَافِ، والثَّاني لِلثَّاني، فَتَحْصُلُ المقَابَلَةُ مِنْ حَيْثُ المعْنَى ومِنْ حَيْثُ التَّرْتِيبُ اللَّفْظِيّ؛ حَيْثُ قُوبِلَ الأَوَّلُ بِالأَوَّلِ، والثَّاني بِالثَّاني، وتَارَةً يكون الأَوَّلُ مِنْ تِلْكَ الأُمُورِ مُجَاوِرًا لِمَا يَلِيهِ مِنْ تِلْكَ الأَوْصَافِ، فَتَحْصُلُ المقَابَلَةُ مِنْ حَيْثُ المعْنَى، لا مِنْ حَيْثُ التَّرْتِيبُ اللَّفْظِيُّ، وهَذِهِ الآيَةُ جَاءَتْ مِنْ هَذا القَبِيلِ.

لَمَّا ذَكَرَ تعالى اشْتِرَاءَهُمُ الثَّمَنَ القَلِيلَ، وكان ذَلِكَ كِنَايَةً عَنْ مَطَاعِمِهِمُ الخَسِيسَةِ الفَانِيَةِ، بَدَأَ أَوَّلًا في الخَبَرِ، بِقَوْلِهِ: ﴿مَا يَأْكُلُونَ فِي بُطُونِهِمْ إِلَّا ٱلنَّارَ﴾، ثُمَّ قَابَلَ تَعالى كِتْمَانَهُمُ الدِّينَ، والكِتْمَانُ هُوَ أَنْ لا يَتَكَلَّمُوا بِهِ بَلْ يُخْفُوهُ، بِقَوْلِهِ تعالى: ﴿وَلَا يُكَلِّمُهُمُ ٱللَّهُ﴾، فَجُوزُوا على مَنْعِ التَّكَلُّمِ بِالدِّينِ أَنْ مُنِعُوا تَكْلِيمَ اللَّهِ إِيَّاهُمْ، وابْتَنَى على كِتْمَانِهِمُ الدِّينَ، واشْتِرَائِهِمْ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ ثَمَنًا قليلًا، أَنَّهُمْ شُهُودُ زُورٍ وأَخْبَارُ سُوءٍ، حَيْثُ غَيَّرُوا نَعْتَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ، وادَّعَوْا أَنَّ النَّبِيَّ المبْتَعَثَ هُوَ غَيْرُ هَذا، فَقُوبِلَ ذَلِكَ كُلُّهُ بِقَوْلِهِ: ﴿وَلَا يُزَكِّيهِمْ﴾، ثُمَّ ذَكَرَ أَخِيرًا مَا أُعِدَّ لَهُمْ مِنَ العَذابِ الأَلِيمِ"[1]، فقال: ﴿وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ١٧٤﴾.

توجيهُ المُتَشابِهِ اللّفْظِيّ:

لسائِلٍ أن يسأَلَ عَن سرِّ الاختلافِ بين قولِه تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَكْتُمُونَ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلْكِتَٰبِ وَيَشْتَرُونَ بِهِۦ ثَمَنًا قَلِيلًا أُوْلَٰٓئِكَ مَا يَأْكُلُونَ فِي بُطُونِهِمْ إِلَّا ٱلنَّارَ وَلَا يُكَلِّمُهُمُ ٱللَّهُ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ وَلَا يُزَكِّيهِمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ١٧٤﴾ [البقرة: 174]، وقولِه تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَشْتَرُونَ بِعَهْدِ ٱللَّهِ وَأَيْمَٰنِهِمْ ثَمَنًا قَلِيلًا أُوْلَٰٓئِكَ لَا خَلَٰقَ لَهُمْ فِي ٱلْأٓخِرَةِ وَلَا يُكَلِّمُهُمُ ٱللَّهُ وَلَا يَنظُرُ إِلَيْهِمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ وَلَا يُزَكِّيهِمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ٧٧﴾ [آل عمران: 77].

"الجواب أن يقال: الوعيد في كلِّ مكان من المكانين حسب ما ذكر من عظيم الذنب وكبير الجرم، فقال في سورة البقرة: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَكْتُمُونَ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلْكِتَٰبِ﴾ فوصفهم بأنهم خالفوا اللّه في أمره ونقضوا ما قدم إليهم من عهده، حيث قال: ﴿وَإِذْ أَخَذَ ٱللَّهُ مِيثَٰقَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ لَتُبَيِّنُنَّهُۥ لِلنَّاسِ وَلَا تَكْتُمُونَهُۥ﴾ [آل عمران: 187] فهؤلاء لم يبيِّنوا وكتموا فخالفوا بارتكاب ما نهى اللّه عن ارتكابه وترك ما أمر اللّه بإتيانه ثم قال: ﴿وَيَشْتَرُونَ بِهِۦ ثَمَنًا قَلِيلًا﴾ أي: نصيبًا يسيرًا من الدنيا، فجاء على هذا أغلظ الوعيد، وهو قوله: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ مَا يَأْكُلُونَ فِي بُطُونِهِمْ إِلَّا ٱلنَّارَ﴾ أي: هذا الحظ اليسير الذي نالوه

(1) أبو حيّان، البحر المحيط: 2/123.

من الدنيا من مطعم ومشربٍ إنّما هو نار في أجوافهم، ثم قال: ﴿وَلَا يُكَلِّمُهُمُ ٱللَّهُ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ﴾ أي: ليسوا ممن ترجى نجاتهم فيجيئهم مِن قِبَلِ الله كلامٌ أو سلامٌ كما قال في أوليائه: ﴿تَحِيَّتُهُمۡ يَوۡمَ يَلۡقَوۡنَهُۥ سَلَٰمٞۚ﴾ [الأحزاب: 44] ثم قال: ﴿وَلَا يُزَكِّيهِمۡ﴾ أي: لا يطهّرهم من ذنب الكفر بالعفو عنهم، ﴿وَلَهُمۡ عَذَابٌ أَلِيمٌ ١٧٤﴾، ثم قال: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ ٱشۡتَرَوُاْ ٱلضَّلَٰلَةَ بِٱلۡهُدَىٰ﴾ [البقرة: 175]، فكرَّر ذِكْرَ سوء اشترائهم ووعيدهم، وأنهم باعوا الإسلام بالكفر، واشتروا عذاب الله بالغفران، واقتحموا عذاب النار؛ فِعْلَ من يعجب من صبره عليها، فهذه أنواع كثيرة من التّوعُّد اقترنت بما حصل من الذَّنب العظيم في كتمانه، والإعراض عن تبيين ما وجب بيانه.

الآية التي في سورة آل عمران لم يذكر في أوَّلها مِن الذُّنوب التي ارتكبوها مثل ما ذكر في أول هذه الآية قال: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَشۡتَرُونَ بِعَهۡدِ ٱللَّهِ وَأَيۡمَٰنِهِمۡ ثَمَنٗا قَلِيلًا﴾ [آل عمران: 77]، فكان هاهنا ذِكر بعض ما ذُكر في الآية الأولى وهو: ﴿وَيَشۡتَرُونَ بِهِۦ ثَمَنٗا قَلِيلًا﴾ فقرن به من الوعيد أقلَّ ممَّا قرنه بالآية الأولى، وهو أن قال: ﴿لَا خَلَٰقَ لَهُمۡ فِي ٱلۡأٓخِرَةِ﴾ [آل عمران: 77] أي: لا نصيب لهم من الخير، ﴿وَلَا يُكَلِّمُهُمُ ٱللَّهُ﴾ كما يكلّم أولياءه ﴿وَلَا يَنظُرُ إِلَيۡهِمۡ﴾ نظرة رحمة ﴿وَلَا يُزَكِّيهِمۡ وَلَهُمۡ عَذَابٌ أَلِيمٌ ١٧٤﴾"(1).

(1) الإسكافي، درّة التّنزيل: 327-1/324.

﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ ٱشۡتَرَوُاْ ٱلضَّلَٰلَةَ بِٱلۡهُدَىٰ وَٱلۡعَذَابَ بِٱلۡمَغۡفِرَةِۚ فَمَآ أَصۡبَرَهُمۡ عَلَى ٱلنَّارِ ١٧٥﴾ [البقرة: 175]

❁ مُناسَبَةُ الآيَةِ لِمَا قَبْلَها:

على قَدْرِ فَظاعَةِ الجُرْمِ، تَكُونُ شِدَّةُ العَذابِ

"لَمَّا وصَفَ عُلَمَاءَ اليَهُودِ بِكِتْمَانِ الحَقِّ، وعَظَّمَ في الوَعِيدِ عَلَيْهِ؛ وصَفَ ذَلِكَ الجُرْمَ لِيُعْلَمَ أَنَّ ذَلِكَ العِقابَ إنّما عَظُمَ لِهَذا الجُرْمِ العَظِيمِ"[1]؛ فقال: "أُولئكَ الّذينَ تَقَدّمَ الحديثُ عنهمْ -وهُمُ الكاتِمونَ لما أَنْزَلَ اللّه- قَدْ بَلَغَ بِهِمُ الغَباءُ وانْطِماسُ البَصيرَةِ، أنّهمْ باعوا الهُدى والإيمانَ، لِيأخُذُوا في مقابِلِهما الكُفرَ والضَّلالَ، وباعوا ما يُوصِلُهم إلى مَغْفِرةِ اللّه ورحمَتِه، لِيأخُذوا في مُقابِلِ ذَلكَ عَذابَهُ ونِقْمَتَهُ، فما أَخْسَرَها من صَفْقَةٍ، وما أَغْبى هؤُلاءِ الكاتِمينَ الّذينَ فَعلوا ذَلِكَ نَظيرَ عَرَضٍ مِنْ أَعْراضِ الدُّنْيا الفانِيَةِ، فخَسِروا بِما فَعلوهُ دُنْياهُمْ وآخِرَتَهُمْ"[2].

❁ شَرْحُ المُفْرَدَاتِ:

الاشتراء الشّراء والبيع، وهو من الأضداد

1) ﴿ٱشۡتَرَوُاْ﴾: مِنَ الجَذْرِ (شرى)، وقولُهُ تعالى: (اشْتَرَوْا)، أَصْلُهُ: اشْتَرَيُوا، فاسْتُثْقِلَتِ الضَّمَّةُ عَلى الياءِ فحُذِفَتْ، فالْتَقَى ساكِنانِ؛ الياءُ والواوُ، فحُذِفَتِ الياءُ، وحُرِّكَتِ الواوُ بِحَرَكَتِها، لَمّا اسْتَقْبَلَها ساكِنٌ، ويُجْمَعُ الشّرا على أَشْرِيَةٍ، وهوَ شاذٌّ، لأنّ فِعَلًا لا يُجْمَعُ على أَفْعِلَةٍ[3]، قَالَ الفَرّاءُ: "وللعَرَبِ في (شَرَوْا) و(اشْتَرَوْا) مَذْهَبانِ: فالأَكْثَرُ مِنْهُمَا: أَنَّ (شَرَوْا): بَاعُوا، و(اشْتَرَوْا): ابْتاعُوا؛ ورُبمَا جَعَلوهُما بِمَعْنى: بَاعوا"[4]، و(اشْتَرَوْا) بمعنى: اسْتَبْدَلوا، وأَصلُ هَذا أَنَّ مَن

(1) الرّازي، مفاتيح الغيب: 5/206.
(2) طنطاويّ، التّفسير الوسيط للقرآن الكريم: 1/357.
(3) الجوهريّ، الصّحاح: (شرى).
(4) الأزهري، تهذيب اللّغة: (شرى).

اشْتَرَى شيئًا بِشَيءٍ، فَقَدِ اسْتَبْدَل مِنْهُ، واشْتقاقُ الاشْتِراءِ مِنَ الشَّرْوَى وهُوَ المِثْلُ؛ لأَنَّ المُشْتَرِيَ يُعْطِي شَيْئًا ويَأْخُذُ شَيْئًا.

مِن الجرأة المتهوّرة، الاستهانة بعذاب الآخرة

2) ﴿فَمَآ أَصۡبَرَهُمۡ﴾: مِنَ الجَذْرِ (صبر)، أيُّ شَيْءٍ صَبَّرَهُمْ عليْهَا ودَعاهُمْ إِلَيْهَا؟! ويقال: مَا أَصْبَرَهُمْ على النَّار: مَا أَجْرَأَهم عليْهَا! أَصْبَرَهُمْ وصَبَّرهُم بِمعْنًى[1]، وفي (تاج العروس): "الصَّبْرُ: الجَراءَةُ، ومِنْه قَوْله تَعالَى: (فمَا أَصْبَرَهُمْ عَلَى النّارِ)، أَيْ: مَا أَجْرَأَهُمْ على أَعمالِ أَهلِ النّارِ! أَو مَا أَعْمَلَهُم بعَمَلِ أَهلِهَا!"[2].

❁ المَعْنَى الإِجْمَالِيُّ:

الاسْتِخْفافُ بالعِصيانِ، وتَحْريفُ هُدى الرَّحمَنِ، جُرْأَةٌ وهَلاكٌ، هُنا وهُناك

يُخْبِر اللَّه تعالى أَنَّ أُولئك المتَّصفين بكِتْمَان العِلْم الّذي يَحْتاجُ إِلَيه النَّاسُ، هُم الّذين اسْتَبْدلوا الضَّلالةَ بالهدى؛ لَمَّا كَتمُوا العِلمَ الحَقَّ، واسْتَبْدلُوا عَذابَ اللَّه بمغْفرَتِه، فما أَصْبرَهُمْ على فِعْلِ مَا يُسبِّبُ لَهُم دُخُولَ النَّارِ! كأَنَّهُم لا يُبالون بمَا فِيهَا مِن عَذابٍ، لِصَبْرِهم عليْهَا، فمَا أشدَّ جراءَتَهُم على النَّارِ! بِعَمَلِهِمْ أَعمالَ أَهْلِ النَّارِ، يَعْجَبُ اللَّه من إقدامهم على موجِباتِ النَّارِ، مِن غَيرِ مُبالاَة منهم، فاعجَبوا - أيها الناس- من جراءتهم، ومن صبرهم على النار ومكثهم فيها.

وهذا على وجه الاستهانة، بهم والاستخفافِ بأمرهم[3].

❁ الإِيضَاحُ اللُّغَوِيُّ وَالبَلَاغِيُّ:

المُشْتَرُونَ الضَّلالَةَ بالهُدى، هُمُ المُتّصِفُون بكِتْمَانِ الحَقِّ وقْتَ الحاجةِ إلى بَيانِهِ

بيانُ الإشارةِ باسْمِ الإشارَةِ، في قوله: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ ٱشۡتَرَوُاْ ٱلضَّلَٰلَةَ بِٱلۡهُدَىٰ﴾:

قوله: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ﴾: "اسْمُ إِشَارَةٍ إِلى الكَاتِمِينَ الّذينَ سَبَقَ ذِكْرُهُمْ وذِكْرُ مَا أُوعِدُوا بِه"[4]، "وإِنَّ أُولئك الّذين كَتمُوا الحَقَّ الّذِي أَنْزَله تعالى، لِغَرضٍ أو لِمَالٍ أو لِجَاهٍ، أو لِرشْوةٍ وسُحْتٍ، أو لِمَنْصبٍ يُريدونه

(1) ابن الهائم، التبيان في تفسير غريب القرآن، ص: 101.
(2) الزّبيديّ، تاج العروس: 12/282.
(3) جماعة من علماء التّفسير، المختصر في تفسير القرآن الكريم، ص: 26، ونخبة من العلماء، التّفسير الميسّر، ص: 26، والبيضاوي، أنوار التّنزيل: 1/120.
(4) أبو حيّان، البحر المحيط: 2/123.

أو يَرجُونه، هؤلاء تَركُوا الهدايةَ وطلبوا الضَّلالةَ؛ ولذا قال تعالى مُشيرًا إليهم: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ ٱشۡتَرَوُاْ ٱلضَّلَٰلَةَ بِٱلۡهُدَىٰ وَٱلۡعَذَابَ بِٱلۡمَغۡفِرَةِۚ﴾، الإشارةُ في الأُولى إشارةٌ للّذين اتَّصَفوا بكِتْمَانِ الحَقِّ وقْتَ الحاجةِ إلى بَيانه، وأنَّ ذَلك الوصْف هُو سببُ الحُكم الذِّي تَقرَّر عَليهم، وهُو أنَّهُمُ اشْترَوُا الضَّلالة بالهُدى، أيْ تركُوا الحقَّ، وهو المبيعُ الثَّمين؛ لأنَّه هُدى اللهِ تعالى"[1].

نكتةُ تَكرارِ اسمِ الإشارَةِ في قوله: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ يَلۡعَنُهُمُ ٱللَّهُ﴾ و﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ ٱشۡتَرَوُاْ﴾:

استقلالُ كلِّ حكمٍ تفظيعًا لحالِ الكاتمين

نُكتةُ تَكرارِ الإشارةِ "التَّنْبِيه عَلَى أَنَّ المُشَارَ إِلَيْهِ جَدِيرٌ بِأَحْكَام أُخْرَى غَيْرِ الحُكْمِ السَّابِق، وأَنَّ تِلْكَ الأَحْكَامَ لِأَهَمِّيَّتِهَا يَنْبَغِي أَلَّا تُجْعَلَ مَعْطُوفَةً تَابِعَةً لِلْحُكْم الأَوَّلِ، بَلْ تُفْرَدُ بِالحُكْمِيَّة"[2]، أَو "لِتَفْظِيع حَالِهِمْ لِأَنَّهُ يُشِيرُ لَهُمْ بِوَصْفِهِمُ السَّابِقِ؛ وهُوَ كِتْمَانُ مَا أَنْزَلَ اللَّه مِنَ الكِتَابِ"[3].

التَّعْبيرُ بالمَوْصولِ في قوله: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ ٱشۡتَرَوُاْ ٱلضَّلَٰلَةَ﴾:

غايَةُ الخُسْرانِ المُبينِ؛ اسْتِبدالُ الزَّهيدِ بالثَّمين

عبَّر بالاسمِ الموصولِ في قولِه: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ ٱشۡتَرَوُاْ ٱلضَّلَٰلَةَ﴾ ولم يقل: "(أولئك اشْتَرَوُا الضَّلالةَ بِالهُدَى)، كما قِيلَ: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ يَلۡعَنُهُمُ ٱللَّهُ وَيَلۡعَنُهُمُ ٱللَّٰعِنُونَ ١٥٩﴾ [البقرة: 159]، ﴿أُوْلَٰٓئِكَ كَتَبَ فِي قُلُوبِهِمُ ٱلۡإِيمَٰنَ وَأَيَّدَهُم بِرُوحٖ مِّنۡهُۖ﴾ [المجادلة: 22]، فهل هُوَ لِلْحصْرِ؟ فَأَجاب ابْنُ عَرفَة: بِأَنَّه "لَيْس لِلْحصْرِ، بل لِلتَّحْقيق، أيْ: فَهُم جديرون وحقيقُون بِأنْ يُقَال فِيهم هَذه المقالةُ، وهِي أحقُّ مِن غَيرهِم"[4].

فائِدةُ التَّعْبيرِ بالاِشْتِراءِ في قوله: ﴿ٱشۡتَرَوُاْ ٱلضَّلَٰلَةَ بِٱلۡهُدَىٰ﴾:

إيثارُ الضَّلالَةِ على الهُدَى، مُنْتَهى الخَسَارَةِ وقِصَرِ النَّظَرِ

في لَفْظِ ﴿ٱشۡتَرَوُاْ﴾ "إشْعَارٌ بِإيثَارِهِمُ الضَّلَالَةَ والعَذابَ، لِأَنَّ الإِنْسَانَ لا يَشْتَرِي إلّا مَا كان لَهُ فِيهِ رَغْبَةٌ ومَوَدَّةٌ، واخْتِيَارٌ، وذَلك

(1) أبو زهرة، زهرة التّفاسير: 1/515، والقِنّوجي، فتح البيان: 1/346.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 2/124-125.
(3) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 2/125.
(4) تفسير ابن عرفة: 2/510-511.

يَدُلُّ على نِهايَةِ الخَسارَةِ، وعَدَمِ النَّظَرِ في العَوَاقِبِ"[1]، "لَمَّا تَركُوا الهُدى وأعْرضوا عَنْه، ولازموا الضَّلالة وتكسّبوهَا، مع أنَّ الهُدى مُمْكِنٌ لَهُم مُيسَّرٌ، كان ذَلك كبيْعٍ وشِراء"[2]، "وإنّمَا حَكَمَ تعالى عَلَيهِمْ بِأَنَّهُمُ اشْتَرَوُا العَذابَ بِالـمَغْفِرَة؛ لِأَنَّهُمْ لَمَّا كَانُوا عَالِمِينَ بِمَا هُوَ الحَقُّ، وكَانُوا عَالِمِينَ بِأَنَّ في إظْهَارِهِ وإزَالَةِ الشُّبْهَةِ عَنْهُ أَعْظَمَ الثّوابِ، وفي إخفائِهِ وإلقائِهِ الشُّبْهَةَ فِيهِ أَعْظَمَ العِقابِ، فَلَمَّا أَقْدَمُوا على إِخْفَاءِ ذَلِكَ الحَقِّ، كَانُوا بَائِعِينَ لِلْمَغْفِرَةِ بِالعَذابِ لا مَحَالَةَ"[3].

براعةُ الاسْتِعارَةِ التَّصْريحِيّةِ في قوله: ﴿ٱشْتَرَوُا۟ ٱلضَّلَـٰلَةَ بِٱلْهُدَىٰ﴾:

جَمالُ التَّصْريحِيَّةِ في تَقْريبِ المَعْنى وإيضاحِ الصُّورَةِ

معنى قوله: ﴿ٱشْتَرَوُا۟ ٱلضَّلَـٰلَةَ بِٱلْهُدَىٰ﴾، "أيْ: اسْتَبدَلُوا الكُفْرَ بالإيمانِ"[4]، و"في الآية اسْتِعارةٌ تَصْريحِيَّةٌ بَدِيعَةٌ؛ فقَدِ اسْتَعارَ الشِّراءَ لِلاسْتِبدالِ، أيْ: اسْتَبدَلوا الضَّلالَةَ بالهُدى، وأخَذوا الكُفْرَ بَدَلَ الإيمانِ، والعَذابَ بَدَلَ المَغْفِرَة، وهذا النَّوْعُ من ألْطَفِ أنْواعِ الاسْتعارةِ وأبْدَعِها؛ لِأنَّ البيْعَ والشِّراءَ يَكونُ في التِّجارَة، فكَأَنَّهُمْ بِمنْزِلة مَن يَشْتَري سِلْعَةً فَاسِدةً بِمبْلَغٍ كبيرٍ مِنَ المالِ، ثُمَّ تَظْهَرُ خَسارَتُه الفادِحَةُ"[5].

"﴿أُو۟لَـٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ ٱشْتَرَوُا۟﴾ بالنِّسْبَةِ إلى الدُّنْيا، ﴿ٱلضَّلَـٰلَةَ﴾ الّتي لَيسَتْ مِمَّا يُمْكِن أن يُشتَرى قطْعًا ﴿بِٱلْهُدَىٰ﴾ الذي لَيْس من قَبيل مَا يُبذَل بِمقابلة شَيْءٍ وإنْ جَلَّ، و﴿وَٱلْعَذَابَ﴾، أي اشْتَرَوْا -بالنَّظَرِ إلى الآخِرةِ- العذابَ الّذي لا يُتوهَّم كَونُه مِمَّا يُشْتَرَى ﴿بِٱلْمَغْفِرَةِ﴾ الّتي يَتَنافَس فِيهَا المتنافِسونَ، وهذا من قَبِيل الاسْتعارةِ التَّصْريحيَّة"[6]، قال أبو إسحاقَ: ليس هنا شِرَاءٌ وبَيْعٌ، ولكن رَغْبَتهُم فيه بتَمَسُّكِهم بِهِ، كَرَغْبَةِ الـمُشْتَري بمالِهِ ما يَرْغَبُ فيه، والعربُ تقول لكُلِّ من تَرَكَ

(1) أبو حيّان، البحر المحيط: 2/124.
(2) ابن عطية، المحرّر الوجيز: 1/242.
(3) الرّازي، مفاتيح الغيب: 5/206.
(4) العليميّ، فتح الرّحمن في تفسير القرآن: 1/244.
(5) محمد علي جميل، الإبداع البيانّي في القرآن العظيم، ص: 34- 35، وصفوة التّفاسير: 1/103.
(6) محمود عبد الرّحيم صافي، الجدول في إعراب القرآن: 2/349.

شيئًا وتَمَسَّكَ بِغَيرِه: فقدِ اشْتَراهُ وشاراهُ مُشاراةً وشِرَاءً، بايَعُه وقيلَ: شاراهُ: مِنَ الشِّراءِ والبَيْعِ جَميعًا[1].

سِرُّ التَّعبير بِالعذابِ في قوله: ﴿وَٱلۡعَذَابَ بِٱلۡمَغۡفِرَةِۚ﴾:

بيانُ أهميّة الأسبابِ الموصلةِ إلى مُسبِّباتها

جاءَ التَّعبيرُ في قولِه: ﴿وَٱلۡعَذَابَ بِٱلۡمَغۡفِرَةِۚ﴾ "والظَّاهرُ أَنَّه أَرَاد سَبَبَه، والطَّريقَ المُوصِلَ إلَيه، إشارةً إلى أَنَّه مُوصِلٌ إليَه لا مَحالَةَ"[2]، "والمغفرةُ هِي الثَّوَابُ والنَّعيمُ المُقيمُ، الّذي أَعدَّه اللَّه تعالى لِلْمُهْتَدين، وعبَّر عن الثَّواب بالمغْفرة، لأَنَّ المغْفرةَ دليلُ الرِّضا أوَّلًا، ولِلْإشارة إلى أنَّ مَنْ يَعمَلُ صالحًا يَغفِرُ اللَّه لَهُ مَا عَسَاهُ يكونُ مِنْ سَيِّئاتٍ؛ لِأَنَّ الحسناتِ يُذْهِبْنَ السَّيِّئاتِ ثانيًا، ولأَنَّ مَنْ يَنَالُ غُفْرانَ اللَّه تعالى مِنَ المقرَّبينَ"[3].

دلالةُ المُقابَلَةِ في قَوْلِهِ: ﴿ٱلضَّلَٰلَةَ بِٱلۡهُدَىٰ وَٱلۡعَذَابَ بِٱلۡمَغۡفِرَةِۚ﴾:

بيانُ ضياعِ الهُدى بالضَّلالةِ، ووقوعِ العذابِ بدلَ المغفرة

قابلتِ الآيَةُ بَيْنَ الضَّلالَةِ والهُدى، وبَيْنَ العَذابِ والمَغْفِرَة؛ لإيضاحِ مَلْمَحِ الاخْتيارِ بَيْنَ البَدائِلِ المُتَناقِضَة، وتَرْسِيَةِ الاخْتيارِ عَلى ما يَتَلاءَمُ مَعَ طَبيعَةِ المُخْتارِ، مِنْ كَوْنِه يَخْتارُ الضَّلالَةَ والعَذابَ، أَوْ يُؤْثِرُ الهُدى والمَغْفِرَةَ، قال ابْنُ عاشور: "ومَعْنَى اشْتِراءِ الضَّلالَةِ بِالهُدَى في كِتْمانِ الكِتابِ: أَنَّ كُلَّ آيَةٍ أَخْفَوْها أَوْ أَفْسَدوها بِالتّأويل، فقَدِ ارْتَفَعَ مَدْلولُها المَقصُودُ مِنْها، وإذا ارْتَفَعَ مَدْلولُها نُسِيَ العَمَلُ بِها، فأَقْدَمَ النّاسُ عَلى ما حَذّرَتْهُمْ مِنْهُ، ففي كِتْمانِهِمْ حَقٌّ رُفِعَ، وباطِلٌ وُضِعَ، ومَعْنى اشْتِراءِ العَذابِ بِالمَغْفِرَة: أَنَّهُمْ فَعلوا ذَلِكَ الكِتْمانَ عَنْ عَمْدٍ، وعِلْمٍ بِسوءِ عاقِبَتِه، فهُمْ قَدْ رَضُوا بِالعَذابِ، وإضاعَةِ المَغْفِرَة، فكَأَنَّهُمُ اسْتَبْدَلوا بِالمَغْفِرَةِ العَذابَ"[4].

---

(1) ابن سيده، المحكم والمحيط الأعظم: 8/100.

(2) أبو زهرة، زهرة التّفاسير: 1/515.

(3) المصدر السّابق: 1/515.

(4) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 2/125.

دَلالَةُ الباء مع فِعْلِ التَّبْديلِ والاشْتِراءِ، وأنّ مَا دَخلَتْ عَليْهِ الباءُ هُوَ المتْروكُ:

قال ابن عطيَّة: "ولَمَّا كان العَذابُ تابعًا للضَّلالَةِ الّتي اشْتَرَوْها، وكانَتِ المَغْفِرَةُ تابعةً لِلهُدى الّذي اطَّرَحوهُ، أُدْخِلا في تجوُّزِ الشِّراء"(1)، وقد استدرك عليه ابنُ عرفةَ فقال: "إنّ قَوْلَه ﴿ٱشْتَرَوُاْ ٱلضَّلَٰلَةَ بِٱلْهُدَىٰ﴾، راجعٌ لِتَصوُّرِ حالَتِهِمْ في الدُّنيا، قَوْلُهُ تعالى: ﴿وَٱلْعَذَابَ بِٱلْمَغْفِرَةِ﴾، راجعٌ لِتَصوُّرِ حالِهم في الآخِرَة، وهذا أَوْلى مِمَّا قال ابنُ عَطيّةَ"(2)، علمًا بأنّ "الباءَ دَاخِلَةٌ على المَتْروكِ، أيْ: فقَدْ تركُوا الهُدى وأَخذوا الضَّلالَةَ بَدَلَهُ"(3)، "والمتْرُوكُ مَا دَخلَتْ عَليْه الباءُ"(4).

وُجوهُ (مَا) ودَلالَتُها في تَنَوُّعِ المَعْنى وبَلاغَتِهِ في قولِه: ﴿فَمَآ أَصْبَرَهُمْ عَلَى ٱلنَّارِ﴾:

ذكرَ السّمينُ الحلبيُّ نحوًا من خمسةِ وُجُوهٍ لـ (ما)، أَحدُها: أنَّها نَكِرةٌ تامّةٌ للتَّعَجُّب، فإذا قُلتَ: ما أحسنَ زيدًا! فمعْناهُ: شَيْءٌ صَيَّر زيدًا حسنًا، والثّاني: استِفهاميّةٌ صَحِبَها مَعْنى التَّعَجُّب، نَحو: ﴿كَيْفَ تَكْفُرُونَ﴾ [البقرة: 28]، والثَّالِثُ: مَوْصولَةٌ، والرابعُ: نَكِرَةٌ مَوْصُوفَةٌ، وهيَ على الأقوالِ الأربعةِ في محلِّ رفعٍ بالابتِداءِ، والخامسُ: أنَّها نافِيَةٌ، أي: (فما أصبرَهم اللّهُ على النّار)(5).

معنى التَّوبيخ:

قال الرّازيّ: "(مَا) في هَذِهِ الآيَةِ اسْتِفْهامُ التَّوْبِيخ، مَعْنَاهُ: مَا الذي أَصْبَرَهُمْ وأَيُّ شَيْءٍ صَبَّرَهَمْ على النَّارِ، حَتَّى تَرَكُوا الحقَّ واتَّبَعُوا البَاطِلَ؟! وهَذا قَوْلُ عَطَاءٍ وابْنِ زَيْدٍ، وقال ابْنُ الأَنْبَارِيِّ: وقَدْ يكون أَصْبَرَ بِمَعْنَى صَبَّرَ، وكَثِيرًا مَا يكون أَفْعَل بِمَعْنَى فَعَّلَ، نَحْوُ أَكْرَمَ وكَرَّمَ، وأَخْبَرَ وخَبَّرَ".

فتقديرُ معنى التَّوبيخ في قَوْله: ﴿فَمَآ أَصْبَرَهُمْ عَلَى ٱلنَّارِ﴾، "أَيُّ شَيْءٍ أَصْبَرَهُمْ على النَّارِ! أَيْ: دعاهُمْ إِلَيْهَا واضْطَرَّهم إِلَيْهَا"(6)، أو "تَقريرٌ واسْتِفهامٌ، مِنْ قَولِكَ: مَصْبُورٌ، أيْ مَحبُوسٌ، أيْ: مَا أشدَّ حَبْسَهُمْ في النَّارِ! أو مَا أَحبَسَهُم في النَّارِ! قال ابْن عَرفَة: وهذا

(1) ابن عطية، المحرّر الوجيز: 1/242.
(2) تفسير ابن عرفة: 2/511.
(3) حاشية الصّاوي على تفسير الجلالين، ص: 74.
(4) درويش، إعراب القرآن وبيانه: 1/246-247.
(5) السّمين، الدُّرُّ المصون: 2/243 - 244.
(6) المبّرد، المقتضب: 4/183.

أَصوَبُ؛ لِأَنَّ الأَوَّلَ يَقتَضِي أَنَّ لَهُمُ اختِيارًا وجَلادَةً على الصَّبرِ عَلى النَّارِ، وهذا مَدحٌ لَهُم بِالقُوَّةِ والجَلادَةِ"[1].

معنى التَّعجُّبِ:

تقريرُ مَعنَى التَّعَجُّبِ: "أَنَّ الرَّاضِيَ بِمُوجِبِ الشَّيءِ، لا بُدَّ وأَنْ يكون رَاضِيًا بِمَعلُولِهِ ولَازِمِهِ، إذا عَلِمَ ذَلِكَ اللُّزُومَ، فَلَمَّا أَقدَمُوا على مَا يُوجِبُ النَّارَ، ويَقتَضِي عَذابَ اللَّهِ، مَعَ عِلمِهِمْ بِذَلِكَ، صَارُوا كَالرَّاضِينَ بِعَذابِ اللَّهِ تعالى، والصَّابِرِينَ عَلَيهِ، فَلِهَذا قال تعالى: ﴿فَمَآ أَصۡبَرَهُمۡ عَلَى ٱلنَّارِ﴾، وهُوَ كَمَا تَقُولُ لِمَنْ يَتَعَرَّضُ لِمَا يُوجِبُ غَضَبَ السُّلطَانِ: مَا أَصْبَرَكَ على القَيْدِ والسِّجنِ! إذا عَرَفْتَ هَذا، ظَهَرَ أَنَّهُ يَجِبُ حَمْلُ قَوْلِهِ: ﴿فَمَآ أَصۡبَرَهُمۡ عَلَى ٱلنَّارِ﴾، على حَالِهِمْ في الدُّنْيَا، لِأَنَّ ذَلِكَ وَصْفٌ لَهُمْ في حَالِ التَّكْلِيفِ، وفي حَالِ اشْتِرَائِهِمُ الضَّلَالَةَ بِالهُدَى"[2].

وهذا مذهبُ جُمْهُورِ المفسِّرين أَنَّ: (مَا) تَعجُّبٌ، "وَهُوَ في حَيِّزِ المُخاطَبِينَ، أَيْ: هُم أَهْلٌ أَنْ تَعْجَبُوا مِنْهُم، ومِمَّا يَطُولُ مُكْثُهُمْ في النَّارِ، أَظهَرَ التَّعَجُّبَ مِنْ صَبْرِهِم على النَّارِ، لَمَّا عَمِلُوا عَمَلَ مَنْ وطَّنَ نَفسَهُ عليهَا، وتقْدِيرُهُ: مَا أَجْرَأَهُمْ على النَّارِ؛ إذْ يعْملون عَمَلًا يُؤَدِّي إِلَيْهَا"[3]!

معنى التَّهكُّمِ:

هُناكَ مَنْ أَوَّلَ (مَا) عَلى أنّها في سِيَاقِ الاسْتِهزاءِ والتَّهَكُّمِ، قال مُحمّد أبو زُهْرَة: "وَهُو من قَبِيلِ التَّهَكُّمِ، كمَا يَقُولُ القائلونَ لِمَن يَرتَكِبُ أَسبَابَ العُقوبةِ، مِن حَدٍّ أو تَعزِيرٍ: مَا أَصْبرَكَ على السِّيَاطِ تَكوِي ظَهْرَكَ كَيًّا!"[4] ومُؤَدَّى هذا المعنى قريبٌ من معنى التَّعجُّبِ.

(1) تفسير ابن عرفة: 2/513.
(2) الرّازي، مفاتيح الغيب: 5/206.
(3) ابن عطيّة، المحرّر الوجيز: 1/242.
(4) أبو زهرة، زهرة التّفاسير: 1/515.

﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ نَزَّلَ ٱلۡكِتَٰبَ بِٱلۡحَقِّۗ وَإِنَّ ٱلَّذِينَ ٱخۡتَلَفُواْ فِي ٱلۡكِتَٰبِ لَفِي شِقَاقِۭ بَعِيدٖ ١٧٦﴾ [البقرة: 176]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِمَا قَبْلَها:

اسْتِحْقاقُ مُشاقّي الرَّسولِ ﷺ ما يَحصُلُ لهُم، بِسَبَبِ اختِلافِهِمْ وشِقاقِهِمْ

لَمَّا حَكَمَ على الّذينَ يَكْتُمُونَ البَيِّنَاتِ بالوَعيدِ الشَّديدِ، بَيَّنَ في هذهِ الآيةِ سَبَبَ إيجابِهِ لَهُمْ؛ إنّما كان لِأنَّ اللّهَ نَزَّلَ الكِتَابَ بِالحَقِّ في صِفَةِ مُحَمَّدٍ ﷺ، وأَنَّ هَؤُلَاءِ اليَهُودَ والنَّصَارَى لِأَجْلِ مُشَاقَّةِ الرَّسُولِ ﷺ، يُخْفُونَهُ ويُوقِعُونَ الشُّبْهَةَ فيهِ، فَلَا جَرَمَ اسْتَحَقُّوا ذَلِكَ الوَعِيدَ الشَّدِيدَ[1].

شَرْحُ المُفْرَدَاتِ:

لا يكون في شقاقٍ إلّا من نأى عن الحقّ، وركب الهوى

1) ﴿شِقَاقٍ﴾: من الجَذر (شقّ)، وأَصْلُ المادّة يَدُلُّ على انْصِدَاعٍ في الشَّيْءِ، ومن البابِ: الشِّقَاقُ، وهُوَ الخِلَافُ، وذَلِكَ إذا انْصَدَعَتِ الجَمَاعَةُ وتَفَرَّقَتْ[2]، "وكَونُك في شِقٍّ غير شِقّ صاحِبِك"[3]، وأصْلُ الشِّقَاقِ البُعْدُ، مِنْ قَولِهِم: (قَد أَخَذَ فُلان في شِقٍّ، وفُلَانٌ في شِقٍّ آخَرَ)، إذا تَباعَدوا، وكَذلِكَ قيلَ لِلخارِجِ عَنِ الجَماعَةِ: (قَدْ شَقَّ عَصا المُسْلِمينَ)؛ لِبُعْدِهِ عَنْهُمْ[4].

وقَوْلُهُ: ﴿لَفِي شِقَاقٍ﴾ يعني: في مُشَاقَّةٍ وعَداوَةٍ، "أيْ في مُناوَأَةٍ ومُعانَدَةٍ لا غَيْرُ، ولَيْسوا مِنْ طَلَبِ الحَقِّ في شَيْءٍ"[5].

لا حدّ للبُعْد، ولكنّه يُعتبرُ فيه ما بين المكانين، حقيقيًّا أو مُتصوّرًا

2) ﴿بَعِيدٍ﴾: من الجَذْرِ (بعد)، وأَصلُ المادَّةِ يَدُلُّ على خِلَافِ القُرْبِ[6]، وليسَ لهُما حَدٌّ مَحْدودٌ، وإنَّما ذلكَ بِحَسبِ اعْتِبارِ المَكانِ

(1) الرّازي، مفاتيح الغيب: 5/209-210، وعبد القادر بن ملاّ حويش، بيان المعاني: 5/119.
(2) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (شقّ).
(3) الرّاغب، المفردات: (شقّ).
(4) الماورديّ، النّكت والعيون: 1/195.
(5) الزّمخشريّ، الكشّاف: 1/196.
(6) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (بعد).

بِغَيْرِه، يُقالُ ذَلكَ في المَحْسوسِ، وهُوَ الأكْثَرُ، وفي المَعْقولِ نَحْو قَوْلِه تَعالى: ﴿ضَلُّواْ ضَلَٰلَۢا بَعِيدًا﴾ [النّساء: 167](1).

وقَوْلُهُ: ﴿لَفِى شِقَاقٍۭ بَعِيدٍ ١٧٦﴾: فيهِ وجهانِ: أَحَدُهُما: لَفي ضَلالٍ طَويلٍ، قالَه السّدّيّ، الثّاني: لَفي فِراقٍ لِلحَقِّ بَعيدٍ إلى يَوْمِ القِيامَة، قاله يحيى بن سلّام(2).

❁ المَعْنَى الإجْمَاليُّ:

إظهارُ ما يُناسِبُ الأهْواءَ، وإخْفاءُ ما لا يُناسِبُها نَأْيٌ عَنِ الصَّوابِ

ذَلك العَذابُ الأليمُ الّذي حَلَّ بأولئِكَ الأشْقِياءِ واسْتَحَقُّوه بِسَبَبِ أنَّ اللَّه تَعالى نَزَّل كُتُبَهُ عَلى رُسُلِه، مُشْتَمِلَةً عَلى الحَقِّ المُبينِ، فكتموا ما أَنْزَلَهُ اللّهُ في كُتبِه وكفروا بِه.

وإنَّ الَّذين اخْتَلَفوا في شَأْنِ ما أَنْزَلَهُ اللّهُ في كُتُبِه، فأَظْهَروا منْها ما يُناسِبُ أهْواءَهُمْ، وأَخْفَوْا ما لا يُناسِبُها، وآمَنوا بِبَعْضِها وكَفروا بِبَعْضِها، لَفي مُنَازَعَةٍ ومُفارَقَةٍ بَعِيدَةٍ عَنِ الحَقِّ والرُّشْدِ والصَّوابِ(3).

❁ الإيضَاحُ اللُّغَوِيُّ وَالبَلَاغِيُّ:

فائِدَةُ التَّعْبيرِ بِاسْمِ الإشارَةِ في قوله: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ نَزَّلَ ٱلۡكِتَٰبَ بِٱلۡحَقِّ﴾:

دلالَــةُ بَيـانِ المُشارِ إليْهِ في الآيَةِ السّابِقَةِ

"جِيءَ بِاسْمِ الإشارَةِ لِرَبْطِ الكَلامِ اللّاحِقِ بِالسّابِقِ، عَلى طَرِيقَةِ العَرَبِ في أَمْثالِها، إذا طالَ الفَصْلُ بَيْنَ الشَّيْءِ ومَا ارْتَبَطَ بِهِ مِنْ حُكْمٍ، أَوْ عِلَّةٍ أَوْ نَحْوِهِم"(4).

وذَكَرَ المُفَسّرونَ وُجوهًا لِبيانِ ذَلِكَ، وقَدْ أَوْجَزَها أبو حيَّان بِقَوْلِهِ: "﴿ذَٰلِكَ﴾: إشارَةٌ إلى مَا تقدّمَ مِنَ الوَعِيدِ، قالَهُ الزَّجّاجُ، أَوْ إلى الحُكْمِ عَلَيْهِمْ، بِأَنَّهُمْ مِنْ أَهْلِ الخُلُودِ في النّارِ، قالَهُ الحَسَنُ،

(1) الرّاغب، المفردات: (بعد).
(2) الماوردي، النّكت والعيون: 4/36.
(3) طنطاويّ، التّفسير الوسيط للقرآن الكريم: 1/359، وجماعة من العلماء، المختصر في تفسير القرآن الكريم، ص: 26، ونخبة من العلماء، التّفسير الميسّر، ص: 26.
(4) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 2/126.

أَوِ العَذابِ، قالهُ الزَّمَخْشَرِيُّ، أَوِ الاشْتِرَاءِ، قالهُ ابْنُ عَطِيَّةَ"[1]، "وَقال الأَخْفَشُ: الخَبَرُ مَحْذُوفٌ تَقْدِيرُهُ: ذَلِكَ مَعْلُومٌ بِأَنَّ اللَّه؛ فَيَتَعَلَّقُ البَاءُ بِهَذا الخَبَرِ المقدَّرِ[2].

قال الرّازيّ: "اخْتَلفُوا في أَنَّ قَوْلَهُ: ﴿ذَٰلِكَ﴾ إشَارَةٌ إلى مَاذا؟ فَذَكَرُوا وجْهَيْن: الأَوَّلُ: أَنَّهُ إشَارَةٌ إلى مَا تقدَّمَ مِنَ الوَعِيدِ، لأَنَّهُ تعالى لَمَّا حَكَمَ على الّذينَ يَكْتُمُونَ البَيِّنَاتِ بِالوَعِيدِ الشَّدِيدِ، بَيَّنَ أَنَّ ذَلِكَ الوَعِيدَ على ذَلِكَ الكِتْمَانِ، إنّما كان لأَنَّ اللّه نَزَّلَ الكِتَابَ بِالحَقِّ، في صِفَةِ مُحَمَّدٍ ﷺ، وأَنَّ هَؤُلَاءِ اليَهُودَ والنَّصَارَى، لِأَجْلِ مُشَاقَّةِ الرَّسُولِ ﷺ، يُخْفُونَهُ ويُوقِعُونَ الشُّبْهَةَ فيه، فَلَا جَرَمَ اسْتَحَقُّوا ذَلِكَ الوَعِيدَ الشَّدِيدَ.

وَلَقَدْ تَقَدَّمَ في وعِيدِهِمْ أُمُورٌ: أَحَدُهَا: أَنَّهُمُ اشْتَرَوُا العَذابَ بِالمَغْفِرَةِ، وثَانِيهَا: اشْتَرَوُا الضَّلَالَةَ بِالهُدَى، وثَالِثُهَا: أَنَّ لَهُمْ عَذابًا أَلِيمًا، ورَابِعُهَا: أَنَّ اللّه لا يُزَكِّيهِمْ، وخَامِسُهَا: أَنَّ اللّه لا يُكَلِّمُهُمْ، فَقَوْلُهُ: ﴿ذَٰلِكَ﴾ يَصْلُحُ أَنْ يكون إشَارَةً إلى كُلِّ واحِدٍ مِنْ هَذِهِ الأَشْيَاءِ، وأَنْ يكون إشَارَةً إلى مَجْموعِها.

الثَّاني: أَنَّ ذلِكَ إشَارَةٌ إلى مَا يَفْعَلُونَهُ مِنْ جَرَاءَتِهِمْ على اللّه في مُخَالَفَتِهِمْ أَمْرَ اللّه، وكِتْمَانِهِمْ مَا أَنْزَلَ اللّه تعالى، فَبَيَّنَ تعالى أَنَّ ذَلِكَ إنّما هُوَ مِنْ أَجْلِ أَنَّ اللّه نَزَّلَ الكِتَابَ بِالحَقِّ، وقَدْ نَزَلَ فيهِ أَنَّ هَؤُلَاءِ الرُّؤَسَاءَ مِنْ أَهْلِ الكِتَابِ لا يُؤْمِنُونَ ولَا يَنْقَادُونَ، ولَا يكون مِنْهُمْ إلّا الإِصْرَارُ على الكُفْرِ"[3].

مَعْنى الباءِ في: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ نَزَّلَ ٱلۡكِتَٰبَ بِٱلۡحَقِّ﴾:

إقـامَـةُ السَّـبَـبِ مَقامَ المُسَبَّبِ عَنْهُ

تَدُلُّ البَاءُ عَلَى السَّبَبِ، فالمَعْنى: "ذَلِكَ العَذابُ بِسَبَبِ أَنَّ اللّه نَزَّلَ الكِتَابَ وكَفَرُوا بِهِ"[4]، "أَيْ: ذَلِك العذابُ بِسَبَبِ أَنَّ اللّه نزَّلَ الكِتَابَ بِالحقِّ، فرَفَضوهُ بِالتَّكْذيبِ، أوِ الكِتْمانِ"[5].

جاء في حَاشِيةِ الجَمل على الجلالَين: "ذَلِك رَاجِعٌ إلى الّذي ذُكِرَ مِن أكلِهِمُ النَّارَ، لِكِتْمانِهِمْ مَا أَنزَل اللّه، وشِرائِهِمْ به ثَمنًا قليلًا،

(1) أبو حيّان، البحر المحيط: 2/125.
(2) أبو حيّان، البحر المحيط: 2/126.
(3) الرّازي، مفاتيح الغيب: 5/209- 210.
(4) الرّازي، مفاتيح الغيب: 5/210، والعليمي، فتح الرّحمن في تفسير القرآن: 1/244.
(5) البيضاويّ، أنوار التّنزيل: 1/120.

وعَذابُهُم على ذَلِك، بِسَبب أنَّ اللَّه نَزَّل الكتَابَ بِالحقِّ، فَأَقام السَّبَبَ -وَهُو تَنزِيل الكتَاب بِالحقِّ- مَقَام المُسَبَّب عَنْه، وهُو الكِتْمانُ والاشْتِراءُ، كَأنَّه قِيل: مُسْتَقِرٌّ وثابِتٌ، بِسَبب الكِتْمانِ والاشْتراءِ"[1].

المُرادُ بالكتابِ في قوله: ﴿نَزَّلَ ٱلۡكِتَٰبَ بِٱلۡحَقِّ﴾:

ومعنى الكتابِ في الآيةِ "يَحْتَمِلُ أَنْ يكون هُوَ التَّوْرَاةَ والإِنْجِيلَ المشْتَمِلَيْن على بَعْثِ مُحَمَّدٍ ﷺ، ويَحْتَمِلُ أَنْ يكون هُوَ القُرْآنَ، فَإِنْ كان الأَوَّلَ كان المَعْنَى: وإنّ الذينَ اخْتَلَفُوا في تَأْوِيلِهِ وتَحْرِيفِه لَفي شِقَاقٍ بَعِيدٍ، وإِنْ كان الثَّانيَ كان المَعْنَى: وإنّ الّذينَ اخْتَلَفُوا في كَوْنِه حَقًّا مُنَزَّلًا مِنْ عِنْدِ اللَّهِ لَفي شِقَاقٍ بَعِيدٍ"[2]، وقد يُرَاد به جِنْس الكتَاب، بِمعْنى الوحْي والشَّريعةِ والدِّين، الّتي أَنْزَلَهَا اللَّه على أَنْبيائِه.

تعدُّدُ احتمالِ معنى الكتابِ يزيدُ في تقبيح المختلفين فيه

دلالَةُ لَفْظِ الحَقِّ في تَقديرِ مَحْذوفٍ في: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ نَزَّلَ ٱلۡكِتَٰبَ بِٱلۡحَقِّۗ﴾:

معنى قولِه تعالى: ﴿بِٱلۡحَقِّۗ﴾: أي: "بالواجب، ويُحْتَمل أَنْ يُرَاد: بِالأَخْبارِ الحَقِّ: أي الصَّادِقَة"[3]، "أَيْ: بِالصِّدْق، وقيل بِبَيَانِ الحَقِّ""[4]، وفي الآيةِ: ﴿ذَٰلِكَ﴾ الّذي ذُكِرَ مِنْ أَكْلِهِمُ النَّارَ ومَا بَعْدَهُ، ﴿بِأَنَّ﴾ بِسَبَبِ أَنَّ ﴿ٱللَّهَ نَزَّلَ ٱلۡكِتَٰبَ بِٱلۡحَقِّۗ﴾ مُتَعَلِّقٌ بـ ﴿نَزَّلَ﴾، (فَاخْتَلَفُوا فيه)؛ حَيْثُ آمَنُوا بِبَعْضِه، وكَفَرُوا بِبَعْضِه بِكَتْمِه"[5].

السَّبَبُ اخْتِلافُهُمْ، لا التَّنْزيلُ بِالحَقِّ فَقَطْ

جاء في حَاشِيةِ الجَملِ تعقيبًا على تقدير: (فَاخْتَلَفُوا فيه): "إِشارَةٌ إِلى أَنَّ في الآيَة حذْفًا؛ لِيظْهر كَوْنَهَا سببًا لِمَا قبْلَها، فالسَّبَبُ في الحَقيقَة: اخْتلافُهُمْ، لا التَّنْزيلُ بِالحَقّ"[6]، فقَوْلُه في التّفسير: (فَاخْتَلَفُوا فيه): "قَدَّرَهُ المفَسِّرُ لِتَمامِ الفائِدَة، وإلَّا فالسَّبَبُ لَيْسَ نُزُولَ الكتابِ بالحقِّ فَقَطْ"[7].

(1) الجمل، الفتوحات الإلهيّة: 1/210.
(2) الرّازي، مفاتيح الغيب: 5/210، وأبو حيّان، البحر المحيط: 2/126.
(3) ابن عطية، المحرّر الوجيز: 1/242.
(4) الرّازي، مفاتيح الغيب: 5/210.
(5) المحلّي والسّيوطي، تفسير الجلالين، ص: 35.
(6) الجمل، الفتوحات الإلهيّة: 1/210.
(7) حاشية الصّاوي على تفسير الجلالين، ص: 74.

عَطْفُ التَّذييلِ بالواوِ في: ﴿وَإِنَّ ٱلَّذِينَ ٱخۡتَلَفُواْ﴾:

قولُه تعالى: ﴿وَإِنَّ ٱلَّذِينَ ٱخۡتَلَفُواْ﴾ "تَذْييلٌ، ولَكِنَّهُ عُطِفَ بالوَاوِ؛ لأنَّهُ يَتَضَمَّنُ تَكْمِلَةَ وصْفِ الّذينَ اشْتَرَوُا الضَّلَالَةَ بالهُدَى ووَعِيدَهُمْ"(1).

بَيان المُرادِ بالّذينَ في: ﴿وَإِنَّ ٱلَّذِينَ ٱخۡتَلَفُواْ فِي ٱلۡكِتَٰبِ لَفِي شِقَاقِۭ بَعِيدٖ﴾:

لفظ ﴿ٱلَّذِينَ﴾ يشْمَلُ كُلَّ الكافِرينَ؛ فهُمْ لم يُؤمِنوا، واخْتَلفُوا في الوَحْيِ، إذ "هُمُ الكُفَّارُ أَجْمَعُ"(2).

فائِدَةُ الإخْبارِ عَنِ اخْتلافِهِمْ: ﴿ٱخۡتَلَفُواْ فِي ٱلۡكِتَٰبِ﴾:

بَيانُ عَدَمِ اتِّباعِهِمُ الحَقَّ، وإظهارُ تَنافُرِهِمْ وتَباغُضِهِمْ

"وَالظَّاهِرُ الإِخْبَارُ عَمَّنْ صَدَرَ مِنْهُمُ الاخْتِلَافُ، فِيمَا أَنْزَلَ اللهُ مِنَ الكِتَابِ، بِأَنَّهُمْ في مُعَادَاةٍ وتَنَافُرٍ، لِأَنَّ الاخْتِلَافَ مَظِنَّةُ التَّبَاغُضِ والتَّبَايُنِ، كَمَا أَنَّ الائْتِلَافَ مَظِنَّةُ التَّحَابِّ والاجْتِمَاعِ"(3)، وفائِدةُ هذا الإخبارِ بيانُ أنَّهُمْ لا يتَّبِعونَ الحَقَّ.

دلالَةُ (الْ) في قَوْلِهِ: ﴿ٱخۡتَلَفُواْ فِي ٱلۡكِتَٰبِ﴾، لِلجِنْسِ أوْ لِلعَهْدِ:

المُرادُ بالّذينَ اختَلَفُوا في الكِتابِ اليهُودُ والنَّصارَى

اختُلِفَ في معنى اللَّامِ في لفظِ ﴿ٱلۡكِتَٰبِ﴾ في قولِه تعالى: ﴿وَإِنَّ ٱلَّذِينَ ٱخۡتَلَفُواْ فِي ٱلۡكِتَٰبِ﴾ إمَّا لِلْجِنْسِ؛ والمعنى: "اخْتِلافُهُمْ: إيمانُهُمْ ببَعضِ كُتُبِ اللّهِ تعالَى، وكفرُهُمْ ببعضٍ، أَوْ للعهْدِ؛ والإشارَةُ إمّا إلى التَّوراةِ، واخْتَلَفوا: بمعنى تَخَلَّفُوا عنِ المَنْهَجِ المُسْتَقيمِ في تأويلِها، أو خَلَفوا خلالَ ما أنْزلَ اللّه تعالى مكانَهُ، أيْ حَرَّفوا ما فيها، وإمّا إلى القرآنِ، واختلافُهُمْ فيهِ: قَوْلُهُمْ: سِحْرٌ، وتَقوُّلٌ، وكلامٌ علَّمه بَشَرٌ، وأساطيرُ الأوَّلِين"(4).

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 2/126.
(2) الرّازي، مفاتيح الغيب: 5/210.
(3) أبو حيّان، البحر المحيط: 2/126.
(4) البيضاوي، أنوار التّنزيل: 1/120.

الإِظْهَارُ فِي مَقَامِ الإِضْمَارِ في: ﴿وَإِنَّ ٱلَّذِينَ ٱخۡتَلَفُواْ فِي ٱلۡكِتَٰبِ لَفِي شِقَاقِۭ بَعِيدٖ﴾:

ما يقتضيه ظاهرُ النَّظم أن يكون: (وإنَّ الذين اختلفوا فيه) لكنَّه أظهر ما حقُّه الإضمار لفائدةٍ وهي: "أَنْ يَكونَ التَّذْيِيلُ مُسْتَقِلًّا بِنَفْسِهِ لِجَرَيَانِهِ مَجْرَى الـمَثَلِ"[1].

السِّرُّ في التَّعْبيرِ عَنِ العَداوَةِ بالشِّقاقِ في قَوْلِهِ: ﴿لَفِي شِقَاقِۭ بَعِيدٖ﴾:

مَـنْ هُـمْ في شِقاقٍ وخلافٍ، هُمْ في عَداوَةٍ مُطَّرِدَةٍ

"هُمْ كُلُّهُم في شقٍّ واحِد بعيدٍ عن شقِّ الحَقِّ، ولَا يُؤخَذ منْه أنَّ الـمُصيبَ واحِدٌ؛ لِأنَّ الـمُرادَ الـمُخْتَلفونَ في الكُتُبِ، من أَهْلِ البِدعِ؛ وكلُّهمْ على الباطِلِ"[2]، "يَجْعَلُه عِضِينَ مُفَرَّقًا، يفْهَمُهُ غَيْرَ مُسْتقِيمٍ في فَهمِه، بَل يفْهَمُهُ مُتناقِضًا عَلى حَسَبِ هَوَاهُ، لا عَلى مُقْتَضَى نَسَقِه الحَكِيمِ، مَنْ يَفعَلُ ذَلك فشَأْنُهُ في شِقَاقٍ، بِحَيْثُ يَتَّخِذُ كُلُّ واحِدٍ شِقَّهُ مِنَ القَوْلِ، ويكونُ كُلُّ شقٍّ بعيدًا عَنِ الآخَرِ، لا يَتَلاقَوْنَ أبَدًا، فَهُم في خِلَافٍ، وكُلُّ حِزْبٍ بِمَا لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ"[3]، "وكَنَّى بِالشِّقَاقِ عَنِ العَدَاوَةِ"[4].

فَائِدَةُ الوصْفِ بِالبُعْدِ في قوله: ﴿لَفِي شِقَاقِۭ بَعِيدٖ﴾:

دلالَـةُ وصْـفِ الـشِّـقـاقِ بِالبَعيدِ، عَلى المَجازِ العَقْلِيِّ

معنى ﴿بَعِيدٖ﴾ في الآيةِ: "بعيدٌ مِنَ الحقِّ والاسْتِقامةِ"[5]، بَعِيدٌ عَنِ الحَقِّ، وعَنِ الهُدى[6]، "وَوَصَفَ الشِّقَاقَ بِالبُعْدِ، إِمَّا لِكَوْنِه بَعِيدًا عَنِ الحَقِّ، أَوْ لِكَوْنِه بَعِيدًا عَنِ الأُلْفَةِ، أَوْ كَنَّى بِهِ عَنِ الطُّولِ، أَيْ في مُعَادَاةٍ طَوِيلَةٍ لا تَنْقَطِعُ"[7].

"وَوَصْفُ الشِّقَاقِ بِالبَعِيدِ مَجَازٌ عَقْلِيٌّ، أَيْ: بِعِيدٌ صَاحِبُهُ عَنِ الوِفَاقِ"[8].

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 2/127.
(2) تفسير ابن عرفة: 2/514.
(3) أبو زهرة، زهرة التّفاسير: 1/516.
(4) أبو حيّان، البحر المحيط: 2/127.
(5) ابن عطية، المحرَّر الوجيز: 1/242.
(6) النّسفي، مدارك التّنزيل: 1/153، والعليمي، فتح الرّحمن في تفسير القرآن: 1/244.
(7) أبو حيّان، البحر المحيط: 2/127.
(8) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 2/127.

❁ الفُرُوقُ المُعْجَمِيَّةُ:

نزّلَ وأنْزَلَ:

دَلالَةُ التَّخْصيصِ والتَّعْميمِ، في الفَرقِ بَينَ الاشْتِقاقَيْنِ مِنْ مادَّةِ (نزل)

"والفَرْقُ بَيْنَ الإِنْزَالِ والتَّنْزِيلِ في وصْفِ القُرآنِ والملائكَة: أنّ التَّنْزِيلَ يَخْتَصُّ بِالمَوضعِ الّذي يُشِيرُ إليه إنزالُهُ مُفرَّقًا، ومَرَّةً بَعْدَ أُخْرَى، والإنزالُ عَامٌّ"(1)، وفي الآيَةِ جاءَ ﴿نَزَّلَ﴾ مَعَ الكِتَابِ، والكتابُ إنَّما يَتنزَّل بِالوَحْي، وهُو مِمَّا يُوصَف بِالنُّزول مُفَرَّقًا، فناسبَ أن يُسْتَعْمَلَ مَعَهُ الفِعْل ﴿نَزَّلَ﴾.

شِقَاق وخِلَاف:

كلُّ ضِدَّيْنِ مُختلِفانِ، ولَيسَ كلُّ مختَلفَيْنِ ضدَّيْنِ

فسّرَ بَعضُ المفسّرينَ الشّقاقَ، بأنّهُ الخِلافُ: ﴿لَفِي شِقَاقٍ﴾ أيْ خِلافٍ(2)، ولكنْ بَينَهما فرقٌ؛ فـ"أَصْلُ الشِّقَاقِ: العَداوَةُ والمُخاصَمَةُ، لِأَنَّ كُلَّ واحدٍ يكونُ شقًّا، أيْ نَاحيةً غَيْرَ شقِّ الآخرِ"(3).

"والاخْتِلافُ والمُخالَفَةُ: أن يَأْخُذَ كُلُّ واحدٍ طريقًا غَيْرَ طريقِ الآخَرِ في حَالِهِ أَوْ قَوله، والخِلَافُ أعمُّ منَ الضّدّ، لأنَّ كُلَّ ضِدّيْنِ مختلفانِ، وليسَ كلُّ مختلفَينِ ضدَّيْنِ، ولمّا كان الاخْتِلافُ بينَ النّاسِ في القَوْلِ قدْ يَقْتَضي التَّنازُعَ، اسْتُعيرَ ذَلكَ لِلمنازَعَةِ والمجادَلَةِ"(4).

فالشِّقاقُ أدلُّ على المعاداةِ والتَّباغُضِ والتَّنافُرِ مِنَ الاخْتلافِ؛ فليْسَ الاخْتلافُ قَطْعيًّا في المُعاداة.

وفي الآية اسْتِعْمالُ الشِّقَاقِ في مَعْرِضِ الحَديث عنِ الاخْتلاف في الكتَابِ، يُشْعِرُ بِالتَّنافُرِ والتَّباغُض، وهذا لَيْس من مَدلُول لَفْظ الاخْتلاف المُشْعِرِ بالاخْتلافِ المُجرَّد؛ فَأراد أنْ يُبيِّنَ أنَّ الاخْتلافَ في الوَحْي يُسَبِّبُ التَّباغُضَ والتَّنافُرَ، فكَأَنَّهُمُ انْقَسَمُوا إلى شِقَّيْنِ مُتَباعِدَيْنِ، وهذا هُو مَدلُولُ الشِّقَاقِ دُون الاخْتلافِ.

(1) الرّاغب، المفردات: (نزل).
(2) العليميّ، فتح الرّحمن في تفسير القرآن: 1/244.
(3) السّمين، عمدة الحفّاظ: (شقق).
(4) الرّاغب، المفردات: (خلف).

﴿لَّيۡسَ ٱلۡبِرَّ أَن تُوَلُّواْ وُجُوهَكُمۡ قِبَلَ ٱلۡمَشۡرِقِ وَٱلۡمَغۡرِبِ وَلَٰكِنَّ ٱلۡبِرَّ مَنۡ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِ وَٱلۡمَلَٰٓئِكَةِ وَٱلۡكِتَٰبِ وَٱلنَّبِيِّـۧنَ وَءَاتَى ٱلۡمَالَ عَلَىٰ حُبِّهِۦ ذَوِي ٱلۡقُرۡبَىٰ وَٱلۡيَتَٰمَىٰ وَٱلۡمَسَٰكِينَ وَٱبۡنَ ٱلسَّبِيلِ وَٱلسَّآئِلِينَ وَفِي ٱلرِّقَابِ وَأَقَامَ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَى ٱلزَّكَوٰةَ وَٱلۡمُوفُونَ بِعَهۡدِهِمۡ إِذَا عَٰهَدُواْۖ وَٱلصَّٰبِرِينَ فِي ٱلۡبَأۡسَآءِ وَٱلضَّرَّآءِ وَحِينَ ٱلۡبَأۡسِۗ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ صَدَقُواْۖ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُتَّقُونَ ١٧٧﴾

[البقرة: 177]

❁ مُناسَبَةُ الآيَةِ لِمَا قَبْلَها:

الرّبط بين اختلاف أهل الكتاب في الكتب، واختلافهم في القبلة

"لـمَّا اخْتلفَ النّاس في أمر القِبلةِ واهْتمُّوا بشأْنها، بأنْ حصروا البِرَّ والخيرَ كلَّه فيها، أشارَ سبحانه إلى تخْطئتِهم، ونبَّهَ على البرِّ الحقيقيّ، والخيرِ الذّاتيّ بقوله: ﴿لَّيۡسَ ٱلۡبِرَّ﴾، أي: ليست الخصالُ السّنيّة والأخلاقُ المرضيَّةُ، مجرَّدَ ﴿أَن تُوَلُّواْ وُجُوهَكُمۡ قِبَلَ ٱلۡمَشۡرِقِ وَٱلۡمَغۡرِبِ﴾ مثلًا، بلا اتِّصافٍ بالعزائم والحِكَم المترتِّبة على تشريع القِبلة"[1]، ولكن البرَّ الحقيقيّ هو مجموعُ قضايا الاعتقاد الصّحيح والخُلُق القويم والعبادات التي لا يُسمّى المسلمُ مسلما إلاّ بها.

❁ شَرْحُ المُفْرَدَاتِ:

الأبرار هم الّذين يطيعون الله تعالى، ويخشونه

1) ﴿ٱلۡبِرَّ﴾: أصل مادّة (برر): الصّدْقُ، وَبَرَّتْ يَمِينُهُ: صَدَقَتْ، وَتَقُولُ: حِجَّةٌ مَبْرُورَةٌ، أَيْ: قُبِلَتْ قَبُولَ العَمَلِ الصّادِقِ، وَمِنْ ذَلِكَ قَوْلُهُمْ: يَبَرُّ رَبَّهُ، أَيْ: يُطِيعُهُ، وَهُوَ مِنَ الصّدْقِ، وَمِنْهُ قَوْلُ اللَّهِ تَعالَى: ﴿لَّيۡسَ ٱلۡبِرَّ أَن تُوَلُّواْ وُجُوهَكُمۡ قِبَلَ ٱلۡمَشۡرِقِ وَٱلۡمَغۡرِبِ﴾ [البقرة: 177][2].

(1) نخجوانّي، الفواتح الإلهيّة والمفاتح الغيبيّة: 1/63، والبقاعي، نظم الدّرر: 3/1، ومحمد علي جميل، صفوة التّفاسير: 1/104.
(2) مقاييس اللّغة: (برر).

والبرُّ: اسْمٌ جامِعٌ لِلطّاعاتِ، وللخير ولكلِّ فعل مرضيٍّ، وهو ضِدُّ الفُجُورِ والإثْم، فَدَلَّ على أَنَّهُ اسْمٌ عامٌّ لِجَميع ما يُؤْجَرُ عَلَيْهِ الإنْسانُ، وَأَصْلُهُ: مِنَ الاتِّساع، وَمِنْهُ البَرُّ الَّذي هُوَ خِلافُ البَحْرِ لِاتِّساعِه[1].

التّوجُّه المكاني ليس دليلًا على البِرّ، وليس هو الأصل في العبادة

2) ﴿قِبَلَ﴾: ظَرْفُ مَكانٍ، تَقُولُ: زَيدٌ قِبَلَكَ، أي: هو في المَكانِ الَّذي هُوَ مُقابِلُكَ فِيهِ، وقد يُتّسع فيه، فيكون بمعنى: العنديّة المعنويّة، تقول: لي قِبَلَ زَيْدٍ دَيْنٌ[2]، قال السّمين الحلبيّ: "وقوله: ﴿قِبَلَ﴾ منصوبٌ على الظّرفِ المكانيّ بقوله: ﴿تُوَلُّواْ﴾، وحقيقةُ قولك: (زيدٌ قِبَلك)، أي: في المكانِ الّذي قبلك فيه"[3]، ويأتي بمعنى: الجهة، وعند، والطّاقة والقدرة، وهو في الآية على المعنى الأوّل[4].

الإحسان إلى اليتامى من شرائط البرّ

3) ﴿وَٱلۡيَتَٰمَىٰ﴾: "واليتم في الآدميين: من قِبَل الأب قبل البلوغ"[5]، "وهم من اجتمع فيهم شرطان: الصّغر، وفَقْدُ الأب"[6]، و"الْيَتَامَى: جمع يتيم، على غير قياس، والفعل منه يتِم - بالكسر - يُتْماً ويَتْماً، وحكى الفرّاء: يتُم - بالضّمّ، والغريب: أنّه جمع يُتْمان، ويُتمان: كنُدمان ونديم"[7]، قال الأصمعي: " اليتم في النّاس، من قبل الأب، وفي غير النّاس: من قبل الأمّ، وقال ابن الأنباريّ: قال ثعلب: اليتم معناه في كلام العرب: الانفراد، فمعنى صبيّ يتيم: منفردٌ عن أبيه"[8].

المسكين المعدم، هو الّذي لا يملك قوت يومه

4) ﴿وَٱلۡمَسَٰكِينَ﴾: أصل مادّة (سَكَنَ): يَدُلُّ على خِلافِ الاِضْطِرابِ والحَرَكَةِ[9]، والمِسْكِينُ، قيل: هو الّذي لا شيءَ له،

(1) الزّمخشريّ، الكشّاف: 1/217، والرّازي، مفاتيح الغيب: 5/213.
(2) أبو حيّان، البحر المحيط: 2/128.
(3) السّمين، الدّرّ المصون: 2 /128.
(4) محمود عبد الرّحيم صافي، الجدول في إعراب القرآن: 2/354.
(5) ابن عطيّة، المحرَّر الوجيز: 1/243.
(6) الماورديّ، النّكت والعيون: 1/227.
(7) الكرمانّي، غرائب التّفسير وعجائب التّأويل: 1/213.
(8) ابن الجوزي، زاد المسير: 1/84.
(9) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (سَكَنَ).

وهو أبلغُ من الفقير، وقوله تعالى: ﴿أَمَّا ٱلسَّفِينَةُ فَكَانَتۡ لِمَسَٰكِينَ﴾ [الكهف: 79]، فإنّه جعلهم مساكين بعْد ذهابِ السّفينة[1]، قال الزّمخشريّ: "المسكين: الدّائم السّكون إلى النّاس؛ لأنَّه لا شيء له"[2]، وأصله دائم السّكون[3]، وفي هذا المضمار، قال أهل اللّغة: المسْكينُ: الّذي لا شيء له، والفقيرُ: الّذي له شيءٌ يكفيه، وقال يونس: قلت لأعرابيّ: أفقيرٌ أنت؟ قال: لا، بل مسكينٌ، فكلُّ مسكين فقيرٌ، وليس كلُّ فقير مسكينًا[4]، "والمساكين المحاويج الّذين أقعدهم العجز عن طلب ما يكفيهم، وهو جمعُ مسكين، سُمّي بذلك؛ لأنّه دائمُ السُّكون إلى النّاس؛ ولأنّهُ لا شيْءَ لهُ "[5].

من مصارف الزّكاة ابن السّبيل، ولو كان غنيًّا في بلده

5) ﴿وَٱبۡنَ ٱلسَّبِيلِ﴾: "﴿وَٱبۡنَ ٱلسَّبِيلِ﴾ المسافر المنقطع، وجُعل ابنًا للسّبيل لملازمته له، كما يقال للصّ القاطع: ابن الطّريق، وقيل: هو الضّيف؛ لأنّ السّبيل يرعف به"[6]، قال ابن جرير: "وإنّما قيل للمسافر: ابن السّبيل؛ لملازمته الطّريق -والطّريق هو السّبيل- فقيل لملازمته إيّاه في سفره: ابنه، كما يقال لطير الماء: ابن الماء، لملازمته إيّاه، وللرّجل الّذي أتت عليه الدّهور: ابن الأيّام واللّيالي والأزمنة"[7]، وقيل: ابن السّبيل"المسافر يجتاز بك مارًّا؛ قاله مجاهد، وقال الضّحاك: هو الضّعيف، والسّبيل: الطّريق، وابنه صاحبه الماشي فيه، فله حقٌّ على من يمرّ به، إذا كان مستقرّه في غير معصية، وأضيف إلى الطّريق؛ لأنّه إليها يأوي، وفيها يبيت"[8]، وجُعل المسافر ابنًا للسّبيل؛ لأنّه يلزم الطّريق، ولا ينفكّ عنه.

السّائل مَنْ ألجأته الحاجة إلى السّؤال والتّكفّف

6) ﴿وَٱلسَّآئِلِينَ﴾: السّؤالُ: استدعاء معرفة، أو ما يؤدّي إلى

(1) الرّاغب، المفردات: (سَكَنَ).
(2) الزّمخشري، الكشّاف: 1/219، ومعنى: (يرعف به): أي يتقدّم به ويُبرزه للمقيمين.
(3) البيضاويّ، أنوار التّنزيل: 1/121.
(4) مكيّ بن أبي طالب: الهداية إلى بلوغ النّهاية: 4/3039.
(5) الهرريّ: تفسير حدائق الرّوح والرّيحان: 3/125 - 126.
(6) الزّمخشريّ، الكشّاف: 1/219.
(7) ابن جرير، جامع البيان: 3/346.
(8) مكيّ بن أبي طالب، الهداية إلى بلوغ النّهاية: 2/1323.

المعرفة، واستدعاء مال، أو ما يؤدّي إلى المال، ويعبّر عن الفقير إذا كان مستدعيًا لشيء بالسّائل، نحو: ﴿وَأَمَّا ٱلسَّآئِلَ فَلَا تَنۡهَرۡ﴾ [الضّحى: 10][1]، "أي: الّذين تعرض لهم حاجة من الحوائج، توجب السّؤال"[2]. فالمراد بالسّائلين: "الّذين ألجأتهم الحاجة إلى السُّؤال"[3].

من وجوه البرّ إنفاق المال في العتق وفكّ الرّقاب

7) ﴿وَفِي ٱلرِّقَابِ﴾: "الرِّقاب: جَمْعُ الرَّقَبَة، وَهِيَ مُؤَخَّرُ أَصْلِ العُنُق، واشْتِقاقُها مِنَ المُراقَبَة، وَذَلِكَ أَنَّ مَكانَها مِنَ البَدَنِ مَكانُ الرَّقِيبِ المُشْرِف على القَوْم، وَلِهَذا المَعْنَى يُقالُ: أَعْتَقَ اللَّهُ رَقَبَتَهُ، وَلا يُقالُ: أَعْتَقَ اللَّهُ عُنُقَهُ؛ لأنَّه لَمّا سُمِّيَتْ رَقَبَةً؛ كَأَنَّها تُراقِبُ العَذابَ"[4].

وَمعنى ﴿وَفِي ٱلرِّقَابِ﴾: "وفي معاونة المكاتبين حتى يفكُّوا رقابهم"[5]، "في ابتياع الرّقاب وإعتاقها"[6]، "يَعْنِي: فَكَّ الرِّقابِ"[7]، يراد به: "العتق وفكُّ الأسرى"[8].

8) ﴿وَٱلصَّٰبِرِينَ﴾: من الصّبر، و" الصّبر: هو كفّ النّفس وحبسها، عن التّعاطي في جميع المحرّمات المحظورات، وعلى ذلك يُخرَّج قول أهل التّأويل: الصّابرين على أمر اللّه وطاعاته، وعلى الأذى والمصائب، يكفّون عن جميع ما لا يحلّ فيه، ويرون ذلك من تقديره"[9]، وأصل الصّبر: الحبس للنّفس عن الشّيء، قولاً، أو فعلاً، أو مرغوبًا من المتع و الممتلكات، أيًّا كان نوعها أو نفاستها، والمعنى: والحابسين أنفسهم عن كلّ ما يكرهه اللّه ﷻ، والصّبر نصف الإيمان، وجوهر التّعامل مع الحياة الدّنيا، وتقلّباتها، وامتحاناتها، وقد وُصف به المؤمنون في هذه الآية وغيرها، وجُعل أجْرُ الصّبر، موكولًا إلى اللّه وحده؛ لِعظَم الجزاء به، والتّكريم لمن يلتزمه ويتحرّاه، وقد قال تعالى: ﴿إِنَّمَا يُوَفَّى ٱلصَّٰبِرُونَ أَجۡرَهُم بِغَيۡرِ حِسَابٖ ١٠﴾ [الزّمر: 10].

---

(1) الرّاغب، المفردات: (سأل).
(2) السّعدي، تيسير الكريم الرّحمن، ص: 83.
(3) البيضاويّ، أنوار التّنزيل: 1/121.
(4) الرّازيّ، مفاتيح الغيب: 5/218.
(5) الزّمخشريّ، الكشّاف: 1/219.
(6) الزّمخشريّ، الكشاف: 1/220.
(7) الشّوكانّي، فتح القدير: 1/200.
(8) ابن عطيّة، المحرَّر الوجيز: 1/243، والشّوكانّي، فتح القدير: 1/199.
(9) الماتريدي، تفسير الماتريديّ (تأويلات أهل السُّنة): 8/385.

حياة البشر قُلَّبٌ بين السّراء والضّرّاء

9) ﴿ٱلۡبَأۡسَآءِ وَٱلضَّرَّآءِ﴾: لفظان متلازمان غالبًا، والبأساء: هي "الفقر والشّدّة"[1]، وقالوا: "البأساء: (فَعْلاء) من البؤس، وهو سوء الحال والفاقة"[2]، "وَهُوَ اسْمٌ مِنَ البُؤْسِ"[3]، ولفظ "الضّرّاء، بِالفَتْحِ: ضِدُّ النَّفْعِ، والضُّرُّ، بالضّم: الزّمانة"[4]، وهي المرض ومصائب البدن"[5]، والمشهور أنّ معناهما الفقر والمرض، وأنّهما اسمان مشتقّان من البؤس والضّرّ، وألفهما للتّأنيث، فهما اسمان على (فَعْلاء)، وليس لهما (أفعل)؛ لأنّهما ليسا بنعتين، والبأساء في أصل اللّغة، نقيض النّعماء"[6]، "وأمّا أهل العربيّة؛ فإنّهم اختلفوا في ذلك، فقال بعضهم: البأساءُ والضَّرَّاءُ مصدر، جاء على (فعلاء)، ليس له (أفعل)؛ لأنّه اسم، كما قد جاء (أفعل) في الأسماء، ليس له (فعلاء)، نحو أحمد، وقد قالوا في الصّفة: (أفعل)، ولم يجئ له (فعلاء)، فقالوا: أنت من ذلك أوجل، ولم يقولوا: وجلاء، وقال بعضهم: هو اسم للفعل، فإنّ البأساء: البؤس، والضّراء: الضّر، وهو اسم يقع: إن شئت لمؤنّث، وإن شئت لمذكّر، كما قال زهير:

فَتُنْتِجْ لَكُمْ غِلْمَانَ أَشْأَمَ كُلُّهُمْ ***كَأَحْمَرِ عَادٍ ثُمَّ تُرْضِعْ فَتَفْطِمِ

يعني: فتنتج لكم غلمان شُؤْم"[7].

لا يثبت حين البأس إلّا الأبطال الصّناديد

10) ﴿وَحِينَ ٱلۡبَأۡسِۗ﴾: "﴿وَحِينَ ٱلۡبَأۡسِۗ﴾ وقت شدّة القتال، أي: "لا يفرُّ من الأعداء"[8]، "وَمَعْنَى البَأْسِ في اللُّغَةِ: الشِّدَّةُ، يُقالُ: لا بَأْسَ عَلَيْكَ في هَذا، أَيْ: لا شِدَّةَ، ثُمَّ تُسَمَّى الحَرْبُ بَأْسًا لِما فِيها مِنَ

(1) الزّمخشريّ، الكشّاف: 1/220، وابن عطيّة، المحرَّر الوجيز: 1/244.
(2) البقاعي، نظم الدّرر: 3/9.
(3) الرّازي، مفاتيح الغيب: 5/220.
(4) أبو حيّان، البحر المحيط: 2/129.
(5) ابن عطيّة، المحرَّر الوجيز: 1/244.
(6) زاده: حاشية على البيضاويّ: 2/433.
(7) ابن جرير، جامع البيان: 3/87.
(8) الصّاويّ، حاشية الصّاوي: 1/75.

الشّدَّةِ، والعَذابُ يُسَمَّى: بَأْسًا لِشِدَّتِهِ"[1]، "وأمّا البأسُ؛ فشدّةُ القتالِ خاصّةً"[2]، وقال علي رضي الله عنه: كنّا إذا احمرّ البأس؛ اتقينا برسول الله ﷺ فكان أقربنا إلى العدوّ؛ إذا اشتدّت الحرب[3]، والبأس شدّة القتال خاصّة، وهو في الأصل مطلق الشّدة، يقال: لا بأس عليكم في هذا، أيْ: لا شدّة، وعذابٌ بئيسٌ، أي: شديد، وتسمّى الحرب: بأسًا؛ لما فيها من الشّدّة، والعذاب - أيضًا -: بأسًا؛ للشدّة، قال تعالى: ﴿فَلَمَّا رَأَوۡاْ بَأۡسَنَا﴾ [غافر: 84]، ﴿فَمَن يَنصُرُنَا مِنۢ بَأۡسِ ٱللَّهِ إِن جَآءَنَاۚ﴾ [غافر: 29][4].

الصّدقُ يهدي إلى البرّ، والبرُّ يهدي إلى الجنّة

11) ﴿صَدَقُواْ﴾: "﴿صَدَقُواْ﴾ كانُوا صادقين جادّين في الدّين"[5]، "وتحتمل اللّفظة أيضًا صِدْقَ الأخبار"[6]، "أَيْ: أَهْلُ هَذِهِ الأَوْصافِ، هُمُ الَّذِينَ صَدَقُوا في إيمانِهِمْ"[7]، "وَصَفَهُمْ بِالصّدْقِ والتَّقْوَى في أُمُورِهِمْ، والوَفاءِ بِها، وَأَنَّهُمْ كانُوا جادِّينَ"[8]، كان الرّبيع بن أنس يقول: ﴿أُوْلَـٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ صَدَقُواْۖ﴾، قال: فتكلّموا بكلام الإيمان، فكانت حقيقتُه العمل، صَدقوا الله، قال: وكان الحسن يقول: هذا كلام الإيمان، وحقيقتُه العمل، فإن لم يكن مع القول عملٌ فلا شيء"[9].

المَعْنى الإجْماليُّ:

البرّ ليس بالتّوجُّه للقبلة فقط، ولكنَّ الخير في شموليّته وعمومه

ليس الخير مقتصِرًا على الاتّجاه إلى جهة المشرق أو المغرب، ولكنّه في جملةٍ من الأعمال، فمِنَ البِرّ مَن آمن بالله إلهًا واحدًا، وآمن بيوم القيامة، وبجميع الملائكة، والكتب المنزلة، والأنبياء، وبذلَ المال على حبّه لذوي قرابته، واليتامى وذوي الحاجة، والغريب

(1) الرّازي، مفاتيح الغيب: 5/220، والخازن، لباب التّأويل: 1/106.
(2) السّمين، الدّرّ المصون: 2/251.
(3) الثّعلبيّ: الكشف والبيان: 2/63.
(4) زاده، حاشيّة على البيضاويّ: 2/63.
(5) الزّمخشريّ، الكشّاف: 1/220.
(6) ابن عطيّة، المحرّر الوجيز: 1/244.
(7) الرّازيّ، مفاتيح الغيب: 5/220.
(8) الشّوكانّي، فتح القدير: 1/200.
(9) ابن جرير، جامع البيان: 3/356.

الَّذي انقطع في السّفر عن أهله ووطنه، والّذين ألجأهم الفقر لِسؤال النّاس، وصرف المال في تحرير الرّقاب من الرّق والأسر، وإقامة الصّلاة، ودفع الزّكاة الواجبة، والّذين يوفون بعهدهم، ويصبرون على الفقر والمرض، وعلى شدّة القتال، فلا يفرّون من الزّحف، أولئك المتّصفون بهذه الصّفات، هم الّذين صدقوا اللّه في إيمانهم وأعمالهم، وأولئك هم المتّقون الّذين امتثلوا ما أمرهم اللّه به، واجتنبوا ما نهاهم اللّه عنه[1].

البرّ عقيدةٌ بالصّدق، وعبادةٌ للحقّ، ومعاملةٌ للخلق

والآيةُ جامعة للكمالات الإنسانيّة بأسرها، وهي منحصرة في ثلاثة أشياء: صحّة الاعتقاد، وحسن المعاشرة، وتهذيب النّفس[2]، وفيها من شُعَب الإيمان باللّه ولواحقه، وصلة الأرحام والمحتاجين، وأداء العبادات، والاتّصاف بمجمل الأخلاق المأمور بها[3]، وهي آية عظيمة تضمّنت سِتَّ عَشْرَةَ قاعِدَةً مِنْ أُمَّهاتِ الأَحْكام[4]، وقال أبو زهرة: "وقد ذكر اللّه تعالى صنوف البِرّ كلّها في هذه الآية الكريمة، وكانت بحقّ آية البِرِّ؛ لأنَّها جمعت أطرافه، ونواحيه كلَّها، وهي من أجمع الآيات للتّكليفات الدّينيّة "[5].

۞ الإيْضاحُ اللُّغَويُّ والبَلاغِيُّ:

وجه العدول إلى الفصل في الآية:

وجه الفصل ابتداء نصف السورة الثاني المتعلّق بتبيين أحكام الدّين

في قوله: ﴿لَّيْسَ ٱلْبِرَّ أَن تُوَلُّوا۟ وُجُوهَكُمْ﴾ ابتداء نصف السورة الثاني وهو متعلِّق بتبيين غالب أحكام الدِّين، وأمّا النّصف الأوَّل فمتعلِّق بأصول الدِّين وقبائح اليهود[6]. فهو تعالى يضع في آية واحدة قواعدَ التّصور الإيماني الصحيح، وقواعد السلوك الإيماني

(1) المختصر في تفسير القرآن الكريم: 27، والتّفسير الميسّر: 27.
(2) البيضاويّ، أنوار التّنزيل: 1/121.
(3) السّيوطي، الإكليل في استنباط التّنزيل، ص: 37.
(4) القرطبي، الجامع لأحكام القرآن: 2/241.
(5) أبو زهرة، زهرة التّفاسير: 1/518.
(6) حاشية الصاوي على تفسير الجلالين: 132.

الصحيح، ويحدد صفة الصادقين المتقين، وتقرير الحقيقة الكبرى حول هذه القضية وحول سائر القضايا الجدلية التي يثيرها اليهود حول شكليات الشعائر والعبادات.

دلالة لام الجنس في لفظ ﴿ٱلۡبِرَّ﴾:

جعل الخطاب عامًّا لكلّ النّاس؛ لنفي اقتصار البِرّ على عملٍ ما

اخْتلفَ المفسِّرون في بيانِ المرادِ بالخطابِ: فمنهم مَنْ جعله لأهل الكتاب؛ لأنّ اليهود تُصلّي قِبلَ المغرب إلى بيت المقدس، والنّصارى قِبَل المشرق؛ وذلك أنهم أكثروا الخوضَ في أمر القبلة حين حوّل رسول اللّه ﷺ إلى الكعبة"[1]، ومنهم مَنْ جعله خطابًا للكلِّ، ومنهم من جعله للمؤمنين، والمعنى ليس البِرَّ الصّلاةُ وحدها[2]؛ لاغتباط المؤمنين في هَذِهِ القِبْلَةِ عند تحويلها، وتشَدّدهم فيها، حَتَّى ظَنُّوا أَنَّهُ الغَرَضُ الأَكْبَرُ في الدّينِ، فذُكّروا بأنّ البِرَّ المَطْلُوبَ لَيْسَ هو أَمْرَ القِبْلَةِ، بَلِ الخِصالُ المذْكورة التي عدَّها[3]، فالظّنُّ بأنّ الدّين مقتصرٌ على جهة القبلة، تقزيمٌ لمقاصديّته الواسعة.

نفي المقصور بالتّعريف بلام الجنس:

المنفيُّ (جنسُ البِرّ) منحصرٌ في تولية الوجوه، مع انحصار البِرّ الكامل فيها

إن جُعِلَ المعرّف بلام الجنس مبتدأ؛ فهو مقصور على الخبر تحقيقًا، أو مبالغة، نحو: (الأمير زيدٌ)، وإن جعل خبرًا؛ فهو مقصور على المبتدأ تحقيقًا، أو مبالغة، نحو: (زيدٌ الأمير)، فقوله: ﴿لَّيۡسَ ٱلۡبِرَّ أَن تُوَلُّواْ وُجُوهَكُمۡ﴾، يحتمل أن يكون المنفيُّ جنس البِرّ منحصرًا في تولية الوجوه، وأن يكون المنفيّ انحصار البِرّ الكامل فيها[4].

فـ"القصر مُستفادٌ من تعريف البِرّ بلام الجنس، فيفيد قصر المسند إليه على المسند، والنّفي متوجّه إلى القصر، أي: ما أنتم

(1) الزّمخشري، الكشّاف: 1 /217، وابن عطيّة، المحرَّر الوجيز: 1/243.
(2) ابن عطية، المحرَّر الوجيز: 1/243.
(3) الرّازيّ، مفاتيح الغيب: 5/211.
(4) زاده، حاشية على البيضاويّ: 2/428.

عليه أيها المسلمون من أمر القبلة من البرّ، لكنّ البِرّ ليس بمقصور عليه، فلا تكثروا الخوض في شأنه"[1].

توجيه قراءة (البِرّ) على الرفع والنصب:

وجه الرفع على الابتداء في حالة النفي دعوة للإصغاء إلى الخبر

وقرأ الجمهور ﴿لَّيۡسَ ٱلۡبِرُّ﴾ برفع ﴿ٱلۡبِرُّ﴾ على أنه اسم ليس والخبر هو ﴿أَن تُوَلُّواْ﴾ وقرأه حمزة وحفص عن عاصم بنصب ﴿ٱلۡبِرَّ﴾[2]. على أن قوله: ﴿أَن تُوَلُّواْ﴾ اسم ليس مؤخر، ووجه قراءة رفع ﴿ٱلۡبِرُّ﴾ أنه أمر مشهور معروف لأهل الأديان مرغوب للجميع، فإذا جعل مبتدأ في حالة النفي أصغت الأسماع إلى الخبر.

وجه النصب تشوّق إلى المبتدأ، سعيًا إلى تقرُّرِ عمله

وأما توجيه قراءة النَّصب فلأنَّ أمر استقبال القبلة هو الشغل الشاغل لهم فإذا ذكر خبره قبله ترقّب السامعُ المبتدأ فإذا سمعه تقرر في علمه[3].

علّة تقديم خبر ليس على اسمها:

العلم بالمجهول محطّ العناية والغاية، والتقديم لأجلهما أولى

إنّ تولّي الوجوه في قوله: ﴿لَّيۡسَ ٱلۡبِرَّ أَن تُوَلُّواْ وُجُوهَكُمۡ﴾ أمرٌ معلومٌ، والحكم على هذا التّولي بالبرّ نفيًا أو إثباتًا هو المجهولُ، فلا جرم أنَّ ما ليس بمعلوم يكون خبرًا لما هو مَعْلومٌ، والأعرفُ أحقُّ بالاسميّة، "قال ابن عرفة: و﴿أَن تُوَلُّواْ﴾ اسم ليس، إمّا لكون (أَنْ) وما بعدها أعرفَ المعارف، أو لأنّ التّولية معلومةٌ، والبرّ مجهولٌ، أي: ليست التّولية برًّا"[4]، فقدّم المجهول لعِلم المخاطب بالمؤخّر وجهلِه بالمقدّم؛ وبذا يكون العلم بالمجهول محطّ العناية، والغاية، والتقديم لأجلهما أولى.

تأخير الأعرف لكونه أحقّ بالاسميّة، وأنّ فيه طولا

وقُدِّم خبرُ ليس، وأُخّر اسمها (المصدر المؤوّل)؛ لأنّه أعرف من المحلّى باللّام ﴿ٱلۡبِرَّ﴾؛ ولكونه يُشبهُ الضمير من حيثُ إنَّه لا يوصف

---

(1) القونويّ، حاشية القونويّ: 4/456.

(2) ابن الجزري، النشر في القراءات العشر: 2/226.

(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 129-2/128.

(4) ابن عرفة، تفسير ابن عرفة: 2/516.

ولا يوصف به، والأعرفُ أحقُّ بالاسمية؛ ولأن في الاسم طولاً قُدِّم الخبر عليه، فلو روعيَ الترتيبُ المعهود لَفاتَ تجاوبُ أطرافِ النظم الكريم[1].

سرّ تقديم المشرق على المغرب:

تقديم المشرق رعيٌ لأوّليّة الترتيب، أو لعقيدة اليهود في التوجُّه غربًا إلى بيت المقدس

قدّم المشرق على المغرب في قوله: ﴿قِبَلَ ٱلْمَشْرِقِ وَٱلْمَغْرِبِ﴾ مراعاة للترتيب المتفرِّع على ترتيب الشروق والغروب، أو لأنَّ توجّه اليهودِ إلى المغرب ليس لكونه مَغرِباً بل لكون بيتِ المقدس يقع في جهة الغرب من المدينة المنورة، فقيل لهم ليس البر ما ذكرتم من التوجُّه إلى تينك الجهتين[2].

توجيه الحقيقة والمجاز بذِكْرِ المشرق والمغرب:

وجه الحقيقة أنَّها قبلة اليهود وقبلة النصارى؛ لإبْطال تَهْوِيلِهما على المُسْلِمِينَ حِينَ اسْتَقْبَلُوا الكَعْبَةَ

المراد بالمشرق الحقيقة، إِشارَةً إلى قِبْلَةِ النَّصارَى؛ لأنّهم يستقبلون مشرق الشّمس، والمراد بالمغرب الأفق؛ لأنّ اليهود إنمّا يستقبلون بيت المقدس، وهو في جهة المغرب[3]، والغرض " إبْطال تَهْوِيلِ الفَرِيقَيْنِ على المُسْلِمِينَ حِينَ اسْتَقْبَلُوا الكَعْبَةَ، أو هو لكلّ من يسمع الخطاب"[4].

وجه المجاز التّعميم، لا التعيين بطريق ذكر الخاصّ وإرادة العامّ

أو أنّ اختصاص المشرق والمغرب؛ للتّعميم، لا لتعيين السّمْتَين[5] بطريق ذكر الخاصّ وإرادة العامّ مجازًا، وهذا خلاف الظّاهر[6]، وهو "اقْتِصارٌ على أشْهَرِ الجِهاتِ"[7]، فوجه المجاز المقصدُ، أي: التّوجّه لا الوجهات، وفيه اقتصارٌ على أشهر الجهات.

---

(1) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 1/193.
(2) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 1/193.
(3) ابن عرفة، تفسير ابن عرفة: 2/514.
(4) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 2/128.
(5) الطيّبي، فتوح الغيب: 3/205.
(6) القونوي، حاشيّة القونوي على تفسير البيضاويّ: 4/456.
(7) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 2/128.

بيان الدّلالة الإيحائية في ذكر الجهتين:

في الآيـة دلالـةٌ على أنّ المراد من القبلة الجهة، لا ذات الكعبة

وفي الآية إيماءٌ لصحَّة القول: بأنّ المطلوب في القبلة الجهة لا العين[1]، وهو المعبّر عنه في قوله تعالى: ﴿وَمِنۡ حَيۡثُ خَرَجۡتَ فَوَلِّ وَجۡهَكَ شَطۡرَ ٱلۡمَسۡجِدِ ٱلۡحَرَامِۚ وَحَيۡثُ مَا كُنتُمۡ فَوَلُّواْ وُجُوهَكُمۡ شَطۡرَهُۥ﴾ [البقرة: 144]، وشطر المسجد الحرام، نحوه وقصده وتلقاؤه، كما قال الهذليّ:

إِنَّ العَسِيرَ بِهَا دَاءٌ مُخَامِرُهَا *** فَشَطْرُهَا نَظَرَ العَيْنَيْنِ مَحْسُورُ[2]

توجيه الإخبار عن المصدر بِاسْمِ الذّاتِ:

الإِخْـبَـارُ عَـنِ الـمَصْدَرِ بِاسْمِ الذّاتِ لِلْمُبالَغَةِ

جاء في التّفسير البسيط بخصوص قوله: ﴿وَلَٰكِنَّ ٱلۡبِرَّ مَنۡ ءَامَنَ بِٱللَّهِ﴾: "﴿ٱلۡبِرَّ﴾ مصدر، ولا يخبر عن المصادر بالأسماء، و﴿مَنۡ﴾ اسم"[3]، ولكون المصدر معنى مجرّدًا، فإنّه لا يتأتّى أن يُسند إليه اسم، إلّا على جهة المبالغة، أو تقدير محذوف،[4]. "وَقَوْلُهُ: وَلكِنَّ البرَّ مَنْ آمَنَ إِخْبارٌ عَنِ المَصْدَرِ بِاسْمِ الذّاتِ لِلْمُبالَغَةِ"[5]، وعلى هذا يكون كُنْهُ معناه " تحقيقٌ للحقّ بعد بيان بطلان الباطلِ، وتفصيلٌ لخصال البرِّ، ممّا لا يختلف باختلاف الشّرائعِ، وما يختلف باختلافها، أي: ولكن البرّ المعهود - الّذي يحِقّ أن يُهتَمَّ بشأنه، ويُجَدَّ في تحصيله- برُّ مَنْ آمن بالله وحده إيماناً بريئاً من شائبة الإشراكِ"[6].

وجـه الإخـبـار إفـادة أنّ الـبرّ اتّـحـاد الإيـمـان بـأعـمـالـه، وتلبّس المؤمن بهما

بيَّن محمد رشيد رضا نكتة اختيار الإخبار باسم الذات على قول: (ولكن البرّ هو الإيمان بالله) بقوله: " وهذه النكتة مفهومة من العبارة؛ فإنها تمثّل لك المعنى في نفس الموصوف به فتفيدك أنّ البرَّ هو الإيمان وما يتبعه من الأعمال باعتبار اتّحادهما، وتلبُّس المؤمن البارِّ بهما معًا، من حيث إنَّ الإيمان باعثٌ على الأعمال، وهي

(1) ابن عرفة، تفسير ابن عرفة: 2/514.

(2) تفسير الطّبريّ: 2/659، شرح أشعار الهذليين، ص: 207.

(3) الواحدي، التّفسير البسيط: 3/515.

(4) في وجوه الخلاف في إعراب لفظ (البر)، ينظر: السّمين، الدّرّ المصون: 2/245- 246.

(5) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 2/129.

(6) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 1/193.

منبعثةٌ عنه وأثرٌ له تُستمدُّ منه وتمدّه وتغذيه، أي: أنها تمثّل لك المعنى في الشّخص، أو الشّخص عاملًا بالبِرّ، وهذا أبلغ في النفس هنا من إسناد المعنى إلى المعنى، ومن إسناد الذات إلى الذات كما هو مَذوقٌ ومفهوم"[1].

فنُّ الإيجاز بحذف مضاف:

وجه الاستغناء بالمذكور إظهار أنّ كلّية البرّ ممثلّة ببرّ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ

في الآية فنّ من فنون البلاغة صورته الإيجاز بحذف المضاف، وهو من إيجاز الحذف البليغ، الذي يعلو بالكلام إلى أعلى درجات البيان[2]، والتقدير: وَلَكِنَّ البِرَّ بِرُّ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ"على تأويل حذف المضاف، أي: برّ من آمن[3]، وَوَجْهُ هَذا التّقْدِيرِ: الفِرارُ عَنِ الإخْبارِ بِاسْمِ العَيْنِ، أوالجثّة (من آمن) عَنِ اسْمِ المَعْنَى (البرّ)[4]، و"مَعْناهُ: وَلَكِنَّ البِرَّ الَّذِي هُوَ كُلُّ البِرِّ الَّذِي يُؤَدِّي إلى الثّوابِ العَظِيمِ بِرُّ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ"[5].

بلاغة تقديم الإيمان على اليوم الآخِر وإيتاء المال، وأفعال الجوارح:

قُدِّمَ الإيمانُ باللهِ على اليوم الآخر لأنَّ الإيمانَ باليوم الآخر متفرّعٌ منه، ومتحصَّلٌ عنه

"لما كان الإيمان باليوم الآخر، متفرّعًا على الإيمان بالله؛ لأنّا ما لم نعلم باستحقاق الألوهيّة، وقدرته على جميع الممكنات، لا يمكننا أن نعلم صحّة الحشر والنّشر، ولمَّا كان الإيمان به محرِّكًا وداعيًا إلى الانقياد لله في جميع ما أمر به، ونهى عنه، خوفًا وطمعًا؛ ذكر الإيمان به عقيب الإيمان بالله"[6].، فهو تصديق لما أمر الله به، وسلوان للمحسن العابد، وإنذار للمشرك المكذّب، والمعاند المستكبر الجاحد، وقد تبيّن له الحق[7].

(1) محمد رشيد رضا، تفسير المنار: 2/90.
(2) أبو زهرة، زهرة التّفاسير: 1/518.
(3) الزّمخشريّ، الكشّاف: 1/218، والرّازيّ، مفاتيح الغيب: 5/214.
(4) الشّوكانّي، فتح القدير: 1/199.
(5) الرّازي، مفاتيح الغيب: 5/214، والواحديّ، التّفسير البسيط: 3/515 وما بعدها.
(6) زاده، حاشية على البيضاويّ: 2/429.
(7) أبو زهرة، زهرة التّفاسير: 1/519.

قَدَّم الإيمانَ على إيتاء المال تقديمَ الأصل على الفرع، والسّبب على المسبّب

"وإنما قَدَّم الإيمانَ؛ لأنَّه رأسُ الأعمالِ الدّينيةِ، وثَنَّى بإيتاء المالِ؛ لأنَّه أَجَلُّ شيء عند العرب، وبه يَتَمَدَّحُون، ويفتخرون بفكِّ العاني، وقِرى الضِّيفان، ويَنْطِقُ بذلك نظمُهم ونثرُهم"[1]، فـ"أول البِرّ وسنامه وأصله: الإيمان، وهو التّصديق والإذعان، وأوّل من يجب الإيمان به: اللّه، فالإيمان به هو لبّ الإيمان كلّه"[2]. و"أساس كلّ برّ ومبدأ كل خير"[3].

تقديم الإيمانِ على أَفْعالِ الجَوارِحِ؛ لكونها أشرفَ منها

وقُدِّمَ الإيمانُ على أَفْعالِ الجَوارِحِ، وَهُوَ إيتاءُ المالِ، والصّلاةُ، والزّكاةُ؛ لِلتَّنْبِيهِ على أَنَّ أَعْمالَ القُلُوبِ أَشْرَفُ عِنْدَ اللَّهِ مِنْ أَعْمالِ الجَوارِحِ[4]، و" لأنَّ أعمال الجوارح النافعة عند اللّه تعالى إنّما تنشأ عن الإيمان"[5].

تقديم الإيمان بالله واليوم الآخر على الملائكة والكتب والرّسل:

المقصود بالبعثات أحرى بالتّقديم

وقدّم الإيمان باللّه واليوم الآخر على الإيمان بالملائكة والكتب والرسل؛ لأنّه المقصود من البعثات، فكان أحرى بالتّقديم[6]. وحال المؤمنين أنّ الإيمان باللّه، ورجاءَ النّجاة في الآخرة أصلُ سَعْيِهم وعنوانُ فلاحِهم.

توجيه متشابه اللفظ:

البرُّ مراعاة الله، ومراعاة الآخرة، ثم مراعاة غيرهما

قُدِّمَ هنا ذكر (اليوم الآخر) وأُخِّرَ في قوله: ﴿وَمَن يَكۡفُرۡ بِٱللَّهِ وَمَلَٰٓئِكَتِهِۦ وَكُتُبِهِۦ وَرُسُلِهِۦ وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِ﴾ [النساء: 136]؛ لأجل أنّ الكافر لا يعرف الآخرة ولا يعتني بها، وهي أبعد الأشياء عن الحقائق عنده، فلذلك أخَّره في آية النساء، ولمّا ذكر هنا حال المؤمنين، والمؤمنُ

(1) السّمين، الدّر المصون: 2/249.
(2) أبو زهرة، زهرة التّفاسير: 1/519.
(3) محمد رشيد رضا، تفسير المنار: 2/90.
(4) الرّازي، مفاتيح الغيب: 5/215.
(5) ابو حيان، البحر المحيط: 2/5.
(6) البسيلّي، التّقييد الكبير، ص: 283.

أقربُ الأشياء إليه أمرُ الآخرة، وكلّ ما يفعله ويتحرَّاه فإنه يقصد به وجه اللّه تعالى، ثم أمرُ الآخرة؛ فقدَّمَ ذكره هنا تنبيهًا على أنّ البرَّ مراعاة اللّه، ومراعاة الآخرة، ثم مراعاة غيرهما[1].

سرّ تقديم الملائكة والكتب على الرّسل:

الـمُراعَى في هذه العبارة ترْتيبُ الوُجُودِ الخارجيّ، لا ترْتيبُ الاعْتبار الذّهنيّ

قدّم لفظ الملائكة والكتب على الرّسل ﴿وَٱلنَّبِيِّـۧنَ﴾ مع أنَّهُ لا طَرِيقَ لَنا إلى العِلْمِ بِوُجُودِ المَلائِكَةِ، وَلا إلى العِلْمِ بِصِدْقِ الكُتُبِ، إلّا بِواسِطَةِ صِدْقِ الرُّسُلِ؛ لأنّه قد روعيَ في التّرتيب في هذه العبارة من الآيَةِ الوُجُودُ الخارِجيُّ، فقُدِّم الأسبقُ في الوجود؛ لأنّ الملَكَ يُوجَدُ أوَّلًا، ثُمَّ يَحْصُلُ بواسِطَةِ تَبْلِيغِهِ نُزُولُ الكُتُبِ، ثُمَّ يَصِلُ ذَلِكَ الكِتابُ إلى الرَّسُولِ؛ فالْمُراعَى في هَذِهِ الآيَةِ: تَرْتِيبُ الوُجُودِ الخارِجيِّ، لا تَرْتيبُ الاعْتِبارِ الذِّهْنيِّ[2].

دلالة تَعْريفِ ﴿وَٱلۡكِتَـٰبِ﴾:

معنى أل في الكتاب لتعريف الجِنْسِ المُفيدِ لِلاسْتِغْراقِ؛ والمرادُ كلُّ الكتب المنزّلة

المقصود بـ﴿ٱلۡكِتَـٰبِ﴾جنس كتب اللّه المنزّلة، أو أنّ المراد: القرآن[3]، فتَعْريفُ الكِتابِ تَعْريفَ الجِنْسِ يفيد الاسْتِغْراقِ، أَيْ: آمَنَ بِكُتُبِ اللّهِ مِثْلِ التَّوْراةِ والإنْجيلِ والقُرْآنِ[4]؛ "لأنّ جميع الكتب السّماوية واجبُ الإيمان بها"[5].

وجه إفراد لفظ الكتاب:

إيثار إفراد الكتاب طلبًا للخفّة

وآثر التّعبير بالمفرد الدّالّ على الجِنْسِ الـمُفيدِ لِلِاسْتِغْراقِ طلبًا للخفّة؛ لأنّ لفظة النّبيين تبيِّن أنَّ المراد جنس الكتاب لا العهد، فامتنع اللّبس. قال ابن عاشور: "وَوَجْهُ التَّعْبِيرِ بِصِيغَةِ الـمُفْرَدِ أنَّها أَخَفُّ مَعَ عَدَمِ التِباسِ التَّعْرِيفِ، بِأَنْ يَكُونَ لِلْعَهْدِ؛ لأنّ عَطْفَ

(1) أبو حيان، البحر المحيط: 2/6.
(2) الرّازي، مفاتيح الغيب: 5/214-215، وزاده، حاشية على البيضاويّ: 2 /429.
(3) الزّمخشريّ، الكشّاف: 1/218.
(4) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 2/129.
(5) القونويّ، حاشيّة القونويّ: 4/458.

﴿وَٱلنَّبِيِّـۧنَ﴾ على ﴿وَٱلۡكِتَٰبِ﴾ قَرينَةٌ على أَنَّ اللّامَ في ﴿وَٱلۡكِتَٰبِ﴾ لِلاِسْتِغْراقِ، فَأُوثِرَتْ صِيغَةُ المُفْرَدِ طَلَبًا لِخِفَّةِ اللّفْظِ"(1).

دلالة إيثار التّعبير بلفظ (النّبيّ) دون لفظ (الرّسول):

النّبيّ أعمٌّ، فكلُّ رسولٍ نبيٌّ، وليس كلُّ نبيٍّ رسولًا

(النّبيُّ) أعمّ من الرّسول، وثبوت الأعمّ، لا يستلزم ثبوتَ الأخصّ، فما يلزم من الإيمان بالنّبي الإيمان بالرّسول، ولذلك عدلَ عن التعبير بلفظ المرسلين، وذلك باعتبار الوصف؛ لأنّ وصف النّبوة أعمُّ من وصف الرّسالة، وترتّبَ الحكم هنا عليهم من حيث ذواتهم لا من حيث أوصافهم(2).

وجه تعريف ﴿وَٱلنَّبِيِّـۧنَ﴾:

بيان التّعريف شمول الأخصّ وهم الرّسل

وعرّف ﴿وَٱلنَّبِيِّـۧنَ﴾ بالألف واللّام الدّالّة على العموم، ليدخل في ضمنه الأخصّ؛ وهم الرّسل(3).

علّة تخصيص الإيمانِ بِهَذِهِ الأُمُورِ الخَمْسَةِ:

وجه التّخصيص أَنَّـهُ لَـمْ يَبْقَ شَيْءٌ مِمّا يَجِبُ الإِيمانُ بِهِ إِلّا دَخَلَ تَحْتَ هَذِهِ الخمسة

خصَّص تعالى الإيمان بأمور خمسَة أجملَها في قوله تعالى: ﴿مَنۡ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِ وَٱلۡمَلَٰٓئِكَةِ وَٱلۡكِتَٰبِ وَٱلنَّبِيِّـۧنَ﴾؛ لأنّ هذه الخمسة "يدخل تحت كلّ واحد منها أشياء كثيرة، ممّا يلزم المؤمن أن يصدّق بها"(4)؛ فيدخل تحت الإيمانِ باللّه: مَعْرِفَتُهُ بِتَوْحِيدِهِ وَعَدْلِه وَحِكْمَتِهِ، وتحت اليَوْمِ الآخِرِ: المَعْرِفَةُ بما يَلْزَمُ مِنْ أَحْكامِ الثَّوابِ والعِقابِ والمَعادِ، إلى سائِرِ ما يَتَّصِلُ بِذَلِكَ، وتحت المَلائكَة ما يَتَّصِلُ بِأَدائِهِمُ الرِّسالَةَ إلى النَّبيِّ ﷺ، وغيره مِمّا يَجِبُ أَنْ يُعْلَمَ مِنْ أَحْوالِ المَلائِكَةِ، وتحت الكِتابِ القُرْآنُ، وَجَمِيعُ ما أَنْزَلَ اللّهُ على

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 2/129.
(2) ابن عرفة، تفسير ابن عرفة: 2/515.
(3) ابن عرفة، تفسير ابن عرفة: 2/515.
(4) القنّوجيّ، فتح البيان: 1/348.

أَنْبيائِه، وتحت النَّبِيِّينَ الإيمانُ بِنُبُوَّتِهِمْ، وَصِحَّةِ شَرائِعِهِمْ، فَثَبَتَ أَنَّهُ لَمْ يَبْقَ شَيْءٌ مِمّا يَجِبُ الإيمانُ بِهِ إلّا دَخَلَ تَحْتَ هَذِهِ[1].

معنى الحرف (على) في قوله: ﴿عَلَىٰ حُبِّهِۦ﴾:

لفظ (عَلَى) اسْتِعلاءٌ مجازيٌّ، أُريد به تحقُّقُ ثُبُوت مدْلُول مدْخُولها لمعْمُول مُتعلّقها

الحرف ﴿عَلَىٰ﴾، فيه اسْتِعْلاءٌ مَجازِيٌّ، أُرِيدَ بِهِ التَّمَكُّنُ مِنْ حُبِّ المالِ، وذلك بتحقيق ثُبُوتِ حبِّ المال لهم، وهي تُفيدُ مُفادَ كَلِمَةِ (مَعَ)؛ ليظهر فضلهم في إيتاء المال عَلى حُبِّهِ والشّحّ به[2]، "وَهِيَ فِي مِثْلِ هَذا المَقامِ لِلتَّنْبِيهِ على أَبْعَدِ الأَحْوالِ مِنْ مَظِنَّةِ الوَصْفِ، فَلِذَلِكَ تُفِيدُ مُفادَ كَلِمَةِ (مَعَ)"[3]، "وَلَيْسَ هَذا مَعْنًى مُسْتَقِلًّا مِنْ مَعاني (عَلَى)، بَلْ هُوَ اسْتِعْلاءٌ مَجازِيٌّ، أُرِيدَ بِهِ تَحَقُّقُ ثُبُوتِ مَدْلُولِ مَدْخُولِها لِمَعْمُولِ مُتَعَلِّقِها؛ لأنَّه لِبُعْدِ وُقُوعِهِ يَحْتاجُ إلى التَّحْقِيقِ"[4]، وهذا التّعبير يظهر فضلهم في إيتاء المال، فإيتاؤهم المال ليس مسبّبًا لانتفاء حاجتهم، وحبِّهم له، بل هم يحبّونه، ويعرفون قيمته كسائر النّاس، ورغم ذلك يسلّطونه على هلَكَته في الحقّ، ولا يقعون أسارى حبِّه.

بيان مرجع الضّمير ودلالته في قوله تعالى: ﴿عَلَىٰ حُبِّهِۦ﴾:

عود الضمير إمّا على المال مع حُبِّهم له، أو على حبّ الله وطاعته، وحُبِّ الإيتاء

في مرجع الضّمير وجوه، "أظهرُها: أنّه يعودُ على المالِ؛ لأنَّه أبلغُ من غيره"[5]، "والمُرادُ أَنَّهُ يُعْطِي المالَ مَعَ حُبِّهِ لِلْمالِ والشّحّ به، وَعَدَمِ زَهادَتِهِ فيه، فَيَدُلُّ على أَنَّهُ إنَّما يُعْطِيهِ مَرْضاةً لِلَّهِ تَعالَى، وَلِذَلِكَ كانَ فِعْلُهُ هَذا بِرًّا"[6]، لكونك تُؤتِيهُ، وأَنْتَ صحيحٌ شحيحٌ، تأمل العيش، وتخشى الفقر، ولا تمهل حتّى إذا بلغت الحلقُوم، قُلت: لفلان كذا، ولفلان كذا"[7]، ويحتمل عوده على: حبّ اللَّه،، أي: من تصدّق محبّة

(1) الرّازيّ، مفاتيح الغيب: 5/215.
(2) الزّمخشريّ، الكشّاف: 1/218.
(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 2/130.
(4) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 2/130.
(5) السّمين، الدّر المصون: 2/247.
(6) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 2/130.
(7) الزّمخشريّ، الكشّاف: 1/218- 219، وابن عطيّة، المحرّر الوجيز: 1/243.

في اللّه تعالى وطاعاته، أو على حبّ الإيتاء، يريد أنّه يعطيه، وهو طيّب النّفس بإعطائه"[1]، والإيتاء، أي: في وقت حاجةٍ من النّاس وفاقةٍ، فإيتاء المال حبيب إليهم.[2].

بلاغة الاعتراض بالتّتميم في قوله: ﴿عَلَىٰ حُبِّهِۦ﴾:

وجه التَّتْميم المبالغةُ في بيان حرصِهم على إيتاء المال على الرّغم من حبِّهِمْ له

توجيه عود الضّمير في ﴿حُبِّهِۦ﴾ إذا كان عائدًا على المال، أو الإيتاءِ؛ فالمصدر مضاف إلى المفعول، وَيَجِيءُ قَوْلُهُ: ﴿عَلَىٰ حُبِّهِۦ﴾؛ اعْتِراضًا بَلِيغًا أَثْنَاءَ القَوْلِ[3]، وأفاد هذا الاعتراض البليغ التتميمَ[4]، وحصولَ المبالغة في بيان حرصهم على إيتاء المال على الرّغم من حبِّهِمْ له، وتعلّقهم به[5].

سرّ ترتيب ورود من يستحقّ المال:

تقديم المستحقّ بحسب مراعاة الحال؛ فضلًا، وأحقّيّةً، وقدرةً على الإعالة

نجد أنّ السّياق قدّم ذوي القربى؛ لأنّهم أحقّ[6]، وإيتاؤهم أفضل[7]، قال رسول اللّه ﷺ: «صَدَقَتُكَ على المِسْكِينِ صَدَقَةٌ، وهي على ذي الرَّحِمِ ثِنْتَانِ: صَدَقَةٌ، وَصِلَةٌ»[8]، وقدّم اليتامى الّذين هم غير الأقارب؛ لأهمّية إيتائهم؛ إذ ليس لديهم من يقوم بمؤنتهم[9]، والمراد بذوي القربى: مَنْ يَقْرُبُونَ مِنْهُ بِولادَةِ الأَبَوَيْنِ، أَوْ بِولادَةِ الجَدَّيْنِ[10].

---

(1) الزّمخشريّ، الكشّاف: 1/218-219.

(2) ابن عطيّة، المحرَّر الوجيز: 1/243.

(3) ابن عطية، المحرَّر الوجيز: 1/243.

(4) التَّتْمِيمُ، ويسمى أيضًا الاحتراس، والاحتياط، وهو: الإتيان بفضلة مفيدة في كلام لا يوهم خلاف المراد، كقوله تعالى يصف الأبرار: ﴿وَيُطْعِمُونَ ٱلطَّعَامَ عَلَىٰ حُبِّهِۦ مِسْكِينًا وَيَتِيمًا وَأَسِيرًا ۝٨ إِنَّمَا نُطْعِمُكُمْ لِوَجْهِ ٱللَّهِ لَا نُرِيدُ مِنكُمْ جَزَآءً وَلَا شُكُورًا ۝٩﴾ [الإنسان: 8 - 9]. قالوا: عبارة: ﴿عَلَىٰ حُبِّهِۦ﴾ جاءت تتميماً مفيداً، حصلت به المبالغة في أنّهم حريصون جدًّا على إطعام الطّعام على الرّغم من حبِّهِمْ له، وتعلُّق شَهْوَتِهِم به، فالإطعام في هذه الحالة أبلغ في الدّلالة على ابتغاء مرضاة الله، وهو بسبب ذلك أعظم أجراً عند الله، فإنّ عبارة ﴿عَلَىٰ حُبِّهِۦ﴾، قيد لازم لإدخال المطعم للطّعام في مرتبة الأبرار، وهي فوق مرتبة المتّقين الّذين يكفيهم أن يطعموا الطّعام الواجب عليهم أن يُطْعِموه، ولو كان هذا الطّعام غير محبوب لهم، ينظر: عبد الرّحمن حبنّكة، البلاغة العربيّة: 2/88.

(5) الطّيبيّ، فتوح الغيب: 3/206.

(6) الزّمخشري، الكشّاف: 1/219.

(7) البيضاويّ، أنوار التّنزيل: 1/121.

(8) أخرجه الإمام أحمد في مسنده من حديث سلمان بن عامر، الحديث رقم: (16234).

(9) القونويّ، حاشيّة القونويّ: 4/462.

(10) الرّازيّ، مفاتيح الغيب: 5/217.

إطلاق العامّ من ذوي القربى، وإرادة الخاصّ من فقرائهم ومساكينهم

وقد أشار الزّمخشريّ إلى أنّ المراد ليس كلّ ذوي القربى، ولا كلّ الأيتام، بل الفقراء منهم، فأطلق العامّ وأراد الخاصّ، ولا وَجْهَ لِقَصْرِ ذَلِكَ على ذَوِي الرَّحِمِ المُحَرَّم، قال: "وأطلق ذَوِي القُرْبى واليَتامى، والمراد الفقراء منهم، لعدم الإلباس"(1).

وجه إضافة ﴿وَٱبۡنَ﴾ إلى ﴿ٱلسَّبِيلِ﴾:

جُعِلَ المُسافِرُ ابنًا للسّبيل؛ لِلُزُومِهِ إيّاهُ

المراد بابن السبيل المُسافِرُ، أو الضّيْفُ؛ لأنَّه إنّما وَصَلَ إِلَيْكَ مِنَ السّبِيلِ، والسّبيل لِلطَّرِيقِ، وَجُعِلَ المُسافِرُ ابْنًا لَهُ؛ لِلُزُومِهِ إيّاهُ، كَما يُقالُ لِطَيْرِ الماءِ: ابْنُ الماءِ، وَيُقالُ لِلرَّجُلِ الَّذي أَتَتْ عَلَيْهِ السّنُونَ: ابْنُ الأَيّامِ، وَ لِلشُّجْعانِ: بَنُو الحَرْبِ. وَلِلنّاسِ: بَنُو الزّمانِ(2).

السّرّ في إفراد ﴿وَٱبۡنَ ٱلسَّبِيلِ﴾، وجمع الصّفات المذكورة:

سِرُّ إفراد (ابن السّبيل)؛ لِقلّتهم باعتبار الوجود الخارجيّ

في قوله تعالى: ﴿وَءَاتَى ٱلۡمَالَ عَلَىٰ حُبِّهِۦ ذَوِي ٱلۡقُرۡبَىٰ وَٱلۡيَتَٰمَىٰ وَٱلۡمَسَٰكِينَ وَٱبۡنَ ٱلسَّبِيلِ وَٱلسَّآئِلِينَ وَفِي ٱلرِّقَابِ﴾ جمع كلّ المذكورين: (ذَوِي القُرْبَى واليَتامَى والمَساكِينَ والسّائِلِينَ)، ولكنّه أفرد (ابن السّبيل)، وذلك لِكثرتهم باعتبار الوجود الخارجيّ، وقلّة ابن السّبيل(3).

سِرُّ إفراد السّائلين بالذّكر وتأخير ذكرهم:

إفراد السّائلين بالذّكر وتأخيرهم؛ لأنّهم أخصُّ وأقلُّ

المراد بالسّائلين "الّذين ألْجَأَتْهم الحاجة إلى السّؤال"(4)، وإلجاؤُهُم "مُستفادٌ من المقام؛ لأنّ المذكورين السّابقين لم يسألوا بقرينة المقابلة، وهؤلاء سألوا؛ لأنّ الفقر ألجأهم، فأفردهم بالذّكر وأخّرهم؛ لأنّهم أخصُّ وأقلُّ(5).

ويجوز أنّ ذكرهم أُخِّر؛ لظهورهم بسؤالهم، وخفاء السّابقين

(1) الزّمخشريّ، الكشّاف: 1/219.
(2) الرّازيّ، مفاتيح الغيب: 5/217.
(3) ابن عرفة، تفسير ابن عرفة: 2/515- 516.
(4) البيضاويّ، أنوار التّنزيل: 1/121.
(5) القونويّ، حاشية القونويّ على البيضاويّ: 4/462.

وجه تأخير ذكر السّائلين لإعلانهم السّؤال

لسكوتهم، والتّعفُّفُ محمُودٌ في شأن الحاجة والفقر، فقدّم الأفضل، أو أخّرهم لقلّتهم، فالفقراء بالوصف العامّ أكثر من الفقراء الّذين يسألون.

المجاز المرسل بذكر الجزء وإرادة الكلّ في قوله: ﴿وَفِي ٱلرِّقَابِ﴾:

الرّقبة في الإنسان هي مظهرُ الشّموخ أو الخضوع

الرّقاب جمع رقبة، وهو العبد المملوك، وعبّر عنه بالرّقبة، من قبيل التّعبير بالجزء وإرادة الجميع، وكانت الرّقبة هي الجزء الدّالّ على الكلّ؛ لأنَّها مظهر الخضوع في الحسِّ؛ إذ يُطأطئ العبد رقبته، خشوعًا وخضوعًا، وهو كقوله تعالى: ﴿فَلَا ٱقْتَحَمَ ٱلْعَقَبَةَ ۝١١ وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا ٱلْعَقَبَةُ ۝١٢ فَكُّ رَقَبَةٍ ۝١٣﴾"[1].

قال محمد علي جميل في شرح ﴿ٱلرِّقَابِ﴾: "جمع رقبة، وهي في الأصل العُنُقُ، وتطلق على البدن كلّه، كما تطلق العين على الجاسوس، والمراد في الآية الأسرى والأرقّاء"[2]، وقال غيره: "والرّقبة مجازٌ عن الشّخص، فهُو من قبيل المجاز المرسل"[3].

وجه استعمال ﴿فِي﴾ مع الرّقاب دون الباقين:

استعمال (في) للدّلالة على أنّ الاستحقاق للجهة، لا للرّقاب، أو للإيذان بأنّهم أحقّ بها وأقوى استحقاقًا

وجيء بالحرف (في) مع لفظ ﴿ٱلرِّقَابِ﴾؛ للدّلالة على أنّ الاستحقاق للجهة، لا للرّقاب، وأنّ إيتاء المال بأن يعطيه ما يستعين به على ما تعهّد به لفكّ رقبته"[4]، فـ "أتى بـ ﴿فِي﴾ دون ما قبله؛ لأنّ ﴿ٱلرِّقَابِ﴾ لا يعطاهم ذلك لأنفسهم، بل يُؤدَّى عنهم؛ ليُعتقُوا بخلاف غيرهم، فإنّه يأخذ ذلك، ويتصرّفُ فيه"[5]، فاستعمال ﴿فِي﴾ "للدّلالة على أنّ الاستحقاق للجهة، لا للرّقاب، أو للإيذان بأنّهم أحقّ بها وأقوى استحقاقًا؛ لأنّ ﴿فِي﴾ للظّرفيّة، أي: هم

(1) أبو زهرة، زهرة التّفاسير: 1/524- 525.
(2) محمد علي جميل، صفوة التّفاسير: 1/104.
(3) محمود عبد الرّحيم صافي، الجدول في إعراب القرآن: 2/356.
(4) أبو زهرة، زهرة التّفاسير: 1/525.
(5) البسيلّي، التّقييد الكبير: ص: 283.

مواضعها الّتي يوضع فيها؛ لما فيها من الفكّ والإنقاذ من الرّقّ وإحداث الحرية"[1].

دفع التناقض في نفي أن يكون التّوجّه إلى القبلة أو الجهات من البرّ:

نَفيُ البِرّ نَفيٌ لِكَمالِ البِرّ، وَلَيسَ نَفيًا لِأَصْلِه

إنَّه اللّه تعالَى نَفَى أَنْ يَكُونَ التَّوَجُّهُ إلى القِبلَةِ بِرًّا، ثُمَّ حَكَمَ بِأَنَّ البِرَّ مَجْمُوعُ أُمُورٍ أَحَدُها الصّلاةُ، والاسْتِقْبالُ أصلٌ فيها، فَيَلْزَمُ التَّناقُضُ، ودفعه أَنَّ قَوْلَهُ: ﴿لَّيۡسَ ٱلۡبِرَّ﴾ نَفْيٌ لِكَمالِ البِرِّ، وَلَيْسَ نَفيًا لِأَصْلِه، كَأَنَّهُ قال: لَيْسَ البِرَّ كُلُّهُ هُوَ هَذا، فالبِرُّ: اسْمٌ لِمَجْمُوعِ الخِصالِ الحَمِيدَةِ، واسْتِقْبالُ القِبلَةِ واحِدٌ مِنْها، فَلا يَكُونُ ذَلِكَ تَمامَ البِرِّ[2].

نفي البرّ عن استقبال الجهات من الوسائل لا المقاصد فلا يكوننّ الاشتغال به غاية

وَنَفْيُ البِرِّ عَنِ اسْتِقْبالِ الجِهاتِ، مَعَ أَنَّ مِنْها ما هُوَ مَشْرُوعٌ، كاسْتِقْبالِ الكَعْبَةِ؛ لأنَّه مِنَ الوَسائِلِ لا مِنَ المَقاصِد، فَلا يَنْبَغِي أَنْ يَكُونَ الاشْتِغالُ بِهِ قُصارَى هِمَّةِ المُؤْمِنِينَ، وَلِذَلِكَ أَسْقَطَهُ اللّهُ عَنِ النّاسِ، في حالِ العَجْزِ والنِّسْيانِ، وَصَلَواتِ النَّوافِلِ على الدّابَّةِ في السَّفَرِ، وَلِذَلِكَ قالَ: ﴿وَلَٰكِنَّ ٱلۡبِرَّ مَنۡ ءَامَنَ﴾، فَإِنَّ ما تلا ﴿ءَامَنَ﴾ كُلَّهُ مِنْ أَهَمِّ مَقاصِدِ الشَّرِيعَةِ، وَفِيهِ جِماعُ صَلاحِ النَّفْسِ والجَماعَةِ، وَنَظِيرُه قَوْلُهُ تَعالَى: ﴿أَجَعَلۡتُمۡ سِقَايَةَ ٱلۡحَآجِّ﴾ [التَّوۡبَة: 19] ولا شكّ أن السقاية وعمارة المسجد الحرام عَمَلًا برّ، فَيَكُونُ النَّفْيُ على مَعْنَى نَفْيِ الكَمالِ[3].

علّة تقديم مصارف الزّكاة على ذكر الزّكاة:

تقديم مصارف الزكاة للعناية بها، وتأخير إيتائها للحثّ على إخراجها

وذكر الزّكاة مُجملًا بقوله ﴿وَءَاتَى ٱلزَّكَوٰةَ﴾ بعدما ذكرها مفصّلًا في قوله ﴿وَءَاتَى ٱلۡمَالَ عَلَىٰ حُبِّهِۦ ذَوِي ٱلۡقُرۡبَىٰ﴾ وذلك لأنّ مفهوميهما متقاربَين إجمالًا وتفصيلًا، وإنّما قدّم بيان المَصْرِفِ على ذِكر

(1) القونويّ، حاشية القونويّ: 4/463.
(2) الرّازيّ، مفاتيح الغيب: 5/ 213.
(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 2/128.

الزّكاة؛ لأنَّه هو المهتَمُّ بِشأنه[1]، فإنّ " الغرض من الأوّل: بيان مصارفها، ومن الثّاني: أداؤها، والحثّ عليها"[2].

السّرُّ في ذكر إيتاء الزّكاة، بعد ذِكر إيتاء المال:

عـطْـفُ الـزّكـاة على إيتاء المال، يفيد التّغاير في معنى كلّ منهما

وذكرُ إيتاء المال في هذه الوجوه، ثمّ تقفيته بإيتاء الزّكاة دليلٌ جليٌّ على أنّ إيتاء المال، ليس هو الزّكاة وحدها؛ بل هو جملة حقوق، تتضافر، وتتكامل، وهو ما يوسّع دائرة الإحسان والعطاء، وهو دليلٌ على أنّ في المال حقًّا سوى الزّكاة، أو أنْ يكون ذلك بيانٌ لمصارف الزّكاة، أو يكون حثًّا على نوافل الصّدقات والمبارّ[3]، فـ"ذكر الزّكاة هنا، دليل على أن ما تقدّم ليس بالزّكاة المفروضة"[4]، والمراد من إيتاء المال ليس الزّكاة؛ لِأَنَّهُ تَعالَى عَطَفَ الزّكاةَ عَلَيْهِ بِقَوْلِهِ: ﴿وَءَاتَى ٱلزَّكَوٰةَ﴾، وَمِنَ المعلوم تغاير الـمَعْطُوفِ والـمَعْطُوفِ عَلَيْهِ؛ فَثَبَتَ أَنَّ الـمُرادَ به غير الزّكاة[5].

نكتةُ توسيط الصّلاة بين المفصّل والمجمل:

توسيط الصلاة إيـــذانٌ بـأنّ التـعظيم لأمر الـلـه يـحـسُـنُ بـاكـتـنـافـه بالشَّفقة

أوقع الصّلاة واسطةً للعقدِ بينَ المفصّل من أعمال البرّ، والمجمل منها في قوله ﴿وَأَقَامَ ٱلصَّلَوٰةَ﴾؛ ليؤذِنَ بأنّ التّعظيم لأمر اللّه، إنّما يحسُنُ كلَّ الحسنِ إذا كان مكتَنفًا بالشّفقة على خَلْقِ اللّه[6].

بيان وجه الرّفع في قوله: ﴿وَٱلْمُوفُونَ﴾:

وجــه الـرَّفـع مـدحٌ لـهـم، أو وصفهم بكونهم أصحابَ بِرٍّ

في رفع ﴿ٱلْمُوفُونَ﴾ قولان: الأجود أنْ يكون مرفوعًا على المدح؛ لأنّ النّعت إذا طال، وكَثُرَ، رُفِعَ بعضُه، ونُصِب على المدح، والمعنى:

(1) الطّيبيّ، فتوح الغيب: 3/208، وزاده، حاشية على البيضاويّ: 2/431.
(2) البيضاويّ، أنوار التّنزيل: 1/121.
(3) الزّمخشريّ، الكشّاف: 1/220.
(4) ابن عطيّة، المحرَّر الوجيز: 1/243-244.
(5) الرّازيّ، مفاتيح الغيب: 5/216.
(6) الطّيبيّ، فتوح الغيب: 3/208، وزاده، حاشيّة على البيضاويّ: 2/431.

(هم الموفون بعهدهم)، وجائزٌ أنْ يكون معطوفاً على مَنْ، والمعنى: ولكن البرّ، وذو البِرّ: المؤمنون والموفون بعهدهم[1].

علّة إيثار التّعبير عنِ الوفاء بالعهد، والصّبر بالوصف دون الفعل:

الصّلاة والزّكاة أفعال تتجدّد، أمّا الوفاء والصّبر؛ فصفتان ثابتتان

إنّ الجمل السّابقة متعاطفة، فقوله: ﴿وَءَاتَى ٱلۡمَالَ عَلَىٰ حُبِّهِۦ﴾ عُطف عليها: ﴿وَأَقَامَ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَى ٱلزَّكَوٰةَ﴾، لكن عند الكلام على الوفاء والصّبر، غَيَّرَ أُسْلُوبَ الكلام معبّرًا بالوصف دون الفعل ولَمْ يَقُلْ: (وَمَنْ أَوْفَى بِعَهْدِهِ) أو (وصبر) كما قال: ﴿وَأَقَامَ﴾، بل قال: ﴿وَٱلۡمُوفُونَ بِعَهۡدِهِمۡ﴾، و﴿وَٱلصَّٰبِرِينَ﴾؛ لأنّ إعطاء المال، وإقامة الصّلاة، وإيتاء الزّكاة، أفعال مطلوبة في ذاتها، وهي تتجدد آنًا بعد آنٍ، وإن كانت واجبة على الدّوام، أمّا الوفاء؛ فالفضيلة فيه أنْ يكون صفة دائمة، لا أنْ يكون فعلاً، ثمّ ينقطع، بل يكون حلية يتحلّى بها المكلّف، وكذلك الصّبر، فالمطلوب فيه أنْ يكون صفة مستمرّة، تظهر في كلّ أعماله، من عبادات ومعاملات وأعمال، يصبر في كلّ أمر يقتضي الصّبر على النّعماء، فيرضى، ويشكر، ويصبر على الشّدة، فلا يفزع، ويصبر على الضّراء، فلا يئنّ[2].

الدّلالة بالاسم تقتضي الثّبوت، ممّا يتطابق مع الوفاء بالعهد

وقصد التعبير بالاسميّة لأمرين، أحدُهما: لفظيٌّ، وهو أنَّ الصّلةَ متى طالت كان الأحسنُ أنْ تُعْطَفَ على الموصولِ دون الصّلة؛ لئلّا تطولَ، وَتَقْبُحَ، والثّاني: أنّه ذكر في الأولِ ما هو داخلٌ في حَيِّزِ الشّريعةِ وغيرُ مستفادٍ إلّا منها، والحكمةُ العقليَّةُ تقتضي العدالةَ دون الجَوْرِ، ولـمّا ذكرَ وفاءَ العهدِ، وهو مِمّا تقضي به العُقولُ المجرّدةُ صار عطفُهُ على الأولِ أحسنَ[3]. وفيه دلالَةٌ على الـمُغايَرَةِ بين الإسميّة والفعليّة بِأنَّ الأَوَّلَ: مِنْ عَلائِقِ حَقِّ اللّهِ تَعالَى وَأُصُولِ الدّينِ، والثّاني: مِنْ حُقُوقِ العِبادِ[4].

---

(1) الزّجاّج، معاني القرآن وإعرابه: 1/247، والزّمخشريّ، الكشّاف: 1/220، وابن عطيّة، المحرَّر الوجيز: 1/244، والرّازي، مفاتيح الغيب: 5/218.

(2) أبو زهرة، زهرة التّفاسير: 1/528.

(3) السّمين، الدّر المصون: 2/251.

(4) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 2/131.

سرّ إيثار إفراد العهد على الجمع:

العهد الواحد مظنّة الإيفاء؛ لأنّه لا يستلزم الوفاء (بالعهود)

وعدل إلى إفراد العهد بقوله: ﴿بِعَهۡدِهِمۡ﴾، ولم يقل: (بعهودهم)؛ لأنّه أبلغ من الوفاء، فالعهد الواحد لا يستلزم الوفاء (بالعهود)، بخلاف العكس فإنّه يستلزم من ناحية أنّ المكلّف؛ إذا عاهد هو وغيره، ووفّى غيره بالعهود وبِهِ؛ فإنّه قد حصل الوفاء بالعهد على الإطلاق، بخلاف ما إذا عاهد وحده ولم يوفِ، فإنّه لم يقع في الوجود وفاء بالعهد، فتعظم العقوبة والذّم[1].

فائدة التّعبير بـ ﴿إِذَا عَٰهَدُواْۖ﴾:

أفاد التعبير سرعة الوفاء بالعهد فلا يتأخّر طرفة عين

أفاد قوله ﴿إِذَا عَٰهَدُواْۖ﴾، سرعة الوفاء بالعهد[2]، وذلك لتقييده بِالظَّرْفِ، وَهُوَ ﴿إِذَا عَٰهَدُواْۖ﴾، أَيْ: وَقْتَ حُصُولِ العَهْدِ، فَلا يَتَأَخَّرُ وَفاؤُهُمْ طَرْفَةَ عَيْنٍ.

أفاد التعبيرُ التنبيهَ على لزوم الحذر عند المعاهدة

وَفي التعبير تَنْبِيهٌ على وُجُوبِ الاحْتِياطِ، عِنْدَ بَذْلِ العَهْدِ، بِحَيْثُ لا يُعاهِدُ حَتَّى يَتَحَقَّقَ، أَنَّهُ يَسْتَطِيعُ الوَفاءَ، كَأَنَّهُ يَقُولُ: فَإِنْ عَلِمُوا أَلّا يَفُوا؛ فَلا يُعاهِدُوا[3].

سرّ العدول الى نصب ﴿وَٱلصَّٰبِرِينَ﴾:

النصب على الاختصاص والمدح إظهارٌ لمزيد شرف الصّبر والصابرين

نُصِبَ لفظ ﴿وَٱلصَّٰبِرِينَ﴾ على الاختصاص والمدح؛ تنبيهًا على خصيصة الصابرين، وإظهارًا لمزيد شرف الصّبر في الشّدائد؛ وذلك لكون الصّبرِ من وجهٍ مبدَأَ الفضائِلِ، ومن وجهٍ جامعاً للفضائلِ؛ إذ لا فضيلَةَ إلّا وللصّبرِ فيها أثرٌ بليغٌ؛ ولذلك غَيَّرَ إعرابَهُ على هذا المَقْصِد[4]، لأنّه إذا ذكرت صفات للمدح أو الذّمّ، وخولف الإعراب في بعضها، فذلك تفنّن، ويسمّى: قطعًا؛

(1) ابن عرفة، تفسير ابن عرفة: 2/516.
(2) ابن عرفة، تفسير ابن عرفة: 2/516.
(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 2/131.
(4) الراغب، تفسير الرّاغب: 1/378، والسّمين الحلبيّ، الدّرّ المصون: 2/251، وابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 2/133.

لأنّ تغيير المألوف يدلّ على زيادة ترغيب في استماع المذكور، ومزيد اهتمام بشأنه[1].

كَسْرُ تَراتُب الإعراب تنبيه على أنّ الصبر هو مطيّة كلّ ما تقدّم من أفعال

كسر الإعراب هنا غرضُه تنبيهُ الآذان إلى أن شيئاً جديداً استحقّ أن يُخالف عنده الإعراب؛ لأن الصّبر هو مطية كلّ هذه الأفعال، فالذي يقدر في الصبر على نفسه بإقامة الصلاة، وإيتاء الزكاة. وإيتاء المال على حبّه هو الذي فاز وظفر، إذن كلّ ذلك امتحان للصبر. ومن هنا خصّ الله ﴿وَٱلصَّٰبِرِينَ﴾ بإعراب مخالف حتى نفهم أنه منصوب على المدح، أو على الاختصاص، وخصَّ الله الصبر بهذه الميزة؛ لأنّ التكليفات كلّها تعطي مشقّات على النفس، ولا يستطيع تحمّل هذه المشقات إلّا من يقدر على الصّبر، ومادام قد قدر على الصبر فكلّ ذلك يهون[2].

العدول إلى نصب (والصابرين) وجهٌ من وجوه الإطناب

إذا ذكرت الصفات الكثيرة في معرض المدح أو الذمّ فالأحسن أن يُخالف إعرابها ولا تُجعل كلُّها جاريةً على موصوفها؛ لأنّ هذا من مواضع الإطناب وبه يكون المقصود أكمل؛ لأنّ الكلام عند اختلاف الإعراب يصير كأنّه أنواع من الكلام وضروب من البيان[3].

التّرقّي في الصّبر من الأدنى إلى الأعلى:

التّرقّي لونٌ بليغٌ من الأسلوب، ينشّط الذّهن، ويستوعبُ الدّلالة

جاء التَّرتيبُ في قوله: ﴿فِي ٱلْبَأْسَآءِ وَٱلضَّرَّآءِ وَحِينَ ٱلْبَأْسِۗ﴾؛ لتحقيق (التّرقّي من الأدنى إلى الأعلى)[4]، فـ"البَأْساءُ هو الفقر، والضّرّاءُ هو المرض، وحين البأس، أي: حين القتال، وهذا تَرَقّ؛ لأنّ

(1) الهرريّ، تفسير حدائق الرّوح والرّيحان: 3/146.

(2) الشعراوي، تفسير الشعراوي: 2/741.

(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 2/133.

(4) من دواعي التّقديم والتّأخير: إرادة الترقّي من الأدنى إلى الأعلى، أو العكس، أو إرادة البدء بالظّاهر، فما يتّصل به من الأسباب، وهكذا تَسَلْسُلاً إلى الأسباب الباطنة الخفيّة، حتّى السّبب الأوّل، أو البدء بما هو بمنزلة الأساس فما يتّصل به، وهكذا تدرّجًا إلى الأعلى فالأعلى، حتّى القمّة، ومن أمثلة التّدرّج من الأدنى إلى الأعلى، قول الله ﷻ، مبيّنًا مراتب ودرجات المؤمنين: ﴿ثُمَّ أَوْرَثْنَا ٱلْكِتَٰبَ ٱلَّذِينَ ٱصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَاۖ فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِۦ وَمِنْهُم مُّقْتَصِدٌ وَمِنْهُمْ سَابِقٌۢ بِٱلْخَيْرَٰتِ بِإِذْنِ ٱللَّهِۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَضْلُ ٱلْكَبِيرُ﴾ [فاطر: 32]. ينظر: عبد الرّحمن حبنّكة، البلاغة العربيّة: 1/391.

وقوع الفقر والحاجة في النّاس، أكثر من وقوع القتال، فالصّبر على القتال أشدّ لغرابته، وقلّة وقوعه، ودونه الصّبر على المرض، ودونه الصّبر على الفقر، ولهذا تجد الفقراء الأصحّاء، أكثر عددًا من المرضى، والمرضى أكثر عددًا من الفرسان المقاتلين"[1]، فمن المعلوم أنّ الفقر إذا اشتدّت وطأته؛ يضيق له الذّرع، ويكاد يفضي إلى الكفر، والضّرُّ إذا برح بالبدن، يضعف الأخلاق، حتّى لا يكاد المرء يحتمل ما كان يُسَرُّ به في حال الصّحّة، وأمّا حالة اشتداد الحرب؛ فهي على ما فيها من الشّدّة والتّعرُّض للهلكة، بخوض غمرات المنيّة يُطلب فيها من الصّبر، ما لا يُطلب في غيرها؛ لأنّ الظّفر مقرونٌ بالصّبر، وبالظّفر حِفْظُ الحقّ الّذي يناضل المجاهد في سبيل اللّه دونه، ويدافع عنه، ويحاول إظهاره، ويبتغي انتشاره[2].

السّر في التّعبير بـ ﴿فِي﴾ مع البأساء، و﴿وَحِينَ﴾ مع البأس:

استعمال (في) مع البأساء، و(حين) مع البأس ليفيد كمال الصّبر من أوّل القتال إلى آخره

وجه إيثار تعدية (البأساء) في قوله: ﴿فِي ٱلۡبَأۡسَآءِ وَٱلضَّرَّآءِ وَحِينَ ٱلۡبَأۡسِۗ﴾، بالحرف ﴿فِي﴾، وعدم تعدية (البأس) به، ولمْ يعكس فيقول: (والصّابرين حين البأساء وفي البأس)؛ لأنّه لمَّا كان وقوع القتال أقلّها وجودًا بالنّسبة إلى غيره؛ كان الصّبر عليه أغرب وأعجب، فالمراد بالصّابرين من حصل منهم الوصف الكامل من الصّبر، ولو عدّي بالحرف (في)؛ لتناول الصّابر في أوّل جزء من أجزاء القتال؛ لأنَّه حينئذ يصدق بأوّل جزء، فعُدِلَ إلى القول: ﴿وَحِينَ ٱلۡبَأۡسِۗ﴾؛ ليفيد كمال الصّبر من أوّل القتال إلى آخره، وأمّا الفقر والمرض، فكلاهما أكثريّ الوقوع، فلا غرابة فيهما، فلم يحتج إلى التّنبيه على كمال الصّبر فيه[3].

وجه استعمال الحين مع (البأس) الإشعار بوقوع الحرب أحيانًا

زيادة الحين مع ﴿ٱلۡبَأۡسِۗ﴾ في قوله: ﴿وَحِينَ ٱلۡبَأۡسِۗ﴾؛ للإشعار بوقوعه أحيانًا وسرعة انقضائه[4]، أي: "أنَّ الحرب تجيء وقتًا بعد

(1) ابن عرفة، تفسير ابن عرفة: 2/517، والهرريّ، تفسير حدائق الرّوح والرّيحان: 3/128.
(2) محمد رشيد رضا، تفسير المنار: 2/98.
(3) ابن عرفة، تفسير ابن عرفة: 2/517.
(4) البروسويّ، روح البيان: 1/283.

وقت، وليست مستمرّة، وإن استمرّت أمدًا طويلًا، تبدّل الرّجال بعد الرّجال، ولا يحارب الجيش كلّه"[1].

وجه الاستئناف في جملة التذييل:

استأنف في قوله تعالى: ﴿أُوْلَـٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ صَدَقُواْۖ وَأُوْلَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُتَّقُونَ﴾؛ ليبيِّنَ أنّه لا يستحقّ اسم البِرّ، إلّا من اجتمعت فيه هذه الصّفات، وأنّ من قام بتلك الأفعال، صدق في إيمانه، قال البقاعي: "ولمّا كانت هذه الخلال أشرفَ خلال، أشار إلى شرفها بشرف أهلها، فقال مستأنفًا بيانًا؛ لأنَّه لا يستحقُّ اسم البِرّ إلّا من اجتمعت فيه هذه الخلال، وقوله: ﴿أُوْلَـٰٓئِكَ﴾، أي: خاصّة الّذين علَتْ هِمَمُهم، وعظُمت أخلاقهم وشيمهم، فوصفهم بقوله: ﴿ٱلَّذِينَ صَدَقُواْۖ﴾، أي: فيما ادّعوه من الإيمان، ففيه إشعارٌ، بأنّ من لم يفعل أفعالهم؛ لم يصدق في دعواه"[2].

الصّدق والتّقوى ثمرتان ضروريّتان لأفعال البرّ في هذه الآية

الفرق الدّلالي بين خبرَي جملة التذييل:

بين عبارتي جملة التذييل المتعاطفتَين: ﴿أُوْلَـٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ صَدَقُواْۖ﴾، و﴿وَأُوْلَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُتَّقُونَ﴾، فرقٌ دلاليٌّ تحريره أنّ خبر ﴿أُوْلَـٰٓئِكَ﴾ الأولى: موصولٌ، وصلته فعلٌ ماضٍ ﴿صَدَقُواْۖ﴾؛ لتحقُّقِ اتِّصافهم به، وأنَّ ذلك قد وَقَع منهم، واستقرَّ، وخبرُ ﴿وَأُوْلَـٰٓئِكَ﴾ الثّانيةِ: اسمُ فاعل ﴿ٱلْمُتَّقُونَ ١٧٧﴾، يدلُّ على الثّبوت؛ لبيان أنّ ذلك صار كالسَجيَّةِ لهم، فضلا عن أنّه لو أتى به فعلاً ماضيًا، لَما حَسُنَ وقوعُه فاصلةً[3].

التعبير بالفعل الماضي؛ لتحقُّقِ اتِّصافهم بالصّدق، والتعبير باسم الفاعل للدلالة على ثبوت التقوى سجيّة لهم

فائدة تكرار اسم الإشارة:

"كرّر لفظ ﴿أُوْلَـٰٓئِكَ﴾ في قوله: ﴿أُوْلَـٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ صَدَقُواْۖ وأُوْلَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُتَّقُونَ﴾؛ "تنبيهًا على أنّ كلّ وصف من هذا كافٍ في حصول المدح

فائدة اسم الإشارة التّنويه إلى أنّ الأوصاف المذكورة هي علّة الحكم

(1) أبو زهرة، زهرة التّفاسير: 1/529.
(2) البقاعيّ، نظم الدّرر: 3/10.
(3) السّمين، الدّرّ المصون: 2 /251، والجمل، الفتوحات الإلهيّة: 1/213.

والثّناء، لا المجموع"[1]، و" لزيادة تنويه شأنهم"[2]، فاسم الإشارة الأولى والثّانية قُصِدَ بها الّذين اتّصفوا بالبرّ، حتّى كأنّهم هم البرّ في أعمالهم المؤلّفة للقلوب، والمقرّبة للنّفوس، وصفاتهم المثبتة لقوّة الإيمان، وحسن العمل، والإشارة إلى الأوصاف فيها إيذان بأنّ هذه الأوصاف، هي علّة الحكم[3].

دلالة الحصر باستعمال الضّمير ﴿هُمُ﴾:

انحصار النّعت بالتّقوى في المتّقين؛ لاشتمالها على جميع أعمال البرّ

توسيط الضّمير في قوله تعالى﴿وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُتَّقُونَ﴾ للإشارة إلى انحصار التّقوى فيهم واقتصارها عليهم[4].

وجه النعت بالمتقين:

النعت بالمتّقين إشعارٌ بأنّهُم تكلّفوا هذه الأفعال؛ لعظيم خوفهم من الله تعالى

في نعتهم بالمتّقين في قوله تعالى﴿وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُتَّقُونَ﴾ إشعارٌ بأنّهُم تكلّفُوا هذه الأفعال؛ لعظيم خوفهم من الله تعالى، قال تعالى: ﴿وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُتَّقُونَ﴾[5]، ويلاحظ الحذف في الآية، فتقوى الله تتحقّق باتّقاء ما نهى الله تعالى عنه، وهي (محارمه)، وحذفها للعلم بها، فقوله: "﴿وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُتَّقُونَ﴾: محارم الله"[6].

الفُرُوقُ المُعْجميّة:

الفقير، والمسكين، والسّائل:

دلالة لفظي المساكين والسّائلين في بيان الدّلالة في الآية

"والمِسْكِينُ الفقِيرُ الَّذي أَذَلَّهُ الفقْرُ، وَقَدِ اتَّفَقَ أَئِمَّةُ اللُّغَة: أَنَّ المِسْكِينَ غَيْرُ الفَقِيرِ، هُوَ أَقَلُّ فَقْرًا مِنَ الفقِيرِ، وَقِيلَ: هُوَ أَشَدُّ فَقْرًا، وَهَذا قَوْلُ الجُمْهُور، وَقَدْ يُطْلَقُ أَحَدُهُما في مَوْضِعِ الآخَرِ؛ إذا لَمْ يَجْتَمِعا"[7]، و"إِنَّ المَسَاكِينَ أَهْلُ الحاجَةِ، ثُمَّ هُمْ ضَرْبانِ: مِنْهُمْ

(1) ابن عرفة، تفسير ابن عرفة: 2/518.
(2) القنّوجيّ، فتح البيان: 1/351.
(3) أبو زهرة، زهرة التّفاسير: 1/529.
(4) القنّوجيّ، فتح البيان: 1/351.
(5) البقاعيّ، نظم الدّرر: 3/10.
(6) البغويّ، معالم التّنزيل: 1/207.
(7) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 2/131.

مَنْ يَكُفُّ عَنِ السُّؤال، وهو المراد هاهنا، وَمِنْهُمْ مَنْ يَسْأَلُ، وَيَنْبَسِطُ، وَهُوَ الـمُرادُ بِقَوْلِهِ: والسّائِلِينَ، وَإِنَّما فَرَّقَ تَعالَى بَيْنَهُما، مِنْ حَيْثُ يَظْهَرُ على الـمِسْكِينِ الـمَسْكَنَةُ، مِمّا يَظْهَرُ مِنْ حالِهِ، وَلَيْسَ كَذَلِكَ السّائِلُ؛ لأَنَّه بِمَسْأَلَتِهِ يَعْرِفُ فَقْرَهُ وَحاجَتَهُ"[1]، "وَذَكَرَ السّائِلِينَ، وَهُمُ الفُقَراءُ، كَنَّى عَنْهُمْ بِالسّائِلِينَ؛ لأنّ شَأْنَ الـمَرْءِ أنْ تمنعه نَفْسُهُ مِنْ أَنْ يَسْأَلَ النّاسَ لِغَيْرِ حاجَةٍ غالِبًا، فالسّؤالُ عَلامَةُ الحاجَةِ غالِبًا"[2]، والسَّائلون يمتازون من غيرهم، من الأصناف المذكورة: أنَّ الفقر ألجَأَهم إلى السُّؤال.

(1) الرّازي، مفاتيح الغيب: 5/217.

(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 2/131.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُتِبَ عَلَيۡكُمُ ٱلۡقِصَاصُ فِي ٱلۡقَتۡلَىۖ ٱلۡحُرُّ بِٱلۡحُرِّ وَٱلۡعَبۡدُ بِٱلۡعَبۡدِ وَٱلۡأُنثَىٰ بِٱلۡأُنثَىٰۚ فَمَنۡ عُفِيَ لَهُۥ مِنۡ أَخِيهِ شَيۡءٞ فَٱتِّبَاعُۢ بِٱلۡمَعۡرُوفِ وَأَدَآءٌ إِلَيۡهِ بِإِحۡسَٰنٖۗ ذَٰلِكَ تَخۡفِيفٞ مِّن رَّبِّكُمۡ وَرَحۡمَةٞۗ فَمَنِ ٱعۡتَدَىٰ بَعۡدَ ذَٰلِكَ فَلَهُۥ عَذَابٌ أَلِيمٞ ١٧٨﴾ [البقرة: 178]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِمَا قَبْلَها:

إقامة العدل في القصاص، ونبذ الثّارات والجهالات

جاءت هذه الآية بعد آية البرّ؛ لأنّ الآيتين تتوجّهان إلى بناء المجتمع المسلم، ونفي ما يهدّد بنيانه، وتُسهمان في صلاحه واستتباب أمنه ونظامه؛ فقد كان العرب في الجاهليّة لا يقتصّون من القاتل، وإنّما يثأرون من القبيلة، والدّماء فيهم لا تتكافأ، وكان قانون العصبيّة والغلبة، هو السّائد لا قانون القصاص العادل، وكان ذلك ناشئًا من العصبيّة، وفرض التّفاوت والثّأر، فنزلتِ الآية الكريمة؛ لتمحوَ هذا القانون الظّالم، ولتثبت أنّ القصاص العادل، هو الّذي يجب أنْ يحكم[1]، وأنّ المسلمين متساوون في نظر الشّرع في الحقوق والواجبات، وهو عين ما دعا إليه النّبيّ -ﷺ- في قوله: "الْمُؤْمِنُونَ تَتَكَافَأُ دِمَاؤُهُمْ، وَيَسْعَى بِذِمَّتِهِمْ أَدْنَاهُمْ، وَهُمْ يَدٌ عَلَى مَنْ سِوَاهُمْ، أَلا لَا يُقْتَلُ مُؤْمِنٌ بِكَافِرٍ، وَلا ذُو عَهْدٍ فِي عَهْدِهِ"[2].

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

كلُّ ما كتبه الله على العباد هو عينُ النّفع والرّشاد

1) ﴿كُتِبَ عَلَيۡكُمُ﴾: "أي: فُرض عليكم"[3]، "وَأَصْلُ الكِتابَةِ: نَقْشُ الحُرُوفِ فِي حَجَرٍ أَوْ رَقٍّ أَوْ ثَوْبٍ، وَلَمّا كانَ ذَلِكَ النَّقْشُ يُرادُ

(1) الرّويني، من غريب بلاغة القرآن، ص: 512.

(2) حديث صحيح لغيره، حَسّن سنده الحافظ ابن حجر في فتح الباري: 04/85، والقسطلانّي في إرشاد السّاري: 08/19، وأخرجه مختصرًا أبو داود، حديث رقم: 2035، والنّسائي: 8/24، وروي في مسند الإمام أحمد بن حنبل: 2/268.

(3) الماوردي، النّكت والعيون: 1/228.

بِهِ التَّوَثُّق بما نُقِش بِهِ دوام تَذَكُّرِهِ؛ أَطْلَقَ (كتب) على معنى: حَقَّ، وَثَبَتَ، أَيْ: حَقَّ لِأَهْلِ القَتِيلِ"[1]، و"كُتِبَ، معناه: فُرِض، وأُثبت، والكَتْب مستعمل في الأمور المخلّدات الدّائمة كثيرًا"[2]، قال الزَّجّاج في معنى ﴿كُتِبَ﴾: "أي: فُرِض عليكم، وإِنَّمَا جَازَ أن يَقَعَ ﴿كُتِبَ﴾ في معنى: فُرِضَ؛ لأنّ ما يكتب يقع في النفوس أنَّه ثَبَتَ، ومعنَى هذا الفرض الذي يبلغ أجله أيام عدة المطلّقة والمتوفَّى عنها زوجها"[3]، ومنه قول الشّاعر عمر بن أبي ربيعة، أو عبد الله بن الزّبير الأسديّ:

كُتِبَ القَتْلُ وَالقِتَالُ عَلَيْنَا *** وَعَلَى المُحْصَنَاتِ جَرُّ الذُّيُولِ[4]

"وقيل: إنّ ﴿كُتِبَ﴾ في مثل هذا، إخبارٌ عمّا كُتب في اللّوح المحفوظ، وسبق به القضاء، وصورة فرض القصاص، هو أنّ القاتل فرض عليه- إذا أراد الوليّ القتل -الاستسلام لأمر اللّه، والانقياد لقصاصه المشروع... وليس القصاص بلزام إنّما اللّزام ألَّا يتجاوز القصاص إلى اعتداء، فأمّا إذا وقع الرّضى بدون القصاص، من ديَة أو عفو؛ فذاك مباحٌ، فالآيةُ مُعْلمةٌ أنَّ القصاص هو الغاية عند التَّشاحِّ "[5].

العين بالعين والسّنُّ بالسّنِّ، ضمانٌ للقصاص العادل

2) ﴿فِي ٱلْقِصَاصُ﴾: "مأخوذ من قصّ الأثر، فكأنّ القاتل سلك طريقًا من القتل، فقصّ أثره فيها، ومشى على سبيله في ذلك"[6]، و"القِصاصُ: مُقابَلَةُ الشّيْءِ بِمِثْلِه، وَمِنْهُ: قَتْلُ مَنْ قَتَلَ بِالمَقْتُولِ، وَأَصْلُهُ: مِنْ قَصَصْتُ الأَثَرَ، أَيِ: اتَّبَعْتُهُ؛ لأنَّه اتِّباعٌ بِدَمِ المَقْتُولِ"[7]، وقال النّيسابوريّ: " والقصاص أن تفعل بالإنسان مثل ما فعل من قولك: اقتصّ فلانٌ أثر فلان؛ إذا فعل مثل فعله، ومنه القصّة؛ لأنّ الحكاية تساوي المحكيّ، والمقصّ؛ لتعادل جانبيه"[8]، وَمِنْهُ

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 2/135.
(2) ابن عطية، المحرَّر الوجيز: 1/244، والقرطبيّ، الجامع لأحكام القرآن: 2/258.
(3) الزّجاج، معاني القرآن وإعرابه: 1/318.
(4) ابن جرير، جامع البيان: 3/366.
(5) ابن عطيّة المحرر الوجيز: 1/244.
(6) ابن عطية، المحرَّر الوجيز: 1/244.
(7) أبو حيّان، البحر المحيط: 2/129.
(8) النّيسابوريّ، غرائب القرآن: 1/480.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿فَٱرۡتَدَّا عَلَىٰٓ ءَاثَارِهِمَا قَصَصٗا ٦٤﴾ [الكهف: 64]، وَقِيلَ: إِنَّ الْقِصَاصَ مَأْخُوذٌ مِنَ الْقَصِّ، وَهُوَ الْقَطْعُ، يُقَالُ: قَصَصْتُ مَا بَيْنَهُمَا: أَيْ: قَطَعْتُهُ[1]، فالقِصاصُ: مُقابَلَةُ الشّيْءِ بِمِثْلِهِ؛ أَخْذًا لحقّ المقتول من القاتل.

أداء الأمانة على وجهها الأكمل تجسيدٌ للمروءة والخشية

3) ﴿وَأَدَآءٌ﴾: "الأداء: دفع الحق دفعةً وتوفيته، كأداء الخراج والجِزية وأداء الأمانة، قال الله تعالى: ﴿فَلۡيُؤَدِّ ٱلَّذِي ٱؤۡتُمِنَ أَمَٰنَتَهُۥ﴾ [البقرة: 283]، وقال: ﴿وَأَدَآءٌ إِلَيۡهِ بِإِحۡسَٰنٖۗ﴾، وأصل ذلك من الأداة، تقول: أدوت بفعل كذا، أي: احتلت، وأصله: تناولت الأداة الّتي بها يتوصّل إليه"[2]، قال السّمرقنديّ: "وَأداءٌ إِلَيْه بإحْسانٍ لا يبخسه، ولا يمطله، معناه: ولا يدفعه... والقاتل يؤدّي إليه نصيبه بإحسان"[3]، وقيل: المعنى: فمن عفي له من الواجب له على أخيه من قصاص وَليِّه شيء، فاتباع من الوليّ بمعروف وأداء من القاتل إلى الوليّ بإحسان، وهو قول مالك[4]، فالأداء دفع الحقّ لمستحقّ، تنفيذًا لأمر الحقّ.

المَعْنَى الإجْماليُّ:

الحثُّ على عفو أولياء الدّم؛ وقايةً من الثّأر المفضي إلى النّار

نداءٌ من اللّه سبحانه لعباده المؤمنين، بأنّه شرع لهم ما هو الخير لهم؛ ففرض اللّه عليكم - أيها المؤمنون - أنْ تقتصّوا من القاتل عمدًا بقتله، بشرط المساواة والمماثلة، فمَن سامحه وليُّ المقتول بالعفو عن الاقتصاص منه والاكتفاء بأخذ الدّية، فليلتزم الطّرفان بحسن الخُلُق، فيطالب الوليُّ بالدّية من غير عنف، ويدفع القاتل إليه حقَّه بإحسان، مِن غير تأخير ولا نقص، ذلك العفوُ مع أخذ

(1) الشّوكانيّ، فتح القدير: 1/201.
(2) الرّاغب، المفردات: (أدى).
(3) السّمرقنديّ، بحر العلوم: 1/118.
(4) مكيّ بن أبي طالب، الهداية إلى بلوغ النّهاية: 1/572.

الدّية تخفيف من ربكم ورحمة بكم؛ لما فيه من التّسهيل والانتفاع، فمَن قَتل القاتل بعد العفو عنه وأَخْذِ الدّية؛ فله عذاب أليم؛ بقتله قصاصًا في الدّنيا، أو بالنّار في الآخرة[1].

"وَمَقْصِدُ الآيَةِ التَّرْغِيبُ في الرِّضا بِأَخْذِ العِوَضِ عَنْ دَمِ القَتِيلِ؛ بَدَلًا مِنَ القِصاصِ، لِتَغْيِيرِ ما كانَ أَهْلُ الجاهِلِيَّةِ يَتَعَيَّرُونَ بِهِ، مِنْ أَخْذِ الصّلْحِ في قَتْلِ العَمْدِ، وَيُعِدُّونَهُ بَيْعًا لِدَمِ مَوْلاهُمْ"[2].

❁ مناسبة النّزول وسببه:

اختلاف أهل التّأويل في الآية على أربعة أقاويل، دليلٌ على أهميّتها وبلاغتها:

أهميّة تصحيح الإسلام لأعراف الجاهليّة في الدِّيَةِ والقصاص

اختلف أهل التّأويل في ذلك على أربعة أقاويل:

أحدها: أنّها نزلت في قوم من العرب، كانوا أعّزة أقوياء، لا يقتلون بالعبد منهم إلّا سيّدًا، وبالمرأة منهم إلّا رجلاً، استطالة بالقوّة وإدلالاً بالعزّة، فنزلت هذه الآية فيهم.

والثّاني: أنّها نزلت في فريقين: كان بينهما على عهد رسول الله ﷺ قتال، فقُتل من الفريقين جماعةٌ من رجال ونساء وعبيد، فنزلت هذه الآية فيهم، فجعل رسول الله الأكرم ﷺ دية الرّجل قصاصًا بديَةِ الرّجل، وديَة المرأة قصاصًا بديَة المرأة، وديَة العبد قصاصًا بدية العبد، ثمّ أصلح بينهم.

والثّالث: أنّ ذلك أمر من الله ﷻ بمقاصّة ديَة القاتل المـُقْتَصّ منه، بديَة المقتول المقتصّ له، واستيفاء الفاضل بعد المقاصة.

والرّابع: أنّ الله ﷻ فرض بهذه الآية في أوّل الإسلام، أنْ يُقْتَلَ الرّجل بالرّجل، والمرأة بالمرأة والعبد بالعبد، ثم نَسَخَ ذلك قولُه في سورة المائدة ﴿وَكَتَبۡنَا عَلَيۡهِمۡ فِيهَآ أَنَّ ٱلنَّفۡسَ بِٱلنَّفۡسِ﴾ [المائدة: 45][3].

(1) القنّوجي، فتح البيان: 1/352، والتّفسير الميسّر: ص27.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 2/142.
(3) الماورديّ، النّكت والعيون: 1/228-229.

❁ الإيْضاحُ اللُّغَويُّ والبَلاغِيُّ:

بيان وجه مناداة المؤمنين في الآية:

نـداء المؤمنين إشـعـارٌ بـأنّ الـخـطـاب الـذي يتلوه معنيٌّ به جدًّا

(يا) حرفٌ وُضِعَ في أصله لنداء البعيد، فإذا نودي به القريب المُفاطن فذلك للتأكيد المؤذنِ بأنّ الخطاب الذي يتلوه معنيٌّ به جدًّا[1].

وجه التعبير بهذا التّركيب النداءُ بالآكد الأبلغ

نادى اللّه تعالى عباده بهذا التّركيب ههنا وفي غيره من مواضع القرآن للدّلالة على أنّ ما يتلوه من خطاب خاصٌّ بالأمور العظام من الأوامر والنواهي، التي عليهم أن يتيقّظوا لها؛ فاقتضت الحال أن ينادَوا بالآكد الأبلغ[2].

توجيه الخطاب إلى المؤمنين للتّنبيه على أهميّة التّشريع المذكور في الآية

"أُعيد الخطاب بـ ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾؛ لأنّ هَذا صِنْفٌ مِنَ التَّشْريعِ لِأَحْكام ذاتِ بالٍ في صَلاحِ المُجْتَمَعِ الإِسْلامِيِّ واسْتِتْبابِ نِظامِهِ وأَمْنِه، حِينَ صارَ المُسْلِمُونَ بَعْدَ الهِجْرَةِ جَماعَةً ذاتَ اسْتِقْلالٍ بِنَفْسِها وَمَدِينَتِها"[3].

وجه إفادة ﴿كُتِبَ عَلَيۡكُمُ﴾ الوُجُوبَ:

دلالة (كتب) على الفرض، ومعنى الاسـتـعـلاء في (عليكم)، يـقـتـضـيـان الوجوب

معنى﴿كُتِبَ عَلَيۡكُمُ﴾: فُرِضَ عَلَيْكُمْ، ووجه اقتضاء هذه العبارة الوُجُوبَ: أَنَّ قَوْلَهُ تعالَى: ﴿كُتِبَ﴾ يُفِيدُ الوُجُوبَ في عُرْفِ الشّرْعِ، قال تَعالَى: ﴿كُتِبَ عَلَيۡكُمُ ٱلصِّيَامُ﴾، وَقَدْ كانَتِ الوَصِيَّةُ واجِبَةً، وَمِنْهُ الصّلَواتُ المَكْتُوباتُ[4]، فـ﴿كُتِبَ﴾ في عرف الشّرع يفيد الفرضيّة[5]، ولَفْظَةُ ﴿عَلَيۡكُمۡ﴾ بدلالتها على الاستعلاء مُشْعِرَةٌ بِالوُجُوبِ، كَما في قَوْلِهِ تَعالَى: ﴿وَلِلَّهِ عَلَى ٱلنَّاسِ حِجُّ ٱلۡبَيۡتِ﴾ [آل عمران: 97][6].

(1) الزمخشري، الكشاف: 1/89.
(2) الزمخشري، المصدر نفسه: 1/90.
(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 2/134.
(4) الرّازي، مفاتيح الغيب: 5/221.
(5) شيخ زاده، حاشية على البيضاويّ: 2/433.
(6) الرّازي، مفاتيح الغيب: 5/221.

المراد بالضّمير مجموع الأمّة، لا كُلّ فردٍ واحدٍ منهم

بيان المراد بالضّمير، في قوله تعالى: ﴿عَلَيۡكُمُ﴾:

عودُ الضميرُ في قوله: ﴿عَلَيۡكُمُ﴾ على مَجْمُوعِ الأُمَّة على الجُمْلَةِ ممَّنْ تَوَجَّهَ لَهُ حَقُّ القِصاصِ، وَلَيْسَ المُرادُ على كُلِّ فَرْدٍ القِصاص[1]، والقصاص لا يُقيمُه إلّا أولو الأمر، فلو تُرك لوليّ القتيل، تقع الفوضى في المجتمع، ويختلّ النّظام الاجتماعيّ[2].

استيعاب الدّلالة في هذه الآية لأحكام القصاص، هو عنوان بلاغتها

الدّلالات المحتملة في قوله تعالى: ﴿كُتِبَ عَلَيۡكُمُ ٱلۡقِصَاصُ فِي ٱلۡقَتۡلَىۖ﴾:

"قَوْلُهُ تَعالَى: ﴿كُتِبَ عَلَيۡكُمُ ٱلۡقِصَاصُ فِي ٱلۡقَتۡلَىۖ﴾ يَتَحَمَّلُ مَعْنَى الجَزاءِ على القَتْلِ بِالقَتْلِ لِلْقاتِلِ، وَتَتَحَمَّلُ مَعْنَى التّعادُلِ والتّماثُلِ في ذَلِكَ الجَزاءِ، بِما هُوَ كالعِوَضِ لَهُ والمِثْلِ، وَتَتَحَمَّلُ مَعْنَى أَنَّهُ لا يُقْتَلُ غَيْرُ القاتِلِ، مِمَّنْ لا شَرِكَةَ لَهُ في قَتْلِ القَتِيلِ"[3].

القصاص التّسوية والمماثلة في الأنفس والأطراف والجراحات، وأداة القتل

معنى المماثلة في الوصف والفعل:

يشترط في القصاص التّماثل في الوصف، بأنْ يكون مماثلًا له في وصفه من حرّيةٍ وإسلام، فمدار القِصاص، على كون القاتل مثل المقتولِ أو أدنى، فإنْ كان أعلى منه، إمّا بالدّين أو الحرّية فلا قود[4]، ووجه المماثلة في الفعل: أنّه لو قُتل بسيف، فإنّه يقتل به، وإنْ قُتل بغيره فبغيره[5]، فـ"القصاص أنْ يُفعَل بالإنسان مثلُ ما فَعَلَ، وهو عبارة عن التّسوية والمماثلة في الأنفس والأطراف والجراحات"[6].

معنى (في) السببيّة، أو للظّرفيّة المَجازيّة

معنى (في) في قوله تعالى: ﴿فِي ٱلۡقَتۡلَىۖ﴾:

وقوله: "في القَتْلى، أَيْ: بِسَبَبِ قَتْلِ القَتْلَى؛ لأنّ كَلِمَةَ (في)، قَدْ تُسْتَعْمَلُ لِلسَّبَبِيَّة"[7]، أو هي لِلظَّرْفِيَّة المَجازيَّة.

---

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 2/135.
(2) محمّد علي طه الدّرّة، تفسير القرآن وإعرابه وبيانه: 1/408.
(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 2/136.
(4) الصّاوي، حاشية الصّاوي على الجلالين: 1/75.
(5) الصّاوي، حاشية الصّاوي على الجلالين: 1/75.
(6) زاده، حاشية على البيضاويّ: 2/433.
(7) الرّازيّ، مفاتيح الغيب: 5/222، والقنّوجي، فتح البيان: 1/352.

بلاغة الحذف في قوله تعالى: ﴿فِى ٱلۡقَتۡلَىۖ﴾:

وجه الحذف الإيجاز والتعميم

ولأنّ القِصاصَ لا يَكُونُ في ذَواتِ القَتْلَى، فَتَعَيَّنَ تَقْدِيرُ مُضافٍ وَحَذْفُهُ في قوله تعالى: ﴿فِى ٱلۡقَتۡلَىۖ﴾؛ لِيَشْمَلَ القصاص سائِر شؤون القَتْلَى، وَسائِرَ مَعانِي القِصاصِ، فَهُوَ إِيجازٌ وَتَعْمِيمٌ[1].

قصديّة التعبير بلفظ ﴿ٱلۡقَتۡلَىۖ﴾:

جاء به على هذا البناء لكونه ممّا يدخل على النّاس المساءة

قوله تعالى: ﴿فِى ٱلۡقَتۡلَىۖ﴾، جمع قتيل، لفظه مؤنّث تأنيث الجماعة، وهو ممّا يدخل على النّاس المساءة؛ فلذلك جاء على هذا البناء، كجرحى، وزمنى، وحمقى، وصرعى، وغرقى، وما شابهها[2].

علّة إيثار جمع ﴿ٱلۡقَتۡلَىۖ﴾ على المفرد:

إيثار الجمع على اعتبار أنَّ الخطاب موجّه للأمّة جميعًا

آثَرَ الجمع في قوله تعالى: ﴿فِى ٱلۡقَتۡلَىۖ﴾، باعتبار أنَّ الخطاب موجّه للأمّة جميعًا، قال ابن عاشور: "وَجَمْعُ القَتْلَى بِاعْتِبارِ جَمْعِ المُخاطَبِينَ، أَيْ: في قَتْلاكُمْ"[3]، كما نلاحظ: أنّ الألف واللّام لجنس القتلى، فهو شاملٌ عامّ، لكلّ قتيل بعد هذه الآية، وعزّزه أنَّ: "التَّعْرِيف في القَتْلَى تَعْرِيفُ الجِنْسِ"[4].

فائدة القيد بوصف الحريّة والعبديّة:

مَفْهُومُ القَيْدِ يَقْتَضِي أَنَّ الحُرَّ يُقْتَلُ بِالحُرِّ لا بِغَيْرِهِ، لكنّه غَيْرُ مَعْمُولٍ بِهِ

أفاد قوله تعالى: ﴿ٱلۡحُرُّ بِٱلۡحُرِّ وَٱلۡعَبۡدُ بِٱلۡعَبۡدِ﴾ بمنطوقه، أنَّ الحرَّ يُقتل بالحرّ، والعبدَ يُقتل بالعبدِ، وليس فيه ما يدلُّ على أنَّ الحرَّ لا يُقتل بالعبد[5]، فـ"مَفْهُومُ القَيْدِ مَعَ ما في الحُرِّ والعَبْدِ والأُنْثَى، مِنْ مَعْنَى الوَصْفِيَّةِ، يَقْتَضِي أَنَّ الحُرَّ يُقْتَلُ بِالحُرِّ لا بِغَيْرِهِ، والعَبْدَ

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 2/137.
(2) الدّرّة، تفسير القرآن الكريم وإعرابه وبيانه: 1/408.
(3) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 2/137.
(4) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 2/137.
(5) القنّوجيّ، فتح البيان: 1/353.

يُقْتَلُ بِالعَبْدِ لا بِغَيْرِهِ، والأُنْثَى تُقْتَلُ بِالأُنْثَى لا بِغَيْرِها، وَقَدِ اتَّفَقَ عُلَماءُ الإِسْلامِ، على أَنَّ هَذا المَفْهُومَ غَيْرُ مَعْمُولٍ بِهِ بِاطِّرادٍ"[1].

فائدة القيد هنا نفي دلالة الحصر، وإبطال ما كان أهل الجاهليّة عليه

قَوْلُهُ تَعالَى: ﴿ٱلْحُرُّ بِٱلْحُرِّ﴾ لا يُفِيدُ الحَصْرَ البَتَّةَ، بَلْ يُفِيدُ شَرْعَ القِصاصِ بَيْنَ المَذْكُورِينَ مِنْ غَيْرِ أَنْ يَكُونَ فِيهِ دَلالَةٌ على سائِرِ الأَقْسامِ؛ لأنّ قَوْلَهُ: ﴿وَٱلْأُنثَىٰ بِٱلْأُنثَىٰ﴾، يَقْتَضِي قِصاصَ المَرْأَةِ الحُرَّةِ بِالمَرْأَةِ الرَّقِيقَةِ، فَلَوْ كانَ قَوْلُهُ: الحُرُّ بِالحُرِّ، والعَبْدُ بِالعَبْدِ مانِعًا مِنْ ذَلِكَ؛ لَوَقَعَ التَّناقُضُ"[2]، "وتقريرُ الجواب: أنّ الآية، إنّما تدلّ على مشروعيّة القصاص، عند تحقُّق الموافقة بين القاتل والمقتول ذكورة وحرِّيّة، ولا تدلّ بمفهومها على انتفاء القصاص عند اختلافهما، بحسب الذُّكورة أو الحرِّيّة؛ لأنّ القول بالمفهوم إنّما هو على تقدير ألَّا يظهر للتَّقييد فائدة سوى الدّلالة على انتفاء الحكم عنه، عند انتفاء القيد، وهو له فائدة هنا، وهي إبطال ما كان أهل الجاهليّة عليه[3].

وجه إفراد الأنثى بالذكر:

وجه إفراد الأنثى بالذّكر التأكيدُ، والتهمُّمُ بإذهاب أمر الجاهليّة

وجه إفراد الأنثى بالذّكر، وهي مشمولة في قوله: ﴿ٱلْحُرُّ بِٱلْحُرِّ﴾، في قوله ﷻ: ﴿ٱلْحُرُّ بِٱلْحُرِّ وَٱلْعَبْدُ بِٱلْعَبْدِ وَٱلْأُنثَىٰ بِٱلْأُنثَىٰ﴾؛ أنّه يراد بالحرّ الجنس، فيشمل الذّكر والأنثى، وأُعيد ذِكر الأُنْثى تأكيدًا، وتهمُّمًا بإذهاب أمر الجاهليّة[4].

تخصيص الأُنْثَى بِالذِّكْرِ لدفع توهّم إرادة خصوص الذكور، وتأكيدًا على عصمة دمها

وَخُصَّتِ الأُنْثَى بِالذِّكْرِ مَعَ أَنَّها مَشْمُولَةٌ لِعُمُومِ الحُرِّ بِالحُرِّ والعَبْدِ؛ لِئَلّا يُتَوَهَّمَ أَنَّ صِيغَةَ التَّذْكِيرِ في قَوْلِهِ: ﴿ٱلْحُرُّ﴾، وَقَوْلِهِ: ﴿ٱلْعَبْدُ﴾ مُرادٌ بِها خُصُوصُ الذُّكُورِ[5]. فـ"خَصَّصَ الأُنْثَى بِالأُنْثَى؛ لِلدَّلالَةِ على أَنّ دمها مَعْصُومٌ"[6].

---

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 2/137.
(2) الرّازي، مفاتيح الغيب: 5/224.
(3) زاده، حاشية على البيضاويّ: 2/435.
(4) ابن عطيّة، المحرَّر الوجيز: 1/245.
(5) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 2/137.
(6) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 2/139.

دلالة الفاء في ﴿فَمَنۡ عُفِيَ لَهُۥ﴾

معنى التفريع في الفاء الإشارة إلى أنّ الأوْلى قبولُ الصّلْح؛ استبقاءً لأواصر الأُخُوَّة الإسلاميّة

معنى الفاء في قوله تعالى: ﴿فَمَنۡ عُفِيَ لَهُۥ مِنۡ أَخِيهِ شَيۡءٞ﴾ [البقرة: 178]؛ لِتفْريع الإخبار، أَيْ: لِمُجَرَّدِ التَّرْتِيبِ اللَّفْظِيِّ، لا لِتفْريع حُصُول ما تَضَمَّنَتْهُ الجُمْلَةُ المَعْطُوفَةُ بها، على حُصُولِ ما تَضَمَّنَتْهُ ما قَبْلَها، والمَقْصُودُ بَيانُ أَنَّ أَخْذَ الوَلِيِّ بالقِصاصِ المُسْتَفادِ مِنْ صُوَرِ ﴿كُتِبَ عَلَيۡكُمُ ٱلۡقِصَاصُ فِي ٱلۡقَتۡلَىۖ﴾ لَيْسَ واجِبًا عَلَيْهِ، وَلَكِنَّهُ حَقٌّ لَهُ فَقَطْ؛ لِئَلّا يُتَوَهَّمَ مِنْ قَوْلِهِ: ﴿كُتِبَ عَلَيۡكُمُ﴾، أَنَّ الأَخْذَ بِهِ واجِبٌ على وَلِيِّ القَتِيلِ، والتَّصَدِّي لِتَفْرِيعِ ذِكْرِ هَذا بَعْدَ ذِكْرِ حَقِّ القِصاصِ، لِلْإِيماءِ إلى أَنَّ الأَوْلَى بِالنّاسِ قَبُولُ الصّلْحِ؛ اسْتِبْقاءً لِأَواصِرِ أُخُوَّةِ الإِسْلامِ"[1].

إيثار الفعل ﴿عُفِيَ﴾ دون غيره:

إيثار الفعل (عفا) لأنَّه يُؤْذِنُ بِمُراعاةِ التَّيْسيرِ والسّماحَةِ

إيثارُ الفِعْلِ (عفا) في قوله: ﴿فَمَنۡ عُفِيَ لَهُۥ مِنۡ أَخِيهِ شَيۡءٞ﴾؛ لأَنَّه يُؤْذِنُ بِمُراعاةِ التَّيْسِيرِ والسّماحَةِ، وَهِيَ مِنْ خُلُقِ الإِسْلامِ، فَهَذا تَأْكِيدٌ لِلتَّرْغِيبِ الَّذي دَلَّ عَلَيْهِ قَوْلُهُ: ﴿مِنۡ أَخِيهِ﴾"[2]، وإذا اجتمع الذّنب والجاني، يقال: عفوت له عن ذنبه.

وجه تعدية (عفا) باللّام دون عن:

وجه التَّعدية باللّام أنّه تعدّى إلى الذّنب والجاني معًا

المشهور في ﴿عُفِيَ﴾ أنّه يَتَعَدَّى بِـ(عَنْ) لا باللّام، لكنّه تعدّى في قَوْلِهِ: (فَمَنْ عُفِيَ لَهُ)، باللام، وتوجيه ذلك: أنّه "يتعدَّى ب(عنْ) إلى الجاني وإلى الذّنب، فيقال: عفوتُ عن فلان وعن ذنبه، قال اللّٰه تعالى: ﴿عَفَا ٱللَّهُ عَنكَ﴾، وقال: ﴿عَفَا ٱللَّهُ عَنۡهَاۗ﴾، فإذا تعدّى إلى الذّنب والجاني معًا، قيل: عفوتُ لفلان عمّا جنى، كما تقول: غفرتُ له ذنبه، وتجاوزتُ له عنه، وعلى هذا ما في الآية، كأنَّه قيل: فمن عُفي لهُ عند جنايته، فاستغنى عن ذكر الجناية"[3].

---

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 2/140.

(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 2/141.

(3) الزّمخشريّ، الكشّاف: 1/221، 222، والبيضاوي، أنوار التّنزيل: 1/122، والرّازيّ، مفاتيح الغيب: 5/226-227.

ذكر لفظ الأُخوّة للتّذكير بأنّ التّوافُق في الدّين آصِرَةٌ نَفسانِيَّةٌ قويّة

وجه استعمال الأخوّة ودلالتها:

المقصود من لفظ الأخ في الآية الكريمة: ﴿فَمَنۡ عُفِيَ لَهُۥ مِنۡ أَخِيهِ شَيۡءٞ﴾ وليُّ المقتول، وقيل: له أخوه؛ لأنَّه لابَسَهُ، من قبل أنّه وليُّ الدّم ومطالبُه به، أو ذكره بلفظ الأخوّة، ليعطف أحدهما على صاحبه، بذكر ما هو ثابت بينهما من الجنسيّة والإسلام"[1]؛ "ليرقَّ له، ويعطفَ عليه"[2]، وَإِطْلاقُ وَصْفِ الأَخِ على الـمُماثِلِ في دِينِ الإِسْلامِ، تَأْسِيسُ أَصْلٍ جاءَ بِهِ القُرْآنُ، بجَعْلِ التّوافُقِ في العَقِيدَةِ، كالتّوافُقِ في نَسَبِ الأُخُوَّةِ، بوصف التّوافُقِ في الدِّينِ آصِرَةً نَفْسانِيَّةً، والتّوافُقِ في النَّسَبِ آصِرَةً جَسَدِيَّةً، والرُّوحُ أَشْرَفُ مِنَ الجَسَدِ[3].

تنكير (شيء) للتقليل، وفيه بيانُ أَنَّ العَفْوَ عَنْ الجُزْء، كالعَفْوِ عَنْ الكُلّ

بيانُ وجه تنكير ﴿شَيۡءٞ﴾:

تنكير ﴿شَيۡءٞ﴾ في قوله تعالى: ﴿فَمَنۡ عُفِيَ لَهُۥ مِنۡ أَخِيهِ شَيۡءٞ﴾؛ للتَّقليل، فيتناولُ العفوَ من الشّيء اليسير من الدّية، والعفوَ الصّادر عن فرد من أفراد الورثة[4]، وفيه فائدَة عَظِيمَة؛ لأَنَّه يَجُوزُ أَنْ يُتَوَهَّمَ أَنَّ العَفْوَ لا يُؤَثِّرُ في سُقُوطِ القَوَدِ، إِلّا أَنْ يَكُونَ عَفْوًا عَنْ جَمِيعِهِ، فَبَيَّنَ تَعالَى أَنَّ العَفْوَ عَنْ جُزْئِهِ، كالعَفْوِ عَنْ كُلِّهِ، في سُقُوطِ القَوَدِ، وَعَفْوُ بَعْضِ الأَوْلِياءِ عَنْ حَقِّهِ، كَعَفْوِ جَمِيعِهِمْ عَنْ حقِّهِمْ، فَلَوْ عَرَّفَ (الشّيْءَ)؛ كانَ لا يُفْهَمُ مِنْهُ ذَلِكَ، فَلَمّا نَكَّرَهُ صارَ هَذا المَعْنَى مَفْهُومًا مِنْهُ[5].

فائدة تنكير (شيء) الإشعار بأنّ بعض العفو، كالعفو التّامّ في إسقاط القصاص

ووجه هذا الإشعار، بأنّه إذا عفي له طرفٌ من العفو وبعض منه، بأن يعفى عن بعض الدّم، أو عفا عنه بعض الورثة، تمّ العفو، وسقط القصاص، ولم تجب إلّا الدّية"[6]، فإنَّ "بعض العفو، كالعفو التّامّ،

(1) الزّمخشريّ، الكشّاف: 1/221.
(2) البيضاويّ، أنوار التّنزيل: 1/122.
(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 2/142.
(4) القنّوجي، فتح البيان: 1/354.
(5) الرّازي، مفاتيح الغيب: 5/227.
(6) الزّمخشري، الكشّاف: 1/222.

في إسقاط القصاص"[1]، "والبَعْضيَّةُ إنّما تُتصوَّرُ بأحدِ شيئين: بأن يعفوَ الورثة كلُّهم بعضَ الدّمِ، أو أن يعفوَ بعضُ الورثةِ حقَّه بتمامه"[2].

عبّر عن العوض بالشّيء؛ ليشمل كلَّ ما يجوز أن يكون عوضًا

عبّر عَنْ عِوَضِ الدّم بـ﴿شَيۡءٞ﴾؛ لاختلاف العِوَض، وتنوّعه، فَقَدْ يُعْرَضُ على وَلِيِّ الدّم مالٌ، مِنْ ذَهَبٍ أَوْ فِضَّةٍ، وَقَدْ يُعْرَضُ عَلَيْهِ إِبِلٌ أَوْ عَرُوضٌ، أَوْ مُقاصَّةُ دِماءٍ بَيْنَ الحَيَّيْنِ؛ إِذْ لَيْسَ العِوَضُ في قَتْلِ العَمْدِ مُعَيَّنًا، كَما هُوَ في دِيَةِ قَتْلِ الخَطَأِ[3].

معنى (مَنْ) في قوله تعالى: ﴿فَمَنۡ عُفِيَ لَهُۥ مِنۡ أَخِيهِ شَيۡءٞ﴾:

العفو عن الدّم بلسمٌ يشفي جراح القلوب، ويزيل الضّغائن

يصحُّ أنْ تكون (مَنْ) موصولة، وشرطيّة، ومعنى الموصولة: فالشّخص الّذي ترك له شيء من دم أخيه، فاتّباع بالدّية بالمعروف، وقُرِنَ بالفاء لما في المبتدأ من معنى الشّرط، ومعنى الشّرطية: فأيّ شخص تُرك له شيءٌ من دم أخيه؛ فقد بطل القتل، فلا مطالبة به[4]، ووجب الاتّباعُ بالمعروف، والأداء بإحسان.

بيان الحذف في الجملة في قوله: ﴿فَٱتِّبَاعُۢ بِٱلۡمَعۡرُوفِ﴾:

الاتّباعُ بالمعروف، أمر الله لإصلاح ذات البين وجبر الخواطر

"قَوْلُهُ: ﴿فَٱتِّبَاعُۢ بِٱلۡمَعۡرُوفِ﴾ رَفْعٌ؛ لأَنَّه خَبَرُ مُبْتَدَأ مَحْذُوف، وَتَقْديرُهُ: فَحُكْمُهُ اتِّباعٌ، أَوْ هُوَ مُبْتَدَأٌ خَبَرُهُ مَحْذُوفٌ، تَقْديرُهُ: فَعَلَيْهِ اتِّباعُ بِالمَعْرُوفِ"[5]، "﴿فَٱتِّبَاعُۢ بِٱلۡمَعۡرُوفِ﴾، فليكن اتّباعٌ، أو فالأمر اتّباعٌ"[6].

وجه العدول عن المفعول المطلق إلى الإخبار:

العدول إلى الإخبار بالجملة الاسميّة يفيد الثّبات والتّحقق

لقد عدل إلى الرّفع في قوله: ﴿فَٱتِّبَاعُۢ بِٱلۡمَعۡرُوفِ﴾؛ لتقدير جملة اسميّة؛ لإفادة الثّبات والتّحقيق، قال ابن عاشور: "﴿فَٱتِّبَاعُۢ﴾ وَ﴿وَأَدَآءٌ﴾: مَصْدَرانِ وَقَعا عِوَضًا عَنْ فِعْلَيْنِ، والتّقْديرُ: فَلْيَتَّبِعِ اتِّباعًا،

---

(1) البيضاوي، أنوار التّنزيل: 1/122.

(2) الطّيبيّ، فتوح الغيب: 3/214.

(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 2/141.

(4) الصّاويّ، حاشية الصّاوي على الجلالين: 2/75.

(5) الرّازيّ، مفاتيح الغيب: 5/228.

(6) الزّمخشريّ، الكشّاف: 1/222.

وَلْيُؤَدِّ أداءً، فَعَدَلَ عَنْ أَنْ يَنْصِبَ على المَفْعُوليَّةِ المُطْلَقَةِ إلى الرَّفْعِ؛ لِإفادَةِ مَعْنَى الثَّباتِ، والتَّحْقِيق الحاصِل بِالجُمْلَةِ الاسْمِيَّةِ"[1].

توجيه عود الضّمير على العافي:

عود الضمير وصيّةٌ للعافي بطلب الدّية برفق، وللجاني بتأديتها بصدق، وفي ذلكم حفظٌ للعلائق بين الطّرفين

الهاء في قَوْلِه: ﴿وَأَدَآءٌ إِلَيۡهِ بِإِحۡسَٰنٖۗ﴾، ضَمِيرٌ عائِدٌ إلى مَذْكُورٍ سابِقٍ، هُوَ العافي، فَوَجَبَ أداءُ هَذا المالِ إليه[2]، وهي توصية للمعفوِّ عنه والعافي جميعًا، العافي: بأن يطلب الدّية بالمعروف، فلا يعنّف، والمعفوّ عنه: بأنْ يؤدّيها بالإحسان، وهو ألَّا يمطل، ولا يبخس"[3]، وفي ذلكم حفظٌ للعلائق بين الاثنين، ونشرٌ للسّلام في المجتمع.

فائدة استعمال حرف الجرّ (إلى) في قَوْلِه: ﴿وَأَدَآءٌ إِلَيۡهِ بِإِحۡسَٰنٖۗ﴾:

معنى انتهاء الغاية وجوب إيصال مال الصّلْح إلى وليّ المَقْتُولِ، بِأَنْ يَذْهَبَ بِهِ إلَيْهِ وعدم تكليفه الحضور

الأَداءُ: الدَّفْعُ وَإِبْلاغُ الحَقِّ، والمُرادُ بِهِ إعْطاءُ مالِ الصّلْحِ، وَذَكَرَ مُتَعَلِّقَهُ، وَهُوَ قَوْلُهُ: ﴿إِلَيۡهِ﴾ المتضمّن معنى (انتهاء الغاية) المُؤْذِنُ بِالوُصُولِ إلَيْهِ، والانْتِهاءِ إلَيْهِ، لِلْإِشارَةِ إلى إبْلاغِ مالِ الصّلْحِ وإيصاله إلى وليّ المَقْتُولِ، بِأَنْ يَذْهَبَ بِهِ إلَيْهِ، وَلا يُكَلِّفَهُ الحُضُورَ بِنَفْسِهِ لِقَبْضِهِ، أَوْ إرْسالَ مَنْ يَقْبِضُهُ، وَفِيهِ إشارَةٌ إلى أَنَّهُ لا يَمْطُلُهُ، وَزادَ ذَلِكَ تَقْرِيرًا، بِقَوْلِهِ: ﴿بِإِحۡسَٰنٖۗ﴾، أَيْ: دُونَ غَضَبٍ، وَلا كَلامٍ مؤذٍ، أَوْ جَفاءِ مُعامَلَةٍ[4].

بيان التعبير باسم الإشارة ﴿ذَٰلِكَ﴾:

وجه التّخفيف بالاختيار بين القصاص والدّية والعفو

وجه الابتداء بالمشار إليه (ذلك) في قوله تعالى: ﴿ذَٰلِكَ تَخۡفِيفٞ مِّن رَّبِّكُمۡ وَرَحۡمَةٞۗ﴾ تعظيمٌ للمنّة، وفي بيانه قولان: أَحَدُها: أَنَّ المُرادَ بِقَوْلِهِ: ﴿ذَٰلِكَ﴾ أَيِ: الحُكْمُ بِشَرْعِ القِصاصِ والدِّيَةِ تَخْفِيفٌ في حَقِّكُمْ، وَثانِيها: أَنَّ قَوْلَهُ: ذلِكَ راجِعٌ إلى قَوْلِهِ: فاتِّباعٌ بِالمَعْرُوفِ وَأَداءٌ إلَيْهِ

---

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 2/141.

(2) الرّازي، مفاتيح الغيب: 5/226.

(3) الزّمخشريّ، الكشّاف: 1/222، والبيضاويّ، أنوار التّنزيل: 1/122.

(4) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 2/143.

بِإِحْسانٍ[1]، أي: لمّا وسَّع اللّه سبحانه وتعالى حكم القصاص بالقتلى نبّه على علّته تعظيماً للمنّة فقال: ﴿ذَٰلِكَ﴾، أي: الأمر العظيم، الرّفق، وهو التخيير بين القصاص والعفو مجّانًا، وعلى الدّية[2].

وجه الجمع بين القصاص والرّحمة:

إنجاز القصاص عَدْلٌ، والعفوُ عن الجاني رحمة؛ تمنع الثّأر منه بعد ذلك

في قوله تعالى: ﴿ذَٰلِكَ تَخۡفِيفٞ مِّن رَّبِّكُمۡ وَرَحۡمَةٞۗ﴾ "تَخفِيفٌ مِنَ اللّه على النّاسِ، فَهُوَ رَحمَةٌ مِنهُ، أَيْ: أَثَرُ رَحمَتِه؛ إِذِ التّخفِيفُ في الحُكْمِ أَثَرُ الرَّحمَةِ، فالأَخْذُ بِالقِصاصِ عَدْلٌ، والأَخْذُ بِالعَفْوِ رَحمَةٌ"[3]، فهو جمع بين العدل والرّحمة.

نكتة تقديم العدل على الرّحمة:

العَدْلُ في حفظ الدّماء، ونيل الجزاء مُقَدَّمٌ، والرَّحْمَةُ تأْتِي بَعْدَهُ

قال ابن عاشور في نكتة تقديم العدل على الرّحمة: " وَلَمّا كانَتْ مَشْرُوعِيَّةُ القِصاصِ كافِيَةً في تَحْقِيقِ مَقْصَدِ الشّرِيعَةِ في شَرْعِ القِصاصِ، مِن ازْدِجارِ النّاسِ عَنْ قَتْلِ النُّفُوسِ، وَتَحْقِيقِ حِفظِ حَقِّ المَقتُولِ، بِكَوْنِ الخِيرَةِ لِلوَلِيِّ، كانَ الإِذْنُ في العَفْوِ؛ إِنْ تَراضَيا عَلَيْهِ، رَحْمَةً مِنَ اللّهِ بِالجانِبَيْنِ، فالعَدْلُ مُقَدَّمٌ، والرَّحْمَةُ تَأْتِي بَعْدَهُ"[4].

قصديّة التعبير باسم الإشارة في قوله ﴿بَعۡدَ ذَٰلِكَ﴾:

التعبير باسم الإشارة للنأي عن الاعتداء

ولاسم الإشارة دلالة على النّأي عن الاعتداء في قوله: ﴿فَمَنِ ٱعۡتَدَىٰ بَعۡدَ ذَٰلِكَ فَلَهُۥ عَذَابٌ أَلِيمٞ﴾؛ حماية للقاتل بعد العفو عنه، وحماية لأولياء الدّم، حتّى لا تأخذهم العزّة بالإثم، فيقوموا بعمل طائشٍ، يفسد العفو، ويقوّض الصّلح، ويؤجّج الفتنة تارة أخرى؛ لأنّ أَهْلَ الجاهِلِيَّة كانوا يأمّنونَ القاتلَ بالعفْوِ، وَأَخذِ الدّيَةَ، فإذا ظَفِرُوا به بَعْدَ ذَلِكَ قَتَلُوهُ، فَنَهَى اللّهُ عَنْ ذَلِكَ[5].

(1) الرّازي، مفاتيح الغيب: 5/228.
(2) البقاعي، نظم الدرر: 3/28.
(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 2/143.
(4) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 2/143.
(5) الزّمخشريّ، الكشّاف: 1/222، والرّازيّ، مفاتيح الغيب: 5/228.

وجه إطلاق العذاب الأليم وعدم تخصيصه:

عدم تخصيص العذاب الأليم بإحدى الدّارين إعلامٌ بشياعه في كليهما

اختلف في المراد من العذاب الأليم: أهو عذاب الآخرة؟ أم هو القَتْلُ قصاصًا، وعدم قبول الدّية؟[1]، وذهب البقاعي إلى أنّ "في تسمية جزائه بالعذاب وعدم تخصيصه بإحدى الدارين إعلامٌ بشياعه في كليهما تغليظاً عليه"[2]، وفي ذِكْرِ اللّهِ تعالى لهَذا الحُكْم بَعْدَ ذِكْرِ الرَّحْمَةِ دَلِيلٌ على أَنَّ هَذا الجانيَ غَيْرُ جَدِيرٍ هذه المَرَّةِ بِمَزِيدِ الرَّحْمَةِ[3].

(1) الرّازي، مفاتيح الغيب: 5/228، والقنّوجيّ، فتح البيان: 1/356.

(2) البقاعي، نظم الدرر: 3/29.

(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 2/144.

﴿وَلَكُمۡ فِي ٱلۡقِصَاصِ حَيَوٰةٞ يَٰٓأُوْلِي ٱلۡأَلۡبَٰبِ لَعَلَّكُمۡ تَتَّقُونَ ١٧٩﴾ [البقرة: 179]

۞ مُناسَبَةُ الآيَةِ لِمَا قَبْلَها:

حيـاة الأمّــة في تطبيق القصاص بعدلٍ وحَزْمٍ

"اعْلَمْ أَنَّهُ سُبْحانَهُ وَتَعالَى، لَمّا أَوْجَبَ في الآيَةِ المُتَقَدِّمَةِ القِصاص، وَكانَ القِصاصُ مِنْ بابِ الإِيلامِ؛ تَوَجَّهَ فِيهِ سُؤالٌ، وَهُوَ أَنْ يُقالَ: كَيْفَ يَلِيقُ بِكَمالِ رَحْمَتِهِ، إيلامُ العَبْدِ الضَّعِيفِ؟ فَلأَجْلِ دَفْعِ هَذا السّؤالِ، ذَكَرَ عقيبَهُ حِكْمَةَ شَرْعِ القِصاصِ، فَقالَ: ﴿وَلَكُمۡ فِي ٱلۡقِصَاصِ حَيَوٰةٞ يَٰٓأُوْلِي ٱلۡأَلۡبَٰبِ لَعَلَّكُمۡ تَتَّقُونَ﴾ "[1].

۞ شَرْحُ المُفْرَدَاتِ:

1) ﴿ٱلۡأَلۡبَٰبِ﴾: "﴿ٱلۡأَلۡبَٰبِ﴾ جمع لبٍّ، وهو العقل، وقيّده بعضهم بكونه خاليًا من الشّوائب، ولبّ كلّ شيءٍ خالصُهُ، سمّي بذلك؛ لكونه خالصَ ما في الإنسان من قوّةٍ، كاللّباب من الشّيء، وقيل: هو ما زكا من العقل؛ فهو أخصّ منه، وكلّ لبٍّ عقل، وليس كلّ عقلٍ لبًّا"[2]، واللُّبُّ: العقل، والجمع الألباب، وقد جمع على ألبّ، كما جمع بؤس على أبؤس، ونعم على أنعم... واللّبيب: العاقل، والجمع أَلِبَّاءُ، وقد لَبِبْتَ يا رجل -بالكسر- تَلَبُّ لَبابَةً، أي: صرت ذا لُبٍّ، وحكى يونس بن حبيب: لَبُبْتُ بالضّم، وهو نادر، لا نظير له في المضاعف، ولبُّ النّخل: قلبها. وخالص كلّ شيء لبُّهُ، ولُبُّ الجَوْزِ واللّوز ونحوِهما: ما في جوفه، والجمعُ اللُّبوب[3]، ومن المجاز: هو ذو لبّ، وهو من أولي الألباب، وهو لبيب من الألبّاء، وقد لبّ يلبُّ لبابةً، وأخذ لبابه: خالصه، وهو من لباب الإبل، ورجل لباب من قوم لباب، وحسب لباب، قال:

أَلَيْسَ بِذِي المَكَارِمِ فِي قُرَيْشٍ *** إِذَا عُدَّتْ وَذِي الحَسَبِ اللُّبَابِ[4]

(1) الرّازيّ، مفاتيح الغيب: 5/228-229.

(2) السّمين، عمدة الحفّاظ: (لبب).

(3) الجوهريّ، الصّحاح: (لبب).

(4) الزّمخشريّ، أساس البلاغة: (لبب).

2) ﴿تَتَّقُونَ﴾: من الجذر (وَقَيَ): "وقد توَقَّيْتُ، واتَّقَيْتُ الشَّيْءَ، وتَقَيْتُه، أَتَّقِيه، وأَتْقِيه تُقًى، وتَقِيَّةً، وتِقاء: حَذِرْتُه، الأَخيرة عَنِ اللِّحْيَانيِّ، وَالاسْمُ التَّقْوى، التَّاءُ بَدَلٌ مِنَ الْوَاوِ، وَالْوَاوُ بَدَلٌ مِنَ الْيَاءِ، وَفِي التَّنْزِيلِ الْعَزِيزِ: ﴿وَءَاتَىٰهُمْ تَقْوَىٰهُمْ ۝١٧﴾ [محمد: 17]، أَي: جَزَاءُ تَقْواهم، وَقِيلَ: مَعْنَاهُ أَلهَمَهُم تَقْواهم، وَقَوْلُه تَعَالَى: ﴿هُوَ أَهْلُ ٱلتَّقْوَىٰ وَأَهْلُ ٱلْمَغْفِرَةِ ۝٥٦﴾ [المدثر: 56]، أَي: هُوَ أَهلٌ أَن يُتَّقَى عِقابه، وأَهلٌ أَن يُعمَلَ بِمَا يُؤَدِّي إِلى مَغْفِرته، وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ ٱتَّقِ ٱللَّهَ﴾ [الأحزاب: 1]، مَعْنَاهُ: اثْبُت عَلَى تَقْوى اللّه، ودُمْ عَلَيْه، وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿إِلَّآ أَن تَتَّقُواْ مِنْهُمْ تُقَىٰةً﴾ [آل عمران: 28]، يَجُوزُ أَن يَكُونَ مَصْدَرًا، وأَن يَكُونَ جَمْعًا، وَالْمَصْدَرُ أَجود "[1]، والتَّقْوَى: "وَهِي الَّتِي يحصل بهَا الوقَايَة من النَّار، والفوز بدار الْقَرار، وَغَايَة التّقى الْبَرَاءَة من كلّ شَيْء سوى اللّه، ومبدؤه اتّقاء الشّرك، وأوسطه اتّقاء الْحَرَام، وَالتَّقوى مُنْتَهى الطَّاعَات، والرّهبة من مبادئ التَّقْوَى، وَقد تُسمّى التَّقْوَى: خوفًا وخشية، وَيُسمّى الْخَوْف: تقوى"[2].

۞ المَعْنى الإجْماليّ:

تشريع القصاص فيه حياةٌ للمؤمنين، وفيه اعتدالٌ لميزان الحياة

ولكم - يا أيُّها الّذين آمنوا - فيما شرعه اللّه من القصاص حياةٌ عظيمةٌ، إذ أوجب القصاص بسبب القتلى، بأن تقتلوا القاتل عقوبة له على جريمته مع مراعاة المساواة الّتي قرّرها الشّارع الحكيم، بأن يُفرض عند القتل الواقع على وجه التّعمُّد والتّعدّي، وعند مطالبة أولياء القتيل بالقَوَدِ، أي: القصاص من القاتل، وفي هذا: حقن دمائكم، ودفع الاعتداء بينكم، وفشوّ السّلام والأمان، يدرك ذلك أهل العقول الرّاجحة الخالية من الشّوائب؛ رجاء تقوى اللّه، وخشيته بالانقياد لشرعه، والعمل بأمره[3].

وهذا الّذي ذكره علماء الاجتماع والإناسة وعلم النّفس والقانون، من مختلف الملل والنّحل، وأقرّ به منطق التّاريخ، وتداعيَات الواقع المعيش في العالم.

---

(1) ابن منظور، لسان العرب: 15/402.

(2) الكفويّ، الكليّات، ص: 299.

(3) طنطاويّ، التّفسير الوسيط للقرآن الكريم: 1/368، والتّفسير الميسّر: ص 27، والمختصر في تفسير القرآن الكريم: ص27.

۞ الإيْضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغِيُّ:

بلاغة الإيجاز بالقصر:

إنّ في ارتفاع القتل بالقصاص حياةً للناس

في قوله تعالى: ﴿وَلَكُمۡ فِي ٱلۡقِصَاصِ حَيَوٰةٞ﴾ إيجازٌ بالقصر وهو ما ليس بحذفٍ؛ لأن المرادَ به أنَّ الإنسانَ إذا عَلِمَ أنّه متى قَتَلَ قُتِلَ كان ذلك باعثًا له قويًّا إلى أنْ لا يُقدمَ على القتال، فارتفعَ بالقتل الذي هو قصاصٌ كثيرٌ من قَتْلِ النّاسِ بعضِهم لبعض، فكان ارتفاعُ القتل حياةً لهم[1].

ويجوز أن يكون إيجازًا بالحذف على تقدير شرع القصاص

فـ" لَيْسَ الْمُرادُ مِنْ هَذِهِ الآيَةِ، أَنَّ نَفْسَ القِصاصِ حَياةٌ؛ لأنّ القِصاصَ إزالَةٌ لِلْحَياةِ، وَإِزالَةُ الشَّيْءِ يَمْتَنِعُ أَنْ تَكُونَ نَفْسَ ذَلِكَ الشَّيْءِ، بَلِ الْمُرادُ أَنَّ شَرْعَ القِصاصِ، يُفْضِي إلى الحَياةِ في حَقِّ مَنْ يُرِيدُ أَنْ يَكُونَ قاتِلًا، وَفِي حَقِّ مَنْ يُرادُ جَعْلُهُ مَقْتُولًا، وَفِي حَقِّ غَيْرِهِما أَيْضًا"[2]،

بلاغة جعل الشيء محلّ ضدّه:

جعل الضّدّ حاميًا لضدّه يستلزم أن يكون تحقّقُ أحدهما رافعًا للآخر

"وهذا نوع من البلاغة بليغ، وجنس من الفصاحة رفيع، فإنَّه جعل القصاص الّذي هو موتٌ حياةً، باعتبار ما يؤول إليه، من ارتداع النّاس عن قتل بعضهم بعضًا؛ إبقاء على أنفسهم، واستدامة لحياتهم، وقيل: إنَّ الحياة سلامة من القصاص في الآخرة، فإنَّه إذا اقتصَّ في الدّنيا لم يقتصّ عنه في الآخرة، والأوّل أولى"[3]، وهو كلام فصيح لما فيه من الغرابة، وهو أنّ القصاص قتلٌ، وتفويتٌ للحياة، وقد جُعل مكانًا وظرفًا للحياة، حيث جعل الشّيءَ محلَّ ضدِّه[4]، وإنّ ضدّيّة شيءٍ لآخر، تستلزم أن يكون تحقّقُ أحدهما رافعًا للآخر، والقصاص لاستلزامه ارتفاع الحياة ضدٌّ لها، وقد جُعل ظرفًا لها

(1) القزويني، الإيضاح في علوم البلاغة: 3/181.
(2) التّفسير الميسّر: 1/27، والمختصر في تفسير القرآن الكريم: 1/27.
(3) القنّوجي، فتح البيان: 1/357.
(4) الزّمخشريّ، الكشّاف: 1/222، والبيضاويّ، أنوار التّنزيل: 1/122، والقنّوجي، فتح البيان: 1/356.

تشبيهًا له بالمظروف الحقيقيّ، من حيث إنّ المظروف، إذا حواهُ الظّرفُ؛ لا يصيبُه ما يُخلُّ به، ويفسدُهُ، ولا هو يتفرّق، ويتلاشى بنفسه، كذلك القصاص يحمي الحياة من الآفات، فكان هذا الوجه بمنزلة الظّرف، ولا شكّ أنّ في جعل الضّدّ حاميًا لضدّه اعتبارًا في غاية الحُسن والغرابة الّتي هي من نكات البلاغة وطرقها[1].

بلاغة المجاز المرسل في جملة القصاص:

ارتفاعُ سببِ الموت ديمومة للحياة، والقصاص ضمانٌ للأمان

وجه المجاز المرسل في قوله تعالى: ﴿وَلَكُمۡ فِي ٱلۡقِصَاصِ حَيَوٰةٞ﴾ جَعْلُ ما هو تفويتٌ للحياة، وذهابٌ بها، ظرفًا لها؛ إذ القصاص مزجرة قويَّة، عن إقدام النّاس على القتل، فارتفع بسببه القتل عن النّاس، وارتفاعُ سببِ الموت ديمومة للحياة السّابقة[2].

فنّ الإرداف في جملة القصاص:

حياة الناس ردفٌ للقصاص الذي يتكافُّون عن القتال من أجله

في قوله تعالى: ﴿وَلَكُمۡ فِي ٱلۡقِصَاصِ حَيَوٰةٞ﴾ فنُّ الإرداف[3]؛ إذ إنّ الناس يتكافُّون عن الحرب من أجل القصاص فيحيَون، فكأنَّ حياتهم ردفٌ للقصاص الذي يتكافُّون عن القتال من أجله[4]. فتُرك اللفظ الدّال على المعنى، واستُعمل غيره للدلالة على الغرض.

فائدة تعريف لفظ ﴿ٱلۡقِصَاصِ﴾، وتنكير لفظ ﴿حَيَوٰةٞ﴾:

بالقصاص يرتدع القاتل، فتُصانُ حياة الأبرياء، ويزدجر البغاة

ذكر الزمخشريُّ أنَّ من إصابة محزّ البلاغة تعريف القصاص، وتنكير الحياة؛ لأنّ المعنى: ولكم في هذا الجنس من الحكم الّذي هو القصاص، حياة عظيمة لا يبلغها الوصف، وذلك أنّهم كانوا يقتلون بالواحد الجماعة، وكان يقتل بالمقتول غير قاتله، فتثور الفتنة، ويقع بينهم التّناحر، فلمّا جاء الإسلام بشرع القصاص؛ كانت فيه حياة،

(1) زاده، حاشية على البيضاويّ: 2/438.
(2) درويش، إعراب القرآن وبيانه: 1/254.
(3) الإرداف هو ما "يُتْرَكُ فيه اللّفظُ الذي يُدَلُّ به عادة على المعنى، ويُسْتَخْدَمُ تعبيرٌ غيره لتحقيق أغراضٍ فكريَّة ومعاني لا تُؤَدَّى بالتعبير المتروك". ينظر: الميداني، البلاغة العربية: 2/480.
(4) محمد عفيف رملي الإندونيسي، الشامل في بلاغة القرآن: 1/89.

وهي الحياة الحاصلة بالارتداع عن القتل، لوقوع العلم بالاقتصاص من القاتل؛ لأنَّه إذا همّ بالقتل، فعَلِمَ أنّه يُقتصّ فارتدع منه، سَلِمَ صاحبُه من القتل، وسَلِمَ هو من القَوَدِ، فكان القصاص سببَ حياة نَفْسَيْن[1].

بلاغة التعبير بـ ﴿وَلَكُمۡ فِي ٱلۡقِصَاصِ حَيَوٰةٞ﴾ دون غيرها من عبارات العرب:

العبارة القرآنيّة، أكثر إيجازًا، وبيانًا، وجمعًا للفوائد

اتَّفَقَ عُلَماءُ البَيانِ على أَنَّ هَذِهِ الآيَةَ في الإيجازِ مَعَ جَمْعِ المَعاني، بالِغَةٌ إلى أَعْلَى الدَّرَجاتِ؛ لأنّ العرب عبّروا عن هذا المعنى بألفاظ كثيرة، أَجْوَدُها قَوْلُهُمْ: (القَتْلُ أَنْفَى لِلقَتْلِ)، ولَفْظُ القُرْآنِ أَفْصَحُ مِنْ هَذا، وَبَيانُ التَّفاوُتِ مِنْ وُجُوهٍ[2]: أَحَدُها: أَنَّ الآية أَخْصَرُ، وأوجز، وأرشق تعبيرًا؛ لأنَّها أربع كلمات، وهي: (في، أل، قصاص، حياة)، وقول العرب ستٌّ، وهي: (أل، قتل، أنفى، وضميره؛ لأنَّه اسم مشتقٌّ، اللّام، قتل)؛ ولأنّ حروفها الملفوظة الثّابتة وقفًا ووصلاً، أحد عشر حرفًا، وحروف قول العرب أربعة عشر حرفًا؛ لأنّ قَوْلَهُ: (وَلَكُمْ)، لا يَدْخُلُ في هَذا البابِ؛ إِذْ لا بُدَّ للتعبيرين مِنْ تَقْدِيرِ ذَلِكَ. وَثانيها: أَنَّ قَوْلَهُمْ: (القَتْلُ أَنْفى لِلْقَتْلِ)، ظاهِرُهُ يَقْتَضِي كَوْنَ الشَّيْءِ سَبَبًا لِانْتِفاءِ نَفْسِهِ، وَهُوَ مُحالٌ، وَقَوْلَهُ: ﴿فِي ٱلۡقِصَاصِ حَيَوٰةٞ﴾ لَيْسَ كَذَلِكَ؛ لأَنّ المَذْكُورَ، هُوَ نَوْعٌ مِنَ القَتْلِ، وَهُوَ القِصاصُ، ثُمَّ ما جَعَلَهُ سَبَبًا لِمُطْلَقِ الحَياةِ؛ لأنَّه ذَكَرَ الحَياةَ مُنَكَّرَةً، بَلْ جَعَلَهُ سَبَبًا لِنَوْعٍ مِنْ أَنْواعِ الحَياةِ. وَثالِثُها: أَنَّ قَوْلَهُمُ القَتْلُ أَنْفَى لِلْقَتْلِ، فِيهِ تَكْرارٌ لِلَفْظِ القَتْلِ، وَلَيْسَ قَوْلُهُ: في القِصاصِ حَياةٌ كَذَلِكَ. وَرابِعُها: أَنَّ قَوْلَ القائِلِ: (القَتْلُ أَنْفى لِلْقَتْلِ)، لا يُفِيدُ إلّا الرَّدْعَ عَنِ القَتْلِ، وَقَوْلَهُ: ﴿فِي ٱلۡقِصَاصِ حَيَوٰةٞ﴾، يُفِيدُ الرَّدْعَ عَنِ القَتْلِ، وَعَنِ الجَرْحِ وَغَيْرِهِما، فَهُوَ أَجْمَعُ لِلْفَوائِدِ، وَخامِسُها: أَنَّ نَفْيَ القَتْلِ مَطْلُوبٌ، تَبَعًا مِنْ حَيْثُ إِنَّهُ يَتَضَمَّنُ حُصُولَ الحَياةِ، وَأَمّا الآيَةُ؛ فَإِنَّها دالَّةٌ على حُصُولِ الحَياةِ،

(1) الزّمخشريّ، الكشّاف: 1/222-223، والبيضاويّ، أنوار التّنزيل: 1/122، وابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 2/144.

(2) الرّازي، مفاتيح الغيب: 5/229-230، و القزويني، الإيضاح في علوم البلاغة: 3/181، والدّرويش، إعراب القرآن وبيانه: 1/254.

وَهُوَ مَقْصُودٌ أَصْلِيٌّ، فَكانَ هَذا أَوْلَى، وَسادِسُها: أَنَّ القَتْلَ ظُلْمًا قَتْلٌ، مَعَ أَنَّهُ لا يَكُونُ نافِيًا لِلْقَتْلِ، بَلْ هُوَ سَبَبٌ لِزِيادَةِ القَتْلِ، إِنَّما النّافي لِوُقُوعِ القَتْلِ، هُوَ القَتْلُ المَخْصُوصُ، وَهُوَ القِصاصُ، فَظاهِرُ قَوْلِهِمْ باطِلٌ، أَمّا الآيَةُ؛ فَهِيَ صَحِيحَةٌ ظاهِرًا وَتَقْدِيرًا، فَظَهَرَ التَّفاوُتُ بَيْنَ الآيَةِ وَبَيْنَ كَلامِ العَرَبِ.

السّرّ بتخصيص ندائهم بقوله: ﴿يَٰٓأُوْلِي ٱلۡأَلۡبَٰبِ﴾:

سرُّ ندائهم أنّ حكمة القصاص لا تظهر إلّا بتأمّل العقلاء

قوله تعالى: ﴿يَٰٓأُوْلِي ٱلۡأَلۡبَٰبِ﴾ هم "الّذين يعرفون المصالح من المفاسد، وخُصّ أربابُ العقول بالنّداء، للدّلالة على أنّ الّذي يفهم قيمة الحياة، ويحافظ عليها، هم العقلاء، كما أنّهم هم الّذين يفقهون سرّ هذا الحكم، وما اشتمل عليه من المصلحة والحكمة، فعليكم أن تستعملوا عقولكم في فهم دقائق الأحكام "[1]، فـ"ناداهم للتّأمّل في حكمة القصاص، من استبقاء الأرواح، وحفظ النّفوس"[2]؛ "لأنّهم هم الّذين ينظرون في العواقب، ويتحامَون ما فيه الضّرر الآجل، وأمّا من كان مصابًا بالحمق والطّيش والخفّة؛ فإنَّه لا ينظر عند سَوْرَة غضبه وغليان مراجل طيشه إلى عاقبة، ولا يفكِّر في أمر مستقبل"[3].

نكتة تعليل الحكم في جملة التذييل:

من أعمال التّقوى المحافظة على القصاص لحفظ الحياة

علَّل سبحانه هذا الحكم الّذي شرعه لعباده في ذيل الآية بقوله: ﴿لَعَلَّكُمۡ تَتَّقُونَ ١٧٩﴾، أي: تعملون عمل أهل التّقوى في المحافظة على القصاص والحكم به، والإذعان له، أو عن القصاص، فتكفُّوا عن القتل[4].

(1) الهرريّ، تفسير حدائق الرّوح والرّيحان: 3/133.
(2) البيضاوي، أنوار التّنزيل: 1/122.
(3) القنّوجيّ، فتح البيان: 1/357.
(4) البيضاوي، أنوار التّنزيل: 1/122.

بيان تخصيص لفظ التّقوى:

المُرادَ بقوله: ﴿لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾ نَفْسُ القَتْلِ بِخَوْفِ القِصاصِ، أو: أَنَّ المُرادَ هُوَ التّقْوَى مِنْ كُلِّ الوُجُوهِ، وَلَيْسَ في الآيَةِ تَخْصِيصٌ لِلتَّقْوَى، فَحَمْلُهُ على الكُلِّ أَوْلَى، وَمَعْلُومٌ أَنَّ اللّهَ تعالَى، إِنَّما كَتَبَ على العِبادِ الأُمُورَ الشّاقَّةَ مِنَ القِصاصِ وَغَيْرِهِ؛ لِأَجْلِ أَنْ يَتَّقُوا النّارَ، بِاجْتِنابِ المَعاصِي، وَيَكُفُّوا عَنْها، فَإِذا كانَ هَذا هُوَ المقصود الأصليّ، وجب حمل الكلام عليه[1].

لَيْسَ في الآيَةِ تَخْصِيصٌ لِلتَّقْوَى؛ فَحَمْلُهُ على الكُلِّ أَوْلَى

❁ الفُرُوقُ المُعْجَمِيّةُ:

اللُّبّ والعَقْل:

علّق اللّه تعالى الأحكام الّتي لا تدركها إلّا العقول الذّكيّة، بأولي الألباب، فخاطبهم بها دون من عداهم، ولذلك أورد قوله تعالى: ﴿وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّآ أُوْلُواْ ٱلْأَلْبَٰبِ﴾، بعد قوله: ﴿فَقَدْ أُوتِيَ خَيْرًا كَثِيرًا﴾ [البقرة: 269]"[2]، ولبُّ النّخل: قلبها، وخالصُ كُلِّ شيءٍ: لبُّهُ[3]، فآثر استعمال لفظ اللُّبِّ؛ لأنّه أراد خالص العقول المجرّدة الّتي تنظر إلى حكمة الأشياء، "يا أُولِي الألبابِ ذوي العقول الكاملة، ناداهم للتّأمّل في حكمة القصاص، من استبقاء الأرواح، وحفظ النّفوس"[4]، لأنّهم هم الّذين ينظرون في العواقب، ويتحامون ما فيه الضّرر الآجل"[5].

(أولوا الألباب هم أصحابُ العقول المجرّدة الّتي تنظر إلى حكمة الأشياء

(1) الرّازي، مفاتيح الغيب: 5/230.
(2) السّمين، عمدة الحفّاظ: (لبب).
(3) الجوهريّ، الصّحاح: (لبب).
(4) البيضاويّ، أنوار التّنزيل: 1/122.
(5) القنّوجي، فتح البيان: 1/357.

﴿كُتِبَ عَلَيۡكُمۡ إِذَا حَضَرَ أَحَدَكُمُ ٱلۡمَوۡتُ إِن تَرَكَ خَيۡرًا ٱلۡوَصِيَّةُ لِلۡوَٰلِدَيۡنِ وَٱلۡأَقۡرَبِينَ بِٱلۡمَعۡرُوفِۖ حَقًّا عَلَى ٱلۡمُتَّقِينَ ١٨٠﴾ [البقرة: 180]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِمَا قَبْلَها:

الوصيّة عند الموت راحةٌ للضّمير وحفظٌ لحقوق الأقربين

ذِكرُ حُكْم القصاص يوحي بالموت أو هو من مقدّمات وقوع الموت؛ لأنّ القصاص هو إعطاء الوليّ الحقَّ في أن يقتصَّ أو يعفُوَ، فيكون هذا الّذي يُقتصُّ منه، قد حضرته الوفاة، فكان له أن يوصي بما يوصيه؛ فناسب الحديث عن الوصيّة لمن حضرته الوفاة بعد الحديث عن القصاص.

شَرحُ المُفْرَدَاتِ:

1) ﴿حَضَرَ أَحَدَكُمُ ٱلۡمَوۡتُ﴾ "إذا دنا منه، وظهرت أماراته"[1]، وبذلك قال أهل التفسير، كالثّعلبيّ: "إذا حَضَرَ؛ جاء أَحَدَكُمُ المَوْتُ، يعني: أسباب الموت، وآثاره ومقدّماته، من العلل والأمراض، ولم يرد المعاينة"[2]، والفخر الرّازي: "المراد بحضور الموت مشارفته، وظهور أمارات وقوعه"[3]، والقرطبيّ: "معناه: إذا قارب الحضور، وإلّا فإذا حضر الموت لم يشهَد ميت، وهذا كقوله تعالى: ﴿فَإِذَا قَرَأۡتَ ٱلۡقُرۡءَانَ فَٱسۡتَعِذۡ بِٱللَّهِ﴾ [النحل: 98]، وكقوله: ﴿إِذَا طَلَّقۡتُمُ ٱلنِّسَآءَ فَطَلِّقُوهُنَّ﴾ [الطلاق: 1]، ومثله كثير"[4].

الخير الطّيّب الحلال، هو ما يحوزه الإنسان من المال

2) ﴿خَيۡرًا﴾: "الخير هو المال"[5]، و "لا خِلافَ أَنَّهُ المالُ هاهنا، والخَيْرُ يُرادُ بِهِ المالُ في كَثِيرٍ مِنَ القُرْآنِ"[6]، و"هو (فَعْل) لا

(1) الزّمخشريّ، الكشّاف: 1/223.
(2) الثّعلبيّ، الكشف والبيان: 1/223.
(3) الرّازيّ، التّفسير الكبير: 12 /223.
(4) القرطبيّ، الجامع لأحكام القرآن: 6/348.
(5) الزّمخشريّ، الكشّاف: 1/224.
(6) الرّازيّ، مفاتيح الغيب: 5/231.

(أفعل)، فلا يؤخذ منه أفضليّة الغنى"[1]، ولفظ " الخير في القرآن على وجوه: أحدها: المال؛ كقوله تعالى: ﴿إِن تَرَكَ خَيْرًا﴾، وقوله: ﴿مَآ أَنفَقْتُم مِّنْ خَيْرٍ﴾ [البقرة: 215]، ﴿وَمَا تُنفِقُواْ مِنْ خَيْرٍ﴾ [البقرة: 272] أي: المال، والثّاني: الإيمان، كقوله تعالى: ﴿وَلَوْ عَلِمَ ٱللَّهُ فِيهِمْ خَيْرًا﴾ [الأنفال: 23] أي: إيمانًا، وكقوله تعالى: ﴿وَلَآ أَقُولُ لِلَّذِينَ تَزْدَرِىٓ أَعْيُنُكُمْ لَن يُؤْتِيَهُمُ ٱللَّهُ خَيْرًا﴾ [هود: 31]، والثّالث الخير: الفضل، كقوله تعالى: ﴿وَأَنتَ خَيْرُ ٱلرَّٰحِمِينَ ﴿١١٨﴾﴾ [المؤمنون: 118]، والرّابع: العافية، كقوله: ﴿وَإِن يَمْسَسْكَ بِخَيْرٍ﴾ [الأنعام: 17]،﴿وَإِن يُرِدْكَ بِخَيْرٍ﴾ [يونس: 107]، والخامس: الأجر، كقوله: ﴿لَكُمْ فِيهَا خَيْرٌ﴾ [الحجّ: 36]، أي: أجرٌ[2].

۞ المَعْنى الإجْماليُّ:

وجوب الوصيّة عند حضور المنيّة

فُرِضَ عليكم - إذا حضر أحدَكم علاماتُ الموت وأسبابُه ومقدّماته - إن ترك مالًا كثيرًا، أن يوصي للوالدين ولذوي القرابة، مع مراعاة العدل؛ فلا يدع الفقير، ويوصي للغني، ولا يتجاوز الثّلث، ويعمل بما حَدَّه الشّرع، وهو ألا يزيد على ثلث المال، وفِعْلُ هذا حقٌّ مؤكّد على المتّقين الّذين يخافون اللّه[3].

يرى جمهورُ المفسرين أنّ هذه الآية منسوخة بآية المواريث، وبعضهم يرى أنها في الوالدين والأقربين غير الوارثين، مع أنه لم يدلَّ على التخصيص بذلك دليل، والأحسن في هذا أن يقال: إنّ هذه الوصية للوالدين والأقربين مجملة، ردّها اللّه تعالى إلى العرف الجاري. ثم إنّ اللّه تعالى قدّر للوالدين الوارثين وغيرهما من الأقارب الوارثين هذا المعروف في آيات المواريث، بعد أن كان مجملا، وبقي الحكم فيمن لم يرثوا من الوالدين الممنوعين من الإرث وغيرهما ممّن حُجب بشخص أو وصف، فإنّ الإنسان مأمورٌ بالوصية لهؤلاء وهم أحقُّ النّاس ببرّه، وهذا القول تتفق عليه الأمة،

---

(1) البسيلّي، التّقييد الكبير، ص: 284.

(2) السّمرقنديّ، بحر العلوم: 1/119.

(3) التّفسير الميسّر: ص27، والمختصر في تفسير القرآن الكريم: ص 27.

ويحصل به الجمع بين القولين المتقدِّمين، لأنَّ كلًّا من القائلين بهما كلّ منهم لحظ ملحظًا، واختلف المورد. فبهذا الجمع، يحصل الاتفاق، والجمع بين الآيات، لأنّه مهما أمكن الجمع كان أحسن من ادّعاء النسخ، الذي لم يدلَّ عليه دليل صحيح[1].

دلالة النّسخ في هذه الآية، وتأكيد أنّه لا وصيّة لوارث

وهذه الآية ممّا قيل: إنّها من المنسوخ، وأنَّها نُسخت بآية المواريث، ونحن لا نقول بالنّسخ، ولا نراه في تلك الآية الكريمة، فهي برّ خاصٌّ بالوالدين اللّذين قد لا يقوم الميراث بحاجتهما، وخاصَّة إذا كانا قد تقدَّمت بهما السّنّ، وخلا ظهرُهما من الابن الّذي كانا يأملانه، لكفالة شيخوختهما، وإذا كان ما فرضه اللّه سبحانه وتعالى لهما من ميراث، فيما ترك ابنهما، هو القدر الّذي قضت به الشّريعة، كنصيب مفروض لهما، فإنَّ ذلك لا يقضي بحرمانهما من برٍّ خاصٍّ، يجيء من قِبَل الابن، أو الابنة، وهما في حال الحياة"[2]، قال الزّجاج: " ومعنى ﴿حَضَرَ أَحَدَكُمُ ٱلْمَوْتُ﴾: ليس هو إنَّه كتب عليه، أن يوصي إذا حضره الموت؛ لأنّه إذا عاين الموت (يكون) في شغل عن الوصيّة وغيرها، ولكنّ المعنى: (كتب عليكم أن توصُّوا، وأنتم قادرون على الوَصيةِ)، فيقول الرّجل: (إذا حضرني الموت، أي: إذا أنا مِتُّ، فلفلان كذا)، على قدر - ما أمِرَ به - والّذي أمِرَ به أن يجتهد في العدل، في وقت الإمْهَال، فيوصي بالمعروف - كما قال اللّه ﷻ - لوالديه ولأقربيه، ومعنى بالمعروف: بالشّيءِ الّذي يعلم ذو التّمييز، أنّه لا جَنَفَ فيه ولا جَوْر، وقد قال قوم: إنّ المنسوخ من هذا، ما نسخته المواريث، وأمر الوصيّة في الثّلث باقٍ، وهذا القول ليس بشيّءٍ؛ لأنّ إجماع المسلمين، أنّ ثلث الرّجل له، إن شاءَ أن يوصي بشيّءٍ فله، وإن ترك؛ فجائز"[3].

(1) السّعديّ، تيسير الكريم الرحمن: ص85.

(2) عبد الكريم الخطيب، التّفسير القرآنّي للقرآن: 1/196.

(3) الزّجاج، معاني القرآن وإعرابه: 1/250.

❁ الإيْضاحُ اللُّغَويُّ والبَلاغِيُّ:

دلالة وجه تذكير الفعل المسند للوصيّة المؤنّثة:

طول الكلام بين الفعل ومسنده المؤنث سوَّغَ تذكير الفعل

ذُكّر الفعل في قوله تعالى: ﴿كُتِبَ عَلَيۡكُمۡ﴾؛ لأنَّه أراد المصدر: الإيصاء، أو أنْ يُوصَى، والوصيّةُ نائب فاعلٍ لـ﴿كُتِبَ﴾، وذُكِّر فعلُها للفاصل بَيْنَ الفِعْلِ والوَصِيَّةِ؛ لأنّ الكَلامَ لَمّا طالَ، كانَ الفاصِلُ بَيْنَ المُؤَنَّثِ والفِعْلِ، كالعِوَضِ مِنْ تاءِ التَّأْنِيثِ ولذلك ذكَّر الرّاجع في قوله: ﴿فَمَنۢ بَدَّلَهُۥ بَعۡدَ مَا سَمِعَهُۥ﴾[1].

سرّ تأخير نائب الفاعل:

تأخير نائب الفاعل للتشويق، والترقّب

سبب تأخير نائب الفاعل المتحدَّث عنه في قوله تعالى: ﴿كُتِبَ عَلَيۡكُمۡ إِذَا حَضَرَ أَحَدَكُمُ ٱلۡمَوۡتُ﴾ وذكره بعد طول كلام، يكون عادة للتّشويق، ولترقّب النّفس إلى معرفة ما فرضَهُ اللّه تعالى، عند دنوِّ الموت[2].

علّة حَذْفِ فاعلِ الفعل المبنيِّ للمفعول:

أستُغني بالمذكور عن ذكر الفاعل للعلم به، ولشدّة حضوره

حُذف الفاعل للعلم به؛ واستُغنى عن ذكره؛ لشدّة الحضور، قال الجمل في الفتوحات الإلهيّة: "قوله: ﴿كُتِبَ عَلَيۡكُمۡ﴾، كُتِبَ: مبنيٌّ للمفعول، وحذف الفاعل للعلم، وهو اللّه تعالى"[3].

دلالة (إذا) بين الشّرطيّة، والظّرفيّة:

بيان (إذا) وجوب الوصيّة عند ظهور علامات الوفاة

(إذا): إنْ كانت ظرفيَّة محضة، فغير مضمّنة معنى الشّرط، أي: (كُتِبَ عَلَيْكُمْ أَنْ يُوصِي أَحَدُكُمْ وَقْتَ حُضُورِ المَوْتِ له)، أو هي شرطيَّة ظرفيَّة مُتضمِّنة معنى الشّرط، فيكون قد اجتمع شرطان، وجواب كُلٍّ محذوفٌ، دلَّ عليه لفظُ الوصيَّة، وتقديرُ المحذوف فيهما: مضارعٌ مقرونٌ بلام الأمر، أي: (فَلْيُوصِ)[4].

---

(1) الزّمخشريّ، الكشّاف: 1/224، والرّازي، مفاتيح الغيب: 5/232.

(2) الرّوينيّ، من غريب بلاغة القرآن الكريم: ص: 516.

(3) الجمل، الفتوحات الإلهيّة: 1/216.

(4) الجمل، الفتوحات الإلهيّة: 1/217.

بلاغة المجاز في حضور الموت:

المراد بحضور الموت شهود أَمَاراتِه، وعلاماته وهو من استعمال السّبب كناية عن المسبّب

لَيْسَ المرادُ من قوله تعالى: ﴿حَضَرَ أَحَدَكُمُ ٱلْمَوْتُ﴾ مُعايَنَةَ المَوْتِ؛ لأنّ في ذَلِكَ الوَقْتِ يَكُونُ عاجِزًا عَنِ الإيصاءِ، بل المُرادَ -بحسب الأكثرين- حُضُورُ أمارَةِ المَوْتِ، وَهُوَ المَرَضُ المخُوفُ، وَذَلِكَ ظاهِرٌ في اللُّغَةِ، يُقالُ فِيمَنْ يُخافُ عَلَيْهِ المَوْتُ: (إنَّهُ قَدْ حَضَرَهُ المَوْتُ)، كَما يُقالُ لِمَنْ قارَبَ البَلَدَ: إنَّهُ قَدْ وَصَلَ[1]، فالّذي يحضر ليس الموت، بل علاماته كالأمراضِ والجراحات، الّتي يُظنُّ منها الموتُ عادةً[2]، ولعجزه في هذا الوقت عن الإيصاء، فُسّر بحضُور أسبابه، وظُهُور أماراته، من نحو العلل المخُوفة، والهرم البالغ، وقد شاع عند العرب استعمالُ السّبب كناية عن المسبّب[3].

وهو استعارة مكنيّة بتشبيه الموت بمن يأتي من الحضور بجامع الحركة

وفي قوله تعالى: ﴿إِذَا حَضَرَ أَحَدَكُمُ ٱلْمَوْتُ﴾ استعارة مكنيّة حيث شَبّه الموتَ بمَن يأتي من الحضور بجامع الحركة في كلٍّ، ثم حذف المشبّه به، ورمز إليه بشيءٍ من لوازمه وهو الحضور[4].

وجه تسمية المال ﴿خَيْرًا﴾:

المعتبر في الوصيّة المال المُتحَصَّل من وجوه الحلال

قوله تعالى: ﴿إِن تَرَكَ خَيْرًا﴾، بمعنى: ترك مالًا على الإطلاق، أو ترك مالًا كثيرًا، يمكن الوصيّة منه للأقربين من أولي الأرحام، ويبقى للورثة أنصبتهم الّتي شرعها اللّه لهم فرضًا أو تعصيبًا، وإنّما سمّي المال هنا خيرًا، تنبيهًا على معنًى لطيفٍ، وهو أنّ الّذي تحسُنُ الوصيَّةُ به، ما كان مجموعًا من المال من وجهٍ محمود[5]، أي: "ينبغي أنْ يكونَ حلالًا طيِّبًا"[6]؛ لأنّ اللّه تعالى لا يفرض وصيّة على مالٍ حرامٍ؛ لأنّه سيكون إقرارًا بحلّه.

---

(1) الرّازي، مفاتيح الغيب: 5/231.
(2) الصّاوي، حاشية الصّاويّ: 2/76.
(3) طنطاويّ، التّفسير الوسيط: 1/374.
(4) الإندونيسي، الشامل في بلاغة القرآن: 1/90.
(5) الطّيبي، فتوح الغيب: 3/220.
(6) الصّاوي، حاشية الصّاوي: 2/76.

دلالة عطف العامِّ على الخاصِّ:

وجه العطف العناية بالوالدين وتمييز حقِّهما

في قوله تعالى: ﴿لِلۡوَٰلِدَيۡنِ وَٱلۡأَقۡرَبِينَ﴾ عطفُ عامٍّ على الخاصِّ[1]؛ فالوالدان داخلان ضمن الأقربين، والمراد الاهتمام بالوالدين، وتمييز حقِّهما، ولذلك قدّمهما.

دلالة التعبير بلفظ الأقربين:

الأقربون ما سوى الوالدينِ من الأقارب

اخْتَلَفُوا في قَوْلِهِ: ﴿وَٱلۡأَقۡرَبِينَۖ﴾ مَنْ هُمْ؟ فَقالَ قائِلُونَ: هُمُ الأَوْلادُ، فَعَلَى هَذا أَمَرَ اللَّهُ تَعالَى بِالوَصِيَّةِ لِلْوالِدَيْنِ والأَوْلادِ، والقَوْلُ الثّاني: أَنَّ الـمُرادَ مِنَ الأَقْرَبِينَ مَنْ عَدا الوالِدَيْنِ، والقَوْلُ الثّالِثُ: أَنَّهُمْ جَمِيعُ القَراباتِ؛ مَنْ يَرِثُ مِنْهُمْ وَمَنْ لا يَرِثُ، والقَوْلُ الرّابِعُ: هُمْ مَنْ لا يَرِثُونَ مِنَ الرَّجُلِ مِنْ أَقارِبِهِ[2].

قصديّة التعبير بلفظ (المعروف):

ذكرُ (المعروف) ضبطٌ للمعيار الّذي تقوم عليه الوصيّة بعيدًا عن الهوى والمُضارّة

يحتمل قَوْلُهُ تعالى: ﴿بِٱلۡمَعۡرُوفِۖ﴾ أَنْ يكُون الـمُرادُ قدْر ما يُوصي به، وَيَحْتَمِلُ تَمْيِيزَ مَنْ يُوصَى لَهُ مِنَ الأَقْرَبِينَ، مِمَّنْ لا يُوصَى؛ لأَنّ كِلا الوَجْهَيْنِ يَدْخُلُ في المَعْرُوفِ، والغاية أَنْ يَسْلُكَ الطّرِيقَ الجَمِيلَةَ في الوصيّة الخالِيَة عَنْ شَوائِبِ الإيحاشِ؛ وبذا يكون لفظ (المعروف) ضبطًا للمعيار الّذي تقوم عليه الوصيّة، فلا يتحكّم فيها هوى، فتميل بجانب، وتخفّ بجانب، أو أن يراد بها الكيد لا البرّ[3].

نكتة التّأكيد بالمصدر ﴿حَقًّا﴾:

التّأكيد بالمصدر (حقًّا) زيادة في وجوب توكيد مضمون الجملة

"قَوْلُهُ تَعالَى: ﴿حَقًّا عَلَى ٱلۡمُتَّقِينَ﴾ زِيادَةٌ في تَوْكِيدِ وُجُوبِه، فَقَوْلُهُ: حَقًّا: مَصْدَرٌ مُؤَكَّدٌ، أَيْ: حَقَّ ذَلِكَ حَقًّا"[4]، فهو مؤكّد لمضمون الجملة، وهي (كُتِبَ عَلَيۡكُمۡ الوَصِيَّةُ)، فالـكَتْبُ، أي: الفَرْضُ: لا

(1) الصّاوي، حاشية الصّاوي: 2/76.

(2) الرّازي، مفاتيح الغيب: 5/232-233.

(3) عبد الكريم الخطيب، التّفسير القرآنّي للقرآن: 1/196.

(4) الرّازي، مفاتيح الغيب: 5 /233.

يكون إلّا حقًّا، فالجملة مشتملة على معنى هذا المصدر، فكان مؤكِّدًا لمضمونها(1).

دلالة تّخصيص الواجب بالمتّقين:

وجه التخصيص بالمتقين تشريفٌ لـهـم، وإغــراءٌ للنّاس؛ ليَحْذوا حَذْوَهم

ومع أنّ الواجبَ في قوله: ﴿حَقًّا عَلَى ٱلْمُتَّقِينَ﴾ لا يختصُّ بالمتّقين دون غيرهم، إلا أنّه تعالى خصّهم بالذّكر؛ تشريفًا للرّتبة، ليتسابق النّاس إليها، وللإشارة إلى أنّهم يُسارعون في تنفيذ أوامر اللّه تعالى، وينقادون انقيادًا مطلقًا له سبحانه، بإيثارهم التَّقْوَى، وَتَحَرّيها، وَجَعْلِها طَرِيقَةً وَمَذْهَبًا؛ فهذا إغراءٌ للنّاس؛ ليحذوا حذوهم(2).

(1) الجمل، الفتوحات الإلهيّة: 1/217.

(2) الرّويني، من غريب بلاغة القرآن الكريم، ص: 517.

المحتويات

